

مجموعۃ مصطفیٰ صادق الرافعی

وحی القلم

(الجزء الاول)

فَتْحُ الْقَلَمِ

« بيانُ كَأنَّه تنزِيلٌ من التَّنزِيلِ ، »

« أَوْ قَبَسٌ من نور الذِّكْرِ الحَكِيمِ »

سمعه باشا زغلول

كتبه

مصطفى مشادق الرافعي

الجزء الأول

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

فَاحْيِ الْقَلِمَ

مؤلفات الكاتب

- تاريخ آداب العرب .
- إعجاز القرآن .
- تحت راية القرآن .
- المعركة بين القديم والجديد .
- كتاب المساكين .
- حديث القمر
- رسائل الأحرار .
- السحاب الأحمر .
- أوراق الورد .
- ديوان الرافعي .
- ديوان النظرات .
- السفود .

حقوق الطبع محفظة

ضبطه وصممه وعلى حواشيه
محمد سعيد العريان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ
فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا بِكَافِرِينَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ اقْتَدِهْ »

دعوة الأستاذ الإمام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله
لمؤلف « وحى القلم » فى أول عهده بالأدب

وهدانا ربنا إلى ديننا الفاضل على سائر الأديان

هو ما نراه فيك ومنه ما نحن في قلبك لا أنا نحن نبأ ونشاء فليس ذلك
نأنا أنت يا معلم نبأ ولكن أنت من خلق الله ويا وادهم صنعك على صفا
القرآن واسأل الله أن يجعل لك من أناسك سيفاً يحفظ كما تطل وإن نبأك
فى الله وأخوتك فى الله وأنت وسلام و
محمد عبده
هـ نوان

نص كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي : زاده الله أدباً .
لله ما أثمر أدبك ، ولله ما ضمّن لي قلبك ، لا أقارضك ثناءً بثناء ،
فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء ، ولكني أعدك من خلص الأولياء ،
وأقدمُ صفك على صف الأقرباء . وأسألُ الله أن يجعلَ للحق من لسانك
سيفاً يحق الباطل ، وأن يُقيمك في الأواخر مقامَ حسن في الأوائل .
والسلام .

محمد عبده

• شوال سنة ١٣٢١ •

تصدير

بقلم

محمد سعيد العريان

«... ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، وبأنه محير ، ولكن الحسن كذلك ، وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك » .

الرافعى

هذا كتاب ، آخر كتاب أنشأه الرافعى ، ففيه النفحة الأخيرة من أنفاسه ، والنبضة الأخيرة من قلبه ، واليومضة الأخيرة من وجدانه ... أغرأيت الليل المطبق كيف تتروح نسائته الأخيرة بعبير الشجر وتندى أزهاره فى نسيم السحر ؟ ألا وإنه إلى ذلك أول كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته ، فقد عاش الرافعى ما عاش يكتب لنفسه وينشر لنفسه ، لا يعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يحيل فكرة فى رأسه أو لمحة فى خاطره أو حقيقة فى قلبه — إلى تعبير فى لسانه أو معنى فى ديوانه ، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدى معناه إلى قارئه كما أراد أو يغلق دونه ، فلما اتصل سببه بمجلة « الرسالة » * رأى لقارئه عليه حقاً أكثر من حق نفسه ، فكان أسلوبه الجديد الذى أنشأ به هذا الكتاب .

على أن هذا الكتاب — وشأنه ما قدمت — يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميزة بوضوح ، فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه ، فسينكشف له الرافعى فى سائر كتبه . والأديب الحق تستعين نفسه بطريقتها الخاصة فى كل زمان ومكان على اختلاف أحواله وما يحيط به .

* * *

* اتصل الرافعى بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنوات ، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة ، فلم يكن له قبلها صلة (صحافية) بجمريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ، وقد كان لذلك أثره فى أسلوبه من قبل ومن بعد إلى أسباب أخرى وانظر (فترة جمام) و (عمله فى الرسالة) و (نقلة اجتماعية) من كتابنا (حياة الرافعى) .

والرافعى عنده طائفة من قراء العربية أديب عَسِرُ الهضم ، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يُصدر عن طبع ، وعند بعضهم غامضٌ مُعَمَّى لا تَخْلص إليه النفس ، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوى الذوق البياني الخالص ، أديب الأمة العربية المسلمة ، يعبرُ بلسانها ، وينطق عن ذات نفسها ، فما يعيب عليه عائبٌ إلا من نقص في وسائله ، أو كدرة في طبعه ، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التى ينطق الرافعى بلسانها - حجاباً يباعد بينه وبين ما يقرأ روحاً ومعنى .

فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه ، فليستوثق من نفسه قبلُ ، ويستكمل وسائله ، فإن اجتمعت له أدواته من اللغة والذوق البياني ، وأحس إحساسَ النفس العربية المسلمة فيما تحبُّ وما تكره وما يخطر في أمانها - فتذوقه ذوق وحكمه حكم ، وإلا فليُسقط الرافعى من عداد من يقرأ لهم أو فليُسقط نفسه من عداد هذه الأمة .

* * *

على أنه إذا حق لنا أن نرتب كُتُبَ الرافعى ترتيباً يُعين قارئه على تذوقه أو دراسة أدبه فإن « وحى القلم » فى رأس هذا الثيت . هو آخر ما أنشأ ولكنه أول ما ينبغي أن يقرأ له ، وإن البدء به لتحقيق أن يعود قارئه أسلوبَ الرافعى فيسلسس له صعبه وينقاد .

* * *

ذلك مجمل الرأى فى أسلوب هذا الكتاب ، على أن قارئه قد يقف منه عند مواضع فليسأل نفسه : كيف تأتى للرافعى أن يعالج موضوعه على هذا الوجه ؟ وكيف تهيأ له ذلك المعنى ؟ وأين ومتى اجتمعت له هذه الخواطر ؟ وفى أى أحواله كان يكتب ؟ وعلى أى نسق كان يؤلف موضوعه ويجمع أشناته ويحشد خواطره ويصنف عبارته ؟ . . .

. . . ولست أرى من حق أن أطيل القول هنا فى هذا الكتاب وقد ذكرته فى كتاب « حياة الرافعى » ، وإن موضوع هذا الكتاب لهُوَ التحقيق بالدرس والعناية .

والكتاب كما يُشعر به عنوانه ، هو مجموعة فصول ومقالات وقصص ،

من وحى القلم وفيض الخاطر في ظروف متباينة ، وأكثره ما كتبه لمجلة الرسالة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ، ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة ، سببٌ أوحى إليه موضوعها وأملى عليه القول فيها ، ولقد كنت على أن أثبت عند رأس كل موضوع منها باعته وحادثته ، لعل من ذلك نوراً يكشف عن معنى مغلق أو يوضح فكرة يكتنفها بعض الغموض ، ولكن بعض الضرورات قد ألزمتني أن أقصد في البيان هنا اكتفاء بما يبتث في موضعه وأشرت إليه في هامش موضوعه .

ولقد يقرأ القارئ بعض القصص في هذا الكتاب ، فيسأل عن بعضها : أهذا حقٌ يرويه أم باطل يدعيه ؟ ويسأل عند بعضها : أهذا مما ينقل من ماثورات الأدب والتاريخ القديم ، أم إنشاء مما يبدعه الخيال وتوشيه الصنعة ؟ ثم يقرأ رأى الرافعي في القصة وكتاب القصة* فيقول : أين رأيه من حقيقته ؟ وأين عمله من دعواه ؟ ولهذا القصص حديث طويل ، ولكن حسبي أن أقول إن الرافعي — وإن هجر القصة ولم يحفل بها زماناً — كانت القصة في أدبه وفي طبعه .

* * *

وكما قلت من قبل : إن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعي الأدبية متميزةً بوضوح في أسلوبه ، كذلك أقول هنا إنه يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح في موضوعه ، ففيه خلُقه ودينه ، وفيه شبابه وعاطفته ، وفيه تزمته ووقاره ، وفيه فكاهته ومرحُه ، وفيه غضبه وسخطه ، فمن شاء أن يعرف الرافعي عرفانَ الرأي والفكرة والمعاشرة فليعرفه في هذا الكتاب .

* * *

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فقد خلفه المؤلف رحمه الله — على مكتبه قصاصات من صحف وصفحات من كتب ومجلات ، فعاد كتاباً بين دفتين ، وقد رتبتُ فصوله على ما بدا لي ، إذ لم أجد فيما خلف المؤلف من أوراق ما يشير إلى رأيه في ترتيبه ، ولكنه جمع أكثر المواد في أغلاف وأودعه درج مكتبه

إلى ميعاد ، ثم عاجلته منيته . وقد جمعتُ ما قدرت عليه بعد ، فأضفته إلى ما جمَعَ المؤلف ، ورتبت كل ذلك وهيأته للطبعة فإن كان قد فاتني شيء مما ينبغي إضافته إلى ذلك الجزء ، أوقصر إلى الجهد عن ترتيبه على الوجه الأمثل ، فعدرة إلى قارئه .

وللمؤلف في ذيل بعض الصحائف تعليقات ، ولي تعليقات غيرها اقتضاها مكانها وموضوعها ، فإذا رأى القارئ رمزَ التعليق في الصلب وفي الهامش نجماً أو نجومًا (*) (* *) فهو مما علّقته ، وإن كان الرمز رقماً فهو مما علّقه المؤلف — رحمه الله — لبيان معنى أو تفسير كلمة .

وإن في الكتاب لفناً وفكراً وبياناً ، وإن فيه لمواضع تقتضي البسط والتطويل في الحديث ، وإن فيه لمذاهبَ في الإنشاء حقيقةً بالدرس والنظر ، ولكني أجتزئ من ذلك كله بالعرض دون البيان ، لأدع لقارئه أن يقول ما يشاء ويحكم ، ثم لأفسح المكان لمنشئ الكتاب أن يتحدث عن مذهبه في البيان وهو عليه أقدر .

محمد سعيد العريان

صدر الكتاب

البيان

لا وجودَ للمقالةِ البَيانيةِ إلا في المعاني التي اشتملتُ عليها يُقيّمها الكاتبُ على حُدودٍ ويديرها على طريقةٍ، مُصَيِّباً بالفاظه مَوَاقِعَ الشعور، مُثِيراً بهامِساتٍ من الخيال، آخِذاً بوزنٍ تاركاً بوزنٍ لتأخذَ النفسُ كما يشاء وتتركُ .

ونقلُ حقائقِ الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابةِ أو الشعرِ ، هو انتزاعُها من الحياةِ في أسلوبٍ وإظهارُها للحياةِ في أسلوبٍ آخرَ يكون أوفى وأدقُّ وأجملُ ، لوضعه كلُّ شيءٍ في خاصٍّ ومعناه وكشفه حقائقِ الدنيا كَشْفَةً تحتَ ظاهرها الملتبسِ . وتلكَ هي الصنعةُ الفنيةُ الكاملةُ ؛ تَسْتَدْرِكُ النقصَ فتُثَمِّمُهُ ، وتتناولُ السرَّ فتُعلنُهُ ، وتلمِسُ المقيّدَ فتُطْلِقُهُ ، وتأخذُ المطلقَ فتحدُّهُ ، وتكشفُ الجمالَ فتُظهِره ، وترفعُ الحياةَ درجةً في المعنى وتجعلُ الكلامَ كأنه وجدَ لنفسه عقلاً يعيش به .

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتبُ ؛ ولكنه أداةٌ في يدِ القوةِ المصورةِ لهذا الوجودِ ، تُصوِّرُ به شيئاً من أعمالها فناً من التصويرِ . الحكمةُ الغامضةُ تريده على التفسيرِ ، تفسيرِ الحقيقةِ ؛ والخطأُ الظاهرُ يريده على التبيينِ ، تبيينِ الصوابِ ؛ والفوضى الماثجةُ تسألهُ الإقرارَ . إقرارَ تناسبِ ؛ وما وراءَ الحياةِ ، يتخذُ من فكره صلةً بالحياةِ ؛ والدنيا كلها تنتقلُ فيه مَرَحَلَةً نفسيةً لتعلو به أو تنزل . ومن ذلك لا يُخلَقُ المُسلِّمُ أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية ، وله في قلبه الرقيقِ مواضعٌ مُهيّأةٌ للاحتراقِ تنفذُ إليها الأشعةُ الروحانيةُ وتتساقطُ منها بالمعاني .

وإذا اختيرَ الكاتبُ لرسالةٍ ما ، شعر بقوةِ تفرضُ نفسها عليه ؛ منها مستنَادُ رأيهِ ، ومنها إقامةُ برهانه ، ومنها جمالُ ما يأتي به ، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجودٌ وُلدَ بها وجودٌ آخرٌ ؛ ومن ثمَّ يُصْبِحُ عالِماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجِّهُ ؛ ويُلقَى فيه مثلُ السرِّ الذي يُلْقَى في الشجرةِ لإخراجِ ثمرها بعملٍ طبيعيٍّ يَرَى سهلاً كلَّ السهل حينَ يَمُ ، ولكنه صعبٌ أيُّ صعبٍ حينَ يَسْبِداً .

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة المُفْرَدَة في ذهنه معنى تاماً ، وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة ، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة ، وهي تخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ، وتدخله في حكم أشياء غير ها لتحكم عليه ؛ وهي هي التي تميز طريقته وأسلوبه ؛ وكما خلق الكون من الإشعاع تضع الإشعاع في بيانه^(١).

ولابد من البيان في الطباع الملهمة ليتسع به التصرف ، إذ الحقائق أسمى وأدق من أن تُعرفَ بيقين الحاسة أو تنحصر في إدراكها . فلو حدثت الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبس الملائكة بهذا اللحم والدم أبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثم فكثرة الصور البيانية الجميلة ، للحقيقة الجميلة ، هي كل ما يمكن أويستسنى من طريقة تعريفها للإنسانية .

وأى بيان في خضرة الربيع عند الحيوان من آكل العشب ، لإبيان الصورة الواحدة في معدته ؟ غير أن صور الربيع في البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ، ويكاد الندى ينضرها حسناً كما ينضرها .

ولهذا سبقي كل حقيقة من الحقائق الكبرى — كالإيمان والجمال ، والحب ، والخير والحق — سبقي محتاجة في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة .

* * *

وفي الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى ألفاظهم ومعانيهم فناً عقلياً غايته صحة الأداء وسلامة النسق ، فيكون البيان في كلامهم على ندره كوخز الخضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا . ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة . أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجرى به ويدف ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجرى . ولو كتب القريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا في معان وألفاظ ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر يطالعك أنه هنا في جلال وجمال وفي صور وألوان .

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التي صنع منها الكون .

ودَوْرَةُ العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورةُ خَلْقٍ وتركيب ، تخرج بها الألفاظُ أكبرَ مما هي ، كأنها شَبَّتْ في نفسه شباباً ؛ وأقوى مما هي ، كأنما كَسَبَتْ من روحه قوة ؛ وأدلَّ مما هي ، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة . فالكاتبُ العلميُّ تمرُّ اللغةُ منه في ذاكرةٍ وتخرج كما دخلت عليها طابعٌ واضعياً ؛ ولكنها من الكاتب البياني تمرُّ في مصنعٍ وتخرج عليها طابعُهُ هو . أولئك أراحوا اللغةَ عن مرتبة سامية ، وهؤلاء عكسوا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شيء إلا الفكرُ والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأى .

وللكتابة التامة المفيدة مثلُ الوجهين في خلقِ الناس : ففي كل الوجه تركيبٌ تامٌ تقوم به منفعةُ الحياة ، ولكن الوجهَ المنفردَ يجمع إلى تمام الخلق جمالَ الخلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذَّةَ الحياة ، وهو لذلك ، وبذلك ، يُرى ويؤثر ويُعشَق .

وربما عابوا السموَ الأدبيَّ بأنه قليل ، ولكنَّ الخيرَ كذلك ؛ وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه مُحيرٌ ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك .

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتبُ البيانيُّ فلا تنتظر الأدب .

مصطفى صادق الرافعي

اليامتان

جاء في تاريخ الواقدي «أن (المُعَرِّقِسَ) عظيم القبط في مصر ، زوج بنته (أرمانوسة) من (قسطنطين هيرقل) وجهزها بأموالها حشماً لتسير إليه ، حتى يبتنى عليها في مدينة قيساريّة (١) ؛ فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها . . . وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً ، وقاتل من بها ، وقتل منهم زهاء ألف فارس ، وانهمز من بقي إلى المقوقس ، وأخذت أرمانوسة وجميع ما لها ، وأخذ كل ما كان للبط في بلبيس . فأحب عمرو ملاطفة المقوقس ، فسير إليه ابنته مكرمة في جميع مالها ، (مع قيس بن أبي العاص السهمي) ؛ فسرّ بقدمها . . . » .

* * *

هذا ما أثبتته الواقدي في روايته ، ولم يكن معنياً إلا بأخبار المغيرة والفتوح ، فكان يقتصر عليها في الرواية ؛ أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن :

كانت لأرمانوسة وصيفة مؤلدة تسمى (مارية) ، ذات جمال يوناني أتمته مصر ومسحته بسحرها ، فزاد جمالها على أن يكون مصرياً ، ونقص الجمال اليوناني أن يكونه ؛ فهو أجمل منهما ، ولصبر طبيعة خاصة في الحسن ؛ فهي قد تهمل شيئاً في جمال نساها أو تشعث منه ، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة ؛ ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبي أفرغت فيه سحرها إفراغا ، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه ، وجعلته آيتها في المقابلة بينه في طابعه المصري ، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنة ما كانت ؛ تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى .

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل ، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته ، وهو كان والياً وبطريركاً على مصر من قبل هيرقل ؛ وكان من

(١) بلدة بفلسطين . وبلبيس هي المدينة المروفة بمحافظة الشرقية بمصر .

عجائب صنَّع الله أن الفتح الإسلامي جاء في عهده ، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القُفل القبطي ، فلم تكن أبوابهم تُدافع إلا بمقدار ما تُدفع ، تُقاتل شيئاً من قتال غير كبير ، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تُدْعى إلا للتخبط ، ووراءها نحو مائة ألف رومي يقاتلون المعجزة الإسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت في أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزدوا آخر ما زادوا على اثني عشر ألفاً . كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم — ولم تكن المدافع معروفة — ولكن روح الإسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثنا عشر ألف مدفع يقابلها ، لا يقاتلون بقوة الإنسان ، بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الإسلام مادة منفجرة تشبه الديناميت قبل أن يُعرف الديناميت !

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس ، جرعت مارية جزعاً شديداً ؛ إذ كان الروم قد أرحفوا أن هؤلاء العرب قومٌ جِيعٌ يَنْفُضُهُم الجذبُ على البلاد نفْضَ الرمالِ على الأعين في الريح العاصف ؛ وأنهم جرّادٌ إنساني لا يغزو إلا لبطنه ؛ وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها ؛ وأن النساء عندهم كالدواب يرتبطن على خسْف ؛ وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء ، ثقلت مطاعمهم وحققت أمانتهم ؛ وأن قائدَهم عمرو بن العاص كان جزّاراً في الجاهلية ، فما تدّعه روح الجزّار ولا طبيعته ؛ وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذّاذهم ، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش !

وتوهّمت مارية أوهامتها ، وكانت شاعرة قد درست هي وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم ، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقّدٌ يشعّرها كل عاطفة أكبر مما هي ، ويضاعف الأشياء في نفسها ، وينزعُ إلى طبيعته المؤنثة ، فيبالغ في تهويل الحزن خاصة ، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم . . .

ومن ذلك استطير قلبُ مارية وأفرعتها الوساس ، فجعلت تندب نفسها ، وصنعت في ذلك شعراً هذه ترجمته :

جاءك أربعة آلاف جزّار أيتها الشاة المسكينة !
ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تُذبحي !

جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة!
 ستموتين أربعة آلاف مينة قبل الموت!
 قوئي يا إلهي ، لأعمد في صديري سيكينا يردني عن الجزارين !
 يا إلهي ، قو هذه العذراء ، لتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربي ... !

* * *

وذهبت تتلو شعرها على أرمافوسة في صوت حزين يتوجع ؛ فضحكت
 هذه وقالت : أنت واهمة يا مارية ؛ أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيهم بنت
 (أنصنا)^(١) ، فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب ؟ لقد
 أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي ؛
 لأنها أنفذت إليه دسيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع
 في العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيهم أظهر من السحابة في سمائها ، وأنهم
 جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهواتها ؛
 وإذا سلكوا السيف سلكوه بقانون ، وإذا أعمدوه أعمدوه بقانون . وقالت عن النساء :
 لأن تخاف المرأة على عفتها من أيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب
 هذا النبي ؛ فإنهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضمير
 الإسلامي في الرجل منهم — يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم
 بمخالفته .

وقال أبي : إنهم لا يغيرون على الأمم ، ولا يجاربونها حرب الملوك ؛ وإنما
 تلك طبيعة الحركة للشرعة الجديدة ، تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والأخلاق ،
 قوية في ظاهرها وباطنها ، فن وراء أسلحتهم أخلاقهم ؛ وبذلك تكون أسلحتهم
 نفسها ذات أخلاق !

وقال أبي : لها إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصاة
 الحية في الشجرة الجرداء ؛ طبيعة تعمل في طبيعة ؛ فليس يمضي غير بعيد
 حتى تنحصر الدنيا وترى ظلالها ؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تشبه في

(١) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت من (أنصنا)
 بالوجه القبلي .

عملها الظاهر المُلتَقَى ما يُعَدُّ كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر . . .
شَتَانَ بين عمل وعمل ، وإن كان لونٌ يشبه لوننا . . .

فاستروحت ماريةً واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضيّرَ علينا
إذا فتحوا البلد ، ولا يكون ما نستَضِرُّ به ؟ -

قالت أرمانوسة : لاضيرَ يا مارية ، ولا يكون إلا ما نُحِبُّ لأنفسنا ؛
فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم ، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص
عليه ، والحاجة إلى حلاله وحرامه ، فهم القُساةُ الغِلاظُ المُستَكِلِمون كالبهايم ؛
ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتميز بين حلاله وحرامه ، فهم
الإنسانيُّون الرُحماء المتعطفون .

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسة ، إن هذا لعجيب ! فقد مات سقراط
وأفلاطونُ وأرسطو وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدّبوا
بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها . . . ! فلم يخرجوا للدنيا جماعةً تامةً
الإنسانية ، فضلا عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين ؛ فكيف استطاع
نبيُّهم أن يُخرجَ هذه الأمةَ وهم يقولون إنه كان أميًّا ؟ أفتُسخرُ الحقيقةُ من
كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير ؛ فتدعُهم يعملون عبثًا أو
كالعبث ، ثم تستسلم للرجل الأميُّ الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرُس ولم
يتعلم ؟

قالت أرمانوسة : إن العلماء بهيئةِ السماء وأجرامها وحسابِ أفلاكها ، ليسوا
هم الذين يَشْقُونُ الفجر ويُطلعون الشمس ؛ وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية
بفطرتها يكون عملُها في الحياة إيجادَ الأفكار العمليةِ الصحيحةِ التي يسير بها العالم ،
وقد درستُ المسيحَ وعمله وزمنه ، فكان طيلةَ عمره يحاول أن يوجِدَ هذه الأمةَ ،
غير أنه أوجدها مُصَغَّرَةً في نفسه وحوارِ يتيه ، وكان عمله كالبلد في تحقيق الشيء
العسير ؛ حَسْبُهُ أن يُثَبِّتَ معنى الإيمان فيه .

وظهورُ الحقيقة من هذا الرجل الأميُّ هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفسها ؛ وبرهانها
القاطعُ أنها بذلك في مظهرها الإلهي . والعجيبُ يا مارية ، أن هذا النبي قد
خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه ، فكان في ذلك كالمسيح ، غير أن

المسيح انتهى عند ذلك ؛ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع ؛ لا يرتدُّ ولا يتغير ؛ وهاجر من بلده ، فكان ذلك أول خطأ الحقيقة التي أعلنت أنها ستتمشى في الدنيا ، وقد أخذت من يومئذ تمشى ^(١) . ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لها جرت به كذلك ، فهذا فرق آخر بينهما . والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هي عبادة القلب ، أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاث عبادات يشدُّ بعضها بعضاً : إحداها للأعضاء ، والثانية للقلب ، والثالثة للنفس ؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط ؛ وعبادة القلب طهارته وحبّه الخير ؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل الإنسانية . وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا ؛ فلن تُقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجائنين وأسعدهما .

قالت مارية : إن هذ والله لسِرٌّ إلهيُّ يدلُّ على نفسه ؛ فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت إلا في أحوال قليلة ، تكون طبيعة الإنسان فيها عياء : كالغضب الأعمى ، والحب الأعمى ، والتكبر الأعمى ؛ فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية كما قلت منبثة هذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية — فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الإنسان بسمو ذاتيته ، وهذه هي نهاية النهايات في الفلسفة والحكمة .

قالت أرمافوسة : وما بعد ذلك دليل على أنك تهيتن أن تكوني مسلمة يا مارية !

فاستضحكتما معاً وقالت مارية : إنما أقيت كلاماً جاريتك فيه بحسبه ، فأنا وأنتِ فكرتان لامسلتان .

• • •

قال الراوى : وانهزم الروم عن بلبيس ، وارتدوا إلى المقوقس في (منسف) ، وكان وحى أرمافوسة في مارية مدة الحصار — وهي نحو الشهر — كأنه فكر سكن فكرًا وتمدد فيه ؛ فقد مر ذلك الكلام بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة ، فصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه ، وأنشأ لها أخيلة

(١) انظر المقالات النبوية في صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب .

تُجَادِلُهَا وتَدْفَعُهَا إِلَى التَّسْلِيمِ بِالصَّحِيحِ لِأَنَّهُ صَحِيحٌ ، وَالْمُؤَكَّدِ لِأَنَّهُ مُؤَكَّدٌ .

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْكَلَامِ إِذَا أَثَّرَ فِي النَّفْسِ ، أَنْ يَنْتَظِمَ فِي مِثْلِ الْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَلْقَى لِلْحِفْظِ ؛ فَكَانَ كَلَامُ أَرْمَانُوسَةَ فِي عَقْلِ مَارِيَةَ هَكَذَا : « الْمَسِيحُ بَدَأَ وَلِلْبَدَأِ تَكْمِلَةٌ ، مَا مِنْ ذَلِكَ بَدْءٌ . لَا تَكُونُ خِدْمَةُ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَّا بِذَاتٍ عَالِيَةٍ لَا تَبَالِي غَيْرَ سَمَوِّهَا . الْأُمَةُ الَّتِي تَبْذُلُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَسْتَمْسِكُ بِالْحَيَاةِ جُبْنًا وَحِرْصًا لَا تَأْخُذُ شَيْئًا ، وَالَّتِي تَبْذُلُ أَرْوَاحَهَا فَقَطْ تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ » .

وَجَعَلَتْ هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَمْثَالُهَا تُعَرِّبُ هَذَا الْعَقْلَ الْيُونَانِي ؛ فَلَمَّا أَرَادَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ تَوْجِيهَ أَرْمَانُوسَةَ إِلَى أَبِيهَا ، وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى مَارِيَةَ قَالَتْ لَهَا : لَا يَجْمَلُ بَيْنَ كَانَتْ مِثْلَكَ فِي شَرَفِهَا وَعَقْلِهَا أَنْ تَكُونَ كَالْأَخِيذَةِ ، تَتَوَجَّهُ حَيْثُ يُسَارُ بِهَا ، وَالرَّأْيُ أَنْ تَبْدِئَ هَذَا الْقَائِدَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ ؛ فَأَرْسَلِي إِلَيْهِ فَأَعْلِمِيهِ أَنَّكَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَبِيكَ ، وَأَسْأَلِيهِ أَنْ يُصَحِّبَكَ بَعْضَ رِجَالِهِ ؛ فَتَكُونِ الْآمِرَةَ حَتَّى فِي الْأَسْرِ ، وَتَصْنَعِي صُنْعَ بَنَاتِ الْمُلُوكِ !

قَالَتْ أَرْمَانُوسَةُ : فَلَا أَجِدُ لَذَلِكَ خَيْرًا مِنْكَ فِي لِسَانِكَ وَدَهَائِكَ ؛ فَادْهَبِي إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِي ، وَسَيَصْحَبُكَ الرَّاهِبُ (شَطَا) ، وَخُذْنِي مَعَكَ كَوَكْبَةٍ مِنْ فَرَسَانَا .

• • •

قَالَتْ مَارِيَةُ وَهِيَ تَقْصُ عَلَى سَيِّدَتِهَا : لَقَدْ أَدَيْتُ إِلَيْهِ رِسَالَتَكَ فَقَالَ : كَيْفَ ظَنُّهَا بَنَا ؟ قُلْتُ : ظَنُّهَا بِفَعْلِ رَجُلٍ كَرِيمٍ بِأَمْرِهِ اثْنَانِ : كَرْمُهُ ، وَدِينُهُ . فَقَالَ : أَبْلَغِيهَا أَنَّ نَبِيَنَا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : « اسْتَوْصُوا بِالْقَبْطِ خَيْرًا فَإِنْ لَمْ فِيكُمْ صِهْرًا وَذِمَّةً » . وَأَعْلَمِيهَا أَنَّ لِسَانًا عَلَى غَارَةٍ نَغِيرُهَا ، بَلْ عَلَى نَفَوسٍ نَغِيرُهَا .

قَالَتْ : فَصَفِيهِ لِي يَا مَارِيَةَ .

قَالَتْ : كَانَ آتِيًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ فَرَسَانَةٍ عَلَى خَيْلِهِمُ الْعِرَابِ ، كَانَهَا شَيَاطِينُ تَحْمِلُ شَيَاطِينَ مِنْ جَنْسٍ آخَرَ ؛ فَلَمَّا صَارَ بِحَيْثُ أَتَيْتُهُ أَوْمًا إِلَيْهِ التَّرْجُمَانُ - وَهُوَ (وَرْدَانُ) مُوَلَّاهُ - فَظَنَرْتُ ، فَإِذَا هُوَ عَلَى فَرَسٍ كَهْمِيَّتٍ

أَحْمَ^(١) لم يخلص للأسود ولا للأحمر ، طويل العنق مُشْرِف له ذُوَابَةٌ
أعلى ناصيته كطُرَّةِ المرأة ، ذِبَالٌ يتبختر بفارسه ويَحْمَحِمُ كأنه يريد أن
يتكلم ، مُطَهَّمٌ . . .

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت : ما سألتكِ صفة جوده . . .
قالت مارية : أما سلاحه . . .

قالت : ولا سلاحه ، صفيه كيف رأيته (هو) !
قالت : رأيته قصير القامة علامة قوة وصلابة ، وافر الهامة علامة عقل
وإرادة ، أدعج العينين . . .

فضحكت أرمانوسة وقالت : علامة ماذا ؟ . . .
. . . أبلج يُشْرِقُ وجهه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء ، أيّداً اجتمعت
فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً . . . داهية كُتِبَ دَهاؤه على جبهته
العريضة يجعل فيها معنى يأخذ من يراه ، وكلما حاولت أن أتفرّس في وجهه
رأيت وجهه لا يُفسّره إلا تكرر النظر إليه . . .

وتضرّجت وحتتها ، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عيني أرمانوسة . . .
وقالت هذه : كذلك كلُّ لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها . . .
فغضت مارية من طَرَفِهَا وقالت : هو والله ما وصفت ، وإني ما ملأتُ
عيني منه ، وقد كدت أنكر أنه إنسان لما اعتراني من هيئته . . .
قالت أرمانوسة : من هيئته أم عينيهِ الدعجاوَيْنِ ؟ . . .

* * *

ورجعت بنتُ المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس) ، فلما كانوا في الطريق
وجبت الظُّهر ، فترل قيس يُصَلِّيَ بمن معه واقتناتان تنظران ، فلما صاحوا :
« الله أكبر . . . ! » ارتعش قلبُ مارية ، وسألت الراهبَ (شطا) : ماذا يقولون ؟ قال :
إن هذه كلمةٌ يخلطون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمنَ أنهم الساعة
في وقت ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر

(١) الكيت الأحمر : هو الأحمر الضارب للسود ، لا يخلص لأحد اللونين ، فإذا كان أحمر
خالصاً قيل فيه : كيت مدى (بتشديد الميم الثانية وفتحها) .

من الوجود ؛ فلماذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت ،
فذلك هو دخولهم في الصلاة ؛ كأنهم يَمَحُون الدنيا من النفس ساعةً
أو بعض ساعة ؛ وَمَحَوْهَا من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها ؛
انظري ، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمة قد سَحَرَتْهم سِحْرًا فهم لا يلتفتون في
صلاتهم إلى شيء ؛ وقد شملتهم السكينة ، وَرَجَعُوا غَيْرَ مَنْ كانوا ، وخشعوا
خشوع أعظم الفلاسفة في تأملهم ؟^(١) .

قالت مارية : ما أجمل هذه الفطرة الفلسفية ! لقد تعببت الكتب
لتجعل أهل الدنيا يستقرون ساعة في سكينة الله عليهم فما أفلحت ، وجاءت
الكنيسة فتهوأت على المصلين بالزخارف والصُّور والتماثيل والألوان ، لتُوحِي
إلى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الديني ، وهي
بذلك تحتال في نقلهم من جوهم إلى جوها ؛ فكانت كساقى الخمر ؛ إن لم يُعطك
الخمر عَجَزَ عن إعطائك النشوة . ومن ذا الذي يستطيع أن يحمل معه كنيسةً
على جوادٍ أو حمار ؟

قالت أرمافوسة : نعم إن الكنيسة كالحديقة ؛ هي حديقة في مكانها ، وقلما
تُوحى شيئاً إلا في موضعها ؛ فالكنيسة هي الجدران الأربعة ، أما هؤلاء فعبدهم
بين جهات الأرض الأربع .

قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا
بها وانغمسوا فيها — فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ .

قالت مارية : وهل تفتَح عليهم الدنيا ، وهل لهم قُود كثيرون كعمرو... ؟
قال : كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يُحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها
من الظلم والكفر والرييلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة
الموج في المد المرتفع ؛ ليس في داخلها إلا أنفُسٌ مندفعة إلى الخارج عنها ؛
ثم يقاثلون بهذه الطبيعة أمماً ليس في الداخل منها إلا النفوس المستعدة أن تهرب
إلى الداخل . . . !

قالت مارية : والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمرو

* * *

(١) انظر مقاله (حقيقة المسلم) في الجزء الثاني .

وانفتل قيسٌ من الصلاة ، وأقبل يترجّل ، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع ؛ وكانت ما تزال فى أحلام قلبها ؛ وكانت من الحلم فى عالم أخذ يتلاشى إلا من عمرو وما يتصل بعمرو . وفى هذه الحياة أحوالٌ « ثلاث » يغيب فيها الكونُ بحقائقه : فيغيبُ عن السكران ، والمجنون ، والنائم ؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقة واحدة تتمثل فى إنسان محبوب .

وقالت مارية للراهب شطا : سألته : ما أرببهم من هذه الحرب ، وهل فى سياستهم أن يكون القائدُ الذى يفتح بلدًا حاكمًا على هذا البلد . . . ؟
قال قيس : حسبك أن تعلمى أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً فى تحقيق كلمة الله ، أما حظُّ نفسه فهو فى غير هذه الدنيا .

وترجمَ الراهبُ كلامه هكذا : أما الفاتحُ فهو فى الأكثر الحاكم المقيم ، الحربُ فهى عندنا الفكرةُ وأما المصلحةُ تريد أن تضربَ فى الأرض وتعمل ، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا ؛ وبهذا تكون النفسُ أكبر من غرائزها ، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتها وشبهواتها كالطفل بين يدي رجل ، فيهما قوةٌ ضبطه وتصريفه . ولو كان فى عقيدتنا أن ثواب أعمالنا فى الدنيا ، لانعكس الأمر .

قالت مارية : فسألته : كيف يصنعُ (عمرو) بهذه القليلة التى معه والرومُ لا يحصى عددهم ؛ فإذا أخفقَ (عمرو) فمن عسى أن يستبدلوه منه ؟ وهل هو أكبرُ قوادهم ، أو فيهم أكبرُ منه ؟

قال الراوى : ولكن فرسٌ قيسٌ تمطرٌ وأسرع فى لحاقِ الخيل على المقدمة كأنه يقول : لسنّا فى هذا . . .

وفُتحت مصرُ صلحاً بين عمرو والقيبط ، وولّى الرومُ مُصعدين إلى الإسكندرية ، وكانت مارية فى ذلك تسترقى أخبارَ الفاتحِ تطوفُ منها على أطلال من شخص بعيد ؛ وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حبه أن يأخذها ، وجعلت تدوى وشحبت لونها وبدأت تنظر

النظرةَ النَّاتِهةَ : وبأن عليها أثرُ الرُّوحِ الظَّمْأى ؛ وحاطها اليأسُ بجوهِ الذى يُحرقُ الدم ؛ وبَدَتْ مجروحةَ المعانى ؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العَدُوَّان : شعورُ أنها عاشقة ، وشعورُ أنها يائسة !

ورقَّتْ لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضاً تتعلّق فتى رومانياً ، فسَهَرَتَا ليلةً تُدِيران الرأى فى رسالة تحملها ماريةٌ من قبلها إلى عمروكى تصلّ إليه ، فإذا وصلتْ بلَّغَتْ بعينها رسالةَ نفسها . . .

واستقرَّ الأمرُ أن تكون المسألةُ عن ماريةَ القبطية وخبرها ونسلها ومايتعلّقُ بها مما يطول الإخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأةٍ عن امرأةٍ . فلما أَصْبَحَتَا وقَعَ إليهما أن عمراً قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم ، وشاع الخبرُ أنه لما أمر بفُسْطاطه أن يُقَوِّضَ أصابوا يمامةً قد باضت فى أعلاه ، فأخبروه فقال : « قد تَحَرَّمَتْ فى جوارنا ، أَقِرُّوا الفسْطاطَ حتى تطيرَ فِرَاحُها » . فأَقَرُّوه !

* * *

ولم يمضِ غيرُ طويلٍ حتى قضت ماريةٌ نحبها ، وحَفِظَتْ عنها أرمانوسةُ هذا الشعر الذى أَسَمَتْه : نشيدُ اليمامة :

على فُسْطاطِ الأميرِ يمامةٌ جَائِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَها .

تركها الأميرُ تَصْنَعُ الحِياةَ ، وذهب هو يَصْنَعُ الموتَ !

هى كأَسْعَدِ امرأةٍ ؛ تَرَى وتلمسُ أحلامَها .

إن سعادةَ المرأةِ أولُها وآخرُها بعضُ حقائقٍ صغيرةٍ كهذا البيض .

* * *

على فسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جَائِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَها .

لو سُئِلَتْ عن هذا البَيْضِ لَقَالَتْ : هذا كَنَزى .

هى كأَهنأ امرأةٍ ، مَلَكَتْ مَلِكُها من الحِياةِ ولم تَفْتَقِر .

هل أَكَلَفَ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا كَلَفَتْهُ رَجُلًا واحداً أَحبه !

* * *

على فسطاطِ الأميرِ يمامةٌ جَائِمَةٌ تَحْضُنُ بَيْضَها .

الشمس والقمر والنجوم ، كلُّها أصغرُ في عينها من هذا البيض .
 هي كَأَرْقِ امرأة ؛ عرفت الرِّقَّةَ مرتين : في الحب ، والولادة .
 هل أَكَلَفَ الوجه شيئاً كثيراً إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة !

* * *

على فسقاط الأمير يمامة "جائمة تحضن بيضها .
 تقول اليمامة : إن الوجودَ يجب أن يُرى بلونين في عين الأنثى ؛
 مرةً حبيباً كبيراً في رَجُلها ، ومرةً حبيباً صغيراً في أولادها .
 كلُّ شيء خاضع لقانونه ؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها .

* * *

أيتها اليمامة ، لم تعرفي الأميرَ وتركِ لك فسقاطه !
 هكذا الحظ : عدل " مضاعفٌ في ناحية ، وظلم " مضاعفٌ في ناحية
 أخرى .

احمدى الله أيتها اليمامة ، أن ليس عندكم لغات وأديان ،
 عندكم فقط : الحب والطبيعة والحياة .

* * *

على فسقاط الأمير يمامة "جائمة تحضن بيضها ،
 يمامة سعيدة ، ستكون في التاريخ كهذه هُد سليمان ،
 نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان ، وستُنسب اليمامةُ إلى عمرو .
 واهّا لك يا عمرو ! ما ضررٌ لو عرفت (اليمامة الأخرى) . . . !

اجتلاء العيد

جاء يوم العيد ؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدهُ لا يستمرُّ أكثرَ من يوم .

زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحك ، تفرضُهُ الأديانُ على الناس ، ليكونَ لهم بين الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها .

يومُ السلام ، والبِشْر ، والضَّحْك ، والوفاء ، والإخاء ، وقول الإنسانِ للإنسان : وأنتم بخير .

يومُ الثيابِ الجديدة على الكل إشعاراً لهم بأن الوجهَ الإنسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم .

يومُ الزينة التي لا يراد منها إلا إظهارُ أثرِها على النفس . ليكونَ الناسُ جميعاً في يوم حب .

* * *

يومُ العيد ؛ يومُ تقديم الحُلوى إلى كل فم لتحلوا الكلماتُ فيه . . .

يوم تعمُّ فيه الناسَ ألفاظُ الدعاء والتهنئة مرتفعةٌ بقوة إلهية فوق منازعات الحياة .

ذلك اليومُ الذي ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة ، وإلى أهله نظرةً تُبصرُ الإعزاز ، وإلى داره نظرةً تُدركُ الجمال ، وإلى الناسِ نظرةً ترى الصداقة .

ومن كل هذه النظرات تستوى له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياة والعالم ؛ فتبتهجُ نفسه بالعالم والحياة .

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسان أن الكلَّ جماله في الكل !

* * *

ونخرجتُ أجتلي العيدَ في مظهره الحقيقيِّ على هؤلاء الأطفالِ السعداء .
على هذه الوجوهِ النضرة التي كبرت فيها ابتساماتُ الرضاع فصارت ضحكات .

وهذه العيون الحاملة الحاملة التي إذا بكت بكت بدجوع لا ثقُلَ لها .
وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من
تقليد لغة الأم .
وهذه الأجسام الغضة القريبة العهد بالضّمات واللّشّمات فلا يزال حولها جوُّ
القلب .

* * *

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياساً للزمن إلا بالسرور .
وكلُّ منهم مملِكٌ في مملكة ؛ وظرفُهم هو أمرُهم المملوكي .
هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الحديدية المصبّغة لاجتماع قوس قزح في ألوانه .
ثياب عمِلت فيها المصانع والقلوب ، فلا يتم جمالها إلا بأن يراها الأبُّ
والأمُّ على أطفالهما .
ثياب جديدة يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوباً جديداً على الدنيا .

* * *

هؤلاء السحرة الصغار الذين يُخرجون لأنفسهم معنى الكثير الثمين
من قرشين
ويستحرون العيد فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلهم جله يدعوهم إلى اللعب . . .
ويتنبهون في هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غروب الشمس .
ويُلْقُون أنفسهم على العالم المنظور ، فينبون كلَّ شيء على أحد المعنيين
الثابتين في نفس الطفل : الحب الخالص ، واللّه الخالص .
ويتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكونُ هذا بعينه هو قُرْبَهُمْ
من حقيقتها السعيدة .

* * *

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقّد .
والذين يرون العالم في أول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتدّ .
يُفتشون الأقدار من ظاهرها ؛ ولا يستبطنون كيلا يتألموا بلا طائل .
ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ؛ ولا يأخذون من أنفسهم
للأشياء كيلا يُوجدوا لها هم .

* * *

قانعون يكتفون بالثمرة ، ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها .
ويعرفون كُنْه الحقيقة ، وهي أن العبرة بروح النعمة لا بمقدارها . . .
فيجدون من الفرح في تغيير ثوب للجسم ، أكثر مما يجده القائدُ الفاتحُ
في تغيير ثوب للمملكة .

* * *

هؤلاء الحكماء الذين يُشبه كل منهم آدم أول مجيئه إلى الدنيا ،
حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقةٌ ثالثةٌ معقدةٌ من صنع الإنسان
المتحضر .
حكمتهم العليا : أن الفكرَ السامى هو جعلُ السرورِ فكراً وإظهاره
في العمل .
وشعرهم البديعُ : أن الجمالَ والحبَّ ليسا في شيء لا في تجميل النفس
وإظهارها عاشقة للفرح .

* * *

هؤلاء الفلاسفةُ الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية ، وهي أن الأشياء
الكثيرة لا تكثرُ في النفس المطمئنة .
وبذلك تعيشُ النفسُ هادئةً مستريحة كأنَّ ليس في الدنيا إلا أشياءها الميسرة .
أما النفوسُ المضطربةُ بأطماعها وشهواتها فهي التي تبتلى بهوم الكثرة
الخيالية ،
ومثلها في الهمِّ مثلُ طفيليٍّ مغفلٍ يحزنُ لأنه لا يأكل في
بطنين . . .

* * *

وإذا لم تكثرُ الأشياء الكثيرةُ في النفس ، كثرَت السعادةُ ولو من قلة .
فالطفلُ يقلبُ عينيه في نساء كثيرات ، ولكن أمه هي أجملهن وإن
كانت شوهاء .
فأمه وحدها هي أمٌ قلبه ، ثم لا معنى للكثرة في هذا القلب .
هذا هو السرُّ ؛ خذوه أيها الحكماء عن الطفل الصغير !

* * *

وتأملتُ الأطفال ، وأثرُ العيدِ على نفوسهم ، التي وسَّعت من البشاشة فوقَ
ملئها ؛

فإذا لسانُ حالمٍ يقولُ للكبار : أيتها البهائم ، اخلعي أرسانك ولو يوماً . . .
أيها الناسُ ، انطلقوا في الدنيا انطلاقَ الأطفالِ يوجِدون حقيقةَهم البريئةَ
الضاحكة ، لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاقَ الوحشِ يوجِد حقيقةَ المفترسة .
أحرارٌ حرِّيَّةَ نشاطِ الكونِ ينبعث كالْفَوْضَى ، ولكن في أدقِّ النواميس .
يُشيرون السخطَ بالضَّجيجِ والحركة ، فيكونون مع الناس على خِلاف ،
لأنهم على وِفَاقٍ مع الطبيعة .

وتحتدمُ بينهم المعارك ، ولكن لاتتحطَّم فيها إلا اللَّعَب . . .
أما الكبارُ فيصنعون المِدْفَعَ الضخمَ من الحديد ، للجسمِ اللَّينِ من العَظْم .
أيتها البهائمُ ، اخلعي أرسانك ولو يوماً . . .

* * *

لايفرح أطفالُ الدار كفرحهم بطفلٍ يُولد ؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ
إلى عقولهم الصغيرة .

ويعلموهم الشعورُ بالفرح الحقيقي الكامن في سرِّ الخَلْقِ ، لقربهم من هذا
السر .

وكذلك تحمل السنةُ ثم تلد للأطفال يومَ العيد ؛ فيستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى
لحومهم الطبيعي . ويعلموهم الشعورُ بالفرح الحقيقي الكامن في سرِّ العالم لقربهم من هذا
السر .

* * *

فيا أسفًا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن سرِّ الخَلْقِ بأثامِ العمر !
وما أبعدنا عن سرِّ العالم ، بهذه الشهوات الكافرة التي لاتؤمن إلا بالمادة !
يا أسفًا علينا نحن الكبار ! ما أبعدنا عن حقيقةِ الفرح !
تكاد آثامنا والله تجعلُ لنا في كلِّ فرحةٍ خَجَلَةً . . .

* * *

أيتها الرياضُ المنوَّرةُ بأزهارها ،

أيتها الطيورُ المغرَّدةُ بألحانها ،
 أيتها الأشجارُ المصفَّقةُ بأغصانها ،
 أيتها النجومُ المتألِّثةُ بالنورِ الدائمِ ،
 أنتِ شَتَّى ؛ ولكنكِ جميعاً في هؤلاء الأطفالِ يومَ العيدِ !

* * *

المعنى السياسى فى العيد

ما أشدَّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهمًا جديدًا ، نلتقاها به ونأخذها من ناحيته ، فتجىء أيامًا سعيدة عاملة ، تنبئه فينا أوصافها القوية ، وتجدد نفوسنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى ، أكبر عملها تجديد الثياب ، وتحديد الفراغ ، وزيادة ابتسامة على النفاق . . .

فالعيد إنما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليوم نفسه ، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ؛ وكان العيد فى الإسلام هو عيد الفكرة العابدة ، فأصبح عيد الفكرة العابثة ؛ وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة فى إرادة واحدة على حقيقة عملية ، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة ؛ له مظهر المنفعة وليس له معناها .

كان العيد إثبات الأمة وجودها الروحانى فى أجمل معانيه ، فأصبح إثبات الأمة وجودها الحيوانى فى أكثر معانيه ؛ وكان يوم استرواح القوة من جدها ، فعاد يوم استراحة الضعف من ذله ؛ وكان يوم المبدأ ، فرجع يوم المادة !

* * *

ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغير الأيام ، لا إشعارها بأن الأيام تتغير ؛ وليس العيد للأمة إلا يومًا تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعى ، فيكون يوم الشعور الواحد فى نفوس الجميع ، والكلمة الواحدة فى السنة للجميع ؛ يوم الشعور بالقدرة على تغير الأيام ، لا القدرة على تغير الثياب . . . كأنما العيد هو استراحة الأسلحة يومًا فى شعبها الحربى .

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد ، حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملى ، وتظهر فضيلة الإخلاص مستعجلة للجميع ، ويهذى الناس بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة ؛ وكأنما العيد هو إطلاق روح الأسرة الواحدة فى الأمة كلها .

وليس العيدُ إلا إظهارَ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة ؛
والاذاتية للأُم الضعيفة ؛ ولانشاط للأُم المستعبدة . فالعيدُ صوتُ القوة يهتف
بالأمة : أخرجى يومَ أفراحك ، أخرجى يوماً كأيام النصر !

وليس العيدُ إلا إبرازَ الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي ،
مفصولةً من الأجانب ، لابسَةً من عمل أيديها ، معلنةً بعيدها استقلالين في
وجودها وصناعتها ، ظاهرةً بقوتين في إيمانها وطبيعتها ، مبهجة بفرحين في
دورها وأسواقها ؛ فكان العيدُ يومٌ يفرح الشعب كله بخصائصه .

وليس العيدُ إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة
المتقدمة في طريقها ، وترك الصغار يلقون درّسهم الطبيعي في حماسة الفرح
والبهجة ، ويعلمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الألفاظ التي فرغت
عندهم من معانيها ، ويبصرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية
في الجموع عمل الحليف لحليفه ، لا عمل المتباين لمُتباينه ؛ فالعيدُ يومٌ
تسلطُ العنصر الحي على نفسه الشعب .

وليس العيدُ إلا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد
كلما شاءت ؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتُخرجَ عليها الأمثلة ، فتجعل
للوطن عيداً مالياً اقتصادياً يتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض ، وتُخترع للصناعة
عيدها ، وتوجد للعلم عيدة ، وتبتدع للفن مجاًلى زينتته ؛ وبالجملة تُنشئ
لنفسها أياماً تعمل عمل القواد العسكريين في قيادة الشعب ، يقوده كل يوم
منها إلى معنى من معاني النصر .

* * *

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فرض العيدُ ميراثاً دهرياً
في الإسلام ، ليستخرجَ أهل كل زمن من معاني زمنهم فيُضيفوا إلى المثال
أمثلة مما يبده نشاط الأمة ، ويحققه خيالها ، وتقنضيه مصالحها .
وما أحسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيداً أسبوعياً بشروط فيه
الخطيبُ والمنبرُ والمسجدُ الجامع - إلا تهمةً لذلك المعنى وإعداداً له ؛
ففي كل سبعة أيام مسلمة يومٌ يجيء فيُشعرُ الناس معنى القائد الحربي للشعب كله .
ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواح المدافع ،
لأرجال في أيديهم سيوف من خشب ^(١)

(١) انظر (قصة الأيدي المتوضعة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الربيع

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيفُ تُصبحُ كالمعشوق الجميل ، لا يقدم لعاشقه
إلا أسباب حبه !

وكيف تكونُ كالحبيب ، يزيدُ في الجسم حاسةَ لمسِ المعاني الجميلة !
وكنْتُ كالقلب المهجور الحزين ، وجد السماء والأرض ، ولم يجد فيهما
سواء وأرضه .

ألا كم آلاف السنينَ وآلافها قد مضت منذُ أخرج آدمُ من الجنة !
ومع ذلك فالتاريخُ يعيد نفسه في القلب ؛ لا يحزنُ هذا القلبُ إلا لشعر
كأنه طُردَ من الجنة لساعته .

* * *

يقف الشاعرُ بإزاء جمال الطبيعة ، فلا يملك إلا أن يتدفَّقَ ويهتزَّ
ويطرب .

لأن السرَّ الذي انبشَقَ هنا في الأرض ، يريد أن ينبثقَ هناك في
النفس .

والشاعرُ نبيُّ هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاحُ الناسِ بالجمال
والخير .

وكلُّ حُسنٍ يلتمس النظرةَ الحيةَ التي تراه جميلاً لتُعطيَه معناه .
وبهذا تقف الطبيعة مُحْتَفِلَةً أمام الشاعرِ ، كوقوف المرأة الحسنة أمامَ
المصور .

* * *

لاحت لي الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقةٌ مُغشَّاةٌ باستعارات ومجازات .

والنسيم حولها كثوب الحسنة على الحسنة . فيه تعبيرٌ من لابسته .

وكلُّ زهرة كابتسامة ، تحتها أسرارٌ من معاني القلب المعقدة .

أخى لذة الضوء الملون من الشمس ذات الألوان السبعة ؟

أم لغة الضوء الملون من الخد ؛ والشفة ؛ والصدر ؛ والنحر ؛ والدَّيْبَاج ؛
والحياتي ؟

* * *

وماذا يفهم العشاق من رموز الطبيعة في هذه الأزهار الجميلة ؟
أتشير لهم بالزهر إلى أن عُمَرَ اللذة قصير ، كأنها تقول : على مقدار هذا ؟
أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل ، كالفرق بين اللون واللون ، وبين
الرائحة والرائحة ؟

أستأجبههم بأن أيام الحب صَوْرُ أيام لاحقائق أيام ؟
أم تقول الطبيعة : إن كل هذا لأنك أنتها الحشرات لاتنخدعين إلا
بكل هذا^(١) . . . ؟

* * *

في الربيع تظهر ألوان الأرض على الأرض ، وتظهر ألوان النفس على النفس .
ويصنع الماء صنعه في الطبيعة فتخرج تهاويل النبات ، ويصنع
الدم صنعه فيخرج تهاويل الأحلام ،
ويكون الهواء كأنه من شِفاه متحابّة يتنفّس بعضها على بعض ،
 ويعود كل شيء يلتصق لأن الحياة كلّها يتنبّض فيها عِرْقُ النور ،
 ويرجع كل شيء يغتنى لأن الحب يريد أن يرفع صوته .

* * *

وفي الربيع لا يضيء النور في الأعين وحدها ، ولكن في القلوب أيضاً .
ولا ينفذ الهواء إلى الصدور فقط ، ولكن إلى عواطفها كذلك .
ويكون للشمس حرارتان إحداهما في الدم .
ويطغى فيفضّان الجمال كأنما يراد من الربيع تسجربة منظر من
مناظر الجنة في الأرض .
والحيوان الأعجم نفسه تكون له لفسات عقلية فيها إدراك فلسفة السرور
والمرح .

* * *

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما في ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات
إليها كي تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة .

وكانت الشمسُ في الشتاء كأنها صورةٌ معلقةٌ في السحاب .
 وكان النهارُ كأنه يضيءُ بالقمر لا بالشمس .
 وكان الهواء مع المطر كأنه مطرٌ غيرُ سائل .
 وكانت الحياةُ تضع في أشياء كثيرة معنى عبوس الجو .
 فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعتُ
 أمهم من السفر .

* * *

وينظر الشبابُ فتظهرُ له الأرض شابة .
 ويشعر أنه موجودٌ في معاني الذات أكثر مما هو موجودٌ في معاني العالم .
 وتمتلئ له الدنيا بالأزهار ، ومعاني الأزهار ، ووحى الأزهار .
 وتُخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر .
 ولا تنسى الحياةُ عجائزها ، فربيعهم ضوء الشمس . . .

* * *

ما أعجبَ سرَّ الحياة ! كلُّ شجرة في الربيع جمالٌ هندسىٌ مستقل .
 ومهما قطعتَ منها وغيرتَ من شكلها أبرزتها الحياةُ في جمال هندسى جديد
 كأنك أصلحتها .
 ولو لم يبق منها إلا جذرٌ حتى أسرعَ الحياةُ فجعلت له شكلاً من غصون
 وأوراق .

الحياة الحياة . إذا أنت لم تُفسدها جاءتك دائماً هداياها .
 وإذا آمنتَ لم تُعَدُ بمقدار نفسك ، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن .

* * *

[فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها] .
 وانظر كيف يخلُق في الطبيعة هذه المعاني التي تبهج كلَّ حي ، بالطريقة
 التي يفهمها كلُّ حي .
 وانظر كيف يجعلُ في الأرض معنى السرور ، وفي الجو معنى السعادة .
 وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تملؤها وتطمئن ؟
 انظر انظر ! أليس كل ذلك ردّاً على اليأس بكلمة : لا . . . ؟

عرشُ الورد *

كانت جمْلوةُ العَروس كأنها تصنيفٌ من حلْمٍ ، توافَتْ عليه اخیلة السعادة فأبدعت إبداعها فيه ، حتى إذا اتَّسَقَ وتمَّ ، نقلته السعادةُ إلى الحياة في يوم من أيامها الفَرْدَةِ الّتي لا يتفق منها في العمر الطویل إلا العددُ القلیل ، لتُحَقِّقَ للحيِّ وجودَ حياته بسحرها وجمالها ، وتعطيه فيما يُنسَى ما لا یُنسى .

خرج الحُلْمُ السعيدُ من تحت النوم إلى البقطة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثّل قصيدةً بارعةً جعلت كل ما فی المكان یحیا حياةَ الشعر ؛ فالأنوارُ نساء ، والنساء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء ، والموسیقی بین ذلك تتمّم من كل شيء معناه ، والمكانُ وما فيه ، وزنٌ فی وزن ، ونغمٌ فی نغم ، وسحرٌ فی سحر .

* * *

ورأيتُ كأنما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماء الليل ، فيها دَارةُ القمر ، وفيها نَشْرَةٌ من النجوم الزُّهَرُ ، فنزلتُ فحلّت في الدار ، يتوضَّحُنَّ ويأتَلِقُنَّ من الجمال والشعاع ، وفي حسن كل منهن مادة فجر طالع ، فكنَّ نساءَ الجلوة وعَروسَها .

ورأيتُ كأنما سُحرَ الربيع ، فاجتمع في عرش أخضر ، قد رُصِّعَ بالورد الأحمر ، وأقيم في صدر البَهْوِ ليكون منَصَّةً للعروس ، وقد نُسِقتَ الأزهارُ في سمائه وحواشيه على نظميين : منهما مُفَصِّلٌ ترى فيه بين الزَّهْرَتَيْنِ من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما ؛ ومنها مُكَدِّسٌ بعضُهُ فوق بعض ، من لون متشابه أو متقارب ، فبدا كأنه عَشُّ طائر مَلَكِيٍّ من طيور الجنة أبَدع في نَسْجِه وترصيعه بأشجار سقَى الكَوْتُرُ أغصانها .

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين ، ربّوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه ، يحملُهُما خَمَلٌ من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللدن تَسْهَفَتُ من رقتها وتُعومتها .

• يصف المؤلف في هذه القطعة زفاف أبنته « وهبة » إلى ابن عمها وهي أول من تزوج من ولده ، وانظر « عمله في الرسالة » من كتابنا (حياة الراقى) .

وعقيد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر ، كأنما نزع عن مفترق ملك الزمن الربيعي ؛ وتنظر إليه يسطع في النور بجماله الساحر ، سطوعا يخيل إليك أن أشعة من الشمس التي ربّت هذا الورد لا تزال عالقة به ، وتراه يزدهى جلالاً ، كأنما أدرك أنه في موضعه رمز مملكة إنسانية جديدة ، تألفت من عروسين كريمين . ولاح لي مراراً أن التاج يضحك ويستحي ويتدلّل ، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثل وجه الورد .

ونص على العرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما ، ويكسوهما طراز أخضر تلمع نضارتُه بشراً ، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفريحة لمسة من فرحها الحي .

وتدلّت على العرش قلائد المصابيح ، كأنها لؤلؤ تخلّق في السماء لاني البحر ، فجاء من النور لامن الدُّر ؛ وجاء نوراً من خاصته أنه متى استضاء في جو العروس أضاء الجو والقلوب جميعاً .

وأق العروسان إلى عرش الورد ، فجلسا جلسة كوكبين حدودهما النور والصفاء ؛ وأقبلت العذارى يتخطّرن في الحرير الأبيض كأنه من نور الصبح ، ثم وقفن حافّات حول العرش ، حاملات في أيديهن طاقات من الزئبق ، تراها عطرة بيضاء ناضرة حيّة ، كأنها عذارى مع عذارى ، وكأنما يحملن في أيديهن من هذا الزئبق الغضّ معاني قلوبهن الطاهرة ؛ هذه القلوب التي كانت مع المصابيح مصابيح أخرى فيها نورها الضاحك .

واقعدت درج العرش تحت ربّوق الزهر ودون أقدام العروسين — طفلة صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتها ، فكانت من العرش كله كالماصة المدلاة من واسطة العقد ، وجعلت بوجهها للزهر كله تماماً وجمالاً ، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبان منزوي لا يريد أن يرى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيار من أحلام الطفولة جعل المكان بمن فيه كأن له روح طفل بعخته مسرة جديدة .

وكانت جالسة جلسة شعير تمثل الحياة الهنيئة المتكررة لساعتها ليس لها ماض في دنيانا .

ولو أن مُبدِعاً افْتَنَّ في صُنْعِ تَمَالٍ للنَّية الطَّاهِرة ، وَجِءَ به في مَكَانِها ،
وَأَخَذَتْ هِيَ في مَكَانِها لَتَشَابِها وتَشَاكَلِ الأَمْر .
وكان وَجُودُها على العَرْشِ دَعْوَةً للملائكة أن تَحْضُرَ الرِّفَافَ وتَبَارِكَنَّهُ .
وكانت بِصِغَرِها الظَّرِيفِ الجَمِيلِ تَعْطِى لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَاماً ، فَيُرى أَكْبَرُ
مِمَّا هُوَ ، وَأَكْثَرُ مِمَّا هُوَ في حَقِيقَتِهِ . كانت النِّقْطَةُ الَّتِي اسْتَعْلَنْتُ في مَرْكَزِ
الدَّائِرَةِ ، ظَهُورُها على صِغَرِها هُوَ ظَهُورُ الإِحْكَامِ وَالْوَزَنِ وَالْإِنْجَامِ في
في المَحِيطِ كُلِّهِ .

* * *

لا يَكُونُ السَّرُورُ دَائِماً إِلَّا جَدِيداً عَلَى النَّفْسِ ، وَلَا سَرُورَ لِلنَّفْسِ إِلَّا مَن
جَدِيدٌ عَلَى حَالَةٍ مِّنْ أَحْوَالِها ؛ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ في كُلِّ دِينَارٍ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ غَيْرُ الَّتِي في
مِثْلِهِ لَمَّا سَرَّ بِالْمَالِ أَحَدٌ ، وَلَا كَانَ لَهُ الْخَطَرُ الَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ
لِكُلِّ طَعَامٍ جَوْعٌ يُورِدُهُ جَدِيداً عَلَى الْمَعْدَةِ لَمَّا هَنَأَ وَلَا مَرَأَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ اللَّيْلُ
بَعْدَ نَهَارٍ ، وَالنَّهَارُ بَعْدَ لَيْلٍ ، وَالْفُصُولُ كُلُّهَا نَقِيضاً عَلَى نَقِيضِهِ . وَشَيْئاً مُّخْتَلِفاً
عَلَى شَيْءٍ مُّخْتَلَفٍ — لَمَّا كَانَ في السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ جَمَالٌ ، وَلَا مَنْظَرٌ جَمَالٌ . وَلَا لِحَسَّاسٍ
بِهِمَا ؛ وَالطَّبِيعَةُ الَّتِي لَا تُفْلِحُ في جَعْلِكَ مَعَهَا طِفْلاً تَكُونُ جَدِيداً عَلَى نَفْسِكَ —
لَنْ تُفْلِحَ في جَعْلِكَ مَسْرُوراً بِهَا لِتَكُونُ هِيَ جَدِيدَةً عَلَيْكَ .

وَعَرْشُ الْوَرْدِ كَانَ جَدِيداً عِنْدَ نَفْسِي عَلَى نَفْسِي ، وَفِي عَاطِفَتِي عَلَى
عَاطِفَتِي ، وَمِنَ أَيَّامِي عَلَى أَيَّامِي ؛ نَزَلَ صَبَاحُ يَوْمِهِ في قَلْبِي بِرُوحِ الشَّمْسِ ، وَجَاءَ
مَسَاءُ لَيْلَتِهِ لِقَابِي بِرُوحِ الْقَمَرِ ؛ وَكُنْتُ عِنْدَهُ كَالسَّمَاءِ أَتْلُؤُا بِأَفْكَارِي كَمَا تَتْلُؤُا
بِنَجْوِئِها ؛ وَقَدْ جَعَلْتَنِي أَمْتَدُّ بِسَرُورِي في هَذِهِ الطَّبِيعَةِ كُلِّها ، إِذْ قَدَّرْتُ
عَلَى أَنْ أَعِيشَ يَوْماً في نَفْسِي ؛ وَرَأَيْتُ وَأَنَا في نَفْسِي أَنَّ الْفَرْحَ هُوَ سِرُّ الطَّبِيعَةِ
كُلِّها ، وَأَنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ اللهُ جَمَالاً في جَمَالٍ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
وَمَا يَجِئُ الظَّلَامُ مَعَ نُورِهِ ، وَلَا يَجِئُ الشَّرُّ مَعَ أَفْرَاحِ الطَّبِيعَةِ إِلَّا مَن مُحَاوَلَةُ
الْفِكْرِ الْإِنْسَانِي خَلَقَ أَوْهَامِهِ في الْحَيَاةِ ، وَإِخْرَاجِهِ النَّفْسَ مِنَ طِبَائِعِها ، حَتَّى
أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ كَأَنَّمَا يَعِيشُ بِنَفْسٍ مُحَاوِلُ أَنْ يَصْنَعَهَا صِنَاعَةً ، فَلَا يَصْنَعُ إِلَّا أَنْ
يَزْرِيعَ بِالنَّفْسِ الَّتِي فَطَرَهَا اللهُ .

يَا عَجَباً ! يَنْفَرُ الْإِنْسَانُ مِنْ كَلِمَاتِ الْإِسْتِعْبَادِ ، وَالضَّمْعَةِ ، وَالذَّلَّةِ ، وَالْبُؤْسِ ،

والهم ، وأمثالها ، وينكرها ويردّها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه في الحياة إلا عن معانيها .

* * *

إن يومًا كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرحًا ، لأنه من الأيام التي تجعل الوقت يتقدم في القلب لا في الزمن ، ويكونُ بالعراطف لا بالساعات ، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها .

كان الشبابُ في موكب نصره ، وكانت الحياةُ في ساعةٍ صلّح مع القلوب ، حتى اللغة نفسها لم تكن تُلقي كلماتها إلا مملّنةً بالطرب والضحك والسعادة ، آتيةً من هذه المعاني دون غيرها ، مُصَوِّرةً على الوجوه إحساسها وتوازنها ، وكلُّ ذلك سِحْرُ عرش الورد ، تلك الحديقة الساحرة المسحورة ، التي كانت النسماتُ تأتي من الجو ترفرفُ حولها متحيرةً كأنما تنسأل : أهذه حديقةٌ خلّقت بطيور إنسانية ؛ أم هي شجرة ورد من الجنة بمن يتفَيَّان ظِلَّها ويتنسَّمْنَ شذّاها من الحُور ؛ أم ذاك منبعٌ وردى عطرى نُوراني لحياة هذه الملكة الجالسة على العرش ؟

يائنسمات الليل الصافية صفاء الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياةُ المقبلة في جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المُسْبِهِج ، والعطر المنعش ، والضوء المُحْيِي ؛ فإن هذه العروس المعتلية عرش الورد :
هي ابنتي . . .

أيها البحر ! *

إذا احتشدَ مَ الصيفُ ، جعلتَ أنتَ أيُّها البحرُ^(١) للزمنِ فصلاً جديداً يسمى « الربيعَ المائى » .

وتنتقلُ إلى أيامِكَ أرواحُ الحدايقِ ، فتنبتُ فى الزمنِ بعضُ الساعاتِ الشهيةِ كأنها الثمرُ الحلوُ الناضجُ على شجره .

ويُوحى لولئكِ الأزوقُ إلى النفوسِ ما كان يوحيه لونُ الربيعِ الأخضرِ ، إلا أنه أرقُّ وألطفُ .

ويرى الشعراءُ فى ساحلكِ مثلَ ما يروُنَ فى أرضِ الربيعِ ، أنوثةً ظاهرةً ، غيرَ أنها تلدُ المعانى لا النبات .

ويُحسُّ العشاقُ عندك ما يُحسُّونه فى الربيعِ : أن الهواءَ يتأوّه . . .

* * *

فى الربيعِ ، يتحركُ فى الدمِ البشرى سرُّ هذه الأرضِ ؛ وعند « الربيعِ المائى » يتحركُ فى الدمِ سرُّ هذه السُّحبِ .

نوعانِ من الخمرِ فى هواءِ الربيعِ وهواءِ البحرِ ، يكونُ منهما سكرٌ واحدٌ من الطربِ .

وبالربيعيينِ الأخضرِ والأزوقِ يفتحُ بابانِ للعالمِ السحريِّ العجيبِ : عالمِ الجمالِ الأرضى الذى تدخله الروحُ الإنسانية كما يدخلُ القلبُ الحبُّ فى شعاعِ ابتسامةٍ ومعناها .

* * *

فى « الربيعِ المائى » ، يجلسُ المرءُ ، وكأنه جالسٌ فى سحابةٍ لافى الأرضِ . ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماشِ ؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّهَ عن أن يكونَ هواءَ الترابِ .

* كتبها فى مصيفه بالإسكندرية .

(١) كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر .

وتخيفُ على نفسه الأشياء ، كأن بعضَ المعاني الأرضية انتزعتُ من المادة .
وهنا يدركُ الحقيقة : أن السرورَ إن هو إلا تنبُّهُ معاني الطبيعة في القلب .

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك في « دنيا الرزق » .
تشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكأنما تطلعُ وتغربُ على الأعمال التي يعملُ الجسمُ فيها .
تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ،
وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة .
تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنَّ الناسَ - وأسفاه - يكونون في
ساعاتهم المظلمة . . .
الشمسُ هنا جديدة ، تثبتُ أن الحديدَ في الطبيعة هو الحديدُ في كيفية
شعور النفس به .

* * *

والقمرُ زاه رفَّافٌ من الحسن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر .
أو كأنه ليس قمرًا ، بل هو فجرٌ طلع في أوائل الليل ؛ فحصرته السماء في
مكانه ليستمرَّ الليل .
فجرٌ لا يوقظُ العيونَ من أحلامها ؛ ولكنه يوقظُ الأرواحَ لأحلامها .
ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُستبهِمةٌ كأنها أحلامٌ معلقة .
للقمر هنا طريقةٌ في إبهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المعشوق حين
تقبله أول مرة .

* * *

و « للربيع المائي » طيوره المغردة وفراشه المتنقل :
أما الطيورُ فنساء يتنصَّحنَ حَكْنًا ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون .
نساء إذا انغمسنَ في البحر ، خيَّلَ إلى أن الأمواجَ تتشاحنُ وتتخاصمُ
على بعضهن . . .

رَأَيْتُ مِنْهُمْ زَهْرَاءَ فَاتِنَةٍ قَدْ جَلَسَتْ عَلَى الرَّمْلِ جَلِيسَةً حَوَاءَ قَبْلَ اخْتِرَاعِ
الْثِيَابِ ، فَقَالَ الْبَحْرُ : يَا إِلَهِي ! قَدْ انْتَقَلَ مَعْنَى الْغَرَقِ إِلَى الشَّاطِئِ . . .
إِنَّ الْغَرِيقَ مِمَّنْ غَرِقَ فِي مَسْوِجَةِ الرَّمْلِ هَذِهِ . . .

* * *

وَالْأَطْفَالُ يُلْعَبُونَ وَيَصْرُخُونَ وَيَضْحَكُونَ كَأَنَّمَا اتَّسَعَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ وَالْدُنْيَا .
وَنَحِيطُ إِلَى إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَقْلَقُوا الْبَحْرَ كَمَا يُقْلِقُونَ الدَّارَ ، فَصَاحَ بِهِمْ : وَيَحْكُمُ
يَا سَمَكِ التَّرَابِ . . . ! وَرَأَيْتُ طِفْلاً مِنْهُمْ قَدْ جَاءَ فَوَكَزَ الْبَحْرَ بِرِجْلِهِ !
فَضَحِكَ الْبَحْرُ وَقَالَ : انْظُرُوا يَا بَنِي آدَمَ !!
أَعَلَى اللَّهِ أَنْ يَتَعَبَّأَ بِالْمَغْرُورِ مِنْكُمْ إِذَا كَتَفَرَبَهُ ؟ أَعَلَيَّْ أَنْ أَعْبَأَ بِهَذَا الطِّفْلِ
كَيْلَا يَقُولَ إِنَّهُ رَكَلَتْنِي بِرِجْلِهِ . . . ؟

* * *

إِيهَا الْبَحْرُ ، قَدْ مَلَأْتُكَ قُوَّةُ اللَّهِ لِتُثْبِتَ فِرَاقَ الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ .
لَيْسَ فِيكَ مَمَالِكٌ وَلَا حُدُودٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ .
وَتَجِيشُ بِالنَّاسِ وَبِالسُّفُنِ الْعَظِيمَةِ ، كَأَنَّكَ تَحْمِلُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ قَشّاً
تَرْمِي بِهِ .

وَالْإِخْتِرَاعُ الْإِنْسَانِيُّ مَهْمَا عَظُمَ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ فِيكَ عَنْ إِيْمَانِهِ .
وَأَنْتَ تَمَلَأُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ بِالْعَظَمَةِ وَالْهَوْلِ ، رَدّاً عَلَى عَظَمَةِ الْإِنْسَانِ
وَهَوْلِهِ فِي الرِّيعِ الْبَاقِي ، مَا عَظُمَ الْإِنْسَانُ وَأَصْغَرَهُ !

* * *

يُنْزَلُ فِي النَّاسِ مِثَالُكَ فَيَتَسَاوَوْنَ حَتَّى لَا يَخْتَلِفُ ظَاهِرٌ عَنْ ظَاهِرٍ ،
وَيُرَكَّبُونَ ظَهْرَكَ فِي السُّفُنِ فَيَحِينُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى لَا يَخْتَلِفُ بَاطِنٌ
عَنِ بَاطِنٍ .

تُشْعِرُهُمْ جَمِيعاً أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمِنْ أَحْكَامِهَا الْبَاطِلَةِ ،
وَتُفْقِرُهُمْ إِلَى الْحُبِّ وَالصَّدَاقَةِ فَقَرّاً يُرِيهِمُ النُّجُومَ نَفْسَهَا كَأَنَّهَا أَصْدَقَاءُ ، إِذْ
عَرَفُونَهَا فِي الْأَرْضِ .

يَا سِحْرَ الْخُوفِ ، أَنْتَ أَنْتَ فِي اللَّجْجَةِ كَمَا أَنْتَ أَنْتَ فِي جَهَنَّمَ .

* * *

وإذا ركبك المَلْحِدُ أيها البحر ، فَرَجَفْتَ من تحته ، وَهَدَرْتَ عليه وَثُرْتَ به ، وأرَيْتَهُ رَأَى العَيْنَ كأنه بين سماءين ستنطبقُ لإحداهما على الأخرى فَتَقُفْ لَان عليه - تركته يَتَطَّأُطًا ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً ، وتُدَحْرِجُهُ وتُدَحْرِجُهَا .

وأطَرَّتْ كلَّ ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل .
وكشفت له عن الحقيقة : أن نسيانَ الله ليس عمَلَ العقل ، ولكنه عملُ الغفلة والأمنِ وطولِ السلامة .

* * *

ألا ما أشبه الإنسانَ في الحياة بالسفينة في أمواج هذا البحر !
إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضتْ ، أو مادتْ ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها .

ولن تستطيعَ هذه السفينةُ أن تملكَ من قانون ما حولها شيئاً ، ولكن قانونها هي الثباتُ ، والتوازنُ ، والاهتداء إلى قصدها ، ونجاتها في قانونها .
فلا يَعْتَبِىنَّ الإنسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهدْ أن يحكم نفسه :

في الربيع الأزرق^(١)

خواطر مرسله *

ما أجمل الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَيْنِ البحرِ والسماءِ ؛ يكادُ الجالسُ هنا
يظنُّ نفسه مرسوماً في صورةِ إلهية .

* * *

نظرتُ إلى هذا البحرِ العظيمِ بعيني طفلٍ يتخيل أن البحرَ قد ملئَ بالأمس ،
وأن السماءَ كانت إناءً له ، فانكفاً الإناءَ فاندفعَ البحرُ ، وتسرحَتْ مع هذا
الخيالِ الطفلي الصغيرِ فكأنما نالني رِشاشٌ من الإناءِ
إننا لن ندركُ روعةَ الجمالِ في الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من
طفولتها ، ومرحَ الطفولةِ ، ولعبها ، وهذيانها .

* * *

تبدو لك السماءُ على البحرِ أعظمَ مما هي ، كما لو كنتَ تنظرُ إليها من سماءٍ
أخرى لامن الأرضِ .

* * *

إذا أنا سافرتُ فجئتُ إلى البحرِ ، أو نزلتُ بالصحراءِ ، أو حلتُ بالجليلِ ،
شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشةِ السرورِ بما كنتُ أشعرُ بمنزلةِ لو أن الجبلَ أو الصحراءَ
أو البحرَ قد سافرتُ هي وجاءتْ إليّ .

* * *

في جمالِ النفسِ يكونُ كلُّ شيءٍ جميلاً ، إذ تُلقَى النفسُ عليه من ألوانها ،
فتقلبُ الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها في سعةِ النفسِ لاني مساحتها هي ، وتعرفُ
لنورِ النهارِ علوبةً كعلوبةِ الماءِ على الظمأِ ، ويظهرُ الليلُ كأنه معرضُ جواهرٍ
أقيم للبحورِ العينِ في السماواتِ ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنةٌ
ساحجةٌ إلهواء .

• كتبها في مصيفه بالإسكندرية .

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر ، وقد شاع استعمالها بعد نشر هذه المقالة

فى جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليفة ؛ وَى كَأَن الله
أمرَ العالمِ ألا يَعبَسَ للقلبِ المبسم .

* * *

أيامُ المصيفِ هى الأيامُ التى ينطلق فيها الإنسانُ الطبيعىُّ المحبوسُ
فى الإنسان ؛ فيرتدُّ إلى دهرِه الأول ، دهرِ الغابات والبحار والجمال .
إن لم تكن أيامُ المصيفِ بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى .

* * *

ليست اللذةُ فى الراحة ولا الفراغ ، ولكنها فى التعب والكَدْح والمشقة
حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ .

* * *

لاتمُّ فائدةُ الانتقال من بلد إلى بلد إلا إذا انتقلت النفسُ من شعور إلى
شعور ؛ فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تَبرحُ .

* * *

الحياةُ فى المصيفِ تُثبت للإنسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْفَلُ بها كثيراً .

* * *

يشعر المرء فى المُدُن أنه بين آثار الإنسانِ وأعماله ، فهو فى رُوح العناء
والكدْح والتزع ؛ أما فى الطبيعة فيُحسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية ، فهو
هنا فى رُوح اللذة والسرور والجلال .

* * *

إذا كنتَ فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفرَّغه للنَّبت والشجر ،
والحجر والمدَر ، والطير والحَيوان ، والزهر والعُشب ، والماء والسماء ، ونور
النهار ، وظلام الليل ، حينئذ يفتَحُ العالمُ بابَه ويقول : ادخل . . .

* * *

لُطِفَ الجمال صورةً أخرى من عَظَمَةِ الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ
قطرةً من الماء تلمعُ فى غصن ، فخيَّلَ إلى أن لها عَظَمَةَ البحر لو صَغُرَ فَعُلَّتْ
على ورقة .

* * *

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية حين يفورُ شعيرُ الجمالِ في الدم ،
أطلتُ النظرَ إلى وردة في غصنها زاهية عَطرَة ، متأنقة ، متأنثة ؛ فكدت
أقول لها : أنت أيتها المرأة ، أنت يا فلانة

* * *

أليس عجيباً أن كلَّ إنسان يرى في الأرض بعضَ الأمكنة كأنها أمكنة
للروح خاصة ؛ فهل يدلُّ هذا على شيء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحواءَ ،
لا يزال يعملُ في النفس الإنسانية ؟

* * *

الحياةُ في المدينة كَشُرْبِ الماء في كُوب من الخَزَفِ ؛ والحياةُ في الطبيعة
كشرب الماء في كُوب من البَكَوَر الساطع ؛ ذاك يحتوى الماء وهذا يحتويه
ويُبدى جماله للعين .

* * *

وأسفاه ، هذه هي الحقيقة : إن دَقَّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها
كدقة الفهم للحب ، وإن العقلَ الصغيرَ في فهمه للحب والحياة ، هو العقلُ
الكاملُ في التناذهِ بهما . وأسفاه ، هذه هي الحقيقة !

* * *

في هذا الأيام الطبيعيةِ التي يجعلها المصيفُ أيامَ سرور ونسيان ، يشعرُ كل
إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هَزَلٍ ودُعابة

* * *

من لم يُرزق الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياء الطبيعة إلا في أسماؤها وشيئاتها ،
دون حقائقها ومعانيها ، كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلَّهن سواء ، فإذا عشق
رأى فيهن نساءً غيرَ من عَرَفَ ، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال
الذي في قلبه .

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة ، أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تَلَدُّه
الحياة ، وهذا هو الذي يغيّر الطبيعةَ ويجعلُ الجوَّ نفسه هناك جوَّ مائدة ظُرفاء
وظريفات

* * *

تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخال بعض الشجر في حقائق الحياة .

* * *

هذه السماء فوقنا في كل مكان ، غير أن العجيب أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياء منها السماء . . .

* * *

إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع ، وحقائق الهموم تصغر وتضيق ، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيق لا هي .

* * *

في الساعة التاسعة أذهب إلى عمل ، وفي العاشرة أعمل كسيت ، وفي الحادية عشرة أعمل كسيت وكسيت ؛ وهنا في المصيف تفقد التاسعة وأخواتها معانيها الزمنية التي كانت تضعها الأيام فيها ، وتستبدل منها المعاني التي تضعها فيها النفس الحرة .

هذه هي الطريقة التي تُصنع بها السعادة أحياناً ، وهي طريقة لا يقدر عليها أحد في الدنيا كصغار الأطفال .

* * *

إذا تلاقى الناس في مكان على حالة متشابهة من السرور وتوهمه والفكرة فيه ، وكان هذا المكان مُعدّاً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهاها — فتلك هي الرواية ومثلوها ومسرحها^(١) ، أما الموضوع فالسخرية من إنسان المدنية ومدنية الإنسان .

* * *

ما أصدق ما قالوه : إن المرئي في الرأى . مرضت مدة في المصيف ، فانقلبت الطبيعة العروس التي كانت تزين كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب . . .

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح . وأن صوابها المزرع . ولكن صاحب بن عباد استعملها في قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ويحتملهم .

حديث قِطَيْن

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤) في موضوع الإنشاء ما يأتي :

« تقابلَ قِطَّان : أحدهما سَمِينٌ تبدو عليه آثارُ النعمة ، والآخرُ نحيفٌ يدل منظره على سُوء حاله ؛ فإذا يقولان إذا حدث كل منهما صاحبه عن معيشته ؟ »

وقد حار التلاميذُ الصغارُ فيما يَصْعَون على لسان القِطَيْن ، ولم يعرفوا كيف يوجهون الكلامَ بينهما ، وإلى أي غاية ينصرفُ القولُ في مُحاورتهما ؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال - أن تكونَ في رؤوسهم عقولُ السَّنانير ؛ وأعيامهم أن تنزلَ غرائزُهم الطيبةُ في هذه المنزلة من البهيمةِ ومن عيشها خاصّة ، فيكسّنها تديرَ هذه القِطَّاطَ لحياتها ، وينفثوا إلى طبائعها ، ويندجوا في جلودها ، ويأكلوا بأنيابها ، ويمزقوا بمخالبها .

قال بعضهم : وسَخِطْنَا على أساتذتنا أشدَّ السخط ، وعيناهم بأقبح العيب ؛ كيف لم يعلمونا من قبل - أن نكونَ حَمِيرًا ، وخيلاً ، وبغالاً ، وثيراناً ، وقرَدَةً ، وخنازير ، وفُرَّانًا ، وقِطَّطَةً ، وما هبَّ ودبَّ ، وما طار ودَرَجَ ، وما مَشَى وانسَحَجَ ؛ وكيف - ويحهم - لم يلقنونا مع العربية والإنجليزية لغاتِ الشَّهيق ، وانصَهيل ، والشَّحيج ، والخُوار ، وضَحِكِ القرد ، وقُبُاعِ الخنزير ، وكيف نصيَّء ونَمُوء ، ونَلْغَطُ لِنَغَطِ الطَّيْرِ ، ونَنفُخَ فَحِيجَ الأفعى ، ونَكْشِ كَشْيَشَ الدَّبَابَاتِ ^(١) ، إلى ما يتم به هذا العلمُ اللغويُّ الجليلُ ، الذي تقوم به بلاغةُ البهائم والطير والحشرات والهمج أشباهها . . . ؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزتُ . قال أستاذه : أجدتَ وأحسنْتَ ، والله أنت ! وتالله لقد أصبت ! فإذا كتبت ؟ قال : كتبت هكذا :

(١) هذه أصوات هذه الأجناس في اللغة .

يقول السمين : نَاوُ ، ناوُ ، ناوُ . . . فيقولُ النحيفُ : نَوُ ، ناوُ نَوُ . . . فيردُّ عليه السمينُ : نَوُ ، ناوُ ، ناوُ . . . فيغضبُ النحيفُ ، ويكشُرُ عن أسنانه ، ويحركُ ذيلَه ويصيحُ : نَوُ ، نَوُ ، نَوُ . . . فيلطمهُ السمينُ فيخُدشُه ويصرخُ : ناوُ . . . فيثبُّ عليه النحيفُ ويصطَرِغان ، وتختلطُ « النَّوَنَوَة » لا يمتاز صوتٌ من صوت ، ولا يبيِّنُ معنَى من معنى ، ولا يمكنُ الفهمُ عنهما في هذه الحالة إلا بتعب شديد ، بعد مراجعة قاموس القِطاط . . . !

قال الأستاذ : يا بُنَى ، بارك الله عليك ! لقد أبدعتَ الفنَّ إبداعاً ، فصنعتَ ما يصنعُ أكبرُ النوابغِ ، يُظهرُ فنَّه بإظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطقُ القِطُّ بلغتنا إلا بمعجزةٍ لنبيٍّ ، ولأنبيَّ بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلا سبيلَ إلا ما حكيتَ ووصفتَ ، وهو مذهبُ الواقع ، والواقعُ هو الجديدُ في الأدبِ ؛ ولقد أَرادوكَ تلميذاً هيراً ، فكنتَ في إجابتك هيراً أستاذاً ، ووافقتَ السنانيرَ ونالفتَ الناسَ ، وحقَّقتَ للممتحنين أرقى نظريات الفنِّ العالی ، فإن هذا الفنَّ إنما هو في طريقة الموضوع الفنية ، لافي تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك ، ولو حفظوا حرمةَ الأدبِ ورَعَوْا عهدَ الفنِّ لأدركوا أن في أسطورك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً في النادرة والتهكم ، وغرابةِ العبقرية ، وجمالها وصدقها ، وحسنِ تَسَاوُلها ، وإحكام تأديتها لما تؤدِّي (١) ؛ ولكن ما الفرقُ يا بُنَى بين « ناوُ » بالمد ، و « نَوُ » بغير مد . . . ؟ قال التلميذُ : هذا عند السنانير كالإشارات التلغرافية : شَرَطَة ونقطة وهكذا .

قال : يا بُنَى ، ولكن وَرَازَة المعارف لا تُقَرُّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصححُ أستاذاً لاهيراً . . . والامتحان كتابي لا شفوي .

قال الخبيثُ : وأنا لم أكن هيراً بل كنت إنساناً ، ولكن الموضوع حديث قِطَين ، والحكم في مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكلفين له ، المتطفلين عليه ؛ فإن هم خالفوني قلتُ لهم : اسألوا القِطاط ؛ أو لا فليأتوا بالقِطَين : السمين والنحيف ، فليجمعوا بينهما ، وليُحَرِّشوهما ، ثم ليُحَضِّروا الرُقباء هذا

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر .

الامتحان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعون ، وليصفوا منهما ما يرونه ، فوالذي
خَلَقَ السنانيرَ والتلاميذَ والمتحنيين والمصححين جميعاً — ما يزيدُ الهَرَّانَ
على « نَسْوٍ ، وناوٍ » ، ولا يكونُ القولُ بينهما إلا من هذا ، ولا يقعُ إلا ما وصفتُ ،
وما بُدِّئَ من المهارشةِ والمواثبةِ بما في طبيعةِ القوىِ والضعيفِ ، ثم فرارِ الضعيفِ
مهزوماً ، وينتهي الامتحان !

* * *

إن مثلَ هذا الموضوعِ يشبه تكليفَ الطالبِ الصغيرِ خلقَ هَرَّتَيْنِ
لا الحديثَ عنهما ؛ فإن إجادةَ الإنشاءِ في مثل هذا البابِ ألوهيةٌ عقليةٌ تَخْلُقُ
خلقةً السَّوِيَّ الجميلَ نابضاً حياً ، كأنما وَضَعَتْ في الكلامِ قلبَ هَرٍّ ،
أوجاءت بالهرِّ له قلبٌ من الكلامِ وأين هذا من الأطفالِ في الحادية عشرةَ والثانية
عشرةَ وما حولهما ؛ وكيف لهم في هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجودِ ، ويدخلوا
أسرارَ الخليفةِ ، ويُصْبِحُوا مع كل شيءٍ رَهْنًا بعلمه ، وعند كل حقيقةٍ
موقوفين على أسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية : « كن زهرةً
وصفِّ . واجعلْ نفسك حبةَ قمحٍ وقُلِّ » . وإنما هذا ونحوه غايةٌ من أبعادِ
غايات النبوةِ أو الحكمةِ ؛ إذ النبيُّ تعبيرٌ إلهيٌّ تتخذُه الحقيقةُ الكاملةُ لتتلقَى
به كلمتها التي تسمى الشريعةَ ، والحكيمُ وجهٌ آخرٌ من التعبيرِ ، تتخذُه تلك
الحقيقةُ لتلقَى منه الكلمةَ التي تسمى الفن .

وقد كان في القديمِ امتحانٌ مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من
آلاف كثيرة ؛ وكان المتحن هو الله جلَّ جلاله ؛ والموضوعُ حديثُ النملةِ
مع النملِ ؛ والناجحُ سليمان عليه السلام .

[قالت نملةٌ : يا أيها النملُ ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمتنَّكم سليمانُ
وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قوطا] .

إن الكونَ كله مستقرٌ بمعانيه الرمزية في النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروحُ
في ذاتها نوراً ، وكان سرُّ كل شيءٍ هو من النورِ ، والشعاعُ يجري في الشعاعِ
كما يجري الماءُ في الماءِ ، وفي امتزاجِ الأشعةِ من النفسِ والمادةِ تجاوبٌ روحانيٌّ
هو بذاته تعبيرٌ في البصيرةِ وإدراكٌ في الفهنِ ، وهو أساسُ الفنِ على اختلافِ

أنواعه : فى الكلمة والصورة ، والمثال والنغمة ؛ أى الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى .

ومن ذلك لا يكون البيانُ العالى أتمَّ إشراقًا إلا بتمام النفس البليغة فى فضيلتها أورديلتها على السواء ؛ فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن يكونَ تمام الرذيلة فى أثره على العمل الفنى ، هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة فى أثره على هذا العمل ؛ والنقطة التى ينتهى فيها العلوُّ من مُحيط الدائرة هى بعينها التى يبدأ منها الانحدارُ إلى السفلى ؛ ومن ثمَّ كانت الفنونُ لاتُعتبر بالأخلاق ، حتى قال علماءنا : إن الدين عن الشعر بمَعزول . فالأصلُ هناك سموُّ التعبير وجماله ، وبلاغةُ الأداء وروعتها ؛ ولا يكون السؤالُ الفنى ما هى قيمة هذه النفس ، ولكن ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب فى ذلك ؟ أليس لجهم حق فى كبار أهل الفن ، كما للجنة حق فى نوابغه ؟ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلُ البليغة . أفلا تقول الجحيمُ : وهذه بلاغةُ رذائل ؟ وكيف لعمري يستطيع إبليسُ أن يؤدى عمله الفنى وبصورَ بلاغته العالية إلا فى ساقطين من أهل الفكر الجميل ، وساقطات من أهل الجسم الجميل . . ؟

• • •

لقد بعدنا عن القطبين ، وأنا أريد أن أكتبَ من حديثهما وخبرهما .

كان القطُّ الهزيلُ مُرابطًا فى زُقاق ، وقد طارد فأرةً فانشجحتْ فى شقٍّ ، فوقف المسكينُ يربصُ بها أن تخرج ؛ ويؤامر نفسه كيف يُعالجها فيبتزُّها ، وما عقلُ الحيوان إلا من حرفة عيشه لامن غيرها . وكان القطُّ السمينُ قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرِّجَ عن نفسه بأن يكون ساعةً أو بعض ساعة كالقططة بعضها مع بعض ، لا كأطفال الناس مع أهلهم وذوى عنايتهم ، وأبصر الهزيلُ من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، وراه الهزيلُ وجعل يتأمله وهو يتخلعُ تخلعَ الأسد فى مشيته ، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها ، وبسطتْه النعمة من أطرافه ، وانقلبت فى لحمه غلظًا ، وفى عصبه شدةً ، وفى شعره بريقًا ، وهو يموجُّ فى بدنه من قوة وعافية ، ويكاد إهابه ينشقُّ سمناً وكدنة . فانكسرت نفسُ الهزيل ، ودخلته الحسرة ، وتضعفَ لمراى هذه

النعمة مَرَحَةً مَخَالَةً . وأقبل السمينُ حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له ، إذ رآه نحيفاً متقَبِّضاً ، طاوِئِ البطن ، بارزِ الأضلاع ، كأنما همت عظامه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر .

فقال له : ماذا بك ، وما لي أراك مُتَبَسِّساً كالملت في قبره غير أنك لم تمت ، وما لك أعطيت الحياة غير أنك لم تحي ، أو ليس الهرُّ منا صورةً مختزلةً من الأسد ، فالك - ويحك - رجعت صورةً مختزلةً من الهر ؛ أفلا يسقونك اللبن ، ويطعمونك الشحمة واللحمة ، وبأتونك بالسّمك ، ويقطعون لك من الجبن أبيضً وأصفر ، ويفتّنون لك الخبز في المرق ، ويؤثرون الطفلُ ببعض طعامه ، وتذللك الفتاةُ على صدرها ، وتمسّحك المرأةُ بيديها ، ويتناولك الرجلُ كما يتناول ابنه ؟ وما لجلدك هذا مُغَبَّرًا كأنك لا تلتطّعه بلعابك ، ولا تتعهدّه بتنظيف ، وكأنك لم ترق قط فتى أو فتاةً يجرى الدّهانُ بريقاً في شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما ؛ وأراك متزايلاً الأعضاء متفكّكاً حتى ضعفت وجهت ، كأنه لا يركبك من حبّ النوم على قدر من كسلك وراحتك ، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك ، وكأن جنينك لم يعرف طينفيسةً ولا حشيةً ولا وسادةً ولا بساطاً ولا طيرازاً ، وما أشبهك بأسد أهلكه إلا يجد إلا العشب الأخضر والحشيم اليابس ، فما لك لحمٌ يجيء من لحم ، ولا دمٌ يكون من دم ، وانحطّ فيه جسمُ الأسد ، وسكنت فيه روحُ الحمار !

قال الهزبل : وإن لك لحمةً وشحمةً ، ولبناً وسمكاً ، وجبناً وفناتاً ، وإنك لتنقضي يومك تلتطّعُ جلدك ماسحاً وغاسلاً ، أو تتطرح على الوسائد والطنافس نائماً وتمتدداً ؟ أمّا والله لقد جاءتك النعمةُ والبلادةُ معاً ، وصلحت لك الحياةُ وفسدت منك الغريزة ، وأحكمت طبعاً ونقصت طبعاً ، وربحت شبعاً وخسرت لذة ، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطف على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقل ، وقد صرت معهم كالدّجاجة تُسمّن لتذبح ، غير أنهم يذبحونك دلالاً ومكلاً .

إنك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك ، وتنظرُ إليهم يأكلون ، وتطمع في

مؤاكلتهم ، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لاشيء غير هذا ، وكأنك مرتبب بجبال من اللحم تأكل منها وتحتبس فيها .

إن كان أول ما في الحياة أن تأكل فأهون ما في الحياة أن تأكل ، وما يقتلك شيء كاستواء الحال ، ولا يحبك شيء كتفاتها ؛ والبطن لا يتجاوز البطن لذته لذته وحدها ، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن العائل الباطنة التي تحركنا إلى لذات أعضائنا ، ومتاع أرواحنا ، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر ، وتجعلنا نعيش من قبيل الجسم كله ، لا من قبيل المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياة ، وأراني بإزائك معدوماً بزوال أسلافى منى ، وأراك بإزائى موجوداً بوجود أسلافك منك . ناشدتك الله إلا ما وصفت لى هذه اللذات التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشبّع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أما علمت - ويحك - أن المحسنة في العيش هي فكرة وقوة ، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة ، وأن لطفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب ، وسعّار الجوع هو الذي يجعل في الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوّضك منه الشحمة واللحمة ، فإن رغباتنا لا بد لها أن تجوع وتغتنى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجد كل منهما حياته في الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التي أنت فيها هي للحياة أمراض مطمئنة ، فإن لم تنقص من لذتها فهي لن تزيد في لذتها ، ولكن مكابدة الحياة زيادة في الحياة نفسها .

وسرّ السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو ، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصور من الدنيا بين الأيدي والأرجل ؟ إنك كالأسد في القفص ، صغرت أجسامته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة في جلد ؛ أما أنا فأسد على سخالبي

وراء أنيابه ، وغَيْضَتِي أَبَدًا تَتَّسِعُ ولا تَزَالُ تَتَّسِعُ أَبَدًا ، وإن الحريةَ لتَبْجَلَنِي
أَتَشَمُّ مِنْ الهَوَاءِ لَذَةً مِثْلَ لَذَةِ الطَّعَامِ ، وَأَسْتَرُوحُ مِنَ التُّرَابِ لَذَةً كَلَذَةِ اللَّحْمِ ،
وما الشَّقَاءُ إِلَّا خَلَّتَانِ مِنْ خِلَالِ النَّفْسِ : أَمَا وَاحِدَةٌ فَإِنْ يَكُونُ فِي شَرِّهِكَ مَا يَجْعَلُ
الكَثِيرَ قَلِيلًا ، وهذه ليست لمثلِي ما دُمْتُ عَلَى حَدِّ الكِفَافِ مِنَ العَيْشِ ؛ وأما
الثَّانِيَةُ فَإِنْ يَكُونُ فِي طَمَعِكَ مَا يَجْعَلُ القَلِيلَ غَيْرَ قَلِيلٍ ، وهذه ليس لِمَا مِثْلِي
ما دُمْتُ عَلَى ذَلِكَ الحدِّ مِنَ الكِفَافِ . والسَّعَادَةُ والشَّقَاءُ كَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، كَلَامُهَا مِنْ
قَبْلِ الذَّاتِ ، لَا مِنْ قَبْلِ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ ، فَمَنْ جَارَاهَا سَعِدَ بِهَا ، وَمَنْ عَكَّسَهَا
عَنْ مَجْرَاهَا فَبِهَا يَشْقَى .

ولقد كنتُ السَّاعَةَ أَخْتَلُّ فَأَرَةً انْجَحَرْتُ فِي هَذَا الشَّقِ . فَمَا بَسَتْ
مِنْهَا لَذَةً وَإِنْ لَمْ أَطْعَمْ لَحْمًا ، وَبِالْأَمْسِ رَمَانِي طِفْلٌ خَبِيثٌ بِمَجَرٍ يُرِيدُ عَذَابِي
فَأَحْدَثَ لِي وَجَعًا ، وَلَكِنْ الْوَجَعُ أَحْدَثَ لِي الْإِحْتِرَاسَ ، وَسَأَغْشَى الْآنَ دَارَ
الِدَارِ الَّتِي بِلِزَانِنَا ، فَأَيُّ لَذَةٍ فِي السَّلََّةِ وَالْخَطِيفَةِ وَالْإِسْتِرَاقِ وَالْإِنْتِهَابِ ثُمَّ
الْوُثْبِ شَدًّا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ هَلْ ذُقْتَ أَنْتَ بَرُوحَكَ لَذَةَ الْفُرْصَةِ وَالنَّهْزَةِ ، أَوْ وَجَدْتَ
فِي قَلْبِكَ رَاحَةَ الْخَالِيسَةِ وَاسْتِرَاقَ الْغَفْلَةِ مِنْ فَأَرَةٍ أَوْ جُرَذٍ ، أَوْ أَدْرَكَتْ يَوْمًا
فَرَحَةَ النِّجَاجَةِ بَعْدَ الرَّوْغَانِ مِنْ عَابِثٍ أَوْ بَاغٍ أَوْ ظَلَمٍ ؟ وَهَلْ نَالْتَكَ لَذَةُ الظَّفَرِ حِينَ
هَوَّلَكَ طِفْلٌ بِالضَّرْبِ ، فَهَوَّلَتْهُ أَنْتَ بِالْعَضِّ وَالْعَقْرِ ، فَقَرَّ عَنْكَ مِنْهَزِمًا
لَا يَلُوبُ ؟

قال السَّمِينُ : وَفِي الدُّنْيَا هَذِهِ الذَّلَالَةُ كُلُّهَا وَأَنَا لَا أَدْرِي ؟ هَلَمْ أَتَوَحَّشُ
مَعَكَ ، لِيَكُونَ لِي مِثْلُ نُكْرِكَ وَدِهَانِكَ وَاحْتِيَالِكَ ، فَيَكُونَ لِي مِثْلُ رَاحَتِكَ
الْمَكْدُودَةِ ، وَلَذَتِكَ الْمَتَعَبَةِ ، وَعُصْرِكَ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ مِنْكَ وَحَدِّكَ . وَسَأُصْطَدِّي
مَعَكَ لِلرِّزْقِ أَطَارِدُهُ وَأَوَاتِبُهُ ، وَأَغَادِيهِ وَأَرَاوِحُهُ . . . فَقَطَعَ عَلَيْهِ الْهَزِيلَ وَقَالَ :

يَا صَاحِبِي ، إِنْ عَلِيكَ مِنْ لَحْمِكَ وَنَعْمَتِكَ عِلَامَةٌ أَسْرِكَ ، فَلَا يَنْقَا نَا أَوَّلُ
طِفْلٍ إِلَّا أَهْوَى لَكَ فَأَخَذَكَ أَسِيرًا ، وَأَهْوَى عَلَيَّ بِالضَّرْبِ لِأَنْطَلِقَ حُرًّا ، فَأَنْتَ
عَلَى نَفْسِكَ بِلَاءٌ ، وَأَنْتَ بِنَفْسِكَ بِلَاءٌ عَلَيَّ .

وكانتُ الْفَأَرَةُ الَّتِي انْجَحَرْتُ قَدْ رَأَتْ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَسَرَّهَا اشْتِغَالُ الشَّرِّ

بالشر . . . وطالت مراقبتها لها حتى ظنت الفرصة ممكنة ، فوثبت وثبة من ينجو بحياته ودخلت في باب مفتوح ، ولحها الهزيل ، كما تلمح العين برقاً أو مض وانطفأ . فقال للسمين : اذهب راشداً ، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة ، أن الوقوف معك ساعة هو ضياع رزق ، وكذلك أمثالك في الدنيا ، هم بالفاظهم في الأعلى وبمعانيهم في الأسفل . . .

بين خروطين

« اجتمع ليلة الأضحى خروفان من أصحابي العيد ، فتكلمنا ؛ فإذا

يقولان ؟ »

هذا هو الموضوع الذي استخرجه أصغر أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة ، وهو أصغر قرائها سنًا ، تَرَفُّ عليه النَّسْمَةُ الثالثة عشرة من ربيع حياته * بارك الله له فيها حاضرة ومقبلة .

ولأستاذنا هذا كلمة هي شعاره الخاصُّ به في الحياة ، يحفظها لتحفظه ، فلا يميلُ عن مَدَرَجَتِها ، ولا يَسْخَرُجُ من معناها ؛ وهي هذه الكلمة العربية : « كالفـرَس الكَرِيم في مَسِيعةِ حَضْرِهِ ^(١) ، كلما ذهب منه شَوَطُ جاء شَوَطُ » . فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل في كرم الفعل ، ولا يَغْنِي شَيْءٌ منهما عن شَيْءٍ ؛ وأن الدمَ الحَرَّ الكَرِيمَ يكونُ مُضَاعَفَ القُوَّةِ بِطَبِيعَتِهِ ، عَظِيمَ الأَمَلِ بهذه القوة المضاعفة ، نَزَاعًا إلى السَّيِّئِ بِمَقْدَارِ أَمَلِهِ العَظِيمِ ، مَرْفَعًا عن الضَّعْفِ والهَوْنِ بهذا الشَّرُّوعِ ، مَتمِيزًا في نَبُوغِ عَمَلِهِ وإِبْلَاعِهِ بِاجْتِنَاعِ هذه الخِصَالِ فِيهِ عَلَى أَمْتِهَا وَأَحْسَنِهَا . فَمَنْ تَمَّ لَا يَتَرَى الحَرَّ الكَرِيمَ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ الأَمَدَ الأَبَدَ في كُلِّ مَا يَحَاوِلُهُ ، فلا يَأْلُو أَنْ يَبْدُلَ جَهْدَهُ لِي غَايَةِ الطَّاقَةِ وَبَلْغِ القُدْرَةِ ، مُسْتَمْدًا قُوَّةً بَعْدَ قُوَّةٍ ، مُحَقِّقًا السَّحَرِ القَادِرَ الَّذِي فِي نَفْسِهِ ، مُتَلَقِّيًا مِنْهُ وَسَائِلَ الإعْجَازِ فِي أَعْمَالِهِ ، مُرْسِلًا فِي نَبُوغِهِ مِنْ تَوْجِجِ دَمِهِ أَضْوَاءَ كَأَضْوَاءِ النَّجْمِ ، تُثَبِّتُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّهُ النَّجْمُ لِأَشْيَاءٍ آخِرِ .

ولما قَدِمَ إِلَى (الأستاذ) مَوْضُوعَهُ فِي هَذَا الْوِزْنِ الْمُدْرَسِيِّ - وَأَظَنَّهُ قَدْ نَزَعَتْهُ حَاجَةٌ مَدْرَسِيَّةٌ إِلَيْهِ - قُلْتُ : حُبًّا وَكِرَامَةً . وَهَإِنَّا أَكْتَبَهُ مُنِجًّا فِيهِ « كَالْفَرَسِ الْكَرِيمِ فِي مَعْبَةِ حَضْرِهِ » . . . وَلَعَلَّ الْأَسْتَاذَ حِينَ يَقْرُؤُهُ لَا يَثُورُ فِيهِ عَلَامَاتٌ كَثِيرَةٌ بِقَلَمِهِ الْأَحْمَرِ . . . !

• • •

* كَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ ١٩٣٤ .

(١) هَذَا كَمَا يُقَالُ بِالْعَامِيَةِ : فِي عَزِّ جِرِيهِ .

اجتمع ليلة الأضحى خروfan من الأضاحي في دارنا: أما أحدهما فكبشٌ أقْرَنُ ، يحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين ، وقد انتهى سِمَنُهُ حتى ضاق جلده بلحمه ، وسَحَّ بدنه بالشحم سَحًّا ، فإذا تحرَّك خلسته سحابةٌ يضطربُ بعضها في بعض ، ويهتزُّ شيءٌ منها في شيء ؛ وله وافرٌ^(١) يجرُّها خلفه جرًّا ، فإذا رأيتها من بعيد حسبتها حملاً يتبع أباه ؛ وهو أصوفُ ، قد سَبَّغَ صوفُه واستكشَفَ وتراكم عليه ؛ فإذا مشى تبَخَّرَ فيه تبخَّرَ الغانية في حلَّتْها ، كأنما يشعر مثل شعورها أنه يلبسُ مَسَرَّاتِ جسمه لاثوبَ جسمه ؛ وهو من اجتماع قوته وجبروته أشبه بالقلعة ، يعلوها من هامته كالبرج الحري فيهِ مِدْفَعانِ بارزان . وتراه أبدأً مُصْعَراً خدَّ كأنه أمير من الأبطال ، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ في أمره ونهيه ، لا يخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره .

وأما الآخر فهو جَدْعٌ في رأس الحَوولِ الأول من مَوْلده ، لم يُدْرِكْ بعدُ أن يُضَحَّحِي ، ولكن جيء به للقرم إلى لحمه الغَضِّ ؛ فالأول أضحيةٌ وهذا أكولةٌ ؛ وذلك يُتَصَدَّقُ بلحمه كله على الفقراء ، وهذا يُتَصَدَّقُ بثُلثيه ويبقى الثلثُ طعاماً لأهل الدار .

وكان في لِينه وترجرجيه وظَرْفِ تكوينه ومَسَرَّحِ طبعه ، كأنما يُصوِّرُ لك المرأةَ آنسةً رقيقةً مُتَوَدِّدةً . أما ذاك الضخمُ العاني المتجبر الشامخُ ، فهو صورةُ الرجل الوحشيَّ أخرجته الغابةُ التي تخرج الأسدَ والحيةَ وجذوعَ الدَّوْحَةِ الضخمةِ ، وجعلتْ فيه من كل شيء منها شيئاً يُخَافُ وَيُتَّقَى .

وكان الجَدْعُ يَسْغُو لا ينقطع ثِغَاؤُه ، فقد أخذ من قطيعه انتزاعاً فأحسَّ الوحشةَ ، وتنبهتْ فيه غزيرةُ الخوفِ من الذئبِ ، فزادته إلى الوحشة قِلَاقاً واضطراباً ؛ وكان لا يستطيع أن يَتَنَفَّلَ ، فهو كأنما يهربُ في الصوت ويعدو فيه عدواً .

أما الكبشُ فيرى مثلَ هذا مَسَبَّةً لقرنيه العظيمين ، وهو إذا كان في القطيع كان كبشَه وحاميَه والمُقَدَّمَ فيه ، فيكونُ القطيعُ معه وفي كَتَفِهِ

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان إذا كان عظيم الألية .

ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع ؛ فإذا فقد جماعته لم يكن في منزلة المستظر أن يلحق بغيره ليحتمى به فيقلق ويضطرب ، ولكنه في منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طلباً لحمايته وذماره ، فهو ساكن رابط الجأش مغتبط النفس ، كأنما يتصدق بالانتظار . . .

* * *

فلما أدبر النهار وأقبل الليل ، جرى للخروفين بالكلاً من هذا البرسم بعثلافه ، فأحس الكبش أن في الكلاً شيئاً لم يدرك ما هو ، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل ، وعثرته كآبة من روحه ، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض ، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يذبح ، وعاف أن يطعم ، ورجع كأول فطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناول .

وكأنما جثم الظلام على شحمه ولحمه ؛ فإنه متى ثقل الهم على نفس من الأنفس ، ثقل على ساعتها التي تكون فيها ، فتطول كآبؤها ويطول وقتها جميعاً . فأراد الكبش أن يتفرج مما به ، وينفّس عن صدره شيئاً ، وكان الصغير قد أنس إلى المكان والظلمة ، وأقبل يعتلف ويخضم الكلاً ، فقال له الكبش : أراك فارهاً يا ابن أخي ، كأنك لا تجد ما أجد ؛ إني والله أعلم علماً لا تعلمه ، وإني لأحس أن القدر طريقه علينا في هذه الليلة ، فهو مصيبحنا ما من ذلك بدت .

قال الصغير : أعني الذئب ؟

قال : ليته هو ، فأنا لك به لو أنه الذئب ؛ إن صوفي هذا درع من أظافره ، وهو كالشبكة يستشعب فيها الطفر ولا يتخلص ، ومن قرني هذين ترس ورمح ، فأنا واثق من إحراز نفسي في قتله ، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه ، فإن لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فن من القتل . وهذا القرن الملتف الأعقد المذرب كالسنان ، لا يكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمة عظامه ، فيحدث له من الفرع ما تنحل به قوته ، فإيوائبي إلا مستخادلاً ، ولا يقدم على إلا توهم الذبيبة للخروفيّة ، فإن أساس القوة والضعف

كليهما في السُّوس والطبيعة ، غير أنه لا يعلم أنى خرجت من الحروفية إلى الجاموسية...! فما يَعْلَمُهُ ذلك إلا بِقَرُّ بطنه أو التطويح به من فوق هذا القَرْن ، أَقْدَفُهُ قذفةً عاليةً تلقيه من حائق ، فتدقُّ عظامه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فإذا تخشى بعد الذنب ؟ إن كانت العصا فهي إنما تضرب منك الصوف لا الظهر .

قال الكبش : ويحك ! وأى خروف يخشى العصا ؟ وهي إنما تكون عصا من يَعْلَفُهُ وَيَسْرَعُهُ ، فهي تنزلُ عليه كما تنزلُ على ابن آدم أقدارُ ربه ، لا حطماً ولكن تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً ؛ ومن قبلها النعمة ، وتكون معها النعمة ، وتجيء بعدها النعمة ؛ أبلغ الكفرُ ما يبلغ كفر الإنسان بنعمة ربه : إذا أنعم عليه أَعْرَضَ ونأى بجانبه ، وإذا مَسَّهُ الشر انطلق ذا صُراخ عريض ؟

وكيف تراني (ويحك) أخشى الذنب أو العصا ، وأنا من سلالة الكبش الأسدي ؟

قال الصغير : وما الكبشُ الأسدي ، وكيف علمت أنك من نَجْلِهِ ، ولا علم لي أنا إلا هذا الكَلأ والعلف والماء والسمَرَّاحُ والمُعْدَى ؟

قال الكبش : لقد أدركت أمي وهي نعجةٌ قَحْمَةٌ كبيرة ، وأدركتُ معها جدتي وقد أفرطَ عليها الكبيرُ حتى ذهبَ فمُها ، وأدركتُ معها جدتي وهو كبش هَرِمٌ مُتَقَدِّدٌ أعجفُ كأنه عظام مُغْطاة ، فعن هؤلاء أخذتُ ورويتُ وحفظت :

حدثني أمي ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفداء الذي قَدَّى اللهُ به إسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام ، وكان كبشاً أبيضَ أَقْرَنَ أَعْيَنَ ، اسمه حرير .

(قال) : وأعلم يا ابن أخي أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يُدرکه غيري ، أن جدنا هذا كان مكسوًّا بالحرير لا بالصوف ، فلذلك سمي حريراً . . .

(قالت أمي) : والمحفوظُ عند علمائنا أن ذاك هو الكبشُ الذي قرَّبه هابيلُ حين قَتَلَ أخاه ، لتَمَّ البليةُ على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوان معاً .

(قالوا) : فَتَقَبَّلَ مِنْهُ وَأَرْسَلَ الْكَبِشُ إِلَى الْجَنَّةِ فَبَقِيَ يَرْعَى فِيهَا حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي هُمْ فِيهِ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ تَحْقِيقًا لِرُؤْيَا النَّبُوءَةِ ، وَطَاعَةً لِمَا ابْتُلِيَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْإِمْتِحَانِ ، وَلِيُشَبِّهَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ إِذَا قَوَّى إِيمَانُهُ لَمْ يَجْزَعْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَلَوْ جَرَّ السَّكَّيْنِ عَلَى عُنُقِ ابْنِهِ ، وَهُوَ إِنَّمَا يَجْرُهَا عَلَى ابْنِهِ وَعَلَى قَلْبِهِ !
(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كله .

أما فخر سُلَّالَتِي أَنَا ، فَذَلِكَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ جَدِّي ، تَرْوِيهِ عَنْ أَبِيهَا ، عَنْ جَدِّهَا ، وَذَلِكَ حِينَ تَوَسَّمتُ فِي مَخَايِلِ الْبُطُولَةِ ، وَرَجَعْتُ أَنْ أَحْفَظَ التَّارِيخَ .
قالت : إِنْ أَصْلُنَا مِنْ دِمَشْقَ ، وَإِنَّهُ كَانَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَجُلٌ سَبَّاعٌ ، قَدْ اتَّخَذَ شَيْلَ أَسَدٍ فَرَبَّاهُ وَرَاضَهُ حَتَّى كَبُرَ ، وَصَلَّى يَطْلُبُ الْخَيْلَ ، وَتَأْذَى بِهِ النَّاسُ ، فَقِيلَ لِلْأَمِيرِ ^(١) : هَذَا السَّبْعُ قَدْ آذَى النَّاسَ ، وَالْخَيْلُ تُتَفَرِّقُ مِنْهُ وَتَجِدُ مِنْ رِيحِهِ رِيحَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ مَا يَزَالُ رَابِضًا لَيْلَةً وَنَهَارَهُ عَلَى سُدَّةٍ بِالْقَرَبِ مِنْ دَارِكِ . فَأَمَرَ فُجَاءَ بِهِ السَّبَّاعُ وَأَدْخَلَهُ إِلَى الْقَصْرِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِخُرُوفِ مَا اتَّخَذَ فِي مَطْبَخِهِ لِلذَّبْحِ ، وَأَدْخَلُوهُ إِلَى قَاعَةٍ ، وَجَاءَ السَّبَّاعُ فَأَطْلَقَ الْأَسَدَ عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعُوا يَرُونَ كَيْفَ يَسْطُو بِهِ وَيَفْتَرِسُهُ .

قالت جدتي : فَحَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : حَدَّثَنِي جَدُّكَ : أَنَّ السَّبَّاعَ أَطْلَقَ الْأَسَدَ مِنْ سَاجُورِهِ ^(٢) وَأَرْسَلَهُ ، فَكَانَتِ الْمَعْجِزَةُ الَّتِي لَمْ يَقْضُ بِهَا خُرُوفٌ وَلَمْ تَوْثُرْ قَطًّا إِلَّا عَنْ جَدِّهَا ، فَإِنَّهُ حَسِبَ الْأَسَدَ خُرُوفًا أَجْمَمَ لَا قُرُونَ لَهُ ، وَرَأَى دِقَّةَ خَصْرِهِ ، وَضُمُورَ جَنْبِيهِ ، وَرَأَى لَهُ ذِيلاً كَالْأَلْيَةِ الْمُفْرَعَةِ الْمَيْتَةِ ، فَظَنَّهُ مِنْ مَهَنَازِيلِ الْغَنَمِ الَّتِي قَتَلَهَا الْمُجْدَبُ ، وَكَانَ هُوَ شَبَّعَانِ رِيَّانَ ، فَمَا كَتَبَ أَنْ حَمَلَ عَلَى الْأَسَدِ وَنَطَحَهُ ، فَانْهَزَمَ السَّبْعُ مِمَّا أَذْهَلَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَفَاجِئَةِ وَحَسِبَ جَدُّنَا سَبَّعًا قَدْ زَادَهُ اللَّهُ أَسْلِحَةً مِنْ قَرْنِيهِ ، فَأَعْتَرَاهُ الْخَوْفُ وَأَدْبَرَ لَا يَلْوِي . وَطَمَعَ جَدُّنَا فِيهِ فَاتَّبَعَهُ ، وَمَا زَالَ يُطَارِدُهُ وَيَنْطَحُهُ ، وَالْأَسَدُ يَفِرُّ مِنْ وَجْهِهِ وَيَدُورُ حَوْلَ الْبُرْكََةِ ، وَالْقَوْمُ قَدْ غَلِبَهُمُ الضَّحْكَ ، وَالْأَمِيرُ مَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ

(١) هذه القصة شهد بها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة ، وقصها في كتابه (الاعتبار) ؛ والأمير المذكور في القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا في عبارة القصة .

(٢) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوهما .

إعجاباً وفخراً بجدنا . فقال : هذا سبعٌ لثيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ،
ثم اسلخوه . فأخذ الأسدُ وذُبِحَ ، وأعتقَ جدُّنا من الذبح ، وكان لنا في تاريخ
الندنيا : إنسانها وحيوانها أثران عظيمان ؛ فجدُّنا الأول كان فداء لابن نبي ،
وجدنا الثاني كان الأسد فداءه !

* * *

قال الصغير للكبش : قلتَ : الذبح ، والفداء من الذبح ؛ فما الذبح ؟
قال الكبش : هذه السنَّة الجاريةُ بعد جدنا الأعظم ، وهي الباقية آخرَ
الدهر ؛ فينبغي لكل منا أن يكون فداء لابن آدم !

قال الصغير : ابن آدم هذا الذي يخدمنا ويحتزُّ لنا الكلاء ، ويقدم لنا العلفَ ،
ويعشى وراءنا فنسحبُه إلى هنا وههنا . . . ؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ،
أولاً ، فأنت يا أخا جدتي . . . قد كبرتَ وخيرفت !

قال الكبش : ويحك يا أبله ! متى تتحلَّل هذه العقدة التي في عقلك ؟ إنك
لوعلمتَ ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض ، ولرجعتَ من القلق والاضطراب
كحبة القمح في غِرْبَال يهتزُّ وينفض !

قال الصغير : أتعني ذلك الغِرْبَال وذلك القمح وما كان في القرية ، إذ
تناولت ربة الدار غِرْبَالَهَا تنفضُ به قمحَهَا ، فغافلَتْها ونطحت الغِرْبَالُ
فانقلب عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعت فيه التقاطاً حتى ملأت في قبل أن
تُزيحني المرأة عنه ؟

فهز الكبش رأسه فِعْلَ مَنْ يريد الابتسامَ ولا يستطيعه ، وقال : أرايتَ
حانوت القَصَّاب ، ونحن نمرُّ اليوم في السوق ؟
قال : وما حانوت القَصَّاب ؟

قال : أرايتَ ذلك السَّلِيخَ من الغنمِ البِيضِ المُلَعَّقَةِ في تلك المَعَالِيقِ ،
لأجلِندَ عليها ولاصُوف ، وليس لها أرؤسٌ ولاقوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السَّلِيخ ؟ إنه إن صح ما حدثتني به عن أمك ، فهذه
غنم الجنة ، تبيت ترعى هناك ثم تجيء إلى الأرض مع الصبح ، وإني لمترقب
شمس الغد ، لأذهب فأراها وأملأ عينيَّ منها .

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لامن فوقك . .
لقد رأيت أخى مذ كنت جنداً عا مثلك ؛ ورأيت صاحبنا الذى كان يعلقه ويُسَمِّنُه
قد أخذه ، فأضجَعَه ، فجشَمَ على صدره شراً من الذئب ، وجاء بشقْرة
بيضاء لامعة ، فجرَّها على حلقه ، فإذا دَمُه يَشْخَبُ ويتفجَّرُ ، وجعل
المسكين ينتفض ويدُحْص برجله ، ثم سَكَنَ وبَرَدَ ؛ فقام الرجل ففَصَلَ
عنقه ، ثم نَحَسَ فى جلده ونفخه حتى تَطَبَّلَ ورجع كالقربة التى رأيتها
فى القرية مملوءة ماء فحسبتها أُمَّك ؛ ثم شقَّ فيه شقاً طويلاً . ثم أدخل يده
بين الجلد والصفاق ، ثم كشطه وسَحَفَ الشَّحْمَ عن جنبيه ، فعاد
المسكين أبيضَ لاجلد له ولا صوف عليه ، ثم بقَر بطنه وأخرج ما فيه ، ثم
حطَمَ قوائمه ، ثم شدّه فعلقه فصار سليخاً كغنم البخنة التى زعت ! وهذا
- أيها الأبله - هو الذبح والسلخ !

قال الصغير : وما الذى أحدث هذا كله ؟

قال : الشقْرة البيضاء التى يسمونها السكين !

قال الصغير : فقد كانت الشقْرة عند حلقه حيالَ فيه ؛ فلماذا لم ينتزعها

فيأكلها ؟

قال الكبش : أيها الأبله الذى لا يعلم شيئاً ولا يحفظ شيئاً ، لو كانت

خضراء لأكلها !

قال : وما خَطَبُ أن تجيء الشقْرة على العنق ، أفلم يكن الحبل فى عنقك

أنت فجعلتَ تجاذِب فيه الرجلَ حتى أعييتَه ، ولولا أنى مشيت أمامك لما

انقَدَت له ؟

قال الكبش : ما أدرى والله كيف أفهمك أن هذا كله سيجرى عليك ،

فسترى أموراً تنكرها ، فتعرف ما الذبح والسلخ ، ثم تصير أشلاء فى القُدور

تُضْرَم عليها النار ، فيأكلُك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكئال . . !

قال الصغير : وماذا على أن يأكلنى ابن آدم ، ألا ترائى آكل العُشب ،

فهل سمعتَ عوداً منه يقول : الرجلُ والسكين ، والذبح والسلخ . . . ؟

قال الكبش فى نفسه : لعمري إن قوة الشباب فى الشباب أقوى من حكمة

وصى القلم - - أول

الشيوخ في الشيوخ، وما نفع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يعضيه، كراى الشيخ الفانى ؛ يرى بعقله الصواب حين يكون جسمه هو الخطأ مركباً في ضعفه غلطة على غلطة لا عضواً على عضو ... ؟ وهل رأى الصحيح للعالم الذى نعيش فيه إلا بالجسم الذى نعيش به ؛ وما جدوى أن يعرف الكبير حكمة الموت ، وهو من الضعيف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهين ، فضلاً عن المرض المعضل ، فضلاً عن المرض المزمن ، فضلاً عن الموت نفسه ؛ وما خطر أن يجهل الشباب تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالي الموت ، فضلاً عن المرض ؟

لو أذن الشاب من الفتيان بيوم انقطاع أجله ، وعلم أنه مصبحه أو ممسيه ، لأمدته نفسه بأرواح السنين الطويلة ، حتى ليرى أن صبح الغد كأنما يأتى من وراء ثلاثين أو أربعين سنة ؛ فما يتبينه إلا كالفكر المنسى مضى عليه ثلاثون سنة أو أربعون . ولو أذن الشيخ بيوم مضرعه ، وأيقن أن له مهلة إلى تمام الحول ، لطاربه الذعر واستبقرغه الوجع من ساعته ؛ ورأى يومه البعيد أقرب إليه من الصبح ، وابتلته طبيعة جسمه المختل بالوساوس الكثيرة ، تجتلبها كما تجتلب الرياح صدوع المنزل الخرب . فذاك بالشباب يقبض على الزمن ؛ فيعيش في اليوم القصير مثل العام رخيئاً ممدوداً ؛ فهو رابطٌ جلد ؛ وهذا بالكبير يقبض الزمن عليه فيعيش في العام الطويل مثل اليوم متلاحقاً آخره بأوله ، فهو قلق طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشعور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ماتضعه النفس في الأيام .

* * *

ثم إن الكباش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستثقلت نوماً ، فقال : هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة . إن هذا السرُّ هو كسر النبات الأخضر ، لا يقطع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخراً هائلاً ، قائلاً على المصائب : هاأنذا ...

فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودة له ، والذبح بعد ساعات قليلة ؛ كأنما هو في زمنين ؛ أحدهما من نفسه ، فبه ينام ، وبه يلهو ، وبه

يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه .

إن الألم هو فهمُ الألم لاغير . فما أقيحَ عِلْمُ العقل إذا لم يكن معه جهلُ النفس به وإنكارُها إياه . حسَبُ العلم والعلماء في السخرية بهم وبه هذه الحقيقة من النفس . أنا لَوَناطحتُ كبشاً من قُرُوم الكباش ، ووقفتُ أفكر وأدبر وأتأمل ، وأعتبرُ شيئاً بشيء — ذهب فكري بقوتي ، واسترخى عَصَبِي ، وتحلَّل غضبي كله ، وكان العلمُ وبالأعلى ؛ فإن حاجتي حينئذ إلى الروح وقواها وأسبابها أضعافُ حاجتي إلى العلم . والروح لاتعرف شيئاً اسمه الموت ، ولا شيئاً اسمه الوجع ؛ وإنما تعرف حظها من اليقين ، وهدهوها بهذا الحظ ، واستقرارها مؤمنة ما دامت هادئةً مستيقنة .

وقد والله صدقَ هذا الجذع الصغير ؛ فما على أحدنا أن يأكله الإنسان ؟ وهل أكلنا نحن هذا العُشب ، وأكلُ الإنسان إيانا ، وأكلُ الموت للإنسان — هل كلُّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمة في شكل من أشكالها ؟

يُشبههُ والله إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له ، أن أكونَ كخروف أحرق لاعقل له ، فظنَّ إطعامَ الإنسان إياه من باب إطعامه ابنه وابنته وامرأته ومن تجب عليه نفقته ! وهل أوجبَ نفقتي على الإنسان إلا لحمي ؟ فإذا استحقَّ له فلعمري ما ينبغي لي أن أزعم أنه ظلمني اللحم إلا إذا أقررتُ على نفسي بدياً أني أنا ظلمتُهُ العكسَ وسرقته منه .

كلُّ حيٍّ فإنما هو شيءٌ للحياة أعطيَها على شرطها ، وشرطها أن تنتهي ؛ فسعادته في أن يعرف هذا ويقررَ نفسه عليه حتى يستيقنه ، كما يستيقن أن المطر أول فصل الكسلا الأخضر . فإذا فعل ذلك وأيقن واطمأن ، جاءت النهاية متممةً له لاتافصةً إياه ، وجرت مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعدَّ لها . أما إذا حسب الحيُّ أنه شيءٌ في الحياة ، وقد أعطيَها على شرطه هو ، من تَوَهَّم الطمع في البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحي في وهمه ذاك ، وفي عمله على هذا الوهم ؛ إذ لاتكون النهاية حينئذ في مجيئها إلا كالعقوبة أنزلت بالعمركله ، وتجيء هادمةً منغصةً ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامها ؛ فتؤلم قبل أن تجيء ، شرّاً مما تؤلم حين تجيء !

لقد كان جدّى والله حكيماً يوم قال لى : إن الذى يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعِدّاً لها ؛ فإن كان مُعِدّاً لها عاش راضياً بها ، فإن عاش راضياً بها كان عمره فى حاضر مستبّر ، كأنه فى ساعة واحدة يشهد أولها ويُحس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغصّ عليه ما دام يتقاد معه وينسجم فيه ، غير محاول فى الليل أن يُبعدَ الصبح ، ولا فى الصبح أن يُبعدَ الليل . قال لى جدّى : والإنسانُ وحده هو التّعيس الذى يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقى شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل ، فيبيت ينطح الظلمة المُمتدّجة على الأرض ، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليل بقرنيه ويزحرّحه . . . !

وكم قال لى ذلك الجلد الحكيم وهو يعظنى : إن الحيوانَ منا إذا جمع على نفسه همّاً واحداً ، صار بهذا الهم إنساناً تَعِساً شقيّاً ، يُعطى الحياة فيقبلُها بنفسه على نفسه شيئاً كالموت ، أو موتاً بلا شيء . . . !

* * *

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع فى قلبى أنك السلعة كنتَ فى شأن عظيم ، فما بالك منتفخاً وأنت ههنا فى المنحصر لا فى المرعى !

قال الصغير : يا أبا جدّى لقد تحققتُ أنك هَرِمْتَ وخَرِفْتَ ، وأصبحتَ تَمُجُّ الأُتَابَ والرأى !

قال الكبش : فما ذاك ويحك ؟

قال : إنك قلتَ : إن هذا الإنسان غاد علينا بالشفرة البيضاء ، ووصفتَ الذبّعَ والسلخَ والأكل ؛ وأنا الساعة قد نمتُ فرأيتُ فيما أرى ، أننى نطحتُ ذاك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا ، وهيجتُ به حتى ضرعته ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسنانى ، فثلمته فى نحره حتى ذبحته ، ثم افتلدتُ منه مُضْغَةً فلُكْتُهَا فى فمى ؛ فما عرفتُ والله فيما عرفتَ لَحْناً ولا عَفْناً فى الكلاء هو أقبحُ مذاقاً منه !

إن الإنسانَ يستطِبُ لحمنا ، ويتغذى بنا ، ويعيش علينا : فما أسعدنا أن نكون لغيرنا فائدةً وحياةً ، وإذا كان الفناء سعادةً نعطيها من أنفسنا ، فهذا الفناء هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا . وما هلاكُ الحى لقاء منفعة له أو منفعة منه

إلا انطلاق الحقيقة التي جعلته حياً ، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها .

قال الكبير : لقد صدقتَ والله ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرفُ من الإنسان ؛ فإنه يقضى العمرَ آخذاً لنفسه ، متكالباً على حظها ، ولا يُعطى منها إلا بالقهر والغلبة والخوف . تعالَ أيها الذابح ، تعالَ خذ هذا اللحم وهذا الشحم ؛ تعالَ أيها الإنسانُ لنعطيك ؛ تعالَ أيها الشحاذ !

الطفولتان

(عصمت) ابن فلان باشا طفلٌ مُتَرَفٌّ يكادُ ينصرفُ لِنَبَا ، وتراه يَرَفُّ رَفِيفًا بما نشأ في ظلال العزِّ ، كأن لروحه من الرقة مثل ظل الشجرة حول الشجرة . وهو بين لِداته من الصَّبيان كالشَّوكة الخضراء في أُمْلودها الرِيَّان ، لها منظرُ الشوكة ؛ على مجسَّة لينة ناعمة تُكذِّب أنها شوكة إلا أن تَيْسَّبَسَ ونَسَوَقَّح .

وأبوه « فلان » مديرٌ لمديرية كذا ، إذا سُئِلَ عنه ابنه قال : إنه مدير المديرية . لا يكاد يعدو هذا التركيب ، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعل أباه مديراً مرتين وكثيراً ما تكون النعمةُ بذِئَةٍ وَقَاحًا سيئةَ الأدب في أولاد الأغنياء ، وكثيراً ما يكون الغنى في أهله غِنًى من السيئات لا غير !

وفي رأى (عصمت) أن أباه من علُوّ المنزلة كأنه على جَنَاح النَّسْرِ الطائر في مَسْبَحِهِ إلى النجم ، أما آباء الأطفال من الناس فهم عنده من سُقُوط المنزلة على أجنحة الذباب والبَعُوض !

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يَتَرَوَّحَ منها إلا وراءه جُنْدَى يمشى على أثره في الغَدْوَة والروحة إذ كان ابنُ المدير ، أى ابنَ القوة الحاكمة ، فيكون هذا الجندي وراء هذا الطفل كالمَتَنَبِّهَةِ له عند الناس ، تُفَصِّحُ شَأْرَتَهُ العسكرية بلغات السابِلَةِ جَمَعَاء أن هذا هو ابنُ المدير . فإذا رآه العربى أو اليونانى ، أو الطليانى أو الفرنسى ، أو الإنجليزى أو كائنٌ مَن كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لا يفهمُ لسانٌ منها عن لسان - فهموا جميعاً من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير ؛ وأنه من الجندى الذى يَتَّبِعُهُ كالمادة من القانون وراءها الشرح !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصَّيَّانِ . لو أنه يوم وُلِدَ لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس ، بل وُلِدَ ابنَ عشر سنين كاملة لتشهد له الطبيعة أنه كبيرٌ قد انصدعت به مُعْجَزة ! وإلا فكيف يمشى الجندى من جنود

الدولة وراء طفل فيتبعه ويخدمه ويستصاع لأمره ؛ وهذا الجندي لو كان طريد هزيمة قد فرّ في معركة من معارك الوطن ، وأريد تخليده في هزيمته وتخليد ما عليه بالتصوير — لما صوّر إلا جندياً في شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم ؛ في صورة يكتب تحتها : « نَفَايَة عسكـرية ! »

* * *

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويل واحد : هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني ، وإن صغرت تلك وجعلت هذه ؛ ومن هنا يكذب الرجل ذو المنصب ، فيرفع شخصه فوق الفضائل كلها ؛ فيكبر عن أن يكذب فيكون كذبه هو الصدق ، فلا ينكر عليه كذبه أي صدقه . . . ! ويخرج من ذلك أن يتقرر في الأمة أن كذب القوة صدق بالقوة ! وعلى هذه القاعدة يقاس غيرها من كل ما يخذل فيه الحق . ومتى كانت الشخصيات فوق المعاني السامية طفت هذه المعاني تخرج موجهها محاولة أن تعلو ، مكرهة على أن تنزل ؛ فلا تستقيم على جهة ولا تنظم على طريقة ؛ وتقبل بالشيء على موضعه ، ثم تكبر كبراً فتدبر به إلى غير موضعه ، فتضل كل طبقة من الأمة بكبرائها ، ولا تكون الأمة على هذه الحالة في كل طبقاتها إلا صغاراً فوقهم كبارهم ؛ وتلك هي تهينة الأمة للاستعباد متى ابتليت بالذى هو أكبر من كبارها ؛ ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعة النفاق يحتمى به الصغر من الكبير ، وتنظم به ألفة الحياة بين الذلة والصولة !

* * *

وتخلف الجندي ذات يوم عن موعد الرواح من المدرسة ، فخرج (عصمت) فلم يجده ، فبدأ له أن يتسكع في بعض طرق المدينة لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير ، وحنّ حنينه إلى المغامرة في الطبيعة ، ولبست الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوّشون ويتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتى وكأنهم أبناء بيت واحد مست بكل من كل رحيم ، إذ لا ينتسبون في اللهو إلا إلى الطفولة وحدها .

وانساق (عصمت) وراء خياله ، وهرب على وجهه من تلك الصورة التي

يمشي فيها الجندی وراء ابن المدير ، وتغفل في الأرقعة لايبالى ما يعرفه منها وما لايعرفه ، إذ كان يسير في طرق جديدة على عينه كأنما يحلم بها في مدينة من مدن النوم .

وانتهى إلى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبياني ، فانتبذ ناحية ووقف يصغى إليهم متهيباً أن يقدم ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمع فإذا خبيث منهم يعلم الآخر كيف يضرب إذا اعتدى أو اعتدى عليه ، فيقول له : اضرب أينما ضربت ، من رأسه ، من وجهه ، من الحلقوم ، من مرقأ البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تقل إلى أنا علمتك . . . !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أمّا قلت لك : إنه تعلم السرقة من رؤيته اللصوص في السّما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين في السّما كن لصّاً واعمل مثلاً ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوا وقولوا لي : « ياسعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لانستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . » فقال الأولاد في صوت واحد : « ياسعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » فردّ عليهم (سعادته) : اشترى لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات .

فنظر إليه خبيث منهم وقال : ياسعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشترك أبك حذاء ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك ياسعادة المدير ، فأرسلني إلى المدرسة وقت الظهر فقط . . . !

* * *

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترفّ بإحساسها ، كالورقة الخضراء عليها طلّ الندى ، وأخذ قلبه يفتتح في شعاع الكلام كالزهرة في الشمس ، وسكر بما يسكر به الأطفال حين تقدّم لهم الطبيعة مكان اللهو معداً مهيباً ،

كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة ، وتعامُ لذتها أن الزمن فيها منسى ، وأن العقل فيها مُهمل . . .

وأحسن ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيّتهم وسجيّتها - إنما هي المدرسة التي لاجُدرانَ لها ، وهي تربيةُ الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه فتُبَدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتُفَرِّغُه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد وبذلك تكسبه أحو نشاطه ، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهدّيه إلى أن يُبدع بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له ، وتجعلُ خطاه دائماً وراء أشياء جديدة ، فتُسدّده من هذا كله إلى سر الإبداع والابتكار ، وتلقّيه العِلْمَ الأعظمَ في هذه الحياة ، عِلْمَ نَصْرَةِ نفسه وسرورها ومرحيتها ، وتطبعه على المزاج المتطلّع المتهلّل المتفائل ، وتسدّق به على دنياه كالْفَيْضَمَانِ في النهر ، تغور الحياة فيه وتغور به ، لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكلَ الطفل وليس له وجوده ولا عالمه ، فيكونُ المسكين في الحياة ولا يجدها ، ثم تراه طفلاً صغيراً ، وقد جمعوا له همومَ رجل كامل !

ودبّت روح الأرضِ ديبّتها في (عصمت) ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمار الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداء بطفولتهم ، وأنه هو وأمثاله هم الفقراء والمساكين في الطفولة ؛ وأن ذلك الجندی الذي يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن ؛ وأن الألعابَ خير من العلوم ، إذ كانت هي طِفْلِيَّةَ الطفل في وقتها ، أما العلوم فرُجولةٌ مُلزَقةٌ به قبل وقتها تُوقِرُه وتحولُه عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولة ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه ، ويكون في الأول طفلاً رجلاً ، ثم يكون في الآخر رجلاً طفلاً .

وأحسن مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هي بيته الواسع الذي لا ينحرج أن يصرخ فيه صراخه الطبيعي ، ويتحرك حركته الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة ، ولا حاملو العصي من الضباط ؛ بل حق البيت الواسع أن تكون فيه الأبوة الواسعة ، والأخوة التي تنفسح للمئات ؛

فيمرّ الطفل المتعلم في نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل ، على تدريج في التوسّع شيئاً فشيئاً ، من البيت ، إلى المدرسة ، إلى العالم .

* * *

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولته تَشَبَّ وتَسَرَّجِل ، ورخاوتُه تشدُّ وتماسك ؛ وكانت حركاتُ الأطفال كأنها تُحرَّك من داخله ، فهو منهم كالطفل في السما حين يشهد المتلاكين والمتصارعين ، يَسْتَطِيرُهُ الفرح ، ويتوثب فيه الطفل الطبيعي بِمَرَحِهِ وَعُنْفَوَانِهِ ، وتقلّصُ عضلاته ، ويتكسّفُ جِلْدُهُ ، وتجتمع قوَّتُه ؛ حتى كأنه سيُظاھر أحدَ الخصمين ويلكم الآخر فيكُوْرُهُ ويصرعه ، ويفضّ معركةَ الضرب الحديدى بضربته اللينة الحريرية . . !

فما لبث صاحبنا الغريبُ الناعمُ أن تخشّن ، وما كذب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفالُ ولهُوْهم وعشْهم ، لإقبالِ الجوّ على الطير الحبيس المعلق في مسمارٍ إذا انفرج عنه القفص ؛ وإقبالِ الغابة على الوحش القسّيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها ؛ وإقبالِ الفلاة على الظبي الأسير إذا ناوَص فأفلت من الحِباله .

وتقدم فادغمَ في الجماعة وقال لهم : أنا ابنُ المدير . فنظروا إليه جميعاً ، ثم نظر بعضهم إلى بعض ، وسفّرتْ أفكارُهم الصغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائل : إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير .

فقال آخر : ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير

فقال الثالث : ليست كأمتك يا بعْطيطي ولا كأأم جُعْلُص (١) !

قال الرابع : يا ويلك لو سمع جُعْلُص ، فإن لكَمَاتِهِ حينئذ لا تترك أمتك تعرف وجهك من القفا !

قال الخامس : ومن جُعْلُص هذا ؟ فليات لأريكم كيف أصارعه ، فأجذبهُ فأعصرهُ بين يدي ، فأعقلُ رجلَه برجلي ، فأدفعهُ ، فيتخاذل ، فأعركهُ ، فيخِرُّ على وجهه ؛ فأسمّره في الأرض بمسمار !

(١) للامة أسماء ونسب غريبة منها هذه .

فقال السادس : هاها ! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جُعَلص لو
تناولك في يده . . . !

فصاح السابع : ويلكم ! ها هو ذا . جُعَلص ، جُعَلص ، جُعَلص !
فتطأير الباقرن يمينا وشمالا كالورق الخاف تحت الشجر ضربته الريح العاصف .
وقهقه الصبي من ورائهم ، فتابوا إلى أنفسهم وتراجعوا . وقال المُستَطِيل
منهم : أما إني كنت أريد أن يعدو جعلص ورأى ، فأستطردُ إليه قليلاً أطمعه
في أنفسي ، ثم أرتدُّ عليه فأخذه كما فعل « ماشيست الجبار »^(١) في ذلك المنظر
الذى شاهدناه .

وقهقه الصبيان جميعاً . . . ! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشاق بمعشوقة
جميلة ، يحاول كلُّ منهم أن يكون المقرب المخصوص بالحظوة ، لامن أجل أنه
ابنُ المدير فحسبُ ، ولكن من أجل أن ابنَ المدير تكون معه القروش . . . فلو
وجدت القروش مع ابن زبّال لما منعه نسبه أن يكون أميرَ الساعة بينهم إلى
أن تنفدَ قروشهُ فيعود ابن زبال . . . !

وتنافسوا في (عصمت) وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المديرُ نفسه
يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد ، وبنّاء وحمّال ،
وحوذى وطباخ ؛ وأمثالهم من ذى المهنة السكّسية الفضيحة — لكانت مطامع
هؤلاء الأطفال في ابن المدير ، أكبر من مطامع الآباء في المدير .
وجرت المنافسةُ بينهم مجراها ، فانقلبت إلى ملاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة
إلى مشاحنة ، وعاد ابنُ المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه ،
إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحداً بالغيط إلا تعمدَ غيط حبيبه ، ليكون أنكأ له
وأشد عليه !

وتظاهروا بعضهم على بعض ، ونشأت بينهم الطوائف ، وأفسدهم هذا الغنى
التمثلُ بينهم . ويا ما أعجب إدراكَ الطفولة وإلهامها ! فقد اجتمعت
ففسوسهم على رأى واحد ، فتحولوا جميعاً إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير ،

(١) بحار إيطالي كالمارد ؛ عريض الألواح ، وثيق التراكيب ، يعجب الأطفال به أشد
الإعجاب ، وإذا شهدوه في السبّا كاد تمثيله يشب هؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة في ساعة واحدة .

فخَاطَرَهُ أَحَدُهُمْ فِي اللَّعِبِ فَقَمَرَمَ ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَعْطَوْهُ ظَهْرَهُ وَيَرْكَبَهُ ؛ وَأَبَى عَلَيْهِ ابْنُ الْمَدِيرِ وَدَافَعَهُ ، يَرَى ذَلِكَ ثَلَمَةً فِي شَرْفِهِ وَنَسَبِهِ وَسَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَلَمْ يَكْدِ يَعْتَلْ بِهِذِهِ الْعِلَّةَ وَيَذْكُرُ أَبَاهُ لِيَعْرِفَهُمْ آبَاءَهُمْ ... هَاجَتْ حَتَّى كَبْرِيَاؤُهُمْ ، وَثَارَتْ دِفَائِثُهُمْ ، وَرَقَصَتْ شَيَاطِينُ رِءُوسِهِمْ ؛ وَبِذَلِكَ وَضَعَ الْغَبِيُّ حِقْدَ الْفَقْرِ بِإِزَاءِ سُخْرِيَةِ الْغَنِيِّ ؛ فَالْتَقَى بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةُ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى فِي هَذَا الْعَالَمِ ، وَطَرَحَهَا لِلْحُلِّ !
وَتَنَفَّسُوا لِلصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، فَسَخِرَ مِنْهُ أَحَدُهُمْ ، ثُمَّ هَزَأَ بِهِ الْآخَرُ ، وَأَخْرَجَ الثَّالِثَ لِسَانَهُ ؛ وَصَدَمَهُ الرَّابِعَ بِمَنْكَبِهِ ، وَأَفْحَشَ عَلَيْهِ الْخَامِسَ ؛ وَلَكِنَّهُ السَّادِسَ ؛ وَحَثَا السَّابِعُ فِي وَجْهِهِ التَّرَابَ !

وَجَهَدَ الْمَسْكِينُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَكَانَمَا أَحَاطُوهُ بِسَبْعَةِ جُودِرَانٍ فَبَطَلَ لِإِقْدَامِهِ وَإِحْجَامِهِ ، وَوَقَفَ بَيْنَهُمْ كَمَا كَتَبَ اللَّهُ ثُمَّ أَخَذَتْهُ أَيْدِيهِمْ فَانْجَدَلَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَتَجَاذَبُوهُ يُمَرِّغُونَهُ فِي التَّرَابِ !
وَهُمْ كَذَلِكَ إِذَا انْقَلَبَ كَبِيرُهُمْ عَلَى وَجْهِهِ ، وَانْكَفَأَ الَّذِي يَلِيهِ ، وَأَزِيحَ الثَّالِثُ ، وَلَطِيمَ الرَّابِعَ ، فَنَظَرُوا فَصَاحُوا جَمِيعًا : « جُعَلُصْ ، جُعَلُصْ ! » وَتَوَاتَبُوا يَشْتَدُّونَ هَرَبًا . وَقَامَ (عَصَمَتُ) يَسْتَخِيلُ التَّرَابُ مِنْ ثِيَابِهِ وَهُوَ يَبْكِي بِدَمْعِهِ ، وَثِيَابُهُ تَبْكِي بِتَرَابِهَا ! وَوَقَفَ يَنْظُرُ هَذَا الَّذِي كَشَفَهُمْ عَنْهُ وَشَرَدَتْهُمْ صَوْتُهُ ، فَلِذَا جُعَلُصْ وَعَلَيْهِ رَجَفَانٌ مِنْ الْغَضَبِ ، وَقَدْ تَبَرُّطَمَتْ شَفْتُهُ ، وَتَقَبَّبَضَ وَجْهُهُ ، كَمَا يَكُونُ « مَاشِيَسْت » فِي مَعَارَكَهِ حِينَ يَدْفَعُ عَنِ الضَّعْفَاءِ .

وَهُوَ طِفْلٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ لَدَاتِ (عَصَمَتُ) ، غَيْرَ أَنَّهُ مُحْتَنِكٌ فِي سَنِّ رَجُلٍ صَغِيرٍ ؛ غَلِيظٌ عَبْلٌ شَدِيدُ الْجَبِيلَةِ مَتْرَاقِبٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ^(١) ، كَأَنَّهُ جَنَى مُتْقَاصِرٌ يَهُمُّ أَنْ يَطُولَ مِنْهُ الْمَارِدُ ، فَأَنْسَبَ بِهِ (عَصَمَتُ) ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى قُوَّتِهِ ، وَأَقْبَلَ بِشَكْوِهِ لَهْ وَيَكِي !

قَالَ جُعَلُصْ : مَا اسْمُكَ ؟

قَالَ : أَنَا ابْنُ الْمَدِيرِ !

قَالَ جُعَلُصْ : لَا تَبْكُ يَا ابْنَ الْمَدِيرِ . تَعَلَّمْ أَنْ تَكُونَ جَسَدًا ، فَإِنَّ الضَّرْبَ

(١) أى شديد قتل العضل مكتنز اللحم .

ليس يذُل ولا عار ، ولكنّ الدموع هي تجعله ذلاً وعاراً ؛ إن الدموع لتجعل الرجل أنثى . نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما في ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ؛ ولكنك غنى يا ابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخمٌ مُستفخٌ ، ولكنه ينكسر بلمسة ، وحشوه مثل القطن !

ماذا تتعلم في المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكل من يريد أكله ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحاليتين في خير ؟ قال عصمت : آه لو كان معي العسكري !

قال جعلص : ويحك ؛ لو ضربوا عتراً لما قالت : آه لو كان معي العسكري !

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جعلص : من أنى أعتمِلُ بيدي فأنا أشتدّ وإذا جعتُ أكلتُ طعامي ؛ أما أنت فتسترخى ، فإذا جعتَ أكلتَ طعامك ؛ ثم من أنتى ليس لي عسكري .. !

قال عصمت : بل القوةُ من أنك لستَ مثلنا في المدرسة ؟

قال جعلص : نعم ، فأنت يا ابن المدرسة كأنتك طفلٌ من ورقٍ وكراسات لامن لحم ، وكأن عظامك من طباشير ! أنت يا ابن المدرسة هو أنت الذى سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؛ وأما أنا ابن الحياة ، فأنا من الآن ، وعلى أن أكون « أنا » من الآن !
أنت ...

* * *

وهنا أدركهما العسكري المسخّر لابن المدير ، وكان كالجنون يطير على وجهه في الطرق يبحث عن (عصمت) ، لاحقاً فيه ، ولكن خوفاً من أبيه ؛ فما كاد يرى هذا العفّر على أثوابه حتى رثت صفعته على وجه المسكين جعلص .

فصعّر هذا خده ، ورشق عصمت بنظيره ، وانطلق يعدو عدوّ الظلّم ! بالعدالة ! كانت الصفعة على وجه ابن الفقير ، وكان الباكي منها ابن الغنى .. !

* * *

وأنتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة ؛ فليس غنى بطلّ الحرب في المال والنعم ، ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه .

أحلام في الشارع * (١)

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفرشان الرخامَ البارد ، ويلتحفان
جوار رخامياً في برده وصلابته على جسميهما .

الطفل مُتَكَبِّبٌ في ثوبه كأنه جسمٌ قُطِعَ ورُكِتَ أعضاؤه بعضها على
بعض ، وسُجِّيتْ بثوب ، ورُمِيَ الرأسُ من فوقها فإل على خده .
والفتاة كأنها من الهزال رَسَمٌ مُخَطَّطٌ لامرأة ، بدأها المصور ثم أغفلها إذ
لم تُعجبه . كتب الفقرُ عليها للأعين ما يكتبُ الذُّبُولُ على الزهرة : أنها صارت
قَشّاً . . .

نائمةٌ في صورةٍ ميّنة ، أو كميّنة في صورةٍ نائمة ؛ وقد انسكب ضوء القمر
على وجهها ، وبقي وجهُ أخيها في الظل ؛ كأن في السماء ملكاً وجهه المصباح
إليها وحدها ، إذ عرف أن الطفلَ ليس في وجهه علامةٌ هم ، وأن في وجهها هي
كل همها وهم أخيها .
من أجل أنها أنثى قد خلقت لتلد - خلق لها قلبٌ يحمل الهمومَ ويلدها
ويربّيها .

من أجل أنها أعدت للأومة ، تتألم دائماً في الحياة آلاماً فيها معنى
انفجار الدم .

من أجل أنها هي التي تزيد الوجودَ ، يزيدُ هذا الوجودُ دائماً في أحزانها .
وإذا كانت بطبيعتها تُقاسى الألمَ لا يُطاقُ حين تلدُ فترَحّها ، فكيف بها
في الحزن . . . !

* * *

وكان رأسُ الطفل إلى صدر أخته ، وقد نام مطمئناً إلى هذا الوجود النسويّ ،
الذي لا بد منه لكل طفل مثله ، ما دام الطفلُ إذاً خرج من بطن أمه خرج إلى
الدنيا وإلى صدرها معاً .

* اقرأ قصة هذه المقالة في (عمله في الرسالة) من كتاب حياة الرافعي .

(١) منظر طفل متشرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك) .

ونامت هي ويدُها مُرسلةً على أخيها كيدِ الأم على طفلها . يا إلهي !
نامت ويدُها مستيقظة !

أهما طفلان ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التي شقيتُ بالسعداء فعوضها
الله من رحمته ألا تجدَ شقياً مثلها إلا تضاعفت سعادتها به ؟
تمثالان يصوران كيف يسرى قلبُ أحد الحبيين في الجسم الآخر ، فيجعلُ
له وجوداً فوق الدنيا ، لا تصلُ الدنيا إليه بفقرها وغناها ، ولا سعادتها وشقايتها ،
لأنه وجودُ الحب لا وجودُ العمر ؛ وجودٌ سحريّ ليس فيه معنى للكلمات ، فلا فرقَ
بين المال والتراب ، والأمير والصُّعلوك ؛ إذ اللغةُ هناك إحساسُ الدم ، وإذ
المعنى ليس في أشياء المادة ولكن في أشياء الإرادة .

وهل تحيا الألفاظُ مع الموت ، فيكونَ بعده للمال معنى وللتراب معنى . . . ؟
هي كذلك في الحب الذي يفعل شبيهاً بما يفعله الموتُ في نقله الحياةَ إلى عالم
آخر ، بيدَ أن أحدَ العالمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

* * *

تحت يدِ الأخت الممدودة ينام الطفلُ المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد ،
خف ثقلُ الدنيا على قلبه .

لم يبال أن نبتةَ العالمِ كُلُّه ، ما دام يجد في أخته عالمَ قلبه الصغير وكأنه
فرخٌ من فراخ الطير في عشته المعلق ، وقد جمَعَ لحمه الغصنَ الأحمرَ تحت
جناح أمه ، فأحسَّ أنها السعادة حين ضيقَ في نفسه الكونَ العظيم ، وجعله
وُجوداً من الريش .

وكذلك يسعد كلُّ من يملك قوةَ تغيير الحقائق وتبديلها ، وفي هذا
تفعلُ الطفولةُ في نشأةِ عمرها ما لا تفعلُ بعضُه معجزاتُ الفلسفة العُليا في
جملة أعمارِ الفلاسفة .

وما صنع الذين جُنُّوا بالذهب ، ولا الذين فُتِنوا بالسلطة ، ولا الذين هلكوا
بالحب ، ولا الذين تحطّموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يرثسوا رحمةَ
الله لتعطيهم في الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نولتَه هذا الطفلُ المسكينُ
النائم في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب رُوحه الأرضي .

ألا إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشتري الطريقة الهنيئة
التي ينسبضُ بها الساعة قلبُ هذا الطفل .

* * *

وقفتُ أشهد الطفلين وأنا مستيقنٌ أن حولهما ملائكةٌ تصعد وملائكةٌ
تنزل ؛ وقلت هذا موضعٌ من مواضع الرحمة ، فإن الله مع المنكسرة قلوبهم ،
ولعلني أنعرضَ لنفحة من نفحاتها ، ولعل ملكاً كريماً يقول : وهذا
بائسٌ آخر ، فيسرفني بجناحه رقةً ما أحوج نفسي إليها ، تجدُّ بها في
الأرض لمسةً من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر .

وظهر لي بناء (البنك) في ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسودَ كالحما ،
كأنه سجنٌ أقفل على شيطان يُمسكه إلى الصبح ، ثم يُفتح له لينطلق مُعَمَّراً ،
أنى مخرباً أو هو جسمٌ جبار كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه
وحظوظِ نفسه ففسخه الله بناءً ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعاني آثامه
وكفره . . .

يا عجباً! بطنان جائعان في أطمار بالية يبيتان على الطوى والهم ، ثم لا يكون
وسادُهما إلا عتبة البنك ! تُرى مَنْ الذي لَعَنَ (البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن
الذي وضع هذين القليلين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك
خزائنَ حديديةً يملؤها الذهب ، ولكنه خزائنٌ قلبيةٌ يملؤها الحب . . . ؟

* * *

وقفتُ أرى الطفلين رؤيةَ فكر ورؤية شعر معاً ، فإذا الفكرُ والشعر يمتدان
بينى وأحلامهما ، ودخلت في نفسين مضطهما الهم واشتد عليهما الفقر ،
وما من شيء في الحياة إلا كادَّهما وعاسرهما ؛ ونمت نومتي الشعرية . . .
قال الطفل لأخته : هلمنى فلنذهب من هنا فنقف على باب (السيا) نتفرجُ
مما بنا ، فنرى أولادَ الأغنياء الذين لهم أبٌ وأم .

انظري هاهم أولاء يُرى عليهم أثرُ الغنى ، وتُعرف فيهم رُوحُ النعمة ؛
وقد شَبِعوا . . . إنهم يلبسون لحماً على عظامهم ؛ أما نحن فنلبس على عظامنا
جلدًا كجلد الحذاء ؛ إنهم أولادُ أهلهم ؛ أما نحن فأولادُ الأرض ؛ هم أطفال ،

ونحن حطَبٌ إنسانى يابِس ؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون ؛ أما نحن فنعيشنا هو
سكرات الموت ، إلى أن نموت ؛ لهم عيشٌ وموتٌ ، ولنا الموتُ مكرراً .

ويلى على ذلك الطفل الأبيض السمين ، الحسن البزّة ، الأنيق الشاردة ،
ذاك الذى يأكل الحلوى أكل لص قد سرق طعاماً فأسرع يتحدّر فى جوفه ماسق ؛
هو الغنى الذى جعله يتلع بهذه الشراهة ، كأنما يشرب ما يأكل ، أو له
حلقٌ غيرُ الحلق ؛ ونحن — إذا أكلنا — نغصّ بالخبز لأدمّ معه ، وإذا
ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجد إلا البشيع من الطعام ، وأصنناه عفنًا أو فاسداً
لايسوغ فى الحلق ، فإذا انخفضنا فليس إلا ما نتقمّم من قشور الأرض ومن
حبات الخبز كالذباب والكلاب ؛ وإن لم نجد ومسنّا العدم وقفنا نتحين طعام
قوم فى دار أونزل ، فزاهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن
نستطعمهم وإلا أطعمونا يضرباً فنكون قد جئناهم بألم واحد فردّونا بالمين ، ونفقد
بالضرب ما كان يمسك رمتنا من الاحتمال والصبر .

هؤلاء الأطفال يتصورون شهوةً كلما أكلوا ، ليعودوا فيأكلوا ؛ ونحن نتصور
جوعاً ولا نأكل ، لنعود فنجوع ولا نأكل ؛ وهم بين سمع أهليهم وبصرهم ؛
ما من أنة إلا وقعت فى قلب ، وما من كلمة إلا وجدت إجابة ؛ ونحن بين سمع
الشوارع وبصرها ، أنين ضائع ، ودموعٌ غير مرحومة !

آه لو كبرتُ فصرتُ رجلاً عريضاً ؟ أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— إننى أخنق يديّ كل هؤلاء الأطفال !

— سوّاة لك يا أحمد ، كل طفل من هؤلاء له أمٌ مثلُ أمنا التى ماتت ،
وله أختٌ مثلى ؛ فها عسى ينزل بى لو ثكلتُك إذا خنقك رجلٌ طويل عريض ؟
— لا ، لا أخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسى ؛ أنا أريد أن أصير رجلاً

مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير . . .

أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أرايت عربة الإسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل

الهرم المحطّم الذى أنعمى عليه فى الطريق ؟ سمعتهُم يقولون : إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غفّل لم يتعلم من الحياة مثلنا ، ولم تُحْكَمْه تجاربُ الدنيا ؛ فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرها لا يُحْييه المدير ولا غير المدير ، والذى يقع فى الطريق يجدُّ من الناس من يتدرونه لنَجْدَتِهِ وإسعافِهِ بقلوب إنسانية رحيمة ، لا بقلبِ سوّاقِ عربةٍ ينتظر المصيبةَ على أنها رزقٌ وعَيْش .

إن عَرَبَاتِ الإسعافِ هذه يجب أن يكونَ فيها أكل . . . ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤثريه فلتُصنَعْ له أم .

كلُّ شىء أراه لا أراه إلا على الغلط ، كأن الدنيا منقلبة أو مدبيرة لإدبارها ، وما قطُّ رأيتُ الأمور فى بلادنا جاريةً على مَجَارِيهَا ؛ فهؤلاء الحكام لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لا بقانون الغنى والقسوة ، وليتقحموا الأمور العظيمةَ المشبهةَ بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس ، وخُلِقَ ودين ورحمة ؛ فإنه لا ينهزم فى معركة الحوادث إلا روحُ النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرقُ من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحماً ودمًا هم لحم الحاكم ودمه فإن كان صلباً خشناً فيه رُوحُ الأرض وروحُ السماء فذاك ، وإلا قَتَلَ اللينُ والتَرَفُ الحكمَ والحاكمَ جميعاً . وهؤلاء الحكامُ من أولاد الأغنياء لا يكون لهم همٌّ إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطةُ درجةٌ فوق الغنى ، ومن نال هذه استَشَرَفَ لتلك ، فإذا جمعوها كان منهما الخُلُقُ الظالم الذى يَصَوِّرُ لهم الاعتداء قوةً وسطوةً وعلوًّا ، من حيث عَدَمُوا الخُلُقَ الرحيمَ الذى يَصَوِّرُ لهم هذه القوةَ ضعفاً وجُبْنًا ونذالةً . إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للإنسانية . يحرصون على ما به تمامُهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكفلوا للحرصِ أخلاقه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداراة والمصانعة والمهاوأة ؛ نازلاً فتازلاً إلى دَرَكٍ بعيد ، فينثرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ما داموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟
 — أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ، ليجدوا عملاً شريفاً يُصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آباءهم ، فإنه والله لولا العمى الاجتماعي لما كان فرق بين ابن أمير متبطل في أملاك أبيه من القصور والضيايع ، وابن فقير متبطل في أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة، وتعففه وكرمه ، فيتعلم سواد الناس منه الأمانة والصدق، إذ هو لا يكذب ولا يسرق ما دام فوق الاضطراب ، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً ، فتكون حرفته التجارة وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى الناس أكثر عمره مادة كذب وإثم ولصوصية .

آه لو صرتُ مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمدُ إلى الأغنياء فأردُّهم بالقوة إلى الإنسانية، وأحملهم عليها حملاً، أصلح فيهم صفاتها التى أفسدها الترف واللين والنعمة ، ثم أصلح ما أخل به الفقر من صفات الإنسانية بالفقراء ، وأحملهم على ذلك حملاً ، فيستوى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلبده آباؤهم ولده القانون . ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الإنسانية فى أفرادها، فتقطع ما بينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمهم أهل وطنهم .

ومتى أحكمت الصفات الإنسانية فى الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً — صار قانون كل فرد كلمتين ، لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حقى) ونحن نريد أن يكون (حقى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام — إلا قانون الكلمة الواحدة .

* * *

أنا أحمد المدير لست المدير بما فى نفس أحمد ، ولا بمعدته ويطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده كلا ، أنا عمل اجتماعى منظم يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلقت ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياة الأم مع الحياة الأطفال الاخرة فى هذا البيت الذى يسمى الوطن ، أنا الرحمة ، عندى الجنة

ولكن عندى جهنم أيضاً ما دام فى الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ،
لكنى الإصلاح .

هأنذا قد صرتُ مديراً أعسُ فى الطريق بالليل وأتفقّد الناس ونوائبهم .
من أرى ؟ هذا طفلٌ وأخته على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما
المرقعة ، فى دُنْيا تمزقتُ عليهما ، قم يا نبى ، لاترّع إنما أنا كأبيك ، تقول :
اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول إنك ما نمتَ من الجوع ، ولكن مَضْمَضْتَ عينك بشُوع النوم ؟
يا ولدى المسكينين . بأى ذنب من ذنوبكما دَقَّتكما الأيام دُقّاً وطحتكما طحناً ،
وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابنُ فلان باشا ، وبنتُ فلان باشا فى هذا العيش
اللين يختاران منه ويتأنّقان فيه ، ما الذى ضرَّ الوطنَ منكما فتموتا ، وما الذى
نفع الوطنَ منهما فيعيشا ؟

إن كنتَ يا بنى لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظَلِمة فأنا أملكها لك ،
وإنما أنا المظلومُ إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن آخذَ لك الحق .
إلى يا ابن فلان باشا وبنتَ فلان باشا .

يا هذا عليك أخاك أحمد ولكن به حَقِيقاً ، ويا هذه ، عليك أختك
الآنسة أمينة

أتأنيان ، أنفِرةً من الإنسانية ، وتمرداً على الفضيلة ، أحقّاً بلا واجب ،
دائماً قانون الكلمة الواحدة ؟ ! خُلِقتما أبيضين سحريّة من القدرَ وأنما فى
النفس من أحبوشة الزنج ومناكيد العبيد .
ورفع أحمد يده

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، وإليه حراسةُ البنك ، قد
توسّسَهما^(١) ودخلته الرّيبة ، فأنتهى إليهما فى تلك اللحظة ، وقبل أن تنزلَ يدُ
سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطى
قد ركّبه برجله ، فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عدوّ الخيل من الهُوبِ السَّوْطِ .
... ..

وتجمّدت الفضيلة كمعادتها . . ! . أن مسكيناً حكمَ بها . .

أحلام في قصر*

كان فلان" بنُ الأمير فلان يتنبَّل في نفسه بأنه مُسْتَقَّ" ممن يضع القوانين لا ممن يخضع لها ، فكان تياهاً صليفاً يشمخُ على قومه بأنه ابنُ أمير ، ويختالُ في الناس بأن له جنداً من الأمراء ، ويرى من تسجَّبره أن ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة لأن له أصلاً في الملوك .

وكان أبوه من الأمراء الذين ولدوا وفي دمهم شعاعُ السيف ، وبريقُ الناج ، ونخوةُ الظفر ، وعِزُّ القهر والغلبة ؛ ولكنَّ زمنه الحصار ضربَ عليه ، وأفضت الدولة إلى غيره ، فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض ، ومن تمشيد الإمارات إلى تشييد العمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وغبَّرت دهره يملك ويجمع حتى أصبحت دفاترُ حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة .

وبعضُ أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولادُ أمراء ، فيكونون من التكبر والغرور كأنما رَضُوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط . . .

* * *

وانتقل الأميرُ البخيل إلى رحمة الله ، وترك المالَ وأخذ معه الأرقام وحدها يُحاسب عنها ، فورثه ابنه وأمرَّ يده في ذلك المال يبعثه ؛ وكانت الأقدارُ قد كتبت عليه هذه الكلمة : غير قابل للإحسان . ففتحها بعد موت أبيه ، وكتبت في مكانها هذه الكلمة : جُمع للشيطان .

أما الشيطانُ فكان له عملٌ خاص في خدمة هذا الشاب ، كعمل خازن الثياب لسيد ، غير أنه لا يلبسه ثياباً بل أفكاراً وآراءً وأخيلة . وكان يجهدُ أن يُدخِل الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرج منها دنيا جديدةً مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة ، وهي أعصابُ مريضة نائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفي غيرها فلا

* اثبتت خواطر هذه المقالة في نفس الرافعي على أثر كتابته مقالة « أحلام في الشارع » السابقة ولكنه لم يكتبها إلا بعد زمان .

تَبْرَحُ تسأل الشيطانَ بين الحين والحين: أَلَا تُوجد لذةٌ جديدةٌ غيرُ معروفةٍ ؟
أَلَا يستطيعُ إبليسُ القرنَ العشرين أن يَخترعَ لذةً مبتكرةً ؟ أَلَا تكونُ
الحياةُ إلا على هذه الوتيرة من صُبْحها لَصُبْحها ؟

كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يَخترعَ كأساً تَسَعُ نَهراً من
الخمر ، أو يجدَ له امرأةً واحدةً وفيها كلُّ فنون النساء واختلافهن . وكان يريد
من الشيطان أن يُعِينَه فى اللذة على الاستغراق الروحاني ويَغْمُرَه بمثل التجليات
القدسية التى تنتهى إليها النفسُ من حِدَّة الطرب وحِدَّة الشوق ؛ وذلك فوق
طاقة إبليس ، ومن ثَمَّ كان معه فى جهْدٍ عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهمَّ أن
يرفع يده عنه أو يَدَعَه يدخلُ إلى المسجد فيصلّى مع بعض الأمراء الصالحين .
وهؤلاء الفُسَّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا ؛
فهمُّهم دائماً الأَلَدَّة والأَجْمَلُ والأغلى ، ومتى انتهت فيهم اللذة متتهاها ولم تجدْ
عاطفتهم من اللذات الجديدة ما يُسْعِدُها ، ضاقت بهم فظهرت مظهر الذى
يُحاول أن ينتحر ، وذلك هو الملل الذى يُبْتَلون به . والفاسقُ الغنى حين يملُّ
من لذاته يُصبح شأنه مع نفسه كالذى يكون فى نفق تحت الأرض ويريد هناك
سماً وجوّاً يطير فيهما بالطيارة . . .

* * *

قالوا : واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذٌ مريضٌ قد أَسْنَّ وعجز يتحاملُ
بعضه على بعض ، فسأله أن يُحسن إليه وذكر عَوَزَه واختلاله ، وجعل يَبْسُتُهُ
من دُموعه وألفاظه . وكان إبليسُ فى تلك الساعة قد صَرَفَ خواطرَ الشاب إلى
إحدى الغانيات الممتنعات عليه ، وقد ابتاع لها حَلِيَّةً ثَمِينَةً اشْتَطَّ بائعُها فى الثمن
حتى بلغ به عشرة آلاف دينار ، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قَدَرٌ من
قادر . . . وقَطَعَ عليه الشحاذُ المسكين أفكاره المضئئة فى الشخص المضئ ،
فكان إهانةً لخياله السامى . . . ووجد فى نفسه غَضَمَاضَةً من رؤية وجهه ،
واشْمَازَ فى عُرُوقه دُمُ الإمارة ، وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم . . .
ثم ألقى الشيطانُ إلقاءه عليه ، فإذا هو يرى صاحبَ الوجه القَدَرِ كأنما
يتهمك به يقول له : أنت أميرٌ يبحث الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا

الشیطان الذى فيه . وليس فيك من الإمارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ في
الموضع الأثرى الخرب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة آلاف دينار عند
مؤميس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير . أنت أمير ،
فهل تثبتُ الحياةُ أنك أمير أو هذا معنى في كلمة من اللغة ؟ إن كانت
الحياةُ فأين أعمالُك ، وإن اللغةُ فهذه لفظةٌ بائدة تدلُّ في عصور الانحطاط على
قسطٍ حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت ، كأن الاستبداد بالشعب
غنيمةٌ يتناهبها عظماءه ، فقسِّمُ منها في الحاكم وقسمُ في شبه الحاكم يُترجم
عنه في اللغة بلقب أمير .

ألا قلُّ للناس أيها الأمير : إن لقبى هذا إنما هو تعبيرُ الزمن عما كان
لأجدادى من الحق في قتل الناس وامتهانهم . . .

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير في حالة بخصوصها
من أحوال النفس ، فلا جرم أهين الشحاذُ وطُرد ومضى يدعو بما يدعو .
ونام ابنُ الأمير تلك الليلة فكانت خيالته^(١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ:
فراى فيما يرى النائم أن ملكاً من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت المسكين تخشى أن تنالك منه جرائمُ تمرضُ بها ،
وما علمت أن في كل سائل فقير جرائمَ أخرى تمرضُ بها النعمة ؛ فإن أكرمته
بقيت فيه ، وإن أهنته نفّضها عليك . لقد هلك اليوم نعمتُك أيها الأمير ،
واسترد العارية صاحبها ، وأكلت الحوادثُ مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً
ترومُ الكسرةَ من الخبز فلا تنهياً لك إلا بجهد وعمل ومشقة ؛ فاذهب
فاكدح لعيشك في هذه الدنيا ، فما لأبيك حقٌ على الله أن تكون عند الله أميراً .
قالوا : وينظر ابنُ الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه
المال ، وإذا الإمارة كانت وهماً فرضه على الناس قانونُ العادة ، وإذا التعاطف
والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكراً من المكّر لإثبات هذا الظاهر
والتعزُّز به . وينظر ابنُ الأمير ، فإذا هو بعد ذلك صعلوكٌ أبترٌ مُعَدِّمٌ رثٌ

(١) الخيالة : ما يترأى للنائم من الأشباح في نومه .

الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصبح مغتاطاً : كيف أهملتنى الأقدار وأنا ابن الأمير ؟

قالوا : ويهتفُ به ذلك الملك : ويحك إن الأقدار لا تُدَلِّلُ أحداً ، لا ملكاً ولا ابنَ ملك ، ولا سُوقياً ولا ابنَ سُوقٍ ، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس في التراب عظمٌ يقول لعظم آخر : أيها الأمير

* * *

قالوا : وفكّر الشاب المسكينُ في صواحيبه من النساء ، وعندهن شبابهُ وإسرافُهُ ، ونفقاتهُ الواسعة ، فقال في نفسه : أذهبُ لإحداهن ؛ وأخذ سمّته إليها ، فما كادت تعرفه عيناها في أسماله وبداذته وفقره حتى أمرت به فجرت بيديه ودُفِعَ في قفاه . ولكن دمَ الإمارة نزا في وجهه غضباً ، وتحركت فيه الوراثة الحربية ، فصاح وأجْلَبَ واجتمع الناس عليه واضطربوا ، وماج بعضهم في بعض . فبينما هو في شأنه حانت منه التفاتةٌ فأبصر غلاماً قد دخل في غمارِ الناس ، فدسَّ يده في جيب أحدهم فنشَلَ كيسه ومضى .

قالوا : وجرى في وهم ابن الأمير أن يلحقَ بالغلام فيكبسه كبسة الشرطي وينتزع منه الكيس ويتنفع بما فيه ، فتسلَّل من الزحام وتبع الصبي حتى أدركه ثم كبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز ، فإذا ليس فيه إلا خاتمٌ وحجاب وبعضُ خرزاتٍ مما يتبرك العامة بحمله ، ومفتاح صغير . . .

فامتلاً غيظاً وفار دمُ الإمارة وتحركت الوراثة الحربية التي فيه . وألم الصبي بما في نفسه ، وحدسَ على أنه رجل أفاقٌ مُتَبَطِّلٌ ، لانفادَ له في صناعة يرتزقُ منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها . وقال : إن لنا مدرسة ، فإذا دخلت القسم الإعدادي منها تعلمت كيف تحمل المِكتَل^(١) فذهب كأنك تجمع فيه الخِرَقَ البالية من الدُّور حتى إذا سنحت لك غفلة انسلت إلى دار منها ، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاع ، ولا تزال في هذا الباب من الصنعة حتى تُحكِمه ، ومتى حذقتَه ومهّرت فيه انتقلت إلى القسم الثانوي . . .

(١) هو كالفقة يعمل من الخوص .

فصاح ابن الأمير : أَعْرُبُ غنى ، عليك وعليك ، أخزأك الله ! ولعن الله الإعداءى والثانوى معاً .

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق ، فبينما هو يمشى وقد تَوَزَّعَتْهُ الهموم ، أنشأ يفكر فيما كان يراه من المُكَدَّين ، وتلك العلل التى ينتحلونها للكدية كالذى يتساعى والذى يتغارج والذى يحدث فى جسمه الآفة ؛ ولكن دم الإمارة اشتأز فى عروقه وتحركت فيه الوراثة الحربية ! وبَصُرُ بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرض لمعرفه ، وأفضى إليه بهمة ، وشكا ما نزل به ثم قال : وإنى قد أمّلتك وظننى بك أن تصطفينى لمنامتك أو تلحقنى بخدمتك ، وما أريد إلا الكفاف من العيش ، فإن لم تبلغ بى ، فالقليل الذى يعيش به المُقِل . وصعد فى الشاب وصوب ثم قال له : أتحسن أن تلطف فى حاجتى ؟ قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة فى هذا ؟ أكنت قوَّاداً ؟ أتعرف كثيرات منهن . . . ؟

فانتفض غضباً وهمَّ أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمل أن يجد عملاً فى بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يجرّونه مرةً ويطرّدونه مرةً ، إذ وقعت به ظنةُ التلصُّص ، وكادوا يُسَلِّمونه إلى الشرطى فضى هارباً ، وقد أجمع أن يتحرر ليقتل نفسه وذهره وإمارته وبؤسه جميعاً .

قالوا : ومر فى طريقه إلى مَصْرعه بامرأة تبغ الفُجْلَ والبصل والكراث ، وهى بادنّة وضيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحةُ إغراء ، فذكر غزله وفتنته واستغواه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولها ، وظنها لا تُعجزه ولا تفوته وهو فى هذا الباب خراج ولاج منذ نشأ . . . غير أن ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطة أظلم لها الجو فى عينه ثم هرت فى وجهه نهريراً منكراً واستعذت عليه السابلة فأطافوا به وأخذوه الصفع بما قدّم وما حدث ، وما زالوا يتسعاورونه حتى وقع مغشياً عليه .

ورأى فى غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب ، فضرِبَ وحُبسَ وابتلى بالجنون وأرسل إلى المارستان ، وساح فى مصائب العالم ، وطاف على نكبات

الأمراء والسُّوقَة بما يعى وما لا يعى ، ثم رأى أنه أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فراشه الوثير .

* * *

ويا ليت من يدرى بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يُحسن إليهم ، أم غدا على صاحبتِه التي امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدرى ! فإن الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبرَ عندما انقطع الصفع

بنت الباشا . . . *

كانت هذه المرأة وضّاحة الوجه، زهراء اللون كالقمر الطالع ، تحسبها لجمالها غدتّها الملائكة بنور النهار ، وروتّها من ضوء الكواكب .
وكانت بضّة مفسّمة أبداع التقسيم ، يلتف جسمها شيئاً على شيء التفافاً هندسياً بديعاً ، يرتفع عن أجسام الغيد الحسن ؛ أفرغ فيها الجمال بقدر ما يمكن — إلى أجسام الدُمى العبقريّة التي أفرغ فيها الجمال والفن بقدر ما يستحيل .

وكانت باسمّة أبدأً ما يتلأل الفجر ، حتى كأن دمها الغزلىّ الشاعر يصنع لغزها ابتسامتها ، كما يصنع لخديها حمرتها .
ما لها جلست الآن تحت الليل مطرقة كاسفة ذابلة ، تأخذها العين فما تشك أن هذا الوجه قد كان فيه منبع نور وغاض ! وأن هذا الجسم الظمآن المعروق هو بقعة من الحياة أقيم فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلّة تُذرى الدمع وتسرسل في البكاء وتلج فيه ، كأن الغادة المسكينّة تبصر بين الدموع طريقاً تُفضى منه نفسها إلى الحبيب الذى لم يعد في الدنيا ؛ إلى وحدها الذى أصبحت تراه ولا تلمسه ، وتكلّمه ولا يردّ عليها ؛ إلى طفلها الناعم الطريف الذى انتقل إلى القبر ولن يرجع ، وتمثله أبدأً يريد أن يجيء إليها ولا يستطيع ، وتخليله أبدأً يصيح في القبر ينادياها : « يا أمى ، يا أمى . . . »

قلبها الحزين يُقطّع فيها ويمزق في كل لحظة ؛ لأنه في كل لحظة يُريد منها أن تضمّ الطفل إلى صدرها ، ليستشعره القلب فيفرح ويتهنأ إذ يمسّ الحياة الصغيرة الخارجة منه ولكن أين الطفل ؟ أين حياة القلب الخارجة من القلب ؟

* انظر خبر هذه القصة وحديث « الزبال الفليسوف » في « عود على بلد » من كتابنا « حياة

الرائى » .

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبها إلى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يَهْدَأَ عما يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاول أن يُفَجِّرَ صدرها ، ويريد أن يَدُقَّ ضلوعها ، ليُخْرِجَ فيبحث بنفسه عن حبيبته !

مسكينةٌ تَتَرَنَّحُ وتَتَلَوَّى تحت ضربات مُهْلِكَةٍ من قلبها ، وضربات أخرى من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيشُ في مثل اللحظة التي تكون فيها الذَّبِيحَةُ تحت السكّين . ولكنها لحظةٌ امتدت إلى يوم ، ويومٌ امتد إلى شهر . يا ويلتها من طول حياة لم تَعُدْ في آلامها وأوجاعها إلا طولَ مدَّةِ الذَّبْحِ للمذبوح .

ولو كان للموت قطارٌ يقفُ على محطة في الدنيا ، ليحملَ الأحبابَ إلى الأحباب ، ويسافرَ من وجود إلى وجود ، وكانت هذه الأمُّ جالسةً في تلك المحطة منتظرةً تَرَبَّصَ ، وقد ذُهِلَتْ عن كل شيء ، وتجردت من كل معاني الحياة ، وجمدت جمودَ الانتقال إلى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها؛ تَظُلُّ على الليل المظلم وعلى أحزانها . . . !

* * *

هي فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك . تَرَا دَفَسَ النِّعَمِ على أبيها فيما يَطْلُبُ ومالا يَطْلُبُ ، وكأنما فرَغَ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه ، فلم يُعْجِبَ الزمانَ ذلك ، فأخذ يقترح له ويصنع ما يقترح ، ويزيده على رِغْمِهِ نَعَمًا تتوالى !

وكان قد تقدم إلى خطبة ابنته شاب مهذب ، يملك من نفسه الشباب والهمة والعلم ، ومن أسلافه العُنُصَرَ الكريمة والشرف الموروث ؛ ومن أخلاقه وشماله ما يُكَاثِرُ به الرجالَ ويُفَاخِرُ . بَسِدتْ أنه لا يملك من عيشه إلا الكفاف والقلة ، وأمسلاً بعيداً كال فجر وراء ليل لا بد من مُصَابِرَتِهِ إلى حينِ يَنْسَبِقُ النور . وتقدم صاحبنا إلى الباشا فجاءه كالنجم عاريا ؛ أى في أزهى ثورانيته وأضوئها . وكان قد علقَ الفتاةَ وعلَّقَتَهُ ، فظنَّ عند نفسه أن الحبَّ هو مال الحب ، وأن الرجولة هي مالُ الأنوثة ، وأن القلوبَ تتعامل بالمسرات لا بالأموال ، ونَسِيَ أنه يتقدم إلى رجل مالى جعلته حَقَقارةُ الاجتماع رتبة ، أو إلى رتبة

مالية جعلتها حقارةُ الاجتماع رجلاً.. وأن كلمة «باشا» وأمثالها إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم: مذهب الألوهية الكاذبة التي انتحلها فرعون وأمثاله ، لِيَتَعَبَّدُوا الناسَ بها بالفاظِ قلوبهم المؤمنة ؛ فإذا قيل «إله» كان جواب القلب : «عز وجلّ» ، «سُبْحَانَهُ»

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ؛ تَلَطَّفَتْ تلك الألوهية ونزلت إلى درجات إنسانية ، لتعبدَ الناسَ بالفاظِ عقولهم الساذجة ؛ فإن قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير : «سعادتلو أفندم !» ^(١) .

نسى الشاب أنه «أفندى» سيتقدم إلى «باشا» وأعماه الحبُّ عن فَرَقٍ بينهما ؛ وكان ساءَ النفس ، فلم يدرك أن صفائر الأُم الصغيرة لا بد لها أن تتحلَّ السموَّ انتحالاً ، وأن الشعبَ الذي لا يجد أعمالاً كبيرة يتمجدُّ بها ، هو الذي تُخْتَسِرُ له الألفاظُ الكبيرةُ ليتلهَّى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراكُ الأمة ، لم يكن التفاوتُ بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ ؛ فإن قيل «باشا» ، فهذه الكلمة هي الاختراعُ الاجتماعيُّ العظيم في أُم الألفاظ ، ومعناها العلميّ : قوةُ ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛ ويقابلها مثلاً في أُم الأعمال الكبيرة لفظُ «الآلة البخارية» ، ومعناها العلميّ قوة كذا وكذا حصاناً أو أقل أو أكثر ^(٢) !

نسى هذا الشاب أن «أُم الأكل والشرب» في هذا المشرقِ المسكين ، لا تَمُ عَظَمَتُهَا إلا بأن تَصَمَّعَ لأصحاب المال الكثير ألقاباً هي في الواقع أوصافُ اجتماعية للمعدة التي تأكل الأكثر والأطيب والألذّ ، وتملك أسباب القدرة على الألذّ والأطيب والأكثر .

وتقدم (الأفندى) يتودّد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكمش ، ولا يألوه تمجيداً وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحق ؛ إذ لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك العظيم كان أولُ معانيه أن كلمة

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة . فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة . وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فأنهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل .

(٢) انظر مقالة (البك والباشا) في الجزء الثاني .

« أفندى » تناولت إلى كلمة « باشا » بالسبّ علّنا . . . !

* * *

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ؛ ثم جاء (البك) يخطب الفتاة .

و « بك » منبّهةٌ للاسم الخاطب ، وشرفٌ وقدرٌ وثناء اجتماعي ، وذِكْرٌ شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحرّمات اللازمة للإسم لزوم السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بك) رجلٌ ، فإن تحتها على كل حال (بك) . . . ! وأنعمَ له الباشا ، ووصل يده بيد ابنته فألبسها وألبسته ، وأعلمها أبوها أنه قد فحّصَ عن البك فإذا هو (بك) قوة مائى فدان أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيتها فى الشهر . . . !

وختّسَ الأفندى وتراجعَ مُنْخَزِلًا ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوجَ لقبه قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا القلب إلا إذا ملك أن يُبدلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة ، فينقلَ إلى العقل أو النفس ما جعلته « أُم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقٌ مُفْلِسٌ أو أديبٌ عظيمٌ فقير ، أو من جرى هذا المجرى فى سمو المعنى لا فى سمو المال .

وقدّمت مائتًا فدانٍ مهرها « الطينى » العظيم بما تعبيره فى اللغة الطينية : ثمنُ عشرين ثوراً ، ومثلها جاموساً ، ومثلها بغلاً وأحميرة ، وفوقها مائة قنطار قطناً ، ومائة إردب قمحاً ؛ ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والحجمُ الطينى لذلك ألفٌ جنيه ، وعزى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اختزلتها الأزيمة قَبَحَها الله . . . !

ثم زُفّت « بنت الباشا » زِفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيره : أنه أنفق عليه ثمنُ ألف قنطارٍ بصلاً ، ومائة غرارةٍ من السّماد الكيماوى ، كأنما فُرِشَ بها الطريق . . . !

وظفّقَ الباشا يُفْخِرُ ويتمدّحُ ، وَيَتَبَدّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى

بالطين ومعاني الطين ؛ فردّت الأقدارُ كلامه ، وجعلت مَرَجَعَه في قلبه ،
وهيأتُ لبنت الباشا معيشةً « طينية » بمعنى غير ذلك المعنى . . .

* * *

ومات الطفل ؛ فردّت هذه النكبةُ بنتَ الباشا إلى معاني انفرادها بنفسها
قبل الزواج ، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك في أيامها
ولياليها الترابَ والطين .

ولجّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبرَ ، ولا تمنى إلا القبرَ ، تلحق
فيه بولدها ؛ فوضعت الأقدارُ من ذلك في رُوحها معنى الطين والتراب .
وأسقمَ لهمُ بنتُ الباشا وأذاها ؛ فنقلت الأقدارُ إلى لحمها عمَلَ الطين ، في
تحليله الأجسامَ وإذا بتهتها تحت البَيْتلى .

* * *

وكان وراء قصرها حواء^(١) يأوى إليه قوم من « طين الناس » بنسائهم
وعيالهم ، وفيهم رجلٌ « زَبَّالٌ » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظمَ متآخره وأجملَ
آثاره ، ولا يزال يرفع صوته متمدحاً بهم ، ويخترع لذلك أسباباً كثيرة لكي
يسمعه جيرانه كل ليلة مُفاخرًا ، مرةً بأحمد ، ومرةً بحسن ، ومرةً بعلى ، وأعجبُ
أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متممين في الطبيعة لأولاد « الباشوات » . . . وهو
يحبهم حبَّ الحيوان المفترسِ لصغاره ؛ يرى الأسدُ أشباله هم صنعة قوته ، فلا
يزال يحوِّطهم ويتممهم ويرعاهم ، حتى إنه ليقاتلُ الوجودَ من أجلهم ؛ إذ
يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم ، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرّاتِ
قلبه ، ذلك القلب الذي انحصرت مسرّاته في النسل وحده ، فصار الشعورُ بالنسل
عنده هو الحبُّ إلى نهاية الحب . وكذلك الزبَّالُ الأسد^(٢) .

(١) الحواء : جماعة من البيوت كهذه العيش التي يسكنها الصعايدة في بعض الأحياء .

(٢) هذا الزبَّال شخصية حقيقية ، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالا
ليتم فلسفته . والكاتب يعرف الرجل ويده أحياناً وكان (حضرته) قد طلب إلينا أن نصنع له (مولا)
يتخفى به في (أوقات الصفاء) فوضنا له الأغنية التي يراها القارئ بعد وهو يصلح بها في ليليه . وسنفرّد
لزبَّالنا هذا مقالا خاصا إن شاء الله .

ومن سخرية القدر أن زبَّالنا هذا لم يسكن الحواء إلا في تلك الليلة التي
جلست فيها بنت الباشا على ما وصفنا ، وفي ضلوعها قلبٌ يُفَتَّتُ من كبدها ،
ويُسْمَزَقُ من أحشائها .

وبينا تُناجى نفسها وتَعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا والبلد ، وتَسْتَحْمَقُ
أباها فيما أقدم عليه من نبدٍ كَفَشَها لعجزه عن مهرِ باشا ، وإيثار هذا المهر
الطيني ، وتَبْكاهيه به أمام الناس ، وانْدِرَائِهِ بالطَّعْنِ على من ليس له لقبٌ من
ألقاب الطين — ببينا هي كذلك إذا بالزبال ؛ كَانِسِ التراب والطين يهتفُ
في جوف الليل ويتغنى :

يا ليلٌ ، يا ليلٌ ، يا ليلٌ ، ما تَنْجِلِي يا ليل

* * *

القلب^(١) أهو راضٍ لكَ حمدي يا ربّي
من المهمومِ فاضٍ لفرح لي يا قلبي

* * *

يا دُوبٌ كيدا يا دُوبٌ زَيَّ الحِمامِ عَاشِشٌ
ما يَمْتَلِكُ غيرُ ثُوبٌ طُولُ عمره فيه نَافِشٌ ...
يا ليلٌ ، يا ليلٌ ، يا ليلٌ ما تَنْجِلِي يا ليل

* * *

إن قلت أنا فَرَحَانٌ دا مِينِ يَكْدَبُنِي
واكْتَسَرَ مِنَ السُّلْطَانِ فرحان أنا بابتي

* * *

بين السيوفِ يا ناسٌ لَمِ انكَسَرَ سِيفِي
وابن الغنى مُحْتَسَأٌ وأنا عل كِنِي ...
يا ليلٌ ، يا ليلٌ ، يا ليلٌ ما تَنْجِلِي يا ليل

* * *

(١) انظر هامش الصفحة السابقة رقم (٢) .

وابْنُ الْغِنَى فِي هُمُومٍ وَالْخَالِي خَالِي الْبَالِ
وَالْفَقْرُ مَا يَبْدُومُ وَتَدُومُ هُمُومُ الْمَالِ

* * *

يَا طَيْرُ يَا طَيْرُ ، يَا طَيْرُ الْحُرُّ فَوْقَ اللَّيْثِ
وَالْخَيْرُ ، جَمِيعُ الْخَيْرِ لُقْمَةُ ، وَعَافِيَةٍ ، وَنُومِ
يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ مَا تَنْجِلِي يَا لَيْلُ

* * *

وَلَمْ تَخْتَرْ الْأَقْدَارُ إِلَّا زَبَالَ تَرْسِلُ فِي لِسَانِهِ سَخَرِيَّتَهَا بِذَلِكَ الْبَاشَا وَبَنَتْ
ذَلِكَ الْبَاشَا !

وَكَسَرُ قَلْبٍ بِكَسْرِ قَلْبٍ وَحَطَمُ نَفْسٍ بِحَطَمِ نَفْسٍ
وَرُبَّ عِزٍّ تَرَاهُ أَمْسَى كُنْأَسَةً هَيْئَتُ لِكُنْأَسِ . .

ورقة ورد*

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) في نوع من الترتيل لم يكن منه شيء في الأدب العربي على الطريقة التي كتبناه بها ، في المعاني التي أفردناه لها ؛ وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه في مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) وهي رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبه ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب ، فرأينا ألا نفردها بها ، وهي هذه: »

... كانت لها نفس شاعرة ، من هذه النفوس العجيبة التي تأخذ الضدين بمعنى واحد أحياناً ؛ فيسرها مرة أن تحزننها وتستدعي غضبها ، ويحزننها مرة أن تسرها وتبلغ رضاها ، كأن ليس في السرور ولا في الحزن معانٍ من الأشياء ولكن من نفسها ومشيتها .

وكان خيالها مشبوباً ، يلقي في كل شيء لسمعان النور وانطفاءه ؛ فالدنيا في خيالها كالسما إلى ألبسها الليل ، ملئت بأشائها مبعثرة مضيئة خافتة كالنجوم .

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلها أحياناً من بلاغة حسنها وإرهاقه كأن فيها أكثر من عقلها ؛ ويجعلها في بعض الأحيان من دقة هذا الحس واهتياجه كأنها بغير عقل ...

وهي ترى أسمى الفكر في بعض أحوالها ألا يكون لها فكر ؛ فتترك من أمورها أشياء للمصادفة ، كأنها واثقة أن الخطأ بعض عشاقها . على أن لها ثلاثة أنواع من الذكاء ، في عقلها وروحها وجسمها : فالذكاء في عقلها فهم ، وفي روحها فتنة ، وفي جسمها ... خلاعة .

وكنت أراها مريحة مستطارة مما تطرب وتتفائل ، حتى لأحسبها تود أن

يخرج الكون من قوانينه ويطيش . . . ؛ ثم أراها بعدُ مُتَصَوِّرةً مهمومة تحزن وتشتام ، حتى لأظنها ستزيد الكون همماً ليس فيه !
وكانت على كل أحوالها المتنافرة - جميلةً ظريفة ، قد تمت لها الصورة التي تتخلق الحب ، والأسرار التي تبعث الفتنة ؛ والسحر الذي يُمَيِّزُ روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميز هي بوجهها الفاتن .

* * *

وكان حبي إياها حريقاً من الحب . فثُلَّ لعينيك جسمًا تَنَآوَلَ جِلْدَهُ مَسَّ من لَهَبٍ ، فتسلَّ هذا الجلد^(١) هنا وهناك من سَلَخِ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لَهَبٌ يابسٌ أحمرُ كأنه عُرُوقٌ من الجمر انتشرت في هذا الجسم . إنك إن تمثلت هذا الوصفَ ثم نَقَلْتَهُ من الجلد إلى الدم - كان هو حريقَ ذلك الحب في دمي !

والحبُّ - إن كان حبًّا - لم يكن إلا عذاباً ؛ فها هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق ، ليس محالٌ منه في عذابه ، إلا وهي دليلٌ على شيء منها في جَبَروتها .

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونٌ شخصية الحب بشخصية محبوبه ، فيسقطُ العالمُ وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين ؛ ويتبقى الواقعُ الذي يجرى الناسُ عليه ، وتعودُ الحقائقُ لا تأتي من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمرَّ على المحبوب لتجىء منه ، ويصبح هذا الكونُ العظيمُ كأنه إطارٌ في عين مجنونٍ لا يحمل شيئاً إلا الصورة التي جنَّ بها !

وتالله لكانَ قانونَ الطبيعة يقضى ألا تحبُّ المرأةُ رجلاً يسمى رجلاً ، وألا تكونَ جديرةً بمحبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ في الحرب . . . تلك الأهوالُ يُمَثِّلُها الحيوانُ المتوحشُ عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثم تَرَقُّ في الإنسان المتحضر فيُمَثِّلُها عملاً قليلاً بالحب . . .

* * *

أحببتها جهنم الهوى حتى لا مزيد فيه ولا مطمع في مزيد، ولكن أسراراً
فنتها استمرت تتعدّد فتدفعني أن يكون حبي أشدّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف
يمكن في الحب أشدّ من هذا ؟

ولقد كنت في استغاثتي بها من الحب كالذى رأى نفسه في طريق السيل
ففرّ إلى ربوة عالية في رأسها عقل لهذا السيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركان
بجنونه وغلظته فهرب في رقة الماء وحلمه ؛ ولا سيل ولا بركان إلا حرقى
بالهوى وارتماضى من الحب .

أما والله إنه ليس العاشق هو العاشق ، ولكن هي الطبيعة ، هي الطبيعة
في العاشق .

هي الطبيعة ، بجبروتها ، وعسفها ، وتعنتها . إذا استراح الناس جميعاً
قالت للعاشق : إلا أنت ! . . . !

إذا عقل الناس جميعاً قالت في العاشق : إلا هذا . . .

إذا برأت جراح الحياة كلها قالت : إلا جرح الحب . . . !

إذا تشابهت الموم كالدمعة والدمعة ، قالت : إلا همّ العشق . . . !

إذا تغير الناس في الحالة بعد الحالة ، قالت في الحبيب : إلا هو . . . !

إذا انكشف سرّ كل شيء ، قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المحبّ
بأسرار القلب . . . !

* * *

ولما رأيتها أول مرة ، ولمسني الحب لمسة ساحر ، جلست إليها أناملها
وأحتسى من جمالها ذلك الضياء المُسكر ، الذى تُعربد له الروح عُربدة
كلها وقار ظاهر . . . فرأيتني يومئذ في حالة كفضية الوحى ، فوقها الآدمية
ساكنة ، ونحتها تبار الملائكة يععب ويجرى .

وكنت ألقى خواطر كثيرة ، جعلت كل شيء منها وما حولها يتكلم في
نفسى ، كأن الحياة قد فاضت وازدحمت في ذلك الموضع تجلس فيه ، فما
شيء يمرّ به إلا مسته فجعلته حياً يرتعش ، حتى الكلمات .

وشعرت أول ما شعرت أن الهواء الذى تنفّس فيه يرق رقة نسيم

السَّحَر، كأنما انخدع فيها فَحَسِبَ وجهها نورَ الفجر!
 وأحسستُ في المكان قوةً عجيبةً في قدرتها على الجذب ، جعلتني مُبْعَثَرًا
 حولَ هذه الفتانة ، كأنها محدودةٌ في من كلِّ جهة .
 وخُيِّلَ لِي أنَّ النواميسَ الطَّبِيعِيَّةَ قد اختلَّت في جسمي إما بزيادةٍ وإما
 بنقص ؛ فأنا لذلك أعظمُ أَمَامَها مرةً ، وأصغرُ مرةً .

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هي إلا صورة من الوجود النسائيَّ الشاذَّ ، وقع
 فيها تنقيحٌ إلهيٌّ لتُظهرَ للعالم كيف كان جمالُ حواءَ في الجنة .
 ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشْعِرُنِي بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هي ؛
 وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمرَح ، لأن الله وَضَعَهُ في هذا السرورِ الحَيِّ
 المخلوقِ امرأةً .

والتمسْتُ في محاسنها عيباً ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :
 * إذا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا البدر طالعا . . . ! *

* * *

ورأيتها تضحكُ الضَّحِكُ المُسْتَحْيِ : فيخرج من فمها الجميل كأنما هو
 شاعرٌ أنه تجرأ على قانون . .

وتَبَسُّمُ ابتسامات تقول كل منها للجالسين : انظروها ! انظروها . . . !
 ويغمُرُها ضَحِكُ العين والوجه والفم وضحكُ الجسمِ أيضاً باهتزازِهِ
 وتَرَجُّرُجِهِ في حركات كأنما يَبَسُّمُ بعضها وَيَقْفَهُهَا بعضها . . .
 وتُلْقِي نظرات جَعَلَ الله معها ذلك الإغضاءَ وذلك الحياءَ ليضعَ شيئاً من
 الوقاية في هذه القوةِ النَّسْويَّةِ ، قوةٍ تدمر القلب .

وهي على ذلك متساميةٌ في جمالها حتى لا يتكلمَ جسمُها في وساوس النفس
 كلامَ اللحم والدم ، وكأنه جسمٌ ملائكيٌّ ليس له إلا الجلال طوعاً أو كَرْهاً ؛
 جسمٌ كالمُعْبَد ، لا يَعْرِفُ مَنْ جاءه أَنه جاءه إلا ليتَهَلَّ ويخشَع .
 وتطأُ عُنُقَ من حيث تأملت فكرةَ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجسم ، تطلبُ
 منك الفهمَ وهي لا تُفْهَمُ أبداً : أي تريد الفهمَ الذي لا ينتهي ؛ أي تطلب
 الحبَّ الذي لا ينقطع .

وهى أبدأً فى زينة حسننها كأنها عروس فى معرض جَلَّوتها ؛ غير أن
للعروس ساعةً ، ولها هى كلُّ ساعة .

* * *

أما ظَرفُها فيكاد يصبح تحت النظرات : أنا خائفٌ ، أنا خائف !
وجَهِها تتغالبُ عليه الرِّزَانَةُ والخِفَّةُ ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها .
وهى مثلُ الشَّعرِ ، تُطربُ القلبَ بالألم يوجَدُ فى بعض السُّرورِ ،
وبالسُّرور الذى يُحسُّ فى بعض الألم .

وهى مثلُ الخمرِ ، تحسبُ الشيطانَ مُتَرَقِّقاً فيها بكلِّ إغرائه !
وكلما تناولتُ أمانى شيئاً أو صنعتُ شيئاً خلقتُ معه شيئاً ؛ أشياءها
لا تزيد بها الطبيعة ، ولكن تزيد بها النفس .
فيا كسبداً طارت صُدُوعاً من الأسى !

* * *

ورأيتنى يومئذ فى حالة كَغَشِيَّةٍ الوَحْنِ ، فوقها الآدميةُ ساكنةٌ ، وتحتها
تَبَارُ الملائكةِ يَعْجَبُ ويجرى .

* * *

يا سِحْرَ الحب ! تركتني أرى وجهَها من بعدُ هو الوجه الذى تضحكُ
به الدنيا ، وتعبسُ وتَغِيظُ وتَتَحامقُ أيضاً . . .
وجعلتني أرى الابتسامةَ الجميلةَ هى أقوى حكومة فى الأرض . . . !
وجعلتني يا سحرَ الحب ؛ وجعلتني . يا سحرَ الحب مجنوناً . . . !

سُمُو الحب *

صاح المنادى في موسم الحج : « لا يفتي الناس إلا عطاء ابن أبي رباح » (١) وكذلك كان يفعل خلفاء بني أمية ، يأمرون صائحيهم في الموسم ، أن يدلّ الناس على مفتي مكة وإمامها وعالمها ، ليلتصّوه بمسائلهم في الدين ، ثم ليُمنّيكَ غيره عن الفتوى ، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها ، وليس للحُجج إلا أن تُظاهرها وتترادف على معناها .

وجلس عطاء يتحيّن الصلاة في المسجد الحرام ، فوقف عليه رجل وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتيت كما قال الشاعر :

سَلَّ الْمُفْتِيَّ الْمَكِّيَّ : هل في تَزَاوُرٍ وَضَمَّةٍ مُشْتَاكِ الْفَوَادِ جُنَاحُ ؟
فقال : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ الثَّقَى تَلَاَصُقُ أَكْبَادٍ بَهَنَ جِرَاحُ !

فرفع الشيخ رأسه وقال : والله ما قلتُ شيئاً من هذا ، ولكنّ الشاعر هو نحلتني هذا الرأي الذي نفّسه الشيطان على لسانه ، وإني لأخاف أن تشيع القالة في الناس ، فإذا كان غداً وجلست في حلقتي فاغداً عليّ ، فإنّي قاتل شيئاً .

وذهب الخبر يُوجُّ كما توجُّ النار ، وتعالّم الناس أن عطاء سيتكلم في الحب ، وعجبوا كيف يدرى الحب أو يُحسِن أن يقول فيه من غبّر عشرين سنة فراشه المسجد ، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين ، وأبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس بحر العلم !

وقال جماعة منهم : هذا رجلٌ صامتٌ أكثر وقته ، وما تكلم إلا خيّل إلى الناس أنه يؤيدُ بمثل الوحي ، فكأنما هو نَجِيٌّ ملائكة يسمع ويقول ، فلعل السماء موحيةٌ إلى الأرض بلسانه وحيّاً في هذه الضلالة التي عمّت الناس وفتنتهم بالنساء والقناء .

* انظر « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعي .

(١) ولد هذا الإمام سنة ٢٧ هـ وتوفى سنة ١١٥ قالوا : ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى

أهل الدنيا .

ولما كان غدٌ جاء الناسُ أرسالاً إلى المسجد ، حتى اجتمع منهم الجمعُ الكثير . قال عبدُ الرحمن بنُ عبد الله أبي عمار : وكنت رجلاً شاباً من فتيان المدينة ، وفي نفسي ومن الدنيا ومن هوى الشباب ، فغدوتُ مع الناس ، وجئتُ وقد تكلم أبو محمد وأفاض ، ولم أكن رأيتُه من قبلُ ، فنظرتُ إليه فإذا هو في مجلسه كأنه غرابٌ أسود ، إذ كان ابنُ أمةٍ سوداء تسمى « بركة » ورأيتُه مع سواده أعورَ أفتسَّ أشلَّ أعرجَ مُفلَّفلَ الشعر ، لا يتأملُ المرءُ منه طائلاً ، ولكنك تسمعه يتكلم فظن منه ومن سواده — والله — أن هذه قطعةٌ ليل تسطعُ فيها النجوم ، وتصعدُ من حولها الملائكةُ وتنزل .

قال : وكان مجلسُه في قصة يوسف عليه السلام ، ووافقتُه وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى : [وَرَأَوْدَتُهُ لَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ . قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .] ولقد هممتُ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهانَ رَبِّهِ ؛ كذلك لينصرفَ عنه السوءُ والفحشاء .

قال عبد الرحمن : فسمعتُ كلاماً قدسيّاً تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتها من رضى وإعجابٍ ببقية الحجاز . حَفِظْتُ منه قوله :

عَجَبًا للحب ! هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمنٍ بخس ؛ ولكن أين ملكُها وسطوةُ ملكها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تَرِدِ الآية على أن قالت : [وراودته التي] و « التي » هذه كلمة تدلُّ على كل امرأة كائنة من كانت ؛ فلم يسبقَ على الحبِّ ملكٌ ولا منزلة ؛ وزالتِ الملكةُ من الأنثى !

وأعجبُ من هذا كلمة « رَأَوْدَتُهُ » وهي بصيغتها المفردة حكايةٌ طويلةٌ تشير إلى أن هذه المرأة جعلتُ تعرض يوسفَ بألوان من أنوثتها لَوْنٌ يعدلون ؛ ذاهبةً إلى فن ، راجعةً من فن ؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَ أن الإبل في مشيتها ؛ تذهبُ وتجيء في رِفْقٍ . وهذا يُصوِّرُ حيرةَ المرأة العاشقة ، واضطرابها في حبها ؛ ومحاولتها أن تنفذَ إلى غايتها ؛ كما يصوِّرُ كبرياء الأنثى إذ تختالُ وترفقُ في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياءُ شيءٌ آخر غيرُ طبيعتها ؛ فهما تتهالكُ

على مَنْ تَحَبَّ وَجَبَّ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا « الشَّيْءُ الْآخِرُ » مَظْهَرُ امْتِنَاعٍ أَوْ مَظْهَرُ تَحْيِيرٍ أَوْ مَظْهَرُ اضْطِرَابٍ ، وَإِنْ كَانَتْ الطَّبِيعَةُ مِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ مَنْدَفِعَةً مَاضِيَةً مَصْمُومَةً .

ثُمَّ قَالَ : « عَنْ نَفْسِهِ » لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهَا لَا تَطْمَعُ فِيهِ ، وَلَكِنْ فِي طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَهِيَ تَعْرِضُ مَا تَعْرِضُ لِهَذِهِ الطَّبِيعَةِ وَحْدَهَا ، وَكَأَنَّ الْآيَةَ مَصْرُوحَةً فِي أَدَبِ سَامٍ كُلِّ السَّمَوِّ ، مَنْزَرَهُ غَايَةَ التَّنْزِيهِ بِمَا مَعْنَاهُ : « إِنْ الْمَرْأَةُ بَذَلَتْ كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ فِي إِغْرَائِهِ وَتَصَبُّبِهِ ، مُقْبِلَةً عَلَيْهِ وَمَتَدَلِّلَةً وَمَتَبَذَّلَةً وَمُنْصَبَّةً مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، بِمَا فِي جَسْمِهَا وَجَمَالِهَا عَلَى طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَعَارِضَةً كُلَّ ذَلِكَ عَرَّضَ امْرَأَةً خَلَعَتْ - أَوَّلَ مَا خَلَعَتْ - أَمَامَ عَيْنَيْهِ ثَوْبَ الْمُلْكِ » .

ثُمَّ قَالَ : [وَغَلَقَتْ الْأَبْوَابَ] وَلَمْ يَقُلْ « أَغْلَقَتْ » وَهَذَا يُشْعِرُ أَنَّهَا لَمَّا يَشَتْ ، وَرَأَتْ مِنْهُ مَحَاوِلَةَ الْإِنْصِرَافِ ، أَسْرَعَتْ فِي ثَوْرَةٍ نَفْسِهَا مَهْتَاجَةً تَتَخَيَّلُ الْقُفْلَ الْوَاحِدَ أَقْفَالًا عِدَّةً ، وَتَجْرِي مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ ، وَتَضْطَرُّ بِدُحَاهَا فِي الْأَغْلَاقِ ، كَأَنَّمَا تَحَاوِلُ سَدَ الْأَبْوَابِ لَا إِغْلَاقَهَا فَقَطْ .

[وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ] وَمَعْنَاهَا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَنَّ الْيَأْسَ قَدْ دَفَعَ بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ إِلَى آخِرِ حُدُودِهِ ، فَانْتَهَتْ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْجَنُونِ بِفِكْرَتِهَا الشَّهْوَانِيَّةِ ، وَلَمْ تَعُدْ لِمُلْكَةٍ وَلَا امْرَأَةٍ ، بَلْ أَنْوَتْ حَيَوَانِيَّةً صِرْفَةً ، مَتَكَشِّفَةً مَصْرُوحَةً ، كَمَا تَكُونُ أَنْثَى الْحَيَوَانِ فِي أَشَدِّ اهْتِاجِهَا وَغَلَايَانِهَا .

هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَطْوَارٍ يَتَرَقَّى بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْأَنْوَةِ نَازِلَةٌ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا . فَإِذَا انْتَهَتْ الْمَرْأَةُ إِلَى نَهَائِهَا وَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ تَسْتَطِيعُهُ أَوْ تَعْرِضُهُ بَدَأَتْ مِنْ ثَمَّ عَظَمَةُ الرَّجُولَةِ السَّامِيَةِ الْمُتَمَكِّنَةِ فِي مَعَانِيهَا ، فَقَالَ يُوسُفُ : [مَعَآذَ اللَّهِ] ثُمَّ قَالَ : [إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ] ثُمَّ قَالَ : [إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ] . وَهَذِهِ أُسْمِىَ طَرِيقَةً إِلَى تَنْبِيهِ ضَمِيرِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَرْأَةِ ، إِذْ كَانَ أَسَاسُ ضَمِيرِهَا فِي كُلِّ عَصْرِ هُوَ الْيَقِينُ بِاللَّهِ ، وَمَعْرِفَةُ الْجَمِيلِ ، وَكَرَاهَةُ الظُّلْمِ . وَلَكِنْ هَذَا التَّنْبِيهُ الْمُرَادِفُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَكْسِرْ مِنْ نَزَوَاتِهَا ، وَلَمْ يَقْنَأْ تِلْكَ الْحِدَّةَ ، فَإِنْ حَبَّبَهَا كَانَ قَدْ انْحَصَرَ فِي فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ اجْتَمَعَتْ بِكُلِّ أَسْبَابِهَا فِي زَمَنِ فِي مَكَانٍ فِي رَجُلٍ ، فَهِيَ فِكْرَةُ مُحْتَبَسَةٍ كَأَنَّ الْأَبْوَابَ

مغلقة عليها أيضاً ؛ ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها . وهنا يعود الأدب الإلهي السامى إلى تعبيره المعجز فيقول : [ولقد هَمَّتْ به] كأنما يُومئُ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه ، وتعلقت به ، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة ، وهى لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة فى المشيم . . . !

جاءت العاشقة فى قضيتها برهان الشيطان يتقدم به فى آخر محاولته . وهنا يقنع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هى برهان شيطانها . فلولا برهان ربه لكان رجلاً من البشر فى ضعفه الطبيعى .

قال أبو محمد : وههنا ههنا المعجزة الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتى لا يظن به ، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبان منهم ، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلطة متعريضة متكشفة متهاكة . هنا لا ينبغي أن يأس الرجل ، فإن الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئاً من هذا - هى أن يرى برهان ربه .

وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلها فيفضها كلها ؛ فإذا مثل الرجل لنفسه فى تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما ، وأن أمانى القلب التى تهجس فيه ويظنها خافية إنما هى صوت عال يسمعه الله ؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويُقبر ، وفكر فيما يصنع الثرى فى جسمه هذا ، أو فكر فى موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكر فى أن هذا الإثم الذى يقتضيه الآن سيكون مرجعه عليه فى أخيه أو بنته - إذا فكر فى هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة ، كما يكون السائر فى الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية ، ثم ينظر فجأة فى برهان عينه ؛ أترونه يتردى فى الهاوية حينئذ ، أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التى فيها أكثر الكلام ، وأكثر الموعظة ، وأكثر التربية ، والتى هى كالدرع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان ، كلمة « رأى برهان ربه » .

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سُهَيْل بن عبد الرحمن :
 وَلَزِمْتُ الْإِمَامَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَتَشَبَّهُ بِهِ ، وَأَسْلِكَ فِي طَرِيقِهِ مِنَ الزَّهْدِ
 وَالْمَعْرِفَةِ ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ حَفِظْتُ الرَّجُلَ فِي نَفْسِي كَمَا أَحْفَظُ الْكَلَامَ ،
 وَجَعَلْتُ شِعَارِي فِي كُلِّ نِزْعَةٍ مِنْ نِزَعَاتِ النَّفْسِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ :
 [رَأَى بَرَهَانَ رَبِّهِ] ، فَمَا أَلَمْتُ بِإِثْمٍ قَطُّ ، وَلَا دَانَيْتُ مَعْصِيَةً ، وَلَا رَهَقَنِي
 مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ النَّفْسِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا ، وَأَرْجُو أَنْ يَعْصِمَنِي اللَّهُ فِيمَا
 بَقِيَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ كَلِمَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ كَأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ تَحْمِلُهُ ، تَمُرُّ بِهِ
 آمِنًا عَلَى كُلِّ مَعَاصِي الْأَرْضِ ، فَمَا يَعْتَرِضُكَ شَيْءٌ مِنْهَا ، كَأَنْ مَعَكَ خَاتَمَ
 الْمَلِكِ تَجُوزُ بِهِ .

قال سُهَيْل : فلهذا لَقِبَكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ « بِالْقَسِّ » لعبادتك وزهدك
 وَعِزُّوْكَ عَنِ النِّسَاءِ ، وَقَلِيلٌ لَكَ - وَاللَّهِ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَوْ قَالُوا : مَا هَذَا
 بِشَرٍّ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ ، لَصَدَقُوا .

* * *

قالت سَلَامَةُ جَارِيَةُ سُهَيْل بن عبد الرحمن الْمُغَنِّيَّةُ ، الْحَاذِقَةُ الظَّرِيفَةُ ،
 الْجَمِيلَةُ الْفَاتِنَةُ ، الشَّاعِرَةُ الْقَارِئَةُ ، الْمُؤَرِّخَةُ الْمُتَحَدِّثَةُ ، الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ فِي امْرَأَةٍ
 مِثْلُهَا حُسْنُ وَجْهِهَا ، وَحُسْنُ غَنَائِهَا ، وَحُسْنُ شِعْرِهَا - قَالَتْ : وَاشْتَرَانِي
 أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ « عَشْرَةَ آلَافِ جَنْهِ »
 وَكَانَ يَقُولُ : مَا يُقَرِّ عَيْنِي مَا أُوتِيتُ مِنَ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَشْتَرِيَ سَلَامَةً ؛ ثُمَّ قَالَ
 حِينَ مَلَكَني : مَا شَاءَ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَلْيَقُتْنِي ! قَالَتْ : فَلَمَّا عُرِضْتُ
 عَلَيْهِ أَمَرَنِي أَنْ أَغْنِيَهُ ، وَكُنْتُ كَالْخَبُولَةِ مِنْ حُبِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَسِّ ، حُبًّا
 أَرَاهُ فَالِقًا كَبِيدِي ، آتِيَا عَلَى حُسَّاشِي : فَذَهَبَ عَنِّي وَاللَّهِ كُلُّ مَا أَحْفَظُهُ مِنْ
 أَصْوَاتِ الْغَنَاءِ ، كَمَا يُسْحَحُ اللَّوْحُ مِمَّا كُتِبَ فِيهِ ، وَأَنْسَيْتُ الْخَلِيفَةَ وَأَنَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ ، وَلَمْ أَرِ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَمَجْلِسَهُ مِنِّي يَوْمَ سَأَلَنِي أَنْ أَغْنِيَهُ بِشِعْرِهِ فَبَيَّ ،
 وَقَوَّلِي لَهُ يَوْمَئِذٍ : حُبًّا وَكَرَامَةً وَعِزًّا لَوْجْهِكَ الْجَمِيلِ . وَتَنَاوَلْتُ الْعُودَ وَجَسَسْتَهُ
 بِقَلْبِي قَبْلَ يَدِي ، وَضَرَبْتُ عَلَيْهِ كَأَنِّي أَضْرِبُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بِيَدٍ أَرَى فِيهَا عَقْلًا
 يَحْتَالُ حِيلَةَ امْرَأَةٍ عَاشِقَةٍ . ثُمَّ انْدَفَعْتُ أَغْنِي بِشِعْرِ حَبِيبِي :

إن التي طَرَقَتْكَ بين ركائبٍ تمشي بمِزْهَرِها وأنتَ حَرَامُ
لِتَصِيدَ قَلْبَكَ ، أَوْ جِزَاءَ مَوَدَّةٍ إن الرفيقَ له عليك ذِمَامُ
بانت تَعَلَّلْنَا وَتَحْسِبُ أَنَا في ذاك أَيْقَاطُ ، ونحن نيامُ

وغنيته والله غناء والهة ذاهبة العقل كاسفة البال ، ورددته كما ردّدته
لعبد الرحمن ، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أول ما تفتّح . وأنا أنظر إليه
وأثنين لصوتي في مِسْمَعِيه صوتاً آخر . . . وقطّعت ذلك التقطيع ، ومدّدته
ذلك التمديد ، وصيحت فيه صيحة قلبي وجوارحي كلّها كما غنيت عبد الرحمن
لكيما أودى إلى قلبه المعنى الذي في اللفظ والمعنى الذي في النفس جميعاً ، ولكيما
أسكّره - وهو الزاهد العابد - سكر الخمر بشيء غير الخمر !

وما أفقّت من هذه إلا حين قطعت الصوت ، فإذا الخليفة كأنما يسمع
من قلبي لامن في وقد زلّزكّه الطرب ، وما خفيّ عني أنه رجل قد ألتم
بشأن امرأة ، وخشيت أن أكون قد افتضحت عنده ، ولكن غلبته شهوته ،
وكان جسداً بما فيه يريد جسداً لما فيه ، فينّ ثم لم ينكر ولم يتغير .
واشتراني وصيرت إليه ، فلما خلّصونا سألني أن أغني فلم أشعر إلا وأنا
أغنيه بشعر عبد الرحمن :

الأقلّ لهذا القلب : هل أنت مبصرٌ وهل أنت عن سلامة اليوم مقصّرٌ
إذا أخذت في الصوت كاد جليسها يطيرُ إليها قلبه حين تنظرُ
وأديته على ما كان يستحسنه عبدُ الرحمن ويطربُ له ، إذ يسمعُ فيه
همساً من بكائي ، وطفةً مما أجده به ، وحسرةً على أنه ينسكب في قلبي وهو
بصْدُ عني ويتحاماني ، وما غنيت : « وهل أنت عن سلامة اليوم مقصّرٌ »
إلا في صوت تنوح به سلامة على نفسها وتندب وتفتجع !

فقال لي يزيد وقد ففصحت نفسي عنده فضيحة مكشوفة : يا حبيبي من
قائل هذا الشعر ؟

قلت : أحدثك بالقصة يا أمير المؤمنين ؟

قال : حدثيني .

قلت : هو عبد الرحمن بن أبي عمار الذي يلقبونه بالقسّ لعبادته ونسكه ،

وهو في المدينة يشبه عطاء بن أبي رباح ، وكان صديقاً لمولاي سهيل ، فمَرَّ
 بدارنا يوماً وأنا أغنى فوقف يسمع ، ودخل علينا « الأحوص »^(١) ، فقال :
 ويحكمكم ؟ لكان الملائكة والله تنلو مزاميرها بحلق سلامه ، فهذا عبد الرحمن
 القس قد شغل بما يسمع منها ، وهو واقف خارج الدار ، فتسارع مولاي
 فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمع مني ، فأبى ! فقال له : أما علمت
 أن عبد الله بن جعفر ، وهو من هو في محله وبيته وعلمه قد مشى إلى
 جميلة أستاذة سلامة حين علم أنها آلت أليّة ألا تغنى أحداً إلا في منزلها ؛
 فجاءها فسمع منها ، وقد هيأت له مجلسها ، وجعلت على رءوس جواريتها
 شعوراً مُسدلة كالعناقيد ، وألبسهن أنواع الثياب المصبغة ، ووضعت فوق
 الشعور التيجان ، وزيتهن بأنواع الحلي ، وقامت هي على رأسه ، وقام الجوارى
 صفتين بين يديه ، حتى أقسم عليها فجلست غير بعيد ، وأمرت الجوارى
 فجلسن ، ومع كل جارية عودها ، ثم ضربن جميعاً وغنت عليهن ،
 وغنى الجوارى على غنائها ، فقال عبد الله : ما ظننت أن مثل هذا يكون !

وأننا أقعدك في مكان نسمع من سلامة ولا تراها ، إن كنت عند نفسك
 بالمتزلة التي لم يبلغها عبد الله بن جعفر !

قالت سلامة : وكانت هذه والله - يا أمير المؤمنين - رقية من رقى إبليس ؛
 فقال عبد الرحمن : أما هذا فنسّم . ودخل الدار وجلس حيث يسمع ، ثم أمرني
 مولاي فخرجت إليه خرواج القمر مشبوباً من سحابة كانت تغطيه ؛ فأما هو
 فما رأى حتى علق بقلبه ، وسبح طويلاً طويلاً ، وأما أنا فما رأيته حتى
 رأيت الجنة والملائكة ، ومُت عن الدنيا وانتقلت إليه وحده

* * *

قالت سلامة : وافترضت مرة أخرى ، فتسحنج يزيد . . . فضحكت
 وقلت : يا أمير المؤمنين ، أحدتلك أم حبك ؟ قال : حدثني ويحك ! فوالله
 لو كنت في الجنة كما أنت لأعدت قصة آدم مع واحد واحد من أهلها حتى
 يطردوا جميعاً من حُسْنِها إلى حُسْنِك ! فما فعل القس ويحك ؟

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف .

قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه بُدِعَى القسّ قبل أن يهوانى .
فقال يزيد : وهل عَجَبٌ وقد فُتِنْتَهُ أَنْ يَطْرِدَهُ « البَطْرِيْق » ؟
قلت : بل العجبُ وقد فُتِنْتُهُ أَنْ يَصِيرَ هو البَطْرِيْق . . . !

فضحك يزيد وقال : ليه ، ما أحسب الرجلَ إلا قد دُهِى منك بداهية !
فحدثني فقد رفعتُ الغيرة ؛ إني والله أرى هذا الرجلَ في أمره وأمرِك إلا
كالفحل من الإبل ، قد تُركَ من الركوب والعمل ، ونُعمَ وَسُمِنَ للفحولة
فَتَنَدَّ يوماً ، فذهب على وجهه ، فأقحمَ في مفازة ، وأصاب مرتعاً فتَوَحَّشَ
واستأسد ، وتبينَ عليه أثر وحشيته ، وأقبلَ قبالَ الجنِّ من قوة ونشاط وبأس
شديد ؛ فلما طال انفراده وتأبَّده عَرَضَتْ له في البرِّ ناقةٌ كانت قد نَدَّتْ
من عطشها ، وكانت فارهة جسيمة قد انتهت سمناً ، وغطاها الشحمُ واللحم ،
فَرَّأها البازلُ الصَّوْلُ ، فهاجَ وصالَ وهدَرَ ، يخبِطُ بيده ويرجله ،
ويُسْمَعُ لجَوْفِهِ دَوِيٌّ من الغليان ، وإذا هي قد ألقت نفسها بين يديه !

أما والله لو جعلَ الشيطانُ في يمينه رجلاً فحلاً قوياً جميلاً ، وفي شماله
امراً جميلةً عاشقةً تهواه ؛ ثم تمطى متدافعاً ومدَّ ذراعيه فابتعدا ؛ ثم تراجعَ
متداحلاً وضمَّ ذراعيه فالتقيا ؛ لكان هذا شأنَ ما بينك وبين القسِّ !

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ ما كان صاحبي في الرجال خلاً ولا خمراً ،
وما كان الفحلَ إلا الناقةُ . . . ! وما أحسبُ الشيطانَ يعرف هذا الرجل ، وهل
كان للشيطان عمل مع رجل يقول : إني أعرف دائماً فكرتي وهي دائماً فكرتي
لا تتغير . ذاك رجل أساسه كما يقول : [برهانُ ربِّه] ولقد تصنَّعتُ له
مرةً يا أمير المؤمنين ، وتشكَّلتُ وتحلَّيتُ وتبرَّجتُ ، وحدثتُ نفسي منه بكثير ،
وقلت إنه زجلٌ قد غيَّرَ شبابه في وجودِ فارغٍ من المرأة ، ثم وجد المرأة في
وحدي . . . وغنيته يا أمير المؤمنين غناءَ جوارحي كلها ، وكنت له كأني حريرٌ
ناعم يتسرجرجُ وينشر أمامه ويطنوى وحطت كالنائمة في فراشها وقد
خلا المجلس ، وكنت من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوّة تقول
لمن يراها : « كُلْنِي ! »

قال يزيد : ويحك ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : بعد هذا يا أمير المؤمنين ، وهو يهوانى الهوى البَرَحَ ، ويعشقى
العشقَ المُنْصَتِي - لم يرَ في جمالي وفتنتي واستسلامي إلا أن الشيطانَ قد جاء

يَرْشُوهُ بِالذَّهَبِ . . . الذى يتعامل به !

فضحك يزيد وقال : لا والله ، لقد عَرَّضَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ ذَهَبَهُ وَلَوْلَوْهُ
وجواهره كلها ، فكيف لَعَسَمَرى لم يُفْلَح ؛ وهو لو رثانى من هذا كله بدرهم
لوجد أمير المؤمنين شاهد زور . . . !

قلت : ولكنى لم أياس يا أمير المؤمنين ، وقد أردت أن أظهر امرأة فلم
أفلح ، وعملت أن أظهر شيطانةً فانخذلت ، وجهدت أن يرى طبيعتى فلم يرى
إلا بغير طبيعة ، وكلما حاولت أن أنزل به عن سَكِينَتِهِ ووقاره رأيتُ فى عينيه
مالا يتغير كنور النجم ، وكانت بعض نظراته والله كأنها عصا المؤدب ، وكأنه
يرى فى جمالى حقيقة من العبادة ، ويرى فى جسمى خرافة الصنم ، فهو مُقْبِل
عَلَىَّ جميلةً ، ولكنه مُنْصَرَفٌ عَنِ امْرَأَةٍ .

لم أياس على كل ذلك يا أمير المؤمنين ، فإن أول الحب يطلب آخره أبداً
إلى أن يموت . وكان يُكثِرُ من زيارتى ، بل كانت إلى الغدوة والروحة ، من
حبته إياى وتعلقه بى ؛ فوعدته يوماً أن يجىء متى وارى الليل أهله لأغنيه :
« ألا قل لهذا القلب . . . » وكنت لحنته ولم يسمعه بعد . وليثتُ نهارى كله
أستروح فى الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهفُ عليه ، وأتمثل ظلام الليل كالطريق
الممتد إلى شىء مخبوء أعلل النفس به . وبلغتُ ما أقدرُ عليه فى زينة نفسى
وإصلاح شأنى ، وتشكلتُ فى صنوف من الزهر ، وقلت لأجملهن وهى الوردة
التي وضعتها بين نهديّ : يا أختى ، اجذبى عينه إليك ، حتى إذا وقف
نظره عليك فانزلى به قليلاً أو اصعدى به قليلاً . . .

قال يزيد وهو كالمحموم : ثمَّ ثمَّ ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ثم جاء مع الليل ، وإن المجلس لخال ما فيه
غيرى وغيره ، بما أكابدُ منه وما يُعانى منى فغنيته أحرَّ غناء وأشجاء ، وكان
العاشقُ فيه يَطْرَبُ لصوتى ، ثم يَطْرَبُ الزاهدُ فيه من أنه استطاع أن
يطرب ، كما يَطْيشُ الطفلُ ساعةً ينطلقُ من حبس المؤدب .

وما كان يسوعنى إلا أنه يمارس فى الزهد ممارسةً ، كأنما أنا صُعوبة
إنسانية فهو يريد أن يغلبها ، وهو يُجربُ قوى نفسه وطبيعته عليها ؛ وكأنه

يرانى خيال امرأة فى مرآة ، لا امرأة مائلة له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ،
أو أنا عنده كالحورية من حور الجنة فى خيال من هى ثوابه ، تكون معه ، وإن
بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة ؛ فأجمعت أن أحطم المرآة ليرانى أنا
نفسى لا خيالى ، واستنجدت كل فتنى أن تجعله يفر إلى كلما حاول أن
يفر منى .

فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه وانصببت إليه من كل جوارحه ،
وهجئت التيارات الذى فى دمه ودفعته دفعا — قلت له : « أنت يا خليلى شيء
لا يعرف ، أنت شيء متعلق بإنسان ، ومن الذى تعشق ثوب رجل ليس فيه
لابسه ؟ »

ورأيت والله يطوف عند ذلك بفكره ، كما أطوف أنا بفكرى حول المعنى
الذى أردته . فقلت إليه وقلت^(١) : « أنا والله أحبك ! »

فقال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو . . . »

قلت : « وأنتهى أن أعانقك وأقبلك ! »

قال : « وأنا والله ! »

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخيال ! »

قال : « يعنى قول الله عز وجل : [الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو
إلا المتقين] فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة . »

إنى أرى [برهان روى] يا حبيبى ، وهو يعنى أن أكون من سيئاتك
وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أحببت الأنثى لوجدتلك فى كل أنثى ، ولكنى
أحب ما فىك أنتِ بخاصتك ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنتِ تعرفينه ، هو
معناك يا سلامة لاشخصك .

ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ما عاد بعد ذلك ، وترك
لى ندامتى وكلام دموعه ؟ ولينى لم أفعل ، لينى لم أفعل ، فقد رأى أن المرأة —
فى بعض حالاتها — تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تلتج حجابها بل ألفت
ثيابها

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغاني — إلى قوله : (يوم القيامة) ؛ وهو كل
القصة فى كتابه .

قصة زواج*

وفلسفة المهر

قال رسولُ عبد الملك : ويحك (يا أبا محمد) لَكُنْ دَمَكَ وَالله من عَدُوِّكَ ؛ فهو يفور بك لتلجَّ في العناد فتقتل ، وكأني بك والله بين سبْعَيْنِ قد فَعَّرَا عليك ؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما نفرُّ من حتفٍ إلا إلى حتفٍ ، ولا ترحمك الأنيابُ إلا بمخاليبها .

ههنا هِشَامُ بنُ إسماعيل عاملُ أمير المؤمنين ، إن دَخَلَتْه الرحمةُ لك استوثق منك في الحديد ، ورَمَى بك إلى دمشق ، وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله إلا أن يُطعم لحمك السيفَ يعض بك عض الحية في أنيابها السمِّ ؛ وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه ، وبهذا الوجه مضرجا بدمايه ، وبهذه اللحية مُعَفَّرَةٌ بترابها ، وبهذا الرأس مُحْتَرَأٌ في يد (أبي الزُّعَيْرِ عَة) جَلَّاد أمير المؤمنين ، يلقيه من سيفه رَمَى الغُصْنِ بالثمرة قد ثقلت عليه .

وأنت (يا سعيد) فقيهُ أهل المدينة وعالمُها وزاهدُها ، وقد علَّم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : « لو رأى هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لَسَرَّه » فإن لم تَكْرُمْ عليك نفسك فليَكْرُمْ على نفسك المسلمون ؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفقهُ في جميع الأمصار إلى الموالى ؛ ففقيهُ مَكَّةَ عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه البصرة يحيى بن أبي كثير ، وفقيه البصرة الحسن ، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعي ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراساني . وإنما يتحدث الناسُ أن المدينة من دون الأمصار قد حرسها الله بفقيهها القرشيَّ العربيَّ (أبي محمد بن المُسَيَّب) كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد علم أهلُ الأرض أنك حَسَجَجْتَ نَيْقًا وثلاثين حَسَجَةً ، وما فاتتك التكبيرُ الأولى في المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمتَ إلا في موضعك من الصفِّ الأول ، فلم تنظر قطُّ إلى قفا رجل في الصلاة ؛ ولا وجد الشيطانُ ما يعرضُ لك من قبله في صلاتك ولا قَفَا رجل ؛ فالله الله يا أبا محمد ، إني والله ما أغشُّك في النصيحة ؛ ولا أخدعك عن الرأي ، ولا أنظر لك إلا خيرَ ما أنظر لنفسِي ؛ وإن عبد الملك ابنَ مَرْوَانَ مَنَ عَلِمْتَ ؛ رجلٌ قد عمَّ الناسَ ترغيه

• انظر « قصص الرافعي » في « عود مل بده » من كتاب « حياة الرافعي » .

وترهيبه، فهو آخذك على ماتكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحب؛ وإنه والله يا أبا محمد، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسمي بين يديك، رعايةً لمزلتك عنده، وإكباراً لحقك عليه؛ وما أرسلني أخطبُ إليك ابتك ليوكي عهده إلا وهو يتنزلُ نفسه ابتداءً لِيَصِلَ بك رَحِمَهُ، ويُوْتَقِيَ أَصْرَتَهُ؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبملكه ورعاً وزهادة، فما أخرجَ أهلَ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده، وأن يكونوا أصهارَ (الوليد) فيَسْتَدْفِعُوا شَرًّا ما به عنهم غنى، ويجتلبوا خيراً ما بهم غنى عنه، ولست تدري ما يكون من مَصَادِرِ الأمور ومواردها. وإنك والله إن لججتَ في عنادك وأصررتَ أن تردني إليه خائباً، لَسْتُه يَجَنَّ قَرَمَ سيوفِ الشام إلى هذه اللحوم ولَحْمُكَ يومئذ من أطيبها، ولأُمير المؤمنين تارتان: لينٌ وشدة؛ وأنا إليك رسول الأولى، فلا تجعلني رسول الثانية . . .

• • •

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكان الكلام لا يَخْلُصُ إلى نفسه إلا بعد أن تنساقطَ معانيه في الأرض، هَسْبَةً منه وفرقاً من إقدامها عليه؛ وقد لان رسولُ عبد الملك في دَهائه حتى ظن عند نفسه أنه سَاغَ من الرجل مَسَاغَ الماءِ العذب في الخلقِ الظامئ، واشتدَّ في وعيده حتى ما يشكُّ أنه قد سقاها ماءً حميماً فقطعَ أمعاءه؛ والرجلُ في كل ذلك من فوقه كالسما فوق الأرض، لو تحوَّلَ الناس جميعاً كَنَاسِينَ يُثِيرُونَ من غبار هذه إلى تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم، وبقيت السماءُ ضاحكةً صافيةً تتلألُ.

وقلَّبَ الرسولُ نظره في وجه الشيخ، فإذا هو هو ليس فيه معنى رغبةٍ ولا رهبة، كأن لم يَجْعَلْ له الأرضَ ذهباً تحت قدميه في حالة، ولم يملأَ الجوَّ سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى؛ وأيقن أنه من الشيخ العظيم كالصبي الغرِّ قد رأى الطائرَ في أعلى الشجرة فطمعَ فيه، فجاء من تحتها يناديه: أن انزلْ إلى حتى آخذك وألعبَ بك . . .

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال:

يا هذا، أما أنا فقد سمعتُ، وأما أنت فقد رأيتَ، وقد روينَا أن هذه

الدنيا لا تعدلُ عند الله جَنَاحَ بعوضة، فانظر ما جثتي أنت به، وقسه إلى هذه الدنيا كلها، فكم - رحمك الله - تكون قد قَسَمْتَ لى من جناح البعوضة . . ؟ ولقد دُعيتُ من قبلُ إلى نَيْفٍ وثلاثين ألفاً لآخُذَها، فقلتُ : لا حاجة لى فيها ولا فى بنى مروان، حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم « وهأنذا اليوم أدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها ؛ أفأقبضُ يدي عن جُمرة ثم أمدّها لأملأها جمرًا ؟ لا والله مارغب عبدُ الملك لابنه فى ابنتى، ولكنه رجلٌ من سياسته إلصاقُ الحاجة بالناس ليجعلها مَقَادَةً لهم فيُصَرِّقَهم بها ؛ وقد أعجزه أن أباعه، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بَيْعَتَيْنِ، وما عبدُ الملك عندنا إلا باطل كابن الزُبَيْرِ، ولا ابن الزُبَيْرِ إلا باطل كعبد الملك، فانظر فإنك ما جثت لابنتى وابنه، ولكن جثت تخطينى أنا لبيعته . . .

قال الرسول : أيها الشيخ، دع عنك البيعة وحديثها، ولكن مَنْ عسى أن تجد لك ريمتك خيراً من هذا الذى ساقه الله إليك ؟ إنك لراعٍ وإنها لرعية وستُسأل عنها، وما كان الظنُّ بك أن تُسَيءَ رِعِيَّتَها وتبخسَ حقَّها، وأن تَعْضُلَها وقد خطبها فارسُ بنى مروان، وإن لم يكن فارسهم فهو ولى عهد المسلمين، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليدُ بن أمير المؤمنين ؛ وأدنى الثلاثِ أرفعُ الشرفِ فكيف بهنَّ جميعاً، وهنَّ جميعاً فى الوليد ؟

قال الشيخ : أمّا إني مسئول عن ابنتى، فما رغبتُ عن صاحبك إلا لأنى مسئول عن ابنتى . وقد علمتَ أنت أن الله يسألنى عنها فى يومٍ لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشها ودُعَارِها وفجَارِها^(١) . يخرجون من حساب الفسَجَرَةِ إلى حساب القَتَلَةِ، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغصب، إلى حساب أهل البغى، إلى حساب التفريط فى حقوق المسلمين . ويخفَ يومئذ عبيدُها وأوباشُها ودُعَارُها وفجَارُها فى زحام الحشر، ويمشى أمير المؤمنين وابن المؤمنين ومن اتصل بهما، وعليهم أمثالُ الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .
فهذا ما نظرتُ فى حسن الرعاية لابنتى، لو لم أضينَ بها على أمير المؤمنين

(١) الضمير راجع إلى الدنيا .

وابن أمير المؤمنين لأوْبَقْتُ . لا والله ما بيني وبينكم عمل ، وقد فرغتُ مما على الأرض فلا يمرُّ السيفُ مني في لحمٍ حتى .

* * *

ولما كان غداةُ غدٍ جلس الشيخ في حِلَقَتِهِ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديث والتأويل ، فسأل رجلٌ من عُرْضِ المجلس ، فقال : يا أبا محمد ، إن رجلاً يُلاحِني في صَدَاقِ بنته ويكلفني مالا أطيع . فما أَكْثَرُ ما بلغ إليهِ صَدَاقُ أزواجِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدَاقُ بناته ؟ قال الشيخ : رَوَيْنا أن عمر (رضي الله عنه) كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : « ما تزوج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا زوج بناته بأكثر من أربعمئة درهم » ^(١) ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرومةً لسبق إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ورَوَيْنا عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً » .

فصاح السائل : يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتي أن تكون المرأة الحسنة رخيصة المهر ، وحسنها هو يُغْلِيها على الناس ؛ تَكْثُرُ رَغْبَتُهُمْ فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ : انظر كيف قلت . أهم يُساومون في بهيمة لا تعقل ، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بيضاعة من مطاعم صاحبها يُغْلِيها على مطاعم الناس ؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير النساء من كانت على جمال وجهها ، في أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالاً ثالثاً ؛ فهذه إن أصابت الرجل الكُفَّ ، يَسْرَتْ عليه ، ثم يَسْرَتْ ، ثم يَسْرَتْ ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً ، لا متاعاً يطلب شارباً ، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها ؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها ، أي لحُمُقِها ؟ وهى بهذا المعنى من شرار النساء ، وليست من خيارهن .

ولقد تزوج رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بعضَ نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان الأثاث : رحي يد ، وجرة ماء ، ووسادة من أدم حشوها ليف . وأولم على بعض نسائه بمُدَّين من شعر ، وعلى أخرى بمُدَّين من تمر ومدَّين من سويق . وما كان به (صلى الله عليه وسلم) الفقر ، ولكنه يشترعُ بسنته ليُعَلِّمَ الناسَ من عمله أن المرأة للرجل نفسٌ لنفسٍ ، لا متاعٌ لشاربه ؛ والمتاع يُقَوِّمُ بما بُدِّلَ فيه إن غالباً وإن رخيصاً ، ولكن الرجلَ يُقَوِّمُ عند المرأة بما يكون منه ؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تُحْمَلَ إلى داره ، ولكنه الذي تجده منه بعد أن تُحْمَلَ إلى داره ؛ مهرها معاملتها ، تأخذ منه يوماً فيوماً ، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجلها ما دامت في معاشرته . أما ذلك الصداق من الذهب والفضة ، فهو صداقُ العروس الداخلة على الجسم لأعلى النفس ؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى ، أفلا ترى هذه الغالية — إن لم تجد النفس في رجلها — قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد ؟!

وما الصداق في قليله وكثيره ، إلا كالإيماء إلى الرجولة وقد رتَّها ، فهو إيماء ، ولكن الرجلَ قبل . إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً ، والسيفُ إيماء إلى القوة ، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواء ، وقد يحمل الجبانُ في كل يد سيفاً ، ويملك في داره مائة سيف ؛ فهو إيماء ، ولكنَّ البطلَ قبلُ ، ولكنَّ البطلَ قبيل .

مائة سيفٍ يمهِّرُ بها الجبان قوَّته الخائبة ، لا تغنى قوَّته شيئاً ، ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله . ويوشِكُ أن يكونَ المهر الغالى كالتدليس على الناس وعكسى المرأة ، كى لا تعلم ولا يعلم الناس أنه ثمنٌ خيبتها ؛ فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيُسْر مهرها ، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله ، وكفَّت حماقتها أن تُفْسِدَ عليه .

فصاح رجلٌ في المجلس أيها الشيخ ، أفي هذا من دليل أو أثر ؟
 قال الشيخ : نعم ؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى : [خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا] . فهي زَوْجُهُ حين تجده هو لآحين تجد ماله ؛ وهي زوجه حين تُتَمَّمُهُ لآحين تنقصه ، وحين تلامه

لاحين تختلف عليه ؛ فصلحة المرأة زوجة ما يجعلها من زوجها ، فيكونان معاً كالنفس الواحدة ، على ما ترى للعضو من جسمه ؛ يريد من جسمه الحياة لا غيرها .

وأما من كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد روينا : « إذا أتاكم من نرضون دينه وأمانته فزوجوه ؛ إلا تفعلوا تكن فتنه في الأرض وفساد كبير » .

فقد اشترط الدين ، على أن يكون مَرْضِيّاً لا أَى الدين كان ؛ ثم اشترط الأمانة ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته ؛ وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً ، وعلى حقوقها أميناً ، وفى معاملتها أميناً ؛ فلا يبخسها ولا يُعَنِّسُها ، ولا يُسِيءُ إليها ؛ لأن كل ذلك ثَلَمٌ فى أمانته ؛ فإن رَدَّتْ المرأة مَنْ هذه حاله وصفته من أجل المهر — تقدّم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته ، ف وقعت الفتنه ، وفسدت المرأة بالرجل ، وفسد هوَ بها ، وفسد النسل بهما جميعاً ، وأهْمِلَ من لا يملك ، وتغنّست من لا تجد ، ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج سبباً فى منعه ، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة ؛ فيقع معنى الزواج ، ويبقى المعطلُ منه هو اللفظ والشرع .

هل علمت المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها ، وتبلى فيه بلاها ؟ وهل يقوم مال الدنيا بحققها فيما تعمل وما تجاهد ، وهى أم الحياة ومُنشئُها وحافظُها ؟ فأين يكون موضع المال ومكان التفرقة فى كثيره وقليله ، والمال كله دون حقها ؟

ولن يتفاوت الناس بالمال تختلف درجاتهم به ، وتكون مراتبهم على مقداره ، تكثر به مرة وتقل مرة — إلا إذا فسد الزمان ، وبطلت قضية العقل ، وتعطل موجب الشرع ، وأصبحت السجايَا تتحوّل ، يملكها من يملك المال ، ويخسرهما من يخسره ؛ فيكون الدين على النفوس كالدخيل المزاحم لموضعه ، والمتدلى فى غير حقه ؛ وبهذا يرجع باطل الغنى ديناً يتعامل الناس عليه ، ودين الفقير يتهرجاً لا يروج عند أحد ؛ وليس هذا من ديننا ، دين النفس والخلق ، وإن ألفَ يعير يقنوها بالرجل خالصة عليه ، ثابتة له ، لا تزيد فى منزلة دينه قدر

نحلة ولا ما دونها . والحجران : الذهب والفضة - قد يكون شعاعهما في هذه الدنيا أضواء من شمسها وقمرها ، ولكنهما في نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذهما من تحت قدميه ، ويذهب يزعم لك . أنهما في قدر الشمس والقمر .

وهلاكُ الناس إنما يُقْضَى بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعيوبهم وذنوبهم ؛ فهذا هو الإنسان المدبّر عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لا يكون أباً في عطفه ، ولا أمه أمّاً في محبتها ، ولا ابنه ابنّاً في بیره ، ولا زوجته زوجةً في وفائها ؛ وإنما يكونون له منْهالِك ، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ؛ يعيرونه بالفقر ، ويكلفونه مالا يطيق ؛ فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيسهلك » .

* * *

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة ، ثم خرج إلى داره ، فنلقته ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت : يا أبت كنت أتلو الساعة قولاً لله تعالى : [رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً] . فما حَسَنَةُ الدُّنْيَا قال : يا بُنَيَّة ، هي التي تَصْلُحُ أَنْ تُدْكَرَ مع حَسنة الآخرة ، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة ، ولا للمرأة . . .

وطرّق الباب ، فذهب الشيخ يفتح ، فإذا الطارق (عبد الله بن أبي وداعة) ؛ وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقدّه أياماً ، فدخل فجلس . قال الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « تَوَفَّيْتُ أَهْلِي فَاسْتَغْلَتْ بِهَا » .

قال الشيخ : « هَلَا أَخْبَرْتَنَا فَشَهِدْنَاها » . ثم أخذ يُفِيضُ في الكلام عن الدنيا والآخرة ؛ وشعر بن أبي وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ ، فأراد أن يقوم ، فقال (سعيد) :

« هل استحدثت امرأةً غيرها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومن يزوّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا »

* * *

أنا ، أنا ، أنا . . . دوى الجوى بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير ،
فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً فى تسبيح الله يَطِينُ لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد ،
وكانها كلمة زوّجته لإحدى الحور العين .

فلما أفاق من غَشِيَةِ أذنيه . . قال : « وَتَفَعَّل ؟ »

قال (سعيد) : « نعم » وفسر (نعم) بأحسن تفسيرها وأبلغه ؛ فقال : قم
فادع لى نقرأ من الأنصار فلما جاءوا حمد الله وصلى علىّ النبي (صلى الله عليه
وسلم) ، وزوجه علىّ ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) .
ثلاثة دراهم مهرُ الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها
ذهباً لو شاءت .

وغشّى الفرح هذه المرة عيني الرجل وأذنيه ، فإذا هو يسمعُ نشيدَ الملائكة
يطن لحنه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

ولم يشعر أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدري من فرحه ما يصنع ،
وكانه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرّفُ إليها بهذا الصوت الذى لا يزال
يطنُّ فى أذنيه « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وصار إلى منزله وجعل يفكر : مِمَّنْ يأخذ ، ممن يستدين ؟ فظهرت له
الأرضُ خَلَاءً من الإنسان ، وليس فيها إلا الرجلُ الواحد الذى يضطربُ صوته
فى أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وصلى المغربَ وكان صائماً ، ثم قام فأسرج ، فإذا سراجُه الخافتُ الضئيلُ
يسطع لعينه سطوع القمر ، وكان فى نوره وجهَ عروسٍ تقول له : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

وقدّم عشاءه ليُفطر ، وكان خبزاً وزيتاً ، فإذا البابُ يقرع ؛ قال : من
هذا قال الطارق : سعيد

سعيد ؟ سعيد ! من سعيد ؟ أهو أبو عثمان ؛ أبو على ؛ أبو الحسن ؟ فكّر

الرجل في كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيَّب ، إلا الذي قال له : « أنا . . . لم يخالفه أن يكونَ هو الطارق ، فإن هذا الإمام لم يَطْرُقَ بابَ أحدٍ قَطَّ ، ولم يَرُ منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد .

ثم خرج إليه ، فلإذا به سعيدُ بن المسيَّب ، فلم تأخذه عينه حتى رَجَعَ القبرُ فَهَبَطَ فجأةً بظلامه وأمواته في قلب المسكين ، وظن أن الشيخ قد بدا له ، فندم ، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر ، ويتعذَّرَ لإصلاح الغلطة ! فقال : « يا أبا محمد ، لو . . . لو . . . لو - لو أرسلتَ إلى لَأُنَيْتِكَ ! »

قال الشيخ : « لَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تُؤْتَى . . . »

فاصكَّتْ الكلمةُ سمعَ المسكين حتى أبْلَسَ الوجودُ في نظره ، وغشيَ الدنيا صمتٌ كصمتِ الموت ، وأحسَّ كأن القبرَ يتمدد في قلبه بعروق الأرضِ كلِّها ! ثم فاءَ لنفسه ، وقد رَأَى ليس محلُّ شيخه إلا أن يأمر ، وليس محله هو إلا أن يطيع ، وأنَّ من الرجولة ألاَّ يكونَ مَعْرَةً على الرجولة ، ثم نكَّسَ وَتَنَكَّسَ وقال بِذِلَّةٍ ومِسْكَنَةٍ : « ما تأمرني ؟ »

فتفتحت السماءُ مرَّةً ثالثةً ، وقال الشيخ : « إنك كنتَ رجلاً عزيزاً ، فتزوجت ، فكرهتُ أن تبيتَ الليلةَ وحدك ؛ وهذه امرأتُك ! »

وانحرفَ شيئاً ، فإذا العروسُ قادمةٌ خلفه مسترةٌ به ، ودفعها إلى البابِ وسلَّم وانصرف .

وانبعث الوجودُ فجأةً ، وطنَ لَحَزَ الملائكةُ في أذن أبي وداعة : « أنا ، أنا ، أنا . . . »

* * *

دخلت العروسُ البابَ وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانَها ، واستوثق من بابهِ ، ثم خَظَّ إلى القصعة التي فيها الخبزُ والزيت ، فوضعها في ظل السراج كي لا تراها ؛ وأغمض السراجَ عينه ونشر الظلَّ . . .

ثم صعد إلى السطح ورى الجيرانَ بِحُصَيَّاتٍ ؛ ليعلموا أن له شأنًا اعتراه ، وأن قد وَجِبَ حقُّ الجارِ على الجارِ (وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس التلفون اليوم) فجاءوه على سَطُوحهم وقالوا : « ما شأنُكَ ؟ »

قال : « وَيَحْكُمُ ! زَوْجَتِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ابْنَتَهُ الْيَوْمَ ؛ وَقَدْ جَاءَ بِهَا اللَّيْلَةَ عَلَى غَفْلَةٍ » .

قالوا : « وَسَعِيدُ زَوْجَتِكَ ! أَهْوَى سَعِيدُ الَّذِي زَوَّجَكَ ! أَزَوَّجَكَ سَعِيدُ ؟ »
قال : « نَعَمْ » .

قالوا : « وَهِيَ فِي الدَّارِ ؟ أَتَقُولُ إِنَّهَا فِي الدَّارِ ؟ »
قال : « نَعَمْ » .

فَانْتَالِ النِّسَاءُ عَلَيْهِ مِنْ هُنَا وَهُنَا حَتَّى امْتَلَأَتْ بِهِنَ الدَّارُ . وَغَشِيَتْ الرَّجُلَ غَشِيَّةٌ أُخْرَى ، فَحَسَبَ دَارَهُ تَتِيهَ عَلَى قَصْرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَكَأَنَّمَا يَسْمَعُهَا تَقُولُ : « أَنَا ، أَنَا ، أَنَا . . . »

* * *

قال عبد الله بن أبي وداعة : « ثُمَّ دَخَلْتُ بِهَا ، فَلِذَا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ وَأَحْفَظِهِمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَعْرِفِهِمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ . لَقَدْ كَانَتْ الْمَسْأَلَةُ الْمُعْضِلَةَ تُعْبِي الْفُقَهَاءَ فَاسْأَلُهَا عَنْهَا فَأَجِدُ عِنْدَهَا مِنْهَا عِلْمًا » .

قال : وَمَكِثْتُ شَهْرًا لَا يَأْتِينِي سَعِيدٌ وَلَا آتِيهِ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الشَّهْرِ أَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي جِلْقَتِهِ فَسَلَّمْتُ ، فَرَدَّتْ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَلَمْ يَكْلَمْنِي حَتَّى تَفْرُقَ النَّاسُ مِنَ الْجُلُوسِ وَخَلَا وَجْهُهُ ، فَنَظَرُ إِلَى وَقَالَ :
« مَا حَالُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ . . . ؟ » .

* * *

أَمَّا ذَلِكَ (الْإِنْسَانُ) فَلَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْفُرْقِ بَيْنَ قَصْرِ وَلِيِّ الْعَهْدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيْنَ حَجَرَةِ ابْنِ أَبِي ودَاعَةَ الَّتِي تُسَمَّى دَارًا . . . ! إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ مِضَاعِفَةَ الْهَمِّ ، وَهُنَا مِضَاعِفَةُ الْحُبِّ .

وَمَا بَيْنَ (هُنَاكَ) إِلَى الْقَبْرِ مَدَّةَ الْحَيَاةِ - سَتَخَفَّتِ الرُّوحُ مِنْ نُورٍ بَعْدَ نُورٍ ، إِلَى أَنْ تَنْطَفِئَ فِي السَّمَاءِ مِنْ قِضَائِلِهَا .

وَمَا بَيْنَ (هُنَا) إِلَى الْقَبْرِ مَدَّةَ الْحَيَاةِ - تَسْطَعُ الرُّوحُ بِنُورٍ عَلَى نُورٍ ، إِلَى أَنْ تَشْتَعَلَ فِي السَّمَاءِ بِقِضَائِلِهَا .

وما عند أمير المؤمنين لا يبق ، وما عند الله خير وأبقى .

* * *

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حتى وقعت به
المِحْنَةُ ، فضر به عامله على المدينة خمسين سوطاً في يوم بارد ، وصبّ عليه جرّة
ماء ، وعرضه على السيف ، وطاف به الأسواق عاريّاً في تَبَنٍّ (١) من الشعر ،
ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه . وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه
المَخْرَآة ، قال عبد الملك بن مروان : « أنا ؟ »

* * *

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المايوه) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو سروال
قصير يلبسه الملاحون .

ذيل القصة

وفلسفة المال

ذهب الناسُ يمينًا وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيّب وتزويجه ابنته من طالب علم فقير ، بعد إذ ضنّ بها أن تكون زوجاً لوليّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريّات المتعلّقات بتصحیح وتوكلٍ وحدّثنا أديبٌ ظريف أن أحدهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان !

أفترها ستكتبُ إليه أنها تقبل الزواج من وليّ عهده ؟
على أن للقصة ذيلًا ، فإن الطبیعةَ الأدیمیةَ لا عصر لها ، بل هي طبیعةٌ كل عصر ؛ والفضیلةُ الإنسانیةُ یبدأ تاریخها من الجنة ، فهي هي لا تتجدد ولا تزالُ تلوحُ وتختفي ؛ أما الرذیلةُ فأولُ تاریخها من الطبیعة نفسِها ، فهي هي لا تتغیر ولا تزالُ تظهرُ وتستتیر .

* * *

أزواج الإمام ابنته من ابن أبي وداعة ، أخذها بنفسه إليه في يوم زواجها منه ، ومشى بها في طريق حصاه عنده أفضل من الدرّ ، وترابه أكرم من الذهب — طارت الحادثةُ في الناس ، واستفّاضَ لهم قولٌ كثير ؛ [فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون] . وقد قال جماعةٌ منهم : تالله لئن انقطع الوحيُ ، إن في معانيه بقيةٌ ما تزال تنزلُ على بعض القلوب التي تشبه في عظمتها قلوبَ الأنبياء ؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا في معنى سورةٍ من السور قد انشقت لها السماءُ ، ونزل بها جبريلُ يخفقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان .

[وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجسًا إلى رجسِهِمْ] . وقال أناسٌ منهم : أمّا والله لو تهَيّا لأحدنا أن يكون لصّاً يسرق أمير المؤمنين ، أو ابنَ أمير المؤمنين ، لركب رأسه في ذلك ، ما يرُدّه عن السرقة شيء ؛

فكيف بمن تهيأ له الصَّهْرُ والحَسَبُ ، وجاءه الغِنَى بِطَرُقٍ بَابَهُ - ما باله يردُّ كل ذلك ويُخْزِي ابنته برجل فقير تعيشُ في داره بأسوأ حال ؛ وكيف تَشْقُلُ همتُه وتَبْطُؤُ وتَمُوتُ ، إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافةُ ؛ ثم ينبعث ويمضى لا يتلکأ عزمُه ، إذا كان العلمُ والفقرُ والدينُ والتقوى ؟

وانتهى كلام الناس إلى الإمام العظيم ، فلم يَجِئْهُ إلا من الظن خَفِيًّا خَفِيًّا ، كأنما هي أقوالٌ حَسِبَهَا تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألف سنة (في زمننا هذا) حين يكون هو في معاني السماء ، ويكون القائلون في معاني التراب النَجِس الذي نَقَضَتْهُ على الشرق نعالُ الأوربيين . . . ؟

قال الراوى : ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يواجهَ الإمامَ بِشَفَةِ أو بنتِ شفة ، لا مُضَيِّقًا عليه من قلبه ولا مُوسِّعًا ، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة ، وقد مال الناسُ بعد الصلاة إلى حلقة الشيخ ، وتَقَصَّصُوا بعضهم على بعض ، فغصَّ بهم المسجد ، وكان إمامنا يفسرُ قوله تعالى : [وما لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنَاكُمْ بِمَا نَكُونُ .] وعلى الله فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ] .

قال الراوى : فكان فيما قاله الشيخ :

إذا هُدِيَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى في الحياة إما عِداء له ، وإما معارضةً ، وإما رَدًّا ، فهو منها في الأذى ، أو في معنى الأذى ، أو عُرْضةٌ للأذى . لقد وَجَدَ الطريقَ ولكنه أصاب العقباتَ أيضًا ، وهذه حالة لا يَحْضِي فيها المَوْفَقُ إلى غايته ، إلا إذا أعانه الله بطبيعتين : أولاهما العزمُ الثابت ، وهذا هو التوكلُ على الله ؛ والأخرى اليقينُ المستبصر ، وهذا هو الصبرُ على الأذى .

ومتى عزم الإنسانُ ذلك العزمَ ، وأيقن ذلك اليقينَ - تحولت العقبات التي تصده عن غايته ، فأل معناها أن تكون زيادةً في عزمه ويقينه ، بعد أن وُضِعْنَ لِيَكُنَّ نقصاً منهما ؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تعين على الغاية . وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحه على الطريق ، فما بُدِّ أن يغلبَ على الطريق وما فيها . ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً - على سَعَتِها وتَنَاقُضِها -

إلا سبيله وما حَوَّلَ سبيله ، فهو ماضٍ قَدْ مَآ لَا يَسْرَادُ وَلَا يَفْتَرُّ وَلَا يَكِلُ ،
وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً .

ومن ثَمَّ لَا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت - إلا نَفْعَآذًا
من طريق واحدة دون التَّخَبُّطِ في الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمرُ مهما
طال إلا مدةً صبرٍ في رأى المؤمن .

وعزيمةُ النفاذ وعزيمةُ الصبر ، هما الضوء الروحاني القوي ، الذي يَكْسَحُ
ظُلُمَاتِ النفس ، مما يسميه الناس خملاً ودَّحْمَةً وتهاوناً وغفلة وضجراً
ونحوها .

قال : ولكن كيف يُعانِ المؤمنُ على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين
إعجازُ الآية الكريمة ؛ فقد ذَكَرَ فيها التوكُّلُ ثلاثَ مرات ، وافتُتِحَ به
وخُتِمَ ، والتوكُّلُ هو العزمُ الثابت كما أوضحنا . وَذُكِرَتْ في الآية بين ذلك
هدايةُ المرء سبيلَه ؛ وهذه الإضافة (سُيْلُنَا) تُعَيِّنُ أنها هدايةُ الإنسان إلى سبيلِ
نفسه ؛ أي سبيله الباطني الذي هو مَنَاطُ سعادته في الشعور بالسعادة^(١) . ثم
ذُكِرَ الصبرُ على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا في حيوانية الإنسان ، ولا
يؤثر إلا فيها . فكان الآية مُصَرِّحَةً أن نجاح المؤمن ونفاذه في الحياة
لا يكونان أول الأشياء وآخرها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ،
ثم العزم الثابت . وأن الصبر ليس شيئاً يُذَكَّر ، أو شيئاً يُجَدَّى ، إن لم يكن
صبراً على أذى الحيوانية في أفطع وحشيتها ؛ فالروحُ لا تُؤذَى الروح ، ولكن
الحيوانُ يؤذَى الحيوان . وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيُسمى اعتداءً من غيرك ،
ويسمى أذى لك ، هو شيء ينبغى أن يجعله العزمُ فخرًا لقوة الاحتمال فيك ، كما
جعله البطشُ فخرًا للقدره عند المعتدى .

وبهذا يكون العزم قد فَصَّلَ بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيواني ،
وَوَهَبَكَ حقيقةَ الشعور ، وصَحَّحَ بمعاني رُوحيتك معاني حيوانيتك ؛ وحينئذ
تَرَى السعادة حق السعادة ما كان هدايةً لنفسك أو هدايةً بها ، ولو انقلب
في الشخص الحيواني منك أذى وألماً . ذلك صبرٌ أولي العزم من الرسل .

(١) سيأتي في كلام الإمام بسط لهذا المعنى .

* * *

قال الراوى : وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسّه عاملُ الخليفة ، ليسألَ الشيخَ سؤالاً على مَثَلِ الناسِ ، يكونُ كالْتَشْنِيعِ عليه والتشهير به ؛ وقد مَكَّرَ العاملُ فاخْتارَه شيخاً كبيراً أَعْقَفَ ، ليرحمَ الناسُ رِقَّةَ عظمه وكبر سنه فلا يَعْرضون له بأذى ، ثم ليكونَ صوتهُ كأنه صوتُ الدهر من بعيد . قال الصائِح : ذلك أيها الشيخُ صَبْرٌ أَوَّلَى العزم من الرسل ، أو صَبْرٌ ابْتَكَى على مَكَّارِ العيش مع ابن أبى وداعة ، لا يجدُ إلا رُمَقَةً يُنْسِكُ بها الرَّمَقُ عليها ، وقد كانت النعمة لها مُعْرِضَةٌ ، فدفعَها إليه - زَعَمَ - لتَهْلِكَ به شخصَها الحيوانى ، وتوكلت على الله وأَلْقَيْتَ ابْتِكَاكَ فى اليمِّ . . . ؟

فربَدَّ وجهُ الشيخِ وأطرقَ هُنَيَّاتٌ ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلمَ آنفاً ؟ فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادْنُ مِنْى . فتقاعَسَ الرجلُ كأنما تَهَيَّبَ ما فَرَّطَ منه . فاستنداه الثانية ؛ فقام يتخطى الناسَ حتى وقف بإزائه ثم جلس ؛ فقرأ الشيخُ قوله تعالى : [وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاءُ للذين استكبروا : إنا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فهل أنتم مُعْتَبَرُونَ عَنَّا من عذابِ الله من شيءٍ ؟ قَالُوا : لو هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا ، مَا لَنَا مِنْ مَحْصِنٍ] ثم قال : أيها الرجل ، لا تَسْمَعْنِى بِأَذْنِكَ وحدها . أَرَأَيْتَكَ (١) لو سَمِعْتَ خَبراً ليس فى نَفْسِكَ أصلٌ من معناه ، أو وَرَدَ عَلَيْكَ الْخَبَرُ ونَفْسُكَ عنه فى شُغْلٍ قد أَهْمَهَا ؛ أَفَكُنْتَ تَنْشِطُ له نشاطَكَ للخبر احتفلتَ له نَفْسُكَ أو أَصَابَ هَوَى مِنْكَ أو رَأَيْتَهُ موضعَ اعتبار ؟ قال : لا .

قال الشيخ : فإذا سمعتَ بِأَذْنِكَ وحدها فإنما سمعتَ كلاماً يمرُّ بِأَذْنِكَ مرّاً ، وإذا أردتَ الكلامَ لِنَفْسِكَ سمعتَ بِأَذْنِكَ ونَفْسِكَ معاً ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : فكلُّ ما لا تنفرد به حاسةٌ واحدة ، بل تشارك فيه الحواسُ

(١) أَرَأَيْتَكَ : بمعنى أخبرتُ ، تبقى تارة على حالها فى الأفراد والتثنية والجمع ويسلط التغيير على الكاف : أَرَأَيْتَكَ أَرَأَيْتَكَ ، أَرَأَيْتَكُمْ إلخ .

كلها أو أكثرها - لا يكون إلا موضع اهتمام للنفس ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : فن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما إذا شاركت فيهما الحواس .
فيأتي كل منهما كثيراً مهما قلَّ ، وتزيد كلُّ حاسة في اللذة لذَّة وفي الألم ألماً ،
فتعمل النفس في ذلك أعمالاً تَسْحَرُ بها ، فيكون الشيء لصاحبه غير ما هو
للناس ، كالصوت الباكي أو الضاحك في لسان طفلك ، تسمعه أنت منه بكلِّ
حواسك ، فإذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل في الناس رأيته غير
ذاك أكذاك هو ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفيكون السرور بالغاً عجباً أكثر ما هو بالغ ، حين يجِدُ
المال والغنى في الإنسان ، أم حين يجد القوة النفسية وطبيعة المرح والرضى ؟
قال : بل حين يجِدُ في النفس

قال الشيخ : أرأيت الإنسان يكون سعيداً بما يتوهم الناس أنه به غنى
سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بعد فيما لا يتوهم الناس فيه الغنى والسعادة ؟
قال : بل بشعوره .

قال الشيخ : أفلا توجد في الدنيا أشياء من النفس تكون فوق الدنيا وفوق
الشهوات والمطامع ؛ كالطفل عند أمه ، كلُّ ما تعلَّق به من شيء وُزِن به هو
لابغيره ، وكان الاعتبار عليه لاعلى سواه ، أتعرف أمّاً ترضى أن يُدَبَّح ابنها في
حجرها لبقاء أن يُملاً حجرها ذهباً وإن كانت فقيرة مُعْدِمَة ؟
قال : لا .

قال الشيخ : فإذا كانت النفس تُشعرُ أكثر مما ترى ؛ أفذهب ما تراه
فيما تشعر به ، ويكون شعورها هو وحدَه الذي يَلْبَسُ ما حولها ويصوِّره
ويُصَرِّفه ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أتعرف أن لكل نفس قوة من هذا العالم الذي نعيش فيه
عالمًا آخر هو عالم أفكارها ، وإحساسها ، وفيه وحدَه لذات إحساسها
وأفكارها ؟

قال نعم .

قال الشيخ : أفرأيت المرأة إذا صحَّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها ، أرايتها تكون إلا في عالم أفكارها ؟ أرايت كل ما يتصل برغبتها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا ؟ أرايتها لاتعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط ؟ قال : نعم هو ذاك .

قال الشيخ : أرايت إذا كان الإيمانُ قد وُلِدَ ونشأ وترعرعَ في قلب المرأة ، ألا يكون هو طفل قلبها ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : أرايت إذا كانت الحمرُ عند مُدْمِنِها شيئاً عظيماً ، وكانت ضرورةً من ضرورات وجوده الضعيف المختلِّ ، فلا يستقيم وجوده ولا سقته وجوده إلا بها ، أفيلزمُ من ذلك أن تكون الحمرُ من ضرورات صاحب الوجود القوى المنتظم ؟ قال : لا .

قال الشيخ : أفمؤقِنٌ أنت لابدِّ من آخرِ لأيام الإنسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش ؟ قال : نعم .

قال الشيخ : أفمؤرَّخُ الإنسانُ يومئذ بتاريخ معدته وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟ قال : بل بتاريخ نفسه .

قال الشيخ : فإذا كنت صاحبَ حربٍ ، وكنت بطلاً من الأبطال ، وسرعاً من المساعير ، وأيقنت الموتَ في المعركة ، أباكونُ الحقيقى عندك في هذه الساعة هو الموت أم الحياة ؟ قال : بل الحياةُ عندئذٍ وهمٌّ وباطلٌ .

قال الشيخ : : فتتفرَّ في تلك الساعة إلى الحياة ولذاتها في خيالك ، أم تفرُّ منها ولذاتها ؟

قال : بل الفرارُ منها ، فإن خيالها يكون خبيلاً .

قال الشيخ . في تلك الساعة التي هي عُمُرُ نفسك ، وعَمَلُ نفسك ، ورجاءُ نفسك ؛ تستشعر اللذةَ في موتك بطلاً ، أم تُحسُّ الكُربَ ، والمَقَتَ من ذلك ؟ قال بل أَسْتَشْعِرُ اللذةَ .

قال الشيخ : إذن فهي كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أي أشكالها ولو في الذهب .

قال : هي تلك .

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا ، أو الأشياء الكثيرة من الدنيا . قال : نعم .

قال الإمام : يرحمك الله ؛ كذلك مُحَيِّ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحَيِّ المال والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة ؛ ومن رحمة الله أن كل مَنْ هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمة ، استطاع أن يصنَعَ بنفسه لنفسه سعادتها في الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لُقَيْمَات ؛ فإن السَّعة سعة الخُلُق لا المال ، وإن الفقرَ فقر الخُلُق لا العيش .

* * *

قال الراوى : ثم إن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال : أما إني — عَلمَ الله — ما زَوَّجْتُ ابنتي رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً ، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة . وقد أيقنت حين زَوَّجْتُهَا مِنْهُ أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلةَ نفسه ، فيتجانسُ الطبع والطبع ؛ ولا مَهْنُا لرجل وامرأة إلا أن يُجَانِسَ طبعه طبعها ، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه المجانسة ، وأنها لا تكون إلا هدية قلب لقلب بأتلفان ويتحابَّان .

ثم قال الإمام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (١)

(١) توفي سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل ، وعنه أكثر روايته .

ورأيتهن في دُورهن يقاسين الحياة، ويعانين من الرزق ما شح درّه فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة ، وهن على ذلك ، ما واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها ، وما فتقرهن إلا كبرياء الجنة نظرت إلى الأرض فقالت : لا . . . !^(١)

يجاهدن مجاهدة كل شريف عظيم النفس ، همه أن يكون الشرف أو لا يكون شيء ؛ ويرى الغافل أن مثلهن هالكات في تعب الجهاد ، ويعلمن من أنفسهن غير ما يرى ذلك المسكين — يعلمن أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها .

كانت أنوثتهن أبداً صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولا تزال متسامية صاعدة، على حين تنزل المطامع بأنوثة المرأة دون موضعها، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع ؛ ورب ملكة جعلتها مطامع الحياة في الدرك الأسفل ، وهي باسمها في الوهم الأعلى . . . !

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطلّعت في الجنة فإذا أقبل أهلها النساء ، فقلت أين النساء ؟ قال : شغلتهن الأحمران : الذهب والزعفران »^(٢) أي الطمع في الغنى والعمل له ، والميل إلى التبرج والحرص عليه . ونفس الأنثى ليست أنثى ، ولكن شغلها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع — هو يخصصها بخصائص الجسد ، ويعطيها من حكمه ، ويُنزلها على إرادته ؛ وهذه هي المزلّة ، فتبهط المرأة أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما تقوى ، وتفسد أكثر مما تصلح . إن نفس الأنثى لرجل واحد ، لزوجها وحده .

(١) انظر مقالة : (درس من النبوة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٢) هذان هما فتنة النساء في كل دهر ، وهذا الحديث من المعجزات ، فالذهب كناية عن المال والخلى وما كان من باهما . أما الزعفران ففيها المعجزة ، لأنها كناية مطلقة ففهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة ، وفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء ، من المساحيق والمطور ، إلى (المودة) التي هي أصباغ معنوية لأشكال الثياب . وقد كان العرب يقولون : غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها . ويقولون من ذلك : امرأة مغمرة ، وتغمرت ، أي فعلت ذلك . (فالزعفران) كما ترى ، كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة ، وكل ما أنسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية . . .

رَأَيْتُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فقيرات مَقْتُورَاتٍ عَلَيْهِنَ الرِّزْقُ ، غير أن كلاًّ مِنْهُنَّ تعيش بِمَعَانِي قَلْبِهَا الْمُؤْمِنِ الْقَوِي ، فِي دَارٍ صَغِيرَةٍ فَرَشَتْهَا الْأَرْضُ وَلَكِنَّهَا مِنْ مَعَانِي ذَلِكَ الْقَلْبِ كَأَنَّهَا سَمَاءٌ صَغِيرَةٌ مُخْتَبِتَةٌ بَيْنَ أَرْبَعَةِ جَدْرَانِ . لِإِنَّهُنَّ لَمْ يَتَّعِدْنَ عَنِ الْغِنَى إِلَّا لِيَبْعَدْنَ عَنِ حِمَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْغِنَى .

أَفْ أَفْ أَتُرِيدُونَ أَنْ أَزْوَاجَ ابْنَتِي مِنْ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَيُخْزِيهَا اللَّهُ عَلَى يَدَيَّ ، وَأُدْفَعُهَا إِلَى الْقَصْرِ وَهُوَ ذَلِكَ الْمَكَانُ الَّذِي جُمِعَ كُلُّ أَقْدَارِ النَّفْسِ وَتَسْرُ الْأَيَّامُ اللَّيَالِي ؛ أَأَزْوَاجُهَا رَجُلًا تَعْرِفُ مِنْ فَضِيلَةِ نَفْسِهَا سَقُوطَ نَفْسِهِ ، فَتَكُونُ زَوْجَةَ جَسَمِهِ وَمُطَلَّقَةَ رُوحِهِ فِي وَقْتٍ مَعًا ؟
أَلَا كُمْ مِنْ قَصَرٍ هُوَ فِي مَعْنَاهُ مَقْبَرَةٌ ، لَيْسَ فِيهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَغْنِيَاءِ رَجَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ إِلَّا جَيْفٌ يُبْلَى بَعْضُهَا بَعْضًا !

• • •

قَالَ الرَّوَايُ : وَضَحَّ النَّاسُ لِحَمَامَةٍ صَغِيرَةٍ قَدْ جَنَّحَتْ مِنَ الْهَوَاءِ ، فَوَقَعَتْ فِي حِجْرِ الشَّيْخِ لَاثِدَةً بِهِ مِنْ مَخَافَةٍ ، وَجَعَلَتْ تَدْفُ بِجَنَاحَيْهَا وَتَضْطَرِبُ مِنَ الْفَزَعِ ، وَبَرَّ الصَّفَرُ عَلَى أَثَرِهَا وَقَدْ أَهْوَى لَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ تَحَطَّرَ وَمَرَّقَ فِي الْهَوَاءِ إِذْ رَأَى النَّاسَ . . .

وَتَنَاوَلَهَا الْإِمَامُ فِي يَدِهِ وَهِيَ فِي رَجْفَتِهَا مِنْ زَلْزَلَةِ الْهَوَاءِ ، وَكَانَتْ كَالْعَرُوسِ مُسْرُوكَةً قَدْ غَابَتْ سَاقَاهَا فِي الرِّيشِ ، وَعَلَى جَسَمِهَا مِنَ الْأَلْوَانِ نَمْنَمَةٌ وَتَجْبِيرٌ ، وَلَهَا رُوحُ الْعَرُوسِ الشَّابَةِ يُهْدُونَهَا إِلَى مَنْ تَكْرَهُ وَيُزْفِقُونَهَا عَلَى قَاتِلِهَا الَّذِي يُسَمَّى زَوْجَتِهَا .

وَأَدْنَاهَا الشَّيْخُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَمَتَّحَ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَنَظَرَ فِي الْهَوَاءِ نَظْرَةً . . . وَهُوَ يَقُولُ : نَجَوْتُ نَجَوْتُ يَا مُسْكِينَةَ !

• • •

زوجة إمام

جلس جماعةُ أصحاب الحديث في مسجد الكوفة، يَتَنَظَّرُونَ قُدُومَ شَيْخِهِم الإمام «أبي محمد سليمان الأعمش»^(١) لِيَسْمَعُوا مِنْهُ الْحَدِيثَ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : هَلُمُّوا نَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّيْخِ فَكَوْنَ مَعَهُ وَلَيْسَ مَعَنَا ، فَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : إِلَى أَنْ يَكُونَ مَعَنَا وَلَسْنَا مَعَهُ . ! فَخَطَرَتْ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً تَهْتَزُّ عَلَى أَفْوَاهِ الْجَمَاعَةِ ، لَمْ تَبْلُغِ الضَّحْكَ ، وَمَرَّتْ لَمْ تُسْمَعْ ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تُرَ ، وَانْطَلَقَتْ مِنَ الْمَبَاحِ الْمُعْفُوِّ عَنْهُ . وَلَكِنْ أَكْبَرَهَا أَبُو عَتَّابٍ مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ . فَقَالَ : وَيْلَكَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَتَتَسَدَّرُ بِالشَّيْخِ وَهُوَ مِنْذُ السِّتِينَ سَنَةً لَمْ تَقُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، وَعَلَى أَنَّهُ مُحَدَّثُ الْكُوفَةِ وَعَالِمُهَا ، وَأَقْرَأُ النَّاسَ لِكِتَابِ اللَّهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ ، وَمَا عَرَفَتِ الْكُوفَةُ أَعْبَدَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهَ فِي الْعِبَادَةِ ؟

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ^(٢) : أَنْتَ يَا أَبَا عَتَّابٍ ، رَجُلٌ وَحْدَكَ ، تُوَصِّلُ الصُّومَ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَدْ يَبْسُتَ عَلَى الدَّهْرِ ، وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ جَائِعًا مِنْكَ ، وَمَا بَرَحْتَ تَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، كَأَنَّمَا اطَّلَعْتَ عَلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَتَوَافَعُونَ فِيهَا وَهِيَ لَهَبٌ أَحْمَرٌ يَلْتَفُّ عَلَى لَهَبٍ أَحْمَرَ ، تَحْتَ دُخَانٍ أَسْوَدَ يَتَضَرَّبُ فِي دُخَانٍ أَسْوَدَ ؛ يَتَغَامَسُ الْإِنْسَانُ فِيهَا وَهِيَ مِلْءُ السَّمَوَاتِ ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا كَالذُّبَابَةِ أَوْ قَدْ وُلَا لَهَا جِبَلًا مَمْتَدًّا مِنَ النَّارِ ، يَنْطَادُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَقَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَهُمَا جَمْرًا وَشُعْلًا وَدُخَانًا ، حَتَّى لَتَتَهَارَبُ السُّحُبُ فِي أَعْلَى السَّمَاءِ مِنْ حَرِّهِ ، وَهُوَ عَلَى هَوْلِهِ وَجَسَامَتِهِ لِحَرِّ ذُبَابَةٍ لَا غَيْرِهَا ، يَسِيدُ أَنَّهَا ذُبَابَةٌ تُحَرِّقُ أَبَدًا وَلَا تَمُوتُ أَبَدًا ، فَلَا تَزَالُ وَلَا يَزَالُ الْجَبَلُ !

فَصَاحَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : وَيْحَكَ يَا مُحَمَّدُ ! دَعِ الرَّجُلَ وَشَأْنَهُ ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِبَادًا مَتَاعُهُمْ مَا لَا نَعْرِفُ ، كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي النَّوْمِ ، فَحَيَاتُهُمْ مِنْ وَرَاءَ حَيَاتِنَا ، وَأَبُو عَتَّابٍ فِي دُنْيَانَا هَذِهِ لَيْسَ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي اسْمُهُ «مَنْصُورٌ» ، وَلَكِنَّهُ

(١) وَلَدَ هَذَا الْإِمَامُ الْمُظَهَّرُ سَنَةَ ٦١ هِجْرَةَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٤٨ .

(٢) الْجُهَادَةُ هِيَ الْفَرَاةُ الْمَمْلُوءَةُ ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تَشَبَّهُهَا لِفُضَالَتِهَا .

العملُ الذى يعملهُ « منصور » . هل أنا كم خبِرُ قارئُ المدينة « أبى جعفر الزاهد » ؟
قال الجماعة : ما خبره يا أبا معاوية ؟ قال : لقد توفى من قريب ،
فروئى بعد موته على ظهر الكعبة ؛ وسترون أبا عتاب — إذا مات — على منارة
هذا المسجد !

فصاح أبو عتاب : تَخَلَّلْ يا أبا معاوية ؛ أما حفظتَ خبر ابن مسعود :
« كنا عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فقام رجل ، فوقَّع فيه رجلٌ من بعده ؛
فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ” تَخَلَّلْ ” قال : ” ممَّ أَتَخَلَّلُ ؟ ما أَكَلْتُ
لحماً ؟ ” قال : ” إنك أَكَلْتَ لحم أخيك ! ”

فتقلقل الضرير فى مجلسه ، وتسنَّحَ ، وهمهم أصواتاً بينه وبين نفسه ،
وأحسَّ الجماعةُ شأنه ، وقد عرفوا أن له شراً مُبْصِراً ، كالذى كان فيه من
الزُح والدُّعابة ، وشراً أعمى هذه بوارده ؛ فاستلَبَ ابنُ جُحادةَ الحديثَ
مما بينهما وقال : يا أبا معاوية ، أنت شيخنا وبركتنا وحافظنا ، وأقربنا إلى الإمام ،
وأمننا به ؛ فحدثنا حديثَ الشيخ كيف صنع فى ردِّه على هشام بن عبد الملك (١) ،
وما كان بينك وبين الشيخ فى ذلك ؛ فإن هذا مما انفردت أنت به دون الناس
جميعاً ، إذ لم يسمعه غيرُ أذنيك ، فلم يحفظه غيرُك وغيرُ الملائكة .

فأسفرَّ وجهُ أبى معاوية ، وسرَّى عنه ، واهتزَّ عِظْفاه ، وأقبل عليهم
بعضو القادر . . . وأنشأ يحدثهم . قال :

إن هشاماً — قاتله الله — بعث إلى الشيخ : أن اكتبْ لى مناقبَ عثمانَ
ومساوئَ على . فلما قرأ كتابه كانت داجنةٌ إلى جانبه ، فأخذ القُرطاسَ
والقلمَ الشاةَ ، فلا كتبه حتى ذهب فى جوفها ، ثم قال لرسول الخليفة : قل له :
هذا جوابُك ! فخشى الرسولُ أن يرجعَ خائباً فيقتله هشام ، فما زال يتحمَّلُ
بنا ، فقلنا : يا أبا محمد ، نَجَّة من القتل . فلما ألحَّنا عليه كتب : « بسم الله الرحمن
الرحيم . أما بعد يا أمير المؤمنين ، فلو كانت لعُثمانَ (رضى الله عنه) مناقبُ أهل

(١) بويح هشام سنة ١٠٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١٢٥ .

الأرض ما نفعتك ، ولو كانت لعلی (رضی الله عنه) مساوی أهل الأرض ما ضرتك فعليك بخویصة نفسك ، والسلام ..

فلما فصل الرسول قال لی الشیخ : إنه كان فی خراسان محدث اسمه « الضحاک بن مزاحیم الهلالي » وكان فقیه مکتب عظیم فی ثلاثة آلاف صبی يتعلمون ؛ فكان هذا الرجل إذا تعب ركب حماراً ودار به فی المکتب علیهم ، فیکون إقبال الحمار علی الصبی همماً وإدباره عنه سروراً . وما أرى الشیطان إلا قد تعب فی مکتبه وأعیاء ، فركب أمير المؤمنين . . . لیدور علینا نحن یسألنا : ماذا حفظنا من مساوی علی ؟

قلت : فلماذا ألقت کتابه الشاة ؟ ولو غسلته أو أحرقتة كان أفهم له وكان هذا أشبه بك . فقال : ویحك یا أبله ! لقد شابت البلاءة فی عارضیک ؛ إن هشاماً سیتقطع منها غیظاً ، فایخفی عنه رسولُهُ أنى أطعمت کتابه الشاة ، وما یخفی عنه دهأؤه أن الشاة ستبعره من بعد . . . !

قلت : أفلا تخشى أمير المؤمنين ؟

قال : ویحك ! هذا الأحوال عندك أمير المؤمنين ؟ أیماً ولدته أمه من عبد الملك ؟ فهبها ولدته من حائك أوحجام ! إن إمارة المؤمنين یا أبا معاوية ، هی ارتفاع نفس من النفوس العظيمة إلى أثر النبوة ؛ كأن القرآن عراض المؤمنين جميعاً ثم رضی منهم رجلاً للزمن الذى هو فیهِ ، ومتى أصیب هذا الرجل القرآنى ، فذاك وارث النبى فى أمتة وخیفته علیها ، وهو یومئذ أمير المؤمنين ، لامن إمارة المُلک والترف ، بل من إمارة الشرع والتدیر والعمل والسیاسة .

هذا الأحوال الذى التف كدودة الحریر فی الحریر ، وأقبل علی الخیل لا للجهاد والحرب ، ولكن للهو والحلبة ، حتى اجتمع له من جیاد الخیل أربعة آلاف فرس لم یجتمع مثلها لأحد فی جاهلیة ولا إسلام ، وعمل الخز وقطف الخز ، واستجماد الفرش والكسوة ، وبالغ فی ذلك وأنفق فیهِ النفقات الواسعة ، وأفسد الرجولة بالنعیم والترف ، حتى سلك الناس فی ذلك سنته ، فأقبلوا بأنفسهم علی هو أنفسهم ، وصنعوا الخیر صنعاً جدیدةً بصرفه إلى حظوظهم ، وتركوا الشر علی ما هو فی الناس ، فزادوا الشر وأفسدوا الخیر ، ولم

يَعُدُّ الفقراء والمساكينُ عندهم هم الفقراء والمساكين من الناس ، بل بطونهم وشهواتهم . . . ! ولقد كان الرجلُ من أغنياء المسلمين يقتصدُ في حظ نفسه لِيَسَعَ بِبِرِّه مائةً أو مائتين أو أكثرَ من إخوانه وذوي حاجته ، فعاد هذا الغنيُّ يَتَسَعُ لنفسه ثم يتسع ، حتى لا يكفيه أن يأكل رزقه مائة أو مائتين أو أكثرًا !

إن هذا الإسلامَ يجعل أحسنَ السرّات أحسنها في بذلها للمحتاجين ، لافي أخذها والاستئثار بها ، فهي لاتضيع على صاحبها إلا لتكون له عند الله ، وكان الفقر والحاجة والمسكنة والإنفاق في سبيل الله — كأن هذه أَرْضُون يُغْرَس فيها الذهبُ والفضة غرسًا لا يُؤَثِّرُ ثمره إلا في اليوم الذي ينقلبُ فيه أغني الأغنياء على الأرض ، وإنه لأفقر الناسُ إلى درهم من رحمة الله وإلى ما دون الدرهم ؛ فيقالُ له حينئذ : خُذْ من ثمارِ عملك ، وخُذْ مِلءَ يديك !

والسلطانُ في الإسلام هو الشرع مَرْتَبًا يُتَابِعُهُ ، متكلمًا يفهمه الناسُ ، أمرًا ناهيًا يُطِيعُهُ الناس . ولقد رأى المسلمون هذا الأحولَ ، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا ؛ فنعوا ما في أيديهم ، فانقطع الرِّقْدُ ، وقل الخير ، وشحَّتْ الأنفسُ ، وأصبح خيرُهم خيرهم لبطنه وشهواته ، وصار الزمانُ أشبهَ بناسِه ، والناسُ أشبهَ بِمَلِكِهِمْ ، وملكُهم في شهواته « فقيرُ المؤمنين » لا أميرُ المؤمنين !

إن هذه الإمارةَ يا أبا معاوية ، إنما تكون في قرب الشبه بين النبي ومن يختاره المؤمنون للْبَيْعَةِ . وللنبيَّ جِهتان : إحداهما إلى ربه ، وهذه لا يطمع أحدٌ أن يبلغ مَبْلَغَه ؛ والأخرى إلى الناس ، وهذه هي التي يقاس عليها « وهي كلُّها رفقٌ ورحمةٌ وعملٌ » ، وتدير وحيطة وقوة ، إلى غيرها مما يَقُومُ به أمرُ الناس ؛ وهي حقوقٌ وتَبَعَاتٌ ثَقِيلَةٌ تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه ، وبهذا الانصراف تجذبُ الناس إلى صاحبها . فإمارةُ المؤمنين هي بقاء مادة النور النبوي في المصباح الذي يضيء للإسلام ، يمدده بالقدر بعد القدر من هذه النفوس المضيئة . فإن صَلَحَ الترابُ أو الماء مكانَ الزيت في الاستضاءة ، صَلَحَ هشامٌ وأمثاله لإمارة المؤمنين !

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبي مثل ما بين دينيْن مختلفين . ويلٌ يومئذ للمسلمين ! ويلٌ يومئذ للمسلمين !

* * *

فلما أتمَّ الضريرُ حديثَه قال ابنُ جُحادة : إن شيخنا على هذا الجِدِّ ليمزح ، وسأحدُّكم غيرَ حديثِ أبي معاوية ، فقد رأيتُ الدنيا كأنما عرَفتُ الشيخَ ووقفتُ على حقيقته السَّاوية فقالت له : اضحك منى ومن أهلى . ولكنَّ وقارَه ودينَه ارتفعا به أن يضحكَ بضمه ضَحِكَ الجُهلاء والفارغين فضَحِكَ بالكلمة بعد الكلمة من نوادره .

لقد كنتُ عنده في مَرَضَتِهِ ، فعاده « أبو حنيفة » صاحبُ الرأى ، وهو جبيلٌ عليمٌ شامخ ، فطَوَّلَ القعودَ مما يُحِبُّه ويأنسُ به ، إذ كانت الأرواحُ لا تعرفُ مع أحبابها زمنًا يطول أو يقصر . فلما أراد القيامَ قال له : ما كَأْنى إلا ثَقُلْتُ عليك . فقال الشيخُ : إنك لثَقيلٌ عَلى وأنتَ فى بيتك . . . ! وضحك أبو حنيفة كأنه طفلٌ يُلَاغِيهِ أبوه بكلمة ليس فيها معناها ، أو أبٌ دأبَتَه طفله بكلمة فيها غيرُ معناها .

وجاءه فى الغدَّة قومٌ يعودونه ، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذَ الشيخُ وسادَتَه وقامَ منصرفًا ، وقال لهم : قد شَفَى الله مريضكم . . . !

فقال الضريرُ : تلك رُوحَةٌ من هواءِ دُنْباوَنَد^(١) ، فإن أبا الشيخ كان من تلك الجبال ، وقدم إلى الكوفة وأمه حاملٌ ؛ فوُلِدَ هنا ؛ فكأن فى دمه ذلك النسيمَ تهبُ منه النَفْثَةُ بعد النَفْثَةِ فى مثل هذه الكلمات المُتَسَنِّمَةِ ؛ ثم هى رُوحُهُ الظرفيةُ الطيِّبَةُ تَلَمَسُ بعضَ كلامه أحيانًا ، كما تلمس رُوحُ الشاعر بعضَ كلام الشاعر ؛ وما رأيتُ أدقَّ النوادرِ السَّاخِرَةِ وأبلغَها وأعجبَها يجىء إلا من ذوى الأرواحِ الشاعرةِ الكبيرة البعيدة الغُورِ ، كأنما النادرةُ من رؤية النفسِ حقيقتين فى الشىء الواحد . والإمامُ فى ذلك لا يسخرُ من أحد ، إلا إذا كانت الأرضُ حينَ تُخرجُ الثمرةَ الحلوةَ تُسخرُ بها من الثمرةِ المرة .

والعجيبُ أن النادرةَ البارةَ التى لا تتفق إلا لأقوى الأرواحِ ، يتفق مثلها لأضعف الأرواحِ ؛ كأنها تسخرُ من الناس كما يسخرون بها فهذا « أبو حَسَن » معلِّمُ الكُتَّاب ، جاءه غلامان من صِبْيَتِهِ قد تعلق أحدهما بالآخر ؛ فقال :

(١) فاختة من رستاق الرى فى الجبال الثلجية وهى بلاد المعجم .

يا مُعلِّم ، هذا عَضَّ أَذْنِي . فقال الآخر : ما عَضَضْتُهَا ، وإنما عَضَّ أَذْنُ نَفْسِهِ . . . فقال المعلم : وتمكَّرُ بِي يا ابن الحبيثة ؟ أهو جملٌ طویل العُنُق حتى ينالَ أَذْنَ نَفْسِهِ فيعضُّهَا . . . !

• * *

وطلع الشيخُ عليهم وكأنما قرأ نفسَ أبي معاوية في وجهه المفتَح . ومن عجائب الحكمة أن الذي يُلَمَّسُ في عيني المبصر من خوالج نفسه ، يُلَمَّسُ على وجه الضرير مُكَبَّرًا مجسَّمًا . وكان الشيخ لا يأنسُ بأحد أنسَه بأبي معاوية ، لذكائه وحِفْظِهِ وضبطِهِ ، ولمُسَّأِ كَلَمَةِ الظَّرْفِ الروحيِّ بينهما ؛ فقال له :

— « فيمَ كان أبو معاوية ؟ »

— « كان أبو معاوية في الذي كان فيه ! »

— « وما الذي كان فيه ؟ »

— « هو ما تسأل عنه ! »

— « فأجبتني عما أسأل عنه »

— « قد أجبتك ! »

— « بماذا أجبت ؟ »

— « بما سمعت ! »

فقبَضَ وجه الشيخ وقال : « أهنا وهناك معًا ؟ لو أن هذا من امرأة غضبي على زوجها لكان له معنى ، بل لا معنى له ولا من امرأة غضبي على زوجها . أحسَبُ لولا أن في منزلي من هو أبغضُ إلى منكم ما خرجت ؟ » فقال الضرير : « يا أبا محمد ، كأننا زوجاتُ العِلمِ ، فأبتنا التي حَطَّيْتُ وبغيت . . . »

فغطَّى الجماعةُ أفواههم يضحكون ، وتبسَّم الشيخ ، ثم شرع يحدث فأفضى من خَبَرٍ إلى خبر ، وتسرَّح في الرواية حتى مرَّ به هذا الحديث :

عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن هلاكَ الرجالِ طاعتُهم لنسائهم » .

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ ، ولم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) : « هلاكُ الرجل طاعته لامرأته » ؛ فإن هذا لا يستقيم ؛ إذ يكون بعضُ النساء

أحياناً أكملَ من بعض الرجال ، وأوفرَ عقلاً وأسدَّ رأياً ، وقد تكون المرأة هي الرجلَ في الحقيقة عزمًا وتديراً وقوةً نفس ، ويتلینُ الرجلُ معها كأنه امرأة . وكثيرٌ من النساء يكنَّ نساءً بالحليَّة والشكل دون ما وراءهما ، كأنما هيئتنَ رجالاً في الأصل ثم خلِقنَ نساء بعدُ ، لإحداث ما يريد الله أن يحدثَ بهنَّ ، مما يكون في مثل هذه العجبية عملاً ذا حقيقتين في الخير أو الشر .

ولنما عمَّ الحديثُ ليدلَّ على أن الأصلَ في هذه الدنيا أن تستقيم أمورُ التدبير بالرجال ؛ فإن البأس والعقل يكونان فيهم خِلقةً وطبيعةً أكثر مما يكونان في النساء : كما أن الرقة والرحمة في خِلقة النساء وطبيعتهن أكثر مما هما في الرجال ، فإذا غلبت طاعةُ النساء في أمة من الأمم ، فتلك حياة معناها هلاكُ الرجال ، وليس المرادُ هلاكُ أنفسهم ، بل هلاكُ ما هم رجالٌ به ، والحديدُ حديدٌ بقوته وصلابته ، والحجرُ حجرٌ بشدته واجتماعه ؛ فإن ذاب الأولُ أو تفلَّل ، وتناثر الآخر أوتفتت ، فذاك هلاكهما في الحقيقة ، وهما بعدُ لا يزالان من الحجر والحديد .

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها ، وهي على ذلك تأبى أن تكونَ ضعيفةً أو تُقَرَّ بالضعف ، إلا إذا وجدت رجلها الكامل ، رجلها الذي يكون معها بقوته وعقله وفِئته لها وجبها إياه ، كما يكون مثالٌ مع مثال . ضَعُ مائة دينار بجانب عشرة دنانير ، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتدَّعي وتستطيل ؛ قد تقول : إنها أكثرُ إشرافاً ، أو أظرفُ شكلاً ، أو أحسنُ وضعاً وتصنيفاً ؛ ولكن الكلمةَ المحرَّمة هنا أن تزعم أنها أكبرُ قيمةً في السوق !

قال الشيخ : ومن من النساء تُصيبُ رجلها الكامل أو القريب من كماله عندها ، أى طبيعته بالقياس إلى طبيعتها ، كمالِ جِسم مُفصَّلٍ لجِسم ، تفصيلَ الثوب الذي يلبسه ويختلُّ فيه ؟ أما إن هذا من عمل الله وحده ؛ كما يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقدرُ ، يبسطُ مثلَ ذلك للنساء في رجالهن ويقدرُ .

فإذا لم تُصيب المرأةُ رجلها القويَّ - وهو الأعمُّ الأغلب - لم تستطع أن تكونَ معه في حقيقة ضعفها الجميل ، وعَمِلَت على أن يكون الرجلُ هو الضعيف ، لتكونَ معه في تزوير القوة عليه وعلى حياته ، وبهذا تسخرُ من حيزِها ؛

وما أولُ خروجِ النساءِ إلى الطرقاتِ إلا هذا المعنى ؛ فإن كَثُرَ خروجُهنَّ في الطريقِ ، وتَسَكَّعْنَ ههنا وههنا ، فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضاً .. قال الشيخ : وكان في الحديث الشريف إبقاء إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلن عن بعض الحق الذي لهن إبقاء على نظام الأمة ، وتيسيراً للحياة في مَجْرَاهَا ؛ كما ينزل الرجل عن حقه في حياته كلها إذا حارب في سبيل أمته ، إبقاءً عليها وتيسيراً لحياتها في مَجْرَاهَا . فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسه جهادُها وحربُها في سبيل الأمة ، ولها عليه من ثواب الله مثلُ ما للرجل بِقَتْلِ أو يَجْرَحُ في جهاده .

ألا وإن حياة بعض النساء مع بعض الرجال تكون أحياناً مثل القتل ، أو مثل الجرح ، وقد تكون مثل الموت صبراً على العذاب ! ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لِمَرْوَجَةَ يسألها عن إحالتها وطاعتها وصبرها مع رجلها : « فأين أنت منه ؟ » قالت ما آلوه إلا ما عَجَزْتُ عنه ! قال : « فكيف أنتِ له ؟ فإنه جَسَتْكَ ونَارُكَ » .

آه ! آه ! حتى زواجُ المرأة بالرجل هو في معناه مُرُورُ المرأة المسكينة في دنيا أخرى إلى موت آخر ، سَتَحَسَبُ عنده بالجنة والنار ، فحسابُها عند الله نوعان : ماذا صنعتَ بدنياك ونعيمها وبؤسها عليك ؛ ثم ماذا صنعتَ بزوجك ونعيمه وبؤسه فيك ؟

وقد روينا أن امرأةً جاءت النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقالت : يا رسول الله ، إني وافدةُ النساءِ إليك ؛ ثم ذكرتُ لما للرجال في الجهاد من الأجر والغنيمة ؛ ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « أبلغني من لقيت من النساء أن طاعةً للزوج ، واعترافاً بحقه - يعدلُ ذلك ؛ وقليلٌ منكن من يفعلهُ ! »

وقال الشيخ : تأملوا اعجبوا من حكمة النبرة ودقتها وبلاغتها ؛ أيقالُ في المرأة المُحِبَّة لزوجها المفتنة به المعجبة بكماله : إنها أطاعته واعترفت بحقه ؟ أو ليس ذلك طبيعة الحب إذا كان حباً ؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر ، حين لا تصيب المرأة رجلها المفصل لها ، بل رجلاً يسمي زوجاً ؛ وهنا يظهر كرمُ

المرأة الكريمة ، وههنا جهادُ المرأة وصبرُها ، وههنا بذلُها لا أخذُها ؛ ومن كل ذلك ههنا عملها لاحتها أو نارها .

فلماذا لم يكن الرجل كاملاً بما فيه للمرأة ، فلتبقي هي رجلاً بتزولها عن بعض حقها له ، وتركها الحياة تجري في مجراها ، وإثارة الآخرة على الدنيا ، وقيامها بفريضة كمالها ورحمتها ، فيبقى الرجل رجلاً في عمله للدنيا ، ولا يمسح طبعه ولا يتكيس بها ولا يذل ، فإن هي بدأت وتسلطت وغلبت وصرفت الرجل في يدها ، فأكثر ما يظهر حينئذ في أعمال الرجال من طاعتهم لنسائهم — إنما هو طيش ذلك العقل الصغير وجرائته ، وأحياناً وقاحتها ؛ وفي كل ذلك هلاكٌ معاني الرجولة ، وفي هلاك معاني الرجولة هلاك الأمة ؟

قال الشيخ : والقلوب في الرجال ليست حقيقة أبداً ، بطبيعة أعمالهم في الحياة وأمكتهم منها ، ولكن القلب الحقيقي هو في المرأة ، ولذا ينبغي أن يكون فيه السمو فوق كل شيء إلا واجب الرحمة ؛ ذلك الواجب الذي يتجه إلى القوى فيكون حباً ، ويتجه إلى الضعيف فيكون حناناً ورقة ، ذلك الواجب هو اللطف ؛ ذلك اللطف هو الذي يثبت أنها امرأة .

• • •

قال أبو معاوية : وانفض المجلس ، ومنعني الشيخ أن أقوم مع الناس ، وصرف قائلي ؛ فلما خلا وجهه قال يا أبا معاوية ، قم معي إلى الدار . قلت : ما شأن في الدار يا أبا محمد ؟ قال : إن (تلك) غاضبة علي ، وقد ضاقت الحال بيني وبينها ، وأخشى أن تتباعد ، فأريد أن تصليح بيننا صلحاً .

قلت : فم غضبها ؟ قال : لا تسأل المرأة من غضب ، فكثيراً ما يكون هذا الغضب حركة في طباعها ، كما تكون جالسة وتريد أن تقوم فتقوم ، وتريد أن تمشي فتمشي !

قلت : يا أبا محمد ، هذا آخر أربع مرات (١) تغضب عليك غضب الطلاق ، فما يحبسك عليها والنساء غيرها كثير .

قال : ويحك يا رجل ! أباتع نساء أنا ، أما علمت أن الذي يطلق امرأة

(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس « هذه رابع مرة » .

لغير ضرورة مُلجئة ، هو كالذى يبيعها لمن لا يدري كيف يكون معها وكيف تكون معه ؟ إن عمرَّ الزوجة لو كان رقيةً وضربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق !

وهل تعيشُ المطلَّقةُ إلا في أيام مئة ؟ وهل قاتِلُ أيامها إلا مطلقُها ؟
قال أبو معاوية : وقمنا إلى الدار ، واستأذنت ودخلت على (تلك) . . .

زوجة إمام بقية الخير

قال أبو معاوية الضرير : وكنت في الطريق إلى دار الشيخ ، أروى في الأمر ، وأمتحن مذاهب الرأي ، وأقلبها على وجوهها ، وأنظر كيف أحتال في تأليف ما تنافرت من الشيخ وزوجته ؛ فإن الذي يسفر بين رجل وامرأته إنما يمشى بفكره بين قلين ، فهو مطلق نائرة^(١) أو مسعيرها ، إذ لا يضع بين القلين إلا حكمة أو كياسته ، وهو لن يرد المرأة إلى الرأي إلا إذا طاف على وجهها بالضحك ، وعلى قلبها بالخجل ، وعلى نفسها بالرقّة ، وكان حكيماً في كل ذلك ؛ فإن عقل المرأة مع الرجل عقل بعيد ، يجرى من وراء نفسها ، من وراء قلبها .

وجعلت أنظر ما الذي يفسد محل الشيخ من زوجته ، ومثّلت بينه وبينها ، فما أخرج لي التفكير ، إلا أن حسن خلقه معها دائماً هو الذي يستدعي منها سوء الخلق أحياناً ؛ فإن الشيخ كما ورد في وصف المؤمن : « هينٌ لينٌ كالجمل الأنف^(٢) » ، إن قيد افتقاد ، وإن أنيخ على صخرة استسأخ ، والمرأة لا تكون امرأة حتى تطلب في الرجل أشياء : منها أن تحبه بأسباب كثيرة من أسباب الحب ؛ ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف . فإذا هي أحبت الحب كله ، ولم تخف منه شيئاً ، وطال سكوتها وسكونها ، نفرت طبيعتها نفرةً كأنها تسخيه وتدمره ، ليكون معها رجلاً فيسحقها الخوف الذي تستكمل به لذة حبها ، إذ كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل ، أن يقسو عليه الرجل في الوقت بعد الوقت : لا ليؤذيه ولكن ليخضعه ؛ والأمر الذي لا يخاف إذا عصي أمره ، هو الذي لا يعاب به إذا أطيع أمره .

(١) النائرة النضب .

(٢) أي الأنوف ويسميه العامة (المزوم) وهو الذي عقر نفسه بالخشاش فيقاد منه فيكون ذلولاً سعيماً .

وكان المرأة تحتاج طبيعتها أحياناً إلى مصائب خفيفة ، تؤذي برقة أو تمرّ بالأذى من غير أن تلمسها به ، لتحرك في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها ؛ فإن طال ركود هذه الطبيعة ، أوجدت هي لنفسها مصائبها الخفيفة ، فكان الزوج إحداها . . .

وهذا كله غير الجرأة أو البذاءة فيمن يبغضن أزواجهن ، فإن المرأة إذا فتركت زوجها لتنافرة الطبيعة بينها وبينه ، مات ضعفها الأنثوي الذي يتم به جمالها واستمتاعها والاستمتاع بها ، وتعد بذلك لينها أو تصلب أو استحجر ، فتكون مع الرجل بخلاف طبيعتها ، فيقلب سكرها النساء بأنوثتها الجميلة عريضة وخلافاً وشرّاً وصخباً ، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه في صوتين لاني صوت واحد . ولعل هذا هو الذي أحسّه الشاعر العربي بفطرته — من تلك المرأة الصخباء الشديدة الصوت البادية الغيظ ، فضاغف لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صَلْبَةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيْقُهَا^(١)

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ، ودخلت بعد أن استوثقت أن عندها بعض محارمها ؛ فقلت : أنعم الله مساءك يا أم محمد . قالت : وأنت فأنعم الله مساءك .

فأصغيت للصوت ، فإذا هو كالنائم قد انتبه يَتَمَطَّى في استرخاء ، وكأنها تقبلني به وتردني معاً ، لا هو خالص للغضب ولا هو خالص للرضى .

فقلت : يا أم محمد ، إني جائع لم أَلِمَّ اليومَ بممتزى . فقامت فقربت ما حضر وقالت معذرةً يا أبا معاوية ، فإنما هو جهد المقل ، وليس يعدو إمساك الرَّمَق . فقلت : إن الجوعانَ غيرُ الشَّهوانِ ؛ والمؤمنُ يأكل في مِعَى واحد^(٢) ولم يخلق الله قمحاً للملوك وقمحاً غيره للفقراء .

ثم سَمِيتُ ومددتُ يدي أَنَحْسَسُ ما على الطبق ، فإذا كِسَرٌ من الخبز ، معها شيء من الجزر المسلوق ، فيه قليلٌ من الخل والزيت ؛ فقلت في نفسي : هذا

(١) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ . ورواية لسان العرب :

« (شديدة) الصيحة » وليست بشيء ، فليصححها من يقتنى اللسان من القراء .

(٢) في بعض الأثر : المؤمن يأكل في مِعَى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء . وهذا

الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط .

بعض أسباب الشر ؛ وما كان في الجوع ولاسده ، غير أني أردت أن أعرف حاضِرَ الرزق في دار الشيخ ، فإن مثل هذه القلة في طعام الرجل هي عند المرأة قلة من الرجل نفسه ؛ وكل ما تَفَقِدُهُ من حاجاتها وشهواتِ نفسها ، فهو عندها فقرٌ بمعنيين : أحدهما من الأشياء ، والآخر من الرجل : كلما أكثر الرجل من إتخافها أكثر عندها ، وإن أقل قل . وإنما خلقت المرأة بطناً يلد ، فبطنُها هو أكبر حقيقتها ، وهذه غايته و غاية الحكمة فيها ؛ لاجترَمَ كان لها في عقلها مَعْدَةٌ معنوية ؛ وليس حبُّها للحلي والثياب والزينة والمال ، وطماحُها إليها ، واستهلاكُها في الحرص والاستشراف لها - إلا مظهرًا من حكم البطن وسُلْطَانِه ؛ فذلك كله إذا حَقَّقْتَهُ في الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة والسُّلْطَة ، وكان فقدُهُ من ذرائع الضعف والقِلَّة ؛ فإذا حَقَّقْتَهُ في المرأة أَلْفَيْتَهُ عندها من معاني الشَّبَعِ والبطر ، وكان فقدُهُ عندها كأنه فنٌّ من الجوع ، وكانت شهوتُها له كالقَرَمِ إلى اللحم عند من حُرِمَ اللحم ؛ وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنساء ؛ فلن يكون عقلُ المرأة كعقل الرجل لمكان الزيادة في معانيها « البَطْنِيَّة » فحُسِبَتْ لها الزيادة ههنا بالنقص هناك ؛ فهن ناقصاتُ عقل ودين كما ورد في الحديث : أما نقصُ العقل فهذه علتُه ؛ وأما الدين فُلُغْلَبَةٌ تلك المعاني على طبيعتها كما تَغْلِبُ على عقلها ؛ فليس نقصُ الدين في المرأة نقصاً في اليقين أو الإيمان ، فإنها في هذين أقوى من الرجل ؛ وإنما ذاك هو النقص في المعاني الشديدة التي لا يكمل الدين إلا بها ؛ معاني الجوع من نعيم الدنيا وزينتها ، وامتداد العين إليها ، واستشراف النفس لها ؛ فإن المرأة في هذا أقل من الرجل ؛ وهي لهذه العلة ما برحت تُؤثِرُ دائماً جمالَ الظاهر وزينته في الرجال والأشياء ، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة .

* * *

قال أبو معاوية : وأريتها أني جائع ، فَتَهَشَّتْ نهشَ الأعرابي ، كيلا تظنَّ إلى ما أردت من زعمِ الجوع ؛ ثم أحبت أن أَسْتَدْعِيَ كلامَها وأَسْتَمِيلَها لأن تضحك وتُسِر ، فأغَيَّرَ بذلك ما في نفسها ، فيجدد كلامي إلى نفسها مذهباً ؛ فقلت : يا أم محمد ، قد تحرَّمتُ بطعامك ، ووجَّبتُ حتى عليك ، فأشيرى على

برأيك فيما أستصلح به زوجتي ، فإنها غاضبة عليّ ، وهي تقول لي : والله ما يُقيم الفأر في بيتك إلا لحب الوطن . . . وإلا فهو يسترزق من بيوت الجيران .

قالت : وقد أعدمت حتى من كسّر الخبز والجزر المسلوق ؟ الله منك ! لقد استأصلتني من جذورها ؛ إن في أمراض النساء الحمى التي اسمها الحمى ، والحمى التي اسمها الزوج

فقلت : الله - الله - يا أم محمد ؛ لقد أيسرت بعدنا ، حتى كأن الخبز والجزر المسلوق شيء قليل عندك من فطرط ما يتيسر ؛ أو ما علمت أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسهم ، يصوم عن أصحابه اليوم واليومين . . . وكأنك سمعت شيئاً من أخبار أمهات المؤمنين ، أزواج ، رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ونساء أصحابه (رضوان الله عليهم) ؛ فما خير امرأة مسلمة لا تكون بأدبها وخلقها الإسلامي كأنها بنت إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرايت لو كنت فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ أفكان ينقلك هذا إلى أحسن مما أنت فيه من العيش ؛ وهل كانت فاطمة بنت ملك تعيش في أحلام نفسها ، أو بنت نبي تعيش في حقائق نفسها العظيمة ؟

تقولين : إنني استأصلت أم معاوية من جذورها ؛ فما أم معاوية وما جذورها ؟ أهى خير من أسماء بنت أبي بكر صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد قالت عن زوجها البطل العظيم : تزوجتني وما له في الأرض من مال ولا مملوك ، ولا شيء غير فرسه وناضحه^(١) ، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه ، وأدق النوى لناضحه وأعلفه ، واستقي الماء وأخرز غربه^(٢) وأعجن ؛ وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ ، حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية ، فكفنتي سياسة الفرس ، فكأنما أعتقتي .

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصبر والإباء والقوة ، والكبرياء بالنفس على الحياة كائنة ما كانت ، والرضا والقناعة ومؤازرة الزوج وطاعته ، واعتبار ما لهن عند الله لا ما لهن عند الرجل ، وبذلك يرتفعن على نساء الملوك في أنفسهن ، وتكون المرأة منهن وما في دارها شيء ، وعندها أن في دارها الجنة . وهل الإسلام

(١) النواضح : الإبل يستقي عليها ، واحدها ناضح وسائقها النضاح .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور .

إلا هذه الروح السماوية التي لا تهزمها الأرض أبداً ، ولا تُدَلِّها أبداً ، ما دام
يأسُها وطمعُها معلّقين بأعمال النفس في الدنيا ، لا بشهوات الجسم من الدنيا ؟
هل الرجلُ المسلم الصحيحُ الإسلام ، إلا مثلُ الحربِ يثور حولها
غبارُها ، ويكون معها الشظفُ والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر ، إذ كان مفروضاً
على المسلم أن يكون القوة الإنسانية لا الضعف ، وأن يكون اليقين الإنساني لا الشك ،
وأن يكون الحق في هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأة المسلم إلا تلك المفروض عليها أن تُمدَّ هذه الحربَ بأبطالها ،
وعتادَ أبطالها ، وأخلاقَ أبطالها ، ثم ألا تكون دائماً إلا من وراء أبطالها ؟
وكيف تلد البطلَ إذا كان في أخلاقها الضعةُ والمطامعُ الدليلةُ ، والضجرُ
والكسلُ والبلادة ؟ ألا إن المرأة كالدار المبنية ، لا يسهل تغيير حدودها إلا إذا
كانت خراباً .

فاعترضته امرأةُ الشيخ وقالت : وهل بأسٌ بالدار إذا وسَّعت حدودُها من
ضيق ؟ أتكون الدار في هذا إلى نقصها أو تمامها ؟

قال أبو معاوية : فكدتُ أنقطع في يدها ، وأحببتُ أن أمضيَ في اسمائها ،
فتركتُها هنيئةً ظافرةً بي ، وأريتُها أنها شدتني وثاقاً ، وأطرقت كالمفكر ؛ ثم
قلت لها : إنما أحدثك عن أم معاوية لأبي معاوية ؛ وتلك دارٌ لا تملك غيرَ أحجارها
وأرضها فبأى شيءٍ تتسع ؟

زعموا أنه كان رجلٌ عاملٌ يملك دُويرَةً قد التصقتُ بها مساكنُ جيرانه ،
وكانت له زوجةٌ حمقاء ، ما تزال ضيقةَ النفس بالدار وصغريها ، كأن في
البناء بناءً حول قلبها ؛ وكانا فقيرين ، كأُم معاوية وأبي معاوية ؛ فقالت له يوماً :
أيها الرجلُ ، ألا توسعُ دارك هذه ، ليعلم الناس أنك أيسرتُ وذُهب عنك الضرُّ
والفقر ؟ قال : فبماذا أوسعُها وما أملك شيئاً ، أأمسك بيمينى حائطاً وبشمالى
حائطاً فأمدُّهما أباعدَ بينهما ... ؟ وهبني ملكتُ التوسعةَ ونفقتُها ، فكيف
لي بدور الجيران وهى ملاصقةٌ لنا ببيتِ بيت ؟

قالت الحمقاء : فإننا لا نريد إلا أن يتعلّم الناس أننا أيسرنا ؛ فاهدم
أنت الدار ، فإنهم سيقولون : لولا أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المالُ في يدهم
لما هدموا !

قال أبو معاوية: وغازنني زوجة الشيخ فلم أسمع لها هَمْسَةً من الضحك لِمِثْلِ الحمقاء، وما اخترعته إلا من أجلها تريد أن يذهب عملي باطلاً؛ فقلت: وهل تتسع أمُّ معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابي في صلاحه؟ قالت: وما خبرُ الأعرابي؟

قلت: دخل علينا المسجد يوماً أعرابي جاء من البادية، وقام يصلي فأطال القيام والناس يرمقونه، ثم جعلوا يتعجبون منه، ثم رفعوا أصواتهم بمدحونه ويصفونه بالصلاح؛ فقطع الأعرابي صلاته وقال لهم: مع هذا إني صائم... قال أبو معاوية: فما تمالكت أن ضحككت، وسمعت صوت نفسها، وميزتُ فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذي أتسببُ له. ثم قلت:

«وإذا ضاقت الدار فلم لاتسع النفسُ التي فيها؟ المرأةُ وحدها هي الجوارُ الإنسانيُّ لدار زوجها، فواحدةٌ تدخل الدَّارَ فتجعل فيها الروضةَ ناضرةً مُتَرَوِّحةً باسمَةٍ، وإن كانت الدَّارُ قَحْطَةً مَسْحُوتَةً ليس فيها كبيرُ شيءٍ؛ وامرأةٌ تدخل الدَّارَ فتجعل فيها مثلَ الصحراءِ برمالها وقَيْطِطِها وعواصِفِها، وإن كانت الدَّارُ في رياسها ومَتَاعِها كالجنةِ السُّنْدُسِيَّةِ؛ وواحدةٌ تجعل الدارَ هي القبر. والمرأةُ حقُّ المرأةِ هي التي تترك قلبها في جميع أحوالها على طبيعتها الإنسانية، فلا تجعلُ هذا القلبَ لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة: مرةً ذهباً، ومرةً فضةً، ومرةً نحاساً أو خشباً أو تراباً، فلأنما تكون المرأةُ مع رجلها من أجله ومن أجل الأمةِ معاً؛ فعلينا حقان لاحقاً واحداً، أصغرهما كبير. ومن ثمَّ فقد وجب عليها إذا تزوجتُ أن تستشعرَ الذاتَ الكبيرةَ مع ذاتها، فإن أغضبها الرجلُ بهفوةٍ منه، تجافستُ له عنها، ووصفتُ من أجل نظام الجماعة الكبرى؛ وعليها أن تحكم حينئذٍ بطبيعة الأمةِ لابطبيعةِ نفسها، وهي طبيعة تأبى التفرق والانفراد، وتقومُ على الواجب، وتضاعف هذا الواجب على المرأةِ بمخاصة.

والإسلام يضع الأمةَ ممثلةً في النسل بين كل رجل وامرأة، ويوجب هذا المعنى إيجاباً، ليكونَ في الرجل وامرأة شيءٌ غيرُ الذكورة والأنوثة، ويجمعهما ويقيّد أحدهما بالآخر، ويضعُ في بهيمتِهما التي من طبيعتها أن تتفق وتختلف، إنسانيةً من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف.

ومتى كان الدينُ بين كل زوج وزوجته، فهما اختلفا وتَدَابَرَا وتعقّدت

نفساهما ، فإن كلَّ عَقْدَةٍ لا تَجِيءُ إِلَّا وَمَعَهَا طَرِيقَةٌ حُلَّتْهَا ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، وَهُوَ الْيُسْرُ وَالْمُسَاهَلَةُ ، وَالرَّحْمَةُ وَالْمَغْفَرَةُ ، وَلَيْنُ الْقَلْبِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ ؛ وَهُوَ الْعَهْدُ وَالْوَفَاءُ ، وَالكَرَمُ وَالْمُؤَاخَاةُ وَالْإِنْسَانِيَّةُ ؛ وَهُوَ اتِّسَاعُ الذَّاتِ وَارْتِفَاعُهَا فَوْقَ كُلِّ مَا تَكُونُ بِهِ مَنْحَطَةٌ أَوْ ضَيِّقَةٌ .

قال أبو معاوية : فحقُّ الرجلِ المسلمِ على امرأته المسلمة ، هو حقُّ من الله ، ثم من الأمة ، ثم من الرجل نفسه ، ثم من لطفِ المرأة وكرمها ، ثم مما بينهما معاً . وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجدَ لأحدٍ ، لأمرت النساء أن يسجدنَ لأزواجهن » لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ .

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشرَ النساء ، لو تعلمنَ بحقَّ أزواجهنَّ عليكن ، لجعلت المرأة منكن تمشح الغبار عن قَدَمَي زوجها بِحَرٍّ وَجْهِيهَا .

* * *

قال أبو معاوية : وكان الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فناء الدار ، وكنت زورت في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحفيرة التي يلبسها ، فيكون فيها من بَسَادَةِ الْهَيْئَةِ كَالْأَجِيرِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ مِنْ يَسْتَأْجِرْهُ ، فَظَهَرَ الْجُوعُ حَتَّى عَلَى ثِيَابِهِ وقد مرَّ بالشيخ رجل من المُسَوَّدَةِ^(١) وكان الشيخ في فروته هذه جالساً في موضع فيه تخليجٌ من المطر ، فجاءه المسود فقال : قم فاعبرني هذا الخليج . وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك .

وكنت أريد أن أقول لأم محمد : إن الصحو في السماء لا يكون فقراً في السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن في لذات الدنيا ، كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي ، أكبرُ همِّه ألا يجاوزَ الطين قدميه .

ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذن ؟
قال معاوية : فبَدَرْتُ وَقُلْتُ : بِسْمِ اللَّهِ ادْخُلْ ؛ كَأَنِّي أَنَا الزَّوْجَةُ . . .

(١) الذين يلبسون السواد ، وهم شيعة العباسيين .

وسمعتُ همساً من الضحك؛ ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبي ، وغمزني في ظهري
 غمزة ؛ فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورعه وزهده لَيُشْبِعُهُ ما يُشْبِعُ
 الِهْدُهُدُ ، وَيُرْوِيهِ ما يُرْوِي العُصْفُورُ ، ولئن كان متهدماً فإنه جَبَلٌ علم ،
 « ولا تنظري إلى عَمَشِ عَيْنِهِ ، وَحُمُوشَةِ سَاقِيهِ ، فإنه إمام وله قَدَرٌ » (١) .

فصاح الشيخ : قم أخزأك الله ، ما أردتَ إلا أن تعرفها عيوني !
 قال أبو معاوية : ولكني لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده ..

(١) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ ، وعليه بنينا هذه القصة .

قبح جميل

دخل أحمدُ بنُ أيمن (كاتبُ ابن طولون) البصرة ، فصنعُ له مسلم بن عمران التاجرُ المتأدبُ صنيعاً دعا إليه جماعةٌ من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابتاصاحب الدعوة، وهما غلامان ، فوقفا بين يدي أبيهما ، وجعل ابنُ أيمن يطيل النظرَ إليهما ، ويُعجِب من حسنهما ، وبزَرتَهما ورؤائهما ، حتى كأنما أفرغَا في الجمال وزيته لإفراغا ، أو كأنما جاء من شمس وقمر لآمن أبوين من الناس ، أو هما نبتا في مثل تهاويل الزهر من زيتته التي تبدعُها الشمس ، ويصقلُها الفجر ، ويتندى بها رُوحُ الماء العذب ؛ وكان لا يصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جمالهما لا ينتهى فما ينتهى الإعجاب به .

وجعل أبوهما يُسارقُه النظرَ مُسارقةً ، ويبدو كالمشاغل عنه ، ليدع له أن يتوسمَ ويتأمل ما شاء ، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومشخايلهما ؛ يسندُ أن الحسنَ الفاتنَ يأبى دائماً إلا أن يسمعَ من ناظره كلمة الإعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً ، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليُحس أن غريزةً في داخله كلّمها الحسن من كلامه فردّت عليه من كلامها .

قال ابن أيمن ، سبحان الله ، ما رأيت كاليوم قطّ دميّتين لا تفتح الأعين على أجملَ منهما ؛ ولو نزلَا من السماء وألبستهما الملائكة ثياباً من الجنة ، ما حسبت أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسنَ مما صنعت أمهما .

فالتفت إليه مسلم وقال : أحب أن تعوذهما . فد الرجل يده ومسحَ عليهما ، وعوذهما بالحديث المأثور ، ودعاهما ، ثم قال : ما أراك إلا استجذبت الأمّ فحسُنَ نسلك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً ، صغاره من كباره ؛ وما عليك ألا تكونَ قد تزوجت ابنةً قيصراً فأولدتها هذين ، وأخرجتهما هي لك في

صَيِّغَتِهَا الْمُلُوكِيَّةُ^(١) من الحسن والأدب والرواق ، وما أرى مثلَهُمَا يكونان في موضع إلا كان حولهما جلالُ الملِكِ ووقارُهُ ، مما يكون حولهما من نور تلك الأم .

فقال مسلم : وأنت على ذلك غير مصدق إذا قلت لك إني لا أحب المرأة الجميلة التي تصف ، وليس بي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحبُّ النساء إليَّ ، وأخفهن على قلبي ، وأصلحهن لي ، ما أعدلُ بها ابنةَ قيصَر ولا ابنةَ كِسْرَى . فبقى ابنُ أيمن كالشده من غرابة ما يسمع ، ثم ذكر أن من الناس من يأكل الطين ويستطيعه لفساد في طبعه ، فلا يحلو السُّكَّر في فمه وإن كان مكرراً خالصَ الحلالة ؛ ورثيَّ أشدَّ الرثاء لأمِّ الغلامين أن يكونَ هذا الرجل الجلف قد ضارَّها^(٢) بتلك الدميمة أو تسرَّى بها عليها ؛ فقال وما يملك نفسه : أمَّا والله لقد كفرت النعمة ، وغدرت وحدثت وبالغت في الضر ، وإن أمَّ هذين الغلامين لامرأة فوق النساء ، إذ لم يستبين في ولديها أثرٌ من تغيير طبعها وكدور نفسها ، وقد كان يسعها العذر لو جعلتهما سخنة عين لك وأخرجتهما للناس في مساوئك لا في محاسنك ، وما أدرى كيف لاتند عليك ، ولا كيف صلحت بمقدار ما فسدت أنت ، واستقامت بمقدار ما التويت ، وعجيبٌ والله شأنكما ! ! إنها لتغلو في كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت في البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة .

قال مسلم : فهو والله ما قلت لك ، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبت في كل مذهب ، وأنستني كل جميلة في النساء ، ولئن أخذتُ أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشوهة والدَّمامة ؛ غير أنها مع ذلك لا تجيء إلا دالةً على أجمل معاني المرأة عند رجلها في الخطوة والرضى وجمال الطبع ؛ وانظر كيف يلتزم أن تكون الزيادة في القبح هي زيادة في الحسن وزيادة في الحب ، وكيف يكون اللفظ الشائِه ، وما فيه لنفسه إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسنُ الصادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحسن ؟

قال ابنُ أيمن : والله إنَّ أراك إلا شيطاناً من الشياطين ، وقد عجلَّ الله لك

(١) تجيء هذه الكلمة في كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب ، وهو الأنصح في

رأينا ، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جنِّي كتابه : « التصريف الملوكي » .

(٢) المضارة : اتخاذ الضرة على الزوجة .

من هذه الدمية زوجتك التي كانت لك في الجحيم ، لتجتمعاً معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أم هذين الصغيرين ، وما أدري كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذي أدخلت من القبح والدَّامة في معاشرتها ومُعاشيتها ، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرها إلى تلك . أفسهيمه هي لا تعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس في الناس ، أم أنا لأفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم وقال : إن لي خبراً عجيباً : أكنت أنزل « الأبلّة » وأنا مُتَعَشِّشٌ ^(١) فحملت منها تجارةً إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ، ثم بدا لي أن أتسع في الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسط يدي للمال حيث يكثر وحيث يقل ، وكنت في ميسرة الشباب وغُلُوّائِهِ ، وأول هجّمه الفتوة على الدنيا ، قلت : إن في ذلك خلالاً ؛ فأرى الأمم في بلادها ومُعاشيتها ، وأتقلب في التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأفيدُ عظةً وعبرة ، وأعلم عِلماً جديداً ، ولعلنى أصيب الزوجة التي أشتهيتها وأصور لها في نفسى التصاوير ، فإن أمرى من أوله كان إلى علوّ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرى إلا للسبْق . ولا أَرْضَى أن أتخلف في جماعة الناس . وكأنى لم أر في الأبلّة فولا في البصرة امرأةً بتلك التصاوير التي في نفسى ، فتأخذها عيني ، فتعجبني ، فتصلح لي ، فأتزوج بها ، وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أحرزهُ في داري ؛ فازلت أرى من بلد إلى بلد حتى دخلت « بلخ » ^(٢) من أجلّ مدن خراسان وأوسعها غلّة ؛ تُحْمَلُ غلّتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم ؛ وفيها يومئذ - كان - عالمها وإمامها « أبو عبد الله البكخي » وكنا نعرف اسمها في البصرة ؛ إذ كان قد نزلها في رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرواة والعلماء ؛ فاستخفّفتني إليه نزيّة من شوقى إلى الوطن ، كأن فيه بلدى وأهلى ؛ فذهبت إلى حلقته ، وسمعتُه يفسر قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « سوادٌ ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد » . فما كان الشيخ إلا في سحابة ، وما كان كلامه إلا وحيّاً يوحى إليه . سمعت والله كلاماً لا عهد لي بمثله ، وأنا من أول ، نشأتى

(١) أى متكسب ليعيش لا ليفتنى ؛ وهذا يسميه العامة (المتسبب) .

(٢) موقعها اليوم في بلاد الأفغان .

أجلس إلى العلماء والأدباء ، وأدخِلُهُمْ في فُنُون من المذاكرة ، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخي ، ولقد حفظته حتى ما تفوتني لفظة منه ، وبقي هذا الكلام يعمل في نفسي عمله ، ويدفعني إلى معانيه دفعاً ، حتى أتى عليَّ ما سأحدّثك به . إن الكلمة في الذهن لتوجد الحادثة في الدنيا .

قال ابن أيمن : اطوِ خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لي كلام البلخي ، فقد تعلّقت نفسي به .

قال : سمعت أبا عبد الله يقول . في تأويل ذلك الحديث : أمّا في لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تنسبّه إليه ؛ فإنه (صلى الله عليه وسلم) لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كسّى بها عما تحت السوداء ، وما فوق السوداء ، وإلى السوداء ، من الصفات التي يتقَبَّحُها الرجال في خِلقة النساء وصُورِهِنَّ ؛ فألطف التعبير ورقّ به ، رفعاً لشأن النساء أن يصف امرأةً منهن بالقُبْح والدَّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيهاً لسانه النبوي ؛ كأنه (صلى الله عليه وسلم) يقول : إن ذِكْرَ قُبْح المرأة هو في نفسه قُبْح في الأدب ، فإن المرأة أمّ أو في سبيل الأمومة ؛ والجنّة تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنّة التي هي أحسن ما يُستَخِيل في الحسن تحت قدمي امرأة ، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أمّا إن الحديث كالنصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألاّ يصف امرأةً بقبح الصورة البتّة ، وألاّ يجرى في لسانه لفظ القبح وما في معناه ، موصوفاً به هذا الجنس الذي منه أمه : أيودُّ أحدكم أن يمزق وجه أمه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العرب يُفَصِّلون لمعاني النعمة في النساء ألفاظاً كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية ؛ أمّا أكمل الخلق (صلى الله عليه وسلم) ، فما زال يوصي بالنساء ويرفع شأنهن حتى كان آخر ما وصي به ثلاث كلمات ، كان يتكلم بهن إلى أن تلتجّج لسانه ونحى كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة الصلاة . وما ملكت أئمتناكم لا تكلفنهم ما لا يطيقون ؛ الله الله في النساء » .

قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هي إنما هي صلاةٌ تستعبدُ بها الفضائل ، فوجبَتْ رعايتها وتلقِّيها بحَقِّها ؛ وقد ذكَّرَها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوعٌ رقيقٌ ؛ ولكنه ختمَ بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج في حقيقته نوعٌ عبادة .

قال الشيخ : ولو أن أمًّا كانت دميمةً شوهاء في أعين الناس ، لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجملَ من ملكة على عرشها ؛ ففي الدنيا من يصفُها بالجمال صادقاً في حسِّه ولفظه ، لم يكذبْ في أحدهما ؛ فقد انتفى القبحُ إذن ، وصار وصفُها به في رأى العين تكذيباً لوصفها في رأى النفس ، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارضَا فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما في معنى الحديث ، فهو (صلى الله عليه وسلم) يقرّر للناس أن كرمَ المرأة بأمومتها ، فإذا قيل : إن في صورتها قبحاً ، فالخسَاء التي لاتلد أقبح منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبحُ الذي يقال إن الحسن أقبح منه ! . . . !

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أن لا قبح في صورة المرأة ، وأنها منزَّهة في لسان المؤمن أن توصفَ بهذا الوصف ، فإن كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبَّ المرأة حبًّا على طريقة البهائم ، من حيث تفضُّلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته ، لا يتكذَّب في الغريزة ولا في الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله ، ووضعهما مرّة فوق الحدِّ ، ومرّة دون الحدِّ^(١) .

فأكبر الشأن هو للمرأة التي تجعل الإنسان كبيراً في إنسانيته ، لا التي تجعله كبيراً في حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحةُ لا الجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيشَ فيما يصلحُ به الناس ، لا فيما يصطلح عليه الناس ؛ فإن الخروجَ من الحدود الضيقة للألفاظ ، إلى الحقائق الشاملة ، هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدى إلى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرة فيه ،

(١) بسطنا هذا المعنى في كتابنا (السحاب الأحمر) ..

وهو إنما يصل من هذه إلى تلك ، فلا ينبغي أني يَحْصُرَ السماويةَ الواسعةَ في هذه الترابية الضيقة ؛ والقبح إنما هو لفظ تراثي يشار به إلى صورة وقع فيها من التشويه مثل معاني التراب ، والصورة فالبية زائلة ، ولكن عملها باق ؛ فالنظر يجب أن يكون إلى العمل ؛ فالعمل هو لاغيره الذي تَتَعَاوَرُهُ ألفاظ الحسن والقبح .

وبهذا الكمال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجلُ الفاضلُ من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا إلى الشوهاء ، ولكن إلى المحور العين . إنهما في رأى العين رجلٌ وامرأةٌ في صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً ؛ أما في الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحي ، فهما إرادتان متحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبية عشق ، وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والإنسانية ؛ ولذلك اختار الإمامُ أحمدُ بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : مَنْ أعقلُهما ؟ فقيل : العوراء : زوجوني إياها . فكانت العوراء في رأى الإمام وإرادته هي ذات العينين الكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشريف بعد كل هذا الذى حكيناه يدل على أن الحب متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الإنسانية العامة ، متسعاً لها غير محصور في الخصوص منها — كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس ، واستطاع الإنسان أن يجعل حبه يتناول الأشياء المختلفة ، ويرد على نفسه من لذاتها ، فإن لم يسعده شيءٌ بخصوصه ، وجد أشياء كثيرة تسعده بين السماء والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يُعَدُّ جمالاً ، رأى الجمال في أشياء منها غير الصورة ، وتعرف إلى مالا يخفى ، فظهر له ما يخفى .

وليست العين وحدها هي التي تؤامر في أى الشئين أجمل ، بل هناك العقل والقلب ، فجواب العين وحدها إنما هو ثلث الحق . ومتى قيل : « ثلثُ الحق » فضياعُ الثلثين يجعله في الأقل حقاً غير كامل .

فما نكرهه من وجه ، قد يكون هو الذى نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملها الإنسانى بالعقل والقلب ، وبأوسع النظرين

دون أن أضيعهما [فعسى أن تكثرها شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً] .

فوثب ابن أيمن ، وأقبل يدور في المجلس مما دخله من طرب الحديث ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا ابن عمران . قال مسلم : فكيف بك لو سمعته من أبي عبد الله ؛ إنه والله قد حبس إلى السوداء والقيحة والدميمة ، ونظرت لنفسى بخير النظرين ، وقلت : إن تزوجت يوماً فما أبالي جمالاً ولا قبحاً ، إنما أريد إنسانيةً كاملة مني ومنها ومن أولادنا ، والمرأة في كل امرأة ، ولكن ليس العقل في كل المرأة .

قال : ثم إنى رجعت إلى البصرة ، وآثرت السكنى بها ، وتعاملت الناس إقبالي ، وعلمت أنه لا يحسن بي المقام بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلٌ قدرأ من جدّ هذين الغلامين ، وكانت له بنت قد عضلها وتعرض بذلك لعداوة خطأبيها ؛ فقلت : ما لله البنت بدّ من شأن ، ولو لم تكن أكمل النساء وأجملهن ، ما ضنّ بها أبوها رجاًوة أن يأتيه من هو أعلى . فحدثني نفسى بلقائه فيها ، فحشته على خلوة .

فقطع عليه ابن أيمن وقال : قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين ، وإنما نريد من خبر تلك الدميمة التي تعشقت بها .

قال : مهلاً فستتهى القصة إليها . ثم إنى قلت : يا عم ، أنا فلان بن فلان التاجر . قال ما خفى عني محلك وعمل أبيك . فقلت : جئتُك خاطباً لابنتك . قال : والله ما بى عنك رغبة ، ولقد خطبها إلى جماعة من وجوه البصرة وما أحببتهم ، وإنى لكاره إخراجها عن حضنتى إلى من يقوّمها تقويم العبيد . فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسالك أن تدخلنى في عددك ، وتخلطنى بشملك .

فقال : ولا بدّ من هذا ؟ قلت : لا بدّ . قال : اغدُ عسى برجالك . فانصرف عنه إلى ملاء من التجار ذوى أخطار ، فسألهم الحضور في غد ؛ فقالوا : هذا رجل قد ردّ من هو أنرى منك ، وإنك لتحرّكنا إلى سعى ضائع .

قلت : لابدّ من ركوبكم معي . فزكبو على ثقة من أنه سيردّهم .
فصاح ابن أيمن وقد كادت روحه تخرج : فذهبت ، فزوّجك بالحميلة
الرائعة أمّ هذين ؛ فما خبرُ تلك الدميمة ؟

قال مسلم : ياسيدى قد صبرتِ إلى الآن ، أفلا تصبر على كلمات
تُسبِّئُكَ من أين يبدأ خبرُ الدميمة ، فإنّي ما عرفتها إلا في العُرس . . . !
قال : وغدوّنا عليه فأحسنَ الإجابة وزوّجني ، وأطعم القوم ونحر لهم ، ثم
قال : إن شئت أن تبيتَ بأهلك فافعل ، فليس لها ما يُحتاجُ إلى التلّوم
عليه وانتظاره .

فقلت : هذا ياسيدى ما أحبه . فلم يزل يُحدّثني بكلّ حسن حتى كانت
المغرب ، فصلّاها بي ، ثم سبّح وسبّحت ، ودعا ودعوت ، وبقى مقبلاً على
دعائه وتسيّحه ما يلتفتُ لغير ذلك ، فأمضيتُ — علم الله — كأنه يرى أن ابنته
مُقبلة مني على مصيبة ، فهو يتضرّع ويدعو . . . !

ثم كانت العتمة فصلّاها بي ، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دار قد فُرِشتْ
بأحسن فرّش ، وبها خدّم وجوار في نهاية من النظافة ؛ فما استقرّ بي الجلوس
حتى نهض وقال : أَسْتَدْعِكَ الله ، وقدّم الله لكما الخير وأحرّزَ التوفيق .
واكتنفي عجائز من شملتي ، ليس فيهنّ شابةٌ إلا من كانت في الستين . . .
فنظرت فإذا وجوهٌ كوجوه الموتى ، وإذا أجسامٌ بالية يتضمّصُ بعضها إلى بعض ،
كأنها أطلالُ زمنٍ قد انقضَّ بين يدي .

فصاح ابن أيمن : وإن دميمنتك لعجوزٌ أيضاً . . . ؟ ما أراك يا ابن عمران
إلا قتلتَ أمّ الغلامين . . . !

قال مسلم : ثم جلسوا ابنته عليّ وقد ملأني عينيّ هرمًا وموتًا وأخيلةً
شياطين وظلالَ قُرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتي ، حتى أسرعن فأرخين
الستور علينا ؛ فحمدتُ الله لذهابهن ، ونظرت . . .

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلت علينا ، فسستحكى لنا
قصتك إلى الصباح ، قد علمناها ويلك ، فما خبرُ الدميمة الشوها ؟

قال مسلم : لم تكن الدميمةُ الشوها إلا العروس

فزاغت أعين الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمنٍ لإطرافته مَنْ وَرَدَ عليه ما حيرته ؛
ولكن الرجل مَضَى يقول :

ولما نظرْتُها لم أَرَ إلا ما كنتُ حفظُهُ عن أبي عبد الله البلخي ، قلتُ : هي
نفسِي جاءتْ بي إليها ، وكأنَّ كلامَ الشيخ إنما كان عملاً يعملُ فيَّ ويُدِيرُني
ويُصَرِّفُني ؛ وما أُسرِعَ ما قامتِ المسكينةُ فأكبَّتْ على يدي وقالت :

« يا سيدي ، إني سرٌّ من أسرارِ والدي ، كتّمه عن الناس وأفضى به إليك ،
إذ رآكَ أهلاً لستره عليه ، فلا تخفِرْ ظَنَّهُ فيكَ ، ولو كان الذي يُطَلِّبُ
من الزوجة حسنَ صورتها دونَ حُسْنِ تدبيرها وعفافها لعظُمْتُ محبتي ، وأرجو
أن يكونَ معي منهما أكثرُ مما قصَّرَ بي في حُسْنِ الصورة ؛ وسأبلغُ محبتَكَ في كلِّ
ما تأمرُني ؛ ولو أنك آذيتَني لعدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسَّعَتي
كرمُكَ وسَتَرُكَ ؟ إنك لاتعاملُ اللهَ بأفضلَ من أن تكونَ سبباً في سعادةِ بائسةٍ
مثلي . أفلا تحرصُ يا سيدي ، على أن تكونَ هذا السببَ الشريفَ . . . »

ثم إنَّها وثبتَ فجاءتْ بمالٍ في كيسٍ ، وقالت : يا سيدي ، قد أحلَّ الله
لك معي ثلاثَ حرائرَ ، وما آثرتُهُ من الإماء ؛ وقد سَوَّغْتُكَ تزويجَ الثلاثِ
وابتِباعَ الجوارى من مالِ هذا الكيسِ ، فقد وقفْتُه على شهواتِكَ ، ولستُ أُطلبُ
منك إلا سَري فقط !

* * *

قال أحمد بن أيمن : فحلَّفتُ لي الناجر : أنها مَلَكَتْ قَلْبِي مِلْكاً لاتصلُ إليه
حسناً بحسنها ؛ فقلتُ لها : إن جزاءَ ما قدَّمَتِ ما تسمِعيه مني : « والله لأجعلَنَّكَ
حظِّي من دنياي فيما يُؤثِّرُهُ الرجلُ من المرأة ، ولأضريَنَّ على نفسِي الحجابَ ،
ما تنظرُ نفسِي إلى أنثى غيرِكَ أبداً » . ثم أتممتُ سرورَها ، فحدثتها بما حفظته عن
أبي عبد الله البلخي . فأيقنتُ — والله يا أحمد — أنها نَزَلَتْ مني في أرفعِ منازلها
وجعلتُ تَحْسُنُ وتحسُنُ ، كالغصنِ الذي كان مَجْروداً ، ثم وَخَزَتْهُ الخُضْرَةُ
من هنا ومن هنا .

وعاشرتُها ، فإذا هي أضبطُ النساءِ ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقُهن على ،
وأجبتُهن لي ؛ وإذا راحتي وطاعتي أولُ أمرها وآخره ؛ وإذا عقلُها وذكاؤها

يُظْهَرَانِ لِي مِنْ جَمَالِ مَعَانِيهَا مَا لَا يَزَالُ يَكْثُرُ وَيَكْثُرُ ، فَجَعَلَ الْقَبِيحَ يَقِلَّ وَيَقِلَّ ،
وَزَالَ الْقَبِيحُ بِاعْتِيَادِي رُؤْيَتِهِ ، وَبَقِيَتِ الْمَعَانِي عَلَى جَمَالِهَا ؛ وَصَارَتْ لِي هَذِهِ الزَّوْجَةُ
هِيَ الْمَرْأَةُ وَفَوْقَ الْمَرْأَةِ .

وَلَمَّا وَلَدْتُ لِي ، جَاءَ ابْنُهَا رَائِعَ الصُّورَةِ ؛ فَحَدَّثَنِي أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ تَتَمَنَّى
عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ تَنْزَوِّجَ وَتَلِدَ أَجْمَلَ الْأَوْلَادِ ، وَلَمْ تَدَعْ ذَلِكَ مِنْ فِكْرِهَا
قَطْ ، وَأَلَّفَ لَهَا عَقْلُهَا صُورَةَ غَلَامٍ تَتَمَثَّلُهُ وَمَا بَرَحَتْ تَتَمَثَّلُهُ ؛ فَإِذَا هِيَ أَيْضًا
كَانَتْ لَهَا شَأْنٌ كَشَأْنِي ، وَكَانَ فِكْرُهَا عَمَلًا يَعْمَلُ فِي نَفْسِهَا ، وَيُدِيرُهَا
وَيَصْرِفُهَا .

وَرَزَقَنِي اللَّهُ مِنْهَا هَذَيْنِ الْابْنَيْنِ الرَّائِعَيْنِ لَكَ ، فَانْظُرْ ؛ أَيُّ مُعْجَزَتَيْنِ مِنْ
مُعْجَزَاتِ الْإِيمَانِ . . . !

* * *

الطائشة

١

قال صاحبُها وهو يُحدّثني من حديثها :
كانت فتاةً متعلّمةً ، حلوةَ المنظر ، حلوةَ الكلام ، رقيقةَ العاطفة ، مُرَهّفةَ
الحسّ ، في لسانها بيانٌ ولوجهها بيانٌ غيرُ الذي في لسانها ، تعرّفُ فيه الكلامَ
الذي لا تتكلّمُ به

ولها طبعٌ شديدُ الطّرب للحياة ، مُستترّسلٌ في مَرّحِهِ ، خفيفٌ طيّاشٌ ،
لو أنقلبتْ به بجميلٍ لُحفٍ بالجليل ؛ تحسبُها دائماً سَكْرَى تتمايلُ من طربها ،
كأن أفكارها المَرِحّةَ هي في رأسها أفكارٌ وفي دَمِها خمرٌ

وكان هذا الطبعُ السّكرانُ بالشباب والجمال والطرب — يعملُ عملين
متناقضين ؛ فهو دلالٌ مُتراجِعٌ منهزمٌ ، وهو أيضاً جرّاءٌ مُندفعةٌ متهجمّةٌ .
وهزيمةُ الدلالِ في المرأةِ إنّ هي إلاّ عَمَلٌ حَرْبِيٌّ ، مُضْمِرَةٌ فيه
الكثرةُ والهجومُ ؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرةَ ذاتِ المعنيسين : نظرةٌ واحدةٌ ؛
بها تُؤنّبك المرأةُ على جرّاءتك معها ، وبها أيضاً تعذّلك على أنّك لستَ معها أجراً
مما أنت . . . !

* * *

قلت : ويحك يا هذا ! أتعرفُ ما تقول ؟
قال : فمنُ يعرفُ ما يقولُ إذا أنا لم أعرفُ ؟ لقد أحببتُ خمسَ عشرةَ
فتاةً ؛ بل هنُ أحببنني وفرغنَ قلوبهنّ لي ، ما اعتزّتْ عليّ منهن واحدةٌ ،
وقد ذهبن بي مذهباً ، ولكنّي ذهبتُ بهن خمسةَ عَشَرَ !
قلت : فلا ريبَ أنّك تحملُ الوِسَامَ الإِبليسيَّ الأوّلَ من رُتبةِ الجَمْرَةِ . . .
فكيف استهّامَ بك خمسَ عشرةَ فتاةً ؛ أجاهلاتُ هنّ ، أعَمَيّاتُ
هن . . . ؟

قال : بل متعلّقاتُ مُبصّراتُ يَرَيْنَ ويدُرِكنَ ، ولا تُخْطِي واحدةٌ
منهن في فهمٍ أن رجلاً وامرأةً قصةُ حُبٍّ . . . وما خمسَ عشرةَ فتاةً ؟
وحى القلم — أول

وما عشرون وثلاثون من فتّيات هذا الزمن الحائر البائر ، الذى كَسَدَ فيه الزواجُ ، ورقَّ فيه الدين ، وسقط الحياء ، والتهبت العاطفة ، وانتشر اللّهُو ، وكثُرَتْ فنونُ الإغراء ، واصطَلَحَ فيه إبليسُ والعلمُ يعملان معاً . . ؛ وأُطْلِقَتِ الحرّيةُ للمرأة ، وتوسعت المدارسُ فيما تقدّم للفتّيات ، وأظهرت من الحفاوة بهن أمراً مُفْهِماً حتى أخذن منها رُبْعَ العلم . . ؟

قلت : وثلاثة أرباع العلم الباقية ؟

قال : يأخذنها من الروايات والسيما .

علمُ المدارس ، ما علمُ المدارس ؟ إنهن لا يصنعن به شيئاً إلا شهاداتٍ هى مكافأةُ الحفظ وإجازةُ النسيان من بعد ؛ أما علمُ السيما والروايات فيصنعن به تاريخهن . . . وربُّ منظر يشهده فى السيما أُلْفُ فتاة بمرّة واحدة ، فإذا استقرّ فى وعيهن ، وظافت به الخواطرُ والأحلام — سلبهنّ القرارَ والوقارَ فثَلَّسْنَهُ أُلْفَ مرّةً بأُلْفَ طريقةٍ فى أُلْفَ حادثة !

يظنون أننا فى زمنٍ لإزاحةِ العقَباتِ النسائيةِ واحدةً بعد واحدة ، من حرية المرأة وعلمها ؛ أما أنا فأرى حريةَ المرأة وعلمها لا يُوجِدان إلا العقَباتِ النسائيةَ عَقَبَةً بعد عَقَبَةٍ . وقد كان عيبُ الجاهلةِ المقصورةِ فى دارها أن الرجلَ يَحْتالُ عليها ، فصار عيبُ المتعلّمةِ المفتوحِ لها البابُ أنها هى تحتالُ على الرجلِ ؛ فرةً بإبداعِ الحيلةِ عليه ، ومرةً بتلقينه الحيلةَ عليها . والغريب فى أمر هذا العلم أنه هو الذى جعل الفتاةَ تبدأ الطريقَ المجهولَ بجهل . . . !

قلت : وما الطريقُ المجهولُ ؟

قال : الطريقُ المجهولُ هو الرجلُ ، وإطلاقُ الحريةِ للفتاةِ أطلقَ ثلاثَ حريّاتٍ : حريةُ الفتاةِ ، وحريةُ الحبِّ ؛ والأخرى حريةُ الزواجِ ، ولما انطلق ثلاثهن ، معاً تَغَيَّرَ ثلاثهن جميعاً إلى فسادٍ واختلال .

أما الفتاةُ فكانت فى الأكثرِ للزواجِ ، فعادت للزواجِ فى الأقلِّ وفى الأكثرِ للّهو والغزلِ ؛ وكان لها فى النفوسِ وقَارُ الأمِّ وحرمةُ الزوجةِ ، فاجترأ عليها الشبانُ اجترأهم على الخليعة والساقطة ؛ وكانت مقصورةً لا تُنالُ بعيب ولا يتوجّهُ عليها ذمٌّ ، فشت إلى عُيوبها بقدميها ، ومشت إليها العيوبُ بأقدام

كثيرة . . . وكانت بجملتها امرأة واحدة ، فعادت مما تَرى وتَعرف وتكابدُ
 كأنَّ جسمَها امرأة ، وقلبَها امرأةٌ أخرى ، وأعصابُها امرأةٌ ثالثة . . .
 وأما الحبُّ ، فكان حبًّا تتعرَّف به الرجولة إلى الأنوثة في قيودٍ وشروط ،
 فلما صار حرًّا بين الرجولة والأنوثة ، انقلبَ حيلةً تتغَرَّبُ بها إحداهما الأخرى ؛
 ومضى صار الأمرُ إلى قانون الحيلة ، فقد خرج من قانون الشرف ، ويرجعُ هذا
 الشرفُ نفسه كما نراه ، ليس إلا كلمة يُحتال بها .

وأما الزواجُ ، فلما صار حرًّا جاء الفتاةَ بشبَّه الزوج لا بالزوج . . .
 وضعفتُ بمنزلته ، وقلَّ اتفاقه ، وطال ارتقابُ الفتياتِ له ، فضعف أثره في
 النفس المؤنَّثة ؛ وكانت من قبلُ لَفْظَتَا (الشابِّ ، والزوج) شيئاً واحداً عند الفتاة
 وبمعنى واحد ، فأصبحتا كلمتين متميزتين : في إحداهما القوة والكثرة والسهولة ،
 وفي الأخرى الضعف والقلَّة والتعذُّر ؛ فالكلُّ شَبَّانٌ وقليلٌ منهم الأزواج ؛
 وبهذا أصبح تأثيرُ الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يُقْنِعُها
 منه أحسنُ بُرْهَانَاتِهِ ، لا بأنه هو مُقْنِعٌ ، ولكنَّ بأنها هي مهيَّأةٌ للاقتناع . . .

وفي تلك الأحوال لا يكونُ الرجلُ إلا مغفلاً في رأى المرأة — إذا هو أحبُّها
 ولم يكن محتالاً حيلةً مثله على مثلها ، ويظلُّ في رأيها مغفلاً حتى يخذعها
 ويستزِلَّها ؛ فإذا فعل كان عندها نَذْلاً لأنه فعل . . . وهذه حريةٌ رابعة في
 لغة المرأة الحرة والزواج الحرَّ والحب الحرَّ !

وانظر — بعيشك — ما فعلت الحرية بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحت
 هذه الكلمة السامية من مَبْدُوء الكلام ومكروهه حتى صارت غيرَ طبعية
 في هذه الحضارة ، ثم كيف أحالتها فجعلتها في هذا العصر أشهر كلمة في الألسنة ،
 يتَهَكَّمُ بها على الدين والشرف وقانون العُرف الاجتماعي في خوف المعرَّة
 والدينية والتَّصاؤُن من الرذائل والمبالاة بالفضائل ؛ فكلُّ ذلك (تقاليد) . . .
 وقد أخذت الفتيات المتعلِّماتُ هذه الكلمةَ بمعانيها تلك ، وأجريتَها في
 اعتبارهن مكروهةً وحشيةً ، وأضغفن إليها من المعاني حواشيَ أخرى ،
 حتى ليكاد الأب والأمُّ يكونان عند أكثر المتعلِّمات من « التقاليد » . . . أهى
 كلمة أبدعتها الحرية ، أم أبدعتها جهلُ العصر وحماقته ، وفجوره وإلحاده ؟

أهى كلمةٌ تَعَلَّقَها الفَتَيَاتُ المتعلِّماتُ لأنها لغةٌ من اللغة ، أم لأنها من لغةٍ ما يُحِبُّبْنَ ؟ . . .

« تقاليد » . . . ؟ فما هى المرأةُ بدون التقاليد . . . ؟ إنها البلادُ الجميلةُ بغير جَيْشٍ ، إنها الكثرُ المخبوءُ مُعَرَّضاً لأعين اللصوص ، تَحَوُّطُهُ الغفلةُ لا المراقبةُ . هَبَّ الناسَ جميعاً شُرَفاءُ مُتَعَفِّفِينَ مُتَصَاوِنِينَ ؛ فإن معنى كلمة « كثر » متى تُرِكَتْ له الحريةُ وأغْفِلَ من تقاليد الحِرَاسَةِ ، أوجدتْ حريتهُ هذه بنفسها معنى كلمة « لص » .

* * *

قال صاحبنا : أما الفتاةُ الحرَّةُ من (التقاليد) .. كما عرفتها فهى هذه التى أقصَّ عليك قصتها ، وهى التى جعلتنى أعتقد أن لكل فتاة رُشدَيْنِ : يَثْبُتُ أحدهما بالسَّنِّ ، ويثبَّت الآخرُ بالزواج . ولو أن عانيساً ماتت فى سن الخمسين أو الستين لَوَجِبَ أن يقال : إنها ماتت نصفَ قاصِر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة فى اعتبار المرأة نصفَ الرجل ، إذ تمامُ شرفِها الاجتماعى أن يكون الرجلُ مضموماً إليها فى نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رُشدِ الفتاة بالغةً ما بلغت .

وأساسُ المرأة فى الطبيعة أساسُ بدنى لاعقلى ، ومن هذا كانت هى المصنَع الذى تصنعُ فيه الحياة ، وكانت دائماً ناقصةً لانتمَّ إلا بالآخر الذى أساسه فى الطبيعة شأنُ عقله وشأنُ قُوَّته . . .

واعتبرْ ذلك بالمرأة تَدْرُسُ وتتعلمُ وتَسْبُغُ ، فلو أنك ذهبتَ تمدحُها بوفورِ عقلِها وذكايتها ، وتَقَرَّظَها بنبوغِها وعبقريتها ، ثم رأيتَ لم تلقِ كلمةً ولا إشارةً ولا نظرةً على جسمِها ومحاسنها - لتحوَّلَ عندها كلُّ مدحِكَ ذمّاً ، وكلُّ ثنائِكَ سُخْريةً ؛ فإن النبوغَ هاهنا فى أعصاب امرأة تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون أسرار كونِها هى ، هذا الكون البدنى الفاتن ، أو الذى تزعمه هى فاتنةً ، أو الذى لاترضاه ولا ترضى أن تكونَ صاحبةً إلا إذا وجدت من يزعمُ لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ ، مزِينٌ بِشمسه وقمره وطبيعتهِ المنتَضِرةِ التى تجعلُ مَسَّهُ مَسَّ ورَقِ الزَّهْرِ .

مِثْلُ هذه إنما يكونُ الثناءُ عندها حيناً يكونُ أَقْلُهُ باللسان العلمى

ولغته ، وأكثره بالنظر الفنى ولغته . وهذا على أنها عالمة الجنس ونابعته ،
ودليل شذوذه العقلى ، والواحدة التى تجيء كالفلسفة المفردة بين الملايين
من النساء ؛ فكيف بمن دونها ، وكيف بالنساء فيما هنّ نساء به ؟

دع جماعة من العلماء يمتحنون هذا الذى بيّنت لك ، فيأتون بامرأة
جميلة نابغة ، فيضعونها بين رجال لا تسمع من جميعهم إلا : ما أعقلها ،
ما أعقلها ، ما أعقلها ! ولا ترى فى عينيّ كلّ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا
نظر التلميذ لمعلمة فى سنّ جدّته . . . فهذه لن تكون بعد قريب إلا فى حالة
من اثنتين : إما أن يخرج عقلها من رأسها ، أو . . . أو تخرج فى وجهها حبة . . . !
(ما أعقلها !) كلمة حسنة عند النساء لا يابستنها ولا يذممنها ، غير أن
الكلمة البليغة العبقريّة الساحرة ، هى عندهن كلمة أخرى ، هى : (ما أجمّلها !) ؛
إن تلك تشبه الخبز القفار لا شىء معه على الحيوان ، أما هذه فهى المائدة
مزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاكتها وضحكها أيضاً .
وكان العقل الإنسانى قد غضب لمهانة كلمته وما عرّرها به النساء ،
فأراد أن يثبت أنه عقل ، فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة : (ما أعقلها)
كلّ الشأن والخطر ، وكلّ البلاغة والسحر ، عند . . . عند الطفلة . . . تفرح
الطفلة أشدّ الفرح ، إذا قيل : ما أعقلها . . . !

* * *

فقلت لمحدثى : كأنك صادق يافى ! لقد جلستُ أنا ذات يوم إلى امرأة
أديبة لها ظرف وجمال ، وجاءت كبريائى فجلست معنا . . . وكانت (التقاليد)
كالخاشية لى ؛ فعلمتُ بعد أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدى كيف استطاع
أن ينسى جسمى وأنا إلى جانبه ، أذكّره أنى إلى جانبه ! لكأنما كانت لقلبه
أبواب يفتح ما شاء منها ويفلق » .

قال محدثى : فهذا هذا ؛ إن إحساس المرأة بالعالم وما فيه من حقائق
الجمال والسرور ، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها ،
أو تهّم أن تختارّه ، أو تودّ أن تختارّه ؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصوّر
الأخرى من رجلها فى أولادها . وحياة المرأة لا أسرار فيها ألبتة ، حتى إذا
دخلها الرجل عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتبيّنت أن هذا الجسم الآخر
هو فلسفة لجسمها وعقلها .

قال : وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة ، وأنا مُغْضَبٌ أو كالمغضَب ...
ثم تَلَاَحَيْنَا وطال بيننا التَّلَاحِي ؛ فقالت لى : أنت بجاني وأنا أسألُ :
أين أنت ؟ فإنك لست كلك الذى بجاني !

قال : ومذهبي فى الحب ، الكبرياءُ ، كما قلتَ أنت ، غيرَ أنها الكبرياءُ
التي تدرك المرأةُ أمنها أنى قوى لا أنى مُتَكَبِّرٌ ؛ كبرياء الرجل إمّا مَهِيْبٌ مَرَح
يملكُ أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مَهِيْبٌ يملكُ أحزانَ هذا القلب .
إن المرأة لا تَنجِبُ إلا رجلاً يكون أولُ الحسَن فيه حُسْن فهمها له ، وأوّلُ
القوّة فيه قوّة إعجابها به ، وأوّلُ الكبرياء فيه كبرياءها هى بحبّه وكبرياءها
بأنه رجل . هذا هو الذى يجتمعُ فيه للمرأة اثنان : إنسانها الظريف ،
ووحشها الظريف !

* * *

قلت : لقد بعدنا عن القصة فما كان خَبَرُ صاحبك تلك ؟
قال : كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوج ، ولكن إحدى صديقاتها
أنبأتها بكبريائى فى الحب ، ووصفتنى لها صفةَ الإحساس لا وصفَ الكلام ؛
فكأنما تنبّهتُ فيها طبيعةُ زهو الفتاة بأنها فتاة ، وغريزةُ افتتانِ الأنثى بأن
تكون فاتنة ؛ فرأتُ فى إخضاعى لحماها عملاً تعملهُ بجماها .
ومتى كانت الفتاة مستَخْفَةً « بالتقاليد » كهذه الأدبية المتعلّمة - رأت
كلمةَ (الزوج) لفظاً على رجلٍ كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها فى
المعنى . ولا يختلفان إلا فى (التقاليد) . . .

وعرَضْتُ لى كما يَعرِضُ المصارعُ للمصارع ؛ إذ كانت من الفتيات
المغرورات ، اللواتى يحسبن أن فى قوتهن العلمية تياراً زاخراً لنهرنا الاجتماعى
الراكد ؛ فتاة تخرّجتُ فى مدرسة أو كليّة ، أوجاءت من أوروبا بالعالمية . . .
أفتدري أية معجزةٍ مصريةٍ فى هذا تُباهى بها مصر ؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرسة ، أو مفتشة ، أو ناظرةً فى وزارة
المعارف ؛ أو مؤلفة كتب وروايات ، أو محررةً فى صحيفة من الصحف .
ولا يصغُرَنَّ عندك شأن هذه المعجزة ، فهى والله معجزةٌ ما دام يتحقّقُ بها

خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها ، وبقاؤها في الاجتماع المصرى امرأة بلا تأنيث ، أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير !

وكيف لا يكون من المعجزات أن تأليف رواية قد أغنى عن تأليف أسرة ؛ وأن فتاة تعيش وتموت وما ولدت للأمة إلا مقالات . . . ؟

فقلت : يا صاحبي ، دع هؤلاء وخذ الآن في حديث الطائشة الخارجة على التقاليد ، وقد قلت إنها عرّضت لك كما يعرض المصارع للمصارع .

قال : عرّضت لي تريد أن تُصبر فتى كيف شئت ، فسنبوت في يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارها على هذه الرغبة ، فالتويت عليها ؛ فزادت إليهما خشية اليأس والخيبة ، فتعسّرت معها ؛ فزادت إلى هذه كلّها ثورة كبريائها ، فلم أتمسّهل ؛ فانتبهت من كل ذلك بعد الرغبة الحiale التي هي أول العبت والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التي هي أول الحب والهوى : رغبة تعذيب بها لأنها مُتعدّبة بي .

ثم ردتّها الطبيعة صاغرة إلى حقائقتها السلبية ، فإذا الكبرياء فيها إنما كانت خضوعاً يترأى بالعصيان وإذا الرغبة في تعذيب الرجل إنما كانت التماساً لأن تنعم به ، وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصراراً على تجربته ودفعه أن يستبد ويملك ؛ ورتّها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النسوية الصريحة ، التي بُنيت المرأة عليها شاءت أم أبت ، وهى أن تُعانى وتُصبر على ما تُعانى !

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً ، وكان هذا يشتد عليها ، لأنه إشفاق لا حب ؛ وكانت إذا سألتني عن أمر ترتاب فيه ، قالت : أجبتى بلسان الصدق لا بلسان الشفقة . وكانت تقول : إن في عينيها بكاء لا تستطيع أن تُذيله مع الدمع : وسيفتلّها هذا البكاء الذى لا يُبكى ، وقد اتخذت لها في دارها خلوّة سمتها : (محراب الدمع !) ، قالت : لأنها تبكى فيها بكاء صلاة وحب ، لا بكاء حب فقط !

ثم طاشت الطيشة الكبرى . . . !

* * *

قلت : وما الطيشة الكبرى ؟

قال : إنها كتبت إلى هذه الرسالة :

« عزيزي رَغْمَ أَنِّي . . . »

« لقد أدلتني بشيئين : أحدهما أنك لم تتدلّ لي ، وجعلتني — على تعليمي — أشدَّ جهلاً من الجاهلة ؛ وقد نسيت أن المرأة المتعلّمة تعرفُ ثم تعرفُ مرتين : تعرف كيف تُخطئ إذا وجب أن تخطئ ، وهذه هي المعرفة الأولى ؛ أما المعرفة الثانية فتوّهمها أنت ، فكأنّ قلنتها لك . . . »

« اعلم — يا عزيزي رَغْمَ أَنِّي — أني إذا لم أكن عزيزتك رَغْمَ أنفك ، فسأني ما يجعلك سلفاً ومثلاً ، وستكتب الصحفُ عنك أوّلَ حادث يقع في مصر عن أوّل رجل اختطفته فتاة . . . !

« وبعد ، فقد أرسلتُ رُوحِي تُعانق رُوحَكَ ، فهل تشعر بها ؟ »

قال : فوجئتُ ساعةً وتبسّنتُ لي خفتها ، وظهر لي سفاهاً وطيشها ، فأسرتُ إليها فجتها فأجدها كالقاضي في محكمته ، لا عقلُ له إلا عقل الحكم القانوني الذي لا يتغير ، ولا إنسان فيه إلا الإنسان المقيّد بمادة كذا إذا حدّث كذا ، والمادة كذا حين يكون وصف الجريم كذا . . . !

فقلت لها : أهذا هو العلم الذي تعلّمته ؟ ألا يكون علم المرأة خليقاً أن يجعل صاحبة ذات عقليّين إذا كانت الجاهلة بعقل واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نعم ، العلم .

قلت : يا حبيبي ، إن هذا العلم هو الذي وضع المسدّس في يد المرأة الأوربيّة لعاشقها ، أو معشوقها ! ثم أطرقت قليلاً وتنهّدت وقالت : والعلم هو الذي جعل الفتاة هناك تزوج بإرشاد الرواية التي تقرأها ولو انقلب الزواج رواية . . . والعلم هو الذي كشف حجاب الفتاة عن وجهها ، ثم عاين كشف حياء وجهها ، وأوجب عليها أن تواجه حقائق الجنس الآخر وتعرفها معرفة علميّة . . . والعلم هو الذي جعل خطأ المرأة الجنسيّ معفوّاً عنه مادام في سبيل مواجهة الحقائق لا في سبيل الهرب منها . . . والعلم هو الذي جعل المرأة مُساوية للرجل ، وأكد لها أن واحداً واحداً هُما واحدٌ وكلاهما أوّل . . .

والعلم هو الذى عَرَى أجسامَ الرجال والنساء ببهان أشعة الشمس . . .
والعلم يا عزيزى هو العلم الذى مَحَا من العالم لفظة (أَمْسِ) لا يعرفها
وإن كانت فيها الأديان والتقاليد . . .

قال صاحبها : فقلتُ لها : كأن العلم إفسادٌ للمرأة ! وكأنه تعليمٌ مَعَرَّانها
ونقائصها ، لا تعليمٌ فضائلها ومحاسنها

قالت : لا ، ولكن عقلَ المرأة هو عقلُ أنثى دائماً ، ودائماً عقلُ أنثى ؛
وفى رأسها دائماً جوٌ قلبها ، وجوٌ قلبها دائماً فى رأسها ؛ فإذا لم تكن مدرستها
متممةً لدارها وما فى دارها ، تمتت فيها الشارع وما فى الشارع .

العلم للمرأة ؛ ولكن بشرط أن يكون الأب وهيبة الأب أمراً مقررّاً فى
العلم ، والأخ وطاعة الأخ حقيقة من حقائق العلم ، والزوج وسيادة الزوج شيئاً
ثابتاً فى العلم ، والاجتماع وزواجه الدينية والاجتماعية قضايا لا يتسسخها العلم .
بهذا وحده يكونُ النساء فى كل أمة مصانع علمية للفضيلة والكمال والإنسانية ؛
ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامة ، لأنه يبدأ من المرأة التامة .

أما بغير هذا الشرط ، فالمرأةُ الفلاحةُ فى حِجرها طفلٌ قَدَر ، هى خير
للأمة من أكبر أديبة تُخرج ذُرِّيَّةً من الكتب . . .

انظر يا عزيزى برغم أننى ، هذه رسالة جاءتنى اليوم من صديقتى فلانة
الأديبة . . . فاسمع قولها :

« . . . وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال ، لأننى أعيشُ فى بعضِ خفايا الحبيب ..
« وفى الحياة موتٌ حلواً لذيد ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسى على صدره
القوى ، وحينما نسيتُ على صدره القوى صدرى . . . »

أسمعت يا عزيزى ؟ إن كنتَ لمَّا تَعَلَّم أن هذا هو علمُ أكثر الفتيات
المتعلّمات حين يكسدُ الزواج — فاعلمهُ . ومتى عمى الشعب والحكومة هذا
العمى ، فإن حرية المرأة لا تكون أبداً إلا حرية الفكرة المحرمة !

* * *

قلت لصاحبتنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هذا . . . ودسَّ يده فى جيبه فأخرج أوراقاً كتبت فيها
روايةً صغيرة أسماها : (الطائشة) .

الطائشة

٢

وهذا مُحَصَّلُ رِوَايَةِ «الطائشة» ، نقلناه من خطِّ الكاتب على مَسَاقِ مَادَوْنَه في أوراقه ، وعلى سَرْدِهِ الذي قَصَّ به الخبَر ؛ وقد أعطانا من البرهان ما نطمئنُ إليه أن هذه «الطائشة» هي من تأليف الحياة لا من تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يأتفك حديثاً ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم يَنْقُصْها بمعِرةً ؛ ثم أشهدَ على قوله كَتَبَ صاحبته الأدبية المُستَهترة التي لا تبالى ما قالت ولا ما قيل فيها ؛ وهذه الكتبُ رسائلُ : منها المُوجزُ ومنها المستفيضُ ، وهي يحملتها تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنَّنة ، وتنزلُ الرواية منها منزلةَ اللُمعِ المقتضبة وكل ذلك يُشبه بعضه بعضاً ، فكلُّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض .

قال كاتب (الطائشة) :

كنت رجلاً غزلاً ولم أكن فاسقاً ، ولستُ كهؤلاء الشبان أصيبوا في إيمانهم بالله فأصيبوا في إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقِّقون المدنية فحققوا كل شيء إلا المدنية .

تري أحدهم شريفاً بأنف أن يكون لصاً وأن يسمى لصاً ، ثم لا يعملُ إلا عملَ اللص في استلاب العفاف وسرقة الفتيات من تاريخهن الاجتماعي ؛ وتراه نجداً يستنكف أن يكونَ في أوصاف قاطع الطريق ، ثم يأبى إلا أن يقطع الطريقَ في حياة العذارى وشرف النساء .

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يعرضون للفتيات المتعلمات بوجوه مصقولة تحتملُ شيئين : الحب والصفع . . . ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعن القبلة في مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّ الغريزة التي فيهن فعاتت بقايا لا تستمسك ؛ وبصرهنَّ بأشياء تزيد قوة الحياة فيهن خطراً ، وتوحى إليهنَّ وحيتها من حيث يشعرون ولا يشعرون ؛ وصورن في أوهامهنَّ صوراً مَحَتَّ الصور التي كانت في عقائدهن ؛ وأخرجهنَّ من السلب الطبيعي الذي حماهنَّ الله به ، فلهنَّ العفة والحياء ، ولكن ليس لهن ذلك العقلُ الغريزيُّ الذي يجيء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتُ منهن يَخْشَيْنَ العارَ وسمتهُ الاجتماعية ولكن

خَشْيَةَ فَتْهُاءِ الْحَيْسِلِ الشَّرْعِيَّةِ ، قد أَرَصَدُوا لكل وجهٍ من التحريم وجهاً من التحليل ، فأصبح امتناعُ الإثم هو ألا تكونَ إليه حاجة . . .
والعقلُ الذي به التفكيرُ يكونُ أحياناً غيرَ العقلِ الذي به العملُ ؛ ففي بعض الجاهلات يكونُ عقلُ الحياءِ والعفةِ والشرفِ والدينِ — غريزةُ كغرائزِ الوحشِ ، هي الفكرةُ وهي العملُ جميعاً ، وهي أبدأُ الفكرةُ والعملُ جميعاً لا تتغير ولا تبدلُ ، ولا يقعُ فيها التنقيحُ الشعريُّ ولا الفلسفيُّ . . . وما غريزةُ الوحشِ إلا إيمانهُ بمن خلقه وحشاً ؛ وكذلك غريزةُ الشرفِ في الأنثى هي عندى حقيقةُ إيمانها بمن خلقها أنثى .

وشرفُ المرأةُ رأسُ مالٍ للمرأة ، ومن ذلك كان له في أوهام العلمِ اشتراكيةٌ بحسبِهِ تنظر فيه نظرها وتزيغُ زِيغَهَا وتَقْضِي حَكَمَهَا ؛ وأكثرُ من عرفتُ من المتعلمين والمتلمات قد انتهوا بطبيعتهم العلميةِ إلى الرضى بهذه الاشتراكية ، وإلى التسامح في كثير ، وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبلُ عُذْراً ، ومن ههنا كان بغضُ الجاهلات كالحِصْنِ المُغْلَقِ في قِمةِ الجبلِ الوَعْرِ ، وكان بغضُ المتلمات دونَ الحِصْنِ ، ودونَ القِمةِ ، ودونَ الجبلِ ، حتى تنزلَ إلى السهلِ فتراهنَّ ثَمَّةً .

لقد غَفَلَتِ الحكوماتُ عن معنى الدين وحقيقته ، فلو عرفتْ لعرفتْ أن الإنسانيةَ لا تقومُ إلا بالدين والعلمِ كليهما ؛ فإن في الرجلِ إنساناً عاماً ونوعاً خاصاً مذكراً ، وفي المرأةِ إنسانٌ عامٌ كذلك ، ونوعٌ خاصٌ مؤنثٌ . والدينُ وحده هو الذى يُصْلِحُ النوعَ بتحقيقِ الفضيلةِ وتقريرِ الغايةِ الأخلاقيةِ ، وهو الذى يُحَاجِزُ بينَ الغريزتين ، وهو الذى يضعُ القوةَ الروحيةَ في طبيعةِ المتعلمِ ؛ فإن كانت طبيعةُ التعليمِ قويةً ، كانت الروحيةُ زيادةً في القوةِ ؛ وإن كانت ضعيفةً كما هي الحالُ في هذه المدنية ، لم تجمع الروحية على المتعلمِ ضَعْفَيْنِ ، يبتلى كلاهما الآخر ويزيده .

فلان وفلان" تعلقًا فئاتين جاهلة ومتعلمة ؛ وكلتاها قد صدت صاحبها وامتنعت منه ؛ فأما الجاهلة فيقول (فلانها) إنها كالوحش ، وإن صدودها ليس صدوداً حسب ، بل هو ثورة من فضيلتها وإيمانها ، فيها المعنى الحربى مجاهداً متحفظاً للقتل . . .

وأما المتعلمة فيقول (فلانها) إنها ككل امرأة ، وإن صدودها ثورة ، ولكن من دلالها ترضى به أول ما ترضى وآخر ما ترضى - كبرياء الجمال فيها لا الإيمان ولا الفضيلة . فكأنها إحياء للطامع أن يزيد طمعاً أو يزيد احتيالا . . . وفلان هذا يقول لى : إن ضعفاء الإيمان من الشبان المتعلمين - وأكثرهم ضعفاء الإيمان - لوحقت أمرهم وبلوت سرائرهم ، لتبينت أنهم جميعاً لا يرون قلب الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كتب عليها : (للإيجار) ١٠

* * *

يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا فقد صحت عندى أن سياسة أكثر المتعلمات هى سياسة فتح العين حذراً من الشبان جميعاً ؛ وإنماض العين لواحد فقط . . .

وهذا الواحد هو البلاء كله على الفتاة ، فإنها بطبيعتها تنقيد ولا تنفصل إلا مكرهة ، وهو بطبيعته قيد لذته ، فيتصل وينفصل ؛ غير أنها لا بد لها من هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يوحى إليها بالحياة لا يجعل فى ذلك موضعاً للتكبر عندها ، والحياة نصف معانيها النفسية فى الصديق ؛ فالأنوثة بغيره مظلمة فى حياتها ، راكدة فى طباعها ، ثقيلة على نفسها ، ما دام « الشعاع » لا يلمسها . . . والدين يأبى أن يكون ذلك الصديق إلا الزوج فى شروطه وعهوده ، كيلا تنقيد المرأة إلا بمن يتقيد بها ؛ والعلم لا يأبى أن يكون الصديق هو الحب ؛ والفن يوجب أن يكون هو الحب ؛ وليس فى الحب شروط ولا عهود ، إلا وسائل تختلق لوقتها ، وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة ، ولفظ الحب نفسه لص لغوى خبيث ، يسرق المعانى التى ليست له وينفق مما يسرق . وليس من امرأة يختدعها عاشق إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص حين يمسك .

يقول كاتب « الطائشة » .

تلك فلسفةٌ لا بد منها في التوطئة للكتابة عن (عزيزتى رغم أننى) .
ومن كانت مثلها في أفكارها واستدلالاتها وحُججها وطريقتيها — كان خَلِيقًا
بمن يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مُسلَّحة . . .

لقد تَكَارَهْتُ على بعض ما أرادت منى ما دام الحبُّ (رغم أننى) ،
وما دامت السياسةُ أن أداريها وأتبعَ محبتها ؛ غيرَ أنى صارحتها بكلمة
شمسية تلمعُ تحت الشمس ، أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنما هو اللهوُ البريء
لاغيره ، وأن ذلك جهد ما أنا قوى عليه وفى به .

قالت : فليكنْ ، ولكن صداقةً أعلى قليلاً من الصداقة . . . ولومن هذا
الحب المتكبر الذى لا يَصْدُقُ كيلاً يكذب . . . إن هذا النوعَ من الحب
يطيشُ بعقل المرأة ، ولكنه هو أولُ ما يَسْتَهيمُها ويُعْجِبُها ويؤورثها
التِياعَ الحنين والشوق .

* * *

كتبتُ لى : « أنا لا أتألم فى هواك بالألم ، ولكن بأشياء منك أقلها الألم ،
ولا أحزنُ بالحزن ، ولكن بهموم بعضها الحزن .

» إنك صنعتَ لى بكاء ودموعاً وتنهيدات ، وجعلتَ لى ظلاماً منك ونوراً
منك يا نَهَارى ولىلى . ترى ما اسمُ هذا النوعِ من الصداقة ؟
» اسمه الحبُّ ؟ لا .

» اسمه الكبرياء ؟ لا .

» اسمه الحنان ؟ لا .

» اسمه حبُّك أنتَ ، أنتَ أيها الغامِضُ المتقلب . ألا ترى ألفاظى
تبكى ، ألا تسمعُ قلبي يصرخُ ، بأى عَدْلِكَ أو بأى عدلِ الناسِ
تريد أن أحيَا فى عالم شمسُه باردة . . . هذا قَتْلٌ ، هذا قتلُ .
فكتبتُ إليها : « إن لم يكن هذا جنوناً فإنه لقريبٌ منه » .

فردتُ على هذه الرسالة :

» أتكتبُنى بأسلوب التلغراف . . . ؟ لو أهديتَ إلى عِقدا من الزمرد حبياته
بعدد هذه الكلمات لكنتَ بخيلاً ، فكيف وهى ألفاظٌ ؟ إني لأبكي فى غَمَضَةٍ

واحدة بدموع أكثر عدداً من كلماتك ، وهى دموع من آلامى وأحزاني ؛
وتلك ألفاظ من هوىك وعبتك !

« ما كان ضررك لو كتبت لى بضعة أسطر تنسخها من تلغرافات روتر .
مادمت تنسخ منى ؟ أنت الشاب وأنا الكهولة ، فليس لك بالطبيعة إلا
الانصراف عني ، وليس لى بالطبيعة إلا الحنين إليك ؟ »

* * *

لا أدرى كيف أحبتها ، ولا كيف دعتنى إليها نفسى ؛ ولكن الذى أعلمه
أنى تخادعت لها وقلت : إن المستحيل هو منع الشر ، والممكن هو تخفيفه ؛
ثم أقبلت أرثى لها ، وأخفف عنها ، وأقبلت هى تضاعف لى مكرها وخديعتها
وكان الأمر بيننا كما قالت : « فى الحب والحرب لا يكون الهجوم هجوماً وفيه
رفق أو تراجع » .

إن المرأة وحدها هى التى تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة ؛ ولا
يشبهها فى ذلك إلا دهاء المستبدين .

* * *

سألنى أن أهدى إليها رسمى ؛ فاعتللت عليها بأن قلت لها : إن هذا الرسم
سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب ، ولكنه تحت العين الأخرى سيكون
رسم متهتم .

وظننتنى أبلغت فى الحجة وقطعت عنها عني ؛ فجاءتنى من الغد بالرد
المفحم ، جاءتنى بإحدى صديقاتها لتظهر فى الرسم لى جانبي كأننى من ذوى
قرباتها . . . فيكون الرسم رسم صديقتها ، ويكون مهدى منها لى ، وكأننى
فيه حاشية جاءت من عمّة أو خالة . .

وأصررت على الإباء ، ونافرتنى القول فى ذلك ، تردّ علكى وأردّ
عليها ، وتغاضبتنا وانكسرت حزناً وذهبت باكية ؛ ثم تسببت لى رضاي
فرضيت .

* * *

حدثني أن صديقتها فلانة الأدبية استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً في مخدعها ، في دارها ، بين أهلها ، مُتَصَفِّفَ الليل . قلتُ : وكيف كان ذلك ؟

قالت : إنها تحمل شهادة . . . وهي تلتبس عملاً وقد طال عليها ؛ فزعمتُ لذويها أنها عثرت في كتاب كذا على رُفِيَّةٍ من رُفَيِّ السَّحَرِ ، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا مُحِقَّ القمرُ ؛ وأنها ستُطْلِقَ البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تُهْمُهُمُ بالأسماء والكلمات . . .

ثم إنها اتعدت وصاحبها ليوم ، وأجافت باب دارها ولم تُغْلِقْهُ ، وأطلقت البخورَ في مِجْمَرٍ كبير أثارَ عاصفةٍ من الدخان المعطر ، وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم ؛ وبقي صاحبها تحت الضبابة يُهْمُهُمُ وتُهْمُهُمُ . . . ثم خرج في أغْبَاشِ السَّحَرِ .

هكذا قالت ؛ وما أدرى أهو خبرٌ عن تلك الصديقة وفلانها ، أم هو اقتراحٌ علىّ أنا من « فلانتي » لأكون لها عفريت الضبابة . . ؟

* * *

لم يخفَ عليها أن لَدَعَةَ حبها وقعت في قلبي ، وأن صبرها قد غلبَ كبريائي ، وأن كثرة التلاقي بين رجل وامرة يطمعُ أحدهما في الآخر - لا بد أن ينقلَ روايتهما إلى فصلها الثاني ، ويجعل في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السِّيَاق . . وإلحاحُ امرأةٍ على رجل قد خلبها وجعاً عن صلتها ، إنما هو تعرُّضها للتعقيد الذي في طبيعته الإنساقية ؛ فإن هي صابرتُهُ وأمعنتْ ، فقلماً يدَعُها هذا التعقيدُ من حِلٍّ لمعضلتها . وبمثل هذه العجيبة كان تعقيداً وكان غيرَ مفهوم ولا واضح ؛ وقد ينقلبُ فيه أشدُّ البغضِ إلى أشدِّ الحب ، وقد تعملُ فيه حالةٌ من حالات النفس ما لا يعملُ السحر ؛ وكذلك يقعُ للرجل إذا أحب المرأة فَنَبَّتَ عن مودته فَعَرَضَ للتعقيد الذي في طبيعتها وأمعنَ وثَبَّتَ وصَابَرَ .

رأت الجمرة الأولى في قلبي فأضرمْتُ فيه الثانيةَ ، حين جاءني اليومَ بكتاب زعمتُ أن فلاناً أرسله إليها يطارحُها الهوى ويبثُّها وَلَهَ الحنين والنياع الحب .

ويقول لها في هذا الكتاب : « أنا لم أشرب خمرًا قط ، ولكنى لا أراى أنظر إلى مَقَاتِنِكَ وحَاسِنِكَ إلا وفي عينيَّ الحمر ، وفي عقلى السكر ، وفي قلبى العَرَبْدَة . جعلت لى وبحك نظرة سِكِرٍ فيها نِسِيَانُ الدنيا وما فى الدنيا ما عدا الزجاجة . . . »

ويختمه بهذه العبارة :

« آه لو استطعتُ أن أجعل كلامى فى نفسك ناعمًا ، ساحرًا ، مُسَكِرًا ، مثل كلام الشِّفَةِ للشِّفَةِ حين تُقبِّلُها . . . ! »

عند هذا وقع الشئ المنتظر فى الفصل الثانى من الرواية ، ونختم هذا الفصل بأول قُبلة على شفتى (الممثلة) .

* * *

قالت : هذه القُبلة كانت (غَلْطَة مطبعية) ، ومضت تسميها كذلك ، واستمرت المطبعة تغلط . . . وماعلمتُ إلا من بعدُ أن ذلك الكتاب الذى استوقدت به غيرتى ، إنما كان من عملها ومكرها .

* * *

وجاءتنى اليوم بآبِدة من أوابدها ، قالت : أنت رَجَعْتُمُ محافظٌ على التقاليد . قلتُ : لأنى أرى هذه التقاليد كالصباح الذى يتكرر فى كل يوم وهو فى كل يوم ضياءٌ ونور .

قالت : أو كالمساء الذى يتكرر وهو فى كل يوم ظلامٌ وسواد !

قلت : ليس هذا إلىَّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر .

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياة اليوم علمية أوربية ، والزمن حَبِثٌ فى تقدمه ، وأصحابُ « التقاليد » جامدون فى موضعهم قد فاتهم الزمن ، ولذلك يسمونهم (متأخرين) . أما علمتُ أن الفضيلة قد أصبحت فى أوربا زِيًّا قديمًا ، فأخذ المَقَصُّ يعمل فى تهذيبها ، يقطع من هنا ويشقُّ من هنا . . . ؟ !

اسمع أيها « المتأخر » ، وتأمل هذا البرهان الأوروبى العصرى :

أخبرتني صديقتى فلانة حاملة شهادة . . . أنها كانت فى القطار بين الإسكندرية والقاهرة ، وكانت معها فتاة من جبرتها تحملُ الشهادة الابتدائية ؛

فجمعهما السفرُ بشابٍ وسيمٍ ظريفٍ يُشاركُ في الأدب، غير أنه رجعى (متأخر)، وصديقتى تعرفُ من كل شيء شيئاً، وتأخذُ من كل فن بطرفٍ؛ فجرى الحديثُ بينهما مسجراً، وتركت الصديقةُ نفسها لدواعيها، وانطلقت على سجيتهما الظريفة، ووضعت فنَّ لسانها في الكلام فجعلت فيه رُوحَ التقبيل . . . !

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعت من نفسه، ودفعته إلى الزمن الذى هو فيه . فلما هممت بدواعه سألهما : أين تذهبان ؟ فأغضت صاحبةُ الشهادة الابتدائية، وأطرقت حياءً، ورأت في السؤال تهمةً وريبةً، فأنبتت الصديقةَ وأيقظتها من حياثها، وقالت لها : ألا تزالين شرقيةً متأخرةً ؟ إن لم يسعدنا الحظ أن تكونَ لنا حريةُ المرأة الأوربية في المجتمع وفي أنفسنا ؛ أفلا يسعدنا أن تكونَ لنا هذه الحرية ولو في أنفسنا ؟

ثم ردت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها، فأطمعه ردُّها، فسألها أن تنزله معه في بعض الحدائق، فأبت صاحبةُ الابتدائية وبلحت عَمَايَتُها الشرقيةُ المتأخرة، ورأت في ذلك مسَـفَـطَةً لها، فلوَّتْ إلى دارها وتركتها إنساناً وإنساناً لافى وفاةً؛ وتنزَّها معاً، وعرف الشابُ الرجعى الحبَّ، والخمرَ التى هى تحيةُ الحب !

ولم تستطع الفتاةُ الماكرةُ أن ترجعَ إلى دارها وهى سَكْرَى كما زعمت للشاب - فأوَّتْ إلى فندقٍ، وخُتِمت روايتُهُما بإعراض من الشاب أجاب هى عليه بقولها : ألا زلت (متأخراً) . . . ؟

قالت « الطائشة » :

نعم يا عزيزى (المتأخر) ، إن مذهبَ المرأة الحرة في الفرق بين الزوج وغير الزوج ، أن الأولَ رجلٌ ثابتٌ ، والآخرُ رجل طارئٌ ، والثابتُ ثابتٌ معها بحقه هو ؛ والطارئُ طارئٌ عليها بحقها هى . . . فإن كانت حرةً فلها حقُّها . . . قال كاتب الطائشة : وهنا ، هنا ، هنا ، كاد الشيطانُ يرفع الستارَ غن فصل ثالث في هذه الرواية ، رواية « الطائشة » . . .

* * *

نقول نحن : وإلى هنا ينتهى نصف الرواية ؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها : (الطائش والطائشة) . . .

دموع

من رسائل الطائشة (١)

ورسائل هذه الطائشة إلى صاحبها ، تُقرأ في ظاهرها على أنها رسائلُ حبٍّ ، قد كُتِبَتْ في الفنون التي يترسَّلُ بها العشاق ؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر ، تُقرأ به على أنها تاريخُ نفسٍ مُلتاعة لا تزال شُعلةُ النار فيها تَتَنَمَّى وترتفع ؛ وقد فدَحَتْها بظلمها الحياةُ إذ حَصَرَتْها في فنٍّ واحد لا يتغير ، وأوقعتها تحت شرط واحد لا يتحقق ، وصَرَفَتْها بفكرة واحدة لا تزال تخيب .

وأشدُّ سَجُونِ الحياةِ فكرةُ "خاتبة" يُسَجِّنُ الحى فيها ، لا هو مُستطيعٌ أن يدعَها ، ولا هو قادرٌ أن يحققها ؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه ما يمتدُّ ولا يزال كأنه على أوله لا يتقدم إلى نهاية ؛ ويتألم ما يتألم ولا تزال تُشعرُه الحياةُ أن كلَّ ما فات من العذاب إنما هو بدءُ العذاب .

والسعادةُ في جملتها وتفصيلها أن يكونَ لك فكرٌ غيرُ مقيّدٍ بمعنى تتألم منه ، ولا بمعنى تخافُ منه ، ولا بمعنى تَحذَرُ منه ؛ والشقاءُ في تفصيله وجملته انحباسُ الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب .

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصورة التي يَسْرُقُ شعاعُها وتكاد تقومُ بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه ؛ وهي فيها عَذْبَةُ الكلام من أنها مرّةُ الشعور ، متسقة الفكر من أنها مختلّةُ القلب ، مُسددةُ المنطق من أنها طائشةُ النفس ؛ تلك إحدى عجائب الحب ؛ كلما كان قَصْراً مُحِلّاً اخضرت فيه البلاغةُ وتفنّنت والتفتت ؛ وعلى قِلّةِ المُتعة من لذّاته تزيد فيه المتعة من أوصافه ؛ وكأنَّ هذا الحبَّ طبيعةٌ غريبةٌ تُروى بالنار فتُخصِبُ عليها وتَسَقِّتُ بمعانيها ، كما تُروى الأرضُ بالماء فتُخصِبُ وتُغطّي نباتها ؛ فإن

(١) نحن لم نختَرِ الطائشة ، فهي فتاة متعلمة أدبية ، وقد أحبت رجلاً متزوجاً فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع ما يطمع فيه ، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضت . وكان بعض صواحبها يمدلنها ويرميها بالهمة ، فكانت تقول : إنما منن كالعائب المحكوم عليه ، لا هو يملك دفاع الذنب ، ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب .

رَوَى الحبُّ من لذَّاته وبرَدِّ عليها، لم يُنْبِتْ من البلاغة إلا أخفَّها وزناً وأقلَّها معاني، كأوَّل ما يبدو النباتُ حين يَتَقَطَّرُ الثرى عنه، تراه فتحسبه على الأرض مَسْحَةً لون أخضر؛ أو لم يُنْبِتْ إلا القليلَ القليلَ كالنَّعْشِيبِ^(١) في الأرض السَّيْخَةِ . . .

إن قصة الحب كالرواية التمثيلية، أبلغ ما فيها وأحسنه وأعجبها ما كان قبل «العقدة»، فإذا انحلت هذه العقدة فأنَّت في بقايا مفسَّرة مشروحة تُريد أن تنتهى، ولا تحتلُّ من الفن إلا ذلك القليل الذى بينها وبين النهاية.

* * *

وهذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها :

.

«ماذا أكتب لك غير ألفاظ حقيقى وحقيقتك ؟
 «يُخَيَّلُ إلى أن ألفاظ خُصُوعى وتَصَرُّعى متى انتهت إليك انقلبت إلى
 ألفاظ شجكار ونزاع !
 «أىَّ عدل أن تلمسك حياتى لِمَسَّةِ الزَّهْرَةِ الناعمة بأطراف البنان،
 وتَقْدَفِى أنت قَدَفَ الحَجَرِ بملء اليدِ الصُّلْبَةِ مُتَمَطِّيةً فيها قوَّةُ
 الجسم ؟

«جعلتني في الحب كآلة خاضعة تدار فتدور، ثم عَيشَتْ بها فصارت
 متمرَّدة تُوقِف ولا تَقِف؛ والنهايةُ - لارِيبَ فيها - اختلالٌ أو تحطيم !
 «وجعلت لى عالمًا؛ أما لَيْسَ لَهُ فأنَّت والظلامُ والبكاءُ، وأما نهارُهُ فأنَّت
 والضياءُ والأملُ الخائب . هذا هو عالمى : أنت أنت . . . !
 «سمائى كأنها رُقْعَةٌ أطبقت عليها كلُّ غيوم السماء، وأرضى كأنها بُقْعَةٌ
 اجتمعت فيها كلُّ زلازل الأرض ! لأنك غَيَمَةٌ في حياتى، وزِلْزَلَةٌ
 فى أياي .

«يا بُعداً ما بين الدنيا التى حول وبين الدنيا التى فى قلبى !

* * *

(١) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك .

« ما يَجْمُلُ مِنْكَ أَنْ تُلْزِمَنِي لَوْمَ خَطَا أَنْتِ المَخْطِئُ فِيهِ . سَلْنِي عَنْ حَبِي أَجِيْبُكَ عَنْ نَكْبَتِي ، وَسَلْنِي عَنْ نَكْبَتِي أَجِيْبُكَ عَنْ حَبِي !
 « كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونِي لِي الْكَبْرِيَاءُ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنْ مَاذَا أَصْنَعُ وَأَنْتِ مُنْصَرِفَةٌ عَنِّي ؟ وَيَلَاهُ مِنْ هَذَا الْإِنْصِرَافِ الَّذِي يَجْعَلُ كِبْرِيَاءِي رِضًى مَنِي بِأَنْ تَنْسِي ! فَتَنْسِي . . . »

« لَيْسَ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ تَعْطِفُكَ إِلَّا هَذَا الْحُبُّ الشَّدِيدُ الَّذِي هُوَ يَصُدُّكَ ، فَكَأَنَّ الْأَسْبَابَ مَقْلُوبَةً مَعِيَ مِنْذُ انْقَبَلْتَ أَنْتِ .
 « وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ مِنْ طُغْيَانِ آلاَمِي أَنْ كُلَّ ذِي حُزْنٍ فَعِنْدِي أَنَا تَمَامُ حُزْنِهِ !
 « وَيَخِيلُ إِلَيَّ أَنِّي أَفْصَحُ مَنْ نَطْقَ بَاهُ !
 « عَذَابِي عَذَابُ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكَذِبَ أَبَدًا أَبَدًا ، بِالْكَاذِبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الصِّدْقَ أَبَدًا أَبَدًا ! »

« كَمْ يَقُولُ الرِّجَالُ فِي النِّسَاءِ ، وَكَمْ يَصِفُونَهُنَّ بِالْكَسِدِ وَالْغَدْرِ وَالْمَكْرِ ؛ فَهَلْ جِئْتَ أَنْتِ لَتُعَاقِبَ الْجِنْسَ كُلَّهُ فِي أَنَا وَحْدِي . . . ؟
 « مَا لِكَلَامِي يَتَقَطَّعُ كَأَنَّمَا هُوَ أَيْضًا مُخَشَّتَقٌ ؟ »

* * *

« لَشَدِّدًا مَا أَتَمَنَّى أَنْ أَشْتَرِيَ انْتِصَارِي ، وَلَكِنْ انْتِصَارِي عَلَيْكَ هُوَ عِنْدِي أَنْ تَنْتَصِرَ أَنْتِ . »

« إِنْ الْمَرْأَةُ تَطْلُبُ الْحُرِّيَّةَ وَتَدْلِجُ فِي طَلِبِهَا ، وَلَكِنْ الْحَيَاةُ تَنْتَهِي بِهَا إِلَى يَقِينٍ لَا شَكَّ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْطِفْلَ أَنْوَاعَ حَرِيَّتِهَا فِي الْطِفْلِ أَنْوَاعَ اسْتِعْبَادِهَا !
 « حَتَّى فِي خِيَالِي أَرَى لَكَ هَيْئَةَ الْأَمْرِ النَّاهِي أَيُّهَا الْقَاسِي . لَا أَحَبُّ مِنْكَ هَذَا ، وَلَكِنْ لَا يُعْجِبُنِي مِنْكَ إِلَّا هَذَا . . . ! »

« وَيَزِيدُكَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي أَنْ تَحَاوِلَ قَطُّ أَنْ تَزِيدَ رِفْعَةً فِي عَيْنِي .
 « فَالْمَرْأَةُ لَا تُحِبُّ الرَّجُلَ الَّذِي يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَكْفِيَتْهَا دَائِمًا لِرَفْعٍ مِنْ شَأْنِهِ عِنْدَهَا . »

« إِنْ الطَّبِيعَةُ قَدْ جَعَلَتِ الْأُنُوثَةَ (فِي الْإِنْسَانِ) هِيَ الَّتِي تَكْلِفُ إِلَى نَفْسِهَا بِالتَّصْنُوعِ وَالتَّزْيِيدِ ، وَعَرَضَ مَا فِيهَا وَتَكْلِفُ مَا لَيْسَ فِيهَا ؛ فَلَنْ يَصْنَعَ الرَّجُلُ

صنيعتها فما هو في شيء إلا تزيين احتقاره !
 « التَزَيُّدُ في الأثوثة زيادةٌ في الأثني عند الرجل ، ولكن التَزَيُّدُ في الرجولة
 نقصٌ في الرجل عند الأثني !

* * *

« ارفع صوتك بكلماتي تسمع فيها اثنين : صوتك وقلبي .
 « ليست هي كلماتي لَدَيْكَ أكثر مما هي أعمالك لَدَيَّ .
 « وليس هو حبي لك أكبر مما هو ظلمك لي !
 « ما أشدَّ تَعَسِّي إذا كنتُ أخاطبُ منك نائماً يسمع أحلامه ولا يسمعي !
 « ما أتعسَّ مَنْ تُبكيه الحياةُ بكاءها المفاجئ على ميت لا يرجع ، أوبكاءها
 المألوف على حبيب لا ينال !

* * *

« ولكن فتلاً صبرٌ ولأصبر على الأيام التي لا طعم لها ، لأن فيها الحبيب
 الذي لا وفاء له !
 « إن المصاب بالعمى اللوني يرى الأحمر أخضر ، والمصاب بعَمَى الحب
 يرى الشخص الفقير كأنه أزهار .
 « عَمَى مَرَكَبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبَقُ .
 « وَعَمَى في الزمن أيضاً أن ينظر إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ،
 فيرى الأيام كلها في حكم هذه الساعة .
 « وَعَمَى في الدم ، أن يشعر بالحبيب يوماً فلا يزال من بعدها يحسُّ خياله
 ويغذيه أكثر مما يحسُّ جسم صاحبه .
 « وَعَمَى في العقل ، أن يجعل وجه إنسان واحد كوجه النهار على الدنيا ،
 تظهر الأشياء في لونه ، وبغير لونه تنطفئ الأشياء .
 « وَعَمَى في قلبي أنا ، هذا الحب الذي في قلبي !

* * *

« ليس الظلام إلا فقدان النور ، وليس الظلم في الناس إلا فقدان المساواة
 بينهم .

« وظلم الرجال للنساء عملٌ فُقدان المساواة لاعمل الرجال .

« كيف تَسخرُ الدنيا من متعلِّمةٍ مثلى ، فتضعُها موضعاً من الهوان والضعف بحيث لو سُئِلْتُ أن تكتب (وظيفتها) على بطاقة ، لما كتبت تحت اسمها إلا هذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . ؟

« وحتى في ضعف المرأة لمساواة بين النساء في الاجتماع ، فكلُّ متزوجة وظيفتها الاجتماعية أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول إن عِشقها وظيفتها . . .

« وحتى في الكلام عن الحب لمساواة ، فهذه فتاةٌ تُحبُّ فتتكلم عن حبها فيقال : فاجرةٌ وطائشة . ولا ذنبَ لها غير أنها تكلمت ؛ وأخرى تحبُّ وتكتم ، فيقال : طاهرةٌ عفيفة . ولا فضيلةَ فيها إلا أنها سكنت .

« أولُ المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكلُّ في حرية الكلمة المحبوبة . .

« لالا ، قد رجعتُ عن هذا الرأي . . .

* * *

« إن القلقَ إذا استمرَّ على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشاذ من قوانين الحياة .

« والنساء يُقلِّقنَ الكونَ الآنَ مما استقرَّ في نفوسهن من الاضطراب ، وسيُخرِبنَه أشنعُ تخريب .

« ويلٌ للاجتماع من المرأة العصرية التي أنشأها ضعف الرجل ! إن الشيطانَ لو خُيِّرَ في غير شكله لما اختار إلا أن يكونَ امرأةً حرةً متعلِّمةً خياليةً كاسدةً لاتجد الزوج . . . !

« ويلٌ للاجتماع من عذراء بائرة خيالية ، تريد أن تفرَّ من أنها عذراء ! لقد امتلأت الأرضُ من هذه القنابل . . . ولكن ما من امرأةٍ تفرط في فضيلتها إلا وهي ذنبُ رجلٍ قد أهمل في واجبه .

* * *

« هل تملكُ الفتاةُ عِرْضَها أولاً تملك ؟ هذه هي المسألة . . .

« إن كانت تملك ، فلها أن تتصرَّفَ وتُعْطى ؛ أو لا ، فلماذا لا يتقدَّمُ

المالك . . . ؟

« هذه المدنيةُ ستُنقلبُ إلى الحيوانية بعينها ؛ فالحيوانُ الذى لا يعرفُ الشَّيْبَ لا تعرفُ أنثاه العِرْضُ . . . ! »

« وهل كان عَيْشًا أن يفرضَ الدينُ فى الزواجِ شروطًا وحقوقًا للرجل والمرأة والنسل ؟ »

« ولكن أين الدين ؟ وا أسفاه ! لقد مَدَّنوه هو أيضًا . . . ! »

* * *

« طالت رسالتى إليك يا عزيزى ، بل طاشت ، فإنى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة ، وحين أفقدُكَ أجدُها . »

« ولقد تكلمتُ عن الدين لأنى أراكَ أنتَ بنصفِ دين . . . ! »

« فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوجتَ اثنتين . . . ! »

« لا لا ، قد رجعتُ عن الرأى . . . »

(طبق الأصل)

فلسفة الطائشة

... وهذا مجلسٌ من مجالس (الطائشة) مع صاحبها ، مما تَسَقَّطَتْهُ من حديثها ؛ فقد كان يكتبُ عنها ما تُصِيبُ فيه وما تخطئُ ، كما يكتبُ أهلُ السياسةِ بعضهم عن بعضٍ إذا فاضَ الحليفُ حليفه ، أو ناكَرَ الخصمُ خصمه ؛ فإن كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهيةَ ليس كلامَ المتكلمِ وحده ، بل فيه نطقُ الدولة . . . وفيه الزمنُ يُقْبَلُ أو يُدْبِرُ .

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّوَل التي تُرْغِمُ صديقاً على الصداقة ، لأنه في طريقها أو طريقِ حوادثها ؛ وكان يسميها « جيشَ احتلال » إذ حطَّت في أيامه واحتلتها فتَبَوَّأتْ منها ما شاءت على رِغْمِهِ ، واستباحَتْ ما أرادت مما كان يَحْمِيهِ أو يَمْنَعُهُ . وقد كان في مدافعتِهِ حُبَّها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظلَّ شيءٍ على الأرض فيحاولُ غسلَه أو كَنَسَه أو تَغْطِيَتَه .. فهذا ليس مما يُغَسَّلُ بالماء ، ولا يَكْنَسُ بالمِكنَسَةِ ، ولا يَغْطَى بالأغطية ؛ إنما إزالَتُهُ في إزالةِ الشَّبَحِ الذي هو يُلْقِيهِ ، أو إطفاءِ النور الذي هو يَشْتِيهِ .

في كل شيءٍ على هذه الأرض سُخْرِيَّةٌ ، والسُخْرِيَّةُ من الحسنِ الفاتن الذي تقدَّسه ، تأتي من اشتهاه هذا الحسن ؛ فذاك إسقاطُهُ سقوطاً مقدَّساً . . . أو ذاك تقدُّيسُهُ إلى أن يسقط ، أو هو جعلُ تقدُّيسِهِ باباً من الحيلة في إسقاطه . لا بد من سُفُلٍ مع العلوِّ يكون أحدهما كالسُخْرِيَّةِ من الآخر ؛ فإذا قال رجلٌ لامرأةٍ قد فتنْتَهُ أو وقَعْتَ من نفسه : « أحبك » . أو قالتها المرأة لرجلٍ وقع من نفسها أو استهَامَها في هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كلُّ معاني الوِاقَةِ الجنسية ، وكلُّ السُّخْرِيَّةِ بالمحبوبِ سُخْرِيَّةٌ بإجلالٍ عظيم . . . وهي كلمةٌ شاعِرٌ في تقدُّيسِ الجمال والإعجاب به ، غير أنها هي بعينها كلمةُ الجُزار الذي يَرى الحروفَ في جماله اللحمي الدُّهْنِي ، فيقول : « سَمِين . . . ! »

لهذا يمنع الدينُ خَلْوَةَ الرجلِ بالمرأة ، ويُحرِّمُ إظهارَ الفتنةِ من الجنسِ للجنسِ ، ويُفَصِّلُ بمعاني الحجابِ بين السالبِ والمُوجِبِ ، ثم يضعُ لأعينِ

المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغض البصر ، إذ لا يكتفى حجاب واحد ، فإن الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً ؛ ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها ، وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته ؛ إذ هي كلمة حيلة في الطبيعة أكثر مما هي كلمة صدق في الاجتماع ، ولا يؤكّد في الدين صدقها الاجتماعي إلا العقد والشهود لربط الحقوق بها ، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية ، وإقرارها في موضعها من النظام الإنساني ؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشق من معاني الزوج ، أما أن يكون من معنى آخر أو يكون بلا معنى فلا ؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ، ما دامت هي وحدها التي تليد ، وما دامت لا تليد للبيع . . .

وفلسفة هذه الطائفة فلسفة امرأة ذكية مطلّعة مُحيطَة مفكّرة ، تُبصّر لكتب العقل والحوادث جميعاً ، وقد أصبحت بعد سقطة جها ترى الصواب في شكلين لاشكل واحد : فتراه كما هو في نفسه ، وكما هو في أغلاطها . وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مطارحات العاشقة ، واقتصرنا على ما هو كالإملاء من الأستاذة . .

قال صاحب الطائفة : ذكرتُ لها « قاسم أمين » وقلت : إنها خير تلاميذه وتلميذاته . . . حتى لكانها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة . فقالت : إنما كان قاسم تلميذ المرأة الأوربية ، وهذه المرأة بأعيُننا فما حاجتنا نحن إلى تلميذها القديم ؟

قالت : وأبلغ من يردُّ على قاسم اليوم هي أستاذته التي شَبَّت بها أطوار الحياة بعد ، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر في عهد بعينه ولم يتبّع الأيام نظره ، ولم يستقرّ أطوار المدنية ؛ فلم يُقدّر أن هذا الزمن المتمدّن سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله ، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة ، فأقواهما بالطبيعة أقواهما بالعلم ، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ولا تحت الحياة مثلها . مزق البرقع وقال : « إنه مما يزيد في الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقتها — على الغالب — ما يردُّ البصر عنها » . فقد زال

البرقع ، ولكن هل قدرَ قاسم أن طبيعةَ المرأةَ منتصرةٌ دائماً في الميدانِ الجنسيِّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تَخترعُ لكلِّ معركةٍ أسلحتَها ، وأنها إن كشفت بِرَفْعِ الحِزِّ فستضعُ في مكانه برقعَ الأبيض والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشدِّ أعوان المرأة على إظهار ما تُظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يُخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنتُ فلان ، أ زوجُ فلان كانت تفعل كذا ؛ فهي تأتي كلَّ ما تشتهي من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » . فقد زال البرقع والنقاب ، ولكن هل قدرَ قاسم أن المرأةَ السافرةَ ستلجأ إلى حمايةٍ أخرى ، فتجعلُ ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تُلْبِسَ جسمها ثوباً يكسوه ، تُلْبِسُهُ اللُّبَّ الذي يكسوه ويزينه ويظهره ويحركه في وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمه . . . وهذا الموضع اسمه . . . وانظر هنا وانظر هاهنا . . . ما زادت المدنية على أن فككت المرأةَ الطيبةَ ثم ركبتهَا في هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلمنا الحبَّ لربط به الزوجَ معنا ، فلم يزد على أن جرَّأنا على الحب الذي فرَّ به الزوجُ منا ، وقد نسي أن المرأةَ التي تخالط الرجلَ ليُعجبها وتُعجبه فيصيرا زوجين — إنما تخالط في هذا الرجل غرائزه قبل إنسانيته ، فتكون طبيعته وطبيعتها هي محلَّ المخالطة قبل شخصيتهما ، أو تحت ستار شخصيتهما ؛ وهو رجلٌ وهي امرأةٌ ، وبينهما مصارعةُ الدم . . . وكثيراً ما تكون المسكينة هي المذبوحة . وقد انتهينا إلى دهر يُصنَّعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابه في « هوليوود » وغيرها من مدُن السينما ، فإن رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العِفَّةِ والوقار قال : بلادةٌ في الدم ، وبلاهةٌ في العقل ، وثِقَلٌ أى ثقل ؛ وإن رأى غيرَ ذلك قال : فُجورٌ وطيش ، واستهتارٌ أى استهتار . فأين تستقرُّ المرأةُ ولا مكانَ لها بين الضدين ؟

أخطأ قاسم في إغفال عامل الزمن من حسابه ، وهاجمَ الدينَ بالعرف ؛ وكان من أفحش غلظه ظنهُ العرفَ مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفروقَ بين الدين وبين العرف ، هو أن هذا الأخيرَ دائمٌ الاضطراب ، فهو دائمُ التغيُّر ، فهو لا يصلحُ أبداً قاعدةً للفضيلة ؛ وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْي ، وأصبحنا

نجد لَقِيفًا من الأوربيين المتعلمين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا في جزيرتهم أو محلّتهم أو ناديتهم رجلاً يلبس في حقّوّه تَبَانًا قصيرًا كأنه ورقُ الشجر على موضعه ذاك من آدمَ وحواء — إذا رأوا هذا المتعصّف بخيرِ قوّة .. أنكروا عليه وتساءلوا بينهم . مَنْ ؛ مَنْ هذا الراهب . . . ؟

ونسى قاسم — غفر الله له — أن للثياب أخلاقا تتغير بتغيّرِها ، فالتى تفرغُ الثوبَ على أعضائها إفراغَ الهندسة ، وتلبّيسُ وجهها ألوانَ التصوير — لا تفعلُ ذلك إلا وهى قد تغيّرَ فهمها للفضائل ، فتغيّرتُ بذلك فضائلُها ، وتحوّلتُ من آيات دينية إلى آيات شعريّة . وروحُ المسجد غيرُ روح الحانة ، وهذه غيرُ روح المرقص ، وهذه غيرُ روح الخدع ، ولكلّ حالة تلبسُ المرأةُ لبسًا فتُخفى منها وتُبدى . وتحريكُ البيّنة لتقلب ، هو بعينه تحريكُ النفس لتتغيرَ صفاتها . وأين أخلاقُ الثيابِ العصريّة في امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب ؟ تبدّلتُ بمشاعر الطاعة ، والصبر ، والاستقرار ، والعناية بالنسل ، والتفرغُ لإسعاد أهلها وذويها — مشاعرَ أخرى ، أوّلها كراهيةُ الدارِ والطاعةِ والنسل ؛ وحسبك من شرٍّ هذا أوّلُه وأخفُّه !

كان قاسم كالمخدوع المغرّب بأرائه ، وكان مُصلِحًا فيه روحُ القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلّدٌ متّبع ، أليس عليه أن يُسندَ رأيه دائماً إلى نصٍّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فسادِ الجاهلة وفسادِ المتعلّمة ، أن الأولى « لا تكلفُ نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضلَ شيءٍ لديها ، هو نفسها ، وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلّماتُ ، إذا جرى القدرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن ، لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (. . .) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت (! ! ! !) وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تُسلمَ نَفْسَها إلا بعد مناقلة يختلفُ زمنُها وقوّة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟ ؟ ؟ ؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعصّف (؟ ؟ ؟ ؟) . . . » (١)

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما فى هذا الكتاب هو فى رأينا خلط وخطب .

أليس هذا كلام قاضٍ من القضاة المدَّين المتفلسفين على مذهب (لمروزو). يقول لإحدى الفاجرتين : أيتها الجاهلة الحمقاء، كيف لم تتسحاشي ولم تتستري فلا يكون للقانون عليك سبيل ؟

وحتى في هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرف الأرنب وأذنيها^(١) وإلا فتى كان في الحب اختيار ، ومتى كان الاختيار يقع « فيما يجرى به القدر » ، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها . . . فتدرس الصفات والشمائل في مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت لتُصنّفها كلها في واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك ! هذا مضحك !

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحف في هذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خريجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ؛ ففسّر لى أنت كلام قاسم ، وأفهمنى كيف يكون اثنان واثنان خمسة وعشرين ؟ وكيف يكون فرار متعلّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرة وضع الثقة فيمن لا يكون أهلاً لها ؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن في هذا أيضاً ، فكثير من المنكرات والآثام قد انحلت منها المعنى الدينى ، وثبت في مكانه معنى اجتماعى مقرر ، فأصبحت المتعلّمة لا تتخوّف من ذلك على نفسها شيئاً ، بل هى تُقارِفُه وتُستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ، وتقدّم فيه للرجال المهذّبين مرة ذراعها ، ومرة خصرها . .

أقرأت (شهر زاد) ؟ إن فيها سطرًا يجعل كتاب قاسم كله ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيء يُقرأ :

قالت شهر زاد المتعلّمة ، المتفلسفة ، البيضاء ، البضة ، الرشيقه ، الجميلة ؛ للعبد الأسود القطيع الدميم الذى تهواه : « ينبغي أن تكون أسود اللون ؛ وضع الأصم ؛ قبيح الصورة ؛ تلك وصفاتك الخالدة التى أحببها . . . »^(٢) فهذا كلام الطبيعة لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة .

(١) يقول العرب : « فلان يعرف الأرنب وأذنيها » أى يعرف الشيء بالعلامة التى تثبته ولا تتخلف .

(٢) ص ١٠٦ من « شهر زاد » للكاتب البقيق صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد كتبنا نحن في هذا المعنى وكشفنا عن سره في كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ - ٥٢ وفى غيره من كتبنا .

قال صاحبُ الطائشة :

فقلتُ لها : فإذا كان قاسم لا يُرضيك ، وكان الرجلُ مُصلحاً دخَلتُهُ روحُ القاضي ، فخلَطَ رأياً صالحاً وآخر سيئاً ، ففعل « مصطفى كمال » همك من رجل في تحرير المرأة تحريراً مزقَ الحجاب والا . . ؟

قالت : إن مصطفى كمال هذا رجلٌ ثائرٌ ، يسوقُ بين يديه الخطأ والصوابَ بعصاً واحدة ، ولا يمكن في طبيعة الثورة إلا هذا ، ولا يبرحُ ثائراً حتى يتمَّ انسلاخُ أمته . وله عقلٌ عسكري كان يُمكرُ به مكرُ الألمان ، حين أكرهتهم الحلفاء على تحويلِ مصانع (كروب) ، فحوّلوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغير إلى صنع المدافع والمهليكات . وليس الرجلُ مُصلحاً ألبتة ، بل هو قائدٌ زهَاه النصرُ الذي اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفثيه كلمةٌ : « أريد . . » وجعل بعد ذلك إذا غلَطَ غلطةً أرادها منتصرةً ، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرضَ عليهم ، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ، ويأخذهم كيف شاء ، ويدعهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحدة : هو مؤلف الرواية ، والقانون نفسه أحدُ الممثلين . . .

وحقَّدهُ على الدين وأهل الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لا مُصلح ؛ فإن أخصَّ أخلاق الثورة حقُّدُ الثائرين ، وهذا الحقُّدُ في قوة حربٍ وحدّها ، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة . والرجلُ يحنّذى أوربا ويعملُ على أعمال الأوربيين في خيرها وشرّها ، ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفهم ، يتبرّءون منها ويلحقها هو بقومه ، فكأنه يعتنّف الآراء ويأخذها أخذاً عسكرياً ، ليس في الأمر إلا قولهُ « أريد » . فيكون ما يريد . هو لم يحكم على شبر من أوربا يجعله تركياً ، ولكنه جعل رذائل أوربا تتجنّس بالجنسية التركية . . .

وتالله إنه لايسرُّ عليه أن يجيء بملائكة أو شياطين من المردة ، ينفخون أرض تركيا فيمطّطونها مطّاً فيجعلونها قارةً ، من أن يُكره أوربا على اعتبار قومه أوربيين بلبس قبعة وهدمِ مسجد . إنه لايزال في أول التاريخ ، وهذا

الشعبُ الذى انتصر به لم تكدّه مبادئه ، ولا أنشأه هدمُ العلماء ؛ بل هو الذى ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعوزُهُ إلا القائدُ الحازمُ المصمّمُ ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فإذا فتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوّل نبياً ، فهذا شيء آخر له اسمٌ آخر .

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعلَ مسائلنا هذه علمية ، وأن نبحصّها بحثاً علمياً ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كشنر فى إنجلترا ؛ فيكسب اللورد كشنر تلك الحرب العظمى لأحرب الدولة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لاعلى مثل براميل النبيذ . . . ثم يستعزُّ الرجلُ بدلّته على قومه ، ويدخله الغرور ، فيتصنّع لهم مرة ، ويهزّين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآيدة فيُسفّقه دينهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم ، لأن هذا هو الإصلاحُ فى رأيه . أفتُرى الإنجليز حينئذ يَضُؤون إليه ويلتفتون حوله ويقولون : قائدنا فى الحرب ، ومُصلِحنا فى السلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسنتنصر به على الله ، وظفّرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله . . ؟ أم تحسب كشنر كان يجسرُ على هذا وهو كشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يتدافعُ اثنان أن هدمَ كنيسة واحدة يومئذ لا يكون إلا هدم كشنر وتاريخ كشنر ، ولكن العجزُ ممهّدٌ من تلقاء نفسه ، والأرضُ المنخسفةُ هى التى يَسْتَنقِعُ فيها الماء ، فله فيها اسمٌ ورسمٌ ؛ أما الجبلُ الصخرى الأثمن ، فإذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كُلِّ جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل . . . ! (١)

* * *

قال صاحبُ الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء ، فكيف لارتين مثل هذا لنفسك ؟

فتَضَعُضَعَتْ لهذه الكلمة وَلَجَّـجَتْ قليلاً ثم قالت : أنت سلبتِى الرأى لنفسى ، ووضعتِى فى الحقيقة التى لا تنقيد بقانون الخير والشر .

(١) أفردنا مقالا خاصاً لهذا الإلحاد التركى الذبابى فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كلية ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، تقرأه ، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

قلت : فإذا كانت كل امرأة تغلطُ لنفسها في الرأي ، وتنصحُ بالرأى الصائب غيرَها ، فيُوشِكُ ألا يبقى في نساء الأرض فضيلة ولا يعودُ في المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ ديننا الإسلامي مع المرأة ، فهو يخلقُ طبائعَ المقاومة في المرأة ، ويخلقُها فيما حولها ، حتى ليخيّلُ ليها أن السماء عين تراها ، وأن الأرض عقول تُحصى عليها ؛ وهل أعجبُ من أن هذا الدين يقضى قضاء مبرماً أن تكون ثيابُ المرأة أسلوبَ دفاع لا أسلوبَ إغراء ، وأن يضعَها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في (الراديو) له دوى في الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب ، وغيرَ الرجل ، وشرفَ الأصل ؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوة منها كأنها جنين يكبرُ ولا يزال يكبرُ حتى يكون عارَ ماضيها وخِزْيَ مستقبلها .

هذه كلها حُجُبٌ مضروبة لاحتجاب واحد ، هي كلها لخلق طبائع المقاومة ، لتيسير المقاومة ؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجاب الأخير كالسُور حول القلعة ؛ ولكن قبَحَ الله المدنيةَ وفنّها ؛ إنها أطلقت المرأة حرة ، ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لا غير . أنت مُحَمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ولكن بين اللصوص ؛ كأنك في هذا لستَ حرّاً إلا في اختيار من يجنى عليك . . . !

لم تعد المرأة العصرية انتصارَ الأمومة ، ولا انتصارَ الخلقِ الفاضل ، ولا انتصارَ التعزية في هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة . قال صاحب الطائشة : فضحكتُ وقلتُ : وانتصاري . . . !

(طبق الأصل)

« قنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هي في الدنيا ، ليس فيها كلمة من المرينخ ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ أما الفاسد فيرى ويعتبر ولعله يرد بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذهُ عن أخطأ .

تربية لؤلؤية

كتبتُ إلى سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبى وطريقى :
 ... أما بعدُ فهذا الذى كنا ظننا وظنتُ ، فاقراً الفصل الذى انتزعتهُ لك
 من مجلة * ... واستعرفُ منه وتنكير ، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى ...
 وتجدُ فتاة اليوم على ما وقع بها من الظنّة ، وكثر فيها من أقوال السوء —
 لا تشمّسُ على الرّيبة ولا تريد أن تتنّى منها ، بل هى تعملُ لتحقيقها ، وتبغى مع
 تحقيقها أن يتعلّم الناسُ ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت ،
 ويسوّغوها مقارفة الإثم ، ويقرّوها على منكراتها .

أمّا إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلاتُ هنَّ أمسنا الذاهب بلا فائدة ، فإن
 فتياتنا المتعلّماتِ هن يومنا الضائع بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تكسّدُ
 ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلّمة لم تكن تتفقُ ومعها الرذيلة ، ولتاجرُ أى
 طاهرُ الاسم تتحرك سوقهُ ونحيا ، خيرٌ من تاجر متعلم نجس الاسم قد قامت
 سوقهُ وخسّدتُ ، فما تنفّسُ من درهم ولا دينار .

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكمتها المتعلّماتُ منا ، كنَّ
 بين الشرق والغرب كالسبيخةِ النشّاشة من الأرض ، طَرفُها بالفلاة وطرفُ
 بالبحر ، فهى رملٌ فى ماء فى ملح ، لا تخلُصُ لفساد ولا صحة ، فاعتبر
 هذه وهذه نستجدهما بحكاية واحدة أصلاً وطبق الأصل .

* * *

وقرأت الفصل الذى أو مأت إليه السيدة ، وكان فى كتابها ، فإذا هو لكاتبة

تزعّم (أنها بمن رفعت علم الجهاد لحرية المرأة) ، وإذا فى أوله :

« كتبتُ آنسة أديبة فى عدد سابق من ... الأغر تقول : ” أجل ،
 لنفتشُ عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فإن أخطأناهم أزواجاً فلن
 نخطئهم أصدقاء !!!! ” وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبتُ آنسة فاضلة
 ينحيان (كذا) هذا المنحى ، ويطرقان نفس السبيل (كذا) التى اختطها الآنسة الجريئة

فى غير حق ، الثائرة فى نزع . ثم قالت بعد ذلك : ” قرأت مقال الأنسة الثائرة فى حيوية صارخة !!! فجزعت ، لأن (قاسم أمين) عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة ، و (ولى الدين يكن) عندما جاهر بعده فى سبيل السفور ، و (هدى شعراوى) عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ما ظنت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور إلى حد أن تقف آنسة مهذبة ، تكشف عن رأسها تبكى وتستبكي سواها معها ، من أجل الزواج . . . ”

* * *

وأنا فلست أدري والله مِمَّ تَعَجَّبُ هذه الكاتبة ، وإني لأعجب من عجبها ، وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلاً وهويناً ، مُظهرةً الجِدَّ والقصد والغضب . أَتَيْنِ أَطْلُقِ للنساء أن يَشْرُنَ كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقتُ لشأنها ، فأوغلتُ فى حريتها ، فامتدَّ بها أمدُّها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خُلُقُ من أخلاق المرأة يُسْفِرُ سفوره ويرفعُ الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً فى غير مُدارة ولا حذق ولا كياسة ، يريد أن يقتحم طريقته ويسلك سبيله ، ثم وقف على رنمه فى الطريق منكسراً مما به من اللفة والوثبة يتوجع ، يتنهد ، يتلذَّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أَتَيْنِ وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جَرِّى عليكِ وكنت حرة ، وتزعزعتِ وكنت ثابتة ، وأفحشتِ وكنت عفيفة ، وتعهَّرتِ وكنت طاهرة ؟ أفلا تقول لها : سَفَرْتَ أخلاقَكَ إذ كنتِ سافرةً بارزةً ، وضاع حيائكِ إذ كنتِ مُخللةً مهملةً ، وغسلتِ إذ كنتِ فى المبالغة من البدء ؟

أفلا تقول لها : لقد تَلَطَّفْتَ فجئت بالمعنى المجازى لكلمة (العُرى) ، ولقد أبدعتِ فكنت امرأةً ظريفةً اجتماعيةً مخيلةً للشعر والفن ، وحققتِ أن واجب الظريفة الجميلة إعطاء الفن غذاءً مِن . . . ، ومن . . . ؛ ومن لحمها . . . ؟

نعم إن قاسم أمين (رحمة الله) لم يكن يظن . . . ولكن أما كان ينبغي أن يظن أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعل الخطأ صواباً ؟ بل هو أخرى أن يُلْبَسَ على الناس فيُسَبِّهَهُ عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون إليه ويأمنون جانبه فينتهى بهم يوماً إلى أن يَنْتَسِفَ خطؤه صوابه ، ويغطَّى وحى القلم — أول

باطله على حقه ثم تَسْتَرْقُ إلى عوامل لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد إليه السبيل وهو خطأ محض ، فتمدُّ له في الغنى مدّاً . ثم تنتهي هي أيضاً إلى نهايتها ، وتَسْأَلُ إلى حقائقها ؛ فإذا كل ذلك قد داخل بعضه ، وإذا الشر لا يقفُ عندما كان عليه ، وإذا البلاء ليس في نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد في نية قاسم أمين ، ولا نزع أن له خَفِيَّةً سوء أو مُضْمَرٍ شر فيما دعا إليه من تلك الدعوة ، ولكني أنا أرتاب في كفايته لما كان أخذ نفسه به وأراه قد تكلَّف ما لا يُحَسِّن ، وذهب يقول في تأويل القرآن وهو لا ينفذُ إلى حقائقه ، ولا يستبطنُ أسرار عريته ، وكان مناظره في عصره قومًا ضعفاء ، فاستعلاهم بضعفهم لا بقوة ، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت في ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها مملوءة وجاء بها فارغة ، وقال للنساء : غَيِّرْنَ وبدِّلْنَ . فلما أطمعنه وبدَّلْنَ وغيَّرْنَ ، وجاء الزمن بما يفسر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات التخيل أو التشيع — إذا معنى التغيير والتبديل هو ما رأيت ، وإذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر ، وإذا المرأة التي ربحت الشارع هي التي خسرت الزوج ! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفيًا للحجاب عن المرأة ، ولكن نفيًا للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة ، كأنها مجرمة عُوقِبَتْ على فساد سياستها ؛ وهي قارّة في بيتها ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها . كانوا يحتجّون لنفي الحجاب بالفلاّحات في سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعي في ذلك ، وهو أن السفور إنما عَمَّهْنَّ من كونهن لسن في المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة ؛ ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا في اجتماع طبيعي فطري أساسه الخلط في الأعمال لا التمييز بينها ، والاشتراك في شيء واحد هو كَسْبُ القُوَّةِ^(١) لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللّجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التي ثارت بفتياتنا — إلا تمرداً من طبيعتهن على الأحوال الظالمة المتصرف بها ؛ ويَحْسِبُنَّه توسعاً من

(١) ولهذا لا يكاد يفتنى الفلاح ولو أيسر الغنى ، حتى يصون امرأته ويحجبها ويرتفع بمنائها في نفسه .

الطبيعة في الحرية ، وطلباً للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلها بعد نبذ الحجاب ؛ وهو في الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق ، ورغبةً منها في أن تُحدّدَ بحدودها ويؤخذ منها العالم كله بما فيه ، وتُعطى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتطلقها بزعمك من حجابها ، وتخرجها إلى النور والحرية ، فإنما أعطيتها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاص ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معاً ؛ فخذها بعد ذلك خشباً لائماً ، ومنظر شجرة لاشجرة ، لقد أعطيتها من علمك لامن حياتها ، وجهلت أنها من أطباق الثرى في قانون حياتها ، لا في قانون حجابها . أفليست كذلك جذور الشجرة الإنسانية ؟

كلُّ ما يتغير يسهلُ تغييره على من شاء ، ولكنَّ النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتماً مقضياً كما يقضى ، فلن يسهل تبديلها ولا تحويلها ولا ردّها أن تقع . وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءوا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طبوا للمرأة المسلمة كذلك الطب الذي أساسه الرائحة الزكية في البخور . . . ! (١)

* * *

وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاء سعرها في الاجتماع ، وصونها من التبذّل الممقوت ، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم ، قانون العَرَض والطلب ؛ والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها في مدارج الطرق والأسواق : العيون الكحيلة ، الحدود الوردية ، الشفاه الياقوتية ، الثغور اللؤلؤية ، الأعطاف المرتجة ، النهود أوليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادى أجسامهن بمثل هذا ؟

وهذه التي كتبت اليوم تطلبهم مُحَدِّدِينَ إن أخطأتهم أزواجاً ، وتفتش

عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات ! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى في مخزيات هذا التطور ، فتمشي في الطريق مشى الأنثى من البهائم طَمْوُحاً مَطْرُوفَةً ، تذهبُ عيناها هنا وهنا تلتمسُ من يخطو إليها الخطوة المقابلة . . ؟

ما هو الحجابُ الشرعى إلا أن يكونَ تربيةً عمليةً على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصها الرحمة ؟ هذه الصفةُ النادرةُ التى يقرها الاجتماعُ الإنسانى على نزعتها والمنازعة فيها ما دامت سنة الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظُ المرأةُ به منزلتها ، وتؤدى فيه عملها ، وتكون مغرِساً للإنسانية وغارسةً لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليدَ الحيوان تولدَ كلِّها : إما ساعيةً كاسبةً لوقتها ، وإما محتاجةً إلى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبثُ أن ينقضى فتكدحَ لعيشها ؛ إذ كانت غايةُ الحيوان هى الوجودَ فى ذاته لافى نوعه ، وكان بذلك فى الأسفلِ لا فى الأعلى . غير أن طفلَ المرأة يكون فى بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً فى صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعافَ ذلك ، سنةً بكل شهر . فهل الحجابُ إلا قَصْرُ هذه المرأة على عملها ، لتجويده وإتقانه وإخراجِه كاملاً ما استطاعت ؟ وهل قَصْرُها فى حجابها إلا تربيةً طبيعية لرحمتها وصبرِها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرفُ معلمةً ذاتَ ولد ، تترك ابنَها فى أيدي الخدم بعد وصاة علمية سيكولوجية . . . وتمضى ذاهبةً عن يمين الصباح ويمضى زوجها عن شماله . . . وقد رأيت هذا الطفل مرة ، فرأيت شيئاً جديداً غيرَ الأطفال ، له سمةٌ روحانية غيرُ سماتهم ، كأنما يقول لى : إنه ليس لى أبٌ وأم ، ولكن أبٌ رقم (١) ، وأبٌ رقم (٢) . . . !

* * *

وقد كنتُ كتبتُ كلمة عن الحجاب الإسلامى قلت فيها : « ما كان الحجابُ مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدود من الأخلاق أن تُجاوز مقدارها أو يُخالطها السوء أو يتدسَّسَ إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو

حجاب ، وليس يؤدى إليها شيء إلا أن تكون المرأة فى دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى .

وهذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجاب إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحِهِ الدينية المَعْبُدِيَّة ، وهو كالصدقة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيتها فى الحجاب تربيةً لؤلؤية ؛ ف وراء الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازن والاستقرار والهدوء والاطراد ، وأخلاقُ هذه المعانى وروحها الدينىُّ القوى ، الذى ينشئُ عجيبةَ الأخلاق الإنسانية كلها ؛ أى صبرَ المرأة وإيثاريةَها . وعلى هذين تقوم قوةُ المدافعة ، وهذه القوةُ هى تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهى سرُّ المرأة الكاملة ؛ فلن تجد الأخلاقَ على أتمها وأحسنها وأقواها إلا فى المرأة ذات الدين والصبر والمدافعة . إنها فيها تشبه أخلاقَ نبيِّ من الأنبياء .

وقد مُحِقَّ الدين والصبر ، وتراخت قوةُ المدافعة فى أكثر الفتيات المتعلّعات ، فابتُلِينَ من ذلك بالضعف والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كمنى العَفَس فى الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتَهن ، فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية فى ذاتها ، وأنه لا يشدّها وقيمُها إلا الصفاتُ السلبية ، وملاكُها الصبرُ فروعه وأصوله ، وجماها الحياء والعفة ، ورمزُها وحارسُها والمعينُ عليها هو الحجابُ وحده . إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطئُ المرأة فى شيء خطأها فى محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالها صفات الإيجاب ، وتمردُها على صفات السلب ، كما يقع لعهدنا ؛ فإن هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكونَ منه إلا أن تعتبرَ هذه المرأةُ نقائصَ أخلاقها من أخلاقها ، كما نرى فى أوروبا ، وفى الشرق من أثر أوروبا ؛ فمن هذا تُلْقَى الفتاةُ حياءها وتَبْدُو وتَفْحِش ، إن لم يكن بالألفاظ والمعانى جميعاً فبالمعنى وحدها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر فى هذه وتلك ؛ وكانت الاستجابة لهذا ما فسّاه من الروايات الساقطة ، والمجلات العارية ؛ فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكونَ عِلْمُ الفكر الساقط .

وعادت الفتاةُ من ذلك لا تبتغى إلا أن تكونَ امرأةَ رواية : إما فوق الحياة ، وإما فى حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضُها فرضاً على القدر !

تنسى الحمقاء أنها أحدُ الطرفين ، وليست الطرفين جميعاً ؛ فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعانى الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها؛ فانسلخت من كل شيء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير ، فانسلخت من إنسانية الغريزة .

* * *

أما إن غلطة الرجل في المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة في نفسها . وهي قد أعطيت في طبيعتها كل معاني حجابها ؛ فإحساسها محتجبٌ مخبئٌ أبداً كأنه في إتب^(١) وملاءة وبرقع ، وأفكارها طويلة الملائمة لها لاتكاد تتركها ، كأنها منها في بيت ؛ وطبيعة الحذر لاتبرحها كأنها الحارس الثابت في موضعه ، القائمٌ بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل ؛ وطول التأمل مؤكلٌ بها كأن عمله مصاحبةٌ وحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها ، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى ؛ وضغطة الحياة الطبيعية فيها ، حتى لايساورها هم من الهموم إلا صار كأنه من عادتها . والتي تمزقها الحياة كلما ولدت لا تكون الحياة إلا رحيمةً بها إذا ضغطتها !

فخروج المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها ، فهو إضعافٌ لها ، وتضريرةٌ للرجال بها . وماذا تجدى عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع ؟ فيكون حذراً ليكون إغفالاً ، ثم يكون إغفالاً ليعود الزلة والغلطة ؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أول السقوط ، ومبدأ الانقلاب والتحول . وليس الفرق بين امرأة نقورٍ من الريبة ، شمسوسٍ لاتطلع الرجال ولا تطمعهم ؛ وبين امرأة قنورٍ على الريبة ، هلك فاجرة - ليس الفرق إلا حجاب الحذر أسدل على واحدة ، وانكشف عن أخرى

وإذا قرت المرأة في فضائلها ، فإنما هي في حجابها ودينها ، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةً غير الرجل ؛ فهو مسمى

(١) الإتب هو بردة تشق قتلبيس من غير كين ، وتسميه الريفيات (الملس) .

بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها ، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من
الرأى لا يدركون مذهبه ، ولا يحققون ما ينتهى إليه ، وينفذون فى حكمهم على
الظاهر لاعلى البصيرة — هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا فى القماش والكساء
والأبنية ، كأن حجاب الأخلاق النسوية شئ يصنعه الحائك والباني والمستعبد ،
ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ؛ فهم كما ترى حين يأتون
بنصف العلم ، يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوة عقل فتكون قوة لإيجاب ، ولكنه أبدعها قوة عاطفة
تكون قوة سلب ؛ فهى بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجب
عما يرى هادئ منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعى تم به الطبيعة .

وينبغى أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لاضعفاً ، وزيادة لا نقصاً ؛ فما
يحتاج العالم إذا خرج صوتها فى مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحة فى
معركة ، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجسداً على طاعته ،
كصوت الأم فى بيتها .

* * *

أيتها الفتاة ، إن صدقَ الحياة تحت مظاهرها لا فى مظاهرها التى تكذب
أكثر مما تصدق ؛ فساعدى الطبيعة واحجبى أخلاقك عن الرجل ، لتعمل هذه
الطبيعة فيه بقوتين دافعتين : منها ومنك ، فيسرع انقلابه إليك وبحته عنك ؛
وقد يجد الفاسق فاسقات وبغايا ، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد
غيرك .

وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكين للرجل نفسه
أن يرفجف بك الظن ، ويسىء فيك الرأى ؛ وعقابك على ذلك ما أنت فيه من
الكساد والبوار ؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالآلم !

س . ا . ع (١)

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العزوبة ، ويجنون المرأة حباً خائفاً يُقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يُقبِل إلا أدبر ، ولا يَعزِم إلا انْحَلَّ عزمه . بلغوا الرجولة وكأنّ ليست فيهم ؛ وتمرُّ بهم الحياة مرورها بالتمثيل المنصوبة ، لاهذه قد وُلِدَ لها ولا أولئك ؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معاني وجودهم ، لاليلطلبوا سعادة وجودهم ، ويُمخِّرون في شعوذة الحياة بالنهار على الليل ، وبالليل على النهار ؛ يحاولون أن يسجدوا كالناس أياماً وليالي ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهائراً واحداً ، نصفه أسود مُقْفِرٌ مظلم . . . !

فأما « س » فرجلٌ « كشيخ المسجد » يكاد يرى حَصِيرَ المسجد حيث وَطِئَتْ قدماه من الأرض . . . ذو دينٍ وتقوى ، ما يزال ينقبضُ وينكَمِشُ وَيَسْتَرَايِلُ حتى يَرْجِعَ طفلاً في ثلاثين من عمره . . . وهو حائرٌ بائرٌ لا يَتَجَبَّهُ لشيء من أمر المرأة ، وقد فَتَقَدَ منها مما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ ، ولا جُرْأَةً لنفسه عليه ، فلا جرأة له على الموبقات ، ولا يزِنُّ له الشيطان ورطةً منها إلا اَمْلَسَ منه ، فإن له ثلاثة أبواب مفتوحة للهروب : إذ يخشى الله ، وَيَسْتَوْقِي على نفسه ، ويستحيي من ضميره .

وأما « ا » فرجلٌ معزّابةٌ ، ولكنه كالإسفنجية ، امتلأت حتى ليس فيها خِلاَةٌ لقطرة ، ثم عَصُرَتْ حتى ليس فيها بِلَالٌ من قطرة ؛ وقد بلغ ما في نفسه وقضى نَهْمَتَهُ حتى مما أراد ؛ ثم قَلَبَ الثوب . . . فإذا له داخلَةٌ ناعمةٌ من الخَزِّ والديباج ، وإذا هو « الرجل الصالح » العفيف الدّخلة ، ما تنطلق له نفسٌ إلى مأثم ، ولا يعرف الشيطان كيف يَتَسَبَّبُ لصلحِهِ ومُراجعتِهِ الود . . .

وأما « ع » فهو كالأعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجل

واحدة ، ولكنه يمشی وهو « مَلِكُ الشوارع » لا يزال فيها مقبلاً مُدْبِراً طَرَفًا من النهار وزُلْفًا من الليل ؛ فإذا لم يكن في الشارع نساء ظَنَّ الشارع قد هَرَبَ من المدينة وخرج من طاعته . . . ولهذا الشوارع أسماء عنده غيرُ أسمائها التي يَسْتَعَارِفُهَا الناسُ وَيَسْتَدِلُّونَ بها . فقد يكونُ اسمُ الشارع مثلاً : « شارع طه * الحكيم » ويسمّيه هو « شارع ماري » . . . ويكون اسمُ الآخر : « شارع كتشنر » فيسميه « شارع الطويلة » . . . ودربُ اسمه « دربُ الملاح » واسمه عنده « دربُ المَلِكِيَّة » وهلمَّ جرّاً ومَسْخَناً . وإذا أراد صاحبنا هذا أن يسخرَ من الشيطان دخل المسجدَ فصلّى ، وإذا أراد الشيطانُ أن يسخرَ منه دَحَرَجَه في الشوارع . . . !

* * *

وافيت هؤلاء الثلاثة مجتمعين يَسْتَدَارِسُونَ مقالة « تربية لؤلؤة » ، يناقِشُونَهَا بثلاثة عقول ، ويفتَشُونَهَا بستَ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأةَ السافرة التي نبذت « حجابَ طبيعتها » على ما بيّنته في تلك المقالة — إن هي إلا امرأةٌ مجهولةٌ عند طالبي الزواج ، بقدر ما بالغت أن تكونَ معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة ، قدر ما اقتربت من خيالها الفاسد ؛ وأنقنت الغلظَ ليصدقَها فيه الرجلُ ، فلم يكذبُها فيه إلا الرجل ؛ وجعلت أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها . . . !

وأردت أن أعرف كيف تَنَتَّصِفُ الطبيعةُ من الرجل العزبِ للمرأة التي أهملها أو تركها مُهْمَلَةً . . . وأين تبلغُ ضَرَبَاتُهَا في عيشه ، وكيف يكون أثرُها في نفسه ، وكيف تكون المرأةُ في خائنة الأعين ؛ فتسرَّحتُ مع أصحابنا في الكلام فناً بعد فن ، وأزلتُ حِذَارَهُم الذي يحذرون ، حتى أفضوا إلى بفسلفة عقولهم وصدورهم في هذه المعاني .

قال « س » : حسبي والله من الآلام وآلام معها — شعورى بحرمانى المرأة ؛ فهو بلاءٌ منَعَى القرار ، وسلبنى السَكِينَةَ ؛ وكأنه شعورٌ بمثل الوحدة التي يُعاقِبُ السجينُ لها مصرفاً عن الحياة مصروفةً عنه الحياة ؛ تجعله جُذرانُ

* ما يأتي هنا من أسماء الشوارع هو من شوارع طنطا . وفي شارع طه الحكيم كانت دار الرافعي .

سجنه يتمنى لو كان حَجَرًا فيها فينجو من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة ،
المخلت بينها وبينه توسُّعه مما يكره ؛ شعور بالوحدة والعزلة حتى مع الناس
وبين الأهل فما في إلا عواطف خرس لا تستجيب لأحد ولا يجاوبها أحد في
« ذلك المعنى » .

وتأمُّ الدلَّة أن يجد العزَّ بنفسه أبدأً مُكرهًا على الحديث عن آلامه
لكل من يُخالطه أو يجلسُ إليه ، كأنه يحمل مصيبة لا يُنفسُ منها إلا كلامه
عنها . وهذا هو السرُّ في أنك لا تجد عزَّبا إلا عرفته ثرثارًا لا تزال في لسانه
مقالة عن معنى أو رجل أو امرأة ، وأصبته كالذباب لا يطير عن موضع إلا
ليقع على موضع .

ومع جهْد الحرمان جهْدٌ شر منه في المقاومة وكف النفس ؛ فذلك تعبٌ
يَهلكُ به الآدمي ، إذ لا يدعه يتقارُّ على حالة من الضجر فيما تنازعه الطبيعة
إليه ، وهو كالمزَّع في أعصابه ، يُحسُّها تُشدُّ لتُقطع ، ودائمًا تُشدُّ
لتُقطع .

وقد رهقني من ذلك الضننى النسوى ما عيل به صبرى وضعف له احتمالي ؛
فأراني يومًا على جِسام من النفس ، ولا ارتياح من الطبع ؛ وكيف وفي القلب
مادة همه ، وفي النفس علة انقباضها ، وفي الفكر أسباب مشغلاته ؟ وقد أوقدت
سورة الشباب نارها على الدم ، تلتعجج في الأحشاء ؛ وتطير في الرأس ، وتصبغ
الدنيا بلون دُخانها ، وفي كل يوم يتخلف منها رمادٌ هو هذا السواد الذى رآنا
على قلبى .

وما حال رجل عذابه أنه رجل ، وذله أنه رجل ؟ يلبس ثيابه الإنسانية على
مثل الوحش في سلاسله وأغلاله ، ويحمل عقلًا تسبُّه الغريزة كل يوم ، وتراه
من العقول الزئوف لا أثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة
الثابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مُجترِحًا
جرمة فكر . . .

وفي دُون هذا ينكر المرء عقله ؛ وأى عقل تراه في رجل عزب يقع في خياله
أنه متزوج ، وأنه يأوى إلى « فلانة » ، وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ،

وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء بعيداً من المنكر ؛ وفاء لها وحفظاً لعهد الله فيها ، وقد دلّهته بفنونها التي يبتدعها فكره ؛ وهي ساعة تواكله على الحيوان ، وساعة تضاحكه ، ومرة تعابسه ، وتارة تجافيه ، وفي كل ذلك هو ناعم بها ، يحدّثها في نفسه ، ويسمّر معها ، ويتصنّع له ؛ ويعاتبها أحياناً في رقة ، وأحياناً في جفّاء وغليظة : وقد ضربتها ذات مرة . .

ألا إن فكرة المرأة عندى هي هذا الجنون الذي يرجع بي إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمي بي في كهف أو غابة ، فأراى من وراء الدهور كأنى أبدأ الحياة منفرداً وأجدنى رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الإنس ، دنياه أحجار وأشجار ، وهو حجر له نمو الشجر .

لقد توزعت المرأة على فهو متفرق عليها ، وهي متفرقة فيه ، لا أستطيع والله أن أتصورها كاملة ، بل هي في خيالى أجزاء لا يجمعها كل ؛ هي ابتسامة ، هي نظرة ، هي ضحكة ، هي أغنية ، هي جسم ، هي شيء ، هي هي .

أكل تلك المعانى هي المرأة التي يعرفها الناس ، أم أنا لى امرأة وحدى ؟ وإنى على ذلك لأتخوف الزواج وأتحاماه ؛ إذ أرى الشارع قد فصح النساء وكشفهن ؛ فما يرينى منهن إلا امرأة تزهرى بشبابها وصنعة جمالها ، أو امرأة كاهاربة من فضائلها ؛ والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصانع ، تخطيط ثوبها بيدها فتباها بصنعة قبل أن تباهى بلبسه ، وتزهرى بأثر وجهها فى ، لا بأثر المساحيق فى وجهها . وإن مكابدة العفة ، ومصارعة الشيطان ، وتوهج القلب بناره الحامية ، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل — كل ذلك ومثله معه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل ، أبتلى منها فى صديق العمر بعدو العمر .

إن أثر الشارع فى المرأة هو سوء الظن بها ، فهى تحسب نفسها معلنة فيه أنوثتها ، وجمالها ، وزينتها ؛ ونحن نراها معلنة فيه سوء أدب ، وفساد خلق ، وانحطاط غريزة . ومن كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله فى كل واحدة ؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد

من ذلك مُتعلِّقًا يتعلَّق به ، وقياسًا يقيسُ عليه ، والفتنةُ لا تُصيبُ الذين ظلموا
خاصَّةً ، بل تعمُّ .

آه لو استطعت أن أوقظ امرأةً من نساء أحلامى . . . !

* * *

وقال « ١ » : لقد كانت معانى المرأة فى ذهنى صوراً بديعةً من الشعر
تستخفى إليها العاطفة ، ولا يزال منها فى قلبى لكل يوم نازيةٌ تنزرو . وكانت
المرأةً بذلك حديث أحلامى ونسجى وساوسى ، وكنتُ عفيف البنطلون^(١) ؛
ولكنَّ النساء أيقظننى من الحلم ، وفجعتنى فيه بالحقيقة ، ووضعن يدى على
ما تحت ملبس الحياء . ولو حدثتُك بجملة أخبارهن ، وما مارستُ منهن
لتكبرهن وتسخطن ، ولأيقنت أن كلمة (تحرير المرأة) إنما كانت خطأً
مطبعياً ، وصوابها : (تحرير المرأة) . . . فهؤلاء النساء أوكثرتهن — لم يذلن
الحجاب إلا لتخرج واحدةً مما تجهل إلى ما تريد أن تعرف ، لتخرج الأخرى
مما تعرف إلى أكثر مما تعرفه ، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة

لقد عرفت فيمن عرفتُ منهن الخفيفة الطيَّاشة ، والحمقاء المتساقطة ،
والفاحشة ذات الريبة ؛ وكلُّ أولئك كان تحريرهن أى — تحريرهن — تقليداً للمرأة
الأوربية ؛ تهالكن على رذائلها دون فضائلها ، واشتدَّ حرصهن على خيالها الروائى
دون حقيقتها العلمية ، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لاناخذ الرذائل كما هى ،
بل نزيد عليها ضعفنا فإذا هى رذائل مضاعفة .

كان الحلم الجميل فى الحجاب وحده ، وهو كان يُسعّر أنفاسى ويستطير
قلبى ، ويرغمنى مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرُّم ، ورمز الأدب ،
وشارة العفة ، وأن هذه المحصنة المخدرة — عذراء أو امرأة — لم تُلَق الحجاب
عليها إلا إيداناً بأنّها فى قانون عاطفة الأمومة لا غيرها ؛ فهى تحت الحجاب
لأنه رمز الأمانة لمستقبلها ، ورمز الفصل بين ما يَحسن وما لا يَحسن ، ولأن وراءه
صفاء روحها الذى تخشى أن يكدر ، وثبات كيائها الذى تخشى أن يُزعزع .
قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الحلى وصنوف الزينة

(١) يقول العرب فى الكناية عن العفة : وهو عفيف الإزار ، وترجمتها فى عصرنا ما رأيت .

والكسوة الحسنة : « يا هؤلاء ، إنكم إنما تعلمونهنَّ محبة الأغنياء لمحبة الأزواج ، وأحكم من هذا قول الرجل الإلهي الصارم عمر بن الخطاب : « لاضرُّوهنَّ بالعرى » فقد عرف من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تحريرها ، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لإظهار زينتها . فلو مُنعت الثياب الجميلة حبستها طبيعتها في بيتها . فإذا تقول الشوارع لو نطقت ؟ إنها تقول : يا هؤلاء ، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لمعرفة الواحد . . . !

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحياتهن ، ولقد كان الحجاب معنى لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار الشارع معنى لسهولةها ورخصها ؛ وكان مع تحقق الصعوبة أو توهمها أخلاق وطباع في الرجل ، فصار مع توهم السهولة أو تحققها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك ؛ ما زالت تسمى وتتحوّل حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقّى بمن لمس المرأة في الطريق من « الجُنحة » إلى « الجناية » .

وتَحَسَّنَت الشَّبَابَ والرجال ، ضروباً من التخنث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال ، وتحلّلت طباع الغيرة ، فكان هذا سريعاً في تغيير نظرتهن إلى النساء ، وسريعاً في إفساد اعتقادهم ، وفي نَقْصِ احترامهم ، فأقبلوا بالجسم على المرأة ، وأعرضوا عنها بالقلب ؛ وأخذوها بمعنى الأنوثة ، وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قل طلاب الزواج ، وكثر روّاد الخسَناء .

ولقد جاءت إلى مصر كاتبة إنجليزية ، وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات وتدرس معاني الحجاب ، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه : « سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية » قالت في آخره : « إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً ، وهذا التنافس الجنسي ، وتجريد الجنسين من الحجب المشوّقة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما — إذا كان هذا سيُصبح كلُّ أثره أن يتولّى الرجال عن النساء ، وأن يزول من القلوب كلُّ ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي فما الذي نكون قد ربّحناه ؟ لقد والله تبسطرنا هذه الحال إلى تغيير خططنا ، بل قد نستقرّ طوعاً وراء الحجاب الشرقي ، لتعلم من جديد فنَّ الحب الحقيقي » .

* * *

وقال « ع » : لستُ فيلسوفاً ، ولكنَّ في يدي حقائق من علم الحياة لا تأتي الفلسفةُ بمثلها ، وكتابي الذي أقرأ فيه هو الشارع .
فاعلم أن العزَّاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض ، وهم كاللصوص لا يجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة . وحياة اللص معناها وجود السرقة ، وحياة العزَّاب معناها وجود البغاء والفسق .

ومن حكم الطبيعة على الحسنين أن الفاسق يُباهي بإظهار فسقه قدر ما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها : وهذه إشارة من الطبيعة إلى أن المرأة مسكينةٌ مظلومة . فما ابتذل الحجاب ، ولا استهتك النساءُ لإجابٍ على انتشار العزوبة في الرجال ، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغطُ نازلاً فنازلاً إلى ما دون الصفر ؟ فهذا الثلج ماء يعتذر من تحوُّله وانقلابه بعذر طبيعيٍّ قاهر ، له قوةُ الضرورة المُلجئة ، وكذلك المرأةُ المُدانةُ أو الطامحةُ أو المتبدلةُ أو المتهتكةُ - ماصفاتهنَّ إلا تؤكدُ لأعدائهنَّ .

وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم ، فالعزَّاب وإن كان رجالاً حرّاً في نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأئوثة حقّها فيه ؛ فتي جحد هذا الحق ، واستكبر عليه ، رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه ؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة أو حكامُها وقوتُها التنفيذية .

وإذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلُّهم أو أكثرهم أعزَّاباً ، فإذا يكون إلا أن تمسح الدولة ، وتسقط الأمة ، وتتلاشى الفضائل ؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها ، ولا ينبغي أن تربص بها الحكومة حتى نعم ، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هي ، ويجب تفسير كلمة « العزَّاب » في اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكرةٌ ساخطة متمرّدة على حقوق مختلفةٍ للمرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساء رأي العزَّاب في النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا في أسوأ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجوداً محزوناً يستمتعون فيه ، ولكنهم يسهلون ويهلكون به .
 هم والله لأساتذة الدروس السافلة في كل أمة ، وهم والله ببغاة من الرجال في حكم
 البغايا من النساء ، يسجرون جميعاً مسجراً واحداً . ومن هي البغي في
 الأكثر إلا امرأة فاجرة لازوج لها ؟ ومن هو العزب في الأكثر إلا رجل
 فاسق لازوجة له ؟ على أن مع المرأة عذر ضعفيها أو حاجتها ، ولكن ما عذر
 الرجل ؟

ماذا تُفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فتوضى الحياة ،
 وسيسرها على نظامها ، وتحققها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ؛
 وأى عزب يجد الاستقرار ، أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة ؛ وهو قد فقد
 تلك الروح التي تم روحه ، وتُنقّحها ، وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على
 واجباتها وحقوقها ، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التي تُشعره التبعية والسيادة معاً ،
 وتمتدّ به ويمتدّ بها في تاريخ الوطن ؟

كيف يُعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حيّ مختلّ في وجود
 مُستعار ، يقضى الليل هارباً من حياة النهار ، ويقضى النهار نافراً من حياة
 الليل ؛ فيقضى عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل
 ببعضها ، بل بالمكن من بعضها ... !

أية أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجلٌ عزب ، وأية خادم عفيفة
 تطمن أن تخدم رجلاً عزباً ؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب
 من الرجال !

* * *

قال الراوى : وهنا انتفض «س» و«ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة
 ويردّاها إلى حلق «ع» . ثم سألتى ثلاثتهم أن أسقطنها من المقال ، بسند أنى
 رأيت أن خير من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا «س» و«ا» و«ع»

استنوق الحمل . . .

قال الشاب : لا قبيل لي بهذا التعب المعنى الذى يسمونه « الزواج » فما هو إلا بيتٌ ثقله على شيتين : على الأرض ، وعلى نفسى ؛ وامرأةٌ همها فى موضعين : فى دارها ، وفى قلبى ؛ وما هو إلا أطفالٌ يلزمونى عمل الأيدى الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين ، وأحملُ فيهم رهقاً شديداً كأنما أبنيهم بأيامى ، وأجمعُ هموم رؤوسهم كلها فى رأس واحد هو رأسى أنا .

يُولَد كلٌّ منهم بمعدة تهضم لتوها وساعتها ، ثم لاشيء معها من يدٍ أو رجلٍ أو عقلٍ إلا هو عاجزٌ لا يستقل ، متخاذلٌ لا يطيق ولا يقدر .

قال : وإذا كان أولُ الزواج أى عسله وحلواه أنه امرأةٌ تُذهب عزوبتى . فأنا وأمثالى ما نزالُ فى عسلٍ وحلوى . . . ولكل وقتٍ زواج ، ولكل عصرٍ أفكار ، وما أسخف الليالى إذا هى ترادفتُ على ضربٍ واحد من أحلامها ، فهذا يجعلُ النوم حكماً بالسجن عشر ساعات . . . !

قال : وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العزّاب قوم كرجال الفن ؛ رذيلتهم فذية ، وفضيلتهم فنية ، فتلك وهذه بسبيل ؛ وكلُّ شىء فى الفن هو لموضعه من الفن لا من غيره ؛ فإذا قلت : هذا خال من الفضيلة ، عار من الأدب ؛ وعيبُ الفن لذلك — فما هو إلا كعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خال من لحيّة . . ! هات الظلام وسواده ، فإنه لونٌ كالنور وإشراقه ، لا بد من كليهما ؛ إذ المعنى الفنى إنما يكون فى تناسب الأشياء لافى الأشياء ذاتها ؛ ويد الفنى كيد الغنى ؛ هذه لا يقع فيها الذهب إلا ليعدد ثم يتعدد ؛ وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتعدد ثم تتعدد ؛ وفى كل دينار قوةٌ جديدة ، وفى كل امرأة فن جديد . . .

قال : ومذهبنا فى الحياة أن نستمتع بها ضرُوباً وأفانين ؛ من أطاق لم يقتصر على نوعين ، ومن قدّر على نوعين لم يرض الواحد ؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى ، لثقل منها على حياتنا ما يثقلُ

من الحديد والصَّوَّان ؛ إذ هي لا تَلِدُ أشعة كواكب ، ولا قطرات ندى ؛ وحَسَبُ
الجسد برأس واحد جِمْلاً .

قال : ومن الذى تَعْرِضُ عليه الحياةُ سلامَها وتَحْيَاتِها وأشواقَها فى مثل
رسالة غرام ، ثم يدعُ هذا ويسألها غَضَبَها ونَحِصَها ولَجَاجَتَها فى مثل قضيةٍ
من قضايا المحاكم كلُّ ورقة فيها تلد ورقة . . ؟

ثم قال الشاب : لا تَحْسَبَنَّ أن المرأةَ هى السافرةُ عندنا ، ولكنَّ اللذة هى
السافرة ؛ وما أَحْكَمَ الشرع ! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة : — ما أَحْكَمَ
الشرع الذى لم يُرَخِّصْ فى كشف وجه المرأة إلا للضرورة ، فإن الواقع فى الحياة
أن هذا الكشف كثير ما يكون كنقَب اللص على ما وراء النَّقَب ؛ وإذا
كُسِرَ ما فوق القفل من الخِزَانَةِ المكتَنَزِ فيها الذهبُ والجوهرُ ، فالبابُ الحديدُ
كله سخرية وهزْؤٌ من بَعْدُ . . !

* * *

هذه عقليةُ شابٍّ محام طُوِيَ عقلُهُ على الكتب القانونية ، وطوى قلبُهُ على
مثْلِها من غير القانونية . . . وليس يَمْتَرِي أحدٌ فى أنها عقليةُ السواد من شبابِنا
المثَقَّف الذى لَبِسَ الجلد الأوروبى . ومن البلاء على هذا الشرق أنه ما بَرَحَ
يُنَاهِضُ المستعمرين ويُوَاثِبُهُم ، غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التى تُنَاهِضُهُ
وتُوَاثِبُهُ ، جاهلاً أن أوروبا تستعمرُ بالمذاهب العلمية كما تستعمرُ بالوسائل الحربية ؛
وتَسْوقُ الأسطول والجيش ، والكتاب والأستاذ ، واللذة والاستمتاع ، والمرأة
والحب .

ولو أن عدوًّا رماك بالنار فاستطارت فى ثيابك أو متاعك لما دخلَكَ الشك
أن عدوك هو النارُ حتى تفرغ من أمرها . فكيف — لِعَمْرَى — غَفَلَ الشرقيون
عن أخلاق نارية حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كأنما ينضجونهم عليها
ليكونوا أسهل مَسَاغاً ، وألين أخذاً ، وأسرع فى الهضم . . !

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوروبا فى أعصابه ،
وأما مصرُ ونساؤها ورجالُها فعلى طَرَف لسانِهِ لا تكون إلا صِحَّة ، وليس بينه
وبينها فى الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها ، لا من ناحية فائدتها منه .

وتلك المعانى كُلُّها مشتقٌّ بعضها من بعض ، ومَرَجِعُها إلى أصلٍ واحدٍ ،

كالأمراض التي تَسْبِلُ الجسمَ يُمَهِّدُ شَيْءٌ مِنْهَا لَشَيْءٍ ، ما دامت طَبِيعَةُ هَذَا الجسمِ زَائِغَةً أَوْ مُخْتَلَّةً ، أَوْ مُتَرَاكِجَةً إِلَى الضَّعْفِ ، أَوْ ذَاهِبَةً إِلَى الْمَوْتِ .

وَأُولَئِكَ شَبَابٌ وَقَفَ بِهِمُ الشَّبَابُ مَوْقِفَ بَلَادَةٍ ، فَلَا يَخْطُو إِلَى الرَّجُولَةِ ، وَلَا يَكْمُلُ بِنَمُوِّهِ الْاجْتِمَاعِي كَمَا يَكْمُلُ الرَّجُلُ الْوَطَنِي ؛ فَمَنْ ثَمَّ يَكُونُ خَوَّارًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِ ، وَيَسْتَوِطِي الْعِجْزَ وَالْخُمُولَ ؛ فَلَا يَكُونُ إِلَّا قَاعِدَ الْهَيْمَةِ ، رَخْوُ الْعَزِيمَةِ ، قَدْ اسْتَنَامَ إِلَى أَسْبَابِ عِجْزِهِ وَتَخَاذُلِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ فِي بَعْضِ الْإِعْتِبَارِ إِلَّا كَالْمَرِيضِ يَعِيشُ بِمَرَضِهِ حَمِيلَةً عَلَى ذَوِيهِ ، ضُجْجَةً لَا يَمِشِي ، نَوْمَةً لَا يَتَنَهَضُ ، مُسْتَرِيحًا لَا يَعْمَلُ .

وبهذه الْمَكْسَلَةُ الْجَمَاعِيَّةُ فِي الشَّبَابِ يَبْدَأُ الشَّعْبُ يَتَحَوَّلُ مِنْ دَاجِلِهِ فَيَنْصَرِفُ عَنْ فُضَائِلِهِ ، وَيَتَخَذُ فِي مَكَانِهَا فُضَائِلَ اسْتِعَارَةٍ يَقْلِدُ فِيهَا قَوْمًا غَيْرَ قَوْمِهِ ، وَيَجْلِبُهَا لِبَيْئَةٍ غَيْرِ بَيْئَتِهِ ، وَيَقْسِرُهَا عَلَى أَنْ تَصْلُحَ لَهُ وَهِيَ فَسَادٌ ، وَيَكْرَهُهَا عَلَى أَنْ تَنْفَعَهُ وَهِيَ ضَرَرٌ ، وَتِلْكَ حَالَةُ يُغَامِرُ فِيهَا الشَّعْبُ بِكَيَانِهِ فَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَصْدَعَهُ وَتَفْرِقَهُ .

وَلَوْ أَنَّ فِي السَّحَابِ مَطَرًا وَغَيْثًا لَمَا كَانَ لَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَوْنٌ مُصْبُوغٌ ، وَلَوْ أَنَّ فِي الشَّبَابِ دِينًا لَمَا صَبِغَتْهُ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ الْفَاسِدَةُ ، وَمَا ذَاهَبُ الْحَارِسُ عَنْ هَيْكَانٍ إِلَّا دَعْوَةً لِلصُّوْصِ إِلَيْهِ ، وَهَلْ كَانَ الدِّينُ إِلَّا وَاجِبَاتٌ وَتَبَعَاتٌ وَقِيُودٌ يَرَادُ مِنْ جَمِيعِهَا إِعْدَادُ الْإِنْسَانِ لِأَمْثَالِهَا فِي الْاجْتِمَاعِ ، حَتَّى يَقَرَّ فِي إِنْسَانِيَّتِهِ الصَّحِيحَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ مُتَفَرِّدًا وَيَصْلُحُ لَهُ مُجْتَمِعًا ؟ فَلَيْسَتْ الزَّوْجَةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي خَسَرَتْ الشَّابُّ بَلْ خَسَرَهُ مَعَهَا الْوَطَنُ وَالْدِّينُ وَالْفَضِيلَةُ جَمِيعًا ، وَبِهَذَا انْعَكَسَ وَضْعُهُ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، فَوَجِبَ فِي رَأْيِهِ أَنْ تُسَخَّرَ الْجَمَاعَةُ لَهُ ، وَأَنْ يَسْتَقِلَّ هُوَ بِنَفْسِهِ ، وَبِهَذَا الْعَكْسُ ، وَهَذَا السَّقُوطُ ، وَهَذَا الْاسْتِمْتَاعُ الَّذِي يَجِدُ سَعَادَتَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ أَصْبَحَ أُولَئِكَ الشَّبَابُ كَأَنَّمَا حَقَّقَهُمْ عَلَى الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَقْدَمَ لَهُمْ بَغَايَا لَا زَوْجَاتَ بَغَايَا حَتَّى مِنَ الزَّوْجَاتِ !

قَبَّحَ اللَّهُ عَصْرًا يَجْهَلُ الشَّبَابُ فِيهِ أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ فِي الْوَطَنِ كَلِمَتَانِ تَنْفَسِرُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى تَفْسِيرًا إِنْسَانِيًّا دِينِيًّا بِالْوَاكِبَاتِ وَالْقِيُودِ وَالْأَحْمَالِ ، لَا بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْإِنْطِلَاقِ كَمَا تَنْفَسِرُ الْحَيَوَانِيَّةُ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى .

والنفسُ الدينيةُ أو المنحطَّةُ في أخلاقها ومَسَازِعِها من الحياة لا تكون إلا دنيئةً أو منحطَّةً في أحلامها وأخيلِيتها الروحية ، دنيئةً كذلك في طاعتها إن قَضَتْ عليها الحياةُ بموضع الخضوع ، دنيئةً في حكمها إن قَضَتْ لها الحياةُ بمنزلة من السلطة . ولو تنبَّهت الحكومةُ لطردت من عملها كلَّ موظف غير متأهِّل ، فإنها إنما تستعملُ شرًّا لا رجلاً يمنع الشر ، وكلُّ شاب تلك حاله هو حادثة تَرْتَدُّفُ الحوادث وتستلزمها ، وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه :

* * *

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعة ثالثة تقوم بالاثنتين معاً ، وهي طبيعةُ الشعب . فـن سقوت النفس ولؤمِها ودناءتها أن يفرَّ الشابُّ القوى من تَبِعَةِ الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الإنسانية ؛ ولا يقيم لوطنه جانباً من بناء الحياة في نفسه وزوجهِ وولده ، بل يذهبُ يجعل حظَّ نفسه فوق نفسه ، وفوق الإنسانية والفضيلة والوطن جميعاً ؛ ولا يعرفُ أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعافٌ في طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل في أى أسبابها عَرَضَتْ .

ومن فُسْؤَةِ الطبع ولؤمِهِ ودناءته أن يهرب هذا الجندى من مَمِيدانه الذى فَرَضَتْ عليه الطبيعةُ الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه الطبيعى متعللاً لفِراره المُخْزى بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يعانى فيه كما يحتج الجبانُ بخوف الهلاك وعناء الحرب .

ومن سقوت النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات ، وبوارهنَّ على الوطن ؛ وأن يتواطأوا على نَسَبِ هذه الأحمال ، وإلقائها في طرُق الحياة ، وتركِها لمَقَادِيرِها المجهولة . كأنهم — أَصْلَحَهم الله — لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم في أمَّهات الجليلِ المقبل ، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتِها وتخليِّهم عن حمل واجباتها وهُمومها السامية .

إن الحمل إذا اسْتَنَوَقَ تخنَّث ولان وخضع ، ولكنه يحمل ؛ وهؤلاء إذا استنوقوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا . .

ومن سقوت النفس في الرجل النَّكْسُ العاجز المقصر أن يحتجَّ لعزوبته

بعلمه وجهل الفتيات ؛ أو تمدنه وزعمه أنهن لم يبلغن مبلغ الأوربية ، ولا يدري هذا المنحط النفس أن الزواج في معناه الإنساني الاجتماعي هو الشكل الآخر للاقتراع العسكري ، كلاهما واجب حتم لا يعتذر منه إلا بأعذار معينة ، وما عداها فجبين وسقوط وانخزال ولعنة على الرجولة .

ومن سقوط النفس أن يغنى الشاب عن الزواج لفُجوره فيقره ، ويُمكن له ، وكأنه لا يعلم أنه بذلك يحطّم نفسين ، ويُحدث جريمتين ، ويجعل نفسه على الدنيا لعنتين .

ومن سقوط النفس أن يغترّ الشاب فتاةً حتى إذا وافق غريبتها مسكر بها وتركها بعد أن يُلبيسها عارها الأبدي ؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك ، هو أبدأً عند من يسرقهم في باب الخسائر والنكبات ، لافي باب الريح والمكسب ؛ وعند المجتمع في باب الفساد والشر ، لافي باب المصلحة والخير ؛ وعند نفسه في باب الجريمة والسرقة ، لافي باب العمل والشرف .

* * *

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج في أصلها وفروعها الكثيرة التي منها المغالاة والشطط في المهور ، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية ، وإهمال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء ، وعزوفها عن الفاضل ذي الكفاف أو اليسير على غنى في رجولته وفضائله ، كأنما هو زواج الدينار بالسيكة ، والسيكة بالدينار ، وكأن الطبيعة قد ابتليت هي أيضاً بالسقوط ، فأصبحت تعتبر الغنى والفقر ، فتجعل في دم أولاد الأغنياء روح الذهب واللؤلؤ والماس ، وتُلقي في دم أولاد الفقراء روح النحاس والخشب والحجارة . . . على حين أن الجميع مُستيقنون لا يتدافع اثنان منهم في أن الطبيعة لا تبالي إلا بوراثنة الآداب والطباع .

وأعظم أسباب هذا السقوط في رأيي هو ضعف التربية الدينية في الحسنين ، وخاصة الشبان ، ظناً من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لاغيره نظام هذه الحياة وقوامها في كل ما يتصل منها بالنفس . وليست المدنية الصحيحة

— كما يحسبُ المفتونون — هي نوعُ المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوعُ العقيدة بالحياة ومعانيها ؛ وإلى هذا ترمى كلُّ مبادئ الإسلام ، فإن هذا الدين القوىُ الإنسانى لا يعبأ بزخارف كهذه التى تتلبسُ بها المدنيةُ الأوربية القائمة على الاستمتاع ، وفنون اللذات ، وانطلاق الحرية بين الحسنين ؛ فهذا بعينه هو التحطيمُ الإنسانى الذى ينتهى بتهدُّم تلك المدنية وخرابها : وإنما يعبأ الإسلامُ بالعقيدة التى تنظم الحياةَ تنظيمًا صحيحًا متساوياً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة بعيداً من الخلط والقوضى .

ويقابلُ ضعفُ التربية الدينية مظهرٌ آخرُ هو سببٌ من أكبر أسباب السقوط ، وهو ضعفُ التربية الاجتماعية فى المدرسة ؛ وإلى هذا الضعف يرجع سببٌ آخر هو تخنث الطباع واسترسالها إلى الدعة والراحة ، وفرارها من حمل التبعة « المسئولية » التى هى دائماً أساسُ كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى .

وبذلك الضعف وذلك السقوط وُضعت المرأةُ البغى العاهرةُ فى الموضع الطبيعى للأم ، ونزل الرجلُ السافلُ المنحط فى المكان الطبيعى للأب ، وتحللت قوى الوطن بانحراف عنصريه العظيمين عن طبيعتهما ، وجعلت فضيلة الفتيات المسكينات تتأكلُ من طول ما أهملت ، وأخذ سُوسُ الدم يتركها فضائل نَخِرة ، ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته ، ما دامت الفضيلةُ فى حكم الناس وتصريفهم قد تَرَكتْ مكانها للقوانين ، وما دامت قوة النفس قد أخلت موضعها للقوة التنفيذية .

لقد قتلتُ رُوحِيَّةُ الزواج ، وهى على كل حال جريمةُ قتل ، فمن القاتلُ يا صاحِبنا الحامِى ؟

قال الشاب : هو كل رجل عَزَب .

قلت : فما عقابُه ؟

فسكتَ ولم يَرْجِعْ إلىَّ جواباً .

قلت : كأنى بك قد تَاهَلْتِ وَخَلَاكَ ذمٌ . . . فما عقابُه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزَّاب ، فليعاقبهم الشعبُ

بتسميتهم « أرامل الحكومة » . . . واحدُهم : رجلٌ أرملة حكومة . . .

ثم قال : اللهم يَسِّرْها ولا تَجْعَلْنى رجلاً بعلطين : غلطة فى نساءِ الأمة ، وغلطة فى ألفاظ اللغة .

أرملة حكومة

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا^(١) هو الرجلُ العزب ، يكون مُطيقاً للزواج ، قادراً عليه ، ولايتزوج ؛ بل يركبُ رأسه في الحياة ، ويذهبُ يَمَوّه على نفسه كذباً وتدليساً ، ويتحلى لها المعاذير الواهية ، ويمتلكُ العللَ الباطلة ، يحاول أن يُلحق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يحطُّ الرجل المتزوج إلى مرتبته هو ؛ ويضيف شؤمه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات ، يزيدهن على نفسه شرَّ نفسه ، ويرميهن بالسوء وهو السوء عليهن ، ويتنقصهن ومنه جاء النقص ، ويعيبهن وهو أكبر العيب ؛ لايتذكر إلا الذي له ، ولايتناسى إلا الذي عليه ، كأنما انقلبت أوضاعُ الدنيا ، وتبدلت رسومُ الحياة ، فزالت الرجولة بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانفصلت الأنوثة بحقوقها من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تحمل تلك ما كان يحمل هذا ، فتقدمَ ويقرَّ وادعاً ، وتعبَ ويستريح ، وتعانى الهمومَ الساميةَ في الحياة الاجتماعية ، ويعانى الخنثُ أبساماته ودموعه ، متكئاً في مجلسه النسيمي تحت جناح المروحة . . فأما المرأة فتشرف على هلكتها ، وتُخاطرُ بحاضرها ومستقبلها ، وأما هو فيبقى من ثيابه في مثل الخدرِ المصُون . . . !

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائفُ المُبهَرَجُ ، يُحسبُ في الرجال كذبا وزوراً ؛ إذ لا تكملُ الرجولة بتكوينها حتى تكملَ بمعاني تكوينها ؛ وأخصُّ هذه المعاني إنشاء الأسرة والقيامُ عليها ، أى مغامرة الرجل في زمنه الاجتماعي ووجوده القوى ، فلا يعيش غربياً عنه وهو معدودٌ فيه ، ولا تُفيلياً فيه وهو كالمُنْقَى منه ، ولا يكون مظهراً لقوة الجنس القوى هاربةً هروب الجبن من حَمَلٍ ضعف الجنس الآخر المحتمى بها ، ولا مروءة العشير مُتَبَرِّئة تَبَرُّؤ النذالة من

(١) انظر مقالة « استنوق الجمل » . والتاء في « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ، بل هي تاء جديدة في العربية ، تزداد في هذه الكلمة خاصة واسمها تاء الهزؤ ويأجذا لو اصطلح النساء والفتيات والمزجون جميعاً على تسمية كل رجل عزب « أرملة الحكومة » فإن هذا الاسم إذا عم وشاع كان في معناه وقلمه المظهر ، حامضاً لغوياً كحامض الفينيك . . . !

مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها ؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان في نساء أمته عملاً واحداً ، وأن يصبح هو والكساد لا يأتى منهما إلا أثر متشابه ، وأن يبيت هو والفناء في ظلمة واحدة كظلمات القبر ، تنقل الأجدات إلى الدُّور ، فتجعل البيت - الذى كان يقتضيه الوطن أن يكون فيه أب وأم وأطفال - بيتاً خاوياً كأنما ثكل الأم والأطفال ، وبقيت فيه البقية من هذا الرجل العزب الميت أكثر تاريخه . . . !

لقد رأيت بعينى أداة العزب وأثاثه في بيته ، كأنما يقصُّ عليه كل ذلك قصة شؤمه ووحدته ، وكأنما يقول له الفرش والنجدة والطرز : « بعنى يا رجل وردنى إلى السوق ؛ فإنى هنالك أطمع أن يكون مصيرى إلى أب وأم وأولاد ، أجد بهم فرحة وجودى ، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابى ، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قد عملت عملاً إنسانياً . أما عندك ، فأنت خشبة مع الخشب ، وأنت خريقة بين الحرق . واسمع الكرسي إنه يقول : أف . وأصغ إلى فراشك إنه يقول : تَف . . »

شهد العزب ورب الكعبة على نفسه أنه مُبتلى بالعافية ، مستعبد بالحرية ، مجنون بالعقل ، مغلوب بالقوة ، شقى بالسعادة ، وشهدت الحياة عليه ورب البيت أنه في الرجولة قاطع طريق ؛ يقطع تاريخها ولا يؤمنه ، ويسرق لذاتها ولا يكسبها ويخرج على شرعها ولا يدخل فيه ، ويعصى واجباتها ولا ينقاد لها . وشهد الوطن - والله - عليه أنه مخلوق فارغ كالواغيل على الدنيا ؛ إن كان نعمة بصلاحه ، انتهت النعمة في نفسها لا تمتد ؛ وإن كان بفساده مصيبة امتدت في غيرها لا تنقطع . وأنه شحاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً ، ولا يحسن هو بنسل يبق . وأنه في بلاده كالأجنبي ، مهبطه على منفعة وعيش لا غيرهما ؛ ثم يموت وجود الأجنبي بالنقل إلى وطنه ، ويموت وجود العزب بالانتقال إلى ربه ؛ فيستويان جميعاً في انقطاع الأثر الوطنى ، ويتفقان جميعاً في انتهاب الحياة الوطنية ؛ وأن كليهما خرج من الوطن أبتر لا عقب له ، ويذهبان معا في لُجج النسيان : أحدهما على باخرة ، والآخر على النعش !

جاءنى بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسة الدقة البالغة فى الرقم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذر البالغ أن يختل شئ أو ينحرف ، أو يتقاصر أو يطول ، أو يزيد أو ينقص ، أو يبدل خطه السهو ، أو يقع فيه الخطأ ؛ إذا كان الحاضر فى العمل الهندسى إنما هو للعاقبة ، وكان الخيال للحقيقة ؛ وكان الخرق هنا لا يقبل الرقعة . ومتى فصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس ؛ فإما عقل دقيق منتظم ، أو عقل مأفون مختل .

بيد أن المهندس — على ما ظهر لى — قد خلست حياته من الهندسة . . وانتهى فيها من التحريف المضحك — حتى فيما لا يخطئ الصغار فيه — إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة : « إياك نعبد وإياك نستعين » فقد رَوَوْا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلى فى مسجد لها ، فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائل فى الدين لم يتوجه لى وجه الحق فيها ، ولأزال متحير الرأى ، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة ، فأريد أن أسألك عنها . قال العالم : سئل ما أحببت . قال الخطيب : أشكلك على فى القرآن بعض مواضع ، منها فى سورة الحمد « إياك نعبد وإياك » . . . أى شئ بعده . « تسعين أو سبعين » . . ؟ أشكلك على هذه فأنا أقرأها : تسعين . أخذاً بالاحتياط . . . !

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عزب أخذ بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تكلفنى الزواج وتكرهنى عليه ، وتعتفنى على العزوبة وتعينى بها ؛ وإنما أنت كالأذى يقول : دع الممكن وخذ المستحيل ؛ إن استحالة الزواج هى التى جعلتني عزباً ، والعزوبة هى التى جعلتني فاسداً ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب ، إما أن تكسد الفتاة ، وإما أن تتصلب بها العذوى . والعزب لا يابى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفى ؛ فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق :

قلت : لقد هَوَّلتَ علىّ ؛ فما مستحيلك يا هذا ، ولم استحالَ عليك ما أمكن غيرك ، وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً ؟ أمينٌ غير آباء خُلِقُوا ، أم زُرِعوا زرعاً في أرض الحكومة ؟ اسمع — ويحك — ألا يكون الرجالُ قد أقبلوا وتراجعت ، وتجلّدوا وتوجّعت ، أو أقدموا وخسّست ، واسترجلوا وتأنّست ؟

قال : ليس شيء من هذا .

قلت : فإن المسألة هي كيف ترى الفكرة ، لا الفكرة نفسها ، فما حَمَلَكَ على العزوبة وأنت موظف وظيفتك كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يَصْدُقُ عليك ما قالوه في الرجل المحدود : لو عمَدَ إلى حَجَرٍ لَانْفَلَقَ له عن رزق .

قال : أليس مستحيلاً ثمّ مستحيلاً أن يجمع مثلي يدَه على مائة جنيه يدفعها مهرّاً ؛ وما طرقتُ — علم الله — باباً إلا استقبلوني بما معناه : هل أنت معجزة مالية ؟ هل أنت مائة جنيه ؟

قلت : فإن عملك في الحكومة يُغِلُّ عليك في السنة مائة وثمانين ديناراً فلم لانعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟

قال : « بكل أسف » لا يستطيع الرجلُ العزْبُ أن يدّخر أبداً ؛ فهو في كل شيء مبدّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتك على نفسك بالسّفَه والخُرْق والتبذير ؛ تُنفق ما يكفي عدداً وتضيقُ بواحدة ، وماذا يَرْتئي مثلكَ في الحياة ؟ أعند نفسه وفي يقينه أن يتأبّدَ فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع في شهوات حياته ، ويتوسّع فيها ضروراً وألواناً ليكونَ وهو فرد كأنه وهو في إنفاقه جماعة ، كل منهم في موضع رذيلة أو مكانٍ لهُ ؛ وكأن منه رجالاً هو كاسبُهم وعائلهم ، يُنفق على هذا في القهوة ، وعلى هذا في الحانة ، وعلى ذلك في الملاهى ، وعلى الرابع في المواخير ، وعلى الخامس في المستشفى ... ؟ إن كان هذا هو أصلُ الرأى عند العزْب ، فالعزْبُ سفيه مجرم ، وهو إنسانٌ خَرِبٌ من كل جهة إنسانية ، وهو في الحقيقة ليس المتسّع لنفقات خمسة ، بل كأنه قاتلٌ من أبناء وطنه ؛ إذ كان بهذا مُطِيقاً أن يكونَ أباً ينفق على أبنائه ، لاسفياً ينفق على شياطينه .

فإن كان قد بنى رأيه على أن يتعزّب مدة ثم يتأهل ، فهذا أخرى أن يعينه

على حسن التدبير ، وهو مَضْرُوءٌ له على شهوة الجمع والادّخار ؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يَكْدَحُ لعياله وهو في سَعَةِ منهم بعدُ ، وهم لا يزالون في ضلّبه على الحال التي لا يسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهِمّاً وعِزّاً يَرْتَوْنَهَا من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا .

إنما العزْبُ أحدُ رجلين : رجلٌ قد خرج على وطنه وقومه وفضائل الإنسانية ، قاعدتهُ : جُرّ الحبلَ ما انجرَّ لك . وهذا داعرٌ فاسقٌ ، مبدّرٌ مثلاًفٌ إن كان من الميَاسير ، أو مُريبٌ دنيءٌ حقيرُ النفسِ إن كان من غيرهم . . . ورجلٌ غير ذلك ، فهو في وثاقِ الضرورة إلى أن تُطْلِقَهُ الأسبابُ ، ومن ثمّ فهو يعمل أبداً للأسباب التي تُطْلِقُهُ ، ويعرف أنه وإن لم يكن أهلاً فلا تزال ذمته في حق زوجةٍ سيَّعُولُهَا ، وفي حقوقِ أطفالٍ يَأْبُوهُمْ ، وواجباتِ وطنٍ يخدمه بإنشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده ، والقيام على سياستها ، والنهوض بأعبائها . فانظر ويحك أيُّ الرجلين أنت ؟

قال : فتريدني أن أقامرَ بتعب سنة وأنا بعد ذلك ما يُقْدَرُ لي ، قد أشتري بتعب سنة من العمر تعبَ العمر كله ؟

قلت : فهذه هي خِصَّةُ الفرديّة ، ودناءتها الوحشيةُ في جِنَايَتِها على أهلها ، وسوء أثرها في طباعهم وعِزائمهم ؛ فهي فرديّةٌ تضرب فيهم العاطفة الاجتماعية ضَرْبَ التَّلَفِ^(١) ، وتبتليهم بالخوف من التَّبِعاتِ حتى لَيَسْتَوْهَمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ إن تزوج لم يدخل على امرأة ، ولكن على معركة . وهي تُصَيِّبُهُم بالقسوة والغِلْظة ؛ فما دام الواحدُ منهم واحداً لنفسه ، فهو في تصريف حُكْمِ الأثرة ، وفي قانون الفِتنة بأهواء النفس ومنافعها ؛ كأنما يعامله الناس رجلاً كلُّهُ مَعِدَّة ، أو هو فيهم قوة هضم ليس غير .

قال : ولكن الزواج عندنا حظٌّ مخبوءٌ « لوتريّة » والنساء كأوراق السحب ، منهن ورقةٌ هي التوفيقُ والغنى بين آلاف هُنَّ الفقر والخيبة المحقّقة .

قلت : هل اعتدت أن تتكلم وأنت نائم ؟ فلعلك الآن في نومة عقل ، أو لا فأنت الآن في غفلة عقل .

(١) يقال ضربه ضرب التلف ، أي الضرب الذي يقتله ويتلفه .

إن هذا المسكين الذى يسمح الأحذية ويشتري من تلك الأوراق لا يخلو منها ؛ يعلم علمًا أكثرَ من اليقين أن عيشه هو من مسح الأحذية لامن الأحذية التى فى هذه الأوراق ؛ فهو لا يعتدُّ بها فى كبير أمر ولا صغيره ، وما يُنزلُها فى حساب رغبته وثوبه إلا يومَ يُخالطُ فى عقله فيتنزّه أن يسمح أحذية الناس ، ويرى أن عظيمًا مثله لا يسمح إلا أحذية الملائكة . . .

أنت يا هذا مهندس ، ولك بعضُ الشأن وبعضُ المنزلّة ، فهَبْكَ ارتأيت أنه لا يحسن بك ألا يحسنُ لك إلا أن تتزوج بنتَ ملك من الملوك ، فهذه وحدها هى عندك « النمرة الرابعة » ، وسائر النساء فقر وخيبة ، ما دام الأمرُ أمرَ رأيك وهواك ؛ غيرَ أنك إذا عرّضتَ لتلك « النمرة الرابعة » لم تعرفك هى إلا صُعلوكًا فى الصّعاليك ، وأحمقَ بين الحمقى .

إن تلك الأوراق تُصنعُ صنعتها على أن تكونَ جملتها خاسرةً إلا عددًا قليلًا منها ؛ فإذا تعاظمتَ شراءها فأنت على هذا الأصل تأخذها ، وبهذا الشرط تبدلُ فيها ؛ وما تَمْتَرِي أنت ولا غيرُك أن القاعدة ههنا هى الخيبة ، وشذوذها هو الربح ؛ وليس فى الاحتمال غيرُ ذلك ؛ ومن ثمّ فقد برى إليك الخطُّ إن لم يُصيبك شيء منه ؛ وأين هذا وأين النساء ، وما منهن واحدةٌ إلا فيها منفعة تكثرُ أو تقلُ ، بل الرجالُ للنساء هم أوراقُ السّحب فى اعتبارات كثيرة ، ما دامت طبيعة اتصاهما تجعلُ المرأةَ هى فى قوانين الرجل أكثرَ مما تجعلُ الرجلَ فى قوانينها ، وهل ضاعت امرأةٌ إلا من غفلة رجل أو قسوته أو فسولته أو فجوره ؟

قال المهندس : فأنى أعلم الآن - وكنت أعلم - أن لاصلاح لى إلا بالزواج ، وأن طريقى إلى الزوجة هو كذلك طريقى إلى فضيلتى وإلى عقلى .
وتالله ما شيءٌ أسوأ عند العزب ولا أكره إليه من بقائه عزبًا ، غير أنه يكابر فى المماراة كلما تحاقرت إليه نفسه ، وكلما رأى أن له حالاً ينفردُ بها فى سخط الله وسخط الإنسانية . ولا مكذبةٌ ، فقد والله أنفقتُ فى رذائل ما يجتمع منه مهرُ زوجة سرّية تشتطُ فى المهر وتغلو فى الطلب ؛ ولكن كيف بى الآن وما جبرنى من قبلُ إصلاحٌ ، ولأعاني اقتصاد ، ومن لى بفتاة من طبقى بمهر لا أتحمّل

منه رَهَقًا ، ولانتقاصرُ معه أموري ، ولانتخلُ معيشتي ؟

قلت : فإذا لم يحملك الحمارُ من القاهرة إلى الإسكندرية ؛ فإنه يحملك إلى قليب أو طوخ . وفي النساء اسكندرية ، وفيهن شبرا ، وقلوب ، وطوخ ؛ وما قَرَبَ وبعُد ، وما رَخِصَ وغلا .

قال : ولكنْ بلدى الإسكندرية . . .

قلت : ولكنك لا تملكُ إلا حماراً . . . وللمرأة من كل طبقةٍ سَعَرُها في هذا الاجتماع الفاسد ؛ ولو تَعَاوَنَ الناسُ وصلحوا وأدركوا الحقيقة كما هي ، لَمَّا رأينا الزواج من فقر المهور كأنما يركبُ سُلْحَفَةٌ يمشى بها . . . ونحن في عصر القطار والطيارة ، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا في عصر الحمار والجمل — كأنه وحده من السرعة في طيارة أو قِطار .

* * *

حين يَنقَسِدُ الناسُ لا يكون الاعتبارُ فيهم إلا بالمال ، إذ تنزل قيمتهم الإنسانية ويبقى المال وحده هو الصالح الذى لا تتغير قيمته . فإذا صلحوا كان الاعتبارُ فيهم بأخلاقهم ونفوسهم ، إذ تنحط قيمة المال في الاعتبار ، فلا يغلبُ على الأخلاق ولا يسخرها . وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لطالب الزواج : « التمسْ ولو خاتمًا من حديد »^(١) . يريد بذلك نفي المادية عن الزواج ، وإحياء الروحية فيه ، وإقراره في معانيه الاجتماعية الدقيقة ، وكأنما يقول : إن كفاية الرجل في أشياء إن يكن منها المالُ فهو أقلُّها وآخرها . حتى إن الأخسَّ الأقلَّ فيه لَيُجْزَى منه كخاتم الحديد ؛ إذ الرجلُ هو الرجولةُ بعظمتها وجلالها وقوتها وطابعها ، ولن يُجْزَى منه الأقلُّ ولا الأخسُّ مع المال ، وإن ملء الأرض ذهبًا لا يكتمل للمرأة رجلاً ناقصًا ؛ وهل تُثَمُّ الأسنانُ الذهبيةُ اللامعةُ ؛ يحملُها الهرم في فمه ؛ شيئًا مما ذهب منه ؟ وما عسى أن تصنع قواطعُ الذهب الخالص وطواحنُه لهذا المسكين بعد أن نطق تحاتُّ أسنانه العظمية وتناثرُها أنه رجلٌ حَلَّ البلى في عظامه . . . ؟

(١) انظر « قصة زواج ، وفلسفة المهر » .

رؤيا في السماء

قال أبو خالد الأحولُ الزاهد : لما ماتت امرأةُ شيخنا أبي ربيعةَ الفقيهِ الصوفيِّ ، ذهبتُ مع جماعةٍ من الناس فشهِدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها وسُويَ عليها ، قام شيخُنا على قبرها وقال : يرحمك الله يا فلانة ؟ ! الآن قد شُفيتِ أنتِ ومَرِضتُ أنا ، وعُوفيتِ وابْتُليتُ ، وتركيتُ ذاكرًا وذهبتِ ناسيةً ، وكانَ للدنيا بكِ معنى ، فستكونُ بعدك بلا معنى ؛ وكانت حياتُكِ لى نصفَ القوَّةِ ، فعاد موتُكِ لى نصفِ الضَّعفِ ؛ وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتِكَ همومًا فى صُورِها المخفَّقةِ ، فستأتينى بعد اليومِ فى صُورِها المضاعفةِ ؟ وكان وجودُكِ معي حجابًا بيني وبين مَشَقَّاتٍ كثيرةٍ ، فستخلصُ كلُّ هذه المَشَاقِّ إلى نفسى ؛ وكانت الأيامُ تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ رقتُكِ وحَنانُكِ ، فستأتينى أكثرَ ما أتاني مُتَجَرِّدةً فى قَسوتِها وغِلظَتِها . أمّا إني -والله- لم أرزأ منك فى امرأةٍ كالنساءِ ، ولكنى رزئتُ فى المخلوقةِ الكريمةِ التى أحسستُ معها أن الخليفةَ كانت تتلطَّفُ بي من أجلِها !

قال أبو خالد : ثم استَدَمَعَ الشيخُ ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمَ بما يعزى الناسُ بعضهم بعضًا ، وأحفظَ لما وَرَدَ فى ذلك ؛ غيرَ أن للكلامِ ساعاتٌ تَبْطُلُ فيها معانيه أو تَضَعُفُ ، إذ تكونُ النفسُ مُسْتَغْرِقَةً الهم فى معنى واحدٍ قد انحصرتُ فيه ، إما من هَوَلِ الموتِ ، أو حبِ وقع فيه من الهَوَلِ ظلُّ الموتِ ، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُّ الحبِّ ، أو لَاجِاجَةٍ وقع فيها ظلُّ الرِّبَّةِ . فكنتُ أجدُّه وأعزِّيهِ ، وهو بعيدٌ من حديثي وتعزيتي ؛ حتى انتهينا إلى الدار فدخلنا وما فيها أحدٌ ؛ فنظرَ يمينًا ويسرةً ، وقلَّبَ عينيه ههنا وههنا ، وحوَّقلَ واسترجَعَ ، ثم قال : الآن ماتت الدارُ أيضًا يا أبا خالد ! إن البناءَ كأنما يحيا بروحِ المرأةِ التى تتحركُ فى داخله ؛ وما دام هو الذى يحفظُها للرجلِ ، فهو فى عينِ الرجلِ كالمُطَرَّفِ^(١) تلبسه فوق ثيابها من فوقِ جسمِها :

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة فى دارها ، وهو المسمى (الروب) .

وانظر كم بين أن ترى عينك ثوب امرأة في يد الدلال في السوق ، وبين أن تراه عينك يلبسها وتلبسه ! ولكنك يا أبا خالد لا تفقه من هذا شيئاً ، فأنت رجل آليت لا تقرب النساء ولا يقربنك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله ؛ وكأن كل نساء الأرض قد شاركن في ولادتك فحرم من عليك ! وهذا مالا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لا تفهم أنت ما أجد الساعة إلا ألفاظاً ؛ وشتان بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلف .

فقلت له : يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطرحت أثقالك وانبتت أسبابك من النساء — أن تعيش خفيف الظهر ، وتفرغ للنسك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسما انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ؛ فإنه يقال : إن المرأة ولو كانت صالحة قانصة — فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دار من الطوب والحجارة لكانت امرأته كوة يقتحم الشيطان منها . ولقد كان آدم في الجنة ، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلق روح الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بجواء ، وتتعلق هي بآدم ؛ ومكر الشيطان فصورها لهما في صيغة مسألة علمية ، ومكرت حواء فوضعت فيها جاذبية اللحم والدم ، فلم تعد مسألة علم ومعرفة ، بل مسألة طبع وإحاجة . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما .

وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصيب الحياة وهموما ، وشهواتها ومطامعها ، ومضارها ومعاييبها — في معنى « بدت لهما سوءاتهما » . . . ؟

كيلانا يا أبا ربيعة ممن لهم ستر بالباطن في هذا الوجود غير السير بالظاهر ، ومن لهم حركة بالفكر غير الحركة بالجسم ، فقبيح بنا أن نتعلق أدنى متعلقت بنواميس هذا الكون اللحمي الذي يسمى المرأة ، فهو تدل وإسفاف منا .

ولعلك تقول : « النسئل وتكثير الآدمية » فهذا إنما كتبت على إنسان الجوارح والأعضاء ، أما إنسان القلب فله معناه وحكم معناه ؛ إذ يعيش بباطنه ، فيعيش ظاهره في قوانين هذا الباطن ، لافى قوانين ظاهر الناس . وإنه لشر

كل ما نَقَلْتُكَ إِلَى طَبْعِ أَهْلِ الْجَوَارِحِ وَشَهَوَاتِهِمْ ، فَزَيْنَ لَكَ مَا يُزَيْنُ لَهُمْ ،
وَشَغَلَتْكَ بِمَا يَشْغَلُهُمْ ؛ فَهَذَا عِنْدَنَا — بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ — بَابٌ كَأَنَّهُ مِنْ أَبْوَابِ
الْمَجُونِ الَّذِي يَنْقُلُ الرَّجُلَ إِلَى طَبْعِ الصَّبِيِّ .

فَاطِمِسْ يَا أَخِي عَلَى مَوْضِعِهَا مِنْ قَلْبِكَ ، وَأَلْقِ النُّورَ عَلَى ظِلِّهَا ؛ فَالنُّورُ فِي
قَلْبِ الْعَابِدِ نُورُ التَّحْوِيلِ إِنْ شَاءَ ، وَنُورُ الرُّؤْيَا إِنْ شَاءَ ؛ يَرَى بِهِ الْمَادَّةَ كَمَا
يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَا كَمَا تَكُونُ . وَأَنْتَ قَدْ كَانَتْ فِيكَ امْرَأَةٌ ، فَحَوَّلْهَا صَلَاةً ،
وَأَعْمَلْ بِنُورِكَ عَكْسَ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَوَارِحِ بِظُلَامِهِمْ ، فَقَدْ تَكُونُ فِي أَحَدِهِمْ
الْصَّلَاةُ فَيُحَوِّلُهَا امْرَأَةً . . .

قَالَ أَبُو رَبِيعَةَ : تَاللَّهِ إِنَّهُ لَرَأْيٌ ؛ وَالْوَحْدَةُ بَعْدَ الْآنِ أَرْوَحُ لِقَلْبِي ، وَأَجْمَعُ
لَهْمِي ؛ وَقَدْ خَلَعَنِي اللَّهُ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَأَخَذَ الْقَبْرُ امْرَأَتِي وَشَهَوَاتِي مَعًا ،
فَسَأَعِيشُ مَا بَقِيَ لِي فِيهَا بَقِيَ مِنِّي . وَزَوَالَ شَيْءٌ فِي النَّفْسِ هُوَ وَجُودُ شَيْءٍ
آخَرَ . وَلَقَدْ انْتَهَيْتُ بِالْمَرْأَةِ وَمَعَانِيهَا وَأَيَامِهَا إِلَى الْقَبْرِ ، فَالْبَسَدُ الْآنَ مِنَ الْقَبْرِ
وَمَعَانِيهِ وَأَيَامِهِ .

* * *

وَتَوَاقَّفْنَا عَلَى أَنْ يَسِيرَا مَعًا فِي (بَاطِنِ) الْوُجُودِ . . . ! وَأَنْ يَعِيشَا فِي عُمُرٍ
هُوَ سَاعَةٌ مُعَدودةٌ اللَّحَظَاتِ ، وَحَيَاةٌ هِيَ فِكْرَةٌ مُرْسُومَةٌ مُصَوَّرَةٌ .
قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَرَأَيْتُ أَنْ أُبَيِّتَ عِنْدَهُ وَفَاءً بِحَقِّ خِدْمَتِهِ ، وَدَفَعًا لِلْوَحْشَةِ
أَنْ تُعَاوَدَهُ فَتَدْخُلَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَفْكَارِهَا وَوَسَاوِسِهَا . وَكَانَ قَدْ غَمَرَنَا تَعَبٌ
يَوْمِنَا ، وَأَعْيَا أَبُو رَبِيعَةَ ، وَخَذَلَتْهُ الْقُوَّةُ ؛ فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعِشَاءَ قُلْتُ : يَا أَبَا رَبِيعَةَ ،
أَحَبُّ لَكَ أَنْ تَتَنَعَّسَ فَتُرِيحَ نَفْسَكَ لِيَذْهَبَ مَا بَكَ ، فَإِذَا اسْتَجْمَمْتَ
أَيَقْظَتْكَ فِقْمُنَا سَائِرَ اللَّيْلِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ اضْطَجَعَ حَتَّى غَلَبَهُ النَّعَاسُ . وَجَلَسْتُ أَفْكَرُ فِي حَالِهِ وَمَا كَانَ
عَلَيْهِ وَمَا اجْتَهَدْتُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَعَلَّتِي أَغْرَيْتُهُ بِمَا لَا قِبَلَ لَهُ
بِهِ ، وَأَشْرْتُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ ، فَأَكُونُ قَدْ غَشَّيْتُهُ . وَخَامَرَنِي
الشُّكُّ فِي حَالِي أَنَا أَيْضًا ، وَجَعَلْتُ أَقَابِلُ بَيْنَ الرَّجُلِ مَتَزَوِّجًا عَابِدًا ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ
عَابِدًا لَمْ يَتَزَوَّجْ ؛ وَأَنْظُرُ فِي ارْتِيَاضِ أَحَدِهِمَا بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ ، وَارْتِيَاضِ

الآخر بنفسه وحدها ؛ وأخذتُ أذهبُ وأجىء من فكر إلى فكر ، وقد هَذَا كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَ كَأَنَّ الْمَكَانَ قَدْ نَامَ ، فَلَمْ أَلْبِثُ حَتَّى أَخَذَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَأَسْتَقْتَلْتُ كَأَنَّمَا شُدُّ دَنْتُ شَدًّا بِجِبَالٍ مِنَ النَّوْمِ لَمْ يَجِءْ مِنْ يَقْطَعُهَا .

ورأيتُ في نومي كأنها القيامةُ وقد بُعِثَ النَّاسُ ، وضاقَ بهمَ المَحْشَرُ ، وأنا في جُمْلَةِ الْخَلَائِقِ ، وكأننا من الضَّغْطَةِ حَبِّ مَبْشُوثٍ بَيْنَ حَجَرَيْنِ الرَّحَى . هذا والموقفُ يَغْلِي بَنَاءَ غَلِيَّانِ الْقِدْرِ بِمَا فِيهَا ، وَقَدْ اشْتَدَّ الْكَرْبُ وَجَهْدَنَا الْعَطَشُ ، حَتَّى مَا مَنَّا ذَوْ كَيْدٍ إِلَّا وَكَأَنَّ الْجَحِيمَ تَنْتَفَسُ عَلَى كَبِدِهِ ، فَمَا هُوَ الْعَطَشُ بَلْ هُوَ السَّعَارُ وَاللَّهَبُ يَحْتَدِمُ بِهِمَا الْجَوْفُ وَيَتَأَجَّجُ .

فنحن كذلك إذا وَلِدْنَا أَنْ يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ الْحَاشِدَ ، عَلَيْهِمْ مَنَادِيلُ مِنْ نَوْرٍ ، وبأيديهم أباريقُ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ مِنْ ذَهَبٍ ، يَمْلِئُونَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ بِسَلْسَالٍ بِرُودٍ عَذْبٍ ، رُؤْيَاهُ عَطَشٌ مَعَ الْعَطَشِ ، حَتَّى لِيَتَلَوَّى مَنْ رَأَاهُ مِنَ الْأَلَمِ ، وَيَتَلَعَّلُ كَأَنَّمَا كُوِيَ بِهِ عَلَى أَحْشَانِهِ .

وجعل الولدُ أَنْ يَسْقُونَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ وَيَتَجَاوِزُونَ مَنْ بَيْنَهُمَا ، وَهُمْ كَثْرَةٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَكَأَنَّمَا يَتَخَلَّلُونَ الْجَمْعَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَنْاسٍ بِأَعْيَانِهِمْ ، يَنْضَحُونَ غَلِيلَ أَكْبَادِهِمْ بِمَا فِي تِلْكَ الْأَبَارِيقِ مِنْ رَوْحِ الْجَنَّةِ وَمَائِهَا وَنَسِيمِهَا . وَمَرَّ بِي أَحَدُهُمْ ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدِي وَقُلْتُ : « اسْقِنِي فَقَدْ يَبِسْتُ وَاحْتَرَقْتُ مِنَ الْعَطَشِ ! »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « أبو خالد الأحوال الزاهد . . . »

قال : « أَلَيْكَ فِي أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَدٌ افْتَرَطَتْهُ صَغِيرًا فَاحْتَسِبَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « أَلَيْكَ وَلَدٌ كَبِيرٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « أَلَيْكَ وَلَدٌ نَالَتْكَ مِنْهُ دَعْوَةٌ صَالِحَةٌ جَزَاءَ حَقِّكَ عَلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ إِلَى الدُّنْيَا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « ألك ولدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبت في تقويمه ، وقُمتَ بحق الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمك الله ، إنى كلما قلتُ ” لا “ أحسستُ ” لا “ هذه تمرُّ على لساني كالمِكْواةِ الحامية . . . »

قال : « فنحن لانسقى إلا آباءنا ؛ تَعَبُوا لنا في الدنيا ، فاليومَ نتعبُ لهم في الآخرة ، وقدّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمةُ الحسنةِ والسيئةِ . وليس هنا بعد ألسنةِ الأنبياء أشدُّ طلاقةً من ألسنةِ الأطفال ، فما للطفل معنى من معاني آثامِكُم يَحْتَبِيسُ فيه لسانه أويلَجِدُجُ به . »

قال أبو خالد : فجُنُّ جنونى ، وجعلتُ أبحثُ في نفسى عن لفظةِ « ابن » فكأنما مُسِحَتْ الكلمةُ من حفظى كما مُسِحَتْ من وجودى ؛ وذكرتُ صلاتى وصيامى وعبادتى ، فما خطرْتُ في قلبى حتى ضحك الوليدُ ضحكاً وحدثُ في معناه بكائى ونَدَمى وخيبتى .

وقال : يا ويلك ! أما سمعتَ : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاةُ ولا الصيامُ ، ويكفرها الغمُّ بالعيال » . أتعرفُ من أنا يا أبا خالد ؟
قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابنُ ذاك الرجل الفقير المُعِيلِ ، الذى قال لشيخك إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد : « طوبى لك ! فقد تفرَّغتَ للعبادة بالعزوبة » . فقال له إبراهيم : « لَرَوْعةٌ تنالُكَ بسببِ العيال أفضلُ من جميع ما أنا فيه . . . » ، وقد جاهدَ أبى جهادَ قلبه وعقله وبدنه ، وَحَمَلَ على نفسه من مقاساةِ الأهلِ والولدِ حَمَلَهَا الإنسانى العظيم ، وفكَّرَ لغير نفسه ، واغتمَّ لغير نفسه ، وعَمِلَ لغير نفسه ، وآمن وصَبِرَ ، ووثقَ بولايةِ الله حين تزوَّجَ فقيراً ، وبِضْمانِ الله حين أعقِبَ فقيراً ؛ فهو مُجاهِدٌ فى سُبُل كثيرة لا فى سبيل واحدة كما يُجاهد الغزاة ؛ هؤلاء يستشهدون مرة واحدة ، أما هو فيستشهد كل يوم مرة فى همومه بنا ، واليومَ يرحمه الله بفضلِ رحمتهِ إيانا فى الدنيا .

أما بَلَّغْتَكَ قولُ ابنِ المبارك وهو مع إخوانه فى الغزو : « أتعلمون عملاً وحى القلم - أول

أفضلَ مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نَعْلَمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال : رجل مُتَعَقِّفٌ على فقره ، ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر إلى صبيانه نياماً مُتَكَشِّفِينَ ، فسترهم وغطاهم بثوبه ؛ فَعَمَلُهُ أفضلُ مما نحن فيه . . . »

يخلع الأبُ المسكينُ ثوبه على صبيته لِيُدْفِثَهُمْ به ويتلقَى بجلد البردِ في الليل ، إن هذا البرد - يا أبا خالد - تحفظه له الجنة هنا في حرِّ هذا الموقف . كأنها مؤتمنةٌ عليه إلى أن تُؤدِّيَه . وإن ذلك الدفء الذي شمل أولاده يا أبا خالد - هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين .

قال أبو خالد : ويَهُمُّ الوليدُ أن يمضَى ويدَعَى ، فما أملكُ نفسي ، فأمدُ يدي إلى الإبريق فأنشِطُهُ من يده ، فإذا هو يتحوّل إلى عظم ضَخْمٍ قد نَشِبَ في كَفِّي وما يليها من أسلّة الذراع^(١) . فغابت فيه أصابعي ، فلا أصابع لي ولا كف . وأبى الإبريقُ أن يسقيني وصار مُشَلَّةً بي ، وتجسّدت هذه الجريمةُ لتشهدَ عليّ ، فأخذني الهولُ والفرع ، وجاء إبريقٌ من الهواء ، فوقع في يد الوليد ، فركنني ومضى .

وقلت لنفسي : ويحك يا أبا خالد ! ما أراك إلا مُحَاسِبًا على حسناتك كما يُحَاسِبُ المذنبون على سيئاتهم ، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله ! وبلغتني الصبيحةُ الرهيبة : أين أبو خالد الأحولُ الزاهدُ العابد ؟ قلت : هأنذا .

قيل : طأووسٌ من طواويس الجنة قد حُصَّ^(٢) ذَيْلُهُ فضاغ أحسنُ ما فيه ! أين ذَيْلُكَ من أولادك ، وأين محاسنُك فيهم ؟ أخلِقت لك المرأةُ لتجنّبها ، وجعلت نسلَ أبويك لتتبرأ أنت من النسل ؟

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا أن هربت منها ، وانهزمت عن ملاقاتها ؛ ثم تأملُ جائزة النصر على هزيمة . . . !

(١) الأسلة : ما يل الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها . فالأسلة هي العظمة التي تشد عليها ساعة اليد .

(٢) حصّ ذيله : قطع وجذ .

عَمِلْتَ الْفَضِيلَةَ فِي نَفْسِكَ وَنَشَأْتَكَ ، وَلَكِنَّهَا عَقَمَتْ فَلَمْ تَعْمَلْ بِكَ . لَكَ أَلْفُ أَلْفِ رَكْعَةٍ وَمِثْلُهَا سَجَدَاتٌ مِنَ النَّوَافِلِ ، وَلَسَخِيَرٌ مِنْهَا كُلُّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ خَرَجْتَ مِنْ صُلْبِكَ أَعْضَاءُ تُرْكَعُ وَتَسْجُدُ .

قَتَلْتَ رَجُلَةً ، وَوَأَدَّتْ فِيهَا النَّسْلَ ، وَلَبِثَتْ طَوَالَ عَمْرِكَ وَلِدًا كَبِيرًا لَمْ تَبْلُغْ رَتْبَةَ الْأَبِ ! فَلَنْ أَقِمْتَ الشَّرِيعَةَ ، لَقَدْ عَطَلْتَ الْحَقِيقَةَ ، وَلَنْ . . .
قال أبو خالد : وَوَقَعْتُ غُنَّةَ النَّوْنِ الثَّانِيَةِ فِي مِسْمَعِي مِنْ هَوْلٍ مَا خَفْتُ مِمَّا بَعْدَهَا كَالنَّفْخِ فِي الصُّورِ ؛ فَطَارَ نَوِيٌّ وَقَمْتُ فَرَزَعًا مَشْتَتَ الْقَلْبِ ، كَمَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ غَشْيَةٍ ، فَرَأَى نَفْسَهُ فِي كَفَنٍ فِي قَبْرِ سُدٍّ عَلَيْهِ . . . !

وَمَا كَدْتُ أَعْيٍ وَأَنْظُرُ حَوْلِي وَقَدْ بَرَقَ الصَّبِيحُ فِي الدَّارِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا رَبِيعَةَ يَتَقَلَّبُ كَأَنَّمَا دَحْرَجْتُهُ يَدٌ ، ثُمَّ نَهَضَ مُسْتَطَارَ الْقَلْبِ مِنْ فَرَزَعِهِ وَقَالَ أَهْلَكْتَنِي يَا أَبَا خَالِدَ ، أَهْلَكْتَنِي وَاللَّهِ .

* * *

قلت : مَا بِالْك يَرْحِمُكَ اللَّهُ !

قال : إِنِّي نَمْتُ عَلَى تِلْكَ النِّيَّةِ الَّتِي عَرَفْتَ أَنَّ أَجْمَعَ قَلْبِي لِلْعِبَادَةِ ، وَأَخْلَصَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَالْوَلَدِ ، وَمِنَ الْمَعَانَةِ لَهَا فِي مَرَمَّةِ الْمَعَاشِ وَالتَّالْفِيقِ بَيْنَ رَغِيفٍ وَرَغِيفٍ ، وَأَنْ أُعْغِي نَفْسِي مِنْ لَأْوَائِهِمْ وَضُرَائِهِمْ وَبَلَائِهِمْ ، لِأَفْرَغَ إِلَى اللَّهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ . وَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَخَيِّرَ لِي فِي نَوِيٍّ ؛ فَارَأَيْتُ كَأَنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ قَدْ فُتِحَتْ ، وَكَأَنَّ رِجَالًا يَنْزِلُونَ وَيَسِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، أَجْنَحَةٌ وَرَاءَ أَجْنَحَةٍ ؛ فَكَلِمَا نَزَلَ وَاحِدٌ نَظَرَ إِلَى وَقَالَ لِمَنْ وَرَاءَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْتُومُ !

فيقول الآخر : نَعَمْ هُوَ الْمَشْتُومُ !

وَيَنْظُرُ هَذَا الْآخَرُ إِلَى ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِمَنْ وَرَاءَهُ وَيَقُولُ لَهُ : هَذَا هُوَ الْمَشْتُومُ !

فيقول الآخر : نَعَمْ هُوَ الْمَشْتُومُ !

وَمَا زَالَتْ « الْمَشْتُومُ ، الْمَشْتُومُ » حَتَّى مَرُّوا ؛ لَا يَقُولُونَ غَيْرَهَا وَلَا أَسْمَعَ غَيْرَهَا ، وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَخَافُ أَنْ أَسْأَلَهُمْ ، هَيْبَةُ مِنَ الشُّؤْمِ ، وَرَجَاءُ أَنْ يَكُونَ الْمَشْتُومُ إِنْسَانًا وَرَأْيِي يَبْصُرُونَهُ وَلَا أَبْصُرُهُ . ثُمَّ مَرَّ بِي آخِرُهُمْ ، وَكَانَ غَلَامًا . فَقُلْتُ لَهُ : يَا هَذَا ، مَنْ هُوَ الْمَشْتُومُ الَّذِي تُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ ؟

قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك
وتخزنت على ما فاتك من القيام بحققها ، فرفعنا عملك درجة أخرى ؛ ثم أمرنا
الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجببنا !

* * *

إن سُمُو الرجل بنَفْسِهِ عن الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ طَيْرَانٌ إلى الأعلى . .
ولكنه طَيْرَانٌ على أَجْنَحَةِ الشَّيَاطِينِ !
طَيْرَانٌ بالرجلِ إلى فُوهَةِ البُرْكَانِ الَّذِي في الأعلى . . !

* * *

بنته الصغيرة

١

فرغ أبو يحيى مالك بن دينار ، زاهد البصرة وعالمها ، من كتابة المصحف ؛ وكان يكتب المصاحف للناس ، ويعيش مما يأخذ من أجره كتابته ؛ تغفلاً أن يقطعوا إلا من كسب يده - ثم خرج من داره وجهه المسجد ، فأتاه فصلى بالناس صلاة العصر ، وجلسوا ينتظرونه ، واستوى هو قائماً ، فرجع وسجد ما شاء الله حتى قضى نافلته ، ثم انفتل من صلاته فقام إلى أسطوانته^(١) التي يستند إليها ، وتحلق الناس حوله جموعاً خلف جموع خلف جموع ، يذهب فيهم البصر مرةً هنا ومرةً هنا من كثرتهم وامتدادهم ، حتى تغطى بهم المسجد على رُحبه . ومدَّ الإمام عينه فيهم ثم أطرق إطرقةً طويلة ، والناس كأن عليهم الطير مما سكنوا لهيبته ، ومما عجبوا لخشوعه ؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تددت عيناه ، فما نظَّر إليهم حتى كأنما اطلع على أرواحهم فجر رطب من سحر ذلك الندى .

وبدَّر شاب حدث فسأله : ما بكاء الشيخ ؟ وكان قريباً يجلس من الإمام في سميت بصره^(٢) ، فتأمله الشيخ طويلاً يقلب فيه الطرف بالمتعجب ، ولبيث لا يجيبه كأنما عقد لسانه أو أخذته من نفسه حال ، فما يُشبت شيئاً مما يرى .

وازداد الناس عجباً ؛ فما جرَّبوا على الشيخ من قبلها حصراً ولا عيباً ، ولا قطعه سؤال قط ، ولا تخلف عن جواب ؛ وقالوا إن له لشأناً ، وما بُدُّ أن تكون من وراء حُبسته شعاب في نفسه تهمد ريسيلها وتعلج ؛ فما أسرع ما يلتقي السيل ، فيجتمع ، فيصوب إلى مجراه ، فيتآذف .

وتبسم الإمام وقال : أما إني قد ذكرتُ ذِكْرِي فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا

(١) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد ، وهي أعمدته ، كما كان بالأزهر إلى عهد قريب .

(٢) أى أمامه في الخط الذي يمتد فيه البصر .

فَبَسَمْتُ لَهَا ؛ أَمَا الذَّكْرَى ، فَهَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ الَّذِي يَفْهَقُ بِهَذَا الْحَشْدِ الْعَظِيمِ ، وَتَقَعُ فِيهِ الْمَدِينَةُ لِكُلِّ أَذَانٍ وَتَطِيرُ — هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ خَلَا قَطًّا مِنَ النَّاسِ وَقَدْ وَجِبَتْ الْفَرِيضَةُ ؟ قَالُوا : مَا نَعْلَمُهُ .

قال : فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلَّتْ فِي مَوْتِ الْحَسَنِ (١) ، فَقَدِمَتِ عَشِيَّةَ الْخَمِيسِ ، وَأَصْبَحْنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَفَرَعْنَا مِنْ أَمْرِهِ ، وَحَمَلْنَاهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَتَبَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ كُلُّهُمْ جَنَازَتَهُ وَاشْتَغَلُوا بِهِ ، فَلَمْ نَقْمِ صَلَاةَ الْعَصْرِ بِهَذَا الْمَسْجِدِ ، وَمَا تَرَكْتُ مِنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ ؛ وَمِثْلَ الْحَسَنِ لَا تَمُوتُ سَاعَةً مَوْتَهُ مِنْ عُمْرٍ مَنْ شَهِدَهَا ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَجِيبٌ قَدْ لَفَّ نَهَارُهُ الْبَصْرَةَ كُلَّهَا فِي كَتْفَيْنِ أَبْيَضٍ ، فَمَا بَقِيَتْ فِي نَفْسِ رَجُلٍ وَلَا امْرَأَةٍ شَهْوَةٌ إِلَى الدُّنْيَا ، وَفَرَّغَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَاطِلِهِ ، كَمَا يَفْرُغُ مَنْ يَقْنُ أَنْ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبْرِهِ إِلَّا سَاعَةٌ ؛ وَظَهَرَ لَهُمُ الْمَوْتُ فِي حَقِيقَةِ جَدِيدَةٍ بِاللُّغَةِ الرَّوْعُ لَا يَرَاهَا الْأَبْنَاءُ فِي مَوْتِ آبَائِهِمْ وَأُمَمَاتِهِمْ ، وَلَا الْآبَاءُ وَالْأُمَمَاتُ فِي مَوْتِ مَنْ وَلَدُوا ، وَلَا الْمَحَبُّ فِي مَوْتِ حَبِيبِهِ ، وَلَا الْحَمِيمُ فِي مَوْتِ حَمِيمِهِ ؛ فَإِنَّ الْجَمِيعَ فَقَدُوا الْوَاحِدَ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ فِي الْجَمِيعِ ؛ وَكَمَا يَمُوتُ الْعَزِيزُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ فَيَكُونُ الْمَوْتُ وَاحِدًا وَتَتَعَدَّدُ فِيهِمْ مَعَانِيهِ ، كَذَلِكَ كَانَ مَوْتُ الْحَسَنِ مَوْتًا بَعْدَ دَرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ !

ذَاكَ يَوْمٌ أَمَدَّ فِيهِ الْمَوْتُ وَكَبَّرَ ، وَأَنْكَمَشَتْ فِيهِ الْحَيَاةُ وَصَغُرَتْ ، وَتَحَاقَرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، حَتَّى رَجَعَتْ بِمَقْدَارِ هَذِهِ الْحُفْرَةِ الَّتِي يُلْقَى فِيهَا الْمُلُوكُ وَالصُّعَالِيكُ وَالْأَخْلَاطُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ ، لَا يَصْغُرُ عَنْهَا الصَّغِيرُ ، وَلَا يَكْبُرُ عَنْهَا الْكَبِيرُ ؛ لَا بَلْ دُونَ ذَلِكَ ، حَتَّى رَجَعَتْ الدُّنْيَا عَلَى قَدَرِ جِيفَةِ حَيَوَانَ بِالْعَرَاءِ ، تَنْكَشِفُ لِلْأَبْصَارِ عَنْ شَوْهَاءِ نَجَسَةٍ قَدْ أَرَمَتْ (٢) لَا تُطَاقُ عَلَى النَّظَرِ ، وَلَا عَلَى الشَّمِّ ، وَلَا عَلَى اللَّمَسِ ؛ وَمَا تَنْفَجِرُ إِلَّا عَنْ آفَةٍ ، وَمَا تَنْفَجِرُ إِلَّا لِهَوَامِ الْأَرْضِ .

تِلْكَ هِيَ الذَّكْرَى ، وَأَمَّا الرُّؤْيَا فَقَدْ طَالَعَتْنِي نَفْسِي مِنْ وَجْهِ هَذَا الْفَتَى ، فَأَبْصَرْتُنِي حِينَ كُنْتُ مِثْلَهُ يَافِعًا مُتَرَعِّرِعًا دَاخِلًا فِي عَصْرِ شَبَابِي ، فَكَأَنَّمَا

(١) هُوَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ الْإِمَامُ الْعَظِيمُ ، وَسَيَأْتِي وَصْفُهُ ، وَلَدَ سَنَةَ ١٥ هِجْرَةَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١١٠ هِجْرَةَ ، وَقَدْ تَوَفَّى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ شَيْخُ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سَنَةِ ١٣١ هِجْرَةَ ، فَيَكُونُ تَارِيخُ الْقِصَّةِ فِي سَنَةِ ١٣٠ هِجْرَةَ .

(٢) أَرَمَتْ : بَدَأَتْ تَتَعَفَّنُ وَتَبْلَى .

انتهت عني من هذه النفس على فاتك خبيث كان في جنائياته في أغلاله في سجنه ،
ومات طويلاً ثم بُعِثَ !

إني مُخْبِرُكُمْ عني بما لم تُحيطوا به ، فأرْعَوْه أَسْمَاعَكُمْ ، وأُحْضِرْوه أَفْهَامَكُمْ ،
واستجمعوا له ، فإنه كان غَيْبَ شَيْخِكُمْ ، وأنا محدُّثُكُمْ به كيلاً ييأسَ ضَعِيفٌ ،
ولا يَقْنَطُ يَائِسٌ ، فإن رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

* * *

لقد كنتُ في صدرِ أياي شُرْطِيًّا ، وكنتُ في آئِفَةِ الْحَدَاثَةِ مِنْ قَبْلِهَا
أَتَفَقَّيْتُ وَأَتَشَطَّرْتُ ، وكنتُ قويًّا معصوباً في مثل جِبِلَّةِ الْجَبَلِ مِنْ غِلَظِ
وَشِدَّةِ ، وكنتُ قاسياً كأن في أضلاعي جَسَدُ لَافٍ ، فلا أَتَذَمُّ ولا أَتَأْنَمُ ؛
وكنتُ مُدْمِناً على الخمر ، لأنها رُوحَانِيَّةٌ مِنْ عَجَزَانِ تَكُونُ فِيهِ رُوحَانِيَّةٌ ، وكانها
إِلَهِيَّةٌ يَزُورُهَا الشَّيْطَانُ — لعنه الله — فَيَخْلُقُ بِهَا لِلنَّفْسِ مَا تَحِبُّ مَا تَكْرَهُ ، وَيَشِيْهَا
ثَوَابَ سَاعَةٍ لَيْسَتْ فِي الزَّمَنِ بَلْ فِي خِيَالِ شَارِبِهَا . وكأن جَهْلَ الْعَقْلِ نَفْسُهُ فِي بَعْضِ
سَاعَاتِ الْحَيَاةِ ، هُوَ — فِي عِلْمِ الشَّيْطَانِ وَتَعْلِيمِهِ — مَعْرِفَةُ الْعَقْلِ نَفْسُهُ فِي الْحَيَاةِ !

فبينما أنا ذاتَ يومٍ أَجُولُ في السُّوقِ ، والنَّاسُ يُتَقَوُّونَ فِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ ،
وأنا أَرْقُبُ السَّارِقَ ، وَأَعِدُّ لِلْجَانِي ، وَأَتَهَيَّاءُ لِلنِّزَاعِ — إِذْ رَأَيْتُ اثْنَيْنِ يَسْتَلَاحِيَانِ ،
وَقَدْ لَبَّبَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ؛ فَأَخَذْتُ إِلَيْهِمَا ، فَسَمِعْتُ الْمَظْلُومَ يَقُولُ لِلظَّالِمِ :
لَقَدْ سَلَبْتَنِي فَرَحَ بُنَيَّائِي ، فَسِيدُ عَوْنِ اللَّهِ عَلَيْكَ فَلَا تَصِيبُ مِنْ بَعْدِهَا
خَيْرًا ، فَإِنِّي مَا خَرَجْتُ إِلَّا اتِّبَاعًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :
« خَرَجْ إِلَى سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، فَاشْتَرِ شَيْئًا ، فَحْمَلْهُ إِلَى بَيْتِهِ ، فَخَصَّصْ
بِهِ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَورِ ؛ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ » .

قال الشيخ : وكنتُ عزباً لازوجةَ لي ، ولكنَّ الْآدَمِيَّةَ انْتَهَتْ فِيَّ ،
وَطَمَعْتُ فِي دَعْوَةِ صَالِحَةٍ مِنَ الْبُنَيَّاتِ الْمُسْكِينَاتِ ، إِذَا أَنَا فَرَحْتُهِنَّ ؛
وَدَخَلْتَنِي لهن رَقَّةٌ شَدِيدَةٌ ، فَأَخَذْتُ لِلرَّجُلِ مِنْ غَرِيمِهِ حَتَّى رَضِيَ ، وَأَضْعَفْتُ
لَهُ مِنْ ذَاتِ يَدِي لِأَزِيدَ فِي فَرَحِ بَنَاتِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ وَهُوَ يَنْصَرِفُ : عَهْدٌ بِحَاسِبُكَ
اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَبِاسْتَوْفِيهِ لِي مِنْكَ ، أَنْ تَجْعَلَ بَنَاتِكَ يَدْعُونَ لِي إِذَا رَأَيْتَ فَرَحَهُنَّ

بما تحمل إليهنَّ ، وقل لمن : مالك بن دينار .

وَبِتُّ لِيَتِي أَنْتَقَلَّبَ مَفْكَرًا فِي قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَمَعَانِيهِ الْكَثِيرَةِ ، وَحُثِّي عَلَى إِكْرَامِ الْبَنَاتِ ، وَأَنْ مَنِ أَكْرَمَ بَنَاتِهِ كَرَّمَ عَلَى اللَّهِ ، وَحِرْصُهُ أَنْ يَنْشَأَ كَرِيمَاتٌ فَرِحَاتٌ ؛ وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثُ لِيَتِي تِلْكَ إِلَى الصَّبْحِ ، وَفَكَرْتُ حِينَئِذٍ فِي الزَّوْجِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَزُوجُونَنِي مِنْ طَيِّبَاتِهِمْ مَا دُمْتُ مِنَ الْخَبِيثِينَ ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى سُوقِ الْجَوَارِي ، فَاشْتَرَيْتُ جَارِيَةً نَفِيسَةً ، وَوَقَعْتُ مِنِّي أَحْسَنَ مَوْقِعٍ ، وَوَلَدَتْ لِي بِنْتًا فَشَغِفْتُ بِهَا ، وَظَهَرَتْ لِي فِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ فِيَّ ، فَرَأَيْتُ بَعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ صَوْرَتِي الْأُولَى ؛ وَرَأَيْتُهَا سَاهَوِيَّةً لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَتَمْلِكُ أَبَاهَا وَأُمُّهَا ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا شَبَعٌ بَطْنُهَا وَمَا أَيْسَرَهُ ، ثُمَّ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ سُرُورٌ نَفْسُهَا كَامِلًا تَشْتَبُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَا تَشْتَبُ عَلَى الرَّضَاعِ ؛ فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي تَكْتَنِفُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ يَمْلِكُ بِهَا دُنْيَا نَفْسِهِ ، فَمَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَقْوَتَهُ دُنْيَا غَيْرِهِ ؛ وَأَنَّ الَّذِي يَجِدُ طَهَارَةَ قَلْبِهِ يَجِدُ سُرُورَ قَلْبِهِ وَتَكُونُ نَفْسُهُ دَائِمًا جَدِيدَةً عَلَى الدُّنْيَا ؛ وَأَنَّ الَّذِي يَحْيَا بِالثَّقَةِ تُحْسِنُهُ الثَّقَةُ ؛ وَالَّذِي لَا يَبَالِي بِالْهَمِّ لَا يَبَالِي بِالْهَمِّ ؛ وَأَنَّ زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا وَغُرُورَهَا وَمَا تَجْلِبُ مِنَ الْهَمِّ — كُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِغَرِ الْعَقْلِ فِي الْإِيمَانِ حِينَ يَكْبُرُ الْعَقْلُ فِي الْعِلْمِ !

كَانَتِ الْبَنِيَّةُ بَدَأَ حَيَاةً فِي بَيْتِي وَبَدَأَ حَيَاةً فِي نَفْسِي ، فَلَمَّا دَبَّتْ عَلَى الْأَرْضِ أَزْدَدْتُ لَهَا حُبًّا ، وَأَلْفَنِي وَأَلْفَتُنِي ، فَرَزَقَتْ رُوحِي مِنْهَا أَطْهَرَ صَدَاقَةٍ فِي صَدِيقٍ ، تَتَجَدَّدُ لِلْقَلْبِ كُلِّ يَوْمٍ ، بَلْ كُلِّ سَاعَةٍ ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِحْضِ سُرُورِ الْقَلْبِ دُونَ مَطَامِعِهِ ، فَتُصَدِّدُهُ بِالْحَيَاةِ نَفْسُهَا بِأَشْيَاءِ الْحَيَاةِ ، فَلَا تَزِيدُ الْأَشْيَاءَ فِي الْحُبِّ وَلَا تَنْقُصُ مِنْهَا ، عَلَى خِلَافِ مَا يَكُونُ فِي الْأَصْدِقَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى الْمَضَرَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ .

* * *

قَالَ الشَّيْخُ : وَجَهَدْتُ أَنْ أَتْرَكَ الْخَمْرَ فَلَمْ يَأْتِ لِي وَلَمْ أَسْتَطِعْ ؛ إِذْ كُنْتُ مِنْهُمْ كَأَنَّ عَلَى شَرْبِهَا ، وَلَكِنْ حَبَّ ابْنَتِي وَضَعْتُ فِي الْخَمْرِ لِأَمِّهَا الَّذِي وَضَعْتُهُ فِيهَا الشَّرِيعَةَ ، فَكُرِهَتْهَا كُرْهًا شَدِيدًا ، وَأَصْبَحَتْ كَالْمَكْرَهَةِ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَعُدْ فِيهَا

نَشَوْتُهَا وَلَا رِيئُهَا ؛ وكانت الصغيرةُ في تمزيقِ أُخيلَتِها أبرعَ من الشيطانِ في هذه الأخيلاءِ ، وكأنما جرتني يدها جرّاً حتى أبعدتني عن المنزلةِ الخَمْرِيَةِ التي كان الشيطانُ وضعني فيها ، فانتقلتُ من الاستهتارِ والمكابرةِ وعدمِ المبالاةِ إلى الندمِ والتَّحُوبِ والتَّائِبِ ، وكنتُ من بعدها كلما وضعتُ المسكرَ ، وهممتُ به دبّت ابنتي إلى مجلسي ؛ فأنظرُ إليها وتنتشرُ عليها نفسى من رقةٍ ورحمةٍ ، فأرقُبُ ما تصنع ، فتجئُ فتجاذبنى الكاسَ حتى تُهَرِّقَها على ثوبى ، وأراى لأغضب ، إذ كان هذا يسرها ويضحكها ، فأسرّها وأضحك .

ودام هذا منى ومنها ، فأصبحتُ في المنزلةِ بين المنزلتين ؛ أشربُ مرةً وأتركُ مراراً ، وجعلتُ أستقيم على ذلك ، إذ كانت النشوةُ بابنتي أكبرَ من النشوةِ بالزجاجةِ ، وإذ كنتُ كلما رجعتُ إلى نفسى وتدبرتُ أمرى ، أستعِذ بالله أن تعقِلَ ابنتى معنى الخمرِ يوماً فأكون قد نجستُ أيامها ، ثم أتقدم إلى الله وعلى ذنوبها فوق ذنوبى ، ويرحمَ الناسُ على آبائهم وتلعننى إذ لم أكن لها كالآباءِ ، فأكون قد وُجِدْتُ في الدنيا مرةً واحدةً وهلكتُ مرتين .

ومضيتُ على ذلك وأنا بها أصلحُ بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرتُ كبرتُ فضلى ، فلما تمّ لها ستتان ، ماتت !

* * *

قال الراوى : وسكت الشيخ ، فعَلَقَتْ به الأبصارُ ، ووقفت أنفاسُ الناسِ على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمنِ لذكرِ موتِ الطفلةِ ، وخامر المجلسَ مثلُ السكرِ بهذه الكأسِ المذْهَلَةِ ؛ ولكن الطفلةِ دبّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأسَ وأهرقتها ، فانتبه الناسُ وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأكدنى الحزنُ عليها ، وَوَهَنَ جأشى ، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما أُناسى به ، فضاعفَ الجهلُ أحزاني ، وجعلَ مصيبتى مصائب . والإيمانُ وحده هو أكبرُ علومِ الحياةِ ، يُبَصِّرُكَ إن عميت في الحادثةِ ، ويهديك إن ضللتَ عن السكينةِ ، ويجعلك صديقَ نفسك تكونُ وإياها على المصيبةِ ، لا عُدُوّها تكون المصيبةُ وإياها عليك ، وإذا أُخرجتَ الليالى من الأحزانِ

والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس أو محاصرتها ، فإ يدفعُ المالُ ولا ترد القوة ولا يمنع السلطان ، ولا يكونُ شيء حينئذ أضعف من قوة القوى ، ولا أضعف من حيلة المحتال ، ولا أفقر من غنى الغنى ، ولا أجهل من علم العالم ، ويبقى الجهد والحيلة والقوة والعلم والغنى والسلطان - للإيمان وحده ؛ فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه ، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها ، ويردُّ قدر الله إلى حكمة الله ؛ فلا يلبث ما جاء أن يرجع ، وتعود النفس من الرضا بالقدر والإيمان به ، كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها .

قال الشيخ : ورجعتُ بجهلى إلى شر مما كنتُ فيه ، وكانت أحزاني أفراح الشيطان ؛ وأراد - أخزاه الله - أن يفتتنَ في أساليب فرجه ، فلما كانت ليلة النصف من شعبان - وكانت ليلة جمعة ، وكانت كأول نور الفجر من أنوار رمضان - سؤل لى الشيطانُ أن أسكر سكرةً ما مثلها ؛ فبتُ كالملت مما ثملت ، وقد فتني أحلام إلى أحلام ، ثم رأيتُ القيامة والحشر ، وقد وكدت القبور من فيها ، وسبقَ الناسُ وأنا معهم ، وليس وراء ما بى من الكرب غاية ؛ وسمعتُ خلقي زفيراً كفصيح الأفعى ، فالتفتُ فإذا بتنين عظيم ما يكون أعظم منه ؛ طويل كالنخلة السحوق ، أسود أزرق ، يرسل الموت من عينيه الحمراوي كالدم ، وفي فمه مثل الرماح من أنيابه ، ولجوفه حر شديد لوزقربه على الأرض ما نبت في الأرض خضراء ، وقد فتحت فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمنى ، ففرت بين يديه هارباً فزعاً ؛ فإذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعفاً ، فعذتُ به وقلت أجرنى وأغننى . فقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن مرّ وأسرع ، فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة . فوليتُ هارباً وأشرفتُ على النار وهى الهول الأكبر ، فرجعتُ أشدُّ هرباً والتنين على أثرى ؛ ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرتُ به فبكى من الرحمة لى وقال : أنا ضعيف كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن اهرب إلى هذا الجبل ، فلعل الله يحدث أمراً .

فانظرتُ فإذا جبل كالدار العظيمة ، له كوى عليها ستور ، وهو يسبقُ كشعاع الجوهر ؛ فأسرعتُ إليه والتنين من ورائى ، فلما شارفتُ الجبل فتحت الكوى ، ورفعت الستور ، وأشرفتُ على وجوه أطفال كالأقمار ، وقرب التنين

منى ، وصرتُ في هواءِ جوفه وهو يتضرّم على ، ولم يبق إلا أن يأخذنى ؛ فتصايح الأطفالُ جميعاً : يا فاطمة ! يا فاطمة !

قال الشيخ : فإذا ابنتى التى ماتت قد اشرفتُ على ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت ، ثم وثبت كترمية السهم ، فجاءت بين يدى ، ومدت إلى شمالها فتعلقتُ بها ، ومدت يمينها إلى التنين فولى هارباً ، وأجلستنى وأنا كاليت من الخوف والفرع ، وقعدت في حجرى كما كانت تصنع في الحياة ، وضربت يدها إلى الحيتى وقالت : يا أبت . . [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟] .

فبكيتُ وقلتُ : يا بُنيّة ، أنخبرنى عن هذا التنين الذى أراد هلاكى . قالت ذاك عملك السوء الخبيث ، أنت قويته حتى بلغ هذا الهول الهائل ، والأعمال ترجع أجساماً كما رأيت . قلت : فذاك الشيخ الضعيف الذى استجرتُ به ولم يُجِرْنى ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح ، أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثك من عملك السيئ ؛ ولو لم أكن لك هنا ، وللو ولو لم تكن اتبعت قولَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيمن فرّح بناته المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شمالٌ تتعلّق بها ، ويمينٌ تطرّد عنك .

* * *

قال الشيخ : وانتهتُ من نوى فزعاً ألعن ما أنا فيه ، ولا أراى أستقر ، كأنى طريدةً على السّيئ ؛ كلما هربتُ منه هربتُ به ؛ وأين المهرّبُ من الندم الذى كان نائماً في القلب واستيقظ للقلب ؟

وأملتُ في رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر ، وقلت في نفسى : إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عُمُرٌ ما ينبغي أن يُستهان به ؛ وصححتُ النيةَ على التوبة ، لأرجع الشبابَ إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأسمّن عظامه ، حتى إذا استجرتُ به أجارنى ولم يقل : « أنا ضعيف كما ترى ! »

وسألتُ فدللتُ على أبى سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى ، سيّد البقية من التابعين ؛ وقيل لى : إنه جمّع كلَّ علم وفنّ إلى الزهد والورع والعبادة ، وإن لسانه السّحر ، وإن شخصه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره

إنجيلاً لم يُنزل ، وإن أمّه كانت مولاةً لأم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فكانت ربما غابت أمّه في حاجة فيبكي ، [فترضعه أم سلمة تحلله بشديها فيدركه عله ، فكانت بينه وبين بركة النبوة صالحة .

وغدوت إلى المسجد والحسن في حلقته يقص ويتكلم ، فجلست حيث انتهى بي المجلس ، وما كان غير بعيد حتى عرّيتي نَفْضَةً كنفضة الحمى ، إذ قرأ الشيخ هذه الآية : [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ] ؛ فلولفظتني الأرض من بطنها ، وانشق عني القبر بعد الموت ما رأيت الدنيا أعجب مما طالعنتني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسر الآية ، فصنع بي كلامه ما لو بُعث نبي من أجلي خاصة لما صنع أكثر منه .

وكلام الحسن غير كلام الناس ، وغير كلام العلماء ؛ فإنه يتكلم من قلبه ومن روحه ، ومن وجهه ولسانه ، وناهيكم من رجل خاشع متصدّع من خشية الله ، لم يكن يرى مقبلاً إلا وكأنه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذُكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٌ كان في الحياة لتتكلم الحياة بلسانه أصدق كلماتها .

فصاح صائح : يا أبا يحيى ، التفسير التفسير ! وصاح المؤذن : الله أكبر .
فقطع الشيخ وقال : التفسير إن شاء الله في المجلس الآتي .

بنته الصغيرة

٢

... وجاء من الغد أبو يحيى مالك بن دينار إلى المسجد ، فصلى بالناس ، ثم تحول إلى مجلس درسه وتعلّموا حوله ؛ وكانوا إلى بقيّة خبره في لطفه كأن لها عمراً طويلاً في قلوبهم ، لا ظمأ ليلة واحدة .

وقال منهم قائل : أيها الشيخ ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ، ما كان تأويلُ الحَسَنِ لتلك الآية من كلام الله تعالى ، وكيف رجع الكلام في نفسك مَرَجَعَ الفكر تَتَبِعُهُ ، وأصبح الفكرُ عندك عملاً تحذو عليه ، واتصل هذا العملُ فكان ما أنت في ورَعك و... ؟

فقطع الإمامُ عليه وقال : هوّن عليك يا هذا ؛ إن شيخك لأهوّن من أن تذهب في وصفه يميناً أو شمالاً ، وقد روى لنا الحَسَنُ يوماً ذلك الخبر الوارد فيمن يُعَذَّب في النار ألف عام من أعوام القيامة ، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها ، فبكى الحسن وقال : « ياليتني كنت ذلك الرجل ! » وهو الحسنُ يا بني ، هو الحسن ... !

فضجّ الناسُ وصاح منهم صائحون : يا أبا يحيى ، قتلنا يأساً . وقال الأول : إذا كان هذا فأوشِكُ أن يعمّنّا اليأسُ والقنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ، ولانأقَى عملاً ينفع .

قال الشيخ : هوّنوا عليكم ، فإن للمؤمن ظنّين : ظنّاً بنفسه ، وظنّاً بربه ؛ فأما ظنّه بالنفس فينبغي أن ينزل بها دون جسمَ حَاحَاتِها ولا يفتأ ينزل ؛ فإذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئاً أوجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائماً يدفعها ؛ وكلما أكثرت من الخير قال لها : أكثري . وكلما أقلت من الشرّ قال لها : أقلّي . ولا يزال هذا دأبه ما بقي ؛ وأما الظنُّ بالله فينبغي أن يعلو به فوق الفسّرات والعلل والآثام ، ولا يزال يعلو ؛ فإن الله عند ظنّ عبده به ، إن خيراً فله وإن شراً فله . ولقد روينا هذا الخبر : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَلَ تسعاً وتسعين

نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلَّ على راهب فأتاه ، فقال : : إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ قال : لا ! فقتله فكمَّل به مائة ! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلَّ على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومن يحولُ بينك وبين التوبة ؟ انطلقْ إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرضُ سوء .

فانطلقَ ، حتى إذا نصَّف الطريقَ أتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب ؛ فقالت ملائكةُ الرحمة : جاء تائباً مُقبِلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكةُ العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي فجعلوه حَكماً بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيُّهما كان أدنى فهو له . فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكةُ الرحمة !

قال الشيخ : فهذا رجلٌ لمَّا مشى بقلبه إلى الله حُسِبَتْ له الخطوةُ الواحدة ، بل الشبرُ الواحد ؛ ولو أنه طَوَّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب ، لكان كالعظام المحمولة في نعش ؛ قبرُها في المشرق هو قبرها في المغرب ، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحدٌ لا يتغير ؛ هو أنه بجملته ميت ، وأنها بجملتها حُفْرَة .

والإنسانُ عند الناس بهيئة وجهه وحليته التي تبدو عليه ، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنه الذي يَظُنُّ به ؛ وما هذا الجسمُ من القلب إلا كقشرة البيضة (١) مما تحتها . فيا لها سخرية أن تزعم القشرة لنفسها أن بها هي الاعتبار عند الناس لا بما فيها ، إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هي ؛ ومن ثم تَبْعِدُ في حماقتها فتسأل : لماذا يرميني الناس ولا يأكلوني ؟ ؟

إن هذه الأخلاقَ الفاضلةَ في هذا الإنسان لا تجد تمامَ معناها إلا في حالة بعينها من أحوال القلب ، وهي حالةُ خشوعه على وصفها الذي شرحته الآية الكريمة : [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟]

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيقض بفتح القاف وسكون الياء ، والقشرة الداخلية الملتزمة بالبياض تسمى الفرق بكسر الفين والقاف .

فالأخلاقُ الفاضلةُ محدودةٌ بالله والحقُّ معاً ، وهى كلُّها فى خشوع القلب
لهذين ؛ فإن من القلب مَخارجُ الحياة النفسية كلِّها .

قال الشيخ : وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويلَ هذه الآية ، واستننتُ
بها ، مضيتُ أعيشُ من الدنيا فى تاريخِ قلبى لافى تاريخِ الدنيا ، وأدركتُ من
يومئذ أن ليس حفظُ القرآن حِفْظَه فى العقل ، بل حفظُه فى العمل به ؛ فإن
أنت أثبتَ الآيةَ منه ، وكنتَ تعمل بغير معناها ، وتعيش فى غير فضيلتها ،
فهذا — ويحك — نسيانُها لاحتفظُها . وقد كان قومنا الأولون بمعانيه كالشجرة
الخضراء النامية ؛ فيها ورقُها الأخضر وزهرُها ، وعلى ظاهرها حياةٌ
باطنها ، فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده ، ولم يبالوا القلبَ وأحوالَه ، أصبحوا
كالشجرة اليابسة ، عليها ورقُها الجافُّ ، ليس فى بقائه ولا سقوطه طائل .

ما أصبحتُ ولا أمسيتُ منذ حفظتُ تفسيرَ الآية إلا فى حياةٍ منها ، وهذه
الآية هى التى دلَّتْنى بمعانيها أن ليست الحياةُ الأَرْضِيَّةُ شيئاً إلا ثورةَ الحى على ظلم
نفسه ، يَسْتَكِفُّ عنها أَكْثَرُ مما يَسْتَجِرُّ لها ، والناسُ من شقائهم على العكس ،
يَسْتَجِرُّونَ أَكْثَرُ مما يَسْتَكِفُّونَ ، وإنما السعيدُ مَنْ وَجَدَ كلماتَ روحانيةٍ
إلهيةٍ يعش قلبُه فيهن ، فذاك لا يعمل أعماله كما يأتى ويتفق ، بل يحذو على
أصل ثابت فى نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسنَ ما يعمل ، ومن ثمَّ لا يكون جهادُه
مُرَاجَمَةً أو خضوعاً فى سبيل الوجود كالحَيوان ، بل فى سبيل صحَّة وجوده ؛
ولا يكون غرضُه أن يُلَابِسَ الحياةَ كما تأخذُه هى وتَدَعُه ، بل أن يحيا فى شرف
الحياة على ما يأخذها هو ويدعُها .

إن الشقاء فى هذه الدنيا إنما يَجْرُهُ على الإنسان أن يعملَ فى دفع الأحزان
عن نفسه بمقارَفَتِهِ الشهوات ، وبإحساسِهِ غرورَ القلب ؛ وبهذا يُبْعِدُ
الأحزانَ عن نفسه ليجلبِها على نفسه فى صُورٍ أخرى !

* * *

قال الشيخ : وكان مما حفظته من تفسير الحسنِ قوله :
إن كل كلمة فى الآية تكاد تكون آية ، وليست الكلمةُ فى القرآن كما
تكون فى غيره ، بل السَّمُوُّ فيها على الكلام ، أنها تحمل معنى ، وتُؤمى إلى

معنى ، وَتَسْتَنْبِغُ معنى ؛ وهذا ما ليس فى الطاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه كِتَابٌ أَحْكَمُ آيَاتُهُ ثُمَّ أَفْصَلَتْ (١)

يقول الله تعالى : [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ] .

[أَلَمْ يَأْنِ] هذه الكلمة حثٌ ، وإطماعٌ ، وجدالٌ ، وحُجَّةٌ ؛ وهى فى الآية تُصَرِّحُ أَنَّ خَشُوعَ الْقَلْبِ الَّذِى تَلَكْ صِفَتُهُ هُوَ كَمَالُ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّ وَقْتَ هَذَا الْخَشُوعِ هُوَ كَمَالُ الْعُمْرِ ، وَكَيْفَ يَعْرِفُ الْمُؤْمِنُ أَنَّهُ (سَيَأْنِ) لَهُ أَنْ يَعِيشَ سَاعَةً أَوْ مَا دُونَهَا ؟ إِذَنْ فَالْكَلِمَةُ صَارِخَةٌ تَقُولُ : الْآنَ الْآنَ فَبَلْ أَلَا يَكُونُ آتٍ . أَيْ : الْبَدَارُ الْبَدَارُ مَا دُمْتُ فِي نَفْسٍ مِنَ الْعُمْرِ ؛ فَإِنَّ لِحِظَةً بَعْدَ (الْآنَ) لَا يَضْمِنُهَا الْحَيُّ . وَإِذَا فَتَنَى وَقْتُ الْإِنْسَانِ أَنْتَهَى زَمْنُ عَمَلِهِ فَبِقِي الْأَبَدِ كُلِّهِ عَلَى مَا هُوَ ؛ وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْأَبَدَ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِى يَدْرِكُ الْحَقِيقَةَ ، وَإِنْ هُوَ إِلَّا لِلْحِظَةِ الرَّاهِنَةِ مِنْ عُمْرِهِ الَّتِى هِيَ (الْآنَ) . فَانْظُرْ - وَيَحْكُ - وَقَدْ جُعِلَ الْأَبَدُ فِي يَدِكَ ؛ انْظُرْ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهِ ؟

تلك هى حكمة اختيار اللفظة من معنى (الْآنَ) دون غيره ، على كثرة المعانى .

ثم قال : [لِلَّذِينَ آمَنُوا] وهذا كَالنَّصِّ عَلَى أَنْ غَيْرَ هَؤُلَاءِ لَا تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَلَا لِلْحَقِّ ، فَلَا تَقُومُ بِهِمُ الْفَضِيلَةُ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِمُ الشَّرِيعَةُ ، وَعَالِمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ سَوَاءٌ ؛ لَا يَخْشَعَانِ إِلَّا لِلْمَادَةِ ؛ وَكَأَنَّ إِنْسَانَهُمْ إِنْسَانٌ تُرَائَى ، لَا يَزَالُ يَضْطَرُّ عَلَى مَسْكَرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مِنَ الْحَيَوَانِ : عَيْشِهِ وَمَوْتِهِ ؛ وَمَا تَقْسُو الْحَيَاةُ قَسْوَتَهَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا بِهِمْ ، وَمَا تَرْقُ رَقَّتَهَا إِلَّا بِالْمُؤْمِنِينَ . وَجَعَلَ الْخَشُوعَ لِلْقُلُوبِ خَاصَةً ، لِإِذْ كَانَ خَشُوعُ الْقَلْبِ غَيْرَ خَشُوعِ الْجَسْمِ ، فَهَذَا الْأَخِيرُ لَا يَكُونُ خَشُوعًا ، بَلْ ذَلَالًا ، أَوْ ضَعْفًا ، أَوْ رِيَاءً أَوْ نِفَاقًا ، أَوْ مَا كَانَ أَمَّا خَشُوعُ الْقَلْبِ فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا خَالِصًا مُخْلِصًا مَحْضًا لِإِرَادَةِ .

(١) طريقتنا فى اكتناه إعجاز القرآن ، أَنَّ الْكَلِمَةَ الْوَاحِدَةَ مِنْ كَلِمَاتِهِ لَهَا جِهَاتٌ عِدَّةٌ ؛ كَمَا تَرَى فِيهَا نَشْرَحُهُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِيهَا جِئْنَا بِهِ مِنْ تَفْسِيرِ آيَاتٍ سَبَقَتْ فِي الْمَقَالَاتِ الْأُخْرَى ؛ فَالْبَحْثُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي الْلَفْظَةِ ، وَوَجْهَ اخْتِيَارِهَا ، وَسِيَاقِ تَرْكِيبِهَا ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَمَا يَدُلُّ كُلُّ ذَلِكَ بِهَا . وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي كِتَابِنَا : إعجاز القرآن .

واشترطَ « القلب » كأنه يقول : إنما القلب أساسُ المؤمن ، وإن المؤمنَ ينبع من قلبه لامن غيره ، متى كان هذا القلبُ خاشعاً لله ولالحق . فإن لم يكن قلبه على تلك الحال ، نَبَعَ منه الفاسقُ والظالم الطاغيةُ وكلُّ ذى شر . ما أشبهَ القلبَ تتفرعُ منه معاني الخلقِ ، بالحَبَّةِ تَنسَرَحُ منها الشجرة ؛ فخذُ نفسك من قلبك كما شئت ؛ حلّوا من حلّو ، ومُرّاً من مُرّ .

وخشوعُ القلب لله ولالحق، معناه السموُّ فوق حب الذات ، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة ؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدةَ الحياة الصحيحة ، ويجعلها في قانونين لاقانون واحد ؛ ومتى خشع القلب لله ولالحق ، عَظُمَتْ فيه الصغائر من قوّة إحساسه بها ، فبها كبريةٌ كبيرة وإن عَمِيَ الناسُ عنها ، وبها وهي بعيدةٌ منه بمثل عين العقاب : يكون في لوح الجوّ ولا يغيب عن عينه ما فى الثرى . وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطغيان والقسوة ؛ فتقيّدُ خشوع القلب « بذكر الله » ، هو فى نفسه نَفْيٌ لعبادة الهوى ، وعبادة الذات الإنسانية فى شهواتها . وما الشهوةُ عند المخلوق الضعيف إلا إلهُ ساعتها . فيما أحكمَ وأعجب قول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » . جَعَلَ نزعَ الإيمان موقوتاً « بالحين » الذى تُقْتَرَفُ فيه المعصية ؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقى هو إله ذلك « الحين » .

والخشوعُ لِمَا « نَزَلَ من الحق » هو فى معناه نَفْيٌ آخرٌ للكبرياء الإنسانية التى تُفسد على المرء كلَّ حقيقة ، وتخرج به من كل قانون ؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته لا يحدودها هى من الحقوق والفضائل .

ويخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية ، وإلزامها الخيرَ والحقَ دون غيرهما ، وقهرها للذات وشهواتها ، وجعلها الكبرياء الإنسانية كبرياء على الدنايا والخسائس ، لا على الحقوق والفضائل ؛ وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة فى النفس ، ومحو الفوضى منها ، وجعل نظامها فى إحساس القلب وحده ؛ فيحيا القلبُ فى المؤمن حياةَ المعنى السامى ، ويكون نبضه علامةَ الحياة فى ذاتها ، وخشوعه لله ولالحق علامةَ الحياة فى كمالها .

وقال : [ما نزلَ من الحقِّ] كأنه يقول : إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضياً ، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرره الناسُ بعضهم على بعض ، لم يجاوز في ارتفاعه رأسَ الإنسان ، وأفسدته العقول ؛ إذ كان الإنسان ظالماً متمرّداً بالطبيعة ، لاحتكمه من أول تاريخه إلا السماءُ ومعانيها ، وما كان شبيهاً بذلك مما يجيئه من أعلى ؛ أى بالسلطان والقوة ؛ فيكون حقاً « نازلاً » مُتَدَفِّعاً كما يَتَصَوَّبُ الثُّقُلُ من عال ليس بينه وبين أن ينفُذَ شيء .

والخشوعُ لما نزل من الحق ينفي خشوعاً آخر هو الذى أفسد ذاتَ البين من الناس ، وهو الخشوعُ لما قام من المنفعة وانصرفُ القلبُ إليها بإيمان الطم لا الحق .

وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنِّصْفَةُ بين الناس ؛ فيكون العدلُ فى كل مؤمن شعوراً قلبياً ، جارياً فى الطبيعة لامْتِكَلَفاً من العقل ؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادةٌ ثابتة عن الحق فى كل طريق ، لا إرادة لكل طريق ، وتستمرّ هذه الإرادة مُتَّسِقَةً فى نظامها مع إرادة الله ، لاناورة منها ولا متمرّدة عليها ؛ وهذا وذلك يُشَبِّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوالُ الدنيا ، فلا يكون من إيمانه إلا سُمُوهُ وقُوَّتُهُ وثباتُهُ ، ويتزلّ العمرُ عنده منزلةً اللحظة الواحدة ، وما أفسر الصبرَ على لحظة ! ما أهونَ شرِّ « الآن » إن كان الخيرُ فيما بعده .

ألمْ يَأْنِ ؛ ألمْ يَأْنِ ؛ ألمْ يَأْنِ . . .

* * *

قال الشيخ : وكان الحَسَنُ فى معانيه الفاضلة هو هذه الآية بعينها ؛ فما كانت حياته إلا إسلاميةً كهذا الكلام الأبيض المُشرق الذى سمعته منه ؛ شعارُهُ أبداً : « الآنَ قبلَ ألا يكونَ آ ن » وإمامُهُ : « خُذْ نَفْسَكَ مِنْ قَلْبِكَ » وطريقته « شَرَفُ الحِياة لا الحِياةُ نَفْسُها » .

وكان يرى هذه الحِياةَ كَوَقْعَةِ الطائر ؛ هى جَنَاحينِ مُسْتَوْفِزَيْنِ أبداً لعملٍ آخر هو الأقوى والأشدّ ، فلا ينزلان بطائرهما على شيء إلا مَطْوَينِ على

قُدْرَةُ الارتفاع به ، ولا يكونان أبداً إلا هَفَافَيْنِ خَفِيفَيْنِ عَلَى الطيرَانِ ؛ إذ كانا في حكم الجَوِّ لافي حكم الأرض .

وآلةُ الوقوع والطَّيرَانِ بالإنسان شهواتُهُ ورَغَبَاتُهُ ؛ فإن حَطَّتْهُ شهوةٌ لا ترفعه ، فقد أَوْبَقَتْهُ وأهلكته وقذفت به ليؤخذ .

لقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : لا يَبْلُغُ العبدُ أن يكونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حتى يدَعَ مالا بأسَ به حذراً مما به بأسٌ ، وهذا ضَرْبٌ من خشوع القلب المؤمن فيما يحلُّ له : يدَعَ أشياء كثيرةً لا بأسَ عليه فيها لو أتاها ؛ ليقوى على أن يدَعَ ما فيه بأسٌ ، فإن الذي يترك ما هوَ له يكون أقوى على ترك ما ليس له .

والنفسُ لا بدَّ راجعةً يوماً إلى الآخرة ، وتاركةً أدواتها ؛ فقيام نظامها في الحياة الصحيحة أن تكون كلَّ يومٍ كأنها ذهبتُ إلى الآخرة وجاءت . وتلك هي الحكمة فيما فرضته الشريعةُ الإسلامية من عبادة راتبة تكون جزءاً من عمل الحياة في يومها وليلتها . فإذا لم تكن النفسُ في حياتها كأنها دائماً تذهب إلى مصيرها وترجع منه ، طَمَسَتْهَا الجسمُ وجبَسَتْها في إحدى الجهتين ، فلم يبقَ لها فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوزُ النَّصْح ، كاعتراض المقتول على قاتله : يحاول أن يَرُدَّ السيفَ بكلمة ... ! وبذلك يتضاعف الجسمُ في قوته ، ويشدُّ في صَوْلته ، ويتصرَّف في شهواته ، كأن له بطنين يجوعان معاً . . . فتستهلكُ شهواتُ المرء دينه ، وتقذف به يميناً وشمالاً ، على قصد وعلى غير قصد ، وتمضي به كما شاءت في مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ مِنَ الشَّرِّ .

ومثلُ هذا المَسْرِف على نفسه لا يكون تمييزُهُ في الدين ، ولا إحساسُهُ بالخير ، إلا كذلك السَّكْبَر الذي زعموا أنه أراد التوبة ، وكانت له جَرَّتَانِ من الخمر ، فلما اتَّعَطَّ وبلغ في النظر إلى نفسه وحظ إيمانه ، وأراد أن يطيعَ الله ويتوب . نظر إلى الجَرَّتَيْنِ ثم قال : أتوب عن الشرب من هذه حتى تفرغ هذه ... !

* * *

قال الشيخ : ثم إنى تبتُّ على يد الحسن ، وأخلصتُ في التوبة وصَحَّحْتُهَا ، وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدِّين هي كبرياء النفس على شرِّها وظلمِها

وشهواتها ، وأن هذه الكبرياء القاتلة للإثم ، هي في النفس أختُ الشجاعة القاتلة للعدوِّ الباغي : يفخر البطلُ الشجاعُ بمبلغه من هذه ، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه من تلك ؛ وأن خشوع القلب هو في معناه حقيقةُ هذه الكبرياء بعينها .

وحدثتُ الحسنَ يوماً حديثَ رؤيائى^(١) ، وما شُبّه لى من عملى السيِّ وعملِ الصالح ، فاستدْمَعَتْ عيناه ، وقال :

إن البنتَ الطاهرةَ هى جهادُ أبيها وأمها فى هذه الدنيا ، كالجهاد فى سبيل الله ، وإنها فوزٌ لهما فى معركة من الحياة ، يكونان هما والصبرُ والإيمانُ فى ناحية منها قسبيلًا ، ويكون الشيطانُ والهَمُّ والحزنُ فى الجهة المُنَاوِحَةِ قبيلًا آخر . إن البنتَ هى أمٌ ودار ، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وخطايتها والصبرِ عليها واليقظة لها — كأنما يحملان الأحجارَ على ظهرَيْهما حجراً حجراً ، لِيَسْتَسَيَا تلك الدارَ فى يومٍ يومٍ إلى عشرين سنة أو أكثر ، ما صَحِبَتْهُ وما بقيتُ فى بيته .

فليس ينبغى أن ينظر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنته ، ثم أمٌ أولادِها ، ثم أمٌ أحفاده ؛ فهى بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقُّها عليه أكبرُ من الحقِّ ، فيه حرْمَتها وحرمةُ الإنسانية معاً ؛ والأبُ فى ذلك يُقرض اللهَ إحسانًا وحنانًا ورحمةً ، فحقُّ على الله أن يُوفِّيه من مثلها ، وأن يُضْعِفَ له .

والبنت ترى نفسها فى بيت أهلها — ضعيفةٌ كالمقطعة وكالعالة ، وليس لها إلا اللهُ ورحمةُ أبويها ؛ فإن رَحِمَها ، وأكرماها فوقَ الرحمة ، وسَرَّأها فوقَ الكرامة ، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيها فى الدين وحفظِ نفسها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبةً — فقد وضعَا بين يَدَيِ الله عملاً كاملاً من أعمالها الصالحة ، وكما وضعاه بين يدى الإنسانية . فإذا صارا إلى الله كان حقاً لهما أن يعجدا فى الآخرة يمينًا وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من كان له ابنةٌ فأدَبَها فأحسنَ تأديبها ، وغَدَّأها فأحسنَ غَداءها ، وأسبَغَ عليها من النعمة التى أسبغَ الله عليه — كانت له مِيسِرَةً ومِيسِرَةٌ من النار إلى الجنة » .

(١) ذكرت الرؤيا فى القسم الأول من هذه المقالة .

فهذه ثلاثٌ لا بد منها معاً ، ولا تُجْزَى واحدةٌ عن واحدة في ثواب البنت :
 تربيةٌ عقلها تربيةً إحسان ، وتربيةٌ جسمها تربيةً إحسان وإطاف ، وتربيةٌ
 روحها تربيةً إكرام وإطاف وإحسان .

* * *

قال الشيخ : والله أرحمُ أن تضيعَ عنده الرحمة ؛ والله أكرمُ أن يضيعَ
 الإحسان عنده ، والله أكبر . . .
 وهنا صاح المؤذّن : الله أكبر .
 فتبسّم الشيخ وقام إلى الصلاة .

الأجنبية*

أحبَّها وأحبَّته ، حتى ذهب بها في الحب مذهباً قالت له فيه : « لوجاعني قلبي في صورة بشرية لأراه كما أحسُّه ، لما اختار غير صورتك أنت في رقَّتكَ وعطفك وحنانك » وحتى ذهبَتْ به في الحب مذهباً قال لها فيه : « إن الجنة لا تكون أبدعَ فناً ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثرَ إمتاعاً - لو خلقتُ امرأةً يهواها رجل - إلا أن تكون هي أنت ! » فقالت له : « ويكونَ هو أنت . . . ! » .

وتدَلَّهَتْ فيه ، حتى كأنما خلَّصَها عقلها ووضَعَ لها عقلاً من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تَبَّهَتْ من ذات نفسها : « إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتَبَرِّرةً من أنها لإرادة ، مُقَرَّةٌ أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر ، مُدْعِنةٌ أنها قد سلَّمت كبرياءها لهذا الحبيب ، لتراه في قوته ذا كبريائين » .

وافتتَنَ بها حتى أخذتْ منه كلَّ مأخَذ ، فلأَتْ نفسَه بأشياء ، وملأت عينه من أشياء ؛ فكان يقول لها في نجواه : « إني أرى الزمنَ قد انتَسَخَ مما بيني وبينك ، فإنما نحن بالحب في زمن من نَفْسَيْنَا العاشقتين ، لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور ؛ وإنما نعيشُ في أيامَ قلبيةَّة ، لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانها ، ولكن السعادةُ بحقائقها ولذاتها » .

وتحباباً ذلك الحبَّ الفنى العجيب ، الذى يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يفيضُ وينسكب ، وهو مع ذلك لا يَبْرَحُ يطلبُ الزيادة ، ليتخيل من لذتها ما يتخيلُ السَّكَّيرُ في نشوته إذا طَفَحَتِ الكأس ، فيرى بعينه أنها ستسع لأكثر ما امتلأت به ، فيكونُ له بالكأس وزيادتها ، سَكْرُ الخمرِ وسَكْرُ الوهم .

تحاباً ذلك الحبَّ الفَوَّارَ في الدم ، كأن فيه من دورته طبيعة الفراق والتلاقى بغير تلاق ولا فراق ؛ فيكونان معاً في مجلسهما الغزلى ، جَسْبَهُ إلى جنبها وفَنَاهَا إلى فيه^(١) وكأنما هَرَبَتْ ثم أدركها ، وكأنما فَرَّتْ ثم أَمْسَكَهَا . وبين القُبلة والقُبلة هِجرانٌ وصُلحٌ ، وبين اللَّفْتَةَ واللَّفْتَةَ غَضَبٌ ورضى .

* انظر « الرافعى العاشق » من كتاب « حياة الرافعى » .

(١) تأويل هذا في باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متمانقين .

وهذا ضربٌ من الحب يكونُ في بعض الطبائع الشاذّة المسرفة ، التي أفرطت عليها الحياةُ إفراطها فيلفّ الحيوانية بالإنسانية ، ويجعل الرجل والمرأة كبعض الأحماض الكيميائية مع بعضها ؛ لا تلتقي إلا لتمازج ، ولا تمازج إلا لتتحد ولا تتحد إلا ليتلع هذا وجود ذاك .

* * *

وضرب الدهرُ من ضرباتهِ في أحداث وأحداث ؛ فأبغضته وأبغضها ، وفستدت ذاتُ بينهما ، وأدبر منها ما كان مُقبلاً ؛ فوثب كلاهما من وجود الآخر وثبة فزع على وجهه . أما هو فسخطها لعيوب نفسها ، وأما هي ... وأما هي فتكترهته لحاسن غيره !

وانسربت أيامُ ذلك الحب في مساريبها تحت الزمن العميق الذي طوى ولا يزال يُطوى ولا يبرحُ بعد ذلك يطوى ؛ كما يغور الماءُ في طباق الأرض . فأصبح الرجل المسكين وقد نزلت تلك الأيامُ من نفسه منزلة أقارب وأصدقاء وأحباء ماتوا بعضهم وراء بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فكروه ، فكانوا له مادة حسرة ولهفة . أما هي .. أما هي فانشقّ الزمنُ في فكرها بركة زلزلة ، وابتلع تلك الأيامُ ثم التأم ... !

* * *

فحدثنا « الدكتور محمد * » رئيسُ جماعة الطلبة المصريين في مدينة ... بفرنسا ، قال : « وانتهى إلى أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة وأنه قادم من مصر ، فتخالجني الشوقُ إليه ، ونزعستُ إلى لقائه نفسي ، وما بيننا إلا معرفتي أنه مصري قديم من مصر ؛ وخيّل إلى في تلك الساعة مما اهتمّاجتي من الحنين إلى بلادي العزيزة ، أن ليس بيني وبين مصر إلا شارعان أقطعهما في دقائق ؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مشواه ، كما يصنعُ الطيرُ إذا ترامى إلى عشه فابتدّره من قطر الجو .

* هو ولده الدكتور محمد الراجحي ، وكان يدرس وقتئذ في جامعة ليون ، وقد أنشأ من أجله هذه القصة لتكون رسالة إليه برأيه في موضوع مخصوصه .

قال : وأصبته واجماً يعلوه الحزن ، فتعرفتُ إليه ، فما أسرعَ ماملاً من نفسي وما ملأتُ من نفسه . وكما يمتحى الزمان بين الحبيبين إذا التقيا بعد فُرقة — يتلاشَى المكانُ بين أهلِ الوطن الواحد إذا تلاقوا في الغربة . فذابت المدينةُ الكبيرةُ التي نحن فيها ، كأن لم تكن شيئاً ؛ وتجلي سحرُ مصر في أقوى سَطوتيه وأشدّها فأخذنا كِلَيْنا ، فما استشرعنا ساعتئذ إلا أن أوربا العظيمة كأنما كانت مرسومةً على ورقة ، فطويناها وأحللنا مصر في محلها .

وطغى علينا نازعُ الطربِ طغياناً شديداً ، فأرسلتُ من يجمعُ الإخوان المصريين ، واخترتُ لذلك صديقاً شاعرَ الفطرة ، فنزّا به الطربُ ، فكان يدعوهم وكأنه يؤذن فيهم لإقامة الصلاة . وجاءوا يهْرولون هَرْولةَ الحجاج ، فلو نطقت الأرضُ الفرنسيةُ التي مشّوا عليها تلك المِشيّة ل قالت : هذه وطأةُ أسود تتخيلُ خيلاءها من بَغْيِ النشاطِ والقوة .

ألا ما أعظمك يا مصر ، وما أعظم تعنتك في هذا السحرِ الفاتن ! أينبغي أن يغترب كلُّ أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوي العظيم : «مصر كنانةُ الله في أرضه» . فيعرفوا أنك من عزّتك معلقة في هذا الكون تعليق الكنانة في دار البطّل الأروع ؟

قال «الدكتور محمد» : واجتمعنا في الدار التي أنزلُ فيها ، فراع ذلك صاحبة مشاوى ^(١) ، فقلت لها : إن ههنا ليلةً مصريةً ستحتلُّ ليلتكم هذه في مدينتكم هذه ، فلا تجزعوا . ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهد كيف تستعلنُ الروحُ المصرية الاجتماعية برقتها وظرفها وحماستها ، وكيف تُفسر هذه الروحُ المصرية كلَّ جميل من الأشياء الجميلة بشوق من أشواقها الحنانة ، وكيف تكون هذه الروحُ في جوٍّ موسيقيّتها الطبيعيّة حين تُناجي أحبابها ، فيجىُّ حديثُها بطبيعته كأنه ديباجةُ شاعر في صفاتها وحلاوتها وزين ألفاظها ؟

وقالت السيدة الظريفة : يا لها سعادة ! سأخذ زينتي ، وأصلح من شأنى ، وأكون بعد خمس دقائق في مصر !

(١) صاحبة المشاوى هي ربة البيت الذي ينزل فيه الضيف ومن كان في حكمه ، يقول العربي : من كانت صاحبة مشواك ؟ فطلق على صاحبة البنسيون .

قال الدكتور : وأخذنا في شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسنُ الصوت ، فقام إلى البيانة^(١) وغنّى مقطوعة « قطقوقة » مصرية من هذه المقاطيع التي تُطَقِّطُ فيها النفس ، فجعل يَملُطُ صوتهُ بآه وآه ودار اللحنُ دورةً تأوّهتُ فيها الكلماتُ كُلُّها . ثم اعتُور البيانة طالبٌ آخر فاشدَّ عن هذه السنة ، وكان بعد الأول كالناتحة تُجاوبُ الناتحة ! فالت على السيدة الفرنسية وأسَرَّتْ إلى : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخي ذو مقطوعتين ، كانت تتطارحُه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة ... فأعجبت المرأةُ أشدَّ الإعجاب ، وأكبرتُ منا هذا الذوق المصري أن نكرّمها لوجودها في مجلسنا بالخان المليكَة المصرية الجميلة ، وطربت لذلك أشدَّ الطرب ، وملكها غرور المرأة ، فجعلت تستعيد : « يالوعى ياشقاى ياضنى حالى ... » وتقول : ما كان أرقَّ كيلوباترة ! ما كان أرقَّ أنطونيو ! يالَفِتَّةِ الحب المَلَكى ..!

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام الخنث ، ومن تلفيقِ الذى لفقتهُ للمرأة المخدوعة ؛ فانفجعت انتفاضةً من يملؤه الغضب ، وقد حمى دمه ، وفى يده السيفُ الباتر ، وأمامه العدو الوقح ؛ وثُرْتُ إلى البيانة فأجريت عليها أصابعي ، وكأنَّ فى يديَّ عشرةَ شياطين لا عشر أصابع ، ودوى فى المكان لحنُ : « اسلمى يا مصر » وجعل يحالُ الرعد فى قبة الدنيا ، تحت طباق الغيم ، بين شرارِ البرق . فكأنما تنزَّلَ الرُّلُ على السيدة الفرنسية وعليها جميعاً وصَرَخَ أجدادنا يزعمون من أعماق التاريخ : « اسلمى يا مصر ... »^(٢)

ولما قطعْتُ التفْتُ إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين .

ثم راجعنا صاحبنا الضيف ، وأخفيناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعنا طويلاً : إنه يُحسن شيئاً من الموسيقى وإن له لحناً سيُطارحنا به لأخذه عنه . فطرنا

(١) البيانة : كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبانو ، وتجمع على بيانات .

(٢) هذا هو النشيد الذى وضعناه على لسان سعد باشا زغلول ، وهو اليوم النشيد الوطنى لمصر كلها ، يحفظه جميع الطلبة ، والكشافة ، والأندية الرياضية ، وغيرها .

بَلَحْنَهُ قَبْلَ أَنْ نَسْمَعَهُ ، وَقُلْنَا لَهُ : أَفْعَلْ مُتَفَضِّلًا مَشْكُورًا وَمَا زِلْنَا حَتَّى نَهْضَ مَتَشَاقِلًا ، فَجَلَسَ إِلَى الْبَيَانَةِ وَأَطْرَقَ شَيْئًا ، كَأَنَّهُ نُسْوَى أَوْتَارًا فِي قَلْبِهِ ، ثُمَّ دَقَّ يَتَشَبَّحَتِي بِهَذَا الصَّوْتِ :

أَمْسَاعَ غَدَى مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ غَدَى وَحَطْمِي مَنْ كَانَ يَجْهَدُ فِي سَبْكِى !
فَإِنْ كُنْتَ لَا أَسَى لِنَفْسِي فَمَنْ إِذَنْ ؟ وَإِنْ كُنْتَ لَا أَبْكِى لِنَفْسِي فَمَنْ يَبْكِى (١) ؟
قَالَ «الدكتور محمد» : فَكَانَ الْغَنَاءُ يَتَعَلَّجُ فِي قَلْبِهِ اعْتِلَاجًا ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَبْكِى فِيهِ بَكَاءَهَا وَتَغْصُصُ مِنْ غُصَّتِهَا ، وَكَأَنَّ فِي الصَّوْتِ فِكْرًا حَزِينًا يَسْتَعْلِنُ فِيهِمْ مُوسِيقَى ، وَخِيلَ إِلَيْنَا بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْبَيَانَةَ انْقَلَبَتْ امْرَأَةً مَغْنِيَةً تُطَارِحُ هَذَا الرَّجُلَ عَوَاطِفَهَا وَأَحْزَانَهَا ، فَاجْتَمَعَ مِنْ صَوْتَيْهِمَا أَكْمَلُ صَوْتٍ إِنْسَانِيٍّ وَأَجْمَلُهُ وَأَشْجَاهُ وَأَرْقَاهُ .

فَأَطَقْنَا بِهِ وَقُلْنَا لَهُ : لَقَدْ كُنْتُمَا نَفْسُكَ حَتَّى نَسَمَّ عَلَيْهَا مَا سَمِعْنَا ، وَمَا هَذَا بَغْيًا ، وَلَكِنَّهُ هُمُومٌ مَلْسَحَةٌ تَلْحِينًا ، فَلَنْ نَدْعُكَ أَوْ تُخَبِّرَ دَا مَا كَانَ شَأْنُكَ وَشَأْنُهَا .
فَاعْتَمَلْ عَلَيْنَا وَدَافِعْنَا جَهْدَهُ ، فَقُلْنَا لَهُ : هِيَهَاتَ ، وَاللَّهِ لَنْ نُفْلِتَكَ وَقَدْ صَرْتَ فِي أَيْدِينَا ، وَإِنَّكَ مَا تَزِيدُ عَلَى أَنْ تَعِظُنَا بِهَذِهِ الْقِصَّةِ ؛ فَإِنْ أَمْسَكَتْ عَنْهَا فَقَدْ أَمْسَكَتْ عَنْ مَوْعِظَتِنَا ، وَإِنْ بَخَلْتَ فَمَا بَخَلْتَ بِقِصَّتِكَ بَلْ بَعْلَمَ مِنْ عِلْمِ الْحَيَاةِ نَفِيدُهُ مِنْكَ ؛ وَأَنْتَ تَرَانَا نَعِيشُ هَاهُنَا فِي اجْتِمَاعٍ فَاسِدٍ كَأَنَّهُ قِصَصٌ قَلْبِيَّةٌ ، بَيْنَ نِسَاءٍ لَا يَكْلِمُنَّ إِلَّا مَا يَعْرِى جَمَالَهِنَّ ، وَفِي رِجَالٍ أَفْرَطَتْ عَلَيْهِمُ الْحَرِيَّةُ ، حَتَّى دَخَلَ فِيهَا مَخْدَعُ الزَّوْجَةِ ... !

قَالَ الدُّكْتُورُ : وَنَظَرْتُ إِذَا الرَّجُلَ كَاسِيفٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَبَيَّنَ الْإِنْكَسَارُ فِي وَجْهِهِ ، فَأَلْمَمْتُ بِمَا فِي نَفْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ دَهَى فِي زَوْجَةٍ ، مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَوْرِبِيَّاتِ ، اللَّوَاتِي يَتَزَوَّجْنَ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَخْدَعُ الْمَرْأَةِ مِنْهُنَّ حَرًّا أَنْ يَأْخُذَ وَيَدْعَ ، وَيُغَيِّرَ وَيَبْدِلَ ، وَيَقْسِمَ كَلِمَةَ «زَوْجٍ» قَسَمَيْنِ وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعَةً وَمِائَةً .. وَكَأَنَّمَا مَسَسْتُ الْبَارُودَ بِتِلْكَ الشَّرَارَةِ ، فَانْفَجَرَتْ نَفْسُ الرَّجُلِ عَنْ قِصَّةٍ مَا أَفْظَعَهَا !

* * *

قَالَ : يَا إِخْوَانِي الْمَصْرِيِّينَ ، قَبْلَ أَنْ أَنْفُضَ لَكُمْ ذَلِكَ الْخَبَرَ أَسْدِيكُمْ هَذِهِ

(١) وَضَعْنَا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لِبَطْلِ الْقِصَّةِ ، وَكَمْ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ أَبْطَالٍ . . . !

النصيحة التي لم يَصْغَها مؤلف تاريخي لسوء الحظ ، إلا في الفصل الأخير من رواية شقائي :

إياكم إياكم أن تَعْتَرُوا بمعاني المرأة ، تحسبونها معاني الزوجة ؛ وفَرِّقُوا بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ، فإن في كل زوجة امرأة ، ولكن ليس في كل امرأة زوجة .

واعلموا أن المرأة في أنوثتها وفنونها النسائية الفردية ، كهذا السحاب الملون في الشفق حين يبدو ؛ له وقتٌ محدود ثم يُمَسَّخُ مَسَخًا ؛ ولكن الزوجة في نسائيتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بَسَدَ أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقت كله .

لا تتزوجوا يا إخواني المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوج بها مصري ، هي مُسَدَّسُ جرائمٍ فيه سِتُّ قذائف ؛
الأولى : بَوَارُ امرأةٍ مصريةٍ وضياعها بضباع حقها في هذا الزوج ؛
وتلك جريمةٌ وطنية . فهذه واحدة .

والثانية : إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا - في هذا الاجتماع الشرقي ، وتوهينه بها وصدُّه ؛ وهي جريمةٌ أخلاقية .
والثالثة : دَسُّ العُروقيِّ الزائغةِ في دماننا ونَسْلِنَا ؛ وهي جريمةٌ اجتماعية .

والرابعة : التمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا ، يملكه ويحكمه ويصرفه على ما شاء ؛ وهي جريمةٌ سياسية .

والخامسة : للمُسلِّمِ منا إثارة غير أخته المسلمة ، ثم تحكيمه الهوى في الدين ، ما يعجبُه وما لا يعجبُه ؛ ثم إلقاء السم الديني في نَسَبِ ذريته المقبلة ، ثم صَيْرُورَتِهِ خِزْيًا لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنَّ سَبَايا ، ويجعلونهن في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذته هي رقيقًا لها ، وصار معها في المنزلة الثانية أو الثالثة بعد^(١) . . . وهذه جريمةٌ دينية .

والسادسة : بعد ذلك كله ، أن هذا المسكين يُؤثِّرُ أسفله على أعلاه . . .

(١) يريد : بعد عشيقها .

ولا يبالي في ذلك خمسَ جرائمَ فظيعة .
وهذه السادسة جريمة إنسانية !

* * *

ما كنتُ أحسبُ يا إخواني ، وقد رجعتُ بزوجتي الأوربية إلى مصر ،
أنى أحضرتُ معي من أوربا آلةً تصنع أحزاني ومصائبى ! ولم يكن وعظمتى
أحدٌ بما أعظمكم به الآن ، ولا تبسّهُ بذكائى إلى أن الزوجة الأجنبية تشبّتْ لى
غُربىّ فى بلادى ! وتشبّتْ على أنى غير وطنى أو غير تامّ الوطنية ، ثم تكونُ منى
حماقةً تشبّتْ للناس أنى أحقّ فيها اخترتْ ؛ ثم تعودُ مشكلةً دولية فى بيتى ،
يزورها أبناءُ جنسها ويستزيرونها رغم أننى وفى وجهى كله ! ويستطيلون
بالحماية ، ويسترون بالامتيازات ، ويرفعون ستاراً عن فصل ، ويرخون ستاراً
على فصل . . . وأنا وحدى أشهدُ الرواية . . !

إن الشيطانَ فى أوربا شيطانٌ عالمٌ مخترع . فقد زين لى من تلك الزوجة
ثلاثَ نساءٍ معاً : زوجةً عقليةً ، وزوجةً قلبيةً ، وزوجةً نفسيةً ؛ ثم نفّستَ
اللعينُ فى رُوعى أن المرأةَ الشرقيةَ ليس فيها إلا واحدة ، وهى مع ذلك ليست من
هؤلاء الثلاثِ ولا واحدة . قال الخبيث : لأنها زوجةُ الجسمِ وحده ، فلا تسمو
إلى العقل ، ولا تتصل بالقلب ، ولا تمتزج بالنفس ؛ وأنها بذلك جاهلة ، غليظةُ
الحسّ ، خَشِينَةُ الطبع ، لا تكون مع المصرى إلا كما تكون الأرضُ المصريةُ
مع فلاّحها . . .

لعنةُ الله على ذلك الشيطانِ الرجيمِ العالمِ المخترع ! ما علمتُ إلا من بعدُ
أن هذه الشرقيةَ الجاهلةَ الخَشِينَةَ الجافيةَ ، هى كالمُنْجَمِ الذى تَبْرُهُ فى تُرابه ،
وماسُهُ فى فَحْمِهِ ، وجوهرُهُ فى معدنه ؛ وأن صعوبةَها من صعوبةِ العفةِ
المتنعة ، وأن خشونةَها من خشونةِ الحبِ المعتز بنفسه ، وأن جفاءَها من جفاءِ
الدينِ المتسامى على المادة ؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذى لا يَدْخُلُهُ
العجز ، وكان لها الوفاءُ الذى لا تَلْحَقُهُ الشبهة ، وكان لها الإيثار الذى لا يُفْسِدُهُ
الطمع .

هى جاهلةٌ ، ولها عقل الحياة فى دارها ؛ وغليظةُ الحسّ ولها أرقُّ ما فى الزوجة

لزوجها وحده ؛ وَخَبَشَنَةُ الطبع ؛ لأنها تَمْنَزُهُ أن تكون مَكْمَسًا ناعماً لهذا
وذاك وهؤلاء وأولئك . . . لا كأمراة الحب الأوربية ، التي تجعلُ نفسها أنثى
الفن ، وتريد أن تعيشَ دائماً مع زوجها الشرقى من التفضيل والإيثار والإجلال
والإباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » . . . أمراةٌ أنشأتها الحربُ العظمى
بأخلاقٍ مُخَرَّبَةٍ مُدْمِرَةٍ تنفجرُ بين الوقت والوقت .

عندنا يا إخوانى تعدُّ الزوجات ، يتهمونها به من عَمى وجهل وسخافة .
انظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعية الرجولة والأنوثة ، ودينية الحياة الزوجية فى
أى أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلانٌ بطولية الرجل الشرقى الأنوف الغيور ،
أن الزوجةَ تتعدَّد عند الرجل ولكن . . . ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أن
الزوجَ يتعدَّد عند المرأة . . . !

يتهمونها بتعدَّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقُها وواجباتُها — بقوة
الشرع والقانون — نافذةً مؤدَّاةً ؛ ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدَّد المرأة خليةً
مُخادنةً ليس لها حقٌّ على أحد ، ولا واجبٌ من أحد ، بل هى تَسَقَّاذُفُها
الحياةُ من رجلٍ إلى رجل ، كالسكير يتقاذفه الشارع من جدار إلى جدار .
لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع الخنث ، الذى يجعلُ للمرأة
الأوربية بعد أن يتزوجها الرجلُ الشرقى ، أصابعَ « أوتوماتيكية » ، ما أسرعَ
ما تمتد فى نزوةٍ من حماقاتها إلى رجلِها بالمسدس ، فإذا الرصاصُ والقَتْلُ ؛
وما أسرعَ ما تمتد فى نزوةٍ من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدار ، فإذا الحيانة
والعُهر ! !

ماذا تتوقعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المتأنشة بكل ما فيها أنوثةً
تكفى رجالاً لا رجالاً واحداً ، وقد ضعُفت روحيةُ الأسرة فى رأيها ، وابتُذلت
الروحيةُ فى مجتمعيها ابتذالاً ، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه ، لا لتكون
امراةً واحدة لرجل واحد مقصورة عليه ؛ وبذلك عاد الزواجُ حقاً فى جسم
المرأة دون قلبها وروحها ؛ فإن كان الزوجُ مشؤماً منكوباً لم يستطع أن يكون
رَجُلَ قلبها — فعليه أن يدعَ لها الحرية لتختارَ زوجَ قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن
تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعى بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة

المرأة مع الزوج الشرعى . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مخيباً ، وكان قد بَلَغَ إلى قلبها زمناً ثم مله قلبها — فعليه أن يدع لها الحرية لتتنقل وتلكد بلذات الهوى ، ويقول لها : شأنك بمن أحببت ! فإن هذا المنحوس المخيب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية إنسانية أنتهى الفصلُ الجميل منها بمنظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخرٌ بحوادثٍ غير تلك . فليمن يشهدُ الرواية أن يتبرمَ ما شاء ، ويستقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأةُ هذه المدنية هي امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلبيسُ العاطفة من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معانى العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة .

تقوى العاطفةُ فتجئ بها إلى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهبُ بها مع رجل آخر . . . ! وتُقَيِّدُ نفسها إن شاءت ، وتُسَرِّحُ نفسها إن شاءت ؛ وما بُد من أن تبسِّطَ الحياة كما يبلوها الرجلُ وأن تخوضَ في مشاكلها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلها . . . ! ولا مندوحة من أن تتولى شأنَ نفسها بنفسها ، فإذا خَاسَتْ أو غَدَرَتْ فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأىٌ وحقٌّ ؛ إذ كان محورُها الذى تدورُ عليه هو عاطفتها وحرية هذه العاطفة ، فَمَنْ هذا يُقَرِّرُ لها خطتها ، ويُملى عليها واجباتها ، ويُزَوِّرُ لها الأسماء على إرادته دون إرادتها ، فيسمى لها نكده قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خولته الحق أن يقرر وأن يُملى ؟

وهذا الشرقُ العتيقُ المأفونُ الذى قَبَّلَهَا سافرةً لا تعرف رُوحها ولا جسمها الحجاب ؛ ما باله يُريد أن يضربَ الحجابَ على عاطفتها ، ويتركها محبوسةً في شَرِّهِ وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محبوبةً في الدار ؟

ما علمتُ يا إخواني إلا من بعد ، أن الزوجةَ الغربية قد تكونُ مع زوجها الشرقى كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه لن يُمسكها عليه ، ولن يُكْرِهها على الوفاء له ، إلا أن تكونَ حُثالةً يزهْدُ فيها حتى ذُبابُ الناس ؛ فإسؤها هو يجعل هذا المسكينَ مطمئناً ، وهى مع ذلك لو خلطته بنفسها

لَبَقِيتُ مِنْهَا نَاحِيَةً لَا تَخْتَلِطُ ، إِذْ تَرَى أُمَّتَهُ دُونَ أُمَّتِهَا ، وَجَنَسَهُ دُونَ جَنَسِهَا ؛
فَمَا تَسْبُبُ أُمَّةَ زَوْجِهَا وَبِلَادَهُ بِأَقْبَحَ مِنْ هَذَا !
أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ الرَّجُلَ الشَّرْقِيَّ حِينَ يَأْتِي بِالْأَجْنَبِيَّةِ لَتَسْلُوِيْنَ حَيَاتِهِ بِالْوَانِ الْأُنْثَى
..... لَا يَكُونُ اخْتَارَ أَزْهَى الْأَلْوَانِ إِلَّا لَتَلُوِيْنَ مُصَائِبِ حَيَاتِهِ ! وَقَدْ يَكُونُ
هَنَّاكَ مَا يَسْتَدُّ ، وَلَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ .

* * *

أَمَّا قِصَّتِي يَا إِخْوَانِي.....
قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ : قَدْ حَكَيْتَهَا « يَرْحَمُكَ اللَّهُ » .

قصيدة مترجمة عن الشيطان

لحوم البحر *

لكأنما والله تمدد على سيف البحر في الإسكندرية شيطان "مارد" من شياطين ما بين الرجل والمرأة ، يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها . . . وقد امتلأ به الزمان والمكان ؛ فهو يُرْعِشُ ذلك الرمل بذلك الهواء رَعَشَةً أعصاب حية ؛ ويُرْسِلُ في الجو نفخات من جرأة الخمر في شاربها ثَارَ فَعَرَبِدَ ، ويُطْلِعُ الشمسَ للأعين في منظر حَسَناء عُرْيَانة أَلْقَتْ ثِيَابَهَا وحياءها معاً ؛ ويُرْخِي الليلَ ليغطى به المَخَازِي التي خجل النهار أن تكون فيه .

ولَعَمْرِي إن لم يكن هو هذا المارد ، ما أحسبته إلا الشيطان الخبيث الذي ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفة في أجسامها تحت عين التقى والفاجر ، لتعمل عملها في الطباع والأخلاق ؛ فَسَوَّلَ للنساء والرجال أن ذلك الشاطيء علاج المسائل من الحر والتعب ، حتى إذا اجتمعوا ، فتقاربوا ، فتشأبكوا ، سَوَّلَ لَهُمُ الأخرى أن الشاطيء هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين !

وإن لم يكن اللعينان فهو الرقيم الثالث ، ذلك الذي تَأَلَّى أن يُفْسِدَ الآداب الإنسانية كلها بفساد خلُق واحد ، هو حياء المرأة ؛ فبدأ يكشفها للرجال من وجهها ، ولكنه استمر يكشف . . . وكانت تظنه نزع حجابها فإذا هو أول عُرْيَانها . . . وزادت المرأة ، ولكن بما زاد فجور الرجال ؛ ونقصت ، ولكن بما نقص فضائلهم ؛ وتغيرت الدنيا وفسدت الطباع ؛ فإذا تلك المرأة ممن يُقرُونها على تبذلها بين رجلين لا ثالث لهما : رجل فسجّر ، ورجل تخنث . . .

* * *

هناك فكرة من شريعة الطبيعة هي عقل البحر في هؤلاء الناس ، وعقل

هؤلاء الناس في البحر ؛ إذا أنت اعترضتها فتبعتها فتمتعتها ، رأيتها بلاغة من بلاغة الشيطان في تزيينه وتطويعه ، وأصبت فكره مستقرًا فيها استقرار المعنى في عبارته ، آخذًا بمدخلها ومخرجها . وما كان الشيطان عبييًا ولا غيبًا ، بل هو أذكى شعراء الكون في خياله ، وأبلغهم في فطنته ، وأدقهم في منطقته ، وأقدرهم على الفتنة والسحر ؛ وبتمامه في هذا كله كان شيطانًا لم تسعنه الجنة إذ ليس فيها النار ، ولم تُرضه الرحمة إذ ليس معها الغضب ، ولم يُعجبه الخضوع الملائكي إذ ليس فيه الكبرياء ، ولم يخلص إلى الحقيقة إذ لا تحمل الحقيقة شعر أحلامه .

وما أتى الشيطان أحدًا ، ولا وسوس في قلب ، ولا سَوَّلَ لنفس ، ولا أغوى من يغويه — إلا بأسلوب شعري مُلتبس دقيق ، يجعل المرء يعتقد أن أطراح العقل ساعة هو عقل الساعة ، ويُفسدُ برهانه مهما كان قويًا ؛ إذ يرتدُّ به من النفس إلى أخيلة لا تقبل البرهانات ، ويقطعُ حجته مهما كانت دامغة ؛ إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق .

فكرة من شريعة الطبيعة ، ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدري ، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدري ؛ وما كانت الشرائع الإلهية والوضعية إلا لإقرار العقل في شريعة الطبيعة كي تكون إنسانية لإنسانها كما هي الحيوانية لحيوانها ، وليجد الإنسان ما يحفظ به نفسه من نفسه التي هي دائمًا فوضى ، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائمًا فوضى . . .

وبالشرائع والآداب استطاع الإنسان أن يضع لكلمة الطبيعة النافذة عليه جوابًا ، وأن يرى في هذه الطبيعة أثر جوابه ؛ فكلمتها هي : أيها الإنسان ، أنت خاضع لي بالحيوان فيك . وكلمته هي : أيتها الطبيعة ، وأنت لي خاضعة بالإلهي في .

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنية التي نظمها الشيطان على رمل الشاطئ في الإسكندرية ؛ وقد نقلتها أترجمها فصلًا بعد فصل عن تلك الأجسام عارية على القلم — أول

وكاسية ، وعن معانيها مكشوفة ومغطاة ، وعن طباعها بريئة ومتهمة ، حتى
اتسقت الترجمة على ما ترى :

قال الشيطان :

« ألا إن البهيمة والعقلية في هذا الإنسان ؛ مجموعهما شيطانية . . .
ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به .
هنا تتعري المرأة من ثوبها ، فتتعري من فضيلتها .
هنا يخلع الرجل ثوبه ، ثم يعود إليه فيلبس فيه الأدب الذي خلعه . . .
رؤية الرجل لحلم المرأة المحرمة نظرًا بالعين والعاطفة .
يرى بصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد .
ونظرة المرأة لحلم الرجل رؤية فكر فقط . . .
تحوّل بصرها أو تخفيضه ، وهي من قلبها تنظر . . .
يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزّار ! . . . »

* * *

« يا لحوم البحر ! سلخك جزّار من ثيابك .
جزّار لا يذبح بألم ولكن بلذّة . . .
ولا يحز بالسكين ولكن بالعاطفة . . .
ولا يميت الحي إلا موتاً أدبيّاً . . .
إلى الهيجاء ؛ يا أبطال معركة الرجال والنساء .
فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الأخلاق .
للطبيعة أسلحة العري ، والمخالطة ، والنظر ، والأنس ، والتضاحك ،
ونزوع المعنى إلى المعنى . . .
وللأخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدى ؛ وسلاح من الحياء مكسور !
يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزّار . . . »

* * *

« الشاطئ كبير كبير ، يسع الآلاف والآلاف .
ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير ، حتى لا يكون إلا خلوة . . . »

وتقضي الفتاة سنتها تعلم ، ثم تأتي هنا تتذكر جهاتها وتعرف ماهو . . .
 وتُمنّى المرأة عامتها كريمة ، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي . . .
 لو كانت حبيجة صوامية ، لاعتنيتها الكعبة لوجودها في "استانلي"
 الفتاة ترى في الرجال العريانيين أشباح أحلامها ، وهذا معنى من السقوط .
 والمرأة تُسارِقُهم النظر تنويعاً لرجلها الواحد ، وهذا معنى من المـواخير . .
 أين تكونُ النيةُ الصالحةُ لفتاة أو امرأة بين رجال عريانيين ؟
 بالحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . !

* * *

« هناك التربية ، وهنا إعلانُ الإغفال والطّيش .
 وهناك الدين ، وهنا أسبابُ الإغراء والزّلل .
 هناك تـكـلّفُ الأخلاق ، وهنا طبيعةُ الحرية منها .
 وهناك العزيمةُ بالقهر يوماً بعد يوم ، وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد

يوم .

والبحرُ يعلمُ اللاّتي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر . . .
 لو درى هؤلاء وهؤلاء مـعـرّة اغتسالهم معاً في البحر ، لاغتسلوا من البحر .
 فقطرةُ الماء التي نجستُها الشهواتُ قد انسكبت في دماهم .
 وذرةُ الرملِ النّجّسةُ في الشاطئ ، ستكبرُ حتى تصير بيتاً نـجّساً
 لأب وأم . . .

يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . !

* * *

« يجيئون للشمس التي تنقوي بها صفاتُ الجسم ؛
 ليجد كل من الجنسين شمسه التي تضعفُ بها صفاتُ القلب .
 يجيئون للهواء الذي تتجدّد به عناصرُ الدم ؛
 ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسدُ به معاني الدم .
 يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية ؛
 ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية : سمكة تطاردُ سمكة . . .

ويقولون ليس على المُصَيِّفِ حَرَجٌ ،
أى لأنه أعمى الأدب ، وليس على الأعمى حَرَجٌ .
يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . !

* * *

« المدارس ، والمساجد ، والبَيْعُ ، والكنائس ، ووزارة الداخلية ؛
هذه كلها لن تهزم الشاطىء .

فأمواجُ النفس البشرية كأمواج البحر الصاخب ، تهزمُ أبداً لترجع أبداً .
لا يهزم الشاطىء إلا ذلك " الجامعُ الأزهر " ، لو لم يكن قد مُسِيخَ مدرسة !
فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم ، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح .
وتردُّ الأمواج نقيةً بيضاء^(١) ، كأنها عمامات العلماء .
وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء .
ولكنى أرى زمناً قد نُقِلَ حتى إلى المدارس رُوح « الكازينو » . . . !
يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار . . . !

* * *

« هنا على رغم الآداب ، مملكةٌ للصيف والقَيْظِ ، سلطانها الجسمُ المؤنثُ العارى .
أجسامٌ تُعَرَّضُ مَفَتَانِيهَا عَرَضَ البضائع ، فالشاطىءُ حانوتٌ للزواج !
وأجسامٌ تُعَرَّضُ أَوْضَاعُهَا كأنها في غُرْفَةٍ نومها في الشاطىء
وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها ، تُحِيطُ بها معانيها ملتَمِسةٌ معانيه ؛ فالشاطىءُ
سوقٌ للرفيق . . .
وأجسامٌ خَفِيرةٌ جالسةٌ للشمسِ والهواء ؛ فالشاطىءُ كدار الكُفْرِ لمن
أَكْرَهَ^(٢) .
وأجسامٌ عليليةٌ تَفْتَحِيهَا الأعينُ فتزديها ، لأنها جَعَلَتِ الشاطىءُ
مستشفى . . . !

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقلل « بيض » ، ولستنا من هذا الرأى ، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه ، لفغلهم عن السير في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد ، ومرة في الوصف بالجمع .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : « . . . إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وأجسامٌ خليعةٌ أضافت من (استانلى) وأخواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية — مَرْبَلَة الإسكندرية . . .

كان جدالُ المسلمين في السفور ، فأصبح الآن في العُرَى .
فلذا تطوّر ، فإذا بقى من تقليد أوروبا إلا الجدلُ في شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج^(١) ؟ »

* * *

انتهى ما استطعتُ ترجمته ، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة إلى بعض القواميس الحية . . . إلى بعض شبان الشاطئ .

(١) يسمى هذا في اللغة الضمد بفتح الضاد والميم ، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج ، ومنه قول الشاعر :

تريدن كيمّا تضمدينِ وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد
ومن هذا يقال في الرجل : ذاق الضماد (بكسر الضاد) لى ذاق الطعم الذى وصفه أناطول
فرانس

قصيدة مترجمة عن الملّك :

احذرى . . . !

ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر) . وهذه ترجمة عن أحد الملائكة ؛
 رآنى جالساً تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تحدّثه
 أو تتوجّس منه الشرّ؛ فتخايل الملك بأضوائه في الضوء، ومنتح لي بروحه،
 وبثّ في من سرّه الإلهي ، فجعلتُ أنظر في قلبي إلى فجر من هذا الشعر
 ينبع كلمةً كلمةً ، ويشرق معنى معنى ، ويستطير جملةً جملةً ، حتى
 اجتمعت القصيدة وكأنما سافرت في حلم من الأحلام فجئت بها .

وانطلق ذلك الملّك وتركها في يدي لغةً من طهارته للمرأة الشرقية في
 ملائكتها :

. . . .

احذرى . . . !

» احذرى أيتها الشرقية وبالغنى في الحذر ، واجعلى أخص طابعك
 الحذر وحده .

احذرى تمدّن أوربا أن يجعل فضيلتك ثوباً يوسع ويضيّق ،
 فلبس الفضيلة على ذلك هو لبسها وخلعها . . .

احذرى فنهم الاجتماعيّ الخبيث الذي يتقرّض على النساء في مجالس
 الرجال أن تؤدّي أجسامهنّ ضريبة الفن . . .

احذرى تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة ؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقّة
 إلى . . . إلى الفضيحة .

احذرى تلك النسائية^(١) الغزليّة ؛ إنها في جملتها ترخيص اجتماعي
 للحرّة أن . . . أن تشارك البغي في نصف عملها .

(١) نحن نستخدم : النسائية والنسوة ، وكلاهما عندنا صحيح ، والاختيار في كل موضع
 للأصح في موقعه .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى التمدن الذى اخترع لقتل لثَقَبِ الزوجةِ المقدَّس ، لقب
" المرأة الثانية " . . . »

واخترع لقتل لقبِ العذراء المقدَّس ، لقب « نصف عذراء » . . .
واخترع لقتل دينية معانى المرأة ، كلمة « الأدب المكشوف » . . .
وانتهى إلى اختراع السرعة فى الحب . . . فاكتنى الرجلُ بزوجةٍ ساعة . . .
وإلى اختراع استقلال المرأة ، فجاء بالذى اسمه (الأب) من الشارع ،
لتلقى بالذى اسمه (الابن) إلى الشارع . . .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى وأنتِ النِّجْمُ الذى أضاء منذُ النبوة ، أن تقلدى هذه الشمعة
التي أضاءت منذُ قليل .

إن المرأة الشرقية هي استمرار متصل لآداب دينيها الإنسانى العظيم .
هي دائماً شديدة الحفاظ حارسة لحوزتها ؛ فإن قانون حياتها دائماً هو
قانون الأمومة المقدَّس .

هي الطُّهر والعفة ، هي الوفاء والأنفة ، هي الصبر والعزيمة ، هي كل
فضائل الأم .

فما هو طريقها الجديد فى الحياة الفاضلة ، إلا طريقها القديم بعينه ؟
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى (ويحك) تقليد الأوربية التى تعيش فى دنيا أعصابها محكومة
بقانون أحلامها . . . »

لم تعد أنوثتها حالة طبيعية نفسية فقط ، بل حالة عقلية أيضاً
تشك وتُجادل . . .

أنوثته تفسدت فرأت الزواج نصف الكلمة فقط . . . والأم نصف

المرأة فقط . . .

ويا ويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة ، فتنفجر بالدواهي على
الفضيلة . . .

إنها بذلك حرة مساوية للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة
بفضيلتها . . .

أيتمها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى خَسَجَل الأوربية المترجلة من الإقرار بأنوثتها .

إن خَسَجَل الأنثى يجعل فضيلتها تخجل منها . . .

إنه يُسْقِطُ حياءها ويكسو معانيها رُجولةً غير طيبة ،

إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى . . .

والمرأة تعلقو بالزواج درجةً إنسانية ، ولكن هذه المكنوبة تنحط درجة

إنسانيةً بالزواج .

أيتمها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى تَهَوُّس الأوربية في طلب المساواة بالرجل .

لقد ساءت في الذهاب إلى الحلاق ، ولكن الحلاق لم يجد في وجهها

الصحبة . . .

لأنها خلقت لتَحْبِيب الدنيا إلى الرجل ، فكانت بمساواتها مادة تبغض .

العجيب أن سر الحياة يأبى أبداً أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خَسِرَتْه .

والأعجب أنها حين تخضع ، يرفعها هذا السرُّ ذاته عن المساواة بالرجل إلى

السيادة عليه .

أيتمها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى أن تَخْسِرَ الطباع التي هي الأليقُ بأم أنجبت الأنبياء في

الشرق .

أمٌ عليها طابَعُ النفسِ الجميلة ، تَنْشُرُ في كل موضعٍ جَوَّ نَفْسِهَا العالية .

فلو صارت الحياةُ غَيمًا ورعدًا وبرقًا ، لكانت هي فيها الشمس الطالعة .

ولو صارت الحياةُ قَبْضًا وحرورًا واختناقًا ، لكانت هي فيها النسيم يَسْتَخْطِرُ .

أمٌ لا تُبَالِي إلا أخلاقِ البُطولةِ وعزائمِها ، لأن جَدَّاتِها وَلَدْنَ الأبطال .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى هؤلاء الشبان المتمدنين بأكثر من التمدن . . .
يُبَالِغُ الحَيْثُ في زِينَتِهِ ، وما يَدْرِى أن زِينَتَهُ مُعْلِنَةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر . .
ويُبَالِغُ في عَرَضِ رُجُلَتِهِ عَلَى الفَتَيَاتِ ، يَحَاوِلُ إيقاظَ المرأةِ الراقدةِ في
العدراء المسكينة !

ليس لامرأةٍ فاضلةٍ إلا رَجُلُهَا الواحد ؛ فالرجالُ جميعًا مَصَائِبُهَا
إلا واحداً .

وإذ هي خالطتِ الرجال ، فالطبيعيُّ أنها تُخالطُ شَهَوَاتٍ ، ويجب أن
تَحْدَرَ وتُبَالِغُ .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى ؛ فإن في كل امرأةٍ طبائعَ شريفةً مُتَشَوِّرةً ؛ وفي الرجالِ طبائعَ
خسيسةٍ مُتَهَوِّرةٍ .

وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرفِ فيه الميل إلى النزول ، وبين الخِسةِ
فيها الميل إلى الصعود .

فيكِ طبائعُ الحبِّ ، والحنانِ ، والإيثار ، والإخلاص ، كلما كَثُرَتْ
كَثُرَتْ .

طبائعُ خَطَرَةٍ ، إن عملت في غير موضعِها . . . جاءت بعكس ما تعمله
في موضعِها .

فيها كلُّ الشرفِ ما لم تنخدعْ ، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى كلمةً شيطانيةً تسمعيها : هي فتنيةُ الجمال أو فنيةُ الأنوثة .
وافهميها أنتِ هكذا : واجبات الأنوثة وواجبات الجمال .
بكلمة يكون الإحساس فاسداً ، وبكلمة يكون شريفاً .
ولا يتسقط الرجل امرأةً إلا في كلمات مُزيّنةٍ مثلها . . .
يجب أن تتسلّح المرأة مع نظرتها ، بنظرة غضب ونظرة احتقار .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

* * *

« احذرى أن تُخدعى عن نفسك ؛ إن المرأة أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها
إلى الحياة .

إن الكلمة الخادعة إذ يقال لك ، هي أخت الكلمة التي يقال ساعة
إنفاذ الحكم للمحكوم عليه بالشنق . . .
يغتترؤنك بكلمات الحب والزواج والمال ، كما يقال للصاعِد إلى الشنّاق^(١)
ماذا تشتهي ؟ ماذا تريد ؟

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هذه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوى
أمام الدّجاجة . . .

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يا لحم الدّجاجة ! بعض كلمات الثعلب هي
أنياب الثعلب . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى .

* * *

« احذرى السقوط ؛ إن سقوط المرأة لهيولهُ وشدّته ثلاث مصائب في

مصيبة :

(١) كلمة « المشنقة » ليست عربية ، ولكن لها وجهاً في الاشتقاق ، غير أن كمره ميمها تجعلها ثقيلة ، وكان اسمها قديماً « الشنّاق » ، ذكرها ياقوت في معجم الأدياء ، وهي أفصح وأخف ، فلعل الشنّاق بعد هذا تشق المشنقة

سقوطُها هي ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوط من تُوجِدُهم !
 نَوَائِبِ الأُسرةِ كلها قد يَسْتُرُها البيت ، إلا عارَ المرأةِ .
 فَيَسِدُ العارَ تَقْلِبُ الحَيَاطَانِ كما تَقْلِبُ اليدُ الثوبَ فتَجْعَلُ ما لا يَرَى
 هو ما يَرَى .

والعارُ حَكْمٌ يَنْفِذُهُ المَجْتَمَعُ كُلُّهُ ، فهو نَفْسٌ من الاحترامِ الإنساني :
 أيتها الشرقية ! احذري احذري !

* * *

« لو كان العارُ في بئرٍ عميقةٍ لقلبها الشيطانُ مِثْدَنَةً ووقفَ يُؤذَنُ عليها .
 يفرَحُ اللعينُ بفضيحةِ المرأةِ خاصَّةً ، كما يفرحُ أبٌ غنيٌّ بمولودٍ جديدٍ
 في بيته . . . »

واللصُّ ، والقاتلُ ، والسكَّيرُ ، والفاسقُ ، كلُّ هؤلاء على ظاهِرِ الإنسانيةِ
 كالحرِّ والبردِ :

أما المرأةُ حينَ تسقطُ فهذه من تحتِ الإنسانيةِ هي الزَّلْزَلَةُ .
 ليس أظْعَمُ من الزَّلْزَلَةِ المرتجَّةِ تشقُّ الأرضُ ، إلا عارُ المرأةِ حينَ يشقُّ الأُسرةُ
 أيتها الشرقية ! احذري احذري ! »

الجمال البائس*

١

« وكيف يُشعَب صدع الحب في كبدى » ، كيف يُشعَب صدع

الحب ؟

لعمري ما رأيت الجمال مرةً إلا كان عندي هو الألم في أجمل صورهِ وأبدعها ؛ أترانى مخلوقاً بجرح في القلب ؟

ولا تكون المرأة جميلةً في عيني ، إلا إذا أحسست حين أنظر إليها أن في نفسى شيئاً قد عرفها ، وأن في عينيها لحظات موجهةً ، وإن لم تنظر هي إلى .

فإثبات الجمال نفسه لعيني ، أن يُثبِت صداقته لروحي باللمحة التي تدلّ وتكلم : تدلّ نفسى وتكلم في قلبي .

* * *

كنت أجلس في (الإسكندرية) بين الضحى والظهر ، في مكان على شاطئ البحر ، ومعى صديقي الأستاذ (ح)* من أفاضل رجال السلك السياسى ، وهو كاتبٌ من ذوى رأى ، له أدبٌ غصّ ونوادير وظرائف ؛ وفي قلبه إيمانٌ لا أعرف مثله في مثله ، قد بلغ ماشاء الله قوة وتمكناً ، حتى لأحسب أنه رجلٌ من أولياء الله قد عوقب فحكيم عليه أن يكون محامياً ، ثم زيد الحكم فجعل قاضياً ، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسياً . . .

وهذا المكان يُتقلب في الليل مسرّحاً ومترقّصاً وما بينهما . . . فيتغآوى فيه الجمال والحب ، ويعرضُ الشيطانُ مصنوعاتِه في الهزل والرقص والغناء^(١) ، فإذا

* انظر قصة صاحبة الجمال البائس في « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعى .

.. الأستاذ حافظ عامر (بك) .

(١) انظر مقالة (لو . . .) في الجزء الثانى ، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه .

دخَلَتْهُ فِي النَّهَارِ رَأَيْتَ نَوْرَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ يَغْسِلُهُ وَيَغْسِلُكَ مَعَهُ ، فَتَحَسُّ لِلنَّوْرِ هُنَاكَ عَمَلًا فِي نَفْسِكَ .

وَيُرَى الْمَكَانُ صَدْرًا مِنَ النَّهَارِ كَأَنَّهُ نَائِمٌ بَعْدَ سَهْرِ اللَّيْلِ ، فَمَا تَجِيئُهُ مِنْ سَاعَةٍ بَيْنَ الصَّبْحِ وَالظَّهْرِ ، إِلَّا وَجَدْتَهُ سَاكِنًا هَادِئًا كَالْجِسْمِ الْمُسْتَقِيلِ نَوْمًا ؛ وَهَذَا كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَكْتُبُ فِيهِ ، بَلْ لَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ إِلَّا لِلْكِتَابَةِ .

فَإِذَا كَانَ الظَّهْرُ أَقْبَلَ نِسَاءَ الْمَسْرَحِ وَمَعَهُنَّ مِنْ يُطَارِحُهُنَّ الْأَنَاشِيدَ وَالْحَانِئَهَا ، وَمَنْ يُشَقِّقُهُنَّ فِي الرِّقْصِ ، وَمَنْ يُرَوِّيهِنَّ مَا يُحْمِلُنَّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ابْتَلَتْهُنَّ بِهِ الْحَيَاةُ لِتُسَاقِطَ عَلَيْهِنَّ اللَّيَالِي بِالمَوْتِ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ .

وَكَنَّا إِذَا جِئْنَا رَأَيْنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْكِتَابَةِ وَالتَّفَكِيرِ ، فَيَنْصَرِفْنَ إِلَى شَأْنِهِنَّ ، إِلَّا وَاحِدَةً كَانَتْ أَجْمَلَهُنَّ * وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمَسْكِينَاتِ يَظْهَرْنَ لِعَيْنِ الْمُتأملِ كَأَن مَنَّهُنَّ مِثْلُ الْعَسَنَةِ الَّتِي كُسِرَ أَحَدُ قَرْنَيْهَا ، فَهِيَ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا عَلَامَةَ الضَّعْفِ وَالذَّلَّةِ وَالنَّقْصِ ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً تَبَدَّدَتْ حِينًا فَلَا تَكُونُ شَيْئًا ، وَتَجْتَمِعُ حِينًا فَتَكُونُ مَرَّةً شَيْئًا مَقْلُوبًا ، وَأُخْرَى شَكْلًا نَاقِصًا ، وَتَارَةً هَيْئَةً مُشَوَّهَةً ؛ لَكَانَتْ هِيَ كُلَّ امْرَأَةٍ مِنَ هَؤُلَاءِ الْمَسْكِينَاتِ اللَّوَاتِي يَمَشِينَ فِي الْمَسَرَّاتِ إِلَى الْخَوَافِ ، وَيَعْشَنَ وَلَكِنْ بِمَقْدَمَاتِ الْمَوْتِ ، وَيَجِدْنَ فِي الْمَالِ مَعْنَى الْفَقْرِ ، وَيَتَلَقَّيْنَ الْكِرَامَةَ فِيهَا الْاسْتِهْزَاءَ ، ثُمَّ لَا يَعْرِفْنَ شَابًا وَلَا رَجُلًا إِلَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَجْلِهِ لَعْنَةُ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ زَوْجَةٍ .

* * *

وَتِلْكَ الْوَاحِدَةُ الَّتِي أَوْمَأَتْ إِلَيْهَا كَانَتْ حَزِينَةً مُتَسَلِّبَةً^(١) فَكَأَنَّمَا جَدَّ بِهَا حَزْنُهَا إِلَى ، وَكَانَتْ مَفْكُورَةً فَكَأَنَّمَا هَدَاها إِلَى فِكْرُهَا ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً فَدَلَّهَا عَلَى الْحُبِّ ، وَمَا أَدْرَى وَاللَّهِ أَيْ نَفْسَيْنَا بَدَأَتْ فَقَالَتْ لِلْأُخْرَى أَهْلًا . . . وَرَأَيْتُهَا لَا تَنْصَرِفُ نَظْرَهَا عَنِّي إِلَّا لِتَرُدَّهُ إِلَيَّ ، وَلَا تَرُدُّهُ إِلَّا لِتَنْصَرِفَهُ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُهَا قَدْ جَالَ بِهَا الْغَمَزُكُ جَوْلَةً فِي مَعْرِكَتِهِ . . . فَتَشَاغَلَتْ عَنْهَا لَا أُرِيهَا أَنِّي أَنَا الْخَصَمُ الْآخَرُ فِي الْمَعْرَكَةِ . .

* يعني راقصة هناك اسمها « بنوتشيا » .

(١) يقال : تسلبت المرأة . إذا أحدثت ، أي لبست ثياب الحداد .

بَسَدَ أَنى جَعَلْتُ أَخْذُهَا فى مَطَارِحِ النَّظَرِ ، وَأَتَأَمِّلُهَا خُلْسَةً بَعْدَ خُلْسَةٍ
فى ثوبِهَا الحَرِيرَى الْأَسْوَدَ ، فَإِذْ هُوَ يَسْبُبُ لَوْنَهَا^(١) فَيَجْعَلُهُ يَتَلَأَلًا ، وَيُظْهِرُ
وَجْهَهَا بِلَوْنِ الْبَدْرِ فى تِمَمِهِ ، وَيُبْدِيهِ لِعَيْنَى أَرْقٍ مِنَ الْوَرْدِ تَحْتَ نَوْرِ الْفَجْرِ .
وَرَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا فى الْمَرْأَةِ كَلَامًا بِاخْتِصَارٍ ، يُشْرِقُ عَلَى جِسْمٍ بِضَى الْبَيْنِ
مِنْ خَسَمَلِ النَّعَامِ ، تَعْرِضُ فِيهِ الْأَنْوَةُ فَتَنُهَا الْكَامِلُ ؛ فَلَوْ خُلِقَ الدَّلَالُ امْرَأَةً
لَكَانَتْهَا .

وَتَلُوحُ لِلرَّأى مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا وَصَّعَتْ فى فَهْا (زَرَّ وَرَدَ) أَحْمَرَ مُنْضَمًّا عَلَى
نَفْسِهِ : شَفَتَانِ تَكَادُ ابْتِسَامَتُهُمَا تَكُونُ نِدَاءً لَشَفَتَى مُحِبٌّ ظَمَانٌ . . . !
أَمَّا عَيْنَاهَا فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَهُمَا عَيْنَى امْرَأَةٍ وَلَا ظَبْيَةٍ ؛ سَوَادُهُمَا أَشَدُّ سَوَادًا مِنْ
عَيُونِ الطَّبَّاءِ ؛ وَقَدْ خُلِقَتَا فى هَيْئَةٍ تُثَبِّتُ وُجُودَ السَّحَرِ وَفِعْلُهُ فى النَّفْسِ ؛
فَهُمَا الْقُوَّةُ الْوَائِقَةُ أَنَّهَا النَّافِذَةُ الْأَمْرَ ، يُمَازِجُهَا حَتَّانُ أَكْثَرُ مَا فى صَدْرِ أُمِّ عَلَى
طِفْلِهَا ؛ وَتَمَامُ الْمَلَاخَةِ أَنَّهُمَا هُمَا ، بِهَذَا التَّكْحِيلِ ، فى هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، فى هَذَا
الْوَجْهِ الْقَمَرِيِّ .

يَا خَالِقَ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ! سَبِّحَانَكَ سُبْحَانَكَ !

قال الراوى :

وَأَتَغَافَلُ عَنْهَا أَيَّامًا ؛ وَطَالَ ذَلِكَ مِنى وَشَقَّ عَلَيْهَا ، وَكَأَنى صَغَرْتُ إِلَيْهَا
نَفْسَهَا ، وَأَرْهَقْتُهَا بِمَعْنَى الْخَضُوعِ ، بَيَدِ أَنْ كَبْرِيَاءَهَا الَّتى أَبَتْ لَهَا أَنْ تَقْدَمَ ،
أَبَتْ عَلَيْهَا كَذَلِكَ أَنْ تَنْهَزِمَ .

وَأَنَا عَلَى كُلِّ أَحْوَالى إِنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الْجَمَالِ كَمَا أَسْتَنْشِى الْعِطَرَ يَكُونُ
مُتَضَمِّنًا فى الْهَوَاءِ : لَا أَنَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمَسَّهُ وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَخَذْتُ
مِنى . ثُمَّ لَا تَدْفَعُنِى إِلَيْهِ إِلَّا فِطْرَةَ الشَّعْرِ وَالْإِحْسَاسِ الرُّوحَانِى ، دُونَ فِطْرَةِ الشَّرِّ
وَالْحَيَوَانِيَّةِ^(٢) وَمَنِ أَحْسَسْتُ جَمَالَ الْمَرْأَةِ أَحْسَسْتُ فِيهِ بِمَعْنَى أَكْبَرَ مِنَ الْمَرْأَةِ ،
أَكْبَرَ مِنْهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مِنْهَا .

(١) يَزِيدُهُ وَيُظْهِرُهُ وَيَجْعَلُهُ أَحْفَلَ بِالْجَمَالِ .

(٢) بِسَطْنَا هَذَا الْمَعْنَى فى الْمَقْدَمَةِ الثَّانِيَةِ لِكِتَابِنَا «أَوْرَاقُ الْوَرْدِ» وَفى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا
الْكِتَابِ ، فَلَمْ تَتَوَسَّعْ فِيهِ هُنَا .

قال الراوى :

فلما جلّس ذات يوم وقد أقبلت على شأني من الكتابة ، وبازأني فني رَيْقُ الشَّبابِ ، في العُمرِ الذي تَرى فيه الأَعينُ بالحماسة والعاطفة ، أَكثَرَ مما تَرى بالعقل والبصيرة ، ناعمٌ أَمَلِدُ تَمَّ شِبابُهُ ولم تَتِمَّ قُوَّتُهُ ، كَأَنَّمَا نَكَصَتِ الرَّجُلَةُ عَنْهُ إِذْ وَافَتْهُ فلم تجدْهُ رجلاً... أو تلك هي شِمةُ أَهلِ الظَّرْفِ والقَصْفِ من شبانِ اليوم : تَرى الواحدَ منهم فتَعرِفُ النُّضْجَ في ثِيابه أَكثَرَ مما تَعرِفُهُ في جِسمِهِ ، وتَأبَى الطَّبِيعَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَنثَى فيجَاهِدُ لِيَكُونَ صَرَبًا من الأَنثَى !..

إِنِّي لَجَالِسٌ إِذْ وَافَتِ الحِسناءُ فَأَوْمَأَتْ إِلَى الفَتَى بِتَحِيَّتِهَا ، ثُمَّ ذَهَبَتْ فَاعْتَلَسَتْ المِنْصَةَ مع البَاقِيَاتِ ، وَرَقَصَتْ فَأَحْسَنْتُ مَا شَاءَتْ ، وَكَأَن فِي رَقِصِهَا تَعْبِيرًا عَنْ أَهْوَاءِ وَنَزَعَاتِ تَريدُ إِثَارَتَهَا فِي رَجُلٍ مَا . . . فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا الأَسْتَاذِ (ح) : إِن كَلِمَةَ الرَقْصِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِعَارَةٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا ، كَمَا يَسْتَعِرْنَ كَلِمَةَ الحُبِّ لَجَمْعِ المَالِ ؛ وَلَا رَقْصَ وَلَا حُبَّ إِلَّا فُجُورٌ وَطَمَعٌ .

ثُمَّ إِنَّمَا فَرَغْتُ مِنْ شَأْنِهَا فَفَرَّتْ تَتَهَادَى حَتَّى جَاءَتْ فَجَلَسْتُ إِلَى الفَتَى . . . فَقَالَ الأَسْتَاذُ (ح) وَكَانَ قَدْ أَلَمَّ بِمَا فِي نَفْسِهَا : أَتُرَاهَا جَعَلْتَهُ هَهنا مَحَطَّةً . . . ؟

قال الراوى : أَمَا أَنَا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي لَقَدْ جَاءَ المَوْضُوعُ . . . وَإِنِّي لَنِي حَاجَةٌ أَشَدَّ الحَاجَةِ إِلَى مَقَالَةٍ مِنَ المَكْحُولَاتِ ، فَتَفَرَّغْتُ لَهَا أَنْظَرُ مَاذَا تَصْنَعُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ قَلِيلًا مَا يَكُونُ لَهَا فِكْرٌ أَوْ فِلَسَفَةٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ الفِكْرَ والفِلَسَفَةَ وَالمَعَانِيَ كُلَّهَا تَكُونُ فِي نَظَرِهَا وَابْتِسَامَاتِهَا وَعَلَى جِسمِهَا كُلِّهَا .

* * *

وَكَانَ فَتَاهَا قَدْ وَضَعَ طَرَبُوشَهُ عَلَى يَدِهِ ؛ فَقَدْ انْتَهَيْنَا إِلَى عَهْدٍ رَجَعَ حَكْمُ الطَرَبُوشِ فِيهِ عَلَى رَأْسِ الشَّابِّ الجَمِيلِ ، كَحَكْمِ البَرَقِ عَلَى وَجْهِ الفَتَاةِ الجَمِيلَةِ . . . فَأَسْفَرَ ذَاكَ مِنْ طَرَبُوشِهِ ، وَأَسْفَرَتْ هَذِهِ مِنْ نِقَابِهَا — قَالَ الرَّاوى : فَمَا جَلَسْتُ إِلَى الفَتَى حَتَّى أَدْنَيْتُ رَأْسَهَا مِنَ الطَرَبُوشِ ، فَاسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ ، فَأَلْصَقَتْ بِهِ خَدَّهَا . . .

ثم التفتت إلينا التفاتة الخشيف المدعور استروح السبع^(١) ووجد مقدّماته
في الهواء ، ثم أرخت عينيها في حياء لا يستحي
وأنشأت تتكلم وهي في ذلك تُسارقنا النظر ، كأن في ناحيتنا بعض
معاني كلامها . . .

ثم لا أدري ما الذي تصاحكت له ، غير أن ضحكاتها انشقت نصفين ،
رأينا نحن أجماعهما في ثغرها . . .
ثم تزعزعت في كرسيها كأنما تهتم أن تنقلب ، لتمتد إليها يد فتُمسِكها
أن تنقلب . . .

ثم تساندت على نفسها ، كالمریضة النائمة تتنهدض من فراشها فيكاد
يئن بعضها من بعضها ، وقامت فشت ، فحاذتنا ، وتجاوزتنا غير بعيد ، ثم رجعت
إلى موضعها متكسرة كأن فيها قوة تُعلن أنها انتهت . . .

• • •

قال الراوى :

ونظرت إليها نظرة حزن ، فتغضبّت واغتاظت ، وشاجرت هذه النظرة
من عينيها الدّعجاءوين بنظرات متهمّة ، لا أدري أهي توبخنا بها ، أم
تتهمنا بأننا أخذنا من حُسْنها مَجَانًا . . . ؟

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجهرُ بالكلام لِيَسْلُغَهَا :

أما ترى أن الدنيا قد انتكست في انتكاسها ، وأن الدهر قد فسَدَ في فساده ،
وأن البلاء قد ضوَعِفَ على الناس ، وأن بقية من الخير كانت في الشر القديم
فانتزعت ؟

قال : وهل كان في الشر القديم بقية خير وليس مثلها في الشر الحديث ؟
قلت : ههنا في هذا المسرح قِيَانٌ لو كانت لإحدهن . . . في الزمن القديم ،
لتنافس في شرائها الملوك والأمراء وسرّاة الناس وأعيانهم ، فكان لها في
عَهْرَةِ الزمان صُونٌ وكرامة ، وتنقلب في القصور فتجعل لها القصور حُرمة تمنعها

(١) الخشف : ولد الفزال ، يطلق على الذكر والأُنثى . واستروح السبع : أى وجد ريحه في
الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان .

ابتذالَ فَنُشَا لِكُلِّ مَنْ يَدْفَعُ خَمْسَةَ قُرُوشٍ ، حَتَّى لِرِذَّالِ النَّاسِ وَغَوَاثِيهِمْ
وَسَقِيَّاتِهِمْ ؛ ثُمَّ هِيَ حِينَ يَدُورُ شَبَابُهَا تَكُونُ فِي دَارِ مَوْلَاهَا حَمِيلَةً عَلَى كَرَمٍ
يَحْمِلُهَا ، وَعَلَى مَرْوَةِ تَعِيشَ بِهَا .

وَقَدِيمًا أَخَذَتْ سَلَامَةُ الزَّرْقَاءُ فِي قُبُلَتِهَا لَوْلُوتَيْنِ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، تَبْلُغُ
أَلْفَى جَنْبِهِ . فَهَلْ تَأْخُذُ الْقَيْسَنَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا دَخِينَةً^(١) بَمَلِيمِينَ ؟

قَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) : مَا أَبْعَدَكَ يَا أَخِي عَنْ (بَوْرَصَةِ) الْقُبُلَةِ وَأَسْعَارِهَا . .
وَلَكِنْ مَا خَبِرُ اللَّوْلُوتَيْنِ ؟

قَالَ الرَّاوِي :

كَانَتْ سَلَامَةُ هَذِهِ جَارِيَةً لِابْنِ رَامِينَ^(٢) ، وَكَانَتْ مِنَ الْجَمَالِ بِحِثِّ
قِيلٍ فِي وَصْفِهَا : كَانَ الشَّمْسُ طَالِعَةً مِنْ بَيْنِ رَأْسَيْهَا وَكَتَفَيْيْهَا ؛ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا فِي
مَجْلَسِ غَنَائِهَا الصَّيْرِفِيِّ الْمَلَقَّبِ بِالْمَاجِنِ ، فَلَمَّا أَذِنَتْ لَهُ ، دَخَلَ فَأَقْعَسَى بَيْنَ
يَدَيْهَا ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي ثَوْبِهِ فَأَخْرَجَ لَوْلُوتَيْنِ ، وَقَالَ : انْظُرِي يَا زَرْقَاءُ جُعِلَتْ
فِدَاكَ . ثُمَّ حَلَفَ أَنَّهُ نَقَدَ فِيهِمَا بِالْأَمْسِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . قَالَتْ : فَمَا أَصْنَعُ
بِذَلِكَ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمِي . . .

ثُمَّ غَنَّتْ صَوْتًا وَقَالَتْ : يَا مَا جِئْتُ هُبْنُهُمَا لِي وَيَحْكُ . . قَالَ : إِنْ شِئْتَ وَاللَّهِ
فَعَلْتُ . قَالَتْ : قَدْ شِئْتُ . قَالَ : وَالْيَمِينَ الَّتِي حَلَفْتَ بِهَا لَازِمَةٌ لِي إِنْ أَخَذْتِيهِمَا
إِلَّا بِشَفَّتِيكَ مِنْ شَفْتِي

* * *

قَالَ الرَّاوِي :

وَرَأَيْتُهَا قَدْ أَذِنَتْ لِي ، وَأَنْصَبْتُ لِكَلَامِي ، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَسْمَعُنِي أَعْتَذِرُ
إِلَيْهَا ، وَاسْتَيْقَنَتْ أَنَّ لَيْسَ بِي إِلَّا الْحَزَنُ عَلَيْهَا وَالرَّثَاءُ لَهَا ، فَبَدَتْ أَشَدَّ حَيَاءً
مِنَ الْعِذْرَاءِ فِي أَيَّامِ الْحِدْرِ
ثُمَّ قُلْتُ : نَعَمْ كَانَ ذَلِكَ الزَّمَنُ سَفِيهًا ، وَلَكِنَّهَا سَفَاهَةٌ فَنِّ . . .

(١) الدَخِينَةُ وَضَعْنَاهَا لِلْسِيَّجَارَةِ ، وَجَمْعُهَا الدَخَائِنُ .

(٢) سَلَامَةُ هَذِهِ اشْتَرَاهَا جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ بَنَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ (٤٠٠٠ جَنْبِهِ) ، كَمَا اشْتَرَى
جَارِيَةً أُخْرَى يَقَالُ لَهَا رَبِيعَةٌ ، بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

لاسفاهة عَرَبْدَة وَتَصَعَّلِكَ كما هي اليوم .

فنظرتُ إلى نظرةٍ لن أنساها ؛ نظرةً كأنها تَدُمَعُ ، نظرةً تقول بها :
أَلَسْتُ إِنْسَانَةً ؟ فلم أملك أن قلتُ لها : تَعَالَى تَعَالَى .

وجاءت أحلى من الأمل المعترضِ سَنَحَتْ به الفُرْصَةُ ، ولكن ماذا قلتُ
لها وماذا قالت ؟ . . .

الجمال البائس

٢

جاءتُ أحلى من الأمل المعترض سَنَحَتْ به فُرْصَة ؛ وعلى أنها لم تَخْطُ
إِلَيْنَا إِلَّا خَطْوَةً وَتَمَامَهَا ، فقد كانت تجِدُ في نفسها ما تجدُه لو أنها سافرت
من أرضٍ إلى أرضٍ ، ونقلها البُعْدُ النَّازِحُ من أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ .

يا عَجَبًا ! إن جلوسَ إنسانٍ إلى إنسانٍ بِإِزَائِهِ ، قد يكونُ أحيانًا سَفَرًا طَوِيلًا
في عَالَمِ النَّفْسِ ؛ فهذه الحَسَاءُ تُعِيشُ في دُنْيَا فارغةٍ من خِلَالِ كَثِيرَةٍ : كالتقوى ،
والخِياءِ ، والكِرَامَةِ ، وسموِّ الروحِ ، وغيرها ؛ فإذا عَرَضَ لها من يُشْعِرُهَا
بعضَ هذه الخِلَالِ ، وَيَنْتَزِعُهَا من دُنْيَا اضطرارِها وأخلاقِ عِيشِها ولو ساعةً —
فما تكونُ قد وَجَدَتْ شخصًا ، بل كَشَفَتْ عَالَمًا تَدْخُلُهُ بِنَفْسٍ غَيْرِ
النَّفْسِ الَّتِي تَدْبُرُهَا في عَالَمِ رِزْقِهَا

ولا أعجَبَ من سحر الحبِّ في هذا المعنى ؛ فإنَّ العاشقَ لَيَكُونُ حَبِيبَهُ إلى
جَانِبِهِ ، ثم لَا يُحْسُ إِلَّا أَنَّهُ طَوَى الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ ودخلَ جَنَّةَ الْخُلْدِ
في قَبْلَةِ . . .

جَلَسْتُ إِلَيْنَا كَمَا تَجْلِسُ الْمَرْأَةُ الْكَرِيمَةُ الْخَفِيرَةُ : تُعْطِيكَ وَجْهَهَا وَتَبْعِدُ
عَنْكَ بَسَائِرَهَا ، وتُريكَ الْغُصْنَ وَتَسْخُبُ عَنْكَ أَزْهَارَهُ . فرَأَيْنَاهَا لم تستقبلِ الرجلَ
مِنَّا بِالْأُنْثَى مِنْهَا كَمَا اعتادت ؛ بل استقبلتْ وَاجِبًا بِرِعايَةٍ ، وتَلَطَّفًا بِحَسَنَانٍ ، وأدبًا
من فنِّ بَادِبٍ من فنِّ آخَرٍ ؛ وكان هذا عَجِيبًا مِنْهَا ؛ فكلَّمَهَا في ذلك الْأَسْتَاذِ
(ح) فقالت : أُمًّا واحدةً فَإِنَّا نَتَّبِعُ دَائِمًا مَحَبَّةً من نَجَالِيسُهُمْ ، وهذه هي
القاعدة . وأما الثَّانِيَةُ ؛ فَإِنَّا لَا نَجِدُ الرَّجُلَ إِلَّا في النَّدْرَةِ ؛ وَإِنَّمَا نحنُ مع
هؤلاءِ الَّذِينَ يَتَسَوَّمُونَ بِسَيِّمَةِ الرِّجَالِ ، كَحِيلَةِ الْمُحْتَالِ على غَفْلَةِ الْمُغْفَلِ ؛
وهم معنا كَالْقُدْرَةِ بِالثَّمَنِ مَا يَشْتَرِيهِ الثَّمَنُ ؛ ليسوا عَلَيْنَا إِلَّا قَهْرًا من الْقَهْرِ ؛
ولسنا عَلَيْهِمْ إِلَّا سَلْبًا من السَّلْبِ ، مادةٌ مع مادةٍ ، وشرٌّ على شرٍّ ؛ أما الْإِنْسَانِيَّةُ
مِنَّا وَمِنْهُمْ فَقَدْ ذَهَبَتْ أَوْ هِيَ ذَاهِبَةٌ .

قال (ح) : ولكن . . .

فلم تدعه يَسْتَدْرِكْ بل قالت : إنَّ « لكن » هذه غائبة الآن . . . فلا تنجى في كلامنا . أتريد دليلاً على هذا الانقلاب ؟ إن كل إنسان يعلم أن الخطَّ المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ؛ ولكنَّ كلَّ امرأةٍ منا تعلم أن الخطَّ المعوجَّ هو وحده أقرب مسافة بينها وبين الرجل

قالت : فإذا وجدتَ إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها . . ردَّتْها أخلاقه إلى المرأة التي كانت فيها من قبل ، وزادتها طبيعتها الزَّهْوُ بهذا الرجل النادر ، فتكونُ معه في حالة كحالة أكملِ امرأة ، بسبب أنه كمالُ الحُلم الذي يستيقظُ وشيكاً ؛ فإن الرجلَ الكاملَ يكملُ بأشياءَ منها وأسفاً . . . ! منها ابتعادُه عنا . ثم قالت : وصاحبك هذا منذُ رأيتُه ، رأيتُه كالكتاب يشغلُ قارئة عن معاني نفسه بمعانيه هو

* * *

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه ، فتي كان الكتابُ عند هذه كتاباً يشغلُ بمعانيه ؟ غيرَ أني رأيتها قد تكلمتُ واحتفَلتُ ، وأحسنَت وأصابت ؛ فتركتهَا تتحدث مع الأستاذ (ح) ، وغبتُ عنهما غيبةً فكر ؛ وأنا إذا فكَّرتُ انطبق علىَّ قولهم : خَلَّ رَجُلًا وشأنه . فلا يتصلُ بي شيءٌ مما حوِلي . وكان كلامُها يسطعُ لي كالمصباح الكهربائي المتوقِّد ، فقدَّمها فكرُها إلى غيرَ ما قدَّمتها إلى نفسها ، ورأيتُ لها صورتين في وقتٍ معاً ، إحداهما تعنِّدُ من الأخرى

وكنْتُ قبل ذلك بساعة قد كتبتُ في تذْكِرة خواطرِي هذه الكلمة التي استوحيتُها منها ؛ لأضعَها في مقالة عنها وعن أمثالها ، وهي :

« إذا خرجت المرأةُ من حُدود الأسرة وشمرَيعتها ، فهل بقي منها إلا الأُنثى مجردةٌ تجرِدها الحيوانُ المتكشِّف ، المتعرِّض للقوة التي تناله أو ترغب فيه ؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأُنثى ؟

« وما الذي استرعاها الاجتماعُ حينئذ فتسرَّعاه منه وتحفظُ له ، إلا ما استرعى أهلُ المالِ أهلَ السرقة ؟ إن الليلَ ينطوي على آفتين : أولئك اللصوصِ ، وهؤلاء النساءُ .

« وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة مادامت رذائلها دائماً وراء عينيها ، وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمهاتُ والمُحَصَّناتُ من النساء ، وليس شأنها من شأنهن ؟ إن خيالها يُحَرِّزُ في وعيهِ صورتها الماضية من قبل أن تزلَّ ، فإذا خَلَّتْ إلى نفسها كانت فيها اثنتان ، إحداهما تلعنُ الأخرى ، فترى نفسها من ذلك على ما ترى .

« وهى حين تُطالعُ مرآتها لِتَبَرِّجَ وتُحْفِلَ في زينتها ، تنظرُ إلى خيالها في المرأة بأهواء الرجال لابعينُ نفسها ، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة ؛ فلا تُعْنِي بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة ، بل مُثْمِرَةً كالتاجر . . . وتُكَسِّبُهاُ بجماها يكونُ أولُ ما تفكرُ فيه ؛ ومن ذلك لا يكونُ سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تُكسِبُ منه ؛ بخلاف الطبع الذى فى المرأة ، فإن سرورها بمسحةِ الجمالِ عليها هو أولُ فكرها وآخره .

« إن الساقطة لا تنظرُ فى المرأة — أكثرَ ما تنظرُ — إلا ابتغاء أن تتعهدَ من جماها ومن جسمها مواقعَ نظراتِ الفُجورِ وأسبابِ الفتنة ، وما يَسْتَهْوِي الرجلَ وما يُفْسِدُ العِفَّةَ عليه ؛ فكأن الساقطةَ وخيالها فى المرأة ، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأةٍ ، لا امرأةٌ تنظرُ إلى نفسها . . . »

* * *

ذهبتُ أفكرُ فى هذه الكلمة التى كتبتها قبل ساعة ، ولم أستطع أن ألبسَ فى هذه القضية وجهَ القاضى ؛ فدخلتُ رِقَّةً شديدةً لهذا الجمالِ الفاتنِ ، الذى أراه يبتسمُ وحولَه الأقدارُ العابسة ؛ ويلهو وبين يديه أيامُ الدموع ؛ ويجتهدُ فى اجتذابِ الرجالِ والشبانِ إلى نفسه ، والوقتُ آتٍ بالرجالِ والشبانِ الذين سيجهلون فى طرده عن أنفسهم .

وتَغَشَّانى الحزنُ ، ورأتُ هى ذلك وعرفته ؛ فأخرجتُ منديلها المعطرَ ومسحتُ وجهها به ، ثم هزته فى الهواء ، فإذا الهواء منديلٌ معطرٌ آخر مسحتُ به وجهى . . .

وقال الأستاذ (خ) : آه من العطر ! إنَّ منه نوعاً لا أَسْتَشِيهِ مرةً إلا ردتنى إلى حيث كنتُ من عشرين سنةً خَلَّتْ ، كأنما هو مُسَجَّلٌ بزمانه ومكانه فى دماغى . . .

فضحكتُ هي وقالت : إن عِطرنا نحن النساء ليس عِطراً بل هو شعورٌ
نُشبِتُهُ في شعورٍ آخر . . .

فقلت أنا : لأريبَ أن لهذه الحقيقةِ الجميلةِ وجهاً غيرَ هذا . قالت : وما هو ؟
قلت : إن المرأةَ المعطرةَ المتزينةَ ، هي امرأةٌ مُسلَّحةٌ بأسلحتِها . أفي
ذلك ريب ؟ قالت : لا .

قلت : فلماذا لا يُسمَّى هذا العِطرُ بالغازاتِ الخائفةِ الغرامية . . . ؟
فضحكتُ فنوناً ؛ ثم قالت : وتسمَّى (البودرة) بالديناميت الغرامى .
ونقلنى ذلك إلى نفسى مرة أخرى ، فأطرقتُ إطرقةً ؛ فقلت : ما بك ؟
قلت : بى كلمةُ الأستاذ (ح) ، إنها ألهمتُ فى قلبى جَمرةً كانت
خامدة .

قالت : أو حَرَّكَتْ نقطةَ عِطرٍ كانت ساكنة . . . !
فقلت : إن الحب يضعُ روحانيته فى كل أشياءه ، وهو يغيرُ الحالةَ النفسيةَ
للإنسان ، فتغيرُ بذلك الحالةَ للأشياء فى وَهْمِ الحب . (فعطرُ كذا)
مثلاً . . . هو نوعٌ شَدِيدٌ من العِطر ، طيبُ الشَّمَمِ ، عاصفُ النَّشْوةِ ،
حادُّ الرائحةِ ؛ لكأنه يَنْشُرُ فى الجوِّ رَوْضَةً قد مُلئتُ بأزهاره تُشَمُّ ولا تُرى ؟
وإنه ليجعلُ الزمنَ نفسه عَبَقاً بريحه ، وإنه ليفْعِمُ كلَّ ما حوله طيباً ،
وإنه ليسحِرُ النفسَ فيتحوَّلُ فيها . . .

وهنا ضحكتُ وقطعتُ على الكلامِ قائلة : يظهرُ لى أن (عِطر كذا) هاجِرٌ
أو مخاصِمٌ . . .

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتَشَقَتْ أَرْجَهُ مرةً إلا حَسِبْتُهُ
يَنْفَحُ مِنَ الْجَنَّةِ .

فما أسرعَ ما تلاشَى من وجهها الضحِكُ وهَيْئَتُهُ ، وجاءت دَمْعَةٌ وهَيْئُهَا .
ولحَت فى وجهها معنىً بكوتَ له بكاءَ قلبى .

جمالُها ، فنتتها ، سحرُها ، حديثُها ، لهوُها ؛ آه حين لا يبقَى لهذا
كلُّه عَيْنٌ ولا أثرٌ ، آه حين لا يبقَى من هذا كله إلا ذُنُوبٌ ، وذُنُوبٌ ،
وذُنُوبٌ !

وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ، ألا نُوحِشَها من إنسانيتنا ، وأن نَسْبُلَ شوقَها إلى ما حُرِّمَتْه من قَدَرِها قدرَ إنسانةٍ فيما نَسْتَعَاظُها بيننا . والمرأة من هذا النوع إذا طَمِعَتْ فيما هو أعلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع - طمِعَتْ في الاحترام من رجلٍ شريفٍ متعَفِّفٍ ، ولو احترامَ نظرةٍ ، أو كلمةٍ . تَقْنَعُ بأقلِّ ذلك وترضى به ، فالقليلُ مما لا يدركُ قليله ، هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذي يُنالُ كثيره .

ومثل هذه المرأة ، لا تَدْرِي أنت : أطاقتِ بالذنب أم طافَ الذنبُ بها ؟ فاحترامُها عندنا ليسَ احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوَجُومِ أمامِ المصيبةِ في لحظةٍ من لحظاتِ رَهْبَةِ القَدَرِ وخُشُوعِ الإيمانِ .

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفي نفسها التندُّمُ والحسرةُ واللهفةُ مما هي فيه ، وهذا هو جانبُهن الإنسانيُّ الذي يُنظَرُ إليه من النفسِ الرقيقةِ بلهفةٍ أخرى ، وحسرةٍ أخرى ، وندمٍ آخر . كم يَرَحِمُ الإنسانُ تلكَ الزوجةَ الكارهةَ المرغمةَ . على أن تعاشرَ من تكرهه ، فلا يزالُ يغلي دُمُها بوساوسِ وآلامٍ من البغضِ لا تنقطع ! وكم يَبْرئُ الإنسانُ للزوجةِ الغيورِ ، يغلي دُمُها أيضاً ولكن بوساوسِ وآلامٍ من الحب ! ألا فاعلم أن كلَّ من مثل هذه الحسنة تحمل على قلبها مثلَهم مائةَ زوجةٍ كارهةٍ مرغمةٍ مستعبدةٍ ، يُخَالِطُها مثلُهم مائةَ زوجةٍ غيورٍ مكابدةٍ منافسةٍ ؛ ولقد تكونُ المرأةُ منهن في العشرين من سنّها وهي مما يكابدُ قلبُها في السبعين من عُمرِ قلبها أو أكثر .

وهذه التي جاءتنا إنما جاءتنا في ساعةٍ منا نحن لا منها هي ، ولم تكن معنا لافي لزمانِها ولا في مكانِها ولا في أسبابِها ، وقد فتحت البابَ الذي كان مغلقاً في قلبها على الحفَرِ والحياءِ ، وحوّلتِ جمالَها من جمالِ طابَعِ الرذيلةِ ، إلى جمالِ طابَعِ الفنِّ ، وأشعرتْ أفراحَها التي اعتادتْها رُوحُ الحزنِ من أجلنا ، فأدخلتْ بذلك على أحزانها التي اعتادتْها رُوحُ الفرحِ بنا .

من ذا الذي يعرفُ أن أدبه يكونُ إحساناً على نفسٍ مثلِ هذه ثم لا يُحسِنَ به ^(١) ؟

(١) في كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الربطة) ، كتبناه في مثل موضوع (الجنال البائس) ، غير أنه بمعنى آخر ومعانٍ أخرى . والربطة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة Maitresse يريد بها الأوروبيون المرأةَ البغيَ ترتبط بأجر في دار الرجل لتحل محل الزوجة .

* * *

تجددُ الحياةُ متى وجَدَ المرءُ حالةً نفسيةً تكونُ جديدةً في سرورها .
وهذه المرأةُ المسكينةُ لا يَستَغنِيها مِنَ الرجلِ من هو ؟ ولكن كَـم هو ... لم تَرَ فينا
نحن الرجل الذي هو « كم » ، بل الذي هو « مَن » . وقد كانت من نفسها الأولى
على بُعد قصيٍّ كالذي يمد يده في بئر عميقة لِيَتناول شيئاً قد سقط منه ؛
فلما جلستُ إلينا ، اتصلتْ بتلك النفسِ من قُرب ؛ إذ وجدتُ في زمنها الساعةَ
التي تصلحُ جِسْراً على الزمن .

قال الراوى :

كذلك رأيتها جديدةً بعد قليل ، فقلتُ للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟
قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التي جاءت من هذه . إن
قلبها يَشْشُرُ الآن حوالَها نوراً كالصبح إذا أُضِيء ، وأراها كالزهرة التي
تفتَحُ ؛ هي هي التي كانت ، ولكنها بغيرِ ما كانت .

فقلتُ هي : إني أحسبك تحبني ؛ بل أراك تحبني ؛ بل أنت تحبني ...
لم يخفَ علىَّ منذُ رأيتك ورأيتني .

قلتُ هَسِيه : صحيحاً ، فكيف عرفتَه ولم أَصانِعْكِ ، ولم أَمْلُقْ لك ،
ولم أزدُ على أن أجيءَ إلى هنا لأكتب ؟

قالت : عرفتَه من أنك لم تصانِني ، ولم تملُقْ لي ، ولم تزدُ على أن تجيءَ
إلى هنا لتكتب

قلتُ : ويحك ، لو كُحِلَتْ عَيْنُ (المَكْرَسُكُوب) لكانت عَيْنُكَ .
وضحكنا جميعاً ؛ ثم أَقبلْتُ على الأستاذ (ح) فقلتُ له : إن القضايا إذا كَثُرَ ورودُها
على القاضى جَعَلَتْ له عيناً باحثة .

* * *

قال الراوى :

وأنظرُ إليها ، فإذا وجهُها القمريُّ الأزهرُ قد شَرِقَ لونه ، وظهر فيه من الحياة
ما يظهرُ مثله على وجهِ العذراءِ المَخْدَرَةِ إذا أنتَ مستسْتَهْيا بِرَبِيَّة^(١) ؛ فما شككتُ
أنها الساعةَ امرأةً جديدةً قد اصطَلَحَ وجهُها وحيَاؤها ، وهما أبدأ متعادِيان في كل
امرأة مكشوفةٍ العِفَّةِ . . .

(١) أى لأنها ظنت أنه يقول إنها اعتادت الرجال .

وزهدت أَسْتَدْرِكَ وَأَتَأَوَّلَ ، فَقُلْتُ لَهَا : مَا ذَلِكَ أَرَدْتُ ، وَلا حَمْدَ سَتُّ عَلَى
هَذَا الظَّنِّ ، وَلِنِإِذَا أَنَا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ مَتَأَلِّمُ بَاكَ ، وَهَلْ يَعْرِضُ لَكَ إِلاَّ الطَّبَقَةُ النُّظِيفَةُ...
مِنَ الْمُجْزَمِينَ وَالْخُبَشَاءِ وَأَهْلِ الشَّرِّ ؛ أَوَّلُكَ الَّذِينَ أَعَالِيَهُمْ فِي دُورِ
الْخَلَاعَةِ وَالْمَسَارِحِ ، وَأَسَافِلُهُمْ فِي دُورِ الْقَضَاءِ وَالسُّجُونِ ؟

فَقَالَتْ : أَعْتَرِفْ بِأَنَّكَ لَمْ تُحَسِّنْ قَلْبَ الثَّوْبِ ، فَظَهَرَ لِكُلِّ عَيْنٍ أَنَّهُ
مَقْلُوبٌ ؛ لَكِنَّكَ تَحْبِنِي . . . وَهَذَا كَافٍ أَنْ يَنْهَضَ مِنْهُ عَذْرَا !
قَالَ الْأَسْتَاذُ (ح) : إِنَّهُ يَحْبُكَ ، وَلَكِنْ أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ حَبُّهُ ؟ هَذَا بَابٌ
يَضَعُ عَلَيْهِ دَائِمًا عِدَّةً مِنَ الْأَقْفَالِ .

قَالَتْ : فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَجِدَ الْمَرْأَةَ عِدَّةً مِنَ الْمَفَاتِيحِ . . .
قَالَ : وَلَكِنَّهُ عَاشِقٌ يُسِيرُ الْعَشْقُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَكَأَنَّهُ هُوَ وَحَبِيبَتُهُ تَحْتَ
أَعْيُنِ النَّاسِ : مَا تَطْمَعُ إِلاَّ أَنْ تَرَاهُ ، وَمَا يَطْمَعُ إِلاَّ أَنْ يَرَاهَا ، وَلا شَيْءَ غَيْرِ
ذَلِكَ ؛ ثُمَّ لَا يَزَالُ حَسَنُهَا عَلَيْهِ وَلَا يَزَالُ هَوَاهُ إِلَيْهَا ، وَلَيْسَ إِلاَّ هَذَا .
قَالَتْ : إِنَّ هَذَا الْعَجِيبَ .

قَالَ : وَالَّذِي هُوَ أَعْجَبُ أَنْ لَيْسَ فِي حَبِّهِ شَيْءٌ نِهَائِي ، فَلَا هَجَرَةٌ وَلَا وَصْلٌ ؛
يَنْسَاكَ بَعْدَ سَاعَةٍ ، وَلَكِنَّكَ أَبَدًا بَاقِيَةٌ بِكُلِّ جَمَالِكَ فِي نَفْسِهِ . وَالصَّغَاثُرُ الَّتِي
تُبْكِي النَّاسَ وَتَتَلَذَّعُ فِي قُلُوبِهِمْ كَالنَّارِ لِيَجْعَلُوهَا كَبِيرَةً فِي هِمَمِهِمْ وَيَطْفِئُوهَا
وَيَنْتَهَوْا مِنْهَا كَكُلِّ شَهْوَاتِ الْحُبِّ - تَبْكِيهِ هُوَ أَيْضًا وَتَعْتَلِجُ فِي قَلْبِهِ ، وَلَكِنَّهَا
تَظَلُّ عِنْدَهُ صَغَاثِرٌ وَلَا يَعْرِفُهَا إِلاَّ صَغَاثِرٌ ؛ وَهَذَا هُوَ تَجَبُّرُهُ عَلَى جَبَّارِ
الْحُبِّ .

* * *

قال الراوى :

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَنَظَرْتُ ، وَعَاتَبْتُ نَفْسَ نَفْسًا فِي أَعْيُنِنِيهِمَا ، وَسَأَلْتُ السَّائِلَةَ
وَأَجَابَتِ الْمُجِيبَةَ ، وَلَكِنْ مَاذَا قُلْتُ لَهَا وَمَاذَا قَالَتْ ؟ . . .

الجمال البائس

٣

قال الراوى :

نظرتُ إليها ونظرتُ : أما هى ، فَرَرْتُ إلى فى سكون ، وكانت نظرتُها
مُعَاتَبَةً طَوِيلَةً التَّمَلُّقُ والتَّوَجُّعُ ، وفيها الانكِسارُ والفُتُورُ ، وفيها الاسترخاءُ
والدلال .

وبَيْنَمَا كان طَرَفُها ساجِيًا فاترًا كأنه ينظرُ أحلامه ، إذْ حَدَّثَتْهُ إلى
فجأةً ونظرتُ نظرةً مَدَّهوشٍ ، فَبَدَتْ عيناها فَرَعَتَيْنِ ولكن فى وجهٍ
مطمئن .

ثم لم تكذبْ تفعلْ حتى ضَيَّقَتْ أَجْفَانَهَا وحدَقَتْ النظرَ مُتَلَأَلًا بِمعانيه ،
فَبَدَتْ عيناها ضاحكتين ولكن فى وجهٍ متألم .

ثم ابتسمتْ بوجهها وعينها معًا ، وأَتَمَّتْ بذلك أجملَ أساليبِ المرأةِ
الجميلةِ المحبوبةِ فى اعتراضها على من تحبه ، وجدالها مع فكره ، وكَسَّرَ
حُجَّتَهُ فى كِبَرِ يائه ، واندزاعِ الفكرةِ المستقلةِ من نفسه .

وأما أنا ؛ فكانَ نظرى إليها ساكنًا متألمًا يَقِرُّ أنه عَجَزَ عن جوابِ
عينها وسبقَتى عاجزًا عن جوابِ عينها . . .

إن وجهها هو الابتسامُ ورُوحُ الابتسام ، وجسمها هو الإغراء ورُوحُ
الإغراء ، وفتنها هو الفتنة ورُوحُ الفتنة ؛ وهى بهذا كله ، هى الحبُّ ورُوحُ
الحب ؛ غير أن فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ،
وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفتنها رذيلةً فى جمالها ؛ وهى بهذا كله ، هى
الشقاء ورُوحُ الشقاء .

* * *

أَمَّا أَنى أَحَبُّ فَتَنَمُ وَنِعِمًا ، بل أراه حبًّا فالقًا كَبْدى ، وليس يخلو

فَوَادَى أَبْدَأُ مِنْ سَوَالِفِ حُبِّ مَضَى ؛ وَأَمَا أَنِي أُسْتَرْذَلُ فِي الْحُبِّ وَأُمْتَنَهُ
فَضِيلَتِي وَأُنْزَلُ بِهَا ، فَلَا وَأَبْدَأُ .

إِنَّ ذَلِكَ الْحَبَّ هُوَ عِنْدِي عَمَلٌ فَنِي مِنْ أَعْمَالِ النَّفْسِ ، وَلَكِنَّ الْفَضِيلَةَ
هِيَ النَّفْسُ ذَاتُهَا ؛ الْحَبُّ أَيَّامٌ جَمِيلَةٌ عَابِرَةٌ فِي زَمَنِي ؛ أَمَا الْفَضِيلَةُ فَهِيَ
زَمَنِي كُلُّهُ ؛ وَذَلِكَ الْجَمَالُ هُوَ قُوَّةٌ مِنْ جَاذِبِيَةِ الْأَرْضِ فِي مَدَّتِهَا الْقَصِيرَةِ ،
وَلَكِنَّ الْفَضِيلَةَ جَاذِبِيَةُ السَّمَاءِ فِي خُلُودِهَا الْأَبَدِيِّ .

عَلَى أَنَّهُ لَا مُنَافَرَةَ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْفَضِيلَةِ فِي رَأْيِي ، فَإِنَّ أَقْوَى الْحُبِّ وَأَمْلَأَهُ
بِفَلَسَفَةِ الْفَرَحِ وَالْحُزَنِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا فِي النَّفْسِ الْفَاضِلَةِ الْمَتَوَرِّعَةِ عَنْ مُقَارَفَةِ
الْإِثْمِ . وَهَهُنَا يَتَحَوَّلُ الْحَبُّ إِلَى مَلَكَةٍ سَامِيَةٍ فِي إِدْرَاكِ مَعَانِي الْجَمَالِ ، فَيَكُونُ
الْوَجْهُ الْمَعْشُوقُ مُصَدَّرَ وَحْيٍ لِلنَّفْسِ الْعَاشِقَةِ ؛ وَبِهَذَا الْوَحْيِ وَالِاسْتِمْدَادِ مِنْهُ
يَنْزِلُ الْحَبُّ مِنَ الْمَحْبُوبِ مِثْلَةً مِنْ يَرْتَفَعُ بِالْآدَمِيَّةِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ^(١) ، لِيَتَلَقَّى النُّورَ
مِنْهَا فَنَّا بَعْدَ فَنٍ ، وَالْفَرَحَ مَعْنًى بَعْدَ مَعْنًى ، وَالْحُزْنَ السَّمَاوِيَّ فَضِيلَةً بَعْدَ فَضِيلَةٍ .

فَهَذَا الْحَبُّ هُوَ طَرِيقَةُ "نَفْسِيَّةٍ" لَا تَتَّسَعُ بَعْضَ الْعُقُولِ الْمَهِيَّاتَةِ لِلْإِلْهَامِ ، كَي
تَحِيطَ بِأَفْرَاحِ الْحَيَاةِ وَأَحْزَانِهَا ، فَتُسَبِّدَ عِلْمَ الدُّنْيَا صُورَةً مِنْ صُورِ التَّعْبِيرِ الْجَمِيلَةِ
الَّتِي تُشِيرُ أَشْوَاقَ النَّفْسِ ؛ كَأَنَّ كُلَّ مَحَبٍّ وَحُبِّيَّةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلْهَمِينَ ، هُمَا
صُورَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ ، فِي حَالَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ مَعْنَى تَرْكِ الْجَنَّةِ ،
لِإِيجَادِ الصُّورَةِ الْجَدِيدَةِ مِنَ الْفَرَحِ الْأَرْضِيِّ وَالْحُزَنِ السَّمَاوِيِّ .

وَالْخَطَرُ فِي الْحُبِّ أَلَّا يَكُونَ فِيهِ خَطَرٌ . . . فَهُوَ حِينَئِذٍ نِدَاءُ الْجَنَسِ ،
لَا يَكُونُ إِلَّا دُنْيَاً سَاقِطاً مَبْذُولاً ، فَلَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا وَحْيَ فِيهِ ؛ إِذَا يَكُونُ احْتِيَالاً
مِنْ عَمَلِ الْغَرِيزَةِ جَاءَتْ فِيهِ لَابَسَةٌ تُوبِّهَهَا النُّورَانِيَّ مِنْ شَوْقِ الرُّوحِ لِتُخَدَعَ النَّفْسُ
الْأُخْرَى فَيَتَّصِلَ بَيْنَهُمَا ، حَتَّى إِذَا اتَّصَلَ بَيْنَهُمَا خَلَعَتِ الْغَرِيزَةُ هَذَا الثُّوبَ
وَأَسْتَعْلَسَتْ أَنَّهَا الْغَرِيزَةُ ، فَانْحَصَرَ الْحَبُّ فِي حَيَوَانِيَّتِهِ ، وَبَطَلَتْ أَشْوَاقُهُ
الْخَيَالِيَّةُ أَجْمَعُ .

* * *

١٠٠

(١) نَحْنُ لَا نَنْسِبُ لِلْمَلَائِكَةِ إِلَّا عَلَى خِلَافِ الْقَاعِدَةِ الْمَقْرَرَةِ فِي عِلْمِ الصَّرْفِ ، وَنَرَى أَنَّ مَخَالَفَةَ
الْقَاعِدَةِ هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَفِي أَلْفَاظٍ أُخْرَى .

قال الراوى :

وعرفت الحسناء هذا كله من عَرَضَها نظرةً وتلقَّيها نظرةً غيرَها ، فقالت
للأستاذ (ح) : أمّا أن يكونَ مع أثر الشعر والفكر فى الجمال ودعوى الحب ،
أثرُ الزهد فى الجسم الجميل وادّعاءُ الفضيلة - فإنَّ بعيداً أن يجتمعا .
قال (ح) : وأين تبعدينه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إني لأعرف مَنْ هو
أعجبُ من هذا !

قالت : وماذا بقى من العجب فتعرفه ؟

قال : أعرفُ متزوجاً ، أحبُّ أشدَّ الحب وأمّصّه ، حتى استهامَ
وتدَلَّه ، فكان مع هذا لا يكتبُ رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذنَ فيها زوجته ،
كيلا يعتدى على شىء من حقها . وزوجته كانت أعرفُ بقلبه وبحبِّ هذا القلب ،
وهى كانت أعلمُ أن جبهَ وسلوانه إنما هما طريقتان فى الأخذِ والتركِ بين قلبه وبين
المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجمالها ، وتارةً من سبيل الطبيعة ومحاسنها .
فتنهَّدت وقالت : يا عجباً ! وفى الدنيا مثلُ هذا الزوجِ الطاهر ، وفى الدنيا
مثلُ هذه الزوجةِ الكريمة ؟

ثم إنها وجمعتْ هُنيئَةً تجتمعُ فى نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استبدَّ مَعَتْ ،
ثم أرسلتْ عينيها تبكى ؛ فبدَّرتُ أنا أرفّهُ عنها حتى كفكتفت من دمعها ،
وكان (ح) قد وخزها فى قلبها وخزةً أليمةً بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجة
الطاهرة ، ثم الطاهرة حتى فى وسوسة شيطان الغيِّره . ارتفع ثلاث مرات
بالزوجة ، لترى هذه المسكينة أنها سافلةٌ ثلاث مرات ؛ وكأنه بهذا لم يكلمها ،
بل رَسَمَ لها صورتَها فى عيشها المُخزى وقال لها : انظرى

* * *

وياما كان أجملها يترقُّرقُ الدمعُ فى عينيها الفاتنتين الكحيلتين ، فيبُثُّ
منهما حزناً يخيّل لمن رآه ، أنه من أجلها سيحزنُ الوجود كله !
ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ،
بل هو فنُّ الحزن يضعُ جمالاً جديداً فى فنِّ الحُسْن . وأكاد أعجبُ كيف وجدَّ
الدمعُ مكانه بين المعانى الضاحكة فى وجهها ، لو لم يكن هذا الدمعُ قد جاء

ليظهرَ على وجهها الفنَّ الآخرَ من جمال المعاني الباقية .

* * *

وسألتُها : ما الذى خامَرَ قلبَكَ من كلام الأستاذ(ح) فأبكاك ، وأنت كما أرى يتألَّقُ النورُ على جدرانِ المكانِ الذى تَحُلِينَ به ، فيظهرُ المكانُ وكأنه يضحك لك ؟

فَتَشَكَّكَتُ لحظةً ثم قالت : أبكِ ما تقول أم أنت تتهكَّم بي ؟
قلت : كيف يخطرُ لك هذا وأنا أحترمُ فيك ثلاثَ حقائق : الجمال ،
والحب ، والألم الإنسانى ؟

قالت : لا تَشْرِيبَ عليك^(١) ولكن صَوِّرْ إلى ببلاعتك كيف أُحييتُك
وأنت غير مُتَحَبِّبٍ لى ، وكيف جادلتُ نفسى فيك وداورتُها ، وكلما
عزمتُ انحلَّ عزى ؟ فهذا مالا أكاد أعرفُ كيف وقع ، ولكنه وقع .
هذه قطرةٌ من الماء الصافى العذب ، فَضَع عليها (المكروكوب) ياسيدى ،
وقل لى ماذا ترى ؟

قلت : إنك تُخرجين من السؤال سؤالاً . فما الذى خامَرَ قلبَكَ من كلام
(ح) فبكيت له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرةٌ من الماء ، بل تلك دمعَةٌ من دموى ،
فضع عليها المكروكوب ياسيدى .
قال الراوى :

وكانت حزينةً كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها ، وبقيت روحها
تبكى فى داخلها . فأراد الأستاذ(ح) أن يستدركَ لغلطته الأولى فقال : إنك
الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه ، فكل امرأةٍ يحبها هى عروسُ قلميهِ
ولها على هذا القلم حق النفقة . . .

فضحكت نوعاً من الضحك الفاتر ، كأنما ابتكره ثغرها الجميل لساعة
حزنها ، ونظرتُ إلى فقلت : إن كان الأمرُ من نفقة العروس على القلم فما أشبه
هذا (بلاشئ) جُحا .

فضحكت أطرف من قبل ، وخُيِّلَ لى أن ثغرها انطبقَ بعد افتقاره على

قُبْلَةً أَفَلَنْتُ مِنْهُ فَأَمْسَكَهَا مِنْ آخِرِهَا

ثم قالت : ما هو (لاشئء) جُحَا ؟

قلت : زعموا أن جُحَا ذهب يَحْتَطِبُ ، وحملَ فوقَ ما يُطَيِّقُ ، فبهطَته الحِمْلُ وبلغَ به المشَقَّةُ ، ثم رأى في طريقه رجلاً أبلهَ فاستعانَ به ، فقال الرجل : كم تُعطيني إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لاشئء) . قال : رضيت .

ثم حمل الأبلهُ وانطلقَ معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطني أجرى . قال جُحَا : لقد أخذتَه . واختلفا : هذا يقول أعطني ، وهذا يقول أخذتَ ؛ فلبَّتهُ الرجل^(١) ومضى يرفعه إلى القاضي ، وكانت بالقاضي لُوثَةٌ ، وعلى وجهه رَوْءَةُ الحُمُقِ^(٢) تُخْبِرُكَ عنه قبل أن يخبركَ عن نفسه ، فلما سمع الدعوى قال لجُحَا : أنت في الحبس أو تُعطيهِ (اللاشئء)

قال جُحَا في نفسه : لقد احتججتُ لعقلي بين هذين الأبلهين ؛ ثم لأنه أدخل يده في جيبه وأخرجها مطبقةً ، وقال للرجل : تقدِّمْ وافتح يدي . فتقدم وفتحها . قال جُحَا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لاشئء) .

فقال له جُحَا : خذ (لاشيئَكَ) وامض فقد برَّئت ذمتي . قالوا : فذهب الرجل يحتجُّ ، فقال له القاضي : مهْ ! أنت أقررت أنك رأيت في يده (لاشئء) ، وهو أجرك فخذهُ ولا تطمع في أزيدَ من حَقِّكَ . . . !

* * *

وضحكت وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضيةٌ أن أكونَ عَرَّوسَ القلم ، فليُجَرَّ على القلم نفقتي ، وليصوِّرْ لي كيف أحببتُ ، وكيف آمَرتُ نفسي وجادلْتُها ؟

قلت : لا أتكلَّمُ عنكَ أنتِ ولا أستطيعُه . بَينَدَ أنني لو صنَّفتُ روايةً

(١) أخذ بتلابيه .

(٢) اللوثة (بضم اللام) : مس من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحق ، وروءة الحق : علاماته ، وهى معروفة في علم الفراسة .

يكونُ فيها هذا الموقفُ ، لوضعتُ على لسان العاشقة هذا الكلامَ تحدثُ به نفسها .

تقول : كيف كنتُ وكيف صرتُ ؟ لقد رأيتُنِي أعاشِرُ مائةَ رجل فأخالطهم في شتى أحوالهم ، وأصرفهم في هواي ، وكلُّهم يَجْهَدُ جُهدَه في استمالي ، وكلُّهم أهلُ مودةٍ وبِذَل ، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ ، قد أنقَ وتجمَّلَ وراعَ حسنَه ؛ كأنما هَرَبَ إلىَّ في ثياب عُرْسِه ليلةَ زفافِه ، وتركَ من أَجْلِ عروسًا تبكى وتَصيحُ بويلها . ثم أنا مع ذلك مُغلقةُ القلبِ دونهم جميعًا : أصدُقُهم المودةَ والصحبةَ ، وأكذبُهم الحبَّ والهوى ؛ فلستُ أحبهم إلا بما أنالُ منهم ، ولستُ أُنحِبُ إليهم إلا ما أنوَلهم مني ، وهم بين عقلي وحيلتي رجالٌ لا يقولُ لهم ، وأنا بين أهوائهم وحمقاتهم امرأةٌ لا ذات لها .

ثم أرى بغتَةً رجلاً فرداً أكاد أنظر إليه وينظرُ إلىَّ حتى يَضَعَ في قلبي مسألةً تحتاجُ إلى الحلِّ . . .

وأرتاعُ لذلك فأحاولُ تناسيَه والإغضاءَ عنه ، فتدليجُ المسألةُ في طلبِ حلِّها ، وتشغَلُ خاطري ، وتمتدِّدُ في قلبي ؛ وهو هو المسألة . . .

فأفزعُ لذلك وأهتمُّ له ، وأجهدُ جهدي أن أكونَ مرةً حازِمةً بصيرةً ، كرجالِ المالِ في حق الثروة عليهم ؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً ، كرجالِ الحربِ في واجبِها عندهم ؛ ومرةً خبيثةً مُنكَرةً ، كرجالِ السياسةِ في عملِها بهم ؛ ولكني أرى المسألةَ تلينُ لي وتشكَّلُ معي وتحتلُّ هذه الوجوهَ كلها ، لتبقى حيثُ هي في قلبي ؛ فإنه هو هو المسألة . . .

وأغتمُّ لذلك نعمًا شديدًا ، وأراني سأسقُطُ بعد سقوطي الأول وأقبحَ منه ؛ إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخِدايعِ ، وهذا يُفسدُه الإخلاصُ ؛ وبالمكرِ ، وهذا يعطلُّه الوفاءُ ؛ وبالنسيانِ ، وهذا يُبطله الحبُّ ؛ وإذ عواطفُنَا كلها متجردةٌ لغرضٍ واحدٍ ، هو كَسْبُ المالِ وجمعُه وإدخاره ؛ وفضيلتُنَا عمليةٌ لا تتخيَّلُ ، حِسَابِيَّةٌ لا تختلُّ ؛ فيستوى عندنا الرجلُ ببلغِ جماله القمَرِ في سمائه ، والرجلُ ببلغِ دِمَامَتِهِ الذبابِ في مَقْدَارِهِ ؛ والحبُّ معنا هو : كم في كم ويبقى ماذا . . . أو كما يقولُ أهلُ السياسةِ : هو « النقطةُ العمليةُ في المسألة » . ولكن

المسألة التى فى قلبى لاترى هذا حلاً لها ؛ لأنه هو هو المسألة . . .
 فيزيدُ بى الكُربُ ، ويشدُّ على البلاء ، وأحتالُ لقلبى وأدبُرُ فى خِستهِ ،
 وأذهبُ أُنْفِيعَهُ أن الرجلَ إذا كان شريفاً لم يحبَّ المرأةَ الساقطةَ ، إذ يُعابُ
 بصُحبتِها والاختلافِ إليها ، فإذا كان ساقطاً لم تحبَّه هى ، فإنما هو صيدُها
 وفريستها ، وموضعُ نَقَمَتِها من هذا الجنس ؛ وأسرفُ على قلبى فى الملامةِ
 والتعذيلِ فأقولُ له : ويحك يا قلبى ! إن المرأةَ منا إذا تفتَّحَ قلبُها لحبيب ، تفتَّحَ
 كالجرحِ لِيَنزِفَ دِماءَها لاغير . فيقتنعُ القلبُ ويُجمِعُ على أن ينسى ،
 وأن يرجعَ عن طلبه الحب ؛ وأرى المسألةَ قد بطلتْ وكان بطلانُها أحسنَ حلٍّ لها ،
 وأنامُ وادعة مطمئنة ، فبأنى هو فى نوى ويدخل فى قلبى ، ويعيدُ المسألةَ إلى
 وضعها الأول ، فما أستيقظُ إلا رأيته هو هو المسألة . . .

فأتناهى فى الخوف على نفسى من هذا الحب ، وأراه سجنها وعقابها ،
 وقهرها وإذلالها ، فأقول لها : ويلك يا نفسى ! إنما همك فى الحياة وسائلُ
 الفوز والغلب ، فأنت بهذا عدوةٌ مسماةٌ فى غفلة الرجال صديقة ، وقد
 وضعت فى موضع تعيشين فيه بإهانات من الرجال ، يسمونها فى نكداتهم
 بالحب ؛ فأنت عدوةُ الرجال بمعنى من الدهاء والخبث ، وعدوةُ الزوجات
 بمعنى من الحقد والضغينة ، وعدوةُ البغايا أيضاً بمعنى من المغالبة والمنافسة ،
 وكلُّ ما يستطيعُ الدهاء أن يعملَه فهو الذى علىَّ أنا أن أعملَه ، فماذا أصنع
 وأنا أحب ؟ وكيف أنجحُ وأنا أحب ؟ ولكنَّ النفسَ تجيبنى على كل هذا
 بأن هذا كلُّه بعيدٌ عن المسألة ما دام هو هو المسألة . . .

* * *

قال الراوى :

وكانت كالذاهلة مما سمعتُ ، ثم قالت : ألك شيطانٌ فى قلبى ؟ فهذا
 كلُّه هو الذى حدث فى سبعة أيام .

قال (ح) : ولكن كيف يقعُ هذا الحب ؟ وهبكَ صَنَفَت تلك الرواية ،
 ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فبماذا كنت تُنطقُها فى وصف حبها
 وما اجتذبتها من رجل فاز بقلبها ولم يُداوِرْها ، بعد مائة رجل كلَّهم دَاوَرَّها

ولم يَفْزَ منهم أحد ؟ أتكون في وجه هذا الرجل أنوارٌ كَتَبَاشِيرِ الصبح تدلُّ على النهار الكامِنِ فيه ؟

قالت هي : نعم نعم . بماذا كنتَ تُنطقها ؟
قلتُ : كنتَ أضعُ في لسانها هذا الكلامَ تُجيبُ به عاذلةً تَعُدُّ لُها :
تقول : لا أدري كيف أحببته ، ولكنَّ هذه الشخصية البارزة منه جذبتني إليه ، وجعلت الهواء فيا بيني وبينه مُفْعَمًا بالمغناطيس مَصْدَرُهُ ، ومعناه هو ، ولا شئء فيه إلا هو .

عرَضْتُهُ لى شخصيته ظاهراً لأن جوابَ شخصيته فيَّ ، وأصبحَ في عينيَّ كبيراً لأن جوابَ شخصيتي فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيده كلَّ يوم ظهوراً ، وتزيدُنِي كل يوم بَصَرًا ، وأعطاه حقه في الكمالِ عندى حقه في اخـ منى ؛ وبذلك الشخصية التى جوابها في نفسى ، أصبح ضرورة من ضرورات نفسى .

* * *

قال الراوى :

ولما رأيته في جوى كنسيمة وعاصفته ، أرادتها على قصتها وشأنها ، فماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ ...

الجمال للبائس

٤

قلتُ لها : إن قلبي وقلبك يَسْجَالِيَانِ^(١) في هذه الساعة ويتباكِيَانِ ؛
أتدريين ماذا يقول لك قلبي ؟

إنه ليقولُ عني : أَعَزُّزُ علىَّ بأن تكوني ههنا ، وأن تتألفَ منك هذه
القصةُ التي تَبْدَأُ بالوصمة وتنتهي بالاستخذاء ، فننطلقُ المرأةُ في مَسَافِها
ومهاويها ليلبِّغُ بها القدرُ ما هو بالغ ؛ وليس إلا الضرورة وسطوتها بها ، والإذلالُ
ومهانته لها ، والاجتماعُ وتهكمه عليها ، والابتذالُ واستعباده إياها ؛ ومهما يأت
في القصة من معنى فليس فيها معنى الشرف ؛ ومهما يكن من موقف فليس فيها
موقف الحياء ؛ ومهما يَجْزِي من كلام فليس فيها كلمة الزوجة ، وأَعَزُّزُ
علىَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبُوبَ الذي وُضِعَ ليُضِيءَ ما حوله ، قد
انقلب فجعلَ يُحْرِقُ ما حوله ؛ وكان يتألأأ ويتوقَّد ، فارتدَّ يتسَعَّرُ ويتصرَّم
ويَسْجَنِي ما يتصلُّ به ، وسقطَ بذلك سَقَطَةٌ حمراء . . .

أفتدريين ماذا يقول لي قلبك ؟

إنه يقولُ عنك : يا بؤْسَتَا من نساء ! لقد وُضِعْنَا مَقْلُوبًا ،
فلا تَسْتَقِيمُ الإنسانيةُ معنا أبدًا ، وكلُّ شَيْءٍ منقلبٌ لنا متنكِّرٌ ؛ والشفقةُ علينا
تنقلبُ من تلقاء نفسها تهكمًا بنا ؛ فنبكى من شفقةِ بعض الناس ، كما نبكى
من ازدراء بعض الناس . يا بؤْسَتَا من فساء !

* * *

قالت : صدقَ ، وكذلك تنقلبُ أسبابُ الحياة معنا أسبابًا للمرض والموت ؛
فاليةَظَةُ ليس لها عندنا النهارُ بل الليل ، والصَّحْوُ لا يكونُ فينا بالوعى بل
بالسُّكْر ، والراحةُ لا تكونُ لنا في السكون والانفراد ، بل في الاجتماع والتبذُّل ؛
وماذا يَرَدُّ على امرأة من واجباتها السهرُ والسُّكْرُ والعَرَبْدَةُ ، والتبذُّلُ ،
وتدريبُ الطبايع بالوقاحة ، وتَضْرِيَةُ النفسِ على الاستغواء ، والتَصَدِّي
بالجمال للكسب من رذائل الفُسَّاق وأمراضِهِمْ ، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليب

(١) أى يتكاشفان ويحلو كلاهما للآخر ويوضح .

خَرُّهَا الْهَوَانُ وَالْمَذَلَّةُ ، وَاسْتِمَاحَتُهُمْ بِأَسَالِيبِ أَوْلِيهَا الْخِدَاعُ وَالْمَكْرُ ؟
 إِنْ حَيَاةً هَذِهِ هِيَ وَاجِبَاتُهَا ، لَا يَكُونُ الْبُكَاءُ وَالْهَمُّ إِلَّا مِنْ طَبِيعَةٍ مِنْ
 يُحْيَاهَا ، وَكَثِيرًا مَا نَعَالِجُ الضَّحْكَ لِنَفْتَحَ لَأَنْفُسِنَا طُرُقًا تَنْتَهَارُ فِيهَا مَعَانِي
 الْبُكَاءِ ؛ فَإِذَا أَثْقَلْنَا الْهَمُّ وَجَلَّ عَنْ الضَّحْكَ وَعَجَزْنَا عَنْ تَكْلُفِ السُّرُورِ ،
 خَتَمْنَا الْعَقْلَ نَفْسَهُ بِالْخَمْرِ ؛ فَمَا تَسَكَّرُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ لِّلْكَسْرِ أَوْ النَّشْوَةِ ، بَلْ
 لِلنَّسْيَانِ ، وَلِلْقُدْرَةِ عَلَى الْمَرَحِ وَالضَّحْكِ ، وَلِإِمْدَادِ مُحَاسِنِهَا بِالْأَخْلَاقِ الْفَاجِرَةِ ،
 مِنَ الطَّيِّشِ وَالْخَلَاعَةِ وَالسَّفَةِ وَهَذَا يَنْجِلُ الْجَمَالَ الَّذِي هُوَ شَعْرُهُ الْبَلِغُ . . .
 عِنْدَ بُلْغَاءِ الْفُسَاقِ .

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضرُ الغادةِ منكن هو الشبابُ والصَّبِيُّ والجمالُ
 وإقبالُ العيشِ ، فكيف بها فيما تَسْتَقْبِلُ ؟
 قالت : إِنْ الْمُسْتَقْبِلَ هُوَ أَخَوْفُ مَا نَخَافُهُ عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَلَيْسَ مِنْ امْرَأَةٍ فِي
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِلَّا وَهِيَ مُعِدَّةٌ لِمُسْتَقْبِلِهَا : إِمَّا نَوْعًا مِنَ الْإِنْتِحَارِ ، وَإِمَّا ضَرْبًا
 مِنْ ضُرُوبِ الْإِحْتِمَالِ لِلذِّلِّ وَالْخُسْفِ ؛ وَلَيْسَ مُسْتَقْبِلُنَا هَذَا كَمُسْتَقْبِلِ الثَّمَارِ
 النَّصِيرَةِ إِذَا بَقِيَتْ بَعْدَ أَوَانِهَا ، فَهُوَ الْأَيَّامُ الْعَفِيفَةُ بِطَبِيعَةٍ مَاضِي . . . بَلَى
 إِنْ مُسْتَقْبِلَ الْمَرْأَةِ الْبَغْيُ هُوَ عِقَابُ الشَّرِّ .

* * *

قال (ح) : هَذَا كَلَامٌ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلِمَهُ الزَّوْجَاتُ ؛ فَالْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ قَدْ تَسَبَّرَمَ
 بِزَوْجِهَا وَتَضَجَّرَ وَتَغْمُ ، وَتَزْعُمُ أَنَّهَا مُعَذِّبَةٌ ؛ فَتَسَخِّطُ الْحَيَاةَ ، وَتَتَدَبُّ
 نَفْسَهَا ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ عَذَابٌ وَاحِدٌ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ ، تَأْلِفُهُ ، فَتَعْتَادُهُ ، فَتُرْزَقُ
 مِنْ اعْتِيَادِهِ الصَّبْرَ عَلَيْهِ ، فَيَسْكُنُ بِهَذَا نِفَارًا ؛ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ وَاجِبُهَا أَنْ
 تَحْمَدَ اللَّهَ عَلَيْهَا ، مَا دَامَ فِي النِّسَاءِ مِثْلُ الشَّهِيدَاتِ ، تَتَعَذَّبُ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ
 فَنُونًا مِنَ الْعَذَابِ بِمِائَةِ رَجُلٍ ، وَبِأَلْفِ رَجُلٍ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَبْتَئِلُونَ رَوْحَهَا بِعَدَدِهِمْ
 مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ .

وَقَدْ تَسْتَقِيلُ الزَّوْجَةُ وَاجِبَاتِهَا بَيْنَ الزَّوْجِ وَالنَّسْلِ وَالْدارِ ، فَتَغْتَاطُ وَتَشْكُو
 مِنْ هَذِهِ الرَّجْرَجَةِ الْيَوْمِيَةِ فِي الْحَيَاةِ ؛ ثُمَّ لَا تَعْلَمُ أَنَّ نِسَاءً غَيْرَهَا قَدْ انْقَلَبَتْ بَهَنَ
 الْحَيَاةِ فِي مِثْلِ الْخُسْفِ بِالْأَرْضِ .

وقد تجزع للمستقبل وتُنسى أنها في أمانٍ شرفِها ، ثم لاتعلم أن نساءً يترقبُن هذا الآتى كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة ، من يومٍ فيه الشرطة والنيابة والمحكمة وما وراء هذا كله .

فقلتُ : وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العزاء كلُّ العزاء للزوجات ، وهى أن الزوجة امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها ، والأخرى لاتشعر إلا بضياغ ذاتها .
والزوجة امرأةٌ تجدُ الأشياء التى تتوزعُ خحبها وحنان قلبها ، فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته ، يفيضُ بالحب ، ويستمدُّ من الحب ؛ والأخرى لاتجد من هذا شيئاً ، فتقلب وحشية القلب ، يفيضُ قلبها برذائل ، ويستمدُّ من رذائل ؛ إذ كان لايجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل .
والزوجة امرأةٌ هى امرأة خالصة الإنسانية ، أما الأخرى فن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادةٍ مهلكة .

وتسأمُ السعادة أن النسل لا يكون طبيعياً مستقراً فى قانونه إلا للزوجات وحدهن ؛ فهو نعمتهن الكبرى ، وثوابُ مستقبلهن وماضيهن ، وبركتهن على الدنيا ؛ ومهما تكن الزوجة شقيةً بزوجها ، فإن زوجها قد أولدَها سعادتها ، وهذه وحدها مزية ونعمة ؛ أما أولئك فليس لهن عاقبة ؛ إذ النسلُ قلب لحالتهن كلها ؛ وهو غنى إنسانى ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ؛ وهو رحمة ، ولكنها لاتكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعة فى موضع حبِّ الولد الجديد من قلوبهن ، حبَّ الرجل الجديد ، فكانت هذه نقمةً أخرى .
قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثانى بعد الأول ، أو الثالث بعد الثانى ، أو الرابع بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديد عليهن هو الواحد بعد الواحد إلى آخر العدد ، ولكنه الرجل الذى يكون وحده بالعدد جميعاً ؛ إذ هو عندهن يشبه الزوج فى الاختصاص وفى شرف الحب ، فهو الحبيب الشريف الذى تتعلقه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة : ولكن من نقمة الطبيعة أن ممن وجدته منهن لاتجده إلا لتعاني ألم فقده .

يا عجباً ! كلُّ شيءٍ في الحياة يُلقَى شيئاً من الهم أو النكدِ أو البؤسِ على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة . . .
 قالت هي : وليست الحجارة هي الحجارة فقط ، بل منها ألفاظ تُرجمُ بها المسكينةُ كألفاظك هذه . . . وكتسمية الناس لها « بالساقطة » ؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لاحجر .

* * *
 ثم تنهدت وقالت : مَنْ عَسِيَّ يعرفُ خطَرَ الأُسرة والنسلِ والفضيلةِ كما تعرفُها المرأة التي فقدتها ؟ إننا نُحسُّها بطبيعة المرأة ، ثم بالحنين إليها ، ثم بالحسرة على فقدها ، ثم برويتها في غيرها ؛ نعرفها أربعة أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجة نوعاً واحداً . ولكن هل يُنصفنا الرجال وهم يَتَدَافَعُونَا ؟ هل يرضَوْنَ أن يتزوَّجوا منا ؟

قلت : ولكنَّ الأسرة لا تقومُ على سوادِ عيني المرأة وحُمرَةِ خديها ، بل على أخلاقها وطباعها ؛ فهذا هو السببُ في بقاء المرأة الساقطة حيث ارتطمت ؛ وهي متى سقطتْ كان أولُ أعدائها قانونَ النسل .

ومن ثَمَّ كانت الزَّلة الأولى ممتدةً مُتَسَحِّبةً إلى الآخر ؛ إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي ، أما في اعتبار غيرها فهي تاريخٌ للنسل ، إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب كله فلا يُوثقُ به .

وهذه الزَّلة الأولى هي بدءُ الانهيار في طباعٍ رقيقة مُتَسَدِّخِلَة مُتَسَانِدَة ، لا يُقِيمُهما إلا تَمَاسُكُها جُمْلَةً ؛ وما لم يَتَماَسَكْ إلا بجملته فأولُ السقوطِ فيه هو استمرارُ السقوطِ فيه ؛ ولهذا لا يعرفُ الناسُ جريمةً واحدةً تُعَدُّ سلسلةً جرائمَ لا تنتهي ، إلا سقطت المرأة ؛ فهي جريمة مجنونة كالإعصارِ النائرِ يلفها لَفًّا ؛ إذ تتناول المرأة في ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترعى إلى مستقبلها ونسلها ؛ فَيَهْتِكُها الناسُ هي وسائرُ أهلها مَنْ جاءت منهم ومن جاءوا منها .
 والمرأة التي لا يحميها الشرفُ لا يحميها شيء ، وكلُّ شريفة تعرفُ أن لها حياتين إحداها العفة ، وكما تُدَافِعُ عن حياتها الهلاك ، تُدَافِعُ السقوطَ عن عفتها ؛ إذ هو هلاكٌ حقيقتها الاجتماعية ؛ وكلُّ عاقلة تعرفُ أن لها عقليْن تحمسي بأحدٍ هما من نِزَواتِ الآخر ، وما عقلها الثاني إلا شَرَفُ عِرْضِها .

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هي الحقيقة ، فما تَسَامَحَ الرجالُ في شرف العِرضِ لإِجعلوا المرأةَ كأنها بنصفِ عقلٍ فاندفعتْ إلى الطيشِ والفُجورِ والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عَفَّوْا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ » . فإن عَفَّافَ المرأةَ لا تحفظه المرأةُ بنفسها ، ما لم تنهيها لها الوسائلُ والأحوالُ التي تُعينُ نفسها على ذلك ؛ وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها ، تشدُّدُ الرجالِ في قانونِ العِرضِ والشرف .

فإذا تراخى الرجالُ ضَعُفَتِ الوسائلُ ، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعفِ تنبثقُ حريةُ المرأةِ متوجِّهةً بالمرأةِ إلى الخيرِ أو الشرِّ ، على ما تكونُ أحوالُها وأسبابُها في الحياة . وهذه الحريةُ في المدينةِ الأوربيةِ قد عودتُ الرجالَ أن يُغَضُّوا وَيَتَسَمَّحُوا ، فتهافَّتِ النساءُ عندهم ، تنالُ كُلُّ منهن حُكْمَ قلبِها وَيَخْضَعُ الرجلُ . .

على أن هذا الذي يسميه القومُ حريةَ المرأةِ ، ليس حريةً إلا في التسمية ، أما في المعنى فهو كما ترى :

إما سُروُدُ المرأةِ في التماسِ الرزقِ حين لم تجد الزوجَ الذي يَعُولُها أو يَكْفِيها ويقيمُ لها ما تحتاجُ إليه ، فثُلُ هذه هي حُرَّةٌ حريةَ النكدِ في عيشها ؛ وليس بها الحريةُ ، بل هي مستعبدةٌ للعملِ شَرًّا ما تُستعبدُ امرأةٌ . وإما انطلاقُ المرأةِ في عِبَثَاتِها وشَهَوَاتِها مُستجيبةً ، بذلك إلى انطلاقِ حريةِ الاستمتاعِ في الرجالِ ، بمقدار ما يشتره المالُ ، أو تُعينُ عليه القوةُ ، أو يَسَوِّغُهُ الطيشُ ، أو يجلبه التهتكُ ، أو تدعو إليه الفنونُ ؛ فثُلُ هذه هي حُرَّةٌ حريةَ سقوطِها ؛ وما بها الحريةُ ، بل يستعبدُها التمتعُ .

والثالثةُ حريةُ المرأةِ في انسلاخِها من الدينِ وفُضائِلِهِ ، فإن هذه المدينةَ قد نَسَخَتْ حَرَامَ الأديانِ وحلالها بحرامِ قانوني وحلالِ قانوني ، فلا مَسَقَطَةَ للمرأةِ ولا غَضاضَةَ عليها قانونًا . . . فيما كان يُعَدُّ من قبلُ حَزِيًّا أَقْبَحَ الحَزِيِّ وعارًا أَشَدَّ العارِ ؛ فثُلُ هذه هي حُرَّةٌ حريةَ فسادِها ، وليس بها الحريةُ ، ولكن تستعبدُها الفَوَاضِي .

والرابعةُ غَطْرَسَةُ المرأةُ المتعلمة ، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً ؛
فترى أن الرجل لم يبلغ بعد أن يكون الزوج الناعم كقفاز الحرير في يديها ،
ولا الزوج المؤنث الذى يقول لها نحن امرأتان ... فهى من أجل ذلك مُطْلَقةٌ
مُخَلَّاةٌ كيلا يكون عليها سلطانٌ ولا إمرةٌ ؛ فمثلُ هذه حرةٌ بانقلاب طبيعتها
وزيغها ، وهى مستعبدة لهُوسها وشذوذها وضلالها .

حريةُ المرأة في هذه المدنية أولها ما شئت من أوصاف وأسماء ، ولكن آخرها
دائماً إما ضياعُ المرأة وإما فسادُ المرأة .

والدليلُ على التواء الطبيعة في المدنية ، استواء الطبيعة في البادية ؛ فالرجال
هناك قَوَّامُونَ على النساء ، والنساء بهذا قَوَّامَاتٌ على أنفسهن ؛ إذ ينتقمون
للمنكر انتقاماً يَفُورُ دماً ؛ وبهذه الوحشية يقررون شَرَفَ العِرض في الطبيعة
الإنسانية ، ويجعلونه فيها كالغريزة ، فيُحْتَاجُ جِزُونَ بين الرجال والنساء أولَ شيءٍ
بالضمير الشريف الذى يجد وسائله قائمةً من حوله .

* * *

قال الراوى :

وغطت وجهها بيديها وقالت : إنك لا تزال ترحم بالحجارة ... إن فيك
متوحشاً .

قلت بل متوحشة . . .

إنك أنتِ قد تكلمتِ فى ، فجمالك الذى يضع الإنسان فى ساعة مجنونة
ليمتعه بطيشها ، قد وضعنا نحن فى ساعة مفكرة وأمتعننا بعقلها ؛ وإذا قلتُ
جمالك ، فقد قلتُ وحيك ، إذ لاجمالَ عندى إلا ما فيه وحى .

أما قلت : إنك لو خيَّرتِ فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلاً
نابعةً يكتب ويفكر ويتلقى الوحى من الوجوه الجميلة ؟

فدقت صدرها بيديها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفكرت لحظةً
وقالت : إذا كنتِ أنتِ تزعمُ أننى قتلته ، فأظن أننى قتلته . . .

قال (ح) : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هى شيئاً من هذا ؟ أربعُ
غلطاتٍ شنيعةٍ من فساد الذوق .

قالت : بل قل أربع غلطات جميلة من فنّ الذوق ؛ إن الرجل الظريف
القوى الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدث المرة . . .

قال (ح) : لتضحك منه ؟

قالت : لا ، بل لتضحك له . . .

قلت : فلي إليك رجاء .

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل .

* * *

فإذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ . .

الجمال البائس

٥

قلتُ لها : إن كلمة الكفر لا تكون كافرةً إذا أكره عليها من أكره قلبه مطمئن بالإيمان ، وكلمة الفجور أهون منها وأخف وزناً وشأناً ، ثم لا تكون إلا فاجرةً أبداً ، إذ لا إكراه على هذه الدّعاة لإكراهها لاختيار فيه . وما أول الدّعاة إلا أن تمدّ المرأة طرْفَها من غير حياء ، كما يمدُّ اللصُّ يده من غير أمانة .

ومن اضطرَّ إلى الكفر استطاع أن يخبأ محرابَ المسجد في أعماقه فيصلّي ثمة ، ولكن الفجور لا يترك في النفس موضعاً للدين ولا إيمان ؛ إذ هو دائب في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلاضابط ، فيجعل المرأة تحيا بعيدة عن ضميرها ، فيضعف منها أول ما يضعف آثار الآداب والأخلاق ، فيهلك فيها أول ما يهلك إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورها بمجد هذا المعنى .

فإذا انتهت المرأة إلى هذا ، لم يكن لها مبدأ ولا عقيدة إلا أن على غيرها أن يتحمّل عواقب أعمالها ، وهذه بعينها هي حالة المجنون جنون عقله ؛ أفلا تكون المرأة حينئذٍ مجنونة جنون جسمها . . . ٢

* * *

فساءها ذلك وبان فيها ، ولكنها أمسكت على ما في نفسها ؛ والمرأة من هؤلاء لا يمشي أمرها في الناس ولا يتصل عيشها ، إلا إذا كثرت طباعها كثرة ثيابها ، فهي تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل ؛ فينبعث منها الغضب وهي في أنعم الرضى ، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ ، وكأن لم تغضب ولم ترض لأنّها ليست لأحد ولا لنفسها .

وتساير غضبها ثم قالت : كان كلامك أن لك رجاء إلى ، فأنا أحب . . . أحب أن أعلم .

قلت : وأنا كذلك أحب . . . أحب أن أعلم .

فضحكتُ وسُرّى عنها ، وثَبَّتْ على شفيتها ابتسامةٌ لوجاء مَلَكٌ من السماء ليضعَ في ثغرها ابتسامةً أجملَ منها ، لما وجد أجملَ منها .

ثم قالت : تُحب أن تعلمَ ماذا ؟

قلت : أحبُّ أن أعلمَ منك قصةَ هذه الحياةِ ما كان أولُها ؟

قالت : لقد قضيتُ من حكمك فينا ، ولكنك أخطأت ، فلكل ليلٍ مُظلمٍ كوكبهُ ؛ والكوكب الوقاد المعلق فوق ليل المرأة منا هو إيمانُها ؛ نعم إنه ليس كإيمان الناس في واجباته ، لكنه كإيمان الناس في تعزيتِه ، والله ربُّنا وربُّكم ! قلت : لو أطيع الله بمعصيته لاستقام لكِ هذا ؛ وإنما أنت تصفين الإيمانَ الأولَ الذي كان عملاً ، فصار ذكرى ، فصارت الذكرى أملاً ، فظننتِ الأملَ هو الإيمان .

قالت : ثم إننا جميعاً مكرهاتٌ على هذه الحياة ، فأنحن لإلصراعِ المصادمة بين الإرادة الإنسانية وبين القدر .

قلت : ولكن لم تهف واحدة منكن في غلطتها الأولى وهي مستكرهَةٌ على غلطة ؛ بل هي راغبة في لذة ، أو مبادرة لشهوة ، أو طالبة لمنفعة .

قالت : هذا أحد الوجهين ؛ أما الآخر فالتماسُ الرزق وصلاح العيش ؛ فالرجل مع الرجل ، رأس ماله قوَّتُه ، وعمله بقوته ؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثتها ، وعمل أنوثتها . وفي الوجه الأول — وجه اللذة والمنفعة — تحتال كلمة الفُجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة ، منها الحبُّ والزواج والسعادة ، فتستسلم المرأة مضطرةً ليقع شيء من هذا . وفي الوجه الثاني — وجه الرزق والعيش — تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعفة بكلمات رهيبة قاتلة ، منها الجوع والفقر والشقاء ، فتسقط المرأة مضطرةً خيفةً أن يقع شيء من هذا ؛ وفي أحد الوجهين يكون الرجلُ هو الفاجرُ لفساد آدابه ، وفي الوجه الآخر يكون الفاجرُ هو المجتمعُ لفساد مبادئه .

* * *

قلت : أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه المدينة ، لم تقع أبداً إلا في موضع غلطة من غلطات القوانين ؛ وآفةُ هذه القوانين أنها لم تُسنَّ لمنع الجريمة

أن تقع ، ولكن للعقاب عليها بعد وقوعها ؛ وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها ، وتركتها لقانون الغريزة الوحشية في هؤلاء الوحوش الآدميين ، الذين يأخذهم السُّعار من هذه الرائحة التي لا يعرفونها إلا في اثنين : المرأة الحميلة والذهب . فما ألبأت امرأة حاجتها أو فقرها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً ، إلا ضربته ذلك السُّعار ؛ فإن استخفَّت بزواته وتعرست عليه ، طردها إلى الموت ، ومنعها أن تعيش من قبيله ؛ وإن صلحت له وتيسرت ، آواها هي وطرد شرفها . .

وبخلاف ذلك الدين ؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها ، فهو في أمر المرأة يُلزم الرجل واجبات ، ويلزم المجتمع واجبات غيرها ، ويلزم الحكومة واجبات أخرى :

أما الرجل فينبغي له أن يتزوج ، ويتحصن ، ويغار على المرأة ، ويعمل لها ؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدب ، ويستقيم ، ويعين الفرد على واجبات الفضيلة ، ويستد آمج ويشد بعضه بعضاً ؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمي المرأة ، فتعاقب على إسقاطها عقاب الموت والألم والشهير ؛ لتقيم من الثلاثة حُرّاً ساجداً جابراً ، من لا يخش الله خشياً ، فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضع غلطة تسقط فيه المرأة .

قال الأستاذ (ح) : صدقت ، فالحقيقة التي لامرأ فيها ، أن فكرة الفُجور فكرة قانونية ؛ وما دام القانون هو أباحها بشروط ، فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط ؛ ومن هذا التقرير يُقدّم عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان ؛ ومن ثم تأتي الجُرأة على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون ، ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطة بآخر معانيها وأقبح معانيها .

وتقرير سيادة المرأة في الاجتماع الأوربي ، وتقديمها على الرجال ، والتأدب معها ؛ كل ذلك يجعل جراءة السفهاء عليها جراءة متأدبة ، حتى كأن المتحكك منهم في امرأة يقول لها : من فضلك كوني ساقطة . . . أما هنا فجراءة السفهاء جراءة ووقاحة معاً ، وذلك هو سرُّها .

القانون كأنما يقول للرجال : احتالوا على رضى النساء ، فإن رضين الجريمة فلا جريمة ؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براءة الرجل الفاسق إنما هي في الحيلة

على المرأة وإيقاظ الفطرة في نفسها ، بأساليب من الملتق والرياء والمكر ، تركها عاجزة لا تملك إلا أن تذعن وترضى ؛ وبهذا ينصرف كلُّ فاجر إلى إبداع هذه الأساليب التي تُطْلِق تلك الفطرة من حيائها ، وتُخرجها من عففتها ، « تطبيقاً للقانون » . . .

ولاسيادة في اجتماعنا للمرأة ، ولكنَّ القانونَ جعلها سيدةَ نفسها ، وجعلها فوق الآداب كلها ، وفوق عقوبة القانونِ نفسه إذا رُضيت ؛ إذا رُضيت ماذا . . . ؟

* * *

قلْبُ : فإذا كان القانون هنا في مسألتنا هذه يَعْدِلُ بالظلم ، وَيَحْمِي الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة ؛ فهو إنما يُفسد الدين ، وَيَصْرِفُ الناس عن خوف الله إلى خوف ما يخاف من الحكومة وحدها ؛ وبهذا لا يكون عمله إلا في تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة ، وَيَدْعُ الباطن يُسرُّ ما شاء من خبثه وحيلته وفساده ؛ فكأنه ليس قانوناً إلا لتنظيم النفاق وإحكام الخديعة ؛ فلا جرم كان قانوننا لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها ؛ فإذا أُخِذَت المرأة مُلَايِنَةً ورضى فهذا فجورٌ قانوني . . . وإن كانت الملاينة هي عمل الحيلة والتدبير ، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكر ، وإن ضاعت المرأة وسقطت ، وذهب شرفها باطلاً ، وألحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً . أما إذا أُخِذَت المرأة مُكَارَهَةً وَغَضَبًا ، فهذه هي الجريمة في القانون ؛ ويسمى القانون جريمة الاعتداء على العِرض ، وهي بأن تُسمَّى جريمة العجز عن إرضاء المرأة ، أحق وأولى .

على أن المسكينة لم تُؤخَذ في الحالتين إلا غَضَبًا ، ولكن اختلفت طريقة الرجل الغاصب ؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة ، هي إخراجها من شرفها ، وحرمانها حقوق إنسانيتها في الأسرة ، وطردها وراء حدود الاعتبار الاجتماعي ، وتركها ثمة مُخْتَلَاةً لِحَارِي أمورها ، فلا يتيسر لها العيش إلا من مثل الرجل الفاجر ، فلا تكون لها بيئةٌ إلا من أمثاله وأمثالها ، كما يجتمع في الموضع الواحد ، أهلُ المصير الواحد ، على طريقة القطيع في الحجرة . . .

* * *

فقلت هي : الحق أن هذه الجريمة أوطأ الحب ؛ وهي لاتقع إلا من بين نقيضين يجتمعان في المرأة معاً : كِبَرُ حبها إلى ما يفوت العقل ، وصِغَرُ عقلها إلى ما ينزل عن الحب . والمرأة تَظَلُّ هادئةً ساكنةً رزينة ، حتى تصادفها اللحاظ النارية من العين المقدرة لها ، فلا يكون إلا أن تملأها ناراً ولهباً ؛ ولتكن المرأة من هي كائنة ، فإنها حينئذ كمستودع البارود ، يَهْوُل عِظَمُهُ وكِبَرُهُ ، وهو لا شيء إذا اتصلت به تلك الشرارة المهاجمة .

وليست حِرَاسَة المرأة شيئاً يُؤْبِه به أو يُعْتَدُّ به أو يسمَّى حِرَاسَة ، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار ؛ فيستوى في وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة ، والفرع من الحريق الأعظم ؛ فيُحْتَسَط لاثنيهما بوسائل واحدة في قَدَرٍ واحد واعتبار واحد .

وإذا تُركت المرأة لنفسها تحرسها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها ، فقد تُرك لنفسه مستودع البارود تحرسه جدرانها الأربعة القوية . . .

والرجال يعلمون أن للمرأة مَظَاهِرَ طَبِيعِيَّةً ، من الخِيَلَاء والكِبَرِيَاء والاعتداد بالنفس والمباهاة بالعفة ؛ ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يعلمون كذلك ، أن هذا الظاهر مخلوق مع المرأة كجلد جسمها الناعم ، وأن تحته أشياء غير هذه تعمل عملها وتصنع البارود النسائي الذي سينفجر . . .

* * *

قلت : إذا كان هذا فَتَقَبَّحَ اللهُ هذه الحرية التي يرويدنها للمرأة . هل تعيش المرأة إلا في انتظار الكلمة التي تحكمها بلطف ، وفي انتظار صاحب هذه الكلمة ؟

قالت : إن هذا حق لا ريب فيه ، وأوسعُ النساء حريةً أضيعُهنَّ في الناس ؛ وهل كالمومِسِ في حربتها في نفسها ؟

ولكن ياشؤمها على الدنيا ! إنها هي بعينها كما قلت أنت : حريةُ المخلوق الذي يُترك حرّاً كالشريد ، لتُجربَ فيه الحياةُ تجارِبَها . وماذا في يد المرأة من حرية هي حرية القَدَرِ فيها ؟

قلت : ولهذا لا أرجع عن رأئي أبداً : وهو أنه لاحرية للمرأة في أمة من

الأم ، إلا إذا شعر كلُّ رجلٍ في هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها ، بحيث لو أهينت واحدةٌ ثار الكلُّ فاستَقَادُوا لها ، كأن كراماتِ الرجالِ أجمعين قد أهينت في هذه الواحدة ؛ يومئذٍ تُصبح المرأةُ حرةً ، لا بحريتها هي ، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال . . .

فضحكت وقالت : (يومئذ) ! هذا اسمُ زمان أو اسمُ مكان . . . ؟

* * *

قال الأستاذ (ح) : ولكننا أبعدنا عن قصة هذه الحياة ، ما كان أولها ؟ قالت : إن الشبانَ والرجالَ عِلِمٌ يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوانِ الحاجة إليه ؛ ويجب أن يتقرَّ في ذهنِ كل فتاة ، أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ، ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كاللحلى الذى تبتاع منه مندبلاً من الحرير أو زجاجةً من العطر ، فيه إكرامُها وخدمتها .

وأساسُ الفضيلة في الأنوثة الحياء ؛ فيجب أن تعلم الفتاةُ أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجست ، أى توقفت ، أى تبدلت ، استوى عندها أن تذهبَ يميناً أو تذهبَ شمالاً ، ونهياتُ لكلٍّ منهما ولأيهما اتفق : وصاحباتُ اليمين في كَسفِ الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة ، وصاحباتُ الشمال ما صاحباتُ الشمال . . . ؟

قلت : هذا هذا ؛ إنه الحياءُ ، الحياء لاغيره ؛ فهل هو إلا وسيلةٌ أعانت الطبيعةُ بها المرأةَ لتسمو على غريزتها متى وجب أن تسمو ، فلا تلقى رجلاً إلا وفي دَمِها حارسٌ لا يتغفل . وهل هو إلا سَلْبٌ جمعته الطبيعةُ إلى ذلك الإيجاب الذى لو انطلق وحده في نفس المرأة لاندفعت في التبرج والإغراء ، وعَرَضَ أسرار أنوثتها في المعرض العام . . . ؟

قالت : ذاك أردتُ ، فكلُّ ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق ، فلا تعدنه من فترط الجمال ، بل من قلة الحياء .

واعلم أن المرأة لا تخضع حقَّ الخضوع ، في نفسها إلا لشيئين : حياتها وغريزتها .

قلت : يا عجباً ! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية : « تجوعُ الحرةُ ولا تأكلُ بشديديها » . فإن اختَضَعَت المرأةُ للحياء كَفَتْ غريزَتها
 قالت : وجعلها الحياءُ صادقةً في نفسها وفي ضميرها ، فكانت هي المرأةُ الحقيقيةَ الجديرةَ بالزوج والنسل وتوريثِ الأخلاقِ الكريمة وحفظِها للإنسانية .

قلت : ومن هذا يكون الإسرافُ في الأنوثةِ والتبرجِ أمام الرجال كَدَباً من ضمير المرأة .

قالت : ومن أخلاقِها أيضاً ؛ ألا ترى أن أشدَّ الإسرافِ في هذه الأنوثةِ وفي هذا التبرجِ لا يكون إلا في المرأةِ العامة . . ؟

قلت : والمرأةُ العامةُ امرأةٌ تجاريةٌ القلب . فكانُ المسرفةُ في أنوثتها وتبرُّجِها ، هذه سبيلُها ، فهي لا تُؤمِّنُ على نفسها .

قالت : قد تُؤمِّنُ على نفسها ، ولكنها أبداً مُؤمِسُ الفكرِ في الرجال ، فيُوشِكُ ألا تُؤمِّنَ ؛ وهي رَهَنٌ بأحوالها وبما يقع لها ، فقد يتقدم إليها الجريءُ وقد لا يتقدم ، ولكنها بذلك كأنها مُعلَّنةٌ عن نفسها أنها « مستعدةٌ ألا تُؤمِّنَ » . .

قال (ح) : لكن يقال إن المرأةَ قد تتبرجُ وتأنثُ لترى نفسها جميلةً فاتنةً ، فيعجبها حسنُها ، فيسرُّها إعجابُها .

قالت : هذا كالقول إن أستاذَ الرقص الذي رأيتُه هنا ، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجلٌ إلى راقصةٍ تتأوَّدُ وتهتزُّ وتَتَرَجَّرُج . إن هذا الرقَّاصَ فيه الحركةُ الفنيةُ كما هي حركةٌ ليس غير ؛ فهو كالميزانِ أو القياسِ أو أى آلاتِ الضبط ؛ أما فتنةُ الحركةِ وسحرُها ومعناها من المرأةِ الفاتنةِ في وهم الرجلِ المفتونِ بها ؛ فهذا كله لا يكونُ منه شيءٌ في أستاذِ الرقص ، وإن كان أستاذَ الرقص .

إن أجملَ امرأةٍ تَبْصُقُ بِفمِها على وجهها في المرأةِ ، إذا مُحِبِّ الرجلِ من ذهنها ، أو لم يُطلَّ بعينيهِ من وراء عينيَّها ، أو لم تكن ممتلئةً الخواسِ به ، أو بإعجابِهِ ، أو بالرغبةِ في إعجابِهِ ؛ فهما يَكُنُ من جمالِ هذه فإنها لا تَرى وجهَها حيثُذ إلا كاللذينا إذا خَلَّتْ من العدل

قلت: ولكننا أبعدنا عن « قصة هذه الحياة ما كان أولها ! »

قالت: سأفعل ذلك، لموضعك عندى: إن قصتى فى الفصل الأول منها هى قصةُ جمالى؛ وفى الفصل الثانى هى قصةُ مرضِ العذراء؛ وفى الفصل الثالث هى قصةُ الغفلة والتهاونِ فى الحراسة؛ وفى الفصل الرابع هى قصةُ انخداعِ الطبيعةِ النسويةِ المبنية على الرقة وإيجاد الحب وتلقّيه والرغبة فى تنويعه أنواعاً للأهل والزوج والولد؛ ثم فى الفصل الخامس هى قصةُ لؤم الرجل: كان محباً شريفاً يُقسِمُ بالله جهْدَ إيمانه، فإذا هو كالمزور والمحتملِ واللص وأمثالهم ممن لا يُعرفون إلا بعد وقوع الجريمة.

ثم سكنتُ هُنيئةً، فكان سكوتُها يُتِمُّ كلامها

وقال (ح): فما هو مرضُ العذراء الذى كان منه الفصلُ الثانى فى الرواية؟

قالت: كلُّ عذراءٍ فهى مريضةٌ إلى أن تتزوج؛ فيجب أن يُعلِّمَهَا أهلُها أن العلاجَ قد يكون مسموماً؛ وينبغى أن يحوِّطوها بقريب من العناية التى يحاط المريضُ بها، فلا يُجعلُ ما حوله إلا ملائماً له، ويُمنعَ أشياء وإن أحبَّها ورغبَ فيها، ويُكرَّهُ على أشياء وإن عافها وصدفَ عنها.

قال (ح): فيكون القانونُ الاجتماعىُ تصديقاً للقانونِ الدينى من أن الذكورةَ

هى فى نفسها عداوةٌ للأنوثة، وأن كلَّ رجلٍ ليس ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ^(١) يجبُ أن يكونَ مرفوضاً إلا فى الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ، وهى الزواج.

قالت: فتكون المشكلةُ الاجتماعيةُ هى: من ذا يُرغمُ الذكورةَ على هذه

الحالةِ الواحدةِ المشروعةِ كيلا تضيعَ الأنوثة؟

قال: ولكن إذا كان سقوطُ الفتاة هو جنائيةُ « الزواج المزور »، فما عسى

أن يكون سقوطُ بعضِ المتزوجات؟

قالت: هو جنائيةُ « الزواج المنقَح » . . . تريد أنفسهن الحبيشةَ تنقيحَ

الزَّوج؛ والمومِساتُ أشرفُ منهن، إذ لا يعتدينَ على حق ولا يَخُنُّ أمانة.

* * *

(١) يقال ذو رحم محرم: أى لا يحل للمرأة، كآبيها وأخيها إلخ.

ورفت على وجهها في هذه اللحظة شعاع من الشمس كان على جبينها كصفاء
 اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كإشراق الياقوت ؛ ورأتني أتأمله ، فقالت : أنا
 مُنْتَشِيةٌ بِحُظِّي في هذه الساعات ؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورها .
 ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيقي من
 حياقتها . . . وهو رجل يَشَحْظُهَا ؛ كلما أخذته عينها ابتسمت له ابتساماً
 من الذلّ ، ولم تجعله هي ابتساماً لكان دموعاً ؛ ثم وقفت وما تمالك من
 الهم ، كأنها تمثال « للجمال البائس » ؛ ثم حَيَّتْ وَسَلَّمَتْ وودّعت ؛ وبعد
 « واوات » أخرى . . . مشّت ساكنةً ومترآها يَضْحِكُ ويبكي .
 فوداعاً يا أوهام الذكاء التي تُلْمِسُ الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها !
 ووداعاً يا أحلام الفكر التي تضع مع كل شيء شيئاً يغيره !
 ووداعاً يا حُبّها . . .

عروبة اللقطاء . . . *

جلستُ على ساحل الشاطبي في (اسكندرية) أتأمل البحر ، وقد ارتفع الضحى ، ولكنَّ النهارَ لَدُنَّ ناعمٍ رطيبٍ كأنَّ الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظُّهر . وجاءت عَرَبَةُ اللِّقَطَاءِ فأشرفتْ على الساحل ، وكأنَّها في منظرها غمامةٌ تتحرك ، إذ تعلوها ظِلَّةٌ كبيرةٌ في لون الغَيمِ . وهي كعربات النقل ، غيرَ أنها مُسَوَّرةٌ بألواح من الخشب كجوانب النعش تُمسِكُ مَنْ فيها من الصِّغار أن يتدحرجوا منها إذ هي تدرُج وتَشَقُّ لِنَقْلِ .

ووقفتُ في الشارع لتُنْزِلَ ركبها إلى شاطئ البحر ؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سَفِيحٍ لِقِيطٍ ومَنْبُودٍ ، وقد انكمشوا وتَضَاعَطُوا إذ لا يمكن أن تُمَطَّ العربَةُ فَتَسَعَهُمْ ، ولكن يمكن أن يُكَبَّسُوا ويتداخَلُوا حتى يَشْغَلَ الثلاثة أو الأربعة منهم حَيْزَرَانِينِ . وَمَنْ منهم إذا تَأَلَّم سيذهب فيشكو لأبيه . . . ؟

وترى هؤلاء المساكينَ خَلِيطًا مُلْتَبِيسًا يُشْعِرُكَ اجتماعُهُم أنهم صَيِّدٌ في شَبَكَةِ لَأَطْفَالٍ في عَرَبَةٍ ، ويدلك منظرهم البائس الدليل أنهم ليسوا أولادَ أُمَّهَاتٍ وآبَاءٍ ، ولكنهم كانوا وساوسَ آباءٍ وأُمَّهَاتٍ . . .

* * *

هذه العربَةُ يجرُّها جوادان أحدهما أدهم والآخر كُمَيْسَتٌ^(١) . فلما وقفت لَوَى الأدهم عُنُقَهُ والتفتَ ينظر : أيفرغون العربَةُ أم يزيدون عليها . . . ؟ أما الكُمَيْسَتُ فحرَّكَ رأسه وعَلَّكَ لجامه كأنه يقول لصاحبه : إن الفكرَ في تخفيف العبء الذي تَحْمِلُهُ يجعلُهُ أَثْقَلَ عَلَيْكَ مما هو ، إذ يُضَيِّفُ إِلَيْهِ الهمَّ ، والهمُّ أَثْقَلَ ما حَمَلَتْ نفسٌ ؛ فإدمت في العملِ فلا تَتَوَهَّمَنَّ الراحةَ ، فإن هذا يُوْهِنُ القوةَ ، وَيَخْذُلُ النشاطَ ، وَيَجْلِبُ السَّامَ ؛ وإنما رُوحُ العملِ الصبرُ ، وإنما رُوحُ الصبرِ العزمُ .

* كتبها في مصيفه بسيدي بشر سنة ١٩٣٥

(١) الأدهم : الأسود . والكُمَيْت : الأحمر .

ورآهم الأدهم يُنْزِلُون اللُّقَطَاء ، فاستخَفَّه الطرب ، وحرَّكَ رأسه كأنما
يسخر بالكميت وفلسفته ، وكأنما يقولُ له : إنما هو النَّزُوعُ إلى الحرية ، فإن
لم تكن لك في ذاتها ، فلتكنْ لك في ذاتك ، وإذا تعذَّرت اللذةُ عليك ، فاحتفظْ
بخيالها ، فإنه وُصِّلَتْكَ بها إلى أن تُمكنَ وتتسهَّلَ ؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ
طباعك طباعاً عاملةً كادحةً ، وإلا فأنت أداةٌ ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك ،
وليكنْ لك طبعٌ شاعرٌ مع هذه الطباع العاملة ، فتكونْ لك الحياةُ كما تريدك
وكما تريدها .

إن الدنيا شيء واحدٌ في الواقع ؛ ولكنَّ هذا الشيء الواحدَ هو في كل
خيال دنياً وحدها .

* * *

وفي العربة امرأتان تقومان على اللقطاء ؛ وكلتاها تزويرٌ للأُم على هؤلاء
الأطفال المساكين ؛ فلما سكنت العربةُ انحدرتُ منهما واحدة وقامت الأخرى
تناولُها الصغارُ قائلةً : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . . إلى أن تمَّ العدد
وخلا قفصُ الدجاج من الدجاج . . . !
ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مُستسلمةٌ ،
سُتْكينة ، مُعترِفة أن لاحقاً لها في شيء من هذا العالم ، إلا هذا الإحسانَ
البخس القليل .

جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحرَ والشمس ، فغفَلَ الصغارُ عن كل ذلك
وصرَّخوا أعينهم إلى الأطفال الذين لهم آباءٌ وأمَّهات . . .

* * *

واكبدي ! أضنني الأسى كبدي ؛ فقد ضاق صدري بعد انفساحه ،
ونالني وجعُ الفكر في هؤلاء التَّعْساء ، وعزَّتني منهم عِلَّة كدَس الحمى في
الدم ؛ وانقلبْتُ إلى مشواي ، والعربةُ وأهلُها ومكانُها وزمانُها في رأسي .
فلما طافَ بي النومُ طاف كلُّ ذلك بي ، فرأيتني في موضعي ذاك ،
وأبصرتُ العربةَ قد وقفت ، وتجاوزَ الأدهم والكميت ؛ فلما أفرغوها وشعرَ
الحوادان بخفتها التفتتاً معاً ، ثم جمعا رأسيهما يتحدثان !

قال الكُميت : كنتُ قبلَ هذا أجرُ عربةِ الكلابِ التي يقتلها الشرُّطَةُ بالسُّمِّ ، فأخذ الموتَ لهذه الكلابِ المسكينة ، ثم أرجعُ بها مَوْتِي ؛ وكنتُ أذهبُ وأجىءُ في كلِّ مرادٍ ومُضْطَرَبٍ من شوارعِ المدينةِ وأزقتها وسِكَكِها ، ولا أشعرُ بغيرِ الشَّقْلِ الذي أجره ؛ فلما ابتليتُ بعربةِ هؤلاء الصغارِ الذين يسمونهم اللقطاءَ ، أحسستُ ثِقَلًا آخرَ وقعَ في نفسي وما أدري ما هو ؟ ولكن يُخَيِّلُ إلى أنَّ ظِلَّ كلِّ طفلٍ منهم يُشْقِلُ وحدهُ عربة .

قال الأدهم : وأنا فقد كنتُ أجرُ عربةِ القُصَّامَةِ والأقذار ، وما كان أقدرَها وأنتنَها ، ولكنها على نفسي كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ؛ كنتُ أجِدُ ريحها الخبيثةَ ما دمتُ أجراها ؛ فإذا أنا تركتُ العربةَ استروحتُ النَّسيمَ واستطعمتُ الجحشَ ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ في الزمنِ نفسه ، كأن هذا الزمنَ قد أروحَ وأنتنَ منذ قُرِئتُ بهؤلاء وعربتهم .

قال الكُميت : إن ابنَ الحيوانِ يستقبلُ الوجودَ بأمه ، إذ يكونُ وراءها كالقطعةِ المتمسكةِ لها ، ولا تقبلُ أمه إلا هذا ، ولا يصرفُها عنه صارفٌ ، فتسرِّغُ الوجودَ على أن يتقبلَ ابنها ، وعلى أن يعطيَه قوانينَه ؛ أما هؤلاء الأطفالُ فقد طردَهم الوجودُ منه كما طردَ الله آباءهم وأمهاتهم من رحمته ؛ وقد هُدِيتُ الآن إلى أن هذا هو سرُّ ما نشعرُ بها ؛ فلننا نجرُّ للناسِ ولكن للشياطين ..

وهنا وقف على حُودَى العربةِ صديقٌ من أصدقائه فقال : مَنْ هؤلاء يا أبا علي ؟

قال الحوذى : هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم .

قال أبو هاشم : سبحانَ الله أما تركَ طبعَكَ في النكتةِ يا شيخ ؟

قال الحوذى : وهل أعرفُهم أنا ؟ هم بِضَاعَةُ العربةِ والسلام : اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كلُّ ما أسمع .

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطًا عليهم ، كأنهم أولادُ أعدائك ؟

قال الحوذى : ليت شعري من يدرى أىَّ رجلٍ سيخرجُ من هذا الطفل ،

وأيةُ امرأةٍ ستكون من هذه الطفلة ؟

انظر كيف تعلقت هذه البنت وعمرها ستتان ، في عنق هذا الولد الذي كان من سنتين ابن سنتين^(١) . . . لأراني أحمل في عربتي أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم العربات إلى أبواب دُورهم ؛ فإن هؤلاء اللقطاء يُحملون إلى باب الملجأ ، وهو باب للحارات والسكك لا يأخذ إلا منها ، فلا يرسل إلا إليها .

أنا والله يا أبا هاشم ، ضيق الصدر ، كاسف البال من هذه المِهْنَة ؛ ويخيّل إلى أنى لا أحمل في عربتي إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدَّعَاة والسكّر وعواصف وزواجع . . .

قال أبو هاشم : ولكن هؤلاء الأطفال مساكين ، ولا ذنب لهم .
قال الحوذى : نعم لا ذنب لهم ، غير أنهم هم في أنفسهم ذنوب ؛ إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبت امتداد الإثم والشر في الدنيا ؛ ولدتهم أمهاتهم لِغِيَّة^(٢) .

فقطع صاحبه عليه وقال : وهل ولدَتْهم إلا كما تلد سائر الأمهات أولاً دهن ؟

قال : نعم ، إنه عمل واحد ، غير أن أحواله في الجهتين مختلفة لا تتكافأ ؛ وهل تستوى حال من يشتري المتاع ، ومن يسرق المتاع ؟

ههنا باعث من الشهوة قد عجز أن يسمو سموه — وما سموه إلا الزواج — فتسفل وانحط ، ورجع فسقاً ، وعاد أوله على آخره : كان أوله جرماً فلا يزال إلى آخره جرماً ، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره ؛ فلما حملت المرأة وفاءت إلى أمرها ، وذهب عنها جنون الرجل والرجل معاً ؛ انطوت للرجال على الثأر والحقد والضغينة ؛ فلا يكون ابن العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً .

والأمهات يُعددن لأجنتهن الثياب والأكسية قبل أن يولدوا ، ويهيئهن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً في الحياة ، فيكسبهنهم في بطونهن شعور الفرح والابتهاج وارتقاب الحياة الهنيئة والرغبة في السمو بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلدين من أمثال (أبي علي) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات .

(٢) ولدته لغية : أى من سفاح . وضده لرشدة بفتح الراء .

يُعدُّ دُنْ لِمِ الشَّوَارِعِ وَالْأَرْقَةِ مِنْذُ الْبَدَنِ ، وَلَا تَرْقُبُ لِاحْدَاهُنْ طَوْلَ أَشْهَرِ حَمَلِهَا أَنْ يَجِيئَهَا الْوَلِيدُ ، بَلْ أَنْ يَرْكَبَهَا حَيًّا أَوْ مَقْتُولًا ؛ فَيُورِثُنْهُمْ بِذَلِكَ وَهُمْ أَجَنَّةٌ شَعُورُ اللَّهْفَةِ وَالْحَسْرَةِ وَالْبُغْضِ وَالْمَقْتِ ، وَبَطْبَعَتُهُمْ عَلَى فِكْرَةِ الْخَطِيئَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْقَتْلِ ، فَلَا يَكُونُ ابْنُ الْعَارِ إِلَّا ابْنُ هَذِهِ الرِّذَائِلِ أَيْضًا .

وَتَظَلُّ الْفَاسِقَةُ مُدَّةَ حَمَلِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ فِي إِحْسَاسِ خَائِفٍ ، مَرْقُبٍ ، مُنْفَرِدٍ بِنَفْسِهِ ، مُنْعَزَلٍ عَنِ الْإِنْسَانِيَةِ ، نَاقِمٍ ، مُتَبَرِّمٍ ، مُتَسَتِّرٍ ، مُنَافِقٍ ؛ فَلَوْ كَانَ السَّفِيحُ مِنْ أَبَوَيْنِ كَرِيمَيْنِ لَجَاءَ ثُعْبَانًا أَدْمِيًّا فِيهِ سُمُّهُ مِنْ هَذَا الْإِحْسَاسِ الْعَنِيفِ . وَمَتَى أَلْقَتْ الْفَاسِقَةُ ذَا بَطْنِهَا ^(١) قَطَعَتْهُ لِيَتَوَّهُ مِنْ رَوَابِطِ أَهْلِهِ وَزَمَنِهِ وَتَارِيخِهِ وَرَمَتْ بِهِ لِيَمُوتَ ؛ فَإِنْ هَلَكَ فَقَدْ هَلَكَ ، وَإِنْ عَاشَ لِمِثْلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَهُوَ مَوْتُ آخِرِ شَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَمَهْمَا يَتَوَلَّاهُ النَّاسُ وَالْحَسَنُونَ ، فَلَا يَزَالُ أَوَّلُهُ يَعُودُ عَلَى آخِرِهِ ؛ مِمَّا فِي دَمِهِ وَطَبَاعِهِ الْمُورِثَةِ ؛ وَلَا يَبْرَحُ جَرِيمَةً مُمْتَدَّةً مُتَطَاوِلَةً ، وَلَا يَنْفِكُ قِصَّةً فِيهَا زَانٌ وَزَانِيَةٌ ، وَفِيهَا خَطِيئَةٌ وَلَعْنَةٌ .

فَهَؤُلَاءِ كَمَا رَأَيْتُ أَوْلَادَ الْجُرْأَةِ عَلَى اللَّهِ ، وَالتَّعَدَّى عَلَى النَّاسِ ، وَالِاسْتِخْفَافَ بِالْشَّرَائِعِ ، وَالِاسْتِهْزَاءَ بِالْفَضَائِلِ ؛ وَهَمَّ الْبُغْضُ الْخَارِجُ مِنَ الْحُبِّ ، وَالْوَفَاقَةُ الْآتِيَةُ مِنَ الْحُجَلِّ ، وَالِاسْتِهْتَارُ الْمُنْبَعِثُ مِنَ النَّدَامَةِ ؛ وَكُلُّ مَنْهُمْ مَسْأَلَةٌ شَرٍّ تَطْلُبُ حَلَّهَا أَوْ تَعْقِدُهَا مِنَ الدُّنْيَا ، وَفِيهِمْ دَمَاءٌ فَوَارَةٌ تَجْمَعُ سُمُومَهَا شَيْئًا فَشِيئًا كُلَّمَا كَبُرَ وَاسْتَهْزَأَتْ فَسَنَةً .

قَالَ أَبُو هَاشِمٍ : أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْفَاسِقِ الَّذِي اغْتَرَّ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَاسْتَزَلَّهَا وَهَوَّارَهَا فِي هَذِهِ الْمَهْوَاةِ . أَكَانَ حَقُّ الشَّهْوَةِ عَلَيْهِ أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ هَذَا الْآدَمِيِّ . أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْآخِرُ هُوَ الْأَوَّلُ فِي الْإِعْتِبَارِ ، فَيَعْلَمَ أَنَّ هَذَا اللَّقِيطَ الْمُسْكِينَ هُوَ سَبِيلُهُ إِلَى صَاحِبَتِهِ ، وَهُوَ الْبَلَغُ إِلَى مَا يَحَاوِلُهُ مِنْهَا ؛ فَيَكُونُ كَأَمَّا دَخَلَ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ ثَالِثٌ يَرَاهُمَا فَلَعَلَّهُمَا يَسْتَحْيَانِ .

قَالَ الْخُوذِيُّ الْفَيْلَسُوفُ : لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَلَعْنَتَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا ، وَلَعْنَتَاتُ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي انْقَادَتْ لَهُ وَاغْتَرَّتْ بِهِ . إِنْ الرَّجُلَ لَا يَسِيئُ فِي هَذِهِ الْجَرِيمَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ بِصَقَّةٍ وَاحِدَةٍ تُغْرِقُهُ ، وَكَانَتْ

(١) أَيْ وَضَعَتْ وَوَلَدَتْ ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَرَبِيٌّ بَلِيغٌ .

صفعة واحدة تَهْزِمُهُ ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ، ومعها جهنمُ أيضا .

ألم تعلم الحمقاء أن الرجلَ الذى ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها ، وأن الشريعةَ لو أيقنت أنه رجلٌ لما حرّمت عليها أن تخالطه ؟ إنه ليس الرجلُ هو الذى ساوَرَه هذه المرأة ، بل مادةُ الحياة التى رأت فى المرأة مُستودعَها ، فتريدُ أن تقتحِمَ إلى مقرّها عنوةً أو خِداً أو رضىً أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن تُوجد ، ولا شيء إلا أن توجد ؛ فلا تعرفُ خيراً ولا شراً ، ولا فضيلةً ولا رذيلةً . لأيهما يجبُ التحصينُ : للصاعقة المتقضة ، أم للمكان الذى يُخشى أن تنقضَ عليه ؟ لقد أجابت الشريعةُ الإسلامية : حصّنوا المكان . ولكن المدنية أجابت : حصّنوا الصاعقة . . . !

* * *

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان ، فقالت الكبرى منهما : يا حَسْرَتَيَّ على هؤلاء الصغار المساكين ! إن حياةَ الأطفال فيما فوقَ مادة الحياة ، أى فى سرورهم وأفراحهم ؛ وحياةُ هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أى فى وجودهم فقط .

وكبّرَ الأطفالُ يكون منه إدخالُهم فى نظام الدنيا ، وكبّرَ هؤلاء إخراجُهم من « الملجأ » وهو كلُّ النظام فى دنياهم ، ليس بعده إلا التشريدُ والفقرُ وابتداء القصة المحزنة .

فقالت الصغرى : ولِمَ لا يفرحون كأولاد الناس ، أليست الطبيعةُ لهم جميعاً ، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتها عن هؤلاء لتضاعفَها لأولئك ؟ قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتك حياةً بعد ، ولم تجاوبى بقلبك القلبَ الصغيرَ الذى كان تحت قلبك تسعةَ أشهر ؛ وإنما أنتِ مع هؤلاء (موظفة) لاتعرفين منهم إلا جانبَ النظام وقانونَ الملجأ .

لقد ولدتُ يا ابنتى خمسةَ أطفال ، وبالعين البليغة التى أنظرُ بها إليهم أنظرُ إلى هؤلاء ، فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الإنسانى : يعبَسُ لهم

حتى الجوّ، ويُظلم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صِغَرِه كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره .

يالتهمنى على عودٍ أخضرٍ ناعمٍ رَيَّانٍ كانَ للثَمَرِ فقيلَ له : كنَ للحَطَبِ !
الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحَيِّ بأنَّه حَيٌّ كما يهوى ، ورؤيتُه نفسَه على ما يشاءُ فى الحياةِ الخاصةِ به . وهؤلاء اللقطاء فى حياةِ عامَّةٍ قد نُزِعَتْ منها الأمُّ والأبُّ والدارُ ، فليس لهم ماضٍ كالأطفالِ ، وكأنَّهم يبدءون من أنفُسِهِم لامن الآباءِ والأمهاتِ .

قالت الصغيرة : ولكنهم أطفال .

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غيرَ أنهم طُردوا من حقوقِ الطفولة كما طُردوا من حقوقِ الأهلِ . وحسبكُ بشقاءِ الطفلِ الذى لم يَعْرِفْ من حَنانِ أمه إلا أنها لم تقتله ، ولامن شفقتِها إلا أنها طرَحَتْه فى الطريقِ .

إن الطبيعةَ كلَّها عاجزةٌ أن تعطىَ أحدهم مكانًا كالموضعِ الذى كان يتبوَّؤُه بين أمه وأبيه .

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صُورًا مُبْهَمَةً صغيرةً من كلِّ جمالِ العالمِ ، تفسرُها أعينُ ذويهم بكلِّ التفسيراتِ القلبيةِ الجميلةِ ؛ فأينَ أينَ العيونُ التى فيها تفسيرُ هذه الصُّورِ اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين على أولئك الرجالِ الأندالِ الطَغَامِ الذين ألدوا النساءِ هؤلاء المنبوذين ! يزعمون لأنفسِهِم الرجولةَ ، فهذه هى رجولتُهُم بين أيدينا ، هذه هى شهامتُهُم ، هذه هى عقولُهُم ، هذه هى آدابُهُم . . . !

عجبًا ، إن سيئاتِ اللصوصِ والقَتَلَةِ كلها يُنسَى ويتلاشى ، ولكنَّ سيئاتِ العشاقِ والحبين تعيشُ وتكبرُ . . .

أكانَ ذنبُ المرأةِ أنها صادقةٌ فصدَّقتْ ، وأنها مُخلصةٌ فأخلصتْ ، وأنها رقيقةٌ فلانَّتْ ، وأنها مُحسنةٌ فرَحِمَتْ ، وأنها سليمةُ القلبِ فانخدعتْ ؟

واكبدى للمسكينة ! هل انخدعتْ إلا من ناحيةِ الأمومةِ التى خلقتْ لها ؟ هل انخدعتْ إلا الأمُّ التى فيها ؟ وهل خدعها من ذلك اللثيمِ إلا الأبُّ الذى فيه ؟

واكْبَدِي لِمَن تُفْجَعُ بالنكبةِ الواحدةِ ثلاثَ فجائعَ : في كرامتها الى ابتْدَلْتُ ، وفي الحبيب الذي تَبْرَأُ منها ، وفي طفلِها الذي قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كَتَبَ عليه . . . !

إن هذا لا يُعَوِّضُهُ في الطبيعة إلا أن يكونَ لكل رجل من أولئك الأندال ثلاثُ أرواح ، فيُفْتَلَّ ثلاثَ مرات : واحدةً بالشنق ، والثانيةً بالحرق ، والثالثةً بالرجم بالحجارة .

* * *

وكان اللقطاء قد تَبَعَثُوا على الساحلِ جَمَاعَاتٍ وَشَتَّى ، فوقفَ أحدهم على طفلٍ صغيرٍ يلعبُ بما بين يديه ، وأُمُّهُ على كَشَبٍ منه ، وهى تتلهَّى بالخُرْمِ تتلوَّى فيه أصابعُها .

فنظرَ الطفلُ إلى اللقيطِ وأومأ إلى جماعته ثم قال له : أنتم جميعاً أولادُ هاتين المرأتين أم إحداهما ؟

قال اللقيط . هما المراقبَتان ؛ وأنتَ أفليستَ هذه التى معك مُراقِبة ؟

قال الطفل : ما معنى مُراقِبة ؟ هذه ماما !

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مُراقِبة .

قال الطفل : وكلكم أهلُ دارٍ واحدة ؟

قال : نحن في الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا .

فقال الطفل : وهل تبكى في الملجأ إذا أردتَ شيئاً ليعطوك ؛ ثم تغضبُ إذا أعطوك ليمز يدوك ؟ وهل يُسَكِّتُونك بالقرش والحلوى ؟ والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهبُ معكم إلى الملجأ ؛ فإن أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لاتعطينى شيئاً إذا بكيت ، ولاتزيدنى إذا غضبت ، ولا

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رَقْم عشرة . . . فلوَى اللقيطُ المسكين وجهه ، وانصمَاعَ وأدبر .

« ومشيَ الأطفالُ بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة ، مستكينة » ، معترفة أن لاحقاً لها في شيء من هذا العالم إلا هذا الإحسان البخس القليل . . .

الله أكبر *

جلستُ وقد مضى هزيعٌ من الليل، أهْيَيْتُ في نفسي بناءَ قصةٍ أديرُها على فتىٍّ كما أَحَبَّ .. خبيثٍ داعِرٍ، وفتاةٍ كما أَحَبَّتْ . . . عذراءٌ مُتَمَاجِنَةٌ ؛ كلاهما قد دَرَسَ وتَخَرَّجَ في ثلاثةَ مَعَاهِدَ : المدرسةَ ، والرواياتِ الغراميةَ ، والسِّيَا . وهو مصريٌّ مسلمٌ ، وهى مصريةٌ مسيحيةٌ . وللفتى هَمَاتٌ وسيئاتٌ لا يَنْتَرِهُ ولا يَتَوَرَّعُ ؛ وهو مِن شِبابِهِ كالماءِ يغلى ، ومن أُنَاقَتِهِ بحيثُ لم يَبْقَ إلا أن تَلَحُّقَه تاءُ التَّائِيثِ . . . وقد تَشَعَّبَتْ به فنونُ هذه المَدَنِيَّةِ ، فَرَفَعَ اللهُ يَدَهُ عن قلبه لا يُبَالِي في أَىٍّ أودَّ يَتَها هَلَاكَ ؛ وهو طَلَبُ نساءَ ، دأْبُهُ التَّجَوُّالُ في طُرُقِهِنَّ ، يَتَبَعُهُنَّ ويتَعَرَّضُ لهنَّ ، وقد أَلِفَتْهُ الطُّرُقُ حَتَّى لو تَكَلَّمَتْ لَقَالَتْ : هذا ضَرْبٌ عَجِيبٌ من عَرَبَاتِ الكَنْسِ . . . !

وللفتاة تَبَرُّجٌ وتهنكٌ ، يَعْجَبُ بها العَبْتُ نفسه ، وقد أَخْرَجَتْها فنونُ هذا الثَّائِتِ الأوربى القائم على فلسفة الغريزة ، وما يُسَمُّونه « الأدب المكشوف » كما يُصَوِّرُهُ أولئك الكُتَّابُ الذين نَقَلُوا إلى الإنسانية فلسفةَ الشَّهَوَاتِ الحَرَّةِ عن البَهَائِمِ الحرة . . . فهى تَبَرُّزُ حين تَخْرُجُ من بيتِها ، لا إلى الطُّريقِ ، ولكن إلى نظراتِ الرجالِ ؛ وتَظْهَرُ حين تَظْهَرُ ، مُصَوَّرَةٌ لابتكولينِ نَفْسِهَا مما يجوزُ وما لا يجوزُ ، ولكن بتلوينِ مَرَاتِهَا مما يُعْجِبُ وما لا يُعْجِبُ .

وكِلا اثْنَيْهِمَا لا يُقِيمُ وزنًا للدينِ ، والمسلم والمسيحيُّ مِنْهُمَا هو الاسمُ وحده ؛ إذ كان مِن وَضَعِ الوالدينِ (رحمهما الله !) ، والدينُ حُرِّيَةُ القَيْدِ لاحتِبة الحرية ؛ فأنت بعد أن تُقَيِّدَ رِذَائِلَكَ وضَرَّاءَكَ وشَرَكَ وحِجَوانِيَّتَكَ — أنت مِن بعد هذا حرٌّ ما وَسَّعَتْكَ الأرضُ والسَّمَاءُ والفِكرُ ؛ لأنك مِن بعد هذا مُكَمَّلٌ لِلإنسانيةِ ، مُسْتَقِيمٌ على طريقتها ؛ ولكن هَبْ حِمَارًا تَفَلْسَفَ وَأَرَادَ أن يَكُونَ حرًّا بعقله الحمارى ؛ أى تقرير المذهب الفلسفى الحمارى فى الأدب . . . فهذا إنما يَبْتَغى إطلاقَ حُرِّيَّتِهِ ، أى تَسْلِيْطَ حِمَارِيَّتِهِ الكَامِلَةِ على كل ما يتصل به من الوجود .

وَتَمْضِي قِصَّتِي فِي أُسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ تَمْتَحِنُ بِهَا فَنُونُ هَذِهِ الْفَتَاةِ
شَهَوَاتِ هَذَا الْفَتَى ، فَلَا يَزَالُ يَمْشِي مِنْ حَيْثُ لَا يَصِلُ ، وَلَا تَزَالُ تَمْنَعُهُ مِنْ حَيْثُ
لَا تَرُدُّهُ ؛ وَمَا ذَلِكَ مِنْ فَضِيلَةٍ وَلَا امْتِنَاعٍ ، وَلَكِنَّهَا غَرِيزَةُ الْاُنُوَّةِ فِي الْاِسْتِمَاعِ
بِسُلْطَانِهَا ، وَإِثْبَاتِهَا لِلرَّجُلِ أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ قُوَّةُ الْاِنْتِظَارِ ، وَقُوَّةُ الصَّبْرِ ؛ وَأَنَّ هَذِهِ الَّتِي
تَحْمِلُ جَنِينَهَا تَسْعَةً أَشْهُرٍ فِي جَوْفِهَا ، تُمْسِكُ رَغْبَتَهَا فِي نَفْسِهَا مَدَّةَ حَمَلٍ
فَكَرِيٍّ إِذَا هِيَ أَرَادَتْ الْحَيَاةَ لِرَغْبَتِهَا ، لِيَكُونَ لَوْقُوعِهَا وَتَحَقُّقِهَا مِثْلُ الْمِيلَادِ الْمَفْرُوحِ .

وَلَكِنَّ الْمِيلَادَ فِي قِصَّتِي لَا يَكُونُ لِرَذِيلَةِ هَذِهِ الْفَتَاةِ ، بَلْ لِفَضِيلَتِهَا ؛ فَإِنَّ
الْمَرْأَةَ فِي رَأْيِي - وَلَوْ كَانَتْ حَيَاتُهَا مَحْدُودَةً مِنْ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ بِكِبَائِرِ الْإِثْمِ
وَالْفَاحِشَةِ - لَا يَزَالُ فِيهَا مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْحُدُودِ كُلِّهَا قَلْبٌ طَبِيعَتُهُ الْأُمُومَةُ ،
أَيُّ الْاِتِّصَالِ بِمَصْدَرِ الْخَلْقِ ، أَيْ كُلِّ فُضَائِلِ الْعَقِيدَةِ وَالِدِينِ ؛ وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَّ
يَتَنَبَّهُ هَذَا الْقَلْبُ بِحَادِثٍ يَتَّصِلُ بِهِ فَيَبْلُغُ مِنْهُ ، حَتَّى تَتَحَوَّلَ الْمَرْأَةُ تَحَوُّلَ الْأَرْضِ
مِنْ فَصْلِهَا الْمُقَشَّعِ الْجَدْبِ ، إِلَى فَصْلِهَا النَّصْرِ الْأَخْضَرِ .

فِي قِصَّتِي تُذْكَرُ الْفَتَاةُ لِمُصَاحِبِهَا فِي يَوْمٍ قَدْ اعْتَرَتْهَا فِيهِ خَافَةٌ ، وَنَزَلَ بِهَا هَمٌّ ،
وَكَادَتْهَا الْحَيَاةُ مِنْ كَيْدِهَا ؛ فَكَانَتْ ضَعِيفَةَ النَّفْسِ بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ .
وَتَخْلُو بِالْفَتَى وَفَكْرُهَا مُنْصَرَفٌ إِلَى مَصْدَرِ الْغَيْبِ ، مُؤَمِّلٌ فِي رَحْمَةِ الْقَدَرِ ؛
وَيَخْلِبُهَا الشَّابُّ خَلَابَةً رُغُونَتِهِ وَحُبِّهِ وَلِسَانِهِ ، فَيُعْطِيهَا الْأَلْفَاظَ كُلِّهَا فَارِغَةً
مِنَ الْمَعَانِي ، وَيَقْرَأُ بِالزَّوْجِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى الطَّلَاقِ بَعْدَ سَاعَةٍ ؛ فَإِذَا أَوْشَكَتِ
الْفَتَاةُ أَنْ تُصْرَعَ تِلْكَ الصَّرْعَةَ دَوَّى فِي الْجَوِّ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! »

وَتُلْسَعُ الْفَتَاةُ فِي قَلْبِهَا ، وَتَتَّصِلُ بِهَذَا الْقَلْبِ رُوحَانِيَّةُ الْكَلِمَةِ ، فَتَقَعُ الْحَيَاةُ
السَّمَاوِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَتَتَنَبَّهُ الْعِذْرَاءُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ عَارَهَا ، وَيَفْجُوُّهَا
أَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ عَلَى أَنْ تَفْسِدَ مِنْ نَفْسِهَا مَا لَا يَصْلِحُهَا الْمُسْتَحِيلُ فَضْلًا عَنْ
الْمُمْكِنِ ، وَتَرْنُو بَعِينَ الْفَتَاةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ نَفْسِهَا إِلَى جِسْمٍ بَخِيٍّ لَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ الَّتِي
هِيَ ؛ وَتَنْظُرُ بَعِينَ الزَّوْجَةِ مِنْ صَاحِبِهَا إِلَى فَاسِقٍ لَيْسَ هُوَ ذَاكَ الَّذِي هُوَ ؛
وَيَحْكِي لَهَا الْمَكَانُ فِي قَلْبِهَا الْمَقْطُورِ عَلَى الْأُمُومَةِ - حِكَايَةً تَشْوُرُ مِنْهَا وَتَشْمَتُّ ؛
وَيَصْرُخُ الطِّفْلُ الْمِسْكِينُ صَرَخَتَهُ - أُذْنُهَا قَبْلَ أَنْ يُولَدَ وَيُلْتَقَى فِي
الْشَّارِعِ . . . !

الله أكبر ! صوت رهيب ليس من لغة صاحبها ولا من صوته ولا من خيستته ، كأنما تُفْرِغُ السماء فيه مِلَّةَ سحابة على رِجْسٍ قلبها فتنقفيه حتى ليس به ذرَّةٌ من دَنَسِهِ الذى رَكِبَهُ الساعة . كان لصاحبها فى جسِّ أعصابها ذلك الصوت الأسود ، المنطوى ، المبهَم ، المتكَلِّجُ مما فيه من قوَّة شهواته ؛ للمؤذِّن صوتٌ آخر فى رُوحها ؛ صوتٌ أحمر ، مشعلٌ كعممة الحريق ، مُجَلِّجٌ كالرعد ، واضحٌ كالْحَقِيقَةِ فيه قوَّةُ الله !

سمعت صوت السلسلة وقعَ عَمَتَها تُلَوَّى وتشدُّ عليها ، ثم سمعت صوت السلسلة بعينها يُكسِّرُ حديدُها ويتحطَّمُ .

كانت طهارتها تختنقُ فنفذتُ إليها النَّسَمَاتِ ؛ وطارَت الحمامة حين دعاها صوتُ الجوِّ ، بعد أن كانت أسَقَّتْ حين دعاها صوتُ الأرض . طارت الحمامة ، لأن الطبيعة التفتت فيها لفتةً أخرى . ويكرِّرُ المؤذِّنُ فى ختام أذانه : « الله أكبرُ الله أكبر ! » فإذا . . .

* * *

وتسلَّدَ خاطرى ، فوقفتُ فى بناء القصة عند هذا الحد ، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ « إذا . . . » فتركتُ فكرى يعمل عمَلَه كما تُلهمُه الواعيةُ الباطنة ، ونِمت . . .

ورأيتُ فى نوى أنى أدخلُ المسجدَ لصلاة العيد وهو يَعُجُّ بتكبير المصلِّين : « الله أكبر الله أكبر ! » ولم هديرٌ كهدير البحرِ فى تَلاطُمِهِ . وأرى المسجدَ قد غَصَّ بالناس فاتَّصلوا وتلاحموا ؛ تجدُّ الصفَّ منهم على استوائه كما تجد السطرَ فى الكتاب : ممدوداً محتبِكاً ينتظمه وضعٌ واحد ، وأراهم يتابعوا صفًّا وراء صفٍّ ، ونَسَقًا على نَسَقٍ ، فالمسجدُ بهم كالسُّبُلَةِ ملئت حبًّا ما بين أولها و آخرها ؛ كلُّ حبة هى فى لِفٍّ من أهلها وشملها ، فليس فيهن على الكثرة حَبَّةٌ واحدة تُمَيِّزُها السُّبُلَةُ فَضْلَ تَمييز ، لا فى الأعلى ولا فى الأسفل . وأقف متحيراً مُتَلَدِّداً ألتفتُ ههنا وههنا ، لا أدرى كيف أخلصُ إلى موضع أجلس فيه ؛ ثم أمضى أتخطى الرِّقَابَ أطمعُ فى فُرْجَةٍ أقتحمها وما تنفرج ، حتى أنتهى إلى الصفِّ الأول ؛ وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادئاً يملأ

موضع رَجَلين ، وقد نَفَّحَ منه رِيحُ الْمِسْكِ ، وهو في ثِيَابٍ من سُندُسٍ خُصِرَ ؛ فلما حاذَيْتُهُ جَمَعَ نَفْسَهُ وانكَمْشَ ، فكأَنَّمَا هو يُطَوَّى طِيًّا ، ورَأَيْتُ مَكَانًا وَسِعَتِي فَحَطَّطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِهِ ، وَأَنَا أَعْجَبُ لِلرَّجُلِ كَيْفَ ضَاقَ وَلَمْ أَهْشَقْ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ ذَهَبَ نِصْفُهُ الضَّخْمُ وقد كَانَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضِهِ زَيْمًا عَلَى زَيْمٍ ^(١) وَاِمْتَلَأَ عَلَى امْتِلَاءٍ .

وجعلتُ أَحَدُسُ عَلَيْهِ ظَنِي ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ مَلَائِكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ قَدْ تَمَثَّلَ فِي الصُّورَةِ الْآدَمِيَّةِ فَانْتَمَتْ فِيهَا لِأَمْرٍ مِنَ الْأَمْرِ .

وَضَجَّ النَّاسُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ! » فِي صَوْتٍ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ مِمَّا أَلْفَوْا الْكَلِمَةَ وَمِمَّا جَهِلُوا مِنْ مَعْنَاهَا — لَا يَسْمَعُونَهَا إِلَّا كَمَا يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ ؛ أَمَّا الَّذِي إِلَى جَانِبِي فَكَانَ يَنْتَفِضُ لَهَا انْتِفَاضَةً زَجَّتْنِي مَعَهُ رَجًّا ، إِذْ كُنْتُ مُلْتَصِقًا بِهِ مُنَاكِبًا لَهُ ؛ وَكَأَنَّ الْمَسْجِدَ فِي نَفْسِهِ إِيَّانًا كَانَ قِطَارًا يَجْرِي بِنَا فِي سُرْعَةِ السَّحَابِ ، فَكُلُّ مَا فِيهِ يَرْتَجُّ وَيَهْتَزُّ . ورَأَيْتُ صَاحِبِي يَدَّ هَلَّ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَتَلَأَّلُ عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ لِكُلِّ تَكْبِيرَةٍ ، كَانَ هُنَاكَ مُصْبِحًا لَا يَزَالُ يَنْطَفِئُ وَيَشْتَعِلُ ؛ فَقَطَعْتُ الرَّأْيَ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ .

ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَكَبَّرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ ، وَكُنْتُ قَرَأْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ صَلَّى خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ عِظَمَاءِ النُّفُوسِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ؛ قَالَ : فَلَمَّا كَبَّرَ قَالَ : « اللَّهُ . . . » ثُمَّ بُهِتَ وَبَقِيَ كَأَنَّهُ جَسَدٌ لَيْسَ بِهِ رُوحٌ مِنْ إِجْلَالِهِ اللَّهُ تَعَالَى ؛ ثُمَّ قَالَ : « أَكْبَرُ » يَعَزِّمُ بِهَا عَزْمًا ، فَظَنَنْتُ أَنَّ قَلْبِي قَدْ انْقَطَعَ مِنْ هَيْبَةِ تَكْبِيرِهِ .

قُلْتُ أَنَا : أَمَّا الَّذِي إِلَى جَانِبِي ، فَلَمَّا كَبَّرَ مَدَّ صَوْتَهُ مَدًّا يَنْبَثِقُ مِنْ رُوحِهِ وَيَسْتَطِيرُ ، فَلَوْ كَانَ الصَّوْتُ نُورًا لَسَمَّاءُ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَالضُّحَى .

* * *

وَعَرَفْتُ وَاللَّهِ مِنْ مَعْنَى الْمَسْجِدِ مَا لَمْ أَعْرِفْ ، حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَدْخُلْهُ مِنْ قَبْلِ ، فَكَانَ هَذَا الْجَالِسُ إِلَى جَانِبِي كَضَوْءِ الْمَصْبَاحِ فِي الْمَصْبَاحِ ؛ فَانْكَشَفَ لِي الْمَسْجِدُ فِي نَوْرِ الرُّوحِيِّ عَنْ مَعَانٍ أَدْخَلْتَنِي مِنَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَا عَلَى حِدَةٍ . فَمَا الْمَسْجِدُ

(١) أَيْ كَتَلًا عَلَى كَتَلٍ ، وَالزَّيْمُ الْمَتَفَرِّقُ مِنَ اللَّحْمِ .

بناءً ولا مكاناً غيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيحٌ للعالم الذى يَخُوج من حَوَلِهِ ويضطرب ؛ فإن فى الحياة أسبابَ الرِّيقِ والباطل والمنافسة والعداوة والكيِّدِ ونحوها ، وهذه كُلُّها يمحوها المسجدُ إذ يجمع الناسَ مراراً فى كل يوم على سلامة الصدر ، وبراعة القلب ، وروحانيَّة النفس ؛ ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرةً منزَّهةً مُسَبِّغةً على حدود جبينها من أعلاه وأسفله شعارَ الطُّهْرِ الذى يُسمَّى الوضوء ، كأنما يغسلُ الإنسانُ آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد .

ثم يستوى الجميعُ فى هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ، ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعاً فى نفسيَّةٍ واحدة ؛ وليس هذا وحده ، بل يتخَرُّون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله ؛ فليس لِرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ؛ ومن ثمَّ فليس لذات على ذات سلطان . وهل تُحقِّق الإنسانيةُ وحدتها فى الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمري أين يجدُ العالمُ صوابه إلا ههنا ؟

فالمسجد هو فى حقيقته موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرةِ المصحَّحةِ لكلِّ ما يزيغُ به الاجتماع . هو فكرٌ واحدٌ لكلِّ الرعوس ؛ ومن ثمَّ فهو حلٌّ واحدٌ لكلِّ المشاكل ، وكما يُشَقُّ النهر فتتدفَّق الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يُقام المسجدُ فتتدفَّق الأرضُ بمعانيها التُّرابيَّةِ خلف جدرانها لا تندخله .

* * *

وما حرَّكةُ فى الصلاة إلا أولُها « الله أكبر » وآخرُها « الله أكبر » ؛ وفى ركعتين من كلِّ صلاةٍ إحدى عشرة تكبيرةً يتجهَّرو المصلُّون بها بلسان واحد ؛ وكأنى لم أظن لهذا من قبل ، فأى زمامٍ سياسى للجماهير وروحانيَّتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة التى هى أكبرُ ما فى الكلام الإنسانى ؟

* * *

ولما قضيت الصلاة سلَّمتُ على المملِك وسلَّمتُ على ، ورأيتُه مقبلاً محتفياً ، ورأيتُني أثيراً فى نفسه ، وجالت فى رأسى الخواطرُ فتذكَّرتُ القصةَ التى أريد أن أكتبَها ؛ وأن المؤدَّنَ يكرِّر فى خاتمة أذنيه : « الله أكبرُ الله أكبر » فإذا ...

وقلت : لأسأَلَنَّهُ ، وما أعظم أن يكونَ فى مقالتي أسطرٌ يلهمها مملِكٌ من

الملائكة ! ولم أكد أرفع وجهي إليه حتى قال :

« . . . فإذا لطمتان على وجه الشيطان ، فَوَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ ؛
وَوَضَعَتِ الْكَلِمَةَ الْإِلَهِيَّةَ مُعْنَاهَا فِي مَوْضِعِهِ مِنْ قَلْبِ الْفَتَاةِ ، فَلَأَيًّا بِلَايٍ مَانَجَتِ .
إن الدينَ في نفس المرأة شعورٌ رقيقٌ ، ولكنه هو الفولاذُ السميكَ الصُّلْبُ
الذي تُصَفِّحُ به أخلاقُها المدافعة .

الله أكبر ! أتدرى ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير ؟ إنها تُنشدُ
هذا النشيد :

* * *

بَيِّنَ الْوَقْتَ وَالْوَقْتَ مِنْ الْيَوْمِ تَدُقُّ سَاعَةُ الْإِسْلَامِ بِهَذَا الرَّثَيْنِ : اللهُ
أكبرُ لله أكبرُ ، كما تدقُّ الساعةُ في موضعٍ ليتكلمَ الوقتُ برنينها .

* * *

الله أكبر ! بَيِّنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنْ الْيَوْمِ تُرْسِلُ الْحَيَاةُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ
نداءها تهتِفُ : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ ! إِنْ كُنْتَ أَصَبْتَ فِي السَّاعَاتِ الَّتِي مَضَتْ ،
فاجتهدْ للسَّاعَاتِ الَّتِي تَتَلَوُ ؛ وَإِنْ كُنْتَ أَخْطَأْتَ ، فَكُفِّرْ وَامْخُ سَاعَةً بِسَاعَةٍ ؛
الزَّمَنُ يَمْحُو الزَّمَنَ ، وَالْعَمَلُ يُغَيِّرُ الْعَمَلَ وَدَقِيقَةُ "بَاقِيَةٍ" فِي الْعَمْرِ هِيَ أَمَلٌ كَبِيرٌ
فِي رَحْمَةِ اللَّهِ

* *

بين ساعاتٍ وساعاتٍ ، يتناولُ الْمُؤْمِنُ مِيزَانَ نَفْسِهِ حِينَ يَسْمَعُ : اللهُ أكبرُ ،
ليَعْرِفَ الصَّحَّةَ وَالْمَرَضَ مِنْ نَيْتِهِ ؛ كَمَا يَضَعُ الطَّيِّبُ لِمَرِيضِهِ بَيْنَ سَاعَاتٍ
وساعاتٍ مِيزَانَ الْحَرَارَةِ .

* * *

اليَوْمُ الْوَاحِدُ فِي طَبِيعَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ عُمْرٌ طَوِيلٌ لِلشَّرِّ ، تَكَادُ كُلُّ دَقِيقَةٍ
بَشَرَّهَا تَكُونُ يَوْمًا مَخْتَوْمًا بِلَيْسَلٍ أَسْوَدَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَقْسِمَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَوْمَهَا بَعْدَ
قَارَاتِ الدُّنْيَا الْخَمْسِ ، لِأَنَّ يَوْمَ الْأَرْضِ صَوْرَةٌ مِنَ الْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ كُلِّ قِسْمٍ :
مِنَ الْفَجْرِ ، وَالظُّهْرِ ، وَالْعَصْرِ ، وَالْمَغْرَبِ ، وَالْعِشَاءِ — تَصِيحُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ
مُنْتَبِهَةً نَفْسَهَا : اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ !

* * *

بين ساعات وساعات من اليوم يَعْرِضُ كُلُّ مُؤْمِنٍ حَسَابَهُ ، فيقومُ بين يَدَيِ اللَّهِ ويرفعه إليه . وكيف يكون من لا يزال ينتظر طولَ عمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ - الله أكبر . . . ؟

* * *

بين الوقت والوقت من النهار والليل تُدَوِّي كلمةُ الروح : الله أكبر . ويُجيبها الناسُ : الله أكبر . ليعتادَ الجماهير كيف يُقَادُّونَ إلى الخير بسهولة ، وكيف يحققون في الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد ؛ فتكون الاستجابةُ إلى كل نداء اجتماعي مغروسةً في طبيعتهم بغير استِكرَاه .

* * *

النفسُ أُسْمِي من المادّةِ الدنيئة ، وأقوى من الزمن المخرب ، ولادِينَ لمن لا تَشْمُرُ نفسُهُ من الدناءة بأَنْفَقَةٍ طَبِيعِيَّةٍ ، وتحمل همومَ الحياة بقوة ثابتة . لا تضطربوا ؛ هذا هو النظام . لا تنحرفوا ؛ هذا هو النَّهْجُ . لا تراجعوا ؛ هذا وهو النداء . لن يكبرَ عليكم شيءٌ ما دامت كلمتُكم : الله أكبر . . . !

فى اللّهب ولا تحترق*

أفى الممكن هذا ؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ الدَّلِّ ، مُفَاكِهَةٌ مُدَاعِبَةٌ ، تُحْيِي لَيْلَهَا رَاقِصَةً مَغْنِيَةً ؛
حتى إذا اعتدل الليلُ ليحضى ، وانتبه الفجر ليُقبِّل — انكفأت إلى دارها فَهَضَّتْ
وَشَيَّهَا ، وخرجت من زينتها ، وخلعت رُوحاً ولبست روحاً ، وقالت : اللهم إليك ،
ولبيك اللهم لبيك . ثم ذهب فتوضأت وأفاضت النورَ عليها ، وقامت بين
يدى ربها تصلى . . . !

* * *

هى حسناء فاتنة ، لو سَطَعَ نورُ القمر من شىء فى الأرض لسطع من
وجهها . وما تراه فى يوم إلا ظهرت لك أحسن مما كانت ، حتى لتظن أن الشمسَ
تزيد وجهها فى كل نهار شُعَاعَةً ساحرة ، وأن كلَّ فجر يترك لها فى الصبح
تَرْيقاً ونَضْرَةً من قطرات الندى .

وتحسب أن لها دَمًا يَطْعَمُ فيما يَطْعَمُ أنوارَ الكواكب ، ويشرب فيما
يشرب نسمات الليل .

وإذا كانت فى وشيها وتطاريفها وأصباغها وحلاها لم تجدها امرأة ،
ولكن جَسَمَةً فى صورة امرأة ؛ فلها نور بصيص ولهَب ، وفيها طبيعة الإحراق
. . . . إن الذى وضع على كل جمال ساحر فى الطبيعة خاتَمَ رهبة ، وضع على
جمالها خاتَمَ قُدرِص الشمس .

فإذا رأيتها بتلك الزينة فى رقصها وتشيها ، حلت : هذه روضة مُفْتَنَّة
اشتَهت أن تكون امرأة فكانت ، وهذا الرقصُ هو فنُّ النسيم على أعضائها
وهى متى نفدت إلى البقعة المجدبة من نفسك أنشأت فى نفسك الربيع
ساعة أو بعض ساعة .

* انظر قصة هذه الراقصة وما كان من شأنها وشأنه فى « عمله فى الرسالة » من كتاب « حياة
الرافعى » .

وحى القلم — أول

وتنسجم أنغامُ الموسيقى في رشاقتها نغمَةً إلى حركة ؛ لأن جسمها الفاتن الجميل هو نفسه أنغام صامته تُسمع وتُرى في وقت معاً .

وتنسكبُ روحها الظرفيةُ بين الرقص والموسيقى ، لتُخرجَ لك بظرفها صراحةَ الفن من إبهامين ، كلاهما يُعاون الآخر .

وهي في رقصها إنما تفسر بحركاتِ أعضائها أشواق الحياة وأفراحها وأحزانها ، وتزيد في لغة الطبيعة لغةَ جسم المرأة .

وكان الليل والنهار في قلبها ؛ فهي تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة .

وهي إلى القِصر ، غير أنك إذا تأملتَ جمالها وتمازجها ، حسبتها طالت لساعتها .

وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فإذا هي رابية كأن بعضها كان مخبئاً في بعض .

ويخيل إليك أحياناً في فن من فنون رقصها أن جسمها يتشاءب برعشة من الطرب ؛ فإذا جسمك يهتز بجواب هذه الرعشة ، لا يملك إلا أن يتشاءب . . . ويُجَنِّ رقصها أحياناً ، ولكن لتحقيقَ بجنون الحركة أن العقل الموسيقى يُصرف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفن في تأودها ولففتها ونظريتها وابتسامها وضحكها — ففي وجهها دائماً علامةٌ وقار عابسةٌ تقول للناس : افهموني .

* * *

ولما رأيتها شهد قلبي لها بأن على وجهها مع نور الجمال نور الوضوء ؛ وأنها متحرزةٌ متمتعةٌ في حصن من قلبها المؤمن ، ييسط الأمن والسلامة على ظاهرها ؛ وأن لها عيناً عذراء لا تحاول التعبير ، لأسوئاً ولا جواباً ولا اعتراضاً بينهما ؛ وأن قوةَ جمالها تستظهر بقوة نفسها ، فيكون ما في جمالها شيئاً غير ما في النساء — شيئاً عبقريةً بالغ القوة ، يكفُ الدواعي ، ويَحسِّمُ الخواطر ، ويرغمُ الإعجاب أن يكون ذُلولاً وحيرةً ، ويكره الحب أن يرجع مَهابةً واحتشاماً .

والرواية كلها في باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها ، وما وجهها

إلا الشاشةُ البيضاءُ لهذه « السِما » ، وهل يكون على الوجه إلا أُخِيلَةُ القلبِ أو الفكر ؟

وعندى أن المرأةَ إذا كان لها رأىٌ دينيٌّ ترجعُ إليه ، وكان أمرها مجتمعاً في هذا الرأى ، وكانت أخلاقُها محشودةً له ، متَحَفِّلَةً به - فتلك هي الياقوتة التي تُرى في اللهب ولا تحترق ، وتظل مع كل تجربة على أول مُجاهدَتِها ؛ إذ يكون لها في طبيعة تركيبها الياقوتى ما تهزم به طبيعة التركيب النارى .

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعةً ياقوتيةً ، هي فطرتها الدينية التي فيها : إن بقيت لها هذه بقيت معها تلك ؛ ولكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تسخُلها الفطرة والطبيعةُ معاً ؛ فيجعلُ الله عقابَها في عملها ، ويكُلُّها إلى نفسها ؛ فإذا هي مقبلةٌ على أغلاطها ومساوئها بطُرُق عقليةٍ إن كانت عالمةً ، وبطرق مفضوحةٍ إن كانت جاهلةً . وما بدُّ أن تستَسِرَّ بطباع إما فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة إلى الفساد ؛ ويرجعُ ضميرُها الخالى محالواً أن يمتلئ من ظاهرها ، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها ، وتُصبح المرأة بعد ذلك في حكم أسباب حياتها ، مصرفةً بهذه الأسباب ، خاضعةً لما يُصرفها ؛ ويذهب الدين ويتزل في مكانه الشيطان ؛ ويزول الاستقرارُ ويحلُّ في محله الاضطراب ، وتنطفئُ الأشعةُ التي كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم ، فإذا الغيومُ ملئت بعضها على بعض ؛ وتُخذلُ القوةُ السامية التي كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرها بذلك على أقوى الرجال ؛ فإذا المرأةُ من الضعف إلى تهافت ، تغلبها الكلمةُ الرقيقة ، وتَغَرُّها الحيلةُ الواهنة ، وتوافقُ انخداعها كلُّ رغبة مزينة ، ويستلها طمعها قبل أن يستلها الطامعُ فيها ؛ ولتكن بعد ذلك مَنْ هي كائنة أصلاً وحسباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعلماً وفلسفةً ، فلو أنها امرأةٌ من « الأسمنت المسلح » لتفتتت بالطبيعة التي في داخلها ، ما دامت الطبيعةُ متوجهةً إلى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تهديمَ وأن تهدم .

لقد رُقَّ الدينُ في نساتنا ورجالنا . فهل كانت علامةُ ذلك إلا أن كلمةَ : « حرام ، وحلال » قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى « لائق ، وغير لائق » ثم نزلت عند كثير من الشبان والفتيات إلى « معاقب عليه قانوناً ،

ومباح قانونيًا . . . » ثم انحطت آخرًا عند السواد والدَّهْماء إلى « ممكن ، وغير ممكن . . . » ؟

* * *

قالت الياقوتة ، أعنى الراقصة :

— أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت فى نفسى أن الصلاة لاتصحّ بالأعضاء إن لم يكن الفكرُ نفسه طاهرًا يصلّى الله مع الجسم ، فإن كانت الصلاةُ بالجسم وحده لم يزدد المرءُ من رُوح الصلاة إلا بعداً . وقَرَّرَ هذا فى نفسى واعتدته ، إذ كنتُ أتعبّد على مذهب الإمام الشافعى (رضى الله عنه) ، فأصحح الفكرَ ، وأستحضرُ النيةَ فى قلبى ، وأُخصرُ بكلّى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقولَ : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكرى قادراً على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرجَ منها ثم يعودَ إليها ؛ ونشأتُ فيه القوةُ المصمّمةُ التى تجعلُهُ قادراً على أن ينصرفَ بى عما يُفسدُ رُوحَ الصلاة فى نفسى ، وهى سرُّ الدين وعمادُهُ .

ويا لها حكمةٌ أنْ فرضَ الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الروحُ أبداً إما متصلةً أو مهيةً لتتصل . ولن يعجزَ أضعفُ الناس مع روح الدين أن يملكَ نفسه بضعة ساعات ، متى هو أقرّ اليقين فى نفسه أنه متوجهٌ بعدها إلى ربه ، فخاف أن يقفَ بين يديه مخطئاً أو آثمًا ؛ ثم هو إذا ملكَ نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضعة ساعات كذلك ، فلا يزال من عزيمة النفسِ وطهارتها فى عُمر على صيغة واحدة لا يتبدّل ولا يتغيّر ، كأنه بجملته — مهما طال — عملُ بضعة ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيتُ أبى يصلّى ، وكذلك رأيتُ أمى ، فلا تكاد تُلِمُ بى فكرةٌ آثمةٌ إلا انتصبا أمامى ، فأكره أن أستلثِمَ إليهما فأكونَ الفاسدةَ وهما الصالحان ، واللثيمةَ وهما الكريمان ؛ فدعى نفسه — ببركة الدين — يحرسُنِي كما ترى .

قلتُ : فهذا الرقص . . . ؟

قالت : نعم ، إنه قُضِيَ علىَّ أن أكونَ راقصةً ، وأن ألتبسَ العيشَ من

أسهل ثلاث طُرُق وألّينها وأبعدّها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهرها ؛
أريد : الرقص ، أو الخدمة في بيت ، أو العمل في السوق . وأنا مُطيقَةٌ لحريتي
في الأولى ، ولكنني لن أملكها في الأخيرتين ما دام عليّ هذا الميسم من الحسن ؛
وكم من امرأة متحجّبة وهي عاريةُ الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجّبة ؛
إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه ؛ وليس السؤال ما سألت ، بل يجب أن يكون
وضعه هكذا : هل ما ترى هو في ثيابي فقط ، أو هو في ثيابي ونفسي ؟

ها أنت ذا تُغْلغلُ نظرتك في عينيّ إلى المعاني البعيدة ، فهل تَرى عينيّ
راقصة ؟

قلت : لا والله ، ما أرى عينيّ راقصة ، ولكن عينيّ مُجاهد في سبيل
الله . . . ! فاستضحكت وقالت : بل قل : عينيّ مجاهد يهزم كلَّ يوم شيطاناً
أو شياطين .

إني لأرقصُ وأغني ، ولكن أتدري ما الذي يُحرزُني من العاقبة ، ويحميني
من وباء هذا الجمهور المريض النفس ؟ فاعلم أني لأشعر بالجمهور ولا بِروحِ
المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيّعين إليها ؛ فهيهات بعد ذلك
هيهات ! ومن هذا لأحس بقلوبهم ولا بشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتّي تؤدّي
عملاً فنيّاً على مِثْل من الأساتذة الممتحنين ، والنظّارة يحكمون لها أو عليها ؛
فهى في فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاءوا . . .

ولست أنكر أن أكثرهم ، بل جميعهم ، يخطئ في طريقة تناوله السيّالِ
الكهربائي المنبعث من نفسي ، ولكن لاعتلىّ ، فهذا السّيالُ نفسه ينبعث مثله
من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشي في الطريق ،
ومن كل جميل في الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها
ذكرياتٌ قديمة ، أو نبّهت ببعض معانيها بعضَ معانيه ؟

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى ؛ أضطربُ وجوهاً من الاضطراب في جذب
الناس ودفعهم معاً . وإذا سلّمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها ،
سلمت من أن يغلبها الرجل عن فضيلتها . وفي النساء حواسٌ مغناطيسية كاشفةٌ
منبّهةٌ خلّقت فيهن كالوقاية الطبيعية ، لتسلمَ بها المرأة من أن تُخطِرَ عِفّتها

لغرض ، أو تُغرّر بنفسها لإنسان ، فإنك لتكلم المرأة ، وتزين لها ما تزين ، وهى شاعرة بما فى نفسك ، وكأنها ترى ما فى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينها ، وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفك يشف ويفضح ، لافى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم .

وليس يبطل هداية هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعها المادى فى المال والمتاع والزينة ؛ فإن هذا الطمع هو القوة التى يغلب بها الرجل المرأة ، فبنفسها غلبتها ! وإذا تبدل طمع امرأة فى رجل فهى مؤمن ، وإن كانت عذراء فى خدرها .
ويا عجباً ! إن وجود الطبيعة فى النفس غير الشعور بها ؛ فليس يشعر المرأة بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة ؛ فكأن الحكمة قد وقّعتها وعرضتها فى وقت معاً ، لتكون هى الواقعة أو المخطّرة لنفسها ، فعملها تجزى ، ومن عملها ما تنضحك وتبكي .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمع فى شىء من أشياء الناس ، وسخوتُ عن كل ما فى أيديهم ؛ فما يتكرمون على إلا بهلاكى ، وحسنى أن يبقنى لعينى قلبى ضوءهما المبصر . وأنا أعتد على شهامة الرجل ، فإن لم أجدها علمت أنى بإزاء حيوان إنسانى ، فأتحذره حذرى من مصيبة مقبلة . وإذا جاءنى وقّح خلقتُ الله وجهه الحسن مسبةً له ، أو خلقه هو مسبةً لوجهه القبيح ، ذكرت أنى بعد ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعداً وإن كان بإزائى ، فأغلظُ له وأسخطُ ، وأظهر الغضب وأصفعه صفعى .
قلت : وما صفعتك ؟

قالت : لأنها صفعه لا تضرب الوجه ولكن تسخجله .

قلت : وما هى ؟

قالت الياقوتة : هى هذه الكلمة ؛ أما تعرفُ يا سيدى أنى أصلى وأقولُ « الله أكبر » فهل أنت أكبر . . . ؟ أقيم لك البرهان على صغارك وحقارتك ، أنادى الشرطى . . . !؟

* * *
تختنق بالرقص وتتعش بال صلاة ، وفى كل يوم تختنق وتتعش .

ولكنى لا أزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى المترادف شرعاً : رَقَصْتَ وصلّت . . . ؟

المشكلة *

قالت لى صاحبة « الجمال البائس »^(١) فيما قالت : إن المرأة الجميلة تتخاطب في الرجل الواحد ثلاثة : الرجل ، وشيطانه ، وحيوانه . فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نكن معه . . . وأما الحيوان فله في أيدينا مَنَادَة من الغبابة ، ومَنَادَة من الغريزة ، إذا شمس في واحدة أصحَّبَ في الأخرى وانقاد ؛ ولكن المشكلة هي الرجل تكون فيه رجولة .

* * *

نعم إن المشكلة التي أعضلت على الفساد هي في الرجل القوى الرجولة يعرف حقيقة وجوده وشرف منزلته ، ولهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يكون بين الوقت والوقت في اليوم خارجاً من صلاة .

ولنأما الرجولة في خلال ثلاث : عمَل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه ؛ وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواصل من أجره العظيم ؛ والثالثة : قدرته على العمل والقبول إلى النهاية . ولن تقوم هذه الخلال إلا بثلاث أخرى : الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعل ما يحبه الإنسان وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية ؛ والثالثة القدرة على استخراج معاني السرور من معاني الألم فيما أحب وكتره على السواء .

فالرجولة على ذلك هي إفراغ النفس في أسلوب قوى جَزَل من الحياة ، مُتَسَاوِق في نَمَط الاجتماع ، بليغ بمعاني الدين ، مصقول بجمال الإنسانية ، مُسْتَرْسِل ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية .

ولهذه الحكمة أسقطت الأديان من فضائلها مبدأ إرضاء النفس في هواها ، فلامعاملة به مع الله في إثم أو شر ؛ وأسقطه الناس من قواعد معاملتهم بعضهم

* تقرأ قصة صاحب هذه المشكلة وما كان من خبره وخبر صاحبتة في « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » وللقصة تمام لم ينشر بعد .

(١) مرت مقالات (الجمال البائس) في هذا الجزء .

مع بعض ، فلا يقومُ به إلا الغشُّ والمكرُ والخديعة ، وكلُّ خارجٍ على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية ، فإنما ينزِعُ إلى ذلك لإرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافقةً لمحبتها وتوفيةً لحظها ؛ وعمله هذا الذى يُلْبِسُهُ الوصفَ الاجتماعى الساقطَ ويسميه باسمه فى اللغة ، كالرجل الذى يُرضي نفسه أن يسرقَ ليغتنى ، فإذا أعطى نفسه رضاها فهو اللص ؛ وكالتاجر فى إرضاء طمعه هو الغاش ، وكالجندي فى إرضاء جُبْنه هو الخائن ، وكالشاب فى إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمَّ جرّاً وهلمَّ جرّ جرّة . . .

* * *

وأما بعدُ ، فالقصةُ فى هذه الفلسفة قصةُ رجلٍ فاضلٍ مهذبٍ قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياةُ بمشكلة ذهب فيها نومٌ ليله وهدوءُ نهازه حتى كَسَتْه باله ، وفرّقت رأيه ، وكابد فيها الموت الذى ليس بالموت ، وعاش بالحياة التى ليست بالحياة .

قال : فقدتُ أمى وأنا غلامٌ أخرج ما يكون القلبُ إلى الأم ، فخشى على أبى أن أستكينَ لذلةً فتقدّها فيكونَ فى نشأتى الذلُّ والضراعة ، وكبّرَ عليه أن أحسَّ فقدّها إحساسَ الطفلِ تموت أمه فيحملُ فى ضياعها مثلَ حزنها لوضاع هو منها ؛ فعلمنى هذا الأبُّ الشفيقُ أن الرجلَ إذا فتقدَّ أمّه كان شأنه غير شأن الصبي ، لأن له قوةً وكبرياءً ؛ وألقى فى روعى أنى رجلٌ مثله ، وأن أمّه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلى الآن . . .

وكان من بعدها إذا دعانى قال : أيها الرجل . وإذا أعطانى شيئاً قال : خذ يارجل . وإذا سألتنى عن شأنى قال : كيف الرجل ؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً ، حتى توهمتُ أن معى رجلاً فى عقلى خلقتة هذه الكلمة . وتمامُ الرجل بشيئين : اللحية فى وجهه ، والزوجة فى داره ، فتجىء الزوجة بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاهما قوةً له ، أو وقاراً أو جمالاً ، أو تكون كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين فى الوجه والحياة . . .

أما اللحية لى أنا أيُّها الرجل الصغير فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجيئ بها ، ولكن الأخرى فى يده وحيلته ؛ فجاءنى ذاتَ نهار وقال لى : أيها الرجل !

إن فلانة مُسَمَّاةٌ عليك^(١) منذُ اليوم فهي امرأتُك فاذهب لترى فيك رجلًا لها .
وفلانة هذه طفلةٌ من ذوات القُرْبى ، فأفرحنى ذلك وأبهجتنى ؛ وقلت للرجل
الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجًا أيها الرجل . . .
وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غُرُورى يومئذ وكبريائى ، فكنت
أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقة بعد الحماقة ، وكنت طفلًا ولكن غُرُورى
ذو حية طويلة . . .

* * *

ونشأتُ على ذلك : صُلِبَ الرأى مُعْتَدًّا بنفسى ، إذا هَمَمْتُ مضيتُ ،
وإذا مضيتُ لا ألتوى ، وما هو إلا أن يخطرَ لى الخاطر فأركبُ رأسى فيه ، ولأنَّ
تُكسَّرَ لى يَدٌ أو رجلُ أهونُ على من أن يكسَّرَ لى رأى أو حُكْمٌ ؛ وأكسبني
ذلك خيالًا أكذبَ خيالَ وأبعدَه ، يخلطُ على الدنيا خلطًا فيدَعْنى كالذى
ينظر فى الساعة وهي اثنا عشرَ رقما لنصف اليوم الواحد ، فيطالِعُها اثني عشرَ
شهرًا للسنة . . .

وترامتُ حريقى بهذا الخيال فجاوزتُ حدَّ ودَّها المعقولة ، وبهذه الحرية الحمقاء
وذلك الخيال الفاسد ، كذبتُ على الفكرة والطبيعة .

ولستُ جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقدٌ أن الخطأ
فى المرأة . . . إذ هى لا تُظهر الرجلَ الوضىءَ الجميلَ الذى فى عقلى ؛ ولستُ
نابعةً ، ولكنَّ الرجلَ الذى فى عقلى رجلٌ عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجلٌ
متزوج ؛ فيجب علىَّ أنا الطفلَ أن أكونَ رزينًا رزينًا كوالد عشرة أولاد فى
المدارس العليا . . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى فلانة زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأتُ
منى ، فقلتُ فى نفسى : أيها الرجلُ ، إن هذا نُشُورٌ وعَصِيانٌ ، لا طاعةَ
وحُب . وساعفنى ذلكَ وغمَّنى وكبَّرْ علىَّ ، فأضمرتُ لها الغدَرُ ، فثبتتُ بذلك
فى ذهنى صورة (الباب المغلق) ، وكأنه طلاق بيننا لآبَاب . . .

* * *

(١) هذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل المقد : « مخطوبة لفلان » .

قال : ثم شبَّ الرجلُ فكان بطبيعة ما في نفسه كالزوج الذي يترقَّب زوجته الغائبة غيبةً طويلة : كلُّ أيامه ظمأً على ظمأ ، وكلُّ يوم يمرُّ به هو زيادةٌ سنة في عمر شيطانه . . . وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية ، وأصبح رجلٌ كُتِبَ وعلوم وفكر وخيال ؛ فعرضتُ له فتاة كاللواتي يعرضنَ للطلبة في المدارس العليا ، ما منهن على صاحبها إلا كالخبيبة في امتحان . . . بيدَ أنَّ (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائلَ المرأة . . . ولم يكد يستشرفُ لأواخرها حتى سُميتُ على غيره ، فخطبتُ ، فزُفَّتْ ؛ زُفَّتْ بعد نصف زوج إلى زوج وعرف الرجلُ من الفلسفة التي درَّسها أنه يجب أن يكون حرّاً بأكثر مما يستطيع ، وبأكثر من هذا الأكثر . . . فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لك وأنت لى .

قالها للحرية ، فما أسرع ما ردَّت عليه الحرية بفتاة أخرى . . .

* * *

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسعُ سنوات ، فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعةُ أبواب مغلقة ؛ ولكنها مع ذلك مسماةً له ، يقول أهلُه وأهلُها : (فلان وفلانة) . وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياء والصيانة ؛ وليست الفتاة من ورائه إلا العفاف المتَّظَر ؛ وليس الفتى إلا ابن الأب الذي سمَّى الفتاة -ته وجبَّسها على اسمه ؛ وليست القُرْبى إلا شريعةً واجبة الحق نافذة الحكم .

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغ من حرية المرء في هذا العصر فالشرفُ مقيَّد .

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغي أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معاني الفاحشة .

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هي لبناء الأسرة ؛ فإن بلغ وجهُها الغاية من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سلطة وحقوق (رسمية) في الاحترام ؛ لاتقوم الأسرة إلا بذلك ، ولا تقوم إلا على ذلك .

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرة المخلصَة الحب لزوجها .

إنما هي معاملةٌ بين زوجها وبين ربه ، فحيثما وضعها من نفسه في كرامة أو مهانة ، وضع نفسه عند الله في مثل هذا الموضع .

وعند أهل العقل والرأى ، أن كلَّ زوجة فاضلة ، هي جميلةٌ جمالَ الحق ؛ فإن لم تُوجِبِ الحبَّ ، وَجَبَتْ لها المودَّةُ والرحمةُ .

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجةَ الرجل إنما هي إنسانيته ومروءته ؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبتدَّها أعلن أنه رجلٌ ليس فيه كرامة .

أما عند الشيطان (لعنه الله) فشروطُ الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة :
الحب ، الحب ، الحب !

* * *

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأةً تكون كما أشتهى جمالاً ، وكما يشتهى فكرى علماً ، كنتُ أنا المتزوج وحدى وبقي فكرى عزباً . . .
وقد عرفتُ التي تصلح لى بجمالها وفكرها معاً ، وتبوأتُ فى قلبى وأقمتُ فى قلبها ؛ ثم داخلتُ أهلها ، فخالطونى بأنفسهم ، وقالوا : شابٌ وعزبٌ . . .
ومتعلمٌ وسرى . . . فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلق) ، حتى لو شئتُ أن أصل إلى كريمتهم فى حرام وصلت ، ولكنى رجلٌ يحملُ أمانةَ الرجولة . . .

أما الفتاةُ فلست أدرى والله : أفيها جاذبيةٌ نجمةٌ ، أم جاذبيةُ امرأةٌ ؛ وهل هى أنثى فى جمالها ، أو هى الجمالُ السماوى أتى ينقشُ الفنونَ الأرضيةَ لأهلِ الفن ؟

إذا التقينا قالت لى بعينيهما : هأنذى قد أرخيتُ لك الزَّمامَ ، فهل تستطيعُ فراراً منى ؟ ولتصق فتقول لى بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل فى المكان مكانٌ إلا هنا ؟ ونفترق فتحصرُ لى الزمنَ كله فى كلمة حين تقول : غداً نلتقى .

كلامها كلامٌ متأدب ، ولكنه فى الوقت نفسه طريقةٌ من الخلاعة ، تلفتُك إلى فمها الحلو ؛ والحركةُ على جسمها حركةٌ مُستَحْييةٌ ، ولكنها فى الوقت عينه كالتعبير الفنى المتجسم فى التمثالِ العارى .

إنها والله قد جعلت شيطاني هو عقلي ؛ أما هذا العقل الذي ينصح ويحفظ ويقول : هذا خيرٌ وهذا شرٌ . فهو الشيطان الذي يجب أن أتبرأ منه . . .

* * *

قال : وألم الأب بقصة فتاه ، ويحسبها نزوة من الشباب يُخمدنها الزواج ، فيقول في نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن ، فتكون كل امرأة غير الأخرى في الخيال والوهم والمزاج الشعري ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْن في حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنساني ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة - ويقرر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبصير ، فلا ينظر النظرة الخيالية التي لاتقنع بامرأة واحدة ، بل لاتزال تلتمس محاسن الجنس ومقآآتنه ، وهي النظرة التي لايقوم بها إلا بناء الشعر دون بناء الأمرة ، ولاتصلحُ عليها المرأةُ تلد أولاداً لزوجها ، بل المرأة تلد المعاني لشاعرها .

ثم احتاط في رأيه ، فقدر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحوراً ، ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ، ويحارب أهله وربّه من أجل امرأة ، بيّداً أنه قال : إنه هو والده ، وهو ربّه وأنشأه في بيت فيه الدينُ والخلقُ والشهامةُ والنّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهترة ، حين تجمع كل معاني الفساد والإباحة والاستهتار في كلمة (الحرية) . وقال : إن البيئة في العهد الذي كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرْض ، لم يكن فيها شيء من هذا ، ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مَبْتَرّاً من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحسب والكمال ، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق في باب من أبواب الأخلاق ، بل محلّه في باب الشهوات وحدها .

ثم جرّم الأب أن الولد الذي يعجىء من عاشقين ، حسرى أن يرث في أعصابه

جنون اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ؛ ولهذا وقف الشرع في سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة في أولها ؛ ولهذا يكثر الضعف العصبي في هذه المدينة الأوروبية وينتشر بها الفساد ، فلا يأتي جيل إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذي أعقبه .

ولم يكد ينتهي الأب إلى حيث انتهى الرأي به ، حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيئ للزفاف ويتعجل لابنه المطيع .. نكبة ستجىء في احتفال عظيم ..

* * *

قال الشاب : وجن جنوني ؛ وقد كان أبي من احتراى بالموضع الذى لا يسلفى منه ، فلجأت إلى عمى أستدفع به النكبة ، وأتأيد بمكانه عند أبي ؛ وبشئته حزنى وأفضيت إليه بشأنى ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كل شئ إلا شيئاً ينتهى إلى تلك الفتاة ، أو ينتهى بها إلى ؛ وما أنكر أنها من ذوات القربى ، وأن فى احتمالى إياها واجباً ورجولة ، وفى سترى لها ثواباً ومروءة ، وخاصة فى هذا الزمن الكاسد الذى بلغت فيه العداوى سن الجذات . . . ولكن القلب العاشق كافر بالواجب والرجولة ، والشواب والمروءة ، وبالأم والأب ؛ فهو يملك النعمة ويريد أن يملك التمتع بها ؛ وكل من اعترضه دونها كان عنده كاللص . . . قال : قبح الله حبا يجعل أباك فى قلبك لصاً أو كاللص .

قلت : ولكنى حر أختار من أشاء لنفسى

قال : إن كنت حراً كما تزعم ، فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها ؟ ألا تكون حراً إلا فيما نحن وفى هدم أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواج إلا بمن

فقطع على وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو حوذيئاً ،

لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضعون للحب والمرأة هذه الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطان أن يقضى فى قلوبهم كل أوقات فراغه . . .

أما العاملون فى الدين ، والمغمضون فى الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ،

والطامعون فى الكمال الإنسانى ، فهؤلاء جميعاً فى شغل عن تربية أوهامهم ،

وعن البكاء للمرأة والبكاء على المرأة ؛ ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛

وغيرُضُهم منها أجلُّ وأسمى ؛ وقد قال نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ . » أى انظروا إليهن من جانب تقوى الله ؛ فإن المرأة تُقَدِّم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكراهةُ وما بينهما ، ولا تدرى أىُّ ذلك هو حظُّها ؛ ولو أن كلَّ من أحب امرأةً نبذَ زوجةً ، لخربت الدنيا ولفَسَدَ الرجال والنساءُ جميعاً . وهذه يا بنى أوهامٌ وقتيها وعملٌ أسبابها ، وسيمضى الوقتُ وتتغيرُ الأسبابُ وربما كان الناضجُ اليوم هو المتعفنُ غداً ، وربما كان الفجُّ هو الناضجُ بعد ؟

وهبك لا تحب ذاتَ رَحِمِكَ ثم أكرمتها وأحسنتَ إليها وسترَتها ، أفيكونُ عندك أجملُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرمُ عند النفس إلا أن يكونَ لها هذا الشعورُ في نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يا بنى إن لم يكن حباً فيه الشهوةُ ، فهو حبٌّ إنسانى فيه المجد .

* * *

ووقعت المشكلة وزُفَّت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(رجاء إلى القراء) : هذه القصة واقعة ، وقد بنى الرجل بامراته ، وهو في الشهر الذى لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس (شهر العسل) . فاذا يرى له القارئُ من الرأى ؟ وماذا ترى القارئةُ لهذه العروس اللابسة أكفانها في عين الرجل ؟

المشكلة

٢

لما فرغتُ من مقالات (المجنون)^(١) وأرسلتُ الأخيرةَ منها ، قلتُ في نفسى : هذا الآخرُ هو الآخرُ من المجنون وجنونه ، ومن الفكر فى تخليطه ونوادره ؛ غيرَ أنه عاد إلى أخلاطاً وأضغاثاً فكأنى رأيتُه فى النوم يقول لى : اكتب مقالاً فى السياسة . قلت : مالى وللسياسة وأنا « موظف » فى الحكومة ، وقد أخذت الحكومة ميثاقَ الموظفين : لِمَا عَرَفُوا من نَقْدٍ أو غَمِيزَةٍ ليكُتُبَنَّه ولا يُبَيِّنُونَه ؟ فقال : هذه ليست مشكلة ، وليس هذا يصلحُ عذراً ، والمُخْرَجُ سهلٌ والتدبيرُ يسيرٌ والحلُّ ممكِنٌ . قلت : فما هو ؟

قال : اكتب ما شئتَ فى سياسة الحكومة ، ثم اجعل توقيعك فى آخر المقال هكذا : « مصطفى صادق الرافعى ؛ غير موظف بالحكومة » . . .

فهذه طريقة من طرق المجانين فى حل المشاكل المعقَّدة ، لا يكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها الأياس ويتعذرُ الإمكان ، وهى بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذى يرى الصائد فيغمضُ عينه ويلوى عنقه ويخبأ رأسه فى جناحه ظناً عند نفسه أنه إذا لم يرَ الصائد لم يره الصائد ، وإذا توهم أنه اختفى تحقق أنه اختفى ؛ وما عمله ذاك إلا كقوله للصياد : إنى غيرُ موجود هنا . . . على قياسِ « غير موظف » . . .

* * *

وقد كنت استفتيتُ القراء فى (المشكلة) ، وكيف يتقى صاحبُها على نفسه ، وكيف تصنع صاحبُها ؛ فتلقيتُ كتباً كثيرةً أهدتُ إلى عقولاً مختلفة ؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقى إلى منها — كتاب مجنون « نابغة » كتابغة القرن العشرين ، بعث به من القاهرة ، وسمى نفسه فيه (المصلح المنتظر)

(١) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القراء فى آخره ، انتظرنا مدة ، وكتبنا فى هذه المدة مقالات (المجنون) فانظرها فى الجزء الثانى .

وهذه عبارته بحرفها ورسمها كما كُتبت وكما تُقرأ ؛ فإن نشرَ هذا النص كما هو ، يكون أيضاً نصّاً على ذلك العقل كيف هو . . .

قال : « إن هذا الكونَ تَعَيَّبَ فيه آراء المصلحين ، وكتب الأنبياء زُهاءُ قرون عديدة ، ودائماً نرى الطبيعة تنتصر . ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه ، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته ، إلا الإنسان . ولقد تفنَّنَ المشرعون في أسماء : العادات والتقاليد والحمية والشرف والعِرْض ، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة فما بالكم بسلطان الروح ؟

وإِذَا لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه بالحجيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ويتمتع بالحُب الواحد المقدر له ، ما دام قلبه اصطفاه وروحه تهواها ؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأى داع من دواع الانفصال . (كذا) .

وهذا ليس مجرد رأى مجرب ، وإنما هو رأى أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن . . . ! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه ، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه في مجلة (الرسالة) ، وهذا الرأى سيعمل به ، وصاحب هذا الرأى سيخلد في الدنيا ، وسيضع الأسس والقوانين التي تصلح لبنى الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال .

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون ، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه . وإلى الملتقى في ميدان الجهاد »

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة « غير موظف » . . . فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فإذا هو غير متزوج ، وإذا هو يتقلب فيما شاء ؛ وتسأل الكاتب ثم ماذا ؟ فيقول لك : ثم الحجيم . . .

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين ، فقد نبهتنا عبارة « أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن » إلى أن فى الكلام إشارةً من قوة خفية فى الغيب ، فقرأناه على وحي هذه الإشارة وهديها ، فإذا ترجمتهُ لغة الغيب فيه :

« ويحك يا صاحب المشكلة ، إذا أردت أن تكون مجنوناً أو كافراً بالله وبالآخرة فهذا هو الرأي . كن حيواناً تنتصر فيه الطبيعة والسلام ! »

* * *

تلك إحدى عجائب المقادير في أول كتاب ألقى إلى ، أما العجبة الثانية فإن آخر كتاب تلقينته كان من صاحبة المشكلة نفسها ؛ وهو كتاب آية في الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس في أسرارها ، يَمُورُ مَوْرَ الضباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يَحْجُبُ جمالاً لِيُظْهِرَ منه جمالاً آخر ؛ وكأنه يعرضُ بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصور ، ويأتي بكلام يُقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءةً غيرها ؛ ولفظها سهلٌ ، قريبٌ قريبٌ ، حتى كأن وجهها هو يُحدثُك لالفتها ؛ ومادةُ معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خواطره وأحزانه ، مُسْتَرَسِلٌ إلى الإيمان بما كُتِبَ عليه استرساله إلى الإيمان بما كُتِبَ له ، فما به غُرُورٌ ولا كبرياء ولا حقد ولا غَضَبٌ ، ولا يَكْرَهُ ما هو فيه .

ومن نكّد الدنيا أن مثلَ هذا القلب لا يُخْلَقُ بفضائله إلا لِيُعاقَبَ على فضائله ؛ فغِلْظَةُ الناس عقابٌ لرقته ، وغدرُهم نكابةٌ لوفائه ، وتَهَوُّرُهم ردٌّ على أناته ، وحُمَقُهم تكديرٌ ، لسكونه وكذبُهم تكذيبٌ للصدق فيه .

وما أرى هذا القلب مأخوذاً بحب ذلك الشاب ولا مُسْتَهَاماً به لذاته ، وإنما هو يتعلّق صَوْرًا عقليةً جميلةً كان من عجائب الاتفاق أن عَرَضَتْ له في هذا الشباب أولُ ما عَرَضَتْ على مقدار ما ؛ وسيكونُ من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزولَ هذا الحب زوالَ الواحد إذا وُجِدَت العشرة ، وزوالُ العشرة إذا وُجِدَت المائة ، وزوالُ المائة إذا وُجِدَ الألف .

وبعد هذا كله فصاحبةُ المشكلة في كتابها كأنما تكتبُ في نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » وهي فيما كتبت كالنهر الذى يتحدّر بين شاطئيه مُدْعِياً أنه هاربٌ من الشاطئين مع أنه بينهما يَجْرى : تحبُّ صاحبها وتلقاه ؛ ثم هى عند نفسها غيرُ جانيةٍ عليه ولا على زوجته فليت شِعْرَى عنها ، ما عسى أن تكونَ الجنايةُ بعد زواج الرجل غيرَ هذا الحب وهذا اللقاء ؟

ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له : هَبْنَا نَقْدِرُ عَلَى مُحَابَاتِكَ فِي الْآلَا نَقُولَ إِنَّكَ ظَالِمٌ ؛ هل تَقْدِرُ أَنْتَ عَلَى الْآلَا تَعْلَمَ أَنَّكَ ظَالِمٌ ؟ ورأيها في (المشكلة) أن ليس من أَحَدٍ يَسْتَطِيعُ حَلَّهَا إِلَّا صَاحِبُهَا ، ثم هو لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا بِطَرِيقَةٍ مِنْ طَرِيقَتَيْنِ : فإِذَا أَنْ تَكُونَ ضَحِيَّةً أَبِيهَا وَأَبِيهِ — تعني زوجته — ضَحِيَّةً هُوَ أَيْضًا ، وَيَسْتَهْدَفُ لِمَا يَنَالُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَهْلِهَا ، فَيَكُونُ الْبَلَاءُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَيَكَايِدُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مَا إِنَّ أَقْلَهُ لَيَذْهَبُ بُرَاحَتِهِ وَيَنْغْصُ عَلَيْهِ الْحَبُّ وَالْعَيْشُ ، (قَالَتْ) : وَإِذَا أَنْ يَضْحَى بِقَلْبِهِ وَعَقْلِهِ وَبِ . . .

وهذا كلام كأنها تقول فيه : إِنْ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ حَلَّ الْمَشْكَلَةِ إِلَّا صَاحِبُهَا ، غَيْرَ مُسْتَطِيعٍ حَلَّهَا إِلَّا بِجَنَائَةٍ يَذْهَبُ فِيهَا نَعِيمُهُ ، أَوْ جُنُونٍ يَذْهَبُ فِيهِ عَقْلُهُ . فَإِنْ حَلَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ أَحَدُ اثْنَيْنِ : إِمَّا أَحْمَقُ أَوْ مَجْنُونٌ مَا مِنْهُمَا بَد . . . وَلِسَانُ الْغَيْبِ نَاطِقٌ فِي كَلَامِهَا بِأَنْ أَحْسَنَ حَلَّ لِلْمَشْكَلَةِ هُوَ أَنْ تَبْقَى بِلَا حَلَّ ، فَإِنْ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ .

* * *

والعجيبَةُ الثَّلَاثَةُ أَنَّ « نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ » ^(١) جَاءَ زَائِرًا بَعْدَ أَنْ قَرَأَ مَقَالَاتِ (الْمَجْنُونِ) ، فَرَأَى بَيْنَ يَدَيْ هَذِهِ الْكُتُبِ الَّتِي تَلْقِيَتَهَا وَأَنَا أَعْرِضُهَا وَأَنْظُرُ فِيهَا لِأَتَخَيَّرَ مِنْهَا ، فَسَأَلَ فَخَبَّرْتُهُ الْخَبْرَ ؛ فَقَالَ : إِنْ صَاحِبُ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ مَجْنُونٌ . . . أَوْ امْتَحَنُوهُ فِي الْجُغْرَافِيَا وَقَالُوا لَهُ : مَا هِيَ أَشْهَرُ صِنَاعَةٍ فِي بَارِسَ ؟ لِأَجَابَهُمْ : أَشْهَرُ مَا تُعْرَفُ بِهِ بَارِسَ أَنَّهَا تُصْنَعُ (الْبُودِرَةُ) لَوَجْهِ حَبِيبَتِي . . .

قُلْتُ : فَكَيْفَ يَرْتَدُّ هَذَا الْمَجْنُونُ عَاقِلًا ؟ وَمَا عِلَاجُهُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ : وَجْهٌ فِي طَلَبِ (ا.ش) * لِيَجِيءَ ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ اكْتُبْ : جُلِسْ « نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ » مَجْلِسَهُ لِلْإِفْتَاءِ فِي حَلِّ الْمَشْكَلَةِ فَأَقْبَى مُرْتَجِلًا : « إِنْ مَنْطِقَ الْأَشْيَاءِ وَعَقْلِيَّةَ الْأَشْيَاءِ صَرِيحَانِ فِي أَنَّ مَشْكَلَةَ الْحُبِّ الَّتِي

(١) هُوَ لَقَبُ الْمَجْنُونِ ، فَانْظُرْ مَقَالَاتِهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي .

* هُوَ الْأَدِيبُ أَمِينُ حَافِظُ شَرَفٍ ، وَيَأْتِي لَهُ ذِكْرٌ فِي مَقَالَاتِ الْمَجْنُونِ .

يَتَعَسَّرُ حُلُّهَا وَيَتَعَذَّرُ مَجَازُ الْعَقْلِ فِيهَا ، لَيْسَتْ هِيَ مُشْكِلَةٌ هَذَا الْعَاشِقِ أَكْرَهُهُ عَلَى الزَّوْاجِ بِامْرَأَةٍ يَحْمِلُهَا الْقَلْبُ أَوْ لَا يَحْمِلُهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ مُشْكِلَةٌ أَمْبَرَاطُورِ الْحَبِشَةِ يَرِيدُونَ إِرْغَامَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ إِيْطَالِيَا ، وَيَذْهَبُونَ يَرْفُؤُنَهَا إِلَيْهِ بِالْذَّبَابَاتِ وَالرَّشَاشَاتِ وَالْغَازَاتِ السَّامَةِ .

« ولو لم يكن رأسُ هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذى يعملُ عملُ العقل ، إذن لكانت مَجَارِي عقله مطرّدةً في رأسه ، فأنحَلَّتْ مشكلتهُ بأسباب تأتي من ذات نفسها أو ذات نفسه ؛ غير أن في رأسه عقلٌ بطنه لِعَقْلِ الرَّأْسِ ، كذلك الشَّرُّهُ الْبَخِيلِ الذى طَبِخَ قِدْرًا وَقَعْدَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ يَا كِلَان ، فقال : ما أَطْيَبَ هذه القِدْرَ لولا الزحام . . . قالت امرأته : أى زحامٍ ههنا ؟ إنما أنا وأنت . قال : كنتُ أحب أن أكونَ أنا والقدر فقط . . .

« فعقلُ النَّهَمِ في رأس هذا كعقل الشهوة في رأس ذاك ؛ كلاهما فاسدٌ التقدير لا يعملُ أعمالَ العقول السليمة ؛ ويريد أحدهما أن تَبْطُلَ الزَّوْجَةُ من أجل رِطْلٍ من اللحم ، ويريد الآخرُ مثلَ ذلك في رِطْلٍ من الحب . . .

« وإذا فسد العقلُ هذا الفسادَ ابتلى صاحبه بالمشاكل الصببانية المضحكة : لا تكونُ من شيء كبير ، ولا يكونُ منها شيء كبير ؛ وهى عند صاحبها لو وُزِنَتْ كانت قناطرٍ من التعقيد ؛ ولو كِيلَتْ بلغت أَرَادَبَ من الحيرة ؛ ولو قِيَسَتْ امتدّت إلى فراسخٍ من الغُمُوض .

« هاتان المرأتان : (الحبيبة والزوجة) ، إما أن تكونا جميعاً امرأتين ، فالعنى واحدٌ فلا مشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين ، فالعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة ؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قِرْدَةٌ أَوْ هِرْدَةٌ ، وههنا المشكلة . (حاشية : الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين في اللغة ، ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسى ولا البهائم . . .)

« فإن زعم العاشق أن زوجته قِرْدَةٌ فهو كاذب ، وإن زعم أنها الهِرْدَةُ فهو أكذب ؛ والمشكلة هنا مشكلةُ كل المجانين ، ففي نحوه موضعٌ أفرطَ عليه الشعورُ فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ في الرأى ، وابتلاه من هذا الخطأ بالعمى

عن الحقيقة ، وجعل زوجته المسكينة هي معرض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد ؛ ولا يجب فيها ، لأنها من زوجها كالحقيقة التي يتخبط فيها المجنون مدة جنونه ، فتكون مجلى هذيانه ومعرض حقائقه ، وهي الحقيقة غير أنه هو المجنون .

« فإن كانت هذه الحقيقة مسألة حسابية استمر المجنون مدة جنونه يقول للناس : خمسون وخمسون ثلاثة عشر ، ولا يصدق أبداً أنها مائة كاملة ؛ وإن كانت مسألة علمية قضى المجنون أيامه يشعل التراب ليجعلها باروداً ينفجر ويتفترق ، ولا يدخل في عقله أبداً أن هذا تراب مطنن بالطبيعة ؛ وإن كانت مسألة قلبية استمر المجنون يزعم أن زوجته قردة أو هريرة ، ولا يشعر أبداً أنها امرأة .

« فإن صح أن هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يربط في المارستان ، ثم يجيء أهله كل يوم بزوجه فيسألونه : أهذه امرأة أم قردة أم هريرة ؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة ، ويعرفها امرأته ، فيقال له حينئذ : إن كنت رجلاً فتخلق بأخلاق الرجال .

« أما إن كان الرجل عاقلاً مميزاً صحيح التفكير ولكنه مريض بمرض الحب ، فلا يرى (النابغة) أشقى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطيب بهذه الأشقيسة واحداً بعد واحد حتى يذهب سقامه بواحد منها أو بها كلها :

« الدواء الأول : أن يجمع فكرة قبل نومه فيحصره في زوجته ، ثم لا يزال يقول : زوجتي ، زوجتي . حتى ينام . فإن لم يذهب ما به في أيام قليلة فالدواء الثاني .

« الدواء الثاني : أن يتجرع شربة من زيت الخروع كل أسبوع ويتوهم كل مرة أنه يتجرعها من يد حبيبته ، فإن لم يشف هذا فالدواء الثالث .

« الدواء الثالث : أن يذهب فيبيت ليلة في المقابر ، ثم ينظر نظره في أي المرأتين يريد أن يلقى الله بها وبرضاها عته وبثوابه فيها ؛ وأيتهما هي موضع ذلك عند الله تعالى ، فإن لم يبصر رُشده بعد هذا فالدواء الرابع .

« الدواء الرابع : أن يخرجَ في (مظاهرة) . . . فإذا فُقِصَتْ له عينٌ أو كُمِصَتْ له يدٌ أو رجُلٌ ، ثم لم تحِلْ حَبِيبَتُهُ المشكلةَ بنفسها . . . فالدواء الخامس .

« الدواء الخامس : أن يصنعَ صَنِيعَ المبتلى بالحشيش والكوكايين ، فيذهب فيُسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده فينسى هذا الترفَ العقلي ، ثم ليعرفَ من أعمال السجن جيداً الحياة وهزلها ، فإن لم ينزعْ عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس .

« الدواء السادس : أنه كلما تحرك دَمُهُ وشاعت فيه حرارةُ الحب ، لا يذهب إلى من يحبها ، ولا يتوَحَّى ناحيتها ، بل يذهب من قَوْرِهِ إلى حَجَّامٍ يحجمُهُ . . . ليطفئ عنه الدمَ بإخراج الدم ؛ وهذه هي الطريقةُ التي يصلحُ بها مجانينُ العشاق ، ولو تبدَّلوا بها من الانتحار لعاشواهم وانتحرَ الحب .

قال « نابغة القرن العشرين » : « فإن بَطَلْتُ هذه الأشفيةُ الستةُ ، وبقي الرجلُ جَمُوحاً لا يبرُدُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع .

« الدواء السابع : أن يضْرَبَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يَصْصِكُ بها^(١) واقعةً منه حيثُ تَنَقَّع من رأسه وصدره وظهره وأطرافه ، حتى ينهشَ عظمه ، وينقصفَ صُلْبُهُ ، وينشُدَّخَ رأسُهُ ، ويتَفَرَّقَ جلدهُ ؛ ثم تُطْلَى جراحُهُ وكُسُورُهُ بالأطلية والمراهم ، وتوضَعُ له الأضمِدةُ والحصائبُ ويتركُ حتى يبرأ على ذلك :

أعرجٌ مُتَخَلِّعاً مبعثرَ الخلقِ مكسورَ الأعلى والأسفل ، فإن في ذلك شفاءه التامُّ من داء الحب إن شاء الله . . . »

قلنا : فإن لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلةُ الحب ؟

قال : فإن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن .

الدواء الثامن : أن يُعادَ علاجُهُ بالدواء السابع

(١) القناة : هي العصا الغليظة التي يقال لها « الشوكة » . والصك خاص في ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة في هذا العلاج . . . فقد جاز استعمال الصك في الجسم كله كما رأيت .

المشكلة

٣

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأي الواحد ، من وجوب إمساك الزوجة والإقبال عليها ، وإرسال « تلك » والانصراف عنها ، وأن يكون للرجل في ذلك عزم لا يتقلقل ومضاء لا ينشئ ، وأن يصبر للنقرة حتى يستأنس منها فإنها ستحوّل ، ويجعل الأناة بإزاء الضجر فإنها تصلحه ، والمروءة بإزاء الكره فإنها تحمله ، وليترك الأيام تعمل عملها فإنه الآن يعترض هذا العمل ويعطله ، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدل ، ولا يستقل القليل تكون الأيام معه ، ولا يستكثر الكثير تكون الأيام عليه .

والعديد الأكبر ممن كتبوا إلى ، يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيان الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول ، ويحاسبونه به ، ويقيمون منه الحجة عليه ، ويقولون له : أنت اعترفت ، وأنت أنكرت ، وأنت رددت على نفسك ، وأنت نصبت الميزان فكيف لا تقبل الوزن به ؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن ، وأن ذلك أسلوب من القول أدناه ونحسبنا ذلك الشاب ، ليكون فيه الاعتراض وجوابه ، والخطأ والرد عليه ؛ ولنظهر به الرجل كالأبله في حيرته ومشكلته ، تنفيراً لغيره عن مثل موقفه ، ثم لنحرك به العلل الباطنة في نفسه هو ، فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً ، حتى إذا قرأ قصة نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل ، وتلمح ما خفي عليه فيما ظهر له ، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق ، وعرف كيف يخلص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاج الماء والخمر . وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدة منحلّة في لسان صاحبها ، وبقي أن يدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي .

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ، ثم

يدعون الله أن يرزقه عقلاً . . . وقد أصاب هؤلاء أحسنَ التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة ، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييزَ وجُنَّ بجنونين : أحدهما في الداخل من عقله ، والثاني في الخارج منه ؛ فأصبح لا يبالي بالإثم والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الخطوة والسروى عند الأخرى ؛ فتعدى طوره مع المرأتين جميعاً ، وظلم الزوجة بأن استسلمَ حقها فيه ، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية .

وقد تمنى أحدُ القراء من فلسطين^(١) أن يرزقه الله مثلَ هذه الزوجة المكروهة كراهةً حب ، ويضعه موضعَ صاحب المشكلة ، ليثبت أنه رجلٌ يحكمُ الكرهَ ويصرفه على ما يشاء ، ولا يرضى أن يحكمه الحبُّ وإن كان هو الحب .

وهذا رأىٌ حَصِيفٌ جيّد ، فإن العاشقَ الذى يتلعبُ الحبُّ به ويصدّه عن زوجته ، لا يكونُ رجلاً صحيحَ الرجولة ، بل هو أسخفُ الأمثلةِ في الأزواج ، بل هو مُجرِمٌ أخلاقى يَنْصَبُ لزوجته من نفسه مثالَ العاهرِ الفاسق ، ليدفعها إلى الدَّعَاة والفسق من حيث يَدْرِى أو لا يدْرِى ؛ بل هو غبىٌ ، إذ لا يعرفُ أن انفرادَ زوجته وتراجعَها إلى نفسها الخزينة يُنشئُ في نفسها الحنينَ إلى رجلٍ آخر ؛ بل هو مغفلٌ ، إذ لا يدركُ أن شريعةَ السنِّ بالسنِّ والعينَ بالعين ، هى بنفسها عند المرأة شريعةُ الرجل بالرجل

والمرأة التى تجد من زوجها الكراهيةَ لاتعرفُها أنها الكراهةُ إلا أوَّلَ أولٍ ؛ ثم تنظرُ فإذا الكراهةُ هى احتقارُها وإهانتُها فى أخصِّ خصائصِها النسوية ، ثم تنظرُ فإذا هى إثارةُ كبريائها وتحديها ، ثم تنظرُ فإذا هى دفعُ غريزتها أن تعمل على إثبات أنها جديرةٌ بالحب ، وأنها قادرة على النعمة والمجازاة ؛ ثم تنظرُ فإذا برهانُ كل ذلك لا يجيئ من عقل ولا منطق ولا فضيلة ، وإنما يأتي من رجُل . . . رجلٍ يحقق لها هى أن زوجها مغفلٌ وأنها جديرةٌ بالحب .

* * *

وكأن هذا المعنى هو الذى أشارت إليه الأدبية (ف.ز.) وإن كانت لم

(١) هذه الآراء التى سنقلها قد تصرفنا فى جميعها بالعبارة ، ولكننا لم نخرج عما يرى إليه صاحب الرأى وما أقام رأيه عليه .

تَبَسُّطُهُ ، فقد قالت : « إن صاحبَ هذه المشكلة غيبي ، ولا يكونُ إلا رجلاً مريضَ النفس مريضَ الخلق ، وما رأيتُ مثله رجلاً أبعدَ من الرجل . . . ومثلُ هذا هو في نفسه مشكلة فكيف تُحلُّ مشكلته ؟ إنه من ناحية زوجته مغفل ، لا وصفَ له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن ، والحياة أولى أوصافه عندها .

« وهذا الزوجُ يسمُّمُ الآن أخلاقَ زوجته ويُفسد طباعها ، وينشئُ لها قصةً في أوطان غباوته وإثمه ، وسيتركها تسمُّ الرواية فلا يعلمُ إلا الله ما يكونُ آخرها . وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلماتُ يعتقدن أن أكثرَ الشُّبان إن لم يكونوا جميعاً ، هم كاذبون في ادعاء الحب ، فليس منهم إلا الغواية ؛ أو هم محبون يكذبُ الأملُ بهم على النساء ، فليس منهم إلا الخيبة .

قالت : « وخيرُ ما تفعله صاحبةُ المشكلة أن تصنع ما صنعتها أخرى لها مثلُ قصتها : فهذه حين علمتُ بزواج صاحبها قذفت به من طريقِ آمالها إلى الطريق الذي جاء منه ، وأنزلته من درَجة أنه كلُّ الناس إلى منزلة أنه ككل الناس ، ونَبَّهتُ حزمها وعزيمتها وكبرياءها ، فرأته بعد ذلك أهونَ على نفسها من أن يكونَ سبباً لشقاء أو حسرة أو همٍّ ، وابتعدتُ بفضائلها عن طريقِ الحب الذي تعرفُ أنه لا يستقيم إلا للزوجة وزوجها ، فإذا مشَّت فيه امرأةٌ إلى غيرِ زواج ، انحرفَ بها من هنا ، واعوجَّ لها من هنا ، فلم ينته بها في الغاية إلا أن تعودَ إلى نفسها وعليها غبارُها ، وما غبارُ هذا الطريق إلا سوادُ وجه المرأة . . .

« وقد جهَدَ الرجلُ بصاحبته أن تتخذَه صديقاً ، فأبت أن تتقبَّلَ منه برهانَ خيبتها . . . وأظهرت له جفوةً فيها احتقار ، وأعلمته أن نكثَ العهدِ لا يخرجُ منه عهد ، وأن الصداقةَ إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمُها وروحُها ومعناها ، فإما أن تكونَ حينئذ أسقطَ ما في الحب ، أو أكذبَ ما في الصداقة .

ثم قالت الأدبية : « وهي كانت تحبه ، بل كانت مُستَهامةً به ، ، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب ، لا تريد في الحبيب رجلاً هو رجلُ الحيلة عليها فتُخذع به ، ولا رجلُ العار فتُسبُّ به ، وفي طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة

الثقة والاطمئنان وحسن التمكن ؛ وهذا القلبُ الظاهرُ إذا فقد الحبَّ لم يفقد الطمأنينة ، كالتاجر الحاذق إن خَسِرَ الريح لم يفليس ، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال ، والصبرُ للمجاهدة .

قالت : « فعلى صاحبة المشكلة التي عرفت كيف تحب وتُجِلُّ ، أن تعرف الآن كيف تَحْتَقِرُ وتَزْدِرِي » .

* * *

وللأدبية (ف . ع) رأيٌ جَزَلٌ مُسَدَّدٌ ؛ قالت : « إنها هي قد كانت يوماً بالموضع الذي فيه صاحبة المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنفت أن تكون لَصَّةَ قلوب ، وقالت في نفسها : إذا لم يُقَدَّرْ لى ، فإن الله هو الذى أراد ، وإنى أَسْتَحْيِ من الله أن أحاربه في هذه الزوجة المسكينة ! ولئن كنتُ قادرةً على الفوز ، إن انتصارى عليها عند حبيبي هو انتصارها على عند ربى ، فلا أُخسرُ هذا الحبَّ لأربعِ اللهَ برأس مال عزيز خَسِرْتُهُ من أجله ، لأبقى على أخلاق الرجل لبيقتى رجلاً لامرأته ، فما يسرنى أن أنالَ الدنيا كلها وأهدمَ بيتاً على قلب ، ولا معنى لحب سيكون فيه اللؤم بل سيكون الأُمّ اللؤم :

قالت : وعلمت أن الله (تعالى) قد جعلنى أنا السعادة والشقاء في هذا الوضع ليرى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حِكْمَتِي أو حُصْنِي ، وصحَّ عندي أن حسنَ المداخلة في هذه المشكلة هو الحلُّ الحقيقي للمشكلة .

قالت : « فتغيرتُ لصاحبي تغيراً صناعياً ، وكانت نيتي له هي أكبر أعوانى عليه ، فما لبث هذا الانقلابُ أن صار طبيعياً بعد قليل ، وكنت أستمُدُّ من قلب امرأته إذا اختانستى الضعف أو نالنى الجزع ، فأشعرُ أن لى قوةَ قلبين . وزدتُ على ذلك النصيحَ لصاحبي نصيحاً مُيسِراً قائماً على الإقناع وإثارة النخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وترفقتُ في التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزةَ الوفاء لا تكونُ بالحياة وببنت له أنه إذا طلقَ زوجته من أجل ما يصنع أكثرَ من أن يقيمَ البرهانَ على أنه لا يصلح لى زوجاً ؛ ثم دلالتهُ برفق على أن خيرَ ما يصنعُ وخيرَ ما هو صانعٌ لإرضائى أن يقللنى في الإيثار وكرم النفس ، ويحتديتني في الخير والفضيلة ، وأن يعتقدَ أن دموعَ المظلومين هي في أعينهم

دموع ، ولكنها في يد الله صواعقٌ يضربُ بها الظالم .

قالت : « وبهذا وبعد هذا انقلب حبُّه لى إكباراً وإعظاما ، وسما فوق أن يكونَ حبًّا كالحب ؛ وصار يجدنى فى ذاتِ نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءاً أو حاول أن يَغْضُضَ منها فى نفسه . واعتاد أن يُكْرِمَهَا فأكرمها ، وصلَّحَتْ له نيته فاتصلَ بينهما السببُ ، وكَبِرَتْ هذه النيةُ الطيبةُ فصارت ودًّا ، وكَبِرَ هذا الودُّ فعاد حبًّا ، وقامت حياتهما على الأساسِ الذى وضعته أنا بيدي ، أنا بيدي

أما أنا . . . ؟ »

* * *

وكتب فاضل من حلوان : « إن له صديقاً ابتلى بهذه المشكلة فركب رأسه فأردّه شىء عن الزواج بحبيته ، وزَفَّ إليها كأنه ملكٌ يدخل إلى قصرٍ خياله ؛ وكان أهلُه يعذلونه ويلومونه ويُخْلِصُونَ له الذُّصَحَ ويجتهدون فى أمره جُهدَهم ، إذ يروُنَ بأعينهم مالا يرى بعينه ، فكان النصيحُ ينتهى إليه فيظنه غشاً وتكليساً ، وكان اللومُ يبلغه فيراه ظُلماً وتحاملاً ، وكان قلبُه يترجمُ له كلَّ كلمة فى حبيته بمعنى منها هى لامن الحقائق ، إذ غلبت على عقله فيها يَعْقِلُ ، وذهبت بقلبه فيها يُحِسُّ ، واستبدَّت بإرادته فلها يتفاد ؛ وعادت خواطرُه وأفكارُه تدورُ عليها كالحواشى على العبارة المغلقة فى كتاب ؛ واستقرَّت له فيها قوةٌ من الحب ، أمرُها إذا أرادت شيئاً أن تقولَ له كُن

« ثم مضت الليلةُ بعد الليلة ، وجاء اليومُ بعد اليوم ، والموجُ يأخذُ من الساحل الذرَّةَ بعد الذرة والساحلُ لا يشعر ، إلى أن تصرَّمت أشهرٌ قليلة ، فلم تلبث الطبيعةُ التى ألَّفت الروايةَ وجعلتها قبل الزواج روايةَ الملكِ والملكة ، وقصةَ التاج والعرش ، وحديثِ الدنيا ومُلْكِ الدنيا — لم تلبث أن انتقلت على فجأة فأدارت الرواية إلى فصلِ السخرية ومنظرِ التهكم ، وكشفت عن غرضها الخفى وحلَّت العقدة الروائية .

قال : « ففرغ قلبُ المرأة من الحب ، وظسَّيْ إلى السُّكْرِ والنَّشوة مرةً أخرى من غير هذه الزجاجاة الفارغة . . . وبرَدَ قلبُ الرجل ، وكان الشيطانُ

الذى يتَسَعَّر فيه ناراً شيطاناً خبيثاً ، فتحولَ إلى لوح من الثلج له طولٌ وعرض

« وَجَدَتُ الحَيَاةُ وهَزَلَ الشَّيْطَانُ ، فَاسْتَحْمَقَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أَنْ يَكُونَ اخْتِارَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ لَهُ زَوْجَةً ، وَاسْتَجْهَلَتْ الْمَرْأَةُ عَقْلَهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ رَضِيَتْ هَذَا الرَّجُلَ زَوْجًا ، وَأَنْكَرَهَا إِنْكَارًا أَوَّلُهُ الْمَلَالَةُ ، وَأَنْكَرَتْهُ إِنْكَارًا آخِرَ أَوَّلِهِ التَّبَرُّمُ ؛ وَعَادَ كِلَاهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ كَأِنْ كَانَ يَكْلِفُ إِنْسَانًا أَنْ يَخْلُقَ لَهُ الْأَمْسَ الَّذِي مَضَى ! » وَضَرَبَتِ الْحَيَاةُ ضَرْبَةً أَوْضَرَتَيْنِ فَإِذَا أَبْنِيَّةُ الْخَيَالِ كُلُّهَا هَدَمٌ هَدَمٌ ، وَإِذَا الطَّبِيعَةُ مُؤَلَّفَةُ الرِّوَايَةِ . . . قَدْ خَتَمَتْ رَوَايَتَهَا وَقَوَّضَتِ الْمَسْرَحَ ، وَإِذَا الْأَحْلَامُ مَفْسَّرَةٌ بِالْعَكْسِ : فَالْجِبُّ تَأْوِيلُهُ الْبُغْضُ ، وَاللَّذَّةُ تَفْسِيرُهَا الْأَلَمُ ، وَ« الْبُودُورَةُ » مَعْنَاهَا الْجَيْرُ . . . وَتَغْيَّرَ كُلُّ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا الشَّيْطَانُ الَّذِي بَيْنَهُمَا ، فَهُوَ الَّذِي زَوَّجَ وَهُوَ بَعِينُهُ الَّذِي طَلَّقَ . . . »

* * *

وكتب أديب من بغداد يقول : « إِنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْقَلْبُ مَوْضِعِ صَاحِبِ الْمَشْكَلَةِ ، وَإِنْ ذَاتَ قُرْبَاهِ الَّتِي سُمِّيَتْ عَلَيْهِ كَانَتْ مُلْتَقَفَةً لَهُ فِي حُجُبِ عِدَّةٍ لَا فِي حِجَابِ وَاحِدٍ ، وَقَدْ وُصِفَتْ لَهُ بِاللُّغَةِ . . . وَفِي اللُّغَةِ : مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ وَمَا أَظْرَفَ ، وَكَأَنَّهَا ظَنِّيُّ يَتَلَفَّتْ ، وَكَأَنَّهَا غُصْنٌ ، يَمِيلُ وَكَأَنَّ سُنَّةَ وَجْهِهَا الْبَدْرُ ! »

قال : « وَشُبِّهَتْ لَهُ بِكُلِّ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ ، وَجَاءُوا فِي أَوْصَافِهَا بِمَذَاهِبِ الِاسْتِعَارَةِ وَالْحِجَازِ ، فَأَخَذَهَا قَصِيدَةً قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهَا امْرَأَةٌ ؛ وَكَانَ لَمْ يَرِ مِنْهَا شَيْئًا ، وَكَانَتْ لُغَةً ذَوِي قَرَابَتِهِ وَقَرَابَتِهَا كَلِغَةِ التَّجَارَةِ فِي أَلْسِنَةِ حُدَاقِ السَّمَاوَةِ : مَا بِهِمْ إِلَّا تَنْفِيْقُ السَّلْعَةِ ثُمَّ يُخَدُّونَ بَيْنَ الْمُشْتَرَى وَحِظِّهِ . »

قال : « فَرَسَخَ كَلَامُهُمْ فِي قَلْبِي ، فَفَعَلْتُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَعْرَسْتُ بِهَا ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا هِيَ لَيْسَتْ فِي الْكَلِمَةِ الْأُولَى وَلَا الْآخِرَةِ مِمَّا قَالُوا وَلَا فِيمَا بَيْنَهُمَا . . . ثُمَّ تَعَرَّفْتُ فَإِذَا هِيَ تَكْثُرُنِي بِخَمْسَةِ عَشْرَةِ سَنَةٍ . . . وَرَأَيْتُ اتِّضَاعَ حَالِهَا عِنْدِي فَأَشْفَقْتُ عَلَيْهَا ، وَبَتُّ اللَّيْلَةَ الْأُولَى مُقْبِلًا عَلَى نَفْسِي أَوْامِرَهَا وَأَنَاجِيَهَا ، وَأَنْظُرُ فِي أَيْ مَوْضِعٍ رَأَيْتُ أَنَا ؛ وَتَأَمَّلْتُ الْقِصَّةَ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ بَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِي ،

فقلت : إن أنا نزعَ رحمتي عنها لَيُوشِكَنَّ الله أن ينزعَ رحمته عني ، وما بيني وبينه إلا أعمالي ؛ وقلت : يا نفسي ، إنها إن تلك مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَل فتَكُنْ في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله . وإنما أتقدم إلى عفوِ الله بآثامِ وذنوبٍ وظلمات ، فلا أجعلُ هذه المرأةَ حسنتي عنده ، وما علىَّ من عمرٍ سيمضي وتبقى منه هذه الحسنة خالدةً مخلدةً .

« إنها كانت حاجةَ النفس إلى المتاع فانقلبت حاجةً إلى الثواب ، وكانت شهوةً فرجت حكمة ، وكنت أريد أن أبلغ ما أحبُّ فسأبلغ ما يتجيب . ثم قلت : اللهم إن هذه امرأةٌ تنتظرها السنةُ الناس إما بالخير إذا أمسكتُها ، وإما بالشر إذا طلقْتُها ، وقد احتمتُ بي ؛ اللهم سأكفيها كلَّ هذا لوجهك الكريم !

قال : « ورأيتُني أكون الأمّ الناس لو أني كَشَفْتُها للناس وقلت انظروا . . . فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أرضاًها ، وجعلت أما سيحُها ولا يسيها في القول ، وعدلت عن حظ نفسي إلى حظ نفسها^(١) ، واستظهرت بقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ؛ واعتقدت الآيةَ الكريمةَ أصحَّ اعتقاد وأتمّه ، وقلت : اللهم اجعلها من تفسيرها .

قال : : « فلم تمض أشهرٌ حتى ظهر الحمل عليها ، فألقى الله في نفسي من الفرح ما لا تعدُّ له الدنيا بحذاقِها ، وأحسست لها الحبَّ الذي لا يقال فيه جميل ولا قبيح ، لأنه من ناحية النفس الجديدة التي في نفسها (الطفل) . وجعلت أرى لها في قلبي كل يوم مدّاً أخيلَ ومخارج دونها العشق في كل مدّ داخله ومخارجِه ، وصار الجنين الذي في بطنها يتلألُ نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها رجباً من الزمن فيه الأمل الحلو المنتظر .

قال : « وجاءها المخاض ، وطرقتْ بغلام ؛ وسمعت الأصوات ترتفع من حُجْرَتها : ولد ! ولد ! بشروا أباه . فوالله لكأن ساعةً من ساعات الخلد وقعت في زمني أنا من دون الخلق جميعاً وجاعتي بكل نعيم الجنة ؛ وما كان مُلْكُ العالم — لو ملكته — مستطيعاً أن يهني ما وهبني امرأتِي من فرَح تلك

(١) استوفينا بيان هذه المعاني في مقالة (قبيح جميل) .

الساعة ؛ إنه فَرَحَ إلهيُّ أَحسست بقلبي أن فيه سلامَ الله ورحمته وبركته ، ومن يومئذ نَطَقَ لسان جمالها في صوتِ هذا الطفل . ثم جاء أخوه في العام الثاني ، ثم جاء أخوهما في العام الثالث ؛ وعرفت بركة الإحسان من اللطف الرباني في حوادث كثيرة ، وتنفَّست على أنفاس الجنة وفسَّرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح .

* * *

ويرى صديقنا الأستاذ (م . . ح . ج) أن صاحبَ المشكلة في مشكلة من رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألفَ روح لما استطاع أن يعاشرَ زوجته بوحدة منها ، إذ هي كلُّها أرواحٌ صبيانية تبكي على قطعة من الحلوى ممثلة في الحبيبة ... ولو عرف هذا الرجل فلسفةَ الحب والكراهة ، لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه الطفليِّ في هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصلَ بين الحب والكراهة متزوعٌ من نفسه ، إذ الفاصل في الرجل هو الحزم الذي يُوَضَّع بين ما يجب وما لا يجب .

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة فكلُّ حل لمشكلته هو مشكلةٌ جديدة ، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً ، وكلتاها بلاء عليه ، وهو بهذه وهذه كحكموم عليه أن يَشْتَقَّ بامرأة لا بمشقة . . .

هذا عندي ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُشَبِّتَ أنه أحدهما ؛ فإن كان طفلاً فمن السخرية به أن يكونَ متزوجاً ، وإن كان رجلاً فليحلَّ هو المشكلة بنفسه ، وحلّها أيسر شيء : حلها تغيير حالته العقلية .

* * *

ونحن نعتذر للباقيين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفرَ بالأحوال التي تشبه هذه الحادثة ، لا بالآراء والموعظ والنصائح . أما رأينا في البقية الآتية .

المشكلة

٤

صاحبُ هذه المشكلة رجلٌ "أعور العقل . . . يرى عقله من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته ؛ ولو أن عقله أبصرَ من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً في إشكالها ، ولوجدَ في ناحيتها الأخرى حظاً لنفسه قد أصابه ، ومذهباً في السلامة لم يُخطئه ؛ وكان في هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به ، وكان يُصبح أشقى الخلق لورماه الله في الجهة التي أنقذه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهيها الثاني .

ماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التي بنيتَ بها ، كانت هي التي أكرهتَ على الرضى بك ، وحملتَ على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صبيّاً ، وفيها مُتدكّهاً ؛ ثم كانت هي تحبُّ رجلاً غيرك ، وتصبو إليه ، وتفتنُّ به ، وقد احترقتُ عشقاً له ؛ فإذا جلسوها عليك رأيتك البغيضَ المقيتَ ، ورأيتك الدميمَ الكريهَ ، وفترعتَ منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتمدُّ لها يدك فتتَحامها تحامسها المخدومَ أو الأبرص ، وتكلمها فتُحِمُّ برّداً من ثقل كلامك ، وتفتحُ لها ذراعيك فتجسبهما حبّلتين من مشنقتين ، وتحببُ إليها فإذا أنت أسمعُ خلقَ الله عندها ، إذ تحاول في ندالة أن تحلَّ منها محلَّ حبيبها ؛ وتقبلُ عليها بوجهك فتراه من تقدرها إياك ، واشمئزازها منك ، وجه الذبابة مكبراً بفضاعة وشناعة في قدر صورة وجه الرجل ، ليتجاوزَ حدَّ القبح إلى حدَّ الغشائة ، إلى حدِّ انقلاب النفس من رؤيته ، إلى حدِّ القىء إذا دنا وجهك من وجهها . . ١٩ !

فلماذا أنت قائلٌ يا صاحبَ المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك (الرجل الثاني) لا المرأة الثانية ؟ ألسنت الآن في رحمة من الله بك ، وفي نعمة كفتَ عنك مُصيبة ، وفي موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقُبَ في حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

* * *

تقول : الحب والخيال والفن . وتذهبُ في مذاهبها ؛ غيرَ أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ، ولا حسبتَ نفسك منحوسَ الحظ محروماً ، ولا جهلتَ أن في داخل العين من كل ذى فن عيناً خاصةً بالأحلام كيلاً نغمسى عينه عن الحقائق .

الحب لفظٌ وهى موضوع على أضداد مختلفة : على بُركان وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خِداعٌ من النفس يضع كلَّ ذكائه في المحبوب ، ويجعلُ كلَّ بَلاَته في الحب ، فلا يكونُ المِبوبُ عند محبه إلا شخصاً خيالياً ذا صفة واحدة هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية في وجود تامّ الجمال ولا عيبَ فيه ، والناسُ من بعده موجودون في العيوب والمحاسن .

وذلك وهم لا تقومُ عليه الحياةُ ولا تصلحُ به ، فإنما تقومُ الحياةُ على الروح العملية التى تضعُ في كل شىء معناه الصحيح الثابت ؛ فالحبُّ على هذا شىء غيرُ الزواج ، وبينهما مثلُ ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يفهم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعله حبا لا غير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابَّا هو أسخفَ زواج بينهما إذا تزوجا .

وذو الفن لا يُفِيدُ من هذا الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله ، فيكون في حبه عاقلاً بجنون لطيف . . . ويترك العاطفة تدخلُ في التفكير وتضعُ فيه جمالها وثورتها وقوتها ؛ ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هى أسمى لذاته الفكرية ، ويعرفُ بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة يؤليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الإنسانية ويصرفها ويبدعَ منها عمله الفنى العجيب .

وهذا الضربُ من السمو لا يبلغه إلا الفكرُ القوى الذى فازَ على شهواته وكبحها ونحملها تغلى فيه غلتيان الماء في المِرْجَل ليخرجَ منها اللطفُ ما فيها ، ويحولها حركةً في الروح تنشأ منها حياةٌ هذه المعانى الفنية ؛ وما أشبهَ ذا الفن بالشجرة الحية : إن لم تنضبطْ ما في داخلها أصبحَ الضبط ، لم يكن في ظاهرها إلا أضعفُ عملها .

ومثلُ هذا الفكرُ العاشقُ يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة ، وهو في قوته يجمعُ بين كرامة هذه وقدسية هذه ، لأن إحداها توازنُ الأخرى ، وتعدُّ لها في الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتُمنسك القلب أن يتبدد في جوه الخيالي .

والرجلُ الكاملُ المفكرُ المنخيلُ* إذا كان زوجاً وعشيقاً ، أو كان عاشقاً وتزوجَ بغير من يهواها ، استطاع أن يتدعَ لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجدُه العاشقُ ولا يناله المتزوج ؛ وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمدَ على هيئة واحدة ، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سرُّ من أسرار الإبداع في التمثال ، إذ تلك هيئة استقرار الأسمى في سموه ؛ فإن الزوجة أمومة على قاعدتها ، وحياة على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهي معان شاردة لا تستقر ، وزائلة لا تثبت ، وفنها كله في أن تبقى حيث هي كما هي ، فجماؤها يحيا كل يوم حياة جديدة ما دامت فناً محضاً ، وما دام سرُّ أنوثتها في حجابها .

ومنى تزوج الرجلُ بمن يحبها انتهك له حجاب أنوثتها فبطلَ أن يكون فيها سر ، وعادت له غير من كانت ، وعاد لها غير من كان ؛ وهذا التحولُ في كل منهما هو زوال كل منهما من خيال صاحبه ؛ فليس يصلح الحبُّ أساساً للسعادة في الزواج ، بل أحتر به إذا كان وجداً واحترافاً أن يكون أساساً للشؤم فيه ؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعينُهما درجة من درجة في الشغف والصبابة والخيال ، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد ، فإن لم يكن الزوجُ في هذه الحالة رجلاً تامَّ الرجولة ، أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانية روحه فالتمس في الزوجة ما لم يتعدَّ فيها ، فإذا انكشف فراغها ذهب يلتمس في غيرها ، وكان بلاء عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ؛ إذ يضعُ أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ، ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسي ؛ وما المرأة إلا حسنها وشعورها^(١) .



(١) هذا كله من بعض الحكمة في أن الإسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد ، إذ لا يعرف الدين الإسلامي من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما بينها ، وتصان بما يصونها ، وقد أشرنا إلى الحكمة الأخرى في المقالة الأولى من المشكلة .

فالشأن هو في تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وفحوتها، إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه . وما من رجل قوى الرجولة إلا وأساسه ديانتُه وكرامته ؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع في مثل هذه المشكلة ثم تُظلم به الزوجة أو يحيف عليها أو يُفسدُ ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العشرة ، بلكه أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبة) فيجأ فيها ويبالغ في إعناتها ويشفي غيظته بإذلالها واحتقارها .

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك في بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءة ونذالة في معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها ؟

إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية في حل مشكلته إن تورط في مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكدّ ويعمل ويصبر على ما يعانیه من ذلك ؛ ومن كان محبباً لا يستزِل المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الإنسان من أظهر في كل ذلك ونحو ذلك أثره الإنسانى لا أثره الوحشى ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد . وإنما الدين في السمو على أهواء النفس ؛ ولا يتسامى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوه فيما يبلغ إليه

وإذا حلّ اللص مشكلته على قاعدته هو فقد حلّها ، ولكنه حلّ يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً ، حتى ليرى الشرع في نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيقى باليد العاملة التى خلقت له فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشرى كله ينزل منزلة الأب في مناصرته لزوجته صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها ، ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها في الضمير الإنسانى الأكبر ، وإن خالف ضمير زوجها العدو الثائر الذى قطعها من مصادر نفسه ومواردها . أما حكم الحبيبة في هذا الضمير الإنسانى فهو أنها في هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحاذة رجال ...

لِسِنَا نَنكُرُ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ يَتَأَلَّمُ مِنْهَا وَيَتَلَذَّعُ بِهَا مِنَ الْوَقْدَةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ ؛ بَيَدِ أَنَا نَعْرِفُ أَنَّ أَلَمَ الْعَاقِلِ غَيْرُ أَلَمِ الْمَجْنُونِ ، وَحُزْنَ الْحَكِيمِ غَيْرُ حُزَنِ الطَّائِشِ ؛ وَالْقَلْبُ الْإِنْسَانِي يَكَادُ يَكُونُ آتِلَةً مَخْلُوقَةً مَعَ الْإِنْسَانِ لِإِصْلَاحِ دُنْيَاهُ أَوْ إِفْسَادِهَا ؛ فَالْحَكِيمُ مِنْ عَرَفَ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهَذَا الْقَلْبِ فِي آلَامِهِ وَأَوْجَاعِهِ ، فَلَا يَصْنَعُ مِنَ أَلَمِهِ أَلَمًا جَدِيدًا يَزِيدُهُ فِيهِ ، وَلَا يُخْرِجُ مِنَ الشَّرِّ شَرًّا آخَرَ يَجْعَلُهُ أَسْوَأَ مِمَّا كَانَ . وَإِذَا لَمْ يَجِدِ الْحَكِيمُ مَا يَشْتَهِي ، أَوْ أَصَابَ مَا لَا يَشْتَهِي ، اسْتَطَاعَ أَنْ يَخْلُقَ مِنْ قَلْبِهِ خَلْقًا مَعْنَوِيًّا يُوْجِدُهُ الْغَنَى عَنْ ذَلِكَ الْحُجُوبِ الْمَعْدُومِ ، أَوْ يُوْجِدُهُ الصَّبْرَ عَنْ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمَكْرُوهِ ؛ فَتَتَوَازَنُ الْأَحْوَالُ فِي نَفْسِهِ وَتَعْتَدِلُ الْمَعَانِي عَلَى فِكْرِهِ وَقَلْبِهِ ؛ وَبِهَذَا الْخَلْقِ الْمَعْنَوِيِّ يَسْتَطِيعُ ذُو الْفَنِّ أَنْ يَجْعَلَ آلَامَهُ كُلِّهَا بَدَائِعَ فَنٍّ^(١) . وَمَا هُوَ فِكْرُ الْحُكَمَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَصْنَعًا تَرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَعَانِي بِصُورَةٍ فِيهَا الْفَوْضَى وَالنَّقْصُ وَالْأَلَمُ ، لِتَخْرُجَ مِنْهُ فِي صُورَةٍ فِيهَا النِّظَامُ وَالْحِكْمَةُ وَاللَّذَّةُ الرُّوحِيَّةُ .

يَعِشُّ الرَّجُلُ الْعَامِيُّ الْمَتَزَوِّجَ ، فَإِذَا السَّاعَةُ الَّتِي أَوْ يَنْقَسِتُهُ فِي الْمَشْكَلَةِ قَدْ جَاءَتْهُ مَعَهَا بِطَرِيقَةٍ حَلَهَا : فَلَمَّا ضَرَبَ امْرَأَتَهُ بِالطَّلَاقِ ، وَإِمَا أَهْلَكَهَا بِاتِّخَاذِ الضَّرَةِ عَلَيْهَا ، وَإِمَا عَذَّبَهَا بِالْخِيَانَةِ وَالْفُجُورِ ، لِأَنَّ بَعْضَ الْعَبَثِ مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي نَفْسِ هَذَا الْجَاهِلِ هُوَ بَعِينُهُ عِبَثُ الطَّبِيعَةِ بِهَذَا الْجَاهِلِ فِي غَيْرِهِ ، كَأَنَّ هَذِهِ الطَّبِيعَةَ تَنْطَلِقُ مُدَافِعَةً الضَّخْمَةَ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ الْفَارِغَةِ . . .

وَلَيْسَ أَسْهَلُ عَلَى الذَّكَرِ مِنَ الْحَيَوَانِ أَنْ يَحُلَّ مَشْكَلَةَ الْأُنْثَى حَلًّا حَيَوَانِيًّا كَحَلِّ هَذَا الْعَامِيِّ ، فَهُوَ ظَافِرٌ بِالْأُنْثَى أَوْ مُقْتُولٌ دُونَهَا مَا دَامَ مُطْلَقًا مَخْلًى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ؛ وَالْحَقِيقَةُ هُنَا حَقِيقَتُهُ هُوَ ، وَالْكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا مُنْفَعَةٌ شَهْوَانِيَّةٌ ؛ وَأَسْمَى فُضَائِلِهِ أَلَا يَعْجَزُ عَنْ نِيلِ هَذِهِ الْمُنْفَعَةِ .

ثُمَّ يَعِشُّ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ الْمَتَزَوِّجَ فَإِذَا لِمَشْكَلَتِهِ وَجْهٌ آخَرٌ ، إِذْ كَانَ مِنْ أَصْعَبِ الصَّعْبِ وَجُودُ رَجُلٍ يَحُلُّ هَذِهِ الْمَشْكَلَةَ بِرَجُولَةٍ ، فَإِنَّ فِيهَا كِرَامَةً الزَّوْجَةِ وَوَاجِبَ الدِّينِ وَفِيهَا حَقَّ الْمَرْوَةِ ، وَفِيهَا مَعَ ذَلِكَ عِبَثُ الطَّبِيعَةِ وَخَدَاعُهَا وَهَزْلُهَا الَّذِي هُوَ أَشَدُّ الْجِدِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْغَرِيزَةِ ؛ وَبِهَذَا كُلِّهِ تَنْقَلِبُ الْمَشْكَلَةُ إِلَى

(١) اسْتَوْفَيْنَا هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كَثِيرٍ مِمَّا كَتَبْنَا ، وَبَعْضُهَا فِي مَقَالَتِ (الْجَمَالُ الْهَائِلُ) . . .

معركة نفسية لا يَحْسِمُهَا إِلَّا الظفر ، ولا يُعِينُ عليها إِلَّا الصبر ، ولا يُفْلِحُ فِي سِيَّاسَتِهَا إِلَّا تَحْمِلُ آلامَهَا ، فإذا رَزَقَ العاشقُ صبراً وقوةً على الاحتمال فقد هَانَتِ الباقى وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ؛ فإن في نفس الإنسان مواقع مختلفةً وآثاراً متباينةً للذة الواحدة ، وموقعٌ أرفعُ من موقع ، وأثرٌ أبهجُ من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفرُ بمعانيها ، وأكرمُ منها على نفسه كرامةُ نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلةُ والكرامةُ والعقلُ والفن ، لم يبق نخبة الحب كبيرُ معنى ولا عظيمُ أثر ، ويتوغَّلُ العاشقُ في حبه وقد لَبَسَتْهُ حالةٌ أخرى كما يَكْظِمُ الرجلُ الحليمُ على الغيظ : فذلك يحب ولا يَطِيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضب . والبطلُ الشديدُ البأس لا يَنْبَغُ إلا من الشدائد القوية ، والداهيةُ الأريبُ لا يخرج إلا من المشكلات المعقَّدة ، والتقىُّ الفاضل لا يُعرفُ إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمري إذا لم يستطع الحكيمُ أن ينتصرَ على شهوة من شهوات نفسه ، أو يبطل حاجةً من حاجاتها ، فإذا فيه من الحكمة ؟ وماذا فيه من النفس ؟

* * *

وما عقَدَ (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته ، إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوةَ المصلحة فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها . . . وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يُبصرَ عندها إلا فروقاً بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ؛ وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلم كيف يراها لراها ، ولو تعودها لأحبها .

إنه من وهمه كالجواد الذي يشعر بالمقادة في عنقه ؛ فشعوره بمعنى الحب وإن كان معنىً ضئيلاً عطلَّ فيه كلَّ معاني قوته ، وإن كانت معاني كثيرة . وما أقدرَك أيها الحبُّ على وضع حبال الخيل والبغال والحُمير في أعناق الناس !

* * *

وقد بقي أن نذكر ، ، توفيةً للفائدة ، أنه قد يقع في مثل هذه المشكلة من نقصت فحولتَه من الرجال ، فيدكَّسُ على نفسه بمثل هذا الحب ، ويبالغ فيه ، ويتجرَّم على زوجته المسكينَة التي ابتليت به ، ويختَلِقُ لها العليل الواهية المكذوبة ، ويُبغضُها كأنه هو الذي ابتلى بها ، وكأن المصيبة من قبلها لا من

قَبْلَهُ ؛ وكلُّ ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكرِهِ ، فلم تعد إلا صُوراً خياليةً
لا تُعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته
أشدَّ الكره إذا شعر في نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها . . . فهذا لا يكونُ
رجلاً لامرأته إلا في العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شِفَاء الغيظ ،
وامرأته معه كالمعاهدة السياسية من طَرَف واحد : لاقية ولاحرمة ؛ وإذا
أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً ، لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن
جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته ، ورداً بامرأة على امرأة . . .

فهرست الجزء الأول من وحى القلم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٠٠	س ١٠ ع	١٨	اليامتان
٢٠٨	استنوق الجمل	٢٩	اجتلاء العيد
٢١٤	أرملة حكومة	٣٤	المعنى السياسى فى العيد
٢٢١	رؤيا فى السماء	٣٦	الربيع
٢٢٩	بنته الصغيرة (١)	٣٩	عرش الورد
٢٣٧	» » (٢)	٤٣	أيها البحر
٢٤٦	الأجنبية	٤٧	فى الربيع الأزرق
٢٥٦	قصيدة مترجمة عن الشيطان	٥١	حديث قطين
٢٥٦	لحوم البحر	٥٩	بين خروفين
٢٦٢	قصيدة مترجمة عن الملك	٧٠	الطفولتان
٢٦٢	إحذرى	٧٨	أحلام فى الشارع
٢٦٨	الجمال البائس (١)	٨٥	أحلام فى قصر
٢٧٥	» » (٢)	٩١	بنت الباشا
٢٨٢	» » (٣)	٩٨	ورقة ورد
٢٩٠	» » (٤)	١٠٣	سمو الحب
٢٩٧	» » (٥)	١١٣	قصة زواج وفلسفة المهر
٣٠٦	عربة اللقطاء	١٢٤	ذيل القصة وفلسفة المال
٣١٤	الله أكبر	١٣٣	زوجة لإمام (١)
٣٢١	فى اللهب ولا تحترق	١٤٣	زوجة لإمام (٢)
٣٢٧	المشكلة (١)	١٥١	قبح جميل
٣٣٥	» (٢)	١٦١	الطائشة (١)
٣٤٢	» (٣)	١٧٠	» (٢)
٣٥٠	» (٤)	١٧٨	دموع من رسائل الطائشة
		١٨٤	فلسفة الطائشة
		١٩٢	تربية لأولوية

فتح القلم

« بيان كآنه تنزيل من التنزيل ، »

« أو قبس من نور الذكر الحكيم »

سعد زغلول

كتبه
مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثاني

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

حقوق الطبَّع محفوظة

ضبطه وصممه وعلى حواشيه

محمد سعيد العريان

فَتَحَى الْقَلَمَ

الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتُفجّرُ ينبوعَ الضوء المسمّى النهار ، يولّد النبيُّ فيوجِدُ في الإنسانية ينبوعَ النور المسمّى بالدين . وليس النهار إلا بقطة الحياة تحقّقُ أعمالها ، وليس الدينُ إلا بقطة النفس تحقّق فضائلها .

والشمسُ خلقها الله حاملاً طابَعَهُ الإلهيُّ ، في عملها للمادة تُحوّلُ به وتُغيّرُ ؛ والنبيُّ يرسله الله حاملاً مثلَ ذلك الطابع في عمله ترقّى فيه وتسمو .

ورَعَاشَاتُ الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلامٍ من النور ، وأشعةُ الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون في نورٍ من الكلام .

والعاملُ الإلهي العظيم يعملُ في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين : أجرامِ النور من الشمس والكواكب ، وأجرامِ العقل من الرُّسُل والأنبياء .

فليس النبيُّ إنساناً من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يُدرّسُ بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ؛ ولكنه إنسانٌ نجميٌّ يُقرأ بمثل « التلسكوب » في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ؛ ثم يُدرّسُ بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها .

والحياة تُنشئُ علمَ التاريخ ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء (صلواتُ الله عليهم) ، تجعلُ التاريخ هو يُنشئُ علمَ الحياة ؛ فإنما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية ، يُتَّوَمَّعُ بها في فلسفيتها الأخلاقية ، ويجذبُها إلى الكمال في نظامٍ هو بعينه صورةُ لقانون الجاذبية في الكواكب .

ويجيءُ النبي فتجىء الحقيقةُ الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني ، لتكون أقوى أثراً ، وأيسرَ فهماً ، وأبدعَ تمثيلاً ، وليس عليها خلافٌ من الحس . وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فنَّ الناسِ جميعاً ، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغةٍ بأكملها ؛ هو الشخصُ المفسّرُ إذا تعسّف الناسُ الحياة لا يدبرون أين يؤمّون منها ، ولا كيف يتهدّون فيها ، فتضطربُ الملايين من

البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا؛ ثم يُخلَق رجل واحد ليكونَ هو التفسير لما مضى وما يأتي ، فظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرئي ، أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية .

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكونَ نفسُ النبي أبلغَ نفوس قومه ، حتى لهُوَ في طباعه وشماله طبيعةٌ قائمةٌ وحدها ، كأنها الوضعُ النفساني الدقيق الذي يُنصبُّ لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء . وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تُنادى الناس : أن قَابِلُوا على هذا الأصل وصَحِّحُوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية .

* * *

ومن ثم فنبى البشرية كلها مَنْ بُعِثَ بالدين أعمالاً مفصلةً على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يُعطى الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظّم به أحوال النفس على مِيزة وبصيرة ، وَيَدْعُ للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير تنظّم به أحوال الطبيعة على قَصْد وهُدًى ؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أحص معانيه ، لا يُغنى عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدّي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نَسَبٌ في الأرض لمعانى النور ، يلزأ الشمس نبع النور في السماء .

وكل ذلك تراه في نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة ، لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها ؛ ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألهين وجُعِلَتْ في نِصاب واحد — ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه (صلى الله عليه وسلم) . ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرّة في مَحَارِثها ، أو تركيب كتركيب الماس في منجسمه ، أو صفة كصفة الذهب في عِرْقهِ . وهى النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتها رأيتهَا على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتَصْحَى .

وتلك هي الشهادة له (صلى الله عليه وسلم) بأنه خاتم الأنبياء ، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير ؛ فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها : صلابته بمقدار الحق الإنساني الثابت ، لا بمقدار الإنسان

المتغير الذى يكون عند سببٍ جبَلًا صَلْدًا يَتَشْمَخُ ، وعند سببٍ آخر ماءً عَذْبًا يَجْرى .

وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها ، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم ، ويستفرغ همه فى ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ؛ وفرق ما بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هى قوة سيادة الطبيعة وتحكمهما ، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها ؛ وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ؛ وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية .

ومن هنا كان طبيعياً فى الإسلام ما جاء به من أنه لافضيلة إلا وهو يطبع عليها صورةَ الجنة بنعيمها الخالد ، ولأذيلة إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة ؛ فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع : يحرص على ما يكون له ويسرّه إلى ما ليس له ، ويمكّر الحيلة ، ويبدع وسائل الخداع ، ويزيد بكل ذلك فى تعقيد الدنيا — بل نظرة القلب المسلم : يتخلع الدنيا ويتسوخو بكل مضمون فيها ، فيعف عن كثير ؛ ويعرف الإنسانية ويطمع فى غاياتها العليا ، فيعفو عن كثير ؛ ويدرك أن الحلال وإن حلّ فوراءه حسابه ، وأن الحرام وإن غرّ ليس إلا تتعلّل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد .

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله تعالى قانونَ وجود الإنسان على الأرض ، فمن أى عطفيه التفت هذا الإنسان وجد على يمينته ويسرته ملائكتين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها ، فهو كالمتهّم المستراب به فى سياسة النفس : لا يمشى خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان عليه حتى أسباب النية ، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد ، ويرجمان عنه حتى معانى النظر .

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت فى اعتبار النفس ، قام منها على النفس شرعٌ نافذٌ هو قانون الإرادة المميّزة ، تُريد الحسنات وتعمل لها ، وتخشى السيئات وتتفر منها ، فإذا معانى الجسد يحكم بعضها بعضاً ، لا لتحقيق الحكومة والسلطة ، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة ؛ وإذا نوايس الطبيعة

المجنونة في هذا الحيوان ، قد نهضت إلى جانبها نواميسُ الإرادة الحكيمة في الإنسان ، وإذا كلُّ صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادةُ تهمّة عند قاضيتها في محكمتها ، وإذا كلُّ ما في الإنسان وما حول الإنسان ، لا يرادُّ منه إلا سلامُ النفس في عاقبتها ؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالبُ المتصرفُ بالإنسانية في دنياها .

وكلُّ أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه ، فتلك هي غايتها ، وهذه هي فلسفتها ؛ لا يقررها للإنسانية حسَبُ ، بل يتغرسها في الوراثة غرساً بالاعتقاد والمِران الدائم ، لتكونَ علماً وعملاً ، فتمكّنَ لسلام النفس بين الأسلحة المسدّدة إليها من ضرورات الحياة ، في أيدي الأعداء المتألبّة عليها من شهوات الغريزة .

فليس يعمُّ السلام إلا إذا عمَّ هذا الدين بأخلاقه فشملَ الأرض أو أكثرها ؛ فإن قانونَ العالم حينئذٍ يُصبحُ منتزعا من طبيعة التراحُم ، فإمّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعي ، وإمّا كَسَرَ من شِرتِه ؛ ويُولد المولودُ يومئذٍ وتولد معه الأخلاقُ الإنسانية .

* * *

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر ، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً — هذا هو أساسُ العقيدة الإسلامية ؛ ولإصلاح للإنسانية بغيره يردُّها إلى سبيل قَصْدِها ، فإن من ذلك تكونُ الصفة العقلية التي تَغْلِبُ على المجتمع ، وتُجانِسُ بين أفرادها ، فتوجهُ الإنسانيةَ كلّها نحو الممكن من كمالها ، ولا تزال توجّهها نحو ما هو أعلى ، وتحكم فاسدَها بصالحها ، وتأخذ عاصيتها بمطيعها ، وتجعل الشرفَ الإنسانيَ غرضها الأول ، لأن الله الحقَّ غرضها الأخير ؛ فيصبحُ المرء — وهذا دينه — كلما تقدم به العمر كَمُلَ فيه اثنان : الإنسان ، والشرية . ولا يعود طالبُ السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجرى وراء ظله ليُسَمِكَه ؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غيرَ معرفته أنه كان في عمل باطل وسعى ضائع .

والإسلام يحرص أشدَّ الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي العظيم ، لا بالمنطق ، ولكن بالعمل ؛ ثم في النفس وعواطفها ، لا في العقل وآرائه ؛ ثم على

وجه التعميم ، دون الاستثناء والخصوص ؛ وذلك هو سرُّ مشقَّته على النفس بما يفرضه عليها ؛ فإن فلسفته أن هذه النفسَ هي أساسُ العالم ، وأن النظامَ الخلقى هو أساسُ النفس ، وأن العملَ الدائم هو أساسُ النظام ، وأن روحَ العمل الدائم تكون فيما يشقُّ بعضَ المشقَّة ولا يبلغ العُسْر والحرج ، كما تكون فيما يسهلُ بعضَ السهولة ولا يبلغ الكسَل والإهمال .

وللنفس وجهان : ما تُعلن ، وما تَسِرُّ ؛ ولا صدقَ لإعلانها حتى يصدقَ ضميرُها ، ولا صلاحَ لجَهْرُها حتى يصلحَ السرُّ فيها ، ولا يكون الإنسان الاجتماعى فاضلاً بمشْهُدِهِ حتى يكونَ كذلك بغَيْبِهِ .

وللعالم كذلك وجهان : حاضره الذى يمر فيه ، وآتية الذى يمتدُّ له ؛ ولا يُفْلِح حاضِرٌ منقطعٌ لا يُوَرِّث ما بعده كما ورث ما قبله ، وما حاضِرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس فى استمرار فضائلهم باقيةً نامية .

وللنظام أيضاً وجهان : نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها ، ونظامُ الرغبة على الخشية والنَّفْرة منها . ولا يستقيم شأنُ ليس أساسه الطاعة فى النفس ، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به .

وللعمل الدائم طريقتان : إحداهما طريقة الجادِّ يعمل للعاقبة يستَيْقِنُها ، فلا يجد مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالبة للنصر : كلُّ مرارة من قِبَلِهِ هي حلوةٌ فيه من بَعْد ، ولا يعرف للمِحْنة يُبْتلى بها إلا معناها الحقيقى وهو إيقاظ نفسه ، فيصبح الصبر عنده كصبر الحب على أشياء من تحبه ؛ صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الحرمانَ فى بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع ، ويُذيقُ النفسَ فى العجز عن بعض أغراضها — لذةً كلذة إدراكه .

* * *

تلك هي فلسفةُ الإسلام ؛ لا قِيَامَ للأمر فيها ولا مِساكَ له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس ، ووضع طابَعِ الجنة على أعمال الجنة ، وطابَعِ النار على أعمال النار — وحياطة كل فرد من الناس حياطةً رياضيةً عمليةً بين الساعة والساعة ، بل بين الدقيقة والدقيقة ، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه ، ثم أعمال قلبه ونيته — وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية ، فلا يحاول

كلُّ إنسان أن يجعلَ بطنَه في حِجْمِ مملكة أو مدينة أو قرية ، بما ينتقصُ من حقوق غيره ؛ بل تتسع ذاتيةُ كل فرد بما يجبُ له على المجتمع من الواجبات الإنسانية ؛ وبهذا لا يغيره تعيين مقاييس الأخلاق في الأرض : بالمصلحة لا باللذة ؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير ، وتنحلُّ المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياةُ لا تجد من أهلها كلَّ ساعة عقداً فيها .

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقةُ لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقِها الطبيعي ، كما أنه هو وحده الطريقةُ لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية ، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس ، وتركت الناسَ يهدم بعضهم بعضاً ، كما يهدم الجارُ حائط جاره ليوسّع بيته .
وأساسُ العمل في الإسلام إخضاعُ الحياة للعقيدة ، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة ؛ فيكونُ الفقير مُعَدِّماً ويتعفّف ، ويكونُ الغنيُّ مُوسِراً ويتصدّق ، ويكونُ الشرُّ طامعاً ويُسْمِك ، ويكونُ القوى قادراً ويُحْجِم ، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبيته على الناموس الاقتصادي : « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » .

* * *

تريد الإنسانية امتداداً غيرَ امتدادها التجاري في الأرض ، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه ؛ وإذا قاد الغراب قوماً فإنما هو — كما قال شاعرنا — يمرُّ بهم على جيِّف الكلاب . . . والإنسانية اليوم في مثل ليل حَوْشِيٍّ مظلم اختلط بعضه في بعض ، وليست معاني الإسلام إلا الإشراق الإلهي على هذه الكشافة المادية المتراكمة ، وإذا رفع المصباحُ لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته .

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحها الصادقَ وتحزنُ حزنها السامى — إلا أن تعيشَ في محبوب ؛ فإنسانية العالم لا تكون مثلَ ذلك إلا إذا عاشت في نبيِّها الطبيعي ، نبيِّ أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق ؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد ؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم ، يُنادى باسمه الشريف ملء الجو ؛ ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة ، يُهمس باسمه الكريم ملء النفس ! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ؛ فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله ، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد ؛ والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعته روح الرسالة ، ويسطع في نفسه إشراق النبوة ، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض ؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميمته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القيد ؛ فهنا المسلم الفرعوني ، وفي ناحية المسلم الوثني ، وفي بلد المسلم المجوسي ، وفي جهة المسلم المعطل . . وما يُريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني .

أيها المسلم !

لا تنقطع من نبيك العظيم ، وعش فيه أبداً ، واجعله مثلك الأعلى ؛ وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه ؛ كن دائماً كالمسلم الأول ؛ كن دائماً ابن المعجزة .

حقيقة المسلم*

لا يعرف التاريخ غيرَ محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغَ الله وجوده في الوجود الإنسانيَّ كله ؛ كما تَنصِبُ المادَّةُ في المادَّة ، لَتَمْتَرَجَ بها ، فتُحوِّلُها ، فتُحدِّثُ منها الحديد ، فإذا الإنسانية تتحوَّلُ به وتنمو ، وإذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجودٌ سارٍ فيها فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحوَّلُ .

كان المعنى الآدبِيُّ في هذه الإنسانية كأنما وهَنَ من طول الدهر عليه ، يَتَحَيَّفُهُ ويمحوه ویتَعَاوَرُهُ بالشرِّ والمنكَرِ ؛ فابْتَعَثَ الله تاريخَ العقلِ بِآدمَ جديدٍ بدأتْ به الدنيا في تَطَوُّرِها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته ، كما بدأتْ من حيث يُوجَدُ الإنسانُ في ذاته ؛ فكانت الإنسانيةُ دهرَها بين اثنين : أحدهما فَتَحَ لها طريقَ الحَيِّءِ من الجنة ، والثاني فَتَحَ لها طريقَ العُودَةِ إليها : كان في آدمَ سرٌّ وجود الإنسانية ، وكان في محمدٍ سرٌّ كمالها .

* * *

ولهذا سُمِّيَ الدينُ (بالإسلام) ؛ لأنه إسلامُ النفسِ إلى واجبها ، أى إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكِرُ ذاتَه فيُسَلِّمُها إلى الإنسانية تُصَرِّفُها وتُتَعَمِّلُها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظَّ له هو من نفسه يمسِكُها على شهواته ومنافعِهِ ، ولكنَّ لِلإنسانية بها الحظُّ .

وما الإسلامُ في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و (إسلامُها) طائعةً على التَمَنُّشِطِ والمَكْرَهِ لفروضها وواجباتها ؛ وكلما نَكَصَتْ إلى مَنْزَعِها الحيوانيِّ ، أسلمها صاحبُها إلى وازعها الإلهيِّ ؛ وهو أبدأ بِرُوضِها على هذه الحركة ما دام حيًّا ؛ فينتزعها كلَّ يوم من أوهاَمِ دنياها ، ليضعها ما بين يَدَيْ حَقِيقَتِها الإلهيَّةِ : يروضُها على ذلك كل يوم وليلة خمسَ مرَّاتٍ مُسَاةً في اللغة خَمْسَ صَلَوات ، لا يكون الإسلامُ إسلاماً بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاةُ

* كتبها لجماعة الكشاف المسلم في بيروت في ذكرى المولد النبوي الشريف . وانظر « فترة جمام »

و « عود على بدء » من كتاب حياة الرافعي .

بهذا المعنى كما وصفها النبي (صلى الله عليه وسلم) هي عِمَادَ الدين .

* * *

بين ساعات وساعات في كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أى إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(١) القائمة على الطاعة للقرْص الإلهي ، وإنكارُ لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادةُ الشرِّ في الأرض ، وإقرارُها لحظّات في حَيَازٍ الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامِها ومنكّراتِها . ومعنى ذلك كلّهُ تحقيقُ المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمالُ الدنيا في جملتها طُرُقًا تنشّت فيها الأرواحُ وتتبعثر ، حتى تنصلَّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الإسلامُ لِيَهْدِيَ الإنسانيةَ إليها : حالة السلام الروحاني الذي يجعل حربَ الدنيا المهلكة حربًا في خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروةَ الإنسان مُقَدَّرَةً بما يعامل الله والإنسانيةَ عليه ؛ فلا يكون ذهبُهُ وفَضَّتُهُ ما كتبت عليه الدول : « ضُرِبَ في مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كُتِبَ عليه : « صُنِعَ في مملكة نفسي » ؛ ومن ثمَّ لا يكون وجودُهُ الاجتماعيُّ للأخذ حَسَبُ ، بل للعطاء أيضًا ، فإن قانونَ المال هو الجمع ، أما قانونُ العمل فهو البذل .

بالانصراف إلى الصلاة وجمْعِ النيةِ عليها ، يستشعر المسلمُ أنه قد حطَّم الحدودَ الأرضيةَ المحيطةَ بنفسه من الزمان والمكان ، وخرَجَ منها إلى رُوحانية لا يحدُّ فيها إلا بالله وحده .

وبالقيام في الصلاة ، يحققُ المسلمُ لِدَاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كلّهُ ، ليمتزجَ بجلال الكون ووقاره ، كأنه كائنٌ متَّصِبٌ مع الكائنات يسبِّحُ بحمده .

وبالتولَّى شَطْرَ القبلة في سَمَتِها الذي لا يتغيَّرُ على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعْرِفُ المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة ؛ فيَحْمِلُ قَلْبُهُ معنى

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها .

الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقلّتها ؛
وبالركوع والسجود بين يَدَيَّ الله ، يُشْعِرُ المسلمُ نفسه معنى السموِّ والرّفعة
على كل ما عدا الخالق من وجود الكون .
وبالجلوس في الصلاة وقراءة التحيّات الطيّبات ، يكونُ المسلمُ جالساً فوق
الدنيا يحمدُ اللهَ وَيُسَلِّمُ على نبيّه وملائكته ويشهدُ ويدعو .
وبالتسليم الذي يَخْرُجُ به من الصلاة ، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلها
إقبالاً جديداً : من جهتي السلام والرحمة .
هي لحظاتٌ من الحياة كلّ يوم في غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات
وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيق الفسّاء
خمسَ مرات كلّ يوم عن النفس ؛ فيرى المسلمُ من ورائه حقيقة الخلود ،
فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتّسع ؛
هي خمسُ صلّوات ، وهي كذلك خمسَ مرّات يَفْرَعُ فيها القلبُ بما
امتلاً به من الدنيا ، فما أدقّ وأبعدُ وأصدقُ قولَه (صلى الله عليه وسلم) :
« جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(١) .

* * *

لم يكن الإسلامُ في حقيقته إلا إبداعاً للصّيغة العمليّة التي تنتظم الإنسانيةُ
فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كلّها حراساً على القلب المؤمن ، كأنها ملائكةٌ من
المعاني ؛ وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقّع به التطوُّرُ في عالم الغريزة ، فنقله
إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخلق إلى الحقّ ، ثم سَمّا بالحقّ إلى الخير العام ؛ فهو
سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال في ثلاث منازل ، وابتعادٌ
عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق :

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المُسلّمة التي أسّسها النبي (صلى الله
عليه وسلم) دنيا أسلمت طبعُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لما أرادت
هي ؛ وكأنها قائمة بنواميس من أهلها ، لاعلى أهلها ؛ وكان الظاهرُ أن الإسلام

(١) كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة شوقه
إليها فيقول : « أرحنُها يا بلال » ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم)
وأشواق روحه العالية من قوله : أرحنُها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه .

يغزو الأمم بالعرب ويفتسحها ، ولكنَّ الحقيقةَ أن إقليما من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين .

وكان الله تعالى ألقى في رمال الجزيرة روحَ البحر ، وبعثها ببعثه الإلهي لأمره ، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) هو نقطة المدِّ التي يفورُ البحرُ منها ، وكان المسلمون أمواجه التي غُسلت بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأولون كلامَ الله (تعالى) في كتابه ، وكلامَ رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقَّون الحكمَ النافذَ المقضى ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدها ، بل روعةَ أمرِ السماء في بلاغة ؛ واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوة المدِّ ، ثم كما يُمسِدُ بعضها بعضاً في قوة واحدة .

وحقَّقوا في كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسي ؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطليها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيءُ لا شيء .

ورأوا في إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطةَ الثابتةَ فيما يتصَّاربُ من خيالات النفس ؛ فكانوا أكبرَ علماء الأخلاقِ على الأرض ، لا من كُتُبٍ ولا علمٍ ولا فلسفة ، بل من قلبِ نبيهم وحده .

وعرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تَمَّتْ هذه الرجولةُ تمامها في إنسان ، رجعت له الطفولةُ في رُوحه ، وامتلكت تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء فأصبح كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخطوات مُسدَّدة لا تنزيع ولا تنحرف ، فلا شرّاً ولا ذيلة ؛ ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً ، ما دامت في قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقر ولا غنى مما يشعُرُ الناسُ بمعانيه ، بل كلُّ ما أمكنَ فهو غنىٌ كامل ، إذ لم تعدِ القوةُ في المادة تزيد بزيادتها وتنقصُ بنقصها ، بل القوةُ في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قُوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلِّبة ، حتى لتجعلُ من النور والهواء ما يؤثِّدُ به مع الخبزِ القسَّار ، كما يؤثِّدُ باللحم وأطياب الأطعمة ^(١) .

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة على (أم هانئ) وكان جائعاً ، فقال لها : « أعتلك طعام آكله ؟ » فقالت : « إن عندي لكسر أياصة ، وإني =

وبذلك لا تتسلط ضرورة* على الجسم - كالجوع والفقر والألم ونحوها - إلا كان تسلطها كأنه أمر* من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم: أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضراء؛ لو قالت شيئاً لقالت: إن ثروتي في الحياة هي الحياة نفسها، فليس لي فقر ولا غنى، بل طبيعة أولاً طبيعة.

* * *

ولقد كان المسلم يضرب بالسيف في سبيل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه؛ فما يحسها إلا كأنها قبيل أصدقاء من الملائكة يلتقونه ويعانقونه!

وكان يبستلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المرزأ المبستلى يعرف فيه الحزن والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظافر في بطله العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح، فهي جراح وتشويه وألم، وهي شهادة النصر!

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسباب قوة وسمو؛ كالتسمر المخلوق لطبقات الجو العليا، ويحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين.

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) مشكلتهم الأعلى، وأقرها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله - أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره، فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة، تجعل المسلم وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها.

المسلم إنسان ممتد بمنافعه في معناه الاجتماعي حول أمته كلها، لا إنسان ضيق مجتمع حول نفسه بهذه المنافع؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية

«متحبي أن أقدمها إليك» فقال: «ها هي!»، فكسرها في ماء، وجاءته بملح، فقال: «ما من إدام؟» فقالت: «ما عتدي إلا شيء من خل.» فقال «هلميه!» فلما جاءت به صبه على يده فأكل منه، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «نعم الإدام الحل يا أم هانئ، لا يتقر بيت فيه حل» ٥١.

كالتاجر من التاجر ؛ تقول الأمانة لكليهما : لا قيمة لميزانك إلا أن يُصدَّقَ مِيزَانُ أَخِيكَ .

ولن يكون الإسلامُ صحيحاً ناماً حتى يجعلَ حاملته مثلاً من نبيه في أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته : يتقهرها مرةً وتقهره مراراً ؛ ولكن طبيعة تضبط شخصها فهي قانون وجوده .

لا يضطرب من شيء ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟

لا يخاف من شيء ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟

لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا في طبيعة مَخَالِبِكَ وَأَنْيَابِكَ . . . ؟

وحى الهجرة *

إن التاريخ ليتكلم بلغة أوسع من ألفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نواميس الوجود ، صُورت فيها النفس الإنسانية كيف اعتُورت أغراضها ، وكيف مدت في نَسَقِها ، وكيف تغلغت في مسالكها ، وما تأتت لها فجرت به متجراها ، وما دفعها فاندردت منه إلى متقارها ؛ فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه ، ولكنه أحوال من الوجود تعترضها فتغير عليك حسك بإلهامها وأحلامها ، وتناولها من ناحية فتتناولك من الأخرى ؛ فإذا الكلمة من ورائها معنى ، من ورائه طبيعة ، من ورائها سبب وحكمة ؛ وإذا كلُّ حادثة فيها إنسانيتها وإلهيتها معاً ، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حدَّ الثانية بخطرتين ، وحدَّ الدقيقة من عدد محدود من الثواني ، وحدَّ الساعة إلى حد اليوم ؛ وإذا البيان في نفسك من كل هذه الحواشي ، وإذا التاريخ فيما تقرأه مُفَنَّسٌ في ظاهره وباطنه يتنقى عليك من ألفاظه ومعانيه بظلال هي صلتك أنت أيها الحى الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبري لأكتب عنه هذه الكلمة ، فلم أكن - علم الله - في كتاب ولا في حكاية ، بل في عالم انبثق في نفسي مخلوقاً تاماً بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهله جميعاً ؛ كما يرى المحبُّ حبيبته : لا يكون الجميل في محل إلا امتلاً مكانه بعاشقه ، فهو مكان من النفس ، لامن الدنيا وحدها ، وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة ، وكما هي في الحب بمظهر الروح .

وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح ، متى أنت سموت إليها رأيت فيها غير المعنى يُخرج معنى ، ومن لا شيء تُخلق أشياء ، لأنك منها اتصلت بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها ؛ فيصير التاريخ معك فن الوجود الإنساني على الوجه الذي أفضت به الحكمة إلى الحياة لتستمر بالنفس الإنسانية ، لافن علم الناس على الوجه الذي أفضت به الحوادث مما بين الحياة والموت .

* * *

نشأ النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة ، واستُنْبِيء على رأس الأربعين من سنِّه ، وغبَّر ثلاثَ عشرةَ سنةً يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة ؛ فلم يكن في الإسلام أولَ بَدْءِته إلا رجلٌ وامرأةٌ و غلام : أما الرجل فهو هو (صلى الله عليه وسلم) ، وأما المرأةُ فزوجُه خديجة ، وأما الغلام فعليّ ابن عمه أبي طالب . ثم كان أولُ النموِّ في الإسلام بِحُرٍّ وعبد : أما الحرُّ فأبو بكر ، وأما العبد فبِلال ، ثم اتسقَ النموُّ قليلاً قليلاً بِبُطءِ الهموم في سيرها ، وصبر الحرِّ في تجلده ؛ وكأنَّ التاريخَ واقفٌ لا يتزحزح ، ضيق لا يتسع ، جامدٌ لا ينمو ؛ وكأنَّ النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) أخو الشمس : يطلعُ كلاهما وحده كل يوم . حتى إذا كانت الهجرة من بَعد فانتقل الرسول إلى المدينة ، بدأت الدنيا تَتَقَلَّقُ ، كأنما مرَّ بقدمه على مركزها فحرَّكها ؛ وكانت خطواتُه في هجرته تَخْطُ في الأرض ، ومعانيها تَخْطُ في التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكة والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

لقد كان في مكة يَعْرِضُ الإسلامَ على العرب كما يُعْرِضُ الذهبُ على المتوحشين : يَروْنَه بِرَيْقًا وشُعاعًا ثم لا قيمةَ له ، وما بهم حاجةٌ إليه ، وهو حاجة بني آدم إلا المتوحشين ، وكانوا في المحادَّة والمخالفة الحمقاء ، والبلوغ بدعوته مبلغُ الأوهام والأساطير — كما يكون المريضُ بذات صدره مع الذي يدعوه في ليلة قارَّة إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكةُ هذه صخرًا جغرافيًا يتحطم ولا يلين ، وكأنَّ الشيطانَ نفسَه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصدَّ به التاريخَ الإسلامي عن الدنيا وأهلها .

وأودى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكذَّب وأهين ، ورَجَفَ به الوادى يخطو فيه على زلازلٍ تتقلَّب ، ونابدَه قومه وتذامروا فيه ، وحضَّ بعضهم بعضاً عليه ، وانصَفَقَ عنه عامةُ الناس وتركوه إلا من حفظَ اللهُ منهم ؛ فأصيب كبيراً باليُسْتَم من قومه ، كما أصيب صغيراً باليُسْتَم من أبويه .

وكان لا يسمع بقادمٍ يقدِّمُ من العرب له اسمٌ وشرفٌ ، إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض نفسَه عليه ؛ ومع ذلك بقيت الدعوةُ تلوح وتختفي كما يَشْتَقُّ

البرقُ من سحابة على السماء : ليس إلا أن يُرى ثم لا شيء بعد أن يُرى !

* * *

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة في جملة معناه ، غيرَ أني لم أقرأه تاريخاً ، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية ، وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض ؛ مقدمةٌ من الحوادث والأيام تحيا وتمرُّ في نسق الرواية الإلهية المنظوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمةُ الله تعملُ بقسوة ، وحكمةُ الله تتجلّى في غموض ؛ فلو أنت حققتَ النظرَ لرأيتَ تاريخَ الإسلام يتألّه في هذه الحقبة ، بحيث لا تقرؤه النفسُ المؤمنةُ إلا خاشعةً كأنها تصلّي ، ولا تندبره إلا خاضعةً كأنها تتعبّد .

بدأ الإسلامُ في رجل وامرأة و غلام ، ثم زاد حرّاً وعبداً ؛ أليست هذه الخمسُ هي كلّ أطوار البشرية في وجودها ، مخلوقةٌ في الإنسانية والطبيعة ، ومصنوعةٌ في السياسة والاجتماع ؛ فها هنا مطلعُ القصيدة ، وأولُ الرمز في شعر التاريخ .

وَأَبَتْ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يَبْغِيهِ قَوْمُهُ إِلَّا شَرًّا ، على أنه دائبٌ يطلبُ ثم لا يجد ، ويَعْرُضُ ثم لا يُقْبَلُ منه ، وَيُخْفِقُ ثم لا يَعْتَرِيهِ اليأس ، وَيَجْهَدُ ثم لا يَتَخَوَّنُهُ المَلَلُ ، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرّف ، ومعزماً لا يتحوّل ؛ أليست هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية أظهرها اللهُ كلّها في نبيه ، فَعَمِلَ بها وثبتَ عليها ، وكانت ثلاثَ عشرةَ سنةً في هذا المعنى كعمر طفل وُلِدَ ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث ، حتى تسلّمتَه الرجولةُ الكاملةُ بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟

أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلمُ المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم : غِيَاةً في قلبه ، وقوّته في إيمانه ، وموضعه في الحياة موضعُ النافع قبل المنتفع ، والمصلح قبل المقلّد ؛ وفي نفسه من قوة الحياة ما يموتُ به في هذه النفسُ أكثرُ ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع ؟

ثم أليست تلك العواملُ الأخلاقيةُ هي التي أُلقيتُ في منبع التاريخ الإسلامي ليعبَّ منها تيارُه ؛ فتدفّعه في مجراه بين الأمم ، وتجعلُ من أخص

الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا — الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم ، وعلى الحق وإن لم يتحقق ؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحَّت عليها النفس ، واحتقار الضعف وإن حَكَمَ وتسلَّط ، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب ، وحمل الناس على مَحْض الخير وإن رَدُّوا بالشر ، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء ، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة ، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطَّمه كلُّ ما حوله ؟

ثم هي هي البرهانات القائمةُ للدهر قيامَ المنازة في الساحل — على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) : تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه رُوحٌ وغاياتُها المحتومة بالقدر ، لاجسَمٌ ووسائلُه المتغلبَةُ بالطبيعة ؛ ولو كان رجلاً ابتعثته نفسه ، لتَمَحَّلَ الحيلَ لسياسته ، ولأَحْدَثَ طمعاً من كل مَطْمَع ، ولرَكَدَ مع الحوادث وهَبَّ ، ولما استمر طوالَ هذه المدة لا يتجه وهو فردٌ إلا اتجاه الإنسانية كلها كأنما هو هي .

ولو هو كان رجلَ الملِّك أو رجلَ السياسة ، لاستقام والتَّوَي ، ولأدرك ما يبتغي في سَنَوَات قليلة ، ولأوجد الحوادثَ يتعلق عليها ، ولما أَفْلَتَ ما كان موجوداً منه يتعلق به ، ولما انتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطةً فيهم ، ولا ترك عوامل الزمن تُسَعِّدُه وهي كانت تُدْنِيه .

قالوا : إن عمه أبا طالب بعث إليه حين كلمته قُريش فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبَّقَ عليَّ وعلى نفسك ، ولا تَحْمِلْنِي من الأمر ما لا أُطِيق . فظن رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاءٌ^(١) ، وأنه خاذِلُهُ ومُسْلِمُهُ ، وأنه قد ضَعُفَ عن نُصْرَتِهِ والقيام معه ، فقال : يا عمَّاه ، لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظْهِرَهُ اللهُ أو أَهْلِكَ فيه ما تركته . ثم استعبرَ (صلى الله عليه وسلم) فبكى !

يا دموع النبوة ! لقد أثبتت أن النفسَ العظيمةَ لن تتعزى عن شيء منها بشيء من غيرها كائنًا ما كان ، لا من ذهب الأرض وفضَّتها ، ولا من ذهب

(١) أي نشأ له رأى جديد فيه ، وهذا كما يقولون : رجع عن رأيه .

السماء وفضتها إذا وُضِعَت الشمسُ في يد والقمرُ في الأخرى .

وكلُّ حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزمنِ على أنه زمنُ نبيٍّ ، لازمنُ ملكٍ أو سياسيّ أو زعيمٍ ؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقينَ الثابت ليس يقينَ الإنسان الاجتماعيّ من جهة قوته ، بل يقينَ الإنسان الإلهيّ من جهة قلبه ؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدينَ ليس من العقائد الموضوعية التي تنشرها عدوى النفس للنفس ؛ فهذا هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنةً أكثرَ مما تبلغ أسرةٌ تتوالد في هذه الحِقْبَةِ ؛ ودليل الإنسانية على أنه وحى الله بإيجاد الإخاء العالميّ والوحدة الإنسانية . أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحقُّقه في العالم ؟

ثلاث عشرة سنة ، كانت ثلاثة عشر دليلاً تثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ليس رجلَ ملك ، ولا سياسة ، ولا زعامة ؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل ؛ وليس مبتدعٌ شريعةٍ من نفسه ، وإلا لما غبّر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله ؛ وليس صاحبُ فكرةٍ تعملُ أساليبُ النفس في انتشارها ؛ ولو كانه لحملهم على محضها ومزوجها ؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان لجعل إيمانَ يومٍ كُفِّرَ يومٍ ؛ وليس مُصلِحَ عشيرةٍ يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسةٌ ومخادعة ، ولا رجلَ وطنه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخَ جبل فيها ، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلالَ السماء على الأرض ، ولا رجلَ حاضره إذ كان واثقاً دائماً أن معه الغدَ وآتيه ، وإن أدبر عنه اليومُ وذاهبه ؛ ولا رجلَ طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، ولا رجلَ شخصيته يستهوى بها ويسحر ، ولا رجلَ بطشه يغلب به ويتسلط ، ولا رجلَ الأرض في الأرض ، ولكن رجلَ السماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة : قبض عنه أطراف الزمن ، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة ، لا تصدُرُ به الأمور مصادرها كي تُثبت أنها لا تصدر به : ولا تستحقُّ به الحقيقة لتدلَّ على أنها ليست من قوته وعمله .

وكان (صلى الله عليه وسلم) على ذلك - وهو في حدود نفسه وضيق

مكانه - يتسع في الزمن من حيث لا يَرَى ذلك أحدٌ ولا يعلمه ، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه - قبل أن تُشرقَ على الدنيا بثلاثَ عشرةَ سنة - مشرقةً في قلبه (صلى الله عليه وسلم) .

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه ، لأنه من سَيَر الكون كله ؛ والسحابة لا يُشْعِلون برقها بالمصابيح ، ومع النبي من مثل ذلك برهانُ الله على رسالته ، إلى أن نزل قوله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينَ كُلُّهُ لِلَّهِ » فحلَّ الفصل ، وانطلقت الصاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبيعياً أن يطرّد التاريخ بعدها ، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرت به : أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك !

فلسفة قصة *

ماتت خديجة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ومات عمُّه أبو طالب في عام واحد ، في السنة العاشرة من النبوة ، فعظمت المصيبة فيهما عليه ، إذ كان عمُّه هذا يمنعه من أذى قريش ، ويقوم دونه فلا يخلُصون إليه بمكرهه ؛ وكان أبو طالب من قُريش كالعقيدة السياسية : هي بطبيعتها قوةٌ نافذةٌ على قوة القبيلة ؛ فمن ثَمَّ كان هو وحده المشكيلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدةً في حلها ، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته ، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسيّر عنهم في القبائل ؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم ، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة ، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم ، ولكنهم يبالون بالكلمات المجرحة .

فكان من لطيف صنع الله للإسلام ، وعجيب تدبيره في حماية نبيه (صلى الله عليه وسلم) - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة ، تشتغل بها سخافات قريش ، وتكون عملاً لفراغهم الروحي ، وتُسبب فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون ؛ فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة .

أما خديجة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم ، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كلُّ الناس (لا) ؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تُعطى الرجل ما نقص من معاني الحياة ، وتلد له المسرات من عواطفها كما تلد من أحشائها ، فالوجود يعمل بها عملين عظيمين : أحدهما زيادة الحياة في الأجسام ، والآخر إتمام نقصها في المعاني .

* * *

وموت أبي طالب وخديجة ، أفرد النبي (صلى الله عليه وسلم) بجسمه وقلبه ،

ليتجردَ من الحالة التي يَغْلِبُ فيها الحسُّ ، إلى الحالة التي تَغْلِبُ فيها الإرادة ، ثم ليخرجَ من أيام الاستقرار في أرضه ، إلى الأيام المتحركة به في هجرته ؛ ثم لينتهى بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة ، فيتصلَ من ذلك بأول عالميته الكبرى .

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليلُ العظيمُ من أسمى خلال الجلال والعظمة ، ليكونَ أولُ أمره شهادةً بكماله . فكانت الحسنة فيه بشهادة السيئة من قومه ؛ فحليمةُ بشهادة رعونتهم ، وأناتهُ بدليل طيشهم ، وحكمتهُ ببرهان سفاهتهم ؛ وبذلك ظهر الروحانيُّ روحانيًّا في المادة .

قالوا : فالتُّ منه قريش ، ووَصَلُوا من أذاهُ إلى ما لم يكونوا يصلُّون إليه في حياة عمه ، حتى نثرَ بعضُهم الترابَ على رأسه ، كأنما يُعلمونه أنه أهونُ عليهم من أن يكونَ حرًّا ، فضلاً عن أن يكونَ عزيزاً ، فضلاً عن أن يكونَ نبياً ؛ قالوا : فدخل رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) بيتهُ والترابُ على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسلُ عنه الترابَ وهي تبكي !

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا الترابَ على رأس النبيِّ العظيم هو سُذُودُ الحياة الأرضية الدنيئة ، في مقابلةٍ لإنسانيتها الشاذَّ المنفرد . هذه القَبْضَةُ من التراب الأرضي قبضةٌ سفيهةٌ ، تحاولُ رَدَّ الممالك الإسلامية العظيمة أن تَنشَأَ نشأتها وتعملَ عملها في التاريخ ؛ فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها ، كعقل قُريش حينئذ في مقداره وسخافته ومحاولته .

أما النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) فقال لبنته : « يا بِنْتِي لا تبكي ، فإن الله مانعٌ أباك » . حسبَتْ ذلك هواناً وضِيعَةً ، فأعلمها أن قبضةً من التراب لا تَطْطُمُ الرِّجْمَ ، وأن هذه الحشوةُ الترابيةَ لا تُسمِّيَ معركةً أثارَتْها الخيلُ فجاءت بنتيجةً ، وأن ساعةً من الحزن في يوم ، لا يُحْكَمُ بها على الزمن كله ، وأن هذه النزوة التي تحركت الآن هي حمقُ الغباوة : قوتها نهايتها .

« يا بِنْتِي لا تبكي فإن الله مانعٌ أباك » . أي ليس للنبي كبرياء ينالها الناسُ أو يَغْضُون عنها فيأتى الدمعُ مترجماً عن المعنى الإنساني الناقص مُشْتَبِهاً أنه ناقص ؛ إنما هي النبوةُ : قانونها غيرُ ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان ، وهي

النُبوّة : تجعل المختارَ لها غيرَ محدود بجسده الضعيف ، بل حدودُه الحقائقُ التي فيها قوّتها ؛ فهو في مَنعَةِ الواقع الذي لا بد أن يقع ، فلو أمكن أن يُحذفَ يوم من الزمن أو يؤخَّرَ عن وقته ، أمكن أن يؤخَّرَ النبي أو يُحذفَ .

« يا بنيةُ لا تبكى إن الله مانعٌ أباك » . لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌّ وسعَ التاريخَ في نفسه الكبيرة قبل أن يُوجدَ هذا التاريخُ في الدنيا ؛ فكلّمته هي الإيمانُ والثقةُ إذ يتكلم عن موجود .

ترابٌ ينشرُه سفيهٌ على رأس النبي ! ويحكِ يا حقارةَ المادة ؛ إن ارتفاعك لعنة ، إن ارتفاعك لعنة .

* * *

قالوا : وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحده إلى الطائف ، يلتمس من تُثَقِّف النصرَ والمنعَةَ له من قومه ؛ فلما انتهى إلى الطائف عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيف هم يومئذ ساداتهم وأشرفهم ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته والقيام معه في الإسلام على من خالفه من قومه ؛ فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدَهم يسبُّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناسُ وألجأوه إلى حائط^(١) لعُتْبَةَ بنِ ربيعة وشَيْبَةَ بنِ ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد (صلى الله عليه وسلم) إلى ظل حُبَيْلَةَ من عَنَسِبَ فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من السفهاء .

فلما اطمأنّ (صلى الله عليه وسلم) في مجلسه قال : « اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقلةَ حيلتي ، وهواني على الناس ؛ يا أرحمَ الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربّي ، إلى من تكلّمتُ ؛ إلى بعيد يتجهّمُني ، أو إلى عدوّ ملكته أمرى ؛ إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسعُ لي . أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلّح عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ عساي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك ! »

* * *

(١) الحائط : البستان ، وجمعه حوائط .

ألا ما أكملَ هذه الإنسانيةَ التي تُثبت أن قوةَ الخُلُق هي درجةُ أرفعُ من الخُلُقِ نفسه ؛ فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط ، وفنُّ الحِلْمِ لا الحِلْمُ وحده .
قوة الخُلُق هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخه لا متقلّباً في تواريخ الناس ، محدوداً بعظائم شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصيه الفاني ،
ناظراً في الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغيّر للمنفعة .

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤُهم وعبيدُهم إلا معاني الظلم ، والشر ،
والضعف ، تقول للنبي العظيم الذي جاء يحوها ويدلّ منها : إننا أشياء ثابتة
في البشريّة .

لم يكن منهم الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ ، بل كان منهم العسَفُ ،
والرق ، والطّيش ؛ تَسْخَرُ ثلاثُها من نبي العدل ، والحرية ، والعقل ؛ فها
تَسْخَرُ إلا من نفسها .

صغائر الحياة قد أحاطت بمجد الحياة ، لتُثبت الصغائرُ أنها الصغائر ،
ولتُثبت المجدُ أنه المجد .

كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديّتين أبداً على الأرض : إحداهما عِشٌّ
لتأكلَ وتستمتعَ وإن أهلكَتْ ؛ والأخرى عِشٌّ لتعملَ وتنفعَ الناسَ وإن
هلكَتْ .

كانت الأقدارُ تُبَادِي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحَ الضيقَ ، لينطلقَ
الواسعُ من مكانه ويستقبلَ الدنيا التي عليه أن يُنشئها . فأولئك الأشرافُ
والسفهاءُ والعبيدُ إن هم إلا الضيقُ ، والركودُ ، وذلُّ العيش ، حولَ السَّعةِ
الروحيةِ ، والسموِّ ، وطهارةِ الحياة .

وقف المعنى الساموُ بين معاني الأرض ؛ ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على
الترابِ فلا يُعَقِّرُهُ الترابُ ، وما هو بنورِ بضئٍ أكثرَ مما هو قوةٌ تعملُ
بالعناصر التي من طبيعتها أن تحوّلَ ، في العناصر التي من شأنها أن تتحوّلَ .

وكان بين النبي (صلى الله عليه وسلم) وبين أولئك المستهزئين قوةٌ أخرى ،
هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبي للعالم كله ، وبهذه القدرة لم ينظر النبي إلى قريش
وصوتهم عليه إلا كما ينظر إلى شيءٍ انقضى ، فكان الوجودُ الذي يُحيط به غيرَ
موجود ، وكانت حقيقةُ الزمن الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقة .

وإلى هذه القدرة توجّه النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك الدعاء البليغ الخالد ، يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلة الحيلة ، فينطقُ الإنسانُ فيه بالشَّطر الأول من الدعاء يذكر انفرادَه وآثارَ انفراده ، ويتوجعُ لما بينه وبين إنسانية قومه ؛ ثم ينطقُ الروحانيُّ فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجِّهًا إلى مصدرِهِ الإلهي قائلاً :
أول ما يقول : إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي .

ولعمري لو نطقَت الشمسُ تدعو الله لما خرجتُ عن هذا المعنى ولا زادت على قوله : « أعوذُ بنور وجهك » ؛ تلتمسُ من مصدرِ النور الأزلَى حيَاطة وجودها الكامل .

* * *

ولقد هزءوا من قبلُ بالمسيح (عليه السلام) فقال للساخرين منه : ليس نبيُّ بلاكرامة إلا في وطنه وفي بيته . وبهذا رد عليهم ردَّ من انسلخَ منهم ، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم ، وأخذهم بالشرِعةِ الأدبية لا العملية ؛ إذ كان (عليه السلام) كالحكمة الطائفة ليست لكلِّ قلب ولا لكلِّ عقل ، ولكنها لمن أعدَّ لها ؛ وشرِيعته أكثرها في التعبير وأقلُّها في العمل ، ولم تجيء بالقوة العاملة فلم يكن بدَّ من أن تتَّصَعَ الموعظة في مكانِ السيف ، وأن تكونَ قائمةً على النهي أكثر مما هي قائمة على الأمر ، وأن تكونَ كشمس الشتاء الجميلة : لا تغلِي بها الأرض ، وإنما عملُها أن تمهِّدَ هذه الأرضَ لفصلٍ آخر .

أما نبينا (صلى الله عليه وسلم) فلم يُجب المستهزئين ، إذ كانت القوةُ الكامنةُ في بلاد العرب كلَّها كامنةً فيه ، وكان صدره العظيمُ يحملُ للدنيا كلمةً جديدةً لا تقبلُ الدنيا أن تعامله عليها إلا بطريقتها الحربية ؛ فلم يردَّ الشاعر الذي يُريد من الكلمة معناها البليغ ، ولكنه سكت سكوتَ المشتَرع الذي لا يريد من الكلمة إلا عملَها حين يتكلم ؛ وكان في سكوته كلامٌ كثيرٌ في فلسفة الإرادة والحرية والتطور ، وأن لا بد أن يتحولَ القومُ ، وأن لا بد أن يتغيَّرَ هذا الشجرُ الأبجدُ عن ورقٍ جديد أخضر ينمو بالحياة .

لم يتسخَّط ولم يقل شيئاً ، وكان كالصانع الذي لا يردُّ على خطأ الآلة بسخَّط ولا بأس ، بل بإرسال يده في إصلاحها .

* * *

قالوا : ورأى ابنا ربيعة ، عَتْبَةُ وشَيْبَةُ ما لقي النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) من السفهاء ، فتحركتْ له رَحِمُهُمَا ، فدَعَا غلامًا لهما نَصْرَانِيًّا يقال له عَدَّاسُ ، فقالا له : خذ قِطْفًا من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلُ منه . ففعل عَدَّاسُ ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلما وضعَ يده قال : « بسم الله » ثم أكل ؛ فنظر عَدَّاسُ إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا لكلامُ ما يقوله أهل هذه البلدة . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ومن أهلِ أَىِّ البلادِ أنت يا عَدَّاسُ وما دِينُكَ ؟

قال : أنا نَصْرَانِيٌّ وأنا رجلٌ من أهلِ نَيْنَوَى . فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : من قرية الرجل الصالحِ يُونُسَ بنِ مَتَّى ؟ قال : وما يدريك ما يونسُ بنِ مَتَّى ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : ذاك أخي : كان نبيًّا وأنا نبيٌّ .

فأكبَّ عَدَّاسُ على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقبل رأسه ويديه ورجليه .

* * *

يا عجباً لرموزِ القَدَرِ في هذه القصة !
لقد أسرعَ الخيرُ والكرامةُ والإجلالُ فأقبلتْ تعتذرُ عن الشرِّ والسفاهةِ والطيشِ ، وجاءتِ القَبْلَاتُ بعد كلماتِ العداوةِ .

وكان ابنا ربيعةَ من ألد أعداء الإسلام ، ومن مشوا إلى أبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) من أشراف قريش يسألونه أن يكفَّ عنهم أو يُخَلِّسَ بينهم وبينه ، أو يُنَازِلُوهُ وإياه حتى يهلكَ أحَدُ الفريقين ، فانقلبَتِ الغريزةُ الوحشيةُ إلى معناها الإنساني الذي جاء به الدين ، لأن المستقبلَ الدينيَّ للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانيةُ تعانقُ الإسلامَ وتُعزِّه ، إذ الدينُ الصحيحُ من الدين

الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نَسَبَ الإِخْوَةَ الدَّمُ ونَسَبَ الأَدْيَانَ العقل .

ثم أتمَّ القدرُ رمزه في هذه القصة : بِقِطْفِ العنب سائغاً عَذْباً ومملوءاً حلاوة ؛ فباسم الله كان قِطْفُ العنب رمزاً لهذا العقود الاسلامي العظيم الذي امتلأ حباً كل حبة فيه مملكة .

فوق الآدمية*

الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغت من تسويد هذا المقال ثم أردت نقله ،
فَتَعَسَّرَ عَلَى وَصُفِّتْ عَنْهُ بِالْمُشْدِيدِ اعترانى ، ونالنى منه ثَقَلَةٌ فى الدماغ ؛ ثم
كشَفَهُ اللهُ بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ ، فإذا قلمى ينبعثُ بهذه الكلمات :
كيف يَسْتَوْطِئُ المسلمون العجزَ ، وفى أول دينِهِم تسخيرُ الطبيعة ؟
كيف يَسْتَمْتَهُدُونِ الراحةَ ، وفى صَدْرِ تاريخِهِم عملُ المعجزة الكبرى ؟
كيف يَتَرَكْنُونِ إلى الجهل ، وأول أمرِهِم آخِرُ غايات العلم ؟
كيف لا يحملون النورَ للعالم ، وبيئِهِم هو الكائنُ النورانىُّ الأعظم ؟

* * *

قصةُ الإسراء والمعراج هى من خصائصِ نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) ،
هذا النجمُ الإنسانى العظيم ؛ وهو النورُ المتجسِّدُ لهداية العالم فى حَيَرَةِ ظُلُمَاتِهِ
النفسية ؛ فإن سماء الإنسانِ تَظْلِمُ وتُضَيءُ من داخله بأغراضه ومعانيه . والله
(تعالى) قد خلق للعالم الأرضى شمساً واحدةً تُنِيرُهُ وتُحْيِيهِ وتَقْلِبُ عليه بلبله
ونهاره ، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنعَ لنفسه شمسَ قلبه وغَمَامَها وسحَابَها
وما تَسْفِرُ به وما تَظْلِمُ فيه . ولهذا سُمِّيَ القرآنُ نوراً لعملِ آدابه فى النفس ،
ووصفَ المؤمنون بأنهم « يَسْعَى نورُهُم بين أيديهِم وبأيمانِهِم » ، وكان أثرُ الإيمانِ
والتقوى فى تعبيرِ القرآن الكريم أن يجعلَ اللهُ للمؤمنين نوراً يمشون به .

وقد حار المفسِّرون فى حكمة ذكر « الليل » فى آية « الإسراء » من
قوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » ، فإن السُّرَى فى لغة العرب
لا يكونُ إلا ليلاً .

والحكمةُ هى الإشارةُ إلى أن القصةَ قصةُ (النجم) الإنسانى العظيم الذى

تحوّل من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة ، ويتم هذه العجيبة أن آيات « المعراج » لم تجب إلا في سورة : « والنجم » .

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارة إلى قصة النجم ، تكون الآية برهان نفسها ، وتكون في نسبتها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية ؛ فإذا قيل إن نجماً دار في السماء ، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تعجز الحساب ، فهل في ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظر أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يستبجح الله بذكره ؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التي نراها اتصال الوجود بعضها ببعض ؟

وأنا ما يكاد ينقضي عجبني من قوله تعالى : « لنريه من آياتنا » . مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يُخيّل إليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فإنها بهذه العبارة نصّ على إشراف النبي (صلى الله عليه وسلم) فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواسّ مما مرجّعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه ؛ بخلاف ما لو كانت العبارة : (ليرى من آياتنا) فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسّها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ، ويتطرق إليه الاعتراض ولا تكون ثمّ معجزة .

وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت ، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرأي من شكل إلى شكل كما ستعرفه ، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل ؛ فتبارك الله مُنزل هذا الكلام !

وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) نجماً إنسانياً في نوره ، فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهية في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى ؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك . فقل الآن : أيعترض على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة . . . ؟

ومن ثمّ كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية ، سما بها درجات فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرَتْ له المعاني التي تُسَخَّرُ غيره من الناس ، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه ؛ فالنار مثلاً إذا وهي

تضرمت أوجدت الإحراق فيما يحترق ، فإن وُضع فيها مالا يحترق أبطل نوايسها وغلب عليها .

وكلُّ معجزة تحدث فهذا هو سبيلها في إيجاد النوايس الخاصة بها وإبطال النوايس المألوفة ، وبهذا يقال : إنها خرقت العادة . ومن النور نور لا يشف له غير الهواء ، ومنه أشعة (رونتجن) التي تشف لها الجدران والحجب ؛ فهذه معجزة في ذلك .

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسان آخر بنوايس تجعله أقرب إلى الملائكة في روحانيتهما ، وما ينزل إنسانه الظاهر من الإنسان الباطن فيه إلا منزلة من يتلقى ممن يعطى ؛ فذاك الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثل الإنساني الأعلى ، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضمنيه ولا تغيره ولا تعجزه .

فحقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسان مختار جاءت تصلاح الوجود الإنساني به لتقير في هذه الحيوانية المهدبة مشكلها الأعلى ، بدلاليتها على طريقها النفس مع طريقها الطبيعي ؛ فيكون مع الانحطاط الرقي ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة ، ومع الظلمة المادية الإشراق الروحاني .

وما المعجزات إلا شأن تلك القوة الباطنة لا شأن إنسانها الظاهر ، ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري ؟ وهل ينكر اليوم أحد شأن هذه القوة في (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمة التي ترسل بين الشرق والغرب ، كالقوة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يبصره النائم وما يسمعه ، وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان ؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة ، على الذات الظاهرة المقيّدة بحواسها المحدودة ، فتطغى عليها ، فتصبح الحواس مطلقاً شائعة في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها .

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُّ الرجلُ الروحانيُّ بذاته الباطنة ، فيوقعُ شخصه الظاهرَ في الاستهواء ، فينكشفُ له الوجودُ ، ويُبصرُ ما يقع على البعد ، ويرى ما هو آتٍ قبل أن يأتي ؛ وما الكونُ في هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب : قد آتيتك نوراً تنظرُ به جمالي .

* * *

وفي علماء عصرنا من يفكّر في الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها ؛ وكلُّ ذلك أولُ البرهان الكوني الذي سيُلزِمُ العلمَ فيضطرُّه في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج .

ونحن قبل أن نُبدى رأينا في القصة نلّمُ بها الإمامة موجزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديثُ ووقع فيها تخليط كثير ، فجاءت فنوناً وأنواعاً من طُرُق شتى ، حتى جمعها بعضهم في جزأين^(١) ، وما تحتل كل ذلك ولا بعضه ، ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر : متى فارت فتورّها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة ، فيكون الأصلُ معنى واحداً وإذا هو يسمدُ من يمينه ويساره .

ولا يترن بذلك بأساً ؛ فإنهم يشدُّون به الرأي ، ويضاعفون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه ، فلا حرج أن يؤيد القولُ بعضه بعضاً ، باجتهاد في عبارة ، واستنباط من أخرى ، وزيادة في الثالثة مما هو بسبيل منها ، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية ؛ إذ تعدد الأساليبُ والعبارةُ مختلفة متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف . والقصاصُ الدينيُّ في هذه اللغة العربية فنٌ كاملٌ قائمٌ بنفسه ، لا يُبدعُ العقلُ والخيالُ والعاطفةُ أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب .

هذا في متن القصة ، أما في واقعيتها فقد اختلفوا اختلافاً آخر : هل كان الإسراء والمعراج يقظةً أو مناماً ؟ وبالروح وحدها ، أو بالروح والجسم معاً ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليلُ القاطع على أن النبي (صلى الله عليه وسلم)

(١) قال اللهبي : إن الحافظ عبد الغنى جمع أحاديث الإسراء في جزأين .

لم يُخبر بشيء من ذلك ، فلم يعيّن لهم وجهًا من هذه الأوجه . والحكمة في ذلك أن عقولهم لم تكن تحتل الإدراك العلمي الذي أساسه ما عُرِفَ اليومَ من أمر الكهرباء والأثير . . .

والخلاصة التي تتأدّى من القصة : أنه (صلى الله عليه وسلم) كان مضطّجِعًا ، فأتاه جبريلُ ، فأخرجه من المسجد ، فأركبه البراقَ ، فأتى بيتَ المقدس ، ثم دخل المسجدَ فصلى فيه ، ثم عُرِجَ به إلى السموات ، فاستفتحها جبريلُ واحدةً واحدةً ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء (صلوات الله عليهم) ، وصعد في سماء بعد سماء إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فغَشِيَهَا من أمر الله ما غشيا ، فرأى (صلى الله عليه وسلم) مظهرَ الجمال الأزلَى ، ثم زُجَّ به في النورِ فأوحى اللهُ إليه ما أوحى .

أما وَشئُ القصة وطرارُها فبابٌ عجيبٌ من الرموز الفلسفية الإنسانية التي يرمزُ بها إلى تجسيد الأعمال في هذه الحياة : تكونُ تَعَبًا وتقعُ فائدةً ، أو تُلْتَمَسُ منفعةٌ وشهوةٌ وتقعُ مُضَرَّةٌ وحماقةٌ ، ثم تَفْنَى من هذه وتلك الصُّورُ الزمنية التي توهمها أصحابها ، ، وتخلدُ الصُّورُ الأبديةُ التي جاءت بها حقائقها .

ومن هذه الرموز البديعةِ قولُه : فجاءني جبريلُ بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذتُ اللبن ، فقال جبريلُ : أخذتَ الفِطْرَةَ . وأنه مرٌّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ما هذا ؟ قال جبريلُ : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تُضَاعَفُ لهم الحسنةُ سبعمائة ضعِف . ثم أتى على قوم تُرَضِّخ رءوسهم بالصخر ، كلما رُضِخَتْ عادت كما كانت ولا يُفْتَرَّ عنهم من ذلك شيء ؛ فقال ما هذا ؟ قال جبريلُ : هؤلاء الذين تتناقل رءوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ في قِدر ، ولحمٌ آخِرُني في قِدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويدعون النضيج ؛ فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريلُ : هذا الرجل تكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيبُ فيأتى امرأةً خبيثةً ، والمرأةُ تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حزمةً عظيمةً لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يَحْمِلَ

عليها . ثم رأى نساء معلّقات بثديهن ؛ فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم .

* * *

ونحن على الرأي الذى عليه جمهور العلماء : من أن الإسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذى سنبيحه ؛ ويثبت ذلك قوله تعالى فى سورة (النجم) : « إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى » . فلا يكون البصر يزيعُ ويطنى إلا فى الجسم ، ولا يتنى عنه ذلك إلا وهو فى الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب فى قوله : (وما طغى) : فذلك نصٌّ على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء ؛ إذ لا يكون طغيانُ البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التى لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فزاغ البصرُ بكونه مقيداً الحاسة ، ولا طغى بكونه مُطْلَقَ الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أى كان حقيقةً كونيةً فى غير حالتها الأرضية الناقصة .

والذين قالوا إن الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس » . وقد خلط المفسرون فى هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » — وهى التى تكونُ مناماً — لئنى تأثير الحواس على الرأى ، وإثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيليتها معاً ، فليس نائماً كالنائم ، ولا مستيقظاً كالمستيقظ .

وفى أساس القصة جبريلُ والبُراقُ ؛ وهما القوةُ الملائكية والقوةُ الطبيعية ، أو الروحُ الملائكى والروحُ الطبيعى ؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً ، إذ لا يأتى للعرب أن يفهموا ما يراد منه ؛ وعندنا أنه سُمىَ البُراق من البَرَق ، وما البَرَقُ إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه ؛ فذلك قوةٌ كهربائيةٌ متى نَبَضَتْ جمعت أولَ العالمِ بآخره ؛ وهذه هى الحكمة فى أن آية الإسراء لم تذكرُ أنه كان محمولاً على شيء ، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير .

وما دامت القوةُ الملائكيةُ والقوةُ الطبيعيةُ قد سُخِّرنا له (صلى الله عليه وسلم) ،

فلا معنى لأن يكونَ ذلك للروح دون الجسم ، بل اجتماعُهما معاً في القصة دليلٌ على أن سرَّ المعجزة إنما كان في تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهمايتين الحاليتين ؛ فيتحولُ في صورة كونية ملائكية بين سرِّ الملائكة وسرِّ الطبيعة ، حينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواسِّ ولأحكامِ المادة .

ومن الممكن أن تتحولَ الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلَّلُ طيُّ الأرض لبعض الروحانيين ، وتُعَلَّلُ خوارقُ كثيرةٌ مما يتحدَّثُ في استحضار الأرواح لهذا العهد ، وما يأتيه فقراء الهند ، وما كان يصنعه «هوديني» الأمريكي : إذ كانوا يغلِّطونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويحبسونه في السجون المحصنة يقوم عليها الحراس وتمسِكُهُ فيها الأبواب والحدود ثم يجدونه في بعض الفنادق .

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه ، فإن تركيبَ الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيلُ على الأعْمى هو أيسر الممكنات على المبصر . فأنت ترى أن ذكرَ البراق والملك في أساس قصة الإسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة ، وهو عينه صلتها بالبرهان ؛ ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير .

* * *

والقصةُ بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرقُّ وينكشفُ ويستضيء كلما سما الإنسان بروحه ، ويغلُظُ ويتكاثفُ ويتحجَّبُ كلما نزل بها ، وهي من ناحية النبي (صلى الله عليه وسلم) قصةٌ تصِفُهُ بمظهره الكوني في عظَمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه هي كالدرس في أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماوى فوق هذه الدنيا ، ليشهدَ ببصيرته أنوارَ الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسَّدَ الأعمال الإنسانية في صورها الخالدة ؛ فيكونُ بتدبُّره القصةَ كأنما يصعدُ إلى السماء وينزل ؛ فيستريحُ إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة ، فيدفع عن نفسه بذلك تعقُّدَ الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح .

ومتى استنار القلبُ كان حياً في صاحبه ، وكان حياً في الوجود كله . ومتى سلِمَت الحياةُ من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الإنسان وبين الله إلا حياةٌ هي الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هي الرحمة والحب .

الإنسانية العليا *

من أوصاف النبي (صلى الله عليه وسلم) : أنه كان متواصلاً بالأحزان ، دائماً الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة ، ليس بالخاف ولا المتهين ، يُعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقيم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ؛ وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، من رآه ببديهة هابته ، ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جلسه أن أحداً أكرم عليه منه ، ولا يبطئ عن أحد من الناس يشوره ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواء ؛ يحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ؛ وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجهه ، لا يؤيس راجيه ، ولا يخيب عافيه ، ومن سألته حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ؛ أجود الناس بالخير ^(١).

* * *

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الإنساني مذهباً عنها ولا عن شيء منها ، ولا يجد النقص البشري مساعاً إليها ولا إلى شيء منها ؛ ففيها المعنى التام للإنسانية ، كما أن فيها المعنى التام للحق ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان .
هي صفات إنسانها العظيم ، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية ؛ فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته .

ولو جمعت كل أو صافه (صلى الله عليه وسلم) ، ونظمتها بعضها إلى بعض ، واعتبرتها بأسرارها العلمية — لرأيت منها كنوناً معنوياً دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم ، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت

* انظر صفحة ٢٤١ من حياة الرافعي .

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

أن هذا النبي الكريم إن هو إلا مُعْجَمٌ "نفسى" حتى أَلْفَتَهُ الحكمةُ الإلهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتخرج به الأمة التي تُبدعُ العالمَ إبداعاً جديداً ، وتُنشِئُهُ النشأة المحفوظة له في أطوار كماله .

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإلى لأكادُ كلما تأملتُها أحسبُ هذا السموَّ قضاءً وقدرًا بإنسان على الإنسانية كلها . وهي دليلٌ على أنه الإنسانُ الذى خُلِقَ للدينا لا لنفسه ؛ فهو لا ينمو بما يكونُ على الناس من الحق ، ولكن بما يكونُ للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقةٌ كونيةٌ تعيشُ عيشَها ، فما تكونُ في الوجود إلا لتقرّر وجودَها هي ، ولا تنتهى حين تنتهى بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها ، فهو (صلى الله عليه وسلم) إنسانٌ غُرِسَ في التاريخ غرساً ليكونَ حداً للزمنِ وأولاً لزمْنِ بعده ، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غُرْسِهِ ، وهو أبداً قائمٌ في مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمنُ كلما تقدم زاد في إثباته ، وقد أصبح في الدنيا كأنه جهةٌ من الجهات لا إنسانٌ من الناس ، فلن يتغيرَ أو يَمْحَى إلا إذا تغير أو مَحَى المشرقُ والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضتْ به كُتُبُ الشئائل من أمثالها ، لانقرؤها أوصافاً ولا حليّة ، بل نراها صفحةً إلهيةً مصنّفةً أبدعَ تصنيف وأدقّه ، ومن وراء تأليفها تفسيرٌ طويلٌ لا يتهدى الفكر البشرى لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل ؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماعَ الأجزاء في المسألة الرياضية : لا ينبغي أن تزيدَ أو تنقص ، إذ كان في مجموعها ما وُجِدَ له مجموعُها .

ويكاد الارتباطُ بين أجزاء المسألة يكونُ هو بعينه صورةً للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ؛ فإن كلَّ جزء منها موضوعٌ وضعاً لا يتم الكلُّ إلا به ، حتى لا موضع فيها لقلة أو كثرة ؛ وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وسلم) : « أدبني ربى فأحسن تأديبى » ، وأنت إذا دققت في هذا الحديث أدركت من معناته أن هناك طبيعةً أخلاقيةً مفردةً تَجْرى على قانونها الذى وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجبُ ما يُدهِشنا من مجموع صفاته (صلى الله عليه وسلم) أن فيها دليلاً بيّناً على أنه مخلوقٌ خلقةٌ متميزةٌ بنفسها ، كخلقة القلب الإنسانى : نظامه حياته وحياته نظامه ، وكأنما اعترته حالةٌ نفسيةٌ كالتى تعترى القلب فى استشعار الخطر فتُخرجه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزال يُمدُّ أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والصبر . يجعلُ الحياةَ فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءةً وظهرت بغته ؛ وفى هذه الحالة تتجه غرائزُ النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدرةٌ بميزان ، مضبوطةٌ بقياس ؛ فتَرجعُ على تناقضها واختلافها مُتعاونة يُؤازرُ بعضها بعضاً ، وكان قانونُها الطبيعى أن تتجاذب وتساوِط وتفسرُ الواحدة منها عملَ الأخرى ، فيجىء بها الشئ وضدّه معاً : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات النائرة والخمود الساكن ، إلى آخر ما تعدُّ من هذه الغرائز ؛ ولكنها فى استشعار الخطر تكون كالأشياء لا كالأضداد ، فيشدُّ بعضها بعضاً ، ويتم التقيضُ منها تقيضه ، وتَجْرى كلها فى قانون واحد : هو الدفاعُ بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازعَ منها وإنه لمستقرٌّ فى أشدِّ من القيد ، وكأن فيه غيرَ طبيعته .

وهل يُنبئك مجموعُ صفاته (صلى الله عليه وسلم) إلا أنه يعيشُ معيشةَ القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتاتُ الوجود فتَجَاوَزَ أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكونَ حافظاً للحياة فى منبعها ؟

وتلك الحالةُ — كما مرَّ بك — تجعلُ وجودَ الإنسان هو وجودَ إرادته وعقله ، لا وجودَ شهواته وغرائزه ؛ وكذلك عاش نبينا (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو مدةَ حياته فى وجودَ إرادته لا غيرها ، حتى ليس عليه سبيلٌ لغَمِيْزَةٍ أو لَأَمَةٍ ، كأنه خلُقُ تشدُّه نيةٌ مستيقظةٌ قد نبَّهها ما ينبه النفس من الغرر والخطر . ولعلَّ هذا المشعورُ فى نفسه (صلى الله عليه وسلم) هو التفسيرُ لقوله : « نيةُ المؤمن خيرٌ من عمله » . إلى أحاديث كثيرة مما يجرى فى معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : أن نيةَ المؤمن لا تنطوى إلا على الخير الكامل ، فهو — ما دامت نيته على صلاحها وسيره على إخلاصه — لا يَعدُّ اليسيرَ من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثيرَ من الخير كثيراً ؛ فالأصلُ القائمُ فى تلك النية المؤمنة ألاَّ يبدأ الشرُّ كى

لا يوجد ، وألاّ ينتهى الخير كى لا يفنى ؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً ، فى حين أن عمله بطبيعته الإنسانية يتناول الخير والشر جميعاً ، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء .

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتى الخير فى بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن يتنوّيه ويرغّب فيه ويعزّم عليه ، ليحقق ضميره فى كل ما يتهم به ؛ ويحصّر أفكاره فى قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساس فى علم الأخلاق ، لا أساس من دونه .

والنية من بعد هى حارس العمل ؛ فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى ، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعة من ناحية ، واستجابة ومطابقة من الناحية الأخرى ؛ فهى على الحقيقة متى صلّحت كانت استقلالاً تاماً للإرادة ، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الإرادة على حال واحدة هى التى ينظم بها قانون المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النية الصحيحة المستقيمة ؛ فالتزوير والتلبس كلاهما سهل ميسور فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خلصت .

وهى كذلك ضابط للفضائل وتوجه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف ؛ فيكون طريق ما بين الإنسان والإنسان ، من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله .

وأشواق الروح بطبيعتها لا تنتهى ، فيعارضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية ؛ يحاول أن يطمس بهذه على تلك ، وأن يغلب الحيوانية على الروحانية ، فإذا كانت النية مستيقظة كفته وأماتت أكثر نزعاته ، ووضعت لكل حاجة حداً ونهاية ؛ وبذلك ترجع النية إلى أن تكون قوة فى النفس يخرج بها الإنسان عن كثير مما يحده من جسمه ، ليخرج بذلك عن كثير مما يحده من معانى الأرض . . .

وهى بعد هذا كله تحمل الإنسان أن ينظر إلى واجبه كأنه رقيب حتى فى قلبه ، لا يرائيه ولا يجامله ، ولا يسخّده من تأويل ، ولا يغتر بفلسفه ولا تزيين ،

ولا يُسَكِّتُهُ ما تُسَوِّلُ النفس ، ولا يزالُ دائماً يقولُ للإنسان في قلبه : إن الخطأ أكبرُ الخطيئة أن تنظّمَ الحياةَ من حولك وتتركَ الفَوَاضِي في قلبك .
وجملةُ القول في معاني النسيّة أنها قوةٌ تجعلُ باطنَ الجسمِ مُتَسَاوِقاً مع ظاهره ،
فتتعاونُ الغرائزُ المختلفةُ في النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطّرداً ، كما تتعاونُ أعضاء
الجسم على اختلافها في اطرادٍ وسهولة وطبيعة .

* * *

وكلُّ صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) — مما ذكرناه وما لم نذكره —
متى اعتُبرتْ بذلك الأصل الذي بيّناه انتظمها جميعاً ، فجاء بعضها تماماً على
بعض في نَسَقٍ رياضيٍّ عجيب ، وظهرت حكمةُ كل منها واضحةً مكشوفةً ،
ورأيتها في مجموعها تصف لك عُمرًا هندسيًا دقيقًا قد بلغ الغاية من الكمال
والروعة والدقة ، لا يُعَدُّ جزء منه جزءاً ، بل كلّهُ أجزاء ، وأجزاؤه كلّهُ ؛ كالوضع
الهندسي : إما أن يكونَ بِكُلِّهِ ، وإما ألا تكونَ فيه الهندسةُ كلّها .

وليس مجموعُ تلك الصفات في معناه إلا صنعةُ الإنسان صنعةً جديدةً
تُخرِجُهُ موجوداً من ذات نفسه ، وتُكسِرُ القالبَ الأرضيَّ الذي صُبَّ فيه
وتُفَرِّغُهُ في مثل قالبِ الكَوْنِ ، فإذا هو غيرُ هذا الإنسان الضيق المنحصر في
جسمه ودَاعِي جسمه ، فلا تُخضعُهُ المادة ، ولا يُؤتَى من سوء نظره لنفسه ،
ولا تغرُّه الدنيا ، ولا يُمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه
لا الحرِّ فيها ، والخاضع بنفسه لا المستقل بها ، والمقبور في إنسانيته لا الحيّ فوقَ
إنسانيته ؛ ومثلُ هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجودَ له إلا في حكمِ حواسِّه ،
فعملُهُ ما يعيش به لا ما يعيشُ من أجله ؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً ينتهي
في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكونَ في الإنسان الاجتماعيّ حيوانٌ ، تقابلهُ الحكمةُ
في الحيوان الأليف بإنسان ، وحكهماً واحداً ومنطقهما لا يختلف . فلو أنك
سألتَ حيوانَ الأعصاب على صاحبه الإنسان لقال لك : هو غلّتي ومزّعتي .
ولو سألتَ كلباً عن حبه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه
على أنه يحبه حبّ اللقمة والعظيمة . . .

ومتى كان الإنسانُ في حكم حواسه لم تعد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وانقلبت كما هي في وهمه بمعانٍ متفاوتة مضطربة ، فلا يشعر المرءُ بائتلاف الوجود وتعاونهِ ، ولكن باختلافه وتناقضه ، فمن ثمَّ لا تكونُ أسبابُ اللذة إلا من أسباب الألم ، ويدخلُ في كل حب بغضٌ ، وفي كل رغبة طمعٌ ، وفي كل خير شرٌ ، وفي كل صريح خبيءٌ ، وهلمَّ جرأً ؛ إذ لا بد من هذا كُلِّه متى غلبَ الفاني على الباقي ، ولا بد من كل هذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة التي أساسها التغيير والتقلب ، حتى لكان النفس إنما تعيشُ بها في ظاهرٍ من الحياة لا في الحياة نفسها .

وهذا الخداعُ جاعِلٌ كلَّ شَيْءٍ من أشياء النفس لا يبدأ إلا ليتهاي ، ثم لا يتهي إلا ليبدأ ؛ فإِذَا تَزَالُ هذه النفسُ طامعةً فيما لا تناله ، ولا يزال من ذلك مصدرٌ لآلامها الحسية ؛ ثم إذا هي زالت منسالتها سئمتُ ، فلا يزال من ذلك مصدرٌ آخرُ لآلامها المعنوية . ولن يجيء الصحيحُ من غير الصحيح ؛ فالكون كُلُّه ليس إلا كذباً في النفس الكاذبة بحواسها .

ولذا كان أخصُّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) راجعاً إلى خروجه من سلطان نفسه ، فلا يغضبُ لها ، ولا يُطْلَقُها من الدنيا فيما تدمُّه أو تمدحُها ، ولا يحبُّ فيها ، ولا يُبْغِضُ من أجلها ، ولا يُهاوِنُها ، ولا يَسْتَلِنُ لها في مأكلٍ ولا ملبسٍ ، ولا يأخذها إلا من ناحية الإيمان بالله والإيمان بالإنسانية ؛ فأفراحها أحزانها ، وآمالها أشواقها ، وأملها كُفُّها أعمالها ، وحسابها في طبيعتها ، وحوادثها من العقل لا من الحواس ، وعظمتها إثباتُ ذاتها في غيرها ، لا إثباتُ غيرها في ذاتها ؛ وغايتها في الباقي لا الزائل ، وفي الخالد لا الفاني . وما دام الحاضر متحركاً فهو طارئٌ عابرٌ أو شكٌّ أمور الدنيا زوالاً ، والعملُ له على مقداره في قلَّةٍ لبثه وهوانٍ أمره ، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لابه .

فأولُ النفسِ النيةُ العاملةُ لآخرتها ، وآخرُ النفسِ ما تؤدِّي إليه أعمالُ هذه النيةِ ؛ فليس في إنسانٍ الدنيا إلا إنسانُ العالم الآخر ؛ وبهذا يُقدَّرُ صمته وكلامه ، وحركته وسكونه ، وما يأتي وما يندع ، وما يُحب وما يكره ، إذ كلُّ شَيْءٍ منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورةُ الحقيقةِ العاملةِ فيه .

وجماعُ الأمرِ ألاَّ يكونَ مستقبلُ الإنسانَ علامةَ استهزاءٍ بجانبِ ماضيه ،
ولا علامةَ استفهامٍ ، ولا علامةَ إنكارٍ .

* * *

وتدلُّ صفاتُ النبي (صلى الله عليه وسلم) باجتماعها وتَسَاوُفها على حقيقةٍ
عظمى لم يتنبه إليها أحدٌ ؛ وهى أن جميعَ خصائصه النفسية مُرَهَفَةٌ متيقظة ،
وهذا مما يَسْنَدُ وقوعه وإمكانه ؛ فإن الرجلَ من الناس ليسَ يكونُ حيًّا بالحياة ،
ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسه قد طاحَ بها الموت ، أو هى مريضةٌ وذلك
أولُ الموت ؛ أو غافلةٌ وذلك شِبهُ الموت ؛ أما الحى العَظِيمُ فهو الذى يحيا بجميعَ خصائصها ، تملؤه
خصائصُ نفسه ، وأما الحىُّ الأعظمُ فهو الذى يحيا بجميعَ خصائصها ، تملؤه
الحياةُ فيملاً الحياة ، ويتمددُ السرُّ فيه ليريه حقائقَ الأشياءِ ويَهْدِيه ويُدَلِّه ،
فيكونُ بنفسه رؤيةً للناسِ وهدايةً ودلالةً ؛ ومثلُ هذا يعظمُ ثم يعظمُ حتى ليرى
الفرقُ بينه وبين غيره كالفرق بين نور لَبِيسِ اللحمِ والدم ، وبين ترابِ لَبِيسِ
الدمِ واللحمِ .

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتبَ أعلاها الامتيازُ فى النبوة ، ثم تدنو
إلى النبوة ؛ ثم تنزلُ إلى الامتياز فى الحكمة ؛ ثم تهبطُ إلى عبقرية الشعر .
فأكبرُ الشعراء قاطبةً كالنبيِّ فى معناه إلا أنه نبيٌّ صغير ، وإلا أنه فى حدود
قلبه .

وهذه القوى الثلاثُ هى التى أبدعتها الحكمة الإلهية لتحويل الحياة والسموِّ
بها ؛ فالشاعرُ يستوحى الجمالَ إذا تألَّه الجمالُ فى قلبه ، والحكيمُ يستوحى
الحقيقة إذا تألَّهت فى نفسه ، والنبيُّ يستوحى الألوهيةَ نفسها .

* * *

« كان (صلى الله عليه وسلم) متواصلَ الأُحزانِ » ولكنها أُحزانُ النبوةِ
تكسو الحياةَ فرحَ النفسِ الكبيرة ؛ وهو فرحٌ كَلَّاهُ حزنٌ وتأملٌ ، وفكرةٌ
وخشوعٌ ، وطهرٌ وفضيلةٌ ؛ وما فَرَحَ أعظمَ الشعراء بطربِ الوجودِ وجمالِ
الموجوداتِ إلا شىء قليلٌ من حزنِ النبي .

« وكان دائمَ الفكرة ليست له راحة » إذ هو مكَلَّفٌ أن يصنعَ الإنسانَ

الجديد وينقح الآدمية فيه . وفكرةُ النبي هي معيشته بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرها تعيشُ في الناس ، وهي الفردية واستقلالها وسموها ؛ لأنها إ طاقةُ النفس الكبيرة لوحدها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التي لا تُطيقها ، فدأبُها أبدأ أن تبحثَ عما تستعبدُ له ، أو تنسى ذاتها فيه ، أو تستريحُ إليه من ذاتها . ومتى كانت النفسُ فارغةً كان تفكيرُها مضاعفةً لفراغها ، فبى تفرُّ منه إلى ما يُلهمها عنه ؛ ولكنَّ العظيم يعيشُ في امتلاء نفسه ؛ وعالمه الداخلي تسميه اللغة أحياناً : الفكرة ؛ وتسميه أحياناً : الصمت .

« وكان (صلى الله عليه وسلم) طويل السكنت لا يتكلم في غير حاجة » ، ومن الصمت أنواع : فنوعٌ يكونُ طريقةً من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار ما يُحيط به ؛ ونوعٌ يغشى الإنسان العظيم ليكونَ علامةً على رهبة السر الذي في نفسه العظيمة ؛ ونوعٌ ثالثٌ يكونُ في صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صممت الناس وكلامهم ؛ ونوع رابعٌ هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح في ساعة أعمالها ؛ ونوع خامسٌ يكون صممتاً على دوى تحتَه يشبه نومًا ساكنًا على أحلام جميلة تتحرك .

* * *

على هذا النمط يجب أن تفسر كلَّ أوصافه (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهي بمجموعها طابعٌ إلهي على حياته الشريفة ، يُثبتُ للعالم بكل برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسانُ الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

سُمُّ الْفَقْرِ * في المصلح الاجتماعي الأعظم

١

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) على ما يصفُ التاريخُ من الفقر والقلَّةِ ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أن يَصِفَ بالفقر ، ولا تناله المعاني النفسيةُ التي تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزلُ بعَرَضٍ ، فما كانت به خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْمًا في الحياة فيُرمِّمُهَا المالُ ، ولا كان يتحركُ في سَعْيٍ يُنْفِقُ فيه من نفسه الكبيرة ليجمعَ من الدنيا ، ولا كان يتقلَّبُ بين البعيد والقريب من طمَعٍ أدركَ أو طمَعٍ أخفقَ ، ولا نظر لنفسه في الحِسْبَةِ والتدبيرِ لِتَسَدِيرِ معيشتِهِ فيَحْتَلِبَها ذهبًا أو فضةً ، ولا استقرَّ في قلبه العظيم ما يجعلُ للدِّينارِ معنى الدِّينارِ ولا للدَّرْهِمِ معنى الدَّرْهِمِ ؛ فإن المعنى الحَيَّ لهذا المالِ هو إظهارُ النفسِ رابِيةً متجسِّمةً في صورة تكبَّرَ على قدر من السَّعة والغنى ؛ والمعنى الحَيُّ للفقر من المالِ هو إبرازُ النفسِ ضئيلةً منزَوِيَّةً في صورة تصغُرُ على قدرٍ من الضيق والعُسرة ۝

إن فقرَهُ (صلى الله عليه وسلم) كان من أنه يتَّسعُ في الكونِ لا في المالِ ، فهو فقيرٌ يُعَدُّ من معجزاته الكبرى التي لم يتنبَّهَ إليها أحدٌ إلى الآن ، وهو خاصٌ به ومن أين تدبَّرَته رأيتُهُ في حقيقته معجزةً تواضعت وغيَّرت اسمَها ؛ معجزة فيها الحقائقُ النفسيةُ والاجتماعيةُ الكبرى ، وقد سبقتُ زمنَها بأربعةَ عَشَرَ قرنًا ، وهي اليوم تُثبِتُ بالبرهانِ معنى قولِهِ (صلى الله عليه وسلم) في صفةِ نفسِهِ : « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ » .

نحن في عصر تكاد الفضيلةُ الإنسانيةُ فيه تَلَحُّقُ بالألفاظِ التاريخية التي تدل على ما كان قديمًا . . . بل عادت كلمةٌ من كلمات الشعر تراءى لتحريك النَّسيمِ اللِّغَوِيِّ الراكِدِ في الخيالِ ، كما تقول : السحابُ الأزرقُ ، والفجرُ الأبيضُ ، والشفقُ الأحمرُ ، والتطَّاريفُ الورديةُ على ذيلِ الشمسِ . وأصبح

الناسُ ينظرُ أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنىٌ وحشٍ لو لمسَ لضربٍ أو طعنٍ أو ذبحٍ .

وعَمِلَتُ المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكلَ الشعريَّ لإنسانها الفَنَسيَّ مَتَهافتًا تَرفيًا ، ونعمةً ، واقتنائًا بين ذلك من أيسر الحلال إلى الفظيع المتفَسَّاحِش في الإباحة ؛ فكأنما وضعت المدنية عقلاً في وحشٍ ، فجاء وقد زاغت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشيَّ لإنسانها الفقير ، فكأنما نَزَعَت عقلاً من إنسان ، فجاء وقد ضَلَّتْ فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَفُ الهوى بالطبيعة ، وكان مع الثاني بالطبيعة سَرَفُ الحماقة .

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكونَ الفقيرُ فقيراً وهو يعلم أن صناعته في المدنية عَمَلٌ الغنيِّ للأغنياء . . . وأن يكون الغنيُّ غنياً وهو يعلم أن عمله في المدنية هو صنعةُ الفقيرِ لضميره !

ونُجِرتُ من هذا وذاك مسائل جديدةٌ في فلسفة المُعَايَشَةِ الإنسانية التي يسمونها « الاجتماع » ؛ إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدُّها ونصِفُها لَطال بنا القول ، وكلَّها عاملةٌ على نزع الشعور العقليَّ من الحياة لتظهر أسخفَ مما هي ، وأقبحَ من كانت ؛ حتى أصبحت الشمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عن المادة وتُلقي ليلاً على النفس ، في حين أن الدين والإنسانية لا يعملان غيرَ بثِّ هذا النور العقلي في الأشياء والمعاني لتظهر الحياةُ مضيئةً ملتهمةً ، فتصبح أوضحَ مما هي في نفسها ، وأجملَ مما هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزعات المتقاتلة التي صَعِدَتْ بالفلسفة ونَزَلَتْ ، وجعلت من العلم في صدر الإنسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت العالم يضحُّ ضجيجَه المزعج في قلب كلِّ حيٍّ حتى لُنْدَاعُ الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم في « الراديو » . . . في مثل هذا البلاء الماحق تَلَفَّتْ الإنسانيةُ إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الإنسانيَّ التَّقديم تَطِيبُ منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمتْ لعلمتْ أن درسَ هذا العصر في علاج مشاكِلِهِ الإنسانيةِ هو « محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في

وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله : « إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاةٌ » .

* * *

هذا المصلحُ الاجتماعيُّ الأعظمُ يُلقَى فقرهُ اليومَ درساً على الدنيا العلميةِ الفلسفيةِ ، لامن كتابٍ ولا فكرٍ ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلحُ من فكَّر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحىُّ العَظيمُ الذى تلتسمهُ الفكرةُ العظيمةُ لتحيا فيه ، وتجعل له عُمرًا ذِهنياً يكونُ مُصرفاً على حكمها ، فيكونُ تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها .

وما كان محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) إلا عمرًا ذِهنياً متَحَضِّاً ، تمرُّ فيه المعاني الإلهية لتظهر للناس إلهيةً مفسرةً . وكلُّ حياته (صلى الله عليه وسلم) دروسٌ مفسنةٌ مختلفةٌ المعاني ، ولكنها في جملتها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك ؛ أى إذا كانت الحياة في الحقيقة فلا تكن أنت في الكذب ، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة فلا تكن أنت في الطفولة النَّزقة ، فإن الرجلَ يَعْرِفُ وَيُدْرِكُ ، فهو بذلك وراءَ الحقيقى ؛ ولكنَّ الطفلَ يجهلُ ولا يعرفُ الدنيا إلا بعينه ، فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه . وإيثاره كلَّ عاجل وإن قلَّ ، وعمله أن تكونَ حياته النفسية الضئيلة في مثل توثبِ أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعبُ بظاھرهِ وباطنهِ معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك ؛ أى الحياة في ذاتك الداخلية وقانونِ كمالها ، فإذا استطعت أن تُخْرَجَ للأرض معنىً سبائياً من ذاتك فهذا هو الجديدُ دائماً في الإنسانية ، وأنت بذلك عائشٌ في القريبِ القريبِ من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشتَ في دَمِكَ وأعصابك فهذا هو القديمُ دائماً في الحيوانية ، وأنت بذلك عائشٌ في البعيدِ البعيدِ من النفس ، وأنت به شىء أرضى كالحجرِ والترابِ .

هنا : أى في الإرادة التى فيك وحدك . ولا هناك : أى في الخيال الذى هو في كل شىء . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لاتدفعُك إلى طريقٍ من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس

هناك ، في أموالك وَمَعَائِشِكَ التي تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبَةٍ أو سرقة . هنا ، في الروح ، إذ تشعر الروح أنها موجودة ، ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الإنساني على سنّة النفس الخالدة ؛ وليس هناك في الحس ، إذ يتعلق الحس بما يتقلّب على الجسم ، فهو مهتاج لشعوره بوشك فَنَائِهِ فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينل ، وهو منته بجسمه إلى الموت الحيواني بين آكل ومأكول على سنّة الطبيعة الفانية .

أيها الحي ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك .

* * *

إن الحكيم الذي ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرف أسرارها ، لا تكون له حياة الذي يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظريته ؛ هذا الأخير هو في نفسه شيء من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة ؛ وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفه عن الحقيقة . ولهذا كان في حياة الأنبياء والحكماء ما لا يطيقه الناس ولا يضبطونه إذا تكلفوه ، بل يستخرق عليهم فيكون منه العجز الغلظ ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى هذا الوجوه نظرة شاملة مدركة لحقيقة الانهائية ، فيرى بداية كل شيء مادي هي نهايته في التو واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو في اعتباره موجود غير موجود ، مبتدئ منته معاً ؛ وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها ، فلا تبصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لها الناس في حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، وما لها عنده هو جذر ولا فرع ؛ وبهذا لم يفتينه شيء ولم يتعلق به شيء .

وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة السماء وهو ذاهب في نموّ الروحي ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم (عليه السلام) ؛ فكلاهما لممس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمع فيها الزمن وأهله من طمع وشره ، وجاء آدم ليعطي الأرض ناستها من صلبه ، وجاء محمد ليعطي الناس وحى القلم

قوانينهم من فضائله ؛ فأدم بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ لتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ لتنظم .

وماذا يفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الإنسان تتحكم فيه ، لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ؛ وأن الإنسان الصحيح الذى لم تُزَوِّره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتدُّ فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يُصبح في حكم النور وانطلاقه وحرية ، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتدُّ إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسرِهِ وعبوديته . فالفقر وما إليه ، والزهد وما هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعد شيء ، لتتضىء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تُباليها ولا تقيم لها وزناً . فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هي مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير ؛ وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعلم : تدخل المادة إلى معمله وهي مادة وفكرة ، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة ، وعلى أى أحوالها فهي إنما تُحسَّن في ذلك المعلم بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهن والفكر ؛ وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولكن طبيعة الانتباه والتحرُّز ، وليست في أسر المادة ، ولكن المادة في أسرها ما شاءت .

ولا يسمى فقره (صلى الله عليه وسلم) زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية ؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوى بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فراءت مُجَمَّلة لا تفصيل لها ، مُفْرَعَة لا تبين فيها ؛ وما بها من ذلك شيء ، غير أنها تراءى في بقية من البصر لا تنغمسها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخريه ومُثَلَّة ، وفي رأي تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها ؛ فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسير

لإنسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسيرٌ بالتراب . . .

ولقد كان (صلى الله عليه وسلم) يملك المالَ ويسجدُ به ، وكان أجودَ به من الريح المرسلة ، ولكنه لا يدعُهُ يتناسلُ عنده ، ولا يتركه يَسْنِبُ في عمله ، وإنما كان عمله ترجمةً لإحساسه الروحي ؛ فهو رسولٌ تعليمي ، قلبه العظيمُ في القوازين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثباتَ وحدةِ الإنسانية ، وأن هذا الإنسانَ مع المادة الصامته العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميّزة ، وأن الدينَ قوةٌ روحية يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة فلا يثبت بإزائها شيء على شَيْئَتِهِ ، إذ الروحُ خلودٌ وبقاء ، والمادةُ فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادثُ للروح المؤمنة وتتغير معها ، فلم لم تخضع لم تُخضعِها ، وإن لم تتغير الروحُ بها ؛ وأساسُ الإيمان أن ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرفَ بما لا ينتهي .

ما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة ، وأكثرُ ما يصنع هذا المالُ : إما الكذبَ الصَّراحَ في الحياة ، وإما شبهةَ الكذب ؛ ولهذا تنزه النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبيُّ الإنسانية ومثلُها الأعلى ، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس : لإيجاداً لحلِّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسعاً من ناحية وتضييقاً من الناحية الأخرى ، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك ؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفةً إلى إقرار التوازنِ في الإنسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلافِ مراتبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحد من الكون ؛ وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمنَ إذا عرَّضَ له الشيء من الدنيا يفتِّنه أو يصبرُفه عن واجبه الإنساني — أبتُ نفسه العظيمةُ إلا أن ترتفعَ بطبيعتها ، فإذا هوى قانونُ السمواتِ ، وإذا المادةُ في قانونِ الثقل ؛ فيرتفعُ وتستهأوى ، ويصبحُ الذهبُ — وإنه ذهبٌ — وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التراب .

سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قالت عائشة (رضى الله عنها) : لم يمتلئ جوفُ النبي (صلى الله عليه وسلم) شَبْعًا قَطَّ ، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يشههه ؛ إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قَبِيل ، وما سَمَوُه شَرِب .

وقالت : ما شَبَعَ آلُ محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبِض رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) .

وعنها : كنا آلَ محمد نَمَكْتُ شهرًا ما نَسْتَوِقِدُ بنار ، إن هو إلا التمرُ والماء .

وقالت : ما رَفَعَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) قَطَّ غداء لعشاء ، ولا عشاء لغداء ولا اتخذ من شيء زوجين ؛ لا قميصين ، ولا ردائين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : تَوَفَّى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وليس عندي شيءٌ يأكله ذو كَبِيد ، إلا شَطْرُ شعير في رَفٍّ لِي .

وقالت : تَوَفَّى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) ودرْعُهُ مرهونةٌ عند يهودى في ثلاثين صاعًا من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَسْبِيتُ اللياليَ المتتابعةَ وأهله طاوياً لا يجدون عشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : « والله ما أَمْسَى في آلِ محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعةُ أبيات ! » والله ما قالها استقلالاً ، ولكن أراد أن تتأسى به أمتُهُ .

وعن ابن مجير قال : أصاب النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) جُوعٌ يومًا ، فعمدَ إلى حجر فوضَعَه على بطنه ، ثم قال : « أَلَا رَبُّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في

الدنيا ، جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ؛ ألا ربّ مُكْرِمٍ نفسه وهو مُهينٌ لها ؛ ألا ربّ مُهينٍ نفسه وهو مُكْرِمٌ لها .

وخَيْرَ (صلى الله عليه وسلم) أن يكونَ له مثلُ « أَحَدٍ » ذهبًا فقال :
« لا يارب ؛ أجوعُ يوما فأدعوك ، وأشبعُ يوما فأحمدك ! »
وكان يقول في دعائه ويكثر منه : « اللهم أَحْيِنِي مِسْكِينًا ، وَأُمِتْنِي مِسْكِينًا ، واحشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » .

* * *

هذا هو سيدُ الأمة ، يُسْكِكُهُ في الحياة نبيًّا عظيمًا ما يُخْرِجُ غَيْرَهُ منها ذليلًا محتقرًا ، وكأَنما أشرق صفاءُ نفسه على ترابِ الأرض فردّه أشعةَ نور ، على حين يُلْقِي الناسُ على هذا التراب من ظلامِ أنفسهم فلا يَسْتَقِي ترابًا بل يرجعُ ظلامًا ، فكأنهم إذْ يمشون عليه يَظْطَوْن المجهولَ بخَوْفِهِ وَرَوْعَتِهِ ؛ ثم لا يستقر ظلامًا بل يرجعُ آلامًا ، فكأنهم يَنْبَسْتُون على المرضِ لاعلى الحياة ؛ ثم لا يثبتُ آلامًا بل يتحوّلُ فِتْرَةً وتوثبًا تكونُ منه نَزَوَاتُ الحِمَقِ والجنونِ في النفس .

هؤلاء الذين تعيش أنفسهم في التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه ، ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناسًا دُودًا كطبع الدود لا يقعُ في شيء إلا أفسده أو قذّره ؛ أو قومًا سُوسًا كطبع السوس لا ينالُ شيئًا إلا نَحَرَته أو عابه ، فهم يوقِعُون الخللَ في نظامِ أنفسهم ، فإذا هي طائشةٌ تُخَيِّلُ لهم كأنما اختلّت نواميسُ الدنيا ، وكأن الله قَبَضَهُمْ وبسطَ غيرَهم ، وشَغَلَهُمْ وفَرَّغَ مَنْ عداهم ، وابتلاهم على مُسْكَةِ الرزق^(١) بالشهوة المسعورة التي لا تتحقق ، ففصرَبَهُم بالمجاهدة التي لا تنقطع ؛ وأنعم على غيرهم في بَسْطَةِ الرزق بالشجرة المسحورة التي لا تُقَطَعُ منها ثمرة إلا نبتَ غيرها في مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضِرٌ ، وأنه لم يجعلْ نفسه في همّ المال ، ولا جعلته نفسه في همّ الفقر ، وأنه لقي الحياةَ حاملًا لا محمولًا ، واستقرَّ فيها هادئًا لا مضطربًا — كل ذلك إنما يثبتُ للعالم أنهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وعاش ليكونَ درسًا عمليًّا في حل المشكلات الاجتماعية ،

(١) مسكة الرزق : ضد بسطة الرزق ، أى الضيق والسعة .

يعلمُ الناسَ أنها لا تتعقّد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ، ولا تستمرُّ بقوتها ، ولكن بإمدادِ قواهم لها ؛ ولا تغلبُ بصوّلتها ، ولكن بجزعهم منها ؛ ولا تُعْضِلُ من ذاتِ نفسها ، ولكن من سوء أثرهم عليها وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتقللاً ، ولا فقراً وجوعاً ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تُترجمها نفسك أو تُحسِّسها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو (صلى الله عليه وسلم) ، ثم اقرأها شريعةً اجتماعيةً مُفَصَّلةً على طبيعة النفس ، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسان من قوَى الدنيا عناصرها الحوية ، لتُعطيَ الحياةَ من ذلك قوةَ عناصرها .

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياةِ الوادعة ، هما ذكرُ وأنثى ؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكينا ، وأما الثانيةُ فهي تغلّلُ النعمة ، وإطلاقُ قانونِ التناسلِ في المالِ ينمي بعضُه بعضاً ، ويستبستُ بعضُه على بعض ، ثم إقامةُ الحياةِ على الزينةِ ومُقْومَاتِها ، وقيامُ الزينةِ على الخداعِ وطبائعه ، فيُقبِلُ المرءُ من دنياه على ما هو جديرُ أن يصرفه عنها ، ويحبُّ منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها . وكلُّ ما رأيتَ وعلمتَ في رجلٍ قوّتهُ القوةُ فهو هناك ؛ وكل ما علمتَ ورأيتَ في أنثى قوّتها الضعفُ فهو هنا .

فالسوادُ الذي تراه في فقره (صلى الله عليه وسلم) هو السوادُ الحى ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النُجميّةِ الساطعة ؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحى ؛ ترابُ الزرعِ تحت النُصرةِ والخُصرة ؛ وتلك الحاجةُ الجسميّةُ هي الحاجةُ الحيةُ الدافعةُ إلى حرية النفس ؛ وذلك الإقلالُ من فهمِ اللذة هو الإقلالُ الحى الذى يزيدُ قوةَ فهمِ الجمالِ فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيقُ فى حَسَنِ المتاعِ للحاسة هو الضيقُ الحى الذى يوسّعُ حَسَنَ المتاعِ للروح . وبالحملة فذلك النقصُ من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقارُ للعرض الفانى الزائل هو المعنى الآخرُ لتقديسِ الخالدِ الباقي .

فليس هناك خبزُ الشعير ، ولا الجوعُ ، ولا رهنُ الدرع عند اليهودى . كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة متّزنة ، قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفق والحلم والتواضع ، تخبرُ هذه

الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجلُ الاجتماعيُّ التامُّ بأخلاقه وفصائله ، وهو الذي بُعِثَ لتفتيح غريزة تنازُع البقاء ، وكسْر هذه الحيوانية ، وقسَمَ نِزَوَاتِها ، وإماتة دِوَاعِها ، والسمو بخواطرها ؛ فهو بنفسه صورةُ الكمال الذي بُعِثَ لتحقيقه وإثبات أنه الممكنُ لا الممتنع ، والحقيقُ لا الخيالي .

ليس هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثين صاعا ، ولا فقرٌ ، ولا خبرُ الشعر . كلا ، كلا ، بل هناك تقريرُ أن النصرَ في معركة الحياة لا يأتي من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ؛ وأن التقدمَ الإنسانيَّ لا يباع ببعاً ، ولا يؤخذُ هَوْنًا ؛ بل هو انتزاعٌ من الحوادث بالأخلاق التي تتغلب على الأزمات ولا تغلب الأزماتُ عليها ، وأن هذا المالَ وهذه الشهوات — في حقائق الحياة ومصائرِها — ككنوزِ الأحلام : لا تكونُ كنوزاً إلا في مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمقُ أو المخدولُ أو الضائعُ هو الذي يقطع العمرَ نائماً أبداً ليظلَ مالِكاً أبداً لهذه الكنوز . . . وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه في آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوقاه حسابَه » .

كلا ، كلا ، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما ، بل هناك وَضْعُ هذه الحقيقة : ينبغي أن تجدَ نفسَكَ ، وموضعَ نفسِكَ ، وإيمانَ نفسِكَ ، وعِزَّةَ نفسِكَ . فإذا أدركت ذلك ورفعت نفسَكَ إلى موضعها الحق ، وأقررتَها فيه ، وحبستها عليه ، وحددتَها بالإنسانية من ناحية وبالله من الناحية المقابلة — رأيتَ إذنَ أن قيمتك الصحيحة في أن تكونَ وسيلةً تُعْطَى وتعملُ لتُعْطَى ، لا غايةً تأخذُ وتعملُ لتأخذ ، ومهما ضيقتَ عليك فإنما أنت كالشجرة الطيبة تأخذُ تراباً وتصنعُ حلاوة .

وما قطَ نبتت شجرةٌ في مكانها لتأكلَ وتشربَ وتختزنَ السَّادَ والترابَ وتحصنَهما وتمنعَهما عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرةٌ لكان هلاكُها فيما تفعل ، إذ تحاولُ أن تضاعِفَ فائدتها من قانون العالم ، فيكون طمعُها سريعاً في إفساد الصلة بينهما ، فلا يجدُ القانونُ فيها نظامه ، ومن ثم لا تجدُ في القانون

نظامها ، فيُهلِكُها الذي كان يُحْيِيها ، وتستعبدُ لحظةَ نفسها ، فيُفْقِدُها ذلك حريةَ الحياة التي كانت لها في نفسها .

* * *

يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ بكل خير على كل حال ، إن نفسه تُنَزَعُ من بين جنبيه وهو يَحمَدُ الله عزَّ وجلَّ » . فهذا هو أسمى قانون اجتماعيٍّ يمكن أن تظفَر به الإنسانيةُ ، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أو مانا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقررّاً في النفس ، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأن الفردَ هو صورة المجتمع لاصورة نفسه وحدها ، وأن الناسَ كحَبِّ القمح في السَّنْبلة ، ليس لجميعه إلا قانونٌ واحدٌ ، فوضعُ كل حبة من السَّنْبلة هو ثروتُها ، علَّتْ أو سفَلَّتْ ، وكشُرَّ ما تأخذُه أو قلَّ ؛ وإذا كان أساسُ الحياة في الحبة منها أن تجدَ قِوامَها وكِفايَتهما من مادة الأرض ، فتمامُ الحياة فيها أن يَغمُرَهما النورُ من حولها ، وأن يستمرَّ النورُ من حولها يغمُرُها .

فالْحبة من السَّنْبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنَزَعُ وما بها أنها تُزَعُ ، ولكنها أدَّت ما تؤدِّي ، وانقطعتُ من قانون لتتصلَ بقانون غيره ، وما اغتنَّت ولا افتقرتْ ، ولا أكرثتْ ولا أخفَّتْ بل حَقَّتْ موضعها ، فإنها ما نبتت لتبقى ، وما نمت إلا لينقطعَ نماؤها . وكذلك المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ ، الصادقُ النظرِ في الحياة : هو أبدأ في قانونِ آخرته ، فهو أبدأ في عملِ ضميره .

والناسُ في هذه الحياة كحَشْدٍ عظيم يتدفق من مَضِيق بين جبلين ينفدُ إلى الفضاء ؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفَضُّونَ إلى هذه النهاية مرّاً آمنين وكان في يقينهم السلامة ، وفي صبرهم الوقاية ، وفي نظامهم التوفيق ، وفي تبعاً ونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، ما دام هذا قانونَ جميعهم ؛ فأَيُّما رجلٍ شَدَّ منهم فاضطربَ فطاش ، هَلَكَ مَنْ حولَه وأهلك مَنْ حولَه ، ومن عكسَ منهم موضعَه ونكصَ على عَتَمِيهِ ، أهلك مَنْ حولَه وهَلَكَ . والموتُ أَشَقُّ الموتِ هنا في هذا المضيقِ بين الجبلين - اعتبارُ الحاضرِ حاضراً فقط ، والضجرُ منه ، وجعلُ كلِّ

إنسان نفسه غاية . والحياةُ أهنأُ الحياة — اعتبارُ الحاضر بما وراءه ، والصبرُ على شدته ، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة .

* * *

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهنِ الدرع عند يهودى من سيدِّ الخلق وأكلمهم ، ومن لو شاء لمشى على أرض من الذهب . فهو (صلى الله عليه وسلم) يعلمُ الإنسانية أن الرجلَ العظيمَ النفسَ لا يكونُ فى الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقرِ العظيم أن خبز الشعير هو رمزٌ من رموز الحياة على التحلل من خلُقِ الأثرة ، والبراءة من هوى الترف ؛ ورهنُ الدرع رمزٌ آخرُ على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسرة رمز ثالثٌ على مجاهدة المالل الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعضُ النباتِ النبات . ومجموعُ هذه الرموز رمزٌ بحاله على وجوب الإيقاظِ النفسى للأمة العزیزة التى تتمود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ، لتكونَ فى كل فرد مادةُ الجيش ، وليصلحَ هذا الجيشُ قائداً للإنسانية .

على أنه (صلى الله عليه وسلم) حثَّ على طلب اليسار ، والتغلبِ من الأعمال الشريفة بالغلبة والمال ، فقال : « إنك إن تدعُ عيالك أغنياء ، خيرٌ من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . » ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : « مَنْ يعولُه » قالوا : كلنا نعوله . فقال : « كلكم خير منه !... » إلى أحاديث كثيرة مروية ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عملُ الحى .

ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحبُ شريعته رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدحُ لعيشه ، ويجوعُ يوماً ويشبعُ يوماً ، فلم يقلبْ يده فى تِلَادٍ من المال يرثه ، ولم يجمعهما على طَريف منه يُورثه — فذلك هو ما بيناه وشرحناه ، وذلك كالأمر نافذاً لارخصة فيه ، على ألا يتخذ الغنى من الفقير عبداً اجتماعياً لفقر هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواة النفسية لا غيرها وإن اختلفت طبقاتُ

الاجتماع . والأكرمُ هو الأتقى لله بمعنى التقوى ، والأقومُ بالواجب على معنى الواجب ، والأكفأ للإنسانية في معاني الإنسانية .

فقرُّ ذلك السيدِ الأعظم ليس فقرّاً ، بل هو كما رأيت : ضبطُ السلطةِ الكائنة في طبيعةِ التملك ، لقيامِ التعاونِ الإنسانيِّ على أساسه العمليِّ ؛ هو المحاجةُ العادلةُ بين المصالح الاقتصادية الطاغية : يمنع أن تأكلَ مصلحةٌ مصلحةً فتَهْلِكَ بها ، ويُوجِبُ أن تَلِدَ المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبيُّ الفقيرُ العظيمُ هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني ، كالقاضي الجالس وراء موادِّ القانون . صلى الله عليه وسلم .

درس من النبوة

قالوا : إنه لما نَصَرَ اللهُ (تعالى) رسولَه وردَّ عنه الأحزابَ وفتحَ عليه قُريظَةَ والنَّضِيرَ^(١) ، ظنَّ أزواجُه (صلى الله عليه وسلم) أنه اختصَّ بنفائسِ اليهودِ وذخائرِهِمْ ؛ وكنَّ تِسْعَ نِسوةٍ : عائشة ، وحَفْصَة ، وأم حبيبة ، وسَوْدَة ، وأم سَلَمَة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب ، وجُوَيْرِيَة ؛ فتمعدنَ حوله وقلنَ : يا رسولَ الله ، بناتُ كِسرى وقَيْصَرَ في الحِمْلى والحُلَيْلِ ، والإماء والخَوَلِ ، ونحن ما تراه من الفاقة والضيق... وَالْحَمْدُ لِقَلْبِهِ بِمُطالبتِهِنَّ له بِتَوْسِيعَةِ الحالِ ، وأن يعاملِهِنَّ بما تُعاملُ به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهُمْ ؛ فأمره الله (تعالى) أن يتلوَ عليهنَّ ما نزلَ في أمرهنَّ من تخييرهنَّ في فراقه ، وذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كننَّ تُردُّنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالينَّ أَمْسَعِكُنَّ وأُسرَحِكُنَّ سراحاً جميلاً^(٢) » ؛ وإن كننَّ تُردُّنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن اللهَ أعدَّ للمُحْسِنَاتِ منكنَّ أجراً عظيماً .

قالوا : وبدأ (صلى الله عليه وسلم) بعائشة - وهى أحبُّهنَّ إليه - فقال لها : « إني ذاكرُ لك أمراً ما أحبُّ أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيكَ أستمُرُ أبوي ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسولَه .

ثم تَتَابَعْنَ كلُّهنَّ على ذلك ، فسَمَّا هنَّ اللهَ « أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ » ، تعظيماً لحَقِّهنَّ ، وتأكيداً لحُرْمَتِهِنَّ ، وتفضيلاً لهنَّ على سائرِ النساءِ .

* * *

هذه هى القصة كما تُقرأ فى التاريخ وكما ظهرت فى الزمان والمكان ، فلنقرأها نحن كما هى فى معانى الحكمة ، وكما ظهرت فى الإنسانية العالية ؛

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس للهجرة .

(٢) السراح : الطلاق ، ومِئْنة الطلاق ما تعطاه المطلقة - وهو - يخلف حسب السعة

ففسجد لها غوراً بعيداً ، ونعرف فيها دلالة سامية ، وننبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق .

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم ينتبه لها أحد ، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم ، لتكون نصّاً تاريخياً قاطعاً يُدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمرٍ من أمر العقل والغريزة ، فإن جهالة المشرين في زمننا هذا ، وكثيراً من أهل الزيف والإلحاد ، وطائفة من قِصار النظر في التحقيق - يزعمون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) إنما استكشّر من النساء لأهواءٍ نفسية محضة وشهواتٍ كالشهوات ؛ ويستطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهة إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي ؛ وكلّهم غبيّ جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحوٍ من قريبه ، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفيُ الزينة وتجريدُ نسائه جميعاً منها ، وتصحيحُ النية بينه وبينهن على حياةٍ لاثمياً فيها معاني المرأة ، ونحتَ جوّاً لا يكون أبداً جوّاً الزهر . . . وأمره من قبيل ربّه أن يخيرهنّ جميعاً بين سراحهن فيكنّ كالنساء ويجدنّ ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكين فلا يكنّ معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها .

فالقصة نفسها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغة الشهوة ، ولا سياسة معانيها ، ولا أسلوب غضبها أو رضاها . وما ههنا تمليقٌ ، ولا إطراءٌ ، ولا نعمةٌ ، ولا حرصٌ على لذة ، ولا تعبيرٌ بلغة الحاسة ؛ والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبه معنى من حرارة القلب ، ولا أثرٌ ولا بقية أثرٍ من ميل النفس ، ولا حرفٌ أو صوتٌ حرف من لغة الدم . وهي على منطقٍ آخر غير المنطق الذي تُسمّالُ به المرأة ، فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهن ، بل نفّت الأملَ في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه في نفوسهن ، بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : الله في أمره ونهيه ، والرسول في شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهاها . فليس هنا ظرفٌ ، ولا رقةٌ ، ولا عاطفةٌ ، ولا سياسةٌ لطبيعة المرأة ، ولا اعتبارٌ لمزاجها ، ولا زُلفى لأنوثتها ؛ ثم هو تخييرٌ صريحٌ بين ضدين لا تتلوّن بينهما حالة تكون منهما معاً ،

ثم هو عامٌ لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدةً ولا أكثر .
والحريصُ على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيء من هذا ، بل يخاطبُ
في المرأة خيالها أول ما يخاطب ، ويُسبِّعُه مبالغةً وتأكيداً ، ويُسِّعُه رجاءً وأملًا ،
ويقربُ له الزمنَ البعيدَ ، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلافُ على الوقت ،
لحقَّقَ له أن الظهرَ بعد ساعة . . .

* * *

وبرهانٌ آخرُ ؛ وهو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يتزوج نساءه
لمتاع مما يمتنع الخيالُ به ، فلو كان وَضَعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك
إلا بالزينة وبالفنِّ الناعم في الثوب والحاشية والتشكُّل كما نرى في الطبيعة الفنية ،
فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وجوِّه . . . وقد كان
نساؤه (صلى الله عليه وسلم) أعرفَ به ؛ وها هو ذا ينسج الزينةَ عنهن ويخيرهن
الطلاقَ إذا أصررن عليها . فهل ترى في هذا صورةَ فكرٍ من أفكار الشهوة ؟
وهل ترى إلا الكمالَ المحض ؟ وهل كانت متابعةُ الزوجات التسع إلا تسعةَ
برهانات على هذا الكمال ؟

وكأن النبي (صلى الله عليه وسلم) يُلْقِي بهذه القصة درساً مستفيضاً في
فلسفة الخيال وسوء أثره ، على المرأة في أنوثتها ، وعلى الرجل في رجولته ؛ وأن
ذلك تعقيدٌ في الشهوات يقابله تعقيدٌ في الطبع ، وكذبٌ في الحقيقة ينشأ عنه
كذبٌ في الخلق ، وأنه صَرَفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمان والطيش
والبطر والفراغ ، وتعويدُها عادات تُفسد عاطفتها ، وتُضيف إليها التصنعَ
فتُضعف قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ،
وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها .

وكل محاسن المرأة هي خيالٌ متخيَّل ولا حقيقةَ لشيء منها في الطبيعة ،
ولما حقيقتها في العين الناضرة إليها ؛ فلا تكونُ امرأةً فاتنةً إلا للمفتون بها ليس
غير . ولوردت الطبيعةُ على من يُسبِّبُ بامرأةٍ جميلةٍ فيقول لها : هذه محاسنُك
وهذه فتنتُك وهذا سحرك وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلُّها
شهوأتُك أنت (١) . . .

(١) بسلطان هذا المعنى في كثير ما كتبناه ، وخاصة في كتاب : (السحاب الأحمر) .

وبهذا يختلفُ الجمالُ عند فقد النظر؛ فلا يفتنُ الأعمى جمالُ الصورة ولا سحرُ الشكل ولا فَرَاةُ المنظر، وإنما يفتنه صوتُ المرأة ومَجَسَّسُها ورائحتها .
فلا حقيقةَ في المرأةِ إلا المرأةُ نفسها؛ ولو أخذتُ كلُّ أنثى على حقيقتها هذه لما فسدَ رجلٌ ولا شقيت امرأة ، ولا انتظمت حياةُ كلِّ زوجين بأسبابها التي فيها . وذلك هو المثلُ المضروبُ في القصة .

يريد النبي (صلى الله عليه وسلم) ليعلمَ أمتَه أن حَيَفَ الغريزة على العقل إفساداً لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظَ الغريزة واختيارها ، كانت حياتُها استجابةً لحنون الرجل ، وملأتها معاني التزيُّدِ والتصنُّع ؛ فيُوشِكُ أن ينقلتها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال ، ويردّها إلى أضدادِ هذه الصفات ، فيقومُ أمرها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادى والضجَرِ والتبرُّم والإلحاح والإزعاج ، ويضعفُ معنى السلبِ الراسخ في نفسها من أصلِ الفطرة ؛ فيبدلُ حياتُها ، وفي الحياء ردُّها عن أشياء ؛ ويقلُّ إخلاصُها ، وفي الإخلاص ردُّها عن أشياء أخرى ؛ ويكثرُ طمعُها ، وفي قناعتها مُحاجزةٌ بينها وبين الشر .

وبهذا ونحوه يفسدُ ما بين الرجل والمرأة المتصنَّعة ؛ فإذا كثر المتصنَّعات لا يكون من النساء مَشَاكِلُ فقط ، بل تكونُ من حلول المشاكلِ معهن مشاكلُ أخرى ...

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يجعلُ نفسه في الزواج المثلَّ الشَّعْبِيَّ الأكملَ كما هودأبه في كل صفاته الشريفة ، فهو يريد أن تكونَ زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ، ليكونَ منهن المثلُّ الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تَبْرَعُ البراعةَ كلّها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكونُ المرأةُ زينةً تَطْلُبُ زينةً لَتَمَّ بها في الخيال ، ولكن إنسانيةً تطلبُ كمالها الإنساني لتَمَّ به في الواقع .

وهذه الزينةُ التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورةَ المكر والخداع والتعقُّد ، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسميها

سلاحٌ من أسلحة المعاني : كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لوحشيةٍ الطبيعية الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثروةٌ طويلة تقول وتقول وتقول ..

* * *

ولنما يكون أساسُ الكمال الإنساني ، في الإنسان العامل المجاهد : لا يَحْصُرُ نفسه في شيء يسمى متاعاً أو زينة ، ولا يقدّر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) هو الغاية في هذا . دخل عليه مرة عمر بن الخطاب ، فإذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلق^(١) ، فابتدرت عيناى ، فقال : ما يُبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال : عمر : يا نبي الله ، ، ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذلك كسرى وقصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزائنك^(٢) ؟

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة (رضى الله عنها) فرأى على بابها سترأوفى يديها قلبين من فضة^(٣) ، فرجع ؛ فدخل عليها أبو رافع وهي تبكى ، فأخبرته برجوع أبيها ، فسأله في ذلك فقال (صلى الله عليه وسلم) : من أجل الستر والسوارين .

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الست^(٤) ونزعت السوارين فأرسلت بهما

(١) كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء .

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه (صلى الله عليه وسلم) ، وقد بسطنا فلسفة هذه المعاني في مقال (سمو الفقر) .

(٣) القلب (بالضم) : سوار من الفضة غير ملوى ، هو الذى يقال له اليوم : (الفويشة) وهو خفيف .

(٤) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة سراً على باب عائشة (رضى الله عنها) فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسل به إلى آل فلان .

بِلَالاً إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وقالت : قد تصدقتُ به ، فضعه حيث ترى . فقال لبلال : اذهب فبعه وادفعه إلى أهلِ الصُّفَّةِ^(١) . فباع القليلين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم .

يا بنتَ النبي العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حليةً بدرهمين ونصف وإنَّ في المسلمين فقراء لا يملكون مثلها .

أى رجلٍ شَعَبِيٍّ على الأرض كمحمدٍ (صلى الله عليه وسلم) ، فيه للأمة كلها غريزةُ الأب ، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لا يتحوَّل ، وفيه الطبيعةُ النامة التى يكونُ بها الحقيقى هو الحقيقى .

يا بنتَ النبي العظيم ! إن زينةً بدرهمين ونصف ، لا تكون زينةً فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقةً بدرهمين ونصف ؛ إن فيها حيثنشد معنىً غيرَ معناها ؛ فيها حقُّ النفس غالباً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعة حاكماً على الإيمان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى ؛ وفيها خطأٌ من الكمال إن صحَّ فى حساب الحلال والحرام لم يصحَّ فى حساب الثواب والرحمة .

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم ؛ إن مذهبكم ما لم تُحسِّيه فضائلُ الإسلام وشرائعه — إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلّقون عليها الأثمار تشدُّونها بالخيط . . . كلَّ يومٍ تحلّون ، وكلَّ يومٍ ترَبُّطون ، ولا ثمرة فى الطبيعة .

ليست قصةُ التخيير هذه مسألةً من مسائل الغنى والفقر فى معانى المادة ، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص فى معانى الروح ؛ فهى صريحةٌ فى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أستاذُ الإنسانية كلّها ؛ واجبه أن يكونَ فضيلةً حية فى كل حياة ، وأن يكونَ عزاءً فى كل فقر ، وأن يكونَ تهذيباً فى كل غنى ، ومن ثم فهو فى شخصه وسيرته القانونُ الأدبى للجميع .

وكأنه (صلى الله عليه وسلم) يُريد ليعلمَ الأمةَ بهذه القصة أن الجماعاتِ

(١) الصفة : الفرقة ، وأهل الصفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ؛ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه .

لا تَصْلُحُ بالقوانين والشرائع والأمر والنهى ، ولكن بعمل عظمائها فى الأمر والنهى ؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان فى نفسه وطبيعته يُحسُّ فتنة الدنيا إحساسَ المتسلط لا الخاضع ، ليكون أولُ استقلاله استقلالاً داخله .

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى فى ظاهر القصة ، ولكنها جرأة النفس العظمى فى تقرير حقائقها العملية .

* * *

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجته (صلى الله عليه وسلم) : « أمّهات المؤمنين » بعد أن اختَرَنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة ؛ وعلماءُ التفسير يقولون : إن الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبيرُ معنى ، وإنما تُشعرُ هذه التسميةُ بمعنى دقيق هو آيةٌ من آيات الإعجاز ؛ فإن الزوجة الكاملة لا تكملُ فى الحياة ولا تكملُ الحياةُ بها إلا إذا كان وصفُها مع رجلها كوصفِ الأم : ترى ابنَها بالقلب ومعانيه ، لا بالغريزة وحُظوظِها ؛ فكلُّ حياةٍ حينئذٍ ممكنةُ السعادةِ لهذه الزوجة ، وكلُّ شقاءٍ محتملٌ بصبر ، وكلُّ جهادٍ فيه لذتهُ الطبيعية ، إذ يقومُ البيتُ على الحب الذى هو الحبُّ الخالصُ لا المنفعة ، وتكونُ زينةُ الحياةِ وجودَ الحى نفسه لا وجودَ المادة ، وتُبَيِّنُ النفسُ على الوفاء الطبيعى كوفاء الأم ، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسرُ عليه فى سبيلِ حقيقته أن يتغلبَ على الدنيا وزينتها .

وآخرُ ما نستخرجُ من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة :

يَحَسِبُ المؤمن إذا دخلَ دارَه أن يجدَ حقيقةَ نفسه الطيبة ، وإن لم يجد حقيقةَ كِسْرَى ولا قَيْصَرَ .

شهر للثورة . . . *

فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته ؛ أما منفعته للجسم ، وأنه نوعٌ من الطب له ، وبابٌ من السياسة في تدبيره ؛ فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك ؛ وكأن أيامَ هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبةً تؤخذُ في كل سنة مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم ؛ ولكننا الآن لسنا بصددٍ من هذا ، وإنما نستوحى تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شَرَعَت هذا الشرعَ لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة ، عاملةً على استمرارِ الفكرة الإنسانية فيها ، كي لا تتبدّل النفسُ على تغييرِ الحوادث وتبدّلها ، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق .

من معجزات القرآن الكريم أنه يدّخرُ في الألفاظ المعروفة في كل زمنٍ ، حقائقَ غيرَ معروفة لكل زمنٍ ، فيُجَلِّسُها لوقتِها حين يَضِجُ الزمانُ العلمي في مستأهته وحيرته ، فيستغيبُ على التاريخ وأهله مُستخفياً بالأديان ، ويذهبُ يتتبعُ الحقائق ، ويستقصي في فنون المعرفة ، ليستخلصَ من بين كُفَرٍ وإيمانٍ ديناً طبيعياً سائغاً ، يتناولُ الحياةَ أولَ ما يتناولُ فيضبطُها بأسرار العلم ، ويوجهُها بالعلم إلى غايتها الصحيحة ، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية ، ليحققَ في إنسانية العالم هذه الشَّيْثِيَّةَ المجهولة التي تنوهمُها المذاهبُ الاجتماعية ولم يهتدِ إليها مذهبٌ منها ولا قاربُها ؛ فما برحتُ سعادةُ الاجتماع كالنَجْرَةِ العلمية بين يدي علمائها : لم يحقّقوها ولم يأسوا منها ، وبقيت تلك المذاهبُ كعقارب الساعة في دورتها : تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيثُ تبدأ . . .

* * *

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزاً من يحاول تغيير الإنسان بزيادةٍ ونقصٍ في أعصابه ؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهبَ كُتُبٍ

ورسائل ؛ ولو أنهم تدبّروا حكمة الصوم في الإسلام ، لرأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة : فهذا الصوم فقرٌ إجباريٌ تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم ، سواء منهم من مَلَكَ المليون من الدنانير ، ومن ملك القيرش الواحد ، ومن لم يملك شيئاً ؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبرياتهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم ؛ وفي ذهاب تفاسوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع .

فقرٌ إجباريٌ يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة ، كلّ الوضوح ، أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها ، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يستعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة .

ولو حققت رأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم ، ولا بأنسابهم ، ولا بمراتبهم ، ولا بما ملكوا ؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة ؛ فن البطن نكبة الإنسانية ، وهو العقل العملي على الأرض ؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة ، مدّ البطن مدّة من قوى الهضم فلم يبق ولم يندّر .

ومن ههنا يتناولّه الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب ، ويجعل الناس فيه سواءً : ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحدٌ وحسٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ ؛ ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة ، ويبلغ في إحكامه فيمسك حيوانيته العصبية في الجسم كله بمنعها تغذيتها ولذتها حتى نفسة من دخينة^(١) .

وبهذا بضع الإنسانية كلّها في حالة نفسية واحدة تتسلّس بها النفس في مشارق الأرض ومغاريبها ، ويطلق في هذه الإنسانية كلّها صوت الروح بعلم الرحمة ويدعو إليها ، فيبشبع فيها بهذا الجوع فكرة معيئة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق ، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغنى

(١) الدخينة كلمة وضعناها للسيجارة ، وجمعها دخانن .

للفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقير إلى الغنى بطبيعته ؛ ومن هذين : (الاطمئنان
والمساواة) ، يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب
في هذا الاجتماع الإنساني ؛ وإذا أنت نزلت هذه الفكرة من الاشتراكية بقى هذا
المذهب كله عيشاً من العيش في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا
طبيعة له .

* * *

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم ، وهذا بعض السر الاجتماعي
العظيم في الصوم ، إذ يبالغ أشد المبالغة ، ويدقق كل التدقيق ، في منع الغذاء
وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة ؛ فهذه طريقة عملية
لتربية الرحمة في النفس ، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث ؛ فهما
طريقتان كما ترى : مُبْصِرَةٌ وعُمِيَاء ، وخاصة وعامة ، وعلى نظام وعلى فجأة .

ومتى تحققت رحمة الجائع الغنى للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الإنسانية
الداخلية سلطانها النافذ ، وحكم الوازع النفسي على المادة ؛ فيسمع الغنى في
ضميره صوت الفقير يقول : « أعطني » . ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء ، بل
طلباً من الأمر لا مفر من تلبية والاستجابة لمعانيه ، كما يؤاسى المبتلى من
كان في مثل بلائه .

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن
يحدف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ، ليحل في
محله تاريخ النفس^(١) ؟ وأنا مُسْتَيْقِنٌ أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في
جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً ، وأن هذه النسبة
متحققة في أعمال النفس للجسم ، وأعمال الجسم للنفس ؛ كأنه الشهر الصحي
الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة ، لإحداث
الترميم العصبي في الجسم ، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم

(١) أفسد ضعف النفس هذا المعنى ، فاحقق الناس (تاريخ البطن) كما يحققونه في شهر
رمضان ، وهم يعوضون البطن في الليل ما منعوه في النهار ، حتى جعلوا الصوم تغييراً لمواعيد الأكل . . .
ولكن الصوم على ذلك لم يحرمهم فوائده .

الإنسانى وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل فى المُحَقَّاق ؛ إذ تنتفخ العروقُ وتَرَبو فى النصف الأول من الشهر ، كأنها فى (مَدَّة) من نور القمر ما دام هذا النورُ إلى زيادة ، ثم يراجِعُها (الجَزَرُ) فى النصف الثانى حتى كأن للدم إضاءةً وظلاماً . وإذا ثبت أن للقمر أثراً فى الأمراض العصبية ، وفى مدَّة الدم وجَزَرِه^(١) ، فهذا من أعجب الحكمة فى أن يكون الصيامُ شهراً قمرياً دون غيره .

وفى ترائى الهلالِ ووجوبِ الصومِ لرؤيته معنى دقيقٌ آخر ، وهو - مع إثبات رؤية الهلالِ وإعلانها - إثباتُ الإرادة وإعلانها ، كأنما انبعث أولُ الشعاعِ السماوى فى التنبيه الإنسانى العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر .

وهنا حكمة كبيرة من حِكَمِ الصوم ، وهى عمله فى تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملى ، الذى يُدَرِّبُ الصائم على أن يتمتع باختياره من شهواته ولذَّةِ حيوانيته ، مُصِراً على الامتناع ، مُتَهَيِّئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مُزاولاً فى كل ذلك أفضلَ طريقةٍ نفسيةٍ لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغيَّر ولا تتحوَّل ، ولا تعدو عليها عوادى الغريزة .

وإدراكُ هذه القوة من الإرادة العملية منزلةٌ اجتماعية سامية ، هى فى الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم ، فى هذين تعرض الفكرة مارةً مُروراً ، ولكنها فى الإرادة تعرض لتستقر وتتحقق . فانظر فى أى قانون من القوانين ، وفى أية أمة من الأمم ، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولة فكرةٍ نفسيةٍ واحدةٍ بخصائصها ومُلاساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان ، لا خيالاً يمرُّ برأسه مرّاً .

أليست هذه هى إتاحة الفرصة العملية التى جعلوها أساساً فى تكوين الإرادة ؟ وهل تبلغ الإرادةُ فيما تبلغ ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهواتِ المرء مُدْعنةً لفكره ، منقاداً للوازع النفسى فيه ، مُصَرِّفةً بالحسِّ الدينى المسيطر على النفس ومشاعرها .

(١) قال الجاحظ فى (الحيوان) : « ولزيادة القمر حتى يصير بداراً ، أثر بين فى زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات » .

أما والله لو عمّ هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً ، لآل معناه ن يكون إجماعاً من الإنسانية كأنها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة ، لتطهير العالم من رذائله وفساده ، ومحق الأثرة والبخل فيه ، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله ، فيتهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها ، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر ، ليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصبر والثبات والإرادة ، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان ؛ فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة .

شهر هو أيام قلبية في الزمن ؛ متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله : هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي ، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي ؛ فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة سمو ، يتعهد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق ، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالحي ، ويراه كأنما أجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو ، وكأنما أفرغت من خسائسها وشهواتها كما فرغ هو ، وكأنما ألزمت معاني التقوى كما ألزمتها هو . وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة في العالم كله - ولو يوماً واحداً - حاملة في يدها السبحة . . . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة ؟

إنها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس ؛ وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادي ؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين ، والحررة من القوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يطهر مشاعرها ، ويسمو بإحساسها ، ويصرفها إلى معاني إنسانيتها ، ويهذب من زياداتها ، ويخذف كثيراً من فضولها ، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة ، فيجعلها صافية مشرقة بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق ؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى . والنفس في هذا الشهر محتبسة في فكرة الخير وحدها ، فهي تبنى بناءها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر ، بل هو فصل نفسي كفصول

الطبيعة في دَوْرَانِهَا ؛ وَلِهَـؤُـوْ وَاللّهِ أَشْبَهُ بِفَصْلِ الشِّتَاءِ فِي حُلُولِهِ عَلَى الدُّنْيَا بِالْحَوِّ الَّذِي مِنْ طَبِيعَتِهِ السَّحْبُ وَالْغَيْثُ ، وَمِنْ عَمَلِهِ إِمْدَادُ الْحَيَاةِ بَوَسَائِلَ لَهَا مَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السَّنَةِ ، وَمِنْ رِيَاضَتِهِ أَنْ يَكْسِبَ بِهَا الصَّلَابَةَ وَالْإِنْكَمَاشَ وَالْخَفَّةَ ، وَمِنْ غَايَتِهِ إِعْدَادُ الطَّبِيعَةِ لِلتَّفَتْحِ عَنْ جَمَالِ بَاطِنِهَا فِي الرَّبِيعِ الَّذِي يَتْلُوهُ .

وعجيبٌ جدًّا أَنْ هَذَا الشَّهْرَ الَّذِي يَدْتَخِرُ فِيهِ الْجِسْمُ مِنْ قَوَاهِ الْمَعْنَوِيَةِ فَيُؤَدِّي عَنْهَا مَصْرُفَ رُوحَانِيَّتِهِ ، لِيَجِدَّ مِنْهَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ مَدَدَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالْعَزْمِ وَالْجَلَدِ وَالْحَشُونَةَ - عَجِيبٌ جدًّا أَنْ هَذَا الشَّهْرَ الْاِقْتِصَادِيُّ هُوَ مِنْ أَيَّامِ السَّنَةِ كَفَائِدَةُ ٨١ فِي الْمِائَةِ . . . فَكَأَنَّهُ يَسْجُلُ فِي أَعْصَابِ الْمُؤْمِنِ حِسَابَ قُوَّتِهِ وَرَبْحِهِ فَلَهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ زِيَادَةُ ٨١ مِنْ قُوَّتِهِ الْمَعْنَوِيَةِ الرُّوحَانِيَةِ .

وسحَّرُ الْعِظَامُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأُمَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ كَيْفَ تَدْتَخِرُ هَذِهِ الْقُوَّةَ وَتَوْفُّرُهَا لِتَسْتَمْدَهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَذَلِكَ هُوَ سِرُّ أَسْلَافِنَا الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَجِدُونَ عَلَى الْفَقْرِ فِي دِمَائِهِمْ وَأَعْصَابِهِمْ مَا تَجِدُ الْجِيُوشُ الْعَظْمَى الْيَوْمَ فِي مَخَازِنِ الْعَتَادِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالذَّخِيرَةِ .

* * *

كُلُّ مَا ذَكَرْتُهُ فِي هَذَا الْمَقَالِ مِنْ فِلَسْفَةِ الصَّوْمِ ؛ فَإِنَّمَا اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » . وَقَدْ فَهَمَهَا الْعُلَمَاءُ جَمِيعًا عَلَى أَنَّهَا مَعْنَى « التَّقْوَى » ، أَمَّا أَنَا فَأَوَّلْتُهَا مِنْ « الْإِتْقَانِ » ؛ فَبِالصَّوْمِ يَتَّقَى الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ كَالْحَيَوَانِ الَّذِي شَرِيعَتُهُ مَعْدَتُهُ ، وَأَلَّا يُعَامِلَ الدُّنْيَا إِلَّا بِمَوَادِّ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ ؛ وَيَتَّقَى الْجَمْتَمْعُ عَلَى إِنْسَانِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَلَا يَكُونُ إِنْسَانٌ مَعَ إِنْسَانٍ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ ؛ يَبِيعُهُ الْقُوَّةَ كُلَّهَا بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَلَسَفِ .

وَبِالصَّوْمِ يَتَّقَى هَذَا وَهَذَا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا خَلْفَهُ ، فَإِنْ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ هُوَ الْحَاضِرُ مِنْ طَبَاعِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَمَا خَلْفَهُ هُوَ الْجَلِيلُ الَّذِي سِيرَتْ مِنْ هَذِهِ الطَّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَيَعْمَلُ بِنَفْسِهِ فِي الْحَاضِرِ ، وَيَعْمَلُ بِالْحَاضِرِ فِي الْآتِي (١) .

(١) يَفْسِرُ الْقُرْآنُ بَعْضَهُ بَعْضًا ، وَمِنْ مَعْجَزَاتِهِ فِي هَذَا التَّأْوِيلِ الَّذِي اسْتَخْرَجْنَاهُ أَنَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِالْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي سُورَةِ (يَس) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ... » =

وكلُّ ما شرحناه فهو انتقاءٌ ضررٍ بلحلبٍ منفعة ، واتقاءٌ رذيلةٍ بلحلبٍ فضيلة ؛ وبهذا التأويل تتوجه الآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً ، لا يأتى البيانُ ولا العلمُ ولا الفلسفةُ بأوجزَ ولا أكملَ من لفظها ؛ ويتوجهُ الصيامُ على أنه شريعةُ اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عامة ؛ يتتقَى بها الاجتماعُ شرورَ نفسه ؛ ولن يتهدَّبَ العالمُ إلا إذا كان له مع القوانين النافذةِ هذا القانونُ العامُ الذى اسمه الصومُ ، ومعناه « قانونُ البطن »

ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضان ! لو عرَفَكَ العالمُ حقَّ معرفتكِ لسمَّكَ : « مدرسة الثلاثين يوماً » .

= ويشير إلى هذا التأويل قول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « إنما الصوم جنة (يضم الجيم) فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقل : إني صائم ، وإني صائم » .
 اللجنة الوقاية يتقَى بها الإنسان ، والمراد أن يعتد الصائم أنه قد صام ليتقَى شر حيوانيته وحواسه ،
 فقله : « إني صائم ، إني صائم » ؛ أى لئنى غائب عن الفحش والجهل والشر ؛ إنى فى نفسى ولست فى حيوانيتى .

ثبات الأخلاق

لو أننى سُئِلْتُ أن أجمل فلسفةَ الدينِ الإسلامى كُلِّها فى لفظين ، لقلتُ :
لأنها ثباتُ الأخلاقِ » ولو سُئِلَ أكبرُ فلاسفةِ الدنيا أن يُوجِزَ علاجَ الإنسانيةِ
كُلَّه فى حرفين ، لما زاد على القول : إنه ثباتُ الأخلاقِ . ولو اجتمع كلُّ علماء
أوربا ليدرسوا المدنيةَ الأوروبيةَ ويَحْصُرُوا ما يُعْزِزُها فى كلمتين لقالوا : ثباتُ
الأخلاقِ ؛

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له
بِدْعاً جديداً ؛ وإنما هو يترقبُ من يستطيع أن يفسرَ له الإسلامَ هذا التفسيرَ ،
ويُثَبِّتَ للدنيا أن كلَّ العباداتِ الإسلاميةِ هى وسائلُ عمليةٍ تمنعُ الأخلاقَ
الإنسانيةَ أن تتبدَّلَ فى الحى فيخلعَ منها ويلبسَ ، إذا تبدلتُ أحوالُ الحياةِ
فصعِدَتْ بإنسانها أو نزلتْ ؛ وأن الإسلامَ يأبى على كل مسلم أن يكونَ إنساناً
حالته التى هو فيها من الثروة أو العلوم ، ومن الارتفاع أو الضعفة ، ومن خمولِ
المنزلة أو نباهتها ؛ ويوجبُ على كل مسلم أن يكونَ إنسانَ الدرجة التى انتهى
إليها الكونُ فى سموه وكَماله ، وفى تَقْلُبِهِ على مَسْأَلِهِ بعد أن صُفِّى فى شريعةٍ بعد
شريعة ، وتجربةٍ بعد تجربة ، وعلمٍ بعد علم .

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّلِ الأخلاقِ بتبدُّلِ أحوالِ الحياة ، فمن كان تقيّاً على
الفقر والأُملاق وحرَمَه الإعسارُ فُنُونَ اللذة ، ثم أيسرَ من بعدُ ؛ جاز له أن
يكونَ فاجراً على الغنى وأن يتسمَّحَ لُفْجوره على مَدَّةٍ ما يتطوَّحُ به المالُ ، وإن
أصبحَ فى كلِّ دينارٍ من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أوفسادهُ .

ومن وُلِدَ فى بطنِ كُؤُخ ، أو على ظَهْرِ الطريق ، وجب أن يبقَى أرضاً
إنسانيةً ؛ كأن الله (سبحانه) لم يَبْنِ من عظامه ولحمه وأعصابه إلا خَربَةً
أدميةً من غيرِ هندسةٍ ولا نظامٍ ولا فنٍ . . . ثم يقابله مَن وُلِدَ فى القصرِ أو
شبه القصرِ فله حكمُ آخر ، كأن الله (سبحانه) قد رَكَّبَ من عظمه ودمه
وتكوينه آيةً هندسيةً وأعجوبةً فنِّ ، وطُرْفَةً تدبير ، وشَيْئاً مع شىء ، وطبقةً
على طبقة .

ولكن الإسلام يقرر ثبات الخلق ويوجبه ويُنشئ النفسَ عليه ، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته ، لأن هناك حدوداً في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة ، ولا بد من الضبط في هذه وهذه ، حتى لا يكونَ وَضْعٌ إلا وراءه تقدير ، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة ؛ وحتى لا تعلو الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كِفَافَتَي ميزان سُلتَاتِ في عِلَاقَةِ تجميعهما وتحركَ كُفُهما معاً ، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالمنازل لتدُلَّ عليه ، وتُشِيلُ بالعالى لتبين عنه ؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنيةُ هذه المدنية .

* * *

إنها لن تتغيرَ مادةُ العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتةٌ مقدرةٌ عليه ، ولن تتبدلَ السُّنَنُ الإلهيةُ التي توجدها وتُفنيها فهي مُصرِّفةٌ لها قاضيةٌ عليها ؛ وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها تكونُ أسرارُ التكوين : وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلّهُ ساجداً في الدم .

هي الغرائزُ تعمل في الإنسانية عملاًها الإلهي ، وهي محددةٌ محكمةٌ على م يكونُ من تعاديبها واختلافِ بينها ، وكأنها خُأَتِ بمجموعها لمجموعها ؛ ومن ثمَّ يكون الخلقُ الصحيحُ في معناه قانوناً إلهياً على قوة كقوة الكون وضبط كضبطه . وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخلق أن يحوّلَ المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصلَّب ، ولكنه يتحولُ معها إذا هو لَانَ أو ضعُف . فهو قَدَرٌ إلا أنه في طاعتك ، إذ هو قوةُ الفَصْلِ بين إنسانيتك وحيوانيتك ، كما أنه قوةُ المَرْجِ بينهما ، كما أنه قوةُ التعديلِ فيهما ، وقد سَوَّخَ القُدرةُ على هذه الأحوالِ جميعاً ، ولولا أنه بهذه المثابة لعاش الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ ، إذ لن يكونَ له حينئذ كَوْنٌ تَوَرَّخَ فضائلُهُ أو رذائلُهُ بمدح أو دم .

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد ، إذ الفردُ مقيدٌ في ذاتِ نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده : فإنك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنِ من أعمالها ، ودائبةٌ كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَنِ أخرى ؛ فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى ؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة ، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها .

فالأخلاقُ على أنها في الأفراد ، هي في حقيقتها حُكمُ المجتمع على أفرادها ؛ فقيّوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير .

* * *

وحين يقع الفسادُ في المُجتمَع عليه من آداب الناس ، ويلتوى ما كان مستقيماً ، وتشتبهُ العاليةُ والسافلةُ ، وتطرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي ، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على التبيح والمنكر ، وتجرى العبرةُ فيما يعتبرونه بالذائل والمحرمات ، ولا يعجبُ الناسَ إلا ما يفسدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحلُّ في محل العادة ؛ فهناك لامسالكُ للخلقِ السليم على فرد ، ولا بد من تنوُّل الفرد في حقيقته ؛ إذ كان لا يبقى أبداً إلا مُتصدِّعاً في كل مظهره الاجتماعية ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً ، وكأنه متقلِّبٌ من عالم إلى عالمٍ ثانٍ بغير نواويسِ الأول .

وما شدَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفرادُ من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل في تاريخ الإنسانية : لا يُبعثُ أحدُهم إلا ليهيِّجَ به الهياجُ في التاريخ ، ويستطرقَ به الناسُ إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ ؛ لا سريعتُه ومبادئُه وآدابه ؛ وأما الحكماءُ الناصحون فهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنةٌ بشريةٌ مُحَصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم ، فلهم في ذاتِ أنفسهم عصمةٌ ومَسْعَةٌ كالجبال في ذات الأرض .

* * *

الأخلاقُ في رأيي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة ، فالإصلاحُ فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات ، أي من ناحية المجتمع والناظمين على حكمه . وعندي أن للشعب ظاهراً وباطناً ؛ فباطنه هو الدينُ الذي يحكم الفردَ ، وظاهره هو القانونُ الذي يحكم الجميع ، ولن يصلحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينيُّ المتصلُّ بالغيب مثله ؛ ومن هنا تبيَّنُ مواضعُ الاحتلالِ في المدنية الأوروبية الجديدة ؛ فهي في ظاهر الشعب دون باطنه ، والفردُ فاسدٌ بها في ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّلَ من الدين ، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي

تفرضها القوانين ، فلا يبرحُ هازئاً من الأخلاق ساخرأ بها ؛ لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتدُّ بها إلا إذا درتْ بها منفعة ، وإلا فهي ضارةٌ إذا كانت منها مضرّةٌ ، وهي مؤلة إذا حالتْ دون اللذات . ولا ينفكُ هذا الفردُ يتحول لأنه مطلقٌ في باطنه غيرُ مقيّد إلا بأهوائه ونزعاته ، وكلماته الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات ؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ ، وليكن السببُ ما هو كائن . . .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ في أوربا إذا فسّىَ المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرتهم الملحدون ، وهم اليومَ يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى في طوائف منهم قد خربتْ أنفسهم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحولَ الذى أومأنا إليه ، فإذا أعصابُهم بعد الحرب ما تزال محاربةً مقاتلةً ترمى في كل شىء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفنِ والبلى . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق .

وقديماً حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوّخوا الأمم ؛ فأثبتوا في كل أرضٍ هدًى دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم ؛ وذلك بثبات باطنهم الذى لا يتحول ، ولا تستخفه الحياةُ بنزقها ، ولا تتسفههُ المدينياتُ فتحملهُ على الطيش .

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قدّفت به الدنيا ، لبقيت لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كلَّ مسلمٍ فإنما هو وعقليتهُ في سلطان باطنه الثابت القارّ على حدود بينة مُحصّلة مقسومة ، تحوطُها وتُمسكها أعمالُ الإيمان التى أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكامٍ بفرضها على النفوس منوعةً مكررةً : كالصلاة والصوم والزكاة ، ليمنعَ بها تغيراً ويحدثَ بها تغيراً آخر ، ويجعلها كالحارسة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتتعدها بين الساعة والساعة^(١).

إنما الظاهرُ والباطنُ كال موج والساحل ؛ فإذا جنَّ الموجُ فلن يَضِيره ما بقى الساحلُ ركيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده في طبقات الأرض . أما إذا ماجَ

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا : كقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم)

الساحل . . . فذلك أسلوبٌ آخرٌ غير أسلوب البحار والأعاصير ؛ ولا جرمَ ألا يكونَ إلا خَسَفًا بالأرض والماء وما يتصلُ بهما .

* * *

في الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ في الإنسان قانونٌ مثله لا بد منه لضبط معاني الإنسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكلُ فروض الدين الإسلامي وواجباته وآدابه ، إنْ هي إلا حركةُ هذا القانون في عمله ؛ فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتة لخلقِ الحسِّ الأدبي ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله في ناموس طبيعي بإجرائه في الأنفس مسجى العادة ، وجعله بكل ذلك قوةً في باطنها ، فتُسَمَّى الواجبات والآداب فروضاً دينيةً ؛ وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية ، وتكون أوامرٌ وهي حقائق^(١) .

ومن ذلك أَرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففي أنفسنا ضوابطٌ قويةٌ متينة إذا نحن أقرنا مدنيّتهم فيها - وهي بطبيعتها لا تقبلُ إلا محاسنَ هذه المدنية - سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم ، وكنا الطبقةَ المُصفّاةَ التي يَنشُدونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئ هذه المدنية ولم ننشئها ، فليس حقاً علينا أن نأخذَ سيئاتها في حسناتها ، وحماقتها في حكمتها ، وتزويرها في حقيقتها ؛ وأن نُسيغَ منها الحُلوة والمرّة ، والناضجة والفجّة ؛ وإنما نحن نُحصّلها ونقتبسها ونرتجعُ منها الرّجعةَ الحسنة ؛ فلا نأخذُ إلا الشيءَ الصالح مكانَ الشيء قد كان دونه عندنا ونُدعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا نُدعُ إلا على الأصول الضابطة المحكمة في أدياننا وآدابنا ؛ ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيّتهم بمثل ماضيهم ، بسبب أن العجسب الذي ما يفرغ عجبى منه ، أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وهلةٍ وآخرها إلا

(١) هذا هو الذي فعل منه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلده ، ومن اتخذهوا فيه ؛ ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامي كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه الممانى قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة . . . !

هدم تلك الضوابط التي هي كل ما نمتاز به ، والتي هي كذلك كل ما تحتاج إليه أوروبا لضبط مدنيتهما ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولهمو بأن يسمى حماقة وجهلاً أولى وأحق .

أقول ولا أبالي : إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقل من لغات أوروبا ، ولا عقل إلا عقل ما ينقلونه : فصنععتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون صنعة تقليد محض ومتتابعة مستعبدة ، وأصبح عقولهم — بحكم العادة والطبيعة — إذا فكّر انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه . وإذا صح أن أعمالنا هي التي تعملنا — كما يقول بعض الحكماء — فهم بذلك خطرٌ أي خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه إلى شعب آخر ...

* * *

إن أوروبا ومدنيتهما لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلمومها وفنونها ، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره أيها كان ؛ ولها وحدها ، وباعتبار منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوروبا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نترك الثبوت في هذا ولا أن نتسامح في دقة المحاسبة عليه .

فالحفاظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا ، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ، ثم العمل على اتحاد المشاعر وتمارّجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملة بتقويم أجزائه — هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق .

والإلحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوروبية التي لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر في أجمل أشكاله ، ثم الجهل بعلموم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحيطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى ، ثم التدليس على الأمة

بآراء المقلّدين والزائفين والمستعمرين لمحقّ الأخلاق الشعبية القوية وما انصل
بذلك ، ثم التخاذلُ والشقاقُ وتدابرُ الطوائف وما كان بسبيلها - تلك هي
المعاولُ الأربعةُ التي لا يتهدم غيرها بناء الشرق .

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقنا قبل مدنيّتهم .

قلت لنفسي . . .

وقالت لي . . . (١)

قلتُ لنفسي : ويحك يا نفس ! مالى أتحمَلُ عليك ؛ فإذا وفيتَ بما فى وسْعِكَ أردتُ منك ما فوقه وكلَّفْتُكَ أن تَسْعَى ؛ فلا أزال أُعْنِتُكَ من بعد كمالٍ فيما هو أكملُ منه ، وبعدَ الحَسَنِ فيما هو الأحسن ؛ وما أنفكُ أجهْدُكَ كلِّما راجَعَكَ النشاط ، وأضنيكَ كلما ثابَتَ القوة ؛ فإن تكن لك همومٌ فأنا أكبرُها ، وإذا ساوَرَتْكَ الأحزانُ فأكثرُها مما أُجْلِبُ عليك . أنت يانفسُ سائرةٌ على النَّهْجِ ، وأنا أعتَسِفُ بك أريد الطيرَانَ لا السَّيرَ ، وأبتغى عملَ الأعمارِ فى عُمْرٍ ، وأسْتَحْثُّكَ من كلِّ هَجْعَةٍ راحةً بفجرِ تعبٍ جديدٍ ، وكأنى لكِ زَمَنٌ يُمَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فما يبرحُ يَنْسَبِقُ عليكِ من ظلامِ بنورٍ ومن نورٍ بظلامٍ ؛ لِيُهِتِيَ لكِ القوَّةُ التى تمتدُّ بكِ فى التاريخِ من بَعْدٍ ، فتذهبين حين تذهبين ويعيشُ قلبُكِ فى العالمِ ساريًا بكلماتِ أفراحِهِ وأحزانِهِ .

وقالت لي النفس : أمّا أنا فإنى معكِ دأبًا كالحبيبةِ الوفيّةِ لمن تُحِبُّهُ : ترى خضوعَها أحيانًا هو أحسنُ المقاوَمَةِ ؛ وأمّا أنتِ فإذا لم تكن تعبُ ولا تزالُ تتعب فكيف تُرينى أنكِ تتقدّمُ ولا تزالُ تتقدّمُ ؟

ليستِ دُنْيَاكِ يا صاحبي ما تجدُهُ من غيركِ ، بل ما تُوجِدُهُ بنفسكِ ؛ فإن لم تَزِدْ شيئًا على الدنيا كنتِ زائدةً على الدنيا ؛ وإن لم تَدْعَها أحسنَ مما وجدتها فقد وجدتها وما وَجَدْتَكَ ؛ وفى نفسكِ أولُ حدودِ دُنْيَاكِ وآخرُ حدودِها . وقد تكونِ دُنْيَا بعضِ الناسِ حانوتًا صغيرًا ، ودُنْيَا الآخرِ كالقَرْيَةِ المُسَلَّمَةِ (٢) ، ودُنْيَا بعضهم كالمدينةِ الكبيرةِ ؛ أما دُنْيَا العَظِيمِ فقارَةٌ بأكملها ، إذا نسوةً امتدَّتْ فى الدُّنْيَا فكان هو الدُّنْيَا .

(١) كتبت فى ساعةٍ ضجرٍ ، من هذه الساعاتِ الطارئةِ على الروحِ ، يخيل للمرءِ فيها أنه هو وحده وحده ؛ ذاك فى وجودِ نفسه خاصةً ، والآخر فى وجودِ الطبيعةِ كلها .
(٢) أى الصغيرةِ تقومُ بالدورِ القليلةِ المَجْتَمعةِ .

والقوةُ يا صاحبي تَغْتَنِي بالتَّعبِ والمُعَانَاةِ ؛ فما عَانَيْتَهُ اليومَ حَرَكَةً من جسمك ، أَلْفَيْتَهُ غَدًا في جسمك قوَّةً من قُوَى اللحم والدم . وساعةُ الراحة بعد أيام من التعب ، هي في لذَّتِها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة . وما أشبهَ الحَيَّ في هذه الدنيا وَوَشَكَ انْقِطَاعِهِ منها ، بِمَنْ خُلِقَ ليعيشَ ثَلَاثَةَ أيامٍ معدودةً عليه ساعاتُها ودقائقُها وثوانِها ؛ أفسُتْراه يَغْفُلُ فيَقْدَرُها ثَلَاثَةَ أعوامٍ ، ويذهبُ يُسْرِفُ فيها ضُرُوبًا من لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ ومُجُونِهِ ، إلا إذا كان أحمقَ أحمقٍ إلى نهايةِ الحُمُقِ ؟

اتعبَ تعبَكَ يا صاحبي ، في الناسِ تَعَبُ مخلوقٍ من عمله ، فهو لَيْسَ "هَيْنٌ" مُسَوًى تسويةً ؛ وفيهم تَعَبُ خالقٍ عملته ، فهو جَبَّارٌ متمردٌ له القَهْرُ والغَلَبَةُ . وأنتَ إنما تكدُّ لتسموَ بروحك إلى همومِ الحقيقةِ العاليةِ ، وتسموَ بجسمك إلى مشقاتِ الرُّوحِ العظيمةِ ؛ لذلك يا صاحبي ليسَ تعبًا في حفرِ الأرضِ ، ولكنه تعبٌ في حفرِ الكنزِ .

اتعبَ يا صاحبي تعبَكَ ؛ فإن عَنَاءَ الروحِ هو عُمُرُها ؛ فأعمالُك عُمُرُك الرُّوحانيُّ ، كعُمُرِ الجسمِ للجسمِ ؛ وأحدُ هَذينِ عُمُرٌ ما يعيشُ ، والآخرُ عُمُرٌ ما سيعيشُ .

* * *

قلتُ لنفسِي : فقد مللتُ أشياءَ وتبرَّمتُ بأشياءَ . وإن عَمَلِ التَّغْيِيرِ في الدنيا لَهَوٌ هَدْمٌ لها كلما بُنِيَتْ ، ثُمَّ بِنَاؤُها كلما هُدِمَتْ ؛ فما من شيءٍ إلا هو قائمٌ في الساعةِ الواحدةِ بصورتين معًا ؛ وكَم من صديقٍ خلطتُهُ بالنفسِ يذهبُ فيها ذَهَابَ المَاءِ في المَاءِ ، حتى إذا مرَّ يومٌ ، أو عَهْدٌ كاليومِ ، رأيتُ في مكانه إنسانًا خياليًّا كمْسألةٍ من مسائلِ النُّحَاةِ فيها قَوْلَانِ . . . ! فهو يَحْتَمِلُ في وقتٍ واحدٍ تأويلَ ما أَظُنُّ به من خيرٍ ، وما أَتَوَقَّعُ به من شرٍّ ! وكَم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَسَ في خاطري قلتُ : آه ، هذا الذي كان . . . !

أما واللهِ إن ثيابَ الناسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهًا في رَأْيِ النفسِ ، مما تجعلُهُم وجوهُهُم التي لا تختلفُ في رَأْيِ العينِ : وإني لأرى العالمَ أحيانًا كالقطارِ السريعِ منطلقًا بِرَكْبِهِ وليس فيه مَنْ يقوده ، وأرى الغفلةَ المُفْرِطَةَ وحى القلم - ثان

قد بلغت من هذا الناس مبلغاً من يظنُّ أنه حىٌّ في الحياة كالموظَّف تحت التجربة ، فإذا قَضَى المدة قِيلَ له : ابدأ من الآن . كأنه إذا عاش يتعلَّم الخيرَ والشرَّ ، ويدركُ ما يصلُحُ وما لا يصلُحُ ، وانتهى من عمره إلى النهاية المحدودة — رَجَعَ من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة ، وفي إدراكٍ وتمييز . مع أن الحرافةَ نفسها لم تقبل قط أن يُعَدَّ منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحنَّ أجسده فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه ؛ بل وجدوه مولوداً في فراشه !... !

وقالت لى النفسُ : وأنت ما شأنك بالناس والعالم ؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقولَ : « إن الطريقَ مظلم » . إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقولَ : « هأنذا مضى » .

والحكيم لا يَضْجَرُ ولا يَضْيقُ ولا يَتَمَلَّسُ ، كما أنه لا يَسْخُفُ ولا يَطِيشُ ولا يَسْتَرْسِلُ في كَذِبِ الوهم ؛ فإن هذا كله أثرُ الحياة البهيمة في هذه البهيمية الإنسانية ، لا أثرُ الروح القويَّة في إنسانها . والحيوانُ هو الذى يجوعُ وبشع لا النفسُ . وبين كل شيئين مما يَتَعَوَّرُ الحيوانية — كالحلوى والامتلاء ، واللذة والألم — تعمل قوَى الحيوان أشياءها الكثيرة التى تتسلط بها على النفس ، لتَحْطُها من مرتبة إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أولُ الحكمة ضَبَطَ الأدوات الحيوانية في الجسم ، كما توضع اليدُ العاملة على مفاتيح القطار المنطلق يَتَسَعَّرُ مِرْجَلُهُ ويغلى .

اعملْ يا صاحبي عملك ؛ فإذا رأيت في العاملين من يَضْجَرُ فلا تضجِرْ مثله ، بل خذ اطمئنائه إلى اطمئنانك ، ودعه يخلو وتَضَاعَفُ أنت .

إنه ليسُ عليك أن يكونَ في الناس ناسٌ (كالبُنوك) ؛ هذه مُسْتَوْدَعَاتُ للمال تحفظه وتُخْرِجُ منه وتُسَمِّرُهُ ، وتلك مستودعاتُ للفصائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها . وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال ، هو إطلاقُ النكبةِ مُسَدَّسَهَا على رجلٍ تقتله ؛ ولكن إفلاسُ (بنكٍ) هو إطلاقُ النكبةِ مِدْفَعَهَا الكبير على مدينةٍ تَدْمَرُها .

قلت لنفسي : فما أَشدَّ الأَلمَ في تحويل هذا الجسد إلى شِبْهِ رُوحٍ مع

الروح ! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء ، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة . والأسد المحبوس محبوبته فيه قوته وطباعه ؛ فإن زال الوجود الحديدي من حوله أو هنت ناحيته منه ، انطلق الوحش . والرجل الفاضل فاضل ما دام في قفصه الفكري ، وهو ما دام في هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح الممكن في النفس الإنسانية : تضيئه السيئة من الناس لتختبر فيه الحسنة ، وتبزه الخيانة لتجد الوفاء ، ويكرهه البغض ليقابله بالحب ، وتأتيه اللعنة لتجد المغفرة ؛ وله قلب لا يستعب فيبلغ منزلة إلا ابتداء التعب ليلبغ منزلة أعلى منها ، وله فكر كلما جهده فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها .

وقالت لى النفس : إن من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة ؛ إن الشيء النهائي لا يوجد إلا في الصغائر والشر ، أما الخير والكمال وعظام النفس والجمال الأسنى ، فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها : كالهواء يتنفسه ككل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهي ، ولا يعرف أين ينتهي ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الأرض ، يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار .

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الإنسانية أصلاً صغيراً يجمع فكرة الخير والكمال وعظام النفس والجمال الأسنى ، وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها ، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها : ألا وهو الحب .

لا بد أن تمر كل حياة إنسانية في نوع من أنواع الحب ؛ من رقة النفس ورحمتها ، إلى هوى النفس وعشقها .

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً ، وضع يده على المفاتيح العصبية للنفس ، وفتح للعظام والمعجزات أبوابها ؛ حتى إنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة ، وبملا الحياة بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهي ؛ إذ هو سر لا يدرك ولا يعرف .

اجتهد جهداً يا صاحبي ، فما هو قفصك الفكري ذلك الشعاع الذي

يجسك ، ولكنه صَقِلُ النفسِ لتتلقى الأنوار ، ولا بدّ للمرأة من ظاهرٍ غير
ظاهرٍ الحجَرَ لتكونَ به مرآة .

قلتُ لنفسى : فما أشدّه مضضاً أعانيه ! إن أمرى ليذهب فُرطاً^(١) .
أكلما ابتغيتُ من الحياة مَرَحاً أطربُ له وأهتزّ ، جاءتنى الحياةُ بفكرة أُستكِدُّ
فيها وأدأب ؟ أهذا السرورُ الذى لا يزال يقَعُ بين الناس هو الذى لا يكاد يقَعُ
لى ؟ وهل أنا شجرةٌ فى مَغْرَسها : تنمو صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها ، غير
أنها لا تبرحُ مكانها ؟ أو أنا تمثالٌ على قاعدته : لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةً
لا يكون تمثالاً ، ولا يدعُها حتى تدعّه معانى العظيمةِ التى نُصب لها ؟

قالت لى النفس : ويحك ! لا تطلب فى كونك الصغير ما ليس فيه ؛ إن
الناسَ لو ارتفعوا إلى السماء وتقلّبوا فيها كما يسيحُ أهلُ قارّةٍ من الأرض فى
قارّةٍ غيرها ، وابتغوا أن يحملوا معهم مما هناك تذكّاراً صغيراً إلى الأرض —
لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها ؛ فأنت سائحٌ فى سموات .

أنت كالنائم : له أن يرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى إلا وصفّه ،
وحكمتّه ، والسرورَ بما التذّ منه ، والألمَ بما توجّع له .

لن تكونَ فى الأرض شجرةٌ يبرجلين تذهبُ هنا وهنا ، ولكن الشجرة
ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهى تُبدع الثمارَ إبداعَ المؤلف العبقريّ ما يؤلفه
بأشدّ الكدِّ وأعظم الجهد ، مُطلّقةً ضميرها فى الفكرة الصغيرة ، تعقّدُها
شيئاً شيئاً ، ثم تعود عليها بالزيادة ، ولا تزال كلّ وقت تعود عليها حتى تستفرغَ
أقصى القوة ؛ ثم يكونُ سرورها فى أن تهبَ فائدتها ، لأنها لذلك وُجِدَتْ .
إن فى الشجرة طبيعةً صادقةً لا شهوةً مكذوبة ؛ فالحياةُ فيها على حقيقتها ،
وأكثرُ ما تكون الحياةُ فى الإنسان على مَسْجَازِها ؛ وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ
والتلوين ؛ ولكن متى اختار الله رجلاً فأقرّ فيه سرّاً من أسرار الطبيعة الصادقة ،
ووهب له العاطفةَ القادرةَ التى تصنعُ ثمارها — فقد غرّسه شجرةً فى منبتهَا
لا مفرّاً ولا مسندوحه ، وقد يُخَسِّلُ له ضعفُ طبيعته البشرية أحياناً أن نصرةُ
المجد التى تملوه وتألّقُ حوله كشعاع الكوكب ، هى تعبُهُ وضجرُهُ ، أو أثرُ

(١) أى مجاوزاً فيه عن الحد .

انخداله وألمه ومسكنته ؛ وهذا من شقاء العقل ؛ فإنه دائماً يضيف شيئاً إلى شيء ، ويختلط معنىً بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ما هي ؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ؛ والعقل لا يرى أمامه إلا الإلهية ، فهو يقلدها في مدّ آخلاقه الأشياء بعضها في بعض ، لإيجاد الأسرار بعضها من بعض .

ومن ثمّ كانت الحقيقة الصريحة الثابتة مدعاةً للملل العقليّ في الإنسان ، لا يكاد يُقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمخ في غيره ، وما فاز بلذة إلا ليزهد فيها ، وأجل ما أحبه الإنسان أن يناله ، فإذا ناله وقع فيه معنى موته ، وبدأ في النفس عمراً آخر من حالة أخرى ، أو مات ولم يسبداً ؛ فلا بدّ لهذا الإنسان مع كل صواب من جزءٍ من الخطأ ، فإن هو لم يجد خطأ في شيء ائتمنك لنفسه (١) الخطأ المضحك في شبه رواية خيالية .

إنه لشعر سخيف بالغ السخافة أن يتخيل الغريق مفكراً في صيد سمكة . . . ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند القتل الذي يبحث عن وهم يضيفه إلى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق اللذة عن ألم يتألم به ليعبّس فيه !

* * *

قلت لنفسي : فهل ينبغي لي أن أحرق دمي لأني أفكر ، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسنة بمنظار مكبر : لا يريه ذلك الوجه المعشوق إلا ثقباً ونخرين كما أنه خشبة نزع منها مسامير غليظة . . . ! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال ؟ وهل بدّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما اوتوه له من عمل يحيا به ؛ فلا يكون الحودى حودياً إلا لشبهه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالت لي النفس : إن فأس الخطأ لا تكون من أداة الطيب ؛ فخذ لكل شيء أدواته ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثل الجهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة ؛ فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرفف ، ولولا هلك الأنبياء والحكماء والشعراء غماً وكمداً ، ولكانوا في هذا الوجود ، على

(١) كذب واخترع ، ومنه حديث الإفك .

هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذى قُبِدَ وَحُبِسَ فى رَهَجٍ تُشِيرِدُ التَّمَدَّمَ والخُفُّ والحافر : لا يَتَنَفَّسُ إِلَّا الغبارَ يُشارِ مِنْ حوله إِلَى أن يُقْفَضَ عَلَى .

اجْهَلُ جَهْلَكَ يا صاحِبِ فى هذه الشهوات الخسيسة ؛ فَإِنَّها العَامُ الخَبِيثُ الذى يَفْسُدُ الروح ، واعْرِفْ كيف تَقولُ لِرُوحِكَ الطَّافِلَةِ فى ملائِكَتِها حين تُساورُكَ الشهوات : هذا ليس لى ؛ هذا لا يَنْبَغى لى .

إِنَّ الروحَ الكبيرةَ هى فى حَقِيقَتِها الطِّفْلُ الملائِكى .

وعِلْمُ حَسائِسِ الحِياةِ يَجْعَلُ لِلإنسانِ فى كُلِّ خَسِيسَةٍ نَفْسًا تَتعلقُ بِها ، فيكونُ المَسْكِينُ بَيْنَ نَفْسَيْنِ وثَلَاثَ وَأَرْبَعَ ، إِلَى ثَلَاثَيْنِ وَأَرْبَعِينَ كُلَّهِنَّ يَتَنَازَعُنَّه ، فيضِيعُ بِهذه الكثرة ، وَيُصْبِحُ بَعْضُهُ بِلَاءً عَلَى بَعْضٍ ، وَتَشْغَلُهُ الفُضُولُ ، فيعودُ لَهَا كالمزبلةِ لما أُلْقِيَ فِيها ، وَيُسَمِّحُ فى نَفْسِهِ الطَّبِيعِيَّةِ حَسَّ الفَرَحِ بِجَمالِ الطَّبِيعَةِ ، كما يُسَمِّحُ فى المَزبَلَةِ مَعْنَى النِّظَافَةِ وَمَعْنَى الحَسَنِ بِها .

هذه الأَنْفُسُ الخِىَالِيَّةُ فى هذا الإنسانِ المَنكُودِ ، هى الأرواحُ الَّتِى يَنْفَعُخُها فى مَصائِبِها ، فَتَجْعَلُها مَصائِبَ حَيَّةٍ تَعِيشُ فى وجودِهِ وتَعْمَلُ فِيهِ أَعْمالَها ، وَلَوْلَاها لَمَاتَ فى نَفْسِهِ مَطامِعُ كَثِيرَةٌ ، فَهَاتَتْ لَهُ مَصائِبُ كَثِيرَةٌ .

انْظُرْ بِالروحِ الشاعرةِ ، تَرَى الكونَ كُلَّهُ فى سَمائِهِ وَأَرْضِهِ انْجِسامًا واحداً لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الجِمالُ والسَّحَرُ وَفَتَنَةُ الطُّربِ ؛ وانْظُرْ بِالْعَقْلِ العالِمِ ، فَلَنْ تَرى فى الكونِ كُلِّهِ إِلَّا موادَّ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ والكِيمياءِ .

وَمَدَى الروحِ جِمالُ الكونِ كُلِّهِ ؛ وَمَدَى العَقْلِ قِطْعَةٌ مِنْ حَجَرٍ ، أَوْ عَظْمَةٌ مِنْ حَيوانٍ ، أَوْ نَسِيجَةٌ مِنْ نَباتٍ ، أَوْ فِلْدَةٌ مِنْ مَعْدِنٍ ، وَمَا أَشْبَهَها .

اجْهَلُ جَهْلَكَ يا صاحِبِ ؛ ففى كُلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بِشَرطِ أَلَّا تَكُونَ العاشِقَ الطامعَ ، وَإِلَّا أَصَبْتَ فى كُلِّ حَسَنِ هَمًّا وَمَشْغَلَةً . . . !

قُلْتُ لِنَفْسِي : إِلَى الآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ ذَلِكَ المَعْنى الذى كَتَمْتَهُ عَنْكَ .

وَقَالَتْ لى النَفْسُ : وَإِلَى الآنَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِلَّا جِوابَ ذَلِكَ الذى كَتَمْتَهُ عَنى . . .

الانتحار*

١

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ : بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَدَوَادُّ الْأَزْدِيِّ ، وَجَمَاعَةٌ — أَقْبَلَ فَتَنَى فْجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا ، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي ؛ لَا أَمْدُ نَظَرِي إِلَّا انْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ ، فَرَأَيْتُهُ يُتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا ؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ — وَكَانَ خَافَتِ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ ، وَكُنَّا نَسْمِيهِ النَّمْلَةَ الصَّخَّابَةَ — رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَرَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِيْسُ نَمَلِنَا .

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ : اجْتَرَزْتُ أَنَا وَالشَّعْبِيُّ^(١) أَمْسَ بِعَمْرَانَ الْخِيَّاطِ ، فَازَاحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ : عِنْدَنَا حَبٌّ^(٢) مَكْسُورٌ ، تَخْطِطُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْطٌ مِنْ رِيحٍ ! فَقُلْتُ أَنَا : فَازْهَبْ فَجَنِّدْنَا بِالْمِغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنَصْنَعَ لَكَ الْخَيْطَ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَسَادُّرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفَقُ لَهُ ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ : أَيْكُمَا الشَّعْبِيُّ ... ؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ : هَذِهِ ... !

قَالَ الْمُسَيَّبُ : وَضَحَكْنَا جَمِيعًا ، وَأَخَذَ نَظَرِي الْغَلَامَ فَلِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزْنًا وَهَمًّا ، وَكَأَنَّهُ لَا يُتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعَ ، بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا ، فَتَتَوَزَّعَ خَوَاطِرُهُ ، فَيَتَبَدَّدَ اجْتِمَاعُهَا عَلَى هَمٍّ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا ، كَمَا يَفْعَلُ الْحَزُونُ فِي مَغَالِبَةِ الْحَزْنِ وَمُدْافَعَتِهِ : يَشْغَلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعًا ، فَيَكُونُ الْحَزْنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ .

* انظر سبب إنشائه هذه المقالات الست في « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » .

(١) هو الإمام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها . عن بضع وثلاثين سنة ، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الإسلام : سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج) ، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة : بنته الصغيرة) ، ومكحول في الشام ، والشعبي هذا في الكوفة . وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه .

(٢) الحب (بكسر الحاء) : هو الزهر ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقال لرشحه : قطر حب .

فقلت في نفسي : أمرٌ أَمَاتَ الضَّحِكَ في هذا الفتي وكَسَرَحِدَتَهُ وشبابته .
ثم تحولتُ إليه وقلت : رأيتُكَ يا بنيّ مقبلاً علينا كالمُنْصَرِفِ عنا ؛ فما بالُكَ لم
تضحك وقد ضحكنا جميعاً ؟

قال : إلهيكَ عني يا هذا ؛ فأين مني الضَّحْكُ وأنا على شَفِيرِ القبر ، وروح
الترابِ ماليءٌ عينيَّ في كلِّ ما أرى ، وكأنَّ حُفْرَتِي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها
لتأخذني فيها ، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ ؛ رَجُلٌ في الدنيا ورجلٌ في الآخرة !

قلت : فأعلمني ما بك يا بني ؛ فلقد احتسبتُ ولدًا لي كان في مثلِ سنِّكَ
وشبابك ولم أرزق غيره ، فقلِّدْ بعده مريضٌ به ، يتوسَّمُهُ مُفْرَقًا في لِدَاتِهِ ،
مُتَوَهِّمًا أن وجوههم تجمعهم بملامحه ؛ فأنا من ذلك أحبَّهم جميعاً وأطيلُ النظرَ
إليهم والتأمُّلُ في وجوههم ، ولست أرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبي حديثٌ ! فإن
رأيتُهُ حزينًا مثلك تَقَطَّعَتْ له من إشفاقٍ ورحمة ، وطالعتني فتاى في مثلِ
همِّه وحزنه وانكساره ؛ فيعود قلبي كالعين التي غشَّاهَا الدمع ، تحمل أثرَ الحزنِ
ومعنائه وسرِّه ؛ فبُشِّي ما تجدُ يا بنيّ ، فلعل لي سببًا إلى كَشْفِ ضُرِّكَ أو إسعافِكَ
بِحاجتك ؛ ولعلك تكون قد حزنتَ من أمرٍ قريبِ المتناولِ هيِّنِ المحاولةَ ، لم يجعله
عندك كبيراً أنه كبير ، ولكن أنك أنت صغير .

قال الفتي : مهلاً يا عم ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تنقاد
فيه الوسائل ، ولا علاجٌ منه إلا بالموت يأخذنا ويأخذه !

قلت : يا بنيّ ، هذه كلمة ما أحسبُ أحداً يقولها إلا من أخذَ للقتلِ
بِجَنائِهِ ولم يَعْفُ أهلُ الدم ، فهل جنيتَ أوجني أبوك على أحد ؟

قال : إن الأمرَ قريبٌ من قريب ، فإني تركتُ أبي الساعةَ مُجمِعاً على
إزهاقِ نفسه ، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثقَ من الباب !

قال المسيَّبُ : فكأنما لدغتنِي حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون
رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسه : فَتَنَاهَضْتُ ، ولكن الغلامَ أَمْسَكَ بي وقال : إنه
لا يزالُ حيًّا ، وسيقتلُ نفسه متى أظلم الليلُ وَهَمَدَتِ الرَّجُلُ .

قلت : الحمد لله ، إن في النورِ عقلاً ، ولكن ما الذي صار به إلى ما قلت ،
وكيف تركته لِقَدَرِهِ وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لى : يا ولدى ، ليس لك أبٌ بعدى ؛ فإن أردتَ
الحقاقَ بى فارجع مع الليل لتُسَلِّمَ أنفسنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجع مع الصبح
لتُسَلِّمَنى إلى غاسلى !

قلت : أأأمنُ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينك تُمسِكُ
يده وتردُّه عما يَهْمُ به ، حتى إذا خلا وجهه منك أزهق نفسه ؟

قال : لم أدعُه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع
لأموتَ معه ؛ فإن لم تمسكه يمينه أمسكه انتظارى ، وقد فرغتَ الحياةُ منا فلم
يبقى إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيها كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ،
لم يسرِ الناسَ من نفسه ضعةٌ ولا استكافة : وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الإمامَ
(الشعبي) وجهاً من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به
النازلاتُ ، وتعذرَ القُوتُ ، واشتدَّ الضرُّ ، وتبدَّلتْ به المسكنةُ إلى حَضِيضِها ،
وألحى إلى أحوال دَقَّتْه دَقَّ الرَّحَى لما تدور عليه ، ولم يعدْ له إلا رأىٌ واحد
فى معنى الدنيا : هو أنه مكذوب مزوَّر على الدنيا .

قلت : يا بنى ، فلانى أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحَقِّ محاقه ، وهو اليوم فى
أحلك الليالى وأشدها انطماساً ؛ جهَّده الفقر ، وباليته كان الفقر وحده ، بل
انتهكتَه العِلالُ ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأتَه
فماتتَ همّاً به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلُّ من ثلاثتنا يحيا
للأثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعلُ كلاً منا لا يفرغُ إلا امتلاً ، ولما ذهبت
الأمُ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها ، وكانت هى وحدها تُرينا
الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياةُ فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على
أنها مجاهدةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة . . . !

قلت : يا بنى ، فإنك والله مع أدبك لحكيم ، وإنى لأنفَسُ بك على
الموت ، فكيف ردتك حياةُ أمك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حياً لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان
يملك من أسبابِ القوة ، حين أخذَ القلبَ الشفيق الذى كان يجعله يرتعد إذا

فكّر في الموت : فهو الآن كالذى يحاربُ عن نفسه تِلْقاءَ عدوّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوّه فالرأى قتلُ نفسه ليستريحَ من تنكيل العدو به .

* * *

قال المسيّب بن رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ تَحِلَّةً يطمئنُ إليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسه كالْمُضْطَرَّ أو الْمُكْرَهَ ؛ فأشفقتُ أن أكسِرَ نفسه إذا أنا حدّثته أو أفْتِيتُهُ ؛ وقلت : هذا مريض يحتاج العلاجَ لا الفُتْيَا ؛ وكان إمامنا (الشعبيُّ) حكماً لَحِيناً فَطِناً ، سَفَرَ بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكونَ فينا مثله . وقلتُ : لعل الله يُحدث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكلمه وأرفقه عن نفسه . وقلت له : أما تدري أنك حين فرغتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطع في عُرْعُرَةِ الجَبَلِ ينظر من صَوْمَعَتِهِ إلى الدنيا ، ليس بأَحْكَمَ ولا أَبْصَرَ مِمَّنْ ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يا بُنَى : إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهِدَةِ الرذيلة هو في نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العَفَّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاءُ والبرُّ والإحسانُ وغيرُها ، إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل ؟ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وإيمُ الله إن الخالي من مجاهِدَةِ الرذائل جميعاً ، لهُوَ الخالي من الفضائل جميعاً !

يا بُنَى : إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قَسَمَ حَ هذه الإنسانية : يَنْسَبُونَ وَيُحْصِدُونَ وَيُطَحِّسُونَ وَيُعْجَسُونَ وَيُخْزَبُونَ ، ليكونوا غداءَ الإنسانية في بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين ، كأن في أعراقكما دم نبيٍّ يُقْتَل أو يُصَلَّب !

قال المسيّب : وانتهينا إلى دار الشعبيِّ ، فطَرَقْتُ البابَ ؛ وَجَّاهُ الشيخ ففتح لنا . وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرْتُ فَقُلْتُ : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كَيْفَ وَكَيْفَ ، فترادفت عليه المصائبُ ، وتواترت النكباتُ ، وتواترت الأسماءُ . . . ثم اقتصصتُ ما قال ابنه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإِنَّه الآن مُوشِكٌ

أَنْ يُزْهِقَ نَفْسَهُ وَسَيِّبَعَهُ ابْنُهُ هَذَا ؛ وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) فَجَاءَ يَسْأَلُكَ : أَيْمُوتَ مُسْلِمًا مِنْ أَلْجَى وَأَكْرَهٍ وَاضْطُرَّ وَاسْتَضَاقَ وَاخْتَلَّ ، فَتَحَسَّنَى سُمًّا فَهَلْكَ ، أَوْ تَوَجَّأَ بِجَدِيدَةٍ فَتَقَضَّيَ ، أَوْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِنَصْلٍ فَخَفَّتْ ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَا رَقَا دَمُهُ حَتَّى مَاتَ ، أَوْ اخْتَنَقَ فِي حَبْلٍ فَفَاضَتْ نَفْسُهُ ، أَوْ تَرَدَّى مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ !

وَأَدْرَكَ الشَّيْخُ مَعْنَى قَوْلِي : (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) ، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَازِ الْمُرَادِفَةِ عَلَى الْقَتْلِ وَمَا اسْتَقْصَيْتُ مِنْ وَجْهِهِ ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفُتْيَا وَالنَّصَّ ، وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ ؛ فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَجُلٌ كَرِيمٌ ، أَخَذَتْهُ الْأَنْفَقَةُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ ، وَمَا أَنَا السَّاعَةَ بِمَعْزُولٍ عَنْ هِمِّهِ ، فَذَهَبَ نَكَلَّمَهُ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانَ .

وَمَشِينَا ثَلَاثَتِنَا ، فَلَمَّا شَارَفْنَا الدَّارَ قَالَ الْفَتَى : إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَى كَمَا ، وَرَبَّمَا اسْتَفْزَرَ بِنَفْسِهِ فَأَزْهَقَهَا ، وَسَاءَتْ سَوَرُ الْحَائِطِ وَأَتْلَى ثُمَّ أَفْتَحَ لَكَمَا فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عِنْدَهُ .

* * *

وَدَخَلْنَا ، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ ، خَوَّارٌ مُسْلُوبُ الْقُوَّةِ ، انْزَعَجَ قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ ، وَصَغُرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعَامَلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَائِمُ الْحَزَنِ فَأَضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا ، فَهِيَ تَهْمُ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَتَشَبَّ وَتَتَدَلَّقُ .

وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ ، ثُمَّ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » .

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْحَقِّ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا صَبْرَ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ مَعْنَاهَا ، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ !

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوَّةً مَسْدُودَةً فِي الْجِدَارِ ، فَقَالَ لِي : افْتَحْ هَذِهِ وَدَعِ الْهَوَاءَ يَتَكَلَّمُ مَعَنَا كَلَامَهُ . فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَعَالَجْتُهَا حَتَّى فَتَحْتُهَا ، وَنَفَذَ مِنْهَا رَوْحٌ

الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغِرْ إلى ، فإذا أنا فرغتُ من الكلام فشأنك بنفسك :

أعلمت أن رجلاً من المسلمين قد مَرِضَ ، فأعْضَلَ مرضُهُ فأثْبَتَهُ على سريره ثلاثين سنةً لا يتحرك ، وطَوَّى فيه الرجلَ الذى كان حياً ونشر منه الرجلَ الذى سيكون ميتاً ، فبقى لا حياً ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . ؟

قال الرجل : وفى الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشيخ : صَحِّحْ الكلامَ واسأل : أيتَصر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولا يقول : (جاء مالا صبر عليه) ! وأىَّ شىء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذى يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لا يوضع فى الكيس بل فى الجسم ؟

أفتدري مَنْ كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعين فى عظامٍ مُمَدَّدةٍ على سريرها ؟ إنه إمامنا (عمرانُ بنُ حُصَيْنِ الخُزَاعِي)^(١) الذى أرسله عمرُ بن الخطاب يُفَقِّهُ أهلَ البصرة ، وتولى قضاءها ، وكان الحسن البَصْرِيُّ يحلف بالله ما قدِمَها خيراً لهم من عمران بن حُصَيْنِ . ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء) ، فرأيناه مُشَبَّهًا على سرير الجريد كأنما شُدَّ بالحبال وما شُدَّ إلا بانتهاك عَصَبِهِ وذَوْبَانٍ لحمه ووهنَ عظامِهِ ؛ فبكى أخوه ، فقال : لِمَ تبكى ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحال العظيمة ! قال لا تبك ؛ فإن أحبَّه إلى الله تعالى أحبَّه إلى . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضعٌ منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسكُ الأرضِ كلَّها قد جَعَلَ لكلِّ موضعٍ منها قوَّةَ الجميع ، ولولا هذا لَدَكَّ الجبلُ موضِعَهُ وغارَ به ؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لا ينكسر لها ولا يتهدَّم ؛ إذ كانت قوَّةُ روحِهِ قوَّةً فى كلِّ موضع ، فالبلاءُ محمولٌ على هِمَّةِ الروح لا على الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إن المؤمن بكلِّ خيرٍ على كلِّ حال ، إن رُوحَهُ لَتُتَرَعُّ من بين جنبيه وهو يَحمدُ اللهَ عزَّ وجلَّ ! » .

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال له : « امتَحِنْنِي ! » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أمّا تفرض عليك

شجاعته أن تقول للقائد: « امتحني وارم بي حيث شئت ! » وإذا رمى بك فرجعت مشحناً بالجراح ونالك البتر والتشويه ، أترأها أوصافاً لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟

ثم قال : إذا لم يكن الإيمان بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكتوارثها ، لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يعدوها ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فجأه الروعُ أحدث في ثيابه من الخوف . . . ومن ثم كان قتلُ المؤمن نفسه لبلاء أو مرض أو غيرهما كفرًا بالله وتكذيباً لإيمانه ، وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بشاشةُ الروح ، وإعطاءُ الله الرضى من القلب ، ثقة بوعده ورجاءه لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل ؛ فإذا ابتلى المؤمنُ بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون - برز في هذه الحالة عقله الروحاني وتولى سياسة جسمه حتى يفتق العقلُ الأول . ويبيح الخوفُ من عذاب الله وقمته في الآخرة ، فيغمُرُ به خوفُ النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما فيقتلُ أقواهما الأضعف ، ويُخرج الأعرزُ منهما الأذل .

فالاطمئنان بالإيمان هو قتلُ الخوفِ الدنيوي بالتسليم والرضى ، أو تحويله عن معناه يجعل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرة بكل ما فيها إلى الموت ؛ وهو بهذا عقلٌ روحاني له شأن عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفسَ راضيةً مرضيةً ، تقول لمصائبها وهي مطمئنة : نعم . وتقول لشهواتها وهي مطمئنة : لا .

وما الإنسان في هذا الكون ؟ وما خيره وشره ؟ وما سخطه ورضاه ؟ إن كل ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبر وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تبسّلتَ الشجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتها بمثل ما يُبسّلتُ به الإنسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسك الحياة

عليها ويترتبُ حالاً غير الحال ؛ ومهما يكن من أمرٍ ظاهرِها وبلائِها فالسعادةُ كُلُّها في داخلها ، ولها دائماً ربيعٌ على قدرِها حتى في قَرِّ الشتاء .

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمان ، لا عملَ له إلا أن ينشئُ للنفسِ غريزةً متصرِّفةً في كلِّ غرائزِها ، تُكمِّلُ شيئاً وتنقصُ من شيء . وتُوجِّهُ إلى ناحيةٍ وتصرفُ عن ناحيةٍ ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبرَ من مصائبِها وأكبرَ من لذاتها جميعاً .

وتلك الغريزةُ هي نفسُها معنى الرضى بالقدرِ خيرِه وشرِّه ، وهي تأتي بالتأويل لكلِّ همومِ الدنيا ، فتضعُ في النكباتِ معانيَ شريفةً تنزعُ منها شرَّها وأذاها للنفسِ ؛ وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأدِّي النفسِ بها . وإذا وقع التأويلُ في معاني النكباتِ أصبحت تعملُ عملَ الفضائلِ ، وتغيرتُ طبيعتها ، فيعود الفقرُ باباً من الزهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبةُ طريقاً من الصبر ، والحزنُ وجهاً من الرجاء ، وهلمَّ جرّاً .

والنفسُ وحدها كثرُ عظيم ، وفيها وحدها الفرحُ والابتهاجُ لا في غيرها ، وما لذاتُ الدنيا إلا وسائلٌ لإثارةِ هذا الفرحِ وهذا الابتهاجِ ، فإن وُجدَ مع الفقرِ بطلتُ عزَّةُ المالِ وأصبح حجراً من الحجرِ ؛ والبلبلُ يتغرَّد بحسنِ جِرتِه الصغيرة ما لا تُغني فيه آلاتُ التَّطريبِ كُلُّها . وفي النفسِ حياةٌ ما حوَّلها ، فلماذا قويتُ هذه النفسُ أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتُ أذلتها الدنيا !

* * *

قال المسيبُ : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجلَ كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتَفسَّرَ وانقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينةً كما تضغطُ اليدُ على الماء ، وأيقن أن النكبةَ كُلُّها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعينِ شهواته ، فيُنكَبَ أولَ ما ينكَبُ في صبره ويقينه .

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيتُ بعيني رأسي معجزةً (العقلُ الروحانيُّ) وكيف

يصنع : رأيت عروة بن الزبير ^(١) وهو شيخ كبير ، عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رجله الأكلة : فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسده كله ، فدُعِيَ له من يقطعها ، فلما جاء قال له : نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً . فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقِد . فقال عروة : ما أحب أن أسلبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه ! ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فإن الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر وكيف احتمل . إنه انصرف بحسبه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغُمِرَتْ حواسه وأعصابه بالنور الإلهي من معنى التكبير والتهليل ، فقطع القاطع كعبته بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المشار ونشرها وعروة في التكبير والتهليل ؛ ثم جرى بالزيت مغلياً في مغارف الحديد فحُسِمَ به مكان القطع ، فغَشِيَ على عروة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يُسمع منه في كل هذه الآلام الماحقة أنه ولا آهة ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء مالا صبرَ عليه ...! » .

* * *

قال المسيب : وأرهف بأس الرجل الضعيف وقوى جأشه ، وانبعث فيه الروح إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحاني ، وعرف أن مالا يمكن أن يدرك ، يمكن أن يترك .

وجاء هذا العقل الروحاني فرَّ بالمشاور على اليأس الذي كان في نفسه فقطعه ، فراعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا ! ثم أكبَّ على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إن كل ذلك إلا كما

ترى قبضةً من التراب تتكبر ، وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها ! » .

* * *

ماذا يصنع الإنسان إذا غلط في مسألة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرى الصواب ، ويجتهد في الرجوع إليه ، ويصبر على ما يناله في ذلك ؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطت فيه مسألة ؟

الانتحار

٢

قال المسيب بن رافع : وقام الشعبي إلى الرجل فاعْتَسَقَهُ فَرَحًا بما آلَ أمرُهُ إليه ، بعد إذ رأى النورَ يجري على لونه ويترقرقُ في دِيْباجتِهِ ؛ كأنما وَقَعَ الصلحُ بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نعممَ أخو الإسلام أنت ، فاستعذُ بالله من خذلانه ، فإنه ما خذلكَ إلا وضعُكَ نفسَكَ بإزاءِ الله تعارضُهُ أو تجاريه في قدرته ، فَيَسْكِلُكَ إلى هذه النفس ، فتنتهي بك إلى العجز ، وينتهي العجزُ بك إلى السخط ؛ ومتى كنتَ عاجزاً ساخطاً ، محصوراً في نفسك ؛ موكولاً إلى قدرتك ، كنتَ كالأسد الجائع في القفْرِ ، إذا ظن أن قوته تتناول خَلْقَ الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأسَ والانزعاجَ والكآبةَ ؛ وأمثالها من هذه المَهْلِكَاتِ تَقْدَحُ في قلبك الشكَّ في الله ، وتُثْبِتُ في رُوعِكَ شرَّ الحياة ، وتُهْدِي إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرّرُ عندك عجزَ الإرادة ؛ فتنتهي من كل ذلك ميئاً قد أزهقتك نفسك قبل أن تُزْهِقَهَا !

ولو كنتَ بَدَلَ إيمانك بنفسك قد آمنتَ بالله حق الإيمان ، لسلَّطَكَ الله على نفسك ولم يسلَّطْها عليك ؛ فإذا رميتُك المطامعُ بالحاجة التي لا تقدر عليها ، رميتها من نفسك بالاستغناء الذي تقدر عليه ؛ وإذا جاءتكَ الشهواتُ من ناحية الرغبة المقبلة ، جثتها من ناحية الزُّهد المنصرف ، وإذا ساورتُك كبرياءُ الدنيا أذَلَّتْهَا بكبرياءِ الآخرة .

وبهذا تنقلب الأحزانُ والآلامُ ضُروباً من فرَحِ الفوز والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنوناً من الخِذْلانِ والهمِّ ، وتعود موضعَ فخرٍ ومباهاة ، وكانت أسبابَ خِزْيٍ وانكسار « وعزيمةُ الإيمان إذا هي قويتْ حَصَرَتْ البلاءَ في مقداره ، فإذا حصرته لم تزل تَنْقُصُ من معانيه شيئاً شيئاً ، فإذا ضعفتْ هذه العزيمة جاء البلاءُ غامراً مُتَفَشِّشاً يُجَاوِزُ مقداره بما يَصْحَبُهُ من الخوف والروع ، فلا تزال معانيه تَزِيدُ شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه .

وللإيمان ضوءٌ في النفس ينير ما حولها ، فتراه على حقيقته الفانية وشيكاً أن يزول ؛ فإذا انطفأ هذا الضوء انطَمَسَت الأشياء ، فتوهمها النفس أوهاماً مُتباينةً على أحوالها المختلفة ؛ كما يرى الأعمى بوهمه : لا عينه مع الأشياء تكون في طبيعتها ، ولا أشيائه عند عينه تكون في حقيقتها .

* * *

قال المسيب : وكانت الشمس قد طفَلَت للمغرب ؛ فقال الإمام للرجل : قم فتوضأ وأَسْبِغ الوضوء ، وسأَعَلِّمَكَ أمراً تنفع به في دينك ودنياك : فإذا قمتَ إلى وضوئك فأيقِنْ في نفسك واعزِمْ في خاطرك على أن في هذا الماء سرّاً روحانياً من أسرار الغيب والحياة ، وأنه رمزٌ للسماء عندك ، وأنت إنما تتطهَّر به من ظلمات نفسك التي امتدَّت على أطرافك ؛ ثم سَمَّ اللهَ (تعالى) مُفِيضاً اسمَه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً ، ثم تَمَثَّلُ أنكَ غسَلتَ يديك مما فيهما ومما تَسْعَاهُ بهما من أعمال الدنيا ، وأنت آخِذٌ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرَّرْ عند نفسك أن الوضوء ليس شيئاً إلا مَسْحَةٌ سماويةٌ تُسَبِّغُهَا على كل أطرافك ، ليشعرَ بها جسمُكَ وعقلُكَ ؛ وأنت بهذه المسحة السماوية تستقبلُ اللهَ في صلاتك سماوياً لا أرضياً .

فإذا أنت استشعرتَ هذا وعملتَ عليه وصار عادةً لك ، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلةَ الدواء ، كلما اغتممتَ أو تَكَرَّهْتَ أو تَسَخَّطْتَ أو غَشِيكَ حزنٌ أو عَرَضٌ لك وسَّوَسَ ؛ فما تتوضأ على تلك النية إلا غسَلتَ الحياةَ وغسَلتَ الساعةَ التي أنت فيها من الحياة ^(١) . وترى الماء تحسبه هدوءاً ليسناً لِيَن الرضى ، وإذا هو ينسابُ في شعورك وفي أحوالك جميعاً .

قال المسيب : وقمتُ أنا فجدَدْتُ وضوئى على هذه الصفة بتلك النية ؛ فإذا أنا عند نفسى مستضىءٌ بروحٍ نَجْمِيَّةٍ لها إشراقٌ وسناء ، وإذا الوضوء في أضعف معانيه هو ما عَلَّمنا من أنه الطهارة والنظافة ، أما في أقوى معانيه فهو إفاضةٌ من السماء فيها التقديسُ والتزكيةُ وغَسْلُ الوقتِ الإنسانى مما يخالطه كلما مرَّت ساعات ، وابتدأؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطلولاً مترطباً بالماء .

(١) هذه في رأينا حكمة تكرار الوضوء وتلك هي أسرارُه عندنا .

ثم صلى بنا الشيخ ، وأمرني بالمبيت مع الرجل ، كأنما خشى البِدَوَاتِ أَنْ تَبْدُوَ لَهُ فَتَنْقُضَ عِزَّهُ ، أَوْ هُوَ زَادَنِي عَلَيْهِ لِأَغْيِرَ شَخْصَهُ وَأَبْدُلَ وَحْدَتَهُ الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَانَ الشَّيْخُ لَمْ يَأْمَنْ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانُهُ الرُّوحِيُّ قَدْ تَنَبَّهَ بِأَكْمَلِهِ فَوْضَعَنِي كَالْتَنِيهِ لَهُ .

وجاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العِشْمَةَ وجلسنا نتحدث ، فاستنبأته نبأه ، فقال : سهلاً . ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال : تالله ما أعْرِفُ الوُضوءَ بعد اليوم إلا ملامسةً بين السماء والنفس ، وما أعْرِفُ وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر .

* * *

قال المِسيَّبُ : وأصبحنا فغدونا على الإمام ؛ ثم لزمنا الرجلُ في بعض أموري ، ثم وافينا المسجدَ صلاةَ العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناسُ كَالْحَبِّ الْمُرَاصِفِ عَلَى الْعُنُقِ ، لَا أَدْرِي مِنْ سَائِهِمْ وَجَسَمِهِمْ ؛ كأنما علمتُ لِكُوفَةِ أَنْ رَجُلًا مُسْلِمًا كَفَرَ بِاللَّهِ كُفْرَةً صُلْعَاءَ ، وَأَنَّهُ سَيَحْضُرُ دَرَسَ الشَّيْخِ ، وَسَيَحْضُرُ الشَّيْخُ مِنْ أَجْلِهِ ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ الْأَرْبَعُ تَسُوقُ أَهْلَهَا إِلَى الْمَسْجِدِ مِنْ أَقْطَارِهَا .

وجلس الشيخ مجلسَ الحديث فقال :
رَوَيْنَا أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةٌ ، فَأَتَى قَتَرَنًا لَهُ فَأَخَذَ مِشْقَصًا (١)
فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ ؛ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ
مَطْرُودَةً تَقْتَحِمُ مَتَلَفَةَ الْآخِرَةِ كَمَا اقْتَحَمَتْ مَتَلَفَةَ الدُّنْيَا !
رَوَيْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ : « الَّذِي يَخْتَقُ
نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَطْعُنُ نَفْسَهُ يَطْعُنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ
يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ ! »

رَوَيْنَا عَنْهُ (صلى الله عليه وسلم) : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِه
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! »

رَوَيْنَا عَنْهُ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ،

(١) القرن (بفتحين) : جبة الشاب . والمشقص : سهم فيه نصل عريض .

فقال الله : بَدَرْتَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ! .

قال الشعبي : يقول الله : « بَدَرْتَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ . . . » أَيْ بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ فَجَعَلَ نَفْسَهُ إِلَهَ نَفْسِهِ ، فَتَقَبَّضَهَا وَتَوَفَّاهَا ، فَكَانَ ظَالِمًا .
بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ فِي آخِرِ أَنْفَاسِهِ لِحِظَةٍ يَنْقَلِبُ إِلَى ، فَكَانَ مَعَ ظُلْمِهِ مَغْرُورًا أَحْمَقُ !

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ حِينَ ضَاقَ ، فَهَوَّرَ نَفْسَهُ فِي الْمَوْتِ مِنْ عِزِّهِ أَنْ يُمَسِّكَهَا فِي الْحَيَاةِ ، فَكَانَ عَاجِزًا مَعَ ظُلْمِهِ وَغُرُورِهِ وَحُمُوقِهِ !

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ عَلَى جَهْلِهِ بِسَرِّ الْحَيَاةِ وَحِكْمَتِهَا ، فَلَمْ يَسْتَنْجِ هَذَا الْخَلْقُ الظَّالِمَ الْمَغْرُورَ فِي حِمَقِهِ وَعِزِّهِ وَجَهْلِهِ — لَمْ يَسْتَحْ أَنْ يَحِثَّنِي فِي صُورَةِ إِلَهٍ !
بَدَرْتَنِي وَتَأَلَّهَ ، فَطَبَعَ نَفْسَهُ طَابَعَهَا الْأَبْدَى مِنْ غِيٍّ وَتَمَرَّدٍ وَسَفَاهَةٍ ، وَأَرْسَلَهَا إِلَى مَقْتُولَةٍ يَرُدُّهَا عَلَيَّ .

بَدَرْنِي وَتَأَلَّهَ كَأَنَّمَا يَقُولُ : إِنْ لَهُ نَصْفَ الْأَمْرِ وَلِي النِّصْفُ : أَنَا أَحْيَيْتُ وَهُوَ أَمَاتَ . . . !

بَدَرْتَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ !

قال الشعبي : وَإِنَّمَا تَحْرُمُ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ ، إِذْ يَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى رُوحِهِ جَنَائِدُهُ يَدُهُ مَا تُفَارِقُهَا إِلَى الْأَبَدِ : فَهُوَ هُنَاكَ جَيْفَةٌ مِنَ الْجَيْفِ مَسْمُومَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَخْنُوقَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَذْبُوحَةٌ أَبَدًا ، أَوْ مَهْشَمَةٌ أَبَدًا ، يَقُولُ اللَّهُ لَهُ : أَنْتَ بَدَرْتَنِي بِنَفْسِكَ ، وَجَرِيتَ مَعِيَ فِي الْقَدَرِ مَجْرَى وَاحِدًا ، فَسْتَخْلِدُ نَفْسُكَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِكَ ، وَمَا قَتَلْتَ إِلَّا حَسَنَاتِكَ .

قال الشعبي : وَلَوْ عَرَفَ قَاتِلُ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيَصْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ جَيْفَةً أَبَدِيَّةً ، فَنَ ذَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا تَحَوَّلَ حِمَارًا وَبَقِيَ حِمَارًا ، فَيَرْضَى أَنْ يَتَحَوَّلَ وَيُسْرَعَ لِيَتَحَوَّلَ ؟

مِنْ ذَلِكَ نَظَرُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى جَنَازَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ ، كَمَا يَنْظُرُ إِلَى ذَبَابَةٍ تَوَجَّهَتْ بِالسَّبَبِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْأَفْلَاقِ كُلِّهَا ، ثُمَّ جَاءَتْهُ تَقُولُ لَهُ : اشْهَدْ لِي .

قال الشيخ : ومِمَّ يقتل الإنسان نفسه ؟ أمّا إن الموت آت لا ريب فيه ولا مَقْصِرٌ لِحَيِّ عنه ، وهو الخيبةُ الكبرى تُلقَى على هذه الحياة ؛ فما ضرَّ الخيبة الصغيرة في أمرٍ من أمور الحياة ؟

إن المرء لا يقتل نفسه من نجاحٍ بل من خيبة ، فإن كانت الخيبةُ من مال فهي الفقر أو الحاجة ، وإن كانت من عافية فهي المرضُ أو الاختلال ، وإن كانت من عزّة فهي الذل أو البؤس ، وإن كانت مما سوى ذلك - كالنساء وغيرهن - فهي العجز عن الشهوة أو التخیلُ الفاسد .

وليس يخيبُ الإنسانُ إلا خيبةَ عقلٍ أو إرادة ، وإلا فالفقرُ والحاجة ، والمرضُ والاختلال ، والذلُّ والبؤس ، والعجز عن الشهوة وفسادُ التخیل ، كل ذلك موجودٌ في الناس ، يحمله أهلُه راضين به صابرين عليه ، وهو الغبار النفسى لهذه الأرض على نفوس أهلها . وباعجباً ! إن العميان هم بالطبيعة أكثرُ الناس ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخريّةً ، أفتريدون أن تخاطبكم الحياةُ بأفصح من ذلك ؟

ليست الخيبةُ هي الشر ، بل الشرُّ كله في العقل إذا تبلد فجمد على حالة واحدة من الطمع الخائب ، أو في الإرادة إذا وهنت فبقيت متعلقة بما لم يوجد . أفلا ترون أنه حين لا يُبالى العقلُ ولا الإرادة لا يبقى للخيبة معنى ولا أثرٌ في النفس ، ولا يخيب الإنسانُ حينئذٍ ، بل تخيب الخيبةُ نفسها ؟ لهذا يأبى الإسلامُ على أهله الترفُّفَ العقلى والتخیلَ الفاسد ، ويشددُ كلَّ الشدة في أمر الإرادة ، فلا يترخص في شيء يتعلق بها ، ولا يزال يُسَمِّها بأعمال يومية تُشدُّ منها لتكونَ رقيقةً على العقل حارسةً له ، فإن للعقل أمراضاً كثيرةً يقيس فيها درجات من الطيش حتى يبلغ الجنون أحياناً ؛ فكانت الإرادة عقلاً للعقل ؛ هي لينه إذا تصلَّب ، وهي حركته إذا تبلد ، وهي حلمه إذا طاش ، وهي رضاه إذا سَخِط .

الإرادة شيء بين الروح والعقل ، فهي بين وجودَيْن ؛ ولهذا يكون بها الإنسان بين وجودَيْن أيضاً ، فيستطيع أن يعيش وهو في الدنيا كالمنفصل عنها ، إذ يكون في وجوده الأقوى وجود روحه ، وأكبرُ همّه نجاحه في هذا الوجود .

وهذا النجاح لا يأتي من المال ، ولا تُحَقِّقُه العافية ، ولا تُبَسِّسُه الشهوات ، ولا يُسَنِّيه التَّخِيلُ الفاسد ؛ ولا يكون من متاع الغرور ، ولا مما عُمِرُه خمسون سنة أو مائة سنة ؛ بل يأتي مما عُمِرُه الخلود وما هو باقٍ أبداً في معانيه من الخير والحق والصلاح ؛ فهنا يُعِينُ المرضُ بالصبر عليه مما لا تعين الصحة ، ويُفِيدُ الفقرُ بِمَقَادِمِهِ ما لا تفيد الثروة ؛ وهنا يكون العقل الإنساني عاملاً أكثر مما هو متخيلٌ ، وقانعاً أكثر مما هو طامع ؛ وهنا لا موضعٌ لغلبة الشهوة ، ولا كبرياء النفس ، ولا حُبُّ الذات ؛ وهذه الثلاثُ هي جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة ، ويدونها يكون الإنسانُ هائئلاً حتى في أحوال الشقاء .

بالإرادة المؤمنةِ القوية ينصرفُ ذكاءُ المؤمن إلى حقائقِ العالمِ وصلاحِ النفسِ بها . ، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاءُ إلى خيالِ الإنسانِ وفسادِ الإنسانِ . . .

وإذا انصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مَرِنًا مِطْوَعًا ، واستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يُقَرِّها ، فإن هذه الفكرة الخبيثة لا تَسْتَطِيقُ إلى العقل إلا إذا تحجَّرَ وانحصر في غرض واحدٍ قد خاب وخابت فيه الإرادةُ ففرغت الدنيا عنده .

ولو أن امرأً تم عزمُه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً ، لا نَفَسَ عزمُه أو ركَّ ؛ إذ يلين العقلُ في هذه المدة نوعاً ما ، ويجعلُ الصبرُ بينه وبين المصيبة مسافةً ما ، فتتغير حالة النفس هَوْنًا ما ؛ فالصبرُ كالترُّوح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحدٍ مُقْفَلٍ من جوانبه « ومثَّلُ العقل في هذه الحال مثَّلُ القائم في إعصار لَهٍّ بالتراب لَفًّا وسدًّا عليه مَسَافِدَ الهواء ، وحبسَه في هذا التراب الملتفَّ حَبْسَ الحشرة في جوف القمصية ؛ فهو على اليقين أنها حالة ساعة طارئة في الزمن لا حالة الزمن ؛ وأن الهواء الذي جاء بهذا الهم هو الذي يذهب بهذا الهم .

وكما أن الأرض هي شيء غيرُ هذا الإعصارِ النائر منها ، فالحياة كذلك هي أمرٌ آخرٌ غيرُ شَمَائِهَا .

قال الإمام : وفي كتاب الله آيتان تدلان على أنه كتابُ الدنيا كلها ، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين : أحدهما المثالُ الروحيُّ للفرد الكامل ، والآخر المثال الروحيُّ للجماعة الكاملة .

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » .

وأما الثانية فهي قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

ففي رجاء الله واليوم الآخر يتساوى الإنسانُ فوق هذه الحياة الفانية ، فتمرُّ همومُها حولته ولا تصدِّمه ، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأنَّ لا سلطانَ لها عليه ؛ وهذه الهموم تجدد في مثل هذه النفس قُوًى بالغةً تصرفُها كيف شاءت ، فلا يجيء الهمُّ قُوَّةً تسحقُ ضعفاً ، بل قوةٌ تمتحنُ قُوَّةً أخرى أو تُشِيرُها لتكون عملاً ظاهراً يقلِّده الناسُ ويستفَعون منه بالأسوة الحسنة ، والأسوة وحدها هي علم الحياة .

وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً ، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيد يلقى على الناس دروسَ نفسه القوية .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبرُ أسباب الشرِّ في الناس ، وهو نظرُ الإنسانِ لِمَن هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقدَ والسخطَ ، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة ، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة . ومن جعلها في تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره ؛ وبها تسقط الفروقُ بين الناس عليهم ونازلهم ؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدم على الغنيِّ العالم ؛ جَمَعَ بينهما الاتفاق العقليُّ وسقط ما عداه .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عُمُرَه الطويل أو القصير كأنه في يوم يُصبح منه غادياً على الحشر والحساب ؛ فهو متصلٌ بالخلود غيرُ معنًى إلا بأسبابه ؛ وبهذا تكون أمراضُه وآلامُه ومصائبُه ليست مكارِهَ من الدنيا ، بل هي تلك المكارِهُ التي حَفَّت الجنةُ بها ؛ ولا يضرُّه الحروان لأنه قريب الزوال ، ولا يغرُّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً .

وفي رجاء الله واليوم الآخر يَسُودُ الإنسان على نفسه ؛ ومن كان سيِّدَ نفسه كان سيِّدَ ما حولها يُصَرِّفُه بحكمه ، ومن كان عبْدَ نفسه صَرَفَه بحكمه كلُّ ما حَوَّلَه .

قال الشعبي : وأما المثالُ الروحيُّ للجماعة الكاملة ، فهو في وصف المؤمنين بأنهم « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » ؛ فهذا هذا ، ما أحسبه يحتاج إلى بَسْطٍ وبيان .

إن أكثر ما يضيِّق به الإنسان يكون من قِبَلِ من حوله ممَّن يُعَايِشُهُمْ ويتصل بهم لا من قِبَلِ نفسه ، فإذا قام اجتماعُ أمةٍ على أنهم (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تَمَرَّرَتِ العِظَمَةُ النَفْسِيَّةُ للجميع على السواء ؛ ومن كانوا كذلك لم يَحْقِرُوا الفقيرَ بفقره ، ولم يُعْظَمُوا الغنيَّ لَغِنَاهُ ، وإنما يُحَقِّقُونَ ويعظِّمون لصفات سامية أو حقيرة . وبين هؤلاء يكون الفقيرُ الصابرُ أعظمَ قدرًا من الغنيِّ الشاكر ، وإعظامُ الناسِ لفضيلةِ الفقيرِ هو الذي يجعل فقره عند نفسه شيئًا ذا قيمة في الإنسانية .

ومتى تَصَحَّحتْ آراءُ الجماعةِ في هذه المعاني المؤلِّة للناس بَطَلَتْ أَلْهَا واستحالت معانيها ، وصار لا يَبْلَى معنى من معاني الحياة في إنسانٍ إلا وضعَ إيمانُه معنىً جديدًا في مكانه ، وتصبح الفضيلةُ وحدُها غايةَ النفس في الجميع ؛ وبذلك يَصْبِرُ الفردُ على مصائبه ، لا بقُوَّتِهِ وحده ، ولكن بجميع القوى التي حوله . أَفَلَا تَرَوْنَ أن إعجاب الناسِ بالشجاعةِ وتعظيمهم صاحبها يضع في أَلَمِ السلاحِ لذةً يَحُسُّهَا لحمُ الشجاعِ البطل ؟

* * *

قال المسيَّب بن رافع : فقام رجلٌ من المجلس ، فقال . أيها الشيخ ، وإذا فسد الناس وغلظت قلوبُهُمْ ، وتقطَّعتْ بينهم الأسباب ، ولم يعودوا (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ، وشَمِتُوا بالفقير ، وتهزَّءوا بالمُبتَلَى وطرحوه في ألسنتهم كما يَطْرَحُ الشاعر في لسانه رجلاً يهجوه لا يكفُّ عنه — فما عسى أن يصنع المسكينُ حينئذ وكلُّ شيءٍ يدفعه إلى قتل نفسه ؟

وقال الشعبي : ههنا الرجاءُ في الله واليوم الآخر ، وهو شعورٌ لا يُشْتَرَى بمال ، ولا يُلْتَمَسُ من أحد ، ولا يَعْسُرُ على من أراده ؛ والفقيرُ والمُبتَلَى

وغيرُهما إنما يصنع كلُّ منهما مثاله السامى ؛ فالصبر على هذا العنت هو صبرٌ على إتمام المِثال ، وإذا وقع ما يسوءك أو يحزنُكَ فابحث فيه عن فكرته السامية ، فقلّما يخلو منها ، بل قلما يجيء إلا بها^(١) .

قال المسيّب : فقام آخر فقال : وكيف يصنع امرؤ آلَت أحوالُ الدنيا إلى ما يُخيفه ، أو بَلَغَ الهمُّ مبلّغه من قلبه فهمً أن يقتل نفسه ؟
قال الشعبي : فليجعل الخوفَ خَوْفَيْنِ : أحدهما خوفُهُ عذابَ الله خالداً مخلّداً فيه أبداً ؛ فيذهبُ هَبُّ الأقوى بالأضعف . وإذا ابتلى فليضمَّ إلى نفسه مَنْ هو أشدُّ بلاءً منه ؛ ليكون همُّه أحدَ همَّيْنِ ، فيذهبَ الأثقلُ بالأخف .
إن الإنسانَ ونفسه في هذه الحياة كالذى أعطى طفلاً نَزِقاً طيَّاشاً عارِماً متمرّداً ليؤدّبَهُ ويُحْكِمَ تربيته وتقويمه فيثبت بذلك أنه أستاذٌ ، فيعطى أجرَ صبرِهِ وعمله ، ثم يضيقُ الأستاذُ بالطفل ساعة فيقتله . أكذلك التأديب والتربية ؟

(١) في كتابنا (المساكين) كلام كثير في هذه المعاني .

الانتحار

٣

قال المسيبُ بنُ رافع : وكان الإمامُ قد شَغَلَ خاطره بهذه القصة فأخذت تَمُدُّ مدَّها في نفسه ، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكَّنت لها في همِّه ، وتفتَّت بها ذهنه عن أساليب عجيبة ينهياً بعضُها من بعضٍ كما يلدُ المعنى المعنى . فلما قاله الرجلانَ مقالهما آنفاً وأجابهما بتلك الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، انقَدَحَ له من كلامهما وكلامه رأى فقال :

يا أهلَ الكوفة : أنشدكم اللهَ والإسلامَ أيُّما رجلٍ منكم ضاق بروحه يوماً فأراد إزهاقها إلا كشف لأهل المجلس نفسه وصدَّقنا عن أمره ؛ ولا يَسْجِدَنَّ في ذلك ثَلَسِيماً ولا عابئاً ، فإنما النكبةُ مذهبٌ من مذاهب القَدَرِ في التعليمِ ؛ وقد يكونُ ابتداءُ المصيبةِ في رجلٍ هو ابتداءُ الحكمةِ فيه لنفسه أو لغيره ؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه أنه قد غُيِّبَتْ فيه أسرارٌ لم تكن فيه ، وهذا من إبانة الحقيقةِ عن نفسها وموضعها كما لألَّا في سيفٍ بِرِيقِهِ .

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيمٌ ، فلو قد أريدَ استخراجُ علمٍ يَعْلَمُهُ الناسُ من اللذات والنعمِ ؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير والبغال والدوابِّ ما لا يكون مثله ولا قِرابتهُ في العقلاء ، ولا تَبْلُغُهُ القُوَى الآدميةُ في أهلها ؛ بَيِّدَ أنه لو أريدَ علمٌ من البؤس والألم والحاجةِ لما وُجِدَ شرحُهُ إلا في الناسِ ، ثم لا يكون الخاصُّ منه إلا في الخاصةِ منهم .

وما بانَ أهلُ النعمةِ ولا غَمَرُوا المساكينَ في تَطاولهم بأعناقهم إلا من أنهم يَعْلَمُونَ أَكْثافَ الشياطينِ ؛ فالشيطانُ دَابَّةُ الغنى الذي يجهلُ الحقَّ عليه في غناه ويحسبُ نفسه مُخْلَسِي لشهواته ونعيمه ؛ كما هو دابةُ العالم الذي يجهلُ الحقَّ عليه في علمه ، ويزعمُ نفسه مُخْلِي لعقله أو رأيه ، وما طال الطويلُ بذلك ولا عن ذلك قَصَرَ القصيرِ ، وهل يصحُّ في الرأي أن يقال هذا أطولُ من هذا لأن الأول فوق السُّلَّمِ والآخر فوق رجله . . . ؟

* * *

قالى الميسَّب : فقام شيخٌ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناسُ
يَسْفِرُجونَ له حتى وقف بإزاء الإمام ؛ وتَفَرَّستُهُ وجعلتُ عيني تَعَجُّمُهُ ، فإذا
شيخٌ تبدو طَلَاقَةُ وجهه شاباً على وجهه ، أبلغُ الغُرَّة مُتَهَلِّل عليه بشاشةُ
الإيمان وفي أساريه أثرٌ من تقطيبِ قديم ، ينطق هذا وذاك أن الرجلَ فيما أتى عليه
من الدهر قد كان أطفأ المصباح الذى فى قلبه مرةً ثم أضاءه . وعجبتُ أن يكون
مثلُ هذا الشيخ قد همَّ بقتل نفسه يوماً ، وأنا أرى بعينيَّ نفسه هذه مُنْبِثَّةً فى
الحياة انبثاقَ النَّخْلَةِ السَّحوقِ .

وتكلم هذا الرجل فقال :

أماً إذ ناشدتنا اللهَ والإسلامَ وميثاقَ العلم ووحىَ الأقدار فى حكمتها ،
فإني محدُّثُكَ بخبرى على وصفه ورصفه : أملتُ منذ ثلاثين سنةً ووقفَ بي من
الدهر ما كان يجرى ، وأصبحتُ فى مزاولة الدنيا كعاصرِ الحَجَرِ يريد أن يشربَ
منه ، وعجزتُ يدي حتى لَطْفُرُ دَجَاجَةٍ فى نيشها الترابَ عن الحَبَّة والحشرة
أقدرُ مني ؛ وطرقَتْنِي النواذبُ كأنما هى تُسَاكِنُنِي فى دارى ، وأكلنى الدهرُ
لحمًا ورماني عظامًا ، فما كان يقفُ علىَّ إلا كلابُ الطريق ؛ ولى يومئذ امرأةٌ
أعقبتُ منها طفلاً ويلزُمُنِي حقُّهما ولا أستطيعه ؛ وكان بيننا حُبٌّ فوق المعاشرة
والألفة قد تركنِي من امرأتى هذه كالشاعر الغزلِ من صاحبتِه ، غير أن الشعر
فى دى لا فى لسانى .

فلما نهَكَتْنِي المصائبُ وتناولَتْنِي من قريب ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذاتَ
يوم وقد شَحِبَتْ وانكسرَ وجهُها وتَقَبَّضَ من هزاله : وايمُ الله يا فلانة لو جاز
أن يؤكلَ لحمُ الآدمي لذبَحْتُ نفسى لتأكلِ وتَدِرِّى على الصبيِّ ؛ ولقد هممتُ أن
أركبَ رأسى وأذهبَ على وجهى لتَفْقِدَانِي فتفقدا شؤمى عليكما ؛ ولكن ردَّتْ
قلبي ، وهو حبْسُنِي فى هذه الدنيا الصغيرة التى بينكما ، فليس لى من الأرض
مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلا أنتِ وهذا الصبيِّ . ولستُ أدري والله ما نضع بالحياة
وقد كنا من نباتها الأخضرَ فَرَجَعْنَا من حَطَبِها اليابس ؛ وعادت الشمسُ
لا تَغْدُوها بل تَمْتَصُّ منها ما بقى ، ولا تستضيء لها ، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها !

إن من فَقَدَ الخيرَ ووقع في الشر ، حَرَىُّ أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً
إذا قتل نفسه فخلُص من الشر والخير جميعاً ، لا يُكْدَى ولا يَنْجَحُ ، ولا
يَأْلَم ولا يَلْتَدُّ ؛ وكما أنكرته الدنيا فليُنْكِرْها . أمّا إنه إن كان القبرُ فالقبرُ ولكن
في بطن الأرض لا على ظهرها كحالنا ؛ وإن كان الموتُ فالموتُ ولكن بمرّة
واحدة وفي شيء واحد لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً . قد ماتت أيامنا ،
وتركنا نعيش كالموتى لا أيامَ لهم ، وزاد علينا الموتى في النعمة والراحة أنهم لا
يتطفلون على أيام غيرهم فيُطَرِّدوا عن يوم هذا ويوم ذاك .

قال : فاستعبرت المرأةُ باكيةً ، ولما فرغت من كلام دموعها قالت :
كأنك تريد أن تُفْجَعَنّا فيك ؟ قلتُ : ما عَدَوْتُ ما في نفسي ؛ ولكن هل
بقي فيّ من تُفْجَعَيْن فيه ؟ أما ذهب مني ذاك الذي كان لك زوجاً وكاسباً ، وجاء
الذي هو همُّك وهمُّ هذا الصبيِّ من رجلٍ كالحفرة لا تتقل من مكانها وتأخذُ
ولا تُعطى ؟

أمّ واللهِ لكأنّي خلقتُ إنساناً خطياً ، حتى إذا تبيّنَ الغلطُ أريد إرجاعي
إلى الحيوان فلم يأتِ لا هذا ولا ذاك ، وبقيتُ بينهما ؛ يمرُّ الناسُ بي فيقولون
إنسانٌ مِسْكِينٌ : وأحسب لو نطقت الكلابُ لقالت عني كلبٌ مِسْكِينٌ .
يا عجباً ! عجباً لا ينتهي ! أصبحت الدنيا في يدنا من العجز واليأس كأنما هي
بَعْرَةٌ نَجْهَدُ في تحويلها يا قوّةٌ أو لؤلؤةٌ

فقالت المرأةُ : والله لئن حَيَّيتَ على هذا إن هذا لكفرٌ قبيحٌ ، ولئن مُتَّ
عليه إنه لأقبحٌ وأشدُّ .

فقلت لها : ويحك وماذا تَنْظُرُ العينُ المَبْصِرَةُ في الظلامِ الحالكِ إلا ما تَنْظُرُ
العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تَنْظُرُ كما ينظر المؤمنُ بنور الله ؟
قلت : فانظري أنت وخبريني ماذا تَرَيْن . أترين رغيماً ؟ أترين إداماً ؟
أترين ديناراً ؟

قالت : والله إني لأرى كلّ ذلك وأكثرَ من ذلك . أرى قمراً سيكشِفُ
هذه السُدُوفَةَ المَظْلِمَةَ إن لم يَطْلُعْ فكانَ قَدٌ .

قال : فغاظتني المرأةُ ورأيتها حينئذ أشدَّ عليَّ بِقِلَّةِ ذاتِ عقليها من قِلَّةِ ذاتِ يدي ؛ ولولا حيَّ إياها ورحمتي لها لأوقعتُ بها . واستحكمتُ في ضميري أن أُرهِقَ نفسي وأدعَها لما كُتِبَ لها .

وقلت : إنَّ جُبْنَ المرأةِ هو نصفُ إيمانِها حين لا يكون نصفَ عقلها ، وللقَدَرُ يدٌ ضعيفةٌ على النساءِ تَصِفَعُنَّهنَّ وتمسحُ دموعَهنَّ ، وله يدٌ أخرى على الرجالِ ثَقِيلَةٌ تصفعُ الرجلَ وتأخذُ بحلقه فتعصِرُه .

* * *

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية في هذه الخليقة ؛ أرحامٌ تَدْفَعُ ، وأرضٌ تَسْلَعُ . فحضرني هذا القولُ تلكَ الساعةَ وشُبَّه لي ، واعتقدتُ أن هذا الإنسانَ شيءٌ حَقِيرٌ في الغاية من الهوان والضَّعة : حملته أمه كُرْهاً ، وأثقلتُ به كُرْهاً ، ووضعتَه كُرْهاً ؛ وهو من شؤمِهِ عليها إذا دَنَا لها أن تَضَعَ لم يخرج منها حتى يَضُرَّ بِهَا المخاضُ فتتقلبُ وتصبح وتتمزقُ وتَنصَدَعُ ؛ وربما نَشِبَ فيها فقتلها ، وربما التوى فيُبَقِّرُ بطنُها عنه . وإذا هي ولدته على أيِّ حالِيتها من عُسْرٍ وتطريقٍ بمثلِ المطارقِ المخطَّمة ، أو سَرَّاحٍ ورواحٍ كما يتيسَّرُ - فإنما تلده في مَشِيمَةٍ ودماٍ وقَدَرٍ من الأخلاط كأنما هو خارجٌ من جُرْحٍ . ثم تتناولُهُ الدنيا فتَضَعُهُ من معانيها في أقبحَ وأقْدَرٍ من ذلك كله . ثم يستوفى مُدَّتَهُ فيأخذُه القَبْرُ فيكون شرًّا عليه في تمزيقه وتعفينه وإحالة .

قال : وحضرني مع كلمة الجاهلية قولُ ذلك الجاهل الزنديق الذي يُعرفُ (بالبقلي) - إذ كان يزعم أن الإنسانَ كالْبَقْلَةِ ، فإذا مات لم يَرْجِعْ . وقلت لنفسِي : إنما أنتِ بِقْلَةٌ حمقاء ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشَةٍ ^(١) ، فقتلها مِلْحُ أرضها أَكْثَرَ مما أحيها .

قال : وثُرْتُ إلى المُدِّيَةِ أريدُ أن أتوجَّأَ بها ، فتبادِرني المرأةُ وتحولُ بيني وبينها ؛ وأكاد أبطُشُ بها من الغيظِ ، وكانت روحُ الجحيمِ تَزْفِرُ من حولي ،

(١) الأرض النشاشة : هي السبخة التي فيها الملح والماء .

لو سَمِعُوا سَمْعُوا لَهَا شَهِيدًا وَهِيَ تَقُورُ ؛ فَمَا أَدْرَى أَيُّ مَسَلِكٍ هَبَطَ بُوْحَى الْجَنَّةِ فِي لِسَانِي أَمْرًا .

قلت لها : إِنَّهَا عَزَمَتْهُ مِنِّي أَنْ أَقْتَلَ نَفْسِي .

قالت : وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَنْقِصَهَا وَلَسْتُ أُرْدُّكَ عَنْهَا وَسَتُضْمِيهَا .

قلت : فَخَلَّتْ بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ الْمُدِيَةِ .

قالت : كُلُّنَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ أَنَا وَأَنْتِ وَالصَّبِيّ فَلَنْتَقِصَ مَعًا ؛ وَمَا بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةٌ وَلَا نَدْعُ الصَّبِيَّ يَتِيْمًا يَصْفَعُهُ مِنْ يَطْعِمِهِ ، وَيَضْرِبُهُ ابْنُ هَذَا وَابْنُ ذَاكَ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ فِي أَوْلَادِ النَّاسِ أَنَا ابْنُ ذَلِكَ وَلَا ابْنُ هَذَا .

قلت : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ .

قالت : فَتَعَالَ أَذْبَحِ الطِّفْلَ

* * *

قال المَسِيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَا بَلَغَ الرَّجُلُ فِي قِصَّتِهِ إِلَى ذَبْحِ صَغِيرِهِ حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ ضَجَّةً مُنْكَرَةً ؛ وَتَوَهَّمُ كُلُّ أَبٍ مِنْهُمْ أَنْ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ مُسَدَّدٌ لِلذَّبْحِ وَهُوَ يَنَادِي أَبَاهُ وَيَشْتَقُّ حَلْقَهُ بِالصَّرَاخِ : يَا أَبِي يَا أَبِي ؛ أَدْرَكْنِي يَا أَبِي .

أَمَّا الْإِمَامُ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكَتَبَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ ، كَيْفَ تَصْنَعُ جَهَنَّمَ حَطَبَهَا ؟

وَأَنَا فَمَا قَطُّ نَسِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، وَمَا قَطُّ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِرًا وَلَا فَاسِقًا فَاعْتَبَرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ طَرِيقَةُ صَنْعَتِهِ حَطَبًا ...

كَانَ الشَّيْطَانُ لَعْنَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِأَتْبَاعِهِ ؛ جَفِّفُوهُ ...

وَكَانَتْ هُنَّيْهَاتٌ ، ثُمَّ فَاءَ النَّاسُ وَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِالْمُتَكَلِّمِ :

ثُمَّ مَاذَا ؟

* * *

قال الرجل : فَفَتَحْتُ عَيْنِي وَقَلْبِي مَعًا وَرَمَقْتُ الطِّفْلَ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ إِلَّا يَدَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَسْجَرِ السَّكِينِ مِنْ حَلْقِهِ وَإِلَى مَحْزَرِّهَا فِي رَقَبَتِهِ اللَّيْنَةِ ؛ وَرَأَيْتُهُ كَأَنَّمَا تَفَرَّقَ بَصَرُهُ مِنَ الْفَرْعِ عَلَى كُلِّ جِهَةٍ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَضَرَّعُ لِي بِعَيْنَيْهِ الْبَاكِتَيْنِ أَلَا أَذْبَحَهُ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَوَسَّلُ بِيَدَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ

منى أمام قاتله ، ثم خُيِّلَ إلى أنه يتلو ويبتفض ويصرخ من ألم الذبح تحت يد أبيه ، تحت يد أبيه التَّعَس .

يا ويلناه ! لقد أخذنى ما كان يأخذنى لو تهدمت السماء على الأرض ، وحسبتُ الكون كله قد انفجر صُراخاً من أجل الطفل الضعيف الذى ليس له إلا ربُّه أمام القاتل .

فمَهَرَوْتُ مسرعاً وتركتُ الدارَ والمرأةَ والصبيَ وأنا أقول يا أرحمَ الراحمين . يا من خلقَ الطفلَ عالِماًهُ أمُّه وأبوه وحدهما وباقي العالم هباءٌ عنده . يا من دَبَّرَ الرضيعَ فوهبه مُلكاً ومملكةً وغنىً وسروراً وفرحاً ، كلُّ ذلك فى ثُدَى أمِّه وصدرها لا غير : يا إلهي : أنسى مثلَ هذا النسيان ، وارزقنى مثلَ هذا الرزق ، واكفِّلنى بمثل هذا التدبير فإنى منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرضيع إلا من أمِّه .

* * *

قال الرجل : ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الراكدة تحسبُ أنها هى تفور حين فارت حشراتُها . ولقد كنتُ أحقرَ من الذباب الذى لا يجد حقائقه ، ولا يلتمسها إلا فى أقذرِ القدر .

وما كدت أَمْضى كما تسوقنى رجلاى حتى سمعتُ صوتاً ندياً مطلولاً يَرْجِعُ ترجيعَ الورقاء فى تحنّانِها وهو يَرْتَلُ هذه الآية :

« واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْلَانِهَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » .

قال : فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع ؟ هذه شُعَلٌ لا كلمات ، أحرقتُ كلَّ ما كان حولى ولمستُ مِصْبَاحَ رُوحى المنطقى فإذا هو يتوهجُ ، وإذا الدنيا كلها تتوهج فى نوره ، وارتفعتْ نفسى عن الجذبِ الذى كنتُ فيه وكأنما لفتتني سحابةٌ من السُّحُب ، فى رُوحى نسيمُ الماء الباردِ ورائحةُ الماء العذب . لعن الله هذا الاضطراب الذى يُبْتَلَى الخائفُ به . إننا نحسبه اضطراباً وما هو إلا اختلاطُ الحقائقِ على النفس وذهابُ بعضها فى بعض ، وتَضَرُّبُ الشرِّ فى الخير والخير فى الشرِّ حتى لا يَسَيِّبَنَّ جنسٌ من جنس ، ولا يُعرَفُ حدُّ من حد ،

ولا تمتاز حقيقة من حقيقة . وبهذا يكون الزمنُ على المبتلى كالماء الذى جمدَ لا يتحرك ولا يتسائر . فيلوح الشرُّ وكأنه دائماً لا يزال فى أوله يُندَرُّ بالأهوال ، وقد يكون هَوْلُهُ انتهى أو يوشك .

قال الرجل : وكنت أرى يأسى قد اعتري كلَّ شيء ، فامتدَّ إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن ؛ فلما سكتَ ما بى إذا هو قد كان يأسَ يومٍ أو أيامٍ فى مكانٍ من الأمكنة ؛ أما ما وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان ، فذلك حكمه حُكم الشمسِ التى تطلُّع وتغيب على الدنيا لإحيائها ، وحكمُ الماءِ الذى تَهْمِي السَّماءُ به ليسقى الأرضَ وما عليها ، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السماوية فى مدَّارِها لا تُمْسِكُها ولا تَزِنُها إلا قوةُ خالقها .

أين أثرُ الإنسانِ الدنى الحقيقِ فى كل ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكل ذلك ؟ وما الذى فى يد الإنسانِ العاجزِ من هذا النظامِ كلِّهِ فيَسُوِّغُ له أن يقول فى حادثةٍ من حوادثه إن الخير لا يبتدى وإن الشر لا ينتهى ؟

تعتري المصائبُ هذا الإنسانَ لَمَحَوَ من نفسه الخِسةَ والدناءةَ ، وتكسِرَ الشرَّ والكبرياءَ ، وتَفْشَأُ الحدةَ والطيشَ ؛ فلا يكون من حُصْمِهِ إلا أن يزيدَ بها طيشاً وحدةً ، وكبرياءً وشرّاً ، ودناءةً وخسةً ، فهذه هى مصيبة الإنسان لا تلك . المصيبةُ هى ما يَنْشَأُ فى الإنسانِ من المصيبة .

* * *

قال : وردَّت الآية الكريمة فى نفسى لا أشبعُ منها ، وجعلتُ أرتِّلها أحسنَ ترتيلٍ وأطربه وأشجاء ؛ فكانت نفسى تهتزُّ وترتجُّ كأنما هى تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرار كل حقيقة فى موضعها بعد ذلك الاختلاط والاضطراب .

صبرُ النفسِ مع الذين يمثّلون روحانيّتها تمثيلاً دائماً بالغداة والعشيّ ، وعلى نور الحياة وظلامها ، يريدون وجه الله الذى سبيله الحبُّ لا غيره من مال أو متاع . وتقييدُ العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمرُ فى الجمال والحب ؛ والربطُ على الإرادة كيلا تَتَفَلَّتْ فتُسِفَ إلى حقائر الدنيا المسماة هُزْءاً وتهكماً زينة الدنيا ، تلك التى تشبه حقائق الذباب العالية . . . فتكونُ قَدْرَةً نجسةً ، ولكنّها مع ذلك زينةُ الحياة لهذا الخلقِ الذُّبَابِ . . .

تلك والله هي أسبابُ السعادة والقوة . أما المصائبُ كلها ، فهي في إغفالِ القلبِ الإنسانى عن ذكر الله .

* * *

قال : ولما صَحَّتْ تَوَاتِي ، وَقَوَّى الْيَقِينُ فِي نَفْسِي ، كَبُرَتْ رَوْحِي وَاتَسَعَتْ ، وَانْبَعَثَتْ لَهَا بَوَاعِثُ مِنْ غَيْرِ حَقَائِقِ الذُّبَابِ ، وَأَشْرَقَ فِيهَا الْجَمَالُ الْإِلَهِيُّ سَاطِعاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكَانَ الصَّبْحُ يَطْلُعُ عَلَيَّ كَأَنَّهُ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ ، فَأَنَا دَائِماً فِي عُمْرِ طِفْلِ ، وَجَاءَنِي الْخَيْرُ مِنْ حَيْثُ أَحْتَسِبُ وَلَا أَحْتَسِبُ ، وَكَأَنَّمَا نَمْتُ فَأَنْتَبِهْتُ غَنِيّاً وَعَمِلَ الْقَلْبُ الْحَيُّ فِي الزَّمَنِ الْحَيِّ .

ولقد أَفْدَتُ مِنْ الْآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تَكُنْ فِيَّ ، وَلَا يَثْبُتُ مَعَهَا الشَّرُّ أَبَداً ، فَأَصْبَحُ مِنْ خِصَالِي أَنْ أَرَى الْحَاضِرَ كُلَّهُ مُتَحَرِّكاً يَمُرُّ بِمَا فِيهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ جَمِيعاً ، وَأَسْتَشْعِرُ مِنْ حَرَكَتِهِ مِثْلَمَا تَرَى عَيْنَايَ مِنْ قِطَارِ الْإِبْلِ يَهْتَرُّ تَحْتَ رِجَالِهِ وَهُوَ يُغْذِّي السَّيْرَ .

لَمْ أَبْعِدْ قَلِيلاً وَأَنَا أَمْشِي مَطْمَئِناً تَائِباً مُتَوَكِّلاً حَتَّى دَعَانِي رَجُلٌ ذُو نِعْمَةٍ وَمُرُوءَةٍ وَجَاهٍ ، وَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أَوْ كَلَّمَهُ وَجْهِي فِي قَلْبِهِ فَاسْتَنْبَأَنِي ، وَبَشَّرَنِي حَالِي وَاقْتَصَصْتُ قِصَّتِي . فَقَالَ : سَيُحْيِيكَ اللَّهُ بِالطِّفْلِ الَّذِي كَدْتَ تَقْتُلُهُ فَارْجِعْ إِلَى دَارِكَ . ثُمَّ وَجَّهَ إِلَى دَنَائِرٍ وَقَالَ : اتَّجِرْ بِهَذِهِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَبِرَكَتِهِ فَسَيَنْمُو فِيهَا طِفْلٌ مِنْ الْمَالِ يَبْلُغُ أَشَدَّهُ . وَقَدْ صَدَّقَ إِيْمَانُهُ وَإِيْمَانِي ، فَبَارِكْ لِي اللَّهُ وَنَمَا طِفْلُ الْمَالِ وَبَلَغَ وَجَاوَزَ إِلَى شَبَابِهِ .

* * *

قال المَسِيَّبُ : وَجَلَسَ الرَّجُلُ وَكَانَ كَالْخَطِيبِ عَلَى الْمَنْبَرِ ، فَقَالَ الْإِمَامُ : مَا أَشْبَهَ النُّكْبَةَ بِالْبَيْضَةِ تُحْسَبُ سَجَنًا لَهَا فِيهَا ، وَهِيَ تَحُوطُهُ وَتَرْبِيهِ وَتُعِينُهُ عَلَى تَمَامِهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى مَدَّةٍ ، وَالرَّضَى إِلَى غَايَةٍ ، ثُمَّ تَنْقُفُ الْبَيْضَةُ فَيَخْرُجُ خَلْقًا آخَرَ .

وما المؤمنُ في دُنْيَاهُ إِلَّا كَالْفَرْخِ فِي بَيْضَتِهِ ، عَمَلُهُ أَنْ يَتَكُونَ فِيهَا ، وَتَمَامُهُ أَنْ يَنْبَثِقَ شَخْصُهُ الْكَامِلُ فَيَخْرُجَ إِلَى عَالَمِهِ الْكَامِلِ .

الانتحار

٤

قال المسيب بن رافع : ومد الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس ؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل . والصدق إذا كذب ؛ ثم ردَّ بصره علىَّ كأنه يُعَجِّبُنِي من عجيبة ؛ ثم سَجَا طرفه كأنما أنكرَ رأى عينيه فهو يلتمسُ رأى قلبه . وتبيَّنت في وجهه انقباضاً خبيلاً إلى أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يُفْحِمُهُ به يُرِيه كيف يجعلُ أحدَ المؤمنين الصالحين يتحمس في دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاء قصة كُفْرٍ !

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري *) يَسْتَخَوِّصُ الناسَ ليُجِىءَ فيحدثنا حدثه في قتل نفسه والاثم بربِّه ؛ فلو قيل لى : إن قوسَ السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره ، قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً ؛ لكان هذا كهذا في تعاضيه وإنكاره والعجب منه ؛ فأبو محمد من الرجال الحمس^(١) الذين لو كَفَّرَ أحدهم ثم قيل « إنه كفر » ، لَقَصَّرَ اللفظُ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شُنْعَتَهَا ، كما يَقْصِّرُ لفظُ الجنون عن وصف حَكِيمٍ تألَّى أن يعمل عملاً يَخْرُجُ به من الكون ، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يدُ الله ! إن في لفظ الكفر مع ذلك ، وفي لفظ الجنون مع هذا — شيئاً من نفاق العقل وتأدُّيه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يُشَبِّهُهُ جنونٌ ولا كفر .

ونعوذُ بالله من خذلانه ؛ فلقد يكونُ الرجلُ المؤمنُ في تشدُّده وإيغاله في الدين — كالذى يصنعُ جبلاً يَقْتَلُهُ فتلاً شديداً فيُسمِرُهُ على طاقٍ بعد طاقٍ ، ليكونَ أشدَّ له وأقوى ، ثم يُجاذبه الشيطانُ حَبْلَهُ ، فإذا هو كان في الوهن مثل

* يعنى المؤلف بأن محمد البصري هذا صديقنا الأستاذ (م) ومن أجله أنشأ هذه المقالات وقد سبقت لإشادتنا إلى حادثته وخبره وما فعل بنفسه — فانظر كل ذلك في موضعه من كتابنا (حياة الرافعي) وأكثر ما يأتي في هذا الفصل على لسان « أبي محمد البصري » فهو من قوله بحروفة إلا قليلا من قليل .

(١) أي المتحمسين في دينهم .

العنكبوت اتخذت بيتاً في سَقَف حدّاد ؛ فرأته يصبُّ الحديدَ المصهورَ يجعله سلسلةً حلقةً في حلقة ، فذهبت تحكيه وترسِلُ من لُعايبها خيطاً في خيط تزعمه سلسلة . . . !

إن مع كل مؤمن شيطانَه يتربّصُ به ، فلهذا ينبغي للمؤمن أن يكونَ في كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة ، فهو أبداً محتسبٌ متهيئٌ متجددُ الحواسِّ مرهفٌها يستقبل بها الدنيا جديدةً على نفسه بين الفترة والفترة : ومن هذا حكمةُ أن يؤذنَ المؤذّنُ وأن تُقام الصلاةُ مراراً في اليوم ، فكلما بدأ وقتُ قال المؤمن : الآن أبداً إيمانى أظهر ما كان وأقوى .

* * *

وقال الإمام : هيه يا أبا محمد ! فقال البَصْرِيّ وقد رأى الكراهة في وجه الإمام : لا يَفْزَعُ عَنْكَ أيها الشيخ ؛ فإن الله تعالى قد يجعل ما يحبه هو فيما نكره نحن ؛ وليس للأقدار لغةٌ فتجرى على ألفاظنا ؛ وقد نُسمى النازلةَ تنزل بنا خساراً وهي ربح ، أو نقولُ مصيبةً جاءت لتبديل الحياة ، ولا تكون إلا طريقةً تيسّرتُ لتبديل الفكر . إنما لغةُ القدرِ في شيء هي حقيقةُ هذا الشيء حين تظهر الحقيقة ؛ وكأيتن من حادثة لا تُصيب امرأً في نفسه إلا لتقع بها الحربُ بين هذه النفس وبين غرائزها . فتكونَ أعمالُ الطبيعة المعادية أسباباً في أعمال العقل المنتصر .

وكثيرٌ من هذا البلاء الذى يُقَضّى على الإنسان ، لا يكون إلا وسائلَ من القدر يُردّ بها الإنسانُ إلى عالمِ فكره الخاصِّ به ؛ فإن هذه الدنيا عالمٌ واحد لكل من فيها ، ولكن دائرةَ الفكر والنفس هي لصاحبها عالمٌ وحده . والسعيدُ من قرّ في عالمه هذا واستطاع أن يحكم فيه كالمليك في مملكته ، نافذَ الأمر في صغيرتها وكبيرتها ؛ والشقيُّ من لا يزال ضائعاً بين عوالم الناس ، ينظر إلى هذا الغنى ، وإلى ذاك المجدود ، وإلى ذلك الموفّق ؛ وهو في كل هذا كالأجنبيِّ في غير بلده وغير قومه وغير أهله ، إذ كلُّ شيء يصبح أجنبياً عن الإنسان ما دام هو أجنبياً عن نفسه .

لقد كنتُ ضالاً عن نفسى وعالمِهما ، فكنتُ في هذه الدنيا أستشعر شعورَ

اللص ، أشيأؤه هي أشيأء الناس جميعاً ؛ واللص ينظر إلى أموال الناس بعينى شاعر متحسب ككلف ، وهي تنظر إليه بعينى مقاتل متربص حذر .
كنت والله إن ضيقتُ بالناس أو وسعتهم ؛ رأيتُ فى ذلك معنى من ضيق اللص وسعته ، هو على أى حاله لا ينظر فى أعماق نفسه إلا شخصاً متوارياً تحت الظلام يتسلل فى خشية وحذر !

وكنْتُ نَزَقاً حديد الطبع سريع البادرة ؛ ومن فقدَ عالم نفسه وكان فى متسلل اللص الذى ذكرتُ ؛ فإن هذه الطباع تكون هى أسلحته يدفع بها أو يعتدى . وما قطُّ تمسكن إنسان من نفسه وأحاط بها ونفذ فيها تصرفه ؛ إلا كان راضياً عن كل شىء إذ يتصل من كل شىء بجهته السامية لا غيرها ، حتى فى اتصاله بأعدائه من الناس وأعدائه من الأشياء ؛ فما يرى هؤلاء ولا هؤلاء إلا امتحاناً لفضائله وإثباتاً لها . وقد يكون عدوك فى بعض الأمور عيناً لك فى رؤية نفسك ؛ ففيه بركة هذه الحاسة وزعمتها .

ولو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وإسلام المقتدين به من أصحابه — لأدركنا سر الكمال الإنسانى ؛ وهو أن يقر الإنسان فى عالم نفسه ويجعل باطنه كباطن كل شىء إلهى ، ليس فيه إلا قانونه الواحد المستمر به إلى جهة الكمال ، المرتفع به من أجل كماله عن دوافع غيره ؛ فنظر الإنسان إلى نقص غيره هو أول نقصه . والمؤمن كالغصن ؛ إن أثمر فلك ثمار نفسه ، وإن عطّل لم يشحذ ولم يحسد واستمر يعمل بقانونه .

ولقد نشأت فى مغرس كريم ، على صورة من الحياة تشبه صورة الثمرة الحلوة ، اجتمع لها من طبيعة مغرسها ومرتبها ما تتعين به من حلاوة ونكهة ومذاق ؛ فلما عقلتُ وعرفتُ الناس بعد فجاريتهم وخالطتهم ، رأيتنى منهم كالنفّاحة ملقاة فى البصل . . . وكانت النفّاحة حمقاء فزادت حمقاً ، وكانت حديدة فزادت حدة ، وظننت أن الحكمة قد مسخت فى الدنيا وبدلت خلقت البصلة بعد أن خلقت النفّاحة ؛ وما علمت الحرقاء أن الكمال فى هذه الحياة مجموع نقائص ، وأن للجمال وجهين : أحدهما الذى اشتهى القبح ؛ لا يُعرف هذا إلا من هذا ؛ وأن البصلة لو أدركت ما يريد الناس من معناها ومعنى

التفاحة لَسَمَتَ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَاحَةَ ، وقالت عن هذه إنها هِيَ البصلة !
ولما رأت تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرَاتِبِهَا وَمَغْرَسِهَا
— قالت : إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي ، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكُونِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ
لَهُ إِلَّا أَنَّهُ سِرٌّ مَغْلَقٌ ، وَلَيْسَبَقَ كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ
كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا .

* * *

قال أبو محمد : وَلَكِنْ بَقِيَتْ وَحْشَةُ الدُّنْيَا وَجَفَوْتُهَا ، إِذْ لَمْ أَكُنْ أَهْتَدِيتُ
إِلَى عَالَمِي ، وَلَا تَأَكَّدْتُ عَقِيدَتِي بِنَفْسِي ؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِي مُنْبِجَسًا فِي
رُوحِي بِشَرِّهِ ، وَكَانَتِ الدُّنْيَا بِهَذَا كَالْمُتَطَابِقَةِ فِي رَأْيِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَزَادَنِي أَنِّي
كُنْتُ رَجُلًا عَزَبًا مُتَعَفِّفًا ؛ وَمَا أَشْبَهَ فَرَاغَ الرَّجُولَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ بِفَرَاغِ الْعَقْلِ مِنَ
الذِّكَاةِ ؛ هَذَا هُوَ الْعَقْلُ الْبَلِيدُ ، وَتِلْكَ هِيَ الرَّجُولَةُ الْبَلِيدَةُ !

وَالْمَرْأَةُ تُضَاعِفُ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي النَّفْسِ ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْخَلَاءُ مِنْهَا
مُضَاعَفَةً لِمَعْنَى الْمَوْتِ ؛ عَلِمَ هَذَا مَنْ عِلِمَ وَجْهَلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، فَكُنْتُ أَعِيشُ
مِنَ الْكُونِ فِي فَرَاغٍ مَيَّتٍ ، وَكُنْتُ أَحْسُ فِي كُلِّ مَا حَوْلِي وَحْشَةً عَقْلِيَّةً تُشْعِرُنِي
أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَةٍ ؛ وَكَيْفَ تَمُّ فِي عَيْنِي دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي ؟

وَعَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَى الرَّجُلِ الْعَزَبِ الْمُتَعَفِّفِ لَا يَمْضِي حَتَّى يَهْيَأَ
فِيهِ مَرَضَ يَوْمٍ آخَرَ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَرِيضَةِ الْمُتَهَالِكَةِ ، تُعَدُّ الْحَيَاةُ
انْتِقَامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيِّ الَّذِي نَقَضَ آيَتَهَا وَافْتَتَاتَ عَلَيْهَا ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ
كَالْإِلَهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ !

وَأَيْسَمُ اللَّهُ إِنْ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِي وَبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ
الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْعَزْبَاءِ ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَنْبِكَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِهَا ، أَمَا فِي هَذَيْنِ فَالشَّيْطَانُ
رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِ فَضِيلَةٍ . . ! هُنَاكَ يُلِيمُ الشَّيْطَانُ وَيَمْضِي ، وَهُنَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ
وَيُقِيمُ !

وَقَدْ عَشْتُ مَا عَشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مُفْتَوِّحٍ ؛ وَلَيْتَنِي كُنْتُ جَاهِلًا
مُغْلَقًا عَقْلُهُ ، وَكَانَ قَلْبِي مُفْتَوِّحًا لِأَفْرَاحِ هَذَا الْكُونِ الْعَظِيمِ !
وَمَضَتْ أَيَّامِي يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، وَيَمْرِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى

انتهت مُنتهاها ، وجاء اليومُ المُدُنْفُ الهالكُ الذى سيموت . . .
أصبحتُ فقلتُ لنفسى : كم تعيشين ويحكِ فى أحكامِ جسدٍ مُختلٍ
لا تصدُقُ أحكامه ، وما أنتِ معه فى طبيعتك ولا هو معكِ فى طبيعته ؛ فقيم
اجتماعكما إلا على بلائى ونكدى ؟

لم تصطلحا قطّ على واجبٍ ولا لذة ، ولا حلالٍ ولا حرامٍ ؛ فأنتما عدوّان
لا همّ لكليهما إلا إفسادُ المسرةِ التى تعرّضُ للآخر . وما أدرى بمن
يسخرُ الشيطانُ منكما ؟ فالعابدُ الذى يؤسّسُ باللذاتِ يتمنى اقترافها ،
كالفاجر الذى يؤاقيعُها ويقتحمُها !

ويحكِ يا نفس ! إني رأيتُ هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدّم لي إلا رغيماً وقالت :
املاً بهذا بطنك وعقلك وعينيك وأذنيك ومشاعرك . آه ، آه ! مُمكنٌ واحدٌ
معه أربعةٌ مستحيلات^(١) ؛ إن هذا لا يُلبّشنى أن يذهبَ منى بالأربعة التى
تُمسِكُنى على الحياة : الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبر .

لقد استوى فى هذه الكآبة صغيرُ همى وكبيرُ ، وما أراى إلا قد أشرفتُ على
الهلاكِ التى لا باقيةَ لها ، فإن وجهى المتكلِّحَ المتقبّضَ يبدلُ منى على أعصابٍ
مُحتضرةٍ نهكتها أمراضُها وسواسُها ، وإنما وجه الإنسان فى قُطوبه أو تهلُّله
هو وجهه ووجهُ دنياه تعبسُ أو تبسم .

وتالله لقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة ؛ فإن
حيالةَ الصَّيدِ - صيدِ الوحشِ - لا تكون من خَيطِ الإبرة . . . ! وأراى أصبحتُ
كإنسانٍ حَجَرى ليس فى طبيعته الالتواءُ إلى يمينِ الحياةِ ويسارِها ؛ ويُسَخِّلُ إلى
من صلابتى أنى الأسد ، ولكنى أسدٌ من حجرٍ ، لا تفرِضُ قُوَّتُه الفرارَ منه
على أحد !

* * *

قال أبو محمد : ورأيتُ نفسى فى هذا الحوارِ كالميّتة ، لا تُجيب ولا تعرّض
ولا تُسكِر ، وكنتُ أظنّها تُراوِدُنى على الحياةِ أو تردُّنى عن غوايى ؛ فلأنى
سكونُها جزعاً ، وأيقنتُ أن الشيطانَ يبنى وبينها ، وأنه أخذَ بمَسَافَذِها ، فأردتُ

(١) الرغيف يملأ البطن فهذا هو الممكن ولكن عمله فى الباقيات مستحيل .

الصلاة فَتَقَلُّتُ عَنْهَا وَرَأَيْتُنِي لَا أَصْلَحُ لَهَا ، بَلْ خِيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي إِذَا قُمْتُ إِلَى
الصلاة فَإِنَّمَا قُمْتُ لِأَتَهَرَّأَ بِالصلاة !

وجعل الشيطانُ يأخذني عن عقلي ويردُّني إليه ، ثُمَّ يأخذني ويردُّني ، حتى
تَوَهَّمْتُ أَنِّي جُنُنْتُ ، وَكَأَنَّمَا كَانَ يَرِيدُ اللَّعِينُ بَقِيَّةَ إِيْمَانِي بِجَاذِبُنِي فِيهَا وَأَجَاذِبِهِ ،
فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ مَسَّنِي خَبَالٌ وَأَلْقَيْتُ هَذِهِ الْبَقِيَّةَ فِي يَدَيْهِ !

ثُمَّ أَفْقَتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً ، فَرَأَيْتُ (المصحف) يَرْقُبُنِي قَرِيبٌ ، فَعُدْتُ بِهِ
وَعَطَفْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ : امْنَعِ الضَّرْبَةَ عَنْ قَلْبِي . بَيِّنْدَ أَنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَصَّمِي
فِي مَوْفِي لَا ظَهِيرِي ؛ كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مَصْحَفًا عِنْدَ زِنْدِيقٍ ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي
بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ الْحِظَّةِ أَنِّي ضَعَفْتُ عَنْ حَمَلِ المصحفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنْ الصلاة ،
فَبَقِيَ الطَّاهِرُ طَاهِرًا وَالنَّجَسُ نَجَسًا .

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِيَّ وَلَا كُنْتُ فِيهَا ؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أَدْرِي مَا هُوَ ،
غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولًا مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ :
بَقَايَا شُعُورٍ ضَعِيفٍ ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا ، وَيَتَحَمَّاقِرُ
بِهِمَا الْعَقْلُ .

فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمِلْتُ ، وَكَانَتْ الْمَوْسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ
يَهْدَى عِرْقًا نَاشِرًا مُنْتَبِرًا ، فَقَارَ الدَّمُ وَانْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَنْبُوعِ ضَرْبَ عَنْهُ
الصُّخْرُ فَاثْشَقَّ فَاثْشَقَّ .

وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَنْظَرْتُ فَرَأَيْتُ . . .

* * *

قَالَ الْمُسَيَّبُ رَاوِي الْقِصَّةِ : وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَتَ ، وَكَانَ عَلَى
وَجْهِهِ شَفَقٌ مُحَمَّرٌ فَأَظْلَمَ بَغْتَةً عِنْدَ مَا قَالَ : « فَنْظَرْتُ فَرَأَيْتُ » .

وَارْتَجَّ الْمَسْجِدُ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ : فَرَأَيْتَ مَاذَا ؟ رَأَيْتَ مَاذَا ؟

وَبَعَثَتْ الصَّيْحَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ فَقَالَ : رَأَيْتُ ثَلَاثَةَ وُجُوهٍ أَشْرَفَتْ مِنَ المصحفِ
تَنْظُرُ إِلَى كَالْعَاتِبَةِ ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا
وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نَضْرَتِهِ وَبِشَاشَتِهِ . وَغَمَمَتْ الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ

منها شيئاً ، ولكنَّ نظرَها إلىَّ كان يؤدِّي لي معانيَها ، وكأنَّها تقول : « أَكْذالك المؤمن ... ؟ » .

ثم غابت وتخلَّت عني وبرزت ثلاثةُ وجوهٍ أخرى ، كأنَّها نقائضُ تلك ، وأعوذُ بالله من أوسطِها ، لو تمثَّلت آياتُ الجحيمِ كلُّها وجهاً لكانتْ في نُكْرِهِ وهولِهِ ، وخيَّـلُ إلىَّ أن الوجهَ الأصغرَ منها وجهُ سورةٍ من سورِ المصحف ، ففكَّرتُ ، فَوَقَعَ لي مما قام في نفسي من اللَّعنة أنها : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... » .

وطمَسَ الظلامُ هذه الرؤيا وتغيَّمتِ الدنيا ، فأيقنْتُ أن آتامي قد أقبلتْ على ظُلْمةٍ بعد ظُلْمةٍ ، والتمعَ شيءٌ أحمر ، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخابَلُ في عيني كأنَّه شُعْلٌ تتلوَّى ، فجزعْتُ أشدَّ الجزع ، وحسبْتُها طرائقَ مَنَدَةٍ لروحي تذهب بها إلى الجحيم .

وماتت كلُّ خواطري بعد ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيتْ حيَّةً ناكلُ في قلبي أَكْلَ النار ، وهي : « كيف تجرأتُ فوضعتُ بيني وبين الله حُمَـقً ؟ » .



ويقولون : إن أختي قد رأتني أتَشَحَّطُ في دمي فصاحت ، وجاء الناس على صوتِها ، وكان فيهم طبيب ، فبعد لأيٍ ما ، استطاع حبسَ الدَّم ، واحتال حيلته حتى أسَفَّ الجرحَ دواءً وضَمَدَهُ ؛ فجعلتُ أثوبُ نَفْسًا بعد نَفْسٍ ، وراجعتُ قليلاً قليلاً ...

ثم طافت الحياةُ على عيني ففتحتهما ، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليس فيها حقائقٌ ولا معانٍ ، كأنَّها تمَخَّلَتْ جديدةً تحت بصري ، وكأنَّها خارجةٌ لساعتها من يد الله !

وتماثلتُ شيئاً بعد ساعات ، فأحسستُ أن نفسي قد رجعتُ إلى سَاحرةٍ مني تقول : كيف رأيتَ عَمَلَ العقلِ أيَّها العاقل ؟

وبدأت الحياةُ تتجدَّد ، فأقسمتُ بيني وبين نفسي أن أجددَ إيماني بالله . ولم أكُدُ أفعل حتى أحسستُ أن قوَّةَ الوجودِ كلَّها مستقرَّةٌ في روحي ، وخيَّـلُ إلىَّ أني

أنا وحدى القوى على هذه الأرض قُوَّةَ جبالِها وصخورها ، على حين كان جسمى
مددًا كالميت لا يتأسك من الضعف !

فأيقنتُ حينئذٍ ما أعرفه قط من الدنيا ولم أشعر به قط في الحياة ولم يأتني به
علمٌ ولا فكر : أيقنتُ أنها مُعْجَزَةُ الإيمان الحديد الغضِّ ، المتَّصِلُ بالله لتَوَّه
كإيمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة ، أو تعترضه خاطرة ، أو تكدره ذرَّةٌ
واحدة من فكرٍ أرضيٍّ دَنِسٍ .

* * *

قال المسيب : ثم جلس المتحدث ، وكان الناسُ في آخر كلامه كأنما غادروا
الدنيا ساعةً ، ورجعوا إليها على مثل حالته ومثلي إيمانه ؛ فسكت الإمام ولم
يتكلم ، ليدع كلَّ نفسٍ تكلم صاحبها .

الانتحار

٥

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وأطرقَ النَّاسُ قليلاً بعدَ خَبَرِ (أبي محمد البَصْرِي) ؛
إذْ كانَ كلُّ مَنْهُمْ قد جَسَمَعَ باللهِ لِمَا سَمِعَ ، وأخذَ يَحْدِسُ ، في نفسه ويراجعُها
الرأى ، وكانَ المجلسُ قد امتدَّ بنا منذَ العصرِ وما يكادُ النهارُ يُشْعِرُنَا بِإِدْبَارِهِ ،
حتى اعترَضَتْ في شمسهِ الغُيْبَةُ التي تَعْتَرِيهَا إذا دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ . وكانَ إلى
يسارِي فتى رِيَّانُ الشَّبابِ ، حَسَنُ الصُّورَةِ ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ ، له هَيْئَةٌ
وسَمَتْ ، أَقْبَلَ على الأَيَّامِ ، وأقبلتِ الأَيَّامُ عليه .

فسمِعْنِي أَطِنُ على أذنِ (مجاهدِ الأَزْدِيِّ) ؛ وكنتُ أعرفُهُ شاعراً في كلامِهِ
وشاعراً في قلبِهِ ؛ فقلتُ له : إنه لم يبقَ مِنَ النَّهارِ يا مجاهدُ إلا مِثْلُ صَبْرِ الحَبِّ
دَنَا لَهُ المَوْعِدُ ؛ ولم يبقَ مِنَ الشَّمْسِ إلا مِثْلُ ما تَتَلَفَّفُ صَاحِبَتُهُ ، تأخُذُ
عَلَيْهَا ثَوْبَهَا وَغَلَاثِلَهَا ، ولكن بعدَ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ، لَتَرَى جَمَالَ
جِسْمِهَا هُنَا وَهُنَا !

فاهْتَرَّتِ الفَتَى لِهَذِهِ الكَلِمَاتِ ، وسألتِ الرِّقَّةَ في أعْطَافِهِ ، وقالَ : يا عَمَّ ،
أما تَرَى ما بَقِيَ مِنَ النَّهارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَاكِ مَسْحَحٍ دُمُوعَهُ وليسَ حَوْلَهُ إلا كَاتِبَةُ
الزَّمَنِ . . . ؟

قلتُ : كَأَنَّ لَكَ خَبِيراً يا فتى ، فَإِنْ كانَ شَأْنُكَ ما نَحْنُ فِيهِ فَتَقُصِّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَّيْنَا بِهِ سَائِرَ الوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجِيبَ الشَّمْسَ ، وَلَعَلَّكَ طَائِرٌ بنا طَيْرَةٌ فَوْقَ
الدُّنْيَا .

قالَ : فَمَهْ ؟

قلتُ : تَقُومُ فَتَتَكَلَّمُ ، فَإِنِّي أَرَى لَكَ لِسَانًا وَبَيَانًا .

قالَ : أَوْ يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي المَسْجِدِ عَنْ صِرْعَةِ الحُبِّ وَصَرِيحِهِ ،

وَنَاشِئَةِ وَعَاشِقٍ ؟

فبادرَ مجاهدٌ فقالَ : وَيَحْكُ يا فتى ! لَقَدْ تَحَجَّجْتَ واسِعاً ؛ إِنْ المَوْمِنُ

ليصلني بين يدي الله وكتاب سيئاته في عنقه منشور^١ مقروء . وهل أوقات الصلاة إلا ساعات^٢ قلبية لكل يوم من الزمن ، تأتي الساعة مما قبلها كما تأتي توبة القلب مما عمل الجسم ؟ إنما يتلقى المسجد من يدخله لساعته التي يدخله فيها ، ولو أنه حاسبه عن أمس وأول منه وما خلا من قبل ، لطرده من العتبة ! إن المسجد يا بني إنما يقول لدخله : ادخل في زمني ودع زمنك ، وتعال إلى أيها الإنسان الأرضي ، لتحقيق أن فيك حاسة من السماء ، وجئتني بقلبك وفكرك ، ليسعرا ساعة^٣ أنهما في لافيك^(١) . ولنا الآن يا بني في مستحدث كندى القوم يتطرحون فيه أخبارهم ، بل نحن في مجلس عالم تكلمت فيه رقبة هذا ورقبة هذا بما سمعت ، فقم أنت فاذكر علم قلبك وقص علينا خبر طيش الحب والشباب الذي يشبه الكلام فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والتبصير من هناك على البرق !

* * *

قال المسيب : فانتفض الفتى ، ورأيت مجاهداً ينتهد كأنما انصدعت كبده : فقلت : ما باليك ؟ قال : إن شباني قد مر على الساعة فنسمت منه في برودة هذا الفتى ، ثم فقدته فقداً ثانياً فهزمت هزماً ثانياً ، وجاءني الحزن من إحساسي بأني شيخ ، حزن من هم أن يدخل باب حبيب ثم ردة . . . !

وتحدث الفتى ، فإذا هو يدبر بين فكّيه لسان شاعر عظيم ، يتكلم كلامه بنفسين : إحداهما بشرية تصنع المعنى واللفظ ، والأخرى علوية تلقى فيها النار والنور .

قال : إن لي قصة أيها الشيخ ، لم يبق منها إلا الكلام الذي دُفنت فيه معانيها ، وقد تأتي القصة من أخبار القلب مُفعممة بالآلام والأحزان ، لا يُراد بالآلام وأحزانها إلا إيجاد أخلاق للقلب يعيش بها ويتبدل . والذي قدّر عليه الحب لا يكون قد أحبّ غيره أكثر مما يكون قد تعلم كيف يتسنى نفسه في غيره ، وهذه كما هي أعلى درجات الحب ؛ فهي أعلى مراتب الإحسان .

(١) ستأت فلسفة المسجد في مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب ، وانظر مقالة (الله أكبر) .

ومنى صدق المرء في حبه كانت فكرته فكرتين : إحداهما فكرة ،
والأخرى عقيدة تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغير ؛ وهذه كما هي طبيعة الحب
فهى طبيعة الدين .

ولا شىء في الدنيا غير الحب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا نارا صغيرة
وجنة صغيرة ، بقدر ما يكفى عذاب نفس واحدة أو نعيمها ! وهذه حالة
فوق البشرية .

والفضائل عامتها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته ، وقد لا تنقل إلا أقله
ويبقى في الحيوانية أكثره : ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته
بمرة واحدة ، بسيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتله بآلامه ؛ فهو كأعلى
النسك والعبادة .

كان من خبرى أنى دُعيت يوما إلى ما يدعى مثلث الشباب في مجلس غناء
وشراب . ياله من مجلس ! وقد قال تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب
مثلا ما بعوضة فما فوقها » ، والبعوضة في قصتي أنا كانت امرأة نصرانية . . .
فيسنة فلان المغنية الحاذقة المحسنة المتأدبة ، تحفظ الخبر وتروى الشعر ، وتكلم
بألفاظ فيها حلاوة وجهها ، وتخلق النكتة إذا شاءت خالق الزهرة المفتحة عليها
سقيط الندى ؛ وتجده بالحديث ما شاءت وتهزل ، فتجعل للكلام عقلا
وشهوة تضاعف بهما من تحدته في شهواته وعقله !

وستجرى في قصتها ألفاظ القصة نفسها ، لا أتأثم من ذلك ولا أتذمم ؛
فقد ذكر الله الخمر بلفظ الخمر ولم يقل : « الماء الذى فيه السكر » ، ووصف
الشیطان ولم يقل : « الملك الذى عمل عمل المرأة الحسناء في تكبرها » ، وذكر
الأصنام بأنها الأصنام ، ولم يسمها : « حاملة السماء التى يصنعها الإنسان بيديه »
وحكاية ما بين الرجل والمرأة هى كلام يقبل بعضه بعضا ويلتزم ويتعانق !

قال المسيب : فتبسم إمامنا ونظرت عيناه تسألان سؤالا . أما مجاهد الأزدي
فكان من هزة الطرب كأنه على قتب بغير ، وقال : لله دره فتى ، إن هذا
لبيان كحيل العين . . .

ثم قال الفتى : وذهبت إلى المجلس وقد جعلته هذه المغنية من حواشيه وأطرافه

كأنه تفسير لها هي . أما هي فجعلت نفسها تفسيراً لكلمة واحدة هي :
« اللذة . . . »

قال المسيب : وطرب مجاهد طرباً شديداً ، وسمعتُه يُخَافَتُ بصوته يقول :
« لله درُّها امرأة ؛ هذه ، هذه عَدْوَةُ الحُورِ العِينِ ! » .

ثم قال الفتى : وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلسِ إلى الشرب ، وما ذقتُ خمرًا قطَّ ، ولن أذوقَها ولو شربها الناسُ جميعًا ، ولن أذوقَها ولو انقطع الغيثُ ولم تَمَطُرُ السماءُ إلا خمرًا ؛ فإنني مذ كنت يافعًا رأيتُ أبى يشربُها ، وكانت أُمى تلومه فيها وتشتدُّ في تعنيفه وتحتدم ، وكانا يتشاحنان فينالُها بالأذى ويندريُّ عليها بالسبِّ وفُحْشِ القول . وسكر مرة وغلبه السكرُ حتى ثارت أحشاؤه ، فندَرَ عَهَ القَيْءِ فتوهَّمَنِي وعاءٌ ، وجاء إلى وأنا جالسٌ فأمسك بي وقاءَ في حِجْرِي ، حتى أفرغ جوفه ؛ وثارت أُمى لتنتزعَه وأنشأتُ تعالجه عنى فتنصارع جنونه وعقلُها حتى كفَّته على وجهه كالإناء ؛ فالتوى كالحية بطنًا لظهر ، واستجمع كالفنْفذ في شوكه ، ثم لكزَها برجله أسفلَ بطنِها فانقلبت ، وأصاب رأسُها إِبْجَانَةً^(١) العجين فتثلَّم تثلِّمَ الإناء كأنما شدَّخَ ضربًا بحجر ، وانتشر دماغُها على الأرض أمامَ عيني ، ورأيتها لم تزد على أن دَفَعَتْ بإحدى يديها في الهواء ، وضمتْ بالأخرى إلى صدرِها ، تنوهم أنها تحميني وتدفعه عنى ؛ ثم سكنتُ ، ولو لم تمت من الشَّجَّةِ في رأسِها لما تَت من الضربة في بطنِها !

* * *

قال المسيب : وأطرق الفتى هُنَيْهَةً وأطرق الناسُ معه ؛ فرفع مجاهد صوته وقال : رحمها الله ! فقال الناسُ جميعًا : رحمها الله

ثم قال الفتى : وكان عامَّةُ مَنْ في المجلس يعرفون ذلك منى ، ويعرفون أنه لو ساغ لإنسان أن يشربَ دمَ أُمِّه ما شربتُ أنا الخمر . فقالوا للمغنية : إن هذا لا يدخلُ في ديوانِنَا^(٢) . فنظرتُ إلى ، وهربتُ أنا من نظرتها بإطراقة ؛ ثم

(١) هي ما يعجن فيه العجين وتغسل فيه الثياب ، وقد يوضع فيها الماء ليتوض منه ، وتتخذ من حجر أو خزف أو غيرهما .

(٢) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك .

قالت : تشربُ على وجهي ؟ فقلتُ لها : إن وجهك يقول لى : لا تشربُ . . .
فضاحكتْ وقالت : أهو يقول لك غيرَ ما يقول لهؤلاء ؟ فهربتُ من كلامها
بإطراقةٍ أخرى ، ووصلت الإطراقتان ما بينى وبين قلبها ؛ وتنبه فيها مثلُ حُسْنِ
الأمِّ على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها !

والتفتت لمن حضر وقالت لهم : لست أطيبُ لكم ولا تنتفعون بى إلا أن
تشربوا لى ولهُ ولأنفسكم ، وانحطَّ عليهم الساقى ، فشرَبوا أرتالاً وأرتالاً ، وهى
بين ذلك تغنيهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهها لهم من دُونى وإنما تُخالِسى
النظرةَ بعد النظرة .

فوسوس لى شيطانى أنْ تشدَّ دُ مع هذه بمثل عَزَمَتِكَ مع الخمر فإنما هما شىء
واحد . ولكنى كنتُ أجدُ النظرَ إليها ، فرةً أوامِقها نظرةَ الحبِّ للحبيب ،
ومرةً أغضى عنها بنظرة لا تنظرُ ؛ وكأنى بذلك كنتُ آخذها وأدعُها ، وأصلُّها
وأهجرُها . فقالت لى كالمُنكِرة على : ما بالُك تنظرُ لى هكذا ؟ ولكن هيئةَ
وجهها جعلتُ المعنى : لا تنظرُ لى إلا هكذا ! . . .

وأسرع الشرابُ فى القوم وأفرطَ عليهم السكرُ ؛ فبقيتُ لى وحدى وبقيتُ لها
وحدها ؛ ثم تناولتُ عودَها وضممتُ إليها ضمًّا شديدًا أكثرَ من الضمِّ . . .
وألستُ صدرَها ونهديها ، ثم رنتُ إلى بمعنى ، فما شككتُ أنها ضمةٌ لى أنا
والعود ؛ ثم غنَّت هذا الصوت :

ألا قاتلَ اللهُ الحمامةَ غُدوةً

على الغصنِ ؛ ماذا هيَّجتُ حين غنَّت ؟

فما سكنتُ حتى أويتُ لصوتِها ،

وقلتُ : تُرى هذى الحمامةُ جُنَّت ؟

* * *

وما وجدُ أعرابيةٍ قذفتُ بها

صُروفُ النوى من حيث لم تَكُ ظنَّت . . .

إذا ذكَّرتُ مساءَ العضاهِ وطيبه ،

وبَرَدَ الحِمى من بطنِ خَبَّتِ : أرنتِ . . .

بأكثر منى لسوعة ، غير أننى
أجمنجيم أحشائى على ما أجننت !

وغننته غناء من قلب يئن ، وصدر ينتهد ، وأحشاء لا تحفى ما أجننت ؛
وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهيم الدمع على صوتها ، فيرتعش ويتزل
قليلاً قليلاً حتى يئن أئين الباكية ، ثم يعتلج فى صدرها مع الحب ، فيتردد
عالياً ونازلاً ، ثم يرفض الكلام فى آخره دموعاً تجرى .

* * *

قال المسيب : فنظر إلى مجاهد وقال : عدوة الجنة والله هذه يا أبا محمد ،
لا تقبل الجنة من يكون معها . تقول له : كنت مع عدوتى !
ثم قال الفتى : وكان القوم قد انتشوا ، فاعتراهم نصف النوم وبقى نصف
اليقظة فى حواسهم ، فكل ما رأوه منا رأوه كأحلام لا وجود لها إلا خلف
أجفانهم المشقة سكرًا ونعاسًا . ووثبت المغنية فجاءت إلى جانبي والتصقت بى ،
وأسرع الشيطان فوسوس لى : أن احذر فإنك رجل صدق ، وإذا صدقت
فى الخمر فلا تكذب فى هذه ، ولئن مسستها إنها لضياحك آخر الدهر !
فعجبت أشد العجب أن يكون شيطانى أسلم وأعنت عليه كما أعين الأنبياء
على شياطينهم . ولكن اللعين مضى يصدئى عن المرأة دون معانيها ، وكان منى
كالذى يبدئ الماء من عيني القليل المتلهب جوفه ثم يجعله دائماً فتوت فيه ،
ولقد كنت من الفحولة بحيث يبدو لى من شدة الفتوة فى دى وشبابى أنى
أجمع فى جسمى رجلاً عداً ، ولكن ضربنى الشيطان بالحجل فلم أستطع أن
أكون رجلاً مع هذه المرأة .

وعجبت هى لذلك وما أسرع ما نطق الشيطان على لسانها بالموعظة
الحسنة . . . ! فقالت أحبتك ما لم أحب أحدًا ، وأحبيت خجلك أكثر منك ،
فما يسرئنى أن تأثم فى فتدخل النار بحبى ، ولو أنك ابتعتنى من مولاي ؟ فقلت :
بكم اشتراك ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هى منى وأنا لو بعثت نفسى
ما حصلت لى ؟

فتمم الشيطان موعظته ، وقالت وأشارت إلى قلبها : إن قلبى هذا قبلك

غنيًا كنتَ أو فقيرًا ، وأحسَّ بك وحدك حُبَّ العذراءِ أولَ ما تحبَّ ، وأنا
 — كما ترائي — أعيش في السيئات كالمُكرَّهَةِ عليها ، فسأعمل على أن تكون
 أنتِ حسنَتِي عند الله ، أذهبُ إليه حاملةً في قلبي حُبِّي إياك وعفتي عنك ، ولئن
 كانت عفةٌ من لا يشتهي ولا يجدُ تعدُّ فضيلةً كاملةً ، إن عفةً من يجدُ ويشتهي
 لستُعدُّ دينًا بحاله . ولا يزالُ حبي بَكرًا ، ولا أزال في ذلك عذراءَ القلب ، وهؤلاء
 قد نزعوا الحياءَ عني من أجل أنفسهم ، فألبسنيهِ أنتَ من أجلك خاصةً ؛ وإن
 قوة حبي كالذي سيتألم بك ويتعذب منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك ، ستكون هي
 بعينها قوةً لفضيلتي وطهارتي .

ثم تناولتُ عودَها وسوَّته وغنتُ :

فلو أنا على حَجَرٍ ذُبِحْنَا جَرَى الدَّمِيانِ بالخبرِ اليقينِ^(١)
 وجعلتُ تنأوه في غنائها كأنها تُذَبِّحُ ذَبْحًا ، ثم وضعتُ العودَ جانبًا وقالتُ :
 ما أشقاني ! إذا انفقت لي ساعةً زواجي في غير وقتها فجاءت كالحلم يأتي بخيال
 الزمن فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيالُ الأشياء .

ثم سألتني : ما بالك لم تشرب الخمر ولم تدخل في الديوان ؟ فبدرَ شيطاني
 المؤمن . . . وساق في لساني خبرَ أمي وأبي ، فانتَضَحَت عيناها باكيةً وتمَّ لها
 رأى في كراي أنا في المسكر ، وكان شيطانُها بعد ذلك شيطانًا خبيثًا مع أصحابها ،
 وبطريقًا زاهدًا معي أنا وحدي !

ورأيتها لا تجالسني إلا مُتَزَايِلَةً كالعذراءِ الحفرة إذا انقبضتْ وغطتْ
 وجهَها ، وصارت تخافني لأنها تُحِبُّني ، وهَيَّيَ الشيطانُ إليها فعادت لا ترى
 في الرجل الذي هو تحت عينيها الشَّيْبَتَيْنِ . . . ولكن القيدَيسَ الذي تحت قلبها
 البَكر .

ولم يَعدْ جمالي هو الذي يُعجبها ويُضْهِيها ، بل كان يعجبها مني أني صنعة
 فضيلتها التي لم تصنع شيئًا غيري . . .

(١) كانت العرب تزعم أنه إذا قتل اثنان فجرى دماهما على طريق واحد ثم التقيا ، حكم
 عليهما أنهما كانا متحابين ، فإن لم يلتقيا حكم عليهما أنهما كانا متشائمين . وما أجملها خرافة
 وأشعرها .

وانطلق الشيطانُ بعد ذلك فيّ وفيها بدهائه وحُسْنُكَتِهِ وبكلِّ ما جَرَّبَ في النساء والرجال من لَدُنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ إلى يومِ ويومها ! . . . فكان يجذبني إليها أشدَّ الجذب ، ويدفعها عني أقوى الدفع ، ثم يُغريني بكلِّ رذائلها ولا يغريها هي إلا بفضائلها . وألّقي منها في دمي فكرةَ شهوةٍ مجنونةٍ متقلّبةٍ ، وألّقي مني في دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ مستقرّةٍ . وكنت ألقاها كلَّ يومٍ وأسمعُ غناها ؛ فما هو بالغناء ولكنه صَوْتُ كُلِّ ما فيها لكلِّ ما فيّ ، حتى لو التصقَ جسمُها بجسمي وسارَّ البدنُ البدنَ ، وهَمَسَ الدمُ للدمِ ، لكان هو هذا الغناء الذي تغنيّه .

وأصبحت كلما استقمت لحجها تسلّوتُ عَليّ ؛ إذ لست عندها إلا الأملُ في المغفرة والثواب ، وكأنما مُسَخَّتُ حَبَلًا طوْلُهُ من هنا إلى الجنة لتتعلّق به . وعاد امتناعُها مني جنونًا دينيًّا ما يفارقُها ، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبها من كلِّف وشغف .

وانحصرت نفسي فيها ، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مدِّ بصره من الأفق فيحكم أن ههنا نهاية العالم ، وما ههنا إلا آخرُ بصره وأوّلُ جهله . وانفلت مني زمامُ رُوحِي ، وانكسر ميزانُ إرادتي ، واختلَّ استواءُ فكري ، فأصبحتُ إنسانًا من التناقض المتعادية أجمعُ اليقين والشكِّ فيه ، والحبِّ والبغضِ له ، والأملِ والخيبةِ منه ، والرغبةِ والعزوفِ عنها ، وفي أقلِّ من هذا يسخطفُ العقلُ ، ويستدلّه من يتدلّه .

ثم ابتليتُ مع هذا اللَّمَمِ بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي ، فكنتُ أظايرُ قطعًا بين السماء والأرض ، وأجدُّ عليها وأتنكّرُ لها ، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني على حالة واحدة من الرّهبانية ؛ فكان يَطِيرُ بعقلي أن أرى جسمها نارًا مشتعلة ، ثم إذا أنا رُمْتُه استحالَ ثلجًا ، وقرّحت الغيرة قلبي وفشتت كبدِي من عابدة الشيطان مع الجميع ، الراهبة مع رجلٍ واحدٍ فقط ! . . . ورجعت خواطري فيها مما يُعَقِّلُ وما لا يُعَقِّلُ ؛ فكنت أرى بعضها كأنه راجعٌ من سفرٍ طويل عن حبيبٍ في آخر الدنيا ، وبعضها كأنه خارجٌ من دار حبيبٍ في حِواري ، وبعضها كأنه ذاهبٌ بي إلى المارستان . . . !

ورأيتنا كأننا في عالمين لا صلةَ بينهما ، ونحن معاً قلباً إلى قلب ، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلى ؛ ولم أرَ لى منجاةً إلا في قتلِ نفسى لأزهقَ هذا الوحش الذى فيها .

وذهبتُ فابتعتُ شعيرات من السمِّ الْوَحْيِ الذى يُعَجِّلُ بالقتل ، وأخذتها في كفى وهممتُ أن أقمَحَها وأبتلعها ، فذكرتُ أمى ، فطَهَرَت لحيالى مشدوخة الرأسِ في هيئة موتها ، وإلى جانبها هذه المرأةُ في هيئة جمالها ، وثبتتُ على عيني هذه الرؤيا ، وأدُمْتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأول ، وإذا المرأةُ غيرُ تلك ، وطغَتْ عِبرة الموت على شهوةِ الحياة فمحتها ، وصَحَّ عندى من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحب إلا أن تُقَرَن في النفس صورة امرأة ميتة إلى صورة المرأة الحية ، وكلما ذُكِرَتْ هذه جِئَ لها بتلك ، فإذا استمر ذلك فإن الميتة تُسميتها في النفس وتُسميت الشهوة إليها ، ما من ذلك بُدْ ، فليجربه من شك فيه .

وانفتح لى رأى عجيب ، فجعلتُ أتأمل كيف آمن شيطانى ثم كفر بعَدُ ، على أن شيطانها هى كَفَر في الأول ثم آمن في الآخر ؟ فوالله ما كنتُ إلا غيباً خاملاً الفطنة ، إذ لم يَسْنَحْ لى الصوابُ حتى كدت أزهق نفسى وأخسر الدنيا والآخرة ؛ فإن الشيطان — لعنه الله — إنما ردّنى عن الفاحشة وهى ذنب واحد ، ليرمى بعدها فى الذنوب كلها بالموت على الكفر !

وردَّ لى هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلى . ومن ابتلى ببلاء شديد يزلزل يقينه ثم أبصر اليقين ، جاء منه شخص كأنما خُلِقَ لساعته ؛ فلعلتُ شيطانى واستعدتُ بالله من مكره ، وألقيت السمَّ فى التراب وغيبته فيه ، وقلتُ لنفسى : ويحك يا نفس ! إن الحياة تعمل عملاً بالحقى ، أفترضين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفت وما علمت ، ثم يكون عملها بك أنت القعود ناحيةً والبكاء على امرأة ؟

أيتها النفس ، ما الفرق بين سرقة لحم من دكان قصاب ، وبين سرقة لحم امرأة من دار أبيها ، أو زوجها ، أو مولاه . . . ؟

أيتها النفس ، إن إيمانَ أسلافنا معنا ؛ إن الإسلامَ في المسلم .

* * *

قال المسيَّب : وهنا طاش مجاهد واستخفه الطرب ، فصاح صبيحة النصر :
الله أكبر ! وجاوبه أهلُ المسجد في صبيحة واحدة : الله أكبر ! ولم يكذ يهتف
بها الناس حتى ارتفعت صبيحة المؤذن لصلاة المغرب . الله أكبر . . .

الانتحار

٦

تتمة

قال المسيب بن رافع : وانفضَّ مجلسُ الشيخ ، ودَرَجتْ بعده أعوامٌ في عدَّةَ الشهور من حَمَلِ المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلَغها من خير الدنيا وشرِّها ، مما أعرفُ وما لا أعرفُ ؛ ودخلتُ البصرة أنا ومجاهدُ الأزدي ، نسمع الحسن^(١) ، وتأخذ عنه ؛ فإنَّا لسائران يومًا في سِكَّةِ بنى سَمُرَةَ ، إذ وافقنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبِلًا علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرَعَ إليه مجاهد فالتزمه وقال : مرحبًا مرحبًا بذى نَسَبٍ إلى القلب . وسلَّمتُ بعده وعانقته ، ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ما كان آخِرُ أوْلِكَ ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولها هي ؟

فضحك الرجل وقال : ألنَّصرانيةَ تعنى ؟ قال : آخرُها من أولها كهذا منى ؛ وأومأ إلى ظله في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً غيرَ متميز ؛ كأنه ثوبٌ منشورٌ ليس فيه لابسُه ، وكنا في الساعة التى يصير فيها ظلٌ كلِّ شىءٍ مِثْلينِه فهو مَزْجُ المَسْخِ بالمَسْخِ . . .

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابك وأثقلَه يا رجل ! كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثمانها ؛ فنظره إلى فَرَاهَةِ الدابة من الدوابِّ وإلى فَرَاهَةِ الجارية من الرقيق سواء .

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعةَ على طريق الإيوان^(٢) الذى يلتقى فيه تجارُ العراقِ والشامِ وخُرَّاسان ؛ وقد ضربتُ في هذه التجارات وحَسُنَتْ بها حالى وتَأَثَّلْتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر ، فليس يَزِنُ ولا يَتَقَبَّضُ ، ولا يبيع ولا يشتري . أما « تلك » فأصبحتُ نسيانًا ذهب لسيله في الزمن !

(١) الحسن البصرى : الإمام العظيم .

(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة) ، وكذلك كانوا يستعملونها .

قال مجاهد : فكيف كنت تراها وكيف عدتَ تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعيني وأفكارى وشهواتى ؛ فكانت بذلك أكثر من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضى ، فلما دخل بينى وبينها الزمن والعقل ، أبعدها هذا عن قلبي وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ إليها بعيني وحدهما ، فرجعتُ امرأة ككل امرأة ؛ وبزولها من نفسى هذه المنزلة ، رجعتُ أقل من نفسها ومن النساء ، وهذه القلةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأة عند محبتها إلا فعلتُ بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها ، فأدبرتُ به ثم أدبرتُ واستمرتُ تُدبر !

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبتَ التى كانت فيها . . . وأخطرتَ فى ذهنك نيّةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُترك واجداً الشهوة والميل إلا النفسَ والمغصية ؟ إن هذا الذى كان الحبّ والهوى والعشق ، هو بعينه الذى صار الإثم والذنب والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسك من حبها قتلتَها هى فى نفسك ؟

قال : يا رحمةً قد رَحِمْتُ بها نفسى يومئذ ! أمّا والله إن الذى يقتل نفسه من حب امرأةٍ لَنَجِي . ويحه ! فليتلخّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعل الله للحب طرفين : أحدهما فى اللذة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ ما منهما بد . فهذا الحبُّ يُلْقِي صاحبه فى الأحلام ويُغَشِّي بها على بصره ، ثم إنَّه هو اتجه بطرفه السعيد إلى حظّه المقبل واتفقت اللذةُ للمحب ، أيقظته اللذةُ من أحلامه ؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشقي إلى حظّه المُدْبِر ، وقعت الحماقاتُ فنوناً شتى بين الحبيبين ، وفعلتُ آخرّاً فعلَ اللذة ، فأيقظتُ العاشقَ من أحلامه أيضاً . وهذا تدبيرٌ من الرحمة فى تلك القوة المدمِّرة المسماة الحب . أفلا يدلّ ذلك على أن اللذة وهمٌّ من الأوهام ما دام تحققها هو فناءها ؟

خذْ عني يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شيءٌ يُدْرَك ، ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه » .

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدنا علماً ، فمن أين لك هذا وعمن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلك ، فهل نزل عليك الوحي ؟

قال الرجل : لا ، ولكن تَعَمَّالِيَتَا مَعِيَ إلى الدار فأحدَّثَكُمَا .

* * *

قال المسيَّب : وذهبنا معه ؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتنا الدارُ أن ربَّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلت عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد : هيه يا أبا . . . يا أبا مَنْ ؟ قال : أبو عبَّيد . قال : هيه يا أبا عبَّيد . . .

فأفكَّرَ الرجلُ ساعةً ثم قال : عهدُ كما بي منذ تِسْعٍ في مجلس الإمام الشعبيِّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ في بقيةٍ من النعمة أتجمَّلُ بها ، وكانت تُمسِكُنِي على موضعي في أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تَدِقُّ وتنفضُ حتى نكِدَ عيشي ووقعتُ في الأيام المقعدةِ التي لا تمشي بصاحبها ، وانقلب الزمنُ كالعدوِّ المُغِيرِ جاء ليضطَّكِمَ ويُخْرِبَ ويُفْسِدَ ، فأثَّرَ في أقبحِ آثاره ، فبعثُ ما بقي لي وتحملتُ عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيَّرْ حالي تغيَّرت نفسي ، ولا أكون في البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيري ، وأدعُ الماضيَ في مكانه وأمضي إلى ما يستقبلُنِي .

فالتستُ رُفْقَةً فالتأمتنا عشرين رجلاً ، فلما كنا في الطريق ، سلبنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تَحْوِيهِ ، ونجوتُ أنا راكباً فرسى وعُمرى ، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هي الأداةُ الإلهيةُ ، والباقي كله هو من أنفسنا لأنفسنا والأمرُ فيه هينٌ والخَطْبُ يسير .

وقلت : لو أن اللصوصَ قد مروا بنا كما يمرُّ الناسُ بالناسِ لما نكبَّونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُرُوضَ اللصِّ للمال والمتاع لا للناس ، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبةَ ؛ ومن هذا أدركتُ أن ليس الشرُّ إلا حالةٌ يتلبَّسُ بها من يستطيع أن يتخلصَ منها . فإذا كان ذلك فأصلُ السعادة في الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عَرَضَتْ له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثَّلَ الشرَّ كما يراه واقعاً في غيره ؛ فالمرأة العفيفةُ إذا عَرَضَتْ لها حالة من الفُجُور ، ونظرتُ إلى نفسها وحظَّ

نفسها ، فقد تعمى وتزَلَّ ؛ ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة ، كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تُربها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها

قال : ومضيت على وجهي تنقادني البقاعُ والأمكنةُ ، وأنا أعانى الأرضَ والسماءَ ، وأخشى الليلَ والنهارَ ، وأكابدُ الألمَ والجوعَ ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعيرِ الرازحِ ، قطعَ الصحراءَ تاكلُ منه ولا يأكلُ منها ، فأنضاه السفرَ وحسره الكلالُ ونحته الثقلُ الذى يحمله ، فجاء بينيةً غيرَ التى كان قد خرج بها . وكانت أياى هذه عمراً كاملاً من الشقاء ، جعلتني أوقن أن هؤلاء الناسَ في الحياة إنهم إلا كالدواب تحت أحمالها : لا تختار الدابةُ ما تحملُ ولا من تحملُ ، ولا يتركُ لها مع هذا أن تختارَ الطريقَ ولا مدةَ السيرِ ؛ وليس للدابة إلا شيان : صبرُها وقوتُها ؛ إن فقدتهما هلكتُ ، وإن وهنتا فيها كان ضعفُها بحسب ذلك .

إن هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية البشر جميعاً ، لا تبالى كيف وقع وفي أى وادٍ هلك ، فلا ينفع الإنسان حينئذ إلا أن يعتصمَ بأخلاق الحيوان ، في مثل رضاه الذى هو أحكمُ الحكمة في تلك الحال ، وصبره الذى هو أقوى القوة ، وقناعتِهِ التى هى أغنى الغنى ، وجهله الذى هو أعلمُ العلم ، وتوكلِهِ الذى هو إيمانُ فطرته بفطرته . لا يبالى الحيوان مالاً ولا نعيمًا ، ولا متاعاً ولا منزلةً ، ولا حظاً ولا جاهًا ، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملكِ أكثرَ مما يعرف حمارُ السقاءِ من السقاءِ ؛ ولعلك لو سألتَهُما وأطافا الجوابَ لقال لك الأولُ : إن الذى فوق ظهري ثَقِيلٌ مَقِيَّتٌ بغيض ؛ ولقال لك الثانى : إن الذى يركبه خفيفٌ سهلٌ سَمَحٌ !

ولكنَّ بلاءَ الإنسان أنه حين يُطَوَّحُ بالبؤس والشقاء وراء الإنسانية ، لا ينظر لغير الناس ، فيزيد ذلك بؤساً وحسرة ، ويسحقُ في نفسه ما بقى من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظًا ، وقناعتَهُ سخطًا ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تدمره غير صاحبها ؛ فإذا هى

وجدتُ مَسَاغَةً إلى الناس فأهلكتُ وعائتُ وأفسدتُ ، جعلتُ صاحبَتها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرمًا ، أى ذلك تيسر !

* * *

قال : وكنتُ أعرفُ في البصرة فلانًا التاجر من سَرَائِها ووجوه أهلها ، فاستطرقته ؛ فإذا هو قد تحولَ إلى خُرَاسان ، وليس يعرفني أحدٌ في البصرة ولا أعرفُ أحدًا غيره ؛ فكأنما نُكِبْتُ مرةً ثانية بغارةٍ شرٍّ من تلك ، غير أنها قطعتُ علىّ في هذه المرة طريقَ أبيي ، وسلبتني آخرَ ما بقى لنفسى ، وهو الأمل ! ورأيتُ أنه ما من نزولٍ إلى الأرض بُدَّ ، فأكونَ فيها إنسانًا كالدابة أو الحشرة : حياتُها ما اتفق لا ما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخرَ من الشهوات فأزهدَ فيها وأنا القوىُّ الكريم ، قبل أن تسخرَ هى منى إذا جثتها وأنا الطامعُ العاجز !

وفى الأرض كفاية كلِّ ما عليها ومن عليها ، ولكن بطريقتها هى لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمةً على التغير والتبدل وتحولِ شىءٍ إلى شىءٍ ، فهذا الظبىُّ الذى يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنه قد أكلَ ولا أنه افترسَ ومُزَّق ، بل هو عندها قد تحولَ قوةً فى شىءٍ آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خَطْبٌ طويل فى حكاية أوهامٍ من الخوف والوجل ؛ كما لو اخترعت قصةً خرافية تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحمًا . . . فتعهدُه فأنبتَه فحصدَه فأكلَه ، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على آكلِه ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعَتْنى أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمسُ علىّ وعليك !

والإنسانُ يرى بعينه هذا التغيرَ واقعًا فى الإنسانية عامتها وفى الأشياء جميعها ؛ فإذا وقع فيه هو ضجٌّ وسَخِطٌ ، كأن له حقًا ليس لأحدٍ غيره ، وهذا هو العجيبُ فى قصة بنى آدم ، فلا يزالُ فيها على الأرض كلماتٌ من الجنة لا تقالُ هنا ولا تُفهمُ هنا ؛ بل محلُّ الاعتراضِ بها حين يكونُ الإنسانُ خالدًا لا يقع فيه التغير والتبدل . ومن هذا كان خيالُ اللذةِ فى الأرض هو دائماً باعثُ الحماقةِ الإنسانية .

قال أبو عبيد : وذهبتُ أَعْتَمِلُ بيديَّ وجسمي على آلام من الفاقة والضُرِّ ،
ومن الخيبة والإخفاق ، ومن إلهاء المسكنة ، وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتُني
وإنَّ يدي كيد العبد ، وظهري كظهر الدابة ، ورجلي كرجل الأسير ، وعنقي
كعنق المغلول ، ويطلعُ قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أَعْتَمِلُ
إلا بقُرص من الخبز ، ولقد رأيتُني أبدأُ في صيانة كلِّ قطرة من ماء وجهي
سحابةً من العزق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لي إن سألتُ وإن لم أسأل !

وما كان يُمسكني على هذه الحياة المُرمَّقة ، تأتي رَمَقاً بعد رَمَق في يوم -
يوم - إلا كلامُ الشعبي الذي سمعته في مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه ؛
فكان كلامه نوراً في صدري يُشرق منه كلَّ يوم مع الصبح صبحُ لإيماني .
ولكن بقيتُ أيامُ نجمتي الأولى ولها في نفسي ضروبان من الوجع كالذي يجده
المجروح في جرحه إذا ضُربَ عليه ، فكان الشيطانُ لا يجد منفذاً إذاً إلا منها .
وفقدت الصديقَ وعونه ، فما كان يُقبلُ عليَّ صديقٌ إلا في أحلامي من وراء
الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسَّم الرجل وقال : إذا فرغت الحياة من الذي هو أقلُّ من الممكن ،
فكيف يكون فيها الذي هو أكثرُ من الممكن ؟ إن جوعَ يوم واحد يجعل هذه
الحياة حقيقةً جافيةً لا شِعْرَ فيها ، ويترك الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً معطّرةً ...
والبؤسُ يَقْطِطُ مؤلةً في القلب الإنساني تُحَرِّم عليه الأحلام ؛ وما الحبُّ من
أوله إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضها ببعض !

* * *

قال أبو عبيد : وتَضَعُضْتُ لهذه الحياة الخزية وأُبرِمَتْنِي أيامُها ،
وحملتُ في الميْتِ والحي ، ورأيتُ الشيطانَ - لعنه الله - كأنما اتخذني وعاءً
مُطَرَّحاً على طريقه يُلْقِي فيه القُمامة . . . ، وظهري قلبي في وساوسِ كالمدينة
الخرَبةِ ضُربَتْها الوباء ، فأعمرُ ما فيها مقبرَتُها ؛ وعاد البؤسُ وقَسَّاحُ الوجهِ
لا يستحي ، فلا أراه إلا في أرذلِ أشكالي وأبردها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض الناس
على شيء من الحياء فيأتي في أسلوبٍ معتدٍ كالمرأة الدميمة في نقابها .

وقلت لنفسى : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عُمَرُ أراه كالأسير أُقِيم على النُطْع وسُلَّ عليه السيف ، فما ينقم منه المنتقمُ بأفطع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحمُ بأحسن من تعجيلها !

وبتُ أواميرُ هذه النفسَ في قتلها وأحدثها حديثَ الموت ، فسددتُ رأيي فيه وقالت : ما تصنعُ بجسمِ كالمتعفن أصبح كالمقبور لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه وتفتيته ؟ بَسِدتُ أنى ذكرتُ كلامَ (الشعبي) في ذلك المجلس وأنا أحفظه كله ، فجعلتُ أهذه^(١) ما أترك منه حَرْفًا ، واتخذته متكلمًا مع نفسى لا كلامًا ، كنتُ كلما غلبنى الضعفُ رفعتُ به صوتى وأصغيتُ كما أصغى إلى إنسان يُكَلِّمُنِي فرأيتُ الشيطانَ بعد ذلك كاللصِّ إذا طمع في رجل ضعيفٍ منفردٍ ، ثم لما جاءه وجد معه رجلًا ثانيًا قويًّا فهرب !

قال أبو عُبَيْد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدتُ له السكينةَ في قلبي فمنت ، فإذا الفرعُ الأكبر الذى لا ينساه من سمع به ، فكيف الذى رآه بعينه ؟

رأيتُني ميسًّا في يد غاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ ويغسله كأنه خِرْقَةٌ ؛ ثم حُمِلْتُ على النعشِ كأن الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى على الإمامِ الشعبيِّ في مسجد الكوفة ، ثم دُلِيتُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وهَيْلَ الترابِ على ، وتركت وحيداً وانصرفوا !

وما أدرى كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفِخَ في الصورِ وبُعِثَتِ الأمواتُ جميعاً ، فطيرنا في الفضاء ، وكانت النجومُ غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصاتِ القيامة وفي هول الموقف !

وتوجَّهتُ بكلِّ شِعرَةٍ في جسمى إلى الرجاء في رحمة الله ؛ ورأيتُ أعمالى رؤيةً أحرزَتْنِي ، فهى كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعايلِكُ إلا قليلاً من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحدِ في الساعة بعد الساعة ندَروا وتَبَعَثَروا وضاعوا كأعمالى الصالحة !

وذكرتُ أنى كدتُ أقتل نفسى فراراً بها من العُمرِ المؤلم ؛ فنظرتُ ،

فإذا الزمنُ قد ظهر في أبعديته ، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حوى كأنه لم يعض ، وإذا عمرى كلته لا يكاد يبلغ طرفه عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أنى لم أفتدِ ألمَ اللحظة القصيرة القصيرة ، بعذاب الأبد الخالد الخالد الخالد .

وجيء على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذات في تاريخ الدنيا كله ، فصاح صائح : هذا أنعم من كان على الأرض منذ خلقتها الله إلى أن طواها . ثم غمس هذا المنعم في النار غمسة خفيفة كنسبة البرق ، وأخرج إلى المحشر ، وقيل له والناس جميعاً بسمعون : هل ذقت نعيماً قط ؟ قال : لا والله .

ثم جيء بأتعس أهل الأرض وأشدّهم يؤساً منذ خلقت الأرض ، فغمس في الجنة غمسة أسرع من النسيم تحرك ومر ، ثم أخرج إلى المحشر وقيل له : هل ذقت يؤساً قط ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيق جهنم وهي تفور تكاد تميز من الغيظ ؛ فأيقنت أن لها نفساً خلقت من غضب الله . وخرج منها عنق عظيم هائل ، لو تضرمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقط صنفاً صنفاً من الخلق ، وبدأ بالملك الجبارة فالتقطهم مرة واحدة كالماغناطيس لتراب الحديد ؛ وقذف بهم إلى النار ؛ ثم انبعث فالتقط الأغنياء المفسدين فأطارهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً ، وقد ألجئوا العرق من الفزع ؛ ثم طرت أنا فيه ، ونظرت ، فإذا أنا محتبس في مظلمة نارية كالمهاوية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسهم . ولو أن يحار الأرض جعل فيها البحر فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلها فيكون العمق كبعد ما بين الأرض والسماء ، ثم تسجّر ناراً تلتطى ، لكانت هي الهاوية التي نحن في أعماقها ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشعبي : أن عصاة المؤمنين الموحدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياء وجوارحهم متوتة ؛ لأن هذه الجوارح قد أطاعت الله وسبحته فكرمت بذلك حتى على جهنم ، ثم يعدّون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يُخرجون وينتظروهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجل قتل نفسه ، فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمن : اخرج فإن إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرنى إيمانى ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلاً ذَبَحَ نفسه يريد أن يصرخ بسأل الله الرحمة ، فلا يخرجُ الصوتُ من حلقه ، إذ كان قد فترَاه وبقى مفقِرِيًّا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمِديّة ، فهو هناك تسلخُ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نيةٌ صالحة ، فلا تزال تسلخُ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخرَ كان تَحسِي من السم فمات ظمآن يتلظى جوفهُ ، فلا تزال تَنشأ له في النار سحابةٌ رَوِيّةٌ تَبَرُّقُ بالماء ، فإذا دنتُ منه ورَجّاهَا ، انفجرتُ عليه بالصواعق ثم عادت تَنشأ وتنفجر !

وقال رجل : إنما كنت مجنونًا ضعيفًا عاجزًا فأزهقتُ نفسي . فنودي : أو ما علمتَ أن الله يحاسبك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ ، وقويٌّ لا ضعيفٌ ، وقادرٌ لا عاجزٌ ؟ كنت تعقل بالأقل أنك ستموت ، وكنت تقوى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشر .

وقال رجل عالم قد حَزَّ في يده بسكين فمات : « لم يكن الكمالُ من الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيء يدرك » . فصرخ فيه صوتٌ رهيب : « ولكن من عَظَمَةِ الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكه ! » .

* * *

قال أبو عبيد : ثم انتصب بلزاني شيطانٌ ماردٌ أحمر ، يلتمعُ التماحَ الزجاج فيه الخمر ، فقام في وجهي وقال : بماذا جئت إلى هنا يا عدو الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النداء : شفَعَتُ فيك الخمرُ التي لم تشربها ، اخرج ، إن إيمانك ينتظرك

فصحت : الحمد لله ! وتحرك بها لساني ، فانتبهت .

لقد علمت أن الصبرَ على المصائب نعمة كبرى لا يُنعم الله بها إلا في المصائب .

وحى القبور *

ذهبتُ في صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسي بنفسي إلى المقبرة ، وقد مات لي من الخواطرِ مَوْتَي لا مَيِّتٌ واحد ؛ فكنت أمشي وفيَّ جِنَازَةٌ بمُشَيِّعِيهَا ؛ من فِكْرٍ يَحْمِلُ فِكْرًا ، وخاطرٍ يَتَّبِعُ خَاطِرًا ، ومعْنَى يَبْكِي ، ومعْنَى يَبْكِي عليه .

وكذلك دأبى كلما انحدرتُ في هذه الطريق إلى ذلك المكان الذي تأتبه العيونُ بدموعها ، وتمشي إليه النفوسُ بأحزانها ، وتجيء فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التي لا يُنَادِي أهلُها مِن أهلِهِم بالأَسْمَاءِ ولا بالأَلْقَابِ ، ولكن بهذا النداء : يا أَحِبَّائِنَا ، يا أَحْزَانِنَا !

ذهبتُ أزورُ أمواتِ الأعْزَاءِ وأتصلُ منهم بأطرافِ نفسي ، لأحيا معهم في الموت ساعةً أَعْرَضُ فيها أَمْرَ الدُّنْيَا عِلى أَمْرِ الآخِرَةِ ، فأَنسى وأذكرُ ، ثم أَنظرُ وأَعتبرُ ، ثم أَتعرَّفُ وأَتوسَّمُ ، ثم أَسْتَبْطِنُ مما في بطن الأرض ، وأَسْتَظْهِرُ مما على ظهرها .

وجلسْتُ هناك أَشْرِفُ من دهرٍ على دهرٍ ، ومن دُنْيَا على دُنْيَا ، وأُخْرِجُ الذَّاكِرَةَ أَفْرَاحِهَا الْقَدِيمَةَ لَتَجْعَلَهَا مَادَةً لِأَحْزَانِهَا ؛ وَانْفَتَحَ لِي الزَّمَنُ الْمَاضِي فَرَأَيْتُ رَجْعَةَ الْأَمْسِ ، وَكَأَن دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِجَوَادِثِهِ وَأَيَّامِهِ ، وَرُفِعَ لِعَيْنِي كَمَا تُرْفَعُ الصُّورَةُ الْمُعَلَّقَةُ فِي إِطَارِهَا .

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطَّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا ؛ وَالْحَبِيبُ الْغَائِبُ لَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يَجِبُهُ مَهْمَا تَرَاحَتْ بِهِ الْأَيَّامُ ؛ وَهَذِهِ هِيَ بَقِيَّةُ الرُّوحِ إِذَا امْتَزَجَتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى : تَتْرَكَ فِيهَا مَا لَا يُسْمَحَى لَأَنَّهَا هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُسْمَحَى .

ذهب الأمواتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يَقِيمُوا فِي الدُّنْيَا ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا بِالدُّنْيَا

ليس غير ، فهذه هى الحياة حين تعبر عنها النفس بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها .

الحياةُ مُدةٌ عمل ، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات ، إن هى إلا مَصْنَعٌ يُسَوِّغُ كُلَّ إنسان جانباً منه ، ثم يقال له : هذه الأداةُ فاصنع ما شئت ، فضيلتك أو رذيلتك .

* * *

جلستُ فى المقبرة ، وأطرقتُ أفكر فى هذا الموت . يا عجباً للناس ! كيف لا يستشعرونه وهو يهدمُ من كل حى أجزاءً تحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته ؛ وما زال كلُّ بُنْيَانٍ من الناس به كالحائط المُسَلَّطِ عليه خرابه ، يتأكَّلُ من هنا ويتناثرُ من هناك ! ؟

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهى ! كيف يجعلون الحياةَ مُدةَ نزاع وهى مُدةٌ عمل ، وكيف لا تبرحُ تنزرو النوازى بهم فى الخلاف والباطل ، وهم كلما تَدَافَعُوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خَصْماً بخضم وردوا كَيْدًا بكيد ، جاء حكمُ الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيء : هذا لى ؟

أمّا والله إنه ليس أعجبُ فى السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطى الناسُ ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً ، إذ يأتى الآتى إليها لحمًا وعظمًا ، ولا يرجع عنها الراجعُ إلا لحمًا وعظمًا ، وبينهما سفاهةُ العظم واللحم حتى على السَّكَّينِ القاطعة . . .

تأتى الأيامُ وهى فى الحقيقة تَفِيرُ فِرَارَها ؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةً فلما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغى أن تُصَحَّحَ أعمالُ الحياة فى الناس على هذه الأصلِ البينِ ، لولا الطباعُ المدخولةُ ، والنفوسُ الغافلةُ ، والعقولُ الضعيفةُ ، والشهواتُ العارمةُ ؛ فإنه ما دام العمرُ مُقْبِلًا مُدْبِرًا فى اعتبار واحد ، فليس للإنسان أن يتناولَ من الدنيا إلا ما يُرضيه محسوبًا له ومحسوبًا عليه فى وقت معًا ، وتكونُ الحياةُ فى حقيقتها ليست شيئًا إلا أن يكونَ الضميرُ الإنسانى هو الحى فى الحى .

* * *

وما هي هذه القبور ؟ لقد رجعت عند أكثر الناس مع الموتى أبنية ميتة ؛ فما قط رأوها موجودةً إلا لينسوا أنها موجودة ؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحيُّ المُتَغَلِّغُ في الحياة إلى بعيد ؛ فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النهاية والانقطاع ؛ وهو في الطَّرف الآخر رَدٌّ على البيت الذي هو بناءٌ قائمٌ لفكرة البدء والاستمرار ؛ وبين الطَّرفين المَعْبُودُ وهو بناءٌ لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر ، فهو على الحياة والموت كالفاضي بين خصمين يُصلح بينهما صلحاً أو يقضي .

القبرُ كلمةٌ الصديق مبنيةٌ متجسِّمةٌ ، فكل ما حولها يَتَسَكَّدُ ويتأوَّل ، وليس فيها هي إلا معناها لا يَدْخُلُهُ كَذِبٌ ولا يعتريه تأويل . وإذا ماتت في الأحياء كلمةُ الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثر ، بقي القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها ، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها ، مبيناً بما ينطوي عليه أن الأمر كله للنهية .

القبرُ كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ فيرى العمرَ الماضي كأنه غيرُ ماضٍ ، فيعملُ في إفراغ حياته من الحياة^(١) بما يملؤها من رذائله وخصائسه ؛ فلا يزال دائماً في معاني الأرض واستجماعها والاستمتاع بها ، يتلو في ذلك تِلْوَ الحيوانِ ويقتَسِسُ به ، فشريعتُه جَوْفُه وأعضاؤه ؛ وترجعُ بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية ، كالحمار مع الذي يملكه ويعلفه ، ولو سُئِلَ الحمارُ عن صاحبه من هو ؟ لقال : هو حِمَارِي

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرض إلى آخرِ الدنيا ، معناها أن الإنسانَ حيٌّ في قانون نهايته ، فلينظر كيف ينتهي .

* * *

إذا كان الأمر كله للنهية ، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها ، فالحياةُ هي الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها ؛ طريقة إكراه الحيوان الإنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية ، وجعلها أصلاً في طباعه ، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها ، إذ كانت روحانيته في النهايات لا في بداياتها .

(١) أي من إنسانية الحياة .

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعملُ أعمالها ؛ فإذا انتهت الحياةُ انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتاً يخلدُ هو فيها ؛ فهو من الخير خالدٌ في الخير ، ومن الشر هو خالدٌ في الشر ؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها ؛ تولد موتين : آتيةٌ وراجعة .

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تبطلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرة ، فلا يترك الشرُّ يمضي إلى نهايته بل يُحسَم في بدئه ويُقتل في أول أنفاسه ، وكذلك الشأنُ في كل ما لا يتحسنُ أن يبدأ ، فإنه لا يجوز أن يمتدَّ : كالعداوة والبغضاء ، والبخل والأثرة ، والكبرياء والغرور ، والخداع والكذب ؛ وما شابهَ هذه أو شابهتها ، فإنها كلّها انبعاثٌ من الوجود الحيواني وانفجارٌ من طبيعته ؛ ويجب أن يكون لكل منها في الإرادة قبرٌ كي لا تتسلَّم للنفس الطيبة إنسانيتها إلى النهاية .

* * *

يا من لهم في القبور أموات !
إن رؤيةَ القبر زيادةٌ في الشعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكونَ معنى القبر من معاني السلام العقلي في هذه الدنيا .

القبر فمٌ ينادي : أسرعوا أسرعوا ، فهي مدة لو صُرِفَتْ كلها في الخير ما وَفَتْ به ؛ فكيف يضيع منها ضياعٌ في الشر أو الإثم ؟ لو وُلد الإنسان ومشي وأَيْفَعَ وشَبَّ واكتَهَلَ وهَرِمَ في يوم واحد ، فما عساه كان يُضَيِّع من هذا اليوم الواحد ؟ إن أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصرَ من يوم .

ينادي القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لإصلاحها ؛ فإنها إن جاءت إلى هنا كما هي ، بقيت كما هي إلى الأبد ، وتركها الوقتُ وهرب .

هنا قبر ، وهناك قبر ، وهناك القبرُ أيضاً ؛ فليس ينظر في هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حكمٌ محكمة على هذه الحياة كيف تنبغى وكيف تكون .

في القبر معنى إلغاء الزمان ، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصرَ على أيامه ، أن يُسَقِّطَ منها أوقاتَ الشر والإثم ، وأن يُمِيتَ في نفسه خواطرَ السوء ؛ فمن

معانى القبر ينشأ للإرادة عقلُها القوىُّ الثابت ؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً في زمن هذا العقل ، كما لا يجد الليلُ محلاً في ساعات الشمس .
 ثلاثة أرواح لا تصلحُ روحُ الإنسان في الأرض إلا بها :
 روحُ الطبيعة في جمالها ، وروحُ المعبد في طهارته ، وروحُ القبر في موعظته .

عروسٌ تزف إلى قبرها*

١

كان عمرُها طاقةٌ أزهارٍ تُسمى أياماً .
كان عمرُها طاقةٌ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيه اليومُ بعدَ اليومِ كما تَنْبُتُ الورقةُ
الناعمةُ في الزهرة إلى ورقةٍ ناعمةٍ مثليها .

أيامُ الصَّبَا المَرْحَةِ حتَّى في أحزانِها وهمومِها ؛ إذ كان يجيئُها من الزمنِ
الذى خُصَّ بشبابِ القلبِ ، تبدو الأشياءُ في مَجَارَى أحكامِها كالمسحورة ؛
فإن كانت مُفْرِحَةً جاءت حاملةً فرَحَيْنِ ، وإن كانت مُحْزِنَةً جاءت
بنصفِ الحزنِ .

تلك الأيامُ التي تعملُ فيها الطبيعةُ لشبابِ الجسمِ بِقُوَى مختلفةٍ : منها
الشمسُ والهواءُ والحركةُ ، ومنها الفَرَحُ والنسيانُ والأحلامُ !

* * *

وشبَّتْ العذراءُ وأُفْرِغَتْ في قالبِ الأنوثةِ الشمسيِّ القمريِّ ، واكتسبَتْ
وجهُها ديباجةً من الزَّهَرِ الغَضِّ ، وأودعتها الطبيعةُ سِرَّها النسائيَّ الذى يجعلُ
العذراءَ فنَّ جمالٍ لأنَّها فنُّ حياةٍ ، وجعلتها تِمَثالاً للظُّرفِ : وما أعجَبَ
سِحْرَ الطبيعةِ عندَ ما تُجَمِّلُ العذراءَ بظُرفِ الأطفالِ الذين ستلدُهم
من بَعْدِ ! وأسبغتُ عليها معاني الرقةِ والحَسَنانِ وجمالِ النفسِ ؛ وما أكرمَ يدَ
الطبيعةِ عندَ ما تَمَهِّرُ العذراءَ من هذه الصفاتِ مَهَرًا للإنسانِ !

وخطبتِ العذراءُ لزوجها ، وعُقدَ له عليها في اليومِ الثالثِ من شهرِ مارسٍ في
الساعةِ الخامسة بعدَ الظهرِ .

وماتت عذراءٌ بعدَ ثلاثِ سنينِ ، وأنزِلَتْ إلى قبرها في اليومِ الثالثِ من شهرِ
مارسٍ في الساعةِ الخامسة بعدَ الظهرِ !

* هي زوج ولده سامي . وانظر خبره وخبرها في « عود على بدء » من كتاب (حياة الرافعي) .

وكانت السنوات الثلاثُ عُمُرَ قلبٍ يُقَطِّعُهُ المرضُ ، ينتظرون به العُرْسُ ،
وينتظر بنفسه الرَّمْسُ !

يا عجائبَ القَدَرِ ! أذاك لحنٌ موسيقيٌّ لأَنيْنِ استمرَّ ثلاثَ سنَواتٍ ، فجاء
آخرُهُ موزونًا بأوَّلِهِ في ضبطٍ ودَقَّةٍ ؟
أكانت تلكَ العذراءُ تحمِلُ سرًّا عَظِيمًا سَيُغَيِّرُ الدُّنْيَا ، فردت الدنيا عليها
يومَ التَهْنِئَةِ والابْتِسَامِ والزينة ، فإذا هو يومُ الوَلَوَكَةِ والدُمُوعِ والكُفَنِ ؟

٢

واهِمَا لك أيُّها الزمنُ ! مَن الذي يفهمك وأنت مُدَّةُ أَقْدَارٍ ؟
واليومُ الواحدُ على الدنيا هو أيامٌ مُتَخَلِّفَةٌ بعددِ أَهْلِ الدنيا جَمِيعًا ، وبهذا
يعود لكلِّ مخلوقٍ سِرُّ يومِهِ ، كما أن لكلِّ مخلوقٍ سِرَّ رُوحِهِ ، وليس إليه لا هذا
ولا هذا .

وفي اليومِ الزمَنيِّ الواحدِ أربعمائةُ مليونِ يومٍ إنسانيٍّ على الأرضِ ! ومع ذلك
يُحْصِيهِ عقلُ الإنسانِ أربعمائةً وعشرين ساعةً ؛ يا للغباوة . . . !
وكلُّ إنسانٍ لا يَتعلَّقُ من الحياةِ إلا بالشعاعِ الذي يضيءُ المكانَ المظلمَ في
قلبه ، والشمسُ بما طلعت عليه لا تستطيع أن تُنِيرَ القلبَ الذي لا يضيئُهُ إلا
وجهٌ محبوبٌ .

وفي الحياةِ أشياءٌ مكذوبةٌ تكبِّرُ الدنيا وتُصَغِّرُ النفسَ ، وفي الحياةِ أشياءٌ حَقِيقِيَّةٌ
نَعْظُمُ بالنفسِ وتَصْغُرُ بالدنيا ؛ وذَهَبُ الأرضِ كُلِّه فقرٌ مُدْفَعٌ حينَ تكون
المعاملةُ مع القلبِ .

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرُكَ الإلهيُّ إذا أَكْبَرَكَ الإنسانُ !

* * *

ويا عَجَبًا لأهلِ السوءِ المَغْتَرِّينَ بِحياةٍ لا بدَّ أن تنتهيَ ! فإذا يرتقبون إلا أن
تنتهيَ ؟ حياةٌ عَجِيبَةٌ غامضةٌ ؛ وهل أَعْجَبُ وأَغْمَضُ من أن يكونَ انتهاءُ
الإنسانِ إلى آخرها هو أوَّلُ فَكْرِهِ في حَقِيقَتِها ؟

فَعِنْدَ مَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرَقُمُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرْقُمُهَا صَدْرُ الْمُحْتَضِرِ . . . عِنْدَ مَا يَكُونُ مُلْكُ الْمُلُوكِ جَمِيعًا كَالْتَرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئًا أَلْبَتَّةَ . . .

. . . مَاذَا يَكُونُ أَيُّهَا الْمَجْرُمُ بَعْدَ مَا تَقْتَرِفُ الْجُنَايَةَ ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ ، وَتَرَى حَوْلَكَ الْجُنْدَ وَالْقَضَاةَ ، وَتَقِفُ أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ ؟

* * *

أَعْمَالُنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا الْحَيَاةُ ، لَا أَعْمَارُنَا ، وَلَا حَظُوظُنَا . وَلَا قِيَمَةَ لِلْمَالِ ، أَوْ الْجَاهِ ، أَوْ الْعَافِيَةِ ، أَوْ هِيَ مَعًا — إِذَا سَلِبَ صَاحِبُهَا الْأَمْنَ وَالْقَرَارَ ! وَالْآمِنُ فِي الدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ . وَالسَّعِيدُ فِي الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ .

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَخْدَعَ آلَاةُ صَاحِبَتِهَا وَفِيهَا (الْعَدَادُ) : مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا أَشْعَرَتْهُ فَعَدَّهَا ؟ وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ قَلْبٌ : مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّهُ ؟

٣

وَرَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ .
أَفَرَأَيْتِ أَنْتَ الْغِنَى عِنْدَ مَا يُدْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرَكَ لَهُ الْحَسْرَةَ وَالذِّكْرَى الْأَلِيْمَةَ ؟ أَرَأَيْتِ الْحَقَائِقَ الْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَرُكُ لَهُمْ إِلَّا الْأَحْلَامَ بِهَا ؟ مَا أَتَعَبَ الْإِنْسَانَ حِينَ تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ عَنْ جِسْمِهِ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ !
وَمَا هِيَ الْمَهْمُومُ وَالْأَمْرَاضُ ؟ هِيَ الْقَبْرُ يَسْتَبْطِئُ صَاحِبَتَهُ أَحْيَانًا فَيَنْفُضُ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ شَيْئًا مِنْ تَرَابِهِ . . . !

رَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ ، فَيَاللَّهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا ! فَتَرَخَ جِسْمُهَا كَمَا فَرِغَتْ عِنْدَهَا الْأَشْيَاءُ مِنْ مَعَانِيهَا ! وَتَخَلَّى هَذَا الْجِسْمُ عَنْ مَكَانِهِ لِلرُّوحِ تَظْهَرُ لِأَهْلِهَا وَتَقِفُ بَيْنَهُمْ وَقْفَةً الْوَدَاعِ !
وَتَتَحَوَّلُ الزَّمَنُ إِلَى فِكْرِ الْمَرِيضَةِ ؛ فَلَمْ تَعُدْ تَعِيشُ فِي نَهَارٍ وَلَيْلٍ ، بَلْ فِي فِكْرِ مُضَيٍّ أَوْ فِكْرِ مُظْلَمٍ !

يا إلهي ! ما هذا الجسمُ المتهدِّمُ المُقبِلُ على الآخرة ؛ أهو تمثالٌ بَطَلٌ -
تعبيرُهُ ، أم تمثالٌ بدأ تعبيرُهُ ؟

لقد وثِّقَتْ أنه الموت ، فكان فكرُها الإلهيُّ هو الذي يتكلم ؛ وكان وجهُها
كوجه العابد : عليه طيفُ الصلاةِ ونورُها . والروحُ الإنسانية متى عبَّرت
لا تعبر إلا بالوجه .

ولها ابتسامةٌ غريبةٌ الجمال ؛ إذ هي ابتسامةُ آلامٍ أيقنت أنها مُوشِكةٌ أن
تنتهي ! ابتسامةُ روحٍ لها مثلُ فَرَحِ السجين قد رأى سِجَّانَه واقفاً في يده
الساعة يرقُبُ الدقيقةَ والثانية ليقول له : انطلق !

* * *

ودخلتُ أعودُها فرأتُ كأنني آتٍ من الدنيا . . . ! وتَنَسَّمتُ مني هواءَ
الحياة ، كأنني حدِيقَةٌ لا شخص !

ومن غيرُ المريضِ المُتَدَنِّفِ ، يعرفُ أن الدنيا كلمةٌ ليس لها معنًى أبداً إلا
العافية ؟ مَنْ غيرُ المريضِ المُشْفِي على الموت ، يعيشُ بقلوبِ الناس الذين
حوله لا بقلبه ؟

تلك حالةٌ لا تنفع فيها الشمسُ ولا الهواء ولا الطبيعةُ الجميلة ، ويقوم مقامُ
جميعِها للمريضِ أهله وأحبَّاءُه !

وكان ذَوُّوها من رهبةِ القدرِ الداني كأنهم أُسرى بِحَرْبٍ أَجَلِسُوا تحت
جِدارٍ يريد أن ينقضَّ ! وكانت قلوبُهُم من فزعها تَنَبِّضُ نَبْضاً مثلَ ضَرْباتِ
المَعَاوِلِ .

وباقترابِ الحبيبِ المحتَضِرِ من المجهول ، يُصبح من يَجِبُ في مجهولٍ آخر ،
فتختلط عليه الحياةُ بالموت ، ويعود في مثل حَيَرَةِ المَجْنُون حين يُمسِكُ بيده الظلَّ
المتحركَ ليمنعَه أن يذهب ! وتَعْرُوهُ في ساعة واحدة كآبةٌ عمرٍ كامل ، تُهيئُ
له جلالَ الحسِّ الذي يشهد به جلالُ الموت !

* * *

وحانت ساعةٌ ما لا يُفهم ، ساعةٌ كلُّ شَيْءٍ ، وهي ساعةُ اللاشئِ في

العقل الإنسانى ! فالتفتت العروس لأبيها تقول : « لا تحزنْ يا أبى . . . » ولأمها تقول : « لا تحزنى يا أمى . . . ! »

وتبسمت للدموع كأنما تحاولُ أن تكلمَها هى أيضاً ؛ تقول لها : « لا تبكى . . . ! » وأشفقت على أحيائها وهى تموت ، فاستجمعت روحها ليبقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق ! وقالت : « سأغادركم مبتسمةً فعيشوا مبتسمين ، سأتركُ تذكاري بينكم تذكارة عروس ! . . . » ثم ذكرت الله وذكّرتهم به ، وقالت : « أشهد أن لا إله إلا الله . . . » وكررتها عشرًا ! وتملأت روحها بالكلمة التى فيها نورُ السماوات والأرض ، ونطقت من حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذى جعلهُ النفس منيرةً تتلألأ حتى وهى فى أحزانها .

ثم استقبلت خالقَ الرحمة فى الآباء والأمهات ! وفى مثل إشارة وداعٍ من مسافرٍ انبعث به القطار ، ألفت إليهم تحيةً من ابتسامتها وأسلمت الروح !

٤

يا لعجائب القدر ! مشينا فى جنازة العروس التى تُزفُ إلى قبرها طاهرةً كالطفلة ولم يبارك لها أحد ! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرتُ على حائط فى الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذى يصبح للأعين ؛ إعلاناً قديماً عن (رواية) هذا هو اسمُها : « مبروك . . . ! »

واخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصّى ، فلم أرَ هذا الإعلانَ مرةً أخرى ! واخترقنا المدينة كلّها ، فلما انقطع العمرانُ وأشرفنا على المقبرة ، إذا آخرُ حائطٍ عليه الإعلان : « مبروك . . . ! »

موت أم*

رجعتُ من الجَنَازَةِ بعد أن غَبَرْتُ قَدَمِي سَاعَةً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَرَابُهَا
تَرَابٌ وَأَشْعَةٌ ، وَكَانَتْ فِي النَعَشِ لَوْلُؤَةٌ آدَمِيَّةٌ مَحْطَمَةٌ ، هِيَ زَوْجَةُ صَدِيقِ
طَحْطَحَتْهَا الْأَمْرَاضُ فَفَرَّقَتْهَا بَيْنَ عِلَلِ الْمَوْتِ ، وَكَانَ قَلْبُهَا يُحْيِيهَا فَأَخَذَ
يُبْهَلُكُهَا ، حَتَّى إِذَا دَنَا أَنْ يَفْقُضِيَّ عَلَيْهَا رَحِمَهَا اللَّهُ فَقَضَى فِيهَا قَضَاءَهُ . وَمَنْ ذَا
الَّذِي مَاتَ لَهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ وَلَمْ يَرَهُ مِنْ قَلْبِهِ فِي عِلَّتِهِ كَالْعَصْفُورَةِ الَّتِي تَهْتَلِكُ
تَحْتَ عَيْنِي ثَعْبَانٍ سَلَطَ عَلَيْهَا شَمُومَ عَيْنِيهِ ! .

كَانَتْ الْمُسْكِينَةُ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ سِنِّهَا ، أَمَّا قَلْبُهَا فِي الثَّمَانِينَ
أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ ؛ هِيَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ وَهُوَ مُتَهَدِّمٌ فِي سِنِّ الْمَوْتِ .

وَكَانَتْ فَاضِلَةً تَقِيَّةً صَالِحَةً ، لَمْ تَتَعَلَّمْ وَلَكِنْ عَلِمَتْهَا التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةُ . وَأَكَلُ
النِّسَاءِ عِنْدِي لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي مَلَأَتْ عَيْنِيهَا مِنَ الْكُتُبِ فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ نَظَرَاتٍ
تَحْلِلُ مُشَاكِلَ وَتَخْلُقُ مُشَاكِلَ ؛ وَلَكِنِهَا تِلْكَ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ
مِثْلِ ثَلَاثَةِ بَنُورِ الْإِيمَانِ تَقِيرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ السَّوَادِي ، فَتُؤْمِنُ بِأَحْزَانِهَا وَأَفْرَاحِهَا
مَعْنًا ، وَتَأْخُذُ مَا تُعْطَى مِنْ يَدِ خَالِقِهَا رَحْمَةً مَعْرُوفَةً أَوْ رَحْمَةً مَجْهُولَةً . هَذِهِ عِنْدِي
تُسَمَّى امْرَأَةً ، وَمَعْنَاهَا الْمَعْبُدُ الْقُدْسِيُّ ؛ وَتَكُونُ الزَّوْجَةَ ، وَمَعْنَاهَا الْقُوَّةُ الْمُسْعِدَةُ ؛
وَتَصِيرُ الْأُمَّ ، وَمَعْنَاهَا التَّكْمِيلَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِصِغَارِهَا وَزَوْجِيهَا وَنَفْسِهَا .

وَمَهْمَا تَبْلُغِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْعِلْمِ فَالرَّجُلُ أَعْظَمُ مِنْهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ ، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ حَقٌّ
الْمَرْأَةُ هِيَ تِلْكَ الَّتِي خُلِقَتْ لِتَكُونَ لِلرَّجُلِ مَادَّةَ الْفَضِيلَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ ، فَتَكُونُ
لَهُ وَحِيًّا وَإِلْهَامًا وَعِزًّا وَقُوَّةً ، أَيْ زِيَادَةً فِي سُرُورِهِ وَنَقْصًا مِنْ آلَامِهِ .

وَلَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ فِي الْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ صِفَاتُهَا
الَّتِي تَجْعَلُ رَجُلَهَا أَعْظَمَ مِنْهَا .

* هِيَ زَوْجُ صَدِيقِنَا الْأَسَازِ حَسَنِ مَخْلُوفٍ . وَانْظُرِ « عَمَلُهُ فِي الرِّمَالَةِ » مِنْ كِتَابِ « حَيَاةِ
الرَّافِعِي » .

ومشيتُ من البيت الذى ألبسته الميتةُ معنى القبر ، إلى القبر الذى ألبسَ الميتةُ معنى البيت . وأنا منذ مشيتُ فى جنازة أُمى (رحمها الله) لا أسير فى هذه الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأَتبعُ من الميتِ صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة ، لأنه من غير هذه الدنيا ؛ وأمشى فى ساعةٍ ليست ستين دقيقةً ، لأنها خرجت من الزمن ؛ ولا أرى الطريقَ من طَرق الحياة ، لأننى فى صحبة ميت ؛ وتُصبح للأرضِ فى رأى جغرافيةٍ أخرى عَمِيَ الناسُ عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيتُ من شدة ما ظهرت .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرضِ يَغمرها البحر . أما أنا فأرى فى تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يَغمرها البحر الذى وصفوا ، ولكن خِصَمٌ آخرُ زخَّار مُتَضَرِّبٌ ، هو ذلك البحرُ الترابيُّ العَظِيمُ المسمى « المقبرة » .
يقولون : إن الحياةَ هى . . . هى ماذا - ويُحكَم - أيها المغرورون ؛ أفلا تَرونَ هذه الصلةَ الدائمةَ بين بطنِ الأمِ وبطنِ الأرضِ ؟

* * *

لعمري كيف تجعلُ هذه الحياةُ للناسِ قلوباً مع قلوبهم ، فيحسُّ المرءُ بقلب ، ويعملُ بقلب آخر : يعتقد ضررَ الكذب ويكذب ، ويعرف مَعرَّةَ الإثم ويأثم ، ويؤثِّق بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضى فى العمر منتهيماً إلى ربه ، ما فى ذلك شك ، ولكنه فى الطريق لا يعمل إلا عمل مَنْ قد فَرَّ من ربه . . . ؟
هَبَّتْ الرِّيحُ فى السَّحَرِ على روضةٍ غناءَ فطابت لها ، فعقدت عُقدتها أن تتخذَ لها بيتاً فى ذلك المكان الطيب لتقيم فيه . . . يا لها حكمةٍ من التدبير ! تَزعمُ الرِّيحُ الإقامةَ على حين كلِّ وجودٍها هو لحظةُ مرورِها ، وتحلُمُ بالقرارِ فى البيتِ وهى لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يا لها حكمةٌ سامية ، لا يسكنُها من المعنى إلا أسخفُ ما فى الحمق ! .

* * *

هَمَدَ الحَيُّ وانطفأت عيناه ، ولكنه تحرك فى تاريخه مما ضيقَ على نفسه أو وَسَّعَ ، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إما مُبْصِرةً أو كالعمياء ؛ فلو تكلم يصف الحياةَ الدنيا لقال : إن هذه النجومَ على الأرضِ مصابيحُ مائِمِ أقيم بليل .

وما أعجب أن يجلس أهلُ المآتم في المآتم ليضحكوا ويلعبوا !
ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، إن هذا الحاضر الذى يمر فيكون
ماضيكم في الدنيا ، هو بعينه الذى يكون مستقبلكم في الآخرة ، لا تزيدون
فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى : من العظماء
إلى الفقراء ؛ ولكنها تنقلب في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء ؛ وأنتم
ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة ؛
إن التام على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها ، ولكن التام في السماء من تم بنفسه
وحدها .

* * *

يا أسفا ! لن يقول الميتُ للحى شيئاً ، ومن يدرى ؟ لعلنا ونحن نُلهجُ
للموتى ونُترِّلهم في قبورهم ، يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ،
وأنا مدفونون في القبر الذى يسمونه « الكرة الأرضية » ! وهل الكرة الأرضية من
اللانهاية إلا حفرةٌ برجلٍ نملة لتُدْفَن فيها نملة . . .
الحياة . . . أتريد أن تعرفها على حقيقتها ؟ هي المُبْهَمَاتُ الكثيرةُ التى
يس لها فى الآخرِ إلا تفسيرٌ واحد : حلالٌ أو حرام .

* * *

ورجعنا مع الصديق إلى بيته ، وله خمسة أطفال صغار لو أنهم هم الذين
انْزَعُوا من أمهم لترك كلُّ واحد على قلبها مثل المِكْوَةِ المحمَّيَّةِ عليها فى النار
إلى أن تحمرَّ ؛ ولكنَّ أمهم هى التى نَزَعَتْ منهم ، فكان بقاؤهم فى الحياة
تخفيفاً لسكرَةِ الموت عليها . وغَشَّيَتْهَا الغَشَّيَةُ فانت وهى تضحك ، إذ تراهم
نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامهم . وكانوا
هم عَقَلَتِهَا فى ساعة الموت !

تبارك الذى جعلَ فى قلب الأمِّ دنيا من خَلْقِهِ هو ، ودنيا من خَلْقِ
أولادها !

تبارك الذى أثابَ الأمَّ ثوابَ ما تُعَانِي ، فجعل فرحها صورةً كبيرة من
فرح صغارها !

وجاء أكبرُ الأطفالِ الخمسة ، وكأنه ثمانيةُ أرتالٍ من الحياة لا ثمانيةُ أعوامٍ من العمر ؛ جاء إلينا كما يجيء الفرعُ لقلوبٍ مطمئنة ، إذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقد الأم !

وطغنت عليه الدموعُ فتناول منديلَه ومسحَها بيده الصغيرة ، ولكنَّ روحَه اليتيمَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانيَ يتَّسمِها !
وظهر الانكسارُ في وجهه يعبرُ ببلاغة أنه قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِه وطفولتهِ بإزاء المصيبة التي نزلت به ، وجلس مستسلمًا ترجم هيئته معاني هذه الكلمة :
« رفقًا بي ! » .

ثم تطير من عينيه نظراتٌ في الهواء ، كأنما يحسُّ أن أمه حوله في الجو ولكنه لا يراها !

ثم يُرخي عينيه في إغماضةٍ خفيفة ، كأنما يرجو أن يرى أمه في طويَّته !
ولا يُصدِّق أنها ماتت ، فإن صَوَّتها حي في أذنيه لا يزال يسمعه من
أمس !

ثم يعود إلى وجهه الانكسارُ والاستسلام ، ويتململ في مجلسه ، فينطقُ جسمُه كله بهذه الكلمة : « يا أمي ! » .

أحسَّ - ولا ريب - أنه قد ضاع في الوجود ، لأن الوجود كان أمه .
ولس خشونة الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقدَ الصدرَ الذي فيه وحده لينُ الحياة لأن فيه قلبَ أمه وروحها .

وشعر بالذل ينسابُ إلى قلبه الصغير ، لأن تلك التي كان يملك فيها حقَّ الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حقٍّ في أحد ؛ وليس لأحد أمان !
وليسته المسكنةُ ، لأن له شيئًا عزيزًا أصبح وراء الزمان فلن يصلَ إليه !
وليسته المسكنةُ ، لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان !
وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسألُ نفسه : « إذا لم تكن أمي هنا ، فلماذا أنا هنا ؟ ! » .

ثم تغرَّغرت عيناه فيُخرجُ منديلَه ويمسح دمعَه بيده الصغيرة ، ولكن

روحہ الیتیمۃ تآبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانى يَشمِها !

* * *

ونفض الصغيرُ ولم ينطق بذاتِ شَفَةِ ؛ نهض يحمل رجولته التي بدأت منذ الساعة !

انتهت - أيها الطفلُ المسكينُ - أيامُك من الأمِّ ؛ هذه الأيام السعيدةُ التي كنتَ تعرف الغدَّ فيها قبل أن يأتى معرفتك أمسِ الذى مضى ؛ إذ يأتى الغدُّ ومعك أمُّك !

وبدأتْ - أيها الطفلُ المسكينُ - أيامُك من الزمن ، وسيأتى كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً ؛ إذ يأتى لك وحدك ، ويأتى وأنت وحدك !

الأمّ . . . ؟ يا إلهى ، أىُّ صغيرٍ على الأرض يجد كفايته من الروح إلا فى الأمِّ ؟ !

قصة أب *

حدثني المسكينُ فيما حدثَ وهو يصف ما نزل به قال :
 رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً فَنَسَسًا بالولَدِ في آثارهم ،
 ومدَّ بالنسل في وجودهم ، وزاد منه في أرواحهم أرواحًا ، وضمَّ به إلى قلوبهم
 قلوبًا ، وملأ أعينهم من ذلك بما تَقَرُّ به قُرَّةَ عينٍ كانت لم تجد ثم وَجَدَتْ ؛
 فهم بهؤلاء الأطفال يملكون القوةَ التي تُرجِعُهُم أطفالًا مثلهم في كل
 ما يسرُّهم ، فيكبرَ الفرحُ في أنفسهم وإن كان في ذات نفسه ضيلاً صغيراً ،
 ويعظمُ الأملُ في أشياءهم وإن كان هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يؤبَّه له .
 وتلك حقيقةٌ من حقائق السعادة لا أسمى ولا أعظمَ منها إلا الحقيقةُ
 الأخرى : وهى القوةُ التي يتحوَّلُ بها الكونُ في قلب الوالدين إلى كنزٍ من
 الحب والرحمة وجمالِ العاطفة ، بسحرٍ من ابتسامةِ طفلٍ أو طفلة ، أو بكلمةٍ
 منهما أو حركة ، على حينٍ لا يتحوَّلُ مثلَ ذلك ولا قريباً منه بمال الدنيا ،
 ولا بِمِثْلِكَ الدنيا .

رأيتُ الناسَ قد أنعم الله عليهم أن يكونوا آباءً ، ولكنه ابتلاني بأن أكون
 أباً ، وأخرج لى من أفراح قلبي أحزانَ قلبي ! ولقد كنت كرجلٍ ملك داراً
 يستمتعُ بها ، فمضى أن يُشْرِعَ^(١) في جانب منها غرفةً يزخرُ فيها ، فلما تم
 له ذلك وبلغ المقسَّرَحَ ، انهدمت الدارُ وبقيت الغرفة قائمة !
 عمرك الله ، أشعرُ هذا الرجلُ في نكبته بالغرفة أم بالدار ؟ وهل تراه زاد
 أو نقص ؟ وباليتهما بيتٌ وغرفةٌ من بيت ؛ فإن الحجارةَ تحيا بالبناء إذا ماتت
 بالهدم ، ولكن مَنْ ذا يُحْيِي الزوجةَ ماتت بعد أن وضعت بِكرَها الأولَ
 والآخِرَ !

لإنها طفلةٌ ولِدَتْ وكأنا أخرجتُ من تحت الرِّدمِ ، إذ وُلِدَتْ تحت ماضٍ
 من الحياة منهديم ، وهل فرقٌ بين هذا وبين أن تكونَ أمُّها قد ولدتها في الصحراءِ

* هو الصديق الأديب عبد الله عمار . وانظر « عمله في الرسالة » من كتاب « حياة الرافعي » .
 (١) أى يفتح غرفة إلى الشارع .

ثم أكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي ! فالمسكينة على الحالين منقطعة أول ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها .

طفلةٌ وُلدت صارخةً ، لا صرخةَ الحياة ، ولكن صرخةَ النوح والندب على أمها .

صرخةٌ حزينةٌ معناها : ضعوني مع أمي ولو في القبر !

صرخةٌ ترتعدُ ، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خاليةٌ من الصدر الذي يُدفنها !

صرخةٌ تتردد في ضراعة ، كأنها جملةٌ مركبةٌ من هذه الكلمات : « يا ربِّ ارحمني من حياةٍ بلا أم ! » .

قال المسكين وهو يبكي امرأته :

ولما ضربها المخاضُ ، ضاعفتُ قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفةً بمولودها ، ستكون روحين لا روحاً واحدة ، وتلد لي الحياةَ والحبَّ الإلهيَّ معاً ، وتأق لي قلباً بمثل طفولته الأولى التي يستحيل أن تأق الرجل إلا من زوجه . كلُّ ذلك ضاعف قواها ساعةً وشدَّ منها ؛ ولكن ما أسرع ما تبينَت أنه الموتُ ، إذ عَضَلَتْ وَعَسَّرَ خروج مولودها .

وجاءها الجراحى بمبضعه ، وكأنها رأتُه ذابحاً لا طبيباً ، فجعلت تعبر بعينها ، إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين .

كانت بنظرة تبكي على وعلى بؤس ، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقائه ؛ وبنظرة تودعني ، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنتُ إليها ؛ وبنظرة تتوجع لنفسها ، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكادُ أجن :

نظرات نظرات . . .

يا إلهي ! لقد خيَّل إلي أن ملكَ الموت واقفٌ بين عشرين مرأةً تُحيط به ، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً ، وكلُّ نظرة من عيني زوجتي إلى كانت منها هي نظرةٌ ، وكانت عندي أنا مرأةً الروح للروح .

ولكنها لم تنس أنها تموت لوضع مولودها ، وأن هذه الآلامَ الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقيةً حيةً منها ؛ فيا للرحمة والحنان والحب ! لقد ابتسمت لي وهي تموت ؛ وهي تلد ؛ وهي تُدبَح !

* * *

ليست رحمةُ المرأةِ المحبةِ خيالاً إلا إذا كانت حرارةُ الشمسِ التي تُحيي الدنيا خيالاً أيضاً ؛ إن هذا القلبَ النَسْوَى المستقرَّ فوق أحشاءِ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرحةً بآلامها ، وتغذوه وتقاسمه حياةَ نفسها — هذا القلبُ يحملُ الحبَّ أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه ، ويغذوه ويقاسمه حياةَ نفسه .

والرحمةُ الإلهيةُ أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلائلٌ مختلفةٌ ؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوء الذي تطعمه الحياة ، والهواء يدلُّ عليها بالضوء الذي تنفسه الحياة ، والماء يدلُّ عليها بالضوء الذي تشربه الحياة ، وهكذا إلى أن يأتي في الآخر قلبُ المرأةِ فيدلُّ على رحمة الله بالحب الذي تقومُ به الحياة .

ابتسامةُ الحب غالبت زفريات الموت التي تعتلجُ من تحتها حتى غلبتها ، وأعادت الحياة لحظةً إلى وجه زوجتي لأراها آخرَ ما أراها في صورة المُحبة لي ، فكان كلُّ جمالِ نفسها منتشراً على ذلك الوجه ، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودُّني وداعاً حزيناً متبسماً يتكلم ؛ يتكلمُ بعجزه عن الكلام .

ابتسامةُ لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها ؛ فكأنما التمتعتُ بأشعةٍ من الخلد ترفُّ رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعةً الموت أن حبه أقوى من الموت .

* * *

قال المسكين : ونشّر الطبيبُ ذا بطنها فكانت طفلة ، وما كانت زوجتي تقترح أن يكونَ الجنينُ غيرها ، بل كانت مستيقنةً أنها تضعها أنثى ، وصنعت لها ثيابها ، ووشنتها بزينة الأنوثة ، وعرضت أسماءَ البنات فاخترت اسمها أيضاً ، وكنت أكره ذلك منها وأريدُ ولداً لا بنتاً ، فكانت تُغايظني بعملها وإضرارها غيظ دُعابةٍ لا غيظَ جفَاء .

ومضت لا تذكر إلا بنتها مدةَ الحمل ، ولا تتكلم إلا عن بنتها ، وقد كنت أعجب لذلك ؛ فلما قضى الله فيها قضاءه ، علمت أن ذلك أمرٌ من أمر الروح ، فكان الإلهامُ فيها أنها على باب قبرها ، وأنها لن ترى طفلتها ، ولن تعيشَ لها ، فعاشت أيامَ الحملِ مع ذكراها : تضمُّ ثيابها إلى صدرها ،

وتحملُها على يدها ، وتُناغيها وتقبلُها ، وتأخذُها من الوهم وتردّها إليه ؛ وكذلك
نَعِمَتِ المسكينةُ بالمسكينة !

لَكَ اللهُ يا معجزةَ الرحمة ، يا نفسَ الأم !

* * *

ولما قيل : ماتت . جعل يكلمنى المتكلمُ ولا أعِقل ؛ فإن الكلمةَ التى تأتى
بالمصيبةِ المتوقّعةِ طال ارتقابُها ، لا تأتى بمعان لغويةٍ- كغيرها من الكلام ، بل
بأسلحةٍ تَضْرِبُ فى النفسِ وفى العقل ، وتُشخِنُهما جراحاً وفتكاً .

وجعلنى موتُها كأنى ميتٌ يحملُ نفسه ، ما حولَه إلا المشيعون ؛ وأحسست
كأن قوةً أخذتْ يلحدى رجليّ فوضعتها فى الآخرة وتركت الثانيةَ فى الدنيا ،
ولاحِقتى من الجزع ما اللهُ عالمٌ به ، وَوَجِدْتُ أُحْرَقَ الوجد ، وبكيتُ أحرَّ
البكاء ؛ وجعلتُ أفكارى تنحدرُ من رأسى إلى حلقى فأخنتُ بها ثم لا يُنْفَسُ
عنى إلا الدمع ، كأن أعضائى اختلّتْ بما ضغَطْنى من الحزن ، فأنا أتنفَسُ
برِثى وعينى .

بموتها شعرتُ بها ؛ ولعلّه من أجلِ ذلك لا يشعرُ الإنسانُ بلذّةِ الحب
كاملةً إلا فى آلامِ الحب وحدها ، وكانت فى حياتها تضع من روحها فى
سرورى ، وهذا هو سرُّ المرأةِ المحبوبة : يجد مُحبُّها فى كل سرورٍ لمحات روحانية ؛
وكذلك فعلتْ بعد موتها ، فجعلتْ روحها فى أحزانى ؛ ولولا أن روحها فى أحزانى
لقتلتنى المصيبة .

وكنت أدلِفُ وراءَ النعشِ وقد بَطَلْ فى نفسى الشعورُ بالدنيا ، وكان الناسُ
يمشون حولى بما فيهم من الحياة ، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما
يذهبون إلى كل مكان ؛ أما أنا فكنتُ أمشى بما فى من الحب منكسِراً متخذلاً
متضمّضِعاً ، لأنى وحدى سائرٌ وراءَ ما لا يُلْحَق .

وثَقُلَ الناسُ على قلبى ، ورجع كلُّ أمرٍهم عندى إلى العيبِ والنقيصة ،
إذ كان لى عقلٌ طارئٌ من الحالة التى أنا فيها ليس مثله لأحدٍ منهم ، وكنت
وحدى المصابَ بينهم ، فكنتُ وحدى بينهم العاقل .

أنا أمشي لأنتهى إلى آخر مصيبتى ، وهم يمشون ليتنوها إلى آخر الطريق ؛
وشتآن ما نحن وشتآن !

ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناى تنظران بالدموع لا بالنظر ، ورأيت
التراب كأنه غيومٌ ملونةٌ بألوانِ السحبِ الداكنةِ تتهيا فى سماءها تحت الظلام
لتُخفَى كوكباً من الكواكب ؛ وظهر لى القبر كأنه فتمُ الأرضِ يخاطبُ
الإنسانَ بحزم صارمٍ ، يخاطبُ الفقيرَ والغنى ، والضعيفَ والقوى ، والملوكَ
والصعاليك : « أن كلَّ قوةٍ تنزعُ هنا » .

* * *

قال المسكين : وكما يجدُ الإنسانُ فى أيامِ المطرِ رائحةَ نسيمِ المبتلِ بالماء ،
كنتُ أسترو حُ فى رَجعتى إلى الدارِ رائحةَ نسيمِ مبتلٍ بالدموع ؛ وحضرتُ
المأتمَّ وعزأتى الناسُ ، فكنتُ فيهم كالماصورِ بينهم : لا أتمنى إلا أن يدعوني
فأنجو على وجهى ، ولا أرى إلا أنهم يجرعونى الوجودَ غصصاً كما تجرعتُ الفقدَ
غصّةً غصّةً ؛ إلى أن تفرقوا مع سوادِ الليلِ فانكفأتُ إلى الدارِ ، فإذا كلُّ شىءٍ
قد تغيرَ ولسه الموتُ لمسسةً ، وإذا الدارُ نفسها كالعينِ المبروحةِ من آثارِ البكاء :
ما تمَّ شىءٌ إلا ليطالعتنى بأن مسراتى قد ماتت !

ولاح الصبحُ لعينى الساهرتين صباحاً فاتراً تبيّنتُ فيه الجمجل ، كأنه يقول :
« لم أطلعْ لك » ، فانسلتُ من البيتِ ، وذهبتُ أمشى فى دنيا هى الكآبةُ
المضيتةُ ستخبرتُ الأقدارُ منها بإظهارها فى هذا الضوءِ مظهرَ وجهِ العجوزِ
المتصابيةِ فى زينةٍ لا تزيدُها إلا قبحاً !

ومضيتُ على وجهى لا غايةَ لى ، أضربُ فى كلِّ جهةٍ كأنما أريدُ أن أهربَ
من نفسى ! وما خطر لى قط أنى فى يومٍ جديدٍ ، بل كنتُ عند نفسى لا أزالُ
أمس ، وتغيرَ عندى الزمانُ والمكان : فأحدُهما ساعةٌ موتٍ لا تتركُ ما فيها ، والآخرُ
قبرٌ ميسّةٌ لا يردُّ ما فيه .

آه من الوقت الذى ينتهى فيه الوجودُ ليعذبنا بالتذكُّرِ أنه كان موجوداً !

* * *

قال المسكين تم أعادتني قدماى إلى البيت لأرى طفلى — وما كنت رأيتها —

ولقد كانت ولادتها أولَ اِ. باةٍ لها ، وأولَ الحياةِ لى أيضاً ؛ إذ لولاها لانتحرتُ
غيرَ شكٍّ .

يا ويلمّا ! لم تلتقِ عيني بعينِ الطفلةِ حتى انفجرتُ تبكى . أتبكين لى يا ابنتى
أم على ؟

أهذا كاكوكِ أيتها المسكينة ، أم هو صوتُ قلبك اليتيم ؟
أصوتكِ أنتِ ، أم هو روحُ أمكِ تصرخُ ترى لى ، وتتوجعُ لفرطِ
ما قاسيت

يا ابنتى . إيمانك لطيفه الصنعة التى خرجت لى من كل تلك الخيالات
الشريفة الجليدة ، حلالِ الأيامِ تسعيفِ لى رأت !

عنانِ للواليدِ من النجمِ ندم ! وأراكِ أنتِ يا مسكينة ، خلقتِ من اللحم
والدمِ والدمعِ

بقيةُ حياةٍ ماتت ! فهل معنى ذلكِ إلا أنكِ بقيةُ موتٍ يحيا ؟
مسكينة ، سكتة . و أن نواميسَ العالمِ متغيرةٌ لشيءٍ لتغيرتُ من أجلِ
بؤسِكِ فردتِ لكِ الأم ؛ ولكنها لن تتغير ، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا
تُراثُ الحياةِ فى أجسامنا الأرضية ، كلُّ ذلكِ طبيعةٌ ، ولكنَّ بقعةً أنظفُ من
بقعة ، وأراكِ يا ابنتى كالبيتِ الذى هُدمَ أولَ ما بُنى يملؤه ترابُه !
لن تتغيرَ النواميسُ ، فلن تتجدى عطفَ الأم ، ولكن لن يتغيرَ قلبى أيضاً ،
فلن تُجرى عطفَ الأب .

ولذا صبر الناسُ على الحياةِ فمن أجلكِ يا مسكينة ! من أجلِ ضعفِكِ
وانقطاعك ساعانى الصبرَ لك ، وأعانى الصبرَ لى ، وأعانى الصبرَ عن أمكِ ،
سأصبرُ على الصبرِ نفسه !

يا ابنتى ، يا ابنتى ، لماذا وضعتكِ الأقدارُ من هذه الحياةِ فى الناحيةِ التى
ليس فيها إلا قبرٌ مظلمٌ مقفلٌ على أمكِ ، وأبٌ مسكينٌ مقفلٌ على آلامه ؟

* * *

قال المسكين : وهكذا كُتِبَتْ من أهلِ البؤسِ والهم ، فلم أتزوج إلا لتصنعَ
لى حبيبى دموعى ، ثم لم تمت إلا بعد أن تركت لى حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلاً
تصنع لى دموعى !

السَّمَكَة

حدَّث أحمدُ بنُ مسكينٍ الفقيهُ البغداديُّ قال : حصلتُ في مدينة (بَلْخ) سنة ثلاثين ومائتين ، وعالمُها يومئذ شيخُ خُرَاسان أبو عبد الرحمن^(١) الزاهد صاحبُ المواعظ والحِكَم ؛ وهو رجل قلبه من وراء لسانه ، ونفسه من وراء قلبه ، والفلكُ الأعلى من وراء نفسه ، كأنه يُلَقِّى عليه فيما زعموا .

وكان يقال له عندهم : (لُقمانُ هذه الأمة) ؛ لِمَا يُعجبهم من حِكَمِهِ في الزهد والموعظة ، وقد حضرتُ مجالسته وحفظتُ من كلامه شيئاً كثيراً ، كقوله : مَنْ دخل في مذهبنا هذا (يعني الطريق) فليجعلْ على نفسه أربعَ خصالٍ من الموت : موتٌ أبيض ، وموتٌ أسود ، وموتٌ أحمر ، وموتٌ أخضر ؛ فالموتُ الأبيضُ الجوع ، والموتُ الأسودُ احتمالُ الأذى ، والموتُ الأحمرُ مخالفةُ النفس ، الموتُ الأخضرُ طرحُ الرِّقَاعِ بعضِها على بعض (يعني لبسُ المرقعة والخَلَّتِي من الثياب) .

وقلت يوماً لصاحبه وتلميذه (أبي تراب) وجاريته في تأويل هذا الكلام : قد فهمنا وجهَ التسمية في الموتِ الأخضرِ ما دامت المرقعةُ خضراء ؛ فما الوجهُ في الأبيض والأسود والأحمر ؟ فجاء بقول لم أرضه ، وليس معه دليل ، ثم قال : فما عندك أنت ؟ قلت : أما الجوعُ فيُسميتُ النفسَ عن شهواتها ويتركها بيضاءً نقية ، فذلك الموتُ الأبيض ؛ وأما احتمالُ الأذى فهو احتمالُ سواد الوجه عند الناس ، فهو الموتُ الأسود ؛ وأما مخالفةُ النفس فهي كإضرار النار فيها ، فذلك الموتُ الأحمر .

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ ذاتَ نهارٍ في مسجد (بَلْخ) والناسُ مُتَوافرون ينتظرون (لقمانَ الأمة) ليسمعه ، وشغلته بعضُ الأمرِ فراثَ عليهم ، فقالوا : مَنْ يَعِظُنَا إلى أن يجيءَ الشيخ ؟ فالتفتُ إلى أبو تراب وقال : أنت رأيتَ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ ، ورأيتَ بشراً الخافى وفلاناً وفلاناً ، فقم

(١) هو حاتم بن يوسف شيخ خراسان وواعظها ، توفي سنة ٢٣٧ للهجرة .

فحدثت الناسَ عنهم ، فإنما هؤلاء وأمثالهم هم بقايا النبوة . ثم أخذ بيدي إلى الأسطوانة التي يجلسُ إليها إمامُ خراسان فأجلسني ثَمَّةَ وقعد بين يدي .

وتطاوَلت الأعناق ، ورماني الناسُ بأبصارهم ، وقالوا : البَغْدادى ! البَغْدادى ! وكأنما ضُوعِفْتُ عندهم بمجلسي مرةً وبنيستى مرةً أخرى ، فقلت في نفسي : والله ما في الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة ، ولو لَيْسَ عزرائيلُ قَتَّوسَ قَزَحَ لأفسد شعراً هذه الألوانِ معناه ، وإنما يجبُ أن يكونَ كما يجبُ أن يكونَ ، ولا موعظةَ في كلامٍ لم يمتلئ من نفسٍ قائله ، ليكونَ عملاً فيتحوَّلَ في النفوسِ الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً ؛ وإنه ليس الوعظُ تأليفُ القول للسامعِ يسمعه ، لكنه تأليفُ النفسِ لنفسٍ أخرى تراها في كلامها ، فيكون هذا الكلام كأنه قرابةٌ بين النفسين ، حتى لكَانَ الدمُ المتجاذِبُ يجري فيه ويدورُ في ألفاظه .

* * *

وكنْتُ رأيتُ رؤيا (ببلخ) تتصل بقصة قديمة في بغداد ، فقصصتها عليهم ، فكانت القصةُ كما حكيتها : أنى امْتُحِنْتُ بالفقر في سنة تسعَ عشرةَ ومائتين ؛ وانحَسَمَتْ مادني وقَحِطَ منزلي قَحِطاً شديداً جمع على الحاجة والضمرُ والمسكنة ؛ فلو انكمشت الصحراءَ المجردةَ فصَغُرْتُ ثم صَغُرْتُ حتى ترجعَ أذرعاً في أذرع ، لكانت هي دارى يومئذ في محلَّة باب البصرة من بغداد .

وجاء يومٌ صَحْرَاوِيٌّ كأنما طلعت شمسُهُ من بينِ الرملِ لا من بينِ السُّحُبِ ، ومَرَّت الشمسُ على دارى في بغداد مرورها على الورقة الجافة المعلقة في الشجرة الخضراء ؛ فلم يكن عندنا شيء يُسِيغُهُ حَلَقُ آدمي ، إذ لم يكن في الدار إلا ترابها وحجارتها وأجذاعها ؛ ولى امرأةٌ لى منها طفلٌ صغير ، وقد طَوَّينا على جوعٍ يَخْسِفُ بالجوْفِ خَسْفاً كما تَهْبِطُ الأرضُ ؛ فَلَتَمَنَّيْتُ حينئذ لو كنا جُرْدَانًا فَنَقَرَضَ الخشبُ ! وكان جوعُ الصبي يزيدُ المرأةَ ألماً إلى جوعها ، وكنْتُ بهما كالجائع بثلاثة بطونٍ خاوية .

فقلت في نفسي : إذا لم نأكل الخشبَ والحجارة فلنأكلُ بشمنا . وجمعتُ نيتي على بيع الدار والتحوُّلِ عنها ، وإن كان خروجي منها كالخروج

من جلدي : لا يسمّى إلا سلخاً وموتاً ؛ وبت ليلتي وأنا كالمشخّن حُمِلَ من معركة : فما يتقلّب إلا على جراحٍ تعملُ فيه عملَ السيوف والأسنّة التي عملتُ فيها .

ثم خرجتُ بفكّاسٍ لصلاة الصبح ؛ والمسجدُ يكون في الأرض ولكنّ السماء تكون فيه ، فرأيتني عند نفسي كأني خرجتُ من الأرض ساعة . ولما قضيت الصلاةُ رفع الناسُ أكفّهم يدعون الله (تعالى) ، وجرى لساني بهذا الدعاء : « اللهم بك أعوذ أن يكون فقرى في ديني ، أسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك ، وأسألك بركة الرضى بقضائك ، وأسألك القوة على الطاعة والرضا يا أرحم الراحمين » .

ثم جلستُ أتأملُ شأني ، وأطلتُ الجُلوسَ في المسجد كأني لم أعدُ من أهل الزمن فلا تجرى عليّ أحكامه ، حتى إذا ارتفع الضمّحى وابتضت الشمسُ جاءت حقيقة الحياة ، فخرجتُ أتسبّبُ لبيع الدار ، وانبعثتُ وما أدري أين أذهب ، فما سرتُ غيرَ بعيد حتى لقيني (أبو نصر الصياد) وكنتُ أعرفه قديماً ، فقلت : يا أبا نصر ! أنا على بيع الدار ؛ فقد ساءت الحالُ وأحوجتُ الخصاصة ، فأقرضني شيئاً يُمسِكُنِي على يومي هذا بالقيّوم من العيش حتى أبيع الدار وأوقّيك .

فقال : يا سيدي ! خذ هذا المِنْدِيلَ إلى عيالك ، وأنا على أثرِكَ لاحقٌ بك إلى المنزل . ثم ناولتني منديلاً فيه رُفَاقَتان بينهما حلوى ، وقال : إنهما والله بركةُ الشيخ .

قلت : من الشيخ وما القصة ؟

قال : وقتُ أمسٍ على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة ، فرأى أبو نصر يشرُّ الحافى^(١) فقال : ما لي أراك في هذا الوقت ؟ قلت : ما في البيت دقيقٌ ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع . فقال : الله المستعان ؛ احمل شبكتك وتعال إلى الخندق ؛ فحملتها وذهبتُ معه ، فلما انتهينا إلى

(١) هو الزاهد العظيم بشر بن الحارث المعروف بالحافى ، توفي سنة ٣٢٧ للهجرة وكان واحد الدنيا في ورعه وتقواه ؛ وقيل له : (الحافى) لأنه كان في حدّاته يمشي إلى طلب العلم حافياً ، إجلالاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم .

الخبندق قال لى : تَوْضاً وصلّ ركعتين . ففعلت ، فقال : سَمَّ اللهَ تعالى وألقى الشبكة . فسميت وألقيتها ، فوقع فيها شيء ثقيل ، فجعلت أجره فشقّ عَلىّ ؛ فقلت له : ساعدنى فإنى أخاف أن تنقطع الشبكة ، فجاء وجراًها معى ، فخرجت سمكة عظيمة لم أر مثلاًها سَمَنّاً وعِظَماً وفَرَاةً . فقال : خذها وبعها واشتر بئمنها ما يصلح عيالكَ . فحملتها فاستقبلنى رجل اشتراها ، فابتعت لأهلى ما يحتاجون إليه ، فلما أكلت وأكلوا ذكرتُ الشيخ فقلت أهدى له شيئاً ، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلتُ بينهما هذه الحلوى ، وأتيتُ إليه فطرقتُ الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك فى الدهليز وادخل . فدخلتُ وحدثنهُ بما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إنى هياتُ للبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعى رقاقتان فيهما حلوى .

قال : يا أبا نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ! اذهب كُلْهُ أنت وعيالُك .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وكنتُ من الجوع بحيث لو أصبتُ رغيماً لحسبته مائدة أنزلت من السماء ، ولكن كلمة الشيخ عن السمكة أشبعنى بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا ، كأنما طعمتُ منها ثمرةً من ثمار الجنة ؛ وطفقتُ أردّها لنفسى وأتأملُ ما تفتقُّ الشهواتُ على الناس ، فأيقنتُ أن البلاءَ إنما يصيبنا من أننا نفرسُ الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة ، فإذا استقرّ فى أنفسنا لفظٌ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به فى النفس كلُّ معانيه من المعاصى والذنوب ، وأخذتُ شياطينُ هذه المعانى تحومُ على قلوبنا ، فنصبحُ مُهَيَّئِينَ لهذه الشياطين ، عاملين لها ، ثم عاملين معها ، فتدْخِلُنَا مَدْآخِلَ السُّوءِ فى هذه الحياة ، وتُفَحِّمُنَا فى الوَرطَةِ بعد الورطة ، وفى الهلكة بعد الهلكة .

وما هذه الشياطينُ إلا كالذبَابِ والبعوضِ والهُوَامِ ، لا تحومُ إلا على رائحة تجذبها ، فإن لم تجد فى النفس ما تجتمعُ عليه ، تفرقت ولم تجتمع ، وإذا ألمت الواحدةُ منها بعد الواحدة لم تثبت . فلو أننا طردنا من أنفسنا الكلمات التى أفسدت علينا رؤيةَ الدنيا كما خُلِقَت ، لكان للدنيا فى أنفسنا شكلٌ

آخرُ أحسنُ وأجملُ من شكلها ، ولكانت لنا أعمالُ أخرى أحسنُ وأظهرُ من أعمالنا .

فالشيخ لم يكن في نفسه معنى لكلمة (التلذذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ الواحد ، طَرَدَ معاني الشرِّ كلها ، وصَلَحَ له دينه ، وَخَلَصَتْ نفسه للخير ومعاني الخير . ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأةً يعشيقها ، لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع : ما فيه إلا المرأةُ وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها . . .

وقد كنتُ سمعتُ في درس شيخنا أحمدَ بنِ حنبلٍ هذا الحديث : « لولا أن الشياطينَ يَحْمُونَ على قلوبِ بنى آدمَ لَنظَرُوا إلى مَلَكَوَتِ السمواتِ » . فما فهمتُ والله معناه إلا من كلمة الشيخ في السمكة ، وقد علَّمنيها هذا الصيَّاد العامى ؛ فَالشَّيَاطِينُ تنجذبُ إلى المعاني ، والمعاني يُوجدُها اللفظُ المستقرُّ في القلب استقراً غَرَضُ أو شهوةٍ أو طمع ؛ فإذا خلا القلبُ من هذه المعاني ، فقد أَمِنَ مُنْأَزَعَتِهَا له وَشَغَلَتْهَا إِيَّاهُ ، فيصبحُ فوقها لا بينها ؛ ومتى صار القلبُ فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يُعَمِّيه ويعترضُ نظره إلى الحقائق ، انكشفت له هذه الحقائقُ فانكشف له المَلَكَوَتُ ؛ فإذا وقع بعدُ في واحدة من اللذات ولو (كالرافقين والحلوى) ، استعلتْ الأشياءُ عليه فحجبته ، وعاد بينها أو تحتها ، وَعَمِيَ عَمَى اللذة ؛ والحِجَابُ على البصر كأنه تعليقُ العَمَى على البصر .

وكنْتُ لا أزالُ أعجبُ من صبر شيخنا أحمد بن حنبلٍ وقد ضُربَ بين يدي المعتصم بالسيّاط حتى غُشي عليه^(١) فلم يتحوّلْ عن رأيه ؛ فعلمتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعلْ في نفسه للضرب معنى الضرب ، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدَمي ؛ ولو هو صَبَرَ على هذا صَبَرَ الإنسان لَجَزَعَ وتحوّل ؛ ولو ضُربَ ضربَ الإنسان لتألَّم وتغير ؛ ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنّة وبقاء الدين ، وأنه هو الأمةُ كلها لا أحمدُ بن حنبلٍ ، فلو تحوّل لتحوّل الناسُ ، ولو ابتَدَعَ لا بتَدَعُوا ؛ فكان صبرُه صبرَ أمةٍ كاملةٍ لا صبرَ رجلٍ فردٍ ،

(١) كان هذا في سنة ٢١٩ وقد أرادوا الإمام العظيم على القول بخلق القرآن فلم يقل به ، فألقى القاضي ابن أبي دؤاد بقتله وشغب عليه . ثم ضرب بين يدي المعتصم ، فلما صمم ولم يجب أطلقه المعتصم وندم على ضربه .

وكان يُضْرَب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب ، فلو قرَّضوه بالمقاريض ونشروه بالمساشير لما نالوا منه شيئاً ؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه ، وكان الرجلُ هو الفكرَ ليس غيرَ .

هؤلاء قومٌ لا يرون فضائلهم فضائلَ ، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتمنوا عليها من الله لتهتقى بهم معانيها في هذه الدنيا ؛ فهم يزرعون في الأُمِّ زرعاً بيدِ الله ، ولا يملكُ الزرعُ غيرَ طبيعته ، وما كان المعتصمُ وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح : ائتمري غير التفاح .

* * *

قال أحمدُ بن مسكين : وأخذتُ الرقاقتين وأنا أقولُ في نفسي : لعن الله هذه الدنيا ! إن من هوانِها على الله أن الإنسانَ فيها يلبَسُ وجهه كما يلبَسُ نعلَه . فلو أن إنساناً كانت له نظرةٌ ملائكيةٌ ثم اعترضَ الخلقَ ينظرُ في وجوههم ، لرأى عليها وحولاً وأقداراً كالتى في نعالهم أو أقدارَ أو أقبح ، ولعله كان لا يرى أجملَ الوجوه التى تستهيمُ الناسَ وتَتَصَبَّأُها من الرجال والنساء ، إلا كالأحذية العتيقة . . .

ولكنى أحسستُ أن فى هاتين الرقاقتين سرَّ الشيخ ، ورأيتُهما فى يدى كالوثيقتين بخير كثير ؛ فقلت : على بركة الله . ومضيتُ إلى دارى ؛ فلما كنتُ فى الطريق لقيتُنى امرأةٌ معها صبىٌ ، فنظرتُ إلى المنديل وقالت : يا سيدى ، هذا طفلٌ يتيم جائع ولا صبرَ له على الجوع ، فأطعمه شيئاً يرحمك الله . ونظرُ إلى الطفلُ نظرةً لا أنساها ؛ حسبتُ فيها خُشوعَ ألف عابد يعبدون اللهَ (تعالى) مُسْتَقِطِينَ عن الدنيا ؛ بل ما أظن ألفَ عابد يستطيعون أن يروا الناسَ نظرةً واحدةً كالتى تكون فى عينِ صبىٍ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرحمة . إن شدةَ الهمِّ لتجعلُ وجوهَ الأطفال كوجوهِ القديسين ، فى عينٍ من يراها من الآباء والأمهات ، ليعجزَ هؤلاء الصغارُ عن الشرِّ الآدمى وانقطاعِهم إلا من الله والقلبِ الإنسانى ، فيظهرُ وجهُ أحدهم وكأنه يصرُخُ بمعانيه يقول : يا ربَّاه يا رباه !

قال أحمدُ بن مسكين : وخيَّلَ إلىَّ حينئذٍ أن الجنةَ نزلتُ إلى الأرضِ تعرِضُ نفسها على من يُشْبِعُ هذا الطفلُ وأمَّه ، والناسُ عَمَى لا يبصرونها ،

وكانهم يمرّون بها في هذا الموطن مرور الحمير بقصر الملك : لو سُئِلَتْ فَصَلَّتْ عليه الإصطبل الذي هي فيه . . .

وذكرت امرأتى وابنتها وهما جائعان منذ أمس ، يرّ أنى لم أجد لهما في قلبي معنى الزوجة والولد : بل معنى هذه المرأة المحتاجة ودفعْتُ ما في يدي للمرأة وقلت لها : خذى وأطعم ابنتك ، والله ما أملك بيضاء ولا صفراء ، وإن في دارى لسمن هو أحوجُ هذا الطعام ؛ ولولا هذه الخلةُ لتيقّدتُ فيما يصلحك. فدَمَعَتْ عيناها وأشرق وجهُ الصبي ، ولكن طمَّ على قلبي ما أنا فيه فلم أجد للدّعة معنى الدّعة ولا للبسمة معنى البسمة . وقلت في نفسي : أما أنا فأطوي إن لم أصب مآ ، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي ستة أيام ، وكان ابنُ عمر يطوي ، كان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم ؛ ولكن من للمرأة وابنها بمنزل سقدي ونيتي ؟ وكيف لي بهما ؟

ومشيتُ وأنا مُنكسِرٌ منقبِضٌ ، وكأني كنتُ نسيتُ كلمةَ الشيخ : «لو أطعنا أنفسنا هذا ماخرجت السمكة» . فذكرتها وصرفتُ خاطري إليها وشغلتُ نفسي بتدبيرها وقلت : لو أني أشبعت ثلاثة بجوع اثنين لحُرمتُ خمسَ فضائل^(١) وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة ، وهذه الفضيلة محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل ، وهذا العمل محتاجٌ إلى أن يكون هكذا ، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت . وكانت الشمسُ قد انبسطت في السماء وذلك وقتُ الضحى الأعلى ، فلتُ ناحيةٌ وجلستُ إلى حائط أفكر في بيع الدار ومن يبتاعها ، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصر الصياد وكأنه مُستطارٌ فرحا ، فقال : يا أبا محمد ، ما يجعلُ سأك ههنا وفي دارك الخير والغنى ؟ قلت : سبحان الله ! من أين خرجت السمكة يا أبا نصر ؟

قال : إني لفي الطريق إلى منزلك ، ومعى ضرورةٌ من القوت أخذتها لعيالك ، ودراهمُ استَدَنْتُها لك ، إذا رجلٌ يستَدِلُّ الناسَ على أبيك أو أحدٍ من أهله ،

(١) يريد : جوعه ، وجوع امرأته ، وجوع ابنه ؛ ثم شبع هذه المرأة ، وشبع ابنها . فهذه خمس فضائل .

ومعه أثقالٌ وأحمالٌ ، فقلت له : أنا أدراك . ومشيتُ معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البصرة ، وقد كان أبوك أودعه مالاً من ثلاثين سنةً ، فأفلس وانكسرَ المال ثم ترك البصرةَ إلى خُرَاسانَ ، فصلاح أمره على التجارة هناك ، وأيسرَ بعد المِحْنَةِ ، واستَظْهَرَ بعدَ الحِذْلانِ ، وأقبلَ جَدُّه بالشَّرَاءِ والغِنَى ، فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحدَّلَ ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يرجحه في هذه الثلاثين سنةً ، وإلى ذلك طَرَائِفٌ وهدايا .

* * *

قال أحمدُ بن مسكين : وأنقلبُ إلى داري فإذا مالٌ جَمٌّ وحالٌ جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : « لو أطينا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة . » ! فلو أن هذا الرجل لم يلقَ في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعة ، لما اهتدى إلىَّ ؛ فقد كان أبي مغموراً لا يعرفه أحدٌ وهو حي ؛ فكيف به ميتاً من وراء عشرين سنة ؟

وَأَلَيْتُ لَيَعْلَمَنَّ اللهُ شُكْرِي هذه النعمة ؛ فلم تكن لي همةٌ إلا البحث عن المرأة المحتاجة وابنِها ، فكفيتها وأجريتُ عليهما رِزْقاً ، ثم اتَّجَرْتُ في المال ، وبعلتُ أَرْبُءَهُ بالمعروف والصَّنِيعَةِ والإحسان وهو مُتَقَبِّلٌ يزداد ولا ينقص ، حتى تَمَوَّلْتُ وتَأَثَّلْتُ .

وَكَأَنِّي قد أعجبتني نفسي ، وسرَّني أني قد ملأتُ سِجِلَاتِ الملائكة بحَسَنَاتِي ، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتِبْتُ عند الله في الصالحين ، فنمتُ ليلةً فرأيتُني في يوم القيامة والخلْقُ يَمُوجُ بعضهم في بعض ، والهولُ هولُ الكونِ الأعظم على الإنسان الضعيف ، يُسألُ عن كل ما مسه من هذا الكون . وسمعتُ الصائِحَ يقول : يا معشرَ بني آدم ! سَجَدَتِ البهائمُ شُكراً لله أنه لم يجعلها من آدم . ورأيتُ الناسَ وقد وَسَّعَتْ أبدانُهُم فهم يَحْمِلُونَ أوزارَهُم على ظُهُورِهِم مخلوقة مجسَّمة ، حتى لكَأَنَّ الفاسقَ على ظهره مدينةٌ كلُّها مُخْزِيَات !

وقيل : وَضَعَتِ الموازينُ . وحِيءَ بي لوزن أعمالي ، فَجُعِلْتُ سَيِّئَاتِي فِي كِفَّةٍ وَأَلْقِيْتُ سَجَلَاتِي حَسَنَاتِي فِي الْأُخْرَى ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَرَجَحَتِ السَّيِّئَاتُ ، كَأَنَّمَا وَزَنُوا الْجَبَلَ الصَّخْرَى الْعَظِيمَ بِلُفَافَةٍ مِنَ الْقَطَنِ . . .

ثم جعلوا يُلْقُونَ الحسنةَ بعد الحسنةَ مما كنتُ أصنعهُ ، فإذا تحت كل حسنة شهوةٌ خفيةٌ من شهوات النفس : كالرَّيَاءِ والغُرُورِ وحبِّ المَحْمَدَةِ عند الناس وغيرها ، فلم يَسْلَمْ لى شىء ، وهلكتُ عنى حُجَّتى ، إذ الحجةُ ما يُبَيِّنُهُ الميزان والميزانُ لم يدلَّ إلا على أنى فارغ .

وسمعتُ الصوتَ : ألم يبقَ له شىء ؟ فقيل : بَقِيَ هذا .

وأُنظر لأرى ما هذا الذى بقى . فإذا الرقاقتان اللتان أحسنتُ بهما على المرأة وابنيها ! فأيقنتُ أنى هالك ؛ فلقد كنتُ أَحْسِنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً واحدةً فما أغنتُ عنى ، ورأيتُها فى الميزان مع غيرها شيئاً معلِّقاً ، كالغمام حين يكون ساقِطاً بين السماء والأرض : لا هو فى هذه ولا هو فى تلك .

وَوُضِعَتِ الرقاقتان ، وسمعتُ القائل : لقد طار نصفُ ثوابهما فى ميزان أنى نصر الصياد . فانخذلتُ انخذالاً شديداً ، حتى لو كُسِرَتْ نصفين لكان أخفَّ علىَّ وأهون . بيَّدتُ أنى نظرتُ فرأيتُ كيفَ الحسناتِ قد نزلتُ منزلةً وَرَجَحَتْ بعضَ الرُّجَحان .

وسمعتُ الصوتَ : ألم يبقَ له شىء ؟ فقيل بَقِيَ هذا .

وأُنظر ما هذا الذى بقى ، فإذا جوعُ امرأتى وولدتُ فى ذلك اليوم ! وإذا هو شىء يُوضَعُ فى الميزان ، وإذا هو يتزلُّ بكِفَّةٍ ويرتفع بالأخرى حتى اعتدلتَا بالسَّوِيَّةِ . وثَبَّتَ الميزانُ على ذلك فكنتُ بين الهلاك والنَّجاة .

وأسمعُ الصوتَ : ألم يبقَ له شىء ؟ فقيل بقى هذا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأة المسكينة حين بكَّتْ من أثرِ المعروفِ فى نفسها ، ومن إيثارى إياها وابنتها على أهلى . ووُضِعَتْ غَرَّغَرَةٌ عينيها فى الميزان فَفَارَتْ ، فطمئتُ كأنها لُجَّةٌ ، مِن تحت اللجةِ بحر ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجتُ من اللجةِ وَقَعَ فى نفسى أنها رُوحُ تلك الدموع ، فجعلتُ تعظمُ ولا تزال تعظمُ ، والكفةُ ترجحُ ولا تزال ترجحُ ، حتى سمعتُ الصوتَ يقول : قد نجا !

وصحَّتْ صيحةً انتبهتُ لها ، فإذا أنا أقول : « لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة ! » .

الزاهدان *

٢

قال أحمدُ بن مِسْكِين : انتشر حديثُ السمكةِ في أهلِ (بلخ) . .
 واستفاضَ بينهم ، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يوم السبت ، فلما دار السبتُ من
 أسبوعِهِ لقيتُ شيخَهُم حاتمُ بن يوسف (لقمانُ الأمة) ومعه صاحبه أبو تراب ،
 فقال : يا أحمد ! لكأنك في هذه المدينة قمرٌ طَلَعَ بلسيلَ فلا يَعِظُ الناسَ في يوم
 السبت غيرُك ؛ ومن سمع فكأنه عاينَ ، وليس على السنةِ أهلٌ بلخ منذ تحدثتَ
 إلا بِشَرٍّ وابنُ حنبل ، ولا على بالِ أحدٍ منهم إلا موعظُتك وحديثُك .

والكلامُ عن الصالحين في مثلِ ما وصفتَ وحكيتَ قُرْبُ من حقائقِهِم ،
 وسَمَوُ إلى معانيهِم ؛ وليس في القول بابٌ له موقعٌ كموقعِ القصةِ عن هؤلاء الذين
 يخلِصُهُم الله في البشرية خلقَ النور : يُضِيءُ ماحوله من حيث يُرى ، ويعملُ
 فيما حوله من حيث لا يُرى ، وفي ظاهرِهِ الجمالُ والمنفعة ، وفي باطنِهِ القوةُ والحياة .
 ولستُ أقول لك اذهب فحدث الناس ، ولكني أقول اذهب فأعظِ الناسَ
 عقلاً من الحديث .

قال ابنُ مِسْكِين : فلما صلينا العصرَ ، قدَّمَنِي أبو تراب فجلستُ في مجلسي
 ذاك ، وهَتَفَ بي الناسُ يريدون الحديثَ عن بِشَرِ الخافِ وما سَقَطَ لي من
 أخبارِهِ ، على الطريقةِ التي حدثتُهُم بها من قبل ، فابتدأتُ بذكرِ موته (رحمه الله)
 وأن يومَهُ كأنما اجتمع له أهلُ خمسٍ وسبعين سنة^(١) ، إذ خرجتُ جنازَتُهُ بعد
 صلاةِ الصبح ، فلم يحصلْ في قبرِهِ إلا في الليلِ مما احتشدَ في طريقِهِ من الخلقِ ،
 حتى لكأن في نعشه سرّاً من أسرار الجنة يطالعُهُم به الموتُ فخرجوا ينظرون إليه ،
 وكانوا يصيحون في جنازته : هذا والله شرفُ الدنيا قبلَ شرفِ الآخرة .

* هذا هو الفصل الثاني من قصة السمكة .

(١) مات (رحمه الله) عن خمس وسبعين سنة .

ثم قلت : حدثني حسين المغازلي^(١) : أن يشرأ (رحمه الله) كان لا يأكل إلا الخبز تورعاً عن الشبهات واكتفاءً لضرورة الحياة بالأقل الأيسر ، وكان يقول في ذلك : يبدأ أقصر من يد ، ولقمة أصغر من لقمة . وسئل مرة : بأي شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافية فأجعلها إداماً . وقد أعانته على ذلك أنه لم يتزوج ، وكان يرى هذا نقصاً في نفسه حتى فضل الإمام أحمد بن حنبل بأشياء منها أن له أهلاً ؛ غير أنه قيل له ذات يوم : لو تزوجت تم نُسُكُك . فقال : أخاف أن تقوم الزوجة بحقي ولا أقوم بحقها . فكانت هذه النية في نفسه أفضل من زواجه .

وكان مع هذا لا يؤاكل أحداً ، ولا يسعى إلى لقاء أحد ، حتى إنه لما رغب في مؤاخاة الزاهد العظيم (معروف الكرخي) ، أرسل إليه (الأسود بن سالم) وكان صديقاً لهما ، فقال لمعروف : إن بشر بن الحارث يريد مؤاخاتك وهو يستحى أن يشافهك بذلك ، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينه وبينك أخوةً يختسبها ويعتدُّ بها ؛ إلا أنه يشترط فيها شروطاً : أولها أنه لا يجب أن يشتهر ذلك ، وثانيها ألا يكون بينك وبينه مُزاورَة ولا مُلاقاة . فقال معروف : أما أنا فإذا أحببتُ أحداً لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهاراً ، وأزوره في كل وقت ، وأثيّرهُ على نفسي في كل حال ؛ وأنا أعقد لبشر أخوةً بيني وبينه ، ولكنني أزوره متى أحببت ، وأمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها إذا هو كره زيارتي .

قال حسين المغازلي : وكان هذا كله من أمر يشر معروف في بغداد ، لا يجله أحد من أهلها ، إذ لم يكن لبغداد إمام غيره وغير ابن حنبل ؛ فما كان أكثر عجبتي حين كنتُ عنده يوماً وقد زاره (فتتح الموصلي) ، فقام فجاء بدراهم ملء كفه ودفعها إليّ وقال : اشتر لنا أطيب ما تجد من الطعام ، وأطيب ما تجد من الحلوى ، وأطيب ما تجد من الطيب . وما قال لي مثلاً ذلك قط ، وهو الذي رأى الفاكهة يوماً فقال : ترك هذه عبادة ! وهو القائل لأبي نصر الصياد : لو أطعمنا

(١) نسبة إلى عمل المغازل ، وكان حسين هذا صديقاً لبشر ، وكان بشر يعمل المغازل ريعيش من ثمنها ، ومن كلامه لابن أخته عمر : يا بني ، اعمل بيدك ؛ فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العيين . هكذا كانوا رحمهم الله .

أنفسنا هذا ما خرجت السمكة^(١).

فذهبتُ فاشتريتُ وانتقيتُ وتخيَّرتُ ، ثم وضعتُ الطعامَ بين أيديهما ، فرأيتُهُ يأكلُ معه وما رأيته أكلَ مع غيره ، ورأيتُهُ منبسِطاً إليه وما لى عهدُ كان بانبساطه إلى أحد . وقد كنتُ أخبرتهُ في ذلك النهار بخبر أحمد بن حنبل ، علمتهُ من أدريس الحداد : فإنه لما زالت المِحنةُ بعد أن ضرب بين يدي المعتصم وصُرِفَ إلى بيته ، حُمِلَ إليه مالٌ كثيرٌ من سَرَواتِ بغداد وأهل الخير فيها ، فردَّ جميعَ ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً ، وهو محتاجٌ إلى أيسره ، وإلى الأقلِّ من أيسره ، وإلى الشيء من أقلِّه ، فجعل عمُّه اسحق يَحْسُبُ ما ورد ذلك اليوم ، فكان خمسين ألفَ دينار ، فقال له الإمام : يا عم ، أراك مشغولاً بحساب ما لا يفيدك . قال : قد رددتَ اليوم كذا وكذا ألفاً وأنت محتاج إلى حبة من دائق . فقال الإمام : يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لمّا تركناه .

* * *

قال المغازلي : فنمتُ تلك الليلةَ وأنا أفكر في صنيع الشيخ ، وقد تعلَّقَ خاطري به : كيف انقلبت الحالُ معه ، وأيّ شيء هذه الحال ؟ وجعلتُ أكيدُ ذهني لأعرفَ الحقيقةَ العقليةَ التي سَلَّطَتْ عليه هذه الضرورةَ فَسَلَّطَ النعيمُ على نفسه ، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانيةً ليست في الكتب ، ففنها ما لا يتعلمونه إلا من الفقر ، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء ، ومنها ، ومنها ؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات ؛ وذهب قلبي إلى أوهام كثيرة ليس في جميعها طائلٌ ولا بها معرفة ، حتى غلبتني عيناي ، وأنا من وهَجِ الفكر نائمٌ كالمریض ، وقد ثَقُلَ رأسي واختلط فيه ما يعقَلُ بما لا يعقَلُ .

فرايتُ أولَ ما رأيتُ مَلِكاً جباراً يحكم مدينةً عظيمةً ، وقد أطلق المنادي في جمعٍ كلِّ أطفالِ مدينته ، فجاء بهم من كل دار ، ثم رأيتُهُ قد جلس على سريره وفي يده مِقْرَاضٌ عظيم ، قد اتخذه على هيئة نَصْلين عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبةٌ لفَصَلَاها عن جسمها ؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابعَ إحدى قدميه في شِقَى المِقْرَاض فيقرضُها ، فإذا هي تتناثر أسرعَ مما

(١) مر هذا في مقال (السمكة) .

يَقْرَضُ الْمِقَصُّ الْخِيطَ ، ثُمَّ يَرْمِي بِالطِّفْلِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، وَيَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ فَيُبْتَرُ أَصَابِعُهُ ، وَالْأَطْفَالُ يَصْرَخُونَ ؛ وَأَنَا أَرَى كُلَّ ذَلِكَ وَلَا أَمْلِكُ إِلَّا غِيظِي عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ مِنْ حَيْثُ لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَمْضِيَ فِيهِ هَذَا الْغَيْظَ فَأَقْرَضَ عُنُقَهُ بِمَقْرَاضِهِ .

ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَأْخُذُ طِفْلاً صَغِيراً ، فَلَمَّا جَاءَتْ قَدَمُ الطِّفْلِ بَيْنَ شِقَتَيِ الْمَقْرَاضِ صَاحَ : يَارَبِّ ، يَارَبِّ . فَإِذَا الْمَقْرَاضُ يَلْتَوِي فَلَا يَصْنَعُ شَيْئاً ، وَكَأَنَّ فِيهِ حَجَراً صَلْدًا لَا قَدَمًا رَخِصَةً . فَتَمَيَّزَ الْجَبَّارُ مِنَ الْغَيْظِ وَقَالَ : مَنْ هَذَا الطِّفْلُ ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَهْتَفُ : هَذَا بَشَرُ الْحَافِي ! لَا يَبْلُغُ تَاجُ مَلِكٍ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَقَدَمُهُ الْحَافِيَةَ نَعْلًا عِنْدَ اللَّهِ !

وَكَانَ إِلَى بَيْمَنِي رَجُلٌ يَتَوَضَّأُ وَجْهَهُ صَلَاحًا وَتَقْوَى ، فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ هَذَا الطَّاعِيَةُ ؟ وَلَمْ اتَّخِذْ الْمَقْرَاضَ لِأَقْدَامِ الْأَطْفَالِ خَاصَّةً ؟ فَقَالَ : يَا حَسِينَ ! إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ هُوَ ذُلُّ الْعَيْشِ ، وَهَذَا وَسْمُهُ لِأَهْلِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ ، يَحَقِّقُ بِهِ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى الْبَهِيمَةِ أَوَّلَ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ ذُو حَافِرٍ لَا ذُو قَدَمٍ . قُلْتُ : فَمَا بَالُ هَذَا الطِّفْلِ لَمْ يَعْمَلْ فِيهِ الْمَقْرَاضُ ؟

قَالَ : إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا اسْتَخَصَّهُمْ لِنَفْسِهِ ، أَوَّلُ عِلَامَتِهِ فِيهِمْ أَنَّ الذِّلَّ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ ، وَهُمْ يَجِيئُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لِإِثْبَاتِ الْقُدْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى حُكْمِ طَبِيعَةِ الشَّهَوَاتِ الَّتِي هِيَ نَفْسُهَا طَبِيعَةُ الذِّلِّ ؛ فَإِذَا اطَّرَحَ أَحَدُهُمُ لِلشَّهَوَاتِ وَزَهَدَ فِيهَا ، وَاسْتَقَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي عَقْدٍ نِيَّةٍ وَقُوَّةٍ إِرَادَةٍ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِالزَّاهِدِ كَمَا يَصِفُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ اخْتَارَتْهُ الْقُدْرَةُ لِيَحْمِلَ أَسْلِحَةَ النَّفْسِ فِي مَعَارِكِهَا الطَّاحِنَةِ ، كَمَا يَحْمِلُ الْبَطْلُ الْأَرُوْعُ أَسْلِحَةَ الْجِسْمِ فِي مَعَارِكِهِ الدَّامِيَةِ : هَذَا يُتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ ، وَذَلِكَ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ فَنٌّ آخَرٌ ، وَكِلَاهُمَا يُرْمَى بِهِ عَلَى الْمَوْتِ لِإِيجَادِ النَّوْعِ الْمُسْتَعَزِّ مِنَ الْحَيَاةِ ، فَأَوَّلُ فُضَائِلِهِ الشُّعُورُ بِالْقُوَّةِ ، وَآخِرُ فُضَائِلِهِ إِيجَادُ الْقُوَّةِ .

* * *

قَالَ الْمَغَازِلِيُّ : وَضَرَبَ النَّوْمُ عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَإِذَا أَنَا فِي أَرْضٍ خَبِيْثَةٍ دَاخِنَةٍ ، قَدْ ارْتَفَعَ لَهَا دُخَانٌ كَثِيفٌ أَسْوَدُ يَتَضَرَّبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ،

وجعلتُ أرى شُعلاً حمراً تذهبُ وتجيءُ كأنها أجسامٌ حية ، فوقع في وهمي أن هؤلاء هم الشياطين : إبليسُ وجنوده ، وسمعتُ صارخاً يقول : يا بَشْرَي ! فلتبكِ السماءُ على الأرض ، لقد أكلَ بَشْرٌ الخافى من أطيب الطعام وأطيب الحلوى بعد أن استوى عنده حَجَرُهَا وَمَدَرُهَا ، وذهبُها وفَضَّتُها ! فعارضه صائحٌ أسمعُ صوته ولا أرى شخصه : ويلك يا زَلَنْبُور^(١) ! إن هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِه وعبادته ؛ فهذا ويحك هو الزهدُ الأعلى الذى كان لا يطقه بَشْرٌ ؛ إنه إعناتٌ سلَّطه على نفسه ، فإني دفعتُ هذا (المغازلى) الأعمى القلبَ لِيَزَيِّنَ له ما فعل أحمدُ بن حنبلٍ من رده خمسين ألف دينار على حاجته ، زهداً وورعاً ، وقوة عزم ، ونفاذَ إرادة ؛ وقلتُ : عسى أن تتحرك في نفسه شهوةُ الزهدِ فَيَحْسُدَ أو يَغَارَ ، أو تُعْجِبَه نفسه فيكونُ لى من ذلك لَمَمَةٌ بقلبه فأوسوسُ له ، فإنما نأتى هؤلاء من أبوابِ الثواب كما نأتى غيرهم من أبوابِ المعاصي ، ونتورعُ مع أهل الورع كما نَتَسَخَّفُ مع أهل السُّخْفِ ؛ ولكنَّ الرجلَ رجلٌ وفيه حقيقةُ الزاهد ، فقد أعطى القوةَ على جعل شهواتِ نفسه أشخاصاً حيةً يعاديهما ويقَاتِلُهُما ، فإذا أنا جعلتُ شهوتهَ في اللذة قتلَ اللذة ، وإذا جعلتها في الكآبة قتلَ الكآبة ، وليس الزاهدُ العابدُ هو الذى يتقشَّف ويتعَفَّف ، ويتخفَّف ويتلفَّف ، فإن كثيراً ما تكونُ هذه هى أوصافُ الذُّلِّ والحمق ، ويكونُ لها عملُ العبادة وفيها إثمُ المعصية . ولكنَّ الزاهدَ حقَّ الزاهد من أدار في هذه الأشياء عيناً قد تعلمت النظرَ بحقه والإعضاء بحقه ؛ فهذا لا يخطئ معنى الشر إن لَبَّسناه عليه في صورة الخير ، ولا معنى الخير إن زَوَّناهُ في صورة الشر ، وبذلك يضع نفسه في حيث شاء من المنزلَّة ، لافى حيث شاءت الدنيا أن تضعه من منازلها الدنيئة .

وما أكلَ بَشْرٌ هذه الطيبات إلا لِيُبَادِرَ بها وسوستى ويردَّنى عن نفسه وعن اللَّمَمَةِ بقلبه ، فلو أنه أعجبه زهدُ ابنِ حنبلٍ ونظر من ذلك إلى زهدِ نفسه لَحَبِطَ أَجْرُهُ ؛ فهذه الطيبات عالِجَ نفسه علاجَ مريض ، وقد غيَّرَ على جوفه طعاماً بطعام ، كما يبدل على جلده ثوباً بثوب ؛ ولا شهوةَ للجلد في أحدهما .

* * *

قال المغازلى : وثَقُلَ النومُ على ثَقَلَةٍ أُخرى ، فرأيتُنى في وادٍ عظيم ، وفي

(١) هذا اسم بعض ولد إبليس فيما يروى ، وفي بعض النسخ التى بأيدينا أنه خنزير لازلنبور

وسطه مثل الطَّوْد من الحجارة قد رُكِمَ بعضُها على بعض ؛ ورأيتُني مع بشر أقص عليه خبرَ أحمد بن حنبل ؛ فقال : انظر ويحك ؛ إن الناسَ يسمونها خمسين ألف دينار ، وهى هنا فى وادى الحقائق خمسون ألفَ حجرٍ لو أصابتُ أحمد لقتلته ولكانت قبره آخرَ الدهر .

إن المالَ يا بنى هو ما يعملُه المال لاجوهره من الذهب والفضة ، فإذا كنتَ بِمِغْزَاةٍ ليس فيها من يبيعك شيئاً بذهبك ، فالترابُ والذهبُ هناك سواء ؛ والفضائلُ هى ذهبُ الآخرة ؛ فهنا تجدُدُ بالمالِ دنياك التى لا تبقى أكثرَ من بقائك ، وهناك تجدُدُ بالفضائلِ نفسَكَ التى تخلدُ بخلودها .

ومعنى الغنى معنى "مُلْتَبِسٌ" على العقولِ الآدمية لاجتماعِ الشهواتِ فيه ، فعينُ يردَّ أحمدُ بنُ حنبلٍ خمسين ألفاً ، يكون هذا المعنى قد صحَّحَ نفسه فى هذا العملِ وجَّهها من التصحيح .

* * *

قال حسين المغازلى : وغطَّنى النوم فى أعماقه غُطَّةً أخرى ؛ فإذا أنا فى المسجد فى درس الإمام أحمد وهو يحدث بحديثِ النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إذا عَظَّمْتَ أمتى الدينارَ والدرهم ، نَزَعَ منها هَيْبَةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمرَ المعروف والنهىَ عن المنكر ، حُرِّمُوا بركة الوحي » وهم أن يتكلم فى تفسيره^(١) ولكنه رآنى فأمسكَ عنه وأقبل علىَّ فقال : يا حسين ! إذا اجتزأ شيخُك بالرغيف فهذا عنده هو قدرُ الضرورة ؛ فإن أكلَ الطيباتِ فقد عرضتُ حالُ جعلت هذه الطيباتِ عنده هى قدرُ الضرورة ؛ وفى هذه النفوسِ السماوية لا يكون الجزءُ الأرضيُّ إلا محدوداً ، فلا يكون محصولُه إلا ما ترى من قدر الضرورة .

ولما صغُرَ الجزءُ الأرضيُّ فى نفوسِ المسلمين الأولين ملكوا الأرضَ كلَّها بقوةِ الجزءِ السماويِّ فيها ، إذ كانت إرادتُهم فوقَ الأطماعِ والشهواتِ ، وكانت بذلك لا تنلُّ ولا تضعفُ ولا تنكسرُ ؛ فالآدميةُ كلُّها تنتهى إلى بعضِ صُورٍ ، وهؤلاء هم الذين محلَّتهم فى أعلاها .

(١) سَأَيْتُ تفسيره فى مجلس آخر من مجالس ابن مسكين .

يا حسين ! ألا وإن ردَّ خمسين ألفَ دينار هو كذلك قدرُ الضرورة .
قال حسين : وذهبتُ أَعترضُ على الإمام بما كان في نفسي من أن هذا
المالَ وإن لم يكن من كسبه ، فقد كان يتحول في يده عملاً من أعمال الخير ؛
وأنسيْتُ أن هذه الصَّدَقَاتِ هي أوساخُ الناس وأقذارُ نفوسهم ؛ فلم أكد أفصح
في حَتَّى رأيتُ الكلامَ يتحولُ طيناً في فمي ليزكرني بهذا المعنى ؛ وكدتُ
أختنقُ فانتفضتُ أتَنفَسُ ، فطار النومُ والحلمُ .

إبليس يعلم . . . * (١)

٣

قال أحمد بن مسكين : ودار السبت الثالث ، وجلستُ مجلسي للناس وقد انتظمت حلفتهم ؛ فقام رجلٌ من عرض المجلس فقال : إن الحسن بن شجاع البلخي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل (٢) ، كان منذ قريب يحدثنا بأحاديث عن الشيطان ، حفظنا منها قوله (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بغيره في سفره . » وكان الحسن يقول في تأويله : إن شيطان الكافر دهنٌ سمينٌ كاسٍ ، وشيطان المؤمن مهزولٌ أشعثٌ أغبرٌ عارٍ . فهل يأكلُ الشيطان ويدّهين ويلبسَ ليكون له أن يجوع مع المؤمن ويعرَى ويتشعث ويغيب ؟

قال ابن مسكين : فقلت في نفسي : لاحول ولا قوة إلا بالله ! ما أرى السائل إلا شيطانَ هذا السائل ؛ فإن إبليسَ إذا أراد أن يستخرَ من العالم ويُسَمِّعَه طنَّزَه وتهكمه (٣) ، حركَ من يسأله عنه ما هو وكيف هو ؛ كما يقول له : تنبّه ويحك على معنای ، فأنت تتكلم وأنا أعمل ، وأنت صورةٌ من الردِّ عليّ ، ولكني حقيقةٌ من الردِّ عليك ، وما أنت في محاربتك لي بالوعظ إلا كالذي يريد أن يضربَ عنقَ عدوه بمائة اسمٍ وُضِعَتْ للسيف . . .

قال : وكنت قد سمعت خبراً عجيباً عن أبي عامر قبيصة بن عقبة الكوفي المحدث الحافظ الثقة أحد شيوخ أحمد بن حنبل (٤) ؛ وهو الرجلُ الصالح العابد الذي كان يقال له : (رهابُ الكوفة) ؛ من زهده وعبادته واحتباس نفسه في

* انظر الفصلين السابقين .

(١) داعبنا إبليس (لعنه الله) مداعبة ثقيلة في كتابة هذا المقال ، وسقتص للقراء حكايته في مقالة : (دعاية إبليس) .

(٢) توفي ابن شجاع هذا سنة ٢٤٤ هـ ، وكان من حفاظ (بلخ) .

(٣) الطنن : التهزؤ والتهمك ، ولعل منه كلمة (طظ) عند العامة .

(٤) توفي سنة ٢١٥ هـ .

داخله كأما جسده جدارٌ بين نفسه وبين الدنيا ، فقلت والله لأغيظَنَّ الشيطانَ بهذا الخبر ، فإن أسماء الزهاد والعباد والصالحين هي في تاريخ الشياطين كأسماءِ المواقع التي تنهزمُ فيها الجيوش ، وما الرجلُ العابد إلا صاحبُ الغمرات مع الشيطان ، وكأنه يحتملُ المكارةَ عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض ، فالناسُ يحسبونه قد تَخَلَّى من الدنيا ويظنون التركَ أيسرَ شيء ، وما علموا أن الزهد لا يستقيم لازهد حتى يجعلَ جسمه كأنه نظامٌ آخر غير نظام أعضائه ؛ ولا أَشَقَّ من ذلك على النفس . ومعجزةُ الزاهد أنه مكلفٌ أن يُخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعفُ الضعف ؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزت له جوانبُ الأرض ، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مُجاهدة هذه الدنيا وتركها .

* * *

قال أحمد بن مسكين : وقصصتُ عليهم القصة فقلت : كان أبو عامر قبيصةُ بن عتبة كثيرَ الفكر في الشيطان ، يود لو رآه وناقَلَه الكلام ؛ وكان يتدبَّر الأحاديث التي صَحَّ ورودُها فيه ، ويفسِّرُ معنى الشيطان بأنه الروحُ الحيُّ للخطأ على الأرض ؛ والخطأ يكونُ صواباً محوَّلاً عن طريقته وجهته ، ولهذا كان إبليسُ في الأصل مَلَكاً من الملائكة وتحوَّل عن طبيعته حين خُلِق آدم (عليه السلام) ، أي وُجِدَ في الكون روحُ الخطأ حين وُجِدَ فيه الروح الذي سيخطئُ ، فلما هبط آدمُ من الجنة وحُرِمَها هو وزوجهُ وذريته ، كان إبليسُ (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر ، فكأن هذه الآدمية أُخرجت من الجنة ، وأُخرجت معها قوةٌ لا تزال تصدُّها عنها ، ليضطرباً في الكفاح مَلِكاً من زمنٍ هو عمرُ كل إنسان ، وهذا هو العدلُ الإلهي : لم يَعْرِفْ آدمُ حقَّ الجنة ، فعُوقِبَ ألا يأخذها إلا بحققها ، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر .

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وفراغه ، ثم هوَّومَ فكان بين اليقظة والنوم ، وذلك حين تكونُ العينُ نائمةً

والعقلُ لا يزالُ متنبهًا ، فكأن العينَ متراجعةٌ تُبصر من تحتِ أجفانها بصرًا يُشارِكها فيه العقل .

فرأى شيخنا أبو عامر صورةَ إبليسَ جاءه في زيِّ رجل زاهد ، حسنَ السَّمتِ ، طيبَ الريح ، نظيفَ الهيئة ، وكاد يُشَبَّهُ عليه لولا أنه قد عرفه من عينيه ، فإن عيني الكاذب تصدَّقان عنه ، وقد علم الله أن الكاذب آدميٌّ قفسرُ كالمَتهامةٍ من الأرض ، فجعل عينيه كالعلاماتِ لمن خاض الفلاة .
وظهر الشيطانُ زاهدًا عابدًا تقيا نقيًا كأنه دينٌ صحيحٌ خُلِقَ بشراً ، فصرخ فيه أبو عامر : عليك لعنة الله ! أمعصيةٌ في ثوب الطاعة ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ! لو لم تقل المعصيةُ إنها طاعةٌ لم يُقَارِفْها أحد . وهل خلقت الشهواتُ في نفس الإنسان وغريزته إلا لتقريب هذه المعاصي من النفس ، وجعل كلَّ منها طاعةً لشيءٍ ما ؛ فتقع المعصية بأنها طاعةٌ لا بأنها معصية ؟ أو لا ترى يا أبا عامر أن الحيلةَ مُحْكَمَةً في الداخل من الجسم أكثر مما هي مُحْكَمَةٌ في الخارج عنه ، وأنه لولا أن هذا الباطنَ بهذا المعنى وهذا العملَ لما كان لظاهر الوجود كله في الإنسان معنىٌ ولا عمل ؟

قال الشيخ : عليك لعنة الله ! فما أرى الموتَ قد خلق إلا ردًّا عليك أنت ، ليتبينَ الناسُ أنك الممتلئُ الممتلئُ ، ولكنك الفارغُ الفارغُ ؛ بل كل شهواتك سخرية منك وردَّ عليك ، فلا طعمٌ للذة من لذاتك إلا وهي تموت ، وإنما تمامُ وجودها ساعةٌ تنقضي ؛ ومتى قالت اللذةُ : قد انتهت . فقد وصفتْ نفسها أبلغ الوصف .

قال إبليس : يا أبا عامر ، ولكن اللذة لا تموت حتى تَلَدَ ما يُبْقِيها حية ، فهي تلد الحنينَ إليها ، وهو لا يسكن حتى يعودَ لذة تنقضي وتلد .

قال الشيخ : معاني التراب ، معاني التراب ؛ كل نَبْتَةٍ فيها بذرتُها ، ولكن (عليك لعنة الله) لماذا جثتي في هذه الصورة ؟

قال إبليس : لأنني لا ألبسُ إلا محبةَ القلبِ الآدمي ، ولو لا ذلك لطردتني القلوبُ كلها وبطلَ عملي فيها ، وهل عملي إلا التلبسُ والتزوير ؟ أفندري يا أبا عامر أني لا أعترى الحيوانَ قط .

قال الشيخ : لأن الحيوان لا ينظر إلى الشيء إلا نظرة واحدة ، هي نظره وفهمه معاً ، فلا محل للتزوير مع هذه النظرة الواحدة ؛ وصدق الله العظيم : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم » . فأنتم أيها الشيطان التزوير ، والتزوير موضع الكذب ؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء ، فليس لك عنده عمل .

قال إبليس : يا أبا عامر ! وهل ترى (رحمك الله) أعجب وأغرب وأدعى إلى الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العباد ، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء ؟

قال الشيخ : عليك وعليك . . . ؛ إن الحيوان شيء واحد ، فهو طبيعة مسخرة بنظامها ، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها ، فالوهيته أن يقهر النظام بين هذه المتناقضات ، كأنما امتحن فأعطى من جسمه كوناً فيه عناصر الاضطراب ، وحوله عناصر الاضطراب ، ثم قيل له دبره .

فضحك إبليس . قال الشيخ : مم ضحكك لعنك الله ؟

قال : ضحكك من أنك أعلمتني حقيقة الإبلسية ، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة . . .

قال الشيخ : عليك لعنة الله ، فما هي تلك الحقيقة التي زعمت ؟

قال إبليس : والله يا أبا عامر ، ما غلا إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبلسية ؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة . فلا تقل إنها ألوهية تقهر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة ؛ قال الشيخ : وتسخر مني لعنك الله ؟ فتي كنت تعلم الحقيقة والفضيلة ؟ قال إبليس : أو لم أكن شيخ الملائكة ؟ فمن أجدر من شيخ الملائكة أن يكون عالمها وعلمها ؟

قال : عليك لعنة الله ؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة ؟

قال إبليس : حقيقتها يا أبا عامر ، هي التي أعجزتني في نبيكم .

قال الشيخ : صلى الله عليه وسلم ؛ فما هي ؟

قال إبليس : هي ثلاث بها نظام النفس ، ونظام العالم ، ونظام الذات

والشهوات : أن تكونَ لك تقوى ، ثم يكونَ لك فكرٌ من هذه التقوى ، ثم يكونَ لك نظر إلى العالم من هذا الفكر . ما اجتمعت هذه الثلاثُ في إنسان إلا قَهَرَ الدنيا وقَهَرَ إبليس .

فإن كانت التقوى وحدها — كتقوى أكثر الزهاد والرهبان — فما أيسرَ أن أجعلَ النظرَ منها نظراً الغفلة والخبث والبلادة والفضائل الكاذبة ، وإن كان الفكرُ وحده — كفكر العلماء والشعراء — فما أهونَ أن أجعلَ النظرَ به نظراً الزيف والإلحاد والبهمة والردائل الصريحة .

قال الشيخ : صدق الله العظيم : « إن الذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

قال إبليس : يا أبا عامر ! ما يضرني والله أن أفسرَ لك ، فإن قارورةً من الصَّبْغِ لا تَصْبِغُ البحر ، وأنا أعدُّ الزهاد والعلماء المصاحين فأضعُ في الناس بجانب كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة ، ومائة ألف رجل فاسق ، ومائة ألف مخلوق ظالم ، فلو أنك صَبَغْتَ البحرَ بملء قارورة حمراء لما صبغت البحرَ الإنساني بالزاهد والمصلح ، ما دام المصلح شيئاً غيرَ السيف ، وما دام الزاهد شيئاً غيرَ الحاكم .

قال الشيخ : لعنك الله من شيطانٍ عارِم ، فإذا وضعت المصلح بين مائة ألف فاسد ، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده ؟

قال إبليس : ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر ، كل واحدة تحسبُ جسمها . . .

فصرخ الشيخ : اغرُبْ عني عليك لعنة الله !

قال إبليس : ولكن الآية الآية يا أبا عامر . لقد لقيتُ المسيحَ وجربته وهو كان تفسيراها .

قال الشيخ : عليه السلام ! وعليك أنت لعنة الله ! فكيف قال ؟ وكيف

صنع ؟

قال إبليس : أَلْقَيْتُ بِهِ جَائِعاً فِي الصَّحْرَاءِ لَا يَجِدُ مَا يَطْعَمُهُ ، وَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ يَجِدُ ، وَلَا يَرُجُو أَنَّهُ يَظُنُّ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ كُنْتَ رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ كَمَا تَزْعُمُ ،

فُمرُّ هذا الحجرَ ينقلب خبزاً . فكان تقيّاً ، فتذكر فإذا هو مُبصر ، فقال : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، فثُلُّ هذا لومات جوعاً لم يتحوّل ، لأن الموت إتمامُ حقيقته السامية فوقَ هذه الدنيا ، ولو مُلئتُ له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحوّل ، لأن له بصراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية ؛ فليس بالخبز وحده يحيا ؛ بل بمعان أخرى هي إشباعُ حقيقته السماوية التي لاشهوة لها .

ثم ارتقيتُ به إلى ذروة جبلٍ وأريته ممالكَ الخافقين ، كشفْتُها كلّها لعينيهِ وقلتُ له : هذا كله لك إذا أنت سجدتَ لى . فكان متقيّاً ، فتذكر فإذا هو مُبصر : أبصر حقيقةَ الخيال الذى جسّمته له ، وعلم أن الشيطان يُعطى مثلَ معاني هذه الممالك في جرعة خمر ، كما يُعطى في ساعة لذة ، كما يُعطى في شفاء غيظ بالقتل والأذى ؛ ثم لا يبقَى من كل ذلك باقٍ غيرُ الإثم ، ولا يصحُّ منه صحيح إلا الحرام . ومن ملك الدنيا نفسَهَا لم يبقَ لها إذا بقيتُ فهي خيال في جرعة الحياة ، كما هي خيالٌ في جرعة الخمر .

يا أبا عامر ؛ إن هذا النظر ، الذى وراءه التذكر ، الذى وراءه التقوى ، التى وراءها الله — هذا وحده هو القوة التى تتناول شهواتِ الدنيا فتُصفيها أربعَ مرات حتى تعودَ بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التى آخرها القبر ، وآخر وجودها التلاشى .

فالبصرُ الكاشفُ الذى يُجرّد الأشياء من سحرها الوهمي ، هذا هو كلُّ السر .

* * *

قال الشيخ : لعنك الله ؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، هذا سؤالٌ شيطاني . . . تريد — ويحك — أن تحتالَ على الشيطان ؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك .

ليس الإيمانُ هو الاعتقاد ولا العمل ، ولو كان من هذين لما شقَّ على أحدٍ ولصلحت الدنيا وأهلها ؛ إنما الإيمانُ وضعُ يقينٍ خفى يكونُ مع الغريزة

في مقَرَّها ، ويصلح أن يكونَ في مقرِّها لتَصُدَّرَ عنه أعمالُ الغريزة ؛ وهذا اليقينُ لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبرُ من الدنيا ، فيرجع إليه الإنسانُ فيتذكرُ فيُبْصِرُ . هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن ، فاليقينُ بهذا الميراثِ هو سرُّ الإيمان .

والعملُ الشيطانيُّ لا يكونُ إلا في إفساد هذا اليقين ومعارضة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهرُ للمغفل عظمة ، كما تُشَبَّ نارُ أكبرُ من قرص الشمس ثم يقال للأبله : انظر بعينيك ، فيصدق أنها أكبرُ من الشمس . ومتى صغرُ هذا اليقينُ وكانت الحقائقُ الدنيويةُ أكبرَ منه في النفس ، فأيسرُ أسباب الحياة حينئذ يُفسد المعتقدَ ويُسْقِطُ الفضيلة ؛ وبدرهم واحدٍ يُوجَدُ اللصُّ حينئذ .

أما إذا ثبت اليقين فالشيطانُ مع الإنسانُ يصغرُ ثم يصغرُ ، ويعجزُ ثم يعجز . حتى ليرجعُ مثلَ الدرهم إذا طمِعَ الطامعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكثيرَ المالِ لَصاً من اللصوص بهذا الدرهم .

قال الشيخ : لعنك الله ! فإن لم تستطع إفساد هذا اليقين فكيف تصنع في فتنة المؤمن ؟

قال إبليس : يا أبا عامر ، إن لم أستطع إفسادَ اليقين زدته يقيناً فيفسد ، واستحسانُ الرجلِ لأعماله السامية قد يكون هو أولَ أعماله السافلة ؛ وبأى عجب يكون الشيطانُ شيطاناً إلا بمثل هذا ؟

* * *

قال أحمد بن مسكين : وغضب الشيخ ، فدَّ يده فأخذ فيها عُنقَ إبليس وقد رآه دقيقاً ، ثم عَصَرَهُ عَصَراً شديداً يريد خنقه ؛ فقهره الشيطانُ ساخراً منه . ويتنبه الشيخ ، فإذا هو يشدُّ بيده اليمنى على يده اليسرى . . .

الدنيا والدرهم

٤

قال أحمدُ بنُ مسكين : وأزِفَ تَسْرَحُلِي عن (بلخ) ، وتهيأتُ للخروج ، ولم يبق من مدة مَقِيلِي بها إلا أيامٌ يجيئ فيها السبتُ الرابع ، وكان قد وقعت مُسَمَّارَةٌ بيني وبين مفتي (بلخ) أبي إسحق إبراهيم بن يوسف الباهلي^(١) تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ، ويزعمون أنه شحيحٌ على المال ، وأنه يَسْتَعْلَلُهُ من مُسْتَعْلَلَاتٍ كثيرة^(٢) ، فكأنما غَشِيَتْهُ غِشَامَتِي ، فهو لا يرى أن أتكلّمَ في الزهد ، وبحسبُ هذا الزهدَ تَسَمَّأْتُ العَبَادَ ، ونَقَضَ الأيدي من الدنيا ، وسُوءَ المصاحبة لما يُنْعِمُ الله به على العبد ، وخذلانَ القوة في البدن ، وما جرى هذا المحرّج من تزوير الحياة بالأباطيل التي زَعَمَ أنها أباطيلُ الطاعات وما أقرَّبَها من أباطيلِ المعصية . ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حضرَ مجلسي ، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف .

وجادلته فرأيتُه واهنَ الدليل ، ضعيفَ الحجة ، يُخَصِّمُنُ تخمينَ فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظرَ صاحب النص إلى الظاهر ، كأن الحقيقة إذا أُلْقِيَتْ على الناس مضت نافذةً كفتوى المفتي . . . ويزعم أن الوعظَ وعظ الفقهاء ، يقولون : هذا حرام . فيكون حراماً لا يُقَارَفُهُ أحد ، وهذا حلالٌ . فيكون حلالاً لا يتركه أحد ، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومدّ آخله إلى النفس وسياسته فيها ، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى : إن لم تُزَيَّنْ بزِينتها لم تَسْتَهْوَ أَحَدًا ؛ وأن الموعظةَ إن لم تَسْتَأَدْ في أسلوبها الحيِّ كانت بالباطل أشبه ، وأنه لا يغير النفسَ إلا النفسُ التي فيها قوةُ التحويل والتغيير ، كنفوس الأنبياء ومن كان في طريقة رُوحهم ، وأن هذه الصناعة إنما هي وضعُ نور البصيرة في الكلام ، لا وضعُ القياسِ والحجة ، وأن الرجلَ الزاهدَ الصحيحَ الزهد ، إن

(١) توفي مفتي بلخ هذا سنة ٣٣٩ هـ .

(٢) المستغلات : أصول الأموال ، وتغلّل واستغل بمبنى .

هو حياةٌ تلبسُها الحقيقة لتكونَ به شيئاً في الحياة والعمل . لاشيئاً القول والتوهم ، فيكون إلهامُها فيه كحرارة النار في النار : من وآتاهَا أحسَّهَا .

ولعمري ، كم من فقيهٍ يقول للناس : هذا حرام . فلا يزيد هذا الحرام إلا ظهوراً وانكشافاً ما دام لا ينطق إلا بنطق الكتب ، ولا يحسن أن يصل بين النفس والشرع ، وقد خلا من القوة التي تجعله روحاً تتعلق الأرواحُ بها وتضعه بين الناس في موضعٍ يكون به في اعتبارهم كأنه آتٍ من الجنة منذ قريب ، راجعٌ إليها بعد قريب .

والفقيه الذي يتعلق بالمال وشهوات النفس ، ولا يجعل همَّه إلا زيادة الرزق وحظَّ الدنيا — هو الفقيهُ الفاسدُ الصورة في خيال الناس ، يُفهمهم أول شيء ألا يفهموا عنه ؛ إذ حرصه فوق بصيرته ، وله في النفوس رائحةُ الخبز ، وله معنى خمسٌ وخمسٌ عشرة^(١) . . . وكأن دنياه وَصَّعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسدُ الحقيقة التي يتكلم بها ؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء ، ولكني رأيتُ فقهاءً يعظون ويتكلمون على الناس في الحرام والحلال وفي نصٍّ كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم لم أجد لكلامهم نفعاً ولارداً ، إذ يُكلمون الناس بأرواحهم غير المعنى الذي يتكلمون فيه ؛ وتسخرُ الحقيقة منهم — على خطرهم وجلال شأنهم — بذات الأسلوب الذي تسخرُ به من لص يعظ لصاً آخر فيقول له : لا تسرق . . .

* * *

قال ابن مسكين : فلما دار يومُ السبت أقبل الناسُ على المسجد أفواجاً ، وكانوا قد تعالَموا لزِمَاعِي الرحيل عن بلدهم — وجاء (لقمانُ الأمة) في أشياعه وأصحابه ، وجاء أبو إسحق المقتي في جماعته ؛ واستقر في المجلس فنشدتُ الناسَ بنظري ، فكانهم من كثرتهم نَبَّاتٌ غطَّت الأرض ، فأذكرني هذا شيخنا السريَّ بن مغلَّس السقَطِي^(٢) ، وكان قد لزم داره في بغداد لا يخرج منها

(١) يريد أنه في هذه الدنيا (عملية حسابية . . .) وفي أيام ضعف الدين يكون الفقه استخراج الدرام من النصوص . . .

(٢) السقط : ردى المتاع (روبايكيا) ، وبائمه : السقطي . وهذا الإمام العظيم كان أوجد أهل زمانه في الورع ، وله كلام إلهي مشرق ، وقد توفي عن سن عالية في سنة ٢٥٣ هـ .

ولا يراه إلا من قَصَدَ إليه ، وهمتُ أن أجعلَ الموعظةَ في شرح كلمته المشهورة : « لا تَصِحُّ المحبةُ بين اثنين حتى يقولَ أحدهما للآخر : يا أُنَا » . وما نقلوا عنه من أنه قال مرة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنةً وأنا في الاستغفار من قول : (الحمد لله) . فقال صاحبه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريقٌ ، فاستقبلني رجلٌ فقال : نجا حانوتك . فقلتُ : الحمد لله . فأنا نادِمٌ من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردتُ لنفسى خيراً من الناس !

قال ابن مسكين : ولكنني أحببتُ أن أكلم المفتي ومال المفتي ؛ فحدثتهم حديث معرفتي بالسري : أني سمعتُ يوماً (غَسَّيْلَانَ الخياط) يقول : إن السري كان اشترى كُرْلُوزَ^(١) بستين ديناراً ، وأُثْبِتَه في رزناجه^(٢) وكتب أمامه : رجهُ ثلاثة دنانير^(٣) ؛ فلم يلبث أن غلا السعرُ فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدلال الذي كان اشترى له فقال : أريد ذلك اللوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدلال رجلاً صالحاً ، فقال للشيخ : إن اللوز قد صار الكُرُّ بتسعين . قال السري : ولكنني عقدتُ بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه ، فليستُ أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدلال : وأنا قد عقدتُ بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه ، ألا أعشَّ مسلماً ، فليست أشتري منك إلا بتسعين ؛ فلا الدلال اشترى منه ، ولا السري باعه . . !

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لي همةٌ إلا أن ألقى الشيخ وأصحابه وأخذَ عنه ، فلم أعرجْ على شيء حتى كنت في المسجد الذي يصلي فيه ، فأجده في حلقته وعنده ممن كنتُ أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريسُ الحداد ، وعلي بن سعيد الرازي ، وحوله خلق كثير وهو فيهم كالشجرة الخضراء بين الهشيم تعلوه نَضْرَةُ روحه ، وكأنما يُمَدُّه بالنور عِرقٌ من السماء ، فهو يتلألُ للعين ؛ ولا يملك الناظر إليه إلا أن يُحِسَّ في ذاتِ نفسه أنه الأدنى ، من رؤيته في ذاتِ نفسه أن هذا هو الإنسانُ الأعلى .

(١) الكر (بضم الكاف) : مكيال عظيم يقدرون به في الحساب ، وهو أربعون إردباً مصرياً .

(٢) أي دفتر حسابه . (٣) خمسة في المائة .

ورأيتُ على وجهه آلاماً تمسّحه مِسْحَةً الأَشْوَاقِ لِمِسْحَةِ الآلَامِ ،
آثَارُ ما يجدُهُ في روحه القوية ، لا كآلامِ الناسِ الّتي هي آثَارُ الحرمانِ في
أرواحهم الواهنة الضعيفة فلا تمسح وجوههم إلا مِسْحَةً الغمِ والكآبة .

وما يخطئُ النظرُ في تمييزِ آلامِ السماءِ على هذه الوجوه السعيدة من آلامِ
الأرضِ في الوجوه الأخرى ، فإن الأولى تَتَنَدَّى على رُوحِ الناظرِ بمثلِ الطَّلِّ
إذا قَطَرَهُ الفجرُ ، والأخرى تَتَشَوَّرُ في روحه كما تَهيجُ الغَبَرَةُ إذا ضربت
الريحُ الأرضَ .

كان الشيخُ في وجودٍ فوق وجودنا ؛ فلا تتلونُ له الأشياءُ ولا تعدو عنده
ما هي في نفسها ، ولا يحملُ الشيءُ له إلا معناه من حيث يصلحُ أولاً يصلحُ ،
ومن حيث ينبغي أو لا ينبغي . فإنما تتلونُ الأشياءُ عند ما يضعُ الشيطانُ عينه
في عينِ الناظرِ إليها ؛ وإنما تزيد وتنقصُ في القلبِ عند ما يكونُ رُوحُ الشيطانِ
في القلبِ ؛ وإنما يَشْتَبِه ما ينبغي وما لا ينبغي عند ما يأتى الشيءُ من جهتين :
جهته من طبيعته هو ، وجهته من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمعُ الإنسانُ المالَ
ثم لا يجدُ في المالِ معنى الغنى ، وقد تنفقُ أسبابُ النعيمِ ولا يكونُ منها إلا الذلُ .
وكم من إنسانٍ يجدُ وكأنه لم يجدُ إلا عكسَ ما كان يبغي ، وآخرَ لم يجدُ شيئاً
ووجد بذلك راحته .

* * *

قال ابنُ مسكينٍ : وما كان أشدَّ عجبى حين تكلم الشيخُ ، فقد أخذ يُجيبُ
عمّاً في نفسى ولم أسأله ، كأن الذى في فكرى قد انتقل إليه ؛ فروى الحديثُ :
« إذا عَظَّمَتْ أُمّتِي الدينارَ والدرهمَ ، نُزِعَ منها هيبَةُ الإسلامِ ؛ وإذا تركوا الأمرُ
بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ ، حُرِمُوا بِرَكَّةِ الوحيِ » . ثم قال في تأويله :
إن مَلَكَ الوحيُ ينزلُ بالأمرِ والنهيِ لِيُخضعَ صَوْلَةَ الأرضِ بصَوْلَةِ السماءِ ،
فإذا بقى الأمرُ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ، بقى عملُ الوحيِ إلا أنه في صورةِ
العقلِ ، وبقيت روحانيةُ الدنيا إلا أنها في صورةِ النظامِ ، وكان مع كلِّ خطأٍ
تصحيحُه ؛ فيصبحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً للشرِعة بين أمرٍ مُطاعٍ وأمورٍ مطيعٍ ،
فيتعامل الناسُ على حالةٍ تجعلُ بعضهم أستاذاً لبعض ، وشيئاً منهم تعديلاً لشيءٍ ،

وقوةً سنداً لقوة ؛ فيقومُ العزمُ في وجه التهاون ، والشدة في وجه التراخي ، والقدرة في وجه العجز ؛ وبهذا يكونون شركاء متعاونين ، وتعودُ صفاتهم الإنسانية وكأنها جيشٌ عاملٌ يناصرُ بعضه بعضاً ، فتكونُ الحياة مفسرةً ما دامت معانيها السامية تأمرُ أمرها وتلهيهم إلهامها ، وما دامت ممثلةً في الواجب النافذ على الكل .

والناس أحرارٌ متى حكمتهم هذه المعاني ، فليست حقيقة الحرية الإنسانية إلا الخضوع للواجب الذي يحكم ، وبذلك لاغيره يتصلُ ما بين الملك والسوقة ، وما بين الأغنياء والفقراء ، اتصال الرحمة في كل شيء ، واتصال القسوة في التأديب وحده . فبركة الوحي إنما هي جعلُ القوة الإنسانية عملاً سريعاً لا غير .

أما تعظيمُ الأمة للدنيا والدرهم ، فهو استعبادُ المعاني الحيوانية في الناس بعضها لبعض ، وتقطعُ ما بينهم من التشابك في لُحمة الإنسانية ، وجعلُ الكبير فيهم كبيراً وإن صغرَت معانيه ، والصغير فيهم صغيراً وإن كبر في المعاني ؛ وبهذا تموجُ الحياة بعضها في بعض ، ولا يستقيم الناسُ على رأيٍ صحيح ؛ إذ يكونُ الصحيحُ والفاقدُ في ملكِ الإنسان لافي عملِ الإنسان ، فيكثرُ الغنى مالا ويكثرُ الفقيرُ عداوةً ، كأن هذا قَتَلَ مالَ هذا ، وكأن أعمالاً قتلَت أعمالاً ، وترجعُ الصفاتُ الإنسانية متعاديةً ، وتباع الفضائلُ وتشترى ، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة ، وينقصُ من ينقص ولكن في الحرية ، وتكون المنفعة الذاتية هي التي تأمرُ في الجميع وتنهى ، ويدخلُ الكذبُ في كل شيء حتى في النظرِ إلى المال ، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنما درهمه وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ الآخر ودرهمه ، فإذا أعطى نقصَ فغشَّ ، وإذا أخذ زاد فسرق ؛ وتصبحُ النفوسُ نفوساً تجاريةً تساوِمُ قبلَ أن تنبعثَ لفضيلة ، وتماكسُ إذا دُعيتُ لأداء حق ، ويتعامل الناسُ في الشرف على أصولٍ من المَعِيدة لا من الروح ، فلا يقالُ حينئذٍ : إن رغبين أكثرُ من رغبٍ واحدٍ . كما هي طبيعة العدد ، بل يقال : إن رغبين أشرفُ من رغبٍ . كما هي طبيعة النفاق .

أما التجارةُ — وهي التفسيرُ الظاهرُ لمعاني النفوس — فتُصبحُ بين الغش والضررِ والمماكرَةِ ، وتكونُ يقطعةُ التاجر من غفلة الشاري ، وتفسدُ الإرادةُ

فلا تُحدثُ إلا آثارَها الزائغة . وما التاجرُ في الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخُلُق في الموضع المتقلب ، فكلمته كالرقم من العدد لا يحتملُ أزيدَ ولا أنقصَ مما فيه ، ويُسَمِّحَن بالدنيا والدرهم أشدَّ مما يمتحن العابدُ بصلاته وصيامه . وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب في قضية ، فقال له عمر : اثنى بمن يعرفك . فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرفُ مدخلَه ومخرجه ؟ قال : لا . قال : فكنت رفيقه في السفر الذي يُستبدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبينُ به ورعُ الرجل ؟ قال : لا .

قال عمر : أظنك رأيتَه قائماً في المسجد يُهَمِّمُهُمُ بالقرآن ، يَخْفِضُ رأسَه طوراً ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .
قال : فاذهب فلست تعرفه !

ولنما التاجرُ صورةٌ من ثقة الناس بعضهم ببعض ، وإرادة الخير واعتقاد الصدق ، وهو في كل ذلك مظهرٌ توضعُ اليدُ عليه كما تجسُّ اليدُ مرضَ المريض وصحته .

فإذا عظمت الأمة الدينارَ والدرهم ، فلنما عظمت النفاقَ والطمعَ والكذبَ والعداوةَ والقسوةَ والاستعبادَ ؛ وبهذا تقيم الدنانير والدراهم حدوداً فاصلة بين أهلها ، حتى لتكون المسافةُ بين غنى وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعدَ ما بينهما . ولنما هيبةُ الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال ، وفي بذل الحياة لافي الحرص عليها ، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد ، وفي وضع حدود الفضائل بين الناس لا في وضع حدود الدراهم ، وفي إزالة النقائص من الطباع لافي إقامتها ، وفي تعاؤن صفات المؤمنين لافي تعاديها ، وفي اعتبار الغنى ما يُعْمَلُ بالمال لا ما يُجمَعُ من المال ، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة ، لا الذهب والفضة ..

هذا هو الإسلامُ الذي غلبَ الأمم ، لأنه قبلَ ذلك غلبَ النفسَ والطبيعة .

دُعابةُ إبليس* (١)

أَمَا إِنِّي سَأَقْصُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقَتْ ، لَا أَزِيْنُهَا بِخِيَالٍ ، وَلَا أَتَزِيدُ فِيهَا بِخَبَرٍ ، وَلَا أَوْلِدُ لَهَا مَعْنَى ؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ حُبْسِ الْحَبِيبِ : فَتُحَادِثُهُ وَدَهَاؤُهُ ، وَرَقَّتُهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ ، وَمَعَانِيهَا بِلَاؤُهُ وَمِحْنَتُهُ ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مَسْكِينٍ) ، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا ، جَعَلْتُ فِكْرِي يَنْقَطِعُ فِي ذَلِكَ ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَن بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَنَازَعَةٌ ، أَوْ كَأَن فِي نَفْسِي شَيْئًا يَشْنِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزْمِ ؛ وَخَيْلٌ إِلَى حَيْثُ أَنْ (إِبْلِيسَ) هَذَا مَنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ . . . وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّتِي نَصَّ مَادَتَهُ الْأُولَى : مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ . وَنَصَّ مَادَتَهُ الْآخِرَةَ : مَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ فَتَمْنُهُ أَنْ تَقْدَرَ عَلَى اخْتِذِهِ . . .

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ : أَنْ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمَغَةِ الْفَلَاسِفَةِ وَإِنْ كَانَ فِي سَقُوطِ أَهْلِ الرَّذِيلَةِ إِلَى الرَّذِيلَةِ ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمُوِّ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ . . . قَالَ الْهَاجِسُ : وَإِنْ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِيِّ ، فَهُوَ مِنْ ذِمَّةٍ حَقِيقَةٍ أَنْ يَلْقَبَهُ «صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ . . .» وَلَكِنِّي لَمْ أَحِظْ بِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ وَلَمْ أُعْجِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَاسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نِيَّتِي عَلَى الْكِتَابَةِ ، وَأَخَذْتُ أَقْلَبُ الْمَوْضُوعَ ، وَأُنَبِّهُ فِكْرِي لَهُ ، وَأُسْتَشْرِفُ لَمَّا يُوَدِّى إِلَيْهِ النَّظَرُ ، وَأَنْتَظِعُ لَمَّا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ ، وَأَلْتَمِسُ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي ؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ أَلْبَنَ ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَائِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا سَبِيلَ إِلَى اقْتِحَامِهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْعِلْمِ فَلَا يُبْلَغُ إِلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ مِنَ التَّعَذُّرِ كَمَا حَاوَلْتُ تَصْوِيرَ حِمَاةِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةٍ . وَإِبْلِيسُ كَلِمَةٌ فِيهَا حِمَاةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا .

* انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي» .

(١) الدعابة : المزاح واللعب ، وكل ما سبرد في هذه المقالة فهو صحيح . لم يخرج منه شيئاً .

* * *

ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تنشرها (الرسالة) ^(١)، أن أدعَ الفصلَ منها تقلبُه الخواطرُ في ذهني أيامَ الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأترك أمره للقوة التي في نفسي ، فتتولد المعاني من كل ما أرى وما أقرأ ، وتشتالُ من ههنا وههنا ، ويكون الكلام كأنه شيء حتى أريدَ له الوجودُ فوجد .

ثم أكتب نهار الجمعة ، ومن ورائه ليلُ السبت وليلُ الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالتني فترةٌ أو كنتُ على سفرٍ أو قطعني عن الكتابة شيء مما يعرِّض .

وفي أسبوعِ إبليس (لعنه الله) ، مرت الأيامُ الثلاثةُ رفيها ثلاثة ألوان : ضجرٌ لا روحَ فيه ، وكسلٌ لا نشاطَ معه ، واضطرابٌ لا مِسَاكَ له . وأطلبُ التفكيرَ يومَ الخميس ، فكانت تعزيني خواطرُ مضحكة : فيعرضُ لي مرة أن أصورَ إبليسَ امرأةً ليكونَ إبليسَ الحمل . . . وثارة أتوهم أن إبليسَ يريد أن يكونَ شيخاً كبعض رجال الدين الذين لا تزالُ تَطْلُعُ على خائنة منهم ، ليقالَ إبليسُ التقى المصلّي . . . وحيناً أظن أنه يريد أن يكونَ كاتباً ، ولقاً شهيراً ليقالَ إبليسُ المفكرُ المصلح . . . وخطر لي أخيراً أنه يريد أن يكونَ حاكماً ملجداً فاجراً ، ليكونَ إبليسَ التام لا إبليسَ الناقص . . .

* * *

ولما ذهبت الأيامُ الثلاثةُ باطلاً، خيَّلَ لي أن إبليسَ (أخزاه الله) يسألني عن المقالة : إلى أي شيء انقلبت . . . ؟ فشقَّ ذلكَ عَمَلِيَّ واغتممتُ به ، غيرَ أني اطمأننتُ إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليلتين . وكانت قد غربت شمسُ الخميس ، فقلت : فلا خرجَ لأفترجَ مما بي ، وعسى أن أجمعَ نفسي للتفكير إذا جلستُ في الندي ، ولعله يقع ما أستَوْحيه أو يفتحُ لي بابٌ في القراءة .

وخرجتُ ، فلم أجاوزِ الدارَ حتى ابتدرني من هبَطَ عليه الخبرُ من القاهرة أن نسيباً لنا من العظماء توفي أخوه اليوم . فقلت : لاحول ولا قوة إلا بالله ؛ ضاع يومُ الجمعة . إذ لا بد من السفر لتشييع الجنازة وحضور المأتم ، ثم قلت : لعل

(١) مجلة الرسالة ، وكل مقالات هذا الجزء والجزء الأول كتبت لها ونشرت فيها ، إلا فصولا

فى هذا السفر استجماماً ونشاطاً فأستدرك الأسبوع كله فى يومين ، وإنما الاستكثار بالقوة لا بالزمن ، ولا يد لإبليس فى الموت والحياة ، فليس إلا اطرأحه وقلة المبالاة به ، وإنما هى خطرات من وساوسه .

وأصبحت فى القاهرة ، ومشيت فى الحنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة ؛ وكانت الشمس ساطعة تلالاً ، وأنا مثقل بثياب الشتاء وكنت أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة ؛ فلما انتهينا إلى الصحراء ، هبت الريح هبوباً ليناً ، ثم زفت فكانت إلى الشدة ما هى ، ولكنها ماضية تسنى الرمل فى العين فiaخذ فى أجفانى أكال وتهيج ، وليس معى شئ أتقيها به ؛ غير أنى شغلت ، فكرى برؤية المقابر ، وجعلتها فى نفسى كالمقالة المكتوبة سطر وراء سطر ؛ وقلت : ههنا الحقيقة فى أول تفسيرها ، وغير المفهوم فى الحياة يفهم هنا .

ثم رجعت منذى الجسم بالعرق وعلتى نضح منه ، وكان القميص من الصوف ، وبصدرى أثر من النزلة الشعبية ؛ وإذا تسندى الصوف وجب نزعه وإلا فهى العلة ما منها بد .

ثم لم تكن إلا ساعة حتى انخرقت الريح وجعلت تعصف وبرد الجوى ، فأيقنت أنه الزكام ، وقلت فى نفسى : هذا باب على حدة ، والمقالة ذاهبة لا محالة ، فستخلف الذهن ويتبلد ؛ والشيطان كريم فى الشر يعطى من غير أن يسأل . . .

وثقل ذلك على فكان الغم به علة جديدة ، بيد أنى لم أزل أرجو الفرصة فى أحد اليومين : السبت والأحد . وقلت : إن من البلاء الفكر فى البلاء ، ولعل من السلامة الثقة بالسلامة ؛ فإذا نبهت العزيمة رجوت أن يتغلغل أثرها فى البدن كله فيكون علاجاً فى الدم يحدث به النشاط ويهف منه الطبع وتجم عليه النفس . وفى قوة العصب كهربائية لها عملها فى الجسم إذا أحسن المرء بعثها فى نفسه وأحكم إفاضةها وتصريفها على طريقة رياضية ؛ ولهى الدواء حين يعجز الدواء ، وهى القوة حين تخذل القوة .

فاعتزمت وصممت ، واحتكت على الإرادة ، وتكثرت من أسباب الثقة وترصدت لها السوانح العقلية التى تسنح فى النفس ، وقلت لإبليس : اجهد

جُهِدَكَ ، فما تذهبُ مذهباً إلا كان لى مذهب . ولكنَّ اللعينَ أخطر فى ذهنى قول القائل يسخر فيه من ذلك الكاتب البغدادى ^(١) .

لو قيل : كم خمسٌ وخمسٌ ؟ لا غنىدى يوماً وليلتَه يَعدُّ ويَحسُبُ ، ويقول : مُعْضِلَةٌ عجيبٌ أمرها ولئن فهمتُ لها ، لأمرى أعجبُ خمسٌ وخمسٌ ستةٌ ، أو سبعةٌ : قولان قالهما الخليلُ وثعلبُ

* * *

ثم أجمعت الرجوعَ من يوى إلى (طنطا) ، لأتقى البردَ بعلاجه إن نالنى أثره ، وكان عَسَى وقت إلى أن يقومَ القطار : فذهبت فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب فى ضاحية (البحيزة) ، ثم ركب الترام الذى أعلم أنه ذاهبٌ إلى محطة سكة الحديد .

وجلست أفكر فى إبليسَ ومقاتله ، والترام ينبعثُ فى طريقه نحو ثلث الساعة ، حتى بلغ الموضع الذى ينعرجُ منه إلى المحطة ، وهو بحيال (جمعية الإسعاف) ، حيثُ تنشعبُ طرق أخرى ؛ وكنت منصرفاً إلى التفكير مستغرقاً فيه ، طائفَ النظراتِ على الجوِّ ، فما راعنى إلا اختلافُ منظرِ الطريق ؛ وأنتبهُ ، فإذا الترام يَمْرُقُ مروقَ السهم فى تلك السبيلِ الصاعدةِ إلى (البحيزة) . . . من حيث جئت .

فلعنتُ الشيطانَ وتلبثت حتى وقف هذا الترام ، فغادرته ورجعتُ مهزولاً إلى ذلك المنشعب ، فصادتُ تراماً آخر ، فوثبتُ إليه كأنى أُحمَلُ إليه حملاً ، ودفعتُ الأجرة ، وانطلق ، فإذا هو مُنْصَبٌّ فى تلك الطريقِ عينها الذاهبة إلى البحيزة من حيثُ جئت ولا أستطيع الانحدارَ منه وهو منطلق ، فتَسَخَّطْتُ ولعنتُ الشيطانَ مرةً أخرى ، ورأيت أن عَشَبَه قد تَرَادَفَ ؛ فلما سَكَنَ الترام رجعتُ مهزولاً إلى ذلك المنشعب ولم يبقِ من الوقت غيرُ قليل . وأنظرُ نَثمَ ، فإذا ترامٌ وراء ترام ، وإذا قد وقعتُ حادثة لإحدى السيارات واجتمع الناس وسُدَّت الطريق . . . فجعلتُ أغلى من الغيظ ، ولجنتُ هذا

(١) قيل هذا الشعر فى وصف مروان الكاتب ، وهو رجل من بغداد ، وكان كاتباً على الخراج فسخر منه الشاعر بهذا الأسلوب البديع .

الدَّعَابَةِ الخبيث . وأذكرني اللعينُ نادرةَ الأعرابي الذي عضه ثعلب ، فأنى راقياً ، فقال له الراقى : ما عضَّكَ ؟ فاستحى أن يقول ثعلب ، وقال : كلب . فلما ابتداء الرجلُ برُقِيَةِ الكلب ، قال له الأعرابي : واخْلِطْ بها شيئاً من رُقِيَةِ الثعلب

* * *

ثم إنى لم أربداً من بلوغ المحطة على قدميَّ لأتيمَّ على عزيمتي في مراغمةِ اللعين ، فأسرتُ أطوى الأرض وكأنما أخوضُ في أحشائه ، وكان بصدرى التهابٍ فهاجَ بى ، غير أنى تجلَّدت واتسَّعتُ لاحتماله وبلغتُ حيث أردت . ثم ذهبتُ ألتمسُ فى القطارِ عربةً خاصةً أعرفُها ، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها فى الثانية يرفَّهون بها بعضَ الترفيه على طائفة من المسافرين ؛ وأصبتُ فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهياً لى بخاصة فأنحطتُ فيه إلى جانب رجل أوربى أحسبه ألمانيا لتفأوتِ خَلْقِهِ وعُنْجُهِيتِهِ ؛ وجلستُ أنفَسَ عن صدرى ، ثم أقبلتُ أسخَّرَ من إبليسَ ونِكايتِهِ ، وجعلتُ أتعجَّبُ مما اتفق من هذا التدبير .

وتحرَّك القطارُ وانبعثَ ، وكان الأوربى إلى جانبي مما يلى النافذة وقد تركها مفتوحةً ، فأحسستُ الهواءَ ينصبُّ منها كالماء البارد وأنا مُتَسَنِّدٌ بالعرق ؛ وترقبْتُ أنْ يُغْلِقَها الرجلُ فلم يفعل ، فصابرتُه قليلاً فإذا هو ساكنٌ مطمئن يتروَّحُ بالهواءِ وكأنما يشربُه ، وتأمَلتُه فإذا شيخٌ فى حدود الستين أو فوقها ، غيرَ أنه على بقيةٍ من قوة مصارع فى اكتنازِ عَصَلِهِ واجتماعِ قوتهِ ووثاقَةِ تركيبه ، فأيقنتُ أن الهواءَ من حاجته ، وهمتُ أن أنبهه أو أقومَ أنا فأغلقَ النافذة ، ولو شئتُ أن أفعل ذلك فعلت ، غيرَ أن الشيطان (أخزاه الله) وسَّوسَ لى : أن هذا رجل أجنبي غربي ، وأنت مصرى شرقى ، فلا يجسُن بك أن تعلِّمه وتعلم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعفُ على حينِ أنه هو الأسنُّ ، وكيف لاتقومُ لما يقوم له وقد كنتُ تباكرُ الماء الباردَ فى صميم الشتاء ، وكنتُ لاتلبسُ فى أشد أيام البرد غيرَ ثياب الصيف ، وكنتُ تحملُ كذا وكذا ثِقْلاً للرياضة ، وتُعانى كذا وكذا من ضروب القوة ، وكنتُ تلوى بيديك عودَ الحديد ، وكنتُ وكنت

فقد ممتتُ والله مما خطر لي ؛ وأنيتُ أن أنبهَ الرجل ، ورأيتُ على هذا ضعفاً وفسولة . ، ولم أعبأ بالهواء ولا بالعرق ولا بالترلة الشعبية ولا بالزكام ، وتركتُ الأوربي وشأنه ، وأقبلتُ على كتاب كان في يدي ، وتناسيتُ أن هذه النافذة جهةٌ من تدبير إبليس ؛ وكان القطارُ مزدحماً بالراجعين من المعرض الزراعي الصناعي ، وبعضُ الناس وقوفٌ فلا مطمع في مكان آخر . . .

ولبتُ ساعةً ونصفَ ساعة في تيار من هواء (فبراير) ينصبُ انصباباً ، ويعصفُ عصفاً ، وكأني أسبحُ منه في نهر تحت ظلمة الليل الماطر ، والناس معجبون بي وبالأوربي ، وهذا الأوربي معجبٌ بي أكثرَ منهم ، وقد رأى مكاني وعرف موضعي ؛ وكان إلى يميني مجلسٌ بقى خالياً ولم يُقدم أحدٌ على أن يجلسَ فيه خوفاً من اخواء ومن الرجل الأوربي . . .

ثم تراءيتُ أنوارَ محطة (طنطا) ، ولم يبقَ من هذه المحنة غيرُ دقيقتين ؛ فوالله الذي لا يُحلفُ بغير اسمه عز وجل ، لقد كان إبليسُ رقيقاً جلفاً بارداً ثقيلاً المزاج ؛ إذ لم أكدْ أنهياً للقيام ، حتى رأيتُ الرجل الأوربي قد مدَّ يده فأغلق النافذة

* * *

ورجعتُ إلى داري وأنا أقول : ثم ماذا يا إبليس ؛ ثم ماذا أيها الدُّعُوبُ (١) وحاولتُ بجهدى أن أكتبَ أو أقرأ فلم أتحركُ شئاً من ذلك ، وكانت الساعة العاشرة ليلاً ، فصليتُ وأويتُ إلى مضجعي .

ثم أصبحتُ يوم السبت ، فإذا كتابٌ من الأستاذ صاحب (الرسالة) : أنه سيطلع عددان معاً فيريدُ لهما مقالتين ، إذ تُغلق المطبعة في أيام عيد الأضحى . وكان أملِي في المقالة الواحدة مخذولاً مما قاسيت ، فكيف لي باثنتين ؟

واختلَطَ في نفسي همٌّ بهمٌ ، وما يُفسدُ عليَّ شئاً مثل الضيق ، فإذا تضايقتُ كنتُ غيرُ من كنت ؛ ولكنني تيقظتُ وتنبهتُ وأملتُ العافية مما أجده من ثقلِ البرد وضعفَتِهِ ، وأحدثتُ طمعاً في النشاط إذا جلستُ للكتابة في الليل ، فإني بالنيهار أعمل للحكومة .

فلما كان الليلُ لم أجِدْ أمري على ما أحب ، وجلستُ متفتراً مُعتبلاً ، وثقلَ

(١) الدبيب والمداحِب (بتشديد العين) : كلها بمعنى .

رأسى من ضربة النافذة ، وتسلط على ظنّ المرض والعجز عن الكتابة ، وانتقص رأسى كله فرأيتنى أشقّ على نفسى بلا طائل ، فكان من صواب التدبير عندى أن أستجيم بالنوم ثم أنهض فى السحر للكتابة ؛ فأوصيت من يوقظنى ، وحررنا الساعة المنبهة على تمام الثانية بعد منتصف الليل .

وأحسست أنى جائع ، وأن معدنى مشحوزة ، ونسيت كل ما أعرف من الطب ؛ وجاءنى بشواء وحلوى وما بينهما ، فحططت فيه ولقفت الآخر بالأول ، ثم قمت أريد النوم ، فإذا الطعام كان أشدّ على من نافذة القطار ، وكان الذى فى الفكر من المقالة أثقل من الذى فى المعدة من الطعام ، وساء الهضم فى الدماغ والبطن جميعاً !

وجعلت أتناوم وأرخى أعضائى وأتوهم الكرى وأستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة ، ثم لا أزداد على ذلك إلا أرقاً ، وتمرد الفكر ، وأحسست رأسى يكاد ينفجر ، وصرت أتمسك لولا أن تقار ، وتوهمت أن لو كان لى عقلان ما استطعت كتابة المقالة عن إبليس لعنه الله ؛ وأذكرنى الحبث نادرة مضحكة : أن رجلاً كان يركب حماراً ضعيفاً ، وكان يبعثه فلا ينبعث ، فجعل يضربه ، فقيل له : ارفق به . فقال إذا لم يقدر يمشى فليم صار حماراً ؟

* * *

وقذفت بنفسى من الفراش ونظرت فى الساعة ، فإذا هى موشكة أن تبلغ الثانية ولم أحس الرقاد بعد ، فأسرعت إلى المنبهة وحررتها على تمام الساعة الرابعة صباحاً ، وأيقنت أن الشيطان يرهقنى طغياناً وكيداً ، فطقيقتُ ألعنه ، وما أحسبه إلا قد رأى اللعن مدحاً فهو يستزيدنى . . .

ثم رجعت أحاول النوم ، فما كان هذا الليل إلا شيئاً واحداً أوله آخره إلى أن طلع الفجر .

وجاء يوم الأحد وهو يوم عطلة الأوربيين ، فما أشدّ عجبى إذ تركنى فيه إبليس كأنهم لا يدعون له وقتاً فى هذا اليوم . . .

والآن يزيّن لى الحبث أن أختم هذه المقالة ولكن لا . لا .

الشیطان * . . .

قال الشيخ أبو الحسن بن الدقّاق : كان شيخى أبو عبد الله محمد الأزهرى العجمى (رضى الله عنه) رجلاً صاحبَ آياتٍ وخوارقٍ مما فوقَ العقل . كأنما هو سرٌّ من الأسرار الجارية في هذا الكون ، قد بلغ بنفسه رتبةَ النّجم في أفقهِ البعيد ؛ ففيه أهواءُ الإنسان وشهوته وطباعه ، إلا أنها كنُور النّجم في تألّقهِ ولألائهِ من إشراق روحهِ وصفائهِ ؛ وقد ارتفع بآدميته فوقَ نفسها ؛ فأصبح في الناس ومعه سماءُ ، يجعلُها بين قلبه وبين الدنيا .

والرجلُ إذا بلغَ هذا المبلغَ كان حيّاً كالملت ساعَة احتضاره : ينظرُ إلى كلِّ ما في الحياة نظرةً من يتركُ لامن يأخذُ ، ومن يعتبرُ لامن يَخْتَرُ ، ومن يَلْفِظُ لامن يَتَذَوّقُ ، ومن يُدركُ السرَّ لامن يتعلّقُ بالظاهر ؛ ويرى الشهوات كأنها من لغة لا يعرفها ، فهي ألفاظٌ فيها معاني أهلها لامعانيه ، وإنما تلبسُ كلماتنا معانيها من أنفسنا . وفي النفوس مثلُ الهشيم : إذا وقعت فيه المعاني المشتعلة استطارَ حريقاً وتَضَرَّم ، وفيها على المجاهدةِ مثلُ الماء ؛ فإذا خالطتهُ تلك المعاني انطفأت به وخمدت .

وقد سألتُ الشيخَ مرة : كيف تَحدثُ الكراماتُ والخواقُ للإنسان ؟ فقال : يا ولدى إن الإنسانَ من الناس المحجوبين يتصرّفُ في جسمه ولا يكاد يملكُ لروحانيته شيئاً ، فإذا أبلى في المجاهدة ووقع في قلبه النور ، تصرّف في روحانيته ولا يكاد يملكُ لجسمه شيئاً ، فن أطاق أن ينسلخَ من بشريته ، واتسعت ذاته في معاني السماء بمقدار ما ضاقت من معاني الأرض ، وكان مُعدّاً لأن يتحقّقَ في روحانيته ، مُعانداً على ذلك بطبيعة فوق الاعتدال — فقد شاع في الكون ، وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التي تهديمُ في العالم وتبني ، وتُفرّق وتُجمع ، وتنقلُ الصُّورَ بعضها إلى بعض ؛ فإن الكونَ كلّهُ جوهرٌ واحدٌ

هو النور ، حتى الجبل هو نورٌ صَخْرِيٌّ ، وحتى البحر هو نورٌ مائى ، وحتى الحديد والذهب والتراب ، كلُّ ذلك نورٌ ^(١) صرَّفَتْهُ القدرةُ الإلهيةُ تصريفَها المعجز ، فكان على ما نرى : ظاهرٌ مخمَّلٌ يلائمُ نقصاً وعجزاً ، وحقيقةٌ قارَّةٌ على غير ما نرى . ومن ذا يعقل أن الصخر نورٌ متجمدٌ إذا لم يكن له إلا عقلٌ عينه وحواسه ؟ ومن ذا يطبق أن يفهم بحواسه وعينه قولَ الله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدةً وهى تمرُّ مرَّ السحاب ، صُنِعَ الله الذى أتقنَ كلَّ شئٍ . » ؟ فالجبالُ جامدةٌ ثابتةٌ ، غير أنها تمرُّ بأرضها وتموجُ فى نفسها ؛ ومتى تأدَّ اللهُ أن ينكشفَ نورٌ كلامه للعقل الإنسانى ، فستكون هذه الآيةُ علماً جديداً فى الأرض ، يُثبت أن السحابَ والجبلَ مادةٌ واحدةٌ وصنْعٌ واحد .

وياها سُخْرِيَّةٌ بالإنسان وجهله ! فإنه إذا كانت الحقيقةُ غيرَ ما نرى ، فكل شئٍ فى الدنيا هو ردٌّ على النظر الإنسانى ، ويكاد الجبلُ العظيم يكون كلمةً عظيمةً تقول للإنسان : « كذبت ! »

فالشأنُ فى الخوارقِ والكراماتِ راجعٌ إلى القدرة أن يُسلِّطَ الإنسانُ الروحانى ما فيه من سرِّ النور على ما فى بعض الأشياء من هذا السر ، وتلك هى طاعةُ بعضِ الكونِ لمن ينصرفُ عن المادة ويتصلُّ بخالقها .

فإذا بقى فى الرجل الروحانى شئٌ من أمر جسمه يقول : « أنا . . . » لم يكن فى الرجل من تلك القدرة ذرةٌ ؛ فإن هو حاول أن يسخِّرَ العادة ، أبى الكونُ أن يعرفه إلا كما يعرفُ حجراً مُلقًى يحاول أن يتصرفَ بالجبل الذى هو منه فينقله أو يزحزحه أو يزلزله .

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذٌ من حقوق هذه « أنا . . . » فى إنسانها ، ولا شرٌّ على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافةُ حقوق إليها : فحين لا يبقى لها حقٌ فى شئٍ عند نفسها ، يجب لها الحق عندئذ على كل شئٍ . وهذه هى الكرامة ؛ تُكرِّمُ الخليفةُ مَنْ أكرمه الخالق . فمن أراد أن تتصلَّ نفسه بالله ، فلا يكن فى نفسه شئٌ من حظ نفسه ،

(١) كلمة (النور) هذه هى التى يعبر عنها اليوم بالكهرباء ، وقد ثبت أن الكون كله هو هذه الكهرباء متجمدة على ما شاء الله أن تكون .

ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة : يكون إيمانهم بالله فكرة تُذكر وتُنسى ، أما عملهم فهو إيمانهم الراسخ بالجسم وشهواته يُذكر ولا يُنسى .
وأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرّة من أرواحهم ، على خلاف غيرهم من الناس ؛ فهؤلاء كل أرواحهم في مطاعمهم ومناعمهم ؛ ومن ثمّ لا يتجرى الشيطان من الأولين إلا في مجار ضيقة أشدّ الضيق لا يكادُ ينفذُ منها إلى فكر أو شهوة أو حلُم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطانُ فيهم هو تيّارُ الدم ، يعُعبُ عبابه في الأسفل والأعلى .

* * *

قال أبو الحسن : وكنا يومئذ في دمشق ، فنبهني كلامُ الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطانَ أو حاوروه أو صارَعُوهُ ؛ فقلت للشيخ : إن من حَقَّقَ علىّ أن أسألكَ حقّي عليك ، وما في نفسي أحبُّ إلى ولا أعجبُ من أن أرى الشيطانَ وأكلمه وأسمعه ؛ وأنت قادرٌ أن تنقلني إليه كما نقلتني إلى ما دخلتَ بي عليه من عوالم الغيب .

قال الشيخ : وماذا يردُّ عليك أن تَرى الشيطانَ وتكلمه ؟

قلت سبحانَ الله ! لا يُجدي علىّ شيئاً إلا أن أسخّرَ منه .

قال الشيخ : فأني أخشى يا ولدي ، أن يكونَ الشيطانُ هو الذي يريد أن تراه وتسمعه . . . !

قلت : فأني أريد أن أسأله عن سره ، فيكونَ علماً لا سخرية .

قال : لو كَشَفَ لك عن سره لما كان شيطاناً ، فإنما هو شيطانٌ بسرّه لا بغيره .

قلت : فأريد أن أرى الشيطانَ لأكونَ قد رأيتَ الشيطانَ !

قال الشيخ : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ! لو كنتَ يا أبا الحسن بأربع أرجلٍ لهربتَ من الشيطان بثلاث منها وتركتَه يجرُك من واحدة !

قلت : يا سيدي ، فلو كنتُ حماراً لبطلَ عملُ الشيطان في أرجلي الأربع كلها ، إذ لا حاجةَ به إلى إغواء حمار !

فتبسم الشيخ وقال : ولا بد أن تدرى الشيطان وتكلمه ؟
قلت : لا بد .

قال : إنه هو يقولها ، فقم !

* * *

قال أبو الحسن : وكان الشيخ إذا مشى إلى أمر خارق بقيت معه غائباً عن الحس ، كأنه يُبْطِلُ منى ما أنا به أنا ، فأصبح ظليّ آدمياً معلقاً به . ولا تقع الخوارق إلا لمن وجد القوة المُكَمَّلَةَ لروحه ، وهذه القوة تُستمدُّ من الشيخ الواصل ، فلا بد من إمام يأخذ عن إمام ، كأنها سلسلةٌ نفسيةٌ متميزةٌ في الأرض ، فتتغير الواحدة منها بالواحدة ، إذ تقع في جوّها فتورق وتثمر ؛ كالشجرة : جوّ يكسوها ، وجوّ يُدْبِلُها ، وجوّ يسلبها سلباً ؛ وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جوّ .

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالحمول ، فرأيتنا وقد أشرفنا على بناء عظيم ، ورأيت أقواماً يتلقّون الشيخ ويسلمون عليه ويتبرّكون بمقدّمه ؟ فأنكرتهم نفسي ووجدت منهم وحشةً ، فالتفت إلى الشيخ وقال : هؤلاء من الجنّ ، وما إليهم قَصْدُنا ، فلا تشتغل بما ترى واشتغل بي .

ثم انتهى إلى البناء العظيم ، فتستقبلنا طائفةٌ أخرى ، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه ، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تُعجزُ الوصف ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ؛ فيقولون : هذه كنوز سليمان وذخائره ، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً؛ فرأينا ثمّ نعياً ومُلكاً كبيراً ، ثم انتهينا أخيراً إلى مغارة خسيّفة كأنها عرقٌ من عروق جسم الأرض ، يتفجّر منها دوى كالرعدِ القاصف ، إلا أنه في السمع كخوار الثور ، إلا أنه ثورٌ خيّل إلى أن رأسه في قدر جبّليّ عظيم ، يتعلق به غبغب^(١) في قدّر جبل آخر ، على جسم يسدّ الخافقين ، فمخواره كأنه صراخ الأرض ، وإذا أنا بأقبج مكان منظرًا ، وأنتنه ريحاً ، كأنه سجنٌ بناؤه من الجيصف .

(١) غبب الثور وغيبه : ما تقي من لحم ذقنه من أسفل .

فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا سجنُ إبليس ، وهو هنا في هذه المغارة منذ زمن سليمان عليه السلام .

قلت : أقمَسَسْجُونُ هو ؟

قالوا : وإنه مع ذلك مُوقَرٌ بِأَمْثالِ الجبالِ حديداً يَرَبِضُ به في مَحْبِسِهِ ، فلا يَنْزَحْزَحُ ولا يَتَحَلَّحَل .

قلت : وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً ، فكيف به لو كان طليقاً ؟ قالوا : فلو أنه كان طليقاً لاستحوذَ على الناس كافةً ؛ فيجتمعُ أهلُ الأرض على شهوةٍ واحدةٍ لاشيءٍ غيرها ، فيبطلُ مع هذه الشهوة الواحدة كلُّ تدبيرٍ بينهم ، فلا تقومُ لهم سياسة ، ولا يكونُ بينهم وازع ؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكلبُ وهاجَ بها ، فأنيابها في لحمها ، لا يزال يعَضُّ بعضها بعضاً ، فليس لجميعها إلا عملٌ واحدٌ يُسَلِمُها إلى الهلاك، ويُصبح ظهرُ الأرض أعْرَى من سَرَاةٍ أديم .

وإنما يصلحُ الناسُ باختلاف شهواتهم وتَنافُرِها وتَنازُعِها : فبعضها يحكم بعضاً ، وشيء منها يَنْزَعُ شيئاً ، ومن تَخَلَّصَ من نَزْوَةٍ قَمَعَ بها نزوةً أخرى ؛ كالمتزوج المحصن : يحكمُ بالجلد والرجم على من ليست له امرأةٌ فزنا ؛ وكالغنيّ الواحد : يحكم على اللصّ الذي لم يجدْ فسرق ، وهلمَّ جرا .

وما ينشأ الناس في ثلاثة أعمار ، فَيَشِبُّون ويكتهلون ويهرمون ، إلا لاختلاف شهواتهم وتختلفَ مقاديرُ الرغبةِ فيها ، فتتحققُ من ثَمِّ تلك الحكمة الإلهية في التدبير ويجدُ الشرعُ محلّه بينهم ، كما يجدُ العصيانُ بينهم محلّه .

ولو أن أمةً كلها أطفالٌ أو كهولٌ أو شبوخ ، لبادت في جيل واحد ؛ وإنه ليس أَسْمَجُ من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلة تكون وحدها ، فلا بد من شيء يظهرُ به شيءٌ غيره كالضد والضد ؛ والمعركة إذا انتصر كلٌّ من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غيرَ المعركة .

قال أبو الحسن : وقلتُ لهم : فإذا كان الشيطانُ سجيناً قد رَبَضَتْ به أنفاله ، حتى لَهَوُ في سجنٍ من سجنٍ مبالغةً في كَفِّهِ والتضييقِ عليه — فكيف يَفْتِنُ الناسَ في أرجاء الأرض ويؤسوسُ في قلوبهم ، حتى لَهو يَدُ بين كلِّ

يَدِين ، وَحَتَّى لَيْسَ الْعَيْنُ الثَّالِثَةُ لِعَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ ؟

قالوا : إن في روحه النارية قوةً تَفْصِلُ منها وتنتشر في الأرض ، كشُعاع الشمس من الشمس : هذه كُرَّةٌ ناريةٌ مَيِّتَةٌ معلقة على الأجسام مُرْصَدَةٌ لها ، وتلك كُرَّةٌ ناريةٌ حيَّةٌ معلقة على النفوس مُرْصَدَةٌ لها ، وبهذه وتلك عَمَارُ الدُّنْيَا وأهل الدُّنْيَا .

قلت : لعلمكم أردتم أن تقولوا : خراب الدُّنْيَا وأهل الدُّنْيَا . فغَلَطِمْ ، فكان ينبغي أن يجيء بِدَلٍّ الغلط . . .

فقال أحدهم : يا أبا الحسن ، خَرَقَ الثوبُ المسمارَ . جاز هنا لأمن اللبس أن يكونَ المفعولُ به — وهو الثوبُ — مرفوعاً وفاعله — وهو المسمار — منصوباً ، هل جثت — ويحك — تطلبُ النحوَّ أو تطلبُ الشيطان . . . ؟

* * *

قال أبو الحسن : فقطعني الجني — والله — وأحجبني ، ونظرتُ خلسةً إلى الشيخ أراه كيف يسخرُ مني ، فإذا الشيخ قد أمْلَسَ فلا أراه ، وإذا أنا وحدي بين الجنِّ وبإزاء هذا الساهرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهته وشُقَّ فمُهُ في قفاه . ! فسَرُّرَى عني وزال ما أجده ، وقلت في نفسي : الآن أبلغُ أربِّي من الشيطان ويكونُ الأمرُ علي ما أريد ، فلا أجِدُ من أحتشم ولا تَقْطَعُنِي هيبةُ الشيخ . ! ووقع هذا الخاطرُ في نفسي ، فاستعدتُ بالله ولعنتُ الشيطان وقلت : هذا أولُ عَيْبِهِ بي وجعله إِيَّاي من أهلِ الرياء ، كأن لي شأنًا في حضور الشيخ وشأنًا في غيابه ، وكأني مُنَافِقٌ أُعْلِنُ غيرَ ما أُسِرُّ ، وقلت : إنا لله ! كِدَتْ يا أبا الحسن تَتَشَيِّطُن !

ثم همتُ أن أنكصَ على عقبي ، فقد أيقنتُ أن الشيخ إنما تخلى عني لأكونَ هنا بنفسي لابه ، وما أنا هنا إلا به لابنفسِي ، فيُوشِكُ إذا بقيتُ في موضعي أن أهلك ! بيِّدُ أن المغارة انكشفت لي فجأةً فما ملكتُ أن أنظر ؛ ونظرتُ فما ملكتُ أن أقف ، ووقفتُ أرى ، فإذا دخانٌ قد هاجَ فارتفع يشورُ ثورَانَه حتى تملأُ المكانُ به ، ثم رَقَّ ولطفَ .

واستَصْرَمَتْ منه نارٌ عظيمة لها وهَجَانٌ شديدٌ يتضطرم بعضها في بعض ،

وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ قَوِيَّةٌ ، ثُمَّ خَسِمَت .
 وَانْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسَّدِّ الْمَشْبُوقِ مِنْ مَاءٍ كَثِيفٍ أبيضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ ،
 كَأَنَّهُ صَدِيدٌ يَتَقَيَّحُ فِي دَمٍ ، ثُمَّ غَاضَ .
 وَتَبَتَّعَتْ فِي مَكَانِهِ حَمَاطَةٌ مُتَنِينَةٌ جَعَلَتْ تَتَرَبَّوْ وَتَعْظُمُ حَتَّى خِيفَتْ أَنْ
 تَبْتَلَعَنِي وَأَذْهَبَ فِيهَا ، فَسَمِيتُ اللَّهَ تَعَالَى فَغَارَتْ فِي الْأَرْضِ .
 ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدٌ مُحْمَرٌّ الْحِمَامَالِيقِ ، هَائِلٌ الْخَلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ ،
 قَدْ وَقَفَ عَلَى جِيْفَةٍ قَدْرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يَعْجُبُ مَا تَسِيلُ بِهِ .
 فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْكَلْبُ ، أَأَنْتَ الشَّيْطَانُ ؟

وَأَنْظَرُ فَإِذَا هُوَ مَسْخٌ شَائِهٌ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي بَهِيمَةٍ قَدْ امْتَرَجَا وَطَغَى مِنْهُمَا
 شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ ، أَمَا وَجْهُهُ فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا ، تَحْسِبُهُ قَدْ لَبِيسَ صُورَةَ أَعْمَالِهِ . .
 وَنَطَقَ فَقَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ !
 قُلْتُ : فَمَا تِلْكَ الْجِيْفَةُ ؟

قَالَ : تِلْكَ دُنْيَاكُمْ فِي شَهْوَاتِهَا ، وَأَنَا أَلْتَقِمُ قَلْبَ الْفَاسِقِ أَوْ الْآثِمِ مِنْكُمْ ،
 كَمَا أَلْتَقِمُ دُودَةً مِنْ هَذِهِ الْجِيْفَةِ .
 قُلْتُ : عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ ، فَكَيْفَ كُنْتَ دَخَانًا ،
 ثُمَّ انْقَلَبْتَ نَارًا ، ثُمَّ رَجَعْتَ قَيْحًا ، ثُمَّ صَرْتَ حِمَاطَةً ، ثُمَّ كُنْتَ كَلْبًا عَلَى جِيْفَةٍ ؟
 قَالَ : لَا تَلْعَنِ الْفَاسِقِينَ وَالْآثِمِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ الْعِبَادُ الصَّالِحُونَ بِأَحَدِ الْمُعْلَمِينَ ،
 وَأَنْتَ وَأَمْثَالُكَ عِبَادُ صَالِحُونَ بِالْمَعْنَى الْآخِرِ ، أَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا حَيَاءٌ وَوَقَاحَةٌ ؟
 فَأُولَئِكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هُمُ وَقَاحَتِي أَنَا عَلَى اللَّهِ ! أَنَا مِنْكُمْ فِي زَهْدِكُمْ حَرِمَانُ
 الْحَرِمَانِ ، وَفَقْرُ الْفَقْرِ ، وَلَقَدْ أَهْلَكْتُمُونِي بُؤْسًا ؛ غَيْرَ أَنِّي مَعَهُمْ لَذَّةُ اللَّذَّةِ ،
 وَشَهْوَةُ الشَّهْوَةِ ، وَغِنَى الْغِنَى ، لَا تَمُتُ لَذَّةٌ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تَحُلُو لَذَائِقَهَا وَإِنْ
 كَانَتْ حَلَالًا ، إِلَّا إِذَا وَضَعْتُ أَنَا فِيهَا مَعْنًى مِنْ مَعَانِي أَوْ وَقَاحَةً مِنْ وَقَاحَتِي !
 حَتَّى لِأَجْعَلَ الزَّوْجَةَ لَزَوْجِهَا مِثْلَ الشَّعْرِ الْبَلِيغِ إِذَا اسْتَعَارَ لَهَا مَعْنًى مِنِّي ، وَكُلُّ
 مَا فَسَدَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ فَهُوَ مِتْجَارَى وَاسْتَعَارَتْ لَهَا أَجْعَلُهَا بِهِ بَلِيعَةً . . .

وَأَنْتُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ تَقْطَعُونَ حَيَاتَكُمْ كُلَّهَا تَجَاهِدُونَ لِإِثْمِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ
 حَيَاةِ عِبَادِي ، فَانْظُرْ — رَحِمَكَ اللَّهُ — لَنْ كَانَتْ سَاعَةٌ مِنْ حَيَاتِهِمْ هِيَ

جهنّمكم أنتم ، فكيف تكون جهنّم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتني دخاناً لأنّي كذلك أنبعثُ في القلب الإنساني ، فتى تحركتُ فيه حركةَ الشر كنت كالاحتيال لإضرار النار بالنفخ عليها ؛ فمن ثمّ أكونُ دخاناً ، فإذا غفَلَ عني صاحبُ القلب تضرّمتُ في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛ ثم يواقع الإثمَ والمعصية ويقضي نهمته فأبردُ عن قلبه ، فيكونُ في قلبه مثل الحرق الذي يبردُ فتأكّلَ موضعه فتقيّح ، ثم يخنط قبحُ أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقلب هذا المسكين حمأةً إنسانية لانزال تربو وتنفخ كما رأيت . قلت : أعوذ بالله منك ! أفلا تعرفُ شيئاً يردك عن القلب وأنت دخانٌ بَعْدُ ؟

فقهقه اللعين وقال : ما أشدَّ غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع التوبة ! أما لو أن شيئاً يَخترع التوبة في الأرض لاخترعها القبرُ الذي يدفنُ فيه بعضُكم بعضاً كلَّ طرفة عين من الزمن ، فستنزِلون فيه الميتَ المسكينَ قد انقطع من كل شيء وتركوه لآثامه ، وحسابِ آثامه ، والهلاكِ الأبديّ في آثامه ؛ ثم تعودون أنتم لاقترافِ هذه الآثام بعينها ! قلت : عليك وعليك أيها اللعين ؛ ولكن ألا يتبدّد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته !

قال : أوّه ! لقد أوجعتني كأنما ضربتني بجبل من نار ، إن نبيّكم عرفها ولكنكم أغبياء ؛ تأخذون كلامَ نبيكم كأنما هو كلامٌ لاعمل ، وكأنه كلامُ إنسان في وقته لا كلامُ النبوة للدهر كلّهُ وللحياة كلّها ؛ ولهذا غلبتُ أنا الأنبياء على الناس ، فإني أضعُ المعاني التي تعمل ، لا الحكمةَ المتروكة لمن يعملُ بها ومن لا يعمل .

أندري يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل : عُمَر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامُهم من أكبر مصائبني ، فتركوني زمناً — وأنا الشيطانُ — أرتابُ في أي أنا الشيطان . . . ؟

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعن . : فلست قائلها إلا إذا تررحت على .

قلت : عليك وعليك من لَعَنَاتِ الله ! قل لماذا ؟
 قال : أسألكُ ويأمر ؟ وطُفَيْسِلِي وَيَقْتَرِح ؟ لابد أن تترحم !
 قلت : يرحمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنةٌ في لفظةٍ رحمة ؛ لا ، إلا أن تترحم على أنا إبليس
 الرجيم !

قلت : فيُغْنِي اللهُ عن علمك ؛ لقد ألهمتنيها روحُ النبي (صلى الله عليه وسلم) : إن النبوة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها ، فكان روحُ النبي (صلى الله عليه وسلم) لتلك الأرواح كالأم لأبنائها ؛ وقد رأوه لا يغضب لنفسه ولا لحظ نفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد في أمر النفس ، وجعل ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العمل لسعادة الناس . وكلما ارتدَّ الإنسانُ لنفسه وحظوظها ارتدَّ إليك — أيها اللعين — وأقبلَ على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك — أيها الرجيم — وأقبل على سعادة نفسه ، وترك الغضب وحظوظ النفس هو الصبر ؛ وصبرُ الأنبياء والصديقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة ، بل هو الصبرُ على حوادث العمر كله ، كصبر المسافر إن كان عزيمةً مدةً الطريق كلها ، وإلا كان فساداً في القوة ووقع به الخذلان .

فهذا الصبرُ المُعْتَزَمُ المصمَّم ، الذي يُوطَّنُ به الرجلُ نفسه أن يكون رجلاً إلى الآخر — هو تعبُ الدنيا ، ولكنه هو رَوْحُ الجنة مع الإنسان في الدنيا . والمؤمنُ الصابرُ رجلٌ مُقْفَلٌ عليه بأقفال الملائكة التي لا يمتحن حِمْمُها الشيطان ولا تفتحها مصائبُ الدنيا ؛ ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إن المؤمنَ يُنْضِي شيطانه كما يُنْضِي أحدكم بعيره في سفره » . كأنه يقول : لو لم يصبر المسافر دائباً معترماً مدة سفره كلها لما أنضى بعيره ، ولو لم يصبر المؤمنُ دائباً معترماً مدة حياته كلها لما أنضى شيطانه .

فصاح الشيطان : أوّه ، أوّه ! ولكن قل لي يا أبا الحسن : ما صَبَرُ رجل مؤمن قوَى الإيمان ، قد استطاع بقوة إيمانه أن يُفْهِقَ من سُكْرِ الغنى ، فتخلص من نزوات الشاطين الذهبية الصغيرة التي تسمونها الدنانير ؛ وقد أردته

على أن يكذب ، فرأى الإيمان أن يصدّق ؛ وجهدتُ به أن يغضب ، فرأى الحكمة أن يهدأ ؛ وحاولتُ منه أن يطمع ، فرأى الراحة أن يرضى ؛ وسوّلتُ له أن يحسد ، فرأى الفضيلة ألاّ يبالي ؛ وأخذ لنفسه من كل شيء في الحياة بما يثق أنه الإيمان والصبر والهدوء والرضا والقناعة ؛ وأحاط نفسه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية واجترأ بها ؛ وقبّصَ نظره على الحقيقة ؛ ووجد الجمال في نفسه الطيبة الصافية ؛ وأجرى ما يؤله وما يسرّه مسجّري واحد ؛ ونظر إلى العمر كله كأنه يومٌ واحد يرقب مغرب شمس ؛ وأخذ من إرادته قوةً أنسته ما لم تعطه الدنيا ، فلم يحفّل بما أعطت الدنيا وما منعت ؛ وعاش على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن في الجنة : هذا في قصرٍ من لؤلؤة أو يا قوته أو زبرجدة ، وذلك في قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل .

قال الشيطان : فلما أعجزني صلاحاً ورضى وصبراً وقناعةً وإيماناً واحتساباً ، وكان رجلاً عالماً فقيهاً — سوّلتُ له أن يخرج إلى المسجد ليعظ الناس فينتفعوا به ، ويُبصّرهم بدينهم ، ويتكلم في نصّ كلام الله ؛ فعقد المجلس ووعظ ، وانصرفوا وبقي وحده .

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهن ؛ وكانت امرأة جزلة غضة رابية ، يهتزُّ أعلاها وأسفلها ، وتمشي قصيرة الخطو مثاقيلة كالمضايق من حمّل أسرار جمالها وأسرار بدنّها الجميل ؛ فبعض مشيتها يقظة وبعضها نومٌ فاترٌ تخالطه اليقظة ؛ ولا يراها الرجل الفحلّ التام الفحولة إلا رأى الهواء نفسه قد أصبح من حولها أنثى ، مما تعصّف به ريحها العطرة عطر زيتها وجسمها .

وكان الواعظ قد ترمّل من أشهر ، وكانت المرأة قد تأيّمت من سنوات ؛ فلما رآها غضة طرفه عنها ؛ ولكنها سألتها بالفاظها العذبة عن أمور هي من أسرار طبيعتها ، وسألتها عن طبيعتها بالفاظها ؛ فسمع منها مثل صوت البلّور ، يتكسر بعضه على بعض .

وتحدّثت له وكأنها تتحدّث فيه : فسمع بأذنه ودمه ، ثم كان غصّ

عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره .

ورأى صوتها يشتهى ؛ وعانقتم رائحتها العطرية النفاذة ؛ وأحاطته بجو
كجو الفراش ؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسة قبيل ؛ وصارت زفراتها
كالقدرة إذا استجمعت غلياناً ؛ وطلعت في خياله عريانة كما تطلع للسكران
من كأس الخمر حورية عريانة ، لها جسم يبدو من السلين والبضاضة والنعمة
كأنه من زبد البحر ؟

قال أبو الحسن : وكنت كالنائم ، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر
بالحجر ، لا كتكسر البلور بعضه على بعض ، وسمعت شبحي يقول :
أفسقت . . . ؟

تاريخُ يتكلم . . .

أيعرفُ القراءُ أن في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكّمةُ الوضعِ مُتَّسِقَةُ التركيبِ بديعةُ التأليفِ ، تجعلُ المرءَ حينَ ينامُ كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة) ، تَسِيحُ به في عالمٍ عجيبٍ كأنما سَـحِرَ فتحوّل إلى قصة ؟

إن يكنْ في القراء من لا يعلمُ هذا فليعلّمه مني ؛ فإنّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في النوم ، وكثيراً ما يُلْتَقى عَلَيَّ من بارعِ الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لو دونتُهُ لَعُدَّ من الخوارق والمعجزات .

وهذه القصةُ التي أرويتها اليومَ ، كانت المعجزةُ فيها أُنَى مشيتُ في التاريخ كما أمشي في طريقٍ ممتدةٍ ؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها ، فعشتُ معهم وتخبّرتُ من أخبارهم ، ثم رجعتُ إلى زمني لأقصّ ما رأيتهُ على أهل سنة ١٣٥٣ . . . *

أُسميتُ البارحةَ كالْمُغْمومِ في أحوالٍ ثَقِيلَةٍ على النفسِ ما تَنَظَلِقُ النفسُ لها ، أولُها سوءُ الهضمِ ؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ في النفسِ إلا دائرةً : تذهبُ ما تذهبُ ثم لا تنتهي إلا في سوءِ الهضمِ عينه . فجلستُ في النَّدى الذي أَسْمُرُ فيه أحياناً ، فكان لجوّه وزنٌ أَحَسَّتهُ كما يُحسُّ الغائصُ في الماءِ ثِقَلُ الماءِ عليه ؛ ودخنتُ الكَرَكِرَةَ^(١) فلم تكن هواءٌ ودُخاناً يَتَرَوَّحُ ، بل كانت من ثقلها كالطعامِ يدخلُ على الطعامِ ؛ ونظرتُ ناحيةً فأخذتُ عيني رجلاً فيلبى الخِلْدَمَةُ ، مُنْطَادَ البطنِ كأنما نُفِخَ بطنُهُ بالآلاتِ ، يَحْمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطون البَدِيناتِ الحواملِ كلٌّ منهنَّ في الشهرِ التاسعِ من

* يعنى بهذه المقالة والتي بعدها (كفر الذبابة) تركيا الحديثة وزعيمها المففور له -- وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي» .

** تاريخُ إنشائه هذه المقالة .

(١) الكركرة : اسم وضعناه (للشيخة) أو النارجيلة ، أخذاً من صوتها ، كما صنع العرب في تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير ، وكما هي طريقتهم ؛ وتجمع الكركرة : كراكير ، بالياء اللخفة .

حَمَلَهَا . . . وكان معي إلى كل هذا البلاء خمسُ صُحُفٍ يَوْمِيَّةُ أريدُ قراءتها . . . !

ثم جئتُ إلى الدار والمعركةُ حاميةٌ في أعصابي ؛ وما كان سوءُ الهضمِ مَسْؤَمَةً فیدعو إلى النوم ، ، فدخلتُ بيتَ كُتُبِي وأردتُ كتاباً أیَّ كتابٍ تنالُهُ يدي ، فخرج لي كتابٌ في خُرَافَاتِ الأولين وأساطيرِهِم وهَسَدِ يَانِهِم وسوءِ هضمِهِم العَقْلِيَّ . . . كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس وديُونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأثرغتيس . . . فاستعدتُ بالله وقلت : حتى الكُتُبُ لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالتْها الثَقْلَةُ والألم ؟

وبات الليلُ يقظانٌ معي ، وبقيتُ مُتَمَلِّمَةً أَتَقَلَّبُ حتى أخذَ الصداغُ في رأسي ، فانقلبُ التعبُ نومًا ، وجاء من النومُ تعبٌ آخر ، وَقَدِفْتُ إلى عالمِ الأحلامِ في قُنْبَلَةٍ تَسْتَقِرُّ بي حيثُ تريدُ لاجئِثُ أريدُ :

* * *

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً قد اجتمعوا جَمَاهِيرُ ، وسمعتُ قائلًا منهم يقول : « الساعةَ يمرُّ مولانا العالی » . فقلتُ لمن يليني : « مَنْ يكونُ مولانا العالی ؟ » قال : « أَوَ أَنْتَ مِنْهُمْ ؟ » قلتُ : « مَنْ ؟ » فألهاه عن جوابي تَشَوُّفُ الناسِ وانصرافُهُم إلى رجلٍ أَقْبَلَ رَاكِبًا حِمَارًا أَشْهَبَ ؟ فصاحوا : « القمرُ القمرُ ^(١) » وَرَفَعَ الرجلُ الذي يُنَا كِبْسِي صَوْتَهُ يقول : « البركاتُ والعَظَمَاتُ لك يا مولانا العالی ! » .

قلتُ : إنا لله ! لقد وقعتُ في قومٍ من الزنادقة ، يُعَارِضُونَ « التحياتُ والصَّلَاواتُ والطَّيِّبَاتُ لله » ؛ ثم مرَّ صاحبُ الحمارِ بجذائي ، ونغمزهُ الرجلُ عَاسِيًا ، فقال : ما بالكُ لا تقولُ مثله ؟ قلتُ : أعوذُ بالله من كُفْرِ بعدِ إيمان . فكأنما أراد أن يَلْطِمَنِي فرفعَ يده ، فصَحَّتْ فيه : كما أَنْتَ - ويليكَ - وإلا قبضتُ عليك ، وأسلمتكَ للبوليس ، وشكوتُكَ إلى النيابة ، ورفعتُكَ إلى محكمةِ الجُنْحِ ! قال : ماذا أسمع ؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه ! وأحاط بي جماعةٌ منهم ، ولكنه تَرَ جَلَّ عن حماره وأخذ بيدي ومشينا ، فقلتُ : من أَنْتَ يا هذا ؟

(١) القمر : اسم ذلك الحمار ، وسير ذكره في القصة .

قال : أراك من غير هذا البلد ؛ أما تعرف الحاكم بأمر الله ؟ فأنا هو .
قلت : انظر - ويحك - ما تقول . فما أظنك إلا مسمُوراً ؛ لقد كتبتُ
أمس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرخته ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من
مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة « الحروفين » (١) . . .

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥ ؛ فالرجل مجنون ، أو لا فأنت
أيها الرجل من معجزاتي . لقد جئتُ بك من التاريخ ، فسترى وتكتب ، ثم
تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتي ، وتقص عني وتشهد لي . . . !
قلت : فإني أعرف أعمالك إلى أن قُتِلت في سنة ٤١١ . . . !

قال : أو إله أنت فتخلق ستَّ عشرة سنةً بحوادثها ؟ لقد كدت من
أفْسِكَ وغباوتك تُفسد على دعوى المعجزة !

وهاج الصداعُ في رأسي ، وبلغ سوء الهضم حدَّه ، واشتبكتُ سيناتُ
إيسيس وأتوبيس إلخ بسين إبليس ، ومرت بين كلِّ هذا حوادثُ الطاغيةِ
المعتوه المتجبر ، فرأيتُه يبتدع في كل وقت بدعاً ، ويخترع أحكاماً يُكرِّه
الناسَ على أن يعملوا بها ، ويعاقبُهم على الخروج منها ، ثم يعودُ فينقضُ أمره ،
ويعاقبُ على الأخذ به ، كأن الذي نقضَ غيرُ الذي أبرمَ ، وكأنه حين يتبدل
فيُعجزُه أن يخترعَ جديداً - يجعلُ اختراعه إبطالَ اختراعه .

ورأيتُه كأنما يعتدُّ نفسه مُخَّ هذه الأمة ، فلا بدَّ أن يكونَ عقلاً لعقوها ،
ثم لابدَّ أن يستعلمي الناسَ ويستبدَّ بهم استبدادَ الشريعةِ في أمرها ونهْيها ،
فكانت أعمالُه في جملتها هي نقضُ أعمالِ الشريعةِ الإسلامية ، وظنَّ أنه مستطيعٌ
محوَ ذلك العصرِ من أذهان الناسِ وقتلَ التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتلٍ
سفَّاك .

وسوَّل له جنونه أنه خُلِقَ تكذيباً للنبوَّة ؛ ثم أفرطَ عليه الجنونُ فحصلَ
في نفسه أنه خلق تكذيباً للألوهية ؛ وفي تكذيبه للنبوَّة والألوهية يحملُ الأمةَ
بالقهر والغلبة على ألا تصدِّقَ إلا به هو ؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صنَّعَ ما صنَّع ،

فجاء تاريخه لا يبنى ألوهية ولا نبوة ، بل يبنى العقل عن صاحبه ؛ وجاء هذا التاريخ في الإسلام ليتكلم يوماً في تاريخ الإسلام . . .

* * *

رأيتني أصبحت كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعماله وأدوّن تاريخه ، وأقبلتُ على ما أفرّدني به وقلتُ في نفسي : لقد وضعتني الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتّابها وأدبائها ، فسأكتبُ عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة في العلم .

ودوّنتُ عشرة مجلّدات ضخمة انتهت وأنا أحفظها كلّها ، فإذا هي جُمِلَ صغيرة ، جعلَ العلمُ كلَّ نبذة منها سِفْراً ضخماً كما يُخيّل للنائم أنه عاش عمراً طويلاً وأحدث أحداثاً ممتدة ، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة . وهذه هي المجلّدات التي قلتُ : إن التاريخ يتكلّمُ بها في التاريخ . . .

المجلد الأول

ابتليَ هذا الطاغية بنقيصتين : إحداهما من نفسه ، والأخرى من غيره ؛ فأما التي من نفسه فإني أراه قد خلّق وفي مُخه لُفافة عصبية من يهودية جدّة رأس هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدي عبيد الله ، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابنَ امرأة يهودية من حدّاد يهودي ، فاتفق أن جرى ذكرُ النساء في مجلس الحسين بن محمد القدّاح ، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آية في الحسن ؛ وكان لها من الحداد ولد ، فتزوَّجها الرجلُ وأدّب ابنها وعلمه ، ثم عرّفه أسرار الدعوة العلوية وعهد إليه بها .

ومن بعض اللوائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شرّه ، لا يند للمرء فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه ، فيكونُ قدراً يتسلسل في الخلق ليحدث غاياته المقدورة ، فتى في وقع في مخ إنسان فالدنيا به كالحبلى ولا بد أن تتمخض عنه .

هذه اللُفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستُحقّقُ به قول الله تعالى :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ . . . » فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشد في هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشد حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكَرَةَ . وما أرى هذه المآذن القائمةَ في الجوّ إلا تخرقُ بمنظرها عينيه من بغضه للإسلام وانطوائه على عداوته ؛ فويلُ لها منه ! .

وأما النقيضةُ الثانيةُ فقد ابتُلِيََ بقومٍ فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزةُ بن علي ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . . وقد لَفَّقُوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة ، لا يجيء إلا للهدم ، ثم لا يضيعُ أولَ معاوله إلا في قُبّة السماء ليهدمها . . . ! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ في كلمة واحدة لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء تُريدُ إخراجَ الله من الوجود لإدخالِ الله في بعض الطُّغاة !
ويتلقَّبون في مذهبهم بهذه الألقاب : العقل ، الإرادة ، الإمام ، قائم الزمان ، علة العلل . . . !

المجلد الثاني

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيِّدُ به الإسلام ، ليتألَّفَ الجندَ والشعبَ ويستميلَهم إليه ، وكان في ذلك لثيمَ الكَيْدِ ، دنيء الحيلة ، يهوديَّ المكرِّ ؛ فأمرَ بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفتوى ، وبذَل فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء (والمشايخ) ، وبالغ في إكرامهم ، والتَّوسُّعَ عليهم ، والتَّخَضُّعَ لهم ، ودكَّحَل في ظلال العمام . . . وأحضَرَ لنفسه فقيهيْن مالكييْن (اثنين لا واحد) يعلمانه ويُفقهانه ، وكان أشبهَ بمُريدٍ مع شيخ الطريقة يتَسَعَّدُ به ويتَّيَمَّنُ ؛ أشرفُ ألقابه أنه خادمُ العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذي يقول له فيه الشيخ : رأيتُك في الرؤيا ورأيتُ لك . . . !

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية ، هي بعينها رِبا اللُّفَّافَةِ اليهودية في مُحَخه ؛ تُصَلِّحُ بإقراضِ مائة ، وفيها نيةُ الخرابِ بالسنتين في المائة . . . ! فإنه ما كاد يتمكنُ من الناس ويعرفُ إقبالَهم عليه وثقتَهم به ، حتى طَلَبَتِ اللُّفَّافَةُ اليهوديةُ رأسَ المالِ والرِّبَا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطلَ العيدَين وصلاةَ الجمعة ، وقتَلَ الفقهاء وقتَلَ معهم فقيهيهِ

وأستاذيه ، وعادَ كالمُرِيدِ المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول في نفسه : إن هناك ثلاثةٌ تعمل عملاً واحداً في الصَّيْد : الفخ ، والعمامة ، واللَّحْيَة . . . !
 إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم ، يستطيعُ أن يجعلَ حماقته شيئاً واقعاً ، فيقتلَ علماء الدين بإهلاكهم ، ويقتلَ مدارسَ الدين بإخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنقَ من المسلمين كلَّ ذى عمامة في عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجحَ ويرى هذا قوةً ، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله الله كالذبابة التي تُصيبُ الناسَ بالمرض ، والبعوضة التي تقتل بالحمى ، والقملة التي تَضْرِبُ بالطاعون ، فلو فُخِرتْ ذبابةٌ ، أو تَبَجَّحتْ قملةٌ ، أو استطالتْ بعوضةٌ ، لحاز له أن يَظنَّ طينته في العالم . وهل فعل أكثر مما تفعل ؟

لقد أودى بأناسٍ يقوم إيمانهم على أن الموتَ في سبيل الحق هو الذي يُخلدُهم في الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذي يضعهم في حقيقتها ، وأن هذه الروح الإسلامية لا يَظنُّمسُّها الطغيانُ إلا ليجلوها .
 إنه والله ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَدَّبَ ، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله ، وأعوزَه ذلك النوعُ السامى من الموت الأول الذى كان حياةَ الفكرِ ومادةَ التاريخ ، فجاءت القملة تُحمل طاعونها . . !
 لقد أحياهم في التاريخ ، أما هم فقتلوه في التاريخ ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعة من المسلمين جميعاً !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغيةُ أن الدينَ الإسلامى خُرَافةٌ وشعوذةٌ عن النفس ، وأن محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجادُ أخلاق ، وأن الإسلامَ كان جريئاً حين جاء فاحتلَّ هذه الدنيا ؛ فلا يطرده من الدنيا إلا جراءةُ شيطان كالذى تَوَقَّحَ على الله حين قال : فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . ولهذا أمرَ الناسَ بِسَبِّ الصَّحابة ، وأن يُكْتَسَبَ ذلك على حيِّطان المساجد والمقابر والشوارع ! أخزاه الله ! أهى روايةٌ تمثيلية يُلصِقُ الإعلانَ عنها في كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجدَ والمقابرَ والشوارعَ تقول : أخزاه الله !

المجلد الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلا حماراً أشهبَ يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسه مُحْتَسِباً لغاية خبيثة ؛ فهو يدورُ على حماره هذا في الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فن وجدّه قد غشَّ ؛ أمرَ الأسودَ ف... ! ووقف هو ينظر ويقول للناس : انظروا ... !

ومن غَلَبَةِ الفُسُوقِ على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حمزة بن علي) نَوَّه بالحمار في كتابه وأومأ إليه بالثناء ، لخصال : منها أن ... ! وكتب حمزة هذا في بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهلُ الفساد بجوار البساتين التي يمرُّ بها (الفاسق) من المنكر والفحشاء - إنما يُرتكَب في طاعته ... !

هذه طبيعة كلِّ حاكمٍ فاسقٍ مُلحد ، يرى في نفسه رذائله عُريانةً ، فلا يكونُ كلامه وعمله وفكره إلا فُحْشاً يتعرَّى ؛ وإن في هذا الرجل غريزة فسقٍ بهيمية متصلةً بطور الحيوان الإنساني الأول ؛ فما من رَيْب أن في جسمه خلية عصبية مُهْتَاجَةٌ ، ما زالت تَسْبَحُ بالوراثة في دماء الأحياء ، متلففةً على خصائصها ، حتى استقرَّت في أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرت بكل تلك الخصائص .

ولستُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مَرَدِّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدمَ الإسلام ، لأنه دينُ العفة ودينُ صَوْنِ المرأة ، يلزمها حجابَ عِفَّتِها وإبائها ، ويمنعها الابتذالَ والحلاعة ، ويُعينها أن تتخلَّصَ ممن يشتهيها ، ولو كان الحاكم ... إنه يمقتُ هذا الدينَ القوي ، كما يمقتُ اللصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يتقلُّ على غريزته الفاسقة ، ولكلُّ غريزة في الإنسان شعورٌ لامهَّنْأها إلا أن يكونَ حرّاً حتى في التوهّم ؛ وهل يُعجِبُ الكثيرُ شيءٌ أو يُرضيه أو يَلذّه ، كما يُعجبه أن يرى الناسَ كلَّهم سُكّارى ؛ فَيَسْنُثِي هو بالخمِر ، وتسكّر غريزته برؤية السكر ؟

وما زال رأى الفُسّاق في كل زمن أن الحريةَ هي حرية الاستمتاع ، وأن تقييدَ اللذة إفسادٌ لِلذَّة .

المجلد الخامس

يزعم الطاغية أنه يُعزِّزُ قومه ، وما أراه يُعزِّهم ، لكنه يمتحنُ ذلَّهم وضعفهم وهوانهم على الأمم ؛ يتجرَّأُ شيئاً فشيئاً ، مُتَنَظِّراً ما يَتَسَهَّلُ ، مترقباً ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا ؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاقَ ويظنُّ عند نفسه أنه يهدمُ قُبوراً لا أخلاقاً .

ولقد سَخِرَ منه المصريون بنكتة من ظرْفهم البديع ، وجاءوه من غريزته ، فصنعوا امرأةً من الورق الذى يُشَبِّهُ الجلد ، وألبسوها خُفَّها وإزارها ، حتى لا يشكَّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قِصَّةً وأقاموها فى طريقه ؛ فلما رآها عدلَ إليها وأخذَ من يدها القِصَّةَ وقراها ، فإذا فيها سَبُّ له ولآبائه ؛ وسخريةٌ من جنونه ورُعُونته المضحكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةٌ أخرى حين تحقَّق أنها من الورق ، وأخذته النكتةُ الظريفةُ بمثل البرق والرعد ؛ فاستشَّطَ وأمر عبده من السودان بتحريق الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسبِّ النساءِ والفُجُورِ بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد ، بعد أن طارت الزوجة السوداء فى بياض الأعراض .

اندلعت ثورةُ الفُجُورِ فى المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيقِ المستقرِّ فى هذا الطاغية .

المجلد السادس

وهذه رُعُونَةٌ من أقبح رُعُوناته ، كأن هذا الحيوانَ لا يحسبُ نساءَ الأمة كلَّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمرِ أمرائه ، وكأن النساءَ فى رأيه إن هُنَّ إلا استجاباتٌ عصبيةٌ تُطلَقُ وتُردُّ .

إن لموجةَ الفسقِ فى الغريزة الطاغيةَ جزراً ومدّاً يقعان فى تاريخِ الفُسَّاقِ ؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجةَ ، فأمر أن يُمنَعَ النساءُ من الخروجِ ليلاً ونهاراً ، لا تَطَأُ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأةٍ ، وأمرَ الخفَّافين ألا يصنعوا لهنَّ

الأخفاف والأحذية ؛ ولما علم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هَدَمَ الحمامات عليهن !

ولو مدَّت الموجةُ في تفسق الفاسق لَفَرَّضَ على النساء الخروج والاتصال بالرجال والتعرض للإباحة .

إن الصلاح والفساد كلاهما فساد ما لم يكن الصلاحُ نظافةً في الروح وسموًا في القلب .

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيَهْدِم كلَّ قديم ؛ وإني لأخشى والله أن يأمر الناس في بعض سَطَوَاتِ جنونه : أن لا يَأكُلَ من كان له أبٌ أو أمٌ بلغ الستين فليقتله ، لتخلص الأمةُ من قديمها الإنساني . . . !

كأنه لا يعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصِرِهِ لا على التاريخ ، ويحكمُ على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلكَ حتى ينبعثَ في الدنيا شيطان : نَتْنُ رِمَتِهِ في بطن الأرض ، ونَتْنُ أعماله على ظهر الأرض . إن هذا الرجلَ المسلَّطَ ، كالغبارِ المُسْتَطَار لا يُكَنَسُ إلا بعد أن يقَع . . .

ولقد رأى المأفونُ أن أكلَ الناس الملوخيةَ والخضراءَ والفقَّاعَ ، والثرمُسَ والجرجيرَ ، والزبيبَ والعنبَ - هوَّى قديمٌ في طباع الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لا يُباع ولا يُؤكل ، وظهر على أن جماعةً باعوا أشياء منها فضربهم بالسيَّاط ، وأمر فطيف بهم في الأسواق ، ثم ضرب أعناقهم ؛ كأن الذي يحملُ الملوخيةَ الخضراءَ على رأسه لبيعتها يلبس عمامة خضراء . . .

أهذا - ويَحَنه - تجديدٌ في الأمة ، أم تجديدٌ في المعدة . . . ؟

المجلد الثامن

لا يرضى الطاغية إلا أن يَمَحَقَ روحانية الأمة كلها ، فلا يترك شيئاً روحانياً له في أعصاب الناس أثرٌ من الوقار ، وبمن يَسْتَظْهِرُ - ويُلْه - إذا مُحِقَتْ روحانية الأمة وأشرفت نزعُها الدينية على الانحلال ؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمة من الأمم إنما تُسْتَمَدُّ من إيمانها بالمثل الأعلى الذى يدفعها فى سِلْمِها إلى الحياة بقوة ، كما يدفعها فى حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تُقَرَّرُ فى الأرض بضعة مبادئ دينية .

هذا الحاكم الأخرق هو عندى كالذى يقول لنفسه : لم أستطع أن أفتح دولة ، فلأفتح دولةً فى مملكتى . . . لقد أمر بهدم الكنائس والبيع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ونيّفًا .

أى مجنون أسخف جنوناً من هذا الذى يحسب النفوس الإنسانية كالأخشاب ؛ تَقْبَلُ كلها بغير استثناء أن تُدَقَّ فيها المسامير . . . ؟ سيعلم إذا نَشِبَتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسر أشدَّ سيوفه مضاء حين كسر الدين !

المجلد التاسع

هذه هى الطامة الكبرى ؛ فلا أدري كيف أكتبُ عنها : لقد تطاول المجنون إلى الألوهية فادَّعَاها ، وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن ! لو كان أغبى الأغبياء فى موضعه لَاتَّقَى شيئاً ، لا أقولُ تقوى الدين والضمير ، ولكن تقوى النفاق السياسى ؛ فكان يحملُ الناس على أن يقولوا عنه : « أبانا الذى فى الأرضين . . . ! »

ولأفأى جهلٍ وخَبْطٍ ، وأى حُمقٍ وتَهوُّر ، أن يكونَ إلهٌ على حمار ، وإن كان اسمُ حمارة القمر !

المجلد العاشر

سيأخذُه الله بامرأة ؛ ولكل شيء آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وقاحة غريزته أن اثْتَفَكَ أخته الأميرة (ست الملك) ، ورماها بالفاحشة ، وهى من أزكى النساء وأفضلهن ، واتهما بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد علمت أنها تُدَبِّرُ قتله ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأسيكُ عن الكتابة فى هذا المجلد ، وأدع سائرَه بياضًا حتى أذهبَ إليهما فأعينهما بما عندى من الرأى ، ثم أعود لتدوين ما يقع من بَعْد . . .

* * *

ورأيتُ أنى اجتمعتُ بهما واطمأنَّا إلىَّ ، فأخذنا نُديرُ الرأى :
 قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته : « والرأى عندى أن تُسَبِّعَه غلمانًا بقتلونه إذا خرج فى غد إلى جبل المقطم ، فإنه ينفرد بنفسه هناك ! » .
 فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير » .
 قالت : « فما الرأى والتدبيرُ عندك ؟ » .

قلت : « إن لنا علمًا يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحَّ عندى من هذا العلم أن الرجل طائشُ الغريزة مجنونُها ، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التى تنبعثُ من جسم المرأة هى التى تنفجرُ فى مخه مرةً بعد مرة ؛ فإذا خَبَتْ هذه الأشعة ، وبطلت الغريزة ، بطلت دواعى أعماله الخبيثة كلها ، وكفَّ عن محاولته أن يجعل الأمة مملوءة من غرائز جسمه وشهواته ، لا من فضائلها ودينها . فلو أخذتم برأى وأمضيتُموه فإنه سيُسَكِّرُ أعماله إذا عرضها على نفسه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياته قد نطقَتْ بكلمتها الصحيحة كما نطقَتْ بكلمتها الفاسدة ؛ فإذا . . . » .

قال الأمير : « فإذا ماذا ؟ » .

قلت : « فإذا خُصِّى . . . » .

فضحكتُ ستُّ الملك ضحكةً رنَّتُ رنيناً .

قلت : « نعم إذا خُصِّي هذا الحاكم . . . » .

فغلبها الضحكُ أشدَّ من الأول ، ورمتني بمنديلٍ لطيف كان في يدها
أصاب وجهي ، فانتبهتُ وأنا أقول :

« نعم إذا خُصِّي هذا الحاكم » .

كُفْرُ الذُّبَابَةِ * ...

قال كَلِيلَةُ^(١) وهو يَعِظُ دَمْنَةً وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ؛ وكان دَمْنَةُ قد داخلته الغرورُ وزَهَاهُ النَّصْرُ ، وظهر منه الجفاء والغِلْظَةُ ، ولقى الثعالبُ من زيغهِ وإلحادهِ عَنَتًا شديداً :

... واعلم يا دمنَةُ أن ما زعمته من رأيك تاماً لا يعتريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذي لم يتم ؛ والغرورُ الذي تُثبِت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء ، لعله هو الذي يُثبِت أن غيرَ رأيك في الآراء هو الصحيح .

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذى خيال ، اصدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعم ، ولو صدَقَ كلُّ إنسانٍ فيما يزعمُ ، لكذبَ كلُّ إنسانٍ ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضهم ببعض ، ليجيء حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبرُ ، ويثبتُ الكبيرُ من الصوابِ على موضعه فلا يُنتَقَصُ ، ويصحُّ الصحيحُ ما دامت الشهادةُ له ، ويفسُدُ الفاسدُ ما دامت الشهادةُ عليه ، وما مثْلُ هذا إلا مثْلُ الأرنبِ والعلماء .

قال دمنَةُ : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنباً سمعت العلماء يتكلمون في مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذَنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تكونُ القارعةُ ؛ فقالوا : إن في النجومِ نجوماً مُدَنَّبَةً ، لو التفت ذنَبُ أحدها على جِرْمِ أرضنا هذه لطارت هـَوَاءً كأنها نفخةُ النافخِ ، بل أضعف منها كأنها زفرةُ صدرٍ مريضٍ ، بل أوهى كأنها نفخةُ شفتين . فقالت الأرنب : ما أجهلكم أيها العلماء ! قد والله خرفتمُ وتكذبتُم واستَحْمَقْتُم ؛ ولاتزالُ الأرضُ بخيرٍ مع ذَوَاتِ الأذنان ؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا — قالوا : وأرثهم ذنَبُهَا ... !

قال كَلِيلَةُ : وكم من مغرورٍ يُنْزَلُ نفسُهُ من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنبِ

* انظر « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » .

(١) كَلِيلَةُ دمنَةُ هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي ، يعتمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل والمحاورة .

(الرسالة)

وانظر مقالة (فلسفة الطائشة) في الجزء الأول .

من أولئك العلماء ؛ فيقول : كذبوا وصدقتُ أنا ، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ ،
والتبس عليهم وانكشف لي ، وهم زعموا وأنا المستيقن . ثم لا دليل له إلا مثل
دليل الأرنب الخرقاء من هنة تتحرك في ذنبها .

وكان يُقال : إنه لا يُجاهرُ بالكفر في قومٍ إلا رجلٌ هان عليهم فلم
يحبوا به ، فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعأ بهم ، فهو الأعزُّ
الطاغية ؛ ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادة حُقمه ، وهذا
يخشونه فيتركون معارضة وعليه شهادة ظلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا .

وقالت العلماء : إن كنت حاكماً تشنق من يخالفك في الرأي ، فليس في
رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنت تقتل من ينكر عليك الخطأ ، فليس
لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففك
عقلٌ اسمه العجدار ؛ أما إن كنت تناظر وتجادل ، وتنع وتقتنع ، وتدعو
الناس على بصيرة ولا تأخذهم بالعَمى — ففك العقل الذي اسمه العقل .

* * *

قال كليله : وأنا يا دمنة ، فلو كنتُ قائدًا مُطاعاً ، وأميراً مُتَّبِعاً ، لا يُعصى
لى أمر ، ولا يرد علقى رأى ، ولا ينكر منى ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ ،
ولا يقال لى دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبت ، ثم هى دائماً أصبت ؛ ولا يلقانى
أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى ، رهبة من سخطي رهبة الجبناء ، أو رغبة
في رضائى رغبة المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد صحت نياتهم وخلص
باطنهم جميعاً — فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالى نقصهم إلى نقص العقل
بعد كماله ، وردتني فسولتهم إلى فسولة الرأى بعد جودته ، فأخلق بى أن أعتبر
وضعهم إياى فى موضع الآلهة ، هو إنزالهم إياى فى منزلة الشياطين ؛ وإلا كنتُ
حقيقاً أن يُصينى ما أصاب العنز التى زعموا لها أنها أنثى الفيل

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان فى إحدى خرائب الهند جماعة من العطاء ، وكان
فيها عضر فوط كبير^(١) ، فملكته الجماعة وذهبت تأتمر على أمره وتنتهى .

(١) العطاء : جمع عطاء وعطاية ، وهى هذه الدويبة التى يقال لها (السحلية) ، والعضر فوط :

ضرب من العطاء يكون أكبر منها .

فَرَّ بِهَذِهِ الْحَرِيَّةِ فِيلٌ جَسِيمٌ مِنْ الْقَيْسَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ ، لَمْ يُحْسِ بِالْعِظَاءِ ، وَلَمْ يَمِيزْ فَرَقًا بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَبَيْنَ الْحَصَى مَثُورًا يَلْتَمِيعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهَنَا ؛ قَالُوا فَغَضِبَ الْعَضْرَفُوطُ ، وَكَانَ قَائِدًا عَظِيمًا ، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي مَدَافِعَتِهِ ، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ ؛ فَرَأَاهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَسْقُلُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً ؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أْزَالَ قَدَمَ الْفِيلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفِيلُ نَفْسُهُ ؛ فَجَاءَ فَاعْتَرَضَ الطَّرِيقَ ، وَدَبَّ دَبِيهَ ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفِيلُ قَدَمَهُ اهْتَبَلَ هَذِهِ الْغَفْلَةَ مِنْهُ . . . وَانْدَسَ تَحْتَهَا ، فَاَنْدَسَ مَقْبُورًا فِي التُّرَابِ !

ثُمَّ إِنَّ الْعِظَاءَ افْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا . فَلَمَّا مَضَى الْفِيلُ لِسَبِيلِهِ وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا ، نَفَسَتْ إِلَى أَجْحَارِهَا ، وَاسْتَكْنَتْ فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَرَبِّصُ ، فَدَخَلَتْ إِلَى الْحَرِيَّةِ عَسْرًا جَعَلَتْ تَتَقَمُّ مِنْهَا وَتَسْرَتُّعُ فِيهَا ، وَرَأَتْهَا الْعِظَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتَسِرْنَ . . . فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ : هَذِهِ أَنْثَى الْفِيلِ . فَسَأَلَتْ عِظَايَاةً مِنْهُنَّ : وَأَيْنَ النَّابِانِ الْعَظِيمَانِ ؟

قَالَتِ الْأُولَى : إِنَّ الْإِنَاثَ دُونَ الذُّكُورِ فِي خَلْقِهَا ، وَالْأُنْثَى هِيَ الذُّكُورُ مَقْلُوبًا أَوْ مَخْتَصَرًا أَوْ مَشُوْهًا ، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَ نَهْجَهَا أَوْ يَشُوْهْنَهَا ، أَفَلَا تَرَيْنَ النَّابِينَ الْعَظِيمِينَ الْبَارِزِينَ فِي ذَلِكَ الْفِيلِ الْجَسِيمِ ، كَيْفَ نَسَبَتَا صَغِيرَيْنِ مَنْقَلِبَيْنِ فَوْقَ رَأْسِ أَثْنَاهُ . . . ؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ : إِنَّ جَازَ قَوْلِكَ فِي الرَّأْيِ فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ ؟

قَالَتِ الْآخَرَى : هُوَ هَذِهِ الزَّئِمَةُ الْمُتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا ، وَذَلِكَ خُرْطُومٌ عَلَى قَدَرِ أَنْوَةِ الْأُنْثَى . . . !

قَالُوا : ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُسَلِّكُنَّ أَنْثَى الْفِيلِ هَذِهِ ؛ وَأَنَّ يَهَبْنَ لَهَا الْحَرِيَّةَ وَأُمَّتَهَا . وَسَمِعَتِ الْمَاعِزَةُ كَلَامَهُنَّ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : لَا جَرَمَ أَنَّ تَكُونِ الْعَتْرُفِيلَةُ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْعِظَاءِ ، فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ ، وَلَا طَاغِيَةَ إِلَّا بِذَلِيلٍ ؛ وَإِنَّ الْعِظْمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهَادَةُ الْحَقَارَةِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَإِنَّهُ رَبُّ عَظِيمٍ طَاغِيَةٌ مُتَجَبِّرٌ مَا قَامَ فِي النَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقُومُ الْحِيلَةُ ، وَلَا عَاشَ إِلَّا كَمَا يَعِيشُ الْكَذَّابُ ، وَلَا حَكَمَ إِلَّا كَمَا يَحْكُمُ

الخِداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده ، فتي جاءت إليه فقد جاءت ، ولو أنها أدبرت عنه من ناحيةٍ لرجعت من ناحيةٍ أخرى ، لثبَّتَ الحظُّ أنه الحظ .

وتقدَّم العطاء إلى العنز ، فقلن لها : أيتها الفيلةُ العظيمة ، إن قرينك العظيم قد مسَّ أميرنا العَضْرَفُوطَ بقدمه فغيبه تحت سبعِ أرضين ، وأنت أثنائه وسيدته ، فقد اخترناكِ مَلِكَةً علينا ، ووهبنا لك الحربَةَ وما فيها .

قالت العنز : فإنِّي أتَهَبُ منكن هذه الهبة ، ونعيمًا صنعْتُنَّ ؛ غير أن بينكن وبينى ما بين العظائبة والفيل . وما بين الحصاة والجبل ، فإذا أنا قلتُ ، فأنا قلتُ ؛ وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمرتُ ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلتُ . هنا فى هذه الأمةِ كلُّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا فى هذا الرأس دماغَ فيلة ، وفى هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفى الحربة كلُّها فيلةٌ واحدةٌ ؛ فلا أعرفنَّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير . ألا وإن أولَ الحقائق أننى فيلةٌ وأنكنَّ عطاءً ؛ ومتى بدأ اليقينُ من هنا سقطَ الخلافُ من بيننا وبطلَ الاعتراضُ منكن ، وقوتى حقٌّ لأنها قوة ، وباطلى كذلك حقٌّ لأنه من قوتى ؛ وقد قال أسلافنا حكماءُ الفيصلة : إن القوى بين الضعفاء مَشِيئَةٌ مُطْلَقَةٌ ، فهو مُصْلِحٌ حتى بالإفساد ، حكيمٌ حتى بالحماسة ، إمامٌ حتى بالخرافة ، عالمٌ حتى بالجهالة ، نبيٌ حتى بالشعوذة . . . !

قالوا : وتُنكِرُ عليها عطاءيةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانت ذات رأى ودينٍ فى قومها ، وكنَّ يُسميْنَهَا : (العِمَامَةِ) ، لبياضها وصلاحتها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تَخَرَّصْتُ غيرَ الحق ؛ فإنك تحكمتنا من أجلنا لامن أجلك ، وما قولك إلا كلماتٌ تُحَقِّقُهَا أعمالُنا نحن ؛ فللك الطاعةُ فيما يُصلِحنا ، وما كان من غيره فهو ردٌّ عليك ، ورأيتُ شئاً ينبغى أن تكونَ معه آراؤنا ، لتتبيَّنَ الأسبابُ أسبابُ الموافقةِ والمخالفةِ ، فنأخذُ عن بيئته ونتركُ عن بيئته ؛ وقد كان يقال فى قديم الحكمة : إنه يجب على مَنْ يقدِّم رأياً للأمةِ الخازمة كى تأخذَ به ، أو يضعَ لها شرعاً ليحمِلَها عليه ، أو يسنَّ لها سنةً لتتبعَها — إنه يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمة أو تحريرها أن

يتقدّم لأهل الشورى وفي رأسه الرأى ، وفي عنقه حبيل ؛ ثم يتكلّم برأيه ويَبْسُطُهُ ويدفعُ عنه ، ويجادلُهم ويجادلونه ؛ فإن كان الرأى حقاً أخذوا الرأى ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنعوا فيه هذا المتهوّر .

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصية أخرى ؛ ولقد كان لنا عَضْرُ فَوْطُ بِجَانَّةٍ في الأديان دَرَّاسَةٌ لِكِتَابِهَا عَلَامَةٌ نِقَابٌ ؛ فكان مما علّمنا : أن المخلوق مبنى على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألاّ يتمّ منه شيء إلا بمقدار ، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التام في الأرض هو مجموع العقول العظيمة كلّها ، وكان أتم الآراء وأصحّها ما أثبتت الآراء نفسها أنه أصحّها وأتمّها . فلا الدين اتبعت أُنْهَا القيلةُ ، ولا اتبعت فينا العقل ، وليس إلا هذا (التفيّل) الكاذب .

فلما سمعت العنزر ذلك تنقّشت وغضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترهات من ألسنتكم ، وهذه الأباطيل في عقولكم ؛ لا أستمعن منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العصافيط . . . فذلك وحى غير وحى أنا ؛ وإذا كان غير وحى أنا فأنا لست فيه ، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذى شرّطه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غُرَبَاءَ عني جعلني غريبةً عنكم ، ما بدّ من إحدى الغربتين ، فهو أوّل القطيعة ، والقطيعة أوّل الفساد . وما دام في الدين أمرٌ غير أمرى ، ونهْيٌ غير نهْيى ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتي — فأنا مجنونةٌ إن رضيت لكم هذا . . . !

فضَحِكْتَ (العِمَامَة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونةٌ بي (أنا) ؛ أفلا يجوز وأنت خلقت من الخلق أن يعترى عقلك شيء مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قوية الرأى في ناحية القوة ، حسنّة التدبير في ناحية الشجاعة ، متجاوزة المقدار في ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المسرفة في جهة من العقل ، تأتى من النقص المتحيّف لجهة أخرى ؛ وإنه ربّ عقل كان تاماً عبثيّاً في أمور ، لأنه ضعيفٌ أبلهٌ في غيرها ؛ يحسن في تلك ما لا يحسنه أحد ، ويحكم منها ما لا يحكمه أحد ، ثم يغلط في الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه ؟

قالوا : فجاشت العز وفارت من الغضب فورة الجبار ، وخيل إليها من عَمَى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء ، وأن زَئمتها امتدَّ منها خرطومٌ طويل ، وأن قرنيها انبَعَجَ منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويحكم ! خذوا هذه (العمامة) فاشفقوها ؛ فإنها كما قالت ؛ تقدّمت إلينا بالرأى والحبل . . . !

وكان في العظاء ضعافٌ ومهازيلٌ وجُبْناءٌ ، ومأكولون لكلِّ آكل ؛ فتشَبَّحَ^(١) لهم أن أنثى الفيل هذه . . . ستَخْلُقُهُمْ فَيْكَلُ إن هم أطاعوها ؛ فإذا مرَدُّوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيث تجعل كلَّ ظليف من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظلَّةٌ فتسوخُ بهم الأرض . ثم إنهم انخرلوا وتراجعوا ، وأخذت (العمامة) الصالحة فشَنَقَتْ ، وخمدت الرأى من بعدها ، وانقطع الخلاف والدين والعقلُ الحرّ . . . ؛ وأقبلت دولة العظاء على العز تجرُّ أذيالها .

قالوا : واغررت الماعزة وأحسَّت لها وجوداً لم يكن ، وعرفت لنفسها وهى ما عزةٌ نباهةٌ شأنِ الفيل القوى ، فلما جئت فى عَمَائِيتها وكفرت بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فَيْلَةً وخلقْتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنزٍ فى الدنيا ؛ وذهبت تقلدُ وتعيشُ على مذاهبِ الفَيْكَلَةِ بين العظاء ؛ فإذا مشت ارتجَّت وتخطرت كأنها بناء يتقلقل ، وإذا اضطجعتْ أذرت الأرض أن تَتمسَّكْ لاتدُّكها بعينها . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الحرابِ مرَّةً أخرى ، فلاذت العظاءُ كلُّهنَّ بالفيلة . . . وتأهبت هذه للقتال ، وتحصَّفت فى المبارزة والمناجزة . . . (والمعانزة) فنصبَتْ قرنيها ، وحركت زئمتها ، وطأطأت ، وشدتْ أظلافها فى الأرض ، وثبتت قوائمها ، وصلبت عظامها ، ونفشت شعرها ، وتسوَّكت كالقنفذ ، وأصرَّت بكلِّ ذلك لإصرارها ، وكانت عنزاً نطِيحةً منذ كانت تتسبَّعُ أمَّها وتتلوها ، فكيف بها وقد تَفَيَّلت . . . ؟

ثم إنها ثبتت فى طريقِ الفيل ليرى بعينه هذا الهولَ الهائل . . . فأقبل ،

(١) أى خيل إليهم وتمثل .

فَدَنَّا خَرطومَه ، فَنالَها به ، فَلَفَّها فيه ، فَقَبَضَه ، فَرَفَعَه ، فَطَوَّحَها ، فَكأَنما ذهبت في السماء . . !

وَتَهَارَبَتِ العِظَاءُ وَلُدْنَ بِأَجْجَهارهن ، ثُمَّ غَدَوْنَ عَلَى رِزْقهن ؛ فإذا جِيفَةُ العِزِّ غَيْرَ بَعِيدَ ، فَدَبَبْنَ عَلَيْها وَارْتَعَيْنَ فيها ، وَعِلِمْنَ أَنَّها كانت ماعِزَةً فَسَلَّها جَنونُها ، وَأَدركن أَنَّ الكَذِبَ عَلَى الحَقائِقِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ حَقائِقَ أُخْرى تَقْتُلُه ، وَأَنَّ مِنْ غَلَبَ أُمَّةِ العِظَاءِ عَلَى أَمْرها فَلَيْستِ الأَيامُ وَاللَّيالي عِظَاءَ فيَغْلِبُها ؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ المَخْلوقاتِ ، إِنما يَكُونُ بِتَحْوِيلِ باطنها لا بِتَحْوِيلِ ظاهرها ، وَأَنَّ الإِناءَ الأَحْمَرُ يُرِيكُ المَاءَ مُحْمَرًا وَالْماءُ فِي نَفْسِهِ لَأَحْمَرَةٌ فِيهِ ، حَتَّى إِذا انكَسَرَ الإِناءُ ظَهَرَ كَما هُوَ فِي نَفْسِهِ ؛ وَكُلُّ ما يُخْفِي الحَقَّ هُوَ كَهذا الإِناءِ : لَوْنَ عَلَى الحَقِّ لَا فِيهِ ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مَحاوِلَةَ إِخْراجِ أُمَّةٍ كَاملةٍ مِنْ نَزْعَاتِ ماعِزَةٍ مَأْفُونَةٍ ، هِيَ كَمَحاوِلَةِ اسْتِيلادِ الفِيلِ مِنَ الماعِزَةِ . . . !

* * *

قال كليله : واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنز الحمقاء قد كفرت كفرت الذبابة ، لما أخذها الله أخذ الذبابة .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابة سوداء كانت من حسمى الذبان ، قد رت الحماقة عليها أبدية ، فلو انقلب نقطة حبر في دواة لما كتبت بها إلا كلمة سخر . وقعت هذه الذبابة على وجه امرأة زنجية ضخمة ، فجعلت تقابل بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدل الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مرسى كيف يتفق على ما يتفق ، عبثا في عبث ، ولا ريب أن الأنبياء قد كذبوا الناس ، إذ كيف يستوى في الحكمة خلقي (أنا) وخالق هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقها . . . ؟

ثم نظرت ليلة في السماء ، فأبصرت نجومها يتلألأ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليل آخر على ما تتحقق عندي من فوضى العالم ، وكذب الأديان ، وعبث المصادقات ؛ فما الإيمان بعينه إلا الإلحاد بعينه ، ووضع العقل في شيء هو إيجاد الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض

ورفعُ هذا الذَّبَّانِ الأبيضَ وَيَعْسُوبِيهِ الكبير^(١) إلى السماء . . ؟

ثم إنها وقعتْ في دار فَلَاحٍ ، فجعلتْ تمرُّ فيها ذهاباً وحيثاً ، حتى رجعتْ بقرةُ الفَلاحِ من مَرعَها ، فبُهِتَتِ الذبابةُ وجمَدَتْ على غُرَّتِها من أوَّلِ النهارِ إلى آخره ، كأنها تُزاولُ عملاً ؛ فلما أُمِسَتْ قالتْ : وهذا دليلُ أكبرِ الدليلِ على فَوْضَى الأرزاقِ في الدنيا ، فهاتان ذبابتان تد ثَقَبَتَا ثُقُبَيْنِ في وجهِ هذه البقرة . . واكْتَنَتَا فيهما تَأْكُلانِ من شَحْمِها فَتَعْظُمَانِ سَمَنًا ؛ والناسُ من جهلهم بالعلمِ الذَّبَّابِيَّ يسمونهما عينين . . . وأنا قضيتُ اليومَ كُلَّهُ أُخْمِشُ وأَعْضُ وأُلْسَعُ لأنْقَسَبَ لِي ثَقْبًا مثلَهُما فما انزعَتْ شُعْرَةٌ ؛ فهل يَسْتَوِي في الحِكْمَةِ رزقي (أنا) ورزقي هاتينِ الذبابتينِ في وجهِ البقرة . . ؟

ثم إنها رَأَتْ خُنْفُسَاءَ تَدِبُ دِيبِها في الأرواثِ والأقذارِ ؛ فنظرتْ إليها وقالتْ : هذه لا تَصْلُحُ دليلاً على الكفرِ ؛ فإنِّي (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لِي أجنحةٌ وليس لها ، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثَقِيلَةٌ ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمةٌ من ذُبَابِ القرونِ الأولى ، ذلك الذي كان بليداً لا يتحركُ فلم تجعلْ له الحركةُ جَنَاحاً^(٢) . ثم إنها أَصْغَتْ فسمعتْ الخنفساءَ تقولُ لأخرى وهي تحاورها : إذا لم يجدِ المخلوقُ أَنَّهُ كما يشتهي فليكْفُرْ كما يشتهي ؛ يا ويحنا ! لِمَ لم نَكُنْ جاموساً كهذا الجاموسِ العظيمِ ، وما بيننا وبينه فرقٌ إلا أَنَّهُ وَجَدَ من يَنْفُخُهُ ولم نجد . . ؟

فقالتِ الذبابةُ : : إن هذا دليلُ العَقْلِ في هذه العاقلة ، ولَعَمْرِي إنها لا تَمْشِي مَثاقِلَةً من أَنها بطيئةٌ مُرَهَقَةٌ بَعَجْزِها ، ولكن من أَنها وَقُورٌ مَثَقَلَةٌ بأفكارها ، وهي الدليلُ على أَنِّي (أنا) السابقةُ إلى كشفِ الحقيقةِ . . !

وجعلتِ الذبابةُ لا يَسْمَعُ من دَنَدَنَتِها إلا ، أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . من كُفْرٍ إلى كُفْرٍ غَيْرِهِ ، إلى كُفْرٍ غَيْرِها ؛ حتى كَأَنَّ السَّمَاوَاتِ كُلَّها أَصْبَحَتْ في معركةٍ مع ذبابةٍ

(١) اليسوب : أمير النحل والذبَّان ونحوهما ، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض

(٢) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا .

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تسعى سعيَها ؛ فبينما الذبابةُ
على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتُها نفسها ، فوقفت
تلحكُ ذراعَها بذراعها — دنتُ بطةً صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس ،
فدنتُ منقارها ، فالتقطتها .

ولما انطبق المِنقارُ عليها قالت : آمَنْتُ أنه لا إله إلا الذي خَلَقَ

البطة . . . !

يا شباب العرب !

يقولون : إن في شباب العرب شيخوخةَ الهِمَمِ والعزائم ؛ فالشبانُ يمتدّون في حياة الأمم وهم ينكمشون .
وإن اللهو قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجِدِّ ، فأهملوا الممكِناتِ فرجعتْ لهم كالمستحيلات .
وإن الهزلَ قد هوَّنَ عليهم كلَّ صَعْبَةٍ فاختصروها ؛ فإذا هزءُوا بالعدوِّ في كلمة فكأنما هزموه في معركة . . .
وإن الشابَّ منهم يكونُ رجلاً تاماً ، ورجولةُ جسمه تخرجُ على طفولةِ أعماله .

ويقولون : إن الأمرَ العظيمَ عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تَبَعَةَ أمرٍ عظيم .

* * *

ويزعمون أن هذا الشبابَ قد تَمَّتْ الألفَةُ بينه وبين أغلَاطِهِ ، فحياتُهُ حياةُ هذه الأغلَاطِ فيه .
وأنه أبرعُ مقلِّدٍ للغرب في الرذائلِ خاصة ؛ وبهذا جعله الغربُ كالحيوانِ محصوراً في طعامِهِ وشرابِهِ ولدَاتِهِ .
ويزعمون أن الزجاجةَ من الخمرِ تعملُ في هذا الشرقِ المسكينِ عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتح . . .
ويتواصون بأن أولَ السياسةِ في استعبادِ أُمَمِ الشرقِ ، أن يُشْرَكَ لهم الاستقلالُ التامُ في حرية الرذيلة . . .
ويقولون : إنه لا بد في الشرقِ من آلتين للتخريب : قوةِ أوربا ، ورذائلِ أوربا .

* * *

يا شباب العرب ! مَنْ غيرُكم يكذبُ ما يقولون ويزعمون على هذا الشرقِ المسكين ؟

مَنْ غيرُ الشباب يضع القوةَ بإزاء هذا الضعيفِ الذى وصفوه لتكونَ جواباً عليه ؟

من غيركم يجعل النفوسَ قوانينَ صارمة ، تكون المادةُ الأولى فيها : قدَرنا لأننا أردنا ؟

ألا إن المعركةَ بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسية ، إن لم يُقتلْ فيها الهزلُ قُتلَ فيها الواجب !

والحقائقُ التى بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون فيكم أنتم بحشوها التحليلى ، تكذبُ أو تصدُق .

* * *

الشبابُ هو القوة ؛ فالشمس لا تملأُ النهارَ فى آخره كما تملؤه فى أوله .
وفى الشباب نوعٌ من الحياة تظهرُ كلمةُ الموتِ عنده كأنها أختُ كلمةِ النوم .

وللشباب طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثقةُ بالبقاء ، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزم .

وفى الشباب تصنعُ كلُّ شجرةٍ من أشجار الحياة أثمارها ؛ وبعد ذلك لاتصنع الأشجارُ كلها إلا خشباً . . .

يا شباب العرب ! اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرقُ عزيزاً ، وإما أن تموتوا .

* * *

أنقذوا فضائلنا من رذائلِ هذه المدنية الأوربية ، تنقذوا استقلالنا بعد ذلك ، وتنقذوه بذلك .

إن هذا الشرقَ حين يدعو إليه الغرب ، « يدعو لِمَنْ ضرتهُ أقربُ من نفعه ؛ لسيئس المولى ولبئس العشير » .

لَبَسَ المول إذا جاء بقوة وقوانينه ، ولبس العشير إذا جاء برذائله وأطماعه .

أيها الشرقي ! إن الدينارَ الأجنبيَّ فيه رصاصةٌ مخبوءة ، وحقوقنا مقتولةٌ بهذه الدنانير .

أيها الشرقي ! لا يقولُ لك الأجنبيُّ إلا ما قال الشيطان : « وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتمُ لي » .

* * *

يا شبابَ العرب ! لم يكن العسيرُ يَعْسرُ على أسلافكم الأولين ، كأن في يدهم مفاتيحَ من العناصر يفتحون بها .

أتريدون معرفةَ السر ؟ السرُّ أنهم ارتفعوا فوق ضعفِ المخلوق ، فصاروا عملاً من أعمال الخالق .

غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر ، ومعنى الخوف ، والمعنى الأرضي .

وعلمهم الدينُ كيف يعيشون بالذات السماوية التي وَضعت في كل قلبٍ عظمتَه وكبرياءه .

واخترعهم الإيمانُ اختراعاً نفسياً ، علامتهُ المسجلةُ على كل منهم هذه الكلمة : لا يذِلُّ .

* * *

حين يكونُ الفقرُ قلةَ المال ، يفتقرُ أكثرُ الناس ، وتنخذلُ القوةُ الإنسانية ، وتهلكُ المواهب .

ولكن حين يكونُ فقرُ العملِ الطيب ، يستطيع كل إنسان أن يغتنى ، وتنبعثُ القوةُ وتعملُ كل موهبة .

وحين يكون الخوفُ من نقص هذه الحياةِ وآلامها ، تفسرُ كلمةَ الخوفِ مائةً رذيلةً غيرِ الخوفِ .

ولكن حين يكونُ من نقص الحياةِ الآخرةِ وعذابها ، تُصبحُ الكلمةُ قانونَ الفضائل أجمع .

هكذا اخترع الدين إنسانه الكبير النفس الذى لا يقال فيه : انهزمت نفسه .

* * *

يا شباب العرب ! كانت حكمة العرب التى يعملون عليها : اطلب الموت
توهب لك الحياة .

والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل .
وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً ، إذ لا تكون الفكرة معها
إلا فكرة مقاتلة .

غريزة الكفاح يا شباب ، هى التى جعلت الأسد لا يسمن كما تسمن
الشاة للذبح .

وإذا انكسرت يوماً ، فالحجر الصلب إذا ترصرت منه قطعة كانت
دليلاً يكشف للعين أن جميعه حجر صلد .

* * *

يا شباب العرب ! إن كلمة (حتى) لاثخا فى السياسة إلا إذا وضع قائلها
حياته فيها .

فالقوة القوة يا شباب ! القوة التى تقتل أول ما تقتل فكرة الترف
والتخنث .

القوة الفاضلة المتسامية التى تضع للأعداء فى كلمة (نعم) معنى نعم .

القوة الصارمة النفاذة التى تضع للأعداء فى كلمة (لا) معنى لا .

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزاً ، وإما أن
تموتوا .

لَوْ !

رَأَيْتُنِي جَالِسًا فِي مَسْرَحٍ هَزْلِيٍّ بِمَدِينَةِ اسْكَندَرِيَّةِ ، كَمَا يَجْلِسُ الْقَاضِي فِي جَرِيْمَةٍ يَحْمِلُ أَهْلُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ آثَامَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ، وَيَحْمِلُ هُوَ عَقْلَهُ وَحُكْمَهُ .

وَقَدْ ذَهَبْتُ لِأَرَى كَيْفَ يَتَسَاخَفُ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ؛ فَكَانَ حُكْمِي أَنَّ السَّخَافَةَ عِنْدَنَا سَخِيفَةٌ جَدًّا

رَأَيْتُهُمْ هُنَاكَ يَنْقُدُونَ الْعُيُوبَ بِمَا يُسْنِئُ عُيُوبًا جَدِيدَةً ، وَيَسْتَبَحُونَ بِأَيْدِيهِمْ سَبَاحَةً مَاهِرَةً ؛ وَلَكِنْ عَلَى الْأَرْضِ لَا فِي الْبَحْرِ ، وَتَكَادُ نَظَرَتُهُمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ الْهَزْلِيَّةِ تَكُونُ عَمَى ظَاهِرًا عَمَّا هِيَ بِهِ حَقِيقَةُ هَزْلِيَّةٍ ؛ وَلَا غَايَةَ لَهُمْ مِنْ هَذَا التَّمْثِيلِ إِلَّا الرَّقَاعَةَ وَالْإِسْفَافُ وَالْخَلْطُ وَالْهَذْيَانُ ، إِذْ كَانَ هَذَا هُوَ الْأَشْبَهَ بِجُمْهُورِهِمُ الَّذِي يَحْضُرُهُمْ ، وَكَانَ هُوَ الْأَقْرَبَ إِلَى تِلْكَ الطَّبَاعِ الْعَامِيَةِ الْبَلِيدَةِ الَّتِي اعْتَادَتْ مِنْ تَكْلُفِ الْهَزْلِ مَا جَعَلَهَا هِيَ فِي ذَاتِ نَفْسِهَا هَزْلًا يُسْتَخَرُ مِنْهُ .

وَلَا أَسْخَفَ مِنْ تَكْلُفِ النُّكْتَةِ الْبَارِدَةِ قَدْ خَلَّتْ مِنَ الْمَعْنَى ، إِلَّا تَكْلُفُ الضَّحِكِ الْمَصْنُوعِ يَأْتِي فِي عَقَبِهَا كَالْبِرْهَانِ عَلَى أَنَّ فِي هَذِهِ النُّكْتَةِ مَعْنَى . فَالْفَنُّ الْمَضْحَكُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ السَّخْفُ الَّذِي يُوَافِقُونَ بِهِ الرُّوحَ الْعَامِيَةَ الضَّيْقِيَّةَ الْكَاذِبَةَ الْمَكْدُوبَ عَلَيْهَا ، الَّتِي يَبْلُغُ مِنْ بِلَاهَتِهَا أحيانًا أَنْ تَضْحَكَ لِلنُّكْتَةِ قَبْلَ إِقَامَتِهَا ، لِقَسْرَةِ خَفَتِهَا وَرُعُونَتِهَا ، وَطُولِ مَا تَكْلُفَتْ وَاعْتَادَتْ . فَمَا ذَلِكَ الْفَنُّ إِلَّا مَا تَرَى مِنَ التَّخْلِيْطِ فِي الْأَلْفَاظِ ، وَالتَّضْرِيْبِ بَيْنَ الْمَعَانِي ، وَإِيقَاعِ الْغَلْطِ فِي الْمَعْقُولَاتِ ؛ ثُمَّ لَا تُثْمِرُ بَعْدَ هَذَا . فَلَا دَقَّةَ فِي التَّأْلِيفِ ، وَلَا عَمَقَ فِي الْفِكْرِ ، وَلَا سِيَاسَةَ فِي جَمْعِ النِّقَاطِصِ ، وَلَا نَفَاقَ فِي أَسْرَارِ النَّفْسِ ، وَلَا جِدَّ يُوْخِذُ مِنْ هَزْلِيَّةِ الْحَيَاةِ ، وَلَا عِظَمَةَ تُسْتَخْرِجُ مِنْ صِغَائِرِهَا ، وَلَا فِلَسْفَةَ تُعْرِفُ مِنْ حِمَاقَاتِهَا .

وَالْفَرْقُ بَعِيدٌ بَيْنَ ضَحِكِ هُوَ صِنَاعَةُ ذَهْنٍ لِتَحْرِيكِ النَّفْسِ ، وَشَحْنُ الطَّبِيعِ ، وَتَصْوِيرِ الْحَقِيقَةِ صُورَةً أُخْرَى ، وَبَيْنَ ضَحِكٍ هُوَ صِنَاعَةُ الْبِلَاهَةِ لِلْهُوِ وَالْعَبَثِ ، وَالْمَسْجَانَةِ لِأَغْيَرِ .

وكان معي قريب من أذكىاء الطلبة المتخصصين للآداب الإنجليزية ، فلم نلبث إلا يسيراً حتى جاء ثلاثة من ضباط الأسطول الإنجليزي ، فجلسوا بجذائنا صفّاً تلوحُ عليهم مَسَخَائِلُ الظَّنْمِر ، ولم يَمُوتْ البَطُولَةُ ، وفيهم أرواحُ الحرب ؛ وهم يبدون في ثيابهم البيض المطرّاة^(١) كأنهم ثلاثة نُسُور هبّت من الغمام إلى الأرض ، فلأعينها نظراتٌ تدور هنا وهناك تُنْكِرُ وتُعرِف .

وأعجبني أن أراهم في هذا المكان الهزليّ الممتلئ بالضعفاء ، كأنهم ثلاثُ حقائقَ بين الأغلاط ، أو ثلاثُ أغلاطٍ كبيرة . . . وكان أبدو ما أراه على هيئة وجوههم وأسرّ له ، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربيّ وتحوُّله إلى استعدادٍ للسخرية

ثم تأملتُهم طويلاً ؛ فإذا صرامةٌ وشهامةٌ ، وسكينةٌ ووَداعةٌ ، وحُسْنُ سَمْتٍ وحلاوةٌ هيئةٌ في جلِسةٍ رزينة متوقّرة ، لا يُشبهها في حسِّ النفس التي تُعرِف معاني القوة إلا وضعُ ثلاثةٍ مدافعٍ مُصَوِّبة .

وجعلتُ أقلبُ عينيّ في الناس الموجودين وملاحمهم وهيئاتهم ، ثم أرجعُ البصرَ إلى هؤلاء الثلاثة ، فأرى المصريّ كالمقتنع بأنه محدودٌ بمدينة أو قرية لا يعرفُ لنفسه مكاناً في غيرهما ، فهو من ثم لا يرحل ولا يُغامر ، ولا يتقاذفه الدنيا ؛ وأرى الإنجليزيّ كالمقتنع بأن كلَّ مكانٍ في العالم ينتظر الإنجليزي . . . وخيّلَ إليّ والله أن رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتدّين بأنفسهم لا يُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسه واستقلاله ، وتاريخه وروح دولته ، وطبيعته أرضه ؛ فهو مستيقنٌ أن الله لا يرزقه رزقاً أياً الرزق كان على ما يتفق ؛ بل رزقاً إنجليزياً : أي فيه كفايته .

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابع السِّلْم على وجوهه ، وبين طابع الحرب على وجوه أخرى ؛ ففي تلك معاني السهولة والملايئة والحرص على مادة الحياة ، وفي هذه معاني العزم والمقاومة والحرص على مجد الحياة لا على مادتها .

(١) أي المكوية ؛ والكلمة العربية التي استعملت قديماً في معنى (المكويج) هي : المطرى (بتشديد الراء) .

وتبينت أسلوبين من الأساليب الاجتماعية : أحدهما في فردٍ قد بتى أمره علكى أن أمةً تحمله ، فهو يعيش بأضعف ما فيه : والآخر في فردٍ قد وضع الأمر علكى أنه هو يحمل أمةً فلا يدعُ في نفسه قوةً إلا ضاعتهها .

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة ، والتهويل ، والصُراخ ، واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع ، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل ؛ والآخر بالهدوء الذى يقهّر الحوادث ، والصبر الذى يغلب الزمن ، والعقيدة التى تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها . وميزت بين أثرين من آثار الأرض في أهلها : أحدهما فى المصرى السّمحِ الدواعِ الألوفِ الحبيّ الذى هو كترم الطبيعة ، والآخر فى الإنجليزى العسير المغامر النّفورِ الملحّ على الدنيا كأنه تطفّل الطبيعة . . .

* * *

والقى ابنُ العم الذى كان معى سمعته إلى هؤلاء الضباط ، وهم من فلاسفة الرأى على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إلىّ عنهم ، فقال كبيرهم : لقد فرغت من بحثى الذى وضعته فى فلسفة خُمول الشرقيين ، وأفضيتُ منه إلى حقائقَ عجيبة ، أظهرها وأخفها معاً أن أمةً من هذه الأمم لا يسكن للأجنبي فيها ، ولا تثقل وطأته عليهم ، ولا يتطول ثنواؤه فى أرضهم ، ولا يحتلتها من يطمع فيها ، ما لم يكن سادتها وأمرؤها وكبرائها كأنهم فيها دولةٌ محتلة .

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق ؛ فن أعظم واجباتنا أن نزيد فى تعظيمهم ، وأن نمدّ لهم فى المال والجاه ، ونبسّط لهم اليمين والشمال ، ونؤهيمهم أن عظمتهم هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أهياتهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم . . . وخاصةً عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا ؛ فإننا نصنعُ بغرور الجميع وسخافاتهم وحرصهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذاتَ خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين ، ومن لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبّه له (غاندى) ذلك المهزول الهندى الذى تقومُ دنياه بأربعة شلنات ، ولا يزنُ أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم ، ولا بطشٍ عنده ولا قوة فيه ، وهو مع ذلك جبّارٌ سماوى فى يده البرق والرعدُ يرى ويُسمع فى أرجاء الدنيا .

قال ضابط اليمين : وبصناعة الكبرياء هذه الصناعة يكون رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجلٌ تقليدٌ بالطبيعة ، ورجلٌ ذلٌ بالحالة ، ورجلٌ خضوعٌ بالحملة ؛ فليس في نفسه أنه سيدٌ نفسه ولا سيدٌ غيره ، بل أكبرُ معانيه أن غيره سيدٌ عليه فيكون معه دائماً خيالُ استعباده .

وتكلم ضابط اليسار : ولكن المترجم لم يميز أقواله ، لأن ثلاث عشرة امرأة كنَّ يصرخنَ في الرواية الهزلية بلحن طويل يقان في أوله : « عاوزين رجالة تدلّعنا . . . » وكانت الموسيقى تصرخُ معهن وتولولُ كأنها هي أيضاً امرأة محرومة . . .

* * *

ثم أرفف المترجم أذنه فقال كبيرهم : إن هؤلاء الشرقيين ست حواس : الخمسُ المعروفةُ ، وحاسةُ الحمل الذي خدعتهم عنه الطبيعةُ البليدةُ فسموه الترف والهزل والهوى ؛ والأمةُ الأوروبية التي تحتلُ بلاداً شرقيةً تجدُ فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها ؛ فعشرة آلاف جندي بعثادهم وآلاتهم ، لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزاز والتحدّي وإثبات أنهم غاصبون ؛ ولكن ما أنت قائلٌ في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح برافصاته وموساته وخموره ورواياته ، وبهؤلاء الرجال المخنثين الهزليين الرقّعاء الذين هم وحدهم مُعاهدةٌ سياسيةٌ ناجحةٌ بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إن فنَّ الاحتلال فنٌّ عسكريٌّ في الأول . ولكنه فنٌّ أخلاقيٌّ في الآخر ؛ ولهذا يجب تعيينُ نقطة اتجاه للشباب تكون مضيئةً لامعةً جذابةً مغريةً ، ولكنها في ذات الوقت مُحَرِّقةٌ أيضاً ، وهذه هي صناعةُ إهلاك الشباب بالضوء الجميل ، وما على السياسي الحاذق في الشرق إلا أن يحمي الرذيلة ، فإن الرذيلة ستعرفُ له صنيعه وتحميه . . .

فتكلم ضابط اليسار ، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً : « يا حلوة يا خفّافي ، يا مجنّنه الشبان . . . »

* * *

ولما أَلَمْتُ بحوار الضباط الثلاثة قلتُ لصاحبي : استأذن لي عليهم أكلمهم .

ففعل وعرفني إليهم ، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها . فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول .

ثم قلت لكبيرهم : لست أنكر أن الإنجليزى لو دخلَ جهنمَ لدخلها إنجليزيا . . . ولا أجد أن له في الحياة مثلَ هداية الحيوان ، لأنه رجلٌ عمليٌ : دليلٌ منفعته أنها منفعته وحسبُ ، ثم لا دليلَ غيرُ هذا ولا يقبل إلا هذا . فإذا قال الشرق : حق ، وقال الإنجليزى : منفعتي ، بطلت الأدلة كلها ، ورأى الشرق أنه مع الإنجليزى كالذى يحاول أن يُقنع الذئبَ بقانون الفضيلة والرحمة .

وقد عرفنا أن في السياسة عجائب ، منها ما يُشبه أن يَلْقَى إنسانٌ إنساناً فيقولَ له : يا سيدى العزيز ، بكل احترام أرجو أن تتلقى منى هذه الصفحة . . . وفي السياسة مواعيدٌ عجيبة ، منها ما يشبه غرسَ شجرةٍ للفقراء والمساكين ، والتوكيدَ لهم بالآيمان أنها ستثمر رُغفاناً مخبوزة . . . ثم بعد ذلك تُطعم فتثمرُ الرغفانَ المخبوزة حَشْوُها اللحمُ والإدام .

وفي السياسة محاربةُ المساجد بالمراقص ، ومحاربةُ الزوجات بالمومسات ، ومحاربةُ العقائد بأساتذة حرية الفكر ، ومحاربةُ فنون القوة بفنون اللذة . ولكن لو فهم الشبابُ أن أما كنّ اللهو في كل معانيها ليست إلا غدرًا بالوطن في كل معانيه !

ولو عرف الشبابُ أن محاربةَ اللهو هي أولُ المعركة السياسية الفاصلة ! ولو أدرك الشبابُ أن أولَ حق الوطن عليه أن يحمل في نفسه معنى الشعب لامعنى نفسه !

ولو رجع الدينُ الإسلامى كما هو في طبيعته آلةٌ حربية تصنع من الشباب رجال القوة !

ولو علم الشبابُ أن روحَ هذا الدين ليست : اعتقيدٌ ولا تعتقد . ولكن افعل ولا تفعل !

ولو أيقن الشبابُ أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائلَ عملية لا متلاء النفس بمعانى التقديس !

ولو فهم الشبابُ أنْ ليس في الكونِ إلا هذه المعاني تجعلُ النفسَ فوق
 المادةِ وفوق الخوفِ وفوق الذلِّ وفوق الموتِ نفسه !
 ولو بحث الشبابُ النفسَ الإنجليزيةَ القويةَ ليعرفَ بالبرهانِ أنها نصفُ
 مسلمةٍ فكيف بها لو كانت مسلمة ؟ . . .

* * *

وكان المترجم ينقل إليهم كلامي ، فما بلغتُ إلى حيث بلغتُ ، حتى شدَّ
 الضابط على يدي وهزَّها ؛ فنظرت ، فإذا أنا قد كنتُ نائمًا بعد سهرة طويلة
 في ذلك المسرح ، وإذا يدُ المترجمِ نفسه هي التي تهزني لأنتبه . . .

أيها المسلمون !

نهضتْ فلسطينُ تَحِلُّ العُقْدَةَ الَّتِي عُقِدَتْ لَهَا بَيْنَ السِّيفِ ، وَالْمَكْرِ ،
وَالذَّهَبِ .

عُقْدَةٌ سِيَاسِيَّةٌ خَبِيثَةٌ ، فِيهَا لِذَلِكَ الشَّعْبِ الْحَرُّ قَتْلٌ وَتَخْرِيْبٌ ، وَفَقْرٌ .
عُقْدَةُ الْحُكْمِ الَّتِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيْبٍ : الْوَعْدِ الْكَذْبِ ، وَالْفَسَاءِ الْبَطِيءِ ،
وَمَطَامِعِ الْيَهُودِ الْمَتَوَحِّشَةِ .

أيها المسلمون ! لَيْسَتْ هَذِهِ مَحْنَةُ فِلَسْطِينَ ، وَلَكِنَّهَا مَحْنَةُ الْإِسْلَامِ ؛ يَرِيدُونَ
أَلَّا يُثَبَّتَ شَخْصِيَّتُهُ الْعَزِيْزَةُ الْحُرَّةُ .
كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ الْآنَ لِفِلَسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِجَاهِدٍ هُوَ أَيْضًا .

* * *

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمَجَاهِدُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ حُلُفَاؤُهُمْ فِي
هَذَا الْجِهَادِ .

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُنْكَوَبُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي نَكْبَتِهِمْ امْتِحَانٌ لِّضَمَائِرِنَا
نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا .

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُضْطَّهَدُونَ ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السِّيَاسَةَ الَّتِي أَذَلَّتْهُمْ تَسْأَلُنَا
نَحْنُ : هَلْ عِنْدَنَا إِقْرَارٌ لِلذَّلِّ ؟

مَاذَا تَكُونُ نَكْبَةُ الْآخِرِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ اسْمًا آخَرَ لِمَرْوَعَةٍ سَائِرِ إِخْوَتِهِ
أَوْ مَذَلَّتِهِمْ ؟

أيها المسلمون ! كُلُّ قَرَشٍ يَدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَفْرَضَ عَلَى
السِّيَاسَةِ احْتِرَامَ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ .

* * *

إِبْتَلَاؤُهُمْ بِالْيَهُودِ يَحْمِلُونَ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ : مِنْ ذَلِّ الْمَاضِي
وَيَتَشَرَّدُ الْحَاضِرُ .

ويحملون في قلوبهم نِقْمَتَيْنِ طاغيتين : إحداهما من ذَهَبِهِمْ ، والأخرى من رذائلهم .

وَيَسْخَبُونَ فِي أَدْمَتِهِمْ فِكْرَتَيْنِ خبيثتين : أن يكونَ العربُ أَقْلِيَّةً ، ثم أن يكونوا بعد ذلك خَدَمَ اليهود .

في أنفسهم الحِقْدُ ، وفي خيالهم الجنون ، وفي عقولهم المكر ، وفي أيديهم الذهبُ الذي أصبح لثيماً لأنه في أيديهم .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليتكلمَ كلمةً تردُّ إلى هؤلاء العقل .

* * *

ابتَلَوْهُمُ باليهود يَمْرُونَ مرورَ الدنانيرِ بالرِّبا الفاحِشِ في أيدي الفقراء .

كل مائة يهودى على مذهب القوم يجب أن تكون في سنة واحدةٍ مائةً وسبعين . . .

حسابٌ خبيث يبدأ بشئٍ من العقل ، ولا ينتهى أبداً وفيه شئٌ من العقل .

والسياسةُ وراء اليهود ، واليهودُ وراء خيآلهم الدينى ، وخيآلهم الدينى هو طردُ الحقيقة المسلمة .

أيها المسلمون ! كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليثبتَ الحقيقةَ التى يريدون طردَها .

* * *

يقول اليهود : إنهم شعبٌ مضطهدٌ في جميع بلاد العالم .

ويزعمون : أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين ، كأنها ليست من جميع بلاد العالم . . .

وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لايسبح في البحار ، ولكن في الخزائن . . .

وأراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعبٍ لم يتعود قط أن يقول : أنا .

ولكن لماذا كنستكم كل أمةٍ من أرضها بمكنسةٍ أيها اليهود ؟

* * *

أجهلتم الإسلام ؟ الإسلام قوةٌ كذلك التي توجدُ الأنيابَ والمخالبَ في كل أسد .

قوةٌ تخرج سلاحها بنفسها ، لأن مخلوقها عزيزٌ لم يوجد لئوكل ، ولم يخلق ليذل .

قوةٌ تجعل الصوتَ نفسه حين يزمجر ، كأنه يعلن الأسديةَ العزيزةَ إلى الجهات الأربع .

قوةٌ وراءها قلبٌ مشتعل كالبركان ، تتحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم . ولئن كانت الحوافرُ تهتئ مخلوقاتِها ليركبها الراكب ، إن المخالبَ والأنيابَ تهتئ مخلوقاتِها لمعنى آخر .

* * *

لو سئلتُ ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي ؟ لسألتُ : كم عددُ المسلمين ؟ فإن قيل : ثلثمائة مليون . قلتُ : فالإسلامُ هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلثمائة مليون قوة .

أيجوعُ إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون ؟ إن هذا الشَّبَعَ ذنبٌ يعاقبُ الله عليه .

والغنى اليومَ في الأغنياء المُمسكين عن إخوانهم ، هو وصفُ الأغنياء بالزُّم لا بالغنى .

كل ما يبذله المسنمون لفلسطين ، يدلُّ دلائل كثيرة ، أقلها سياسةُ المقاومة .

* * *

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك ، فافتحوا أنتم أيديكم . . . كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غيرَ مكترئين ، فارموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير والدراهم .

لماذا كانت القبيلةُ في الإسلام إلا لتعتادَ الوجوهَ كُلَّهَا أن تتحولَ إلى الجهةِ
الواحدة ؟

لماذا ارتفعت المآذنُ إلا ليعتادَ المسلمون رفعَ الصوتِ في الحق ؟
أيها المسلمون ! كونوا هناك . كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني .

* * *

لو صام العالم الإسلاميُّ كلَّه يوماً واحداً وبَدَلَ نفقاتِ هذا اليوم الواحد
لفلسطين ، لأغناها .

لو صام المسلمون كلَّهم يوماً واحداً لإعانة فلسطين ، لقال النبيُّ - فمأخراً
الأنبياء : هذه أمتي !

لو صام المسلمون جميعاً يوماً واحداً لفلسطين ، لقال اليهودُ اليومَ ما قاله
آباؤهم من قبل : إن فيها قومًا جبَّارين . . .

أيها المسلمون ! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المالِ المبدولِ فيكون شيئاً
سماوياً .

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين ، يتكلم يومَ الحساب يقول : ياربِّ ، أنا
لإيمانُ فلان !

قصة الأيدي المتوضئة . . .

قال راوى الخبر : ذهبتُ إلى المسجد لصلاة الجمعة ، والمسجدُ يجمعُ الناسَ بقلوبهم ليُخرجَ كلَّ إنسانٍ من دنياه ، فلا يفكرُ أحدٌ أنه أسمى من أحدٍ ؛ ولقد يكونُ إلى جانبك الصانعُ أو الأجيرُ أو الفقيرُ أو الجاهلُ ، وأنتَ الرئيسُ أو العظيمُ أو الغنىُّ أو العالمُ ، فتنظرُ إليه وإلى نفسك فتحسُّ كأنَّ خواطرك متوضئةٌ متطهرةٌ ، وترى كلمةَ الكبرياءِ قد فقدت روحَهَا ، وكلمةَ التواضعِ قد وجدت روحَهَا ؛ وتشعرُ بالنفسِ المجتمعةِ قد نصبت الحربَ للنفسِ المنفردةِ ؛ ولو خطر لك شيءٌ بخلاف ذلكِ رأيتَ الفقيرَ إلى جانبك توبيخاً لك ، ونظرتَ إليه ساكناً وهو يتكلمُ في قلبك ، وشعرتَ بالله من فوقكما ، وامتلأنتَ لك روحُ المسجدِ كأنها تهتمُّ بطردك منه ، وخيَّلَ إليك أن الأرضَ ستاظم وجهك إذا سجدتَ عليها ، وأيقنتَ من ذاتِ نفسك أن لستَ هناك في دنياك وليس صاحبُك في دنياه ، وإنما أنما هناك في إنسانيةِ ميزانها بيد الله وحده ؛ فلا تدري أيكما الذى يسخفُ وأيكما الذى يشقى^(١) .

قال : والعجيبُ أن هذا الذى لا يجهله أحدٌ من أهل الدين ، يعرفه بعضُ علماء الدين على وجهٍ آخر ، فتراه في المسجد يمشى مختالاً ، قد تحلَّى بحليته ، وتكلفتَ لزهوه ، فلبسَ الجبةَ تسعُ اثنين ، وتطاوَلَ كأنه المِثدنة ، وتصدَّرَ كأنه القبيلة ، وانتفخَ كأنه ممتلئ بالفُروقِ بينه وبين الناسِ ؛ وهو بعد كل هذا لو كشفَ الله تمويههُ لانكشفَ عن تاجرٍ علمٍ بعضُ شروطه على الفضيلة أن يأكلَ بها ، فلا يجدُ دنياه إلا في المسجد ، فهو نوعٌ من كذبِ العالمِ الدينى على دينه .

* * *

قال الراوى : وصعدَ الخطيبُ المنبرَ وفي يده سيفُهُ الخشبىُّ يتوكأ عليه ؛ فما استقر في الدُّرَّةَ حتى خيَّلَ إلى أن الرجلَ قد دخلَ في سِرِّ هذه الخشبة ،

(١) استوفينا الكلام عن فلسفة المسجد في مقالات كثيرة .

فهو يبدو كالمریض تُقیمه عصاه ، وكالهرم یمسكه ما یتوكأ علیه ؛ ونظرتُ فإذا هو كذبٌ صریحٌ علی الإسلام والمسلمین ، كهیئةِ سیفه الحشبی فی كذبِها علی السیوف ومعدنیها وأعمالِها .

وتالله ما أدرى كيف يستحلُّ عالم من علماء الدین الإسلامی فی هذا العصر ، أن یخطبَ المسلمین خطبةً جُمعَهم فی یده هذا السیفُ علامة الذل والضعة والتراجع والانقلاب والإدبار والزل والسخریة والفضيحة والإضحاك ؛ ومضى كان الإسلامُ يأمرُ ینسجِرُ السیوف من الحشب ونسجَتِها وتسویتِها وإرهافِ حدها الذى لا یقطع شیئاً ، ثم وضعِها فی أیدی العلماء یعتسکون بها ذُوبةَ كل منبر ، لتتعلقَ بها العیونُ ، وتشهدَ فیها الرمز والعلامة ، وتستوحی منها المعنویة الدینیة الّتی یجب أن تتجسّمَ لِشْرِی ؟

أفی سیفٍ من الحشب معنویةٌ غیرُ معنی الازل والسخافة ، وبلاهة العقل وذلة الحیاة ، ومسنخِ التاریخِ الفاتح المنتصر ، والرمزِ الخضوع الكلمة وصبیانیة الإرادة ؟

قال : وكان تمام الهزء بهذا السیف الحشبی الذى صنعته وزارةُ أوقاف المسلمین ، أنه فی طول صمصامة عمرو بن معدیکرب الزبیدی فارس الجاهلیة والإسلام^(١) ، فكان إلى صدر الخطیب ، ولولا أنه فی یده لظهر مقتدیضه فی صدر الرجل كأنه وسامٌ من الحشب . . .

قال : وكان الخطیب إذا تكلف وتصنّع وظهر منه أنه قد حسمی وثار ثائرُه ، ارتجَّ وغفلَ عن یده ، فتضطربُ فیها قبضةُ السیف فتتأکزُه فی صدره كأنما تذکرُه أن فی یده خشبةً لا تصلحُ لهذه الحماسة . . . !^(٢)

* * *

قال : وخطب العالمُ علی الناس ، وكان سیفه الحشبی یخطبُ خطبةً أخرى : فأما الأولى فهی محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهی حتی ینتهی أثرُها ، إذ هی كالقراءة لإقامة الصلاة ؛ وكانت فی عهدِها الأول كالدرس لإقامة شأنٍ من

(١) كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضها شبر .

(٢) القاعدة الشرعیة : أن البلد الذى یفتح بالسیف یخطب فیهِ بالسیف . ولا ضعف المسلمون

السیف منهم وأطاعهم الحشب . . . !

شئون الاجتماع والسياسة ، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى . وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هي عبارتها :

وَيُحَكِّمُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَوْ كُنْتُ بَقِيَّةً مِنْ خَشَبِ سَفِينَةِ نُوحٍ الَّتِي أَنْقَذَ فِيهَا الْجِنْسَ الْبَشَرِيَّ ، لَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضَعُوا هَذَا الْمَوْضِعَ ؛ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ حَيْثُ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُونِي حَيْثُ أَنَا ، تَكَادُ شَرَارَةُ تَذْهَبُ بِي وَبِكُمْ مَعًا ، لِأَنَّ فِيَّ وَفِيكُمْ الْمَادَّةَ الْخَشَبِيَّةَ وَالْمَادَّةَ الْمُتَخَشَّبَةَ .

وَيُحَكِّمُ ! لَوْ أَنَّهُ كَانَ لَخَطِيبِكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ النَّارِيِّ الْمَضْطَرَمِّ ، لَمَا بَقِيتِ الْخَشْبَةُ فِي يَدِهِ خَشْبَةً . وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيمَانًا بِإِيمَانِهِ ، وَكَيْفَ يَصْعَدُ الْمُنْبَرُ لِيَقُولَ كَلِمَةَ الدِّينِ مِنَ الْحَقِّ الْغَالِبِ ، وَكَلِمَةَ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ — وَهُوَ كَمَا تَرُونَهُ قَدْ أَنْتَهَى مِنَ الذَّلِيلِ إِلَى أَنْ فَقَدَ السَّيْفُ رُوحَهُ فِي يَدِهِ ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ! لَنْ تُفْلَحُوا وَهَذَا خَطِيبُكُمْ الْمُتَكَلِّمُ فِيكُمْ ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيْفُكُمْ الْمُدَافِعُ عَنْكُمْ . أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ، غَيِّرُوهُ وَغَيِّرُونِي .

* * *

قال راوى الخبر : وَلَمَّا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ مَاجَ النَّاسُ إِذَا انْبَعَثَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الشَّبَانِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْفِقُونَهُمْ لِيُخَطِّبُوهُمْ ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ ، فَذَكَرَ فَلَاسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا ، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا ، وَنَكَبَتَهُمْ وَجْهَادُهُمْ وَاخْتِلَالَ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَنْجَدَ وَاسْتَعَانَ ، وَدَعَا الْمُؤَسِّرَ وَالْمُخْصِفَ إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصِنَادِيقٍ مَخْتُومَةٍ ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَرَاهِمَ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَرَاهِمُ أَصْحَابِهَا وَضَمَائِرُهُمْ .

قال : وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ تَعَرَّفُ الْخَيْرَ فِي وَجْهِهِمْ ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ ؛ إِذَا امْتَرَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْخَصِيبَةِ فَتُخْرِجُهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرُوعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرُوعًا أُخْرَى — فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ : إِنَّ هَذَا الْخَطِيبَ خَطِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَيْنَا وَهَؤُلَاءِ الشَّبَانُ قَدْ فَضَحُوهُ ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَخْصِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .

قال : ونَبَّهْنِي هذا الرجلُ الساذجُ إلى معنى دقيقٍ في حكمة هذه المنابر الإسلامية ؛ فما يريد الإسلام إلا أن تكونَ كمحطات الإذاعة ، يلتقط كلُّ منبرٍ أخبارَ الجهات الأخرى ويُنذِعُها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع ؛ وبهذا لايجيء الكلامُ على المنابر إلا حيناً بحياة الوقت ، فيصبحُ الخطيبُ ينتظره الناسُ في كل جمعة انتظارَ الشيء الجديد ؛ ومن ثمَّ يستطيع المنبرُ أن يكونَ بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخيِّلْ إلىَّ بعد هذا المعنى أن كلَّ خطيب في هذه المساجد ناقصٌ إلى النصف ، لأن السياسة تُكرهه أن يخلعَ إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر ، وألا يصعدَ إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ هو مع ذلك نصفٌ وعظ . . . نالخطبةُ في الحقيقة نصفُ خطبة ، أو كأنها أثرتُ خطبةً معها أثرتُ سيف . . .

قال : وأخرج القرويُّ كيسهَ فعزلَ منه دراهم وقال : هذه لطعام أتبلِّغُ به ولأوتى إلى البلد ، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة ؛ واقتديتُ أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعتُ في صناديقهم كلَّ ما معي ؛ ولقد حسبتُ أنه لو بقى لي درهم واحد لمضى يَسْبُني ما دام معي إلى أن يخرج عني .

* * *

قال الراوي : ثم دخلتُ إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ، فإذا هناك رجالٌ من علماء المسلمين ، اثنان أو ثلاثة (الشكُّ في ثالثهم لأنه حليقُ اللحية) . ثم تَوَافَى إليهم آخرون فتمسَّوا سبعة ؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحبَ (اللحية) ، فعلمتُ أنه منهم على المذهب الشائع في بعض العصرين من العلماء والقضاة الشرعيين ، أحسبهم يحتجُّون بقوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم » ؛ وكلُّ امرئٍ فإنما تُبَصِّرُهُ مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم ، أبلحية أم بلاحية . . . ؟

وأدرتُ عيني في وجوههم ، فإذا وقارٌ وسَمَتْ ونورٌ لم أر منها شيئاً في وجه صاحب (اللحية) ؛ وأنا فما أبصرتُ قط لحية رجل عالم أو عابدٍ أو فيلسوفٍ

أو شاعِرٍ أو كاتبٍ أو ذى فنٍ عظيمٍ ، إلا ذكرتُ هذا المعنى الشعريَّ البديع الذى ورد فى بعض الأخبار ، من أن الله (تعالى) ملائكةٌ يُقْسِمُونَ : والذى زينَ بنى آدمَ باللَّحَى .

وكان من السبعة رجلٌ تركَ لحيته عافيةً على طبيعتها ؛ فامتدَّتْ وعظُمتْ حتى نَشَرَتْ حولها جَوْاً روحانيّاً من الهيبة تشعُرُ النفسُ الرقيقةُ بتيّاره على بُعد ، فكان هذا أبلغَ رد على ذلك .

* * *

قال : وأنصتَ الشيوخُ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصواتُ هؤلاء جافيةً صلبةً حتى كأنها صَخَبُ معركةٍ لا فنٌ خَطابه ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قَوَى الصوت ؛ فهم يصرخون كما يصرخُ المستغيثُ فى صيحات هاربةٍ بين السماء والأرض .

فقال أحدُ الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ! جاء فى الخبر : « تَعَسَّ عَبْدُ الدينار ، تَعَسَّ عَبْدُ الدرهم . » والله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبَدُوا لهذين حرصاً وشُحاً ؛ « وَمَنْ يَبُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، ولو تعارفتُ أموالُ المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث .

فقال آخر : وفى الحديث : « إن الله يحب إغاثَةَ اللّهْفَانِ » ، ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يُوردون فى خطبهم أحاديثَ مع أنها هى كلماتُ القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث : « إن الله يحب إغاثَةَ اللّهْفَانِ » لأسرع العامة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة : « إنها فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها ، فإذا كان آخرُ الزمان تعلّم كبارهم من صغارهم » . فنحن فى آخر الزمان ، وقد سَلَّطَ الصغارُ على الكبار يريدون أن ينقَلُوه عن طباعهم إلى صبيانيةٍ جديدة .

قال الراوى : فقلت لصديقه معى : قل لهذا الشيخ : ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخرَ الزمان سيكون لهذه الأمة زَنَ جهادٍ واقتحام ، وعزيمةٍ ومغالبةٍ على استقلال الحياة ؛ فلا يصلحُ لوقاية الأمة إلا شبابُها المتعلم القويُّ

الجرىء ، كما نرى فى أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلة ؛ إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم . وفى الحديث : « أمتى كالاطر : لا يدرى أوله خير أم آخره » .

* * *

قال الراوى : ولم يكذ الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويتهم بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة فى المكان ؛ فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد : لا يكرر إلا زجرة واحدة ؛ وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا كل ما قيل ، فأطرقوا يسمعون مرة رابعة أو خامسة ؛ وفرغ الشباب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم . فقال أحد الشيوخ : لم يخف علينا مكانك ، وقد بذلنا ما استطعنا ؛ فبارك الله فيك وفى أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً . . . ثم تحركت النفس بوحنى الحالة ؛ فدأ أولهم يده إلى جيبه ، ثم دسها فيه ، ثم عيئت فيه قليلاً^(١) ؛ ثم . . . ثم أخرج الساعة ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدهم منديله يتمخبط فيه ، وظهرت فى يد الثالث سبحة طويلة ، وأخرج الرابع سواكاً فرأ به على أسنانه ، وجر الخامس كراسة كانت فى قبائنه ، ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخذلها ؛ أما السابع صاحب (اللحية) ، فثبت يده فى جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئاً يستحى إذا هو أظهره ، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً . . . قال الراوى : ونظرت فإذا وجوههم قد لبست للشباب هيئة المدرس الذى يقرر لتلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ ؛ فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى . . .

* * *

(١) أى بحث بأصابعه .

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من (قصة الأيدي المتوضئة) ، قلت له :
لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء هذا الصندوق ،
وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كدّدت فيه ذهنك من
فلسفة تحوّل السيف إلى خشبة ؛ ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم
يقول لساثرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصلون ؟ لهذا قال رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) : « جاهلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ بِخَيْلٍ » .
ثم يملئون الصندوق

نجوى التمثال^(١)

أيها المفترسُ الصخرةَ يشدُّ ذراعيه أقوى الشدِّ كأنما يريد أن يقتلع الصخرةَ فيهما ،

متنأهضاً بصدرة ليدلّ على أنه وإن ربّصَ فإن الوثبةَ في يديه ،
متنمّطياً بصلّبه ليُشيرَ من جسمه الهادئ إلى معانيه المفترسة ،
مُقعياً على ذنبه ومتحفزاً بسائره كأنه قوةُ اندفاعٍ تهتمُّ أن تنفليّت من جاذبية الأرض .

وأنتِ أيتها الهيفاءُ تمثّلُ الإنسانيةَ المتمدنة في نَحافتها وهي كهذه الإنسانية ضاربةٌ بذراعيّ أسدٍ في غلظ مدفعين
حكيمةٌ في النظر كأنما تسمدُّ في سرائر الأمم نظرةً المتأمل ، ولكنَّ يدها كيد الحكمة السياسية على تركيبٍ عقليّ تحتها المخالب . . .
ساكنةٌ كأنها تمثالُ السلام على أنها في جوار الأسدِ كالسلام بين الشعوب : تلتَمّح فيه إنسانَ العالم ووحش العالم . . .
يا أبا الهول .

أأنتِ جوابٌ عن ذلك اللغز القديم الذي هو كلامٌ لا يتكلم وسكوتٌ لا يسكت ،

والذي أشار برأسِ الإنسان على جسمِ اللَّيْث أنه قوةٌ عمياء كالضرورة ولكنها مُبْصِرةٌ كالاختيار ،
والذي أخرج من فَنَنِ الغريزة والعقلِ فناً ثالثاً لا يزال في الأرض ينتظرُ المرأةَ التي تلد إنساناً عِظامه من الحجر ؟
وأنتِ يا مصر :

أواقفةٌ ثَمّةَ للشرح والتفسير ، تقولين للمصريّ : إن أجدادك يسألونك من آلاف السنين بهذا الرمز : ألاّ معجزةٌ من القوة تخطّ عَضَلَاتِ الحجر ؟

(١) تمثال نهضة مصر الذي صنعه المثال مختار رمزاً لهذه النهضة ، وهو أبو الهول متحفزاً تقف إلى جانبه امرأة .

ألا بَسْطَةُ من العلم تجعلك أيها المصري وكأنك رأسٌ لجسم الطبيعة ؟
ألا فنٌ جديدٌ ترفعُ به أبا الهول في الجو فتزيده على قوة الوحش وذكاء
الإنسان خِفَةَ الطير ؟

أم تقولين للمصري : إن أجدادك يُوصونك بهذا الرمز أن تكون كالظَّهَرِ
الأسدى لا يُركَب مَطَاه ، وكالرأسِ الإنساني لا تُقيَّد حريرته ، وكالربضة
الجليلة لا تُسهَّلُ إزاحتها ، وكالإنهام المركَّب من غامضين لا يتيسر به عَيْتُ
العابث ، وكالصراحة المجتمعة من عنصرٍ واحد لا يغلطُ في حقيقتها أحد ؟
أم تقولين يا مصر : إن تفسير أبي الهول الأول أن النهضة المصرية إنما
تكون يوم تُخرجُ البلاد من يصنع أبا الهول الثاني ؟

* * *

تمثالُ النهضة أم صفحةٌ من الحجر قد صَوَّرَ الشعبُ فكره عليها ، ودَوَّنَ
فيها إحساسه بتاريخه ، ووصفَ بها إدراكه حياة المعاني السامية ؟
أم هو كتابةٌ فصلٍ من التاريخ بقلم الحياة وعلى طريقة من بلاغتها ،
خُشِيت عليه الفناء فدَوَّنَتْه في أسلوب من أساليب البقاء الحجري الصلد ؟
أم ذاك يومٌ من أيام الأمة أحاله الفن من زمن إلى مادة ؛ ومن معنى إلى
حس ، ومن خبر إلى منظر ، وكانوا يتكلمون عنه فجعله الفن يتكلم عن
نفسه ؟

أم هو تعبيرٌ عن تلك المعاني التي خلقتها نفوسُ هذا الجيل تخاطبُ به
النفوس الآتية لتتممَ عليها ، وتضيفَ فيه إلى المعنى سرَّ المعنى ، وتضعَ الكلمة
الإنسانية على لسان الطبيعة تتكلم بالتمثال كما تتكلم بالجيل ؟
أم تركيبٌ سياسيٌ إذا فسَّرْتَه اللغة كان معناه أن الثابت إذا احتاج إلى
من يشته . . . فلن يحوه من ينكره ، وأن الظاهر إن احتاج إلى من يدلُّ
عليه . . . فلن يُخفيَه من لا يراه ؟

* * *

بل أراك لاهولَ فيك يا أبا الهول الجديد .
أفذاك من رقةٍ داخلتك ورحمةٍ جاءتك من مَسِّ يدِ المرأة . . . ؟

أم الهولُ اليومَ قد أصبحَ في العقل والعاطفة ومدَّ العينِ النسائية إلى بعيد... ؟
 أم لا يتم في هذه المدينة رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبْعٍ إلا ... إلا بأناملِ امرأة ؟

ألا من يُعلِّمُنِي أهذه المرأةُ منكَ هي تهذيبُ للإنسان والوحشِ أم
 تكلمةٌ عليهما ؟

ألا من يأتيني بالحكمة فيك من وضعِ الرجلِ القويِّ رأسًا ولا جسم ،
 والأسدِ المفترسِ جسمًا ولا رأس ، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأةُ وحدها .
 إنما كنتَ يا أبا الهول لغزَ الصمت ، فلما أضيفت المرأةُ إليك أصبحتَ
 لغزَ النطق ... فيا للهول !

فاتح الجو المصرى^(١)

يا طيرَ المثلِّ الأعلى !

لقد انفلتت من رذيلة الخوفِ وتركتهَا في الترابِ مَوطئِ القَدَمِ ، وقلت لها : ويحك ، لقد آن للشبابِ المصرى ؛ فهو مُغَامِسٌ في ماءِ الصواعقِ^(٢) ، مُتَطَوِّحٌ في اللُّجَّةِ الأزليةِ التي تغوصُ فيها الكواكبُ^(٣) ، يطيرُ بروحِ الشَّراةِ ، ويَهْبِطُ بروحِ الغَيْثِ ، ويلجِمُ الجَوَّ ويُسْرِجُهُ ، ويتعلم كيف يَشْوَى عدوَّهُ في عَيْنِ الشمسِ .

وكنتَ بطلاً مُغَامِراً فخطوتَ في طريقِ الملائكةِ بهذه الفضيلةِ وحملتَ الجو ؛ ولو أنك خِفْتَ وكنتَ على جَنَاحَيْ جِبْرِيلَ لا على طيارةٍ ، لخافَ جِبْرِيلُ على جناحيه من حَطْمَةِ هذا المعنى الترابيِّ الطاغيةِ الذي يَحْكُمُ على الأحياءِ بالموتِ بلا موتٍ ، لأنه الذلُّ والخضوعُ والرذيلةُ .

وحملكَ الجَوُّ إلى قبةِ السماءِ ، وهناك نَظَرُ العالَمِ فرأى لمصرِ الناهضةِ عَاسِمَهَا الإنسانى يتنَفَّسُ تحتِ الكواكبِ .

وحملكَ الجوُّ إلينا ، فلما رفعنا رءوسَنَا لنراك ، رفعناها في الوقتِ بين شعوبِ الأرضِ .

* * *

وضربتَ يا جَنَاحَ مصرَ في الهواءِ ، وأعنانُ السماءِ^(٤) مملوءةٌ بالزَّعْزَعِ والهَوَجِ والعاصِفِ ، والسماءُ في فصلها المكفَّهَرِ الذي تخلعُ فيه كلُّ ساعةٍ وتلبسُ وتمزقُ^(٥) وتَطْوِي ، فزدتَ بجُؤأتِكَ في براهينِ القضيةِ المصريةِ برهانَ قوةِ المخاطرةِ ، وأضفتَ إلى منطقها وضعاً جديداً مُفْهِمًا من روحِ التضحية .

(١) كتبت في أول طيار مصرى قدم إلى مصر من وربع على طيارته ، في شهر فبراير سنة ١٩٣٠ ، وهو الطيار صدق وطيارته فائزة ، وكان مقدمه يوماً مشهوداً .

(٢) كناية عن السحاب .

(٣) كناية عن أجواز الفضاء .

(٤) نواحيها ، جمع عنان (بالفتح) .

(٥) كناية عن طبيعة الشتاء ، من الغيم والصحو وما بينهما .

وطرت بين حياة وموت فجعلتهما يستويان في اعتقادك ؛ إذ وصلت فكرة الموت بسرّ الإيمان ، والحياة بسرّ العزيمة .

وكنت رجلاً أمتك بإنكار ذات نفسك من أجلها .
واتسعت للتاريخ بوضعك عمرك المحدود على الطيارة ، وقذفك بها وبه في مسبح الأجل .

وتجردت للأبدية لتعطي بلادك : إما شهيداً مجيداً في الآخرة ، وإما شهادة فخر في الدنيا .

وكنت على طيارتك الصغيرة المتطاردة تحت الريح ، وحولك روح الهرم الأكبر القائم بإرادة مصر وكأنه مسبار مدقوق في كورة الأرض بين القطب والقطب .

* * *

وأنت يا « فائزة » ، يا هذه الصغيرة الخارجة من مال صاحبها وجهده وعزيمته كما تخرج القوة من ضعف ، أعلمت إذ أنت ترتفعين وتهبطين بين السحب كما تتوالب الفراشة على النوار في روضة مزهرة ،

وإذا أنت تفتقين وتحويكين في ملاءة السحاب كأنك بمحركات الدوار تنسجين في السماء بمغزل ،

وإذا أنت بين صفق الرياح الهوج^(١) ، تحت السماء المدججة^(٢) ، في كبة الشتاء^(٣) ، كأنك مناظرة تجرى بين العزيمة في الإنسان والعزيمة في الطبيعة ،

وإذا أنت بين ذئاب الأعاصير ، ونُمُور السحاب^(٤) ، وسباع الغيم ذوات اللبدة الكثيفة المستشعثة ، كأنك بصوتك وأزيزك تطلقين على وحوش الجو مدفعاً رشاشاً يتركها صرعى ،

(١) اضطراب الرياح المتقلبة .

(٢) المتنيفة .

(٣) كبة الشتاء : شدته ودفعته .

(٤) يقال : ريح متذبذبة ؛ إذا كانت تجيء من هنا مرة ومن هنا مرة كما يساور الذئب ، فوضمنا من هنا كلمة ذئاب الرياح ، والنمر من السحاب : قطع صغار متدان بعضها من بعض ، تشبيهاً بجلد النمر ، فوضمنا منها نمور السحاب .

وإذ تراكِ الريحُ فتقولُ عنكِ : ريحٌ صنعها الإنسان. ويراكِ النجمُ فيقول : نجمٌ أفلتَ من النظامِ الأرضي . وتراكِ الملائكةُ فتقول : ويحكُ يا ابنَ آدمَ ، كأنكِ بما خلَقَتهُ العقلُ تطمَعُ منا في سَجْدَةٍ أخرى كالتى سجدناها لآدمَ يومَ خلقه اللهُ .

... أعلمتِ إذ أنتِ كذلكِ يا « فائزة » ، أن التاريخَ المصرى سيحوِّلكِ من طيارةٍ إلى آيةٍ كآيةِ بدءِ الخلقِ ، لأن فيكِ بدءَ الطيرانِ في مصر ؟

* * *

سلامًا يافتحُ الجوُ المصرى . لقد أجالتِ الأيامُ قِداحَها فخرجتُ القرعةُ عليك ، وأوحى إليك الواجبُ آيةَ : بسمِ اللهِ مَصْعَدُها ومَسْجَرُها . وطرقتِ فإذا أنتِ بها عابرةٌ فوقَ الحاضرِ لتجيئتنا من جانبِ المستقبلِ . وهبطتَ علينا كأنكِ فى بَرِيدِ السماءِ كتابُ مُجَدِّ حَتَّى لِلوَطَنِيَةِ الظافرةِ . بل كتابُ قصةٍ رائعةٍ أَلَفَتْها العواصفُ من فَنَيْنِ : ثورةِ الجوّ وثورةِ نفسكِ المصريةِ . وحكمتَها فى صوتين : زَفِيفِ الطيارةِ وصَرَخَةِ ضَمِيرِكَ الوطنى . وجعلتَها فصلين : أنتِ والمجهول . ألاَ حسبُكِ مجدًا أن يحيا الشعبُ كلُّهُ بضعةَ أيامٍ فى قصتكِ !

* * *

فعلى مَهْدِ الجوّ ، وفى حَرِيرِ الشعاعِ ، وتحتِ كِلْتَا السحابِ - وُلِدَ لمصرِ يومٌ تاريخى .

وخرجتِ التهانىُ التى طال احتباسُها فى القلوبِ المصريةِ لا يُفْرَجُ عنها لأن سَجَانَهَا ظَلَمُ السَّيَاسَةِ .

واتجهتْ أفرأحُ شعبٍ كاملٍ إلى الفتى الجريحِ الذى رَمَتْ به هِمَّتُهُ فوقَ هاويةِ الموتِ فتخطاها .

وتلقى شعورُ الأمةِ رسولَهُ المِقْدَامَ الذى لم يكن له ملجأٌ فى خِطَاوِهِ إلا شعورُهُ بهذهِ الأمةِ .

وارتجَّ الوادى كلُّه كأنه نَعْمٌ يتقلقلُ حينَ يُسَلُّ منه السيفُ .

ثم أهديت كلمة مصر لابنها الذى كتب فى جوها الكلمة السماوية الأولى ،
وكانت ساعة تلاشت عندها الزمن فارتفعت منه أربعة آلاف سنة وهتفت معنا
الفراغة : بوركت يا « صدق » !

* * *

لله درك أيما ابن عزيمة ! كأنما كشفت أهو يل الوحي وهبطت فى
سحابة مجلجلة إن لم تحمل كتاباً منزلاً فكأنما حملت شخصاً منزلاً .
ولعلك رسول الغيم العابس لهذا الجو المصرى الذى يضحك دائماً ضحكة
الفيلسوف الساخر فى حين أصبحت الحياة قوة لا فلسفة . . .
ولعلك مبعوث البرق والزرع لهذا السكون النائم الذى يطوى كل يوم فى
طى النسيان ما حدث فى اليوم الذى قبله . . .
ولعلك نبي الجدية والمرارة هذه الخلاوة النيلية المفترطة التى كاد منها
الشعب أن يكون سكر أخلاق يذاب ويشرب . . .
ولعلك تفسير مصحح لعقيدتنا المغلوطة فى القضاء والقدر ، أن القضاء أن
تقدم بلا خوف ، وأن القدر أن تثيق بلا مبالاة .
أما والله لقد غمرت الشعب بموجة هواء جديدة جنث بها فى جناحيك :
ونفخت روح طيارتك المحببة فى القلوب فجعلتها كلها ترفرف كأن لك فى
ضلوع كل مصرى طيارة .

أجنحة المدافع المصرية^(١)

استعجنحى^(٢) يا مدافع مصر وطيرى : إن المجد يطالب منا إنسانته البرقى .
لقد مدّت لغة القوة فى هذا العصر مدّها حتى أصبح الطير أن بعض
معانى المشى ، ولم يعد العالم يدرى كيف تكون الصورة الأخيرة التى يستقر
فيها معنى إنسانه .

فلتستعجد مصر بإنسانها البرقى الذى تخرج النار بيده من أعراض
السحاب ، وتفرقع فى أصابعه هزات الرعد ، ويجعل فى قبّة السماء
صلصلةً وجلكمةً ، ويحمل الاسم المصرى إلى معلق النجم ، فيضع له هناك
التعريف النارى الذى وضعت الدول العظمى لأسماها .

ولتستعجد مصر بإنسانها البرقى الذى يشعيرها حقيقة العلو العالى ، والعمق
العميق ، والسعة التى لا تحُد ؛ ويزيد فى معانى أحيائها معنىً جديداً لأحياء
السحب ، وفى معانى أمواتنا معنىً جديداً لموتى الكواكب .

إنسان برقى يتم بشجاعته فى السماء بطولة فلاّحنا الإنسان الشمسى فى
الأرض ، ويعلو بكبرياء مصر فى ذروة العالم ، فتظهر طائها الضيحة القوية ،
الجو كما ظهرت آثارها العظيمة قدرة فى الشرى .

إنها مصر ، مصر القادرة التى سحرت القدم بقوتها وفنّها ، فبقيت فيها
على حاله وجلالته ، وانهمز الدهر عنه كأنه قوة على قوة الزمن نفسها .
فاستعجنحى يا مدافع مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا إنسانته البرقى .

* * *

ولما فُتح السّجل ذات صباح لتكتب مصر أسماء الفؤج الأول من نسورها
الحربين ، صاح مجدها الخالد من أعماق التاريخ :

(١) كتبت فى احتراق أول طيارة حربية مصرية فى قدومها إلى مصر من أوروبا ، وقد
احترق فيها الشهيدان : (حجاج ودوس) ، وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

(٢) أى اتخلى الأجنحة ، ولم تأت الكلمة فى اللغة هذا المعنى ، ولكننا استعملناها فيه قياساً
على كلامهم .

« أَضْرِمِ الشَّعْلَةَ الْآدَمِيَّةَ الْأُولَى يَا مِصْرَ ، وَافْتَحِ الْقَبْرَ الْجَوِيَّ الْأَوَّلَ ،
وَالْحَدِيدَ فِيهِ مِنْ عَصَرَيْكَ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَقْبَاطَ ، وَضَعِي الْحَيَاةَ فِي أُسَاسِ الْحَيَاةِ ،
وَاسْتَقْبِلِي عَصْرَكَ الْجَدِيدَ بِأَذَانِ الْمَسْجِدِ وَدَقِّ النَّاقُوسِ لِيُبَارِكَهُ اللَّهُ ، وَلِيَتَأَقَّ
الشَّعْبُ أَوَّلَ طَيَّارِيهِ بِقُلُوبٍ فِيهَا رُوحُ الْمَعْرَكَةِ ، وَأَكْبَادُ عُرْفَتِ مَسِّ النَّارِ ؛
وَلَا يَنْظُرَنَّ إِلَى طَيَّارَاتِهِ الْأَوَّلِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْظُرَ النَّعْشِينَ فَيَرَى مَجْدَ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ
الْوَطَنِ ، ، فَتُسَطَّعَ نَظَرَاتُهُ بِبَرِيقِ الْكِبْرِيَاءِ ، وَلَمَعَةِ الْعَزِيمَةِ ، وَشُعَاعِ الْإِيمَانِ ؛
وَيَأْتَلِقَ فِيهَا النُّورُ السَّمَاوِيُّ الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ فِي بَعْضِ سَاعَاتِهِمْ كَوَاكِبَ ، نُورُ
صَلَاةِ الشَّعْبِ عَلَى مَوْتَاهِ الشَّهَدَاءِ » .

وَاسْتَجَابَ الْقَدَرُ لَصَوْتِ الْمَجْدِ ، فَالْتَمَحَ الظَّلَامُ فِي وَضَحِ الصَّبَحِ ، وَانْطَفَأَ
سِرَاجُ النَّهَارِ فِي قُبَةِ الْفَلَكَ ، وَأُطْبِقَتْ نَوَاحِي الْجَوِّ لِطَبَاقِ لَيْلَةٍ تَسَاقَطَتَتْ
أَرْكَانُهَا وَأَقْبَلَ الضَّبَابُ يَعْتَرِضُ اعْتِرَاضَ جَبَلٍ عَائِمٍ يَتَدَبَّدَّبُ فِي بَحْرِ ،
وَاسْتَأْرَضَ السَّحَابُ فَتَحَلَّى عَنْ طَبِيعَتِهِ السَّمَاوِيَةِ الرَّقِيقَةِ ، وَتَذَامَرَتِ الْعُنَاصِرُ عَلَى
الْقِتَالِ يَحْضُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَغَشَّتِ السَّمَاءُ بِوَجْهِ الْمَوْتِ : كَلَّحَ فَارُوبًا
وَانْتَفَحَ ، وَتَكَسَّرَتْ فِيهِ الْغُضُونُ كُلُّ غُضْنٍ كَسِفَةً ظَلَامٍ ، وَعَادَ أَوْسَعُ شَيْءٍ
أَضْيَقَ شَيْءٍ ، فَكَانَ الْفَضَاءُ كَصَدْرِ الْمُحْتَضِرِ : لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عَمْرُ سَاعَةٍ
وَأَنْفَاسُهَا .

وَابْتَدَرَتْ إِلَى مَجْدِ الْمَوْتِ الطَّيَّارَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْأُولَى ؛ وَكَانَ فِيهَا إِنْكَلِيزِيَانُ
يَقُودَانَهَا فَأَبَاهَا الْمَوْتُ ، فَذَهَبَتْ فَانْتَحَرَتْ أَسْفًا وَتَرَدَتْ مُتَحَطِّمَةً ، وَانْسَلَّ
الرَّجُلَانِ مِنْ مَخَالِبِ الرَّدَى ، وَكَانَا فِي الطَّيَّارَةِ كَوَرَقَتَيْنِ مِنَ النَّبْتِ فِي فَمِّ جَرَادَةٍ
هَمَّتْ تَقْضِيهِمَا . . .

وَتَسْتَبْقِ الثَّانِيَةَ فَإِذَا فِيهَا وَدِيعَةُ الْكَرَمِ مِنْ عُنْصُرِي مِصْرَ : « حَجَّاجٌ
وَدُوسٌ » ^(١) وَكَانَ سَرًّا مِنْ أَسْرَارِ مِصْرَاجَتَيْهِمَا فِي مَدَاحِضِ الْغَمَامِ وَمِزَاقِهِ ،
لِيَكُونَا هَدِيَّةَ مِصْرَ الْأُولَى إِلَى مَجْدِهَا الْحَرْبِيِّ ، ثُمَّ لِيَكُونَا هَدِيَّةَ الْمَجْدِ إِلَى إِحْسَاسِ
هَذَا الشَّعْبِ يُحْسِنُ مِنْهُمَا الْعَالَمَ الْمُنْطَوِيَّ لَهُ فِي مُسْتَقْبَلِ النَّصْرِ .

(١) هما فؤاد حجاج ، وشهدى دوس ؛ وَكَانَ فِي الطَّيَّارَةِ الْأُخْرَى الَّتِي تَحَطَّمَتِ الْمُسْتَرِ بَلِيَّتْ ،
وَالْمُسْتَرِ سَمِيثْ .

واعْتَسَفَتْ طَيَارَةُ الشَّهِيدِينَ طَرِيقَ الْفَنَاءِ وَمَتَاهَةَ الْحَيَاةِ ، فَذَهَبَتْ عَنْهَا مَعَارِفُ الْأَرْضِ ، وَعُمِيَّتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي الْبَطْلَانِ إِلَى تَصْرِيفِ أَجْسَلِهِنَّ ، وَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْأَنْفَاسِ الْبَاقِيَةِ لَهَا ؛ فَمَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ ؛ وَلَمْ تَكُنْ طَيَارَةً تَحْمِلُهُمَا ، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ اجْتَرَّهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ ، فَانْحَطَّتْ مِنَ الْهَوَاءِ جَانِحَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً فِي الْعَاصِفَةِ ، ثُمَّ انْتَهَضَتْ وَاثْبَةً ، وَتَمَطَّرَتْ مِنْقَلِبَةً ، فَاشْتَعَلَتْ فَاسْتَعْرَتْ فَأَنْصَجَتْ رَاكِبَيْهَا ، رَحِمَهُمَا اللَّهُ !

وَكثِيرًا مَا يَكُونُ مَنْظَرُ الْحُزْنِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ انْهَمَاكَ الْحَيَاةِ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تَبْدَعُ مِنْهُ السُّرُورَ وَالْقُوَّةَ . احْتَرَقَ الْبَطْلَانُ لِتَسَلَّمَ مَصْرُ فِي نَعْشِهِمَا رَمَادًا لَنْ يُبْنَى تَارِيخُ الْعِزَّةِ الْوَطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ .

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مِصْرَ وَطِيرِي . إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرِّي .

* * *

صَنَعَتِ النَّارُ الْآدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ ، وَوَضَعَتْ لَنَا الْأَسْمَ الْبَدِيعَ الَّذِي نُطْلِقُهُ عَلَى طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ نُسُورَ الْجَوِّ ، وَلَكِنْ سَمُّوْهُمْ « جَمَرَاتِ الْجَوِّ » صَنَعَتْ نَارُنَا الْحَقِيقَةَ ، وَأَوْحَتْ إِلَيْنَا أَنْ نَسْتَبْدِلَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ ، وَأَنْ نَفَاجِحِي شُعُورَنَا الْحَالِمَ فَنَصْدُمَهُ بِآلَامِ الْيَقَظَةِ الْمَرَّةِ ، وَأَنْ نَغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي التَّرْبِيَةِ الْمِصْرِيَّةِ فَلَا تَكُونَ : الْعَيْشَ الْعَيْشَ ، وَلَكِنْ الْقُوَّةَ الْقُوَّةَ .

صَنَعَتِ النَّارُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ لِلْحَيِّ ، وَلَيْسَ الْحَيُّ أَدَاةً لِلْحَيَاةِ ، فَلْيَتَصَرَّفْ بِهَا عَلَى قَوَانِينِ الرُّوحِ وَأَمَالِهَا فَيَسْمُوَ وَتَسْمُوْ ، وَلَا يَبْدَعْهَا تَتَصَرَّفُ عَلَى مَذَاهِبِ أَقْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَارِيفِهَا فَيُذَلِّلَهَا وَتُذَلِّلُهُ . وَفِي قَانُونِ الرُّوحِ : لَا قِيَمَةَ لْعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا ؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضْعُطَةُ الْحَيَاةِ : كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا . . .

بَلَسَى ، قَدْ صَنَعَتِ النَّارُ الْآدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ الْحُرِّيَةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى وَاحِدٍ : وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرِّيَةَ لِعَاشِقِهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمَتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا : جَمَالُهَا مَتَوَحِّشٌ ، وَخِلَافُهَا مُفْتَرَسَةٌ ، وَظَرْفُهَا مَسْفَاكٌ لِلدَّمِ .

فاستجئني يا مدافع مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا إنسانته البرقى .

* * *

وإلى السماء يا « جمرات الجو » ، فإذا استويت على السحاب ، فليست
الطيارةُ ثمَّ طيارةٌ ، بل حقيقةٌ حيةٌ عاملةٌ للمجد ، فلتحمل معناها
المصرى من بطلها المصرى .

وإذا سبحتم في مهبط القدر ، فليس الطيارُ ثمَّ طياراً ، بل حياةٌ
عبقريَّةٌ أرسلتها مصرُ تستنزلُ للحياة أقداراً سعيدة .

وإذا خضتم في المعرك الضئكَ تبعثُرُ فيه الآجالُ على الرياح ، فليس
الجسمُ المصرى هناك من لحم ودم ، بل ناموساً طبيعياً ماضياً إلى غاية .

وإذا تقاذفتم في بحر الشمس ، فأنتم هناك على شباكٍ طرحتموها لصيدِ
أيام مضيئة تلتئم في تاريخ مصر .

وإذا نفذتم من أقطار السماوات ، فانظروها بأعينكم معالى مصر ، وافهموها
بقلوبكم ذاتية الوطن المصرى تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو .

إنما الطيارةُ وسلاحُها وطيارُها تأليفٌ من الإنسانية والعناصر ، معناه فى
العزيمة « لابد » . ومتى هدرت الطيارة هديرها فإنما تقول للبطل منكم : هلكم
من عال إلى أعلى ، إلى أكثر علواً ، إلى أقصى حدود الواجب على النفس حين
يأخذ الواجب الكل وحين تعطى النفس الكل .

فاستجئني يا مدافع مصر وطيرى . إن المجد يطلب منا إنسانته البرقى .

الطماطم السياسى . . .

كان (م) باشا* رحمه الله داهيةً من دهاة السياسة المصرية ، يلتوى مرةً في يدها التواء الحبل ، ويستوى في يدها مرةً استواء السيف ، ولا يرى أبداً إلا منكشاً متحرراً كأن له عدواً لا يدرى أين هو ولا متى يقتحم عليه ، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلات للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق — يعرف أن عدوه كامنٌ في أعماله .

وكان ذكياً أريباً ، غير أن ملامسته للسياسة الدائرة على محورها ، جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر ؛ فكان في مراوغته كأن له ثلاثة عقول : أحدها مصرى ، والآخر إنجليزى ، والثالث خارجٌ من الحالين .

وبهذا تقدم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز ، واستمرت مجاريه مطردةً لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة ، إذ كان حسن الفهم عنهم ، سريع الاستجابة إليهم ؛ يفهم معنى ألفاظهم ، ومعنى النية التي تكون وراء ألفاظهم ، ومعنى آخر يتبرع هو به لألفاظهم . . . فكان هو وأمثاله في رأى تلك السياسة القديمة ، رجالاً كالأفكار : يوضع أحدهم في مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لإفساد اليقين ، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغة الهوى لإيجاد الفتنة .

* * *

وكان صديقى (فلان) رحمه الله صاحب سرّه (السكرتير) ، وقد وثق به الباشا حتى إنه كان يُعَالِنُهُ بما في نفسه ، ويبشّه همومه وأحزانه ، ويرى فيه دنيا حرةً يخرج إليها كلما ضاقت به دنيا وظيفته ، ويستعير منه اليقين أحياناً بأنه لا يزال مصرياً لم يتمّ بعد تحويله في الكرسي . .

فحدثني الصديقُ بعد موت هذا الباشا قال : إنه دعاه يوماً ليفتّاحه الرأى

فى أمر من أموره ، ثم قال له : إن الرئيس الإنجليزى غير مطمئن إليك لأن حقيقة من الحقائق الصريحة ظاهرة على وجهك ، فأنت تنظر إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصرى مستقل .

قال صاحب السر : لئن كان ذلك ما يغضبه إن الخطبَ لهيِّن ، فليست أنظر إليه بعد اليوم إلا من وراء نظارة سوداء . . .

فضحك الباشا وقال : يا بنى ، هذا الإنجليزى عندنا كالشيطان : « إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا ترونهم » ، والله يا بنى إني لأشدُّ أنفةً منك ، وإن صدرى لشجى مما أنا فيه من هذا الكرب ، ولكننا نحن الشرقيين قد ضيعنا منذ فقدنا الشخصية الاجتماعية .

أترأى تفهم شيئاً لو قلتُ لك : رجلٌ ، أسدٌ ، جبلٌ ، مدينةٌ ، أسطولٌ ؟ إن تركيبنا الاجتماعى شئٌ كهذا الكلام : فيه من ضخامة اللفظ بقدر ما فيه من انحلال المعنى واضمحلاله . ولكل كلمة إذا أفردت معنى صحيحٌ يقوم بها وتقومُ به ، غير أنه يتحول فى الجملة إلى معنى كتلاً معنى .

أصبح الشرقُ يعيشُ فى أمتة على قاعدة أنه منفردٌ لاصلة بينه وبين الأطراف لافى الزمان ولا فى المكان ، ونسى معنى الحديث الشريف : « اعملْ لَدُنْكَ كأنك تعيشُ أبداً » . فإذا كان يريد أعظمُ المصلحين الاجتماعيين من قوله : « كأنك تعيشُ أبداً » ؟ إلا أن يقررَ لأمتة أن الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المقبلة كلها ، فليعملْ لها ولنفسه كأنها موقوفةٌ عليه وكأنه مستمرٌ فيها . هذه حكمةٌ إسلاميةٌ دقيقةٌ ، عندنا نحن لفظُها ولسنا نعرف معناها ، وعند الإنجليز معناها ولا يعرفون لفظها . أهْمُ المسلمون أم نحن ؟

وعلى قاعدة الانفراد انفردَ كلُّ شئٍ ؛ فأثر الشرقُ حياته على وطنه ، وقدمَ لذته على واجبه . وتعاملَ بالمال فى مواضع المعاملة بالأخلاق ؛ وكان طبيعياً مع هذا أن يختصر الدينَ اختصاراً يجعله مقداراً بين مقدارين ، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دينٍ ؛ وبذلك يناسبُ فرديته ويقعدُ تحت حكمه وهو خارجٌ عليه ؛ فترى الرجلَ من هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلفُ به كذباً على درهم ، ويصلى ويتفجرُ فى يوم واحد ، ويتعبدُ فى نفسه ويخونُ سواه فى وقتٍ معاً .

ومتى كانت الحالة النفسية للامة هي هذه الفردية ومصالحها ودواعيها ، كان الكذبُ أظهرَ خِلالِ هذه الامة ، إذ هو انفرادُ الكاذبِ بحظه ومصالحته وداعيته ؛ ولا يكذبُ عليك إلا من يرجو أن تكونَ مغفلاً ، أو من قدّر في نفسه أن المعاملةَ العامةَ في الامة هي على قاعدة المغفلين . . . ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه خِذاقاً وبراعة (وشطارة) .

وإذا عمَّ الكذبُ فشا منه الهزل ؛ فكلُّ كاذبٍ هازل ، وهل يَسْجِدُ الكاذبُ وهو يكذبُ إلا إذا كان مجنوناً ؟ ومن الهزلِ ضَرْبٌ هو المباشطة بالكذب ، ومنه ضربٌ من كذب الحقائق ، ومنه مِن كذب الخيال ، وكيفما دارت الحالُ لاتجده إلا كذِباً .

ومتى صار الكذبُ أصلاً يَعْمَلُ عليه ، تقررَ عند الناس أن الكلامَ إنما يقالُ ليقالَ فقط . أفلستَ ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد ، لا يكلمه الآخرُ أولَ ما يتكلم إلا أن يسأله : صحيح ؟ صدق ؟

ولا أضُرَّ على الامة من هذه العقيدة — عقيدة أن الكلامَ يقالُ ليقالَ فقط — فإنها هي طابَعُ الهزل على أخلاقِ الامة ، وعلى كل أحوالها ، وعلى حكومتها أيضاً .

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء ، حتى ليكونُ لنا الواحد كالآحاد في غيرنا فنجعلُه مائةً بصِفرين ، ننجى بأحدهما من اعتيادِنا الكذبَ على الحقيقة ، ونجى بالآخر من حقيقةِ إفلاسنا .

هذه مبالغةٌ خطيرة ، وأخطرُ ما فيها أننا نريدُ المبالغةَ في الدلالة على الأشياء ، فنتقلب مبالغةً في الدلالة علينا نحن ، وعلى كَذِبِ طباعنا ، وعلى فَوْضَى العقلِ فينا . نعم وحتى تُثَبِّتُ أننا لاعزمُ لنا ، من كونها مبالغةً لا تدقيقَ في معناها ؛ وأن لا صبرَ لنا ، من أنها لاثباتُ حقيقتها المهزومة ؛ وأن لاشدةَ لنا في طلب الحق ، لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق ؛ وأننا لانتمثلُ العواقبَ إذ نرسل الكلامَ إرسالاً ولا نخشى ما يكونُ من عاقبته .

وأيسرُ ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقةً من طرق الشعب في التعبير ، أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكمة ، فهو نفسه

كالمبالغة ، والحكومة له كالتصحيح ؛ وهذه هي العلة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته في كل كبيرة وصغيرة في العمل ، كما أنها هي العلة في أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة .

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية ، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله ، فيديرها على ذلك وإن قلت منفعتها ، وإن فسدت حقيقتها ، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة ؛ فقاعدتهم هي هذه : ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه ، ولكن فيما يقال عنه ؛ فإن لم يفعل شيء فلا تعمل شيئاً

هذه يا بني أمة لا يكون حكماً لها إلا مبالغات أيضاً . . .

* * *

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوت بائع ينادى على سلعته : أحسن من التفاح ياطماطم . . .

فضحك الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسي العفّين : إنه ليس تفاحاً وحسب ، بل هو أحسن من التفاح . . .

إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها ، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها ، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذبة وهزلاً ومبالغة .

البك والباشا

وحدثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال : جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجلٌ دخل على متهللاً مُشْرِقَ الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخله بشمعة . . . ويرنح عطفاه كأنما تهزّه أسرارُ عظمته ؛ ويمشى متخلّعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمُها وأثقلتها المعاني الكثيرةُ من أعين الناظرين إليها ، وعلى شفّته خيالٌ من فكرة هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلا ليُعَلِّمَهُ أنه هو كبير : فيكونُ في الأمرِ شيثان : الأمرُ واللؤم ؛ وأقبل على في هيئة شاحخة لو نظّقت لقاتل : سَبَّحَ اسمَ ربِّك الأعلى . سَبَّحَ اللهَ الذي خلق في الأسدَ شعرةً جَبَّارةً خرج منها الأسدُ كُلُّهُ . . .

سَبَّحَانَ اللهَ ولا إله إلا الله . هذا (فلان باشا) الذي قرأتُ في الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية ؛ خلقه الله من ترابٍ وحوّلت الرتبةُ هذا الترابَ الذي فيه إلى ذهبٍ خالص . . . ينظرُ إلى وبرغمه أن تَقِفَ عيناه على وعلى الحائط ؛ ولا تجدُ نفسهُ المزهوةُ سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراء المنبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه . ما بين أمس واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية ، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان . . .

(باشا) ! هذه الباء وهذه الألفُ وهذه الشينُ الممدودةُ ليست حروفاً خارجةً من الأبجدية العامة ؛ فإن الأبجدية قد تجعلُ الباء في بليد مثلاً ، والألف في أبله ، والشين الممدودة في شاهد زور مثلاً مثلاً . . . بل تلك حروف من حروف الدولة ، منتزعة من قوة قادرة على أن تجعلَ لحياة صاحبها من الشكل ما يُسَبِّغُه الفنُّ على الحجر من شكل تمثال يُنصَّبُ للتعظيم .

قال : وكنت أعرفُ هذا الرجل ، وهو رجلٌ أُمِّي لا يُحسن إلا كتابة اسمه كما تكتبُ الدجاجة في الأرض . . . فكانت الرتبةُ عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصلدة ؛ وهذا مما يحتملهُ المجاز بعلاقة ما ؛ ولكن الذي لا يسوغُ في المجاز ، ولا في مبالغات الاستعارة ، ولا في خرافات المستحيل ،

أن تزعم الصخرة للناس أن لفظ الحديقة الذى أطلق عليها قد أنبت فيها أشجار الحديقة

* * *

قال صاحب السر : واستأذنتُ له على الباشا فسهّل له الإذن وقال : هذا رجل أصبح كالورقة المصبومة بخاتم الدولة ، فلتكن ما هي كائنة فإن لها اعتباراً . ثم تلقّاه تلقّى الهازل المتهمّ وقال له : أهنتك بالنحوى . . . مُباركون يا باشا . . . وأقبل عليه وبسّط له وجهه .

وكان فى الباشا دُعاةٌ ظريفةٌ يُعرف بها ، وهو كثيرُ النوادر والمُلح ، وله خصيصةٌ عجيبةٌ ، فيكون بين يديه كُدُسٌ من الأوراق التى تُعرض عليه ينظرُ فيها ويقرؤها ويتدبّرها ، وهو فى ذلك يستمعُ إلى محدثه ويُراجعهُ ويردُّ عليه ، فيُصرفُ الناسَ والأوراقَ فى وقت واحد ، ويستعملُ ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يُخلِلُ بالإصابة فى شىء من هذه ولا من تلك .

ثم قال للباشا الحديث وعينه إلى ما بين يديه : هذه أوراقُ سرقةٍ ثورٍ عظيم ، فكلم يساوى الثورُ العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذكى الفطن : إذا كان من الثيران التى تُعرضُ فى المعارض وتنال المداليات الذهبية فقد يَبْعُدُ سعرُهُ ويُعَالَى به .

قال الباشا : نعم نعم ، إن من الثيران ثيراناً يُسَنَّمُ عليها بالأوسمة ، ولكن هذا الثور الذى سألتك عنه يا باشا هو ثورٌ محراث لا ثورٌ معرض . . .

قال الآخر : إذا كان ثورٌ محراث فثله كثيرٌ فلا يكون ثوراً عظيماً كما قلتَ وليست له إلا قيمةٌ مثله .

قال الباشا : أرانى أخطأت ، ولعن الله العجّلة ، فهذه أوراق سرقة حمار!

* * *

قال صاحب السر : وانصرفَ عنهما بأوراقى ، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً لصاحبنا بتحيّات كلّها صفعات ؛ فلم يكن إلا يسيرٌ حتى خرج مبتهجاً يَمِيدُ السرورُ بعطفه . ثم دعانى الباشا ودفع إلى بطاقةٍ بالحاجة التى جاء فيها الرجل ، ثم قال :

يا ليت لنا فى ألقاب الدولة لقب (رحمه الله) . . . يُسَنَّمُ به على مثل هذا .

أتدري يا بنيَّ أن هذه الرتبَ وهذه الألقابَ لم تكن في القديم إلا كوضع علامةٍ الشرِّ على أهل الشرِّ ليها بهمُّ الناسُ ، حتى كأنما يُكْتَتَبُ على أحدهم من لقب بك أو باشا : مُلْحَقٌ بالدولة . . .

وكان الشعبُ أُميًّا جاهلاً لا يستطيع الإدراكَ ولا يُحَسِّن التمييزَ ، فكانت الألقابُ كالقوانين الشخصية الموضوعة في صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة ، وكان كلُّ من يحملُ لقباً من الحكومة يستطيع أن يقولَ للناس : لقد وضعت الحكومةُ كلمةَ الأمر في شفتي . . .

وكان اللقبُ إعلانٌ من الحكومة المستبدَّة لشعبها الجاهل : إن هذا البك والباشا ممن يحقُّ له أن يُحترم .

من الهزل أن يُشتري اسمُ النصر الحربيِّ أو يُوهَّبَ أو يُعارَ ؛ وأقبحُ منه في باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأُمِّيِّ بلقب باشا . وأنا أعرف أنه قد بذل في سبيله ما بذل ، وأضاع ما أضاع ، فكان الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضعَ توقيعهم على أخذ الثمن . . .

ولقد أصبح الرجلُ تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسحرها الوهميِّ ، فحسبَ ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم ، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته مجارى أموره وأحواله ، أو حاجاتُ أسبابه وأتباعه ؛ وها هو ذا قد جاء يطلبُ حقَّه ، فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوَّغت سلطته الظهورَ والعملَ ، فدَّتْ بَاعَهُ وقوَّتْ أمره ونوَّهتْ باسمه لمصالحها وعمَّالها ؛ فهو عند نفسه قد التَّحَمَّ منذ اليوم بالنسب الحكوميِّ ، وفي كلمة واحدة ، هو قد وُلِدَ من بطن الحكومة . . .

ألا ترى أن الشعبَ لو استردَّ سلطته الكاملةَ ، وأن الناسَ لو أيقنوا أن الألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ من الأمرِ والنهيِّ والوسيلةِ والشفاعةِ ، لما بقي من يعبأ بها ، ولكان حاملُها هو أولَ من يسخر منها ؟

فهى إذن شَعْبَدَّةٌ^(١) من الحكومة وتضليلٌ في مثل هذا الرجل الأُمِّيِّ ، وهى ضربٌ من التهويل والمبالغة في سواه من الكبراء والعظماء ، كأن الوزيرَ

(١) الشعبذة والشعوذة بمعنى واحد .

الذى يلقَّب بالباشا ، يجعلُ فيه لقبهُ وزيرين ، وكأنَّ مثلَ هذا الأُمى المغفَّل ،
يجعلُ فيه لقبهُ شخصاً آخرَ غيرَ الأُمى المغفَّل

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاجُ إلى ألقابٍ يتعظَّم بها إلا وهو لا يستحقُّها ؛
وقلَّما رأيتُ رجلاً يستحقُّها إلا وهو لا يحتاجُ إليها ؛ فأين يكونُ موضعُ هذه الرتبِ
والألقابِ ؟

ساكنو الثياب . . .

قال صاحبُ سرِّ (م) باشا : وجاءني يوماً اثنان من شيوخ الدين من ذَوِي هَيْئَاتِهِمْ وَأَصْحَابِ الْمَنْزِلَةِ فِيهِمْ ، كلاهما هامةٌ وقبامةٌ ، وجبّةٌ وعمامةٌ ، ودَرَجَةٌ من الإمامة ؛ ولهما نسيمٌ يَنْفُحُ عِطْراً حَسْبَتْهُ من تَرْوِيحِ أَجْنَحَةِ الملائكة ؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء في لَهَبِ الشمس تنقئ به يَمْنَةً وَيَسْرَةً . فتوجّهتُ إليهما بنظري ، وأقبلتُ عليهما بنفسى ، ووضعتُ حواسي كلّها في خدمتهما ؛ وقلتُ : هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذي مادته الأولى القلب .

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنها تدلُّ على شرفها وقدَّرَها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب كأن مادّتهم من السُّحُب ، فيها لغيرهم الظلُّ والماء والنسيم ، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلوُّ والجمال ؛ يُثْبِتُونَ للضعفاء أن غير الممكن ممكنٌ بالفعل ، إذ لا يرى الناسُ في تركيب طباعهم إلا الإخلاصَ وإن كان حرماناً ، وإلا المروعةَ وإن كانت مَشَقَّةً ، وإلا محبةَ الإنسانية وإن كانت ألماً ، وإلا الجَدَّ وإن كان عَنَاءً ، وإلا القناعةَ وإن كانت فقرًا .

هؤلاء قومٌ يُؤَلِّفُونَ بيدِ القدرة ، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها وختمت كما وُضِعَتْ ، لا تستطيع أن تُخْرِجَ للناس من حقيقة نصف حقيقة ولا شبه حقيقة ولا ترويراً على حقيقة .

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيةِ القائمةِ على النواميس الاقتصادية ! فالسماء نفسها تحتاج فيها إلى سماءٍ لعرض الجنةِ على الناس بالثمن الذي يملكه كلُّ إنسان وهو العملُ الطيب .

نال : ونظرتُ إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوة العاملة فيها شريعةٌ نفسها ، تلك الشريعةُ التي لا تتغير ولا تتبدلُ كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا . ثم سألتُهما عن حاجتهما ، فإذا أحدهما قد عملَ آياتاً من الشعر جاء

يمدح بها الباشا ليزدلف إليه ؛ فقلت في نفسي : « ما أشبه حَجَل الجبال^(١) بألوانِ صخرها ! » هذا عالمٌ دنيا يحدُّها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ، ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان
 ثم نَشَرَ ورقةً في يده وأخذ يَسْرُدُ عَلَيَّ القصيدة ، وهي على رَوَى الهاء ،
 تنتهى أبياتها : ها . ها . ها . فكان يقرأها شعراً — أو كما يسميه هو شعراً —
 وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشيطان الذى ركب أكتافَ هذا العالم الدينى :
 ها . ها . ها . ها . ها

* * *

قال صاحبُ السر : وأدخلتهما على الباشا ، فوقف المدّاح ، يمدحُ بقصيدته ،
 وأخذتُ لحيتُهُ الوافرةُ تهتزُّ في إنشاده كأنها منهضةٌ ينفُضُ بها المَلَكَلَ عن
 عواطف الباشا وكان للآخر صمتٌ عاملٌ في نفسه كصمت الطبيعة حين
 تَسْفِطُ البذرةُ في داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجتَهُ هو ، وإنما جاء بصاحبه
 رافداً وظهيراً يحملُ الشمسَ والقمرَ والليثَ والغيثَ ، لتتقلبَ الأشياءُ حول
 الممدوحِ فيأخذهُ السحرُ ، فيكونَ جوابُ الشمسِ على هذه اللغة أن تضىءَ يومَ
 الشيخ ، وجوابُ القمر أن يملأَ ظلامه ، وجوابُ الليث أن يفترسَ عدوه ، وجوابُ
 الغيث أن يَهْطَلَ على أرضه .

والباشا لا يدعُ ظَرْفَهُ ودُعابَتَهُ ، وكان قد ملح في أشداقِ العالم المتشاعر
 أسناناً صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ ، أحسبني
 لا أكونُ إلا كاذباً إذا قلت لك : لا فُضَّ فوك

ثم ذكر الآخر حاجتَهُ : وهى رجاؤه أن يكونَ عمدةُ القرية من ذوى قرابتهِ
 لا من ذوى عدواته . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جهل . . . ؟

* * *

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسهم زياً
 خاصاً يتميزون به فى الناس ، كأن الدينَ بابٌ من التحرفِ والتصرفِ ،

(١) هذا مثل عربى ، والحجل : الطائر المعروف ، يكون فى الجبل من لون صخره لليلة
 المقررة فى التاريخ الطبيعى .

بعضُ آلتِه في ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجُبَبَ والقفاطينَ وكأنها دواوينهم
لا ثيابهم

قد أفهمُ لهذا معنىً صحيحاً إذا كان كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ
عمله كالجندى في معاني سلاحه ، فيكون التعظيمُ والتوقيرُ لثوب العالم الدينيِّ
كأداء التحية لثوب العسكريِّ : معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله
بيعُ الروح وبذلُ النفس وتركُ الدنيا في سبيلِ المجتمع ؛ هذا ثوبُ الموت
يُفَرِّضُ على الحياة أن تعظمه وتجلّه ، وثوبُ الدفاع تجب له الطاعة والانقياد ،
وثوبُ القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن .

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم ؟ إنها تُطعم صاحبها . . .

أثرُ الجيشِ معروفٌ في دفاع الأُممِ العدوِّ عن البلاد ، فأين أثرُ جيشِ
العلماء في دفاع المعاني العدوِّ عن أهل البلاد ، وقد احتلت هذه المعاني وضربتْ
وتملكَتْ وتركَتْ هذا العالمَ الدينيَّ في ثوبه كالجندى المنهزم : يحملُ من هزيمته
فضيحةً ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بنىَّ قد رأيتَ (الشيخ محمد عبده) وعرفتَه ؛ فرحم الله هذا الرجل ،
ما كان أعجبَ شأنه ! لكأنه والله سحابةٌ مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه
قد كان بين قلبه ورأسه طريقٌ لبعض الملائكة . لأشبهه أن يكونَ هذا
قولاً .

كان يزورني أحياناً فأراني مُرغمّاً على أن أقدمَ له مجلسين أحدهما قلبي .
وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً ، إذ لا تراه إلا شعرتَ به يرفعك إلى حقيقة سامية^(١) .

رجلٌ نَسَبَتْ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذى هياه لرسالته ،
فعواطفه كالعطر في شجرة العطر الشَّدِيَّة ، وشبائله كجمال السماء في زُرقة
السماء الصافية ، وعظمته كروعة البحر في منظر البحر الصاخب . وكثيراً
ما كان يتعجبُ من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغانى) فيسأله مندھشاً :
بالله قل لى : ابنُ أىِّ ملكٍ أنت ؟

(١) وصفنا الشيخ (رحمه الله) في كتابنا (السحاب الأحمر) واستلھنا روحه فصلا طويلا
تجده هناك .

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير ، ولكنه ابنُ القوّاتِ الروحيةِ العاملةِ في هذا الكون ؛ فهي أعدّته ، وهي ألهمتّه ، وهي أنطقته ، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غيرَ كتمان ، ومُصَارحةً غيرَ مخادعة ، وهي جعلت فيه أسديّة الأسد ، وهي ألقت في كلامه تلك الشهوةَ الروحيةَ التي تذاق وتُحسَبُ ، كالحلاوةِ في الحلوى .

هذا هو العالم الديني ؛ لا بد أن يكونَ ابنُ القوّاتِ الروحيةِ ، لا ابنَ الكتُبِ وحدها ، ولا بد أن يَسْخَرَجَ بعمله إلى الدنيا ، لا أنْ يُدْخِلَ الدنيا تحت سقفِ الجامع . . .

وأنا فما ينقضي عجبِي من هؤلاء العلماء الذين هم بِقَمَائَا تَتَضَاعِلُ بِجَانِبِ الأَصْلِ ؛ يبحثون في سُنَنِ النبي (صلى الله عليه وسلم) : كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي ويتحدّث ؛ كأنهم من الدنيا في قانونِ المائدة ، وآدابِ الولائم ، ورُسُومِ المجتمعات ؛ أما تلك الحقيقةُ الكبرى ، وهي كيف كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقاتل ويحارب لهداية الخلق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتِها ؟ وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعلياً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة ؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ ليكسِرَ به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق ، فتُخْرِجُ من الغنى متعفّفاً ومن الفقر لَصّاً ؟ وكيف استطاع (صلى الله عليه وسلم) بفقره السامى أن يُحوّلَ معنى الغنى في نفوس أصحابه ، فيجعله ما استغنى عنه الإنسانُ من شهوات الدنيا وتسرّك ، لا مانال منها وجَمَعَ ؟ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة ، فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد في الكتُبِ وشروحيها وحواشيها ، ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها ؛ وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعهم فيها الدينُ ولكن وضعتهم فيها الوظيفة . . . ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سئل بعضُ العرب : يَمَ ساد فلانُ فيكم ؟ قالوا : احتجنا إلى علمه واستغنى عن دنيانا . . .

الأخلاقُ المحاربة

وحدثني صاحب سرّ (م) باشا بهذا الحديث قال : كنا في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزاهز والفتن ، وقد تفاقمت الثورة ، وأخذ الشبابُ يعملُ ويفكر فيما يستطيع أن يعملَ ، وما يجب أن يعملَ ؛ وكان السَّخَطُ العامُّ هو ميراثُ الوقت ، فكانت قلوبُ الشعب تُلهِمُ واجباتها إلهاماً ، إذ لم يكن في هذه القلوبِ كلُّها إلا لَذَّةُ الدم تعيّن اتجاه أعمالها وتحدّده .

كانت الثورة زلزلةً وقعت في التاريخ ، فجاءت تحت زمن راكد لا يتغير إلا بأن يُنسَف ، ولا ينسِفُه إلا مادةٌ إلهيةٌ كالحركة الكونية التي تخرجُ اليومَ الجديد من اليوم القديم ؛ فكان القَدَرُ يعمل بأيدى الإنجليز عملاً مصرياً ، ويعملُ بأيدى المصريين عملاً آخر .

وتعلم الشعبُ من دفنِ شهدائه كيف يَسْتَنْبِتُ الدمَ فَيُنْبِتُ به الحرية ، وكيف يزرع الدمعَ فيخرج منه العزم ، وكيف يستشمرُ الحزنَ فيثمر له المجد . وكان رصاصُ الإنجليز يصيب هدّافين معاً : فيصرعُ شهداءنا ، ويقتلُ الموت السياسي الذي احتلَّ معهم هذه البلاد . وقد أنعموا على الشعب بالصدمة الأولى ، فنشبت المعركة التي تقاتلُ فيها الأخلاقُ القومية لتنتصر ؛ وشعرت مصرُ في جهادها بأنها مصرُ ، فالتمس رُوحها التاريخيُّ رمزَه العظيمَ في الأمة ليظهر فيه عاتياً جبّاراً ؛ فكان هذا الرمزُ الجليلُ العظيمُ هو سعد زغلول .

* * *

قال صاحب السر : وكان الطلبةُ قد غدّوا من أول النهار يتظاهرون ، وقد جعلتهم الثورةُ كالأرواح تخلّصت من الموت بالموت فلا تخشاه ولا تباليه ، واستقلّت عن العقل بتحولها إلى شعورٍ مَحْض ، وخرجت عن القوانين كلُّها إلا القانونَ الخفيّ الذي لا يعلم ما هو .

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها ، فلست تراهم إلا عظماء في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له ، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به ، أجلاء في

جلال الوطن الذى يَحْيَوْنَ ويموتون فى سبيله .
 وكانوا فى الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك ، وشعورها الحى المتوثب ،
 وقواها البارزة من أعماقها ، وأملها الزاحف ليقهر الصعوبة .
 يُفَادُونَ بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها ، وليس فى أحد منهم ذاته
 ولا أغراضُ شخصيه . فما أجلّ وما أعظم ! وما أروع ! وأسمى ! أيتها الحياة !
 هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة ؟

* * *

قال : وكان أخى هو زعيم هؤلاء الطلبة فى مدينتنا ؛ قوى على الزعامة وفى
 بها ؛ يحمل قلباً كالجمر الملتهب ، وله صوتٌ بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يمتدّ به .
 إذا مشى فى جهاده كان كلُّ ما على الأرض تراباً تحت قدميه ، فلا يمشى
 إلا محتقراً هذه الدنيا وما فيها ، غير مقدّسٍ منها إلا دينه ووطنه ؛ وسلاحه أن
 كلَّ شئٍ فيه هو سلاحٌ على الظلم وضدّ الظلم .

وكان فى ذلك اليوم يقود « المظاهرة » ، وحوله جماعةٌ من خالصته وصفوة
 إخوانه ، يمشون فى الطليعة تحت جو متقدٍ كأن فيه غضب الشباب ، عنيف
 كأنما امتزج به السخط الذى يفورون به ، رهيب كأنه مُتهى لينفجر ؛ فلما
 بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده انصبّ عليهم المدفع الرشاش . . .

قال : فىئى بالجلس بعد ذلك فى الديوان إذ دخل عسى أخى هذا ينتفض
 غضباً كأن المعانى تنبث من جسده لتقاتل ، ورأيت له عينين ينظر الناظر
 فيهما إلى النار التى فى قلبه ؛ فخشيت أن يكون القوم أطلقوا عليهم الجنون
 والرصاص معاً .

واستنبأته خبر أصحابه فقال : إن الذين كانوا حولهم وقعوا يتشحطون فى
 دمائهم ، فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميتٌ معهم ، وقد أحس كأنما خلع عن
 جسمه نواويس الطبيعة ، فلا يعرف ما هى الحياة ولا ما هو الموت ؛ وكان الرصاص
 يتطاير من حوله كأن أرواح الشهداء تتلقاه وتبعثره لا يناله بسوء . قال : وما أنس
 لا أنس ما رأيته فى تلك الساعة بين الدنيا والآخرة ؛ فلقد رأيت بعينى رأسى
 الدم المصرى يسلم على الدم المصرى ، ويسعى إليه فيعانقه عناق الأحياء .

ثم قال : أين هذا الباشا ؟ وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفورة ؟
يكاد الخزي والله يكون في هذه الوظائف على مقدار المرتب . . .

* * *

قال صاحب السر : ولم يتم كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسراً الوجه من الحزن قد تغرغرت عيناه ، فأخذ بيد أخى إلى غرفته وتبعتهما ، ثم قال : هوناً ما يا بنى ، إن العلة فيكم أنتم يا شباب الأمة ، فكل ما ابتلينا أو نُبتل به هو مما يستدعيه حملكم وتستوجبه أخلاقكم المتخاذلة ؛ إننا من غيركم كالدفاع الفارغة من ذخيرتها : لاتصلح إلا شكلاً ، وبهذه العلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة .

أتدري يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا ؟ هي أن تحكموا أنتم في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون ، فتضبطوا أخلاق النساء والرجال ، وتردوها كلها أخلاقاً محاربة لا تعرف إلا الجِدَّ والكرامة وصرامة الحق ؛ وإلا فكما تكونون يؤلى عليكم . . .

هذا وحده هو الذى يُعيد الأجانب إلى رشدهم وإلى الحقيقة ، فما أراهم يعاملوننا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لابسوها . . .

كيف يتصمعلك المصرى للأجنبى لو أن في المصرى حقيقة القوة النفسية ؟
أترى بارجة حربية تتصمعلك لزورق صيد جاء يرتزق ؟

إن في بلادنا المسكينة الأجانب ، وأموال الأجانب ، وغطسة الأجانب ؛ لأن فيها الاحتلال ، كلا ، بل لأن فيها ضعف أهلها ، وغفلة أهلها ، وكرم أهلها . . . بعض هذا يا بنى شبيه ببعض ، وإلا فما هو كرم الشاة الضعيفة إلا لذة لحمها . . . ؟

نريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة ، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر ذاته التاريخية المحيطة فيعمل في الحياة بقوانينها ؛ وهذا شعور لاتحدثه إلا طبيعة الأخلاق الاجتماعية القوية التى لاتساهل من ضعف ، ولاتسمح من كذب ، ولاتترخص من غفلة . والحقيقة في الحياة كالحقيقة في المنطق : إذا لم يصدق البرهان على كل حالاتها ، لم يصدق على حالة من حالاتها ؛ فإذا كنا ضعفاء

كُرماء ، أعزّاء ، سادةً على التاريخ القديم ، فنحن ضعفاءٌ فقط . . .
 إن الكبراءَ في الشرق كله لا يصلحون إلا للرأى ، فلا تَسْؤُوموهم غيرَ
 هذا ، فهم قد تلقّوا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة ، وبهذا لن تُفلحَ حكومةٌ
 سياسيةٌ في الشرق الناهضِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيةً يُمدُّها من نفسه
 ومن الشعب في كل حادثة بالأخلاق المحاربة .

يا بنيّ ، إن القوى لو اتفق مع الضعيف على كلمة واحدة لا تتغير ، لكان
 معناها للأقوى أكثرَ مما هو للأضعف ؛ فإن هذا القوى الذي يعملُ مع الضعيف
 يكون فيه دائماً شخصٌ آخرٌ مختلف ، هو القوى الذي يعملُ مع نفسه .
 هكذا هي السياسة ؛ أما في الإنسانية فلا ، إذ يكونُ الحقُّ دائماً بين الاثنين
 أقوى من الاثنين .

خضع يخضع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به : جاء ذات يوم قنصل (الدولة الفلانية) من هذه الدول الصغيرة ؛ التي لو علم الذباب في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبية ، لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا اسم الطيارة الحربية

ورأيت أنه قد دخل على شاحناً باذخاً متجبراً ، كأنه قبل أن يجيء إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري - قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعداً للنقح في الصور

حتى صعلوك من رعايا دولته على مصري ، فأخذ كما يؤخذ أمثاله ، وقضى ساعة أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلة الهيئته اللينة التي تحيط بتعريفه من ظاهره ، ولا يشبهها في سخافة المعنى إلا أن يسأله عن ثيابه من أي مصنع هي في أوروبا فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق ، لأن جنابة أجنبي على مصري تقع أجنبية . . . فلها شأن ورعاية وامتياز ، وادعى أن المحققين ضايقوا الجريم وعاسروه وتجهّموه بالكلام ، ولهذا جاء محتج .

ورأيت أنه جلس متوقفاً كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخّم ، لأن في نفسه وهم القوة ؛ ونخيل إلى أنه يرى موضعه بين السقف والأرض ؛ إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى ، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي ؛ بل لا تزال منه بقية تتممها دولته ، وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسرة تنطق بأن للقانون المصري قانوناً يحكمه في بلاده !

وأنا قد درست القانون الدليل ، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها ، وهي لا تعدو كرم الأرنب التي زعموا أنها كانت تملك حماراً تركبه وترتفق به ، فسألتها أرنب أخرى أن تردفها خلفها ، فلما اندفع بهما الحمار استطأت ،

فقالت لصاحبه : يا أختى ، ما أفرهَ حمارك ! ثم سكتت مدة وأعجبها الحمار فقالت : يا أختى ، ما أفرهَ حمارنا . . .

وكنا نحن الشرقيين من الضعف والغفلة ؛ بحيث لم نبغ مبلغ الأرنب في حكمته وتديبرها وحذرهما ، فلما أسرع ودفعت صاحبته وقالت لها : انزلى - ويلك - قبل أن تقولى : ما أفرهَ حمارى .

قال : غير أنى فى تلك الساعة نسيت القانونَ الدولى وكنت فى إلهام مصرى وحدها ، فظهر لى ظهوراً بيئناً أن لاشيء اسمه القانونُ الحقُّ فى هذه الدنيا ؛ ولكنَّ هناك اتفاقاً بين كل خضوع وكل تسلط ، هو قانونُ هاتين الحاليتين بخصوصهما .

وأسرعتُ إلى الباشا فأنبأته ، وأسرع الباشا فغيّر وجهه : وتبسّط ، وتهلل ، ونهياً بهذا لاستقبال القادم العزيز ، كأنه أخصّ محبيه يتطلّع إلى مؤانستيه ، وقد جاء يزوره فى داره . ثم دخل القنصل ، ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمة الأولى ، وهى قول الباشا : لنبدأ يا سيدى من الآخر . . .

* * *

وكانت فى الباشا موهبةٌ عجيبة فى اختلاب الأجانب خاصة ، يُديرهم بلبّاقة كالحاتم فى إصبعه ؛ حتى قال لى أحدهم : إن لهذا الباشا حاسةً زائدةً ، لو سُميت حاسة الإرضاء لكان هذا اسمها الطبيعى ، وإنه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره ، فهو يتكر الأساليب الغريبة التى يصعدُ ويهبط بها ميزان الحرارة النفسية ، وإن جلسته يكاد يشعر من مَهَارته فى التمثيل أن فى جو المكان سِتاراً يُرفع وستاراً يُسدّل بين الفصول .

فما لبثَ القنصل أن خرج بغير الوجه الذى دخل به ، ولكنه عبّس فى وجهى أنا وتكرّره لى كأنه أصغَرَ شأنى ؛ فازدترت عيْنُه ، فوثبتُ إلى رأسه فكرة الامتيازات .

وهذه القوةُ الظالمية (الامتيازات) ؛ لو أنها كانت قوّة قاهرة نافذة ، وأعينَ بها طُغْيلى ليقترحمَ دُورَ الناسِ آمناً مطمئناً - لاستحى هذا الطفيلُ أن يأكلَ بها ؛ إذ تجمع عليه التطفلَ والمقتَ معاً ، ولو قيل لحسامٌ بتّار : إن لك امتيازاً على بعض السيوف ألاّ تقارِعَكَ ، وإنك محمىٌ أن تنالكَ سطوتُها

إذا قارعتها — لأنَّ أن يسمَّى سيفاً بهذا أو بمثل هذا ، فإنَّ القوةَ الظالمَةَ التي يُعيرُونه إياها ، ليست إلا مهانةً لشرفِ القوةِ العادلةِ التي هي فيه .

* * *

قال صاحب السر : ووصفتُ للبasha هيئةَ القنصل التي انصرف بها ، وتقطيعه في وجهي ، وقلت له : إن الذبابة وقعت في صحفتي أنا من هذه الوليمة . . . فضحك بملء فيه ، ثم قال :

ستبطل هذه الامتيازات ، وليس بيننا وبين نهايتها إلا أن ينتهي الشعب إلى حقيقته القومية ، فما تركها في مكانها إلا نزولُ الشعب عن مكانته ، وتالله لكان هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات : أين مكانكم في بلادكم . . . ؟

أتدري ما قاله هذا القنصل حين تَجَاذَبْنَا الحديثَ فيها ، بعد أن وضعتُ نفسي منه في موضع المحامي الذي يخذله الدليل ، فيحاول أن يستنزلَ كرمَ القضاة بعرضِ بؤس المتهم على شفقتهم ، ليستعطف القانونَ الذي في أيديهم بالقانونِ الذي في أنفسهم ؟

إنه قال : لا يلومَنَّ الشرقيون إلا أنفسهم ، فهم علّموا الأجانب أن تنفَ ريشَ الطيرِ أولُ أكلِهِ . . . وهذه الامتيازاتُ إنَّ هي إلا معاملةٌ بيننا وبين طبيعة الخضوع في الشعب . نعم إنها مَضَرَّةٌ وَمَعَرَّةٌ ، وظلمٌ وقسوة ؛ ولكنها على ذلك طبيعيةٌ في الطبيعة ؛ فما دام هذا الشعبُ لَيْسَ المأخوذِ ، فإن هذا يُوجدُ له من يأخذه ؛ وما دامت الكلمةُ الأولى في مُعْجَمِ لغته السياسية هي مادة (خَضَعَ يَخْضَعُ) ، فهذه الكلمةُ تحمل في معناها الواحد ألفَ معنى ، منها : ظلمٌ يظلمُ ، وركبٌ يركبُ ، وملأكَ يملكُ ، واستبدَّ يستبدُّ ، ودجَّلَ يُدجِّلُ ، وخدَعَ يخدعُ ؛ فهل يكثُرُ أن يكونَ منها للأجانب امتيازٌ يمتاز ؟

* * *

قال صاحب السر : ثم زمَّ البasha فمه وسكت : ففهمتُ الكلمات التي انطبق فمه عليها وإن لم يتكلم بها ، ثم غلبه الضحك فقال : والله يا بني لو أن بُرغوثاً طَمَرَ من ثوب صُعلوكِ أجني ، فوقع في ثوب صُعلوكِ وطني ، فتقاتلاً ،

فقبض عليهما ، فأخذنا — لما رضي برغوث الأجنبي أن يحاكم إلّا في المحاكم المختلطة . . .

ثم سكت الباشا مرة أخرى كأنه يقول كلاماً آخر لا يجوز نشره ، ثم قال : يا بني ، إن الأجانب لا يضعون الحمل إلا على من يحمل ؛ فإذا نحن توخينا مرادهم أرادوا لأنفسهم لا لنا ؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش ، وأبوا إلّا أن نصارفتهم عليه بمائة . هم — ويحك — يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات ، فلنبطل هذه المعاملة يبطل هذا الامتياز .

إن الحق يا بني استحقاقٌ لادعوى ؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله الطبيعية الانتزاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والإصرار عليه . وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غصب الحق وبين استرداده موضعٌ لا مكان له في الطبيعة : والأجنبي يعتمد علينا نحن في جعله أكبر منا وأوفر حرمة ؛ فإذا أسقط الشعب هذه الامتيازات من فكره وروحِه وأعصابه ، وثارت فيه كبرياء الوطنية فاستنكف من الاستخذاء ، ونفر من الاختضاع ، وأبى إلّا أن يعلن كرامته ، وصرف اهتمامه إلى حقوق هذه الكرامة ، وأصرّ ألا يعامل أجنبياً يرى لنفسه امتيازاً على وطني ، وقرر ذلك في نفسه ، ومكّنه في روعه ، وأجمع عليه إجماعه على الدين — إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب ، جاء جواب الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وانحلت المشكلة . إننا يا بني لا نملك ضغط السياسة ، ولكننا نملك ما هو أقوى ؛ نملك ضغط الحياة .

لهم الامتياز بأنهم أجنبٌ عنا ، فليكن لنا الامتياز الآخر بأننا أجنبٌ عنهم في المعاملة ، مثلاً بمثل ، وما يقل الحديد إلّا الحديد .

يقولون : النظام الاقتصادي والمال الأجنبي . ولكن أرأيت المال في يد الأجنبي إلّا مالاً وتديراً وسلطة وسيادة ، من أنه في يد الوطني ددين وإسراف ورقٌ وذل ؟

لم يظهر لي إلّا الساعة أن من حكمة تحريم الربا في شريعتنا الإسلامية ، وقاية الأمة كلها في ثروتها وضياعتها ومستغلاتها : وحماية الشعب وملوكه من

الإسراف والتخرف والكفر الكاذب ، ورد الاستعمار الاقتصادي ، وشلّ النفوذ الأجنبي .

أما لو أننا كتبنا من الأول على أبواب « البنك العقاري » وأبواب ذريته :
« يَسْمَحُ اللهُ الرَّبَّاءُ . » فهل كانت تُقرأ هذه الكلمات الثلاث على أبواب تلك
البنوك الأجنبية إلا هكذا : « محالٌ خالية للإيجار » ؟

فلتتعصب . . . !

وقال صاحب سر (م) باشا : جاءنى يوماً صَاحِبِيٌّ إنجليزى من هؤلاء الكتاب المتعصبين الذين تُطلقهم إنجلترا كما تُطلق مدافعها ؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل ، وأولئك للكذب والتُّهم والمغالطات .

وهو أذنٌ وعينٌ ولسانٌ وقلمٌ لجريدة إنجليزية كبيرة ، معروفةٌ بثقلِ وطأتِها على الشرق والإسلام ؛ تُصلحُ بفساد ، وتُداوى الحمى بالطاعون ، وتعملُ في نهضة الشرقيين واستقلالهِم ما يُشبهُ قطعَ ثُدَيِ الأمِّ وهو فى شفتَى رضيعِها المسكين .

ودخل على هذا الكاتبُ فى الساعة التى خرج فيها من غرفى صاحبُ جريدة أسبوعية فى مدينتنا ؛ كان قد نفخ الضفدعَ ليجعلها ثوراً ، فحوَّلَ صحيفته إلى جريدة يومية ، وهو لا يجدُ مادتها ولا يستطيع أسبابها ، إلا أنه كذابُ الناس عندنا كان يحسبُ الكذبَ فى العمل سهلاً مَهْلاً^(١) كالكذبِ فى القول ، فلم يتعاطمه الأمرُ العظيم ، واقترض لعمله كلَّ ألفاظِ النجاح من اللغة . . .

وظنَّ عند نفسه أنه سيُخَوِّفُ بجريدته الكبراء والأعيانَ والمسياسيرَ حتى يَغْلِبَ على جميعِهِم ، ويُشْرِكَ أصابعه مع أصابعهم فى استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم ؛ فلم تعيشْ جريدته إلا أياماً وأُتلف ما جمع ، ورهَنَ فيها داره التى لا يملك غيرها ؛ وعلم آخرّاً أن الذى يكذبُ فيسمى الحروفَ جملاً ، لا يقبلُ منه أن يكذبَ على الكذب نفسه ، فيزعمَ أن الناقَةَ هى التى نَتَجَتْ هذا الحروف

ولما انقلبت هذه الجريدةُ يومية كان الباشا هو ملجأ الرجل ووَزَرَه ، وكان لكل يوم فى الجريدة أخبارٌ عن الباشا لاتقعُ فى الدنيا ولا تُجمع من الحوادث ، ولكن تقع فى ذهن الكاتب ، وتُجمع من صناديق الحروف ؛ حتى قال لى

(١) هذا الاستعمال ما وضعناه نحن وليس فى اللغة ، وهو من باب الإتياع كقولهم : حن بسن ، وشيطان ليطان الخ .

الباشا مرة : إن اسمي قد أصبح موظفًا في هذه الجريدة لجمع الاشتراك
وتحرّى هذا الصحفي أن يستأذن يومًا على الباشا وفي مجلسه حشدٌ عظيم
من السّراة والأعيان والعُمد ، وكان جَمَعَهُم لأمر ، فما هو إلا أن دخل الصحفي
حتى ابتدره الباشا بهذا السّؤال : يا أستاذ ، ما هي تلغرافات أوروبا عن الحوادث
التي ستقع غدًا ؟

فضجّ المجلس بالضحك ، وفقد المسكين بهذه النكتة أربعين دينارًا كان
يؤمل أن يخرج بها ، وأعلن الباشا في أظرف إعلان وأبلغه كذب الرجل ونفاقه
وإسفافه ، وأنه من رجال الصحافة المدوّرة تدوير الرّغيف

* * *

قال : ونظرتُ إلى الصحفي الإنجليزي نظرةً أكشِفُهُ بها ، فإذا أولُ الفرقِ
بينه وبين أمثاله عندنا — شعوره أن بلاده قد ربّته (للخارج) ، فهو عند نفسه
كأنه إنجليزيٌّ مرتين ؛ ويأتى من ذلك إحساسه بعزة المالك وقوة المستعمر ،
فلا يكونُ حيث يكونُ إلا في صراحة الأمر النافذ ، أو غموض الحيلة المبهمة ؛
ويستحكم بهذا وذاك طبعه العمليُّ ، فهو بغريزته مُقاتِلٌ من مقابِلَةِ الفكر ،
يلتمسُ مَسِيدانه بين القوَى المتضاربة لا يبالى أن يكونَ فيه الموتُ ما دام فيه العملُ ؛
وبهذا كلّهُ تراه نافذَ البصيرةِ قائمًا على سَوَاءِ الطريق ، لأن الإنجليزيَّ الباطنَ
فيه يُوَجِّهُ الإنجليزيُّ الظاهرُ منه ويُسانِدُهُ ؛ وفي أعماقِ الاثنين تجد إنجلترا ،
وليس غيرَ إنجلترا .

ثم تفرّستُ في الرجل أريد كُنْهَهُ وحقيقته ، فإذا له نفسٌ "مفتوحة" مقفلة
معًا ، كغرفِ الدار : الواحدة يفتح بعضها لما فيه كما يرى ، ويقفلُ بعضها
على ما فيه كيلا يرى .

وله وجهٌ عمليٌّ يكاد يحاسبُك على نظراتك إليه ؛ تدورُ في هذا الوجه عيان
قد اعتادتَا وزنَ الأشياء والمعاني ؛ يتلأأ في هاتين العينين شعاعُ النفسِ القويةِ
الممرّنة ، قد نَمَتِ الثقةُ بها نصفَ هموم الحياة عن صاحبها ، تُمدُّ هذه
النفسَ طبيعةً مؤمنةً بأن أكبرَ سرورها في أعمالها ، فواجبُها في الحياة أن تعملَ
كلَّ ما يحسنُ بها وكلَّ ما يحسنُ منها .

لقد خُيِّلَ إلىَّ ، وأنا أنظر إلى نفسية هذا الإنجليزي أن كلمة الخيبةَ عند هؤلاء الإنجليز غيرُ كلمة الخيبة عندنا نحن الشرقيين ، فإن خيبة النفس لا تتم معانيها أبداً في النفس العاملة الدائبة ، التي يُشعرها الواجبُ أنه شيء إلهي لا يَخيب ، وأن ما يُرفضُ على هذه الأرض من العمل الطيّب لا يُرفض في السماء .

وكان الرجل قد أدرك غرضي بملَكته الصحافية الدقيقة ، فأجابني عن السؤال الذي لم أسأله ، وقال لي مبتدئاً : إن أساسنا الشخصية وحاسة الواجب ؛ وإن فيكم أنتم كلَّ شيء إلا هذين ؛ فأخلاقنا تَظهر دائماً في العمل ، وأخلاقكم تَظهر دائماً في الكلام الفارغ ؛ ونحن نطلب الحقيقة ، وأنتم تطلبون الألفاظ ، حتى إنه لو خسِرَ المصري ألفَ دينار ، ثم أعلن أنها مائة فقط ، وصدَّقَ الناسُ أنها مائة ؛ لكان عند نفسه كأنه ربح تسعمائة . . .

* * *

قال صاحب السر : واستأذنتُ له على الباشا فسهَّلَ ورحَّبَ ؛ ثم هممتُ بالانصراف عنهما ، ولكن الإنجليزي قال : يا باشا ! إنه قد تمكن في رُوعي أن صاحبَ سرك هذا متعصبٌ ديني ، وقد علمت أنه ابن فلان القاضي الشرعي ، فطر بوشه ابنُ العمامة ؛ ولقد كان ينظر إلىَّ ، وكأنه يتأملُ من أين يذبحني . . . فضحك الباشا وقال لي : يا فلان إن هذا الكاتب من تلاميذ برناردشو ، فهو كأستاذة يجعل لكل حقيقة ذنباً كذيلَ الهرِّ ، ثم يمسكُها منه فإذا هي تَعَصُّ وتتلوَّى . . .

والفتتَ بعد ذلك إلى الإنجليزي ثم قال له : جاعني كتابك فإذا كنت تريد رأيي فيما تسميه التعصب الديني عند المسلمين ، فعجيبٌ أن تضعوا أنتم الغلطةَ ثم تسألونا نحن فيها ! إنك لتعلم أن هذا التعصبَ الكذبَ الذي أكثرتم الكلامَ فيه ، إنما هو لفظٌ من ألفاظ السياسة الأوروبية ، أرسلتموه إلينا ليقاتِلَ لفظَ التعصب الحقيقي ؛ ومن قبل هذا اخترعتم لفظة (الأقليات) ، وأجريتُموها في لغتكم السياسية ، لتجعلوا بها لتعصبنا الوطني شكلاً آخر غيرَ شكله ففسدوه

علينا بهذه المادة المفسدة ؛ وبذلك تَضْرِبُونَ اليَدَ اليمْنى من غير أن تَلْمَسُوهَا ،
إذ تَضْرِبُونَهَا بِشِلِّ اليَد اليسرى .

إن الإسلام في نفسه عدوٌّ شديدٌ على التعصب الذي تفهمونه ، فهو يقول
لأهله في كتابه العزيز : « كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » .

فإذا كان العدلُ في هذا الدين عدلاً صارماً ، وحقاً محضاً لا يميزُ بشيء ألبتة ،
لا ذات النفس التي فيها اشتهاؤُ الدم ، ولا أصلها من الأبوين اللذين جاءت
منهما وِراثَةُ الدم ، ولا أطرافها من الأقربين الذين يلتفتون حول نَسَبِ الدم
— إذا كان هذا ، فأين في هذا العدلِ محلُّ الظلم ؟

لعلك تشير إلى هذه الرُّعونة التي تعرفها في الأعمار والأغفال من العامة ،
فهذه ليست من أثرِ الدين ، بل هي أثرُ الجهلِ بالدين ؛ إن هذا ليس تعصباً ، بل
هو معنى من معاني الحَسَمِيَّةِ النفسية الخرقاء لم تجدوا أنتم له لفظاً ، وكان أقربَ
الألفاظ إليه عندكم هو التعصبُ ، فأطلقتموه عليه للمعنى الذي في نفسه والمعنى الذي
في أنفسكم . ألا فاعلم أن إسلامَ العامة اليومَ هو كالدعوى المقبولة شكلاً والمرفوضة
بعد ذلك .

قال الإنجليزى : ولكنَّ هؤلاء العامة علماء دينيين يُدَبِّرُونهم من ورائهم .
وهم عندكم ورثةُ النبي صلى الله عليه وسلم أى منبعُ الفكرة وقوتها .

قال الباشا : غيرَ أن هؤلاء قد أصبحوا كلُّهم أو أكثرهم لا يَسُدُّسُ فيهم
عِرْقٌ من تلك الوراثة ، وذلك هو الذى بلغ بنا ما ترى ؛ فالقوم إلا قليلاً منهم
كالأسلاك الكهربائية المعطلة : لا فيها سَلْبٌ ولا إيجاب ؛ ولو أن هؤلاء العلماء
كانت فيهم كهرباءُ النبوة ، لكتهربوا الأمم الإسلامية في أقطارها المختلفة . إذن
لقام في وجه الاستعمار الأوربى أربعمائة مليون مسلمٍ جَسَدٍ صارمٍ شديدٍ ،
متظاهرين متعاونين ، قد أعدُّوا كل ما استطاعوا من قوة العلم ، وقوة النفس ،
وهم لو قَدَفَ كلُّ منهم بحجرين لردموا البحر

أتريد معنى التعصب في الإسلام ؟ إنه بعينه كتعصب كل إنجليزى
للأسطول ؛ فهو تَشَابُكُ المسلمين في أرجاء الأرض قاطبةً ، وأخذُهم بأسباب

القوة إلى آخر الاستطاعة ، لدفع ظلم القوة بآخر ما في الاستطاعة .
وهو بذلك يعملُ عملين : استكمالُ الوجودِ الإسلاميِّ ، والدفاعُ عن
كَماله .

وإذا أنت ترجمتَ هذا إلى معناه السياسي ، كان معناه إصرارَ جميع المسلمين
على نوع الحياة وكرامتها ، لا على استمرار الحياة ووجودها فقط . وذلك هو
مبدؤكم أنتم أيها الإنجليز : لاتقبلون إلا حياة السيادة والحكم والحرية ، فأنتم مسلمون
في هذا المبدأ لو عندكم .

أليس من البلاء أن المسلمين اليوم لا يندرسُ بعضهم بلادَ بعض إلا على
الخريطة . . . مع أن الحجَّ لم يُشرعْ في دينهم إلا لتعويدهم دراسة الأرض
في الأرض نفسها لا في الورق ، ثم ليكونَ من مبادئهم العملية أن العالمَ
مفتوحٌ لا مقفل ؟

إن التعصبَ في حقيقته هو إعلانُ الأمة أنها في طاعة الشريعة الكاملة ،
وأن لها الروحَ الحادة للبليدة ، وأن أساسها في السياسة الاحترام الذاتيُّ
لاتقبل غيره ، وأن أفكارها الاجتماعية حقائقُ ثابتة لا أشكالٌ نظرية ، وأن
مبدأها هو الحقُّ ولا شيءَ غير الحق ، وأن قاعدتها « لا يتضررُكم من ضلَّ إذا
اهتديتم » . فالهدايةُ أولاً والهدايةُ آخرًا : الهداية في القوة ، والهدايةُ في السياسة ،
والهدايةُ في الاجتماع . فقل لي بحياتك وحياة إنجلترا : أيعابُ ذلك على المسلمين
إلا بالألفاظ التي يعيبُ اللصُّ بها أهلَ الدار لأنهم يُحكمونَ في وجهه إقفالَ
الباب ؟

قال : فسوِّجَم الإنجليزى حتى ذُهل عن نفسه وصاح :
إذا كان هذا فلتتعصَّب ، فلتتعصَّب .

وزن الماضي

وقال صاحب سر (م) باشا : : إلى جالس ذات يوم وفي يدي كتابٌ لبعض المتفلسفة من ملاحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يفهمهم ؛ وكان الباشا قد رأى مرة أنظر فيه وأتدبر مسائله الغامضة ، فقال لى : يا بنى ، إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً ، فنظر ليلة في النجوم فراعته وحيرته ؛ فألى أن يفهمها بعقله وتفرغ لدرسها مدة طويلة ، ثم وضع فيها كتاباً نفسياً ضخماً ، كان أعظم كتب الفلسفة وأشدّها غموضاً عند الكلاب ، وكان اسمه : العظام المبعثرة فوقنا . . . (١)

قال : فأنا جالس أقرأ هذا الكلام الذى لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح . . . إذ دخل على كاتب متفلسف ملحد من هؤلاء المدخولين في عقولهم ، المفتونين بأوربا ومذاهبها وعُلُوبَاتِهَا وَسُفْلِيَّاتِهَا . . . وهو يكتب في الصحف ، ويؤلف الرسائل ، وقد جاء يستصريح الباشا على فلاح شاركه في زراعة أرضه ، فزرعه الفلاح فيها وحصده ، ودّاهه بكيده ، وابتلاه بغلظته ، وتهدّده بالنقمة . وكان هذا الفلاح الساذج الغرير قد سبقه إلى وعرفه لى تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة كتفر يكفر . . . ثم قال بعد ذلك : إنه (بيّاع كلام) يصدّق ويكذب حسب الطلب . . . والذمة نفسها ليست عنده إلا (عملية حسابية) ؛ وهو في أقوى جهاته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به البهيمة من أضعف جهاتها . أما الكاتب فيقول عن هذا الفلاح : إنه لا يدرى أهو يُسمّ بهائمه أم بهائمه هي التى تُسمّه ، وإن الذى يرفع القضية على مثل هذا المخلوق إلى المحكمة لا يكون إلا كالذى يُقَعِّقُ بالعصا على جحرٍ فيه الحية السامة .

ورأى المتفلسف الكتاب على يدي ، فتهلّل واستبشر وقال لى : هذا نسب بيننا . . . فأدركت من كلمته هذه جملته وتفصيله ، وخيل إلى أنى أرى فيه نفسه الشرقية كالمرأة المطلقة . . . فقلت له : أنا اشتريت هذا الكتاب من

(١) لا ريب أن المؤلف . . . قد بحث في كتاب (الوسائل العملية) لارتفاع هذه العظام المبعثرة . . .

أوروبا ، ولكنى لم أشتري منها دماغى . . .
وكلمته أستخرج ما عنده ؛ فإذا هو فى قومه وتاريخ قومه كالسائح فى
بلاد أجنبية : يفتح لها عينه ولا يفتح لها قلبه .

* * *

وكان جريئاً فى كلامه مع الباشا : يطرُد القول حيث شاء حقاً وباطلاً ،
ثم لاسناد لرأيه ولا تثبيت لحجته إلا قول فلان ورأى فلان ، كأن فى رأسه
عقلاً شحاذاً . . . ثم ذكر آخر الأمر ما جاء له ، فحجّله الباشا وقال : هذه
مسألة ككل مسائلك : تحتاج إلى رأى فيلسوف أوربى . . . وأعرض عنه ولم يدخُل
فى شىء من أمره .

ولما انصرف قال الباشا : يحسب هذا نفسه عالماً ، وهو صُعلوكٌ عِلْمى ..
وإنما يكون دماغه وأدمغة أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الذين يذكرونهم كما
تكون سلّة المهملات عند الصحفيين .

إن هذا الرجل يُسمّ ضعف عقله فى الرأى بقوة عناده فيه ، ليجعل له ثبات
الحقيقة فيُظن حقيقة ، كأن خَصَصَ المَاء باليد فى وعاء صغير ينقل إلى
هذا الوعاء طبيعة الموج ؛ وعند أمثال هذا المفتون من الصعاليك العلميين ،
أنك إذا تناولت مسألة فأخطأت فيها خطأ جريئاً ، فقد جعلتها بخطئك الجريء مسألة
من العلم . . . وأنك إذا عاندت فثبت الخطأ فى وجه الناقدین سنة ، كان حقيقة
مدة سنة . . .

هم مفتونون زائغون ، ومن فتنتهم أنهم يرون البعد بينهم وبين أهل
الفضائل الشرقية ، كالبعد بين العالم والجاهل ؛ ولو حققوا لرأوه بُعداً فى الغرائز
لانى العقل ، أى كالبعد بين الفسجور وما أشبهه الفسجور ، وبين التقوى وما
أشبهه التقوى .

زعم الأحقق أن خصمه الفلاح رجل "راسخ" فى الماضى ، كأنه باق فى أمس
لم ينتقل منه ؛ مع أن أمس قد انقطع من الزمن ، ثم خرج من ذلك إلى أن
الأمّة يجب أن تنبذ ماضيها ، ثم ادعى أن الإسلام يتعصّب للماضى . هذه
وحى القلم - ثان

ثلاثُ كلماتٍ تخرجُ منها الرابعةُ التي سكتَ عنها . . . (١)
وأنا لو شئتُ أن أسخّرَ من مثل هذا الصُّعلوكِ العلميِّ ، لما وجدتُ في
أساليبِ السخريةِ أبلغَ من أن أبعثَ إليه بقارورةٍ فارغةٍ وأقولَ له : املاها لي
من آراءِ الفلاسفةِ . . .

يغفَلُ هذا وأمثاله عن أن الدينَ الإسلاميَّ لا يعرفُ الماضيَ بمعنى ما مضى
على إطلاقه ؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالفَ العقلَ ولا العلمَ ، وألا يناقضَ
الهدايةَ ؛ « قالوا : بل نتَّبِعْ ما أَلْفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعقلون
شيئاً ولا يهتدون ؟ » وفي الآية الأخرى : « قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .
أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » وفي الثالثة : « قالوا : بل نتَّبِعْ
ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذابِ السَّعيرِ ؟ »
وفي الرابعة : « إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مُّقْتَدُونَ . قال :
أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ » .

فانظر كيف صَوَّرَ ما نسميه اليوم بالجمود في قوله : (حسبنا) ، وكيف
صور ما نسميه بالرجعية في قوله : (نتَّبِعْ) ، وتأمل كيف رفض الجمودَ والرجعيةَ
معاً في العلم والعقل والهداية ، أى في آثارها من العلوم والمخترعات والفضائل
الإنسانية ، وكيف أبطل في تلك الثلاث الاحتجاجَ بالماضي بهذا الأسلوب
الدقيقِ العالى ، وهو قوله في كل آية أولو ، أولو . لم يغيّرها ؛ بل كرّرها
بلفظها أربعَ مرات .

فالمعجِزُ هنا مجيءُ الآياتِ بهذه الصورة المنطقية لإسقاط حجّتهم ، ونفى
معنى التقديس عن الماضي فيهنَّ ؛ إذْ كان العلمُ دائماً التغيُّرَ ، وكان العقلُ
دائماً التجديدَ والإبداعَ ، وكانت الهدايةُ شديدةً على الطبيعة الحيوانية التي هي
ماضى النفس ؛ فكأنها جديدةٌ على النفسِ عند كل شهوة .

إن الإنسانَ بماضيه وحاضره كأنه مقسومٌ قسمين ، يقولُ أحدهما : أريدُ
أن أكون . ويقول الآخر : أنا قد كنت . فالإسلامُ بهذه الآيات قد أوجبَ

(١) الرابعة التي يستلزمها هذا السياق المنطقي : هي تجرد الأمة من الدين ، وذلك ما يعمل
له بعضُ الصالحين العلميين .

وزنَ الكلمتين في كل زمن بما هو الأصحُّ ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ؛ وباشرطه الهداية في جميعها أشار إلى أن الكمالَ النفسى للفرد يجب أن يكونَ مرتبطاً بالكمال الإنساني للجنس .

وهذا معنى عجيب ، وأعجبُ منه ما ترى من أن الإسلامَ قد أصلح فكرةَ الماضى ؛ فنقلها من معنى الآباء والأجداد للناس ، إلى المعانى التى هى كالآباء والأجدادِ لإنسانية الناس . والأخذُ (بالأهدى) فى اجتماعِ أمةٍ من الأمم ، إنما هو بعينه ناموسُ الترقى والتطور .

ومن أدقِّ الأسرار قوله : « إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ » فكلمة (أمة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها ، ولم تفسرها إلا علومُ هذا الزمن ، فهى المشاعرُ النفسية التى يتكوّن منها مزاجُ الشعب ، وفيها يستقرُّ الماضى ؛ كأن الآيةَ قد عبّرت بآخر ما انتهى إليه علماء النفس : من أن الإنسانَ ابنُ أبويه وابنُ شعبه أيضاً .

فالتعصبُ فى الإسلام هو للعلم النافع ، وللمجد الصحيح ، وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصبُ الجيلِ لمثل هذا فى ماضيه ، هو فى اسمه تعصب ، غير أنه فى معناه إنما هو العملُ لتسليم مجدِ الأمة إلى الجيلِ التالى .

المعجم السياسى

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال : كنا فى سنة ١٩٢٠ ، وهى بنت سنة ١٩١٩^(١) ؛ وقد اجتمعت الأمةُ على مقاطعة لجنة (ملنر) لاتكلمُها ، فجعلت السكوتَ ثورة ، وأعلن الشعبُ أن كلمته فى لسان الوفد ينطق الوفدُ بها نطق النبی بما یوحى إلیه ، فما یكونُ لأحدٍ غیره أن یقولها ، ولا أن یقولَ أوحى إلی . وأبى اللورد ملنر أن یصدقَ أن للمصریین إجماعاً یُعتمدُ به ، وأنهم دخلوا فى السیاسة دخولاً ثابتاً فترسّخُوا فیها ، وأنهم أصبحوا مع الإنجلیز كالإنجلیز الذین یقولون عن أنفسهم فى مثلهم السائر : ینبغى أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا .

وزعم اللورد لنفسه ، أن هذه الأحزاب المصریة لا یتفق منها اثنان أبداً إلا كان بینهما ثالثٌ یختلفان علیه ، وهو الطمعُ فى مناصب الحكم ؛ واستخرج من ذلك أن المصرى والمصرى كشیق المقرض : لا یتحركان فى عملٍ إلا على تمزیق شیء بینهما ؛ فإن لم یكن بینهما (الشیء) لم یكن منهما شیء .

وذهب الرجلُ یستظننى ویحدسُ على ما یخیلُ له الظن ، وقد حسب أن إنجلترا یحقُّ لها أن تقولَ فى المصریین ما یقولُ الله فى خَلْقِهِ كما ورد فى الأثر : « إنما یتقلبون فى قبضتى . » وكما تقول اليوم لأهل فلسطین من العرب : « إن یسأ یذْهَبُکُم ویأت بِخَلْقٍ جدید . » . . . وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً لمشاکل السیاسة ، دَخَّلاً فیها ، دَاهِیةً من دُهاة القوم ، له فى قلبه عینان وأذنان غیر ما فى وجهه كحذّاقِ السیاسیین ؛ وهو یعرف أن سیاسة قومه لا تدخلُ فى شیء إلا دخولَ الإبرة بخیطها فى الثوب ، إن خرجت هى تركت الخیط وقد جمَعَ وشَدَّ . . . فأراد أن یمتحنَ مذهبَ المصریین فى إجماعهم على الاستقلال ، وقدَّرَ أنه واجدٌ من الفلاحین عوناً له ومادةً لمكره السیاسى ، وحسب الوفد صورةً جدیدةً من طبقة (الباشوات) القدیمة ، یزولون من الشعب منزلةً الید

(١) سنة الثورة المصریة ، وقد مر وصفها فى مقالة (الأخلاق المحاربة) .

التي تُمسِكُ القيدَ ، من الرَّجُلِ التي فيها القيد ، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة ، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه ، ويقىمون الشعبَ كالسُّلَمِ ينتصبُ قائماً بأيديهم ليحملَ أرجلَهُم الصاعدةَ عليه .

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمةَ كلها قد حذرت منه وتيقظت له ، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجدَ في مصر هرةً تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقناً أن أذنَ السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين : صوتِ الدنانير وصوت الجماهير ، فرَّ في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانصَفَقَ عنه الناسُ وأهملوه ، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ . . . وساح في البلاد سياحةً طويلة ، وكأنه لم يسافر إلا من شَفَةِ أبي الهول السُّفلى إلى شفته العليا .

* * *

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فرَّ على مرور كتاب مقفل : لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غيرَ أنه رجلٌ بمقدارِ الرجلِ الذي يخالفُ أمةً كاملة تكاد تحسبه مطويّاً على زوبعة ، وترى له قوتين تُحسُّ من أثرهما الرهبة والإعجاب ، وإذا تأملتَه قلتَ إن اللطفَ والظرفَ أضعفُ شأئله ، وإن الدَّهاءَ والحيلةَ أقوى مواهبه .

فلما لقيتُ الباشا من الغد ، سألتني : كيف رأيت اللورد ملنر ؟ فقلت : والله يا باشا إنه كالضرورة : ما يتمناها أحدٌ ولكنها تجيء . .

فضحك الباشا وقال : ياليت لنا نحن الشرقيين كل يوم ضرورةً تصنع ما صنع اللورد ؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية : وهي أن الشعبَ الذي يُصِرُّ ولا يزال يُصِرُّ يجعلُ الإغراء لا يُغري والخوف لا يخيف .

وياليت الأممُ الشرقية تتعلم هذا الصمتَ السياسيَّ عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً ؛ فإن صمتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر) ، كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمةُ كلامَها بهذا الصمت ، تعان للعالم أن الواجبَ الشعبيَّ قد وضع قُفْلَه على كل فم .

وقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسى ، فأدرك منه أن فى الشعب أنفةً وحميةً وقوة ، وأن حسابَ الضمير الوطنى أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الإلهى للنفوس المؤمنة : كلاهما مُستعلنٌ يُخافُ وَيُتقى ، وكلاهما كلمةٌ محرمة .

آية معجزة هذه التى جعلت كلمةَ الأجنبي تتخذُ فى أذهان أمةٍ كاملة شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها البلادُ على معنى الرفض ، وأصبح كلُّ فردٍ يعرف محلّه من الكل ، وخضعت الطبايعُ بجملتها لقانون العزة القومية ، الذى يلزمها ألا تخضع للأجنبي ؟

إن الأممُ بعضُ مسائلٍ نفسيةٍ كهذه المسألة ؛ فلو أن لنا خمسةَ دروسٍ سياسيةٍ مختلفةٍ كدرس (ملتر) ، لكانت لنا فى الإيمان الوطنى كالصلوات الخمس .

والآن تعلمت الأمةُ أن الشعب العزيز هو الذى ينظر فى قَضٍ مشاكله إلى الحلِّ وإلى طريقة الحل أيضاً ، وقد كان (ملتر) هو أولُ أساتذتنا فى تعليمنا الطريقة .

وهذا الدرسُ يجب أن يكون درساً للشرق كله ، فإن السياسة الاستعمارية قائمةٌ فيه على خداع الطريقة فى حل مشاكله ، فيحلونها ويعقدونها فى نصٍّ واحدٍ ؛ ويُشبهت الكلامُ الذى يتفقون عليه أن المراد منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالَ المقاومة .

وفى السياسة الأوروبية موافقاتٌ دميعةٌ كالنساء المشوّهات ، فإذا عرضوا واحدة منها على من يريدون أن يزوّجوه . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيها من قوة الإبصار ، أعفوه منها وقالوا له : سنأتيك بالحميلة ، ثم يذهبون بها إلى معهد التجميل اللغوى ، فيصقلونها ويصبغونها ، ويضعون لها أحمرَ السياسة وأبيضها ، ثم يعرضونها جديدةً على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدميعةُ غيرَ دميعة ، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى .

ولهم عقولٌ عجيبة فى اختراع الألفاظ ، حتى لتكونُ شدةُ الوضوح فى عبارة ، هى بعينها الطريقةُ لإخفاء الغموض فى عبارة أخرى . وكثيراً ما يأتون بالألفاظِ

منتفخة تُحسَبُ جَزَلَةً بَادِنَةً قد ملأها معناها ، وهى فى السياسة أَلْفَاظٌ حُبَّالَى ، تَسْتَكْمِلُ حَمَلَهَا مَدَّةً ثُمَّ تَلِدُ . . .

ولهم من بعض الكلمات السياسية ، كما لهم من بعض الرجال السياسيين ؛ فيكون الرجلُ من دُهانهم رجلاً كالنَّاسِ ، وهو عندهم لَأَمِسْمَارٌ دَقُّوهُ فى أرض كذا أو مملكة كذا ، ويكون اللفظُ لفظاً كاللغة ، وهو مسمارٌ دَقُّوهُ فى وثيقة أو معاهدة .

ثم ضحك الباشا وقال : إن أرضنا تُخرج القطن ، وسياستنا تخرج أَلْفَاظاً كالقطن : لا توضع فى المِغْزَلِ إلا مَدَّتْ وتحوَّلَتْ . وإذا ذهبنا نخالفهم فى التأويل والتفسير ، لم نجد عندنا المعجمَ السياسى الذى يُعَلِّى النص . أتدرى يا بنى ما هو المعجم السياسى ؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألفُ من مليون كلمة ، لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجمُ الحى ، ذلك المعجمُ الذى يتألف من مليون جندى

اللسانُ المُرَقَّع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا : جاء « حضرة صاحب السعادة » فلان لزيارة الباشا ؛ وهو رجل مصريٌ وُلِدَ في بعض القرى ، ما نعلم أن الله (تعالى) ميزه بجوهر غير الجواهر ، ولا طَبْع غير الطبع ، ولا تَرْكِيب غير التركيب ، ولا زاد في دمه نقطة زهر ، ولا وضعه موضع الوسط بين فَنَيْن من الخليقة . غير أنه زار فرنسا ، وطاف بإنجلترا ، وساح في إيطاليا ، وعاج على ألمانيا ، ولوّن نفسه ألوانًا ، فهو مصريٌ ملوّن . ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلًا لشهوات أسبغها وغامر فيها ، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودّ لو كان من أهلها ، ولا تاريخ قومه إلا مغمى عليه . . . كالبيت بين تواريخ الأمم .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين : مصريٌ المال فقط ، إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر ؛ عربيٌ الاسم لا غير ، إذ كانت أسماؤهم من جنابة أهلهم بالطبيعة ؛ مسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر ، إذ كان لا حيلة في أنسابهم التي انحدروا منها .

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدينة : لكل منهم جنسه المصريّ ولفكره جنس آخر .

قال : وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلحنها العربية ، مرتفعًا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منقطعًا . . . نازلًا بها عن لغة السوق نزلًا عاليًا . . . فكان يرتضخ لكنة أعجمية ، بينا هي في بعض الألفاظ جرس عال يطن ، إذا هي في لفظ آخر صوت مريض يئن ، إذا هي في كلمة ثالثة نغم موسيقى يرن . ورأينهُ يتكلف نسيان بعض الحمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية ، لا تظرفًا ولا تملحًا ولا إظهارًا لقدرة أو علم ، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي المتمكن في نفسه . فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذب وطنية لسانه ، وهو بإحدهما زائفٌ على قومه ، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه .

* * *

فلما انصرف الرجل قال الباشا : أفٌ لهذا وأمثال هذا ! أفٌ لهم ولما يصنعون ! إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة » ، ولأشرفُ منه والله رجلٌ قَرَوَى ساذجٌ يكون لقبه « حضرة صاحب الجاموسة » نعم إن الفلاح عندنا جاهلٌ علم ، ولكن هذا أقبح منه جهلاً ، فإنه جاهلٌ وطنياً .

ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن ؛ فها هو عمل حضرة (صاحب اللسان المرقع) هذا ؟ إن عمله أن يعلن برطانيته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة ، وأنه مُتَجَرِّد من الروح السياسى للغة قومه ؛ إذ لا يظهر الروح السياسى للغةٍ ما ، إلا فى الحرص عليها وتقديمها على سواها .

كان الواجبُ على مثل هذا ألا يتكلم فى بلاده إلا بلغته ، وكان الذى هو أوجبُ أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها فى أرضها ، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه ؛ فهو على أنه « حضرة صاحب سعادة » ، لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا مترلة خادماً أجنبى فى حانة .

أتدري ما هو سر هؤلاء الكبراء وهؤلاء السَّرَّاة الذين يطمطمون إذا تكلموا فيما بينهم ؟ إنهم عندنا طبقات :

أما واحدة ، فإنهم يصنعون هذا الصنيع منجذيين إلى أصل راسخ فى طباعهم ، مما تركه الظلم والاستبداد والحق فى زمن الحكم التركى ؛ فهم يُسُدُّون جوهر نفوسهم لأعينهم وأعين الناس ، كأن اللغة الأجنبية فيما بينهم علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب واستمرار ذلك الحق فى الدم وهم بها يتنبَّلون .

وأما طبقة ، فإنهم يتكلفون هذا مما فى نفوسهم من طباع أحدثها النفاق والخضوع والذل السياسى فى عهد الاحتلال الإنجليزى ؛ فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار ، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذى فقد السلطة ، وهم بها يتمجدون .

وأما جماعة ، فإنهم يعتمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها ، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها ومذهباً اننسبوا إليه ؛ وفيهم

العالم بعلوم أوربا ، والأديب بأدب أوربا ؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامى ، إذ جعل هذه اللغة "حكومة" باقية فى بلادهم مع كل حكومة وفوق كل حكومة ؛ وهم يزدرون هذا الدين ويسقطون عن أنفسهم كل واجباته . وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، إذ يغلون فى مصريتهم غلوّاً قبيحاً ينتهى بهم إلى سفه الآراء ، وخفة الأحلام ، وطيش النزعات ، فيما يتصل بالدين الإسلامى وآدابه ولغته . وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفه من حيث هو رقيق ، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا لمقت « كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا » .

ومن أثر تلك الفئات الثلاث نشأت فئة رابعة ، تحوّل فيهم ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية فى النفس ؛ فهم يتحمون فى كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية ، ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومعابرةً ومجوناً ، على أنه هو الذى يظهر لعين البصير مواضع القطع التاريخى فى نفوسهم ، وأماكن الفساد القوى فى طبيعتهم ، وجهات التحلل الدينى فى اعتقادهم . هؤلاء يكتب أحدهم : (الزفرة) وهو قادر أن يقول الغضب ، (والفيلير) وهو مستطيع أن يجعل فى مكانها المغازلة ، (وسكالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان ، وهكذا وهكذا ؛ ولا والله أن تكون المسافة بين اللفظين إلا المسافة بعينها بين قلوبهم ورشد قلوبهم .

وما برح التقليدُ السخيف لا يعرف له باباً يلج منه إلى السخفاء إلا باب التهاون والتسامح ؛ ونحن قومٌ ابتلينا بتزوير العيوب على أنفسنا وعدّها فى المحاسن والفضائل ، من قلة ما فىنا من الفضائل والمحاسن . وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاول أن نقتبس من مزايا الأوربيين ، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم ، إذ كانت هى الأسهل علينا ، وهى الأشكل بطبعنا الضعيف المتسامح المتهاون .

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية — على أنها أهون وأيسر من مشاكل الأوربيين ، وعلى أن فى ديننا وآدابنا لكل مشكلة حلها — تجدها هى علينا

أصعبَ وأشدَّ ، لأننا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون ، وكل ذلك من شىء واحد : وهو أن أكثر كبرائنا هم أكبر بلائنا .

* * *

قال صاحب السر : ثم ضحك الباشا ضحكته الساخرة وقال : كيف تصنع أمة يكون أكثر العامين هم أكبر العاطلين ، إذ يعملون ولكن بروح غير عاملة . .

سر القُبَّعة

وحدثني صاحب سر (م) باشا : قال نَجَسَمَتْ في مصر حركةٌ بِعَقِبِ أيام البدعة التركية ، حين لم تبق لشيء هناك قاعدةٌ إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشائق . . . فمن أين أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه ؛ ومن قال (لا) انقلبت (لا) هذه مشنقةٌ فعُلِّقَ فيها .

وكانت فكرة اتخاذ القُبَّعة في تركيا غطاءً للرأس ، قد جاءت بعد نَزَعَاتٍ من مثلها كما يجيء الحذاء في آخر ما يلبس اللابس ، فلم يشك أحدٌ أنها ليست قُبَّعةً على الرأس أكثر مما هي طريقةٌ لتربية الرأس المسلم تربيةً جديدةً ، ليس فيها ركعةٌ ولا سجدةٌ ؛ وإلا فنحن نرى هذه القُبَّعة على رأس الزنجي واضمَجِي ، وعلى رأس الأبله والخنون ، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبيعته . ولا زعم أحدٌ أنها أكملت العقل الناقص أوردت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلةٌ لحل مشكلات الرأس البليد ، أو غصبت الطبيعة شيئاً وقالت : هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة .

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية ، ولا يعرف المدنية إلا مدنية أوربا ، فهو يمتثلُها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يحلُّ وما يحترَّم . وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنى عنه ؛ حتى لو أن الأوروبيين كانوا عسوراً بالطبيعة ، لجعل هو قومه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوروبيين . . . نعم إنها حجةٌ تامة لولا نقص قليل في البرهان ، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب التفتوح العثمانية ، يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوروبيين لابسين قُبَّعاتٍ ، ليشبهوا الأوروبيين . . .

* * *

قال صاحب السر : وتهوّر في هذه الضلالة رَحْطٌ من قومنا ، وأخذوا يدعون إلى التَّبَع في مصر احتذاءً لتركيا ، وذهب بعضهم إلى سعد باشا (رحمه الله) يطلب رأيه ، فكان رأيه (لا) بمدِّ الألف . . . وعهد إلى بعضهم أن أسأل الباشا : فقال :

وَيُنْهَم ! أَلَا يَخْجَلُونَ أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَصْرِيِّينَ مَقْلَدِينَ لِلتَّقْلِيدِ نَفْسَهُ ؟ إِنْ هَذِهِ بَدْعَةٌ تَنْحَطُّ عِنْدَنَا دَرَجَةً عَنِ الْأَصْلِ ، فَكَأَنَّمَا بَدْعَتَانِ ^(١) . ثُمَّ ضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ : كَانَ فِي الْقَدِيمِ رَجُلٌ سَمِعَ أَنَّ الْبَصَلَ بِالْخَلِّ نَافِعٌ لِلصَّفْرَاءِ ، فَذَهَبَ إِلَى بَسْتَانٍ يَمْلِكُهُ وَقَالَ لَوَكِيلِهِ : ازْرَعْ لِي بَصَلًا بِخَلٍّ . . . هَكَذَا يَرِيدُونَ مِنَ الْقُبْعَاتِ : أَنْ تُخْرَجَ لَهُمْ تُرْكَا بِأُورْبِيَيْنِ .

لَيْسَتْ هَذِهِ الْقُبْعَةُ فِي تَرْكِيَا هِيَ الْقُبْعَةُ ، بَلْ هِيَ كَلِمَةُ سَبٍّ لِلْعَرَبِ وَرَدَّ عَلَى الْإِسْلَامِ . ضَاقَتْ بِهَا كُلُّ الْأَسَالِيبِ أَنْ تُظْهِرَهَا وَاضِحَةً بَيِّنَةً ، فَلَمْ يَسْفِ بِهَا إِلَّا هَذَا الْأُسْلُوبُ وَحْدَهُ . وَهِيَ إِعْلَانٌ سِيَاسِيٌّ بِالْمُنَاوَاةِ وَاتِّخَالْفَةِ وَالْانْحِرَافِ عَنِ وَاطِرِاحِنَا . فَإِنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَمْتِهِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَهُوَ فِي ثِيَابِهَا وَشَعَارِهَا ، فَبِهَذَا انْفَتَحَ لَهُمْ بَابُ الْخُرُوجِ فِي الْقُبْعَةِ دُونَ غَيْرِهَا مِمَّا يَجْرِي فِيهِ التَّقْلِيدُ أَوْ يُبَدِّعُهُ الْإِبْتِكَارُ ؛ وَإِلَّا فَأَيُّ سِرٍّ فِي هَذِهِ الْقُبْعَاتِ ، وَمَتَى كَانَتْ الْأُمَمُ تَقَاسُ بِمَقَايِيسِ الْخِيَاطِينَ . . . ؟

هَهُنَا سَيْفٌ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَقْصَصًا فَعَمِلَ أَوَّلًا مَا يَعْمَلُ الْحَسَامُ الْبَتَّارُ ، فَأَجَادَ وَأَبْدَعَ وَأَكْبَرَهُ النَّاسُ وَأَعْظَمُوهُ ؛ ثُمَّ صَنَعَ مَا يَصْنَعُ الْمُتَقَصُّ ، فَإِذَا عَسَاهُ يَأْتِي بِهِ إِلَّا مَا يَنْكَرُهُ الْأَبْطَالُ وَالْخِيَاطُونَ جَمِيعًا ؟

أَكُتِّبَ عَلَيْنَا أَنْ نَظَلَّ دَهْرَنَا نَبْحَثُ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى . وَأَلَا يَحْيَا الشَّرْقُ إِلَّا مُسْتَعْبِدًا يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ مِمَّنْ يَقُولُ لَهُ : اشْرَعْ لِي . . . ؟ إِنْ بَحْثْنَا فَلَنَبْحَثَ فِي زَيِّ جَدِيدٍ نَسْمِيْزُ بِهِ ، فَتَكُونُ التَّمَوُّى الْكَامِئَةُ فِينَا فِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجَرَّتْنَا هِيَ الَّتِي اخْتَرَعَتْ إِظَاهَرَهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرًا ، كَمَا يُخْرِجُ زَوْرُ الْأَسَدِ لِبَدَّةِ الْأَسَدِ . غَايَةٌ فِي الْمُنْفَعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْمَلَاعِمَةِ .

أَنَا أَلْبَسَ مَا شِئْتُ ، وَلَكِنِّي عِنْدَ الْقُبْعَةِ أَجِدُ حِدًّا تَقِفُ إِلَيْهِ ذَاتِيَّتِي الْفَرْدِيَّةُ ، فَلَا أَرَى تَسْمَةَ مَوْضِعِ انْفِرَادٍ وَلَكِن مَوْضِعَ مَشَاكَلَةٍ ، وَلَا أَعْرِفُ صِفَةً مُنْفَعَةً لِي بَلْ صِفَةً حَقِيقَةً مَنِي ، وَيَعْرِضُنِي مِنْ هُنَاكَ الْمَعْنَى الَّذِي يَصِيرُ بِهِ النَّوْعُ إِلَى الْجِنْسِ . وَالْوَاحِدُ إِلَى الْجَمَاعَةِ . وَمَاهِدَتْ مُسَالِمِيًّا أَصْلِي وَأَرْكَمَ وَأَهْبَجِدَ ، فَالْقُبْعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لِي : دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ .

(١) الْأَصْلُ تَقْلِيدُ تَرْكِيَا لِأُورْبَا ، وَهَذِهِ بَدْعَةٌ ؛ فَتَقْلِيدُ تَرْكِيَا بَدْعٌ أَسْخَفُ مِنَ الْأَوَّلِ .

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر ، إنما اشتقوها من المصدر نفس المصدر الذي يسخر منه التهتك في النساء ، وكلاهما مستزَع من المخالفة ، وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرعية عامة . وليس يعدم قائل وجهاً من القول في تزوين القبعة ، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها ، غير أن المذاهب الفلسفية لا يُعجزها أن تقيم لك البرهان جَدَلاً محضاً على أن حياة المرأة وعفتها إنهما إلا رذيلتان في الفن . . . وإنهما إلا مرض وضعف ، وإنهما إلا كيت وكيت ، ثم تنتهي الفلسفة إلى عدّهما من البلاهة والغفلة ، وما الغفلة والبلاهة إلا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تُفحِّمَ في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في . . . في . . . في الدّعاة .

لايهولنك ما أقرر لك : من أن القبعة الأوروبية على رأس المسلم المصري ، تهتك أخلاقاً أو سياسياً أو دينياً أو من هذه كلها معاً ، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب ، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عقديها ، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلط الحدود اللغوية ؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد ، فلا يقال : إلا أنه وجد منفعة فصدق ، ووجد منفعة فكذب ؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهل القدماء ، وفضيلة القدماء ، ودين القدماء . وهذه الثلاثة : الجهل والفضيلة والدين ، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادفات لمعنى واحد ، هو الاستعباد أو الوهم أو الخرافة .

ومتى أزيلت الحدود بين المعاني ، كان طبيعياً أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى غيره ، وأصبح الباطل باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر ، فلا يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة ، تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته ، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فصلاً مسلحاً ، فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة هجينة تضطره أن يُعَدَّ للوحشية الإنسانية ، وتدفع هذه الوحشية أن تُعَدَّ له .

ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم ، وما هي إلا حد يطمس

حدًا ، وفكرة تهزم فكرة ، ورذيلة تقول لفضيلة : هأنذى قد جثت فاذهبى .
 ما هو الأكبر من شيئين لاحدٌ بينهما لتعيين الصَّغر ؟ وما هو الأصغرُ من
 شيئين لاحدٌ بينهما لتعيين الكبر ؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحدُّ لا موضع
 له فى التمييز ولا مقرَّ له فى العُرف ولا فصلَ به فى العادة ؛ ومن هنا كان الدينُ
 عند أقوام أكبرَ كلمات الإنسانية فى عامة لغاتها وأملأها بالمعنى ، وكان عند
 آخرين أصغرَها وأفرغَها من المعنى ؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع
 الاجتماعُ الإنسانى وهو محدود بغاياته العليا ، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع
 لا يسعه فلا حدَّ له ، وكأنه معنى مُتوهم لا وجود له إلا فى أحرف كلمته .

فجماعة القبعة لا يرون لأنفسهم حدًّا يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شريقتنا ،
 وقد مرَّ قُتُوبُ من كل ذلك وأصبحوا لا يرون فى زينا الوطنى ما فيه من قوة السر الخفى
 الذى يلهمنا ما أودعه التاريخُ من قوميتنا ومعانى أسلافنا .

وأنا أعرف أن منا قومًا يرى أحدُهم فى ظن نفسه أنه قانونٌ من قوانين التطور ؛
 فهو فيما يلابسُه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس ، بل واحدٌ من النواميس . . .
 ومن هنا الثَّقَلُ والدعوى الفارغة ، وما هو أكبر من الثقل وفراغ الدعوى .
 وإنه لحقٌّ أن يكونَ بعضُ الناس أنبياء ، ولكن أقبحَ ما فى الباطل أن يظن
 كلُّ إنسان نفسه نبيًّا .

واعلم أن كثيرًا مما يزينونه للشرق من رذائل المدنية الأوروبية ، إن هو
 إلا منطقُ شهوات فى جملته ، ولقد تسمعُ الجائعُ يتكلم عن الطعام ، فترى كلامًا
 تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدها غيرُ الجائع إلا حماقةً ساعتها . . .

سعد زغلول

وقال صاحب سر (م) باشا : ألقى إلى الباشا ذات يوم أن (سعداً) مُصَبِّحُنَا زائراً^(١) ، وكانت بين الرجلين خاصةً وأسبابٌ وطيدة . وللباشا موقعٌ أعرفه من نفس سعد كما أعرف الشعلةَ في بركانها ؛ أما سعدٌ فكان قد انتهى إلى النهاية التي جعلته رجلاً في إحدى يديه السَّحْرُوفِ الأخرى المعجزة ، فهو من عظماء هذه البلاد كقاموس اللغة من كلمات اللغة : يَرُدُّ كلُّ مُفْرَدٍ إليه في تعريفه ، ولا تصح الكلمة عند أحدٍ إلا إذا كانت فيه الشهادةُ على صحتها .

وجاءنا سعدٌ غُدْوَةً ، فأسرعتُ إلى تقبيل يده قبلهً لانشبهها القبلات ، إذ مُثِّلْتُ لى من فرحها كأنها كانت منفيةً ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضِعَتْ على تلك اليد .

إن الرجل العظيم إذا كان باراً بأبيه عارفاً قدره مُدْرِ كَأَ عَظَمَتِهِ ، يشعر حين يقبِّل يدَ أبيه كأنه يسجدُ بروحه سجدةً لله على تلك اليد التي يقبلها ، ويجد في نفسه اتصالاً كهربائياً بين قلبه وبين سرِّ وجوده ، وبِخُصَّةِ العالمِ بلمسةٍ كأن قبْلَتَهُ نبضتُ في الكون : وكل هذا قد أحسسته أنا في تقبيلي يدَ سعد ، وزدتُ عليه شعورى بمثل المعنى الذي يكون في نفس البطل حين يقبِّل سيفه المنتصر .

وضحك لى سعد باشا ضحكته المعروفة ، التي يبدأها فُهْ ، وتتمها عيناه ، ويشرحها وجهه كلّه ، فتجد جوابتها في روحك كأنه في روحك ألقاها .

والرجلُ من الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتبسّم ، رأى له ابتسامةً كأنها كمالٌ يتواضع ، فيحس كأن شيئاً غير طبعي يتصل منه بشيء طبعي ، فينتعش ويثبُّ في وجوده الروحي وثبةً عاليةً تكون فرحاً أو طرباً أو إعجاباً أو خشوعاً أو كلها معاً . غير أن الرجل من الحكماء إذا تأمل وجه سعد وهو يضحك ضحكته المطمئنة المتمكنة من معناها المقيّر أو المنكر أو الساخر أو أياً المعاني — حسب نفسه يرى شكلاً من القول لا من الضحك ، وظهرت له تلك الابتسامةُ الفلاسفية

(١) يقال : صبحه (بتشديد الباء) ، أى جاءه صبحاً .

متكلمةً ، كأنها مرةً تقول : هذا حقيقى . ومرة تقول : هذا غير حقيقى .
 إن سعداً العظيم كان رجلاً ما نظر إليه وطنى إلا بعين فيها دلائلُ أحلامِها ،
 كأنما هو شخصُ فكرةٍ لاشخصُ إنسان ؛ فإذا أنت رأيتَه كان فى فكرك
 قبل أن يكون فى نظرك ؛ فأنت تشهدُه بنظرين : أحدهما الذى تبصِرُ به ،
 والآخر ذاك الذى تؤمنُ به .

عبرىُّ كالحمرة الملتهبة لا تحسبه يعيش بل يحترق ويُسحرق ؛ نائثُ كالزلزلة
 فهو أبداً يرتجُّ وهو أبداً يَرجُّ ما حوله ؛ صريحُ كصراحة الرسل ، تلك التى
 معناها أن الأخلاق تقول كلمتها .

رجلُ الشعب الذى يُحسُّ كلُّ مصرى أنه يملك فيه ملكاً من المجد . وقد
 بلغ فى بعض مواقفه مبلغَ الشريعة ، فاستطاع أن يقولَ للناس : ضعوا هذا المعنى
 فى الحياة ، وانزعوا هذا المعنى من الحياة .

* * *

قال صاحب السر : وانقضت الزيارة وخرج سعد والباشا إلى يساره ، فلما
 رجع من وداعه قال لى : والله يا بنى لكأنا زاد هذا الرجلُ فى ألقاب الدولة
 لقباً جديداً ، ثم ضحك وقال : أتدرى ما هو هذا اللقب ؟ قلت : فما هو يا باشا ؟
 قال : والله يا بنى ما من (باشا) فى هذه الدولة يكون إلى جانب سعد ، إلا
 وهو يشعر أن رتبته (نصف باشا) . . .

هذا رجل قد بلغ من العظمة مبلغاً تصَاغر معه الكبير ، وتضاءلَ العظيم ،
 وتقاصرَ الشامخ ؛ نعم وحتى ترك أقواماً من خصومه العظماء ، كفلان وفلان ،
 وإن الواحدَ منهم ليلوحُ للشعب من فراغه وضعفه وتطَرُّحِهِ ، كأنه ظلُّ
 رجلٍ لا رجل .

وقد أصبح قوةً عاملةً لا بد من فعلها فى كلِّ حى تحت هذا الأفق ، حتى
 كأن معانى نفسه الكبيرة تنتشر فى الهواء على الناس ، فهو قوة مرسلة لا تُمسك ،
 ماضية لا تُردُّ ، مقدورة لا يُحتال لها بحيلة .

هذا وضعُ إلهى خاص لا يشبهه أحدٌ فى هذه الأمة ، كيدان الحرب

لاتشبهه الأمكنة الأخرى ؛ فقد غامر سعدٌ في الثورة العرابية وخرج منها ، ولكنها هي لم تخرج منه ؛ بل بقيت فيه ؛ بقيت فيه تتعلم القانونَ والسياسةَ ، وتُصلح أغلاطَها ، ثم ظهرت منه في شكلها القانوني الدقيق . وبهذا تراه يغمُر الرجال مهما كانوا أذكىاء ؛ لأن فيه مالم يس فيههم ، وتراهم يظهرون إلى جانبه أشياء ثابتةٌ في معانيها ، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأمواج العانية .

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فمه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوةً كقوة النصر ، وشهرةً كشهرة موقعةٍ حربية مذكورة .

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة — حرمة القدرةُ الإلهية النسلَ ، وصرفت نزعة الأبوة فيه إلى أعماله التاريخية ، ففيها عنايتُهُ وقلبهُ وهمومُهُ ، وهي نسلٌ حتى من روحه العظيمة ، ويكاد معها يكون أسداً يزأرُ حول أشباله .

ولن يُذكرَ السياسيون المصريون مع سعد ، ولن يذكر سعد نفسه إذا انقلب سياسياً ، فإن المكانَ الحاليَ في الطبيعة الآن هو مكانُ رجل المقاومة لارجل السياسة ، وهذا هو السبب في أن سعداً يُشعر الأمةَ بوجوده لذّةً كلذّة الفوز والانتصار ، وإن لم يفز بشيء ولم ينتصر على شيء ؛ فاطمئنانُ الشعب إلى زعيم المقاومة ، هو بطبيعته كاطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه .

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذَ المقاومة لهذه الأمة ؛ فنسخ قوانينَ ، وأوجد قوانينَ ، وحمل الشعبَ على الإعجاب بأعماله العظيمة ، فنبّه فيه قوةَ الإحساس بالعظمة فجعله عظيماً ، وصرفه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر ، فدفعه إلى طريق مستقبله يُبدع إبداعه فيه .

إن هذا الشرقَ لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة ما دام ذلك الغربُ يلازئهُ ، والفريسةُ لا تتخلص من الحلقِ الوحشيِّ إلا باعتراض عظامها الصلبة القوية في هذا الحلق .

وكم في الشرق من سياسي كبير يجعلونه وزيراً ، فتكون الوظيفة هي الوزيرَ

لأنفسُ الوزير ، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصبوها في كرسیه ، لكانت أكثرَ نفعاً منه للأمة ، بأنها أقلُّ شراً منه . . .

يا بنیّ ، كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاه والسيادة والحكم ، فليست هذه هي مسألة الشرق ، ولكن المسألة : مَنْ هو النبی السیاسیُّ الذي يرض أن یُصلَّب . . . ؟

حماسة الشعب

وحدثني صاحبُ سر (م) باشا قال : لما رجع سعد باشا من أوروبا في سنة ١٩٢١ ، كانت الأمةُ في استقباله كأنها طائر مدَّ جناحيه ، لاختلافٍ لشيء منه على شيء منه ، بل كله هو كله ؛ وكانت المعارضة في الاستحالة يومئذٍ كاستحالة وجود رُقعة في ريش الطائر .

على أن ثوبَ السياسة المصرية كثيرُ الرقع دائماً بالجديد والخلق ، فرقة من المعارضين ، وأخرى من المعتنقين ، وثالثة من المتخاذلين ، ورابعة من المعادين ، وخامسة وسادسة وسابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف ؛ ورقاعٌ بعد ذلك مما نعلم ومالا نعلم ، فإن من العجيب أن هذا الجو الذي لا يتقلب إلا بطيئاً ، يتقلب أهله بسرعة ؛ وهذه الطبيعة التي لا تنكاد تختلف ، لا يكاد أهلها يتفقون .

ولكن سعداً (رحمه الله) رجع من أوروبا رجعة الكرامة لأمة كاملة ، فجاز بأنه لم يخسر شيئاً من الحق ، وانتصر بأنه لم يُهزم ، ودل على ثباته بأنه لم يتزعزع ، وذهب صولةً ورجع صولةً وعزيمة ؛ فكان إيمانُ الشعب هو الذي يتلقاه ، وكانت الثورةُ هي التي تحتفل به ، وبطلت العللُ كلها فلم يجد الاعتراضُ شيئاً يعترض عليه ، واتفقت الأسبابُ فاجتمعت الكلمة ، وظهر سعد كأنه روحُ الأمة متمثلاً في قدرة ، حاكماً بقوة ، متسلطاً بيقين .

نعم لم ينتصر البطلُ ، ولكن الأمة احتفت به لأنه يمثل فيها كمالاً من نوع آخر هو سرُّ الانتصار ؛ فكانت حماسة الشعب في ذلك اليوم حماسة المبدئ المتمكن : يُظهر شجاعة الحياة ، وفورة العزائم ، وفضيلة الإخلاص ، وشدة الصولة ، وعناد التصميم ؛ ويثبت بقوة ظاهره قوة باطنه ، وكان فرحُ الأمة عناداً سياسياً يفرح بأنه لا يزال قوياً لم يَضعف ، وكان ابتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافرًا لم يُستهكص ، وكان الإجماعُ ردّاً على اليأس ، وكانت الحماسةُ ردّاً على الضعف .

انبعث صولةُ الحياة في الشعب كله ، وابتدأ المستقبلُ من يومئذٍ ، فلونزلت

الملائكة من السماء في سحابة مُجَلَّجِلَةٍ بِسَمْعٍ تُسَبِّحُهُمْ لِيُؤَيِّدُوا سَعْدًا — لما زاده شيئاً ؛ فقد كان محله من القلوب كأنه العقيدة ، وكان التصديق مبدولاً له كأنه الكلمة الأخيرة ، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعي ، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبياً من قبيل أن كلاً منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة .

* * *

قال صاحب السر : ورجع الباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مساحمة النفوس ، وصحة العهد ، واجتماع الكلمة ، وإعداد الشعب للمراس والمعاناة ، فقال :

تالله لقد أثبت (سعد) للعالم أنها مصر الجبارة متى شأنت بنت الرجال على طريقة الحرم الأكبر في العظمة والشهرة والمنزلة والقوة . ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حرب كبيرة ، فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض ، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف ، وجعل عرق السياسة يفور كما يفور العرق المجرع بالدم .

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث بينهما : إما الحزم إلى الآخر وإما الإضاعة . ولا حزم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم : طوفاناً حياً ، مستوياً الطبيعة ، مندفع الحركة ، غامراً كل ما يعترضه ، إلى أن يقضى الأمر ويقول أعداؤنا : يا سماء أقلعي .

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخص حتى بينهم ، حين يستوى الجميع في الثقة ، ويتآزر الجميع في الأمل ، ويشترك الجميع في العطف الروحي ، ولا يبقى لحماة منهم حظ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع ؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله .

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة ، ولا عمل له في أزهارها وأثمارها وعطرها وحلواها ؛ فأسمعهم الشعب اليوم طنين النحل ، وأراهم إبر النحل ، ليعلموا أن الأزهار والأثمار والعطر والحلوى هي له بالطبيعة .

وكانوا يتخَرَّصون أن مذهبنا في الحياة لمصلحة المعاش فقط ، وأن المصريَّ حاكماً أو محكوماً لا يَسُدُّ آماله الوطنية إلى أبعدَ من مدة عمره سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا أطلقوا أيدينا في حاضر الأمة أطلقنا أيديهم في مستقبلها . ومن ثم طمعوا أن يكون الحقُّ الناقصُ في نفسه حقاً تاماً في أنفسنا لهذه العلة ؛ وحسبوا أن السياسىَّ المصرى لا يتجرأ أن يقول ما يقوله السياسىُّ الأوروبى : من أنه لا يخشى الموتَ ولكنه يخشى العار . فإنه إذا مات وحده ، وإذا جلب العار جلبه على نفسه وعلى أمته وعلى تاريخ أمته ، يَسِيدُ أن سعداً قالها ؛ وفي مثل هذا قد يكون قول (لا) معركة .

وها هى ذى معركة اليوم التاريخية ، فإن الذرَّاتِ الحيةَ التى تُخلق من دمائنا نحن المصريين قد ثارت في هذه الدماء ، في هذا النهار ، تعلن أنها لا ترضى أن تولدَ مقيَّدة بقيود .

أتدري ماذا عرضوا على سعد ؟ إنهم عرضوا عليه ما يشبه في السخرية طاحونةً تامةَ الأدوات والآلات من آخر طراز ، ثم لا تُقدِّم لها إلا حبةً قمح واحدة لتطحنَها نتيجةً تسخر من أسبابها ، وأسبابٌ تهزأ بالنتيجة .

إن أوربا لا تحترم إلا من يحملها على احترامه ، فما أرى للسياسيين في هذا الشرق عملاً أفضلَ ولا أقوى ولا أَرْدَ بالفائدة من إحياء الحماسة في كل شعب شرقى ، ثم حياتيتها وحسن توجيهها ؛ فهذه الحماسةُ الشعبيةُ الدائمةُ القويةُ البصيرةُ ، هى قوةُ الرفض لما يجب أن يُرفض ، وقوةُ التأييد لما يجب أن يُقبَل ، وهى بعد ذلك وسيلةُ جمع الأمر ، وإحكامِ الشأن ، وإقرارِ العزيمة في الأخلاق ، وتربيةِ الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاءُ الحسِّ وتعويدُهُ إدراكَ الأعمال العظيمة ، والتحمسُ لها ، والبذلُ فيها .

وما علةُ العللِ فينا إلا ضعفُ الحماسة الشعبية في الشرق ، وسوءُ تدبيرها ، وقبحُ سياستها ؛ وإنا لنأخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وفنونهم ؛ فنأخذ كلَّ ذلك بروحنا الفاترة في خمول وإهمال وتواكلٍ وتفردٍ بالمصلحة واستبدادٍ بالرأى ، فإذا دينارُهم في أيدينا درهم ، وإذا نحن وإياهم في الشيء الواحد كالنحلة والذبابة على زهرة . . .

ليست لنا حماسةُ الحياة ، وبهذا تختلف أعمالُنا وأعمالُهم ، وذلك هو السرُّ أيضاً في أن أكثرَ حماستنا كلاميةٌ مَحْنُصَةٌ ؛ إذ يكون الصراخُ والصباحُ والتشدُّقُ ونحوُها من هذه المظاهر الفارغة — تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا ، وتنوعاً منها بغير أن نَجْهَدَ في التنقيح والتنويع . ومن هذا كانت لنا أنواعٌ من الكلام ينطلق اللسانُ فيها للخروج من الصمت لا غير . . . ومنه كثير من هذا الهُراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف .

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط ؛ بل على معاييبه أيضاً ، وعلى ضعفه . بخاصة ، والشعبُ الفاترُ في حماسته لو نال حقين مغصوبين لعادَ فَعَسِيرَ أحدهما أو كاليهما ، أما الشعب المتحمس القوي في حماسته ، فلو غَصِبَ حقين ونال أحدهما لعادَ فابْتَرَزَ الآخر .

الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا : كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقب الحركات والسكنات ، وأبثّ العيون والأرصاء ، وأعرف المضطرب والمقلّب في أيام الفتن ونوازل المحنة ، محافظة على الأمن ، ومبادرة لما يُتوقع ؛ فكنت كالمُرصد المهيّئ بآلاته لتدوين حركات الزلازل .

وانتهى إلينا يوماً أن راجفة من هذه الزلازل سترجف بفلان من أهل الرأي الحر ؛ الذي يستقل ولا يتأبّع ، ويتنفذ ولا يتحاج ، ويصرح ولا يُجتمِع ، وأن قوماً ثوروا عليه الغبار الآدمي من العامة وأشباه العامة ، وأنهم يتحسّون الوقت لتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور الناقم . أما فلان هذا فرجل "سياسي" عنيد أضاع الحق كله لأنه لا يرضى بنصف الحق . . . وكلمته في السياسة كأنما تُلقي على لسانه من الغيب ؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم ؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أردوا ، فهو بينهم كالحق المغلوب : لا يموت لأنه غير باطل ، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر . وقد كان رجلاً كالمصباح الوهاج فألقوا عليه الغطاء ، فإذا هو في طبيعته ويبدو للناس بغير طبيعته ، وتركه رأيه الحر الصريح كالنبيّ المكذّب يردُّ صدقه ؛ لا لأنه غير صدق ، ولكن لأنه غير مستطاع ، أو غير ملائم .

ومن آفاتنا نحن الشرقيين أننا نستمرئ العداوة ، وننقاد لأسبابها ، ونطاولع لها تطاولع الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم ؛ كأن المستبددين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعتنا ؛ فتردُّ الفكر على الفكر في مناقشة تجرى بيننا — لا يكون من دفع الحقيقة للحقيقة ، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد ؛ ومن توثب الطغيان على الطغيان ؛ فهو التسلب ؛ والطعن والتجريح ، وهو الجفوة والخصومة واللدّ ، وهو المنازعة والعنف والتحامل ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط . والجدال بين العقلاء يبعث الفكر فينتهي إلى الحق ، ولكنه فينا نحن يهيج الخلق فينتهي إلى الشر ، والردُّ على عظيم منا كأنه

يردُّ على منزلته في الناس لا على منزلته في الرأي ، وكشفُ الخطأ عندنا تعبيرٌ بالخطأ لاتبصيرٌ بالصواب ، واستلابُ الحجَّة من صاحبها وإفسادُها عليه كاستلاب الملك من مالكة وطرده منه . . .

ومن ثمَّ كان الدفاعُ بالمكابرة أصلاً من أصول الطبيعة فينا ، وكان الاضطهادُ حجةً للحجة العاجزة ، وكان الإعانةُ دليلاً للدليل الذي لا ينهضُ بنفسه ، ومتى اعتبَر كلُّ إنسان نفسه إمبراطوراً على الحق . . . فلا جرَمَ لا تَرَدُّ كلمةٌ على كلمةٍ إلا بحرب .

* * *

قال صاحبُ السر : وكسَّبر الأمرُ على الباشا ، فجمع رموسَ المؤتمرين بذلك الرجل الحر ، وأخذ يقلِّبهم تقليبه بين التودُّد والملاطفة ، وقال لهم فيما قال : إن فضيلة الجمهور هي التي تضمن تربية الفضيلة وحفظها وغسبتَها على الرذائل ، وإن كلَّ صحيح يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهورُ صحيحاً ، وإن غيرَ العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقة في يوم ثم يرفضونها هي ذاتها في يوم آخر ، فإن ذهبتَ تجادلهم وتحتجُّ عليهم بأنهم قبلوها — قالوا : هذا كان أمس . . . فكأنما الفاصل بين زمنين يجعل الشيء الواحدَ ضدَّين .

ثم سألهم : ما هو ذنبُ الرجل ؟ فقال منهم قائل : إنه خارجٌ علينا في الرأي . فقال الباشا : إن المعنى في أنه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه ؛ فقد تكافأت الناحيتان ، وخلافٌ بخلاف ؛ فما الذي جعل لكم حقَّ رده عن الرأي دون أن يكون له مثلُ هذا الحق في ردكم أنتم ؟

قالوا : إننا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائي ، إن خوفَ الكثرة من رأى فرد أو أفراد هو أسوأ المعنيتين في تفسير رأيها هي ؛ وعشرةُ جنهات لاتعْبأ بالجنه الواحد ، فإنها تستغرقه ؛ بيَّند أن هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائي

نعم إن قطعَ الخلاف ضرورةً من ضرورات الوطنية ، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره وباطنه كالخلاف في أيَّهما أطولُ : العَصا أو المِثدنة . . . ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدال .

إن أساس انخدالنا نحن الشرقيين في قلوبنا ، إذ لا نعتبر المعاني العامة إلا من جهة أنها قائمة بالرجال ، ثم لا نعتبر الرجال إلا من ناحية ما في أنفسهم منهم ، ثم لا نعتبر أنفسنا إلا من جهة ما يرضينا أو يغضبنا ، وقد لا يغضبنا إلا الحق والجيد ، وقد لا يرضينا إلا الباطل والتهاون ، ولكننا لا نبالي إلا ما نرضى وما نغضب .

لستم أحراراً في أن تجعلوا غيركم غير حر ، فإن يكن الرأي الذي يعارضكم رأياً حقاً وتركم مسأبذته فقد نصرتم الحق ؛ وإن يكن باطلاً فلاظهاره باطلاً هو برهان الحق الذي أنتم عليه ؛ ولن تجردوا أحداً من اختيار الرأي إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل ، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة ، تدعى أنها الحق ، ثم تدعى لنفسها حكمه ، فقد كذبت مرتين .

اسمعوا أيها السادة : قامت بين اثنين من فلاسفة الرأي مناظرة في صحيفة من الصحف ، وتساجلا في مقالات عدة ، فلما عجز أضعفهما حجة وكعسه الجدل ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمة ، فلم ترضه فبيتهها ونام عنها على أن يرسلها من الغداة بعد أن يردد نظره فيها ويصحح آراءه بالحجج التي يفتح بها عليه . قالوا : فلما نام تمثلت له المقالة في أحلامه جسماً حياً موهوناً مريضاً ، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك ، مجروحاً مما بينهما ؛ ثم كلمته فقالت له : ويحك أيها الأبله ! إن أردت أن تغلب صاحبك وتسكته عنك ، فاحمل مقالتك إلى رأسه في العصا لا في الجريدة . . .

* * *

قال صاحب السر : وضحك القوم جميعاً ، وأذعنوا وانصرفوا مقتنعين ، قد خلت دِخلتهم لذلك الرجل الحر وتنصلوا من جريمة كانت في أيديهم ، وما جاء الباشا بمعجز من القول ، ولكن تصويره للمسألة كان حلاً لها في نفوسهم . فلما أذهبوا تنفس الباشا كأنما خرج من البحر وكان يتعاطى إنقاذ غريق ويعاني فيه حتى نجا ؛ ثم قال لي : إن هذا كان جواباً عن شيء في أنفسهم ، ولكنه هو سؤال عن شيء في أنفسنا : ما الذي يجعل الناس عندنا يخشون

المعارضة في الرأي الوطني حتى إنهم ليجازون عليها بهذه العقوبة الشعبية المنكرة ؟ وما بالهـم لا يعطون الرأي حكمه وحقيقته ، بل يعطونه من حكم أنفسهم وحقائقها وشهواتها المتقلبة ، حتى لترجع الفروق الضعيفة المتجانسة في أبناء الوطن الواحد وكأنها من الخلاف والمباينة فروق جنسية كالتى تكون بين إنسان من أمة ، وإنسان من أمة أخرى تعاديها .

قلت : إن رأى الكثرة قانون يا باشا .

قال : هذا صحيح ، ولكن بشرطين لا بشرط واحد : الأول ألا يخرج الرأي على القانون ، والثاني ألا تكون الحقيقة في الرأي الذى يناقضه ؛ ومحاولة إكراه المعارضة نقضاً للشروطين معاً ؛ ثم إن أساس الوطنية سلامة القلوب وصفاء النيات ، واستواء الموافق والمخالف في هذا الحكم ، ومتى وقع الخلاف بين اثنين وكانت النية صادقة مختصة ، لم يكن اختلافهما إلا من تنوع الرأي ، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين ، ما من ذلك بد .

الحقيقة يا بنى أن الجماهير الشرقية ليست في تربيتها من الجماهير السياسية التى يعتد بها ، إذ لاتزال في أول عمرها السياسى ، وبهذا السبب وحده كان اختلاف الكبراء في السياسة لا يشبهه إلا نزاع الخصمين بغير شهود ولا قاضٍ نافذ الحكم ، فهو نزاع قوة تفوز بوسائلها ، لا نزاع حق يستعلى بأدله .

وهذه المجالس النيابية الشرقية كلها صورٌ ممثلة جافة ، منقطعة النماء من أسبابها ، كالفرع المقطوع من الشجرة ، وإنما ينتضر الفرع ويُسَمِّرُ أثماره إذا قام بشجرته لابنفسه ، وما شجرة الفرع السياسى إلا الجمهور السياسى .

فسييلُ الإصلاح في كل مملكة شرقية أن ينهض أهلُ الرأى من كل مدينة فيها بين عالم وأديب ومحام وسرى ، ومن كان بسبيل من هؤلاء ، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندوة للاجتماع والبحث والمشورة ، وقول (نعم) بالحجة وقول (لا) بالحجة . ثم يعلنون ذلك في جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والأب والصدى في تعليمه وهدايته وإرشاده ؛ وتتصل هذه الدور في كل مملكة بعضها ببعض ، وتنتهى بالمجالس النيابية . وبغير ذلك لا يملأ الفراغ الذى نراه خاوياً بين الشعب

والحكومة ، وبين الكبراء والجماهير ، وإنما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ ؛
 فهو الذى يَضِيع فيه ما يَضِيع فيه ، ويختنق ما يختنق .
 منا قومٌ موظفون فى الحكومة ؛ لكن أين القومُ الذين تكون الحكومة
 نفسها موظفةً عندهم ؟

* * *

(اعتذار) : بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا ؛ فقد أنبأنا صاحب
 السر أنه سيكتب السر

المجنون*

جاء يمشى هادئاً يتخيلُ في مشيته ، يَرَجُفُ بين الخطوة والخطوة كأنه من كبره يُشْعِرُك أن الأرضَ مُدْرِكة أنه يمشى فوقها . . . ولا ينقلُ قدمه إذا خَطَاً حتى ينهضَ برأسه يُحرِّكه إلى أعلى ، فما تدرى أهو يريد أن يطمئنَ إلى أن رأسه معه . . . أم يُخَيِّلُ إليه أن هذا الرأسَ العظيم قد وُضع على جسمه في موضع راية الدولة ، فهو يَهْزُهُ هزَّ الراية . . .

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفة وعرضها — فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع في صحراءَ يَلْقُبُ عينه في جهاتها متحيراً متردداً، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته . . .

ورحبتُ به ، وأجلسته إلى جانبي ، فأخذ يَسْتَعْرِفُ إلى بذكر اسمه وجماعته وبلده ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، كأنه عنترَةُ بنى عَبَّس : لأرضه من طبيعتها جغرافياً ، ومن اسمه جغرافياً على حِدَةٍ . . . فلما رآني لا أُثْبِتُهُ مَعْرِفَةً قال : إن بك نسياناً .

قلت : وكثيراً ما أنسى غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكرُ بتاريخ .

قال : هذه غلطةُ الجرائد . . . ومهما تنسَ من شيء فلا تنسَ أنك أستاذُ « نايغة القرن العشرين^(١) » . . .

فسرَّحتُ فيه نظري ، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أُمردٍ أهيفَ ، يكاد برخاوته وتفكُّكه لا يكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه وفطورهما . وتوسمتُ فإذا وجهٌ ساكنٌ منبسطُ الأساريرِ ممسوحُ المعاني ، يُنبئُ بانقطاع صاحبه مما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأسه . . .

* انظر حديث هذا المجنون وخبره في « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » .
(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء ، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية ، ثم خولط في عقله فتركها ، وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه .

وتأملتُ فإذا طفولةٌ متبلّدةٌ قد ثبتتْ في هذا الوجه لتُخرجَ من بين الرجلِ والطفلِ مجنونًا لا هو طفلٌ ولا رجلٌ .

وتفرّستُ فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصّفحة ، قتّلاها أفكارُ المسكين وعواطفه .

وتبيّنتُ فإذا رجلٌ مُستترخٌ ، مُستفترّ البدن ، خائرُ النفس ، كأنه قائمٌ لِنَوّه من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ ، وكأنه يتكلم من بقايا حلُمٍ كان يراه . . .

وخُيِّلَ إلىّ من هذا الخُمُولِ في هذا الشاب ، أن عليه جَوْاً من تناوُيه ، وأن المكانَ كلّهُ يتشاءبُ ، فتشاءبت

* * *

فلما رأى ذلك منى ضحكك وقال : إن « نابعة القرن العشرين » رجل مغناطيسيٌّ عظيمٌ ؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . وحسبكَ فخراً أن تكونَ أستاذَه وأخاه وثيقته ، « فليس على ظهرِها اليومَ أديبٌ غيّرٌ وغيرك . . . »

قلتُ في نفسي : إنّنا لله ، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنونًا غيره وغيرى ، وكأنما ألمَ بذلك فقال : لستُ مجنونًا ؛ ولكنى كنتُ في البيارستان . . .

قلت : أهو البيارستان الذى يسمّى مستشفى المجاذيب ؟

قال : لا ؛ إن هذا الذى تسميه أنت ، هو هو مستشفى المجاذيب ؛ أما الذى سمّيته أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذ أن من المجانين قومًا ظُرفاء يَدخلُهم الفسادُ في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تَبسرحُ ، فلا يكون جنونُهم جنونًا إلا من هذا الوجه ، وسائرُ أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير أنهم بذلك طيّاشون متقلبون ، إذا ازدُهِمى لم يَطِيقَهُ الناسُ من زَهْوِهِ وكبرائه وتنطّعه ، كأنه واحدُ الدنيا في هذه الفكرة ، وكأن بينه وبين الله أسراراً ؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس في أرقى طبقات عقله ، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها .

ومثلُ هذا لا بدّ له ممن يستجيبُ لهذيانه كما يحركُ فيه خفته وطيشه وزهوه ، وليكونَ عنده الشاهدُ على هذا الوجود الخيالى المَبْدَع الذى لا يوجد

إلا في عقله المختل . فإذا هو ظفر بمن يُحاسِنُه ، أو يصانِعُه ، أو يجاريه ،
تسببه مُذْعِنًا مؤمناً مصداقاً ، فلا يدّعه من بعدها ويتعلق به أشدّ التعلق ،
ويراه كأنه في ملكه . . . فيتخذُه صفيّاً وهو يعتقد أنه رقيق ، وقد يزعمُه أستاذه
ليفهمه من ذلك بحساب عقله . . . أنه تلميذُه .

وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسننى أستاذه إلا بحساب
من هذا الحساب ، فهو سيُعطي الأستاذية حقّها ، ولكن كما هو حقّها في لغة
جنونه . . . فأُصبحُ في رأيه تلميذه وصنيعته ، ومحدث هديانه ، وثقته وملجأه ،
والمحامي من ورائه .

قلت في نفسي : إذا أنا تركته جالساً كان هذا المجلسُ مثابته من بعدُ ،
فلا يعرفُ له محلا غيره ، ويصبحُ كما يقال في تعبير القانون « محله المختار » ،
فيسَـطَرُّ إلى سببٍ ولغير سبب ، ويقعُ في أوقاتي وقوع السهو لا حساب
عليه ، ويَضِيعُ فيه ما يضيع . فأجمعتُ أن أصرفه راضياً باليأس ؛ وقد انتهت
نفسه من معرفتي ، وانتهى عقله إلى الرأي أني لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه
هو ولا بحساب الناس .

فقلت له : ظني بك أنك أستاذُ نفسك ، ولا يحسنُ بنابغة القرن العشرين
أن يكونَ له في القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغت للأدب ، أما أنا
فشغول بأعمال وظيفتي ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تني به الساعات
الباقية من الوقت و . . .

فقطع عليّ وقال : إن الوقت ليس في الساعة ؛ والدليلُ أني أعطّلها فيتعطلُ
الوقت ، ولا يكون فيها يومٌ ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة .

فقلت : ولكنك إذا عطّلتها لم تتعطل الشمسُ التي تعيّنُ منازلَ النهار ،
فيسمرُ الظهْرُ ويَحِينُ العصرُ . . .

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك
أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير في الأدب وقرأتك ، فما
كان لي رأيٌ إلا رأيته لك . . . ولا صحتُ عندي نظرية إلا رأيتك قد أبديتها ،
وأنا لأعتقد أدباً في مصر إلا ما توافيتنا عليه معاً « ولا أسلمَ جدلاً ، ولا جدلاً »

أُسْلِمَ أَنْ فِي مَصْرَ أَدْبَاءِ يَنَالُونَ مِنِّي شَيْئًا ، فَهُوَ أَنَا وَأَنَا هُوَ » ^(١) ، وَلَئِنْ لَمْ يَذْعِبُوا
(لِنَابَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ) فَلْيَعْلَمَنَّ أَنَّهُمْ « وَقَعُوا مِنِّي مَوْقِعَ نَمْلَةٍ عَلَى صَخْرَةٍ . . .
هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُرِيدُ سَجَائِرَ وَلَيْسَ مَعِيَ ثَمْنُهَا »
فَتَهَلَّلْتُ وَاسْتَبَشَرْتُ ، وَقُلْتُ لَهُ : هَذَا قَرَشٌ فَهَلُمَّ فَاشْتَرِ بِهِ دَخَائِلَكَ ، وَفِي
رِعَايَةِ اللَّهِ . ثُمَّ اسْتَوَيْتُ لِلْقِيَامِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُمْ ؛ بَلْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ . . .

* * *

وَكَرِهْتُ أَنْ أَتَغَيَّرَ لَهُ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي هَذَا صَحِيحُ التَّمْيِيزِ ؛ فَمَا أَسْرَعَ مَا قَالَ :
إِنْ « نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ » فَتَى قَوَى الْإِرَادَةِ ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّدْخِينِ
سَاعَاتٍ فَمَا هُوَ بِصَبُورٍ وَإِذَا لَمْ يُثَبِّتْ لَكَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مُعَايِنَةٍ . . .
فَمَا أُعْطِيَتْهُ حَقُّهُ .

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَقَدْ غَرَسْتُ الرَّجُلَ مِنْ حَيْثُ أَرَدْتُ اقْتِلَاعَهُ ،
وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ مِنْ عَقْلَاءِ الْمُجَانِينَ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أحيانًا فَتَلْهَمُهُمْ آيَاتُ
مِنَ الذِّكَاةِ لَا يَتَّفِقُ مِثْلُهَا إِلَّا لِلنَّوَابِغِ الْمُنْطَقِ ؛ وَذَكَرْتُ (بَهْلُولَ) الْمُجَنُونِ الَّذِي
حَكَّوْا عَنْهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَبِيبَصًا ^(٢) فَقَالَ لَهُ : أَطْعَمَنِي .
قَالَ : لَيْسَ هُوَ لِي ، إِنَّمَا هُوَ لِعَاتِكَةَ بِنْتِ الْحَلِيفَةِ بَعَثْتُهُ إِلَى لَأْكُلَهُ لَهَا . . .

وَقَالُوا : إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْبَزْأَزِينَ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ
نَقِبَ ، فَنَظَرَ فِيهِ وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ مِنْ عَمَلِ هَذَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَأَنَا أَعْلَمُ .
فَقَالُوا : هَذَا مُجَنُونٌ يَرَاهُمْ بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَدُونَهُ ، فَأَلْطَفُوا بِهِ لَعَلَّهُ يَخْبِرُكُمْ . ثُمَّ
قَالُوا : أَخْبِرْنَا . قَالَ : أَنَا جَائِعٌ . فَجَاءَهُ وَهُوَ بِطَعَامٍ سَنَنٍِّ وَحُلُوءٍ ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ
فَنَظَرَ فِي النَّقَبِ وَقَالَ : هَذَا عَمَلُ اللَّصُوصِ . . .

وَكَانَتْ مَجْلَةُ (الرِّسَالَةِ) فِي يَدِ (نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ) ، فَوَصَلَ الْكَلَامَ بِهَا
وَقَالَ : إِنَّهُ يَقْرَأُ كُلَّ مَقَالَتِي ، وَإِنِّهِ وَإِنِّهِ ، وَإِنِّهَا وَإِنِّهَا . قُلْتُ : فَمَا اسْتَحْسَنْتَ
مِنْهَا ؟ قَالَ : (مَقَالَةُ السِّيَا) . . .

فَقُلْتُ : مَتَى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السِّيَا ؟ قَالَ : أَمْسَ .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ هُوَ كَلَامُهُ بِنَصِّهِ كَمَا نَبَهْنَا إِلَى ذَلِكَ ، وَالْبَاقِي تَرْجُمَانُهُ نَحْنُ عَنْ مَعَانِيهِ ،
وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي فِيهِذِهِ سَبِيلُهُ .

(٢) طَعَامٌ كَانُوا يَتَخَفُونَهُ مِنَ الْبَرِّ وَالسَّمَنِ .

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السبا ، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحوّل ما رأيته حلماً في مقالة .

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) ، فأقرأ مقالتك في الغيب من قبل أن تكتبها

قلت : إنك تكثّر أن تقولَ عن نفسك (نابغة القرن العشرين) ، وهذا يتحصّرُ نبوغك في قرن بعينه ؛ فلو قطعت الكلمة وقلت : (نابغة القرن) ، لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر ، وما قبلهما وما بعدهما .

فأريتُ به شدّهةً كأنه يفكر في جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا ؛ وإن هاهنا موضعُ نظر ، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول : إني نابغة قرن خروف . . .

* * *

فقلت في نفسي : حسمأةٌ مُدّت بماء^(١) ، وإن هذه الوسواس لا تنفك تُتعرو هذا المسكين ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار في ذهنه مجتمعةٌ مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لانظامَ لها ، فلا سكّت عنه ولا تشاغلٌ بما بين يديّ .

وسكّتُ وأعرضتُ عنه ؛ فجعل طائفته يعتريه ، وكان السكوت قد سلّط أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به في رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالجنون ، لا يزالون به حتى يُحَرِّدوه ويُفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معاً . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه^(٢) ، وكسَحَ وجهه حتى خفتُ أن يثورَ به الجنون ، فأقبلتُ عليه وتعلّلتُ بسؤاله : ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إن له أخصاً يعذبه ، ويوقعُ به ضرباً ، ويغلّله بالسلاسل ، ويشدّه « بأمراسِ كَسْتَانٍ إلى صُمِّ جَسَدِل » ، وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم .

(١) هذا مثل في معنى زاد الطين بلة ، والحماة إذا مدها الماء زادت واتسعت .

(٢) أي لمت غضباً .

قلت : فأنت في حاجة إلى راحةٍ ، ويحسن بك أن تأويَ إلى مكان تتمدد فيه .

قال : إني منصرفٌ وسأجلس في نديّ كذا^(١) « هذا من جهة . ومن جهة ليس معي ثمن القهوة » .

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمنًا لها ، فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك النديّ ، فالمكانُ ها هنا كثير الضمجيج والحركة . واستوفزت للقيام ؛ ولكنه لم يتسحلّ سحلاً من مجلسه .

* * *

ثم قال : أراك الآن مُستَبْصِراً أني (نابغة القرن العشرين) بعينه .

قلت : بل بعينه اليمنى واليسرى معاً . . .

قال : لا . لا ؛ إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد : عينهُ ونفسهُ وذاتهُ . « أي أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته » ، فليس غيري نابغة القرن العشرين .

وكادت نفسي تخرج غيظاً ، ولكنني رأيتُ الحليم على مثل هذا يجري مجرى الصدقة ؛ وقلت : إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداعُ الطريفُ إذا علموا شيئاً ، كذلك القاص الذي كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذي لم يأكل يوسف . فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد : عينه وذاته وأنفسه وفه ويدُه ورجله ؟

فنظر نظرةً في الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيسخطوا هذا الخاط . وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودراهمه . « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معي أجرة السيارة إلى بلدي وهي قرشان » .

(١) نحن نستعمل الندي لمكان القهوة .

قلت : هذه هي أجرة السيارة وصَحْبَتِكَ السلامة ، ونهضتُ واقفاً ؛ ولكنه لم يتحرك .

* * *

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنى فى الخطابة قُسُّ بن ساعدة أو أكم بن صَيْفٍ ، وأنى صخر لا ينفجر . . . يابس لا ينصر ، لست كالحجَّاج بل كعمر » .

قلت : هذا شيء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها ، فقد آمنتُ أنك نابعة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخطابة والرسائل .

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكل معقول ومنقول ؛ وقد انتهينا على ذلك .

قال : ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً « كما حسبتني الجرائد التى زعمت أن اختفائى فى البيارستان كان لجذوى الفكرى أو لذكائى الطبيعى وهو الأصح . . . فبين هذه الجرائد أنى خرجت ، وأنى سأطبع الأدب بطابع جديد » .

قلت : ولكنى لست مراسل جرائد . قال : « فاجعلنى رسالةً وراسلها عني أو أكتب لك أنا ما ترسله ، وما جئتُك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقنى بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفنى كلها ، وقد تناولتنى من جميع النواحي الأدبية ؛ فضلاً عن أنى كاتب فذ ، وخطيب فذ ، وشاعر فذ ، وهذا قليل من كثير ، فهل أعول عليك فى صلتى بالجرائد أولاً ؟ » .

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك ، وقد بلسوتهم وبلسوا منك ؛ فاست فى حاجة إلىَّ عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسى ، وقد حسبرنى مجنوناً استهوته الشياطين ؛ وما علموا أن شيطان الشعر هو الذى استهوانى ، كما أن شيطان الحب هو الذى استهواك . . . هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن الغداء ، ولا أكلفك شيئاً . . . » .

قلت : فهذا قرش للغداء فى مطعم الشعب . وهم الآن يتغدَّون ويوشِكُ إذا

أبطأت أن تُوافِقَهُم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لاتجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة .

قال : صدقت ؛ يُوشِكُ أن أوافِقَهُم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية .
فلأبقى هذا للعشاء وسأطوى إلى الليل . . .

قلت : فعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى بالدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل)^(١) يغني بقبراط ولا يسكت إلا بدائق . هذا من جهة ، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف .

* * *

فشق ذلك عليه وقام مُغْضَبًا وتنفست بعده الصَّعْدَاء الطويلة . . .
وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقي وأخذتُ في رياضة التنفس العميق ، ثم
زاغتُ عيني إلى الباب ؛ فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرن آخر

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث .

المجنون

٢

رأيتُ المجنونين يدخلان معاً ، فكأنما سَدَّ البابَ وسَوَّاهُ بالبناء وتركَا
 الغُرْفَةَ حائطاً مُصَمَّمَتاً لا بابَ فيه ، مما عَترَانِي مِنَ الضيقِ والحرَجِ ؛ وقلتُ في
 نفسِي : إنه لا مذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعَيَّنَ كلاهما على صاحبه ، فأرى
 أن أدَعِيَهُمَا وأكونَ أنا أُصَرِّفُهُمَا ؛ ويا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين
 ما لا يأتي مثله من عقليْن يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أني خشيتُ أن أكونَ
 أنا المجنونَ بينهما ، ثم لا آمن أن يَثْبُتَ أحدهما بالآخر إذا خطرتُ به الخطِـرَةُ
 من شيطانه ، فَرَأَيْتُ أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقَّ به العَوْنُ فلا أَقِلَّ
 من أن يطولَ به الصبر . . . وكان إلى قريبٍ مِنِّي الصديقُ (ا. ش) * فَأُرْسِلْتُ
 في طلبه .

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيتُه من
 قبل ، وهو كالكتاب الذي خُلِصَّتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا في بعض فتدَاخَلَتْ وفسد
 ترتيبُهَا ، وانقلبَ بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتخليطاً ، يَثْبُتُ الكلامُ بعد
 كل صفحة إلى صفحة غريبة لاصِلَةٌ لها بما قبلها ولا ما بعدها .

وهو طالبٌ أَزْهَرَ كان أكبرَ همِّه أن يصيرَ حافظاً كالحفَظِ الأقدمين
 من الرواة والفقهاء ، فجعلَ يستظهرُ كتاباً بعد كتابٍ ومَتَنًا بعد مَتْنٍ ؛ وكانت له
 أذُنٌ واعيةٌ ، فكل ما أُفْرِغَ فيها من درسٍ أو حديثٍ أو خبرٍ ، نَزَلَ منها
 كالنقَرِ على آلة كاتبة ، فينطبعُ في ذهنه انطبَاعُ الكتابة : لا تُمَحَى ولا تُنْسَى .
 ثم التأتَّ هذه الدُّوَّةُ وهو يحفظُ مَتَنًا في فقه الشافعي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) ،
 فغيرَ سنين يتحفظُهُ ، كلما انتهى إلى آخره نَسِيَهُ من أوله ؛ فيعود في حفظه
 وربما أثبتَ منه الشئ بعد الشئ ، ولكنه إذا بلغ الآخرَ لم يجد معه الأولَ ؛ فلا
 يزالُ هذا دأبه لا يملُّ ولا يجد لهذا العناءَ معنى ، ولا يزالُ مقبلاً على الكتابِ
 يَجْمَعُهُ ، ثم لا يزالُ الكتابُ يَتَبَدَّلُ في ذاكرته .

وترك المعهد الذى هو فيه وتخلّى فى داره للحفظ ، وأجمع ألاّ يدعَ هذا المتنَ أو يحفظه ، كأن فيه الموضع الذى فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكينُ آلةَ حفظ . ليس لها ميساك ؛ وأصبح كالذى يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه فى البحر ، لينزح البحر . . .

* * *

جاء (ا . ش) فقلت له ، وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغةُ القرن العشرين .

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيُعرف مِن نابغةٍ ؟
فقلت للمجنون : أجبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون ؟
قال : : لا .

قال : فإن هذا الذى إلى جانبي نابغة القرن الواحد والعشرين . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته .
قلتُ : ولكنك زدت المشكلة تعقيداً من حيث توهمت حلّها : فكيف يكون معك فى آن وبينك وبينه خمسٌ وستون سنة ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء . وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى الاشياء . .
ثم قال : هذه الأمور لا تشبه إلا على غير العاقل . . . وكيف لا يكون بيني وبينه خمسٌ وستون سنة وأنا أتقدمه ؛ الذوغ بأكثر من علم العلماء فى خمسٍ وستين سنة . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسن : أدركنا قومًا لو رأيتهم لقلتم : مجانين .
ولو أدركوكم لقالوا : شياطين . . .
فضحك الأول وقال : إنه تلميذى .

قال الثانى : لقد صدق فهو أستاذى ، ولكنه حين ينسى لا يذكره . . .

قلت : لا غرورَ « فما حفظناه » عن الزُّهرى : إذا أنكرت عقلك فاقدحْه بعقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للنضل ، مع جنونه وخسبته . أيدكزنى وهو منذ كذا وكذا سنة يحفظ متنًا واحدًا لا يُمسكه عقله إلا كما يُمسك الماء الغرايل ؟ صدق والله من قال : عدوٌ عاقل خيرٌ ؛ خيرٌ ؛ خير . فقال الثانى : خيرٌ من صديق جاهل ، هأنذا قد ذكّرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت .

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أريد أن أقولَ هذا ، بل أريد أن أؤلفَ كلامًا آخر عدوٌ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ ؛ خير من مجنون جاهل

* * *

ورأيتُ أن فى التقاء مجنونين شيئًا طريفًا غيرَ جنونهما ، وصحَّ عندى أن المجنون الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتجاوزهما فنَّ ظريف من التمثيل ، إذا وجدنا من يصُرفُهما فى الحديث ، ويستخرجُ ماعندهما ، ويستكشفُ منهما قصتهما العقلية

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لم أذُنْ فى غير الأذُن ، وعينٌ فى غير العين ، وأنفٌ بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتًا وأشباحًا وروائحَ من ذات نفسها لا من الوجود ، وتدرِكُها بالتوهم لابلحاسة : فتستخلقُ هواجسُهم خلقًا بعد خلق ، وتخطر الكلمةُ من الكلام فى ذهن أحدهم فيخرجُ منها معناها يتكلمُ فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعلُ أفعالا أخرى .

وبينا أنا أديرُ الرأى فى إخراج فصل تمثيلى من الحوار بين هذين المجنونين^(١) ، إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صه ، إن جرس « التلفون » يَدُق .

قال (ا. ش) : لا أسمع صوتًا ، وليس ههنا « تلفون » .
فاغتاظ المجنون الآخر وقال : إنك تستهجمُ على النوايع ولستَ من قدرهم ، وما عملك إلا أن تنكر ؛ والإنكارُ ، ويلاك ، أيسرُ شيء على المجانين وأشبه

المجانين ، والعامية وأشباه العامة ؛ وقد أنكرت نبوغه آنفًا ، وأراك الآن تنكر « تلفونه » . . .

قال (ا.ش) : وأين « التلفون » وهذه هي الغرفة بأعيننا ؟
فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صه° ويحك لقد خلطت عسلَى° ؛
إن الجرس يدقُ مرة أخرى ، وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطولَ انتظارُها ،
وحتى تدقُ ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهبَ رنينُها
في صوتك ولغَطتك . . .

قال المجنون الآخر : هي صاحبتُه التي يهاوها وتهواه ؛ وقد استهَامها وتيسَمها
وحيرَها وخجلَها ، حتى لاصبرَ لها عنه ، فوضعتُ له تلفونًا في رأسه
قال « النابغة » : وهذا التلفون لا يُسمِعني صوتَها فقط ، بل هو يُششِقُني
عطرَها أيضًا . وقد تكلمني فيه الملائكة أحيانًا ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة
فإنها غيَورٌ تُخشِني سَطَواتُها على اللائى تغارَ منهن ، ولولا ذلك لكلمتني في هذا
التلفون إحدى الحُورِ العين

قلنا : أو تغار منها الحورُ العين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمرُ فوق ذلك ، فإن الحور العين يشتمُنها ويلعنُها ؛
« فما حفظناه » هذا الحديث : لا تؤذى امرأةً زوجها في الدنيا إلا قالت
زوجتُه من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ؛ فإنما هو عندك دَخيلٌ يُوشِكُ
أن يفارقَكَ إلينا .

قال (نابغة القرن العشرين) : ويلى على المجنون إنه يريد أن يخلو له
موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وشيكًا من هذه الدنيا . وهو يقولُ بغير علم
لأنه أحقُّ ليس له عَقْدَةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذيني ، ولو هى آذنتى
لغضبتُ قبل ذلك ، ولو غضبتُ لرفعت التلفون . صه° إن الجرس يدق .

* * *

قال ا.ش : إن للنوابغ لشأنًا عجبًا ، ففي مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت
زوجته وتركته له غلامًا ، فتزوج أخرى وهو يعيش في دار أبيه . فلما كان
عيدُ الأضحى سأل أباه مالًا يبتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ

القرآن ، فذكر قصة إبراهيم (عليه السلام) ورؤياه في المنام أنه يذبح ابنه ، فخيّل إليه أن هذا باب إلى النبوة ، وأن الله قد أوحى إليه ، فأخذ الغلام في صبيحة العيد وهمّ بذبحه ، ولولا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدّته . وقد رأيته في البمارستان في حين كنت أنا في المستشفى . . . فكان يزعم أنه ائتمر في ذبح غلامه بإرادة الله . ولو كانت إرادة الله لنفذت بالذبح ، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبشٌ يذبحه . . . وهكذا أنا في المنطق (نابغة القرن العشرين) .

ثم إنه أشار إلى المجنون الثاني وقال : وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة كاملة .

قلت : ولكنك ذكرت هذا من قبل فلم تعدت فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدالى أنه يتمنى هلاكى ليكونَ هو نابغةَ القرن العشرين . فعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمسين وستين سنة « يحفظه المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميتٌ جنوناً موتاً حقيقياً ، ونصفه الآخر ميتٌ جهلاً بالموت المعنوى .

قال . ش : حسبهُ أن يقلدك تقليدَ العاميِّ لإماميه في الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فإنه تلميذك .

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صوّر العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار . . . ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر . . . ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت إلى وهو راكم فسبّنى وشتمنى وصرخ في وقال : ما شأنك بى ؟ هل أنا أصلى لك أنت . . . ؟

فغضب « النابغة » وقال : والله إن تحسبوننى إلا مجنوناً فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمق الذى ليس له رأىٌ يمسكه . ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليدَ نابغة القرن العشرين .

قلنا : هذا عجيب . وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدكم من الأذكىء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك ؟
قال ا. ش : هذا لم يُعرف مثله فكيف نعرفه ؟ ولم يتوهمه أحد ، فكيف
نذكره ؟

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتها ؛ وهذا نصف
صواب ؛ ومادمت أستاذى ، فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافتك لى صواباً
لأنه منك . وكان خلافى لك صواباً لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطئ) وأنا مصيب ،
وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظل أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .
أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا ؛ ولكنى رأيته فى المرأة عند
الحلاق . . . ورأيت يقلدنى فى كل شىء حتى فى الإشارة والقومة والقعدة
ولكنى صرخت فيه وسببته ففتح فيه ، ثم خافنى ولم يتكلم . . .
وأولاً إلى المحبون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم
العلماء فى خمس وستين سنة .

قال ا. ش : لقد قلتها مرتين كلتاها بمعنى واحد . فما معنك فى هذه
الثالثة ؟

قال : هذا الغير يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدل لذلك بأنى
صليت بالشعر وأنى شتمته وأنا راعع ؛ ولو كان غافلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا
راوع ثواب له . . . ولو كان نابغة لعلم أن الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا
وأولى النهى .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة
النحاس باشا .

قال : لم أصلى به ، ولكن خطر لى وأنا أصلى أنى نسيت القصيدة فأردت
أن أتحدث أنى لم أنسها . . . فإذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ ، وهى ستة
أبيات . لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبر الغريب على الغربة الطويلة ،
ومع ذلك لم يحفظه .

قال ا. ش : فأمل علينا هذا الشعر . فأمل عليه ^(١) .

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه .

يا حليف السُّهْدِ قل لي أين مَنَ في الدهر خالُ
 إن تكن تهوى غزالا أكحلَ العينين مالُ
 أنا أهواها ولمكن لاسبيل إلى الوصالُ
 منذ ولتُ قلتُ مهلاً منذ غابت في خيالُ
 أنا مجنونٌ بليلي ليلَ يا ليلى! تعالُ

قلنا : ولكن ليس هذا مدحاً ، فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول
 في الغزل ، أما المديح فهو :

شغف الورى بمناصب وأمانى وشغفتَ يا نحاس بالأوطان
 حسبوا الحياة تفاخراً وتنعموا وحسبتهُ الله والأوطان

ثم أرتجّ عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة أبيات ، وقد نسبت
 أربعة ، ولست أريد أن أذكرك :

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى . . . ونظر
 إلى اللاشيء في الفضاء ، ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغي في المدح غيرَ أولى النهى أو صادق^(١) أو شوق أو مطران

ثم أمرا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، انظر إلى
 فوق . فنظر ، ثم قال : انظر إلى تحت . فنظر ثم سكت .

قال ا . ش : وبعد ؟ قال : وبعدُ فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما
 إلى تحت . . .

* * *

وكان الضجر قد نال منى ، فرجوت ا . ش . أن يلبثَ معها وأذنتُ ل نابغة
 القرن العشرين أن يلقاني في الندى وانصرفت ..

قال ا . ش وهو يُنبئني : فما غبتَ عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع
 ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن (الرافعي) رجل عَسُوفٌ ظالم ، لأنى أكتب
 له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة) . . . وأجمع نفسي لها ، وأجهدُ في بيانها ،

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين .

وأذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلها ويضع توقيعه عليها ، ويبعث بها إلى المجلة ، ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ، ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين ^(١) . . .

قال ا. ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبض فيها الذهب ؟ قال : إن هنالك أسراراً أنا مُحَصِّنُها وكاتمُها ، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فإنها أسرار . . . قال له : فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات ، وأنا أعطيك فى كل مقالة ذَهَبَيْنِ لا قرشين .

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا خطأ من قدر نابغة القرن العشرين ، وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار . . .

قلت : ثم جاء المجنونان فى العشيّة إلى الندى .

(١) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيراً ؛ فجعلها عشرين قرشاً

المجنون

٣

وكنا في الندى ثلاثة : أنا ، وا . ش ، وس * . ع ؛ وقد هيأت تدبيراً
توافقنا عليه لتحريك هذين المجنونين ، وتدوين ما يجيء منهما . فلما أقبلنا
تحفينا بهما وألطفناهما ، وقمنا ثلاثتنا ببسطهما وإكرامهما ، حتى حسبا أن في
كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . ورأيت في عيني « نابغة القرن
العشرين » — وهو أعين أنجل^(١) — ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه
إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا . . . فكان مسدداً فككه اللسان ،
تستملح له النادرة ، وتستظرف منه الحركة .

ولما تمكن منه الغرور ، واحتاج الجنون كما يحتاج الجمال إلى كبرائه
إذا حاطته الأعين — أدار بصره في المكان ، ثم قال : أف لكم ولما
تصبرون عليه من هذا الندى في ضوضائه ورعائه وغوغائه . إن هؤلاء إلا
أخلاط وأوشاب وحشالة . هذا الجالس هناك . هذا الواقف هنالك . هذا
المستوفز . هذان المتقابلان . هؤلاء المتجمعون . هذا كله : ال حقيقة في
رأسي . ما هي ؟ ما هي ؟

هذا التصايح المنكسر . هذا الضرب بحجارة النرد . هذه الزحمة التي انغمسنا
فيها . هذا المكان الهائج من حولنا . هذا كله خيال حقيقة في رأسي .
هي ، هي ، هي .

فانزعج المجنون الآخر ، ووقع في تهاويل خياله ، ونظر إلينا تدور عيناه ،
وتوجس شراً ، ثم زاغ بصره إلى الباب ، واستوفز وجمع نفسه للقيام ؛ فلما
رأى صاحبه ما نزل به ، قهقه وأمعن في الضحك وقال : إنما خوفته الصبيان
والضرب ليثبت لكم أنه مجنون . . .

* س ع هو الصديق سعيد الريان .
(١) أي واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه في المقالة الأولى .

فحَرِّدَ الْآخَرَ وَاغْتَاظَ وَجَعَلَ يَسْتَمُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

قال « النابغة » : ما كلامٌ تَطِينُ به طينَ الذبابة أيها الخبيث ؟

قال : « مما حفظناه » : أن من علامات الأحمق أنه إذا استنطيقَ تَجَلَّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضحكَ نَهَقَ ... كما فعلتَ أنت الساعة ، تقول : هاء ، هُوْءٌ ، هِيءٌ ...

فتغيَّرَ وجهُ « النابغة » ، ونظرَ إليه نظرةً منكورةً ، وهمَّ أن يقتَحِمَ عليه . وقال : أيها المجنون ، لماذا تضطرنى إلى أن أجيبك جوابَ مجنون . . . لا نجوتَ إن نجوتَ منى !

فأسرعَ ا. ش. ، وأمسك به ، واعترضَ مِنْ دُونِهِ س. ع. ، وقال له : أنت بدأتَه والبادئُ أظلم .

قال : ولكن - ويحه - كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنا بعةُ القرن العشرين أحمق ، وقد أوحدهُ الله في القرن العشرين ؟ لَسَهَمَ سَمْتُ وَالله أن أكسِرَ الذى فيه عيناه ؛ فما يقولُ إلا أنى أحمقُ القرن العشرين . . .

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذى أغضبك منه ؛ ففي الحديث الشريف : « ليس من أحدٍ إلا وفيه حَسْمَقَةٌ ، فسبها يعيش . » والحياةُ نفسها حِماقةٌ منظَّمةٌ تنظيمًا عاقلًا ؛ وما يُقبلُ الإنسانُ على شيءٍ من لذاتها إلا هو مقبلٌ على شيءٍ من حماقاته ، وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقلُ وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحقُّ في طبيعة الإنسان لما احتمل طبيعةَ الحياة ؛ أليس يُخَيَّلُ إليك أن أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلَّتْكَ حاضرٌ فيها ، وأن يَتَقَنَّطَكَ الحقيقةُ إنما هى في الحلمِ وما يُشبه الحلمَ ، كأنك خلقتَ في كوكبٍ وهبطتَ منه إلى كوكبنا هذا ، فما فيك للأرض ولا فيها لك إلا القليلُ يلتئمُ بعضه ببعضه ، وأكثرُكم مُتَسَاوِفِرٌ أو متناقِضٌ أو متراجعٌ ؟ قال : بلَى .

قلتُ : فهذا القليلُ هو الحِمَقَةُ التى بها تعيش ، وهو أرضيةُ الأرضِ فيك ؛ أما سماويةُ السماءِ فبعيدةٌ لا تختملُها طبيعةُ الأرض ؛ ولهذا يعيشُ أهلُ الحقيقةِ عيشَ المجانين في رأى المغرورين الذين غرَّتْهم الحياةُ الفانيةُ ، أو المخدوعين الذين

خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحمق .
معكوساً أو مُحَدَّلاً أو معدولاً به ؛ ولعل هذا أصحُّ تفسير للحديث الشريف :
« أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَّةُ » .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَّةُ .
فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت ؛ ألا فلتعلم أنك من
بُلَّهَاءِ الْبِمَارِستانِ لا من بُلَّهَةِ الْجَنَّةِ . . .

قلتُ : ثم إن الموتَ لا بدَّ آتٍ على الناس جميعاً ، فيسلُبُهُمْ كلَّ ما نالوه من
الدنيا ، ويُسْحِقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمن ذا الذي يُسَرُّ بأن ينال ما لا يبقى له ،
إلا أن يكونَ سروره من حماقته ؟ ومن ذا الذي يخزَنُ على أن يفوته ما لا يبقى
له . إلا أن يكونَ حزنه حماقةً أخرى ؟ وأى شيء في الحب بعد أن ينقضى الحب إلا
أنه كان حماقةً ضَرَبَتْ في الحواسِّ كلَّها ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفسَ حتى
فاضت على الزمن ؛ ثم فاضت على الزمن حتى خبَلَت العاشقَ تخبيلاً لذيذاً تصغُرُ
فيه الأشياء وتكبر ، ويجعلُ الواقعَ في النفس غيرَ الواقع في دنياها ؟ يُشَبِّهُ كلُّ
عاشقٍ حبيبته بالقمر : فهَبَّ القمرَ سمع هذا وفهمه وعَسَاهُ أن يُعْجِبَ عنه .
فإذا عساه يقول إلا أن يُعْجِبَ من هذا الحمق في هذا التشبيه ؟

فهدأ (النابغة) وسكن غضبه وقال : صدقت ، ولهذا أنا لا أشبه
حبيبي بالقمر .

قلت : فبماذا تشبهها ؟
قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبه أنت حبيبَتَكَ . قلت : وأنا
كذلك لا أشبهها بالقمر .

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلم بماذا تشبه أنت . . .
قال : هذا لا يُرْضَى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، ولت
حبائبُ كثيراتٌ عدَدَ كتبك ، وقد أعجبتني منهن تلك التي في (أوراق الورد) .
وأظنك أحببتها في شهر مايو من سنة . . . من سنة . . .

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نبهتُك .
قال : ياويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين ، إنما أنت من

بُلْهَاءَ الْبِهَارِستانَ لَامِنْ بُلْهٍ أَوْرَاقِ الْوَرْدِ . . . ماذا كُنْتُ أَقُولُ ؟

قال ا. ش : كُنْتُ تَقُولُ : هَذَا لَا يُرْضَى مِنْكَ وَلَكَ حَبَائِبُ كَثِيرَات .

قال : نعم ، لأنَّكَ إِذَا شَبِهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ بِالْقَمَرِ ، انْتَهَى الْقَمَرُ وَفَرَّغَ التَّشْبِيهِ فَيُظَلُّ الْأَخْرِيَّاتُ بِلَا قَمَرٍ . . . ثُمَّ إِنْ كَلِمَةُ الْقَمَرِ لَا تَعْجِبُنِي ، فَلَوْهَا أَدَكُنُّ مُغْبِرًا^(١) يَضْرِبُ أَحْيَانًا إِلَى السَّوَادِ . . . فَإِذَا عَشَقْتُ زَنْجِيَةً فَهِيَ هُنَا مَحَلُّ التَّشْبِيهِ بِالْقَمَرِ . . . أَمَّا الْبَيْضُ الرَّعَابِيْبُ فَتَشْبِيهِهُنَّ بِالْقَمَرِ مِنْ فُسَادِ الذُّوقِ .

قال س . ع : وَلِلْأَلْفَاظِ أَلْوَانٌ عِنْدَكَ ؟

قال : لَوْ كُنْتُ نَابِغَةً لَأَبْصَرْتُ فِي دَاخِلِكَ أُخْيِلَةً مِنَ الْجَنَّةِ ؛ أَلَمْ يَقُلْ أَسْتَاذُنَا آ نَفْسًا عَنْ (نَابِغَةُ الْقُرُونِ الْعَشْرِينَ) : إِنَّهُ هَبِطَ مِنْ كَوْكَبٍ إِلَى كَوْكَبٍ ؟ فَفِي كَوْكَبِنَا الْأَوَّلِ يَكُونُ لَنَا سَمْعٌ مَلُونٌ وَحِسٌّ مَلُونٌ نَسْمَعُ قَرَعَ الطُّبُلِ أَزْرَقَ ، وَنَفْخَ الْبُوقِ أَحْمَرَ ، وَرَيْنَ النَّغَمِ الْحُلُوِّ أَخْضَرَ^(٢) ، وَالْوَجُودُ كُلُّهُ صَوْرٌ مَلُونَةٌ ، سِوَا مِنْهُ مَا يَرَى وَمَا يُحَسُّ ، وَمَا هُوَ مُسْتَعَجَفٌ وَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

ثُمَّ أَوَّمَا إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخَرِ وَقَالَ : وَاسْمُ هَذَا الْأَبْلَهَةِ كَلْفَظِ الْحَبْرِ : لَا أَسْمَعُهُ إِلَّا أَسْوَدَ . . .

* * *

وَسَكَتَ « النَّابِغَةُ » وَسَكَنَّا ؛ فَقَالَ لَهُ س . ع . مَالِكٌ لَا تَتَكَلَّمُ ؟ قَالَ : لِأَنِّي أُرِيدُ السَّكُوتَ . قَالَ : فَلَمَّا ذَا تَرِيدُ السَّكُوتَ ؟ قَالَ : لِأَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمُ . . . وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ الْغَيْظُ مِنَ الْمَجْنُونِ الْآخَرِ ، فَرَمَى بَعِيْنَهُ الْفَضَاءَ يَنْظُرُ اللَّاشْيَاءَ وَقَالَ : إِذَا أَصْبَحَ كُلُّ النِّسَاءِ ذَوَاتِ لِحْيٍ أَصْبَحَ هَذَا عَاقِلًا . . . فَدَقَّ الْآخَرُ بِرِجْلِهِ دَقَاتٍ مَعْدُودَةٍ ؛ فَتَارَ (النَّابِغَةُ) وَقَالَ : مَسَّنَ هَذَا يَشْتَمُّنِي ؟

قال س . ع : لَمْ يَشْتَمِكْ أَحَدٌ ، هَذَا خَفَقَتْ رِجْلُ رَجُلٍ عَلَى الْأَرْضِ .

قال : بَلْ شَتَمَنِي هَذَا الْحَبِيثُ ، وَسَمَعْنِي لَا يَسْكُنُ بَنِي أَبَدًا ، وَأَنَا رَجُلٌ ظَنُّونُ ، أَسَى الظَّنِّ بِكُلِّ أَحَدٍ ، وَعَلَامَةُ الْحَازِمِ « الْعَاقِلِ » سَوْءُ ظَنِّهِ بِالنَّاسِ .

(١) الدُّكْنَةُ : لَوْنٌ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسَّوَادِ .

(٢) هَذَا وَاقِعٌ وَلَيْسَ مِنْ الْخِيَالِ ؛ فَبَعْضُ النَّاسِ يَسْمَعُونَ الْأَصْوَاتَ وَيَحْسُونَ الْأَشْيَاءَ مَلُونَةً ؛ وَعُلَمَاءُ الْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ يَمَرُقُونَ هَذَا وَيَمْلُونَهُ بِأَنَّهُ صَوْرٌ ذَهْنِيٌّ قَدْ لَبَسَهَا مَوْثِرٌ مِنَ الْمُؤَثِّرَاتِ فَهُوَ يَصْبُغُهَا

فهبه كما قلت قد خفّقَ بنعله ، أو خبّطَ برجله ؛ فهو ما يعنى من ذلك ، وأنا أسمعُ ما يعنيه . لقد طفحَ الشعرُ على قلبي فلا بد لي من هجائه ، ولا بد لي أن أذبّحه ولو بالكلام ، فإنى إذا هجّرتُهُ رأيتُ دمه في كلماتي ، وأريد أن أجعله كالعنزِ التي كانت عندنا وذبحناها .

ثم انتزع قلم س . ع ، وقال : هذه هي السكّين . ولكن أسألك يا أستاذي أن تذبّحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه ، فقد عزّب عني الشعر . إن خفّقته رجُل على الأرض تستطير الأرناب فرعاً ؛ فيسنفرون إلى أجحارهنّ ويتهكّرن ، وما كانت أبيات الشعر في ذهني إلا أرناب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفاً ثببتاً مثلي ، كان دقيق الحس ؛ ومن كان فدمماً غيباً مثل هذا ، كان بليد الحس غليظاً كثيفاً ؛ فإذا أنا استشعرتُ البرد رأيتُني قد سافرتُ إلى القطب الشمالي ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عباءته أو لحافه . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا ، ولا يدري ما طحّنها . قلت : هذا منك أظرف من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرة أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدّى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتى بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفته قبلهما ، والرشيد ملك عظيم : لا يأكلُ أكلَ الجائع ، وإنما هو التشيعُ من هنا وهناك ؛ فكان رغيفته لا يزال باقياً ؛ فصاح أبو الحارث فجأة : يا غلام ، فَرَسِي . ففزع الرشيد وقال : ويلك ما لك ؟ قال : أريد أن أركب إلى هذا الرغيف الذي بين يديك . . .

قال (النابغة) : ولكنّ فرقاً بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فإن من العجائب أنى ربما نظرتُ إلى الرجل وهو يأكلُ فأجدُ الشَّبَع ، حتى كأنه يأكل ببطنى لا ببطنه ، ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لي أبداً حين أكون جائعاً . . .

أما هذا المجنون الذي أماننا ، فربما أبصر الحمارَ على ظهره الحِمْلُ ، فيشعُرُ كأن الحملَ على ظهره هو لا على ظهر الحمار . . .

قال الآخر : « مما حفظناه » : أنه سُرق لأعرابي حمار ، فقيل له أُسْرِق

حمارك؟ قال : نعم وأحمد الله . فتبيل له : على ماذا تحمده ؟ قال : على أنى لم أكن عليه حين سُرق فأننا إذا رأيتُ حماراً مثقلَ الظهر ، حمدتُ الله على أن الحمل لم يكن على ، لا كما يقول هذا . ثم دقَّ برجله دقات . . .

فاستشاط (الذابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغي أن تتكافأ ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فإن من تواضع « النوابيع » أن يشعروا ببؤس الحيوان . فإذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له . فإذا دخلتهم الرقة صار خيالُ الحمل حِملاً على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك : حكى الجاحظ عن ثمامة قال : كان (نابغة) يأتى ساقيةً لنا سحراً ؛ فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهباً وراجعاً فى شدة الحر أيامَ الحر ، وفى البرد أيامَ البرد ، فإذا أمسى توضأ وقال : اللهم اجعل لنا من هذا الحمّ قرَجاً وسَحَرَجاً . فكان كذلك إلى أن مات !

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » : ثمرةُ الدنيا السرورُ ، ولا سرورَ للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقلَ العقلاء لما مُحِقَّ سروره فى الدنيا هذا المحقَّ إلى أن مات غمماً ، رحمه الله !

* * *

قال س . ع : فاعفُ الآن عن صاحبك ولا تدبجْ به بالهجاء .

قال : لقد ذكرَ رَتْنَى من نسيان . وهذا المجنون يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجهُ — لو تهَدَّى إلى الحقيقة — أن يراه شذوذاً فى العقل ، أى نبوغاً عظيماً كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يَتَشَبَّهَ فى كم من الزمن تُسَلَقُ البيضة ؛ فأخذ بيده الساعةَ وبيده الأخرى بيضةً ، ثم نَسَى نسيانَ النبوغ ، فألقى الساعةَ فى الماء على النار ، وثَبَّتَتْ عَيْنُهُ على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنوناً كما يزعمنى ، فإن المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التى يعملونها .

وأنا فليس يَهْمِجُنَى شَيْءٌ ما تَهْمِجُنَى كلمات ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رَغِبَ فى صحبتي فليَتَجَنَّبْ هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر . . .

قال ا. ش : فإذا قيل لك مثلاً . مثلاً . أى على التمثيل : مغفل . . .
 فحك رأسه قليلاً وقال : لا ، هذه ليست من قَدْرِي^(١) . . .
 قلت : فبعضُ الكلمات إذا قُطعتُ عندك غيَّرت الحقائق . كذلك القرن
 الذى قُطع فَرَدَ البقرةَ فرساً ؟
 قال : وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج لإخوته يشترى خيلاً ، فخرج معهم فجاء
 بعجل يقوده ، فقيل له : ما هذا ؟ قال : فرس اشتريته . قالوا : يا مائق هذه
 بقرة ، أما ترى قرنيها ؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ، ثم قادها إليهم وقال لهم : قد أعدتُها فرساً
 كما تريدون . . .

قال (النابغة) : هذا غير بعيد ، فقد رأيتُنا حين ذبحنا العنز وكسرنا قرنيها
 أعدناها كلبه سوداء ، فتقدَّرتُها وعفَّت لحمها ولم أطعم منها .
 ثم أوماً إلى الآخر وقال : هذا لا يدري ما طَحَّاهَا ، وهو مثل العنز :
 تحسبُ قرنيها للقتال والنَّطاحِ ومنهما تُمسكُ للذبح ؛ فقل في هذا يا أستاذ (نابغة
 القرن العشرين) .

قلت للآخر : أيرضيك أن أقولَ في المعنى لا فيك أنت ... ؟ قال : نعم .
 فكتبتُ هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعنز ناطحها	لقتال سَلَحَها
ما لها قد طَرَحَها	في يدَيْنِ ذَبَحَها ؟

* * *

شيمةٌ مني نَحَاها	عقلٌ غيرٌ فَلَحَها
ليس يدري ما طَحَّاهَا	بل يرى شمسَ ضَحَّاهَا
حَجَرًا مثلَ رَحَاها	ويرى الليلَ مَحَّاهَا

ظُلَمًا طالتْ لِحَاها . . .

• * •

(١) نص عبارته : « دى مش أدى » ...

وسرّ (النابغة) وازدهى ، وجعل يقول : طالت لِحَاكُهَا ، طالت لِحَاكُهَا .
وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجيء ساعى (البريد
المستعجل) إلى الندى ، وفي يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان ،
بندى كذا .

وجعل الرجل يهتفُ بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتناولتُ أعناقُ الناس ،
ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدَّ يده يتناول
الرسالة وكأنه ملكٌ من القدماء أسْقَطَ له كتابٌ بالفتح العظيم وبضم دولةٍ
إلى دولته .

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفُضُّها ونحن في دهشة من أمره ؛
فنظر فيها المجنون وقال له : هذا عجيبٌ يا أخى ، كيف هذا ؟ إن هذا
لا يُصدِّق ؛ إنك لم تُلْقِها في صندوق البريد إلا منذ ساعة

المجنون

٤

وضاق « نابغةُ القرن العشرين » بِحُصْقِ المجنون الآخر ؛ ورآه داهيةَ دَوَاهٍ ، كلما تَعَاقَلَ أو تَحَاذَقَ لم يأتَ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو : فلا يَبْرَحُ يُجَرِّعُهُ الغيظَ مرةً بعد مرةً ، ولا يزال كأنه يَسْبُبهُ في عقله ؛ فأراد أن يحْتَالَ لَصْرِفِهِ عن المجلس ، فدفعَ إليه الرسالةَ الَّتِي جاء بها (البريد المستعجل) وقال له : خذ هذه فاذهبْ فَأَلْقِهَا في دار البريد ، فسيجيءُ بها الساعي مرةً أخرى ، ثم تذهبُ الثانيةُ فتلقِيها ، ويعودُ فيجيءُ بها ، وتكونُ أنتُ تذهبُ ويكونُ هو يجيءُ ، فنضحكُ منه ويضحكون

قال س . ع : ولكن كم يذهب هذا وكم يجيءُ ذاك ؟
فغمزَه (النابغة) بعينه أن اسكتْ ؛ فَتَعَاقَلَ س . ع ، وقال : كم تريد أن يجيءُ الساعي ليهتفَ بنابغة القرن العشرين ؟

قال المجنون الآخر : هذا هو الرأى ، فلستُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً أذهب ؛ فإن الساعي لا يجيءُ إلا راكباً ، وأنا لأذهبُ إلا راجلاً ، وإن لي رجلتيَّ إنسان لارجلتيَّ دابة . . .

قال (النابغة) : سبحان الله ؟ بقليلٍ من الجنون يَخْرُجُ من الإنسان مجنونٌ كاملٌ مُسْتَلَبُ العقل . بَيِّنْ دَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير ، ومن النبوغِ كُلِّهِ بجميعِ وسائله وأسبابه على تعدُّدها وتفرُّقِها وصعوبةِ اجتماعها لإنسانٍ واحدٍ (كتابغة القرن العشرين) ، فهو الذي توافستُ إليه كلُّ هذه الأسبابِ ، وتوازنتْ فيه كلُّ تلك الخلال . إنه ليس الشأنُ في العلم ولا في التعليم ؛ ولكنَّ الشأنُ في الموهبة التي تُبْدِعُ الابتكارَ ، كهوهبة (نابغة القرن العشرين) ؛ فيها تجيءُ أعماله منسجمةٌ دالَّةٌ بنفسها على نفسها ؛ ومتميزةٌ مع كونها منسجمةٌ دالَّةٌ بنفسها على نفسها ؛ ومتلازمةٌ مع كونها متميزةٌ دالَّةٌ بنفسها على نفسها . . .

هذا س . ع . كان الأولَ بينَ خريجي مدرسة دار العلم ، مدرسة الأدب والعربية ، والمنطق والتحدُّث ، وبلاغة اللسان وصحة النظر ؛ وهو يعرف أن الكتابَ يُلْقَى في البريد وعليه طابعٌ واحد ، فيصل إلى غايته بهذا الطابع ، ثم يَمرُّ بعيني رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المُعَنَّوَنَةِ باسم (نابغة القرن العشرين) ، فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إلى أنا أربعَ مرات

فطرب المجنونُ الآخرُ ، واهتزَّ في مجلسه ، وصفقَ بيديه ، وقال : « مما حفظناه » هذا الحديث : « يُحَاسِبُ الله الناسَ على قدر عقولهم » . فلا تؤاخذُ س . ع . فإن مدرسة دار العلم تعلمهم : « فيها قولان » ، وفيها ثلاثة أقوال ، وفيها أربعة أوجه ، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع
ثم التفت إلى س . ع . وقال له : لا عليك ، فأنا صاحبه وخليطه ، وحامِلُ علمه وراويته أدبه ، وأكبرُ دُعَاتِهِ وثِقَاتِهِ ، وما علمتُ هذه الحكمةَ منه إلا في هذه الساعة .

قال ا . ش : فإذا كان هذا ، فإن لقائل أن يقول : لماذا لم يضع على كتابه عشرةً من الطوابع ، فيجىء به الساعي عشر مرات .
قال (نابغة) : وهذا أيضاً . . . ؟
« وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو * بصاحبك الذي لاتصحين » ؛ إن الشمعة في يد العاقل تكونُ للضوء فقط ، ولكنها في يد المجنون للضوءِ وإلحراقِ أصابعه . . .
كم الساعةُ الآن ؟

قلنا : هي التاسعة .

قال : ومتى ينصرفُ أهلُ هذا الندي ؟

قلنا : لتمامِ الثانية عشرة .

قال : فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة ، فهي أربعُ مرات إلى أن ينفضَّ المجتمعون هنا . وبين ذلك ما يكونُ قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين) ، وجاء قومٌ غيرهم فيعرفونه . وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحداً ، فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئه . . .

فصنَّفَ المجنونُ الآخرُ وقال : هذا وأبيك هو التَّهْدِي إلى وجهِ الرأى
وسَدَادِهِ ، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذى يقوم على أصولِ الحساب والجغرافيا . . .
« وما حفظناه » هذا الحديث : « لا مالَ أَعُوذُ من العقل » . فأربعةُ طوابع ،
لأربعِ مرات ، فى أربعِ ساعات ؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذير ؛ ولا مالَ
أَعُوذُ من العقل . . .

* * *

ورضِي (النابغةُ) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضَعْفَةٌ إن فيك
لَبَقِيَّةٌ تعقلُ بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسَّها فى ثوبه . قلنا : ولكن
ألا تَقْضُصُهَا لنعرفَ ما فيها ؟

فضحك وقال : أثينُ جاريتكم فى بابِ المُطايبةِ والنادرةِ ، وجاريتُ هذا
الأبلهَ فى بابِ جنونهِ وحُكمِهِ — تحسبون أن الأمرَ على ذلك ، وأن الرسالة
فارغةٌ إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن
العشرين ، كما قال سعد باشا : (جورج الخامس يفاوضُ جورج الخامس) . . . ؟
لَحَقْتُ والله أن العقلَ الكبيرَ الذى يأبى الصغائرَ ، هو الذى تأتى منه الصغائرُ
أحياناً لَتَثْبِتَ أنه عقل كبير ، وهكذا تَسْخَرُ الحقيقةُ من كبار العقول (ك نابغة
القرن العشرين) . . .

فغضب المجنونُ الآخرُ وهمَّ أن يتكلم : فقال له (النابغة) : أنت كاذِبٌ
فما ستَقُولُه . . .
قلنا : ولكنه لم يقل شيئاً بعدُ ، فكما يجوز أن يكونَ كاذباً يجوز أن
يكونَ صادقاً .

قال : وسيُخطئُ فى رأيه الذى يُبْديهِ . .

قلنا : ولم يُبْدِ شيئاً من رأيه .

قال : ولا يعرف الحقيقةَ التى سيتكلم عنها .

قلنا : ويحك ، أَدْخَلْتَ فى عقلِ الرجل أم تَعْلَمُ الغيب ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ، ولكنه قياسٌ منطقيٌّ يَسَوِّهُمُ أطرادُهُ . إنه سيقول :

إنى مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه . . . قال (النابغة) : تَبَّالِكَ ، لقد رأيتُ الكلمةَ في لسانك كأنها مكتوبةٌ بحروف المطبعة . ويحك يا مَرْقَعَان^(١) ، ألا تعرفُ أن لك دماغاً مخروفاً تسقط منه أفكارك قبل أن تتكلمَ بها ، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت المتن ! إن كل تخطئة لي منك هي اعترافٌ لي منك بصواب .

فنظر الآخرُ إليه نظرةً كان تفسيرُها في حواجبه ، إذ مَطَّ حواجبه^(٢) ورقصها . فقال (النابغة) : ونظراته خبيثةٌ ملحةٌ الطعم ، مَزْعُوقَةٌ كماءِ البحر المرُّ أُخِذَ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعي ملح ، أكاد أنهوَعُ من هذه النظرة فأقَى .

الآن فهمتُ معنى قولهم : « ملحةٌ في عين الحسود » . فإن الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يُفْلَسَحُ . هاتوا كأساً من مُعْتَقَةِ الخمر ، ثم لينظرو فيها الخبيثُ هذه النظرة ، فإن الخمر لا بد مستحيلةٌ « شربة ملح إنجليري » . . . هذا الأبلهُ ثقيلُ الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع . . . أهذا الذي لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا : هولى ، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافةَ — يكذب ما في الرسالة التي جاء بها البريد المستعجل ، ولا يُصدِّق أنها مرسلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الزاهبُ العقلِ هو كالجبانِ المنقطعِ في وَحْشَةِ القَفَرِ ، في ظلام الليل : إذا تَوَجَّسَ حركةٌ ضعيفةٌ انقلبت في وهمه قصةَ جرعةٍ ماؤها الرعبُ وفيها القتلُ والذبح ؛ ولهذا يخشى ما في الرسالة التي جاءت من صديق صاحب السمو . هاؤمُ اقرءوا الرسالة .

وفضضنا الغلاف ، فإذا ورقتان مهورتان بتوقيع أمير معروف ، إحداهما صكٌّ بألف جنيه تُدْفَعُ (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر وإرساله إلى المارستان . . .

* * *

وذهبتُ أصليحُ بينهما صلحاً فقلت : إن في الحديث الشريف : « بينما

(١) المرقعان والمرقع : الأحق الذي يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له .

(٢) هما حاجبان . ولكن هذا الأسلوب هو الأنصح هنا ، وهو كثير في العربية .

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ ، فقال بعضُ القوم : هذا مجنون . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هذا مُصاب ؛ إنما المجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله .

فقال صاحبُ المتن : « مما حفظناه » إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله . قلت : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله . . .

قال المجنون : « مما حفظناه » : وليس فيكما مقيمٌ على معصية الله . . . قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي .

قال (النابغة) : أنبأتكم أن هذا الأبلهَ يَصِلُ في داره كما يَصِلُ الأعرابيُّ في الصحراء ؛ وأن الأسطولَ الإنجليزي لو استقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثورٌ ، لكان ذلك أقربَ إلى التصديق من استقرار العقلِ في رأس هذا الأبله ؟ . . .

فاحتدمَ الآخرَ وهمَّ أن يقول : « مما حفظناه » ، ولكني أسكتُهُ وقلت (للنابغة) : إنك دائماً في ذروة العالم ، فلا غرو أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية . « والنوايغ » هم في أنفسهم نوايغ ، ولكنهم في رأى الناس مَرَضَى بمرض الصعودِ الخياليِّ إلى ذروة العالم . ومن هذا يكونُ المجانينُ هم المَرْضَى بمرض النزولِ الحقيقيِّ إلى حَضِيضِ الآدمية ؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالهم ، ثم تكون عقولُهم من أفكارهم ، فيكونُ هذا هو الجنونَ في عقولهم ؛ وذلك معنى الحديث : « إنما المجنونُ المقيمُ على معصية الله » .

قال (النابغة) : لَعَمْرِي إن هذا هو الحق ؛ فنبوغُ العقلِ مَرَضٌ من أمراضِ السموّ فيه ؛ فالشاعرُ العظيمُ مجنونٌ بالكون الذي يتخيَّلُه في فكره ، والعاشقُ مجنونٌ بكون آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوفُ مجنونٌ بالكون الذي يدبُّ في معرفته ؛ ونابغةُ القرن العشرين مجنون . . . لا . لا . قد نسينا . ش ، فهو مجنون ، وس . ع فهو مجنون .

وكلُّ الناس مجنونٌ بليلى وليلى لا تُقَرُّ لهم بذلك

ومن حقِّ ليلى ألا تُقرَّ لهم ، إذ هي لا تقر إلا لنابغة القرن العشرين وحده ؛ وما أعجبَ سحرَ المرأة في الكون النفساني للرجال ؛ أما في الكون الحقيقي فهي

أنثى كإناث البهائم ليس غير . وأعقلُ الرجالِ من كان كالحمار أو الثور أو غيرها من ذكور البهائم . فالحمار لا يعرف الحمارة إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ، ولا يكتبون « أوراق الورد » . . . وإناثُ البهائم أمّاتٌ^(١) لا غير . ولكنَّ العجيبَ أن ذكورتها ليست آباءً ؛ فهذه الذكورة طفيليةٌ في الدنيا ، والطفيليُّ لا يأكلُ إلا بحيلةٍ يَحْتالُ بها ، فيكونُ صاحبَ نواذرٍ وأصحابيكٍ وأكاذيب . ولهذا كان عشقُ الرجالِ للنساء ضُروباً من الخداع والأكاذيب والأصحابيك والحيل والغفلة والبلاهة ؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخرُ الحيلة والأكذوبة ، وهو قولُ الطفيليِّ :
قد شيعتُ وقد رويت . . . ويحكم ، أين أولُ الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجبَ سحرَ المرأة في الكون النفساني للرجال .

قال : نعم هذا هو . إنه سحرٌ لا أعجبَ منه في هذا الكونِ النفساني إلا سحرُ الذهب ؛ فلو مُسِخَتْ المرأةُ الجميلةُ شيئاً من الأشياء لكانت سبيكةً ذهبيةً تلعم ؛ ولهذا يُوجدُ الذهبُ للصّوص في الدنيا ، وتُوجدُ المرأةُ الجميلةُ للصّوصِ آخرين ، فيجب أن يُصانَ الذهبُ وأن تُصانَ المرأةُ .

قلت : ولكن أليس من المالِ فضةٌ ، وهي تُوجدُ للصّوص كالذهب ؟
قال : نعم ، وفي النساء كذلكِ فضةٌ ، وفيهن النّحاس ؛ ولو أنت أَلقيتَ ريالاً في الطريق لأحدثتَ معركةً يختصمُ فيها رجلان ، ثم لا يذهبُ بالريال إلا الأقوى ، ولو تركتَ قرشاً لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عَضَّ الآخر . . .

ولكن (فُورد) الغنيّ الأمريكي العظيم الذي يجمع يدَه على أربعمئة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلي) ، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء . . .

قلت : فإني أحسبك أعلمتني أن اسمها فاطمة لا ليلي .

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكلُّ الناس مجنونٌ بفاطمة ، وفاطمة لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

(١) يقال في غير العاقل : أمّات ، وفي العاقل : أمهات .

قال : إذن فهي (ليلي) ليستقيم الشعر . . . أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلل ، فهي فاطمة ليصحَّ الوزن . . .
قلت : يُشبهه والله ألا يكونَ اسمُها ليلي ولا فاطمة ؛ وإنما هي تسمى حسَبَ الوزن والبحر ، فاسمها فعُولُنْ أو مُفَاعَلَتُنْ ...

* * *

ثم قلنا له : فإنا رأينا في الحب ، فإنه لَيَقَال : إنك أعشقُ الناس وأغزلُ الناس ؟ .

قال : إن ذلك لَيَقَال (وهو الأصح) ، ثم أطرق يفكر . وبدأ عليه أنه مدهوش ذاهبُ العقل ، كأنه من قلبه على مسافة أبعدَ من المسافة التي بينه وبين عقله . ونحِيلُ إلى أن النساءَ قد حُسِرْنَ جميعاً في رأسه ، ومرت كلُّ واحدةٍ تعرضَ مفاتيحها وغزائرها ، وتلاثمَ هذيانَه بهذيانٍ من جمالها ، فهو يرى ويسمعُ ويعرضُ ويتخيرُ . ثم اضطرب كالذي يحاولُ أن يمسكَ بشيء أفلتَ منه ؛ فلم ينبهه إلا قولُ المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت إنه داءٌ وجنون . . .

قال : اسكتْ يا ويلك لقد أطفأتَ الأنوارَ بكلماتك المجنونة . كان في رأسي مرقصٌ عظيمٌ تسطعمُ الأنوارُ فيه بين الأحمرِ والأخضرِ والأبيض ؛ وترقصُ فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والمشوقة والبادئة ، فجئتُ بالداءِ والجنونِ قَبَحَتَاكَ الله فأخرجتني عنهن إليك . أحسبُ أنك لو انتحرتَ لصلَّحَ العالمُ أو صلَّحتُ أنا على الأقل . . . فإذا أردتَ أن تشنقَ نفسك فأنا آتيك بالحبل الذي كنتُ مقيداً فيه أي الحبل الذي عندي في الدار . . . على أن رأسك الفارغَ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدري .

قال الآخر : ما أنت منذُ اليوم إلا في شنقٍ وتعذيبٍ أو في شنقٍ عقلي (على الأصح) . « وما حفظناه » قولُ الأحنف بن قيس : إني لأجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأَتَبَيَّنُ ذلك في « عقلي » . . .

فلم يَسْرِعْنَا إلا قيامُ المجنونِ مسلَّحاً بجذائه في يده . . . وهو حذاء عتيقٌ غليظٌ يقتلُ بضربةٍ واحدةٍ : فحسبنا بينهما وأثبتناه في مكانه . وقلنا : هذا رجلُ

قد غلبَ على عقله فلا يدري ما يقول ؛ فإذا هو دلَّ على أنه مجنون ، أفلا تدلُّ أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك في انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك في الحب ؛ وما نشك أنك قد أطلت التفكير ليكونَ الجوابُ دقيقاً ، فإنك (نابغة القرن العشرين) ، فانظر أن يكونَ الجوابُ كذلك .

قال : نعم إن العاقلَ إذا ورد عليه السؤالُ أطال الفكرَ في الجواب . فاكتب يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغةُ القرن العشرين مجلسَ الإملاء مُرتجلاً فقال^(١) : قصةُ الحب هي قصةُ آدم ، خلق الله المرأةَ من ضلعه . فأولُ علاماتِ الحب أن يشعرَ الرجلُ بالألم كأن المرأةَ التي أحبها كسرت له ضلعاً . . . وكل قديم في الحب هو قديمٌ بمعنى غير معقول ، وكلُّ جديد فيه هو جديدٌ بمعنى غير مفهوم ؛ فغيرُ المعقولِ وغيرُ المفهوم هو الحب .

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأت وبقيتُ جمرةً فذلك أقربُ إلى الصدق من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو برَدَ .

والعاشقُ مجنون . وجنونهُ مجنونٌ أيضاً ، فهو كالذي يرى الجمرةَ منطفئةً ، ويرى مع ذلك أنها لا تزالُ حمراء ، ثم يسمعنُ في خياله فيراها وردة من الورد . . . وإذا سألتَه أن يصفَ الجمالَ الذي يهواه كان في ذلك أيضاً مجنونَ الجنون ، كالذي يرى قمرَ السماء أنه قد تفتَّت وتناثر ووقع في الروضة ، فكان نثاره هو الياسمين الأبيض الجميل الذكي . . .

والمجنونُ يرى الدنيا بجنونه والعاقلُ يراها بعقله ؛ ولكنَّ العاشقَ المخبولَ لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقيةٍ من ذلك ، فلا يخلصُ مع حبيبهِ إلى جنون ولا عقل .

(والمجهولُ) إذا أراد أن يظهرَ في دماغ بشريٍّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشق . . .

ولا صعوبةٌ في الحكم على شيء بأنه خيرٌ أو شرٌّ إلا حين يكونُ الخيرُ والشرُّ امرأةً معشوقةً . أما أوصافُ الشعراء والكتّاب للجمال والحب فهي كلها تقليدٌ قد

(١) هذا نص عبارته حين يريد التخليط .

توسّعوا فيه ؛ والأصلُ أن ثوراً أحب بقرةً فكان يقول لها : يا نجمةَ القطب التي
نزلت من السماء لتدور في الساقية كما دارت في الفلك . . .

قال (النابغة) : هذا رأي في حب العاشقين ؛ أما حي أنا (نابغة القرن
العشرين) فيجمعه قولك : فلّ ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألغاز ؟ وهل للحب متنٌ كقولهم : حروفُ القائلتَمَلّة يجمعها
قولك (قطبٌ جَد) ، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتُمونيها) ؟

فتضاحك (النابغة) ، وقال : تكاثرت الطباءُ على خِشَاش ، فلكيلا ننسى
. . . إن كل حرف هو بدءُ اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلتي ، والواو وردة ، والراء
رَبَاب ، والداد دلال ، والزاي زكية ، والهاء هند ، والراء رَبَاب . . .

قلنا : رباب قد مضت في (ورد) .

قال : كنا تمهاجرنا مدةً ثم اصطَلَحْنَا بعد هند . . .

* * *

قلت : هكذا « النوايح » فإن رجلاً أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما
« نبغ » صَيَّرَهَا (أبا العيسر) ^(١) وَفَتَقَ لَهُ نبوغه أن يجعلها تاريخاً يَعْرِف منها
عمره . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا :
أبو العيسر طَرَدَ طِيلَ طَلِيْرِي بَلْكَ بَلْكَ بَلْكَ

* * *

(١) العيسر : الحمار وتكنى بعض الحمقى (أبو البقر) قياساً على (أبو العير) .

المجنون

٥

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفَّه الطربُ لذكر صواحبه وجمالياته من فاطمة إلى ربَّاب ؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذَّبَ صدَّقَ نفسه ، فإن قوة الضبط في عقله إما معدومةٌ وإما مختلَّةٌ ؛ وكلُّ وجهٍ تَخَيَّلَ منه خيالاً فهو وجهٌ من وجوه العلم عنده ، إذ كان عالمه أكثره في داخله لا في العالم ، فإذا توهم أو أحسَّ أو شَعَرَ ، فإنما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء ؛ فليس يَحْتَمِلُ عقله إلا فكرةً واحدةً تمضي منفردةً بنفسها مستقلةً بمعناها كأنها قدَرٌ غالبٌ على جميع أفكاره الأخرى ، فلا شأنَ لها بالواقع ، ولا شأنَ للواقع بها ، وإنما هي تُحَقِّقُ معناها كما تَخْطُرُ له ، لا كما تتمثَّلُ فيها حوله .

فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغه المُتَدَجِّجُ بالغيوم العقلية ، لا تزال تعرِّضُ له الغيمةُ بعد الغيبة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه ، وفساد أعمالها بهذا الاختلال ، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد .

ومن ذلك تنقلب الكلمة من الكلام ، وإنها لحادثةٌ تامةٌ في عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمانٌ ومكانٌ ، وبدءٌ ونهايةٌ ، لا يُخَامِرُهُ فيها الشك ، ولا يَعْشِرُهَا التَّكْذِيبُ ؛ وكيف وهي قائمةٌ في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيام الحقيقة في الأبصار والاسماع ؟

ولحواسِ المجنون جهَّتَانِ في العمل ، لأنها بين كَوْنَيْنِ ؛ أحدهما الكونُ الخَرِبُ الذي في دماغه ؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين) : إن في داخل عينيه منظاراً يرى به الأشياءَ في غيرِ حقائقها ، أى في حقائقها

وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال : إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغةً كتابغة القرن العشرين ، ذُكِرَتْ أمامه قيصرُ روسيا وخبَرَ مقتلها ، فأحفظه هذا وأرْمَضَه وقال يا ويْسُهم ! كَدَبُوا عليها وعلى . . . فسأله الدكتور : وكيف ذلك ؟

قال : كان من خبر القيصرة أنها رأته فأحببني ، وعلمت من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبها أني أنا رجلها لا القيصر ؛ فما زالت بعدها تُناكدُ القيصرَ وتلتوي عليه ولا تصلح له في شيء حتى يتيسر منها فطلعتها ، فحملت كنوزها وحملها ولجأت إلى حبيبها ، ثم تبعها نفسُ القيصر ولم يطبق العيشَ بعدها فانتحر ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز ، فأخفاها هو في مكان حريز لا يعلمه إلا هو ؛ ثم إنه هو لا يصل إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرها ؛ ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ . . . فقد يزل مرة فيُسخيرُ به أو يغلبه الشوق مرة على « عقله » . . . فيذهب إليه ؛ فعسى أن يراه من ينم بذلك ، فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه .

قال : وإن القيصرة هي تحتاط أيضا مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرأها وحده ، وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوما فتطيش طيش المرأة . فتزوره في هذا المارستان فقد تُقتل إذا رآها الشيوعيون .

قال الدكتور : وهالك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامت به وأنها مُبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة ، وقد تنهت فيه حتى إنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هو في امرأة أخرى . وخبرته هذه الفكرة ، فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف ؛ ثم توهم ذات يوم أن واشيا قد أعلمها أن النساء افتتن به ؛ فطار صوابها ، فهي آتية إليه في المارستان لتوبخه وتشفي غيظها منه ، ثم تنحصر أمام عينيه . . . وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخسها بالغيب . . . فلم يهتد إلى مقنع تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن . . . ففعل وجب خصيته بيده ليقدمها برهاناً أنه لها وحدها . . .

* * *

قلنا : وطرب (نابغة القرن العشرين) لذكر صواحيبه وجمالياته ، فجعل يترنم بهذا الشعر :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لذةُ العيشِ إلا للمجانينِ

فقال المجنون الآخر « مما حفظناه » : ما لذة « الخبز » إلا للمجانين . . .
فضحك (النابغة) : وقال : ما أسخَفَكَ مِنْ أَحْمَق . إذا كان هذا هو
المعنى فقل ما لذة (الكعك) . ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهَجَّأ كلمة خبز
لقال إنها ل . ح . م . ولو تهَجَّأ كلمة لجم لقال ف . و . ل . . .

إنه طفلٌ عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضبُ الطفل ونزقُه وحماقته ، وفيه
كذلك سرورُ الطفل وطيشُه وأحلامُه ؛ غير أنه ليس فيه عقلُ الطفل . . . وهو
من الضعيف ، وشدة الحاجة إلى العناية في حياته وسياسته والبِرّ به كطفل صغير -
بحيث يُخَيَّل إلى أحياناً أنني أمه

قلنا : وتَنسى في هذه الحالة أنك رجل ؟ .

قال : وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان ، وهو شرعا جبهةٌ مُلزمةٌ للحكم بالجنون
فما النسيانُ إلا الكلمةُ الأخرى لمعنى ضعفِ العقل ؛ وضعفُ العقل هو اللفظُ الآخر
لمعنى جنونى ؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام .

قلتُ : لا ، النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين ، بل بمعناه
فيك أنت من تَوَائِبِ الأفكارِ النابغة وتزاحمِها في تَوَارِدِها على العقل . فإذا
تَوَائِبَتْ وتزاحمتْ كان أمرُها إلى أن يُنسى بعضها بعضاً ، فلا ينطلقُ منها إلا
القوى النابغة حقَّ نبوغه ، فيجىءُ كالمنقطع مما قبله ؛ فيُحَسَّبُ ذلك نسياناً
وما هو به . وقد تصطلحُ الأفكارُ في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً
مجبوراً يرقصُ طرباً فيكون أمرُها إلى أن تجىءَ كلُّها معاً على
اختلافِ معانيها وتناقضِها ؛ فيُحَسَّبُ ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهلُ
العلةَ « النبوغية » ؛ وعذره جهلُ هذه العلة ، وهى فى دلالة العقل ليست نسياناً
ولا ذهولاً .

قال : فأعلِمتنى كيف نسيانُ المجانين ، فقد خَفَتِ علىَّ أن أدركَ هذا الأمر
العجيبَ فيهم ، ولست أدري كيف يفوتُهم ما استلنى لهم من الفكر بعد أن يكون
قد استقرَّ وحصلَ في عقولهم ؟

قلت : لا يكون النسيانُ تهمَةً بالجنون إلا في أحوالٍ ثلاثٍ ، جاءت بأكملها الروايةُ الصحيحةُ المحفوظة :

فأما الأولى : فما يروى عن رجل كان سرّياً غنياً وعُمرُ حتى أدركه الحرف ؛ فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت ، فذفع إلى غلامٍ له دنائيرَ يشتري بها كفنًا ، ودنانيرَ أخرى ويتصدق بها على القبر ، ثم قال لغلامٍ آخر ؛ امض إلى صاحبنا وغاسِلِ موتانا فلان فادْعُهُ يغسلها . قال الكاتب : فاستحييتُ منه وقلت : يا سيدى ابعثْ خلف فلانة وهى جارةٌ لنا تغسلها . قال يا فلان : ما تدعُ عَمَلَك في حزنٍ ولا فرح . كيف ندخل عليها من لا نعرفه ؟

قال الكاتب : نعم تأذنُ بذلك . قال : لا والله ما يغسلها إلا فلان : فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال : يا سيدى كيف يغسل رجلُ امرأة ؟ قال : وإنما أملك امرأة ؟ . . . والله لقد أنسيته . . .

وأما الحالةُ الثانية : فما يروى عن رجل كان نائمًا فى ليلة باردة فخرجت يدهُ من الفراش فبردتْ ، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحسَّ برَدِّها فأيقظته ، فانتبه فزِعًا فقبض عليها بيده الأخرى وصاح : اللصوص . اللصوص . . . هذا اللص قد قبضتُ عليه ، أدركونى لئلا تكونَ فى يده حديدةٌ يضربنى بها ، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضًا بيده على يده وقد نسى أنها يده . . .

وأما الثالثةُ : فهى روايةٌ عن رجل قد ورث نصفَ دار ، ففكر طويلاً كيف تخلصُ الدارُ كُلُّها له ثم اهتدى إلى الوسيلة ؛ فذهب إلى رجل وقال له : أريد أن أبيعَ عَمَلَك حصتى من الدار وأشتري بثمرنها النصفَ الباقي لتصير الدارُ كُلُّها لى . . .

* * *

قال (النابغة) : لَعَمْرى إن هذا هو الجنون ، وما يُدْكَر مع هؤلاء مجنون المتن ولا « غيره » . . .

فقال الآخر : تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يرفع نفسه عن الجنون لجاء فى الجنون بما يُذهِلُ « العقول » . . .

ثم نظر فإذا النابغة يتحفَّرُ له . . . فأسرع يقول : « مما حفظناه » كُنْ وحى القلم — ثانياً

حذرًا كأنك غيرٌ ، وكن ذاكرًا كأنك ناسٍ . فهذا هونسيانُ نابعةُ القرن العشرين ،
نسيانُ حكماء لا نسيانُ مجانين .

قال (النابغة) : ولكن قد فسد قولُ الشاعر : ما لذةُ العيش إلا للمجانين ؛
فما بقيتُ مع الجنون لذه .

قلت : إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض ، وإنما يريد
العشاقَ المجانين بالجمال ؛ وجنونُ العاشق في هذا الباب كعيوب العظماء من أهل
الفن ، وهي عيوبٌ تُدافع عن نفسها بحسنات العظيمة ، فليست كغيرها من
العيوب .

قال : فيجب أن أصنع بيتًا آخرَ يفسرُ ذلك الشعرَ ليستقيمَ لي التمثيل به ،
ثم فكّرَ وهمّهم ، ثم كتب في ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولٌ ، وسأنتنم
س . ع . على شعري ودفع إليه الورقة :

ف نظرت وقلتُ : يجب أن يكونَ الشعر هكذا :

قالوا جُئِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لذةُ العيش إلا للمجانين
العقلُ إن حكمَ العشاقَ أثقلُ من فقيرٍ تحكّمَ في رِزقِ المساكينِ

ونشر س . ع . الورقة فإذا فيها :

قالوا جُئِنتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ما لذةُ العيش إلا للمجانين
إن العيوبَ عن الجنون دافعةٌ بأنه « نابغٌ في القرن عشرين » ...

وضحكنا جميعًا ؛ فقال النابغة : أبعذك الله يا س . ع . إن من ائتمن المجنون
على سرٍّ وقال له اكنمه فكأنما قال له انشره . . .

* * *

ثم قال : وَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ س . ع . هذا « نابغة » ، ولكنني سأجعله
نابغة ، فقد صار له عِلَاقٌ حقُّ الصديق وهو حقٌّ لا أَضِيْعُهُ ولا أُخِيلُ به . فإذا
احتجت يا س . ع . إلى خطابٍ رنانٍ تلقيه في حَقْبَلٍ عظيم ، أو قصيدةٍ تمدح
بها وزير المعارف ، فالجأ إلىَّ فإنني ملجأ لك . ومتى انتحلت شعري كنت عند
الناس المتنبئ أو البحترى . أو ابن الرومي ، فإن هؤلاء القُدامى لم ينفعهم إلا أنني لم
أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أنى لم أكن فيهم . . .

قلنا فما حكمك عليهم في الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلتُ نفسي بينهم ، فمن الطبيعي ألا يعجبني منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن ، فإنه هو فوق الأحسن ، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر ، فإنه هو فوق الأشهر .

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهدُ العظيمُ الذي لا يقول في حُسْنِ هذا أحسنُ لأنه فوق الشهوة ، ولا في نعيمِ هذا أطيْبُ لأنه فوق الطمع ، ولا في مالٍ هذا أكثرُ لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنتَ ترعى غنمًا لكنتَ الحقيقَ في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحتُ شأني بيني وبينه فأصلحَ بين الذئب والغنم .

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حكى عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه : يا رب . مَنْ زوجني في الجنة ؟ فأرَى في منامه ثلاثَ ليالٍ أنها جاريةٌ سوداءُ في أرضٍ كذا . فجاء تلك الأرضَ فسألَ عن الجارية ، فقال له رجلٌ ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداءَ مجنونة كانت لي فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهارَ فإذا أعطيناها فطَـورَها تصدقتُ به ، وكانت لا تهدأ الليلَ ولا تنام ففضجرتنا منها .

قال : فأين هي ؟ قال ترعى غنمًا للقوم في الصحراء :

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها . ونظر إلى الغنم فإذا ذئبٌ يلدأ على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلّم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بُشِّرَ بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئابُ مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأني بيني وبينه فأصلحَ بين الذئب والغنم .

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب .

قلت : وأى عجيب في هذا ؟ إن الذئبَ والشاةَ ، والأسدَ والغزالَ ، والثعبانَ والعصفورَ ، وكلٌّ آكلٌ ومأكولٌ من الأحياء ، لو هي دخلتُ في دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمتُ كلها صَفًّا واحداً يركعُ ويسجد . فهذه الجاريةُ نشرتْ رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حوّلها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان وحى القلم - ثان

فوقع الذئبُ منها في دائرة مغناطيسية ، فسُلبَ وحشيتَه ورجع مُسَخَّرًا لفكرة الصلاح والخير إذ تَجَانَسَتْ فيه الحياةُ بما حوَّلَها ، وانسجم النوعُ والنوعُ في حركةٍ متجاوبةٍ انسجامَ الرجلِ المغناطيسي هو ومن ينوِّمه في إرادةٍ واحدة وفكرةٍ واحدة .

قال (النابغة) : فإذا دخل الذئبُ مسجدًا يَرْتَجُّ بالمصلِّين ، أُنْزَاهُ يَصُفُّ أَرْبَعَتَهُ وَيَقِفُ بينهم للصلاة ، أم يصلي صلاتَه الذئبيةَ في لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة ، فيخرجون بها من النفس إلى الكون ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسبابِ إلى مُسَبِّبِها ، وما في القلب إلى ما فوقَ القلب ؟ إن هؤلاء جميعًا يصلون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طولُ الدنيا وعَرْضُها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكرُهُ بما يَغلبُ عليه ، كما يتصل فكرُ اللص بيده ، وفكرُ العاشق بعينه ، وفكرُ الطفيلي بمعدته . . . فاسمُها عندهم الصلاة ، وحقيقتها عند الله كما ترى .

قال (النابغة) : ولكنه ذئبٌ من طبيعته أن يأكل الشاةَ لا أن يرعاها ، فلا أفهم شيئًا .

وقال الآخر : « مما حفظناه » رَتَعَ الذئبُ في الغنم ، ولم يقولوا صلَّى الذئبُ في الغنم ، فلا أفهم شيئًا .

قلت : سأزيدكما عَدَمَ فهم . . . إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصلٌ بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظلٌّ من ظلال الدنيا ؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذي لا يَطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتبهى ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئًا ، وإنما طبيعتهُ أشواقه الكونيةُ ، واتصالهُ بِنَفَسَاتِ القوة الأزلية المسخرة للوجود كله . فانتشرت هذه المرجة الكهزبائيةُ الأثيريةُ حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئبُ فالتجَّ فيها وغمرته الروحانيةُ الغالبةُ ، فإذا هو يفتح عينه على كونٍ غريب قد تجلَّى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوةٌ أمرةٌ أمرها بائتلاف كلِّ شيء مع كلِّ شيء ، واجتماع المتناقضين في حالة معروفة لا في حالة إنكار . فصار الذئبُ مستقيظًا ، ولكنه في رُوحِ النوم ، وشَلَّتْ فيه الذئبيةُ الطبيعيةُ ، فإذا هو يحملُ الأنياب والأظافرُ

وقد أنسيَ استعمالها ؛ وبقيت حركته الحيوانية ، ولكن تعطلت بواعثها فبَسَطَل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذئبُ الذى هو فى الذئب ، وبقي الحيوانُ حيًّا ككل الأحياء ، فناسب الشاةَ وفزع إليها إذ لم تكن العلاقةُ بينهما علاقةَ جسم الآكلِ بجسم الأكلة ، بل علاقة الروح الحَيِّ بروح حَيٍّ مثله^(١) .

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمتُ ولكنَّ هذا المجنونَ لم يفهم . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكّن ، وبدون كتُب ألبنة . . . وكان هذا أجمعَ لرأيه وأذهنَ له وأدعى لأن يتوفّر على الإملاء بكل « مواهبه العقلية » ؛ ولما أن فكر النابغةُ وأعطى النظرَ حقّه وجمع فى عقله الفذّ جزالةَ الرأى إلى قوةِ التفنّن والابتكار ، قال مرتجلاً : إن فلسفةَ الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تَسْطِحنه ، هى بالنص وبالخرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة .

فامتعض الآخر وقال : « مما حفظناه » :

وبات يَفدَحُ طولَ الليلِ فكرتهِ وفسّرَ الماءَ بعد الجهدِ بالماءِ

(١) روت الصحف فى هذه الأيام قصة حاكم إنجليزى كان قد اقتنص ذئباً هنجارياً وشده فى سلسلة وجعله فى حديقة داره إلى أن يرى فيه رأياً ؛ وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشى فتربص إلى الليل ، فلما استثقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئاً من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن فى نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك ؛ ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيده الصغيرتين ويعبث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس إليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمى ؛ وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده فى فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه فى غرف الدار ، ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به قائماً ورأسه على الذئب ، وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكي على صديقه الوفي . . .

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين فى مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضى الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وأن هذا هو وحده سلاح النفس فى النفس .

فقال (النابعة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت نَقَطَـوَيْه أو سيموَيْه لما كنت عندى إلا جَحَشَـوَيْه أو بَغْلَـوَيْه . . .

لقد كنت أرى الكلامَ فى تلك الفلسفة طريقاً نَزَهاً جميلاً حفته الأشجار والأزهارُ عن جانبيه ، واندفعتْ فى سَوَاهِهِ (تُـمبيلاتُ) الأفكارِ خاطفةً كالبرق . فلما تكلمتَ أنتَ انتهينا من سخافتك إلى طريقٍ حَجَرِيٍّ تَقَعَقِيعُ فيه عرباتُ النقلِ تجرها البغالُ البطيئة .

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردتُ والله مَسَاءَ تَلَكُ ولو أردتُها لقلت وفسر الماءَ بعد الجهد بالسبروتو . . . فهذا هو الخطأ ، أما تفسيرُ الماءِ بعد الجهد بالماء فهو صحيح .

قال (النابعة) : ولكنه تفسيرٌ مُفْـرِطُ السقوطِ كتفسيرِ المجانين ، فهو يقولُ إني مجنون .

قلت : كلا ، إن تفسيرَ المجانين يكون على غير هذا الوجه ، كالذى حكاه الجاحظ قال : سمعتُ رجلاً يقولُ لآخر : ضربنا الساعةَ زَـنـدِيقاً . قال الآخر : وأى شئ الزنديقُ ؟ قال الذى يَنْقَطِعُ المزيقُ . قال : وكيف علمتَ أنه يقطعُ المزيقُ ؟

قال : رأيته يأكل التين بالخل

* * *

المجنون

تتمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين ، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجه إلى وجه ، ويمرُّ في معنَى إلى معنَى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين ، بعد ما انطلقا في القول وانفتح القفلُ الموضوع على عقل كل منهما .

وكان قد مرَّ في الندى بائع روايات مترجمة « بوليسية وغرامية ولصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَرْبَلَةً أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضها في نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا ، فقلت (لنا بعة القرن العشرين) : أتقرأ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرةً واحدة ثم لم أعاودْ ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها .

قلنا : هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرتَ رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابع ، إذ ليس لكم حِسُّهم المهرَّفُ ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرهم المتعلقة بما فوق الطبيعة .

قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابغة) إلا وهو بين عالَمين على طرفٍ مما هنا وطرفٍ مما هناك ، فهو خَرَّاجٌ ولَاجٌ بين العالَمين ؛ وله نفسٌ مركَّبةٌ تركيبها على نواميسٍ معروفةٍ وأخرى مجهولة ؛ فهي تأخذ من الظاهر والباطن معاً ، ويحصرها المكانُ مرةً ويُفلسفُها مرةً ، وتكون أحياناً في زمانِ الأرض ، وأحياناً في زمن الكواكب من القمر فصاعداً ولكن

فقطع على وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقول التي تحصرُ من يسمونهم العقلاء في الزمان والمكان ، لا تُوجدُ أهلها إلا الهموم والأحزان ، والمطامع السافلة ، والأفعال الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوق التراب .

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرابٍ أن تكون معاني التراب فوقهم

وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً
تربائياً في كل معانيه ولكن . . .

قال : وزد على ذلك أنهم مقيّدون تقييدَ المجانين ، غير أن حبالهم
وسلاسلهم عقليةٌ غيرُ منظورة ؛ وتغليلهم تغليلَ المجانين يسمّون أنفسهم
عقلاء ، وأعقلهم أثقلهم قيوداً ، وهذا من الغرابة كما ترى .

قلت : نعم ، أما العقلاء بحقيقة العقل ، فهم الذين يضحكون على هؤلاء
ويسخرون منهم ، إذ كانوا في حالٍ كحالِ المنطليق من المقيّد ، وفي موضعٍ كموضعِ
المعافى من المبتلى . ولكن . . .

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادة ، إذ ليس لهم العقلُ
الضاحكُ الساخرُ العاثرُ الذي خُصَّ به النوايغُ وكان الأوحُدُ فيه (نابغة القرن
العشرين) .

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها ؛ أما (النوايغ) فقد
لا يملكونها ، ولكن لا يفوتهم الشعورُ بها أبداً فيجيئهم الفرحُ من أسبابه ومن
غير أسبابه ما دام لهم العقلُ الضاحكُ الساخرُ العاثرُ الذي دأبهُ أبداً أن ينسى
ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبه .
ولكن

قال : والذي هو أهمُّ من كل ما سبق ؛ أن أعظمَ خصائص هذا العقل
الضاحكِ الساخرِ العاثرِ أن يطردَ عن صاحبه ما لا يحبّ ويجنبه أن يخسرَ شيئاً
من نفسه ؛ فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح
خمسين في المائة

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرفَ بلاهةَ الطفلِ وما أجداها
عليه ، إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرجُ بلهاءَ مثله ،
وتقلبُ له الدنيا كأنها أمُّ تضحكُ ابنها وتلاعبه . ولكن . . .

قال : ولكن هذا مبلغٌ لا تبلغه الإنسانيةُ إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة
العقول (ك نابغة القرن العشرين) .

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) رواية حين قرأ الرواية ! .

قال : هذه نكتةُ النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلنا يتلقى في نفسه وحى الأثير وإشارات الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن (نابغة القرن العشرين) سيقراً روايته ، فكان يتحرّى معانى غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعاً آخر لا تكون فيه حبيبةٌ خائنة ، ولا لصٌ عارم ، ولا قاتلٌ سفّاح ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمةٌ تقول حيث حيث

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة في الورق ، ولص بين الحروف المطبعة ، وقاتل لا يقتل إلا كلاماً ، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتةُ النبوغ ، فما استوعبتُ القصةَ حتى عمّرتني أشخاصها ، وأقحمتُ منها على هَوَلٍ هائل ، فخانتني الخائنة لعنها الله . . . ولولا خوفُ السجن والمحكمة لقتلتها أشنعَ قِتْلَةٍ ، ومثّلتُ بها أقبحَ تمثيل . ويح الخائنة كيف اسمها ذلك الدميم الطويل العِملاقُ المشبوحُ العظامُ المقتولُ العضلُ ؟ ولكنى لستُ عملاقاً ولا مَبِينياً بناءً الحافظ ، ثم كان مجنوناً بشهواته جنونَ الفيل الهائج ، وكنتُ في شهواتي عاقلاً عقلَ الإنسان ، ثم كان غنياً غنى الجهال ، وكنت فقيراً فقراً العلماء . والنساء ؛ قبح الله النساء . إنهن زينةٌ تطلبُ زينةً مثلها . وإن المرأةَ لتسمنحُ وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهب يتساقط من قُبُلّاته . أما من كان مثلى ، أمواله الشبابُ والجمالُ والعقلُ والنبوغ ، فهو مُفلسٌ عندهن إفلاسُ القرد في الغابة ، فهو عندهن قُرْدٌ لهذه المشابهة .

قلت : هذا ليس عجيباً فإن اللغويين يُجرون على الشيء اسمَ ما يقاربه في المعنى .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن اللغويين يجرون على الشيء اسمَ ما يقاربه في المعنى

فتربّد وجهُ (النابغة) غضباً وقال : أبى يلعبُ هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسمون قرداً ، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) . . . سؤاَةٌ عليك أيها الصبي المغمّر . . . ألا قدعوني أؤدبه أدباً

الصبيان فإن اللطمة القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة تلمسسه الحقيقة التي يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق . . .

قال ا. ش: أنت قلت ، لا هو . على أنك لست قرداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متاجنة ، قد تضع البرذعة على ظهر الأمير وتجعله حماراً ، فيعجب الأمير أن يكون حماراً . ولست قرداً مع قرداً إلى جانب عنز وكلب . . .

قال : الآن علمت السبب ، فإن الخائنة كانت متخيلة مؤلفة كتب وروايات ، والمرأة التي تؤلف الكتب ، غير بعيد أن تؤلف الرجل أيضاً ، وتجعله قصة هو فيها قرد . . . وهذا إن كانت جميلة كأمراة الرواية . أما إن كانت دمية مجموعة من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعة من السنين ؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد عند النصارى . . . يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة . هذه وهذه كلتاها تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد . . . لا يشتعل ، فضلاً عن أن يستعير ، فضلاً عن أن يحترق .

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين : إما جميلة ، فوجهها وثيقة بأن لها ديوناً على الرجال ؛ وإما غير جميلة ، فوجهها (مخالصة) من كل الديون

قلنا : هذا في الخائنة . فكيف سرقت اللص ولست غنياً ؟

قال : هذه هي نكتة النبوغ ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها ، وليس في جهلها مضرة على أحد ، وجهل لا يضر هو علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحث في بعض أعمال (النابعة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل ، أى بالعقل النابع الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس .

* * *

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها . . . قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أولفها أنا تألفت هي لي . فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعاً انتهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى . وفي ضوء

النهار أجدُ الناسَ عقلاء ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين . فهذا الليل برهانُ الطبيعة على جنونِ الناس وضعفِ عقولهم إذ هو يثبتُ حاجةَ هذه العقول إلى ضَرْبٍ من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلتُ في نهارها ولا استقام لها أمر .
يُصرَعُ الناسُ في الليل صرعةَ المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً .
أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يضحُّ بالضحك من الإنسان الأحمق الذي يقطع سَرَآةَ نهاره ، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف . . . أئين رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنك زئيره ، ادعيت الدعوى العريضة ، وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه ، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده ، وصاح هاتوا الحبل لأقيده لا يُقْلِت ؟ . . .

قلت : فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلاً من الرواية .

قال : أيما أحب إليكم ، أن أكتب أو أمثل ؟

قلنا : بل التمثيل أحب إلينا . فنظر إلى المجنون الآخر وقال : إن المجنون في طبيعته ينبوعٌ من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال ، كينوع الماء يسحُجُ الدفعة بعد الدفعة ، فهنا المسرح ، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون . . .

* * *

أنت يا س . ع . عمُّ هذا المجنون . فإذا قال لك يا عم . قل له : أنا لست ولكني أخو أهلك . . . لتتأمل أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فإنه فترقُّ عقلي دقيق تُمْتَحِنُ به العقول . . .

تعال أيها المريض فلنأمر أن يكونَ شفاؤك على يدي ، وفي يدي هذه لمسةٌ من لَمَسَاتِ المسيح ، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيبُ القرن العشرين

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه ، وأقبلوا له كلَّ ما يحتاج إليه ، وتحروا مسرته دائماً ، فإن إدخال بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بعض العقل إلى رأسه .

متى أنكرت يا س . ع عقل ابن أخيك وما كان السبب ؟ وكيف غلب

على عقله ؟ وهل ا . ش . هو خاله أو أخو أمه ؟ . . .

لَطَفَ اللهُ لك أيها المسكين . قل لى : أنتذكر أمس ؟ أنتذكر غداً ؟ . . .
إن الأمس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين ؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا
تبدأ لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن في العقلاء . وهم لا يصلحون
أن ينفعوا الناس كالعقلاء ، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم
في الضحك والمرح والطرب ، وهذا حسنٌبهم من النعمة عليهم .

قل لى أيها المجنون : أنتحس أن الدنيا تصنع لك نفسك ، أم نفسك
هى تصنع لك الدنيا ؟ إن هذه مسألة يحلها كل مجنون على طريقته الخاصة به ،
فما هى طريقتك فى حلها ؟ .

مالك لا تجيب أيها الأبله ؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشاً
لينطلق لسانه ، وآتوا الطبيب أجره وافيّاً وهو لا يقل عن قرشين . . .
ثم مال (النابغة) على مجنون المتن وساره بشىء . فقلنا ما أمرُ المال بسير ؟
هذا قرش للمريض وهذان قرشان للطبيب .
فقال المجنون : « مما حفظناه » كفى بالسلامة داء .

قال « الطبيب » : هذا مريضٌ بنوع من الجنون اسمه « مما حفظناه » وهو
جنونُ النسيان الذى يضع فى مكانِ العقل كلمةً ثابتةً لا يتذكرُ المجنونُ إلا بها ؛
ومن أعراضه جنونُ الشك فكل ما حول المريض مشكوك فيه ، وقد يترامى إلى
جنونِ اللمس ، فلو لمستَه بإصبعك توهمها عقرباً فخاف من الإصبع تلمسه
خوفه من العقرب تكدغه ، ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ،
فليس هذا من مجانينِ العبقريّة التى انحرفت عن طريقها أو شذت فى قوتها ؛
ولا هو ممن يستجبان ويتحاشقُ التماساً للرزق والعيش كما قال بعضهم : حماقةٌ
تَعُولُنِي خيرٌ من عقلٍ أعولُه .

فقال المجنون : « مما حفظناه » حماقةٌ تَعُولُنِي . . .

فضحك (النابغة) وقال : هو كما بيّنتُ لكم مصابٌ بجنونِ (مما حفظناه)
وهو أقل الجنون وأهونُه ، وعلاجه البسْطُ والسُرورُ والقرش ؛ والضربُ أحياناً . . .
فإذا تابَر عليه الداءُ تحوّل إلى جنونِ (مما ضربناه) . . . فيعتدى المصابُ على

كل من يراه أو يَؤَقِّعُ به ضَرْبًا ، وعلاجهُ حينئذ القميصُ المرقوم^(١) ؛ فإذا فَدَحَتْ العلة انقلب المرضُ إلى جنون (مما قتلناه) . وعلاجهُ يومئذ السلاسل والأغلال..

والحق أقول لكم إن آخرَ ما انتهت إليه فلسفةُ الطب في القرن العشرين أن الناسَ جميعًا مجانينٌ ولكنَّ بعضهم أوفرُ قسطنًا من بعض . كأن سلبَ العقلِ هو أيضًا حظوظٌ كحظوظِ موهبةِ العقل . وأهلُ المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بـمارستان الفلاسك . . .

ولكن بقيتُ أشياء لا بد من التدقيق في فحصها ؛ وعندى في الدارِ عَاطُوس إذا أشممتُهُ هذا المجنونَ عَطَسَ به عطسةٌ قوية فخرج جنونه من أنفه . . . قل لى أيها المسكين : أتخاف إذا سرتَ وحدك في مَيدانٍ واسع كأن المِيدانَ سيلتفُ عليك ؟ أتضطربُ إذا مشيتَ في مَضِيقٍ كأن المكانَ سينطبقُ عليك ؟ وإذا كنتَ في عربة القطار فهل يخيلُ إليك أن البيارستان قد جره القِطار وانطلق به هاربًا ؟ وهل شعرتَ مرة أنه أوحىَ إليك أن تَستَحِرَّ ؟

أرئى هذا القوشَ الذى في يدك . فد إليه المجنون يَدَه بالقرش . قال (النابعة) : انظر الآن هل تُحدثك نفسك أن تَغْصِيَتِي هذا القرشَ أو تسرقَه منى ؟ قال : نعم . قال (النابعة) ؛ إذن يجب أن أحرزَه في جيبى . . . وأسرع فأخفاه في جيبه .

* * *

فصاح الآخر وشَغَبَ ، وقال سَلَبَتِي ونَهَبَتِي . قلنا لا ينبغي أن يتصلَ بينكما شرٌّ في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفى الفاسفة عند (النابعة) إباحةُ السرقة والغصب ؟

قال : فالرواية الآن هى رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو . قل لى ويحك يا أرسطو . أعلمت أن فى المجانين أغنياء يسرقون الشئ القليل

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفًا فى التصدن الإسلامى .

لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجةٌ إليه . فما علةُ ذلك عندك وما وجهه في مستقولةِ الجنون ؟

أعجزتَ عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصابَ بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيءَ بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده ، وهو غنى لا قيمة للدرهم في ماله فلا يستحقُّ بالشراء بَيْدَ أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيجئته بلذة لا تشتريها كلُّ أمواله ولا كلُّ أموال الدنيا . فهذا جنونٌ باللذّة لا بالسرقة ، وهو بذلك ضاربٌ من العشق يجعلُ الشيءَ إذا لم يسرق كأنه المرأةُ المعشوقةُ الممتسعةُ على عاشقها .

والنجياعُ إذا سرقوا ليأكلوا ويُمسِكوا الرمتَ على أنفُسهم ، لا يقال في لغة الفلاسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . . فباضطرابٍ جاعوا وباضطرابٍ مثله أكلوا ، والسارقُ هنا هو الغنى الذي منعهم الإحسانَ والمعونة . . .

فالدنيا معكوسةٌ منقلبةٌ أوضاعها يا أرسطو ، ولو استقامت هذه الأوضاعُ لوجدت السعادةُ في الأرض لأهل الأرض جميعاً . وكيف لك بالسعادة والناسُ مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعملُ دائماً على أن تَرى في الآخرين عيوباً مثلاًها .

كلُّ حمارٍ فهو يريد أن يملأ جوفه تبناً وفولاً وشعيراً ، غيرَ أني لم أر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل ؛ فإذا وُجدَ حمارٌ هذه همته وهذا عمله فاحمه إنسانٌ لا حمار . . .

يا أرسطو إن معضلةَ العضلات أن يحاولَ إنسانٌ حلَّ مشكلةٍ داخليةٍ مُحضّة قائمة في نفس حمارٍ أو ثابتة في ذهنه الحِمَمَارِي . . . ومثلُ هذا أن يحاولَ حمارٌ حلَّ مشكلةٍ نفسيةٍ في ذهنِ إنسانٍ أو في قلبه ، فلا حلَّ لمشاكل العالمِ أبداً ما دام كلُّ إنسانٍ مع غيره كحمارٍ مع إنسان . . .

والعضلاتُ النفسيةُ من عمل الشياطين ، فكان ينبغي أن تجيءَ الملائكةُ لتحاربَ الشياطينَ بالبرق والرعدِ دفاعاً عن الإنسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها ، وأرسل للإنسانَ ملائكةً أخرى إن شاء هذا الإنسانُ عملتْ ، وإن شاء عجزتْ ؛ وهي فضائلُ الأديانِ المنزلة . فإذا منحها الإنسانُ إرادته وقوته ، فعملتْ عملها

كان الإنسانُ هو المَلَكُ بل فوق المَلَك ، وإذا أضعفها ومَسَحَها كان الإنسانُ هو الشيطانُ وأسفلَ من الشيطان .

يا أرسطو^(١) « هذا العالمُ عندى كتلةٌ من العدم اتفقت على الظهور وستختفي . والعالمُ عندى ضعفٌ ركبٌ وقوةٌ ركبٌ . والعالمُ عندى لا شيء . والعالمُ بَيِّنٌ بَيِّنٌ . والعالمُ قسيمان : منهم الفلاح الزراعى وذلك أفضلُ فلسفة طبيعية والعالمُ فى حاجة إلى الموت والموتُ فى حاجة إليه . والأدبُ هو الحياة ولا حياة بلا أدب . والأدبُ ضربان : أدبٌ نفسانى وأدبٌ مكتسبٌ ، وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخصٌ مات بلا موت ، وبجيا بلا حياة . »

أتريد يا أرسطو أن تعرفَ سرَّ تركيب العالمِ ؟ الأمرُ يسيرٌ غيرٌ عسير ، فإن سرَّ تركيبه كسر تركيب القرش الذى فى يدك ، فدعنى أظهِرك على هذه الحقيقة ومُدَّ يدك بالقرش لأبينَ لك سرَّ التركيب فيه

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع فغَيَّبَ القرش فى جيبه . فقال (النابغة) : هذا سياسىٌ داهية خبيث . والرواية الآن رواية سياسى القرن العشرين .

ليس فى حقيقة السياسة إلا الرَذُلُ من أفعال السياسيين . والألفاظُ السياسية التى تحملُ أكثرَ من معنى هى التى لا تحملُ معنى . فليحذر الشرقُ من كل لفظ سياسىٍ يحتملُ معنيين ، أو معنى ونصفَ معنى ، أو معنى وشبهَ معنى ؛ فإن قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهم : ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهدَ الطبيعةُ نفسها على أن معناه أحمر لا غير وعلى هذه الطريقة يجب أن تُكْتَسَبَ المعاهداتُ السياسية بين أوروبا والشرق .

إنهم يكتبون لنا جريدةً بأسماء الأَطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم

(١) هذه الأسطر التى وضعناها بين القوسين هى من كلام المجنون بالنص ، وكنا سألناه أن يكتب رأيه فى العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط ، وتندر فيها كلمات كأعمق ما نتجى به مذاهب الفلسفة .

ولقد رأيتُ (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التي أتمناها ؛ فما أتمنى إلا أن يخرج كل المجانين في مظاهرة

وهذا الأبله الذي أمامنا ليس وطنياً ولا فيه ذرة من الوطنية ؛ فإن كان وطنياً أو زعم أنه وطني ، فليخرج القرش الذي في جيبه ليكونَ فألاً حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر

* * *

ولكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه . فقال (النابعة) : الرواية الآن رواية الشرطي واللص . وبحق من القانون يكون للشرطي أن يفتش هذا اللص ليخرج القرش من جيبه

* * *

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابعة) : كل ذلك لا يجدي مع هذا الحيث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة . ويجب أن ينكّب الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصفى القرش . . .

* * *

بيد أننا منعناه أن ينكّب « البرامكة » فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلاً في المجنون وصعد فيه عينه وصوب فلم ير إلا ما يذكر بأنه رجل ، فتهدّى إلى رأي عجيب . فوقع على قدميه وتوهمه امرأة في حداثها . . . وجعل يناجي الحذاء بهذه المناجاة :

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غيرُ سخيْف ؛ فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيْفَةً ، عليها جلالُ الحب ؛ وللحذاء في قدميك يا حبيبتي جمالُ الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل ، وكل شيء منك أنت فيه سرُّ جمالك أنت . والحذاء في قدميك ليس حذاءً ، ولكنه بعضُ حدودِ جسمك الجميل ، فلا أكون كلَّ العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء .

إن جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب ؛ في كل موضع منه روحُ الماء كله ؛ وحيثما وقعت القُبلة من جسمك كان فيها روحُ شفتيك الورديتين .

هذه قبلةٌ على قدميكِ يا حبيبتي ؛ وهذه قبلة على ساقكِ ؛ وهذه قبلة على ثوبكِ .
وهذه قبلة على جِيبِكِ

وكادت يدُ (النابعة) تَخْرُجُ بالقرش ؛ فعَضَّه المجنونُ في كَتَفِهِ عَضَّةً
وحشيةً ، فجأه الخوفُ منها فطار صوابهُ ؛ فصرخ صرخةً عظيمةً دَوَّى لها
المكان وترددتْ كَصَرْصَرَةِ البازيِّ في الجو ، ثم اعتراه الطَّيْفُ ، وأطبقَ عليه
الجنون فاختلط وتخبَّطَ

(والروايةُ الآن ؟) رواية عربية الإسعاف

فهرست

الجزء الثانى من وحى القلم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٦٢	السَّمكة	٥	الإشراق الإلهى وفلسفة الإسلام
١٧١	(٢) الزاهدان	١٢	حقيقةُ المسلم
١٧٨	(٣) إبليس يعلم . . .	١٨	وحى الهجرة
١٨٥	(٤) الدينار والدرهم	٢٤	فلسفة القصة
١٩١	دُعابةُ إبليس	٣١	فوق الآدمية (الإسرائُ والمعراج)
١٩٨	الشيطان . . .	٣٨	الإنسانية العليا
٢٠٩	تاريخ يتكلم . . .	٤٦	سموُّ الفقر (١)
٢٢١	كُفر الذبابة . . .	٥٢	سموُّ الفقر (٢)
٢٣٠	يا شباب العرب !	٥٩	درسٌ من النبوة
٢٣٤	لو . . . !	٦٦	شهر للثورة (فلسفة الصيام)
٢٤٠	أيها المسلمون !	٧٣	ثباتُ الأخلاق
٢٤٤	قصة الأيدى المتوضئة	٨٠	قلت لنفسى . . . وقالت لى . . .
٢٥١	نجوى التمثال	٨٧	الانتحار (١)
٢٥٤	فاتح الجحوى المصرى	٩٧	الانتحار (٢)
٢٥٨	أجنحة المدافع المصرية	١٠٦	الانتحار (٣)
	أحاديث الباشا	١١٤	الانتحار (٤)
٢٦٢	(١) ... الطماطم السياسى	١٢٢	الانتحار (٥)
٢٦٦	(٢) البلك والباشا	١٣٢	الانتحار (٦) تنمة
٢٧٠	(٣) ساكنو الثياب	١٤١	وحى القبور
٢٧٤	(٤) الأخلاق المحاربة	١٤٦	عروسٌ تزفُ إلى قبرها
٢٧٨	(٥) ... خضع يخضع	١٥١	موت أم
		١٥٦	قصة أب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣١٢	(١٣) الجمهور	٢٨٣	فلنتعصب! . . . (٦)
٣١٧	(١) المجنون	٢٨٨	(٧) وزن الماضي
٣٢٥	(٢) »	٢٩٢	(٨) المعجم السياسي
٣٣٣	(٣) »	٢٩٦	(٩) اللسان المرقع
٣٤١	(٤) »	٣٠٠	(١٠) سر القبة
٣٥٠	(٥) »	٣٠٤	(١١) سعد زغلول
٣٥٩	(٦) تنمة	٣٠٨	(١٢) حماسة الشعب

فتح القلم

« بيان كانه تنزيل من التنزيل ،
أو قبس من نور الذكر الحكيم »
سعد زغلول

كتبه
مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثالث

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

ضبطه وصممه وعلى حواشيه

محمد سعيد العربي

فَاحْيِ الْقَلَمَ

السمو الروحي الأعظم والجمال الفنى فى البلاغة النبوية^(١) *

لما أردت أن أكتب هذا الفصل وهممت به ، عرضت لى مسألة نظرت فيها أطلب جوابها ، ثم قدرت أن يكون أبلغ فلاسفة البيان فى أوربا لعهدنا هذا رجلاً يحسن العربية الميسنة ، وقد بلغ فيها مبلغ أئمتها علماً وذوقاً ، ودرس تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم درس الروح لأعمال الروح ، وتفقه فى شريعته فقه الحكمة لأسرار الحكمة ، واستوعب أحاديثه واعتبرها بفن النقد البياني الذى يبحث فى خصائص الكلام عن خصائص النفس ؛ وتمثلت أنى لقيت هذا الرجل فسألته : ما هو الجمال الفنى عندك فى بلاغة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وماذا تستخرج لك فلسفة البيان منه ؟ وما سره الذى يجتمع فيه ؟

ولم يكده يخطر لى ذلك حتى انكشف الخاطر عن وجه آخر ، وذلك أن يكون معنى هذا السؤال بعينه قد وقع فى شىء من حديث النفس لأبلغ أولئك العرب الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وقد صاحبه فطالت صحبته ، لا يفوته من كلامه فى المأثىء ، ونخالطه حتى كان له فى الإحاطة بأحوال نفسه كبعض التاريخ ، فتدبر ما عسى أن يكون سر الجمال فى بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وما مرجعه الذى يرد إليه ؟

لو دار السؤال دورتيه فى هذه السليقة العربية المحكمة التى رجعت أن تكون فلسفة تشعر وتحس ، وفى تلك الفلسفة البيانية الملهمة التى بلغت أن تكون سليقة تدرس وتفكر — لما خلص من كليتهما إلا برأى واحد تلتقى عليه حقيقة البيان من

(١) أنشأ المؤلف رحمه الله هذا البحث جواباً لرجاء جمعية الهداية الإسلامية فى بغداد سنة ١٣٥٢ هـ ؛ وانظر كتابنا « حياة الرافعى » ص ١٧٥ - ١٧٦ و ١٧٨ .

* بسطنا الكلام فى كتابنا « إعجاز القرآن » عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة ، وبقي هذا المعنى الذى تراه ، فهذه المقالة كالتكملة على ما هناك .

طرفيها : وهو أن ذلك الجمال الفنى فى بلاغته صلى الله عليه وسلم إنما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الحديدية على الدنيا وتاريخها .

وبعد فأنا فى هذه الصنمحات لأصنع شيئاً غير تفصيل هذا الجواب وشرحه ، باستخراج معانيه ، واستنباط أدلته ، والكشف عن أسرارهِ وحقائقهِ ؛ ولقد درست كلامه صلى الله عليه وسلم ، وقضيت فى ذلك أياماً أتبع السر الذى وقع فى التاريخ التفر المحبب فأخصب به وأنبت للدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة ، فكانوا ناساً إن عبيتهم بشىء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة ؛ وكانوا ناساً ، دارت الكرة الأرضية فى عدهم ثلاث دورات : واحدة حول الشمس ، وثانية حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم تركت الكلام النبوى يتكلم فى نفسى ويلهمنى ما أفصح به عنه ، فلكنانى به يقول فى صفة نفسه : إنى أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد ، فأنا أقبل من هنا وهناك ، وأذهب هناك وهنا ، مع القلوب والأنفس والحقائق ، لا مع الكلام والناس والوقت .

إن ههنا دنيا الصحراء ستلد الدنيا المتحضرة التى من ذريتها أوروبا وأمريكا ؛ فالقرآن والحديث يعملان فى حياة أهل الأرض بنور متمم لما يعملهُ نور الشمس والقمر .

وقد كان المسلمون يغزون الدنيا بأسلحة هى فى ظاهرها أسلحة المقاتلين ، ولكنها فى معانيها أسلحة الأطباء ؛ وكانوا يحملون الكتاب والسنة ، ثم مضوا إلى سبيلهم وبقى الكلام من بعدهم غازياً محارباً فى العالم كله حرب تغيير وتحويل إلى أن يدخل الإسلام على ما دخل عليه الليل * .

هذا منطق الحديث فى نفسى ، وقد كنت أقرؤه وأنا أتمثله مرسلًا بتلك الفصاحة العالية من فم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يمر إعجاز الوحي أول ما يخرج به

* فى الحديث الشريف : ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل . وكأن العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشرى . . . إذا طمست الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت آفاقها الروحانية ؛ فيجئ الإسلام فى قوة أخلاقه كشباب الفجر ، يبعث حياة النور الإنسانى بشأً جديداً ؛ وهذا هو رأينا فى مستقبل الإسلام : لابد من انحلال أوروبا وأمريكا ، كما يصفر النهار ثم يختلط ، ثم يظلم ثم تطلب الطبيعة نورها الحى من بعد .

الصوتُ البشرى إلى العالم ، فلا أرى ثَمَّ إلا أن شيئاً إلهياً عظيماً متصلاً بروح الكون كله اتصال بعض السر ببعض السر ، يتكلم بكلام إنسانى هو هذا الحديث الذى يجيء فى كلمات قوية رائعة ، فيها فى بلاغتها كالشباب الدائم .

كنت أتأمله قطعاً من البيان فأراه ينقانى إلى مثل الحالة التى أتأمل فيها روضة تتنفس على القلب ، أو منظرأ يهز جماله النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة فى الدم ، على هدوء وروح وإحساس ولذة ؛ ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية فى نفسى ، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا أنا فى ذوق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه .

وأعجب من ذلك أنى كثيراً ما أقف عند الحديث الدقيق أتعرف أسرارهِ ، فإذا هو يشرح لى ويهدينى بهديه ؛ ثم أحسه كأنما يقول لى ما يقول المعلم للاميذه : أفهمت ؟

وقفت عند قوله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا فى سفينة ، فاقسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم بمفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما شئت ! فإن أخذوا على يده نجوا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا * .

فكان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمّون أنفسهم بالمجددين ، ويتحلون ضرورياً من الأوصاف : كحرية الفكر ، والغيرة ، والإصلاح ؛ ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه ، أى بقلمه ... زاعماً أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ، ويتولاه

* روى البخارى هذا الحديث على وجه آخر ، وفيه زيادة من الجمال الفنى ؛ قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ؛ فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً .

فهذا تمثيل لحالة طائفة فى (الأسفل) تعمل لرحمة من هم فى (الأعلى) : عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتبة ولكنها باردة ، ورحمة خالصة ولكنها مهلكة ؛ ولن تجد كهذا التمثيل فى تصوير البلاد الاجتماعية والفلة الفلسفية لأناس هم عند أنفسهم أمثلة الجند والعمل والحكمة ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول هؤلاء من ألف وثلثمائة سنة : أنتم المصلحون إصلاحاً مخروقاً . . . !

كيف أراد ، موجهًا لحماقته وجوها من المعاذير والحجج ، من المدنية والفلسفة ، جاهلا أن القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يُحكم على الأعمال الأخرى ؛ بل قبل وقوعه ؛ والعقاب لا يكون على الجرم يقتضيه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجهه النية إليه ؛ فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة أو يمس من قرب أو بعد ما دامت ملجئة في بحرها ، سائرة إلى غايتها ؛ إذ كرامة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي ، وهناك لفظة (أصغر خرق) لبس لها إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر) . . .

ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه ، فهو ههنا محدود على رغم أنه محدود من الخشب والحديد تفسيرها في لغة البحر حدود الحياة والمصاحبة وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر القبر والغرق والهلاك ، فكرامة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها في الاجتماع الحماقة والغفلة والبلاهة ، وكرامة الحرية يكون من معانيها الجناية والزيغ والفساد* وعلى هذا القياس اللغوي فالقلم في

ه الزائفون في التاريخ الإسلامي كله صنفان ليس لهما ثالث ، وقد وصفهما الحديث الذي رواه البخاري بسنده إلى حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخته ؟ قال : « قوم يهدون بغير هدي ، تعرف منهم وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، « دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ، صفهم لي . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا أمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها « ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » انتهى الحديث .

فتأمل قوله « يهدون بغير هدي ، تعرف منهم وتنكر » ؛ فهؤلاء هم الذين يريدون الإصلاح للمسلمين لا من طريق الإسلام بل من طرق أخرى فيها معروفها ومنكرها ، وفيها علمها وجهلها ، وفيها عقلها وحماقتها . ولعل من هذا قوم : المدنية الأوروبية بحسناتها وسيئاتها . . . وتأمل قوله « إلى أبواب جهنم » فليست الدعوة إلى باب واحد بل إلى أبواب مختلفة لعل آخر ما فتحوها منها باب الأدب المكشوف . . .

ثم تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « ولو أن تعض بأصل شجرة » فإن معناه استمساك بما بقي على الطبيعة السليمة مما لا يستطيع أولئك أن يغيروه ولا أن يجددوه ، أي بالاستمساك ولو بأصل واحد من قديم الفضيلة والإيمان ، وبعبارة المض بأصل شجرة تمثل أبدع وأبلغ وصف لمن يلزم أصول الفضائل في هذا الزمن ، ومبلغ ما يعانيه في التمسك بفضيلته ، وهي وحدها فن كأجمل ما يبدهه مصور عبقرى .

أيدى بعض الكتاب من معانيه الفأس ، والكتاب من معانيه المخرب ، والكتابة من معانيها الحيانة ؛ قال لى الحديث : أفهمت ؟

هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى ، وتفسيره قريب ، قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قدر ما أنت معه ، إن وقفت على حد وقف ، وإن مددت مد ، وما أدبت به تأدّى ، وليس فيه ، شىء مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث القول ، وطريقة تأليف الكلام ، واستخراج وضع من وضع ، والقيام على الكلمة حتى تبيض كلمة أخرى . . . والرغبة فى تكثير سواد المعانى ، وترك اللسان يطيش طيشه اللغوى يتعلق بكل ما عرض له ، ويحذو الكلام على معانى ألفاظه ، ويحتلب له منها ويستكرهها على أغراضه ، ويطلب لصناعته من حيث أدرك وعجز ، ومن حيث كان ولم يكن ؛ إنما هو كلام قيل لتصير به المعانى إلى حقائقها ، فهو من لسان وراءه قلب ، وراءه نور ، وراءه الله جل جلاله ؛ وهو كلام فى مجموعه كأنه دنيا أصدرها صلى الله عليه وسلم عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضية فى طريقها سوى على دين الفطرة ؛ فلا تتسع لخلاف ، ولا يقع بها التنافر ؛ والخلاف والتنافر إنما يكونان من الحيوانية المختلفة بطبيعتها ، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتجترم وتأنم ، فهى نازلة إلى الشر ، والشر بعضه أسفل من بعض ؛ أما روحانية الفطرة فتسقة بطبيعتها ، لا تقبل فى ذاتها افتراقاً ولا اختلافاً ؛ إذ كان أولها علو فوق الذاتية ، وقانونها التعاون على البر والتقوى ؛ فهى صاعدة إلى الخير ، والخير بعضه أعلى من بعض .

فكلامه صلى الله عليه وسلم يجرى مجرى عمله : كله دين وتقوى وتعليم ، وكله روحانية وقوة وحياة ؛ وإنه يخيل إلى " وقد أخذت بطهره وجماله — أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياماً فى الألفاظ .

أما أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له فى نفسى روح الشريعة ونظامها وعزميتها ، فليس له إلا قوة قوة أمر نافذ لا يتخلف ، وإن له مع ذلك نسقاً هادئاً هادئاً اليقين ، مبيناً بيان الحكمة ، خالصاً خلوص السر ، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها ؛ وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجهة

بكلمات ربها ووجهه ، ليتوجه بها العالم كأنه منه مكان المحور : دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبما حوله ، روح نبي مصلح رحيم ، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانية ، وهو بالنبوة فوقها ، وهو بهذه وتلك في شمائله وطباعه مجموع إنساني عظيم لو شبه بشيء لثقل فيه : إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا .

ومن درس تاريخه صلى الله عليه وسلم وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق ، رأى نسقاً من التاريخ العجيب كنظام فلك من الأفلاك موجّه بالنور في النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهى ، فليس يمتري عاقل مميز أن هذه الحياة الشريفة ، بذلك النظام الدقيق ، في ذلك التوجه المحكم — لا يطيقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة إلا إذا كان في لحمه ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة .

ولم يكن مثله صلى الله عليه وسلم في الصبر والثبات واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي ؛ فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة ؛ فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس : تدفنهم معاني التراب وهم أحياء فوق التراب ، أو يحدّهم الجسم الإنساني من جميع جهاتهم بحدود طباعه وزغاته ؛ وبذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائماً ، ولرأس الدنيا نظام أفكاره الصحيحة .

* * *

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى آووا المبيت إلى غار فدخلوه ، فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا * ما لأفئى بي في طلب شيء يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالا ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر

• أى لا يسقى الفبق أجداً من أهله أو جماعته قبلهما :

استيقظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبرقهما ، اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ! فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى ألت بها سنةً من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ! ففعلتُ ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ! فتحرّجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ ، وتركزت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراً فأعطيتهم أجراً غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فتمسّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله ، أدّ إلىّ أجرى . فقلت له : كلُّ ما ترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ! فقلت : إني لا أستهزئ بك ! فأخذته كله فاستاقه فلم يترك شيئاً . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . انتهى الحديث .

وأنا فلست أدري ، أهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم في الإنسانية وحقوقها بكلام بين صريح لا فلسفة فيه ، يجعل ما بين الإنسان والإنسان من النية هو ما بين الإنسان وربّه من الدين ؛ أم هي الإنسانية تنطق على لسانه بهذا البيان العالى ، في شعر من شعرها ضاربة فيه الأمثال ، مشيرة فيه إلى الرموز ، واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله ، محكمة عناصر روايتها الشعرية ، محققة في بيانها المكشوف أغمض معانيها في فلسفة الحاسة الإنسانية حين تتصل بأشائها فتظهر الضرورة البشرية وتخفي الحكمة ، وفلسفة الروح حين تتصل بهذه الأشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتخفي الضرورة — مبيّنة أثر هذه وتلك في طبيعة الكون ،

مقررة أن الحقيقة الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذته ، ولا فيما ينجح من أغراضه ، ولا فيما يقنعه من منطقته ، ولا فيما يلوح من خياله ، ولا فيما ينتظم من قوانينه ؛ بل هي السمو على هذه الحقائق الكاذبة كلها ، وهي الرحمة التي تغلب على الأثرة فيسميها الناس ببراً ، والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسميها الناس عفة ، والرحمة التي تغلب على الطمع فيسميها الناس أمانة ؛ وهي في ضبط الروح لثلاث من الحواس : حاسة الدعة التي يقوم بها حظ الحمل ، وحاسة اللذة التي يقوم بها حظ الهوى ، وحاسة التملك التي يقوم بها حظ القوة .

وتزيد الإنسانية على ذلك في نسق شعورها أنها تثبت أن البر من العفة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما ؛ فمن نشأ على بر أبويه كان خالقاً أن يتحقق بالعفة والأمانة ، وأن العفة من الأمانة والبر هي مساكهما وجامعتهما في النفس ، وأن الأمانة من البر والعفة هي كمال هذه الفضائل ، وكلهن درجات لحقيقة واحدة ، غير أن بعضها أسمى من بعض في الشأن والمنزلة ، وبعضها طريق لبعض يجرسب منها سبباً منها ، وأن الرحمة الإنسانية التي هي وحدها الحقيقة الكبرى إنما هي هذا الحب ، بادئاً من الولد لأبويه ، وهو الحب الخاص ؛ ثم من الحب لحبيته ، وهو الحب الأخص ، ثم من الإنسان للإنسانية ، وهو الحب مطلقاً بعمومه وبغير أسبابه الملحجة من الحاجة والغريزة ؛ وهي درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها إلى الشيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل .

ثم إنه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة ، فما قبلها أنواع منها ؛ فبرُّ الولد أمانةُ الطبع المتأدب ، وعفة الحب أمانة القلب الكريم ، والثالثة أمانة الخلق العالی ، وهي أسماء ، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ، ودخل في أسبابها الأدب والكرم ؛ فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة للإنسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب ، أو أم ، أو قريب ؛ ودون التي هي أخص وهي إنسانية الحب .

ونرى في لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة

فى فصولها الثلاثة ، لا يقول إنه فعل ما فعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله) ، وقد تطابقوا جميعاً على هذه الكلمة ، وهى من أدق ما فى فلسفة الإنسانية فى شعرها ذلك ، فإن معناها أن الرجل فى صالح عمله إنما كان مجاهداً نفسه ، يمنعها ما تحرص عليه من حظها أو لذتها أو منفعتها ، أى منخلعاً من طبيعته الأرضية المنازعة لسواها ، المفردة بذاتها ، متحققة بالطبيعة السماوية التى لا يرحم الله عبداً إلا بها ، وهى رحمة الإنسان غيره ، أى اندماجه باستطاعته وقوته ، وإعطائه من ذات نفسه ، ومعاونته كفى أذاه .

والحديث كالنص على أن هذه الرحمة فى النفس هى الدين عند الله ، لا يصلح دينٌ بغيرها ، ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلاً من نفس تخلو منها ؛ وإذا كانت بهذه المنزلة ، وكانت أساساً ما يفرض على الإنسان من الخير والحق ، فهى من ذلك فى معنى الحديث أساس ما يصلح هذه الإنسانية من الشر والباطل ؛ وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التى ينتهى إليها كلامه صلى الله عليه وسلم ، أن تنشئة الناس على البر والعفة والأمانة للإنسانية هى وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة فى الاجتماع البشرى . وانظر كيف جعل نهاية السمو فى رحمة المال الذى يصفونه بأنه شقيق الروح ، فكأن الإنسان لا يخرج فيها لغيره من بعض ماله ، بل ينخلع من بعض روحه ؛ وهذا يقرر لك فلسفة أخرى : أن السعادة الإنسانية الصحيحة فى العطاء دون الأخذ ، وأن الزائفة هى فى الأخذ دون العطاء ؛ وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق ؛ فما المرء إلا ثمرة تنضج بموادها ، حتى إذا نضجت واحتلوت كانت كأن مظهر كمالها ومنفعتها فى الوجود أن تهب حلاوتها فإذا هى أمسكت الحلاوة على نفسها لم يكن إلا هذه الحلاوة بعينها سببٌ فى عفنها وفسادها من بعد . أفهمت ؟ . . .

وما دمنا قد وصفنا رحمة المال ، فإننا نتم الكلام فيها بهذا الحديث العجيب فى فن تمثيله وبلاغة فنه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ؛ فأما المنفق فلا ينفق إلا سمغت أو وفرت على جلده حتى تحفى بنانه وتعفر أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها ،

فهو يوسعها فلا تتسع . انتهى .

فأنت ترى ظاهر الحديث ، ولكن فنه العجيب في هذا الحديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الإنسان ، فهي من أشد الطبائع جموداً وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهوائها ، ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها ويتهى في الطبع إلى أن يجعلها لينة ، فلا تزال تمتد وتنبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير في النفس الكريمة ، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه ؛ أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر .

وقد جعل الجبة من الثدى إلى التراقي ، وهذا من أبداع ما في الحديث ؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته ، يستوى في ذلك الكريم والبخيل ، فهما على قدر سواء من هذه الناحية ؛ وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فهنا يبسط الكريم بسطه الإنساني ، أما البخيل فهو « يريد » لأنه إنسان ، والإرادة عمل عقلي لا أكثر ، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكثرة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها ، فهي مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تتسع .

ألا ترى كيف تتوجه الحجة ، وكيف تدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه ؟ وهل تحسب طبيعة البخيل في دقاتها النفسية لو هي نطقت - باللغة - من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه ؟ وهو بعد وصف لو نقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعاً ، وإمكان في جميعها كالإنسان نفسه : لا يختلف تركيبه ، فإن يكون بثلاثة أعين ، لافي بلاد شكسير ولا في بلاد الزنوج .

إن كلام نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستره حينئذ كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستره في شرحه الفلسفي كالأزهار الناضرة : حياتها بشاشتها في النور ؛ وتعرفه إنسانية قائمة تصحح بها أغلاط الزمن في أهله ، وأغلاط الناس في زمنهم ؛ وتجده يرف على البشرية المسكينة

بحنان كحنان الأمّ على أطفالها ، والناس الآن كالأطفال غابت أمهم ، فهم في تنافر صبيانى . . . وما الأم بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنظام لعبثهم ؛ وبالجمله فحنان قلبها الكبير هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة .

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانية ، وأن الأديب التام الأداة هو الإنسان الكونى ، وغيره هو الإنسان فقط ، وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار - وأن الأديب مكلف تصحيح النفس الإنسانية ونفى التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تنابع الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق * .

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي صلى الله عليه وسلم على ما بيّنا وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذى نعيش فيه ، ونظرت إلى ألفاظه ومعانيه ، واستبرأت ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبّهناك إليه من التأويل الذى مر بك ، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك إلا بخاصة فيها ، وأن سر جمالها في خاصتها - إذا جمعت ذلك لم ترمذهباً عن الإقرار بأن النبي صلى الله عليه وسلم كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ، فهو أعظم أديب ؛ لأن فنه الأدبى أعظم فن يحقق للإنسانية حياة أخلاقها ، وهو بكل ذلك أعظم إنسان . صلى الله عليه وسلم .

* * *

فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثر تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التى يحتاج إليها الوجود الروحانى على هذه الأرض ، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان ، فكل عصر واجد فيه ما يقال له ،

* نشر هذا المقال في مقتطف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعد متمماً لفلسفة هذا الفصل ؛ وسنجمع كل مقالاتنا في كتاب يصدر إن شاء الله في آخر صيف هذا العام ؟ قلت : وأحسبه كان يعنى كتابه « قول معروف » وقد استغنى عنه بهذا الكتاب « وحى القلم » وقد نشرنا هذه المقالة في هذا الجزء وانظر ص ١٦٩ و ٢٣٤ « حياة الرافعى » .

وهو بذلك نبوة لا تنقضى ، وهو حي بالحياة ذاتها ، وكأنما هولون على وجه منها كما ترى البياض مثلاً هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشرى . . .

فإذا نظرت في هذا الفن فانظره في حديثه ، وفي عمله ، وفي الدنيا التي ألفتها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام ، ورد كل ما تدبرته من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض ؛ فلتعلمن حينئذ أن كل بليغ هو شمع مضيئة صنعت لها مادة النور نوراً وجمالاً ، بجانب هذه الشمس التي خلقت فيها مادة النور نوراً وجمالاً وحياة وقوة ؛ هناك نور لدى عينين ، وهنا النور لكل ذي عينين ؛ وذاك يتخايل كالخلم ، وهذا يفصح كالحقيقة ؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دائية ، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا ؛ والأول نور بلا روح ، والثاني هو روح النور .

تلك في رأينا هي الطريقة التي كان يفهم بها أصحابه صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم الشاعر نور القمر في ليلة صيف بمعان من الزمان والمكان ، ومن النفس والحالة ، ومن الهيئة والشكل ، ومن العين والفكر ، ومن السماء والأرض ؛ ففيه النور وزيادة ؛ أي الحقيقة وما ترتفع به على نفسها ؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجاباً وجباً وانقياداً وطاعة حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم ، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ ، وأصبحوا مصرفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلتقي فيها بتأثير السماء فيُغسل في سحب عالية فلا يكون فيها كما يريد الناس ، بل كما يريد الله ؛ ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأياً ولا هوى ، وكأنما وضع لها هذا الدين حرساً على كل سمع وعلى كل بصر ؛ وبالجملة فأولئك قوم كأنما تناولهم النى صلى الله عليه وسلم فأفرغهم ثم ملأهم ، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية في التاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة .

وناهيك من رجال يمثل لهم بهذا المثل الذي يضربه لهم في الإيمان ليلغوه

أو يقاربوه ؛ فعن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، قلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فىمن قبلكم يُحفر له فى الأرض فيُجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه !

فانظر يا هذا ، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضاً فنزلت فى عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين يقوتها لما وُضعت إلا هذا الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المنشار فى عظم الإنسان الحى ولحمه . وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب ، ولكن له باطناً أعجب من ظاهره ، وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان ، فإنما يريد صلى الله عليه وسلم أن الحديد لا يأكل ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظمًا ولحمًا وعصبًا ، بل هو حديد يأكل حديدًا مثله أو أشد منه ، فإن للروح المؤمنة المسلطة على جسمها قوةً تصنع هذه المعجزة ، فيمر الحديد فى العظم والاعجم والعصب يسلبها الحياة ، ولكنها تسلبه شدته وجسده وصبره !

* * *

وكل ما جاء من التمثيل فى كلامه صلى الله عليه وسلم ينطوى فيه من إبداع الفن البيانى وإعجازه ما يفوت حدود البلاغة ، حتى لا تشك إذا أنت تدبرته بحقه من النظر والعلم أن بلاغته إنما هى شىء كبلاغة الحياة فى الحى : هى البلاغة ولكنها أبدع مما هى ، لأنها الحياة أيضًا .

وأنت خير أن هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم كانت تأخذه عند نزول الوحي عليه أحوالٌ وُصفت فى كتب الحديث : قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وفى حديث آخر عنها قالت : فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر

عنه مثل الجمال من العرق في يوم شات . وفي حديث زيد بن ثابت : فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفخذه على فخذي ، فنقلت على حتى خفت أن تُرض فخذي . وفي حديث يعلى بن أمية حين قال لعمر : أرى النبي صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه - : فأشار عمر إلى ، فجئت وعلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظلم به فأدخلت رأسي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمر الوجه وهو يغط ، أي يردد نفسه من شدة ثقل الوحي . فهذه كلها أحوال تصف عمل الدماغ بكل ما فيه من جهد القوى العصبية ؛ ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ويتركها لوعى الروح وحدها ، لا يشاركها في هذا الوعي فكر ولا هاجس ، ولا يتصل به شيء من حياة الحى ، فيتحقق للنبي صلى الله عليه وسلم وجود آخر غير وجوده المحدود بحسبه وطباعه وذياه ؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب ؛ وبذلك يتلقى عن روح الكون ، ثم يفصم عنه وقد وعى ما أوحى إليه . وما وصفه زيد بن ثابت من أن فخذه كادت ترض - برهان قاطع على أن روحه صلى الله عليه وسلم تنسرح من جسمه ساعة الوحي فيثقل الجسم ، لأنه إنما يخف بالروح وتبقى وظائف الحياة عاملة أعمالها بعسر وبطء ، لاتصالها بشعاع من الروح دون الروح بجملتها ؛ ولسنا هنا بصدد الكلام عن الوحي ، فله موضع إن شاء الله في كتابنا (أسرار الإعجاز) * وإنما نريد أن ندلل على أن هذه التهيئة الإلهية لذلك الجهاز العصبي لها أثرها العظيم في فن بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وبها امتاز عن كل بلغاء الدنيا ؛ فإن الملهم من أفذاذ العبقريين على هذه الأرض إنما يبلغ ما يبلغه ببعض هذا الذى رأيت ، وفي بعض هذا أبدع ما ورثت الدنيا من فنون البيان ، وكأن في الدماغ مادة في موضع منه يميز بها من تختارهم السماء لحكمتها وإلهامها ، وإذا كان فن العبقريين هو أسمى الكلام الإنسانى ، لما خصصوا به من هذه التهيئة ، فإن فنه صلى الله عليه وسلم يكون ولا جرم من باب الأكبر مما هو أكبر في إلهام الإنسانية كلها .

ولهذه القوة النادرة كان ببنائه قوياً على مزج معانيه بالنفس بما فيه من صنعة الحياة ، وإنما فلسفة البيان الفنى أن تمتد الحياة من النفس إلى اللفظ ، فتصنع فيه صنعها ،

فتفصل العبارة الفنية عن كاتبها أو قائلها وهي قطعة من كلامه ، لتسجيل عند قارئها أو سامعها قطعة من الحياة في صورة من صور الإدراك ؛ فالبيان الفني هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثته في مواضيع غير مواضعه ، وخلقه خلقاً آخر في النفس الإنسانية ؛ وبذلك يؤول قوله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً . جعل نوعاً من البيان هو السحر ، لا البيان كله ، فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوربية اليوم (بالبيان الفني) ، كأنه قال : إن من البيان فنّاً هو سحر من عمل النفس في اللغة تغيير به الأشياء ، وله عجب السحر . وتأثيره وتصرّفه ؛ وهذا معنى لم يتنبه إليه أحد ، ولا يُذكر معه كل ما قالوه في تفسير الحديث ، وبذلك التأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسى حقيقة فلسفية للفن .

ومن أثر تلك القوة أيضاً ما تراه من شدة الوضوح في كلامه صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثم الحقائق هي تختار ألفاظها اللغوية على منازلتها ؛ وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها ، والكلمة الصادقة تنطق مرة واحدة ؛ فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريخة منكشفة عن معناها المضىء كأنما ألقى فيها النور .

وهو معلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف ولا يتعمّل ، ولم يكتب ولم يؤلف ، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان ، أو كأن هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عاملة فيه بقواها الدائبة الثابتة ، ففنها الجميل هو التركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشجر مثلاً كاسيا من ورقه وزهره ؛ فأنت منه بإزاء عمل جميل لأنك بإزاء حقيقة طبيعية قد انفردت في ذاتها ، ومعنى انفرادها في ذاتها أنها كذلك هي ، فليس فيها موضع لشيء غير ما هو فيها ؛ ثم لا تنس أن النبوة أكبر السبب في ذلك الوضوح البياني العجيب ؛ فإن الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسان إلا وهي غنية عنه ؛ ولعل غموض بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في الطبيعة . . . ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة أحياناً هو نقض

معناها* إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له ويشقّقون فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ ، فههنا البديع اللفظي ؛ وهناك « البديع الفكري » ، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة .

ومتى كان النبي قسمًا من الحياة ، بل مادة لمعانيتها الجديدة ، فلن يكون بيانه إلا على ما وصفنا لك جمالا ، ووضوحًا ومنفعة ودقة وسموًّا بقدر ذلك كله .

* * *

وهنا معنى نريد أن ننبه إليه ونتكلم في سره وحقيقته ، فإنك تقرّ ما جُمع من الكلام النبوي فلا تصيب فيه ما تصيبه في بلاغة أدباء العالم مما فُتّه الكلام في المرأة ، والحب : وجمال الطبيعة ، وهو في بلاغة الناس كالقلب في الجسم : لا تخلو منه ولا تقوم إلا به ، حتى تجد الكلام في المرأة وحدها شطر الأدب الإنساني ، كما أن المرأة هي شطر الإنسانية ، ولا يُعرف له صلى الله عليه وسلم في هذه الأغراض إلا كلماتٌ بيانية جاءت بما يفوت الوصف من الجمال والدقة ، متناهية في الحسن ، طاهرة في الدلالة ، يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر : كقوله في النساء : « رفقا بالتواير » ، وقوله لأسامة بن زيد ، وقد كساه قُبْطية* فكساها امرأته « أخاف أن تصف حجم عظامها » . قال الشريف الرضي في شرح هذه الكلمة : وهذه استعارة ، والمراد أن القُبْطية برقتها تلصق بالجسم ، فتبين حجم الثديين ، والرادفتين ، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء ، حتى تكون كالظاهرة للحظة ، والممكنة للمسّ ، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خلفها ، والخبرة عما استتر بها ؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رى عمر بن الخطاب في قوله : « إياكم ولبس القُبْطى » ، فإنها لا تشفّ تصف . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عذرة هذا المعنى ، ومن تبعه فلمّا سلك فجه .

* من ذلك قول جيته شاعر الألمان : إن الكل باطل ، مناه أن الكل ليس بباطل . ولعل هذا في « البديع الفكري » من باب أكل النبي للإثبات . . .

« بضم الكاف ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وضمو قافه فرقا بينه وبين ما ينسب إلى القبط من غير الثياب .

قلنا : وهذا كلام حسن ، ولكنَّ في عبارة الحديث سرّاً هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد إليه الشريف ، على أنه هو حقيقة الفن في هذه الكلمة بخاصتها ، ولا نظن أن بليغاً من بلغاء العالم يتأقّ لمثله ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل : أخاف أن تصف حجم أعضائها ، بل قال : حجم عظامها ، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب ، إذ ذكر « أعضاء » المرأة في هذا السياق ، وبهذا المعرض ، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث ، ولفظة « الأعضاء » تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضى في شرحه ، وهي توفى إلى صور أخرى من ورائها ، فتنزّه النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوى على هذه المعانى السافرة . . . وجاء بكلمة « العظام » ، لأنها اللفظة الطبيعية المبرّاة من كل نزعة ، لا تقبل أن تلتوى ، ولا تثير معنى ، ولا تحمل غرضاً ؛ إذ تكون في الحى والميت ، بل هي بهذا أخص ؛ وفي الجميل والقبيح ، بل هي هنا أليق ؛ وفي الشباب والحرم ، بل هي في هذا أوضح . والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالجهاز على ما ترى ، والحقيقة هي ما علمت .

ومن كلماته في الوصف الطبيعى قوله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر أوقات الصلاة : « العصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضى كراهل الليل » وكواهل الليل : أوائله وفروعه المتقدمة منه ، كالذى يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بعض الامتداد ؛ وقوله وقد سأله رجل متى يصلى العشاء الآخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا ملأ الليل بطن كل واد » ؛ وقوله : « إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع » ؛ وقوله : « إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع ، فقال له : ألسْتَ فيما شئت ؟ قال : بلى ، ولكنى أحب أن أزرع . قال : فَبَسَّـرَ فبادر الطرفَ نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال » . وقوله : « بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً ، فشرب منها ثم خرج ، فإذا بكنب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ! فلأُ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رَمَى فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له . قالوا يا رسول الله ،

وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : « في كل كبد رطبة أجر » .

فهذا ونحوه من الفن البديع النادر ، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه صلى الله عليه وسلم إلا في مثل ما رأيت ، فلا يراد منه استجلاب العبارة ، ولا صناعة الخيال ، فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خلوا البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب ، دليل على ما ينكره أو يستجفيه ، ويقول : بدادة وسداجة ونحو ذلك مما تشبهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا ؛ وإنما انتفى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لانتفاء الشعر عنه وكونه لا ينبغي له كما بسطناه في موضعه* ؛ فعمله أن يهدي الإنسانية لا أن يزين لها ، وأن يدها على ما يجب في العمل ، لا ما يحسن في صناعة الكلام ، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به ، لا إلى ما تتخيله لتلهو به . والخيال هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال والتأثر به فقط ، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقة ثابتة ، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة .

ثم هو صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة ليستمل منها ؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليملي فيها ، وقد كانت آخر ابتسامته له في في الدنيا ابتسامته للصلاة** يتهلل لطهارة النفس المؤمنة وجمالها قائمة بين يدي خالقها ، منسكباً في طهارتها روح النور ، وكل إنسان إنما يبدو الكون في عينه على ما يرى مما يشبه ما في نفسه ، فكل ما رآه المصلي الخاشع في صلاته*** يبدو له كأنه يصلي في ضرب من العبادة على نحو من الدين ، وكل ما رآه السكران في سكره يكاد يراه متخبطاً يعربد ما يتماسك !

• كتابنا إعجاز القرآن .

• عن أنس أن أبا بكر كان يصلي بهم في وجع النبي صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجر ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك ، فهمنا أن نفتن من الفرح بروية النبي صلى الله عليه وسلم ، فنكس أبو بكر على عقبه ليصل الصف ، وظن أن النبي صلى الله عليه وسلم خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي صلى الله عليه وسلم أن أتوا صلاتكم ، وأرخى الستر ، فتوفى من يومه .

••• من الكلمات الجميلة الدقيقة في نحو هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : لا تزالون في صلاة ما انتظرت الصلاة !

ثم إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية ، إنما هو باب من الأحلام ؛ إذ لا بد فيه من عيني شاعر ، أو نظرة عاشق ؛ وهنا نبي يوحى إليه ، فلا موضع للخيال في أمره ، إلا ما كان تمثيلاً يراد به تقوية الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة ، كما مر بك من أمثلته ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه ! » وهذا كلام أبلغ ما أنت واجد من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق ، كأنه حاسة من النور كُبت في شعورها ، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ ، كأنه حاسة من التراب . . .

ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكره ذنوبه — أن يحس بحركة جبل يهيم أن ينقلع فيميل عليه ، أما الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه فإذا هي في خياله نقط سود تمر مرور الذباب ، ليس منه إلا الحس به ، كما يحس من يضرب على أنفه برجل ذبابة . . . وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه ، وذلك منتهى الجمال في التصوير ، لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألح ، فإذا وقع على قصبه الأنف لم يكديقف ومر مروره .

الكون في نظر النبي صلى الله عليه وسلم آية الحكمة لا آية الفن ، ومنظر المستيقنين لا منظر المتخيلين ، ومادة العبودية لله لا مادة التأله للإنسان ، وبذلك حرّم الإسلام أكره أشياء لا يكون الفن بغيرها فناً ، في ضروب من الشعر والتصوير والموسيقا والحب ، لأنه إنما ينظر للإنسان واحداً وجمعاً ، وحاضراً وآتياً ؛ وواجباً ومنفعة ، ولذة وألماً ؛ وهذه كلها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد ، على حين أن الفن لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق ، وأساس الدين حظ الجماعة وقودها ، وأساس الفن الفرد وحرسته ؛ وهذه الحياة لا تبدو في حالة تركيب وانتظام إلا إذا كانت للكل ، فإذا كانت للفرد ظهرت في هيئة انحلال وانتقاض ، وأصبحت في الكون كله كأنها عمر إنسان واحد .

ثم إن للفن ألواناً لا بد منها لتصويره الجميل الذي تعجب به النفس ، والشيطان هو اللون الأحمر فيها . . . أى هو أشدها زهواً وإشراقاً وجمالاً في

التصوير الفنى لكل ما فى المرأة والحب والجمال وشهوات النفس ، ولسنا ننكر أن الحياة القوية حين تمتاز بها هذه الفنون تكسب مرحاً ونشاطاً ويكون لها رونق ، وفيها متاع ؛ ولكن الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنها تحتسى خمرها . . . فلها بعد من عاقبة هذه الفنون شبيه بما يكون للجسم القوى من عاقبة الخمر إذا تغلغت الخمر فى شباب كبده وأحاطت رطبها يابسة ، كما وقع فى أطوار كثيرة من تاريخ الأمم ؛ فليس الاعتبار فى هذا التشبيه بما يعرض من تأثير الساعة الزائلة بأفراحها وفن حياتها ، بل الشأن للعاقبة المحتومة متى جاءت ساعتها الباقية بأحزانها وفن هلاكها ، فالإسلام فيما حرّم وكره من ذلك لم يزد على أن أراد للحياة أن تحيا ، لأنه لا يقر صورة من صور انتحارها .

ومن كان أكبر عمله إنشاء الحقائق الإنسانية وتقريرها شريعة وعاطفة وأعمالاً ، فلا جرم كان فنه غير الذى أكبر عمله تمويه تلك الحقائق وزخرفتها ليقع الإحساس بها على غير وجهها ، فتخف بالواقع منها على النفس خفة الكذب فى ساعة تصديقه وهذا هو أكبر عمل الشعر .

وهنا سر دقيق لا يتم كلامنا إلا بشرحه ، لنقطع القول فى هذا المعنى ، فيظهر حقه من باطله : قلنا آنفاً إن النبي صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة يستمل منها ، بل هو نبي مرسى متصل بصدورها الأزل ليملى ذبها . ومعنى هذا أنه لا يعرض له من زيف النفس ما يعرض لغيره من الناس ، فأحكم حكماء الدنيا لا يستطيع أن يتبين جزءاً صغيراً من الكون على حقيقته ؛ إذ كانت حواس الجسم غير مهياة لذلك ، ففهم جزء من الكون فهماً صادقاً جزءاً لا يتم إلا بفهم الكون بأجمعه ، فهو كله ذرة مكبرة إلى ما لا ينتهى ولا يحده ، وليست النبوة شيئاً غير الاتصال بالسر .

والحاضر الذى يكون فى إنسان من الناس ، هو حاضر ليس غير ، لأنه يتحول ويفنى ، فهو من الزيف الذى يعترى النفس ، ومنه كل أغراض الحياة البشرية الفانية ، ولهذا كان طابع الله على نبيينا صلى الله عليه وسلم هو تجريده من زيف الهوى وسرف الطبيعة ، فهو من الناس ولكنه متخلق بأخلاق الله سبحانه ، وله فى هذا الباب ما ليس لأحد ولا يطيقه أحد ، ويجب على من يقرأ سيرته وشماله

وحديثه أن يبحث دائماً عن طابع الله في كل شيء منها ، فإنه سيري حينئذ كأنه يدرسها مع الملائكة لا مع الناس ، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع تحقيق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان إنساناً ، وكان أيضاً حركة في تقدم الإنسانية ؛ وأن من معجزاته أنه أطلق في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها . وأن كل أموره صلى الله عليه وسلم موضوعة وضعا إلهياً كأنها صفات كونها الله وعلقها في التاريخ لمعانى الحياة ، تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة .

إن الشهوات والمصالح إنما هي حصر النفس في جانب من الشعور محدود بلذات وهموم وأحاسيس تجعل غرض الإنسان في الإنسان نفسه ، فهو كما يملأ معدته ويتأق في الاختيار لها ، يريد من كل ذلك أن يملأ شخصه على هذه الطريقة بعينها ، طريقة إشباع معدته . . . وبهذا تسخر منه حقائق الكون ، لأنها لا تحد بشخص ، ولا تنحصر في أحد ، وكل من كانت حدوده الإنسانية جسمه ولذات جسمه ، فهو في مقدار هذا الكون كالميت المحدود من الأرض كلها بقبره وتراب قبره ؛ وإنه ليجد جسمه وأكاذيب الطبيعة عليه ، ولكنه إن يجد الروح وحقائقها ؛ وإذا لم يجد هذه فلن يعرف الكون وأسراره ؛ وإذا فقد هذا فهو الحاضر الضيق المشوه المكذوب ، ومن ثم ففنه شهوة إحساسه وإن كان مخدوعاً ، وشهوة نظره وإن كان ملبساً عليه ، وشهوة خياله ، وإن كان التمويه والزور والحاضر الضيق المشوه المكذوب الخادع هو المسمى في لغة القرآن والحديث « بالدنيا » ؛ فإذا اتسع الإنسان لروحه وأدرك حقيقتها ، ووعى ما بينها وبين الكون ؛ وأخذ يحقق هذه الروح السماوية في أعماله ، وتخطى حدود جسمه إلى فكرة الخلود ؛ فهذا كله هو المسمى في لغة القرآن والحديث « بالآخرة » ؛ فهما كلمتان في متهى الإبداع من الفن والفلسفة ؛ وعلى ذلك يؤول قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته : من كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ؛ ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتبت له .

وأنت إذا فسرته هذه الكلمات بما وصفنا لك ووجهتها على ذلك التأويل ،

رأيت عجائب معانيها لا تنقضي ، وأدركت سر قوله صلى الله عليه وسلم :
« إني على علم من الله علمته » فأتساع الذات الإنسانية ومادتها لحقائق
الكون ، يجعل الإنسان كالكون نفسه ، مجتمعاً غير مفرق على هموم الحياة ؛
ويجعل الغنى معنى لا مادة ؛ ولو امتلك إنسان من الناس كل ما طلعت عليه
الشمس ، وكان له كنز في المشرق وكنز في المغرب ، لما بلغ شيئاً قايلاً من الذة
هذا المعنى في قلبه ؛ وفي هذه الحالة تصبح الدنيا العريضة التي يهلك الناس في
تحصيلها وليست إلا ضرورة صغيرة ، قد تكون في ثوب ولقيات ونحوها ، لا خطر
له ، وهذا هو إرغامها وهي مالكة الملوك ، فإذا ضاق الإنسان عن روجه أصبحت
النفس كالمنخل يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيمسكه كاه ولا يمشك منه
شيئاً ، ووضع بين عينيها معنى الفقر ، فهي تعمل أبداً لتمتلئ ، ولا تمتلئ أبداً ؛
وإذا كان المنخل متخذاً على الطريقة التي صنع بها ، ففقره ولا جرم معاق عليه من
ذات تركيبه . « أفهمت ؟ »

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم متساوياً مع الحقيقة ، متصلاً بها ، محدوداً
بربه لا بنفسه ، كان لذلك خارجاً من حاضر ما نحن فيه ، ممتداً بمعناه الإنساني
الكامل إلى المستقبل الذي وراء الحياة ، فما نحصره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء
لا يلتفت هو إليه بطبيعته ؛ ومن ذلك أوصاف الغنى والحياة والتعيم والمتاع والجمال
والمطعم والمشرب ، وما داخل الطبيعة من مثل معانيها ، وما جرى هذا المجرى ، فهذا
كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطعم فيه ؛ إذ كان ضعف إدراكهم
وضيق وعيهم مما يبدع لهم أكاذيب الخيال ، فتجىء من ذلك أوصافهم وفنون
أوصافهم ؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه
والسمو عليه ؛ إذ كان لا ينظر بطبيعة روجه العظيمة إلا أعلى النظريين وأطهرهما ،
فأخبر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أول إدراكه هو الطبيعة والحقيقة ، وما تعجز عنه
الإنسانية تبدأ منه النبوة .

وعلى هذا فإن من أقوى البراهين على كماله صلى الله عليه وسلم ونبوته واتساع
روحه ونفاذ إدراكه لحقائق الكون — أنه لم يتبسط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء ، ولم
بأخذ مأخذهم فيها ؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين .

وفي قانون الحقيقة أن الأشياء سى كل الأشياء وهى كما هى ، أما فى قانون الكذب فالأشياء كلها هى ما تختاره أنت منها ، وكما تختاره .

بحسب الدنيا من جمال فنه صلى الله عليه وسلم ما يضيف إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة ، ويدفع الإنسانية فى طريقها الواحد الذى هو بين الأب والأم ، طريق الأخ إلى أخيه ، يكون فى الدنيا بين الرجلين كما هو فى الدّم بين القليلين رحمة ومودة ؛ وبحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدى الإنسان إلى حقيقة نفسه ؛ فيقره فى الحقيقى من وجوده الإنسانى ؛ ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب ؛ يكبر بها ، ثم يكبر ، ثم لا يزال يكبر حتى يتسع الحقيقة هذه الكلمة الكبرى : الله أكبر .

قرآن الفجر^(١)

كنتُ في العاشرة من سنّتي وقد جمعتُ القرآنَ كلّهُ حفظاً وجوّدتهُ بأحكام القراءة ؛ وازحجَ يومئذ في مدينة (دمنهوور) عاصمة البحيرة ؛ وكان أبى رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم ، ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان ؛ يدخل المسجد فلا يَبْرَحُهُ إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق ، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ، ويُطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ويغير الحياة في عمله وفكره ، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه ، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له ، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس ، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير ؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء ، المدعو إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية ، المنحني في ركوعه ليخضع لغير المعاني الدلية ، الساجد بين يدي ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم .

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله ؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة ، تُشعر القلب البشريّ في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة . . .

* * *

وذهبتُ ليلةً فبتُ عند أبى في المسجد ؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسّحور ، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته ؛ فلما كان السّحرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهم لك الحمد ؛ أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت بهاءُ السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت زينُ السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت قيامُ السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ؛ أنت الحق ومنك الحق . . . إلى آخر الدعاء .

(١) أنشأها قبل موته بثلاثة أشهر ، فاعجب له يذكر أوليته وهو على أبواب آخرته . . . !

وأقبل الناس يتتابون المسجد ، فأنحدرنا من تلك العليسية التي يسمونها الدُّمكة (جلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجدُ في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت ، في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبعث بصيصاً كأنه بعضُ معاني الضوء لا الضوء نفسه ؛ فكانت هذه القناديل والظلامُ يرتجح حولها ، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو ، فلا تكشف الليلَ ولكن تكشف أسرارها الجميلة ، وتبدو في الظلمة كأنها تفسيرٌ ضعيف لمعنى غامض يؤمى إليه ولا يُبَيِّنُهُ ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوءها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرٌّ يشف عن سر .

وكان لها منظر كمنظر النجوم يُتم جمالَ الليل بإلقاءه الشعَل في أطرافه العليا وإلباس الظلام زينتَه النورانية ؛ فكان الجالسُ في المسجد وقت السَّحَر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس في المكان بقايا أحلام ، ويسرى حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد ؛ وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روحُ المسجد ، فتعتربه حالة روحانية يستكين فيها للتمدَد هادئاً وادعماً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً في حواسه ، منفرداً بصفاته ، منعكساً عليه نورُ قلبه ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغيبَس عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء ، شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنصَّر من يُبس ، ويرقَّ من غلظة . وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال ؛ فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور السماوي بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر .

* * *

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطقها من الفلك ، وتلك السَّرجُ ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون عليهم وقارُ أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوءُ قلبه وقد استبهمت

الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس ، فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه ، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل .

لا أنسى أبداً تلك الساعة. وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم ، يشق سُدُفَةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يرتل هذه الآيات من آخر سورة النحل :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ؛ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْسِكُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

* * *

وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المطرب ؛ فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمرى وهو ينوح في أنغامه ، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسر الالذة الموسيقية بأبدع مما فسر هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر ، فاهتزَّ يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد .

كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة ، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالخزن اعتراه الفرح على فجأة ؛ يصبح الصبيحة ترجح في الجو وفي النفس ، وتتردد في المكان وفي القلب ، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي ، يلمس الروح فيرفض عليها بمثل الندى ، فإذا هي ترف رفيفاً ، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل .

وشمعتنا القرآن غَضًّا طرياً كأول ما نزل به الوحي ، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم ، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه .

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه ، وبدأ الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور !

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية .

أما الطفل الذي كان في يومئذ فكأنما دُعِيَ بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يحيى فيه من بعد ؛ فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت : واصبر وما صبرك إلا بالله !

اللغة والدين والعادات^(١)

باعتبارها من مقومات الاستقلال

ليست حقيقة الأمة في هذا الظاهر الذى يبدو من شعب مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه ؛ ولكن تلك الحقيقة هى الكائن الروحي المكتنن في الشعب ، الخالص له من طبيعته ، المقصور عليه في تركيبه كعصير الشجرة : لا يرى عمله والشجرة كلها هى عمله .

وهذا الكائن الروحي هو الصورة الكبرى للنسب في ذوى الوشيجة من الأفراد ، بيد أنه يحقق في الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض ؛ فيجعل للأمة شأن الأسرة ، ويخلق في الوطن معنى الدار ، ويوجد في الاختلاف نزعة التشابه ، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة ، ويبدع للأمة شخصيتها المتميزة ، ويوجب لهذه الشخصية بإزاء غيرها قانون التناصر والحمية ؛ إذ يجعل الخواطر مشتركة ، والدواعى مستوية ، والنوازع متآزرة ؛ فتجتمع الأمة كلها على الرأي : تتساند له بقواها ويشد بعضها بعضاً فيه ؛ وبهذا كانه يكون روح الأمة قد وضع في كلمة الأمة معناها .

والخلق القوى الذى يئسسه للأمة كائنها الروحي ، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات ، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه ، إذ يعمل في الحيز الباطن من وراء الشعور ، متسلطاً على الفكر ، مُصَرِّفاً لبواعث النفس ؛ فهو وحده الذى يملأ الحى بنوع حياته ، وهو طابع الزمن على الأمم ، وكأنه على التحقيق وضع الأجداد علامتهم الخاصة على ذريتهم .

* * *

أما اللغة فهى صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها ،

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة في عهد على ماهر (باشا) سنة ١٩٣٦ ، وانظر ص ١٣١

« حياة الرافعي » .

وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه ؛ فهي قوميةُ الفكر ، تتحدُّ بها الأمةُ في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة ؛ والدقةُ في تركيب اللغة دليل على دقة الملتكات في أهلها ، وعمقها هو عمقُ الروح ودليلُ العيس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلايل ، وكثرةُ مشتقاتها برهانٌ على نزعة الحرية وطماحيها ، فإن رُوح الاستعداد ضيق لا يتسع ، ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة .

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة ، وكانت أمتها حريصة عليها ، ناهضةً بها ، متسعةً فيها ، مكبرةً شأنها ، فما يأتي ذلك إلا من رُوح التسلط في شعبها والمطابقة بين طبيعته وعمل طبيعته ، وكونه سيد أمره ؛ وتحقيق وجوده ، ومستعمل قوته ، والآخذ بحقه ؛ فأما إذا كان منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية ، وإصغار أمرها ، وتهوين خطرها ، وإثارتها بالحب والإكبار ؛ فهذا شعبٌ خادم لا مخدوم ، تابع لا متبوع ، ضعيفٌ عن تكاليف السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه ، مجتزئٌ ببعض حقه ، مكشَفٌ بضرورات العيش ، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره الحرمان وأقله للفائدة التي هي كالحرمان .

لا جرم كانت لغةُ الأمة هي الهدف الأول للمستعميرين ؛ فلن يتحوَّل الشعبُ أول ما يتحوَّل إلا من لغته ؛ إذ يكون منشأ التحوُّل من أفكاره وعواطفه وآماله ، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ، ورجعت قوميته صورةً محفوظةً في التاريخ ، لا صورةً محققةً في وجوده ؛ فليس كاللغة نسبٌ للعاطفة والفكر ؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم نشأ منهم ناشئ على لغة ، ونشأ الثاني على أخرى ، والثالث على لغةٍ ثالثة ، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء .

وما ذلَّت لغةُ شعب إلا ذلَّ ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار ؛ ومن هذا يفرضُ الأجنبيُّ المستعمرُ لغته فرضاً على الأمة المستعمرة ، ويركبهم بها ، ويشعرهم عظمته فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها ؛ فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحد : أما الأولُ فجنسُ لغتهم في لغته سيجناً مؤبداً ؛ وسى القلم - ثالث

وأما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل مَحْوًّا ونسيانًا ؛ وأما الثالث فتقييدُ مستقبلهم فى الأغلالِ التى يصنعونها ؛ فأمرهم من بعدها لأمره تَسَبَّع .

والذين يتعلّقون اللغاتِ الأجنبية يتزعّون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق ، إن لم تكن عصبيتُهم ؛ لغتهم قويةٌ مُستَحْكَمَةٌ من قِبَلِ الدين أو القومية ؛ فتراهم إذا وهَّنتْ فيهم هذه العصبيةُ يخجلون من قوميتهم ، ويتبرّون من سلفهم وينسلخون من تاريخهم ، وتقومُ بأنفسهم الكراهةُ للغتهم وآدابِ لغتهم ؛ ولقومهم وأشياءِ قومهم ؛ فلا يستطيعُ وطنُهم أن يوحى إليهم أسرارَ روحه ؛ إذ لا يوافق منهم استجابة فى الطبيعة ، وينقادون بالحبِّ لغيره ، فيتسجأ وزونه وهم فيه ، ويترثون دماءَهم من أهلهم ، ثم تكونُ العواطفُ فى هذه الدماءِ للأجنبي ؛ ومن ثَمَّ تُصْبِحُ عندهم قيمةُ الأشياءِ بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيالِ المتوهم فيها لا بالحقيقةِ التى تحملها ؛ فيكونُ شىءُ الأجنبي فى مذهبهم أجملَ وأثمنَ ، لأن إليه الميلَ وفيه الإكبارُ والإعظام ؛ وقد يكون الوطنى مثله أو أجملَ منه ، بسببِ أنه فقدَ الميلَ ، فضعفتِ صِلَتُهُ بالنفس ، فعادت كلُّ مميّزاته فضعفت لا تميزُهُ .

وأعجبُ من هذا فى أمرهم ، أن أشياءَ الأجنبي لا تحملُ معانيها الساحرةَ فى نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةً أسماءَها الأجنبية ، فإن سُمِّيَ الأجنبيُّ بلغتهم القوميةِ نقصَ معناه عندهم وتَصَاغَرَ وظهت فيه ذلة . . . وما ذاكُ إلا صِغَرُ نفوسهم وذِلَّتُها ، إذ لا يَنَسَخُون لقوميتهم فلا يُلْهِمُهُم الحرفُ من لغتهم ما يُلْهِمُهُم الحرفُ الأجنبيُّ .

والشرق مبتلى بهذه العلة ، ومنها جاءت مَسْأَلَةٌ أو أكثرها ؛ وليس فى العالم أمةٌ عزيزةٌ الجانب تقدّم لغةَ غيرها على لغة نفسها ، وبهذا لا يعرفون للأشياءِ الأجنبية موضعًا إلا من وراء حُدُودِ الأشياءِ الوطنية ؛ ولو أخذنا نحن الشرقيين بهذا ، لكان هذا وحده علاجًا حاسمًا لأكثرِ مشاكلنا .

فاللغات تتنازعُ القوميةَ ، وإنهتِ واللّه احتلالَ عقلى فى الشعوب التى ضعفت عصبيتها ؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها ، أثرت اللغة الأجنبية فى الخلقِ القومى ما يؤثّر الجوّ الأجنبيُّ فى الجسم الذى انتقل إليه وأقام فيه .

أما إذا قويت العصبية ، وعزّت اللغة ، واثارت لها الحميّة ؛ فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يترتّقى بها ، ويرجع شبرُ الأجنبي شبراً لا متراً ... وتكون تلك العصبية للغة القومية مادةً وعوناً لكل ما هو قوى ؛ فيصبح كلُّ شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبية ، هي قوة الإيمان بالمجد الوطني واستقلال الوطن ؛ ومتى تعيّن الأولُ أنه الأولُ ، فكل قوى الوجود لا تجعلُ الذى بعده شيئاً إلا أنه الثانى .

* * *

والدينُ هو حقيقةُ الخلقِ الاجتماعى فى الأمة ، وهو الذى يجعلُ القلوبَ كلّها طبقةً واحدةً على اختلافِ المظاهر الاجتماعية عاليةً ونازلةً وما بينهما ؛ فهو بذلك الضميرُ القانونى للشعب ، وبه لا يغيره ثبّاتُ الأمة على فضائلها النفسية ، وفيه لا فى سواه معنى إنسانية القلب .

ولهذا كان الدينُ من أقوى الوسائل التى يُعوّل عليها فى إيقاظ ضمير الأمة ، وتنبه رُوحها ، واهتياج خيالها ؛ إذ فيه أعظمُ السطة التى لها وحدها قوةُ الغلبة على الماديات ؛ فسلطانُ الدين هو سلطانُ كل فرد على ذاته وطبيعته ؛ ومتى قوى هذا السلطانُ فى شعب ، كان حاميّاً أبيّاً ، لا تُرغمه قوة ، ولا يعنو للقهَر .

ولولا التدين بالشرعية ؛ لما استقامت الطاعة للقانون فى النفس ؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين ؛ لما انتظمت أمة ؛ فليس عملُ الدين إلا تحديد مكانِ الحى فى فضائل الحياة ؛ وتعيين تبعيته فى حقوقها وواجباتها ، وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير ، ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكل ، ودائماً نحو الأكل .

وكل أمة ضعف الدين فيها اختلّت هندستها الاجتماعية وماجَ بعضها فى بعض ؛ فإن من دقيق الحكمة فى هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية فى هذه الأرض ، وذلك لتنظيم الغايات الأرضية فى الناس فلا يأكل بعضهم بعضاً ؛ فيغتنى الغنى وهو آمن ، ويفقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثوابُ الأعلى فى أن يعود على الأسفل بالمبرة ، وثوابُ الأسفل فى أن يصبر على ترك الأعلى فى

منزلته ؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة ، التي لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغر عنها الصغير ؛ وهي الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى .

وما دام عملُ الدين هو تكوينُ الخلقِ الثابتِ الدائبِ في عمله ، المعترِ بقوة ، المطمئن إلى صبره ، النافر من الضعف ، الأبي على الذل ، الكافر بالاستعباد ، المؤمن بالموت في المدافعة عن حوزته ، المجزئ بتساميه وبذلِّه وعطفه وإيثاره ومُفاداته ، العامل في مصالحة الجماعة ، المقيّد في منفعه وبواجباته نحو الناس — ما دام عملُ الدين هو تكوينُ هذا الخلق — فيكون الدين في حقيقته هو جعلُ الحسّ بالشرعية أقوى من الحس بالمادة ؛ ولعمري ما يجد الاستقلالُ قوةً هي أقوى له وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفوس الأمة وانطبعت عليه .

وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبُها أن تشرف وتسود وتعتز ، يكون واجبُ هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذلل .

وبتلك الأصول العظيمة التي يُنشئها الدين الصحيح القوى في النفس ، يتهيأ النجاح السياسي للشعب المحافظ عليه المنتصر له ؛ إذ يكون من خلال الطبيعية في زعمائه ورجاله الثبات على النزعة السياسية ، والصلابة في الحق ، والإيمان بمجد العمل ، وتغلب ذلك على الأحوال المادية التي تعترض ذا الرأي لتفتنه عن رأيه ومذهبه : من مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو موافقة الهوى ، أو خشية النعمة ، أو خوف الوعيد ، إلى غيرها من كل ما يستميل الباطل أو يرهب به الظلم .

ولا يذهبن عنك أن الرجل المؤمن القوى الإيمان الممتلئ ثقةً وبقيناً ووفاءً وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثباتاً على ما يلتقى في سبيلها — لا يكون رجلاً كالناس ، بل هو رجل الاستقلال الذي واجبه جزء من طبيعته وغايته السامية لا تفصل عنه ، هو رجل صدق المبدأ ، وصدق الكلمة ، وصدق الأمل ، وصدق النزعة ؛ وهو الرجل الذي ينفجر في التاريخ كما احتاجت الحياة الوطنية إلى إطلاق قنابلها للنصر .

والعاداتُ هي الماضي الذي يعيشُ في الحاضر ، وهي وحدةٌ تاريخيةٌ في الشعب ، تجمعُهُ كما يجمعُهُ الأصلُ الواحدُ ؛ ثم هي كالدين في قيامها على أساس أدبي في النفس ، وفي اشتغالها على التحريم والتحليل ؛ وتكاد عاداتُ الشعب تكونُ ديناً ضيقاً خاصاً به ، يَحْصُرُهُ في قَبِيلِهِ ووطنه ، ويحقق في أفرادهِ الألفة والتَّشَابُك ، ويأخذُهم جميعاً بمذهبٍ واحدٍ ؛ هو إجلالُ الماضي :

وإجلالُ الماضي في كل شعب تاريخي هو الوسيلةُ الروحيةُ التي يَسْتَوْحِي بها الشعبُ أبطاله ، وفلاسفته ، وعلماءه ، وأدباءه ، وأهل الفن منه ؛ فيُسَوِّحون إليه وَحْيَ عَظَامَتِهِم التي لم يغلِبها الموت ؛ وبهذا تكونُ صُورُهُم العظيمة حيةً في تاريخه ، وحيةً في آماله وأعصابه .

والعاداتُ هي وحدها التي تجعلُ الوطنَ شيئاً نفسياً حقيقياً ؛ حتى ليشعرُ الإنسانُ أنَّ لأرضه أُمومةَ أَلَمٍ التي وَلَدَتْهُ ، ولقومه أبوةَ الأب الذي جاء به إلى الحياة ؛ وليس يَعْرِفُ هذا إلا من اغتربَ عن وطنه ، ونخايطَ غيرَ قومه ، واستَوَحَّشَ من غير عاداته ؛ فهناك يُثْبِتُ الوطنُ نفسهَ بعظمةٍ وجَبَرُوتٍ كأنه وحده هو الدنيا .

وهذه الطبيعةُ الناشئةُ في النفس من أثر العادات هي التي تُنَبِّهُ في الوطني رُوحَ التَّميِزِ عن الأجنبي ، وتُوحِشُ نفسه منه كأنها حاسَّةُ الأرض تنبِّه أهلها وتُسَندِرُهُم الخطر .

ومتي صدقت الوطنيةُ في النفس أَفَرَّتْ كلَّ شَيْءٍ أجنبيٍّ في حقيقته الأجنبية ؛ فكان هذا هو أولُ مظاهرِ الاستقلال ، وكان أقوى الدرائع إلى المجد الوطني .

* * *

وباللغة والدين والعادات ، ينحصرُ الشعبُ في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها ، فلا يَسْتَهْلُ انتزاعُهُ منها ولا انتساقُهُ من تاريخه ؛ وإذا أَلْبِجِيْ إلى حال من القهر لم يَنْخَسِذْ ولم يَتَضَعَّضْ ، واستمر يعمل ما تعملهُ الشَّوْكةُ الحادَّةُ : إن لم تُتْرَكْ لنفسها ، لم تُعْطَ من نفسها إلا الوَحْزَ

تجديد الإسلام^(١) رسالة الأزهر في القرن العشرين *

(الأزهر) ، هذه هي الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة (الهـرم) ؛ وفي كلتا اللفظتين يَكْمُنُ سر خفيٌّ من أسرار التاريخ التي تجعل بعض الكلمات ميراثاً عقلياً للأمة ، يُنسى مادة اللغة فيها ولا يُبقى منها إلا مادة النفس ؛ إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شيء ثابت ثابت الفكرة التي لا تتغير ، مستقرٌّ في الروح القومية استقراره في الزمن ، متجسِّم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه في هذه المادة ؛ فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زماناً لا حجراً وفناً لا جسمًا ؛ والمكان في الأزهر يَغيب فيه معنى المكان وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة تُوجد في المنظور غير المنظور .

وعندى أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « مِصْرُ كِنَانَةِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » ، فعلماءه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمى بها من أراد دينه بالسوء ، فيُمسِكها للهيبَة ويرمى بها للنصر ؛ ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلى بمِلْءِ عشرين قرنًا من الجُرأة على الأديان وإهمالها والإلحاد فيها .

أول شيء في رسالة الأزهر في القرن العشرين ، أن يكون أهله قوة إلهية مُعدَّة للنصر ، مهيأة للنضال ، مسددة للإصابة ، مقدرة في طبيعتها أحسن تقدير ، تُشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها ، وتوحي إلى كل من يراها الإيمان الثابت بمعناها ؛ ولن يأتي لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة ، فلا

(١) أنشأها للسابقة الأدبية العامة .

* لم نتكلم في هذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر ؛ لأن هذه هي مادة الأزهر لا رسالته الجديدة في رأينا .

يكونُ العلمُ تحرُّفًا ولا مِهْنَةً ولا مَكْسَبَةً* ، ولا يكونُ في أوراقِ الكتُبِ خيالُ (أوراقِ البنك) . . . بل تظهرُ فيهم العظَمَةُ الروحانيةُ أَمْرَةً ناهيةً في المادة ، لا مأمورةً منهيةً بها ؛ ويرتفع كل منهم بنفسه ، فيكون مُقَرَّرٌ خُلُقٌ في الحياة قبل أن يكونَ معلِّمٌ علم في الحياة ، لينبثَ منهم مغناطيسُ النبوةِ يجذبُ النفوسَ بهم أقوى مما تَجذبُها ضلالاتُ العصر ؛ فما يحتاج الناسُ في هذا الزمن إلى العالمِ - وإن الكُتُبَ والعلومَ لتملأ الدنيا - وإنما يحتاجون إلى ضميرِ العالمِ .

وقد عجزتِ المدنية أن تُوجِدَ هذا الضميرَ ، مع أن الإسلامَ في حقيقته ليس شيئًا إلا قانونَ هذا الضميرِ . إذ هودينُ قائمٌ على أن الله لا ينظرُ من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله ؛ فأولُ ما ينبغي أن يحمله الأزهرُ من رسالته ، ضمائرُ أهله .

والناسُ خاضعون للمادة بقانونِ حياتهم ، وبقانونِ آخرَ هو قانونُ القرن العشرين . . . فهم من ثمَّ في أشدِّ الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلطَ على المادة بقانونِ حياته ؛ ليرَوْا بأعينهم القُوَى الدنيئةَ مغلوبة ، ثم ليجدوا في هذا الإنسانِ أساسَ القدوةِ والاحتذاءِ ، فيتَّصلوا منه بقوتين : قوةَ التعليم ، وقوةَ التحويلِ .

وهذا هو سرُّ الإسلامِ الأول الذي نَفَدَ به من أمةٍ إلى أمةٍ ولم يَقم له شيءٌ يَصُدُّه ، إذ كان ينفذُ في الطبيعةِ الإنسانيةِ نفسها .

* * *

ومن أخصِّ واجباتِ الأزهر في هذا القرن العشرين ، أن يعملَ أولَ شيءٍ لإقراز معنى الإسلامِ الصحيح في المسلمين أنفسهم ، فإن أكثرهم اليومَ قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو في حاجة إلى تجديدِ إسلامه .

والحكوماتُ الإسلاميةُ عاجزة في هذا ، بل هي من أسباب هذا الشر ؛ لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً ؛ أما الأزهر فهو وحدَه الذي يصلح

* أي احتراف العلم للتكسب به كما نراه اليوم .

لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب ، وهو وحده الذى يَسَعُهُ ما تَعَجَز عنه ؛ وأسبابُ نجاحه مُهَيَّاةٌ ثابتةٌ إذ كان له بقوة التاريخ حكمُ الزَّعامةِ الإسلاميةِ ، وكانت فيه عند المسلمين بقيةُ الوحي على الأرض ، ثم كان هو صورةَ المزاج النفسى الإسلامى المحض ؛ بَيِّنَدَ أنه فرَطَ فى واجب هذه الزعامة ، وفقد القوة التى كان يحكم بها ، وهى قوةُ المثل الأعلى التى كانت تجعلُ الرجلَ من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تتخيَّره المعانى السياسية تظهرُ فيه بأسلوب عملى ، فيكونُ فى قومه ضَرْباً من التربية والتعليم بقاعدةٍ مُنتزعةٍ من مثالها ، مشروحةٍ بهذا المثال نفسه .

والعقيدةُ فى سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى هى أولُ مغلوبٍ فى صراع قوى الحياة .

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر ، فهم يتبعونهم ، ويتأسَّونَ بهم ، ويمنحونهم الطاعة ، وينزلون على حكمهم ، ويلتمسون فى سيرتهم التفسيرَ لمشكلات النفس ، ويعرفون بهم معنى صِغَر الدنيا ومعنى كِبَر الأعمال العظيمة ؛ وكان غنى العالم الدينى شيئاً غير المال ، بل شيئاً أعظمَ من المال ؛ إذ كان يجد حقيقة الغنى فى إجلال الناس لفقره كأنه مُلْكٌ لا فقر ؛ وكان زُهدُه قوةً حاكمَةً فيها الصلابةُ والشدةُ والهيبةُ والسموُ ، وفيها كلُّ سلطان الخير والشر ، لأن فيها كلَّ النزاعات الاستقلالية ؛ ويكادُ الزهدُ الصحيح يكونُ هو وحده القوةُ التى تجعل علماء الدين حقائقَ مؤثرةً عاملةً فى حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم ، لا حقائقَ متروكةً لنفسها يُوحِشُ الناسَ منها أنها متروكةٌ لنفسها .

* * *

وعلماءُ الأزهر فى الحقيقة هم قوانينُ نفسيةٌ نافذةٌ على الشعب ، وعملهم أَرَدُ على الناس من قوانينِ الحكومةِ ، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جَرَتِ الأمورُ على عِلَالِها وأسبابها ؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودَهم ، وأن يتناولوا الأمةَ من ناحيةِ قلوبها وأرواحها ، وأن يُعِدُّوا تلاميذَهم فى الأزهر كما يُعِدُّون القوانينَ الدقيقةَ ، لا طلاباً يترزقون بالعلم .

أين صوتُ الأزهرِ وعملُهُ في هذه الحياة الماثجة بما في السَّطْح وما في القاع . . . وأين وحىُ هذه القوة التي ميثاقُها أن تجعل النبوة كأنها شيء واقع في الحياة العصرية لا خَبرٌ تاريخيٌ فيها ؟

لقد أصبح إيمانُ المسلمين كأنه عادةُ الإيمان لا الإيمانُ نفسه ؛ ورجع الإسلامُ في كتبه الفقهية وكأنه أديانٌ مختلفة متناقضة لا دينٌ واحد . فوسالةُ الأزهر أن يجددَ عملَ النبوة في الشعب ، وأن ينقّي عملَ التاريخ في الكتب ، وأن يبطلَ عملَ الوثنية في العادات ، وأن يعطى الأمة دينها الواضح السمح الميسر ، وقانونها العمل الذي فيه سعادتها وقوتها .

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهرُ جريئاً في قيادة الحركة الروحية الإسلامية ، جريئاً في عمله لهذه القيادة ، آخذاً بأسباب هذا العمل ، ملحاً في طلب هذه الأسباب ، مُصرّاً على هذا الطلب ؛ وكلُّ هذا يكون عبثاً إن لم يكن رجالُ الأزهر وطلّابته أمثلةً من الأمثلة القوية في الدين والخلق والصلابة ، لتبدأ الحالة النفسية فيهم ، فإنها إن بدأت لا تقف ؛ والمثل الأعلى حاكمٌ بطبيعته على الإنسانية ، مطاعٌ بحكمه فيها ، محبوبٌ بطاعتها له .

والمادة المطهّرة للدين والأخلاق لا تجدُها الأمة إلا في الأزهر ، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهارِ عملها لا بإلصاقِ الورقة المكتوب فيها الاسمُ على الزجاج . . .

ومن ثم يكونُ واجبُ الأزهر أن يطلبَ الإشرافَ على التعليم الإسلامي في المدارس ، وأن يدفعَ الحركةَ الدينية دفعاً بوسائلَ مختلفة ، أولُها أن يحملَ وزارة المعارف^(١) على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها ، من مدرسة حرية الفكر . . فنزالاً : والأمة الإسلامية كلها تشدُّ رأى الأزهر في هذا .

وإذا نحن استخرجنا التفسيرَ العمليَ لهذه الآية الكريمة : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) ، دلّتنا الآيةُ بنفسها على كل تلك الوسائل ، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في الدعوة .

العلماءُ وورثةُ الأنبياء ؛ وليس النبيُّ من الأنبياء إلا تاريخٌ شَدائِدٌ ومِحَنٌ ، ومجاهدَةٌ في هدايةِ الناسِ ، ومُراغِمَةٌ للوجودِ الفاسدِ ، ومكابِدَةٌ التصحيحِ .
للحالةِ النفسِيَّةِ للأمةِ ؛ فهذا كُلُّهُ هو الذي يُورَثُ عن الأنبياءِ لا العلمُ وتعليمُهُ فقط .

* * *

وإذا قامت رسالةُ الأزهرِ على هذه الحقائقِ ، وأصبح وجودُهُ هو المعنى المتسمُّ للحكومةِ ، المعاوِنُ لها في ضبطِ الحياةِ النفسيةِ للشعبِ وحياطِتيها وأمنِها ورَفاهَتِها واستقرارِها - اتجهت طبيعَتُهُ إلى أداءِ رسالتهِ الكبرى للقرنِ العشرينِ ، بعد أن يكونَ قد حققَ الذرائعَ إلى هذه الرسالةِ ، من فتحِ بابِ الاجتهادِ ، وتنقيةِ التاريخِ الفقهيِّ ، وتهذيبِ الروحِ الإسلاميِّ والسموِّ به عن المعانيِ الكلاميةِ الجدليةِ السخيفةِ ؛ ثم استخراجِ أسرارِ القرآنِ الكريمِ المكتنةِ فيه ، لهذه العصورِ العلميةِ الأخيرةِ ؛ وبعد أن يكونَ قد اجتمعت فيه القوةُ التي تُسمِكُ الإسلامَ على سنَّتِهِ بين القديمِ والجديدِ ، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك ، وبعد أن يكونَ الأزهرُ قد استفاضَ على العالمِ العربيِّ بكتبِهِ ودُعائِهِ ومبعوثِهِ من حامليِ علمِهِ ورُسُلِهِ إلهامِهِ .

أما تلكَ الرسالةُ الكبرى فهي بثُّ الدعوةِ الإسلاميةِ في أوروبا وأمريكا واليابانِ ، بلغاتِ الأوروبيينِ والأمريكيينِ واليابانيينِ ، في ألسنةِ أزهريةٍ مُرَهَفَةٍ مصقولةٍ ، لها بيانُ الأدبِ ، ودقةُ العلمِ ، وإحاطةُ الفلسفةِ ، وإلهامُ الشعرِ ، وبصيرةُ الحكمةِ ، وقدرةُ السياسةِ ؛ ألسنةُ أزهريةٍ لا يُوجدُ الآنَ منها لسانٌ واحدٌ في الأزهرِ ، ولكنها لن توجدَ إلا في الأزهرِ ؛ ولا قيمةَ لرسالتهِ في القرنِ العشرينِ إذا هو لم يُوجدِها فتكونَ المتكلمةُ عنه ، والحاملةُ لرسالتهِ ، وما هذه البعثاتُ التي قررَ الأزهرُ ابتعائَها إلى أوروبا إلا أولُ تاريخِ تلكِ الألسنةِ .

إن الوسيلةَ التي نَشَرَتِ الإسلامَ من قبلُ لم تكنِ أجنحةَ الملائكةِ ، ولا كانت قوةً من جهنمِ ؛ ولا تزالُ هي التي تنشره ؛ فليس مستحيلاً ولا متعذراً أن يغزو هذا الدينُ أوروبا وأمريكا واليابانَ كما غزا العالمَ القديمَ ، ولم يكنِ السلاحُ من قبلِ إلا طريقةٌ لإيجادِ إسلامٍ في الأمةِ الغربيةِ عنه ، حتى إذا وُجدَ تولى هو

الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلح هو الأبقى ، وانحازت إليه الإنسانية لأنه قانون طبيعتها السليمة ، ودين فطرتها القوية ؛ وقد ظل الإسلام ينتشر ولم يكن يحملُهُ إلا التاجر ، كما كان ينتشر وحامله الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكمته ؛ فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا^(١) : أعمال مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يعطى الحياة في كل عصر عقلها العملي الثابت المستقر تنظم به أحوال النفس على ميسرة وبصيرة ، ويدع للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى ؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه : لا يغنى عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نبع في الأرض لمعانى النور ، بإزاء الشمس نبع النور في السماء .

ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الإسلام في تلك الأمم ما يستمر ، ثم الاستمرار هو وجود ما يثبت ، والثبات يوجد ما يدوم ؛ وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله : نَضَّرَ الله امرأً سمع مني شيئاً فبلاغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى له من سامع .

أما والله إن هذا المبلغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوروبا وأمريكا في هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبليغ .

أنا مستيقن أن فيلسوف الإسلام الذي سينتشر الدين على يده في أوروبا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهى إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الإسلام وأعماله ؛ ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها ، والإفضاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعي فإن أول الدين هناك أسلوبه الذي يظهر به .

* * *

هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ، ويجب أن يتحقق بوسائلها من

الآن ؛ ومن سائلها أن يُعالنَ بها لتكونَ مَوْثِقًا عليه . ويحسنُ بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم إليه كلَّ مفكر إسلامي ذى إلهام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة ؛ فتكون له ألقابٌ علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ، ثم يستعين بعلمهم وإلهامهم وآرائهم .

وبهذه الألقاب يمتدُّ الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ، ويصبح أوسع في أثره على الحياة الإسلامية ، ويحقق لنفسه المعنى الجامعى .

وفى تلك السبيل يجبُ على الأزهر أن يختارَ أيامًا في كل سنة يجمعُ فيها من المسلمين (قرش الإسلام) ؛ لِسَجْدَ مادةِ التفقة الواسعة في نشر دين الله ، وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسطُ يده ، فباحتاجُ هذا التدبيرُ لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانِه في الأمم الإسلامية ومواسمها الكبرى ، وخاصة موسم الحج .

وهذا العمل هو نفسه وسيلةٌ من أقوى الوسائل في تنبيه الشعور الإسلامى ، وتحقيقِ المعاونة في نشر الدين وحياطته ؛ وعسى أن تكونَ له نتائج اجتماعية لا موضعَ لتفصيلها هنا ، وعسى أن يكونَ (قرش الإسلام) مادةً لأعمال إسلامية ذاتِ بال ، وهو على أى الأحوال صلةٌ روحيةٌ تجعلُ الأزهرَ كأنه مُعْطِية لكلِّ مسلمٍ لا آخِذه .

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين ، اعتداءُ الأزهر إلى حقيقة موضعيه في القرن العشرين : « وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكري للمؤمنين » .

الأسد

جلس أبو علي أحمد بن محمد الرُّوذَبَادِي البغدادي* في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بُسْنَانَ الحمال الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية** وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده ، وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته ، فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا ؛ ما بقي أحد إلا اقتنع أنه في شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق ؛ إذ ينظر كل امرئ في مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة ، باللمس لا بالبصر ، وبالتوهم لا بالتحقيق ، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في نفسه ، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة ؛ ثم يأتي الموت فيكون كالماء صُبَّ على الدقيق والتراب جميعاً ، فلا يرتاب مبصر ولا أعمى ، ويبطل ما هو باطل ويحق الذي هو حق .

وتكلم أبو علي فقال : كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد*** في بغداد ، فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الري والجبالي في وقته**** يقول فيه : لا أذاقك الله طعمَ نفسك ، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً ! قال : فجعلت أفكر في طعم النفس ما هو ، وجاءني ما لم أرّضه من الرأي ، حتى سمعت بخبر بُسْنَانَ رحمه الله مع أحمد بن طولون أمير مصر ، فهو الذي كان سبب قدومي إلى هنا لأرى الشيخ وأصحبه وأنتفع به .

والبلد الذي ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة والأخلاق الإلهية ، هو في الجهل كالبلد الذي ليس فيه كتاب من الكتب ألبتة وإن كان كل أهله علماء ، وإن كان في كل محلة منه مدرسة ، وفي كل دار من دوره خزانة كتب ؛

* توفي سنة ٣٢٢ .

** توفي سنة ٣١٦ .

*** توفي سنة ٢٩٨ .

**** كانت وفاته ٣٠٤ .

فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال ؛ فإنما هى صواب أو خطأ ينتهى إلى العقل ، ولكن الرجل الكامل صوابٌ ينتهى إلى الروح ، وهو فى تأثيره على الناس أقوى من العلم ، إذ هو تفسير الحقائق فى العمل الواقع وحياتها عاملةٌ مرئيةٌ داعيةٌ إلى نفسها ؛ ولو أقام الناس عشر سنين يتناظرون فى معانى الفضائل ووسائلها ، ووضعوا فى ذلك مائة كتاب ، ثم رأوا رجلا فاضلا بأصدق معانى الفضيلة ، وخالطوه وصحبوه — لكان الرجل وحده أكبر فائدةً من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها وأدلّ على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب ؛ ولهذا يرسل الله النبىّ مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة وجودها ، ويخرج الحالة النفسية من المعنى المقول ، وينشئ الفضائل الإنسانية على طريقة النسل من إنسانها الكبير .

وما مثل الكتاب يتعلم المرءُ منه حقائق الأخلاق العالية ، إلا كوضع الإنسان يده تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض ؛ فقد أنشأ يعمل ، ولكنه لن يرتفع ؛ ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم دروساً أخرى تعمل عملاً آخر غير الكلام ؛ فإن أحدهم ليجلس مجلس المعلم ، ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليمًا آخر من حيث يدرى ولا يدرى ، ويكون كتاب الله مع الإنسان الظاهر منه ، وكتاب الشيطان مع الإنسان الخفى فيه .

* * *

قال أبو على : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وأخذ عنه وأحقق ما سمعت من خبره مع ابن طولون ؛ فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذه شيخنا الجنيد ، يتلأأ فيه نوره ويعمل فيه سره ؛ وهما كالشمعة والشمعة فى الضوء وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة ؛ وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكاً ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه : لا يراه من يراه منهم إلا أحسّ أنه شخصه الأكبر ؛ فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الإنسانية للناس ، وكأنه مخلوق خاصة لإثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن قاربها

أو لأمسها ، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل التقوى فيهم إصابة كإصابة المرض : تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتُسْقَدُ الشيء ما هو به شيء ، فتتحول قيمته : فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

وإذا عدم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد وكبار الشجعان وكبار العلماء وأمثالهم -- كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى .

* * *

قال أبو على : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، فقطعتنى هيبتة ، فقلت : أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ اليرى : « لا أذاقك الله طعم نفسك » ؛ وبينما أهيم فى نفسى كلاماً أجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار ، وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين ، وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياعتها ؛ فادع الله لى وله أن يُظفرنى بدنى وأن يشبهه على الحق . فقال الشيخ : لى رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى ، فاذهب فاشتر رطلا منها وائتنى به حتى أدعوك !

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فإذا هى الوثيقة الضائعة ، وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهى ! ثم إنه التفت إلى وقال : لو أن شجرة اشتهدت غير ما به صحة وجودها وكمال منفعتها فأذيقنا طعم نفسها لأكلت نفسها وذوت .

* * *

قال أبو على : والمعجزات التى تحدث للأنبياء ، والكروامات التى تكدر للأنقياء ، وما يخرق العادة ويخرج عن النسق -- كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعينى رأسى كل ما سمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى

لقيت أبا جعفر القاضي أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري*
 ذاك الذى يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفًا فيها
 الكبير والصغير ؛ فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بُنان مع ابن طولون ،
 فمن أجله زعمت جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرنى وهبته فلم
 أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون* من جارية تركية ، وكان طولون أبوه مملوكًا حماله
 نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفًا عليه من المال والرقيق
 والبراذين وغير ذلك ؛ فولد أحمد فى منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت
 هاتان طبيعته إلى آخر عمره ، فذهب بهمته مذهبًا بعيداً ، ونشأ من أول أمره
 على أن يسم هذا النقص ويكون أكبر من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ،
 وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالى ، وظل يرى
 بنفسه ، وهو فى ذلك يكبر ولا يزال يكبر ، كأنما يريد أن ينقطع من أصله
 ويلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر ليلحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء
 كانت نيته على ما يعلم الله .

قال : وكان عقله من أثر طبيعته كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة
 ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذى بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه
 الأطباء ، وشرط إذ جىء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ،
 ثم يلبس ثياباً ويفرث له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ،
 ولم يكن هذا قبل إمارته ؛ وهو أول من نظر فى المظالم من أمراء مصر ؛ وهو
 صاحب يوم الصدقة : يكثر من صدقاته كما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه
 لذلك فى كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التى أقيمت فى كل يوم فى
 داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس ، ولكل مسكين أربعة
 أرغفة يكون فى اثنين منها فالزوج*** وفى الآخرين من القدور ، وينادى :

* توفى سنة ٣٢٢ .

** كانت إمارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة ، وتوفى سنة ٢٧٠ .

*** نوع من الحلوى ، وهو ما يسميه العامة (البالوظة) .

من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ! وتفتح الأبواب ويدخل الناس وهو في المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته ؛ وكان راتب مطبخه في كل يوم ألف دينار ؛ واقتدى به ابنه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامة * ينفق عليه ثلاثة وعشرين ألف دينار كل شهر .

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلمائها في مدة ولايته ألفي ألف ومائتي ألف دينار* وكان كثير التلاوة للقرآن ، وقد اتخذ حجرة بقربه في القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبريين ، يتعاقبون الليل نوباً يكبرون ويسبحون ، ويحمدون ويهللون ، ويقرءون القرآن تطريفاً ، وينشدون قصائد الزهد ، ويؤذنون أوقات الأذان ؛ وهو الذي فتح أنطاكية في سنة خمس وستين ومائتين ، ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها ، فلما نابذه أهلها وقتلهم أمر أصحابه أن ينهزموا عنها ، ليبلغ ذلك طاغية الروم فيعلم أن جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس ، فيكون بهذا كأنه قاتله وصدّه عن بلد من بلاد الإسلام ، ويجعل هذا الخبر كالجيش في تلك الناحية !

ومع كل ذلك فإنه كان رجلاً طائش السيف ، يخور ويعسف ، وقد أحصى من قتلهم صبراً أو ماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً ؛ وأمر بسجن قاضيه بكار بن قتيبة في حادثة معروفة . وقال له : غرّك قول الناس ما في الدنيا مثل بكار ؟ أنت شيخ قد خرفت ! ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة ولايته القضاء ، فكانت عشرة آلاف دينار ، قيل إنها وجدت في بيت بكار بجتمها لم يمسه زهداً وتورعاً .

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، طاش عقله فأمر بإلقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغك في بغداد . . .

* * *

* هذا هو الأصل في مطعم الشعب .

* الدينار نصف جنيه مصرى فعدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه ، صدقاته على بغداد وحدها

رحمه الله .

قال : وكنت حاضر أمرهم ذلك اليوم ، فجئ بالأسد من قصر ابنه خمارويه وكان خمارويه هذا مشغوفاً بالصيد ، لا يكاد يسمع بسبع في غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم ، فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسع الواحد منها السبع وهو قائم .

وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم ، جسيماً ، ضارياً ، عارم الوحشية ، متريلاً العضل ، شديد عصب الخلق ، هراساً ، فراساً ، أهوت الشدق يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر ينبي أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهيم أن ينقذف على من يراه فيأكله !

وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه ف جذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه ، فانطلق يزجر ويزار زجيراً تنشق له المرائر ، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراعه الصاعقة !

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقى من أجلى الشيخ إلا طرفة عين ؛ ورأيناه على ذلك ساكناً مطرقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل .

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته ، فألقى على ذنبه ، ثم لصق بالأرض هنيهة يفترش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فشى مترفعاً ثقیل الخطو تسمع لمفاصله قعقة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق يحتك به ويلحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذى يأنس به ، وكأنه يعلن أن هذه ليست مصالحة بين الرجل التقي والأسد ، ولكنها مبارزة بين إرادة ابن طولون وإرادة الله ! .

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بإزاء لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يبرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى

التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها ، كحياة الدودة والنملة وما دونها من الهوام والذر !

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله ، وكان مندجاً في يقين هذه الآية : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) !

ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة ، خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ؛ فليس في الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس في الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رآه الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه .

* * *

قال : وانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجه الشيخ ، فإذا هو ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً في تفكيره ، فن قائل إنه الخوف أذهله عن نفسه ، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد ؛ وأكثرنا في ذلك وتجارينا فيه ، حتى سأله ابن طولون : ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن عليّ بأس ، وإنما كنت أفكر في لعاب الأسد ، أهو طاهر أم نجس . . .

أمراء للبيع . . .

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقَّب طُووير الليل ، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة* :

كان شيخنا الإمامُ العظيمُ شيخُ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد* لا يخاطب السلطان إلا بقوله : (يا إنسان) ! فما يخشاه ولا يتعبَّد له ولا يَسْتَحْسِنُه ألقابَ الجبروت والعظمة ولا يُزِينُه بالنفاق ولا يُدَاجِيهِ كما يصنع غيره من العلماء ؛ وكان هذا عجيبًا ؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان) ؛ فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقةَ الإنسانية !

ثم كان لا يعظَّم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحداً قال له : (يا فقيه) ؛ على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين ابن الرقعة** ، ثم يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله : (يا إمام) ؛ إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجَّة ، لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة والمباحثة ؛ فهو كالبرهان . إجلاله إجلالُ الحق ، لأن فيه المعنى وثبتت المعنى .

وقلت له يوماً : يا سيدي ، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ؛ فإن علوت قلت : (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان ؛ أفلا يُسْخِطُكَ هذا منك وقد تدوَّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هي ظلُّ الكلمات التي يوصف الله بها ، ثم جعله المَلِك إنساناً بذاته في وجود ذاته ، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة : يستويان في العنصر ويتباينان في القدر ، وأقله مهما

* توفى سنة ٧١٧ هـ .

** كانت وفاته سنة ٧٠٢ هـ .

*** توفى سنة ٧١٠ هـ .

قلّ هو أكثرها مهما عظمت ، وجوده شيءٌ ووجودها شيء آخر ؟
 فتبسم الشيخ وقال : يا ولدى ، إيش هذا ؟ إننا نفوس أَلْفَاظ ، والكلمة
 من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها ؛ فما يحسن بحامل الشريعة
 أن ينطق بكلام يردده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون دينًا ،
 ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه ؛ فلطخة فى الثوب الأبيض
 ليست كلطخة فى الثوب الأسود ، والمنافق رجل مغطى فى حياته ، ولكن عالم
 الدين رجل مكشوف فى حياته لا مغطى ؛ فهو للهداية لا للتبليس ، وفيه معانى
 النور لا معانى الظلمة ؛ وذلك يتصل بالدين من ناحية العمل ، فإذا نافق فقد
 كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين ، فإذا نافق فقد
 كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتدادٌ لعمل النبوة فى الناس دهرًا
 بعد دهر ، ينطقون بكلماتها ، ويقومون بحجتها ، ويأخذون من أخلاقها كما
 تأخذ المرأة النور : تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها ، فهى أداة لإظهاره وإظهار
 جماله معًا .

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم أخذ من نورٍ
 واحد لا يختلف ؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور : يُظهر النور نفسه
 فيه ويظهر حقيقته البلورية ؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور
 حقيقته الخشبية لا غير !

وعالم السوء يفكر فى كتب الشريعة وحدها ؛ فيسهل عليه أن يتأول ويحتال
 ويغير ويبدل ويظهر ويخفى ؛ ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة فى صاحب
 الشريعة ، فهو معه فى كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الدينى لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا ينجى كل يوم من حوادث
 اليوم ، فهو بأخلاقه كلها ، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع
 ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقَتْ أفعاله لقاتلته الله
 بلسانه : هم يعطونى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحًا فى أحد وجهيه دون الآخر ، أو فى

بعضه دون بعضه ، فهو زائف كله ؛ وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم . . . فينزلون بذلك منزلة البهائم : تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها : والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله . . .

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو مُحاسنة فقل إنها النفاق ، أو سكوتاً عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها !

* * *

قال الإمام : وما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام* فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالي هلك فيه أو عاش ، إذ هو في الدم كالقلب : لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره ؛ ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أهوام القوة لا تغلب ؛ وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف ؛ وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل في طباع الناس ، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق في جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى في الملك في : فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لا نتزع مني المملكة !

وكان سلطانه في دمشق الصالح إسماعيل ، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً ، فأتبعه الصالح بعض خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تتخضع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يا مسكين ! أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدي ! أنتم في واد وأنا واد !

ثم قدم إلى مصر في سنة ٦٣٩ ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتَحَفَّى به وولاه خطابة مصر وقضاءها ، وكان أيوب ملكاً شديداً البأس ، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً ، ولا يتكلم أحد بحضوره ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك

* هو الإمام العظيم شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام بركة الدنيا في عصره ، ثوق سنة ٦٦٠ .

ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، ومم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر ؛ فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته لسمع هذا الملاء العظيم : يا أيوب ! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر ؛ فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه .

فحدثني الباجي قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر ، فقلت : يا سيدى ، كيف كانت الحال ؟

قال : يا بنى ، رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به .

قلت : أما خيفته ؟

قال : يا بنى ، استحضرتُ هبةَ الله تعالى فكان السلطان أُمَامَى كالقط * . ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسى لرأيته الدنيا كلها ؛ بيد أنى نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شيء في صورة شيء .

نحن يا ولدى مع هؤلاء كالمعنى الذى يصحح معنى آخر ، فإذا أمرناهم ، فالذى يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان : وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها ؛ فما بد أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها ؛ فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى ؛ فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت .

ولنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها ، فيكون باطلا مزوراً في صورة الحق ؛ وههنا تكون الذات مع الذات ، فيخشع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدي الغنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على

نفسها ؛ فإذا العالم من السلطان كأن نسبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف !
 كلا يا ولدى ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها ،
 فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دُقت فيها المسامير ؛ وإذا انفتحت الثوب فن
 أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخزّه ؟
 إن العالم الحق كالمسمار ؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل
 خشبة . . .

* * *

قال الإمام تقي الدين: وطفى الأمراء من الممالك وثقلت وطأتهم على الناس ؛
 وحيثما وُجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة ؛
 إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها ؛ ففكر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال :
 إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حسن
 منها هو الحسن ، وإن كان قبيحاً فى ذاته ولا أفصح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها
 هو القبيح ، وإن كان حسناً ولا أحسن منه .

وقال : ما معنى الإمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد
 الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وملكه ؛ وكان ينبغى أن تكون هذه الإمارة
 أعمالاً نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة
 أكثر من الواحد ، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة
 كطبيعة أن الوحش مفترس .

وفكر الشيخ فهده تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء ممالك ، فحكم الرق
 مُستصحبٌ عليهم لبيت مال المسلمين ، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق !
 وبلغهم ذلك فجزعوا له عظم فيه الخطب عليهم ؛ ثم احتدم الأمراء وأيقنوا
 أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام .

وأفى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ،
 وأنه لا يصح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعى !
 ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه ، ويتحملون عليه بالشفاعات ، وهو مصرٌّ لا يعأ
 بجلالة أخطارهم ، ولا يخشى اتسامه بعداوتهم . فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فأرسل

إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه .

واستشنع السلطان فعله وحق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه ، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه ، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه وهم وافرون وفي أيديهم القوة ولهم الأمر والنهي .

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبير عليه إعراضه ، وأزعج الهجرة من مصر ، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام ؛ فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف برید حتى طار الخبر في القاهرة ففرع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي ، وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون كأن خروجه خروج نبي من بين المؤمنين به ؛ واستعلنت قوة الشرع في مظهرها الحاكم الأمر من هذه الجماهير ، فقليل للسلطان : إن ذهب هذا الرجل ذهب مُلكك !

فارتاع السلطان ، فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة ، وأطلق له أن يأمر بما شاء ، وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ولُبْس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائر .

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادي عليهم للمساومة في بيعهم ، وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالاه كل القاهرة ، ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسَّوم في هذا الرقيق الغالي !

* * *

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة ، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه ، فلم يعبأ الشيخ به ؛ فهاج هاجبه وقال : كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويتنذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذي يَفْقِد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه ؟ إنه يفقد ما لا يملك ، ويفقد غير الموجود ، فلا جَرمَ لا يبالى ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأي لا يمر في منافعه ، ولا في شهواته ولا في أطماعه ، كالذين نراهم من علماء الدنيا ؛ أما والله لأضربنَّه بسيفي هذا ، فما يموت رأيه وهو حي .

ثم ركب النائب في عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب ، فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى ، فانقلب إلى أبيه وقال له : انج بنفسك ، إنه الموت ، وإنه السيف ، وإنه وإنه . . .

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير ، بل قال له : يا ولدى ! أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله !

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت ، فليس فيه الإنسانى بل الإلهى ؛ ونظر إلى نائب السلطنة وفي يده السيف ، فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها .

وتناوله بروحه القوية ، فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يردد ولا يستقر ولا يهدأ .

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : يا سيدى ، ما تصنع بنا ؟

قال الشيخ : أناذى عليكم وأبيعكم !

— وفيم تصرف ثمتنا ؟

— فى مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا .

وكان الشرع هو الذى يقول (أنا) ، فتم للشيخ ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، واشتط فى ثمتهم ، لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ ؛ وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه . . . ودُمغ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! . أمراء للبيع . . .

العجوزان

١

قال محدثي : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت مشابتهما * ذلك المكان القائم على شاطئ البحر في إسكندرية في جهة كذا ؛ وهما صديقان كانا في صدر أيامهما - حين كانت لهما أيام . . . - رجلى حكومة يعملان في ديوان واحد ، وكانا في عيشهما أخـوَيَ جد وهزل ، وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلة أحدهما من الآخر ؛ وكان بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة والدمعة من الدمعة .

ولبثا كذلك ما شاء الله ، ثم تبددا وأخذتهما الآفاق كدأب « الموظفين » : ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكأن « الموظف » من تفسير قوله تعالى : (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) !
وافترق الصديقان على مضض ، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض « موظفيها » هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض ؛ ثم تصرّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق لا يلتقيان . وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذى مضى : يُحفظ ولا يُرى .

* * *

قال المحدث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل في السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شاب لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة . . . ويزعم أن في جسمه الناموس الأخضر الذى يحى الشجرة حياة واحدة إلى الآخر .
رجل فاره* ، متأنق ، فاخر البزة ، جميل السمّت ، فارغ الشطاط*
كالمصبوب في قالب لا عوج فيه ولا انحناء ، مجتمع كله لم يذهب منه شيء ،

* أى المكان الذى اجتمعا فيه بعد التفرق .

* * * تمت الطول .

قد حفظته أساليبُ القوة التي يعانيتها في رياضته اليومية ؛ وهو منذ كان في آنفسيه وشبابه لا يمشي إلا مستأخِر الصدر* ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ، مسنداً قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل إسناد القفا** .

وهو دائماً عَطَرٌ عبق ، ثم لا يمسُّ إلا عِطراً واحداً لا يغيره ، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبي ، وأنه يُسقى للأيام رائحتها .

وله فلسفة من حسّه لا من عقله ، وفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير ، ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقى ، ومن بعضها الصلاة أيضاً ؛ وكل تلك هي عنده قواعد لحفظ الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هي لم تتغير اتصل الشباب فيها واطَّرد في الروح ، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى .

وهو يزيد في حكمة الصلاة فكرةً رياضية عملية لم ينتبه إليها أحد ، هي رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام ؛ ويقول إن ثروة الصلاة تُكُنْزُ في صندوقين : أحدهما الروح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت ؛ ويرى أن الإسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ في الروح كل يوم .

قال المحدث : وبينما نحن جالسان مرّ بنا شيخٌ أعجفٌ مهزولٌ موهونٌ في جسمه ، يَدْلُفُ متقاصِرَ الخطو كأن حِمْلَ السنين على ظهره ، مُرْعَشٌ من الكبر ، مستقدِّمُ الصدر منحنٍ يتوكأ على عصا ، ويدل انحناءه على أن عمره قد اعوجَّ أيضاً ، وهو يبدو في ضَعْفِهِ وهزْأِهِ كأن ثيابه ملئت عظاماً لا إنساناً ، وكأنها ما خِيطت إلا لتمسِكَ عظاماً على عظم . . .

* يقال مستقدم الصدر ، اللهم الحنى الظهر ؛ فأخذنا منها مستأخِر الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدوداً ، فيكون أعلاه إلى الوراء .

** هذه حقيقة رياضية ، ولها أقوى الأثر في شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الإنسان . . . والمواد بالطوق : البنية (الياقة) .

قال : فحملق إليه (م) ثم صاح : رينا ! رينا . فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل إلينا وأقبل ضاحكاً يقول : أوّه ! . ريت ، ريت !
 ونهض (م) فاحتضنه وتلازما طويلا ، وجعل رأسهما يدوران ويتطوَّحان ، وكلاهما يقبل صاحبه 'قبلاً' ظامئة لاعهدلى بمثلها فى صديقين ، حتى نخليل إلى أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ، ولكن بينهما فكرة يعتنقانهما ويقبلانهما معاً ...

وقلت : ما هذا أيها العجوزان ؟

فضحك (م) وقال : هذا صديقى القديم (ن) ، تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب ، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمه . . .

ثم التفت إليه وقال : كيف أنت يا رينا ؟

قال العجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى : زاد العمر فى رجلى رجلاً من هذه العصا . ورجع مصدر الحياة فى مصدرأ للآلام والأوجاع ودخلت فى طبيعتى عادة رابعة من تعاطى الدواء .

فضحك (م) وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هى العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هى الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت يا ريت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرأها كما يقرأها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصحف يوماً غير ما تقرأ فى يوم ؟

قال : آه ! إن أول شئ أقرأ فى الصحف أخبار الوفيات ، لأرى بقايا الدنيا ، ثم (إعلانات الأدوية) . . . ولكن كيف أنت يا ريت ؟ إني لأراك ما تزال من وراء أربعين سنة فى ذلك العيش الرخى ، وأراك تحمل شيخوختك بقة كأن الدهر لم يسخر منك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلمسك بأصابعه لابساميره ، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم .

قال : ناشدتك الله ، أفى معجزات العلم الحديث معجزة لعظمى ؟

قال (م) : ويحك يا رينا ! إنك على العهد لم تبرح كما كنت مزبلة أفكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب . . . ؟

* * *

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، ثم قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) ؟ . وما هذه اللغة ؟ . وفي أى معجم تفسيرها ؟
قال : فتغامز الشيخان ، ثم قال (م) : يا بني ، هذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها ، فهي كذلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى .
قلت : ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كل شاب في هذه الجاهلية الأولى ، وما أحسب (رينا ، وريت) في لغتكما القديمة إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) في اللغة الحديثة ؟

فقال (م) : اسمع يا بني : إن رجل سنة ١٩٣٥* متى سأل في رجل سنة ١٨٩٥ : ما معنى رينا وريت ؟ فرد عليه : إن (رينا) معناها (كاترينا) ؛ وكان (ن) بها صباً مغرمًا ، وكان مُقْتَتلاً قتلته حبها . أما (ريت) فهو لا يعرف معناها .

فامتعض العجوز (ن) ، وقال : سبحان الله ! اسمع يا بني : إن رجل سنة ١٨٩٥ في يقول لك : إن (ريت) معناها (مرغريت) ، وكانت الجوى الباطن وكانت اللوعة والحريق الذي لا ينطفئ في قلب الأستاذ (م) .

قلت ؛ فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ ، فكيف تريان الحب الآن ؟

قال العجوز (ن) : يا بني ، إن أواخر العمر كالمنفى . . . ونحن نتكلم بالألفاظ التي تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم . . . غير أن المعاني تختلف اختلافًا بعيداً .

قلت : واضرب لهم مثلاً .

* كانت هذه القصة في صيف سنة ١٩٣٥ في اسكندرية .

قال : واضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل) ، فلها عندنا ثلاثة معان : الأكل ، وسوء الهضم ، ووجع المعدة ؛ وكلمة (المشى) فلها أيضاً ثلاثة معان : المشى ، والتعب ، وغمزاتُ العظم . . . وكلمة (النسيم) ، النسيم العليل يا بني : زيد لنا في معناها : تحرُّك (الروماتزم) . . .

فضحك (م) وقال : يا « شيخ » . . .
قال العجوز : وتلك الزيادة يا بني لا تجيء إلا من نقص ، فهنا بقيةٌ من يَدَيْنِ ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ومن ومن ، ومجموع كل ذلك بقيةٌ من إنسان .

قال الأستاذ (م) : والبقية في حياتك . . .
قال (ن) : وبالحملة يا بني فإن حركة الحياة في الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركةً الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب في مغامرته : ليمض الزمن ولتصرم الأيام ! فإن الأيام هي التي تتصرم والزمن هو الذي يمر ؛ أما الشيوخ فلن يتمنَّوه أبداً ؛ فن قال منهم : ليمض الزمن ، فكأنما قال : فلأَمْضُ أنا . . .

فصاح (م) : يا شيخ يا شيخ . . .
ثم قال العجوز : واعلم يا بني أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم ، فيصبح مثله ضعيفاً لا غناءَ عنده ولا حيلة له ؛ وكل مصانعٍ لنكثير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكيتين ، وما بقي من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها ؛ فهي عاجزة أن تكسو عظامي . . .

* * *

قال المحدث : ففقهه الأستاذ (م) ، وقال : كدتُ والله أتخشَّب من هذا الكلام ، وكادت معاني العظم تخرج من عظامي ؛ لقد كان المتوحشون حكماء في أمر شيوخهم ، فإذا علست السن بجماعة منهم لم يتركوهم أحياء إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهزَّة ، فيسكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلَّو منها وقد علقت أيديهم بأغصانها ؛ فإذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجئونها وينفضونها ساعة

من نهار ؛ فمن ضعفت يده من أولئك الشيوخ أو كلت حوامل ذراعيه فأقلت الغصن الذى يتعلق به فوق ، أخذه فأكلوه ؛ ومن استمسك أنزلوه فأملهوه إلى حين !

فاقشعر العجوز (ن) ، وقال : أعوذ بالله ! هذه شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، ولعنها الله من حكمة ، فإنما يطبخونهم فى الشجرة قبل الأكل ، أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيوراً فيكون لحمهم أطيب وألذ ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حماماً وعصافير .

قال (م) : إن كان فى الوحشية منطق فليس فى هذا المنطق « باب ليم » ، ولا « باب كيف » ، ولو كان بهم أن يأكلوهم لأكلوهم ، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة ؛ فإن رؤية الرجل هذه الشجرة وهزها وعاقبتها يبعد عنه الضعف والتخلخل ، ويدفعه إلى معاناة القوة ، ويزيد نفسه انتشاراً على الحياة وطمعاً فيها وتنشطا لأسبابها ، فيكون ساعده آخر شيء يهرم ، ولا يزال فى الحدة والنشاط والوثبان ؛ فلا يعجز قبل يومه الطبيعى ، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها إلى مجهودها ، وأكروها على أن تبذل من القوة آخر ما يسع الجسم .

قال (ن) : فننعم إذن ، ولعن الله معانى الضعف ؛ كدت والله أظن أنى لم أكن يوماً شاباً ، وما أراك إلا متوحشاً تخاف أن تؤكل ، فتظل شيخاً رجلاً لا شيخاً طفلاً ، وترى العم كما يرى البخيل ذهبه : مهما يبلغ فكرته غير كثيرة .

* * *

قال المحدث : وأضجرتي حوارهما ، إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان يتكلم ويقص ويعظ وينتقد ، ولن يكون الشيخ مذكك فى حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة ؛ فقلت لهما : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ . . .

العجوزان*

٢

قال محدّثي : ولما قلت لهما : أيها العجوزان ، أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥
نظر إلى العجوز الظريف (ن) ، وقال : يا بنيّ ، أحسبُ رؤيتك إياي قد
دَنَسَتْ بك من الآخرة . . . فتريد أن نلوذَ بأخبار شبابنا لتنظر إلينا وفيما روحُ
الدنيا .

قال الأستاذ (م) : وكيف لا تربه الآخرة وأكثرك الآن في « المجهول » ؟
قال : ويحك يا (م) ! لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا ؛
كأن الشيطان هو الذي يُصلح في داخلك ما اختلَّ من قوانين الطبيعة ، فلا
تَسْتَبِينُ فيك السنُّ وقد نَيْفَتَ على السبعين ، وما أحسب الشيطان في تنظيفك
إلا كالذي يكنس بيته . . .
قال (م) : فأنت أيها العجوز الصالح بيتٌ قد تركه الشيطان وعلّق عليه
كلمة (للإيجار) . . .

فضحك (ن) ، وقال : تالله إن الهرم هو إعادة درس الدنيا ، وفهمها

* الجمهور من أهل اللغة على أن (العجوز) وصف خاص بالمرأة إذا شاخت وهرمت ، ولكن
جاء في اللسان : « ويقال للرجل عجوز » ونقله صاحب التاج عن الصاغاني ، ونحن على هذا الرأي ،
ولو لم يأت فيه نص عن العرب لابتدعناه وزدناه في اللغة ؛ ووجهه عندنا أن الرجل والمرأة إذا بلغا
الهرم فقد اختلفا خصائص الذكورة والأنوثة ، فلم يعودا رجلا وامرأة ، فاستويا في العجز ، فكان الرجل قميئاً
أن يشارك المرأة في وصفها ، فيقع اللفظ عليهما جميعاً !

وإنما امتنع العرب أن يقولوا للرجل (عجوز) وخصوا ذلك بالمرأة ، تعسفاً وظلماً وطغياناً ،
كدأبهم مع النساء ، فإذا شاخت المرأة فقد بطلت أنوثتها عندهم وعجزت عن حاجة الرجل وعجزت في
كثير ، ونفتها الطبيعة وبرأت منها ؛ أما الرجل فبالخلاف ، لأنه رجل ؛ وإذا شاخ وبطل وعجز ولم
يستطع أن يكاير في المعنى - كما بر في اللفظ . . . وأبى أن يقال إنه (عجوز) ، وزعم أن ذلك خاص
بالمرأة . . .

ألا إن هذا تزوير في اللغة ، وإن كان للرجال عليهن درجة فذلك في أوصاف القدرة لا في أوصاف
العجز !

وحى القلم - ثالث

مرة أخرى فهمًا لا خطأ فيه ؛ إذ ينظر الشيخ بالعين الطاهرة ، ويسمع بالأذن الطاهرة ، ويلمس باليد الطاهرة . . . وتالله إن الشيطان لا معنى له إلا أنه وقاحة الأعصاب .

قام (م) : فأنت أيها العجوز الصالح إنما أصبحت بلا شيطان لأن الحرم قد أدب أعصابك . . .

قال العجوز الطريف : وعند من غيرنا نحن الشيوخ تطاع الأوامر والنواهي الأدبية حق طاعتها ؟ عند من غير الشيوخ تقدس مثل هذه الحكم العالية : لا تعتد على أحد . . . لا تُفسد امرأة على زوجها . . .

* * *

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، وكان العجوز (ن) من الآيات في الظرف والنكته ، فقال : تظنني يا بني في السبعين ؟ فوالله ما أنا بجملتني في السبعين ، والله والله .

قال (م) : لقد أهرت الشيخ * يا بني ، فإن هذا من خرفه فلا تصدقه . قال (ن) : والله ما خرفت وما قلت إلا حقاً ، فههنا ما عمره خمسن سنوات فقط ، وهو أسناني . . .

قلت : « ورينا وريت » سنة ١٨٩٥ ؟

قال الأستاذ (م) : أنت يا بني من المجددين ، فما هواك في القديم وما شأنك به ؟

وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طرّف بعينه * * وحدّد بصره إلى وقال : أئنك لانت هو ؟ لعمرى إن في عينيك لضحيجاً وكذباً وجدالاً واحتيالاً وزعماً ودعوى وكفراً وإلحاداً ؛ ولعمرى . . .

فقطعت عليه - وقلت : « لعمرى إنهم لفي سكرتهم يعمهون » ، لقد وقع التجديد في كل شيء إلا في الشيوخ أجساماً والشيوخ عقولاً ؛ فهؤلاء وهؤلاء عند

• أى أخطأ في الرأي من تأثير الكبير .

•• أى حرك أجفانها .

النهاية ، وغير مستنكر من ضعفهم أن يدينوا بالماضى ، فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضعف !

قال العجوز : رحم الله الشيخ (ع) ؛ كان هذا يا بنى رجلاً ينسخ للعلماء فى زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة ، وهو ردىء الخط ، فإذا ورق لأديب ، ولم يعجبه خطه فكلّمه فى ذلك تعلّق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة ؛ منها عشرة للكتابة ، وعشرة غرامة لإهانة الكتابة . . .

نعم يا بنى ، إن للماضى فى قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن ، ثم ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة) ، لا تعد فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، والحقيقة بنفسها لا باسمها ؛ وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا فى رأى المغفل .
قال الأستاذ (م) : وكيف ذلك ؟

قال العجوز : زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تُضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتعل ، فاحتاج يوماً فى بعض شأنه إلى نار ، ولم تكن امرأته فى دارها فجاء بالحطب وأضرم فيه وجعل ينفخ ، وكان الحطب رطباً فدخلن ولم يشتعل ، ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلَبِسَ ثوبَ امرأته وعاد إلى النار ، وكان الحطب قد جف فلم يكذب ينفخ حتى اشتعل وتضرم ؛ فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته . . . وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها !

* * *

قال الأستاذ (م) : إن الكلام فى القديم والحديد أصبح عندنا كفنون الحرب تُبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير فى ذات نفسه ، وعلى ما بلغت وسائل الموت فى القديم والحديد فإنها لم تستطع أن تميت أحداً مرتين .
لقد قرأت يا بنى كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عندنا شيئاً ذا قيمة ؛ ما كان من هراء وتقليد زائف فهو من عندهم ، وما كان جيداً فهو كالنفائس فى ملك الالص : لها اعتباران ، إن كان أحدهما عند مقتنيها . . . فالآخر عند القاضى * .

* فى كتابنا (تحت راية القرآن) كلام كثير عن التجديد والمجددين ، وما نراه من ذلك حقاً وما نراه باطلاً .

كلا أيها اللص ، لن تسمي مالكاً بهذا الأسلوب ؛ إنما هي كلمة تسخر بها من الناس ومن الحق ومن نفسك .

يقولون : العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر واستقلال الرأي ونبد التقاليد وكسر القيود ، إلى آخره وإلى آخرها . . . فهذا كله حسن مقبول سائغ في الورق إن كان في مقالة أو قصة ، وهو سائغ كذلك حين ينحصر في حدوده التي تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض النفوس التي يمثل بها القدر فصوله الساخرة أو فصوله المبكية ، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوتها الموجبة . تردُّه الحياة عليهم بالقوة السالبة ، إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم ، وإذا كان في الإنسانية هذا القانون الذي يجعل النكر المريض حين يهدم من صاحبه — يهدم في الكون بصاحبه ؛ ففيها أيضاً القانون الآخر الذي يجعل الفكر الصحيح السامى حين يبني من أهله — يبني في الكون بأهله .

* * *

قال العجوز (ن) : زعموا أن أحد سلكى الكهرباء كان فيلسوفاً مجدداً ، فقال للآخر : ما أراك إلا رجعيّاً . إذ كنت لا تتبغى أبداً ولا تتطّل بي ولا تجرى في طريقي . ولن تفلح أبداً إلا أن تأخذ مأخذى وتترك مذهبك إلى مذهبي . فقال له صاحبه : أيها الفيلسوف العظيم ، لو أنى اتبعتك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب فيّ ؛ وما عكمتك تشتمنى في رأيك إلا بما تمدحني به في رأيي .

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياة أو العفة إلى آخرها وإلى آخره ؛ ونحن لا نرى هؤلاء الجدد عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحماقاتاتها تلبست بعض العقول كما يتلبس أمثالها بعض الطباع فتزيغ بها ؛ والحياة في لغتها العملية مترادفات كالمترادفات اللفظية : تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد ، فالخرّب والخرّف والجحدّ بمعنى !

كل مجدد يريد أن يضع في كل شيء قاعدة نفسه هو ، فلو أعطناهم لم تبقى
لشيء قاعدة .

قال الأستاذ (م) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن تكون على
سنتها وما تصلح به من الضبط والإحكام ، والجلب لها والدفع عنها والمحافظه عليها
بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدرة ، والسهولة في عملها الصعبة في تدبيرها ؛ فعلى
نحو مما كانت الحياة في بطن الأم يجب أن نعيش في بطن الكون بحدود
مرسومة وقواعد مهياة وحيز معروف ؛ وإلا بقيت حركات هذا الإنسان في معناها
كحركات الجنين ؛ يترتكض ليخرج عن قانونه ، فإن استمر عمله ألقى به
مسنخاً مشوهاً من جسد كان يعمل في تنظيمه ، أو قذف به ميتاً من جسم
كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانه .

هذا الجسم كله يشرع للجنين ما دام فيه ، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد
ما دام فيه ؛ فكيف يكون أمر من أمر إذا كان الجنين مجدداً لا يعجبه مثلاً وضع
القلب ولا يرضيه عمل الدم ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حر .
انظر إلى هذا الشرطي في هذا الشارع يضرب مستقبلاً ليُدبر ، ومدبراً ليقبل ،
وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميز بها ، وهي تتكلم لغة غير لغة الثياب ، وكأنها
تقول : أيها الناس ، إن ههنا الإنسان الذي هو قانون دائماً ، والذي هو قوة أبداً ،
والذي هو سجن حيناً ، والذي هو الموت إذا اقتضى الحال .

أتحسب يا بني هذا الشرطي قائماً في هذا الشارع كجدران هذه المنازل ؟
كلا يا بني ؛ إنه واقف أيضاً في الإرادة الإنسانية وفي الحس البشري وفي العاطفة
الحية ؛ فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه في ذاته إغام بمعنى ، وإكراه بمعنى
غيره ، وقيد في حالة ، وبلاء في حالة أخرى ؟

لكنه إرغام ليقع به التيسير ، وإكراه لتتطلق به الرغبة ، وقيد لتمجد به
الحرية ؛ وكان هو نفسه بلاء من ناحية ليكون هو نفسه عاصمة من الناحية
التي تقابلها .

يا بني ، كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خلاق طيب — كل شيء
من ذلك إنما هو على طريق المصالح الإنسانية كهذا الشرطي بعينه : فإما تخريب

العالم أيها المجددون ، وإما تخريب مذهبكم . . .

* * *

قال العجوز (ن) : أنبحث عما نتسلط به أم نبحث عما يتسلط علينا ؟ وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ، أو نكون نحن أشد منها وأقوى ؟ هذه هي المسألة لا مسألة الحديد والقديم .

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذى يعظم بنا ونعظم به ، فسَدَ الحسُ وفسدت الحياة ؛ وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضلة إن هي إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة فى آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها فى وقائعها ومعانيها .

* * *

قال المحدث : ورأيتنى بين العجوزين كأنى بين نابسين ؛ ولم أكن مجدداً على مذهب إبليس الذى ردَّ على الله والملائكة وظن لحمته أن قوة المنطق تغير ما لا يتغير ؛ فسكتُ ، حتى إذا فرغاً من هذه الفلسفة قلت : والرحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟

العجوزان

٣

قال المحدث : وتبين في العجوز (ن) أثرُ التعب ، فتوجع وأخذ يئن كأن بعضه قد مات لوقته . . . أو وقع فيه اختلالٌ جديد ، أو نالته ضربةٌ اليوم ؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المعركة الفاصلة بينه وبين أيامه .

ثم تأفف وتملل وقال : إن أولَ ما يظهر على من شاخ وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به .

قال الأستاذ (م) : إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطبَّقةٌ فيها) بعضَ المواد من قانون العقوبات فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث .

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « الحبس البسيط » و « الحبس مع الشغل » فما هو هذا الحبس الثالث ؟

قال : هو « الحبس مع المرض » . . .

قال (ن) : صدقتَ لعمري ، فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا : وكأن كرسي الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسيُ الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين . . . أتدري معنى قوله تعالى : (ومنكم من يَرُدُّ إلى أرذل العمر) ولِمَ سماه الأرذل ؟ قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خلطُ الإنسان بعضه ببعض ، ومسخُه من أوله إلى آخره ، فلا هو رجلٌ ولا شاب ولا طفل ، فهو أرذلٌ وأرذل ما في البضاعة . . .

فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت في الثلاثين من عمري ، وهذا هو الذي جعلني فتى حين بلغت السبعين .

قال (ن) : كأن الحياة تصحح نفسها فيك .

قال : بل أنا كرهتها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفتُ من قبل أن سَعَة الإنفاق في الشباب هي ضائقة الإفلاس في الهرم ، وأيقنتُ أن للطبيعة (عدّاداً) لا يخطئُ الحساب ، فإذا أنا اقتصدتُ عدتُ لى ، وإذا أسرفتُ عدتُ على ؛ ولن تعطيني الدنيا بعد الشباب إلا مما في جسمي ، إذ لا يعطى الكونُ حياً أراد أن ينتهى منه ، فكنتُ أجعل نفسي كالشيخ الذي تقول له المملكات الكثيرة : لستُ لك ؛ ومن ثَمَّ كانت لذائق كلها في قيود الشريعتين : شريعة الدين شريعة الحياة .

قال : وعرفتُ أن ما يسميه الناس وَهَنَ الشيخوخة لا يكون من الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عملُ الإنسان في تسميم جسمه ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسرور والحزن واللذة والألم . فكنت مع الجسم في شبابه ليكون معي بعد شبابه ، ولم أبرح أتعاهده كما يتعاهد الرجلُ داره : يزيد محاسنها وينفي عيوبها ، ويحفظ قوّتها ويتقى ضعفها ؛ ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر في يومها القريب لغدها البعيد ، فلا يقطع حساباً آخرها وإن بَعُدَ هذا الآخر ، ولا يزال أبداً محتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع .

قال العجوز (ن) : صدقت والله ؛ فما أفلح إلا من اغتتم الإمكان ؛ وما نوع الشيخوخة إلا من نوغ الشباب ؛ وهذا الجسم الإنساني كالمدينة الكبيرة فيها (مجلسها البلدي) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ؛ ورئيسُ هذا المجلس الإرادة ، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كغيره من القوانين : إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن في الآخر .

قال الأستاذ (م) : وكل جهاز في الجسم هو عضو من أعضاء ذلك (المجلس البلدي) ؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلي والجهاز العصبي والدورة الدموية ، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سنّتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة ، أو مفسدة من زينة ، أو مطمعة في رفاهية ، أو دعوة إلى مدنية ، أو شيء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها ويضعف طبيعتها .

والقاعدة في العمر أنه إذا كان الشباب هو الطفولة الثانية في براءته وطهارته ، كانت الشيخوخة هي الشباب الثاني في قوتها ونشاطها ؛ وما رأيت كالدين وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحدائقها إلى آخر العمر في هذا الإنسان ؛ فسرّ الطفولة إنما هو في قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغىها الغنى ، ولا يكسرهما الفقر ، ولا تذللها الشهوة ، ولا يُفزعها الطمع ، ولا يهولها الإخفاق ، ولا يتعاضدها الضر ، ولا يخيفها الموت ؛ ثم لا تملّ وهي الصابرة ، ولا تبالي وهي الراضية ، ولا تشك وهي الموقنة . ولا تسرف وهي القانعة ، ولا تتبدل وهي العاملة ، ولا تجمد وهي المتجولة ؛ ثم هي لا تكلف الإنسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التي يملكها كل قلب ؛ ولا توجب شريعتها في المعاملة إلا قاعدة الرحمة ، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر ؛ ثم تنهكم بالدنيا أكثر مما تهتمُّ لها ، وتستغنى فيها أكثر مما تحتاج ، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن ، قلّ أو أكثر .

وبكل هذا تعمل الطفولة في حراسة الحياة النضة واستمرارها ونموها ، وأولا ذلك لما زها طفل ولا شبّ غلام ولا رأت العيون بين هموم الدنيا ذلك الرّواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يشبان أن البراءة في النفس أقوى من الطبيعة . وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدين في تهذيب الحياة واطرادها على أصولها القوية السليمة ، ومتى قوى هذا الدين في إنسان لم تكن مفسد الدنيا إلا من وراء حدوده ، حتى كأنه في أرض وهي في أرض أخرى ، وأصبحت البراءة في نفسه أقوى من الطبيعة .

ثم قال : والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق أبداً بأحسن معانيه وأكملها إلا في قلبين : قلب الطفل لأنه طفل ، وقلب المؤمن لأنه مؤمن .

فقال العجوز (ن) : إنه لكما قلت ، ولعنة الله على هذه الشهوات الآدمية الباطلة ، فإن الشهوة الواحدة في ألف نفس لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادلة متنازعة ؛ والطامعان في امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هي الشهوة وهي القتل ؛ ولعنة الله على الملحدّين وإلحادهم ، يزُرُّون على الأديان بأنها تكاليف وقيد وصناعة للحياة ، ثم لا يعلمون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية

التي تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة ، فما ابتليت الإنسانية بشيء كما ابتليت بهذا الخلاف الذي يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجني ، ويجعل التفرة وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة .

لقد جاء العلم بالمعجزات ، ولكن فيما بين الإنسان والطبيعة ، وبين الإنسان ومنافعه ، وبين الإنسان وشهواته ؛ فهل غير الدين يحىء بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس ، وبين النفس وهمومها ، وبين ما هو حق وما هو واجب ؟

* * *

قال المحدث : ثم نظر إلى العجوز (ن) وقال : صِلْ عمك يا بني بالحديث الذي مضى ، فأين بلغنا آنفًا من أمر التجديد والمجددين ؟ وماذا قلنا وماذا قلت ؟ أما إن الحماسة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد ، كل ذلك إن كان جديدًا من صاحبه فهو قديم في الدنيا ؛ وليس عندنا أبدًا من جديد إلا إطلاق الحرية في استعمال كل أديب حقه في الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة .

قال الأستاذ (م) : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ، ولكن بالباطن الذي هو فيه ، فمستشفى المجاذيب قصر من القصور في ظاهره ، ولكن المجاذيب هم حقيقة لا البناء ، وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم ، وهو في الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات ؛ وعلى هذا ما الذي يمنع الفجور المتوقح أن يسمى نفسه الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة ... وأن (لا أدبية) رجل الفن هي (الا أخلاقية العالية) ...

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشهوة إذا استعلت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة ودعت إلى مذهبا ، كانت تجديدًا ما في ذلك ريب ؛ ولكن هذا المذهب هو أقدم ما في الأرض ، إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتمعوا من البهائم منذ خلّق الله البهائم ...

قال (ن) : وقل مثل ذلك في متسخط على الله وعلى الناس يُخرج من كفره بين أهل الأديان أدبًا جديدًا ، وفي مغرور يتغفل الناس ، وفي لص

آراء ، وفي مقلد تقليدًا أعور — كل واحد من هؤلاء وأشباههم مبتلى بعلّة ، فذهبه رسالة علته ؛ وأكثرهم لا يكون ثباته على الرأى الفاسد إلا من ثبات العلة فيه .

* * *

قال المحدث : وكنتُ من المجددين ، فأرْمَضْنِي ذلك وقلت للعجوزين : إن هذا نصف الصحيح ، أما النصف الآخر فهو في كثير من هؤلاء الذين ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة ؛ نعم إنهم لا يستعملون حُتْمَهُمْ في الوقاحة ، ولكن القروش تستعمل حقها . . .

فضحك العجوز (ن) ، وقال : يا بني ، إن الجديد في كل حمار هو أن يزعم أن نهيقه موسيقى . . . فالحمار والنهيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن التسمية وحدها هي الجديدة ؛ ولو كان البرهان في حلق الحمار لصح هذا الجديد ، غير أن التصديق والتكذيب هنا في آذان الموسيقيين لا في حلق حمارنا المحترم . . .

قال (م) وزعموا أن رجلاً نصب فخاً لصيد العصافير ، فجاء عصفور فنظر من هذا الفخ إلى شيء جديد ، فقال : يا هذا ، مالك مطموراً في التراب ؟ قال الفخ : ذلك من التواضع لخلق الله ! قال : فمَن كان انحناءك ؟ قال الفخ : ذلك من طول عبادتي لله ! قال : فما هذه الحبة عندك ؟ قال الفخ : أعددتها لطيور الله الصائمين يفطرون عليها ! قال العصفور : فتُبَيِّحْها لي ؟ قال : نعم .

فتقدم المسكين إليها ، فلما التقطها وقع الفخ في عنقه ، فقال وهو يختنق : إن كان العبيد يسخنقون مثل هذا الخنق فقد خلُق إبليس جديد . . .

قال (ن) : فالحقيقة أن إبليس هو الذي تجدد ليَصْلَحَ لزمن الآلات والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول ؛ وما دام الرقي مطرداً وهذا العقل الإنساني لا يقف عند غاية في تسخير الطبيعة ، فسيتهي الأمر بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة . . . لاستخراج كل ما فيه من الشر .

قال (م) : ولكن العجب من إبليس هذا ؛ أترأه انقلب أورياً للأوربيين ؟ وإلا فما باله يخرج فيهم مجددين من جبابرة العقل والخيال ، ثم لا يؤتينا نحن إلا مجددين من جبابرة التقليد والحمافة ؟

قال المحدث : فقلت لهما : أيها العجوزان القديمان ، سأنشر قولكما هذا ليقراه المجددون .

قال الأستاذ (م) : وانشر يا بني أن الربيع صاحب الإمام الشافعي ، مرّ يوماً في أزقة مصر فنُثرت على رأسه إجانة * مملوءة رماداً ، فنزل عن دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه ، فقيل له : ألا تزجرهم ؟ قال : من استحقّ النار ووصلح بالرماد فليس له أن يغضب ! . . .

* * *

ثم قال محدثنا : واستولى على العجوزان ، ورأيت قولهما يعلو قولي ، وكنت في السابعة والعشرين ، وهي سن الحدة العقلية ، فما حسبتني معهما إلا ثلث عجوز . . . مما أثّرنا على ، وانقلبت لا أرى في المجددين إلا كل سقيم فاسد ، واعتبرت كل واحد منهم بعلته ، فإذا القول ما قال الشيخان ، وإذا تحت كل رأي مريض مرض ، ووراء كل اتجاه إبرة مغناطيسية طرقها إلى الشيطان . . .

وفرغنا من هذا ، فقلت للشيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم أيها الفيلسوفان ، أما كنتم في سنة ١٨٩٥ من الجنس البشري . . . ؟

العجوزان

٤

تتمة

قال محدثنا : وكنت قد ضيقتُ بهذه اللجاجة الفلسفية ، ورأيتني مضطجعا على الشيخين معاً ؛ فقلت للعجوز (ن) : حدثني (رحمك الله) بشيء من قديمكما ، فأنتم اختصار لكل ما مرَّ من الحياة يُستدلُّ به على أصله المطوَّل إلا في الحب . . . وما زلتما في جِدِّ الحديث تعبتان بي منذُ اليوم ، فقد عَدَّكُما بي إلى شأكما ورأيكما في القديم والجديد ، وبقي أن أميلَ بكما ميلاً إلى سنة ١٨٩٥ ، وقد والله كاد ينتحر قلبي يأساً من خبر (كاترينا ومرغريت) ؛ ولكأنك تخشى إذ أعلمتني خبرَ صاحبك هذه وهي من وراء أربعين سنة — ما تخافه من رجل سيفسجركَ معها في الخلوة على حالٍ من الريبة فيأخذك « متلبساً بالجريمة » كما تقولون في لغة المحاكم . . .

قال فضحك العجوزان وقال (ن) : لا والله يا بني ، ولكني أقول ما قال ذلك الحكيم العربي لقومه وقد بلغ مائتي سنة : « قلبي مضغعةٌ من جسدي ، ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدي » * وأعلم يا بني أنه إذا ذهب الحبُّ عن الشيخ بقي منه الحنان يعمل مثل عمله ؛ فيحب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أيَّ ذلك كان ، ليُعيدَه ذلك إلى الدنيا أو يُبقِيه فيها (بقدر الإمكان) . . . فضحك الأستاذ (م) وقال : ولعل ثرثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن) .

ثم قال : وكل شيء يرقُّ في قالب الرجل الهرم ويحوِّل وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج

* هو أكرم بن صفيّ حكيم العرب ، قالها لقومه في سفرهم إلى النعمان بن المنذر كيلا يتكلوا عليه في حيلة ولا منطق ؛ ويقال إنه عاش ثلثمائة وثلاثين سنة ، وفي معنى السنة عن العرب كلام ليس هذا موضعه .

من الدنيا ؛ ولهذا لا يهنا الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر ، وقدّر الأمور على ما هو فيه لا على ما كان فيه ؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه ، فهو مجتمع من أعمالها وشهواتها ، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها ؛ أما الحاضر ، أما الجسم الهرم ، فهو يشعر أنه يحمل أعضائه كلها وكأنها ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر وكان بعضها يسلم على بعض سلام الوداع يقول : تفارقني وأفارقك* .

فتملأ الأستاذ (م) وقال : أف لك ولما تقول ! لا جرّم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها ، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية ؛ أليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليكون ظاهراً فقط كعُشُوش العنقود* * بعد ذهاب الحب منه ، يقول : كان هنا وكان هنا ؟

ألا فاعلم يا (ن) أن هذه الشيخوخة إنما هي غلبةٌ روحانية الجسم على بشريته ، فهذا طورٌ من أطوار الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها ؛ غير أن لذاته بين الروح والجسم ، ومسرته بين العقل والطبيعة ، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة في إدراك الروح وقوتها وشدها ونورها ؛ وقد قيل لبعض أهل هذا الشأن وكان في مرض موته : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة عني كيف تجلني ؟

ولأنما تثقل الشيخوخة على صاحبها إذا هي انتكست فيه وكانت مراغمةً بينه وبين الحياة ، فيقطع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلق به ويتسخط على ذهابه ويتصنع له ويتكلف أسبابه ، وقد نسي أن الحياة ردةً طفلاً كالطفل ، أكبر سعاداته في التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة ، وأقوى لذته أن يتفق الجمال الذي في خياله والجمال الذي في الكون ، وإنه لكما قلت أنت : لا يهنا الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر .

* في الحديث الشريف : إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : عليك السلام ، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة .
** هو ما يبقى من العنقود بعد أكل ما فيه من الحب .

وما أصدق وأحكم هذا الحديث الشريف : « إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الرّوحَ والفرّحَ في الرضى واليقين ، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخط » .
فهذه هي قاعدة الحياة : لا تعاملِك الحياة بما تملك من الدنيا ، ولكن بما تملك من نفسك ، وبذلك تكون السعادة في أشياء حقيقة ممكنة موجودة ، بل تكون في كل ما أمكن وكل ما وجد ؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها ، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها ، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها ، ومن الأسرار التي فيها ، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والأخيلة المتقلبة عليها .

* * *

فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال : (ربِّ إني وهَنَ العظمُ مني) ، ألا ما أحكم هذه الآية ! فوالله إن قرأت ولا قرأ الناسُ في تصوير الهرمِ الفاني أبدعَ منها ولا أدق ولا أوفى ؛ ألا تحس أن قائلها يكاد يسقط من عَجَفٍ وهُزُلٍ وإعْياء ، وأنه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل ، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه فأخلَّ به ، وأن معاني التراب قد تعلق بهذا الجسم تعمل فيه عملها ، فأخذ يفتت كائما لمس القبر عظامه وهو حي ، وأنه بهذا كله أو شك أن ينكسر انكسار العظم بلغ الميرد فيه آخر طبقاته ؟
قال محدثنا : فقلت له : ترى لو أن نابغةً من نوايع التصوير في زمننا هذا تناول بفنّه ذلك المعنى العجيب فكتبه صورةً ولواناً ، لا أحرفاً وكلمات ، فكيف تراه كان يصنع ؟

قال : كان يصنع هكذا : يرسم منظر الشتاء في سماءٍ تعلّق سحابها كثيفاً متراكباً بعضه على بعض يخيل أن السماء تدنو من الأرض ، وقد سدّت السحب الآفاقَ وأظلم بها الجو ظلامه تحت النهار المغطى ، واستطارت بينها وشائع من البرق ، ثم يترك من الشمس جانب الأفق لُمة كضوء الشمعة في فتقٍ من فتوق السحاب ، ثم يرسل في الصورة ريحاً باردةً هوجاءً يدل عليها انحناء الشجر وتقلب النبات ، ثم يرسم رجالاً ونساءً يغلب الشباب فيهم غليانته من قوة وعافية ، وحب وصباية ، وتغلب فيهم أفكار أخرى . . . وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى

موقعهم ؛ وهم جميعاً من المجددين . . .

ثم يرسم يا بنى فى آخرهم (على بُعد منهم) عمّك العجوز (ن) ، يرسمه كما تراه ، منحلّ القوة ، منحنى الصّلب ، مرّ عَشْشاً مُتَزَلِزلاً متضععاً ؛ قد زعزعته الريح ، وضربه البرد ، وخنقته السحب ؛ وله وجه عليه ذبولُ الدنيا ، يُنبئُ أن دمه قد وُضع من جسمه فى برّادة ، والكونُ كله من حوله ومن فوقه أسباب رومانزم . . .

ثم يصوره وقد وقف هناك ساهماً كئيباً ، رافعاً رأسه ينظر إلى السماء .

* * *

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، ثم قال الأستاذ (م) : لعمري إن هذه الحياة الآدمية كآلة صاحبها مهندسها ؛ فإن صلحت واستقامت فن علمه بهم وحياطته لها ، وإن فسدت واختلت فن عبثه فيها وإهماله إياها ، وليس على الطبيعة فى ذلك سبيلٌ لأئمة ؛ والشيخ الضعيف ليس فى هذه الدنيا إلا الصورة الهزلية لمفاسد شبابه وضعفه ولينه ودّعته ، تظهرها الدنيا ليسخر من يسخر ويتعظ من من يتعظ .

قال (ن) : أكذلك هو يا أستاذ ؟

قال الأستاذ : بل هى الصورة الجدية من هذه الباطلة التى دأبها ألا تصرح عن حقيقتها إلا فى الآخر ، فتظهرها الدنيا ليُسجلَ الحقيقة من يجعلها ؛ وليس إلا بهذه الطريقة يُعرف من خراب الصورة خرابُ المعنى .

قال العجوز (ن) : آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها ! إنهم يرونه احتراماً للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية . وما الأشياءُ الهرمى إلا جنازات قبل وقتها ، لا توحى إلى الناس شيئاً غير وحى الجنازة من مهابة وخشوع .

قال الأستاذ : إنما أنت دائماً فى حديث نفسك مع نفسك ، ولو كنت نهراً يا مُستنقع لما كان فى لغتك هذه الأحرف من البعوض .

قال العجوز الطريف : إن هذا ليس من كلام الفلسفة التى تتنازعها بيننا ، تردُّ علىَّ وأرد عليك . ولكنه كلام القانون الذى لك وحدك أن تتكلم به أيها القاضى .

قال (م) : صرّح وبَيَّن فما فهمنا شيئاً .

قال العجوز : هذا كلام قلته قديمًا في حادثة عجيبة ؛ فقد رُفعت إلى ذات يوم قضية شيخ هرم كان قد سرق دجاجة ؛ وتوتمته فإذا هو من أذكى الناس ، وإذا هو يحل عن موضعه من التهمة ، ولكن صبح عندي أنه قد سرق ، وقامت البينة عليه ووجب الحكم ؛ فقلت له : أيها الشيخ ، ما تستحي وأنت شائب أن تكون لصاً ؟

قال : يا سيدى القاضى ، كأنك تقول لى : ما تستحي أن تجوع ؟
فَوَرَدَ عَلَىَّ من جوابه ما حَيَّرَنى ، فقلت له : وإذا جعت أما تستحي أن تسرق ؟ قال : يا سيدى القاضى ، كأنك تقول لى : وإذا جعت أما تستحي أن تأكل ؟

فكانت هذه أشدَّ عَلَىَّ . فقلت له : وإذا أكلت أما تأكل إلا حرامًا ؟
فقال : يا سيدى القاضى ، إنك إذا نظرت إلى محتاجًا لا أجد شيئًا ، لم ترفى سارقًا حين وجدت شيئًا .

فأفحمنى الرجل على جهله وسداجته . وقلت فى نفسى : لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا ؟ فتركت الكلام بالفلسفة وتكلمت بالقانون الذى لا يملك الرجل معه قولًا يراجعنى به ، فقلت : ولكنك جئت إلى هذه المحكمة بالسرقة ، فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين .

* * *

قال محدثنا : وأروضنى هذا العجوز الثرثار وملاً صدرى ، إذ ما برح يديرنى وأديره عن (كاترينا ومرغريت) ، ورأيت كل شىء قد هرم فيه إلا لسانه ، فحملنى الضجر والطيش على أن قلت له : وهب القضية كانت هى قضية (كاترينا) وقد رفعت إليك متهمة ، أفكنت قائلًا لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين ؟

وجرت الكلمة على لسانى وما ألقىت لها بالاً ولا عرفت لها خطراً ؛ فاكفهرَ القاضى العجوز وتربّد وجهه غضبًا ، وقال : يا بنيض ! أحسبني كنت قائلًا لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاضى . . . ؟

وغضب الأستاذ (م) ، وقال : ويحك ! أهذا من أدبكم الجديد الذى تأدبتم به على أساتذة منهم الفسحة الذين يكذبون الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ويسوغونكم مذاهب الحمير والبغال فى حرية الدم . . . ؟ أما إني لأعلم أنكم نشأتم على حرية الرأى ، ولكن الكلمة بين اثنين لا تكون حرة كل الحرية إلا وهى أحياناً سفينة كل السفاهة ، كهذه القولة التى نطقت بها .

لقد كان الناس فى زمننا الماضى أناساً على حدة ، وكانت الآداب حالات عقلية ثابتة لا تتغير ولا يجوز أن تتغير ، وكان الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كالومس : تجهد أن تربي بنتها على غير طريقتها !

قال الحدث : فلجلجت وذهبتُ أعتذر ، ولكن العجز (ن) قطع على وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه : لقد تمت فى هؤلاء صنعة حرية الفكر ، كما تمت من قبل فى ذلك الواعظ المعلم القديم الذى حدثوا عنه أنه كان يقصُّ على الناس فى المسجد كل أربعاء* فيعلمهم أمور دينهم ويعظهم ويحذرهم ويذكرهم الله وجنته وناره ؛ قالوا : فاحتبس عليهم فى بعض الأيام وطال انتظارهم له ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنى قد أصبحت مخموراً

هذا القاصُّ المخمور هو عند هؤلاء السخفاء إمام فى مذهب حرية الفكر ، وفضليته عندهم أنه صريح غير منافق . . . وكان يكون هذا قولاً فى إمام المسجد لولا أنه إمام المسجد ؛ غير أن حرية الفكر تبنى دائماً فى كل ما تبنى على غير الأصل ، وعندها أن المنطق الذى موضوعه ما يجب ، ليس بالمنطق الصحيح ؛ إذ لا يجب شئ ما دام مذهبها الإطلاق والحرية .

كل مفتون من هؤلاء يتوهم أن العالم لا بد أن يمر من تفكيره كما مر من إرادة الخالق ، وأنه لا بد له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمة سخيفة تجعله يحكم ، ولا بد أن يقول (كن) وإن لم يكن إلا جهله ؛ ومذهبه الأخلاقى : اطلب أنت القوة للمجموع ، أما أنا فألتمس لنفسى المنفعة واللذة ! ويحسبون أنهم يحملون

* هو أبو كعب القاص ، ذكره الجاحظ فى الحيوان وقال إنه كان يقص كل أربعاء فى مسجد عتاب بالبصرة .

المجتمع ؛ فإنهم ليحملونه ، ولكن على طريقة البراغيث فى جناح النسر .

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن طائفة من البراغيث اتصلت بجناح نسر عظيم واستمراته ورتسعت فيه ، فصايرها النسر زمناً ، ثم تأذى بها وأراد أن يرمىها عنه ، فطفق يخفق بجناحيه يريد نفضها ، فقالت له البراغيث : أيها النسر الأحمق ! أما تعلم أننا فى جناحيك لنحملك فى الجو ؟ . . .

أما أساتذة هذه الحرية الدينية الفكرية الأدبية ، فقد قال الحكماء : إن بعة من البعير كانت معلمة فى مدرسة .

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن بعة كبش كانت معلمة فى مدرسة الحصى ، فألفت لتلاميذها كتاباً أحكمته وأطالت له الفكرة ، وبلغت فيه جهداً ما تقدر عليه لتظهر عبقريتها الجبارة ؛ فكان الباب الأكبر فيه أن الجبل خرافة من الخرافات ، لا يسوغ فى العقل الحر إلا هذا ، ولا يصح غير هذا فى المنطق ؛ قالت : والبرهان على ذلك أنهم يزعمون أن الجبل شئ عظيم ، يكون فى قدر الكبش الكبير ألف ألف مرة ؛ فإذا كان الجبل فى قدر الكبش ألف ألف مرة فكيف يمكن أن يسبعره الكبش ؟ . . .

قال الأستاذ (م) : هذا منطق جديد سديد لولا أنه منطق بعة !

قال (ن) : وكل قديم له عندهم جديد ، فكلمة (رجل) قد تخشت ، وكلمة (شاب) قد تأثت ، وكلمة (عفيفة) قد تدنست ، وكلمة (حياء) قد تنجست ؛ والزمن الجديد ألا يعرف الطالب فى هذا العام ماذا تكون أخلاقه فى العام القادم . . . والحياة الجديدة أن تتقن الغش أكثر مما تتقن العمل . . . والذمة الجديدة أن مال غيرك لا يسمى مالا إلا حين يصير فى يدك . . . والصدق الجديد أن تكذب مائة مرة ، فعسى أن يصدق الناس منها مرة . . . ثم الإنسان الجديد ، والحب الجديد ، والمرأة الجديدة ، والأدب الجديد ، والدين الجديد ، والأب الجديد ، والابن الجديد ؛ وما أدرى وما لا أدرى .

قالوا : (السوبرمان) ، وتنطَّعوا في إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه ، فسخرت منهم الطبيعة فلم تخرج إلا الناقص أفحش النقص ، وتركتهم يعملون في النظرية وعملت هي الحقيقة .

* * *

قال محدثنا : ونهض العجوز (ن) ، وهو يقول : تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق ! لو فهموا عنك لفهموا الحكمة في أنك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة . . .

قال : ولما انصرف العجوز ، قلت للأستاذ (م) : ولكن ما خبر (كاترينا) و (مرغريت) وسنة ١٨٩٥ ؟

فقال : أيها الأبله ، أما أدركتَ بعدُ أن العجوزين قد سخرا منك بأسلوب جديد

السطر الأخير من القصة^(١)

رجعتُ إلى أوراق لى قديمة يبلغ عمرها ثلاثين سنةً أو لِيَاذَهَا ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، وجعلتُ أفلى هذه الأوراقَ واحدةً واحدةً ، فإذا أنا على أطلال الأيام فى مدينة قائمة من تاريخى القديم ، نائمة تحت ظلُماتها التى كانت أنوارَ عهد مَضَى ؛ وإذا أنا منها كالذى اغترب ثلاثين سنةً عن وطنه ثم آب إليه ؛ فما يَرَى من شىء كان له به عهدٌ فى أيام حداثته ونشاطه إلا اتَّصلَ بينهما سرٌّ ؛ ومن طبيعة القلب العاشق فى حنينه أن يَجْمَعَلَ كُلَّ شىءٍ يتَّصل به كأنه ذو قلب مثله له حنينٌ ونجوى !

وذلك التلاشي المحفوظ فى هذه الأوراق ، يَحْفَظ لى فيها وفيما تحتويه نفساً وطبيعةً كانت نفسَ شاعر وطبيعةَ روضة ، فى عهد من الصَّبى كنتُ فيه أتقدّم فى الشباب وفى الكونِ معاً كأنَّ الأشياءَ تُخْلَقُ فى خَلْقٍ آخر ؛ فإذا قَرَضْتُ شعراً واستوى لى على ما أحب ، أحسستُ إحساسَ الملك الذى يَنْهَمُ إلى مملكته مدينةً جديدةً ؛ وإذا تناولتُ طاقةً من الزهر وتأمَلْتُها على ما أحب ، شعرتُ بها كأجمل غانية من النساء تُوحى لى وحى الجمال كله ؛ وإذا وقفتُ على شاطئ البحر ، تَرَجَّجَ البحرُ بأواجه فى نفسى ، فكنتُ معه أكبرَ من الأرض وأوسعَ من السماء . أما الحب . . . أما الحب فكانت له معانيه الصغيرة التى هى كضرورات الطفل للطفل : ليس فيها كبيرُ شىء ، ولكنَّ فيها أكبرُ السعادة ، وفيها نَصْرَةُ القلب .

عهدٌ من الصَّبى كانت فيه طريقةُ العقل من طريقة الحُلُم ؛ وكانت العاطفةُ هى عاطفةُ فى النفس ، وهى فى وقت معاً خدعةٌ من الطبيعة ؛ وكان ما يأتى يُنسبى دائماً ما مضى ولا يُذكرُ به ؛ وكانت الأيامُ كالأطفال السعداء : لا ينأى أحدهم إلا على فكرةٍ لعب ولهو ، ولا يستيقظ إلا على فكرةٍ لهو ولعب : وكانت اللِّغَةُ نفسها كأنَّ فيها ألفاظاً من الحلوى ؛ وكانت الآلامُ — على قلنتها —

كالمريض الذى معه دواؤه المجرب ، وكانت فلسفة الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير ، الواضح كلّ الوضوح ، المقتصر بكل لفظ على ما يعرف من معناه ، المتفلسف فى تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف فى تخيّل الفكرة !
هو العهد الذى من أخصّ خصائصه أن تعمل ، فيكون العمل فى نفسه عملاً ويكون فى نفسك لذة .

* * *

فى أوراق تلك بحثت عن قصّة عنوانها « الدرس الأول فى علبة كبريت » كتبتها فى سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدري يومئذ أنها قصّة يسّبح فى جوها قدّر روائى عجب ، سيأتى بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذى تم به فلسفة معناها .

وهأنذا أنشرها كما كتبتها ؛ وكان هذا القلم إذ ذاك غضباً لم يصلب ، وكان كالغصن تميل به النسمة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل ، بلاغة فرحه أو بلاغة حزنه ؛ وهذه هى القصة :

« عبد الرحمن عبد الرحيم » غلام فلاح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعة أعوام ، مرت به كما يمرّ الزمن على ميت : لا تزيده حياة الأحياء إلا إهمالاً . فنشأ منشأ أمثاله ممن فقدوا الوالدين وانتزعوا من شملهم فتركوا للطبيعة تنصّلهم وتصلهم بالحياة ، وتضيق لهم فيها وتوسع .

وهيأت الطبيعة منه إنساناً حيوانياً ، لا يبلغ أشده حتى يغالب على الرزق بالحياة أو الجريمة ، ويستخلص قوته كما يرتزق الوحش بالمخالب والناب ، ولن يكون بعد إلا مجموعة من الأخلاق الحيوانية الفاتكة الجريئة ، فإن الطبيعة متى ابتدأت عملها فى تحويل الإنسان عن إنسانيته ، نزلت به إلى العالم الحيوانى ، ووصلته بما فيه من الشر والدناءة ، ثم لا تترك عملها حتى يتحوّل هو إليها .

وألِف « عبد الرحمن » فى بلده حانوت رجل فقير ، يستغنى بالبيع عن التكفّف وعن المسألة ؛ فكان الغلام يكثر الوقوف عنده ، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطير ، فستأناً وبقايا ؛ إذ كان الغلام شحاذاً ، وكان

صاحبُ الحانوت لا يرتفع عن الشَّحَاذَةِ إلا بمَنْزِلَةٍ تجعلُ الناسَ يتصدَّقون عليه
بالشراء من هَسَاتِهِ التي يسميها بضاعة : كالخيط ، والإبرة ، والكبريت والملح ،
وغزال اللولد ، وكحلِّ الصَّبَايا ، ونشوق للعجائز ، ونُسُخَةُ الشَّيخِ الشَّعْرَانِي ،
ومالِفٌ لَفَّهَا مما يصعد ثمنه من كسور المليم ، إلى المالم وكسوره !

وتَغَمَّلَ الغلامُ مرَّةً وأهوى بيده إلى ذخائر الحانوت ، فالتفتت « علبة
كبريت » كان الفَرْقُ كُلُّ الفرق بين أن يسرقها وأن يشتريها - نصفَ مليم ؛
ولكن مَنْ له « بالعشرين الخُرْدَةُ » وهي عند مثله دينار من الذهب يربِّ زِينَةً
ويرقص على الظَّفَرِ رَقْصَةً إنجليزية ؟

وماذا يصنع بالعلبة ؟ همَّتْ نفسه أن تجادله ولما تَسْكُنُ رَعَشَتُهُ يده
من هَوْلِ الإثم ، ولكن الغلام كان طبيعياً ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك رأى أن
يُحَرِّزَ الحقيقة بعد أن وقعت يدهُ عليها . وقد اصطَلَحَ الناس على أن مادة السرقة
هي « مدُّ اليد » أخطأت أم أصابت ، وجاءت بالغالى أو جاءت بالرخيص ؛
فضم أصابعه على العلبة وانزعجها ، وترك في مكانها فضيلة الأمانة التي لم يعرف له
الناس قيمتها فهانت كذلك على نفسه وانطلق وهي تناديه :

أيها الغلام ، أتدفع ثمن علبة الكبريت سنتين من عمرك ؟ وهلا خلا الناس
ممن يعرفون لعمرك قيمة ؟

وارتدَّ رَجْعُ الصوت الخفى إلى قلبه من حيث لا يشعر ، فَضَرَبَ قلبه ضَرَبَاتٍ
من الخوف ، ونزا نزوةً مضطربة ؛ فالتفت الغلامُ مرَّةً أخرى ، ثم أَمْعَنَ في الفِرَارِ
وترك الأمانة تناديه :

أيها الغلام ، إن لك في الآخرة ناراً لا تُوقد بهذا الكبريت ، ولك في الدنيا
سجنٌ كهذه العلبة ، فالنَّعْبُ الْعَبُّ ما دام الناس قد أهملوك ! اللعب بالثَّقَابِ الذى
في يدك فسيمتدَّ فيك معنى اللَّهَبِ حتى يجعل حياتك في أعمار الناس دُخَانًا
وناراً ؛ وستكون أيامك أعواداً كهذا الكبريت : تشتعل في الدنيا وتُحْرَقُ .

وكأن أذئاب السياط كانت تلهب ظهر الغلام المسكين ، ولكنه ما كاد
يلتفت هذه المرة حتى كان في قبضة صاحب الحانوت ، وإذا هو بكلمة من
لغة كَفَّهِ الغليظة ، خَبَيْلَتْ له في شعرها أن جداراً انقضى عليه ، وتلتها جملة

من قوافي الصَّفْع جَلَسَ جَلَسَتْ في أذنيه كالرعد ، وأعقب ذلك مثلُ الموج من جماعات الأطفال أحاط به فترك هذا الزَّورقَ الإنسانَ الصغير يتكفأ على صَدَمَات الأيدي ، فما أَحَسَّ الغلامُ التَّعَسُّ إلا أن الكبريت الذي في يده قد انقذح في رأسه ، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده في جلد وجهه الخشن !

* * *

وذهبوا به إلى (دَوَّار) العمدة يقضى فيه الليل ثم يُصبح على رحلة إلى المركز والنيابة ؛ وانطرح المسكين منتظراً حكم الصباح ، مؤملاً في عقله الصغير ألا يُفصح النهار حتى يكون « سيدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة وشهودها ، ثم أغنى مطمئناً إلى ملك الموت وأنه قد أخذ في عمله بجد ، وأيقن عند نفسه أن سيشهد في الخميس مما يُوزع في المقبرة صدقةً على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذي عهدوا إليه جرةً إلى المركز ! . . . وكيف يشك في أن هذا واقعٌ بهم وهو قد توسل بالوليَّ فلان ونذر له شمعةً يسرقها من حانوت آخر ! . . . !

هكذا عرف الشرَّ قلبُ هذا الصبي ، وانتهى به عدلُ الناس إلى أفضع من ظلم نفسه ، وكأنهم بذلك القانون الذي يُصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سُبْحَةً ليظهر بها مظهر الصالحين ؛ ولم يفهموه شيئاً ففهم أنهم يقولون له : هذه الجريمة واحدة ، فعُدَّ جراً عليك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ !

كانت في الحقيقة لعبة لا سرقة . وكانت يدُ الغلام فيما فعلت مُستجيبةً لقانون المرح والنشاط والحركة ، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يدُ اللص ؛ وكان أشبه بالرضيع يمدُّ يده لكل ما يراه ، لا يميز ضارةً ولا نافعةً ، وإنما يريد أن يشعر ويحقق طبيعته ؛ وكان كل ما في الأمر وقصارى ما يبلغ — أن خيال هذا الغلام أَلَفَ قصةً من قصص اللّهُو ، وأن الكبار أخطئوا في فهمها وتوجيهها . . . ! ليست سرقة الطفل سرقة ، ولكنها حقٌّ من حقوق ذكائه يريد أن يظهر .

* * *

وانتهى «عبد الرحمن» إلى المحكمة، فقدضت بسجنه في (إصلاحية الأحداث) مدة سنتين، واستأنف له بعض أهل الخير في بلدة؛ صدقةً واحتساباً . . . إذ لم يكلف الاستئناف إلا كتابة ورقة؛ فلما مَسَّكَلَ الصغيرُ أمامَ رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه، ولكن انطلق من داخله مُحَامٌ شيطانيٌّ يتكلم بكلام عجيب، هو سخريةُ الجرمية من المحكمة، وسخريةُ عملِ الشيطان من عمَلِ القاضى . . . !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ » .

— : « اسمي عبده ، ولكن العملة يسميني : يابن الكلب ! »

— : « ما سنك ؟ » .

— : « أبويًا هُوَ اللّٰهِي كَانَ سَنَانٌ * .

— : « عُمُرُكَ إِيَّاهُ ؟ »

— : « عُمُرِي ؟ عُمُرِي مَا عَمَلْتُ شَقَاوَةً ! »

النيابة للمحكمة : « ذكاءٌ تخيف يا حضرات القضاة ! عُمُرُهُ تِسْعُ سنوات ! »

الرئيس : « صَنَعْتَكَ إِيَّاهُ ؟ »

— : « صَنَعْتُ أَلْعَبَ مع محمود ومريم ، وَأَضْرَبَ اللّٰهِي بِضَرْبَتِي ! » .

— : « تَعِيشُ فِيْهِ ؟ »

— : « فِي الْبَلَدِ ! »

— : « تَأْكُلُ مِنْهُ ؟ »

— : « أَكُلُ مِنَ الْأَكْلِ ! »

النيابة للمحكمة : « يا حضرات القضاة ، مثلُ هذا لا يسرق علبة كهربيت إلا

ليُحْرِقَ بِهَا الْبَلَدَ . . . ! »

الرئيس : « أَلَسْتَ أَمًّا ؟ »

— : « أُمِّي غَضِبَتْ عَلَى أَبُويَا ، وَرَاحَتْ قَعَدَتْ فِي التُّرْبَةِ ؛ مَارِضِيَّتَشْ

تَرْجَعُ ! »

— : « وَأَبُوكَ ؟ »

* كان أبو الغلام سناناً ، ومثل هذا القدر من العامية في القصة هو ملح القصة .

- : « أبُو يا لآخرَ غَضِبَ وراحَ لها » .
 الرئيس ضاحكاً : « وأنتَ ؟ »
 — : « والله يا افندى عاوزا غَضِب ، مُشْ عارفَ أغضبَ ازَّاي ! » .
 — : « إنتَ سَرَقْتَ علبة الكبريت ؟ »
 — : « دِي هِيَّ طارت من الدكان ، حسبَها عصفورة ومُسكِتها . . . »
 النيابة : « وَليه ما طارتشِ العلب اللى مِعاها فى الدكان ؟ »
 — : « أنا عارف ؟ يَمَكِين خافت منى ! »
 النيابة للمحكمة : « جِراة مخيفَة يا حضرات القضاة ، المتهم وهو فى هذه
 السن ، يشعر فى ذات نفسه أن الأشياء تخافه ! »
 فصاح الغلام مسروراً من هذا الثناء . . . « والله يا افندى إنتَ راجِل طيب !
 أدبك عِرْفَتْنى ، ربنا يكفيك شر العمدة والغفير ! »

* * *

وَأَمْضَى الْحُكْمُ فى الاستئناف ، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين
 يسوقهم الجند ، ثم احتَبَسُوا الجميعَ قِطْرَةً من الوقت عند كاتب المحكمة ، ليستوفى
 أعماله الكتابية ؛ ثم يساقون من بعدُ إلى السجن .
 وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة من
 المجرمين يتحدَّثون ويتغامزون ، وكلُّهم رجال ولكنه وحده الصغير بينهم ؛ فاطمأنَّ
 شيئاً قليلاً ، إذ قدَّرَ فى نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أُريدَ بهم شرٌّ لما سكنوا هذا
 السكون ، وأن الذى يرادُ بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ، كصفعة أو صفتين
 مثلاً . . . وهو يسمع أن الرجال يَمُتِلُون ويَحْرَقُون وَيَسْمُون ويعتدُّون وينهبون ؛
 وما تكون (علبة الكبريت) فى جنب ذلك ؟ وخاصةً بعد أن استردَّها صاحبُها ،
 وقد نال هو ما كفاه قبل الحكم !

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنانُ فى عينيه دموعاً كاد
 يُريقها الجزع ، غير أن القلق اعتاده ، فالتفت إلى كتَّاب المحكمة مرَّةً وإلى
 الجند مرَّةً ، ثم لوى وجهه ولم يَسْتَبِحْ لنفسه أن يتجرَّأ على الفكر فيهم ، لأنه قابِلَ
 مهابتهم بألهة بلده : العمدة والمشايخ والخفراء ؛ فأدرك أن الجنود هم الحكومة

القادرة ، واستدلَّ على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصقيلة : وتشتت في قلبه رهبةُ هذه الخناجر ، فاضطرب خشيةً أن يكونوا قد أسلموه إلى مَنْ يذبحه ، فنظر إلى الذى يليه من المجرمين وسأله : « راحْ ياخذُونى فِينْ ؟ » ، فأجابته لكمةٌ خفيفةٌ انطلق لها دمعُهُ ، حتى أسكتتهُ الذى يليه من الجانب الآخر ، وكان فى رأيه من الصالحين ؟

ثم اتصل الجزعُ بين قلبه وعينه ، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع ، وكأنما يحاول أن يستشفَّ من أيَّها سيأتيه الموتُ ذبحاً ؛ ولم يكن فَهِيْمَ معنى (الإصلاحية) ، وحكَمَ القضاةُ عليه كأنه رجل يفهم كلَّ شىء ، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مفسرة . وعدلُ التربية غيرُ عدل القانون ، فكان الواجب على القاضى الذى يحكم على الطفل ، أن يجعلَ حكمهُ أشبهَ بصيغةِ القصة منه بصيغةِ الحكم ، وأن يدعَ الجريمة تنطلق وتذهب فلا يقول لها امْكُئى . . .

وبقى للخناجر رهبتها فى نفس هذا المسكين ، فلو أنهم قادوه إلى جبل الشناقفة لأفهمه (الحَبِيلُ) معنى العقوبة ، أما وهو بين هذه الخناجر المغمدة - وفى الخناجر معنى الذبح - فإنما هو الذبح لا غيره .

وطرقت أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذته من هذا الخاطر ، فثبتَ عينه فى الرجل ، فإذا هو يرى وجهاً متلاًثماً ، وجسمًا رابطَ الجأش ، وهزُؤًا وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم .

واستراح الغلام إلى صاحبه هذا ، وألحَ بنظره عليه ، وابتدأ يتعلم فى وجهه الفلسفة ؛ وليست الفلسفة مقصورةً على الكتب ، بل إن لكل إنسان حالةً تشغله ، فتَظَرُّهُ فى اعتبار دقائقها وكشفِ مستورها هو الفلسفة بعينها .

وقال الغلام لنفسه : « هذا الرجل أقوى من كل قوة ؛ فهو محكوم عليه ولا يبالى ، بل يقهقهه ضحكًا ؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف ؛ لا ، بل هو تعودَ الأحكام ؛ إذن فمن تعود الأحكام لم يَخَفِ الأحكام ؛ إذن يا عبد الرحمن ستتعود ، فإن الخوف هذه المرة قد غطاك من (علبة الكبريت) فى حريق متسعٍ ، وما قدَرُ (علبة الكبريت) ؟ فلو كانت السرقة جاموسة ما لَبِيتُ أكثرُ من

ذلك ؛ يا ليتنى إذن . . . ولكنى لا أزال صغيراً ؛ فتى كبرت . . . آه متى كبرت . . . »

وبدأ القانونُ عمله في الغلام ؛ فطرد منه الطفلَ وأقرّ فيه المجرم .

* * *

وأطرقَ « عبد الرحمن » هادئاً ساكناً ، وقامت في نفسه محكمة من الأبالسة بقضائياتها ونيابتها ؛ يجادل بعضهم بعضاً ، ويداولون بينهم أمرَ هذا الغلام على وجهٍ آخر .

وقال شيطان منهم : « ولكننا نخشى أمرين : أحدهما أن (الإصلاحية) ستُخرجه بعد سنتين شريفاً يحترف ؛ والثاني أن الناس ربما تولّوه بالتربية والتعليم في المدارس رحمة وشفقة ؛ فيخرج شريفاً يحترف » .

وما أسرع ما نفى الخوفَ عنهم قولُ الغلام نفسه بلهجة فيها الحقد والغیظ وقد صفَعهُ الجندى الذى يقوده إلى السجن — : « وداكله على شآنٍ علبة كبريت ؟ . . . »

.....
.....

في سنة ١٩٣٤ قَصَتْ محكمة الجنايات بالموت شتقاً على قاتلٍ مجرمٍ خبيث عيارٍ مُتَشَطِرٍ ؛ اسمه « عبد الرحمن عبد الرحيم » .

عاصفة القدر^(١)

على شاطئ النيل في إقليم (الغربية) من هذا البر ، قرية ليس فيها من جبل ، ولكن روح الجبل في رجل من أهلها ، فإذا أنت اعتبرته بالرجال قوة وضعفاً رأيته ينهض فيهم بمنكبيه نهضة الجبل فيما حوله ؛ وهو بطل القرية ولواء كل معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتیان القرى المتناثرة حولها ؛ ولا تزال هذه المعارك بين شبان القرى كأنها من حركة الدم الحر الفاتح المتوارث فيهم من أجيال بعيدة ، ينحدر من جيل إلى جيل وفيه تلك القطرات الثائرة التي كانت تغلى وتنفور ، وهي كعهد لها لا تزال نفور وتغلى ؛ ويلقبون هذا الرجل الشديد (بالجمل) ، لما يعرفونه من جسامه خلقه وصبره على الشدائد ، واحتماله فيها ، وكونه مع ذلك سلس القيادة سليم الفطرة رقيق الطبع ؛ على أنه أبطش ذى يدين إن ثار ثائره ، وله إيمان قوى يستمسك به كما يماسك الجبل بعنصره الصخرى ، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات ؛ إذ لا بد له من بعض الجرائم الشريفة التي يحمل عليها فرط القوة والبرودة في مثله مع مثله .

وليس في تلك القرية من بحر ، غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وعتوا من الموجة على بحرهما في يوم ربيع عاتية ، حلوا المنظر لكنه مر الطعم ، صافى الوجه لكن له غوراً بعيداً من الدهاء والخبث ، وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة ، يبسط يديه على خمسمائة فدان ، وقد أفسدته النعمة وأهانته عزته على أهله ؛ ولو اجتمعت حستان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب ، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين . تعلّم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلى العلم ، فجعلت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية فإذا قيل له في ذلك قال : إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة . . . وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذي استعصى عليه في مصر ، فأرهدف ذلك العلم . . .

خياله وصل حسه ، ورجع من باريس رقيق الخاشية خشناً متطرفاً لا يصلح شرقياً ولا غربياً !

وليس في تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتف من جسمها في رداء الجمال الطبيعي الرائع ، ولها نفسٌ أشدُّ وعورةٌ مما تنطوى الغابة عليه ؛ ففي ظاهرها الرفقُ الذي يفتن فيجذب إليها ، وفي باطنها القوة التي تلتوى فتدفع عنها ؛ وهى ابنة عم (الحمل) واسمها (خضراء) ، وكأن فيها زهو خضرة الربيع ، ولم تكن تعشق إلا القوة ، فما يزيّن لها من الرجال إلا ابن عمها ، وهى شديدة الإعجاب به ؛ وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها .

وكانت (خضراء) جاهلة كنساء القرى ، بسيد أنها تلميذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها ؛ فهي بذلك أقوى نفساً وأشدُّ مراساً من الفتيات المتعلّعات ؛ إذ اتخذت شكلاً ثابتاً من أشكال الحياة ، والحياة هي صانعها هذه الصنعة أو قامتها على هذه الهيئة ، على حين أن المتعلّعات يُمضين أيام النشأة وسنَّ القرينة في التلقّي عن الألفاظ والكتب ، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها وفي توقى أعمال الحياة بدلاً من مخالطتها ؛ فيثول ذلك منهن إلى قوة في التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً ما ؛ وتم الواحدة منهن ، ولكن باعتبار أنها تمت تلميذة للمدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يعجب وما لا يعجب .

وكانت خضراء أشبه بدورة النهار : تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم ، ولا تزال نهارها في دأب وعمل ، ففى ذلك عن أخلاقها ما يجلبه السكون من الخمول والميل إلى العيب والدُّعابة ، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل في النظام الإنسانى ؛ عليه أن يصبر على الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزورة المصنوعة ؛ ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ولا يترك للمرأة إلاّ كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثواني في الرقعة التي تجمعها ؛ فهذا الصغير لا يبرح يضطرب في « دائرته الضيقة » يهتز من جزء إلى جزء ، حتى إذا أتم الدقيقة في ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطا بها خطوة واحدة : ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل

عمله ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هو أقلهما قيمةً وظهوراً ؛ ولكن هذا الضعيف المغبون لم ينلهُ ما نالهُ إلا من كونه هو وحده الذى بُنى في هذا النظام على فضيلة الصبر والدقة ، ليكون أساساً للآخر ؛ فعرفت (خضراء) كيف تقيد طبيعتها من تلقاء نفسها ، وتُقرها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعي والاغتراب به ؛ إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً أو أسباب فضل ، بل في كونها هى أكثر منه حباً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً ؛ ففضائلها الحقيقية هى التى جعلته الأفضل ، كما تجوع الأم لتطعم ابنها ! .

* * *

ورآها (ابن العمدة) ولما تمض أيام على رجوعه من أوروبا ، وقد لبث هناك بضع سنين ، وكان عهدُه بالفتاة صغيرة ، فوثبت إلى نفسه في وثبة واحدة ، ورأى شاباً وجمالاً وروعة زينتها في قلبه وسوّلت له مطعماً من المطاعم ، وجعلته يرى ما يرى بمعنى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره .

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن ويتصاحكن ، كأن لخصب الأرض في أرواحهن أثراً بادياً ، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شؤنهن تندت روح الماء على ذلك الأثر فاهتزت واهتزت المرأة به ، فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندى ، وذهبت تتموج في جسمها ، وقد حسرت عن ذراعيها ، ولمس الماء دمهها الجذاب فأرسل فيه تياراً من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحس ؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة ، فما أحسبه إلا يشرب منها بعينه شرباً يجد له في قلبه نشوة كنشوة الخمر ؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى فزينها له الخبث الذى فيه أضعاف ما زينها له الجمال الذى فيها ، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة ؛ فوقف يتأملها بعين أحد من آلة التصوير لا تفوتها حركة ، وسلط عليها فكره وذوقه ، وأيقظ لها في نفسه المعانى الراقدة ، فنصبت في

قلبه عدة من تماثيل الجمال تجسّدت في كل واحد منها على شكل كأنما أفرغت فيه إفراغاً .

* * *

وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة ؛ إذ قامت من نشأتها على أن تطلب فتجاب ، وتأمر فتطاع ، وتستهي فتجد ؛ وكأنه ما خلق إلا ليستبد قلبي والديه ، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية ، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدنيا إلا أنها الحاجة إلى المال ، ومنقطعين من النسل إلا منه ، فكأنه لم يولد لهما ، بل قد ولد له ... فله الأمر عليهما من كونه لا أمر لهما عليه ؛ وبذلك أسرف له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها ، وهي في نفسها فضائل ، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تنشئ في أولادهم إلا ما يكون من أضدادها ، كالشجر تفرط عليه الرى فلا يحدث فيه إلا اليبس والدوى ، وإنما أنت تسقيه الموت ما دمت ترويه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته .

ونشأ الفتى في أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخص طباعه تمويه نفسه على الناس ، والتباهي بالغنى ، والتنبُّل بالأصدقاء والحاشية من وزرائه وعماله ، والتهيُّ بالثياب والأزواء ؛ فانصرف باطنه إلى تجميل ظاهره ، وردَّ ظاهره على باطنه بالشهوات والدنايا ، وأعانه على ذلك أنه جميل فأنما كأنما خلقت صورته « للصفحة الحساسة » من قلوب النساء ؛ وذلك ملكٌ عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منه إلا كما يكون وزير مالية الدولة ولما أرسل إلى باريس وقع منها في بلد عجيب كأنه خيال متخيل لا يؤمُّه رجل في الدنيا من كامل أو ناقص وعالم أو جاهل وشريف أو ساقط إلا رأى فيه ما يملأ كل مداخل نفسه ومخارجها ، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية في خيرها وشرها وطهرها وفجورها واختلالها ونظامها لكانت هي باريس ؛ وانقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء ، فلا أهل فيلزمه الفضيلة ، ولا إخوان فيردُّوه إلى الرأي ، ولا خلُق متين فيعتصم به ، ولا نفس مرّة فينبى إليها ، ولا فقر . . . فيحدّ له حدوداً في الشهوات يقف عندها ؛ وما هو إلا خيال متوقد ومزاج مشبوب

وتربية مدللته وطبع جرىء ومالٌ يمرُّ في إنفاقه ، ومن ورائه أب غنى مخدوع كأنه في يد ابنه كرة الحيط : كلما جذب منها مدت له مدًّا ، ثم ما هنالك من فنون الجمال ومَتَع الذات وأسباب اللهو ، مما يتناهى إليه فساد الفاسد . وما هو في ذاته كأنه عقوبة مستأصلةٌ للأخلاق الطيبة ؛ فكان الشيطان الباريسيُّ من هذا المسكين في شمعِه وبصره ورجله ويده ، يوجَّهه حيث شاء ؛ وبالجمله فقد ذهب ليدرس فدرس ما شاء ورجع أستاذًا في كل علوم النفس المختلة الطائشة وفنونها ، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوى بها لسانه من علوم وأقاويل ليس فيها إلا ما ما يدل الحاذق على أن هذا الشاب لم يفلح قط في مدرسة .

فلما وقعت (خضرَاء) منه ذلك الموقع وأخذت مأخذها في نفسه ، اعتدها نزوة من نزواته ؛ فما بمثله أن يحب مثلها ، ولا هي كفايته في شيء إلا أن تكون له ساعة من ساعاته ؛ أو حادثة تجرى فيها حال من أحواله الغرامية ؛ وحسبها امرأة ليس لقلبها أبواب تمتنع على مثله ، فقدَّر أن غناه وفقرها يقتلعا بابًا ، وعلمه وجهلها يحطمان بابًا آخر ، وجماله وحده يُضَعُّ ما بقي من الأقفال عما بقي من الأبواب ! وكان يحسب أن جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها ؛ فكل من ملك ثمنها فليس بينه وبينها إلا هذا الثمن ؛ ولكن الأيام جعلت تأتي وتقر وهو لا يزيد على أن يعرض لها وهي ترميه من صدودها كل يوم بداعية من دواعي الهوى ؛ وكان لا يجد بنفسه قوة أن يزيدها على النظر شيئًا ، وترك لوجهه وثيابه ونظراته وغناه أن تصل بين قلبه وقلبها بسبب ، فلم ينل طائلا ؛ وتماذى في حبه ، واستولت عليه فكرة غمرته بهذه المرأة ؛ أما هي فأشعرتها غريزتها بما في قلبه منها ، وكانت مسماة لابن عمها فكانت تتحاشى هذا الشاب وتحذره حذرًا شديدًا ، وتتوهم أن الناس يحصون عليها النظرة والالتفاتة ويحصون عليه من مثلهما ، ووقع في نفسها أن لهذا الرجل شأنًا غير شأن الرجال الآخرين ، فهم لا يستطيعون معها حيلة وهو يستطيعها بغناه ومنزلته . -

وكان للرجل خادم داهية قد تخرَّج في مجالس القضاء . . . من كثرة ما حُكِم عليه في تزوير واحتيال وغش وادعاء وإنكار ونحوها ، وقد استخلصه لنفسه

• مدة لخطبته ، أو كما يقولون : قرئت مع أهلها الفاتحة .

واتخذهُ مَوَازِسًا وَرَفِيقًا ؛ وَجَعَلَهُ دَسِيسًا * إِلَى شَهَوَاتِهِ السَّافِلَةِ وَكَانَ يَسْمِيهِ
فِيمَا بَيْنَهُمَا (إِبْلِيسَ) ؛ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْمِيَهَا بِهِ قَالَ : يَا سِيدِي ، هَذِهِ قَضِيَّةُ
اِحْتِيَالٍ عَلَيْهَا ، فَإِذَا دَخَلَ ابْنُ عَمِّهَا خَصَمًا فِي الدَّعْوَى كَانَتْ قَضِيَّةَ اِحْتِيَالٍ عَلَى
عَمْرِي أَنَا ! قَالَ : وَيَحْكُ أَيُّهَا الْأَبْلَه ! فَأَيْنَ دَهَاؤُكَ وَمَكْرُكَ ؟ وَإِنَّمَا أُرْسَلْتُ إِلَى
امْرَأَةٍ فَقِيرَةٍ عَيْشِهَا كِفَافُهَا ، وَأَنْتَ تَعْدُهَا وَتَمْنِيْهَا وَتَبْذُلُ عَنِّي مَا شِئْتَ ، وَمَتَى
أَطْمَعْتَهَا فِي الْمَالِ فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ سَيُوجَدُ مَا يُوْجَدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُشْرَى مَا لَا
يُشْرَى ، وَيَبِيعُ مَا لَا يَبَاعُ ! قَالَ (إِبْلِيسُ) : نَعَمْ يَا سِيدِي ، وَكَذَلِكَ هُوَ وَلَكِنْ
خَوْفُ الْعَارِ يَطْرُدُ حُبَّ الْمَالِ ! قَالَ : فَأَنْتَ إِذَنْ لَا تَقْبَلُ ؟ قَالَ : وَلَا أَرْفُضُ ...
قَالَ الشَّابُّ : قَاتَلَكُمُ اللَّهُ ! لَقَدْ فَهَمْتُ ! سَأَشْتَرِيهَا مِنْكَ بِثَمَنَيْنِ : أَحَدَهُمَا لَكَ
وَالْآخَرُ لَهَا ؛ وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ مَعَهَا وَمِنْ أَيْنَ تَبْلُغُ إِلَيْهَا ؟ قَالَ (إِبْلِيسُ)
لَمَّا كُنْتُ فِي السَّجْنِ عَرَفْتُ لَصًّا فَاتَّكَأَ أَجْيَا قَوْمَهُ خَبِثًا وَشَرًّا ؛ وَهَذَا السَّجْنُ
يَحْسُهُ عِقَابًا وَرَدْعًا وَمُنْهَاءً عَنِ الْإِثْمِ ، عَلَى أَنَّهُ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تَتَشَبَّهُ الْحُكُومَةُ
بِنَفْسِهَا لِتَلْقَى عُلُومَ الْجَرِيْمَةِ عَنْ كِبَارِ أَسَاتِذَتِهَا ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ كِبَارُهُمْ
فِي مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا فِيهِ ؛ فَالْسَّجْنُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ حَلِّ الْمَشْكِلَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ،
وَلَكِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ يَحْدُثُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ مَشْكِلَةً لَا تَحُلُّ ! قَالَ الْفَتَى : وَيَحْكُ !
أَيْنَ يَبْذُوهَ بَكَ ؟ إِنَّمَا أُرْسَلْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ لَا إِلَى السَّجْنِ ! قَالَ : تَرْسَلُنِي أَنْتَ إِلَيْهَا
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ أَيْنَ يَرْسَلُنِي ابْنُ عَمِّهَا : إِلَى السَّجْنِ أَمْ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ... !
فَاسْمَعْ يَا سِيدِي : كَانَ مِنْ نَصَائِحِ أَسَاتِذِي فِي ذَلِكَ السَّجْنِ : أَنَّ الْحِيلَةَ عَلَى رَجُلٍ
يَنْبَغِي لِإِحْكَامِهَا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ أَسْبَابِهَا امْرَأَةً ، وَالْكِيدُ لَامْرَأَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
فِي بَعْضِ وَسَائِلِهِ رَجُلٌ ... صَهْ ! انْظُرْ انْظُرْ ! فَالْتَفَتَ الشَّابُّ ، فَإِذَا
(الْجَمَلُ) مُقْبِلٌ يَتَكَفَّأُ فِي مَشْيِهِ ، وَكَانَ غَلِيظًا ، فَإِذَا خَطَا شَدَّ عَلَى الْأَرْضِ
بِقَدَمَيْهِ وَتَكَدَّسَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ؛ وَكَانَ مُنْطَلِقًا وَقَتْنَدٌ إِلَى بَعْضِ مَذَاهِبِهِ ، فَلَمَّا
حَاذَاهُمَا قَالَ السَّلَامَ عَلَيْهِمَا ! فَرَدَّاهُ جَمِيعًا ، وَرَى ابْنَ الْعَمْدَةِ بِنْظَرَةٍ ، ثُمَّ مَضَى
لَوُجْهِهِ فَلَمْ يَجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى بَلَغَهُ صَوْتُ الشَّابِّ يَنَادِيهِ : يَا فُلَانُ ! فَانْكَفَأْ
إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ : لَقَدْ بَعُدَ عَهْدُكَ بِالْقُوَّةِ عَلَى مَا أَرَى . قَالَ : فَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ

أما بلغك أن فلانًا في هذه القرية التي تجاورنا سيقترن بزوجته بعد أيام ، وأنت تعرف الموقعة التي كانت بين بلدنا وتلك البلدة يوم عرس فلان في السنة الماضية ، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا وحطموا فيهم تلك الحطمة الشديدة ولولا أنت أدركتهم ورميتهم بنفسك حتى دفعتهم عن الناس وسقتهم أمامك سَوق النعاج ، لكنت بلدنا اليوم أذلَّ البلاد ، ولا استطالوا علينا بأنهم غلبونا ؛ ولقد حدثني صاحبي هذا كيف تلقيت بهراوتك يومئذ خمسًا وعشرين هراوة ، فأطرتها كلها في جولتك ، وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك وتكلبوا عليك ؛ فأنت فخر بلدنا وصاحب زعامتها ، وما أرى لك إلا أن تنتهز هذه الفرصة وتسرع الوثبة إليهم برجالك ، فتجزيهم في أرضهم صنيعةً بصنيعٍ مثله !

فهز الحمل كتفيه العريضتين وقال : بل سأنتظرهم في يوم عرسى بابتة عى . . . ! قال الشاب : أبلغت ما أرى ؟ فلذلك لتخافهم ! قال : لا أخافهم ولكن أخاف الحكومة أن تؤخر يوم زواجى . . . سنة أو سنتين ! قال الفتى : فإن عملك هذا لا يشدُّ من نفوس رجالنا ، ولا بد أن أولئك سينتظرونكم ويعدون لكم ، فإذا لم تنأجزوهم في بلدكم عدُّوها عليكم هزيمة من الهزائم ، وكأنهم ضربوكم بلا ضرب !

قال الحمل : هم لا يعرفون معنى الضرب بلا ضرب ؛ لأنهم رجال ؛ والذي يُضرب بلا ضرب لا يكون رجلاً . . . والسلام عليكم ! ثم انطلق ، فلما أبعد قال الشاب : لقد بدأت الحرب ولا بد لي أن أحطم هذا الفلاح اللعين ! ولقد عرفت الآن من وجهه أن عينه على ، ولست أشك في أن بنت عمه لا تمتنع بقوتها بل بقوته ، ولولا معرفتى أنه من انحطاط الغريزة كالوحش في الدفاع عن أنثاه لـ

قال (إبليس) : لقد تأملت القصة فرأيت أنه لا سبيل لك إلى الفتاة وهي بعد فتاة ، فإذا هو وصل إلى امرأته قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطريق إليها . . . وستبلو هي من غلظته وخشونة طبعه ما يسهل لك أن تعلمها قيمته ظرفك ورقتك ، وستجد من سوء معاملته وقبح تسلطه ما يفتح قلبها لمن يأتيها قبل الرفق واللين ، وستصيب عنده من ضيق المعيشة وقتلتها ويبسها ما يفهمها

معنى ذلك العيش الحلو الحضر الذى تعرضه عليها ؛ ثم إنه لا بد مبتليها بغيرته العمياء بعد ما عرف من حبك إياها ، والغيرة منك هى توجدك بينهما دائماً وتنبه المرأة إليك كلما كرهت من رجلها شيئاً لا ترضاه .

ولم تكن إلا مدة يسيرة حتى أهديت المرأة إلى زوجها ، وإنما تعجل الزفاف لئلا يأتى له أن ينصب يده القوية حجاباً بينها وبين هذا المفتون . وليكتسب من القانون حقاً لم يكن له من قبل إذا هو مدّ هذه اليد وعصر فى قبضتها تلك الرقبة التى تتطلع إلى امرأته ؛ ورأى الشاب أن هذه الحال لا تعادل به ويخصمه معا ، وكانت الغيرة تأكل من قلبه أكلاً ، وكان يعرض للمرأة كلما خرجت بمكثها * إلى السوق أو بجرتها إلى الماء لأنه حينئذ يكون فى الطريق الذى لا يملكه أحد . . . فكانت إذا رآته لم تزد على ما يكون منها إذا هى أبصرت حمراً يمد عينه إليها ! . فعمد إلى امرأة مقيسة تزف العرائس ، وهى التى زفت (خضراء) فأكرمها وأتحفها وسألها أن تسعفه ببعض ما تحتال به ، وأن تكون سبيله إلى المرأة ؛ وتحمل عليها (بإبليس) حتى استوثق منها ، فكانت تتحدث عنه أمام (خضراء) ؛ تستجر بذلك أن تلفتها إلى نعمته وجماله ، ولكن المرأة أغلظت لها وسببها وحذرته أن تعود إلى مثل كلامها ، وقالت لها آخر ما قالت : واعلمى أننى لو دُفعت إلى طريقين وكان لا بد من أحدهما ، ثم كان أحدهما حصاهُ الدنانير وهو طريق العار ، والآخر حصاهُ الجمر ويفضى إلى الشرف ، إذن لتنزهت أن أدنس نعلى بالذهب ولنثرت لحم قدمى على الجمر نثراً .

والحب لا يبقى حباً أبداً ، فلما فاز فبرد ورجع سلواً ، ولما خاب فاضطرم وتحول إلى حقد ونقمة ؛ وكذلك انفجر الشاب غيظاً ، ووجد على الحيلة مودة شديدة ، وأخذ يدير رأيه ، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرجل الشهم بشهامته ، والمرأة العفيفة بعفتها ؛ فواطأ إبليس على أن يدفع إلى تلك المتيعة منديلاً من الحرير عقد طرفه على دينار من الذهب ، تلقيه فى صندوق (خضراء) وتدسه فى طي من أطواء ثيابها ؛ فذهبت المرأة ، وما زالت بخضراء تستصلحها وتعتذر إليها حتى استلست ضغينة قلبها ، ثم سألتها أن تأتيها (بالعيش والملح) لتصيب كلتاها

منه وتتحرم بحرمته ؛ فلما نهضت تأتيتها أسرع الحبيثة إلى الصندوق فдست المنديل في أبعاد مواضعه وأخفاها ؛ وكان مندًى بالعطّر لينمّ على نفسه إذا لم ينمّ أحدٌ عليه ، ثم رجعت بما فعلت إلى الشاب ، فأطلق خادمته يهمس لبعض أصدقاء الجمل أنه رأى اليوم في يد (خضراء) ديناراً ذهباً على ندرة الذهب وعزّته ؛ فجعل هذا الدينار يطير من نفس إلى نفس بقوة الذهب الذي فيه ، والحبّ الذي أعطاهُ ، والجمال الذي أخذهُ ؛ ثم انتهى إلى الجمل ، فكأنما حمّله وطار به إلى داره كالحنّون وقد حمى دمه الحرّ ، وجاش جأشه العنيف ولم تكن امرأته في الدار ، فنثر ما في الصندوق ، وما كادت تنفّسه رائحة العطّر حتى نفخ الشيطان بها نفخة الغضب الكافر ، ثم عثر على المنديل ، ورأى بصيص الدينار ، فدارت به الأرض ، وأيقن أن العار قد طرق بابه ، وأن الباب قد فُتح له ؛ ثم ردّ نفسه على مكروها وردها معها كل شيء إلى موضعه ، وتلفف رأيه على جريمتين ، وخرج وروحه تصرخ من ضربة بمنديل ، وهو الذي كانت تمهاوى عليه الضربات الثقاتلة تهشم منه ولا يتأوه !

وذكر أن (حماته) أثنت من عهد قريب على ابن العمدة ووصفته بالاقة والنفي ، فوجه إليها أن تأتي فتبيت عند امرأته لأنه على سفر ، وكان كالأعمى في ضلالته : لا يرى الأشياء إلا كما يتخيلها في نفسه دون ما هي في نفسها ، فسألته زوجته : أين أزعمت وما تبغى من سفرك وكم تلبث عنا ؟ فكأنه سمعها تقول : ارحل إلى مكان بعيد وغب عنا زمناً طويلاً ، فينا إلى غيابك حاجة شديدة ! وكاد يبطش بها ، ولكنه كاتسم صدره اللوعة اسم جهة بعيدة ومضى والانكسار يُعرف فيه !

* * *

فزع الناس بعلم أيام في جوف الليل ، فإذا بيتُ الجمل يحترق من أرضه وسمائه ، واقتحموه فإذا المرأة وأمها فحمتان : وانطلقت أسرار الألسنة ، وقبض على الرجل في بلد آخر ، وتولى ابن العمدة توجيه البينة عليه ، وشهد الشهود على الدينار ، وشهد الدينار على النار ، وأنكر « الجمل » ولم يقصر في إقامة الحجة ودافع عن امرأته وبالغ في أمانتها وعفتها وشهد أنه لا يعلم عليها من سوء ،

وأنها أطهر النساء وأبرهن ، ثم كان الحكم أن قضى عليه بالموت شتقاً !

* * *

فلما كان يوم إنفاذ الحكم سئل الرجل : هل من شيء تريده ؟ فطلب دخينة * فقدمها له قيّم السجن ، فأشعلها ونفخ من دخانها نفخة . ثم أخذ يتكلم وعمره يفنى مع الدخينة نفساً في نفس ، وعاد هذا الدخان المتطاير كأنه سحب يسبح فيه الوحي بين حدود الدنيا وحدود الآخرة ؛ قال المسكين : لم أتعلم ، ولو تعلمت ما وقتت هنا ؛ ولكن ربما كنت نذلاً ك بعض المتعلمين الذين يعيشون أشرافاً وفيهم أرواح القتلة واللصوص !

لم أقرّ لأحد بجرمتي خشية أن تذكر كلمة العار مع اسمي ، وآثرت أن أموت بالشتق على أن أحيأ ويموت اسمي بالعار !

ولكني سأعترف الآن أمامكم وأنتم الساعة على قبري ، فكونوا كالملائكة لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحده .

أعترف أنني قتلت زوجتي وأمها ؛ وقد تقولون إنه ليس من عمل الرجل أن يقتل امرأة فضلاً عن اثنتين ؛ إنني رجل سأُشقق ، أما النساء فلا يشقن وإنما يرسلن الرجال إلى المشنقة . . . لم أرأبى ؛ إذ تركني طفلاً ، ولكن يقال إنه كان رجلاً ، فأنا رجل وابن رجل ، ولم يذلني رجل قط ، ولكن لو خلق الله قوة مائة جبّار في جسم رجل واحد لأذلتُهُ امرأة !

إنه ليس من شيمة الرجل أن يقتل النساء ، ولكن المرأة تذلُّ الرجل ذلاًّ يهون عليه قتل نفسه ، فكيف لا يهون عليه قتلها ؟

علّموا المتعلمين ليصيروا في الشرف والأمانة والعفة كرجل جاهل مثلي : لا يرى للحياة كلها قيمة إذا كان فيها معنى العار ، ويقدم عنقه للمشنقة حتى لا ينگس رأسه للذل !

أصلحوا القانون الذي يحكم بالموت شتقاً ويزهق الأرواح الكبيرة . في حين تغلبه الأرواح الصغيرة بحيلها الدنيئة !

ومع ذلك سألقى الله وهو يعلم سريري إن كنت بريئاً أو مجرمًا !

• وضعتها للسيجارة ، وهي أليق الألفاظ بها .

قيِّمُ السجين : ستلقاهُ طاهراً .

السجين : أرايتم مني خلُصْتُ سوء ؟ أتعقد عليَّ ذنباً مدة سجنى ؟

القيِّم : كلنا راضون عنك .

السجين : هذا مثل من أخلاقى ، والحمد لله على أن آخر كلمة أسمعها من

إنسان على الأرض — كلمة الرضا .

.....

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله !

* * *

نظرتُ ريشةً من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشاً متناثراً ، فامتطت العاصفةَ وقالت : إلى السماء ! ودارت بها العاصفةُ ما شاءَ الله أن تدور ، ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال في موضع نفع أم ضرر ؟ فأقبلت الريشة تنسخط وتزعم أنها فوضى ثائرةٌ لا حكمة في خلقها ، وأن الرياح بعثرةٌ في نظام العالم . . . وكان إلى جانبها شجرة تهتز ولا تطير . . . فلما وعت مقالتَها أقبلت عليها فقالت : أبتها الريشة ! إن الرياح لا تكون بعثرةً في نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشاً كله ! .

القلب المسكين^(١)

١

أقبل على صاحبي الأديب وقال : أنظر : هذه هي ، وقد حلت بهذا البلد
ومالي عهدٌ بها منذ سنة . ومد إلى يده فنظرتُ إلى صورة امرأة كأحسن النساء وجهًا
وجسمًا ، تتأوّد في غلالة من اللاّذ* .

وكان شعاع الضمحي في وجهها . وكأنها القمر طالعًا من غيمة . ويكاد
صدرها يتنهد وهي صورة ، وتبدو هيئةً فيها كأنها وعدٌ بقبلة ، وفي عينيها نظرةٌ
كالسكوت بعد الكلمة التي قيلت همسًا بينها وبين محبها . . .

فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصور وإبليس ؛ فمن
هي ؟

قال : سلّها ، أما تراها تكاد تنسبُ من الورقة ؟ إنها إلاّ تخبرك بشيء
أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسنُ من شاهدتَ وجهًا وأعينًا ،
وثغراً وجيدا والذي بعد ذلك . . .

قلت : ويحك ، لقد شعرتَ بعدى : إن هذا شعر موزون :
وأحسنُ من شاهدتَ وجهًا وأعينًا وثغراً وجيدا والذي بعد ذلكا . . .
قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً ؛ أأستَ تراه ناظماً من فنونها على
الرسم شعراً معجزاً كلّ شاعر ؟

قلت : وهذا أيضاً شعر موزون :
أأستَ تراه ناظماً من فنونها على الرسم شعراً معجزاً كلّ شاعر
قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها ، يريك لهذا الجسم روحاً رشيقاً ،
تلين كلين الجسم ، بل هي أرشق .
قلت : وهذا أيضاً ، والقافية التي بعد هذا البيت : وبها شقّوا . . .

(١) انظر قصة صاحبة هذا القلب المسكين ص ٢٣٩ « حياة الراقص » وهي صاحبة
« الجمال البائس » .

* اللاذ : الحرير الصبيّ الرقيق ، والغلالة : مثل القميص الذي تحت الثياب .

فضحك صاحبنا وقال : حرَّك الصورة في يدك ، فإنك ستراها وما تشك أنها ترقص .

قلت : الآن انقطع شيطانك ، فهذا ليس شعراً ولا يحىء منه وزن .
وتصاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل في الرسم كأنه يضحك .

* * *

قال صاحبُ القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إحداهما من العيون التي تفتن الرجل وتسحره متى نظرت إليه ، وتعذبه وتضنيه متى غابت عنه ؛ إن في شعاعهما قُدرةً على وضع النور في القلب السعيد ، كما أن في سوادهما القدرة على وضع الظلمة في القلب المهجور .

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذي تعجز كلُّ حدائق الأرض أن تُخرج وردةً حمراء تشبهه .

وانظر إلى هذا الجيّد تحت ذلك الصدر العارى ، فوقه ذلك الوجهُ المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روحُ الشمس ، وأما الجيّد ففيه روحُ النجم ، وأما الصدر ففيه روحُ القمر الضاحي .

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهديها ، تلك مِنطقةُ القبيلات في جغرافيا هذا الجمال . . .

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الثديين الناهدين ؛ إنه المعرضُ الذي اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان . . .

انظر إلى النهدين لِمَ بَرَزَا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدّيان الصدر الآخر . . . ؟ !

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعةً بين فتنتين متكبرتين . . . ؟

انظر إليها كلها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ، وهذا الإغراء ؛ ألا ترى الكثرة الذي يحوّل القلب إلى لص . . . ؟

هذه مخلوقة مرتين : لإحداها من الله في العالم ، والأخرى من حبي أنا في نفسي أنا : فكلمة « جميلة » التي تصف المرأة التامة ، لا تصفها هي بعض

الوصف ؛ ورسمها هذا الذى تراه إنما هو حدود لتلك الروح التى فيها قوة التسلط ، وهيهات يُظهر من تلك الروح إلا ما يظهر من الجمره المشتعلة رسمُ هذه الجمره فى ورقة .

أشهد ما نظرت مرة إلى هذا الرسم ثم نظرت إليها إلا وجدت الفرق بينها فى نفسها وبينها فى الصورة ، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها ليست إلا أداة .

* * *

قلت : اللهم غفرا ؛ ثم ماذا يا صديق المجنون ؟
فأطرق الأديب مهموما ، وكانت أفكاره تنفجر فى دماغه انفجاراً هنا وانفجاراً هناك ؛ ثم رفع إلى رأسه ، وقال :

هذه الغاية قد حبست أفكارى كلها فى فكرة واحدة منها هى ؛ وأغلقت أبواب نفسى ومنافذها إلى الدنيا ، وألهمت فى دمي جمره من جهنم فيها عذاب الإحراق وليس فيها الإحراق نفسه كيلا ينتهى منها العذاب !

وبيننا حبٌ بغير طريقة الحب ، فإن طبيعتى الروحانية الكاملة تهوى فيها طبيعتها البشرية الناقصة ، فأنا أمارجها بروحى فأتألم لها ، وأتجنبها بجسمى فأتألم بها .

حب عقيم مهما يكن من شئ فيه لا يكن فيه شئ من الواقع . . .

حب عجيب لا تتنى منه آلامه ولا تكون فيه لذاته . . .

حب معقد لا يزال يلتقى المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض الحل الذى لا تحل المسألة إلا به . . .

حب أحرق يعشق المرأة المبذولة للناس ، ولا يراها لنفسه إلا قديسة لا مطمع فيها . . .

حب أبله لا يزال فى حقائق الدنيا كالمستظر أن تقع على شفثيه قبله من الفم الذى فى الصورة . . .

حب مجنون كالذى يرى الحساء أمام مرآتها فيقول لها اذهبي أنت وستبقى في هذه التى فى المرأة . . .

* * *

قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا يا صاحبي المسكين ؟
قال : ثم هذه التى أحبها هى التى لا أريد الاستمتاع بها ولا أطيعه ولا أجد فى طبيعتى جرأة عليه ؛ فكأنها الذهب وكأننى الفقير الذى لا يريد أن يكون لصباً ؛ يقول له شيطانُ المال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان الحاجة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة !
إن عذاب هذا بشيطنين لا بشيطان واحد ، غير أن لذته فى انتصاره كلذة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد .

* * *

قلت : اللهم عفواً ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟
فأطرق مليئاً كالذى ينظر فى أمر قد حيسره لا يتوجه له فى أمره وجه ، ثم تنهد وقال : يا طول علة قلبي ! من أين أجىء لأحلامي بغير ما تجىء الأحلام به ، وإنما هى تحت النوم ووراء العقل وفوق الإرادة ؟ لقد بلغ بى هواها أن كل كلمة من كلام الحب فى كتاب أو رواية أو شعر أو حديث — أراها موجّهة إلى أنا . . .

ثم قال : انطلق بنا فتراها حتى تعلم منها علما ، فهى فى ذلك المسرح ، هى فى ذلك الشر ، هى فى تلك الظلمات ، هى كاللؤلؤة لا تترى لؤلؤة إلا فى أعماق بحر .

* * *

وذهبنا إلى مسرح يقوم فى حديقة غنّاء مترامية الجهات بعيدة الأطراف ، تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مشقّلة بمعانى الهجر والعشق .
وتقدّمنا نسير فى الغبّش ، فقال صاحبنا المحب : إني لأشعر أن الظلام هنا حى كأن فيه غوامض قلب كبير ، فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه وبين الجلوس إلى فيلسوف عظيم مهموم بهمّ اللانهاية ، فتعال نبرز إلى ذلك النور حول المسرح

لنراها وهي مقبلة ، فإن رؤيتها سيّدةً غير رؤيتها راقصة ، ولهذا جمالٌ فن
ولتلك فنٌ جمال .

ولم نلبث إلا يسيراً حتى وافتُ ، ورأيتها تمشي مِشيّة الخفّرات كأنما تحترم
أفكارُ الناس ، يزهموها على ذلك إحساسٌ نبيل كإحساس الملكة الشاعرة بمحبة
شعبها ؛ وانتفض مجنوننا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه لا في طريقها ، وكأن
لذة قربها منه هي الممكن الذي لا يمكن غيره . . .

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء في الحديقة واضطربت أشجارها ،
فقال : أنت ترى ؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة !
قلت : آه يا صديقي ! إن المرأة لا تكون امرأةً بمعانيها إلا إذا وُجدت في جو
قلب يعشقتها .

ونفذنا إلى المسرح ، وتحرّى صاحبنا موضعاً يكون فيه منظر العين من
صاحبه ويكون مستخفياً منها ، ثم رفع الستار عنها بين اثنتين يكتشفانه ، وقد
لبسن ثلاثتهن أثواب الريفيات ، وظهرن كهيتتهن حين يجنين القطن .

ويرزت (تلك) في ثوب من الحرير الأسود ، وهي يضاء بياض القمر حين يتم
وقد شدّت وسطها بمشدّة من الحرير الأحمر ، فتسحبكتُ بها وظهرت شيئين :
أعلى وأسفل ؛ ثم ألتفت على شعرها الذهبي قلنسوة حمراء من ذلك الحرير أمالتها
جانباً فحبست شيئاً منه وأظهرت سائره . وأخذت بيديها صفّاقتين * وأقبل
الثلاث يرقصن ويغنّين نشيد الفلاحة .

لم أنظر إلى غيرها ، فقد كانت صاحبنا دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل ،
وما أحسب الحرير الأحمر ، كان معها أحمر ولا الأسود كان عليها أسود ، ولا لون
الذهب في معصمها كان لون الذهب ؛ كلاً كلاً ، هذه ألوان فوق الطبيعة ، لأن
ذلك الوجه يشرق عايمها بالجمال والحياة ، وذلك الجسم يفيض لها بالخفة والطرب
وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة ؛ ندا مزيج من خمر الألوان لا من الألوان
نفسها .

* الصفاقات : هي التي يقال لها الساجات ، تكون في أصابع الراقصة ، والكلمة واردة
في كتاب الأغاني .

وقال مجنوننا : إن أجمل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يجعل لكل إنسان نوعَ شعوره بها ، وأنا أشعر الساعة أن قلبي نصفُ قلب فقط ، وأن نصفه الآخر في هذه وحدها ؛ فما شعورك أنت ؟

قلت ، يا صديقي : إن الله رحيم ، ومن رحمته أنه أخفى القلبَ وأخفى بواعثه ليظلَّ كلُّ إنسانٍ مخبوءاً عن كل إنسان ؛ قد عني مخبوءاً عنك !
قال : لا بد !

قلت : إن المصباح في الموضع النجس لا يبعث النور نجساً ، وما أشعر إلا أن النور الذي في قلبي قد امتزج بالنور الذي في عينيها .
ثم كأنها أحسَّت بأن إنساناً قد امتلأ بها ، فأدارت وجهها وهي ترقص ، فتلمَّحت صاحبنا ، وجعلتْ تُقطع الطَّرفَ بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله ، ثم تبَيَّنت إلحاح نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله ! .
أما هو ، أما المجنون ، أما صاحب القلب المسكين ! . . .

* * *

القلب المسكين

٢

. . . أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبتُه وهي ترقص حين عرفته — غيرَ ما رأيتهَا أنا وغيرَ ما رأى الناس : كانت لنا نحن ابتساماً عذباً من فم جميل يتمُّ جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغةٌ من هذا الفم الجميل يتمُّ بها حديثاً قديماً كان بينهما ؛ واعتَرانا منها الطربُ واعتراه منها الفكرُ ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق ، ومرت علينا شعاعاً في الضوء وقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسمٌ مكتوب . . .

وقوى إحساسُ الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدلُّ على نفسه ضروباً من الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة

بفنون الرمز والإيماء ، وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة ؛ والمرأة لحظات تكون فيها بفكرين حيناً يكون أحدهُ الفكرين ماثلاً أمامها في رجل تهواه ؛ ففي هذه الساعة تتحدثُ المرأةُ بكلام فيه صمت يشرح ويفسّر . وتضطرب بحركة فيها استرخاءٌ يميل ويعتق . وتنظر بالحاظ فيها انكسارٌ يأمر ويتوسل ؛ وكانت هي في هذه الساعة . . . فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تنقطع فيه من أسف وحسرة ؛ ثم كانت له كالزهرة العبقة : بينه وبينها جمالها وعطرها وهواؤها والحاسةُ التي فيه .

وجعل يستشفُّها من خلال أعضائها ، ثم قال لي : انظر ويحك ! لكأن ثيابها تضمُّها وتلتصق بها ضمُّ ذى الهوى لمن يهوى .
قلت : ما هي إلا كهاتين اللتين ترقصان معها : امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث .

قال : كلا . هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر : تتحرك بدلا من أن تُقرأ وترى بدلا من أن تُسمع ؛ قصيدة بلا ألفاظ ، ولكن من شاء وضع لها ألفاظا من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره .
قلت : والأُخريتان ؟

قال : كلا كلا ، هذا فن آخر ، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بمعديتها . . . ترقص للخبز لا غير ؛ أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها ؛ إنها كالطاووس يتبختر في أصباغه . في ريشه . في خيالاته ، بخبرة يضاعفها الحسنُ ثلاث مرات ؛ ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرها وأخضرها وأصفرها وأزرقها ، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشمها ، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملونة — لظهر فيه وحده اللونُ الملكُ بين ألوان هي رعيتهُ الخاضعة .

* * *

وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قبلةً في الهواء . . . فقال صاحبنا : آه ! لو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسةً يدها درهماً وقبلة . . .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! هذه قبلة مُحَرَّرة مسددة وقد رأيتها وقعت هنا . . .
ولكنك دائماً فى خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة ؛ تعشق القبلة وتخاصم
القم الذى يلقىها ، وتبنى العشَّ وتتركه فارغاً من طيره ؛ إن امرأة تحبك
لا بد منتهية إلى الجنون ما دامت معك فى غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن .

ثم بدأ فصل آخر على المسرح ، وظهر رجال ونساء وقصة ؛ وكان من هؤلاء
الرجال شيخ يمثل فقيهاً . وآخر يمثل شرطيّاً ؛ فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد
جاءت هذه الثيابُ فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء فى هذه الحياة
صحةُ الظاهر فقط ، ما دام الظاهر يُخلع ويُلبس بهذه السهولة ؛ فكفى فى هذه
الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت الباطن منهم — إنما يشرفون الرذائل لأنهم
يرتكبونها بشرف ظاهر وكفى من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم
يسرقون بقانون وكفى من فقهاء ليس بينهم وبين الفسّجرة إلا أنهم يفجرون
بمنطق وحجة ليست الإنسانية بهذه السهولة التى يظنها من يظن ، وإلا ففيم
كان تعبُ الأنبياء وشقاء الحكماء وجهادُ أهل النفوس ؟

العقدة السماوية فى هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان إلا حيواناً
مُطَطَّفاً تلطيفاً إنسانياً ، ثم أراه الخير والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك إنساناً
وجنّى .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! فما تقول فى حبك هذه الراقصة وأنت حيوان ملطف
تلطيفاً إنسانياً ؟

قال : ويحك ! وهل العقدةُ إلا هنا ؟ فهذه مبذولةٌ ممكنة ، ثم هى لى
كالضرورة القاهرة ، فلا يكون حبها إلا إغراءً بنسِليها ، ولا تكون سهولةُ نيلها إلا
إغراءً لذلك الإغراء ؛ فأنا منها لستُ فى امرأة وحب ، ولكنى فى امتحان
شديد عسير ؛ أغالب ناموساً من نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة
وأظهر قوتى على قوة الضرورة الميسرة بأسبابها ، وهى أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً
وقهراً للنفس ، من قبيل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهيأة سهلة ؛ فلو أن هذه
المرأة المحبوبة كانت ممنوعة بعيدة المثال ، لما كانت لى فضيلة فى هذا الحب العنيف ،

ولكنها دانيةٌ ميسرة على الشغف والهوى ؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى
فضيلةً نفسى !

* * *

ومر الفصل الذى مثّلوه وما نشعر منه بتمثيل ، فقد كان كالصورة العقلية
المعترضة للعقل وهو يفكر فى غيرها ، وكانت (الحقيقة) فى شىء آخر غير هذا ؛
ومتى لم يتعلق الشعورُ بالفن لم يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهى
وحدها التى تثير شعورَ الحب فى نفسه فيشعر من حسننها بحقيقة الحسن المطلق ،
ويجد فى معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صُنعت له وحده ، وتجعل له فى الزمان
زمنًا قلبياً يحصر وجوده فى وجودها .

ولئن من الحب شيئاً إلا استطاعة الحبيب أن يجعل شهواتِ الحب شاعرة به
ممتلئةً منه متعلقة عليه ، كأن به وحده ظهورَ جَسَدِيَّةٍ هذا الجسد وروحانيةِ
هذا الروح ؛ وكل ما يتزين به المحبوب للمحب ، فإنما هو وسائل من المبالغة لإظهار
تلك المعانى التى فيه ، كما تكبر فيدركها الحب بدقة ، وتثور فيحسّها العاشق بعنف
وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة .

والشهوات كالطبيعة الواحدة فى أعصاب الإنسان ، وهى تتبع فكره وخياله ؛
ولا تتفاوت بينهما إلا بالقوة والضعف ، أو التنبه والجمود ، أو الحدة والسكون ؛
غير أنها فى الحب تجدد لها فكراً وخيالاً من المحبوب ، فتكون كأنها قد غيرت
طبيعتها بسرٍّ مجهول من أسرار الألوهية ؛ ومن هنا يتألّف الحبيب وهو هو لم يزد
ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه فى وهم محبه يفرض فروضاً ويشرع شريعة من
حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا فى الشهوة المؤمنة به وحدها .

ومن ثم لا عصمة على الحب إلا إذا وُجد بين إيمانين ، أقواهما الإيمانُ
بالحلال والحرام ؛ وبين خوفين ، أشدهما الخوف من الله ؛ وبين رغبتين ، أعظمهما
الرغبة فى السموات .

فإن لم يكن العاشق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى
الإيمانين الحرص على مكانة المحبوب فى الناس ، وأشد الخوفين الخوف من القانون ..
وأعظم الرغبتين الرغبة فى نتيجة مشروعة كالزواج .

فإن لم يكن شئ من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو فى جراءة كفرين ،
وحماقة جنونين ، وانحطاط سفالتين ؛ وبهذا لا يكون فى الإنسانين إلا دون ما هو
فى بهيمتين !

* * *

ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هى على المسرح ، ظهرت هذه المرة فى ثوب
مركيزة أوربية تخاصر عشيقاً لها ، فيرقصان فى أدب أوربى متمدن . . . متمدن
بنصف وقاحة ؛ متأدب . . . متأدب بنصف تسفل ؛ مشروع . . . مشروع
بنصف كفر ؛ هو على النصف فى كل شئ ، حتى ليجعل العذراء نصف عذراء ،
والزوجة نصف زوجة . . . !

وكان الذى يمثل دور العشيق فتاةً أخرى غلامية مَجْمَمَة الشعر *
ممسوخة بين المرأة والرجل ؛ فلما رآها صاحبنا قال : هذا أفضل . . .
وهشَّت الحسناءُ وتبسَّمت وأخذت فى رقصها البديع ، فانفصل عني الصديق
وأهملنى وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة ، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه
ورجع وإياها كأنه فى عالم من غير زمننا تُقدِّمه عن عالمنا ساعة أو تؤخره ساعة ؛
وكانت جملةُ حاله كأنها تقول لى : إن الدنيا الآن امرأة ! وكان من السرور
كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم ، ونقل صاحبتة إلى رتبة حواء ، ونقل المسرح إلى
رتبة الجنة !

والعجيب أن القمر طلع فى هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح
المكشوف فى الحديقة ، فكأنه فعل هذا ليُسَمَّ الحسن والحب ؛ وأخذ شعاع القمر
الساوى يرقص حول هذا القمر الأرضى ، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس
صاحبنا وبين الأرض والسماء والقمرين .

ما هذا الوجه لهذه المرأة ؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيراً جديداً
بقسماته وملامحه الفتانة ؛ كلُّ البياض الخاطف فى نجوم السماء يحول فى أديمه
المشرق ، وكل السواد الذى فى عيون المهمل يجتمع فى عينيه ، وكل الحمرة التى فى

* المحميات : هن اللواتى يتخذن شعورهن جملة (بضم الجيم) أى يقتصنها ، كما يفعل
نساء هذه الأيام تشبهاً بالرجال ؛ وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الإسلام عنه كراهة . لهذا
"شبه ؛ فقص الشعر (على المودة) هو التجميم .

الورد هي في حمرة هاتين الشفتين .

ما هذا الجسم المتزن المتموجُ المفرغُ كأنه يندفق هنا وهنا ؟ إنه جسم كامل الأنوثة ، إنه صارخ صارخ ، إنه عالمٌ جمالٌ كما تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه « جهةٌ فوق » و « جهةٌ تحت » ؛ لو امتدت له يد عاشقه لجعل في خمس أصابعها خمس حواس . . .

ما هذا ؟ لقد خُسم الرقصُ بقبلة ألقاها الخليل على شفتي الخليفة ، وكانت تركت خصرها في يديه وانفلتت تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خلف ، نازلةً به رويداً رويداً إلى الأرض ، هاربة بشفتيها من الفم المطيل عليها وكان هذا الفم ينزل رويداً رويداً ليدرك الهارب . . .

وقبل أن تقع القبلة التفت لفتةً إلى . . . ثم تلقّت القبلة ، أما هو . أما مجنوننا ، أما صاحب القلب المسكين ؟ . . .

القلب المسكين

٣

أما صاحب القلب المسكين فرمقها وهي تلتفت إليه التفات الطبية بسواد عينيها : يجعل سوادهما الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول إحداهما : أنت ، وتقول الأخرى : أنا ، ثم رآها وقد كسرت أجفانها وتفترت في يدي الممثل العشيق وأفصحَ منظرها ببلاغة . . . ببلاغة جسم المرأة المحبوبة بين ذراعي من تحبه ؛ ثم اختلجت وصوبت وجهها ، وأهدفت شفتيها . وتلقّت القبلة .

وكان به منها ما الله عليهم به ، فانبعثت من صدره آهةٌ معولةٌ تن أنيناً ، غير أنها كلّمته بعينيها أنها تقبله هو ؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى السمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم ، لمست به النفس النفس ، والقبلة هي هي ولكن وقع خطأ في طريقة إرسالها . . .

وليس تحت الخيال شيء موجود ، ولكن الخيال المتسرح بين الحبيبين

تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود ؛ إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر ،
ومسرّح شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاوبة المعاني ؛
وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابّين روحٌ طبعي كأنه قلب ثالث ينقل للواحد
عن الآخر ، ويصل السرّ بالسر ، ويزيد في الأشياء وينقص منها ، ويدخل
في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي ؛ ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن ، ولا أمل
ولا يأس ، ولا سعادة ولا شقاء ، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب
بقدر قليلين ؛ والذين يعرفون قبلة الشغف والهوى ، يعرفون أن العاشق يقبّل بلذة أربع
شفاه .

* * *

وانسدلت بعد هذه القبة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل
فقلت لصاحب القلب المسكين : إن رويكما متزوجتان . . . قال : آه !
ومدّها من قلبه كأنه دَنِيفٌ سقيم .

قلت : وماذا بعد آه ؟

قال : وماذا كان قبلها ؟ إند الحب : فيه مثل ما في (عملية جراحية) من
تهدأب الألم ولدعائه ، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب ، مبعثرة غير
مجموعة ! « آه » : هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الإنسانية ، وهي
تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهية ، والألم البالغ ، والمرض المدنف والحب الشديد ؛
الشديد ؛ فحينما توشك النفس أن تختنق تنفس « بآه » ! .

قلت : أما رأيتهما مرة وقد أوشكت نفسها أن تختنق . . . ؟

قال : لقد هجّت لى داء قديمًا ؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمي
غرس الشجر ، فين الحين والحين تشر هذه الساعات مرّها وحلوها في نفسى كما يثمر
الشجر المختلف ؛ ولقد رأيتهما ذات مرة في ساعة هما ! ثم ضحك وسكت .

قلت : يا عدوّ نفسه ! ماذا رأيتهما منها ؟ وكيف أراك الوجد ما رأيتهما

منها ؟

قال : أتصدّقنى ؟ قلت : نعم .

قال : رأيت الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنه همٌّ مؤثث يعشقه همٌّ مذكر ؛
فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية ، وكأن وجهها يصنع من حزنها حزينين : أحدهما
بمعنى الهم لقلبها ، والآخر بمعنى الثورة لقلبي !

قلت : يا عدو نفسه ! هذا كلام آخر ؛ فهذه امرأة ناعمة بضَّة مطوى
بعضها على بعضها ، لفساء من جهة هيفاء من جهة ، ثقلية شىء وخفيفة شىء ،
جمعت الحسن والجسم وفتناً بارعاً في هذا وفتناً مُفرداً في ذاك ؛ وهى جميلة
كلِّ ما تتأمل منها ، ساحرة كلِّ ما تتخيل فيها ، وهى مزأحة دَحْدَاحَةٌ*
وهى تطالعك وتطعمُك ؛ وأنت امرؤ عاشق ورجل قوى الرجولة ؛ فالجميلة
والمرأة هما لك في هذا الجسم الواحد ، إن ذهبت تفصلهما في خيالك امتزجتا
في دملك ؛ ولو أمسكت آلة التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطرافُ اللهب
الأحمر مما في نفسك منها ؛ ولعمرى لو مرت عربة تدرُّجُ في الطريق ونظرت
إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتبسة المكفوفة* لظننتك سترى
العجلة الخلفيَّة عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهى تفر منه فراراً عنذراء !

* * *

فضحك وقال : لا ، لا ، إن نوع التصوير لإنسان هو نوع المعرفة لهذا
الإنسان ، ومن كل حبيب وحبيبه تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المعنى ،
والمقدمة عندى أن إبليس هنا في غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجة وضعمه
في إبليسيته ؛ وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفن الذى أسبغه الجمال عليها ،
فهى معرفتى وخيالى كالتمثال المبدع إبداعه ؛ لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهار
شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

وليست هذه المرأة هى الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت^(١) ؛ إنها
تكرار وإيضاح وتكملة لشىء لا يكمل أبداً ، وهو هذه المعانى النسوية الجميلة

(١) انظر فصل « الرافعى العاشق » ص ٧٣ - ١١٩ « حياة الرافعى » .

* هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الطريقة (المدرجة) ، وليس كذلك معناها في
اللغة ، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لا تأباه .

* * يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) ، وهو تعبير ضعيف ، والأفصح
ما ذكرنا هنا .

التي يزيد الشيطانُ فيها من عشق كل عاشق ؛ إن بطن المرأة يلد ، ووجه المرأة يلد !

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبك ، ولكن ما بال الدميمة ؟
قال : لا ، هذا وجهٌ عاقر . . .

* * *

قلت : ولكن الخطأ في فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرةً عملية تريد أن تعمل ، ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأني فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغزو المعدة الجائعة برائحة الخبز فقط .

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذي يُخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرت من الحقيقة المادية بأسلوب فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها في شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول .

أتعلم كيف كانت نظرتي إلى نور القمر على هذه وإلى حسن هذه على القمر ؟
إن القمر كان يُنسبى بشريّتها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة ، فهي خيال وجهه ؛ وكانت هي تُنسبني مادّية القمر فأراه متممًا لها كأنه خيال وجهها .

أتدري ما نظرةُ الحب ؟ إن في هذا القلب الإنساني شرارةً كهربائية متى انقدحت زادت في العين ألحاظًا كشّافة ، وزادت في الحواس أضواءً مدركة ؛ فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعًا في حقائق الأشياء ، فتكون له على الناس زيادةٌ في الرؤية وزيادة في الإدراك يعمل بها عملاً فيما يراه وما يدركه ؛ وبهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للعالم حالةٌ جديدة في هذه النفس ؛ ويأتي السرور جديداً ويأتي الحزن جديداً أيضاً ؛ فألفُ قلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ، هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة ؛ ولو بكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوعٌ من الحزن ليس في الآخر !

* * *

قلت : فنوعُ تصوُّرك لهذه الراقصة التى تحبها ، أن إبليس هنا فى غير إبليسيته !

قال : هكذا هى عندى ، وبهذا أسخر من الحقيقة الإبلسية .

قلت : أو تسخر الحقيقة الإبلسية منك ، وهو الأصح وعليه الفتوى . . . ؟
فضحك طويلا . وقال : سأحدثك بغريبة : أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا فى الحرير الأسود ؛ وهى رقيقة البشرة ناصعة اللون ، فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض وجمال الجمال ؛ فلقد كنت أمس بعد العشاء فى طريقى إلى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدججى ، وقد لبس وتلبسُ وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قائمة كالزقريب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينما أقلبُ عيني فى النور والغسق وأنا فى مثل الحالة التى تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً — إذ رفع لى من بعيد شبحٌ أسود يمشى مشيته متفتراً قصير الخطو يهتز ويتبختر ؛ فنبصرته فى هيئته فما شككت أنها هى ، وفُتحت الجنة التى فى خيالى وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها من لذة الحب ؛ وكان الطريق خالياً ، فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسرار القلب إلى الفرصة حين تُمكن ؛ فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح إذا هو . . . إذا هو قسيس . . .

* * *

فقلت : يا عجباً ! . ما أظرف ما داعبك إبليس هذه المرة ! وكأنه يقول لك : إيه يا صاحب الفضيلة . . .

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم فى شغل ؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لسانى فقلت لصاحبنا : ما يمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها ، فليس بينك وبينها إلا كلمة « تعالى » أو تفضلى ؟

قال : كلا . يجب أن تنفصل عني لأراها فى نفسى أشكالاً وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد لألمسها لمساتٍ روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق

فيها عِلْم قلبي ؛ ويجب أن تدعَ جسمها وأدعَ جسبي وهناك نلتقى رجلا وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب ، وبهذه الطبيعة أنا أحب !

ما هو الجزء الذي يفتنى منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه .

وما هو هذا الكل ؟ هو الذي يفسّر نفسه في قلبي بهذا الحب .

وما هو هذا الحب ؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس .

نعم أنا بائس ، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى في الفن : لا يكون هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم ، والحبيب الذي لا تناله هو وحده القادرُ قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لا تدري أين يعتبى منه جماله فيدعك تبحث عنه بلذة ؛ ولا تدري أين يُسْفِر جماله منه فيدعك تراه بلذة أخرى ؛ أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبة ، على نار مشبوبة في قلبي !

قلت : يا صديقي المسكين ! هذه مشكلة عرضتُ بها المصادفة وستحلها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا (المشكلة) مقبلة علينا .

أما هو : أما صاحب القلب المسكين . . . ؟

القلب المسكين

٤

أما صاحب القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهي مقبلة تتيمنا حتى بغته ذلك ، فساوره القلق ، واعتراه ما يعترى الحبَّ المهجور إذا فاجأه في الطريق هاجره ؛ أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهرًا لا يراه ، وصارمه مدةً لا يكلمه ، فنزع نومته من ليله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من يده ،

وبلغ به ما بلغ من السقم والضنى ، ثم بينا هو يمشى إذ باغتهُ ذلك الحبيب منحدرًا
في الطريق ؟

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيتَه على زلزلة من شدة الخفقان .
وكأنه في ضرباته متلعثمٌ يكرر كلمة واحدة : هـى هـى هـى . . .
ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيتَه يشعر مثل شعور المحترَّص أن هذه
الدنيا قد نفتته منها !

ولو اطلعت على دمه في عروقه لأبصرته مخدولًا يتراجع كأن الدم الآخر
يطرده .

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينه أن كل شهواته في خيبة ، فيردُّ عليه الحبُّ
مع كل شهوة نوعًا من الدل ، فيكون بإزاء الحبيب كالمتهزم مائة مرة أمام الذى
هزمه مائة مرة .

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغته والتخاذل والاضطراب والخوف إلا أن
روحه وثبت إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه !

* * *

غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجورًا من صاحبتِه ، ولكن من عجائب
الحب أنه يعمل أحيانًا عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائماً على
حدود الإسراف ما دام حباً ، فكل شيء فيه قريبٌ من ضده ، والصدق
فيه من ناحية مهيمٌ دائماً لأن يقابلَ بتهمة الكذب من الناحية الأخرى ،
واليقين مُعدُّ له الشك بالطبيعة ؛ والحب نفسه قضاء على العدل ، فإنه لا يخضع
لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل أنه
حبيب !

وقد يصفرُّ العاشق لمباغته اللقاء كما يصفر لمباغته الحجر ، وهذه كانت حال
صاحبنا عند ما رآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلامتها به ، توقُّعاً على
نفسه من ظنون الناس ؛ وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيئوا الظن ؛ وهو رجل
ذو شأن ضخم ، ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا رُوى مع مثلها ، وكأنها هـى

أَلَمَّتْ بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقّر المترمّت ؛ فعدلت عن طريقها إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى ، وما بيننا وبينها إلا خطوات ؛ ورأيتها قد هيأت في عينيها نظرة غاضبتنا بها ، ثم لم تلبث أن صاحلتنا بأخرى !
وكأنها أَلَقَتْ لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهفته لدورها ، ثم همّت أن ترجع ؛ ثم عادت إليه فجعلت تكلمه وعيناها إلينا ؛ فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها :
إنها نبيلة حتى في سقوطها !
ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى ، ولكن هذا الرجل لم يَظْهَرْ لى وقتئذ إلا كأنه تليفون معَلَّق !

* * *

كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره ، ولا تُسَارِقُهُ النظر بل تغلبه عليه مغالبة ؛ ورأته كذلك قد ثبتت عيناه عليها فخيّل إلى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تُطَارِحه ويطارحها كلاماً محبوباً تحت هذه النظرات ، وقد نسيا ما حولهما . وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا في بعض لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنتين فقط : هو وهى . .

وكان فيها الجميل لا يزال يُساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسرّد له حكاية مروية ، أو تعارض بحافظته كلاماً تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهي تتحدث وعيناها مفكرتان شاخصتان ، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه ؛ ولكن كيف كانت عيناها ؟

لقد أرادت في البدء أن تجعل قوة نظراتها كلاماً . حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنت يا أنت !

ثم بدا في عينيها فتور الظمأ ، ظمأ الحب المتكبر المتعرد ، لأنه حب المرأة المعشوقة ، ولأن له لذتين ، إحداها في أن يبقى ظمأ إلى حين . . .

ثم أرسلت الألفاظ التي تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة الجميلة في بعض حالاتها النفسية ، فتضرم في كلامها شرارة من الروح تُظهر الكلام كأنه يُحرق ويحترق . . .

ثم توجعت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجال ، فلا يستوهب خضوعها ولا يشتره ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فإذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خفيفة لم تفس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحيائها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه .

ثم ذلت عيناها الجميلتان ، وما هو ذبول عيني امرأة تنظر إلى مجبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكرة ، أو عناد معنى فيها لمعنى فيه ، أو تأكيد خاطرة تحتاج إلى التوكيد ؛ ومرة هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحياناً ، وأحياناً هو انتهاء مقاومة .

* * *

وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقيها للتليفون . . . فكرت راجعة إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت : أنت يأنث . . . فقلت لصاحبتنا : وبحك يا عذو ونفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة ، لما اختار إلا عينيها ، فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كمتنظر مالا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحيوان الأليف إذا طمع فى المستحيل .

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الأليف ؟
قلت : ذلك يطمع فى أن تكون له حشوق على صاحبه فوق الألفة والمنفعة .
قال : لقد أغضت فى العبارة فبين لي شيئاً من البيان .

قلت : هب كلبة تألف صاحبها وتحبه فهى له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع فى أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها : هذه كلبتى ، بل يقول : هذه زوجتى . . .

قال : وى منك ! وى منك ! * لقد ضربت على رأس المسمار كما يقولون هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظ الحلوى ! يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة فهل تضع فى لسانى طعمها . . . ؟

• أى عجب ، يتعجب من فطنته .

قلت : خفيّضْ عليك يا صاحب القلب المسكين ، فليست أكثر من عاشق .
قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ؛ لأن في العاشق راغبا وفيّ أنا راهب ،
وفيه الجرىء وفيّ المنكمش ، ويغترف الغرفة من الشلال المتحدّر فيحسبها فيرتوى
وأغترف أنا الغرفة بيدى ، وأبقيها في يدى ، وأطمع أن تهذّر في يدى كالشلال
أنا أكثر من عاشق ؛ فإنه يعشق ليتتهى من ألم الجمال ، وأعشق أنا لأستمر
في هذا الألم !

هذه هذه ؛ العجيب يا صديقي أن خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرة من
صور الجمال تجيء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب ،
هى صورة الحب ؛ فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا في غير حقيقته الإبلية ولم تفهم عنى * ؟
فافهم الآن أننا إن كنا لانرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نجبهم ؛
وما دام سر الحب يبدّل الزمن والنفس ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل
حقائق هذا الحب في غير حقيقتها . .

هذه هذه ؛ لا أطلب في غيرها امرأة أجمل منها ، فهذا كالمستحيل ،
ولكنى ألتبس فيها هى امرأة أظهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضا ؛ إنها أجمل
جسم ، ولكن وأسفاه ! إنها أجمل جسم للمعانى التى يجب أن أبتعد عنها !

* * *

وسكت صاحبنا ، إذ رفعت ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى ، ظهرت فى
زينة لا غاية بعدها ، تمثل العروس ليلة جلكوتها ؛ ألا ما أمرّها سخريّة منك أيتها
المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تبرق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر .
وأقبلت تمايل بجسم رخص لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمال والشباب
فيه من أعلاه إلى أسفله .

وأظهر وجهها حسناً وأبدى جسمها حسناً آخر ، فتم الحسن بالحسن .
واقفة كالنائمة ، فالجؤ جؤ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرور يحلم !

مهتزة كال موج في الموج . هل تُخلقت روح البحر في جسمها المترجرج
 فشيء يعلو و شيء يهبط و شيء يثور و يضطرب ؟
 ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها
 المتحركة ، وأحسنا كأن روح الخديقة جالسة بيننا تنظر إلينا و تتعجب .
 تتعجب من قوامها للغصن الحى ، ومن بدننها للزهر الحى ، ومن عطرها للنسيم الحى .
 أما صاحب القلب المسكين . . .

القلب المسكين*

٥

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى ؛ وجعل ينظر إلى
 هذه الفتاة تُمثِّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعت ولعنت ، فبدت
 له مُفسرةً في هذه الغلائل غلائل العرس ؛ وما غلائل العرس ؟
 إنها تلك الثيابُ التي تكسوا لابسَها إلى ساعة فقط . . . ثيابٌ أجملُ
 ما فيها أنها تقدم الجمال إلى الحب ، فأزهى ألوانها اللونُ المشرقُ من روح لابسها ،
 وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعثُ من فرح قلبي .
 تلك الثيابُ التي تكون سكبًا من خالص الحرير ورفيع الخرز ، وحين تلبسها
 مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير ، إذ تعلم أن الحرير ما تحتها .
 ثم تنهد المسكين وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال . هذا هو انتقامُها .

قلت : يا عجباً ! أتريدها في ثيابِ راهبةٍ . ككبكةٍ فيها كما أُلقيت البضاعة

* نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض في كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذى وصفته
 لنا إحدى الأدبيات بأن « فيه أشياء مادية » ؛ فنحن نرى إلى تصوير الفريزة ثائرة مهتاجة بكل
 أسباب الثورة والاهتياج ، ولكنها مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والشرف والمروءة وفلسفة العقل . . .

في غرارة ، بين سوادٍ هو شعارُ الحداد على الأنوثة الهالكة ، وبياضٍ هو شعار الكفن لهذه الأنوثة ؟

قال : أنت لاتعرفها ؛ إن الرواية التي تُمثِّل فيها بين الروح والجسم ، هي التي احتاجت إلى هذا الفصل يقوَّى به المعنى : وكل عاشقة فعشقمُها هو الرواية التي تُمثِّل فيها ، يؤلفها هذا المؤلف الذي اسمه الحب ، ولا تدرى هي ماذا يصنع وماذا يؤلف ، غير أنه لايفتأ يؤلف ويصنع وينقِّع كما تنتزل به الحالُ بعد الحال ، وكما تعرض به المصادفة بعد المصادفة ؛ وعليها هي أن تمثل . . . قلت : فهذا ؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاماً ؟

قال : إن الأفكار أشياء حقيقية : ولو كشف لك الجوُّ هذه الساعة لرأيتَه مسطوراً عبارات عبارات كأنه مقالة جريدة .

هذه الفصل حوارٌ طويل في الهموم والآلام ورقة الشوق ونهايك الصبوة ، لو كُتِب له عنوان لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها وما أحظاها ! إن الهواء بين كل عاشقين متقاتلين يأخذ ويعطى . . .

قلت : ياعدو نفسه ! ما أعجب ما تدقُّ ! لقد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلَّح بما شاءت ، لامن أجل أن تدافع ، ولكن لتزيد أسلحتها في سلاح من تحبه ، فتريده قوةً على قهرها وإخضاعها . . .

* * *

أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحدُّها فهي تظهر كيفما اتفق ، مرسلةً إرسالاً في اللَّفَّة والحركة والهيئة والقسومة والقعدة : وهي من علمت : امرأةٌ تعيش للحقائق ، وبين الحقائق ، ككل ذي صنعة في صنعته فكانت في تماديها خطراً أيَّ خطر على صاحب القلب المسكين ، تمثل شيئاً لا أدرى أهو ظاهر بخفائه أم هو خاف بظهوره ؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه . فكانت الحبيبة الماجنة كأنها تُسكره بمسكر حقيقي ، غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر .

وكانت لذهنه المتخيِّل كالسحابة الممتلئة بالبرق ؛ توميض كل لحظة بأنوار بعد أنوار ، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة .

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولحُب ؛ فلقد أيقنتُ حينئذُ أن الحب إن هو إلا الغريزة البهيميةُ بعينها محاولةً أن تكون شيئاً له وجود فنى إلى وجوده الطبيعى ، فهو مصيبتان فى واحدة ، وكل عمله أن يجعل اللذةَ ألدَّ ، والألمَ أشدَّ ، والقلّةَ أكثرَ ، والكثرةَ أكثرَ ، وما هو نهاية كأنه لا نهاية . . .

هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فإنها تفتح الحدودَ وتغزو غروها وتمتلك . . .

يا لَسحر الحب من سِحر ! كل ما فى الطبيعة من جمال تظهره الطبيعة لعاشقها فى إحدى صور الفهم ، أما الحبيب الجميل فهو وحده الذى يظهر لعاشقه فى كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاتاً مختلفة متناقضة ، فى ساعة يكون العقل وفى ساعة يكون الجنون .

يا لَسحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الإنسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيدٍ بعيدٍ وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحَتْ له كما يسنع الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى . . . وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المعدة . . . وبرزت له صريحةً كما هى ، ولِمْسا هى ؛ ومن حيث إنها هى ؛ وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة .

آه مِن (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى) إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد !

إن فى كل امرأة . . . امرأةً يقال لها (هى) ^(١) باعتبار الضمير للتأنيث فقط ، كما يعتبر فى الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التى يرجع عليها هذا الضمير ؛ ولكن (هى) المفردة فى الكون كله لا توجد فى النساء إلا حين يوجد لها (هو)

* * *

(١) قلت : هنا رسالة إلى « فلانة » من تلك الرسائل التى كانت بينهما بعد القطيعة . . . ، وانظر ص ٨٣ « حياة الرافعى » .

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة : قد كابدت من شدة الحب وإفراط
الوجد ما يُفْصِمُ قلبين مسكينين لا قلباً واحداً ؛ وكانت لى (هى) من الهِمَمَاتِ
عانيت فيها الحبَّ والألم دهرًا طويلًا ؛ وقد ذهبتُ بى فى هواها كل مذهب إلا
مذهباً يُحِلُّ حراماً ، أو مذهباً يُخِلُّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشئء السامى
فى الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم .

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال
الأنثى بَظَهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر فى جمالها ؛ فهو فى
الأولى يشهد الإلامية فى إبداعها السامى الجميل ، وفى الأخرى لا يرى غير البشرية
حيوانيتها المتجملة . . .

وقد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلئ الذى
يملاً العالم — قد جعلت حنين العشق فى قلب الإنسان هو أول أمثلتها العملية فى
تعليمه الحنين إليها إن شاء أن يتعلم ، فكما يحب إنسان بروح الشهوة يحب إنسان*
آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة : (تلطيف السر) ، أى جعله
مستعداً للتوجه إلى النور والحق والخير . وقد عدوا فيما يعين عليه ، الفكرَ الدقيق
والعشق العنيف .

وكذلك تبينَتُ مما علمنى الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه
نقلَ معانى الفردوس وعرضها لكل آدم وحواء يمثلان الرواية . . . فإذا « قطفنا
الثمرة » طُردا من معانى الجنة * ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء إلى حقائق
الأرض .

نعم هو الحب شئ واحد فى كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين
أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل ؛ وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه
المادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس
يكون الهوى حيوانياً يُرَاكِمُ الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانياً
يكشف الظلام عن الحياة .

والمعجزة فى هذا الإنسان الضعيف أنه له مع طبيعة كل شئء طبيعة الإحساس

* أى طردا كالطرد من الجنة .

به ، فهو مستطيعٌ أن يجد لذةَ نفسه في الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معاني الحرمان ؛ وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها في عظماء النفوس ، حتى لكأن الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلةً : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعه في نفسه بين شيئين : الخلق الرفيع ، والحكمة الناضجة ؛ فإن لم يستطع فلا أقل من شيئين : الحلال ، والحرام *

* * *

أنا أنا الذى يقص للقرأ هذه القصة ، أعرف هذا كله ، وبهذا كله فهمت قول صاحب القلب المسكين : إن ظهور صاحبتة في فصل العروس هو انتقامها ، حاصرت عينها عينه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال جسم المرأة المحبوبة في معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنما لبست هذه الثياب لتظهر له بلا ثياب . . .

وأردت أن أعيبها بما صنعتُ نفسها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما لا يشبهه ، وقلت في غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد بقوله : يا عطر الشذى ، ويا أحمر الخدين !

وقد أمسك عن جوابي ، وكانت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء ، وكان وضوحها يجعل معاني غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالى مرة ، وكانت ثياب العروس وهى تزف تربه ألفاظى في ثياب العجوز المطلقة ؛ وكلما غاضبته مع نفسه أوقعت هى الصلح بينه وبين نفسه .

والعجيبُ العجيبُ في هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام ؛ ليس إلا هذا ، ولا يكون أبداً إلا هذا ؛ فهما أعطيت من جدل فأقناعك الحب المستهام كأقناعك النائم المستشقى ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو في دنيا باطنه لا يملك فيها أخذاً ولا رداً إلا ما تعطى وما تمنع .

* * *

ثم . . . ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت .
 ضحكت بحزنٍ حُزنَ الذى يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها ؛
 وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة للخير الذى اعتدى عليه الشر
 فأحاله ، والإرادة التى أكرهها القدر فأخضعها ، والعفة المسكينة التى أذلته ضرورة
 الحياة ، والفضيلة المغلوبة التى حيل بينها وبين أن تكون فضيلة !
 ويا ما كان أجملها نظرة بمعانى البكاء ضاحكة بغير معانى الضحك ؛ تنهد
 ملامح وجهها وفمها يبتسم !
 كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداً على وجهها بلطف ورقة ؛
 كان يسأل إنساناً : ألا تحل هذه العقدة ؟ . . .
 وانقضى التمثيل وتناهى الناس .
 أما صاحب القلب المسكين ؟ . . .

* * *

القلب المسكين

٦

أما صاحب القلب المسكين فقام ليخرج وقد تفارطته الهموم وتسابقت إليه
 فانكسر وتفتّر ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبتة باكيةً وبكيةً من حيث لا يرى
 بكاءً غيرُها ولا يرى بكاءً غيرُها !
 ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تَغَشَّى الدنيا لون نفسه الحزينة ؛ إذ كانت نفسه
 ألقت ظلّها على كل شيء يراه ؛ وجعل يدلف ولا يمشى كأنه مشغلٌ بحملٍ يحمله
 على قلبه .

إنه ليس أخفّ وزناً من الدمع ، ولكن النفوس المتألمة لا تحمل أثقل منه ،
 حتى ليستثر على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناء قائمٌ يتهدّم على جسم ؛ وبعضُ
 التهدّات على رقتها وخفتها ، قد تشعر بها النفس فى بعض همها كأنها جبل من
 الأحزان أخذته الرَّجفة فادت به ، فتقلقل ، فهو يتقلقل ويتهاوى عليها .

آه حين يتغير القلبُ فيتغير كل شيء في رأى العين ! لقا كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له : أنا لك ! فعاد الآن وما يقول له « أنا لك » إلا لهم ؛ والتقى هو والظلام والعالم الصامت !

جعل يدلّف ولا يمشى كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه ؛ ومضى وقع الطائر من الجو مكسوراً الجناح ، انقلبت النواميس كلّها معطلة فيه ، وظهر الجو نفسه مكسوراً في عين الطائر المسكين ؛ وتنفصل روحه عن السماء وأنوارها ، حتى لو غمره النور وهو ملقّى في التراب لأحسّه على التراب وحده لا على جسمه . . .

ثم خرجنا ، فانتبه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر ، فتعذّب به عذابين : أما واحد فلأنه كان ولم يدّم وأما الآخر فلأنه زال ولم يعد ؛ والسرور في الحب شيء غير السرور الذي يعرفه الناس ؛ إذ هو في الأول روح تتضاعف به الروح : فكل ما سرك وانتهى شعرت أنه انتهى ؛ ولكن ما ينتهى من سرور العاشق المستهام يشعره أنه مات ، فله في نفسه حزن الموت وهم الشكل ، وله في نفسه هم الشكل وحزن الموت !

* * *

وينظر صاحب القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت في الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره .

كان وجه القمر في مثل حزن وجه العاشق المتبعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا ، فكان أبيض أصفر مكمداً ، تتخايل فيه معاني الدموع التي يمسكها التجلد أن تتساقط .

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهر تأثير القدر المفاجئ بالنكبة . وبدت لنا الحياة تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها ، فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مشرقاً في نصف النهار ؛ يا لك من ساحر أيها الحب ؛ إذ تبعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيام والليالي !

أما الحديقة فلبسها معنى الفراق ، وما أسرع ما ظهرت كأنما يبست كلها لتوها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي ساكنة ، وتحولت روحها خشبية

جافة ، فلا نضرة فيها على النفس ؛ وبدت أشجارها فى الظلام قائمة فى سوادها كالنوائح يلطمن ويُولولن ، وتنكّر فيها مشهدُ الطبيعة كما يقع دائماً حين تنبت الصلة بين المكان ونفس الكائن .

ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث فى النفس ، فقد تغيرت طريقة الفهم ، وكان للحديقة معنى من نفسه فسُلب المعنى ، وكان لها فيض من قلبه فانحبس عنها الفيض ؛ وبهذا وهذا بدت فى السلب والعدم والتنكر ، فلم يبق إبداعٌ فى شيء مُبدع ، ولا جمال فى منظر جميل .

أكذا يفعل الحب حين يضع فى النفس العاشقة معنى ضئيلاً من معانى الفناء كهذا الفراق ؟

أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهم كأنها ماتت بمقدار هذا الشيء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ! مسكين أنت !

* * *

ومضينا فلنا إلى ندىً نجلس فيه ، وأردتُ معاينة صاحبنا المتألم بالحب والمتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتها نفسك !

قال : آه ! مَنْ أنا الآن ؟ وما بالُ ذلك الخيال الذى نسق لى الدنيا فى أجمل أشكالها قد عاد فبعثها ؟ أتدرى أن العالم كان فى ثم أخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء .

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لحبه .

قال : ولذلك يعيش الحب المهجور ، أو المفقود ، أو المنتظر ، وكأنه فى أيام خلته ، وتراه كأنما يحى إلى الدنيا كل يوم ويرجع .

قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف ، كالملك يستبد ليتحقق من نفاذ أمره ، وكأن الجميل لا يتم جماله إلا إذا كان أحياناً غير جميل فى المعاملة !

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهي تطلبني وأتجنبها ، وهي مقبلة لكنها مقبلة على امتناعي ؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفرّ ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك .

قلت : فإن هذه هي المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان الحب مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها .

قال : كذلك هو ، فهل تعرف في البؤس والهم كبؤس العاشق الذي لا يتدبر كيف يأخذ حبيبته ، ولكن كيف يتركها ؟ ما هي المسافة بيني وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا ، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها ، إن مسافة ما بين الحلال والحرام مترامية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية ؛ وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر ! ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشرعة وكرامة الإنسانية في المرأة والرجل .

وإذا لم ينته الحب بالإثم والرذيلة ، فقد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ هو سرُّ قوته وعنصر دوامه .

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة . . . لأنه بهذا يودُّ ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الحرمان الذي يسمى الشرف ، وألا يكون بينهما إلا قيدٌ غريزتها الذي ينحلّ من تلقاء نفسه في لحظة ما ، وأن يترك لقوته وترك هي لضعفها ؛ والقوة والضعف في قانون الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصاب وتسليم .

قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ؛ فإن بينهما قوةً وضعفًا من نوع آخر ، فعه الثمن وبها الحاجة ، وهما في قانون الضرورة ملك وتمليك .

قال : وهذا مما يقطع في قلبي ؛ فلو أن للأمة دينًا وشرفًا لما بقي موضع الزوجة فارغًا من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن في تلك المواضع الحالية أول ما ينزلن ، فكل بغى هي في المعنى دينٌ متروك وشرف مبتذل في الأمة .

قلت : فحدثني عنك ما هذا الوجد بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خيالياً محضاً كأنما جمعتها في حواسك فأخذتها وتركتها في وقت معا ، وحواسك هذه لا تزال كما هي ، بل هي قد زادت حدة ، فكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بُعد ؟

قال : أنا في محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذى تقول هي فيه إنك لا تحبني ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخلق ؛ ولكني في غيابها أفقد هذا الميزان الذى يزن المقدار ويحدده ، وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المعشوق ، فاعلم أن كبريائه حينئذ لا ترى بإزائها ما تقاومه ، فتتخلى عنه وتتخله ؛ وفضيلته لا تجد ما تستعمل فيه ، فتتوارى وتدعه ؛ وشخصيته لا تجد ما تبرز له ، فتختفي وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهن والنقص وحده الشوق ؛ وهنا ينتقم الحب مما زورت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية ، فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لها القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التى كتمت عنه ؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدّه وتباعده ، وهى فى خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القدّم وعلى هذه القدم !

لا إنه لا بد فى الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب المسرح هى دائماً ثياب استعارة ما دام لابسها فى دوره من القصة :

* * *

تم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه ! إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان .

من من الناس لا يعرف أحزانه ؟ ولكن من منهم الذى يعرف أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملاً فى النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل فى إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرق ، ومن ثم كانت آلام الحب قويةً قويةً حتى لكانها فى الرجل والمرأة تهىء أحد القليلين ليستحق القاب الآخر .

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجر، وبذلك يُصْهَرُ المعدن الإنسانى ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى أن ينصهر ويتصنى ويصنع ، ماذا يكون للإنسان فى كل شىء من حبيبه ؟ يكون له فى كل شىء روحه النارى .

* * *

قلت : بَخْ بَخْ * ! هكذا فليكن الحب ؛ إنها حين تهيج فى نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبدع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدَّ اللوعة ! يا عجباً ! كأن الحياة لا تقدم فى عشق المحبوب إلا عشقها هى ؛ فإذا وقعت الجفوة ، أو حُصِمَ البينُ ، أو اعترى اليأس - قدَّمَ الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت .

إن الحزن الذى يحىء من قبل العدو يحىء معه بقوة تحمله وتنجلد له وتكابر فيه ؛ ولكن أين ذلك فى حزن مبعثه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

* * *

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً ؛ فإذا كان غدٌ وانسلخ النهار من الليل جئنا إليها فرأيناها فى المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدرراً آخر ، قال : أرجو . . .

ولم يكذ ينطق بهذه الرجىة حتى مر بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلت ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . . من قوله : أرجو . . .

ولماذا رحلت ؟ لماذا ؟ .

وأما هو . . . ؟

القلب المسكين

٧

وأما صاحبُ القلبِ المسكينِ فما علم أنها قد رحلتُ عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه ، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيئاً لا يرى ، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء ؛ ورأيتُه واجماً كاسفَ البالَ يَتَنَازَعُهُ في نفسه ما لا أدري ، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب .

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتأنون بها ويرتمضون منها وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا ؟ وما الذى يتلقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة ؟ يتلقاهم بالفراغ القلبى الذى لا يملؤه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد ؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا ملياً كأنها انتهت إلى نهاية في النفس العاشقة ، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معاني الحياة وبين شعور الحى ؛ ويكون العاشق موجوداً في موضعه ولا تجده المعانى التى تمرُّ به ، فترجع منه كالحقائق تُسلمُ بالفراغ العقبى من وعى سكران .

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما الذى يجعل فيك تلك القدرة الساحرة ؟ أهو فصلك بين زمن وزمن ، أم جمعتك الماضى في لحظة ؛ أم تحوילك الحياة إلى فكرة ، أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها ، أم تصوورك روحية الدنيا في المثال الذى تحسُّه الروح ، أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنية على الانقلاب ، أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن ، أم رجوعك باللذة تُرى ولا تمكن ، أم أنت كل ذلك لأن القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويمتلئ بك وحدك ؟

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوة السحرية فيك تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك ، وتستهوئ بها الفم ليقبلك ، وتستدعى الدمعَ لينفرك ، وتحتاج الحنين لينبعث فيك ؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب ، أم لأن القلب يفرغ ساعة

من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك ؟

* * *

ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم ؛ وتلك هى طبيعة الألم الذى يفاجئ الإنسان من مكمن لذته وموضع سروره ، فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً مات فيدفنه فى قبر الماضى ، يكون ألاماً لأن فيه المصنص ، وكآبةً لأن فيه الحيبة ، وذوولاً لأن فيه الحسرة ؛ وتم هذه الثلاثةُ الهموم بالضيق الشديد فى النفس ، لاجتماع ثلاثتها على النفس ؛ فإذا المسكين مبعوث كأن الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع ، فقلبه منها صدُوع صدُوع . . .

وجعلتُ أعذلُ صاحبنا فلا يعتدل ، وكلما حاولت أن أثبت له وجود الصبر كنت كأنما أثبت له أنه غير موجود ؛ ثم تنفس وهو يكاد ينشق غيضاً وقال : لماذا رحلت ؟ لماذا ؟

قلت : أنت أذلت جمالها بهذا الأسلوب الذى ترى أنك تُعزِّزُ جمالها به ، وقد اشتدَّت عليها وعلى نفسك ، وتعنَّتْ على قلبك وقلبك ؛ كانت ظريفة المذهب فى عشقها وكنت خشناً فى حبك ، وسوَّغتك حقاً فرددته عليها ، وتهالكْت وانقبضت أنت ، ورفعتُ قدرك عن نفسها تحبها وتودُّ دأً فخففت قدرها عن نفسك من اطراح وجفاء ، واستفزعت وسعها فى رضاك فتغاضبت ، ونصبت عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شىء سؤالاً فلم تكن أنت من جوابها فى شىء . . .

ومن طبع المرأة أنها إذا أحببت امتنعت أن تكون البادئة ، فالتوت على صاحبها وهى عاشقة ، وجاحدت وهى مُقرَّة ؛ إذ تريد فى الأوَّلة أن تتحقق أنها محبوبة ، وفى الثانية أن يُقدِّم لها البرهان على أنها تستحق المهاجمة ، وفى الثالثة هى تريد ألا تأخذها إلا قوةً قويةً فتمتحن هذه القوة ، ومع هذه الثلاث تأبى طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن يكون لهذا السرور وهذا الإمتاع شأن وقيمة ، فتذيق صاحبها المرَّ قبل الحلو ليكبر هذا بهذا .

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكهرها الحب على أن تبتدى صاحبها ، ثم ابتدأت ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ما تحب ، فإن الابتداء

حينئذ يكون هو النهاية ، وينقلب الحب عدو الحب ؛ وأنا أعرف امرأة وضعتها
كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها : سأنالم ولكن لن أغلب ، فكان
الذى وقع وأسفاه — أنها تألمت حتى جُسَّت ، ولكن لم تُغلب ^(١) . . .

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدى كل يوم رجلا ؟

قلت : إنها تبتدى متكسبة لا عاشقة ، فإذا أحبت الحب الصحيح أرادت
قيمتها فيما هو قيمتها ؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنف وهذه القسوة وهذه
الروحية الجبارة ؛ فإنها لذات جديدة للمرأة التي لا تجد من يُخضعها ؛ وفي طبيعة
كل امرأة شيء لا يجد تمامه إلا في عنف الرجل ، غير أنه العنف الذى أوله رقة
وآخره رقة ؟

* * *

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشئ الغريب
يسمى غريباً فيكفى ذلك بياناً في تعريفه ، غير أنه إذا وقع في الحب سمى
غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه
الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شئ غريب ، ثم
تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا
يشعرون .

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ؛ وكأن النبوة نبوتان :
كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فإحداهما بالنفس العظيمة في الأنبياء ، والأخرى
بالقلب الرقيق في العشاق ؛ وفي هذه من هذه شبهة ، لوجود العظمة الروحية في
كليتهما غالباً على المادة ، مجردة من إنسان الطين إنساناً من النور ، محرقة
هذه الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السموات ، ذاهبة بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو
الأحسن والأجمل ، واضعة مبدأ التجديد في كل شئ يمر بالنفس ، منبعثة
بالأفراح من مصدرها العلوى السهاوى .

بيد أن في العشق أنبياء كذبة ؛ فإذا تسفل الحب في جلال ، واستعلنت
البهيمية في عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنسان الحجير ، وتحركت الطبيعة

(١) انظر قصة هذه الحبيبة التي تألمت حتى جنت ص ٧٣ - ١٠١ « حياة الرانمي » .

الآدمية حركة جديدة في السقوط ، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأقبح والأسوأ ، وتجدد لكل شيء في النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى - إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟
لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق ، كما يقلد النبوة الكبيرة في بعض الدجالين .

* * *

هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان في الحديقة ، وكنا دخلناها ليجدد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض ما به ؛ واستفاض كلامنا في وصف تلك العبهرة * الفتاة التي أحلته هذا المحل وبلغت به ما بلغت وكان في رقة لا رقة بعدها ، وفي حب لا نهاية وراءه لحب ؛ وخيل إلى أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما !

وأنتفع ما في حديث العاشق عن حبه وألمه أن الكلام يخرج من حالة الفكر ، ويؤنس قلبه بالألفاظ ، ويخفف من حركة نفسه بحركة لسانه ، ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ؛ فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه الوهمية ، وتأتيه بالحقائق على قدرها في اللغة لا في النفس ؛ وفي كل ذلك حيلة على النسيان ، وتعلل إلى ساعة ؛ وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين في هذا البلاء الذي يسمى الفراق أو الهجر .
وكان من أعجب ما عجبته له أن صديقاً مرّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو يرمي إلى : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم : لا هو يقيم عندي ولا أنا أقيم حجة ، وأحسب أن عندك رأياً فاقض بيننا . . .

ويسأله الصديق : ما القضية ؟ فيقول وهو يشير إلى :

إن هذا قد تخرق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يجيء لقلبه برقعة . . .
وإنه يعيش فلانة الراقصة التي كانت في هذا المسرح ، ويزعم لي . . . أنها أجمل وأفتن وأحلى من طلعت عليه الشمس ، وأنه ليس بين وجهها وبين القمر وجه امرأة أخرى في كل ما يضيء القمر عليه ، وأن عينيها مما لا ينسى أبداً أبداً . . .

* هي التي جمعت الحسن والجم والامتلاء وجمال الخلقة من كل ناحية ، كهذه التي نحن في وصفها منذ شهرين . . .

لأن الحاظها تذوب في الدم وتجري فيه ، وأن الشيطان لو أراد مناجزة العفة والزهد في حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل حيله وأساليبه وقدّم جسمها وفنها . . .

فيقول له المسئول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحباً لقد صحا : إن المشكلة في الحب أن كل عاشق له قلبه الذي هو قلبه ، وحسبها أن مثل هذا هو يصفها ؛ وما يدرينا من تصارييف القدر بهذه المسكينة ما عليها مما لها ، فلعلها الجمال حُكم عليه أن يُعذّب بقيق الناس ، ولعلها السرور قضى عليه أن يسجن في أحزان !

* * *

وقلت له : يا صديقي المسكين ! أو كل هذا لها في قلبك ؟ فما هذا القلب الذي تحمله وتتعذب به ؟

قال : إنه والله قلب طفل ، وما حبه إلا التأسه الحنان الثاني من الحبيبة ، بعد ذلك الحنان الأول من الأم ؛ وكل كلامي في الحب إنما هو لإملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره .

آه يا صديقي ! إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا في اثنين : من كان فيلسوفاً عظيماً ، ومن كان مغفلاً عظيماً !

* * *

وافترقنا ؛ ثم أردت أن أتعرف خبره فلقيته من الغد ، وكان لي في أحلامي تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن أعجب ؛ أما أنا فلا يعني القراء شأني وقصتي .

وأما هو ؟ . . .

القلب المسكين

٨

وأما هو فحدثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفتنه ، قال :
انصرفت إلى داري وقد عزَّ علىَّ أن يكون هذا منها وأن يكون هذا مني ، وهي إن
غابت أو حضرت فإنها لي كالشمس للدنيا : لا تظلم الدنيا في ناحية إلا من أنها
تضيء في ناحية ؛ فظلمتها من عمل نورها ؛ وكانت ليلتي فارغةً من النوم فبتُّ
أتملُّ ، وجعل القلب يدقُّ في جنبي كأنه آلة في ساعة لا قلب لإنسان ؛ وكان في
الدنيا من حوِّى صمت كصمت الذى سكت بعد خطبة طويلة ، وفيَّ أنا صمت آخر
كصمت الذى سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء راكداً كالسكران
الذى انطرح من ثقله السكر بعد أن هذى طويلاً وعربد ؛ والوجود كله يبدو
كالخسوف ، لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري ؛ ونظرتُ نظرةً في النجوم فإذا
هي تتغورُ نجماً بعد نجم ، كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض والسماء إذ رحلت
الحبيبة ؛ وكأن كل وجه مضى يقول لي كلمة : لا تنتظر !

فلما عسعسَ الليلُ رميت بنفسى فتمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ
ما تصنع ، فرأيتها هي في تلك الشُّفوف التي ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجبَ
كبرياءَ المرأة المحبوبة ! إنها لتبدو لعيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشفُّ عنها
كالضوء ، ثم تُدِلُّ بنفسها أن ترفع هذا السر ، فإن لم يتجوأ هو لم تتجرأ هي ؛
وكأنها تقول له : قد رفعتُه بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك . . .

وكانت مصورةً في الحلم تصويراً آخر ؛ فلا يشك من جسمها معنى الحسن الذى
أتأمله وأعقله ، ولكن معنى السكر الذى يترك المرء بلا عقل ؛ ولم تكن غائلاً عليها
كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لي كاللون على الوردة الزاهية : تظهر فتنةً وتُسَمِّ فتنة .

أيتها الأحلام ، ماذا تُبدعين إلا مخلوقات الدم الإنسانى ، ماذا تبدعين ؟

قلت : يا صديقي دع الآن هذه الفلسفة وخذ في قصِّ ما رأيت ، ثم ماذا

بعد الوردة ولون الوردة ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلبُ المسكينُ ؛ لقد ضحكتُ لى
وقالت : هأنذى قد جئت ! وأقبلتُ ترائينى بوجهها ، وتتغزل بعينيها ، وتنهد
بصدرها ، وألقت يدها فى يدى ، فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصافحان ؛ ثم
تركناهما نأتمتین إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هُنيهةً وقد خيلَ إلينا أننا إذا
تكلمنا استيقظت يدانا !

أما صافحتك امرأة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست يدها قد نامت فى يدك
ولولحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو ينتقل إلى عينيها فإذا هما فاترتان
ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلمٌ قصير ؟

قلت : يا صديقى دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يدٌ على يد ؟
قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أقبح سخرية قط .

قلت : حسبي لكأنك شرحت لى ما بقى . . .

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأنى به يقول
لك : وكان ما كان مما لست أذكره . . . أفترى ما الذى كان وما بقية الخبر ؟
لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوتى فى الضغط بىدى على أعواد منصوبةٍ من
الحديد ، أو على أيدى الأقوياء إذا سلمتُ عليهم^(١) ؛ فلما صافحتنى لبثت
مدة من الزمن ثم شددتُ على يدها قليلاً قليلاً ، فتنهتُ فى هذه العادة ، فسخت
الحلمَ وانصرف وهى إلى أقبح صورةٍ وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه من الحب ولذات
الحب ؛ فإذا بلزائى وجهه ، وجهٌ من ؟ وجه مصارع ألمانى كنتُ أعرفه من عشرين
سنة وأضغط على يده . . .

* * *

قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عففتك تنبهتُ فى تلك الشدة من يدك ، ولا يزال
أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين ؟

قال : والذى هو أعجب أنى رأيت فى أضغاث أحلامى كأن قلبى المسكين
يخاصمنى وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحشاء الضلوع كأنه مخلوق من الظل يُرى
ولا يُرى إذ لا شكل له ؛ وسببته وسببته ، وقلتُ له وقال لى ، وتغالظنا كأننا عدوان ؛

فهو يرى أنى أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو يمننى ، وأنه أشقى بى على ما أشقى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قرارَ على جنائتك ، فاذهبْ عني ولا تتسمَّ باسمي فإنه لا فلانَ لك * بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلمتَ أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الحميلة نوعٌ مخفَّف من التقبيل ، فإذا هى تركته يرتفع في الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فيه لغمها ؛ ولولا أنك مخذول في الحب لعلمتَ أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فإذا هى تركته يشتد في الدم انتهى يوماً إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكنك مخذول في الحب ، ولكنك مخذول !

وقال لى فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمتَ أن أناملها الرخصة هى أناملها ، لا أعوادك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشدة التى أخرجتْ لك وجه المصارع ؟ ولكنك خائب في الحب ، ولكنك خائب ! قلت : فهذه قضيةٌ بينى وبينك أيها القلب العدو ؛ لقد تركتني من الهموم كالشجرة المستخرَّبة قد بليت وصارت فيها التخاريب ؛ فلا حياتها بالحياة ولا موتها بالموت ، وكُم علقتنى بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهى ولا فيها مطمعٌ يبتدى ؛ ما أنت فى إلا وحشٌ أكبرُ لذته لطمعُ الدم !

واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتُنى فى محكمة الجنائيات ، وكأنى شكوت قلبي إليها فهو جالس فى القفص الحديدى بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل فى أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم ، وجلس النائب العام فى مجلسه يتولى إقامة الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافاً كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أولَ من تكلم فقال : ليس فى قضية القلب محام ، فابغوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار للدفاع عنك ؟ قال القلب : أو هنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه — وأوماً إلى السماء — ولا فوق هذه — وأوماً إلى الأرض — إلا . . .

فبدّر النائب العام وقال : إلا الحبيبة ؟ أكذلك ؟ غير أنها أستاذة فى الرقص لا فى القانون !

— القلب : ولكننى لا أختار غيرها محكوماً لى أو محكوماً على ؛ أنا أريد أن أنظر فيها وأنظروا أنتم فى القضية . . .

— الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف ليدن لها أيها الآذن .
فنادى المحضّر * : الأستاذة ! الأستاذة !

وجاءت مبادرة ، ودخلت تمشى مشيتها وقد افترّ ثغرها عن النور الذى يسطع فى النفس ؛ وأومضت بوجهها يميناً وشمالاً ، فصرفت الناس جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ واثارت فى كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقة البشرية فانتفضت طباع الموجودين فى قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانون المحكمة ، فوقع الضجة وعلت الأصوات واختلطت ؛ وترددت بين جدران المكان صدئى فى صدئى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين .

أصوات أصوات : سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ! تبارك الله ! آه آه ! آه آه ! وسمع صوت يقول : اتّهمُونى أنا أيضاً . . . فسقطت الكلمات : وأنا ، وأنا ، وأنا ! واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فانتته الراقصة ؛ وكان المستشارون والنائب العام فى أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط : لا يخشاها أحد أن تنظر إلى ما يصنع !

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله . . . المحكمة المحكمة !

— النائب العام : هذا بدء لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تنسحب عليه ، نعم إن هذا الوجه الجميل أبرع محام فى هذه القضية ، ونعم إن جسمها . . . آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتهم . . . عن المتهم ، هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب ، وكأنكم يا حضرات المستشارين . . . فبددت الحامية تقول فى نعمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيت أن النائب العام له قلب أيضاً . . .

واشدّد ذلك على النائب ، وتبين الغضب فى وجهه ؛ فقال : يا حضرة الرئيس . . .

— الرئيس مبتسماً : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها الثالثة . . . (ضحك)

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وكنتُ بلا قلب . . . فلم ألتفت للجمال ، بل راعني ذكاءُ المحامية ونفاذُها وحسن اهتدائها إلى الحجة في أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع في لسانها ، لا كما يقع مثله في لسان المحامي القدير ، ولكن كما يقع زوجٌ في لسان زوجة معشوقة متدلة تجادلها بحجج كثيرة بعضها الكلام . . . وقلت في نفسي : يا رحمة الله لا تجعلى من النساء الجميلات الفاتنات محاميات في هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لحى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة ، نداءً قانونياً للقبلات . . .

ونفضت المحامية العجيبة فسلطت عينها الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر في هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبي المسكين . . . أريد أن أعرف الرأي القانوني في اعتبار الجريمة . أهى شخصية ، فتقتصر على صاحبها ؛ أو خاصة ، فتضر غير جانبها ؛ أو عامة ، فيتناولها العمومُ المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؛ أو هى أعم ، فيتناولها العمومُ المطلق للهيئة الاجتماعية ؛ ما هى جريمة قلبي ؟ . . .

— الرئيس : ما رأى النيابة ؟

النائب ضاحكاً : (غزالتها رايقة) كما يقول الراقصات والممثلات . . . أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص في العام . . . (ضحك)

المحامية : جواب كجواب القائل : حب أبى بكر : كان ذلك الرجل يجب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتغلظ له الكلام ، وهو يفرق منها ولا يخالفها ؛ فرآها يوماً وقد طابت نفسها ، فأراد أن ينتهز الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يا فلانة قد والله أحرق قلبي . . . ولم تدعه يتم الكلمة ، فحددت نظرها إليه وقطبت وجهها وقالت : أحرق قلبك ماذا ؟ فخاف ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال ؛ حب أبى بكر الصديق رضى الله عنه ..

(ضحك) ورنث ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت في كل دم ، وفي دم النائب أيضاً ؛ فانخزل ولم يزد على أن يقول : أحتجُّ من كل قلبي . . .

الرئيس : لندخل في الموضوع ولتكن المرافعة مطلقة ؛ فإن الحدود في جرائم القلب تُسُدُّ وتُرفع كهذه السناثر في مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة .

* * *

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى ؛ فإن هذا القلب هو نفسه تهمة متكلمة .

المحامية : ولكنه قلب .

النائب : وأنا يا سيدى لم أحرّفت الكلمة ولم أقل إنه كلب . (ضحك) وتضرع وجه المحامية وخجلت * .

— الرئيس : الموضوع الموضوع .

النائب : يا حضرات المستشارين ، إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون في شخص الجانى أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجاً مثلاً ، أو صيته الأدبى ؛ فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه ولصاحبه ألا يتنازع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم . . . (ضحك)

— المحامية : أستمح النائب عذراً إذا أنا . . . إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » . . . (ضحك) وتفرج وجهُ النائب العام وخجل .

— الرئيس : كنت رجوت ألا تكون للأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقيُّ ألا يكون للثالثة رابعة ؟ . . .

* إذا كان كلباً فهو يتبع كلبه . . . وهذه هي غمزة النائب للمحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة في الرؤيا ؛ وفي الرؤيا علمنا أن هذا النائب كأكثر شبان العصر في هذه المدينة الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدينة جعلتهم بين الفتيان « أنصاف متزوجين » على وزن « أنصاف عذارى » بين الفتيات . . . وفي الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ، ويقال مثله — بينها وبين صاحب القلب المسكين منافسة . . .

— النائب : يا حضرات المستشارين ، وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلبُ رجل متزوج ؛ ولا تغرتكم صوفيَّةُ هذا القلب ، ولا يخدعنكم تألُّهه وزعمه السمو . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء ، على الزواج وعلى الشرف ؛ وهبوه متصوفاً متألِّهاً ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ولكن بأسلوبه الخاص . . . وبهذا اقترف الجريمة ؛ آه ! إن هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً ، فأتيموه أنتم . يا حضرات المستشارين ، إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

— المحامية : هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور ! يا حضرة النائب ، من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه ، بل ألف شاهد على ليلة واحدة . . . يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء في لفظة (نائب) غير النون والباء في لفظة (نبي) .

— النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُخرجني في الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيرتني في هذه الجريمة أن ليس فيها من أوصاف الجرائم إلا ثلم الكرامة ، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للراقصة . . .

— المحامية : لا أرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقة في هذه القضية ؛ فلعل المحكمة تأمر لي بكأس . . . (ضحك)

— النائب : يا حضرات المستشارين ، يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً ، بل عُرِيّاً في شكل ثياب . . . امرأة لا كالنساء ، كذبها هو صدق من شفيتها ، لماذا ؟ لأنهما حمراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان . . .

المحامية : تضحك . . .

— النائب بعد أن تتعق : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة في العمل ، ورجلا في الكسب . . .

— المحامية : ولكنك لا تدري تحت أى حِمْل سقطت * المسكينة ، وقد يكون فى الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب : ذاتُ عظمة . . .

— النائب : يحب راقصة ، أى يضعها فى عقله الباطن ويشتهيها ؛ نعم يشتهيها ، فمن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته — تخرج الجريمة أو على الأقل ، فكرة الجريمة .

والصيت الأدبى يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لِمَن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة فى الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل تكون تحت قدمى المرأة المعشوقة كالمسحة الحشنة تمسح فيها نعلها !

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان يتلبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للإنسان هو الذى يهئ من الحب مداخل ومخارج للشياطين فى جسمه ؛ وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ؟ هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، أو رضى بقدر ما ؛ فعلى كليهما يقوم فى نفسه مانع ؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة .

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما فى القانون الإنجليزى ، وقد قرر الشراح أنه ما دام الرضى غير مستلب بكله ، فالجريمة غير واقعة بأكملها .

— النائب : جنحة كل قلب هى جناية من هذا القلب بخصوصه ، على طريقة « حسنات الأبرار سيئات المقرئين » ؛ والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية ، وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً فى تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة فى هذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة .

— المحامية : قد نسيت أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البرىء .

— النائب : إذن أطلب عقابه بجرماته الجمال : وهذا أشق عليه من العقاب باثنى عشرة مادة وبعشرين وثلاثين .

الرئيس : وما هى الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟
 النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفل ،
 وبالسيمافتبطل إلا مالا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، ويحرم السفور على
 النساء إلا العجائز والدميمات ، ويمنع نشر صور الجمال فى الصحف
 والكتب ، و . . .

المحامية : قل فى كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القلب
 الإنسانى !

* * *

وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو ؟ . . .

القلب المسكين

تتمة

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحامية وكأنها بين الحراس تزدهم
 عليها من كل ناحية ، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحب ، وقلقتهم فى
 الزمن إلى مثل الساعة المصورة التى ينتظر فيها الأطفال سماع القصة العجيبة ؛
 ساعة فيها كل صور اللذة للقلب .

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيًّا أو رشداً
 فلهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ ، لأن أحد الصوابين منظور بالأعين .

كان صوتُ النائب العام كلاماً يُسْمَعُ ويُفْهَمُ : أما صوت المحامية الجميلة
 فكان يُسْمَعُ ويُفْهَمُ ويُدْرِك ، وتلقيه هى من ناحية ما يُدْرِك ، وتلقاه
 النفس من ناحية ما يُعْشَقُ ؛ فهو متصل بحقيقتين من معناه ومعناها ، وهو كله
 حلوة لأنه من فمها الحلو .

* * *

وبدأت فتناولت من أشياءها مرآة صغيرة فنظرت فيها .

— النائب العام : ما هذا يا أستاذة ؟

— المحامية : إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليف عينيّ ، فأنا أسأل عينيّ قبل أن أتكلّم !

— النائب : نعم يا سيدتي ؛ ولكني أرجو ألا تُدخلِ القضية في سر المرأة وأخواتها . . . إن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكحّلت لغةُ الدفاع !
فضحكت المحامية ضحكة كانت أولَ البلاغة المؤثرة . . .

— النائب : من الوقار القانوني أن تكون المحامية الفتانة غيرَ فتانة ولا جذابة أمام المحكمة .

— المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة . . . ؟ (ضحك)

— النائب : جمال حسناء ، في ظرف غانية ، في شمائل راقصة ، في حماسة عاشقة ، في ذكاء محامية ، في قدرة حب — هذا كثير !

— المحامية : يا حضرات المستشارين ، لم تكن المرأة هفوة من طبيعة المرأة ، ولكنها الكلمة الأولى في الدفاع ، كلمة كان الجواب عنها من النائب العام أنه أقر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشي على اتهامه إذا تكحلت له لغتي .
— القضاة يتبسمون .

— النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانوني ، الوقار ، نعم الوقار ؛ فإن المحامية أمام المحكمة ، هي متكلم لا متكلمة .

— المحامية : متكلم بلحية مقدرة منع من ظهورها التعذّر (ضحك) . . .
كلا يا حضرة النائب ؛ إن لهذه القضية قانوناً آخر تُستزَعُ منه شواهد وأدلة ؛ قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضاني أن أرقص لرقصت ، أو أغني لغنّيت ، أو سحر الجمال لأثبتّه أول شيء في النائب . . .

— الرئيس : يا أستاذة !

— المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنائب في جريمتنا هو خصم القضية ، وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية .

— النائب : لو حدث من هذا شيء لكان إيجاءً لعواطف المحكمة . . .
فأنا أحتج !

— المحامية : احتج ما شئت ، ففي قضايا الحب يكون العدل عدلين ؛ إذ كان

الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك .

— النائب : هذه العقدة ليست عقدة في منديل يا سيدتى ، بل هي عقدة في القانون .

— المحامية : وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار يا سيدى ، بل هي قضية إخلاء قلب !

— الرئيس : الموضوع ، الموضوع !

— المحامية : يا حضرات المستشارين ، إذا انتفى القصد الجنائى وجبت البراءة . هذا مبدأ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الجودى في جريمة قلبى المسكين ؟

— النائب : أوله حب راقصة .

— المحامية : آه ! دائماً هذا الوصف ؟ هبوا في معناها غير جديرة بأن يعرفها لأنه رجل "تقى" ، أفليست في حسننها جديرة بأن يحبها لأنه رجل "شاعر" ؟ احكموا يا حضرات القضاة ؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها رهنٌ بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التى تدفع . . . فلماذا لم ينلها وهى متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية ، وفي آخر أوصاف الشوق ؟ أليس هذا حقيقةً بإعجابكم القانونى كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم يكن هذا الحب شهوةً فكر ، فما الذى يحول دونها وما يمنعه أن يتزوجها ؟ . . .

— القضاة يتبسمون .

— النائب : نسيّت المحامية أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على النهاية وفي آخر أوصاف الشوق . . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الراقصة .

— المحامية : آه ! دائماً الراقصة ، من هي هذه المسكينة الأميرة في أيدى الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة ؟ أليست هي الجلجلة التى لا تجد من الفاجرين إلا لحم الميتة ؟ نعم إنها زلت ، إنها سقطت ، ولكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ، فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها ، وفقر العدل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهملها ! يا للرحمة لليتيمة من الأهل ،

وأهلها موجودون ! والمنقطعة من الناس ، والناسُ حولها !
 يقولون : يجب ولا يجب ، ثم تدّعون الحياة الظالمة تعكس ما شئت فتجعل
 ما لا ينبغي هو الذى ينبغي ، وتقلب ما يجب إلى ما لا يجب ، فإذا ضاع من يضيع
 فى هذا الاختلاط ، قلتم له : شأنك بنفسك ، ونفَضْتم أيديكم منه فأضعتموه مرة
 أخرى ، ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاه الأسباب فى هذا الاجتماع الفاسد ، تُخرجُ
 لكم مسببات أخرى غير فاسدة .

تأتى المرأة من أعمال الرجل لا من أعمال نفسها ، فهى تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛
 وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع
 ظلمًا آخر فيأخذها وحدها بالخریمة ، ويقال سافلة ، وساقطة ؛ وما جاءت إلا من
 سافل وساقط !

لماذا أوجبت الشريعة الرجمَ بالحجارة على الفاسق المُحْصَن ؟ أهى
 تريد القتلَ والعذیبَ والمُتَلَّة ؟ كلا ؛ فإن القتل ممكن بغير هذا وبأشد من
 هذا ، ولكنها الحكمة السامية العجيبة : إن هذا الفاسق هَدَمَ بيتًا فهو يُرجم
 بحجارته !

ما أجلك وأثمك يا شريعة الطبيعة ! كل الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار
 الأسرة إذا انهدم .

تستقطون المسكينة ، ولو ذكرتم آلامها لوجدتم فى ألسنتكم كلمات الإصلاح
 والرحمة لا كلماتِ الذم والعار ؛ إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هذا
 إلا أنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوتها ؟ نعم إن ذلك معنى الفجور ، ولكن أليس
 هو نفسه معنى القوت أيها الناس ؟

— الرئيس وهو يمسح عينيه : الموضوع الموضوع !
 — المحامية : ما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلبى المسكين ؟ ما هو الواقع من
 جريمة يضرب صاحبها المثل بنفسه للشباب فى تسامى غريزته عن معناها إلى أظھر
 وأجمل من معناها ؟ لبس القانونُ إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل
 دينيٍّ من أعمال الفضيلة !

— النائب : ألا يخجل من شعوره بأنه يجب راقصة ؟

— المحامية : وم يخجل ؟ أمن جمال شعوره أم من فن شعوره ؟ أيخجل من عظمة في سمو في كمال ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهي نفسها أعمال النصر والمجد ؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبتة وأن أظهر شيئاً من سر فنّها الذي هو سرّ البيان في فنه ؟

— النائب : إنها تتماجن علينا يا حضرات المستشارين ، فالذي يحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجاة

— الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة .

— المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بنيات المتكلمين بها أو المصغين إليها ؛ فكلمة الحب مثلاً قد تنتهى إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور ، وهي بعينها تبلغ إلى فكر آخر حاملة إلى سموه من سموها ؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين ؛ فالأصل في مدنية هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفة . . . وإكرام المرأة إكرام مغازلة . . . يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة ، فيضعونه في حياة المرأة ، فما أسرع ما يجيء « الصّقر » فإذا هو العشرة بعينها !

أما الشرقيون فالأصل في مدنيّتهم التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها ، لا جرّم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ، والقسوة والرحمة ، و . . .

— النائب : وامرأة البيت وامرأة الشارع . . .

— المحامية : وبصر القانون وعمى القانون . . .

— الرئيس : وحسن الأدب وسوء الأدب الموضوع الموضوع .

— المحامية : لا والذي شرّفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين ؛

ما يرى القلب المسكين في حبيبته إلا تعبير الجمال ، فهو يفهمها فهم التعبير ككل موضوعات الفن ، وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها ، أئن أحس الشاعر سرّاً من أسرار الطبيعة في منظر من مناظرها ، قلّم أجرم وأثّم ؟

هذا قلبٌ ذو أفكار ، وسبيله أن يعان على ما يتحقق به من هذا الفن ، قد تقولون : إن في الطبيعة جمالا غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط منها ؛ ولكن ما الذى يحبى الطبيعة إلا أخذها من القلب ؟ وما هى طريقة أخذها من القلب إلا بالحب ؟ وقد تقولون : إنه يتألم ويتعذب ؛ ولكن سلوه : أهو يتألم بإدراكه الألم فى الحب ، أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار التعقيد فى الخير والشر . . . ؟

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا فى أحد الطرفين : هم أكبر من المهم ، فرح أكثر من الفرح ؛ فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذى لا يكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا أفراح معتدلة .
هذا قلب مختار من القدرة الموحية إليه ، فالتى يحبها لا تكون إلا مختارة من هذه القدرة اختيار ملك الوحي ، وهما بهذا فؤادان فى يد الجمال لا يداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتا هى عظيمة . . .

فإن قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه ، قالت الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة .

إن خمسين وخمسين تأتى منهما مائة ، فهذا بديسى ، ولكن ليس أبين ولا أظهر ولا أوضح من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المعشوقة يأتى منهما فن .

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة إلى غرفتهم ليتداولوا الرأى فيما يحكمون به ، وأومات لى المحامية الجميلة تدعونى إليها ، فنهضت أقوم فإذا أنا جالس وقد انتبهت من النوم .

جائزة^(١) : لمن يحسن كتابة الحكم فى هذه القضية خمس نسخ من كتاب (وحى القلم) ، وترسل المقالات (باشمنا إلى طنطا) ، والموعد (إلى آخر شهر يناير هذا) والشرط رضى المحكمين ، ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبته . . .

(١) قلت : وردت إلى المؤلف مئات الرسائل بحكم أمحائها فى قضية (القلب المسكين) ، ولكن مسابقة الحكم فى هذه القضية لم يفصل فيها ، لأن قاضيا الأول ومتهمها الأول قد غاله الموت قبل أن يرى رأيه ويحكم حكمه !

انتصار الحب *

كل ما يكتب عن حبيبين لا يفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما
ينظر إلى وجه الآخر .

[وما تعرفه العين من العين لا تعرفه ألفاظ ، ولكن بأسرار . . .]
والغليل المتسعر في دم العاشق كجنون المجنون : يختص برأسه وحده .
[وضمة الحب لحبيبه إحساس لا يستعار من صدر آخر] ، كما لا يستعار
المولود لبطن لم يحمله .

وكلمة القبله التي معناها وضع الفم ، لن ينتقل إليها ما تذوقه الشفتان !

ويوم الحب يوم ممدود ، لا ينتهي في الزمن إلا إذا بدأ يوم السلو في
الزمن . . .

فهل يستطيع الخلق أن يصنعوا حدًّا يفصل بين وقتين ليتهيأ أحدهما . . . ؟
وهبهم صنعوا السلوان من مادة النصيحة والمنفعة ، ومن ألف برهان وبرهان ،
فكيف لهم بالمستحيل ، وكيف لهم بوضع السلوان في القلب العاشق ؟
وإذا سالت النفس من رقة الحب ، فبأي مادة تُصنع فيها صلابه
الحجر . . . ؟

[وما هو الحب إلا إظهار الجسم الحميميل حاملا للجسم الآخر كل أسرار ،
يفهمها وحده فيه وحده ؟]
[وما هو الحب إلا تعلق النفس بالنفس التي لا يملؤها غيرها بالإحساس ؟]

* شغلنا مقالات (القلب المسكين) عن الكتابة في حادثة (القلب المسكين الأعظم) ،
قلب الملك إدوارد عندما وقعت الحادثة .
قلت : وحادثة تولى الملك إدوارد عن عرش الإمبراطورية البريطانية في سنة ١٩٣٦ من أجل
امرأة - ذاتة مشهورة .

[وما هو الحب إلا إشراق النور الذى فيه قوة الحياة] كنور الشمس من الشمس وحدها ؟

وهل فى ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشتري الأسرار ، والإحساس ، وذلك النور الحى ؟ ...

فما هو الحب إلا أنه هو الحب ؟

* * *

ما هو هذا السرُّ فى الجمال المعشوق ، إلا أن عاشقه يدركه كأنه عقلٌ للعقل ؟

وما هو هذا الإدراكُ إلا انحصار الشعور فى جمال متسلطٍ كأنه قلبٌ للقلب ؟

وما هو الجمالُ المتسلطُ بإنسان على إنسان ، إلا ظهور المحبوب كأنه روحٌ للروح ؟

ولكن ما هو السر فى حب المحبوب دون سواء ؟ ... هنا تقف المسألة وينقطع الجواب .

هنا سرٌّ خفى كسر الوحدةانية ، لأنها وحدانية (أنا وأنت) .

* * *

ناقشوا الحب ؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المادة ، والروحانية اليوم كالعظام الهرمة لا تكتسى اللحم العاشق ...

وقال الحب : لا بل المادة لا قيمة لها فى الروح ؛ وهذا القلب لن يتحول إلى يد ولا إلى رجل ...

ناقشوا الحب ؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات ، والعمل الروحى لا وجود له فى الآلة ولا مع الآلة ...

قال الحب : لا ، يصنع الإنسان ما شاء ، ويبقى القلب دائماً كما صنعه الخالق ...

وقالوا : الضعيفان : الحب والدين ، والقويان : المال والجاه ؛ فبماذا رد الحب . . . ؟

* * *

جاء بلؤلؤة روحانية فى (مسز سمبسون) ؛ ووضع إليها فى ميزان المال والجاه أعظم تاج فى العالم إدوارد الثامن « ملك بريطانيا العظمى وإرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك - إمبراطور الهند » .

وتنافست الروحانية والمادية ، فرجع التاج وما فيه إلا أضعف المعنيين من القلب .

وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع فى الإعلان ، فهز العالم كله هزة صحافية :

الحب . الحب . الحب . . .

* * *

(مسز سمبسون) ، تلك الجميلة بنصف جمال ، المطلقة مرتين . هذا هو اختيار الحب !

ولكنها المعشوقة ؛ وكل معشوقة هى عذراءٌ لحبيبها ولو تزوجت مرتين ؛ هذا هو سحر الحب !

ولكنها الفاتنة كلَّ الفتنة ، والظريفة كلَّ الظرف ، والمرأة كلَّ المرأة ، هذا هو فعل الحب !

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة ، والأنس للقلب المستوحش ، والنور فى ظلمة الكآبة ؛ هذا هو حكم الحب !

ومن أجلها يقول ملك إنجلترا للعالم : « لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التى أحبها » ؛ فهذا هو إعلان الحب . . .

* * *

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه ، فذلك معنى من الذبح .

وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه ، فذلك معنى من القتل .

وهل فى غيرها هى روحُ اللفهة التى فى قلبه ، فيكون المذهب إلى غيرها ؟

لكنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة .
وكانهم يريدون منه أن يُجنَّ جنوناً بعقل . . . هذا هو جبروت الحب !

* * *

وللسياسة حجج ، وعند (مسز سمبسون) حجج ، وعند الهوى . . .
التاج ، الملكية ، امرأة مطلّقة ، امرأة من الشعب ؛ فهذا ما تقوله السياسة .
ولكنها امرأة قلبه ، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاعٌ ثلاث زوجات ؛
وهذا ما يقوله الحب !
[واللحظة الناعسة ، والابتسامة النائمة ، والإشارة الحاملة] وكلمة (سيدى) * ؛
هذا ما يقوله الجمال .
وانتصر الحب على السياسة ، وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة في ملك
أولادها الكبار . . .

* * *

العرش يقبل رجل خلفاً من رجل ، فيكون الثاني كالأول .
والحب لا يقبل امرأة خلفاً من امرأة ، فلن تكون الثانية كالأولى .
وطارت في العالم هذه الرسالة : « أنا إدوارد الثامن . . . أتخلي عن العرش
وذريتي من بعدى ! »
« وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع في الإعلان ؛ فهز العالم كله هزةً
صحافية » .
الحب . الحب . الحب . . .

* لا تخاطب (مسز سمبسون) إدوارد إلا بكلمة (سيدى) ، ولا تتحدث عنه ولا تسميه إلا
قالت (سيدى) . وإن يأمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية اللطيفة هذه حين تنطق بها المرأة
في صوت قلبها وغريزتها ؛ وقد كان هذا أدب نساء الشرق مع أزواجهن ، أما اليوم . . .

قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر .. *

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية ؛ لقد كتبتم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين . . .

كلمات لو انتسبن لانتسبت كلُّ واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله .

فطلبُ تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمى إلى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » .

وطلبُ الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أظهر لقلوبكم وقلوبهن » .

وطلب إيجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة » .

قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ، إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

* * *

حياكم الله يا شباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التي يصفق لها العالم الإسلامي كله .

كلمات ليس فيها شيء جديد على الإسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها .

* رفع طلبة الكليات في الجامعة المصرية إلى مديرتها وعمدائها وأستاذتها - طلبا يلتصقون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات ، إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض ، حتى يكون له من قوة روحه وتنمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الأمة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية في المجتمع المصري ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تبعاً » .

قلت : وكان ذلك في مارس سنة ١٩٣٧ .

كلمات القوة الروحية التى تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر
لا بعوامل الهزيمة .

كلمات الشباب الطاهر الذى هو حركة الرق فى الأمة كلها ، فسيكون منها
المحرك للأمة كلها .

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هى السبب فى إصلاح القوانين . . .
قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق : إن الخطوة المتقدمة تبدأ من
هنا . . .

* * *

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فإن العلم لا يعلم الصبر
ولا الصدق ولا الذمة .

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فإن القانون الأدبى فى الشعب لا يضعه
العقل وحده ولا ينفذه وحده .

يريدون قوة العقيدة ، حتى إذا لم ينفعهم فى بعض شدائد الحياة ما تعلموه
نفعهم ما اعتقدوه .

يريدون السمو الدينى ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هى فكرة إدراك
الواجبات بغير معناها .

يريدون الشباب السامى الطاهر من الجنسين ، كى تولد الأمة الجديدة سامية
طاهرة .

قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من
هنا . . .

* * *

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من
الدين .

وما هى الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها ؟ فالصدق مناعة من الكذب
والشرف مناعة من الخسة .

والشبابُ المثقلُ بفروض القوة هو القوة نفسها ؛ وهل الدين إلا فروضُ القوة على النفس ؟
 وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعي ، ينفق دائماً ولا يكسب أبداً !
 والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعودتم لا ماذا تعلمتم !
 قوة الأخلاق يا شبابُ ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا . . .

* * *

وأحسنُ الشبابُ معنى كثرة الفتيات في الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة التي خلقتها الحكمة الخالقة .
 والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالإرادة ، لأن رؤيتها أول عملها .
 نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يسجذب ، ولكن الحديد يتحرك له حين ينجذب !
 ومتى فهم أحدُ الحسنين الجنس الآخر ، فهمه بإدراكين لإبادراك واحد !
 وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمالُ الرجل إذا استقر في قلب المرأة . . .
 . . . هما حينئذ معنيان . ولكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان . . .

* * *

لا ، لا ؛ يا رجال الجامعة ، إن كان هناك شيء اسمه حرية الفكر فليس هناك شيء اسمه حرية الأخلاق .
 ويقولون : أوروبا وتقليد أوروبا ! ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخصوعنا لأوروبا .
 ويقولون : إن الجامعات ليست محل الدين ، ومن الذي يجهل أنها بهذا صارت محلاً لفوضى الأخلاق .

وترعمون أن الشباب تعلموا ما يكفي من الدين في المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه في الجامعة ..
 أفترّون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط ؛ أم تريدونه شجرة تُغرس هناك لتُقلع عندكم ...
 لا ، لا ؛ يا رجال الجامعة ، إن قبلة الشباب المجاهد تُسملاً بالبارود لا بالماء المقطّر ...

* * *

إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التي يحسُّون بها زمنهم .
 لا تجعلوهم عبيد آرائكم وهم شبابُ الاستقلال ؛ إنهم تلاميذكم ، ولكنهم أيضاً أساتذة الأمة .
 لقد تكلم بلسانكم هذا البناء الصغير الذي يسمى الجامعة ، وتكلم بالسنتهم هذا البناء الكبير الذي يسمى الوطن .
 أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ، وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق .
 لا ، لا ؛ إن المسلمين الذين هدّوا العالم ، قد هدّوه بالروح الدينية التي كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة .
 لا ، لا : إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛ وأساسها أخلاق الدين لا آراء الكتب ...

* * *

من هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد في شؤونهم مهما يكن أمره » ؟
 أهذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة تَرِن تَرِن ... فيجتمعون وينصاعون ؟
 كلا يا رجل ! ليس في الجامعة قالب يُصب فيه المسلمون على قياسك الذي تريد .

إن التعايم فى الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة تعليمها
العالى . . .

« ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحقٌ وما أنتم بمعجزين » .
قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق . . . ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ
من هنا .

.. شيطان وشيطانة . . . (١)

شَغَلَنِي مَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ حَدِيثِ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلِبَتُهَا مِنْ وَرَعٍ يَحْجُزُهُمْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَدِينَ يَخْلُصُ بِهِ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقَةٍ ؛ ثُمَّ ابْتَدَعُوهُ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الشَّبَانِ وَالْفَتَيَاتِ ، تَطْهِيراً لِلطَّبَاعِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ ، وَانْقَاءً لِسُوءِ الْمَخَالِطَةِ ، وَبُعْداً عَنْ مَسْطِيحَةِ الْإِثْمِ ، وَتَوْفِيراً لِأَسْبَابِ الرَّجُولَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ الْأُنُوثَةِ عَلَى الْأُنْثَى .

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرْتَهُ الصَّحَفُ ، وَاسْتَقْصَيْتُ وَبَالَغْتُ ، وَنَظَرْتُ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا وَمَعَانِيَ مَعَانِيهَا ؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَّبِعُ بَابَ « فُلَانٌ وَفُلَانَةٌ » فِي الْمَجَلَّاتِ الْأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ الْاِخْتِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ وَتَسْمِي الْأَسْمَاءِ وَتَصِفُ الْأَوْصَافَ وَتَذَكِّرُ الذُّوَادِرَ ؛ فَمَلَأْتُ كُلَّ ذَلِكَ صَدْرِي وَاجْتَمَعَ الْكَلَامُ يُرْجَمُ نَفْسَهُ إِلَى فِي رُؤْيَا زَائِنَتِهَا وَهَآنَذَا أَقْصَاهَا :

رَأَيْتُنِي عِنْدَ بَابِ الْجَامِعَةِ وَكَأَنِّي ذَاهِبٌ لِأَقْطَعُ بِالْيَقِينِ عَلَى الظَّنِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الظَّنَّ يَقُومُ فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَقَامَ الْحَقِيقَةِ ، لَخَفَائِهَا وَكَثْرَةِ وُجُودِهَا ؛ فَإِنْ كَانَ فِي اخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ مَا يُخْشَى أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَالْوَاقِعِ . . .

. . . ثُمَّ رَأَيْتُ شَيْطَانَةً قَدْ خَرَجَتْ مِنَ الْجَامِعَةِ وَمَضَتْ تَتَّبِعُ أَنْفُسَهَا تَتَشَبَّهَ بِهَا هَوَاءٌ وَتَسْتَرْوِحُهُ كَأَنَّ فِيهِ شَيْئاً ، حَتَّى مَالَتْ إِلَى خَسَمَسٍ هُنَاكَ* مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرِ الْمَلْتَفِّ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ ، فَوَقَفْتُ عِنْدَهُ تَتَنَفَّسُ وَتَتَنَهَّدُ ؛ ثُمَّ تَبَصَّرَتْ فَإِذَا شَيْطَانٌ مُقْبِلٌ إِلَى الْجَامِعَةِ لِإِقْبَالِ الْمَغِيرِ فِي غَارَتِهِ ، فَأَوْمَأَتْ لَهُ ، فَعَدَلَ إِلَيْهَا

(١) لما كتبه المؤلف (رحمه الله) مقاله السابق في تحية شباب الجامعة ، راح يتبع ما تنشر الصحف من حديث (فلان وفلانة) في مناهضة دعوة الطلاب ؛ فوقع له من حديثهما ما أوحى إليه موضوع هذا فكتبه يمرّض بفلان وفلانة ويروى من خبرهما ويردده عليهما ، وبمث به إلى الرسالة ، ولكن صاحب الرسالة أتى عليه نشره ، حفاظاً على ما بيته وبين فلان من صلات الود ، وبقي المقال في مكتب المؤلف حتى غالته منيته !

وأنظر ص ١٣١ « حياة الرافي » .

* الحمر (بفتح الميم) : ما وازاك من شجر وغيره .

وحياًها بتحية الشياطين ، ثم قال لها : ما وقوفك هنا أيتها الخبيثة ؟ وكيف تركت صاحبتك التي أنتِ موَكَّلةٌ بها ؟ وما عسى أن يعمل الشيطان بين الجنسين إذا لم توارزه الشيطانة ؟

قالت : إنما اجتذبتني إلى هنا رائحةُ عاشقين كانا في هذا الظلِّ يواريهما عن الأعين ، وما أراك إلا مزكوماً ، أفكنت في الأزهر . . . ؟

فجعل الشيطان يتضحك وقال : أنا مرسلٌ من مستشفى المجانين مدداً للشياطين الجامعة ؛ فقد احتاجوا إلى النجدة . . . ولكن أنت كيف تركت صاحبتك من أجل رائحة قُبلة على خمسمائة متر ؟ ما أحسبها الآن إلا جالسةً تكتب في منع اختلاط الجنسين ووجوب إدخال التعليم الديني في الجامعة !

قالت الشيطانة : إن صاحبتى لأبرع منى في البراعة ، وأدقُّ في الحيلة . وأهدى للمعاذير ، وأنفذ إلى الغرض ، ومثلها قليلٌ هنا ، ولكن قليل الشر ليس قليلاً ، فإنه وُصِّلَةٌ وطريق كما تعلم ؛ وما تجد الفتاة خيراً من هذا المكان يننى عنها الريبة، وهو يُدنيها منها بهذا الاختلاط مع الفتيان ، ويهيئ لعقلها أسباباً تكون فيها أسبابُ قلبها ؛ وقد كنت أنت في أوروبا ، أفأ رأيت هناك شاباً وشابة حول كتاب علم وكأنهما على زجاجة خمر ؟

إن هذا العلم شيء ومخالطةُ الشبان شيء آخر ؛ فذلك يطلق فكرها يتجاوز الحدود ، والاختلاط يجعل فكرها يحصرها في حدود إحساسها ؛ وأحدهما يرهف ذهنها لإدراك الأشياء ، والآخر يرهف عواطفها لإدراك الرجل ؛ وقد فرغ الله من خلقة الأنثى فما تُخلِّق هنا مرة أخرى على غير الطبيعة المفطورة على الحب في صورة من صوره الممكنة ، والصورة هي الشابُّ هنا ما دام الشاب هنا ؛ وأنا الشيطانة قد تعلمتُ في الجامعة أن قاعدة : « لا حياة في العلم » ، هي التي تقرر في بعض الأحيان قاعدة : « لا حياة في الحب ! »

قال الشيطان : أنت أدري بسلطان الطبيعة في المرأة ، ولكن الذي أعرفه أنا أن مفسد أوروبا تدخل إلى الشرق في أشياء كثيرة ، منها الخمر والنساء والعادات والقوانين والكتب ونظام المدارس !

قالت الشيطانة : وإن سلطان الطبيعة في المرأة يبحث دائماً عن رعيته ما لم

يُكسِّبَح وَيُردّ عن البحث ؛ إذ هو لا ينحقق أنه سلطان إلا بنفاذ حكمه وجواز أمره ؛ ومن رعيته نظراتُ الإعجاب ، وكلماتُ الثناء ، وعبارات الإغراء ، وعواطف الميل ، ومعاني الخضوع ؛ ورُبَّ كلمة من الرجل للمرأة لا يكون فيها شيء ويكون الرجلُ كله فيها ذاهباً إلى قلبها متدسّساً إلى خيالها ؛ وكم من أم ترى ابنتها راجعةً إلى الدار وتحسُّ بالغريزة النسوية أن مع ابنتها خيالاً من الجنس الآخر ! .

وَمِمَّا ينبعث الحبُّ إلا من الألفة والمخالطة والمجادبة والمنازعة التي يسمونها هنا منافسةً بين الجنسين وبعددونها حسنةً من حسنات الاختلاط ؟ نعم إنها مَسْحَدَةٌ للأذهان وداعيةٌ إلى بلوغ الغاية من الاجتهاد ، وبها يرقُّ اللسان وتنحل عقده ، ويصبح الشاب كما يقولون : « ابن نكتة ويفهم الطاير . . . » وتعود الفتاة وهي تجتهد أن تكون حلاوةً تَدُوقُها الروح ؛ ولكن الأعمال بالنيات والأمر بخواتيمها : والطبيعة نفسها توازن العقل العلمي بالجهل الخلقى ، ولعل أكثر الناس فنوناً في فسقه وفجوره لا يكون إلا عالماً من أهل الفن أو زنديقاً من أهل العلم ، ولا يصحّح هذه الموازنة إلا الدين ، فهو الذي يقرر القواعد الثابتة في كلتا الناحيتين ، وهذا ما يطلبه المجانين من شبان هذه الجامعة ويوشك أن يظفروا به ، لولا أن هذه الأمة مبتلاة في كل حادثة من دينها بإجالة الرأي حتى يضيع الرأي .

اسمع ويحك هذا الفتى الذي يقرأ . . . فألقى الشيطانُ سمعه فإذا طالب يقرأ على جماعة كلاماً في صحيفة لإحدى خريجات الجامعة تقول فيه : « ولهذا أصرّح أن تجربة اشتراك الجنسين في الجامعة نجحت إلى أبعد غاية : ولم يحدث خلالها قط ما يدعو إلى قلق القليقين والمناداة بالفصل ؛ بل بالعكس حدث ما يدعو إلى تشجيع الأخذ بالتجربة أكثر مما هي عليه اليوم » .

فقهقه الشيطان وقال : « قلق القليقين » . . . ما رأيتُ كلاماً أغلظَ ولا أجفَى من هذا ؛ إنها لو دافعت عن الشيطان بهذه القافات لخسر القضية . . . ثم إنه لَهَمَزَ الشيطانة لهزةً وقال لها : كذبتِ على أيتها الحبيثة ، قالك عمل في الجامعة وأنت تخرجين لرائحة قبلة بين عاشقين على مسافة خمسمائة

متر ؛ إن هذه القافات لسهى الدليلُ أقوى الدليلِ على أن الفتاة هنا تُنظرَ فتاةً حين تُرى ، ولكنها تُسمع رجلاً حين تتكلم !

قالت الشيطانة : ولكن ألم تسمع قولها : « تشجيع التجربة أكثر مما هي عليه اليوم » . . . ؟ ألا يرضيك هذا الذى لا بد أن يدعو « إلى قلقين ؟ » ثم إني أنا فلانة الشيطانة قد كنت السبب فى حادثة وقعت وطردها فيها طالب من الجامعة ، أفلا يرضيك الإغراء والكذب فى بضع كلمات ؟

قال الشيطان : كل الرضى ، فهذا فن آخر ؛ والعلم الذى ينكر حادثة وقعت من تلميذة ولا يقر بأنها وقعت ، لا يكون إنكاره إلا إجازة لوقوع مثلها !

قالت الشيطانة : وهب الحادثة لم تقع ، فكيف تعرف الجامعة ما يحدث فى القلوب ؟ ومن هذا الذى يستطيع أن يقرأ قصة تؤلفها أربع أعين فى وجهين ؟ وكيف تُكشف الحقيقة التى أولُ وجودها كتمانُ الكلام عنها ، وأولُ الكلام عنها الهمسُ بين اثنين دون غيرهما ؟ ومن ذا الذى فى طاقته أن يمدَّ يده إلى قلبين أصححا فى تلقى الرسائل كصندوقى البريد . . . ؟

استمع استمع هذا الآخر . . . فاسترق الشيطانُ السمعَ فإذا طالبٌ يقرأ فى صحيفة أخرى على جماعته :

« والذين يزعمون أن الاتصال بين الطالبات والطلبة خطر ، إنما يسيئون إلى أخلاقكم . . . والحق أيها الأصدقاء أن الذى حملنى على أن أغضب وأثور إنما هو الدفاع عن الكرامة الجامعية » .

قال الشيطان : كل الرضا كل الرضا . . . هذا كلام داهية أريب ، فلقد أحسن قائله الله ! إنها عبارات جامعية محكمة السبك تقوم على أصولها من فن السياسة الخطابية ؛ وكل من أظنَّوه بتهمة فلا يستطيع أن يُسمَخَرَقَ على الناس بأحسن من هذا ولا بمثل هذا .

وليس لنا أقوى من هذا الطبع القوى الذى يشعر بالنقص فلا همَّ له إلا إثبات ذاته فى كل ما يجادل فيه دون إثبات الصواب ولو كان الناس جميعاً فى هذا الجانب وكان هو وحده فى جانب الخطأ .

ولكن أف ! ماذا صنع هذا القائل ؟ وأين التهمة التي لا تبدل اسمها في اللغة ؟
وأين الذنب الذي يرضى أن توضع اليد عليه ؟ وهل إنكار المذنب إلا احتجاج
من كرامته الزائفة وإظهار الغضب في بعض ألفاظ ؟ . . .

إن هذا كغيره من الضعفاء حين يُمارون ؛ ألا ما أكذب الكذب هنا !
فإن الفساد يقع من اختلاط الجنسين في الجامعات الأوربية ثم لا يعد ذلك عندهم
إساءة إلى الأخلاق ، ولا غضا من الكرامة الجامعية ؛ وفي فرنسا يجتمع الشبان
والفتيان من طلبة الجامعة ويحتسون الخمر ويتراقصون ويتواعدون ثم لا تقول لهم
الأخلاق : أين أنتم ؟ . . . وهناك في الأندية الخاصة بالطلبة ينتخبون ملكة
الجمال من بين الطالبات كل سنة ، ثم ينزعون بأيديهم ثيابها التي تسمى ثياباً ،
ويطوفون بها غرف النادي كعروس واحدة مجلوة على مائة زوج في المعنى ،
« وبلنسوار » أيتها الكرامة الجامعية . . .

والاختلاط هناك يقرب أن يكون ضرباً من المذاهب الاشتراكية ، وكل ما بقي
عندهم من لغة الحياء هو أن يتلطفوا فيقولوا : إن هذه الطالبة صديقة فلان الطالب ؛
يعبرون بلفظ الصداقة عن أول المعنى ويدعون سائر أحواله ؛ إذ لا يبالي أمرهما
أحدٌ لا من الطلبة ولا من الأستاذين . . . وهناك يُعْتَدَر للشباب في مثل هذا
بأنه شاب ، فتقوم كلمة الشباب في العرف بمعنى كلمة الضرورة في الشرع !

وهم قد عرفوا أن الجامعة لحرية الفكر ، ومن حرية الفكر حرية النزعة ، ومن
هذه حرية الميل الشخصي ، ومن حرية الميل حرية الحب ؛ وهل يعرف الحب في
الجامعة أنه في الجامعة فيستحي ويكون شيئاً آخر غير ما هو في كل مكان ؟ أو
ليس في لغة الزواج عندهم عبارة « نسيان ماضى الفتاة » . . .
ولكن اسمعى اسمعى . . .

فأصاحت الشيطانة ؛ فإذا طالب من الأزهر يقرأ لطالب من كلية الحقوق في
صحيفة من دفاع أحد خريجي الجامعة !

« وما بال إخواننا الأزهريين يسخطون على الجامعة واختلاط الجنسين فيها ،
وفي مصر نواح أخرى هي أحق بحريتهم وأولى باهتمامهم ؟ لعلهم قد نسوا حالنا في
الصيف على شواطئ البحر ، والناس يمشون هناك شهوراً عرايا أو كالعرايا » .

فقلت الشيطانة : ماله ولهذا ؟ لقد أخزى نفسه وأخزى الجامعة ، وهل صنع شيئاً إلا أنه يقول للأزهريين : إن أهون الفساد من هذا الاختلاط في الجامعة ، وأكثره في شواطئ البحر ؛ فما بالكم تدعون أشدّه وتأخذون على أهونه ؟

قال الشيطان : ويحه ! وهل يأخذون على أهونه في الجامعة إلا لأنه في الجامعة لا في مكان آخر ؟ ولكن اسمعى ، ما هذا . . . ؟

فأرغيت الصوت سمعهما ، فإذا طالب يقرأ في مجلة : « ظهرت الآنسة فلانة وهي تلبس فستاناً أحمر شفتشي بمبي كربي مشجّر بنننى وفيونكة أحمر على أبيض » . . .

قالت الشيطانة : هذا هذا ، فهل هي إلا ألوان أفكار تحت ألوان ثياب ؟ وهل يظهر سلطان الطبيعة في المرأة باحثاً عن رعيته إلا في ألوان جميلة هي أسئلة للعيون ؟ لقد مثل سرب من الطالبات في هذه الجامعة فصلا في بعض الحفلات سموه « عرض الأزياء » والفتاة تعرض الثوب ، والثوب يعرض الجسم ، والجسم والثوب معاً يعرضان الفتاة ! وعرض الأزياء في الجامعة هو أمر من الجامعة بإهمال هذه الآية : « ولا يبدين زينتهن » !

قال الشيطان : خبريني عن صاحبك التي أنت موكلة بها ، أترينها كانت تأتي إلى هذه الجامعة لو ألبسوهن مثل ثوب الراهبة وخمروهن بالخمير وأضاعوا مساحة الجسم في مساحة الثوب وأجلسوهن في آخر الصفوف كأنهن في المسجد ؟ لقد فعلوا مثل هذا في بعض جامعات أوربا ، فحرموا صبغ الشفاه على الفتيات ، ومنعوهن إبداء الزينة ؛ فامتنعت الزينة والمتريضة معاً ، وهجرن الجامعة ، وقلن فيما قلن : إن المرأة والأحمر والأبيض ونحوها هي الحقائق في علم المرأة ، وهي من أساليب بحث كل ناة عن رجلها الخبوء بين الرجال في الجامعة أو غير الجامعة ، والعلم وسيلة عيش ، والرجل وسيلة مثلها ، غير أنه هو أجندى الوسيطتين على المرأة وأحقهما بالعناية ، إذ هي لا تتزوج الكيمياء ولا الطبيعة ولا القانون ، ومعنى هذا: بغير اللغة التي هنا في الجامعة المصرية أن وجود الفتاة مع الشبان للتعليم ، هو كذلك وجودها بينهم للاستئالة والمكر النسوى الجذاب .

اسمعى اسمعى ؛ ما هذا الصوت المنكر الجافى الحسن ؟

فسمعت ، فإذا الطالب الأزهرى يقول لصاحبه وهو يحاوره : قالوا : ويحرم على المرأة أن ترى شيئاً من الرجل ولو بلا مَسِيل ولا خوفِ الفتنة ، وإذا هى اضطرت إلى مداواة أو أداء شهادة أو تعليم أو بيع أو نحو ذلك — جاز نظرها بقدر الضرورة . فقالت الشيطانة : هذا كلامٌ رَحِمَهُ الله . . . لقد كان ذلك سائغاً لو أن الشبان يتعلمون فى الجامعة ليحملوا معهم الحق كما يحملون معهم العلم ؛ وكيف لهم بهذا ومعانى الدين قد أصبحت منهم كأسماء البلاد البعيدة فى كتب الجغرافيا : لا هم رأوها ولا هم حققوها ؟ إنهم يريدون تعليم الدين هنا . فيقول لهم رؤسائهم : ألم تعرفوا الصلاة وأنها الصلاة ، والصيام وأنه الصيام ، والزكاة وأنها الزكاة ، والحج وأنه الحج ؟ وهذا كلام يشبه درس مواقع البلاد على الخريطة ، فباريس كلمة ، ولندن كلمة ، لا غير ؛ أما الحقيقة العظيمة الهائلة فشئ غير هذا الكلام الجغرافى التعليمى ؛ إذ ما هى كل فروض الدين إلا أعمال دقيقة ثابتة يجب فرضها على الجميع لتحقيق النفسية الواحدة فى الجميع ، وهى سر القوة والعظمة والنجاح ؛ فتعليم الدين فى الجامعة هو إقناع النفس بجعل فروضه من قوانينها الثابتة ، لا بأداء هذه الفروض فقط ؛ وذلك لا يستقيم إلا بدرسه كما تُدرس فلسفة القوانين والاقتصاد والتربية ، أى باعتباره علمَ فلسفة الروح العملية للأمة ، ثم يجعل المدرسين أولَ العاملين به ، ليتحقق معنى الإقناع ، فلا يتقلب الدرس هزأ وسخرية ؛ وبذلك يخرج الشاب من الجامعة وفى روحه قوة ثابتة تعمل به العمل الصالح ، وتوجهه إلى الخير ، وتحفظه بين أهواء الحياة وشدائدها ، وتجعله دائماً يشعر أنه فى موضعه السامى من الإنسانية وإن كان فى أقل مراتب المال والجاه ، ومن ثم يرجع الشبان فى الأمة آلات قوة منظمة عاملة ، وأيسر ما تعمله هذه الآلات ، إزالة المنكرات ، وصنع الشعب صنعة جديدة للسلم والحرب ، و ، و ، و ، و . . .

قال الشيطان : وماذا أيتها الخبيثة ؟ لقد هَوَّلت على !

قالت : وطردنا نحن الشياطين من الجامعة !

قال : اسكتى ويحك ! فما أرسلت من مستشفى المجانين إلا لهذا ؛ فلن يقع

الفصل بين الجنسين ، ولن يدخل التعليم الدينى فى الجامعة ، وسيدافعون بأن هذا

كله ضرب من الجنون

نهضة الأقطار العربية^(١)

لا ريب في أن النهضة واقعة في الأقطار العربية ، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضررم في كل جهة ناراً حامية ، ويستمد من كل ما يتصل به لعنصره الملتهب ولا ريب في أن الشرق قد تفلّت من أوهام السياسة وخرافاتاها ، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمنًا ، وتابعه مدة ، وعرفه بمقدار ما بلّاه ، وكذبه ما صدقه ، ونفر منه بقدر ما اطمأن إليه ؛ ولا ريب في أن العقل الشرقى قد تطور وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط في السياسة الغربية ، وعلم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة . . . ولا ريب أن الشرق يجاذب الآن مقاليدته التي ألقاها ، ويضرب على سلاسله التي تقيد بها ، ويكابذ الصعود والهبوط في نهضته هذه ؛ وقد كان بلغ من إغضائه على الدل وقراره على الضيم ، وجهله وتجاهله — أن أوربا ربطت أقطاره كلها في بضعة أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض .

غير أنى مع هذا كله لا أسمى هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسع في العبارة ، والدلالة بما كان على ما يكون ؛ فإن أسباب النهضة الصحيحة التي تطرّد اطراد الزمن ، وتنمو نمو الشباب ، وتندفع اندفاع العمر إلى أجل بعينه — لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذي يفصل بيننا وبين سلفنا وأوليتنا ؛ وإلا

(١) كتب هذا المقال جواباً للاستفتاء الآتى الذى وجهته إليه إحدى المجلات العربية :

١- هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيء يضمن لها البقاء ، أم هى فوران وقى لا يلبث أن يجمد ؟

ب - هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها ؟ ومتى ؟ وبأى العوامل ؟ وما شأن اللغة فى ذلك ؟

ج - هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية ؟ وبأى قدر ؟ وعند أى حد يجب أن يقف هذا الاقتباس ، فى المنظمات السياسية الحديثة ، وفى الأدب والشعر ، وفى الماديات الاجتماعية ، وفى التربية والتعليم ؟

فأين الأخلاق الشرقية ، وأين المزاج العقلي الصحيح لأهم الشرق ، وما هذا الذى نحن فيه من روح لا شرقية ولا غربية ثم أين المصلحون الذين لا يسامون بملك ولا إمارة ، ولا يطلبون بالإصلاح غرضاً من أغراض الدنيا أو باطلا من زخرفها ؟ ثم أين أولئك الذين تجعلهم مبادئهم العالية القوية أول ضحاياها ، وتروى منهم عرق الثرى الذى يغتذى من بقايا الأجداد لينبت منه الأحفاد ؟

إن الجواب على نهضة أمة نهضة ثابتة لا يكون من الكلام وفنونه ، بل من مبدأ ثابت مستمر يعمل عمله فى نفوس أهلها ؛ ولن يكون هذا المبدأ كذلك إلا إذا كان قائماً على أربعة أركان : إرادة قوية ، وخلق عزيز ، واستهانة بالحياة ، وصبغة خاصة بالأمة .

فأما الإرادة القوية فلا تنقص الشرقيين ، وإنما الفضل فيها لساسة الغرب الذين بصَّرونا بأنفسنا إذ وضعونا مع الأمم الأخرى أمام مرآة واحدة وجعلوا يقولون مع ذلك إننا غير هؤلاء ، وإن هذا الإنسان الذى فى المرآة غير هذا الفرد الذى فيها . . . ولكن أين الخلق وأين العزة القومية وأين العصبية الشرقية ؛ وهذه مفاصد أوروبا كلها تنصبُّ فى أخلاق الشرقيين كما تنصب أفئدة مدينة كبيرة فى نهر صغير عذب ؛ فلا الدين بقى فينا أخلاقاً ، ولا الأخلاق بقيت فينا ديناً ، وأصبحت الميزة الشرقية فاسدة من كل وجوها فى الروح والذوق ، ولم يعد لنا شئ يمكن أن يسمى المدنية الشرقية ، وأخذ الحمقى والضعفاء منا يحاولون فى إصلاحهم أن يؤلفوا الأمة على خلق جديد ينتزعونه من المدنية الغربية ، ولا يعلمون أن الخلق الطارئ لا يرسخ بمقدار ما يفسد من الأخلاق الراسخة ، وهم يقتبطون إذا قيل لهم مثلاً : إن مصر قطعة من أوروبا ؛ ولا يعلمون ما تحت هذه الكلمة من تعطيل المدنية الشرقية ، والذهاب بها ، وإفسادها ، وتعريضها للذم ، وتسليط البلاء عليها ، مما لا حاجة بنا إلى التبسط فى شرحه .

لست أقول إن نهضة الشرق العربى لا أساس لها ؛ فإن لها أساساً من حمية الشباب ، وعلم المتعلمين ؛ ومن جهل أوروبا الذى كشفته الحرب ؛ ولكن هذا كله على قوته وكفايته فى بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواصف السياسية — لا يحمل ثقل الزمن الممتد ، ولا يكفى لأن يكون أساساً وطيداً يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية ، بل ما أسرع

إلى الهدم والنقض، لو صدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوربي على اختلافها . . .
إذا قُدر لأوربا أن تفوز بأسلوبها الجديد ، أسلوب استعباد الشرق بالصدقة . . .
على طريقة ادعاء الثعلب للدجاج أنه قد حجج وتاب وجاء ليصلى بها . . .

والذى أراه أن نهضة هذا الشرق العربى لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا
نهض بها الركنان الخالدان : الدين الإسلامى ، واللغة العربية ؛ وما عداهما فعسى
أن لا تكون له قيمة فى حكم الزمن الذى لا يقطع بحكمه على شىء إلا بشاهدين
من المبدل والنهائة .

وظاهر أن أغلبية الشرق العربى ومادته العظمى هى التى تدين بالإسلام ،
وما الإسلام فى حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترى إلى شد المجموع من كل جهة ،
ولعمري إنى لأحسب عظماء أمريكا كأنهم مسلمو التاريخ الحديث فى معظم
أخلاقهم ، لولا شىء من الفرق هو الذى لا يمنعهم أن ينحطوا إذا هم بلغوا القمة ؛
فإن من عجائب الدنيا أن قمة الحضارة الرفيعة هى بعينها مبدأ سقوط الأمم ، وهذا
عندنا هو السر فى أن الدين الإسلامى يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء ،
ولا يرى النحت والتصوير والموسيقى والمغالاة فيها وفى الشعر إلا من المكروهات ،
بل قد يكون فيها ما يحرم إن وجد سبب لتحريمه ، إذ كانت هذه الفنون فى الغالب
وفى الطبيعة الإنسانية هى التى تؤدى فى نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمة ؛ بما تستتبعه
من أساليب الرفاهية والضعف المتفنن ، وما تحدثه للنفس من فنون اللذات
والإغراق فيها والاستهتار بها ؛ وما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربية إلا
بكأس وامرأة ووتر ، وخيال شعري يفنُّ فى هذه الثلاثة ويزينها .

وإذا كان لا بد للأمة فى نهضتها من أن تتغير ، فإن رجوعنا إلى الأخلاق
الإسلامية الكريمة أعظم ما يصلح لنا من التغير وما نصلح به منه ، فلقد بعد
ما بيننا وبين بعضها ، وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر ؛ وإذا نحن نبذنا
الخمر ، والفجور ، والقمار ، والكذب ، والرياء ؛ وإذا أنقنا من التخث ،
والتبرج ، والاستهتار بالمنكرات ، والمبالغة فى الحجون ، والسخف ، والرقاعة ؛ وإذا
أخذنا فى أسباب القوة ، واصطنعنا الأخلاق المتينة : من الإرادة ، والإقدام ،
والحمية ؛ وإذا جعلنا لنا صبغة خاصة تميزنا من سوانا ، وتدل على أننا أهل روح

وخلق - إذا كان ذلك كله فلعمري أى ضير فى ذلك كله ، وهل تلك إلا الأخلاق الإسلامية الصحيحة ، وهل فى الأرض نهضة ثابتة تقوم على غيرها ؟

إن من خصائص هذا الدين الأخلاقى أنه صلب فيما لا بد للنفس الإنسانية منه إذا أرادت الكمال الإنسانى ، ولكنه مرنٌ فيما لا بد منه لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتى على أصول الأخلاق الكريمة . وليس يخفى أنه لا يغنى غناء الدين شىء فى نهضة الأمم الشرقية خاصة ، فهو وحده الأصل الراسخ فى الدماء والأعصاب . ومتى نهض المسلمون وهم مادة الشرق ، نهض لإخوانهم فى الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملل الأخرى ، واضطروا أن يجانسوهم فى أغلب أخلاقهم الاجتماعية ، ولا حجر على حريتهم فى ذلك إلا كبعض الحجر على حرية المريض إذا أوجرتة الدواء المر .

ولما كان المسلمون إخوة بنص دينهم ، وكانت مبادئهم واحدة ، ومنافعهم واحدة ، وكتابهم واحداً ؛ فلا جرم كان من السهل - لو رجعوا إلى أخلاق دينهم وانتبهوا ما يصددهم عنها - أن يؤلفوا من الشرق كله دولا متحدة يحسب لها الغرب حساباً ذا أرقام لا تنتهى . . .

إن هذا الشرق فى حاجة إلى المبادئ والأخلاق ، وهى مع ذلك كامنة فيه ، ومستقبله كامن فيها ؛ غير أنها لا تصلح فى الكتب ولا فى الفنون ، بل فى الرجال القائمين عليها . فالقلوب والأدمغة هى أساس النهضة الصحيحة الثابتة ، وإذا نحن تأملنا هذه النهضة الراهنة وجدنا أساسها خرباً من جهات كثيرة ، ووجدنا المكان الذى لا يملؤه إلا القلب الكبير ليس فيه إلا خيال كاتب من الكتاب والموضع الذى لا يسده إلا الرأس العظيم قد سدته قطعة من صحيفة . . .

ولقد تنبأ نبيُّ هذا الدين صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التى انتهى إليها الشرق العربى بإزاء الغرب ، فقال لأصحابه يوماً : كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر * اجتماع الأكلة على القصاع ؟ فقال عمر رضى الله عنه ؛ أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله أم من كثرة ؟ قال : بل من كثرة ، ولكنكم غثاء

* بنو الأصفر : هم الروم ومن إليهم من الأوربيين .

كغناء السيل* قد أوهن قلوبكم حب الدنيا .

فوهن القلوب بحب الدنيا — على ما ينطوى فى هذه العبارة من المعانى المختلفة — هو علة الشرق ، ولا دواء لهذه العلة غير الأخلاق ، ولا أخلاق بغير الدين الذى هو عمادها . ألا وإن أساس النهضة قد وُضع ، ولكن بقيت الصخرة الكبرى وستوضع يوماً ، وهذا ما أعتقده ؛ لأن الغرب يدفع معنا هذه الصخرة ليقراها فى موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا نحن إلى الحفرة ليدفنتنا فيها . . . وهذا عمى فى السياسة لا يكون إلا بخذلان من الله لأمرٍ قدره وقضاه .

* * *

وإنى أرى أنه لا ينبغى لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد ، بل اقتباس التحقيق ، بعد أن يعطوا كل شىء حقه من التمحيص ويتقبلوه على حالتيه الشرقية والغربية ؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا فى الطبقات المنحطة ، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد ، وما قلد المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شىء فى نفسه من ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية ؛ على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئاً ؛ فإن الفرق بعيد بين الأخذ فى المخترعات والعلوم ، وبين الأخذ من زخرف المدنية وأهواء النفس وفنون الخيال ورواق الحبيث والطيب ؛ إذ الفكر الإنسانى إنما ينتج الإنسانية كلها ، فليس هو ملكاً لأمة دون أخرى ؛ وما العقل القوى إلا جزء من قوة الطبيعة .

فإن نحن أخذنا من النظم السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ فى آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لا يجوز على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها .

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر ورائع الخيال وصميم الحكمة ، ولنتبع طريقتهم فى الاستقصاء والتحقيق ، وأسلوبهم فى النقد والجدل ، وتأنيبهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التى هى الحكمة بعينها .

* الفناء : ما يحمله السيل من الهشيم ويحمو ما تحطم وتمفن ولا قيمة له ولا قوة فيه .

وأما في العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب - وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده - والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر ، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف ؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نتسلخ من عادات القوم ، فإن هذا يؤدي بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد غينا ، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمى أذواقنا الخاصة بنا ، ويطلق لنا الحرية في الاستقلال الشخصي ؛ ولقد كنا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربية التي رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأزوتة نساتنا على السواء؛ وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يدعون إلى بعض هذه العادات ويعملون على بثها في طبقات الأمة إلا كالذي يحسب أن أوربا يمكن أن تدخل تحت طربوشه . . . ؛ ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوروبيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية ؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم ، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما في أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما ، ثم هو من أين اعتبرته وجدته في فائدته للأوروبيين أشبه بتلين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة ؛ وهل نسى الشرقيون أن لا حجة للغرب في استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟

وحيثما قلنا « الدين الإسلامي » فإنما نريد الأخلاق التي قام بها ، والقانون الذي يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقية ؛ وهذا في رأينا هو كل شيء لأنهم الأول والآخر^(١) .

* * *

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلمه في الأصل الذي تحت أيدينا .

لا تعجنى الصحافة على الأدب^(١) ولكن على فنيته

قالوا إن الأصمعي كان ينكر أن يقال في لغة العرب (مالح) ، ويقول إنما هو ملح ، وإن (مالح) هذه عامية ؛ فلما أنشدوه في ذلك شعراً لذى الرمة يحتجون به عليه قال : إن ذا الرمة قد بات في حوانيت البقالين بالبصرة زمانا . . .

يريد شيخنا هذا : أن (المالِح) في الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون ، ولغتهم عامية مُزالة عن سَنَنِها الفصيح ، مصروفة إلى وجهها التجاري ؛ ولكن كيف بات ذو الرمة في حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه وجذبه إليها الطبع العامي ، ولم يخالط عربيته غير هذه الكلمة وحدها ؟ لم يقل الأصمعي شيئاً ، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء ، فلما كان بها استضاق فلم يُصب لجوفه غير الخبز ، ولم يجد للخبز غير (المالِح) يُسيغه به ليجد المسلك في حلّقه ، قالوا : فيأتي البقالين فيبتاع منهم السمكة (المالحة) والبقلة (المالحة) ، ويعرفونه مُضيقاً إلى فرج ، فيُسِسُون له في الثمن إلى أجل حتى يمتدح وينال الجائزة ؛ قالوا : ثم يَمْطُرُه الممدوح ويلوى به ولا يرى في تلفيق العيش رُخْصاً إلا في (المالِح) ، فيتتابع في الشراء ويمضون في إسلافه إبقاءً عليه وحسنَ نظر منهم لمنزلته وشعره ، ويرى هو أن لا ضمان للوفاء بما عليه إلا نفسه ، فما بُدُّ أن يتراءى لهم بين الساعة والساعة ، فيخالطهم فيحدثهم فيسمع منهم ، وهم على طبعهم وهو على سجيته ؛ ثم لا يقتضونه ثمناً ، ولا يزالون يمدون له ، فلا يزال (المالِح) أيسر منالاً عليه ، كما هو إلى نفسه أشهى ، وفي جوفه أمراً ، لمكان أعرابيته وخشونة عيشه ، فيصيب عندهم مرتعة من هذا (المالِح) . قالوا : ثم يرى البقالون أن لا ضمان

(١) بهذا المقال بدأ المؤلف عمله في الرسالة ؛ وانظر ص ١٩١ « حياة الرافعي ».

لما اجتمع عليه إلا أن يكون الشاعر معهم ، فيُلْزَمونه الحوانيت بياض يومه ،
ويغلقونها عليه سواد ليلته ، فهم يسكونه بالنهار وتمسكه الحيطان والأبواب
بالليل !

فلما عظم الدين وبلغ الجملة انى فاتت حساب الأيام إلى حساب الأهلة
أحضر الشاعر كربة وهمّة ، ولم يعد (المالح) ينجع فيه ، ولا يجد به غذاء ، بل
حريقاً في الدم ، ورأى أنه قد امتحن بهذا (المالح) الخبيث وأشرط نفسه
فيه وارتهنها به ؛ فلا يزال من (المالح) همٌ في نفسه ، ومغص في جوفه ، ولفظ
على لسانه ، ودين على ذمته ؛ ولا يزال مهموماً به ؛ إذ كان على طريق من
طريقين : إما الوفاء ولا قدرة عليه من مفلس ، وإما الحبس ولا طاقة به لشاعر ؛
وحبس ذى الرمة في ثمن (المالح) هو حبس عند الشرطة ، ولكنه قتلٌ أو شر
من القتل عند صاحبه (مية) إذا تراءى إليها الخبر ؛ والأعرابي الجلف الذى
يُحبس في ثمن (المالح) عند الولى بعد أن بات زماناً رهناً به في حوانيت
البقالين لا يصلح عاشقاً لمي وهى من هى : « لها بشر مثل الحرير ومنطق
رخيم الحواشى . . . » فلا (المالح) من غذائها ، ولا لفظ (المالح) من
الكلام الذى يكون فى فيها العذب ، وأبعد الله جاريته الزنجية إن لم تأنف
لنفسها ومكانها من عشق هذا الأعرابي الغليظ الحسن الذى ألحقه (المالح)
باللصوص والغارمين ، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابي لها سواداً على
سوادها فى الناس ، فكيف بمي وهى أصنى من المرأة النقية ، وأبيض من الزهرة
البضاء ؟

قالوا : ويصنع الله لغسيلان المسكين ، فيمدح وينافق ويحتال ، ويعيده
المدح بالجارئة إذا غدا عليه ، ويكون ذلك والشمس نازلة إلى خدرها ،
فينكفى الشاعر إلى حوانيت غرمائه من البقالين يبيت فيها أخرى لياليه ، ويغلقون
عليه وقد ستموه آكلاً وماطلاً ، وهان عليهم فلا يعتدونه إلا فأراً من فئران
حوانيتهم غير أنه يأكل فيستوفى ، ولم يعد اسمه عندهم ذا الرمة ، بل ذا الغُمة . . .
فلم يعطوه لعشائه هذه المرة إلا ما فسد وخبث من عتيق (المالح) ، فهو نتن
يسمى طعاماً ، وداء يباع بثمن ، وهلاك يحمل عليه الاضطرار كما يحمل على

أكل الحيفة ؛ وكانوا قد وضعوه في آنية قدرة مُسلّجّة طال عهدها بالغسل والنظافة وفيها بقية من عفن قديم ، فلصق بها مالمصق وتراكب عليها ما تراكب ، ووقع فيها ما وقع .

ثم يتهيأ الشاعر لصلاة العشاء يرجو أن تناله بركتها ، فيستجيب الله له ويفرّج عنه ، وقد كان لديه قدح من الماء لوضوئه ، ولكن (المالح) الذى تغدى به كان قد أحرق جوفه وأضرّم على أحشائه وهو فى صيف قاطئ ، فما زال يطفئه بالشربة بعد الشربة ، والمصة بعد المصة ، حتى اشتفّ القدح وأنى عليه ، فيكسل عن الصلاة ويلعن (المالح) وما جرّ عليه ! ثم يعضه الجوع فيكسر خبزته ويسمّى ويغمس اللقمة ثم يرفعها فيجد لها رائحة منكّرة ، فينظر فى الآنية وقد نفذ إليه الضوء من قنديل الحارس ، فإذا فى (المالح) خنفساء قد انفجرت شعباً ، ويدق النظر فإذا دويّبة أخرى قد تفسخت وهرأها (المالح) وفعل بها وفعل ! قالوا : وثب نفسه إلى حلقه ، ولا يرى الطاعون والبلاء الأصفر والأحمر إلا هذا (المالح) ، فيتحوّل إلى كوة الخانوت يتنسم الهواء منها ويتطعم الروح وهى مضبّبة بالحديد ، ولا يزال يراعى منها الليل ويقدره منزلة منزلة بحساب البادية ، وهو بين ذلك يلعن (المالح) عدد ما يسبح العابد القائم فى جوف الليل ، ويطول ذلك عليه ، حتى إذا كان ينشق لمع الفجر لعينه ، فلا يراه الشاء إلا كالغدير يتفجر بالماء الصافى ويود لو انصب هذا الضوء فى جوفه ليغسله من (المالح) وأوضار (المالح) ؛ ثم يأتى الله بالفرج وبصاحب الخانوت فيفتح له ، ويغدو ذو الرمة على المدوح فيقبض الجائزة ، وينقلب إلى حوانيت البقالين فيوفى أصحابها ما عليه ؛ ولا يبقى معه إلا دراهم معدودة ، فيخرج من البصرة على حمار اكتراه وقد فُتحت له آفاق الدنيا ، وكأنما فرّ من موتٍ غير الموت ، ليس اسمه البوار ولا الهلاك ولا القتل ، ولكن اسمه (المالح) ! .

قالوا : ويحرّكه الحمار للشعر كما كانت تحركه الناقة ، فيقول : أخزأك الله من حمار بصرى ، إن أنت فى المراكب إلا (كالمالح) فى الأطعمة ! . ثم يغلبه الطبع ويتزو به الطرب وتهزه الحياة ، فيحتاج للشعر ويذكر شوقه وجه ودار مئى ، وفى (عقله الباطن) حوانيت وحوانيت من (المالح) ، فيأتى هذا (المالح) فى

شعره ويدخل في لغته ، فيقول الشعر الذى أهمل الأصمعي رواية له لأن فيه (المالح) وما أدري أنا ما هو ، ولكن لعله مثل قول الآخر :

ولو تفلت في البحر والبحر (مالح) لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

أو مثل قول القائل :

بصرية تزوجت بصريا يطعمها (المالح) والطريا

* * *

هذه هي الرواية التمثيلية التي تفسر كلام الأصمعي ، ولا مذهب عنها في التعليل ؛ إذ صار (المالح) كلمة نفسية في لغة ذى الرمة ، على رغم أنف الأحمر والأسود والأصمعي وأبي عبيدة ؛ فالرجل من الحجاج في العربية إلا في كلمة (المالح) ، فإنه هنا عامي يقال حوانيتي نزل بطبعه على حكم العيش ، وغلبه ما لا بد أن يغلب من تسلط (واعيته الباطنة) * .

والحكمة التي تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة ، ولا بد أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله ، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به الهاجس على وجه آخر ؛ وإذا كان في النفس موضع من مواضعها أفسده العمل — ظهر فساده في الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى ؛ فلا تنتظر من صحافي قد ارتهن نفسه بحرفة الكلام ألا يكون له في الأدب والبلاغة (مالح) كمال ذى الرمة ، وإن كان أبلغ الناس لا أبلغ كتاب الصحف وحدهم .

و (المالح) الذي رأيناه لكاتب بليغ من أصحابنا ^(١) أنه كتب في إحدى الصحف عن ديوان هو في شعر هذه الأيام كالبعث بعد موت شوق وحافظ ورحمهما الله ، فيأتي بالجاز بعد الاستعارة بعد الكناية مما قاله الشاعر ، ثم يقول : هذا عجيب تصوُّره . لا أعرف ماذا يريد . البلي للشعاع غير مقبول ؛ ولا يزال ينسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله : « والأصل في

* وضمنا هذه الكلمة لما يسمى (العقل الباطن) ، وهي أدق في التعبير تستوفي كل معاني الكلمة ، ولا معنى لأن يكون هناك عقل ، ثم يكون باطناً غافلاً ؛ فإن هذا لا يسوغه الاشتقاق .

(١) يعنى المازني ، وكان له نقد لديوان « الملاح التائه » .

الكتابة أنها للإفهام ، أى نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس ؛ ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها الضعف والإبهام والركاكة وقلة العناية بدقة الأداء ؛ وإذا كنت تستعمل اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد به فكيف تتوقع منى أن أفهم منك ؟

لا ، لا ، هذا (مالح) من مالح الأدب ، فإذا كان الضعف والإبهام والركاكة وسوء الإفهام وضعف الأداء — آتية في رأى الكاتب من استعمال اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد له — فإن محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليس لها مأتنى كذلك إلا استعمال اللفظ في غير موضعه ولغير ما أريد له .

وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع في قوله تعالى : « وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ؟

أتراه يقول : كيف قدم الله ، وهل كان غائباً أو مسافراً ، وكيف قدم إلى عمل ، وهل العمل بيت أو مدينة ؟

ثم كيف يصنع في هذه الآية : « وقيل يا أرض ابلعي ماعك » ، أسأل : وهل للأرض خلق تحرّكه عضلاته للبلع ، وإذا كان لها خلق أفلا يجوز أن تُرْمَى فيه فتحتاج إلى غرغرة وعلاج وطب ؟

وماذا يقول في حديث البخارى : « إني لأسمع صوتاً كأنه صوت الدم ، أو صوتاً يقطر منه الدم — كما في الأغاني — » أيوجه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه ، ويسأل : بماذا جرح ، وما لون هذا الدم ، وهل للصوت عروق فيجري الدم فيها ؟

إن الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هى البلاغة وإن كانت منها ، وإلا فكتابة الصحف كلها آيات بينات فى الأدب ، إذ هى من هذه الناحية لا يُقَدَح فيها ولا يُغَض منها ، وما قصرت قط فى نقل خاطر ولا استغلقت دون إفهام .

ههنا خوانٌ فى مطعم كقطع (الحاقى) مثلاً عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافاً مصنّفة ، وآخر فى وليمة عرس فى قصر وعليه ألوانه وأزهاره ومن

فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة في القلب بنور وجهها الجميل ، أفترى السهولة كل السهولة إلا في الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد إلا في الثاني ؟ ولكن أى تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فنى ليس إلا ، به ينضاف الجمال إلى المنفعة ، فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزيّن المائدة والنفس معاً ؛ وهو كذلك تعقيد فنى لآدم بين إبداع الطبيعة وإبداع الفكر ، وجاء بروح الموسيقى التى يقوم عليها الكون الجميل فبثها فى هذه الأشياء التى تقوم بها المائدة الجميلة ، واستنزل سرّ الجاذبية فجعل للمائدة بما عليها شعوراً متصلاً بالقلوب من حيث جعل للقلوب شعوراً متصلاً بالمائدة .

وهذا التعقيد الذى صور فى الجماد دقة فن العاطفة ، هو بعينه فنية السهولة وروحيتها ؛ وتلك السذاجة التى فى المائدة الأخرى هى السهولة المادية بغير فن ولا روح ، وفرق بينهما أن إحداهما تحمل قصيدة رائعة من الطعام وما يتصل به ، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف !

والوجه فى الشواء وفى الحماية واحد : لا يختلف بأعضائه ولا منافعه ، ولا فى تأديته معانى الحياة على أتمها وأكملها ؛ بيد أن انسجام الجميل يأتى من إعجاز تركيبه وتقدير قسماته وتدقيق تناسبه ، وجعله بكل ذلك يُظهر فنّه النفسى بسهولة منسجمة هى فنيته وروحيته ؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يُظهر منه شيئاً ؛ إذ كان قد فقد التدقيق الهندسى الذى هو تعقيد فن التناسب ، وجاء على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير ، إلى ما يستدير وما يعرض ، إلى ما ينتأ من هنا وينخسف من هناك ، كالوجهة البارزة ، والشدق الغائر ؛ فهذه السهولة المطلقة فى الوضع كما يتفق ، هى بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذى لا محل فيه للفضة (كما يتفق) .

والطريقة التى يكون بها الجمال جميلاً هى بعينها الطريقة التى يكون بها البيان بليغاً ، فالمرجع فى اثنيهما إلى تأثيرهما فى النفس ، وأنت فقل : إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم ، وذلك سهل والآخر معقد ، وواضح ومغلق ، ومستقيم على طريقته ومحوّل عن طريقته ؛ إنك فى ذلك لا تدل على شيء تعيبه أو تمدحه فى الجمال أو البلاغة أكثر مما تدل على ما يمدح أو يُعاب فى نفسك وذوقها وإدراكها .

ومعاني الاختلاف لا تكون في الشيء المختلف فيه ، بل في الأنفس المختلفة عليه ؛ فإن محالاً أن تكون الجميلة ممدوحة مدمومةً لجمالها في وقت معاً ، وإلا كانت قبيحة بما هي به حسناء ، وهذا أشد بعداً في الاستحالة ، وحكمك على شيء هو عقلك أنت في هذا الشيء .

ومنى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجدت دواعي الاستحسان في أنفسهم مختلفة ، وكذلك هم في دواعي الذم إذا عابوا ؛ ولكن متى تعينت الوجوه التي بها يكون الحكم ، ورجع إليها المختلفون ، والتزموا الأصول التي رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم في الذوق والفهم ، فذلك ينبي أسباب الاختلاف لما يكون من معاني التكافؤ وخاصة المناسبة ، ولهذا كان الشرط في نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع في بيانه لم تفسده نزعة أخرى ، وفي نقد الشعر أن يكون من شاعر علت مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن فليس له نزعة أخرى تفسده .

وما المجازات والاستعارات والكنائيات ونحوها من أساليب البلاغة إلا أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية ؛ إذ هي بطبيعتها تريد دائماً ما هو أعظم ، وما هو أجمل ، وما هو أدق ؛ وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلِّفًا وتعسفًا ووضعًا للأشياء في غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة في التأدية وتحمل لا عبرة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ؛ فن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهية لهذه الزيادة في شعور النفس ؛ ومن ذلك يأتي الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية ، لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبعياً في الطبيعة إلى أن يكون روحانياً في الإنسانية ، والشعور المهتاج المتفرز غير الساكن المتبلد ، والبيان في صناعة اللغة يقابل هذا النحو ، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك ، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت ؛ وبهذا لا تكون حقيقة المحسنات البيانية شيئاً أكثر من أنها صناعة فنية لا بد منها لإحداث الاهتياج في ألفاظ اللغة الحساسة كي تعطى الكلمات ما ليس في طاقة الكلمات أن تعطيه .

لقد تكلموا أخيراً في جناية الصحافة على الأدب ، والصحافة عندى لا تجنى

على الأدب ، ولكن على فنيته ؛ فلها من الأثر على سليقة البليغ وطبعه قريب
مما كان لخوانيت البقالين في البصرة على طبع ذى الرمة وسليقته ، وكلما قرب
الصحافي من الصنعة وحققها على الجمهور ، بعد عن الفن وجماله وحقه على النفس ،
وهذا واضح بلا كبير تأمل ، بل هو واضح بغير تأمل . . .

صعاليك الصحافة . . .

١

لما ظهر كتابي (وحي القلم)^(١) حملت منه إلى فضلاء كتابنا في دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقروا ويكتبوا عنه ، وأنا رجل ليس في أكثر مما في ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع ؛ فما أعلم في طبيعتي موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة إلى تفاحة ، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة ، ولست أهدي من كتبي إلا إحدى هديتين : فلما التحية لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم ، ولما إنذار حرب لغير هؤلاء !

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ، ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها ، كحاجتها إلى من يقربها ويقبلها ، فهي بأحدهما تثبت وجودها ، وبالأخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار .

والشعور بالحق لا يخرس أبداً ؛ فإذا كانت النفس قوية صريحة مرّاً من باطنها إلى ظاهرها في الكلمة الخالصة ، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما ؛ وإذا كانت النفس ملتوية اعترضته الأغراض والدخائل ، فمرّاً من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر في الكلمة المقلوبة ؛ إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالחסد ونحوه ، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً .

* * *

وكنّت في طوافي على دور الصحف والمجلات أحس في كل منها سؤالاً يسألني به المكان : لماذا لم تجب ؟ فإنّي في ابتداء أمرى كنت نزعّت إلى العمل في الصحافة ، وأنا يومئذ متعلم ريّض ومتأدّب ناشئ ، ولكن أبي رحمه الله ردّني عن ذلك ووجهني في سبيل هذه والحمد لله ، فلو أنني نشأت صحافياً لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة في الطبع . . .

(١) يعني الجزأين الأول والثاني في طبيعتهما الأولى .

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهي كلما تَمَّتْ نقصت ، وكلما نقصت تمت ؛ إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرءُ ونها أنصاف قراء أو أنصاف أميين ؛ وهي بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية ؛ فتمامها بمراعاة قواعد النقص في القارئ . . . وما بدُّ أن تنقيد بأوهام الجمهور أكثر مما تنقيد بحقيقة نفسها ، فهي معه كالزوجة التي لم تلد بعد ، لها من رجلها من يأمرها ويجعلها في حكمه وهواه ، وليس لها من أبنائها من تأمرهم وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها ؛ ثم هي عمل الساعة واليوم ، فما أبعداها من حقيقة الأدب الصحيح ، إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان .

ولا يقتل النبوغَ شيء كالعمل في هذه الصحافة بطريقتها ؛ فإن أساس النبوغ (ما يجب كما يجب) ؛ ودأبه العمق والتغلغل في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق ؛ أما هي فأساسها (ما يمكن كما يمكن) ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير .

فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا إذا نضج وتم وأصبح كالدولة على « الخريطة » ، لا كالمدينة في الدولة في الخريطة ؛ فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله . . . ثم هو يمدّها بالقوة ولا يستمد القوة منها ، ويكون تاجاً من تيجانها لا خزانة من خزائنها ، ويقوم فيها كالمنازة العظيمة تُلقي أشعتها من أعلى الجبل إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كصباح من مصابيح الشارع !

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره ؛ إذ كان الرجل السياسي هو صوت الحوادث سائلاً ومحيطاً ، ثم يليه الرجل شبه العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلي . . . والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير أنه عندنا في الصحافة وراء هؤلاء جميعاً ! .

* * *

ولما فرغت من طوافي على دور الصحف جاءت هي تطوف بي في زواري
فرأيتني ذات ليلة أدخل إحداها لأهدي (وحى القلم) إلى الأديب المتخصص فيها

للكتابَةِ الأدبية ؛ ودلوني عليه فإذا رجل مربوع مشوّه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين ، تدوران في محجريهما دورة وحشية كأنما رعبته الحياة مذ كان جنينًا في بطن أمه ، لأنه خلق للإحساس والوصف ، أو كأنما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فينبغ في فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الإلهية بأنه رجل فذ أرسل لتدقيق النظر .

وقال الذي عرفني به : حضرتُه عمرو افندى الجاحظ . . . وهو أديب الحرية .

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بجر ؟
فضحك الجاحظ وقال : وأديب الحرية ، أي شحاذا الحرية ، يكتب لها كما يقرأ القارئ على ضريح : بالريغ والحب والبيض والقرش . . .

قلت : إنا لله ! فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من أعاجيب الدنيا ؟ وكيف خبّست في الصحافة وكنت رأسًا في الكلام ؟

قال : نجحت أخلاق فخابت آمالي ، ولو جاء الوضع بالعكس لكان الأمر بالعكس ؛ والمصيبة في هذه الصحف أن رجلا واحداً هو قانون كل رجل هنا .

قلت : وذاك الرجل الواحد ما قانونه ؟
قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها ، والجهات النازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصلة بين الجهتين وهو . . .

قلت : وهو ماذا ؟
فحملني وقال : ما هذه البلاد ؟ . وهو الذي « هو » . . . أما ترى الصحيفة ككل شيء يباع ؟ وأنت فخبّرتني — ولك الدولة والصولة عند القراء — ألم تر بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش ، لكنت في نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدي ثمانمائة صفحة من البيان والأدب ؟

قلت : يا أبا عثمان ، فإذا تكتب هنا ؟
قال : إن الكتابة في هذه الصحافة صورة من الرؤية ، فإذا ترى أنت في . . .

وفى . . . وفى ؟ . . . لقد كنا نرى فى الحديث : « يكون قومٌ يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحس الأرض البقرةُ بلسانها » ؛ فلعلّ من هذه الألسنة الطويلة لسان صاحب الجريدة . . .

قلت : ولكنك يا شيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة .
قال : القراء ما القراء ، وما أدراك ما القراء ! وهل أساس أكثرهم إلا بلادة المدارس ، وسخافة الحياة ، وضعف الأخلاق ، وكذب السياسة ؟ إن الإبداع كل الإبداع فى أكثر ما تكتب هذه الصحف ، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة . . . وما دام المبدأ هو الكذب ، فالمظهر هو الهزل ؛ والناس فى حياة قد ماتت فيها المعانى الشديدة القوية السامية ، فهم يريدون الصحافة الرخيصة ، واللغة الرخيصة ، والقراءة الرخيصة ؛ وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله هم (صعايلك الصحافة) .

* * *

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ، فنهض إليه ، ثم رجع بعينين لا يقال فيهما جاحظتان ، بل خارجتان . . . وقال : أف ! « وحسب ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون » .

« كلاً والذى حرّم التزيّد على العلماء ، وقبّح التكلف عند الحكماء ، وبهّرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه » *
قلت : ماذا دهالك يا أبا عثمان ؟

قال : ويحبها صحافة ! قل فى عمك ما قال المثل : جَحَظَ إليه عمله * * .
قلت : ولكن ما القصة ؟

قال : ويحبها صحافة ! وقال الأحنف : أربعٌ من كنّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلّق بخصلةٍ منهن كان صالحاً قومه : دين يرشده ، أو عقل يسدّه ، أو حسَبٌ يصونه ، أو حياء يقناه » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يجاهده ، وشيطان يفتنه . وأربع ليس أقلّ منهن : اليقين ، والعدل ، ودمه حلال ، وأخ فى الله » . وقال الحسن بن على * * * . . .

* هذه الجملة من كلام الجاحظ .

* * يريدون أنه إذا نظر فى عمله رأى سوء ما صنع .

* * * هذه طريقة الجاحظ ، يخلط الكلام دائماً بالنقل :

قلت : يا شيخنا ، دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحرف ، فهاذا دهالك عند رئيس التحرير ؟

قال : لم أحسن المهاترة في المقال الذى كتبته اليوم . . . ويقول رئيس التحرير : إن نصف الترمويه رذيلة ؟ فإن نصفه الآخر يدل على أنه ترمويه . ويقول : إن سمو الكتابة انحطاط فصيح ، لأن القراء في هذا العهد لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء ، بل من الروايات والمجلات الهزلية . وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع في النفس قانون النفس ، ويجعل معانيها مهية بالطبيعة للاستجابة لتلك المعاني الكبيرة في الدين والفضيلة والجِد والقوة ؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات المغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهي ؟

ويقول رئيس التحرير : إن الكاتب الذى لا يسأل نفسه ما يقال عنى في التاريخ ، هو كاتب الصحافة الحقيقي ، لأن القروش هي القروش والتاريخ هو التاريخ ؛ ومطبعة الصحيفة الناجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلي ؛ ألا يتحقق نسب ما بينهما إلا في إخراج الورق الذى يُصَرَّف كله ولا يُرد منه شيء !

إنهم يريدون إظهار المخازى مكتوبة ، كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها ؛ يزعمون أنها أخبار تُروى وتقص للحكاية أو العبرة ، والحقيقة أنها أخبارهم إلى أعصاب القراء . . .

* * *

ودف . ليرس يدعو أبا عثمان إلى ريس التحرير . . .

صعاليك الصحافة . . .

٢

وغاب شيخنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعض ساعة ، ثم رجع تدور عيناه في جحاطتيهما وقد اكفهرت وجهه وعبس كأنما يجري فيه الدم الأسود لا الأحمر ، وهو يكاد ينشق من الغيظ ، وبعضه يغلى في بعضه كالماء على النار ؛ فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقتا على كنفتي أنفه تستمان كآبة وجهه المشوه ، فكان منظرهما من عينيهِ السوداءين الجاحظتين منظرَ ذبابتين ولدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لثأنهما وسكت عنهما ؛ فقلت له : يا أبا عثمان ، هاتان ذبابتان ، ويقال إن الذباب يحمل العدوى .

فضحك ضحكة المستغيظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ : منها ما يستقدر وما تنقلب له النفس ، وما فيه العدوى ، وما فيه الضرر ؛ وما بد أن يعتاد الكاتب الصحافي من الصبر على بعض القول مثل ما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه ؛ وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة . . . كان أخف عليه وأهون ، وكان ذلك أصرح في معنى الطلب والتكليف * .

وكيفما دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لو مسخه الله شيئاً غير الحروف المطبعية ، لطار كله ذباباً على وجوه القراء ! .

قلت : ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مستطليقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعتداً فما الذي أنكرت منه ؟

* هذه طريقة الجاحظ في الإغراق حين يتهم .

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيهِ الغريبُ والجاهلُ بعواقب الأمور ، لبطلَ النظرُ وما يشعُذُ عليه وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها »* . هناك رجل من هؤلاء المَسعِين بالسياسة في هذا البلد . . . يريد أن يخلق في الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلقى لها من المنطق رُقعاً كهذه الرقع في الثوب المفتوق ؛ ثم لا يرضى إلا أن تكون بذلك رداً على جماعة خصومه وهي رد عليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد إلا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد .

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبي عثمان في لطافة حسه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ، ولا من المميزين في الرأي ، ولا من المستدلّين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة ؛ وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حرُوف . . . كحروف المطبعة : ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ماشئت ، وأدنى حالاتها أن تمتد إليها اليد فإذا هي في يدك .

وأنا امرؤٌ سيدٌ في نفسي ، وأنا رجلٌ صدق ، ولست كهؤلاء الذين لا يتأثّمون ولا يتذمّمون ؛ فإن خضتُ في مثل هذا انتقض طبعي وضعفت استطاعتى وتبيّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ في الجهتين ؛ فلا يطرد لي القول على ما يرجو ، ولا يستوى على ما أحب ؛ فذهبت أناقضه وأردّ عليه ؛ فبهيتَ ينظر لي ويقلب عينيه في وجهي ، كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادم مطبخه وطعامه ، هذا من هذا ! .

ثم قال لي : يا أبا عثمان ، إني لأستحي أن أعنفك ؛ وبهذا القول لم يستح أن يعنّف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكلّيب . . . مالك كلّ يوم ظالماً والظلمُ أنكدُ وجهه ملعون . . .

لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

وما بين من لم يعطِ شمعاً وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حَزٍّ الغلاصمِ

* هذه الجملة من كلام الجاحظ .

وحزُّ الغلاصم « وقطعُ الدراهم » من قافية واحدة . . . وقال سعيد بن أبي عرُوبة « لأن يكونَ لي نصفُ وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز الخبر - أحبُّ إلىَّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السخيتاني . . .

وهمَّ شيخنا أن يمرَّ في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير . . . ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ فكما انقلبت العصا حيةً تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة ؛ فتكون للتهويل ، وهي في ذاتها اطمئنان ، وللتهمة وهي في نفسها براءة ، وللجناية وهي في معناها سلامة : ولو نفّخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر في دخانها الأسود . قال : وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتيانُ الحيلة على أن يصدقك الناس ؛ فإن العامة وأشباه العامة لا يصدقون الصدق لنفسه ، ولكن للغرض الذي يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذقهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقاً وفوق الصدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهين العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب ، ليحققوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا وصدقوا . . .

ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للإعلان لكانت العبارة هكذا : سياسة للبيع . . .

* * *

قلت : يا شيخنا ، فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون ، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب : تُقرأ فيها معانٍ لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلب ما يُستحى منه . . . والحوادث عندهم على حسب الأوقات ،

فالأبيض أسود في الليل ، والأسود أبيض في النهار ؛ ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرج المعاني ؟
قال : بلى ، نعيم الشاهد هو وأمثاله ! . لأنهم مصدّقون حتى في تاريخ حفر زمزم .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن يجرّح شهادته ، فقال للقاضي : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم ينجح إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم ؛ فأسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي ؟ قال الشاهد : لقد حججت قبل أن تحفر زمزم فلم أرها . . .

قال أبو عثمان : فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكى به نفسه : ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلاً في الصحف لنفى المنى وإثبات المثبت ، لا عملاً يعملونه بالنفى والإثبات ؛ ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق ، فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يُترخّص فيها ما دام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، وما دامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة ؛ وقد كان العمل السياسى إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة ؛ ومن ثم كان الخلق القوى الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ، وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن الممارى أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها ، وصاوت نعت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً . . .

يا لعباد الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعاً في « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فهاذا تتشرف

« المحليات » إلا به ؟ وهذا طبيعي ، ولكن في طبيعة النفاق ؛ وهذا واجب ، ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب ؛ ولو أن للأديب وزناً في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة ؛ فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير . . . ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاط في معنى الشرف . . . ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت في بارجة (أميرال) إنجليزية أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسماً من رسوم الحرب ؛ ونظرت فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخفّ وما أهون ! . ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى وتَيمِّمُها * هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن . . .

* * *

والنفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق . . . فلما لم يسمع شيئاً قال : لو أنني أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فهما أكذب على الناس فقد صدقت في الاسم ، ومهما أخطى فلن أخطى في وضع النفاق تحت عنوانه . قال : ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ما هي عزة الأذلاء ؟ هي الكذب الهازل .

ما هي قوة الضعفاء ؟ هي الكذب المكابر .

ما هي فضيلة الكذابين ؟ هي استمرار الكذب .

قال : ثم لا يجرى في جريدتي إلا « صعايلك الصحافة » من أمثال الجاحظ ؛ ثم أكذب على أهل المال فأعجب الفقراء العاملين ، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين ، و . . .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

* ونيم الذباب : هو . . . أى هذه النقط السود التي يحشها .

صعاليك الصحافة

٣

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان في هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير في عملٍ وأدائه ، بل كان عند رئيس الشرطة في جنايةٍ وعقابها ؛ فظهر منقلب السحنة انقلاباً دميماً شوه تشويبه وزاد فيه زيادات . . . ورأيته ممطوط الوجه مطاً شنيعاً بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستترتين في وجهه ، بل معلقتان على جبهته . . .

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هذا باب على حدة في الامتحان والبلوى ، وما فيه إلا المثونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعمل في هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين : على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير ! « وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو ؟ فقال : الجزء الذي لا يتجزأ على بن أبي طالب عليه السلام ! فقال له أبو انعياء محمد : أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره ! قال : بلى ، حمزة جزء لا يتجزأ . . . قال : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ . . . قال : فما تقول في عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين . . . قال : فأى شيء تقول في معاوية ؟ قال : لا يتجزأ .

« فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام أجزاءً لا تتجزأ إلى أى شيء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرّون الجزء الذي لا يتجزأ ، هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذي لا يتجزأ » *

قلت : ورجع بنا القول إلى رئيس التحرير . . .

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذى لا يتجزأ اليوم هو فلان ؛ وأن فلانا الآخر يتجزأ مرتين . . . وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة فى هذا النهار هو شأن كذا فى عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصور فى صيغة ثلاثم جوع الشعب فتجعله كالحبىز الذى يسطعمه كل الناس ، وتثير له شهوة فى النفوس كشهوة الأكل وطبيعة كطبيعة الهضم . . . وقد رى إلى رئيس التحرير بحملة الخبر ، وعلىّ أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل التراب دقيقاً أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل ويسوغ فى الحلق وتستمره المعدة ويسرى فى العروق .

وإذا أنا كتبت فى هذا احتجت من التريق والتمويه ، ومن التدليس والتغليط ، ومن الخب والمكر ، ومن الكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديق والدهرى والمعطّل فى إقامة البرهانات على صحة مذهب عَرَفَ الناس جميعاً أنه فاسد بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة ، أنه فاسد ؛ وأين ترى إلا فى تلك النُحْل وفى هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكّر ، وأن يجترى وهو موقن أنه مجترى ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقدير من تقدير ، وعمل من عمل ، ومذهب من مذهب ؛ والآفة أنهم لا يستعملون فى الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكّدة ؛ يأخذونها إذا وجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم : يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويلقى إليه ولا يمتنع ، ويعطى ولا يترد على من أعطاه .

قلت : ولكن ما هو الخبر الذى أردوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبت فيه لهذه الصحيفة نفسها أنقضه وأسفّته وأرد عليه ، وكان يومئذ جزءاً يتجزأ . . . فإن صنعت اليوم بلاغى فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى ، ولا حائلاً بينى وبين ذات نفسى — فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ ، آه لو وُضع الرديو فى فى غرف رؤساء التحرير ليسمع الناس . . .

قلت : يا أبا عثمان ، هذا كقولك : لو وضع الرديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات .

قال : ليس هذا من هذا ، فإن للجيش معنى غير الخلق في تدبير المعاش والتكسب وجمع المال ؛ وفي أسرار أسرار قوة الأمة وعمل قوتها ؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلاناً ارتفع وأن فلاناً انخفض ، ولا تصرفها العشرة أكثر من الخمسة ؛ وفي أسرارها أسرار وجود الأمة ونظام وجودها .

قال أبو عثمان : وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تجد الشعب القارئ المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز ، ثم هي لا تريد أن تذهب أموالها في إيجاده ونشئته ؛ وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن في تحريكها وتيسير مجراها ، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة . . . ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركاً مميّزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً وفسولة ، ولا خرجت عن النسق الطبيعي الذي وضعت له ، فإن الشعب تحكمه الحكومة ، وإن الحكومة تحكمها الصحافة ، فهي من ثم لسان الشعب ؛ وإنما يقرؤها القارئ ليرى كلمته مكتوبة ؛ وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع ، هو الذي يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم .

قال أبو عثمان : فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً ، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها ، فهو مشارك في الرأي لأنه واحد ممن يدور عليهم الرأي ، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هي من مادته ، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت ، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للمفكر ، فيلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية ، وتأتي إليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره .

وفي قلة القراء عندنا آفتان : أما واحدة فهي القلة التي لا تغنى شيئاً ؛ وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم ، ووزارة أناس بآخرين ، وتعلق نفاق بنفاق ، وتصديق كذب لكذب ؛ وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنين : وهي أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلّهُون به ، أو كالفرّاغ يلتمسون ما يقطعون به

الوقت ؛ فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها ، ويتعاطون الجذ تعاطي من يلهو به . ويتلذذون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة ، والمباحثة بفكرة الإهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزء والتحقير ؛ وهم كالمصلين في المسجد ؛ فقتل لنفسك نوعاً من المصلين إذا اصطفوا وراء الإمام تركوه يصلى عن نفسه وعنهم وانصرفوا . . .

قال أبو عثمان : بهذا ونحوه جاءت الصحف عندنا وأكثرها لاثبات له إلا في الموضع الذى تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه ؛ ومن هذا ونحوه كان أقوى المادة عندنا أن تظهر الصحيفة مملوءة حكومة وسلطة وباشوات وبيكوات . . . وكان من الطبيعى أن محل الباشا والبلك والحوادث الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا فى موضع قلب الحى من الحى .

ثم استضحك شيخنا وقال : لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على الحكومة تصحيح هذه الألقاب ، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها . فإذا أنعم به على إنسان كتبت الصحف هكذا : أنعمت الحكومة على فلان بلقب (ذو مال) .
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

فلم يلبث إلا يسيراً ثم عاد متهللاً ضاحكاً وقد طابت نفسه فليس له جحوظ العينين إلا بالقدر الطبيعى ، وجلس إلى وهو يقول :
بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال ، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكاراً ولا نكتة ولا حجة صادقة ، بل قال : كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد اليوم عدد الغد ، فإذا نحن زهدنا فى الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكمنا بها وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الإنسانى وتركت من لم ينلها من ذوى الجاه والغنى يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتروجة . . . وقلنا إنها من ذلك تكاد تكون وسيلة من وسائل الدفع إلى التملق والخضوع والنفاق لمن بيدهم الأمر ، أو وسيلة إلى ما هو أخطر من ذلك كما كان شأنها فى عهد الدولة العثمانية البائدة حين كان الوسام كالرقعة من جلد الدولة يُرقع بها الصدر الذى شقوه وانتزعوا ضميره —

إذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب الذى يحكم لنا ، ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذين يحكمون علينا ؛ فكنا كمن يتقدم فى التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف .

يا أبا عثمان ، إنما هى حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ، ثم الحقيقة ...
فالفكرة الأولى للصحيفة ، والفكرة الثانية هى للصحيفة أيضاً ؛ ومتى جاء الشعب الذى يقول : لا ، بل هى الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة - فيومئذ لا يقال فى الصحافة ما قيل لليهود فى كتاب موسى : تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ...

قلت : أراك يا أبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير فى هذه المرة ، فشق عليك ألا تتلّسه ، فغمزته بالكلام عن مرة سالفه .

قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لا هو ، وفى مثل هذا لا يكون عملك أبو عثمان من (صعاليك الصحافة) ؛ إن الرجل اشتبه فى كلمة : ما وجهها : أمروعة هى أم منصوبة ؟ وفى لفظة : ما هى : أعربية أم مولدة ؟ وفى تعبير أعجمى : ما الذى يؤديه من العربية الصحيحة ؟ وفى جملة : أهى فى نسقتها أفصح أم يبذلها ؟

إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا إذا نطق ...

ولقد ابتليت هذه الأمة فى عهدها الأخير بنخب السهولة مما أثار فيها الاحتلال وسياسته وتحملته الأعباء عنها واستهدافه دونها للخطر ، فشبه العامية فى لغة الصحف وفى أخبارها وفى طريقها إنما هو صورة من سهولة تلك الحياة ، وكأنه تثبيت للضعف والخور ، وأنت خبير أن كل شيء يتحول بما تحدث له طبيعته عالياً أو نازلاً ، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى نصف العامية فى كتابة أكثر المجالات وفى رسائل طلبة المدارس ، حتى لتبدو المقالة فى ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل مأكلة صغاره ، فقرض عنقوداً من العنب ، فألقاه فى الأرض وأتربه وتمرغ فيه ، ثم مشى يحمل كل حبة مرضوضة فى عشرين إبرة من شوكه .

ثم مد أبو عثمان يده فتناول مجلة مما أمامه وقعت يده عليها اتفاقاً ثم دفعها إلى وقال : اقرأ ولا تجاوز عنوان كل مقالة . فقرأت هذه العناوين :

« مسئولية طبيب عن فناء عذراء » ، « مودة الرافصات الصينيات » ، « تخر مغشياً عليها لأنهم اكتشفوا صورة حبيبها » ، « هل يعتبر قبول الهدية دليلاً على الحب » ، وإذا كانت ملابس داخلية . . . فهل تعتبر وعداً بالزواج ؟ » ، « هل يحق للأب أن يطالب صديق ابنته . . . بتعويض إذا كانت ابنته غير شرعية » ، « بين خطيبتين لشاب واحد » ، « بعد أن قص على زوجته أخبار السهرة . . . لماذا أطلقت عليه الرصاص ؟ » ، « عروس تأخذ (شبكة) من شاين ثم تطردهما » ، « زوجة الموظف أين ذهبت » ، « لماذا خُطِفت العروس في اليوم المحدد للزفاف ؟ » « في الطريقي : حب بالإكراه » ، « فلانون وفلانان ، زواج وطلاق ، وأخبار المراقص ، وحوادث أماكن الدعارة » إلخ إلخ .

فقال أبو عثمان : هذه هي حرية النشر ؛ ولئن كان هذا طبيعياً في قانون الصحافة إنه لإثم كبير في قانون التربية ؛ فإن الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا . « وباب آخر من هذا الشكل فبكسّم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو ما يصنع الخبر ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ — دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولا سهلا ، وصادف موضعاً وطبيعاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته .

ومتى ألقى إلى الفتیان شيء من أمور الفتيات في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و . . . » *

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

* * *

صعاليك الصحافة**

تتمة

وجاء أبو عثمان وفي بُروز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئاً كعلامتي تعجبُ ألفتها الطبيعة في هذا الوجه ، وقد كانوا يلقبونه (الْحَدَّاقِي) فوق تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحداً لا يبيّن عن قبّح هذا التتو في عينيه إلا بمرادف ومساعد من اللغة . . . وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه هذه المرة .

وانحطّ في مجلسه كأن بعضه يرمى بعضه من سخطٍ وغيظ ، أو كأن من جسمه ما لا يريد أن يكون من هذا الخلق المشوه ، ثم نصب وجهه يتأمل ، فبدت عيناه في خروجهما كأنما تهمّان بالفرار من هذا الوجه الذي تحيا الكتابة فيه كما يحيا الهمّ في القلب ؛ ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعتُ عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان ، رجعتَ من عند رئيس التحرير زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً ؟ فما هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أني ناقص ، وههنا شيء لا أقوله ، ولو أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لوقفوا على عمك وأمثال عمك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء ! .

وقال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد . فأنشدته :

** كتب الدكتور زكي مبارك مقالا في جريدة المصري الغراء زعم فيه أننا قلنا « إن الصحافة لا تنجح إلا في أيدي الصعاليك » ولا ندري كيف أحس هذا المعنى ، ثم تهددنا ! ! فقال : « ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين (ولعله يعني نفسه) في معركة فاصلة ! ! ورياك بحب التكلف والافتعال في عالم الإنشاء والتأليف » ؟ « ما رأيك إذا حملك رجل منهم (ولعله يعني نفسه) هلى عاتقه وألقى بك في هاوية التاريخ لتعيش مع صمصمة بن صوحان » ؟ - أبلغ خطباء العرب وأنظقهم .

وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلمت على مقاله فأمرت جميع المحال التي تباع لعب الأطفال ، ألا يبيعوا « معركة فاصلة » ولا « هاوية تاريخ » . . .

ومن يشتري منى ملوك مخترم
وأعطى « رجاء » بعد ذلك زيادة
أبع حسناً وابنى هشام بدرهم
وأمنح « ديناراً » بغير تندم
قال أبو عثمان :

فإن طلبوا منى الزيادة زدتهم
وبلى على هذا الشاعر! اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما لعظم الدرهم ، واثنان
زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم : كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت
كتّاباً ، ولكن ههنا شيئاً لا أقوله .

وزعموا أن كسرى أبرويز كان فى منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة
عظيمة ، فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت
الصياد بأربعة آلاف درهم ، فإن أمرت بها لرجل من الوجوه قال : إنما أمر لى بمثل
ما أمر للصياد ! فقال كسرى : كيف أصنع وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أذاك فقل له : أخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى ؟ فإن
قال أنثى ، فقل له : لا تقع عينى عليك حتى تأتىنى بقرينها ، وإن قال غير ذلك
فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرنى عن السمكة ، أذكر هى أم أنثى ؟
قال : بل أنثى ، قال الملك : فأتى بقرينها . فقال الصياد : عمر الله الملك ،
إنها كانت بكرألم تتزوج بعد . . .

قلت : يا أبا عثمان ، فهل وقعت فى مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟
قال : لم ينفع عمك أن سمكته كانت بكرأ ، فلما يريدون إخراجه من
الجريدة ، وما بلاغة أبى عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التلغراف وبلاغة الخبر
وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض . . . ولكن ههنا شيئاً لا أريد
أن أقوله .

وسمكتى هذه كانت مقالة جودتها وأحكمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها
أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان ، وجعلتها فى البلاغة طبقة وحدها ، وقبل
أن يقول الأوروبيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : « الكتّاب ملوك

على الناس » ، فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ملكاً بتلك المقالة فإذا هو بها من (صعاليك الصحافة) .

لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ما هي إلا الشمس الضاحية ، وما هي إلا أشواق ولذات : وما هي إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هي إلا هي ؛ فإذا العروس عند رئيس التحرير هي المطلقة ، وإذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظرياً فنعم ، وأما عملياً فلا ؛ وهذا عصر خفيف يريد الخفيف ، وزمن عامى يريد العامى ، وجمهور سهل يريد السهل ؛ والفصاحة هي إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهي اليوم قد خرجت من فنونها واستقرت في علم النحو .

وحسبك من الفرق بينك وبين القارئ العامى : أنك أنت لا تلحن وهو يلحن . قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصى ويكثر العامى فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية ، ويرجع الكلام الصحافى كله سوقياً بلدياً (حنصياً) ، وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلف والتوعر والتقعر كما يرون الآن في الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهى إلى الأقل ؛ والأقل ينتهى إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ، ثم لا تملك بعدها الخطى الكثيرة .

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها صالحة ، وجاءت فنون من الكتابة ما هي إلا طبائع كتابها تعمل فيمن يقرأها عمل الطباع الحية فيمن يخالطها ، ولو كان في قانون الدولة تهمة إفساد الأدب أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة هو ومسلاة فراغ وفساداً وإفساداً ؛ والمصيبة في هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستشطون القراء ويلهونهم ، ونحن إنما نعمل في هذه النهضة لمعالجة اللهو الذى جعل نصف وجودنا السياسى عدما ؛ ثم ملء الفراغ الذى جعل نصف حياتنا الاجتماعية بظالة ؛ وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان في هذه الصحافة من (صعاليك الصحافة) ، وتركه في المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه في أمس وكأنهم في غد .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير . . .

فما شككت أنهم سيطرده ، فإن الله لم يرزقه لساناً مطبعياً ثرثاراً يكون كالمتصل من دماغه بصندوق حروف . . . ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم بهم النفاق ويتلون ، ولا كهؤلاء الأدباء الذين يتم بهم التضليل ويتشكل .

ورجع شيخنا كالخنوق أُرْخِي عنه وهو يقول : وبلى على الرجل ! وبلى من الكلام الظريف الذى يقال فى الوجه ليدفع فى القفا . . . كان ينبغي ألا يملك هذه الصحافة اليومية إلا مجالس الأمة ؛ فذلك هو إصلاح الأمة والصحافة والكتاب جميعاً ؛ أما فى هذه الصحف ، فالكاتب يخبز عيشه على نار تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ؛ ولو أن عمك فى خفص ورفاهية وسعة ، لكان فى استغنائه عنهم حاجتهم إليه ؛ ولكن السيف الذى لا يجد عملاً للبطل ، تفضله الإبرة التى تعمل للخياط ، وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟ يملك ما لا يتزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ؛ إذ يملك عقله وبيانه ، على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه ، يعقل ما شاءوا ويكتب ما شاءوا .

لك الله أن أصدقك القول فى هذه الحرفة اليومية : إن الكاتب حين يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين . . .

ورأيت شيخنا كأنما وضع له رئيس التحرير مثل البارود فى دماغه ثم أشعله ، فأردت أن أمازحه وأسرّي عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان ، جاءنى بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كتب فى عرض دعواه أن جار بيته غصبته قطعة من أرض فئائه الذى تركه حول البيت ، وبني فى هذه الرقعة داراً ، وفتح لهذه الدار نافذات ، فهو يريد من القاضى أن يحكم برد الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبينة فوقها ، و . . . و . . . وسد نافذاتها المفتوحة ! . . .

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب فى الصحافة ؛ كثرت ألفاظه ونقص عقله ، « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر بالأدب ونقصت القرينة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ،

كان حقه في أغاب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض * والأدب وحده هو المتروك في هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه ؛ إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ ، وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليومية كبقعة الصدأ على الحديد : تأكل منه ولا تعطيه شيئاً . ثم يأبى من تترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نعوت العبقرية إلا نحسب نفسه ووضعه تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكلفك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار .

وقد يكون الرجل في كتابته كالعامية ، فإذا عبته بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب ، قال : هذا ما يلائم القراء ، وقد يكون من أكذب الناس فيما يدعى لنفسه وما يهول به لتقوية شأنه وإصغار من عداه ، فإذا كذبه من يعرفه قال : هذا ما يلائمني ، وهو واثق أنه في نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعاوى كما تملأ الساعة ، فإذا هم جميعاً يقولون : تلك تلك تلك

فن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملاحون والمعرّب ، كلّه سواء وكله بياناً * وكان المكى طيب الحجيح ، ظريف الحيل ، عجيب العلل ، وكان يدعى كل شيء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق ؛ وإذا جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه ، قلت له مرة : أعلمت أن الشاري حدثني أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه شمس ، كأنه نخبه أن عنده من الجند بعدد ذلك ، وأن المأمون بعث له بديك أعور ، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب ؟

قال : فإن هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار في الآفاق . . . * * *

* هذه الجملة من كلام الجاحظ .

* * * وهذا من كلام الجاحظ .

ثم قال أبو عثمان : وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف في تاريخ الأدب اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون ، فنظر عمك في هذا الذي ادعاه ، فإذا الرجل على التحقيق كالذي يزعم أنه اكتشف أمريكا في كتاب من كتب الجغرافيا^(١) . . .

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور في الصحف ، لا بأنه صدق ، ولكن بأنه « مكتوب في الجريدة » . . . فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب — متى كان مغروراً — أنه إذا تهدد إنساناً فما هدد به بصفحته ، بل بحكومته . . . نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة ؛ ولكن ويحك : إن ثلاث ذبابات ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا ! . . .

* * *

وضحك أبو عثمان وضحكت ! فاستيقظت .

(١) يعني زكي مبارك في دعوى معرفته أول من اخترع فن المقامات .

أبو حنيفة ولكن بغير فقه ! (١)

قد انتهينا في الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديباً ، وكل من عد نفسه أديباً جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول في مذهبه ويرد على مذهب غيره .

فعندنا اليوم كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة ، منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألفاظ وأدب الحياة ، والحمود والتحول ، والقديم والجديد ، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعي ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث ؛ أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدباً إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابع من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ، إذ لا يجرى الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غير تقليد ، وتقليد غير اتباع ، واتباع غير تسليم ؛ فلا بد من الرأي ونبوغ الرأي واستقلال الرأي حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحى الجالس في كل حى هو مجموعته العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول في الوجود الإنسانى يرجع بالحياة إلى ذرات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى مثل ما أبدعت ذرات الخليفة في تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلد الإلهى * .

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربى فى عصرنا أو ينتهى ؛ وهل

(١) وهذا فصل من المعركة الأخيرة بينه وبين زكى مبارك .

* استوفينا هذه المعانى فى مقالة « الأدب والأديب » .

تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينقض ، وهل هو من قدمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو في مكان بينهما ؟

هذه معان لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلاً أمرٌ فيه بعظام مبعثرة في ثيابها لا في قبورها . . . ولكني موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادى بين الأذواق والإسفاف بمنازع الرأي والخلط والاضطراب في كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل في الأسلوب أسلوبٌ تلغرافي ، وفي الفصاحة فصاحة عامية ، وفي اللغة لغة الجرائد ، وفي الشعر شعر المقالة ؛ ونجمت الناجمة من كل علة ويُزَيَّن لهم أنها القوة قد استحسنت واشتدت ، ونازع الأدب العربي إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دعيّاً في آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوءُ النظر له على حين يؤتَى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسنِ الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه .

أين تصيب العلة إذا التمسها ؟ أفي الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم في القائمين عليه في مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبههم ؟

إن تُقل إنها في اللغة والأساليب والمعاني والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البليّة من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبت واتسعت ومادّت العصور الكثيرة إلى عهدنا فلم تؤت من ضيق ولا جمود ولا ضعف ثم هي مادة ولا عليها ممن لا يحسن أن يضع يده منها حيث يملأ كفه أو حيث تقع يده على حاجته .

وإن قلت إن العلة في الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألتك : ولمَ قصرُوا عن الغاية . ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح في كتبه مقام أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتّاباً وشعراء ، ومع انفساح الأفق العقلي في هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء ، حتى لتجد عقول نوابغ القارئات الخمس

تُحْتَقَبْ فِي حَقِيْقَةِ مِنَ الْكُتُبِ ، أَوْ تُصَنَّدَقُ* فِي صُنْدُوقٍ مِنَ الْأَسْفَارِ .

كَيْفَ ذَهَبَ الْأَدْبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَرَبِيَّةِ نَشْراً مُتَبَدِّدِينَ تَعْلُو بِهِم الدَّائِرَةُ وَتَهِيْطُ ، فَكُلُّ أَعْلَى وَكُلُّ أَسْفَلٍ ؟ هَذَا فُلَانٌ شَاعِرٌ قَدْ أَحَاطَ بِالشَّعْرِ عَرَبِيَّةً وَغَرِيبَةً وَهُوَ يَنْظُمُهُ وَيَفْتَنُ فِي أَغْرَاضِهِ وَيَوْلِّدُ وَيَسْرِقُ وَيَنْسَخُ وَيَمَسِّخُ ، وَهُوَ عِنْدَ نَفْسِهِ الشَّاعِرُ الَّذِي فَقَدَتْهُ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تَارِيخِهَا وَوَقَعَ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِيَّةِ وَحْدَهَا ابْتِلَاءً وَحَنَةً ؛ وَهُوَ كَكُلِّ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي لُغَاتٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ لَظَهَرُوا نَجْوِماً ، وَلَكِنَّ الْعَرَبِيَّةَ جَعَلَتْ كُلَّاهُمْ حِصَاةَ بَيْنِ الْحَصَى ، وَتَقْرَأُ شَعْرَهُ فَإِذَا هُوَ شَعْرٌ تَتَوَهَّمُ مِنْ قِرَاءَتِهِ تَقْطِيعَ ثِيَابِكَ ، إِذْ تَجَاذِبُ نَفْسُكَ لِتَفْرَ مِنْهُ فَرَاراً .

وَهَذَا فُلَانٌ الْكَاتِبُ الَّذِي وَالَّذِي . . . وَالَّذِي يَرْتَفِعُ إِلَى أَقْصَى السَّمَاوَاتِ عَلَى جَنَاحَيْ ذَبَابَةٍ .

وَهَذَا فِرْعَوْنُ الْأَدَبِ الَّذِي يَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ! وَهَذَا فُلَانٌ وَهَذَا فُلَانٌ . . .

أَيْنَ يَكُونُ الزَّمَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ وَأَمَنَاهُمْ لِيَعْرِفُوا مَا هُمْ فِيهِ كَمَا هُمْ فِيهِ ، وَلِيَضْبُطُوا آرَاءَهُمْ وَهَوَاجِسَهُمْ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ حِسَابَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ لَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ فَالْوَحْدَةُ مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ وَإِنْ تَوَهَّمُوا مِائَةَ وَتَوَهَّمَهَا بَعْضُهُمْ أَلْفًا أَوْ أَلْفَيْنِ ، وَمَتَى قَالَ النَّاسُ : غَلَطُوا ، فَقَدْ غَلَطُوا ، وَمَتَى قَالُوا : سَخَفَاءُ فَهُمْ سَخَفَاءُ .

وَأَيْنَ الزَّمَامُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ انْطَلَقُوا كَأَنَّهُمْ مَسْخَرُونَ بِالْجَبْرِ عَلَى قَانُونٍ مِنَ التَّدْمِيرِ وَالتَّخْرِيبِ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا طَبِيعَةُ مَكَابِرَةٍ لَا إِقْرَارَ مِنْهَا ، بَاغِيَةٌ لَا إِنْصَافَ مَعَهَا ، نَافِرَةٌ لَا مَسَاغَ إِلَيْهَا ، مَتَهَمَةٌ لَا ثِقَةَ بِهَا ؛ طَبِيعَةٌ يَتَحَوَّلُ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا إِلَى أَثَرٍ مِنْهَا كَمَا يَتَحَوَّلُ مَاءُ الشَّجَرِ فِي الْعُودِ الرُّطْبِ الْمُسْتَعْلِ إِلَى دِخَانٍ أَسْوَدَ ! .

* * *

يَرْجِعُ هَذَا الْخَلْطُ فِي رَأْيِي إِلَى سَبَبٍ وَاحِدٍ : هُوَ خُلُو الْعَصْرِ مِنْ إِمَامٍ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ يَلْتَقِي عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ وَيَكُونُ مِلَّةُ الدَّهْرِ فِي حُكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَلِسَانِهِ وَمَنَاقِبِهِ وَشِئَانِهِ ؛ فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِمَامِ يُخَصَّصُ دَائِماً بِالْإِرَادَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إِلَّا النَّصْرُ وَالْغَلَبَةُ وَالَّتِي تَعْطَى الْقُوَّةَ عَلَى قَتْلِ الصَّغَائِرِ وَالسَّفَاسِفِ ؛ وَهُوَ إِذَا أُتِيَ فِي الْمِيزَانِ عِنْدَ

اختلاف الرأي ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثَمَّ تنهياً قوة الترجيح ويتعيّن اليقين والشك ؛ والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجح ولا يعين .

ومكانة هذا الإمام تحدُّ الأمكنة ، ومقداره يزنُ المقادير ، فيكون هو المنطق الإنساني في أكثر الخلاف الإنساني : تقوم به الحجة ، فتلزم وإن أنكرها المنكر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المِصرُّ على غيرها ، لأن بالإجماع على القياس يبين التطرفُ في الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضَرَبَ ضربَ المعصية بالطاعة ، والزيف بالاستقامة ، والعناد بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وسَمُّه ، ويزيغ مَنْ يزيغ وفيه صفته ، ويصِرُّ المكابر واسمُه المكابر ليس غير ، وإن هو تكذَّب وتأوَّل ، وإن زعم ما هو زاعم .

ولكل التواعد شواذٌ ولكن القاعدة هي إمام بابها ؛ فما من شاذٍّ يحسب نفسه منطلقاً محلياً ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذٌ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ، فيكون شأنه في نفسه بما تعيّن هي له على مسكّرهته ومحبته .

والإمام ينيث في آداب عصره فكراً ورأيًا ، ويزيد فيها قوة وإبداعًا ، ويزين ماضيها بأنه في نهايته ، ومستقبلها بأنه في بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى ؛ لأن هذا الإمام إنما يُختار لإظهار قوة الوجود الإنساني من بعض وجوهها وإثبات شموها وإحاطتها كونه آية من آيات الجنس بأنس الجنس فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ؛ ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة التي لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفي القوة التي لا يخالف عندها مبطل بعناد ، وفي الشريعة التي لا يروغ منها متعسف بحيلة ؛ ولن يضل الناس في حق عرفوا حده ، فإن ما وراء الحد هو التعدي ؛ ولن يخطئوا في حكم أصابوا وجهه فإن ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء .

وقد طبع الناس في باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرَد بالكمال

كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السمّة ؛ ولا بدّ لهم ممن يمتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مرشدهم ومصالحهم ، فالإمام كأنه ميزان من عتق . فهو يتسلط في الحكم على الناقص والوافي من كل ما هو بسبيله ، ثم لا خلاف عليه ، إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلةً بعد منزلة .

هو إنسانٌ تتخبر بعض المعاني السامية لتظهر فيه بأسلوب عملي ، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها ، مشروحة بهذا المثال نفسه ، فالله يُرَدُّ الأمرُ في ذلك ويُسَلِّطُ على سبيله يُنْهَجُ ، فما من شيء يتصل بالفضل الذي هو إمام فيه ، إلا كان فيه شيء منه ، وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها ، لأنه بفنه حكم عليها ، فيكون قوة وتبنيهاً ، وتسهلاً وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ؛ ويكون رجلاً وإنه لمعان كثيرة ، ويكون في نفسه وإنه لفي الأنفس كلها ، ويعطى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه خلقت من الحب طريقه على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين ؛ فلا بد على هذه الأرض من ضوء في لحم ودم ، وبعض معاني الخليفة في تنصيبه كبعض معاني « الشهيد المجهول » في الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة ، وصمت يتكلم ، ومكان يوحى ، وقوة تستمد ، وانفراد يجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة في شرف الحياة والموت ؛ بل الحرب خبوة في حفرة ، والنصر مغطى بقبر ؛ بل المجهول الذي فيه كل ما ينبغي أن يُعلم .

* * *

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ كل من يزعم نفسه إماماً هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه ! .

ولعمري ما نشأ قوهم « الجديد والقديم » إلا لأن ههنا موضعاً خالياً يُظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تناز من جهة ، فنذ مات الإمام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، ونبأت رعوس ، وزاغت طبائع وكأنه لم يمض رجل ، بل رُفِعَ قرآن .

الأدب والأديب^(١)

إذا اعتبرت الخيالَ في الذكاء الإنساني وأوليته دِقَّةَ النظر وحُسْنَ التمييز ، لم تجده في الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهية بوسائلٍ عاجزةٍ منقطعة ، قادرةٍ على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق .

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول في أول حياتها ، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها ، والمسدَّدةُ في طريقه مدةَ حياتها ، لا يمكن أن يتقررَ في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي ؛ فهي لا تتعاطى الموجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فُرِّغَ منه فما يُبدَأُ ، وتمَّ فما يُزاد ، وخالدٌ فلا يتحوَّلُ ؛ بل لا تزال تضرب ظنَّها وتُصَرِّفُ وهما في كل ما تراه أو يتسلَّلُج في خاطرها ، فلا تَبْرَحُ تَسْتَلَمَحُ في كل وجود غيبا ، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه . وتجري دأباً على مجاريها الخيالية التي تُوثِّقُ صلتها بالمجهول ؛ فمن ثم لا بدَّ في أمرها مع الموجود مما لا وجود له ، تتعلق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء — مع المعاني التي له في الحق — من المعاني التي له في الخيال ؛ وها هنا موضعُ الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية ، فكلاهما طبيعيٌّ فيها كما ترى .

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بد معه من البيان ؛ لأن النفس تخلُق فتُصوِّر فتُحسِّن الصورة ؛ وإنما يكون تمام التركيب في معرَّضه وجمال صورته ودقَّةَ لمحاته ؛ بل يَسْتَزِلُّ البيانُ من المعنى الذي يَكْسِبُه منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئاً مُسمى أو متميزاً بنفسه ، فلن تكونَ بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً ، وما بُدُّ من أن تستوفى كمالَ عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها .

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيتَ

فى الثمرة ونضجها ؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال فى شىء جداله هو من فائدته ، وفائدته من جماله ؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره ، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير ؛ وصار الفرقُ بينَ حالته كالفارق بين الفاكهة إذْ هى بابٌ من النبات ، وبين الفاكهة إذْ هى بابٌ من الحذر ؛ وهذا كان الأصلُ فى الأدبِ البيانِ والأسلوبِ فى جميع لغات الفكر الإنسانى ، لأنه كذلك فى طبيعة النفس الإنسانية .

فالغرضُ الأولُ للأدبِ المبين أن يَخْلُقَ للنفس دنيا المعانى الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة ، وأن يُسَلِّقَ الأسرارَ فى الأمور المكشوفة بما يتخيَّلُ فيها ، ويردُّ القليلَ من الحياة كثيراً وافيّاً بما يضاعفُ من معانيه ، ويتركَ الماضى منها ثابتاً قارراً بما يخلدُ من وصفه ، ويجعلَ المؤلمَ منها لذا خفيفاً بما يَسِّثُ فيه من العاطفة ، والمملولَ ممتعاً حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة ؛ ومدارُ ذلك كله على إيتاء النفس لذّة المجهول التى هى فى نفسها لذّةٌ مجهولة أيضاً ؛ فإن هذه النفس طُلعةٌ متقلبةٌ ، لا تبتغى مجهولاً صرفاً ولا معلوماً صرفاً ، كأنها مُدْرَكةٌ بفطرتها أن ليس فى الكون صريحٌ مُطلقٌ ولا خفى مطلقٌ ؛ وإنما تبتغى حالةً ملائمةً بين هذين ، يثور فيها قلقٌ أو يسكن منها قلق .

وأشواقُ النفس هى مادّةُ الأدبِ ؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وَضَعَ المعنى فى الحياة التى ليس لها معنى ، أو كان متّصلاً بسرّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يوبى إليه من قريب ، أو غيّرَ للنفس هذه الحياةَ تغييراً يحىء طباقاً لغرضها وأشواقها ؛ فإنه كما يترَحَّلُ الإنسانُ من جوٍّ إلى جوٍّ غيره ، ينقله الأدبُ من حياته التى لا تختلف إلى حياةٍ أخرى ، فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان ؛ حياةٌ كَمَلَّتْ فيها أشواقُ النفس ، لأن فيها الذاتَ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف ؛ ولعمري ما جاءت الجنةُ والنارُ فى الأدبانِ عِبَساً ؛ فإن خالقَ النفس بما ركّبه فيها من العجائب ، لا يحكمُ العقلُ أنه قد أتمَّ خلقها إلا بخلق الجنةِ والنارِ معها ؛ إذ هما الصورتان الدائمَتان المتكافئتان لأشواقها الخالدةِ إن هى استقامت مُسدّدةً أو انعكستُ حائلةً .

وقد صبحَ عندى أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقها الخالدة فتحسُّ وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى — إلا في ساعات وفترات تنسلُّ فيها من زمنها وعيشها وفنائها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجة وراء الزمان والمكان ؛ فإذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت إلى الجنة واسترّحت الخلد ؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة : حبيب فائنٍ معشوقٍ أُعطيَ قوة سحر النفس ، فهي تنسى به ؛ وصديق محبوب وفي أوقٍ قوة جذب النفس ، فهي تنسى عنده ؛ وقطعة أدبية آخذة ، فهي ساحرة كالطيب أو جاذبة كالصديق ؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع ، ففيه من كل شئ شئ .

وهذه كلها تُنسى المرء زمنه مدةً تطول وتقصّر ؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الإنسانية تُصيب منها أساليب روحية لاتصالها هنيةً بالروح الأزلّي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية ؛ ومن ثم نستطيع أن نقرّر أن أساس الفن على الإطلاق هو ثورة الخالد في الإنسان على الفاني فيه ؛ وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها يمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير — هو معنى الأدب وأسلوبه .

ثم إن الاتساق كوالخير والحق والجمال — وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها — أمورٌ غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والزراع والشهوات ؛ هن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه ، وهو عالمٌ أركانُه الاتساق في المعاني التي يجري فيها ، والجمال في التعبير الذي يتأدّى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه ، والخير في الغرض الذي يُساق له ، ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ، ولا معيار أدق منها إن ذهبَ تعتبره بالنظر والرأى ؛ ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفن ، ويحيى التعبير مزيداً فيه الجمال ، وتمثّل الطبيعة الجاملة خارجةً من نفس حيّة ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقها الموسيقي ؛ وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهدّب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى ، الذي هو السر في ثورة الخالد من الإنسان

على الفانى ، والذي هو الغايةُ الأَخيرةُ من الأدب والفنِّ معاً ؛ وبهذا يهَسَّبُ لك الأدب تلك القوةَ الغامضةَ التى تتسع بك حتى تشعرَ بالدنيا وأحداثها مارةً من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها ؛ وذلك سرُّ الأديب العبقريِّ ؛ فإنه لا يرى الرأى بالاعتقاب * والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحسُّ به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُسلِّمُه إلهاماً ؛ وليس يُؤاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمرُّ فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر ، فيحس أثرها فيه فيسلِّم ما يُسلِّم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هى النافذةُ من خلاله .

ولو أردتَ أن تعرفَ الأديبَ من هو ، لما وجدتَ أجمع ولا أدقَّ فى معناه من أن تسميه الإنسان الكونى ، وغيره هو الإنسانُ فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصيةُ الكون الشامل ، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدل الساء بما فى صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهنُ الحياةُ بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لا حدَّ له ، والاتساع الذى كلُّ آخر فيه لشيء ، أولٌ فيه لشيء .

وهو إنسان يُدِّلُه الجمالُ على نفسه ليدلَّ غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأضيفَ إليه فى إحساسه قوَّةُ إنشاء الإحساسِ فى غيره ؛ فأساس عمله دائماً أن يزيد على كل فكرة صورةً لها ، ويزيد على كل صورة فكرةً فيها ، فهو يُبدعُ المعانى للأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ، ويبدع الأشكال للمعانى المجردة فيوجد لها فى الحياة ، فكأنه خلِّقَ ليتلقى الحقيقةَ ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفنى ؛ وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة ، كأنما أوجدتهم الحكمة لتنتقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكون العظيم يمرُّ فى أدمغتهم ليحقق نفسه .

ومشاركةُ العلماء للأدباء توجبُ أن يتميز الأديبُ بالأسلوب البياني ، إذ هو كالطابع على العمل الفني ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوب هو تخصيصٌ لنوع من الذوق وطريقة من الإدراك ، كأن الجمال يقولُ بالأسلوب : إن هذا هو عملُ فلان .

وفصلٌ ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكرة ، ولكن الأديب فكرةٌ وأسلوبها ؛ فالعلماء هم أعمالٌ متصلة متشابهةٌ يشارُ إليهم جملة واحدة ، على حين يقال في كل أديب عبقرى : هذا هو ، هذا وحده ؛ وعلمُ الأديب هو النفسُ الإنسانيةُ بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار .

وإذا رأى الناس هذه الإنسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه ، فالأديب العبقرى لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها . وكأنما أمرها في (معمله) ، أو كأن الله - سبحانه - دعاه ليرى فيها رأيه . . . وبذلك يحىء النابغ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الإنسانية ، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة ؛ وأساسه على كل هذه الأحوال النقد ، ثم النقد ، ولا شيء غير النقد ؛ كأن القوة الأزلية تقول لهذا الملهم : أنت كلمتى فقبل كلمتك . . .

* * *

وترى الجمالَ حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ؛ وها هنا يتأله الأديب ؛ فهو خالقُ الجمال في الذهن ، والممكنُ للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الإنسانية بإضافة الصور الفكرية الجميلة إليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيوانى .

وإذا كان الأمر في الأدب على ذلك ، فباضطراب أن تتهدّب فيه الحياةُ وتتأدّب ، وأن يكون تَسَلُّطُهُ على بواعث النفس دُربةً لإصلاحها وإقامتها ، لا لإفسادها والانحراف بها إلى الزيف والضلالة ؛ وباضطراب أن يكون الأديبُ مكلفاً تصحيح النفس الإنسانية ، ونَقْيَ التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود ، ونقّي الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودأباً إلى فوق ! .

ولنما يكلف الأديبُ ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التمييزُ وتقدم النظر وتسقُطُ الإلهام ، ولأن الأصل في عمله الفني ألا يبحث في الشيء نفسه ، ولكن في البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سره ؛ ولا يُعنى بتركيبه ، بل بالجمال في تركيبه ؛ ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقهم ، وألوان معاشهم ، وأحلامهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاوبهم ومراشدهم ؛ يُسدّد على كل ذلك رأيه ، ويُجِيل فيه نظره ، ويخلطه في نفسه ، ويُنفِذه من حواسه ، كأنما له في السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه ولي الحكم على الجزء الخفيّ في الإنسان يقوم على سياسته وتدييره ، ويَهْدِيهِ إلى المثل الأعلى ، وهل يُخلَقُ العبقريُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يقدر على الذي هو أكملُ والذي هو أبعدُ ، حتى لا ييأس العقل الإنساني ولا ينخدل ، فيستمرّ دائباً في طلب الكمال والإبداع اللذين لا نهاية لهما ؟

فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائعُ الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض ، وإذا هي دائبةٌ في مَسْحَقِ الشخصية الإنسانية ، تاركةٌ كلَّ حيٍّ من الناس كأنه شخصٌ قائمٌ من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فإذا تلجّج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العالية إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والإنسانية والإيمان والفضيلة ، وقامت حارسةٌ على ما ضيع الناسُ ، وسخرتُ في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبى منه ، ولا يستوى لها أن تغمض فيه ؛ ونُقِلَت الإنسانيةُ كلها ووضعتُ على مجاز طريقها أين توجهتُ ، فتأكد الأمر فيها ، ووُصِّلَ بها ، وعلمت أنها من خالصةِ الله ، وأن رسالتها للعالم هي تقريرُ

الحب للمتعادين ، وبسطُ الرحمة للمتنازعين ، وأن تجمعَ الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته ، وتصلَ بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها ، وتُشعرهم بالحكمة وهي لا تتنازعُ في مناحيها : فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين : كلاهما يُعينُ الإنسانيةَ على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ؛ والدين يوجه الإنسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ؛ وذلك وحى الله إلى الملك إلى نبيٍّ مختار ، وهذا وحى الله إلى البصيرة إلى إنسانٍ مختار .

فإن لم يكن للأديب مثلاً أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله ، فهو أديبٌ حالة من الحالات ، لا أديبٌ عصر ولا أديبٌ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصرٍ هم الأرقام الإنسانية التي يُلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته . . .

ولا يخدعك عن هذا أن ترى بعض العبقرين لا يؤتى في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغل فيها ، ويتملأ بها ، ويكون منها على ما ليس عليه أحد إلا السفلة والحشوة من طعام الناس ورعاعهم ؛ فإن هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهى ، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مما هي في الفضائل ؛ بل هم عندى كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهى أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المبتلى المشوَّ المتحطَّم الذى ينهك بصورته أن تكون مثله ؛ ولهذا الحقيقة القوية في أثرها — حقيقة الأمر بالنهى — يعمد النوايع في بعض أديبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذى يصورونه ، أو الإحالة في الحادثة التي يصفونها ؛ فينتهى الراهب التقيُّ في القصة ملحداً فاجراً ، وترثدُ المرأةُ البغيُّ قديسةً ، ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم ؛ إلى كثير مما يجرى في هذا النسق ، كما تراه لأناطول فرانس وشكسبير وغيرهما ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ، ولكنه أسلوب من الفن ، يقابله أسلوب من الخلق ، ليبعد أسلوباً من التأثير ؛ وكل ذلك شاذ

معدود ينبغى أن ينحصر ولا يتعدى، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقة طارئة على النفس ، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها .

والشرط فى العبقرى الذى تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلو بالرديلة . . . فى أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهياً فى حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأن الرذائل هى اختارت منه مفسرها العبقرى الشاذ الذى يكون فى سمو فنه البيانى هو وحده الطرف المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة ، فيصنع الإلهام فى هذا وفى هذا صنعه الفنى بطريقة بديعة التأثير ، أصلها فى أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفى أديب الرديلة ما يقوده ويندفع إليه ، كأن منهما إنساناً صار ملكاً يكتب ، وإنساناً عاد حيواناً يكتب . . .

وإذا أنت ميّلت بين رديلة الأديب العبقرى فى فنه ، ورديلة الأديب الفسّل الذى يتشبه به — فى التأليف والرأى والمتابعة والمذهب — رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه ألمه ، وذلك دموعه ألمه وشعره ؛ وفى كتابة هذه الطبقة من العبقرين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبى ، وأن اللذة به هى علامة الحياة فيه ؛ إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية ، شاهدُها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست فى الحقيقة إلا نكتة نفسية لاهتياج البواعث فى نفوس قرائها ، وأنها على ذلك هى أيضاً مسألة من مسائل الإنسانية مطروحة للنظر والحل ، بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل .

* * *

واللذة بالأدب غير التلهى به واتخاذها للعبث والبطالة فيجىء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون ملكها وسخفاً ومضيعة ؛ فإن اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغته ومعانيه وتناولها الكون والحياة بالأساليب الشعرية التى فى النفس ، وهى الأصل فى جمال الأسلوب ؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كلّه كسائر ما ركب فى طبيعة الحى ، إذ يحس الذوق لذّة الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعى استمرار التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها ؛ أما التلهى فيجىء من سَخف الأدب ؛ وفراغ معانيه ، ومؤاناته الشهوات الحسية ،

والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون أدب الشعب ولا الإنسانية بل أدب فئة بعينها وأحوالها ؛ فإن أديب صناعته أو أديب جماعته ، غير أديب قومه وأديب عصره ، أحدهما إلى حد محدود من الحياة ، والآخر عمل جامع مستمر متفنن ؛ لأن عمله الأدبي هو وجوده ، وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له : اكتب

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف ، أنه إذا كانت الدولة للشعب ، كان الأدب أدب الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان عيشه ، وزخارف الأدب بذلك وتنوع وافتن وبني على الحياة الاجتماعية ؛ فإن كانت الدولة لغير الشعب ، كان الأدب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداينة والمبالغة الصناعية والكذب والتدليس ، ونصيب الأدب من ذلك وقل وتكرر من صورة واحدة ؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الإحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله ، إلى الإحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله ؛ أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه ، فيصبح أدبه أشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويحيى حتى يمل ذهابه ومجيئه .

والعجب الذي لم يتنبه له أحد إلى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي قديماً وحديثاً ، أنك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم ! .

فإذا أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطاً فيه ، ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطباع ، وبعضمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق ، وبرقة البيان صورة لركة النفس ، وبدقته المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة إلى الحياة ؛ ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس ، ضابطة لها المقاييس التاريخية ، مُحْكَمَة لها الأوضاع الإنسانية ، مشرطة فيها المثل الأعلى ، حاملة لها النور الإلهي على الأرض . . .

... وإذا أردت الأدب الذي يُنشئ الأمة إنشأً سامياً ، ويدفعها إلى المعالي

دفعاً ، ويردُّها عن سَفَاسِيفِ الحياة ، ويوجِّهها بدقَّةِ الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة ، ويسدِّدها في أغراضها التاريخية العالية تسديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرَّر المحكم ، ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسها حزمًا وأبصارها نظراً وعقولها حكمة ، ويسقُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية . . .

. . . إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآن الحكيم قد وَضَعَ الأَصْلَ الحَيَّ في ذلك كله ، وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدَّساً ، وفترَضَ هذا التقديس عقيدة ، واعتَبَرَ هذه العقيدة ثابتةً لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يَحْدُوا بالأدب حَدُّوه ، وحسبوه ديناً فقط ، وذهبوا بأديهم إلى العبث والمجون والنفاق ؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخٍ محتَضِرٍ بالعلل القاتلة ، ذاهب إلى الفناء الحتم ! .

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يُسْتَخْرَجُ منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة .

ولا يستخرجُ منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأديب هو مَنْ كان لأُمته وللغُتْها في مواهبِ قلمه لَقَبٌ من ألقاب التاريخ .

سر النبوغ في الأدب^(١)

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرُّ في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصِرُّهُ وَيُدِيرُهُ على أغراضه ، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا ، وأدبناها بمعنًى مما بين الإنسان والحيوان — لكنت في العبارة هكذا : ما أنت أيها الأبله فيما بيني وبين الحقيقة المدبَّرة للكون إلا نبيُّ مرسل صلى الله عليك وسلم . . . ذلك أن التركيب الذي يميِّزُ به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمع به على خصائصه فأفرغه الله في جلده ، ووضع في رأسه ذلك القفل الإلهي الذي حبسه في باب الاضطراب من غرائره البهيمية ، وأقفل به على الدنيا العقلية المتسعة بينه وبين الإنسان ؛ فالكون عنده لغوٌ كله ليس فيه إلا حقائق يسيرة ، ثم لا تفسير لهذه الحقائق إلا من طبيعته هو ، فجلبده أدق تفسير فلكي . . . للشمس والنور والهواء وما يحيى منها ، وجوفهُ أصبح تعبير جغرافي . . . للكرة الأرضية وما تحمل ، وجوعهُ وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير في العالم ! .

فأساس الذكاء عالياً ونازلاً هو التركيب الطبيعي لا غيره : لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت للدنيا صورة أو نقصت ؛ فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان ، وما نشهد من ذلك في أحوال الناس ، من الفطنة إلى الذكاء* إلى الأملعية إلى الجهيزة إلى النبوغ إلى العبقرية ؛ وهي طبقات من ألفاظ اللغة لأحوال قائمة من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ .

ومما يسجد له العقل الإنساني سجدة طويلة إذا هو تأمل في حكمة الله ومراً يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — أن هذا الوجود الذي

(١) المقتطف : يناير سنة ١٩٣٣

* عندنا أن الفطنة في اللغة ، دون الذكاء ؛ تقابل ما عند الحيوان من التنبه ؛ والذكاء ؛

والتوقد والبهيان .

يحمل أسرار الألوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الأبدى ، وأن الأرض التي تحمل أسرار الإنسانية ، هي كرة طائرة فيما مُدَّ لها من الوجود ، وأن كل حي فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هي رأسه . وأن الوجود من كل حي هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم إلا كما يرى ويحس ويفهم في هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدرج إلى الكبير إلى الأكبر ، وينزل إلى الصغير إلى الأصغر ؛ ثم لا معنى لما صعد إلا مما نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء إلى السر الحقيقي ، أن العقل الإنساني فهم كل شيء ولم يفهم شيئاً . . .

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدرج ؛ فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس في الذكاء والعقل كالوجود المحيط ، وأما آخر فكالشمس ، ثم غيرهما كالأرض ، ثم الرابع كالإنسان . ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ؛ ولا علة لكل هذا إلا ما هيأت الأقدار « بأسبابها الكثيرة » ، لكل إنسان في تركيب دماغه في نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ، وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشعبها : ثم ما يكون من قبيل العلاقات بين هذه الفروع التي هي لكل رأس كرمل الكرة الأرضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التي تتخلق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم .

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد ، كما ينبعث العملاق المارد بعظامه الممتدة وألواح المشبوحة من غدته النخامية لا غيرها .

فالدكي من ذكي مثله إنما هو كالجيش من جيش بإزائه : يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند ، وصفاتهم من القوة والضعف ، وأحوالهم من النظام والاختلال ، وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ، ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم ، وما اكتشفهم من صعب أو سهل ، وما تظاهر عليهم من الحوادث والأقدار ، ثم التوفيق الذي لا حيلة فيه إن وقع في حصاة أحدهما واستقر ، أو وقع هوناً وطار ، للآخر ؛ وبنحو من هذا كله تكون المفاضلة إذا وازنت

بين اثنين من النوايع فى حقيقة نبوغهما .

فالنابغة خلقت من خالقهِ ، يُصنع كما ترى بأقدار الله ؛ إذ هو قَدَرٌ على قومه وعلى عصره ، وهو من الناس كالورقة الراجعة من ورق السحب (اليا نصيب) : سَلَّةٌ يد جعلتها مالا وتركت الباقيات ورقًا وأحدثت بينهما الفرق الذهبى ؛ وبهذا لا يستطيع العالم أن يزيد الدنيا نابغةً إلا إذا استطاع أن يزيد فى الكواكب نجمًا فيصنعه ؛ وهبهُ صنعهُ من الكهرباء ، فيبقى أن يحمله ، وإذا حملهُ بقي أن يرفعه إلى السموات ؛ وهبهُ قد رفعه فيبقى كل شئ . . . يبقى عليه أن يُقحمه فى النجوم ويرسله فيها يدور وينفلك .

وكما يُخلق النابغة بتركيبه ، تُخلق له الأحوال الملائمة لعمله الذى خص به فى أسرار التقدير عاملا نافعًا ، وإن كانت لا تلائمه هو منتفعًا ؛ فإنه هو غير مقصود إلا من حيث أنه وسيلة أو آلة تكايد ما تحدث فى أعمالها ، ويؤتى لها لتأخذ على طريقة وتعطى على طريقة ؛ وبذلك يرجع التقدير إلى أن يكون العقل النابغة دليلًا للناس من الناس أنفسهم على الخالق الذى هو وحده أمره الأمر .

وإذا كان الجمال يستعلن فى كلام هؤلاء النوايع ، والخيال يظهر فى تعبيرهم ، والحكمة تهبط إلى الدنيا فى تفكيرهم ، والمثل الأعلى هم الداعون إليه ، والأشواق النفسية هم موقظوها ، والعواطف هم المصورون لها ، وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن — إذا كان هذا كله فهذا كله . إنما هو تأكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبرة ، وأنهم أدواتها فى هذه المعانى ؛ فما هى أعمالهم أكثر مما هى أعمالها ؛ وقد يظن الناس أن النابغة يلتمس القوى الحيطه به ليبدع منها ، والحقيقة أنها هى تلتسمه لتبدع به .

وبعد ؛ فالنابغة كأنه إنسان من الفلك ، فهو يخزن الأشعة العقلية ويريقها ، وفى يده الأنوار والظلال والألوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معانى الحياة ؛ ولا تزال الحكمة تلقى إليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها ؛ وتوحى إليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق ؛ والطبيعة خلقها الله وحده ، ولكنها ليست معقولةً إلا بالعلم ، وليست جميلة إلا بالشعر ، وليست محبوبةً إلا بالفن ؛ فالنوايع فى هذا كله هم شروح وتفسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر

بالوجود فنًّا كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لأشياء من هذا الفن ، ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيه التلمس في كتابته وشعره حياة أكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتعرض له أحزان الإنسانية تسأله أن يصحح الرأى فيها باستخراج معناها الخيالى الجميل ، فإنها وإن كانت آلاماً وأحزاناً إلا أن معناها الخيالى هو سرور تحمله للناس ؛ إذ كان من طبيعة النفس البشرية أن تسكن إلى وصف الآلام وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرهما حاملة أثرها الإلهى ، كأن المؤلم ليس هو الألم ، وإنما هو جهل سره .

وبالجملة فالكون يختار فى كل شىء مفسره العبرى ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضاً . . . ثم ليؤتى الناس المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر ؛ ولهذا تصيب الكلام الذى يكتبه النابغة الملهم فى أوقات التجلى عليه كأنه كلام صور نفسه وصاغها ، أو كأنه قطعة من الحس قد جسمت فى أسطر ؛ ولا بد أن تشعرك الجملة أنها قد ذلت وحيا ، إذ لا تجدها إلا وكأن فى كلماتها روحاً يرتعش ؛ ولقد يخطر لى وأنا أقرأ بعض المعانى الجميلة لذهن من الأذهان الملهمة كشكسبير والمتنبى وغيرهما — حين أتأمل اختراع المعنى وإبداع سياقه وضحي البيان عليه وإشراقه فيه وما أتيح له من جلال ظاهر فى شكل حى يلوح بسره فى النفس — يخيّل لى من ذلك أن سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن إنسانى ليخلق تعبيراً عن جلاله فى مثل جلاله .

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعانى الآتية من الإلهام وأجريتَه فى كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم إلا أذهانهم يكدهونها ، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . لرأيت الفرق بين شىء وشىء فى أحسن ما أنت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من غمّل الإنسان بالإبرة والحيط ، وزهرة أخرى قد انبثقت عطيرة ناضرة فى غصنها الأخضر من عمل الحياة بالسماء والأرض .

والعبرى هو أبداً وراء ما لا ينتهى من جمال أوله فى نفسه وآخره فى الجمال الأقدس الذى مسح على هذه النفس الجميلة السامية ؛ فما دام فيه سر العبرية فهو دائب يعمل ممزقاً حياته فى سبحات النور تمزيقاً يجتمع منه أدبه ،

وما أدُّبُه إلاَّ صورة حياته ؛ وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذى هو أبدُع منه ، فلا يزال مثألماً إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله ، ومتألماً إن لم يعمل لأن تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ إلا فى عمل ، وهى طبيعة متعمدة بذلك الجمال الأقدس تمرُّداً العشق فى حامله ؛ إذ هما صورتان لأمر واحد كما سنشير إليه ؛ فكلُّ ما تجده فى نفس العاشق المتدلِّه مما يترامى به إلى جنونه وهلاكه ، تجد شبهاً منه فى نفس العبرى ؛ فكلاهما قانونه من طبيعته وحدها ؛ إذ قد اتخذت حياته شكلها الفنى من ذوقه هو وحده ؛ فليس يتبع طريقة أحد ، بل هو طريقة نفسه * ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع إليه ويستمدُّ منه ، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل فى الطبيعة معنًى ، بل رسولا من الجمال أرسل إليه وحده ، ولا يزال يشعر فى كل وقت أن لدُّ رسائل ورُسلاً هو بعدُ فى انتظارها ، وكلاهما متى ظفر بشيء من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه إلى الظن أنه ربح من الكون ربحاً لم يكن له من قبل ، وكلاهما مهالك بين قيود الحياة التى فى الحياة والواقع ، وبين حريتها التى فى خياله وأمله ، كأن عليه فى سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع أو العيش ؛ وكلاهما متصل بقوة غيبية وراء ما يرى وما يحسُّ تجعل نظرته فى الأشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة فى العينين

* لواجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب فى الأدب من قولهم مدرسة امرئ القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ، ترجمة حرفية لقول الأوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان ؛ فإن الأدب إن كان تقليداً فهو أدب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها ، وإن كان إبداعاً فليس الإبداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والألف على طراز لا يختلف ؛ إنما تنطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة فى الفنون التعليمية ، وفى هذا لا تطلق فى الأدب العربى إلا على فئتين فقط ، هما البصريون والكوفيون ، على أن كلمة مذهب هى المستعملة فى هذا ، وهى أسد منها ؛ إذ يدل المذهب على منحنى اختياره الرأى وذهب إليه ، فكأنه عن تحقيق فى صاحبه وتابعيه ؛ أما تسمية مجموعة الإلهامات التى مرت فى ذهن نابغة من النواين بالمدرسة ، فتسمية مضحكة باردة ؛ إذ الإلهام بصيرة محضة ، وما هو بما يقلد ، وقلمنا تشابه ذهنان على الأرض فى عناصر التكوين التى يأتى منها النبوغ ؛ وقد قال علماؤنا : طريقة فلان وطريقة فلان ؛ فالطريقة هى الكلمة الصحيحة لأن عليها ظاهر العمل وأسلوبه يتوجه بها من يتوجه ، ويقلد فيها من يقلد ، أما سر العمل فهو سر العامل أيضاً ، وهو شيء فى الروح والبصيرة ، وهو فى العبرى أمر لا يستطيعه إنسان وشذ فى إنسان بخصوصه .

الساحرتين المعشوقتين ، فإذا مدَّ عينيه في شيء جميل فهناك سؤال وجوابه ، ووحى وترجمته ، ومرور من يقظة إلى حلم ، وانتقال من حقيقة إلى خيال ! .

غير أن طبيعة العبرى تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد به لا تستقرُّ معه على رضا ، ولا يتبرَّحُ يُسلِّط الإعناتَ عليها ويستغرقها بالهموم السامية ؛ وذلك ألم الكمال القى الذى لا يدرك العبرى غايته عند نفسه ، وإن كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات ؛ فطبيعة كل عبرى تجهد جهدها في العمل لتُخرج به مما يستطيعه الناس ، فإذا تأتَّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منه وبلغ وأعجز ، اندفعت طبيعته إلى الخروج مما يستطيع هو . . . كأنه خارجٌ عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً ، وكأنه نفسه وفوق نفسه في حال ، وهذا سرُّ حرّيته وسموه ، كما أنه سرُّ أليه وحسبته .

ومن أثر ذلك ما تحسُّه أنت إذا قرأت للأديب البالغ التأمُّ صاحب الفكر والأسلوب والذهن الملهَم ؛ فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتمدّد فيها ويهتَرُّ بها طرباً وإعجاباً ، فتقول : لا أحسنَ من هذا ! ثم تؤمل مع ذلك أن تجد منه هو أحسن من هذا . . . كأنه وإن تناهى إلى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية ؛ وهذا غريبٌ ، ولكن لا دليل على العبرية إلا الغرابة دائماً ؛ فهي نظامٌ لا نظامَ فيه ؛ لأنها طريقةٌ لا طريقة لها ؛ وبهذه الغرابة جاءت العبرية كلها أمثلة وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هداية فيها إلاّ من الروح ؛ وإذا كان الفنُّ قدرةً متصرفَةً في الجمال ، فالعبرية قدرة متصرفةٌ في الفن ، والنابعة كالتنكيّس* الذى معه قُوى العقل ويريد أن يزداد على قدره منها . ولكن العبرى كالإلهى الذى معه قوى الروح ويريد أن يزداد الناس على قدرهم بها ؛ وذاك مرجعه الفكر الدقيق الباحث ، وهذا مناطه البصيرة الشفافة النافذة ، وهى أغرب الغرائب في الإنسان ؛ إذ هى الجهة المطلقة في هذا المخلوق المقيّد ، وبها تتسع النفس لإدراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات ، وفيها تتحول الأشياء من نظام الحاسة إلى نظام الروح ، فيُسمع المرئى ويُبصر المسموعُ ، وتخلع الأجسام أنغماً ، وتلبس الأصوات أشكالا ، ويبدو عندها

* من الكيس وهو العقل فيكون عاقلاً ويريد أن يزداد على مقداره .

كل مخلوق وكأن فيه بقية زائدة على خلقه تركت لعمل فيها الكاتب أو الشاعر المحدث* عمل فنه الزائدة على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه ، وهى التى نسميها الإلهام .

وهذه الحاسة هى كذلك من بعض الغرابة ، تكون فى صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه فى الطيور التى تقطع فى جو السماء إلى غاياتها البعيدة من قطب الأرض إلى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ، ولا رسم تنظر فيه ، ولا علم ترجع إليه ؛ وكما تكون حاسة التمييز فى النحل الذى يبنى عسائته على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسة التدبير فى النمل الذى يدبر مملكته بغير علوم الممالك وسياستها ؛ وكثيراً ما يحىء الأديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع وأوصافها بما يغطى على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقري هو عندى فوق العلم ، لا أقول بدرجة ، ولكن بحاسة .

وبالإلهام يكون لكل عبقري ذهنه الذى معه وذهنه الذى ليس معه ؛ إذ كانت له من وراء خياله قوة غير منظورة ليست فيه ، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاء فى جسمه ، هيئة منقاد كأنها تتصرف على اطراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلى عليه .

وليست تتصل هذه القوة إلا بتركيب عصبي تكون فيه الخصائص التى تصلح أن تتلقى عنها ، وهى فى العبقريين خصائص مراضية فى الأعم الأغلب ، بل لعلها كذلك دائماً ، لينسربها العبقري لحالة خفيفة من الموت . . . يحمل بها كدّه وتعبه وما يعانیه من مضض الفكر وثقلته ؛ ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منه ؛ فالتركيب العصبي فى دماغ العبقري إنسان على حياله مع إنسان آخر ، أحدهما لما فى الطبيعة والثانى

* هذه هى الكلمة القديمة التى تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا ، كأن الأشياء تحدثه بأسرارها ، أو تحدثه بها قوة أعلى من القوى الإنسانية ؛ وإذا كان محدثاً فعنى ذلك أنه ينطق عن سمع من الغيب ؛ ومن ذلك ما زعم العرب من أن لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه ، وهو وصف دقيق للعبقرية إلا أنه باللغة الجاهلية ، وقد صححه النبى صل الله عليه وسلم فقال لشاعر حسان : قل وروح القدس معك . وفى كلمة « روح القدس » تنطوى فلسفة العبقرية كلها .

لما وراء الطبيعة ؛ ومن ثمَّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح : يتقد وينطفئ لأنه آلة نور تعرّض لها العلل فتذهب بقدرتها عليه ، وتنضب مادة النور منها ، فكذلك لا تقدر عليه ، وتكون مضيئة فتتطفئ بسبب ليس منها ولا من نورها ، وهى على كل هذه الأحوال لا تملك منها حالة ؛ فبينما العبقري الذى يملأ الدنيا من آثاره النابغة ، تراه فى حالة من أحواله يدأب لا يأتلى فيجد فى العمل ويبدل الوسع فيه ويصبر على مطاولة التعب فى إحكامه ويفيض به فيضاً وكأن فى طبيعته الربيع المتفتح طول أيامه بالجمال - إذا هو فى حالة أخرى يتلكأ ويتربص لا يعمل شيئاً كأنما دخل فى قريحته الشتاء ، وفى ثالثة يتباطأ ويتلبّث فلا يعنُّ له جديد كأنما حبس عنه فكره أو نبا طبعه أو هو فى قيط طبيعته وخمولها وضجرها ؛ ثم لا تمضى على ذلك إلاَّ توهَّ ساعة فإذا على صيفه هواءُ نوفمبر وديسمبر . . . وإذا هو منبعثٌ ملء القوة والنشاط ؛ وربما يأخذ فى غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهياً له المادة ، فلا يكاد يمضى لنحوٍ منه حتى تتناسخ فى ذهنه المعانى فإذا هويكتب مالا يشبه ما كان ابتداءً به ، ويأتيه غيرُ ما كان قد أراده ، كأنما يُلْقَى عليه فهو يستملى ؛ وقد يتبدى معنى ثم يُقَطَّع عنه بطارئٌ من عمل أو حديث ، ثم يُعاوده فإذا معنى آخر وإذا جهةٌ من الفكر هى جهة الإبداع والاختراع فى موضوعه ، وإذا هو إنما كان يُجرُّ بذلك الصارف عن معناه الأول جرّاً ليدعه إلى الأكل والأصح ، وأيقن أنه لو كان استوفى على ما بدأ للأسف وضعف وجاء بما غيرُه أقدرُ عليه ؛ كأن هذه القوة الخفية التى تلهمه تنفّح له أيضاً بأساليبها الغريبة ؛ وقد يكون آخذاً فى عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً إلى ما ينكشف له من أسرار المعانى تُنْقِصُ مِن هُنَا لَتَقِفَافاً من هناك* ، ثم ينظر فإذا هو قد مُسِحَ لوح خياله ، ويطلب المعنى فلا يتاح له ، ويبدأى فلا يزيد إلا كدّاً وعسراً كأنما ذهب إلهامه فى غمضٍ من غموض الأبدية** ؛ وكل من ارتاض بصناعة

* يقال : هوّقف لقف : أى سريع الفهم لما يلقى إليه ، ولكننا استعملناه كما ترى فجاء أشد تمكناً من أصله .

** قالوا : كان الفرزدق وهو فعل مضر فى زمانه يقول : تمر على الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون على من عمل بيت من الشعر ! وذكروا أنه كان من عمله إذا استصعب الشعر عليه أن يركب =

الفكر واستحكمت له عاداتها ومرّ في درجاتها حتى بلغ المكانة التي يستشرف منها للإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لنسبّصات الوحي وانكشافات الغيب ، يعلم أن كل معنى بديع يأتي به في صناعته إنما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتعدد في الكائنات كلها ، ظاهراً في شيء منها بالضوء ، وفي أشياء بالألوان ، وفي بعضها بالحركة ، وفي بعضها بالانسجام ، وفي بعضها بالروعة والفخامة ، وفي غيرها بنسبّة الهيئة ؛ وظاهراً في حالات كثيرة بأنه غير ظاهر ؛ ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذي لا يُسجد هو الذي ينقل الوجود كله إلى نفوس النوابع * متى نبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سرّه ، وإذا همّ النابغة أن يتوضّحه لا يرى شيئاً ، وإذا أراد حجة عليه لم يستطع الجلاء عن بيانه بكلمة . وإذا التمس التعريف به لم يجد إلا ما يشهد له إحساسه وقلبه ، وهذا الذي ينقدح في أذهان النوابع أفكاراً حين يفيض لكل منهم بسبب من قراءة أو مشاهدة أو حالة أو مِرَاس ، هو هو بعينه الذي ينقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يترآى لكل منهم في معنى على وجه جميل ؛ ومن ثم كان النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ، وكان الأدب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر . . .

وهذا العمل في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الأدمغة هو الذي كان يسميه علماء الأدب العربي بالتوليد ، وقد عرفوا أثره ، ولكنهم لم يتنبهوا إلى حقيقته ولا أدركوا من سره شيئاً ؛ وأحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : « إنما نسمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ؛ فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استطراف

= ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً في شباب الجبال وبطون الأودية فينقاد له الكلام ؛ وأخبارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويحتل بها نافرده ، والحقيقة أنها علل من النفس تمارض حالة الإلهام إلى أن تزول وتصفو النفس منها ، أو أسباب تتفق ولا تلهم شيئاً إلى أن تتغير بأسباب ملهمة .

* هناك فرق علمي بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ، ولكننا في هذا الفصل أطلقنا الكلام وقيدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقرى في جماع أمره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذي طريقته مادة السلك وبين الآخر الذي طريقته روح أجو ؛ فكلاهما هو الآخر ولكن أحدهما لابد له من طريق سلوك والآخر طريقه كل الطرق ، أي فوق أن يقيد بطريقة .

لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر — كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن . هذا كلام ابن رشيق ، وليس لهم أحسن منه ، وهو مع ذلك تخليط لا قيمة له^{*} وليس فيه من موضوعنا إلا لفظ التوليد .

وما لا نقضى منه عجباً في تبسُّع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة ، أننا نرى أكثر ألفاظها كالتامة لا ينقصها شيء من دقائق المعنى في أصل وضعها ، على حين لا يفهم علماءها من هذه الألفاظ إلا بعض ما تدل عليه ، كأنها منزلة^{*} تنزيلاً ممن يعلم السر ؛ وقد نبهنا إلى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وأفضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته ، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل ، حتى إن أكثر ألفاظه لتكاد تكون محتومة نزلت كذلك لتفُض^{*} العلوم^{*} والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها^{*} ؛ وكلمة التوليد التي لم يفهم منها العلماء إلا أخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الأخذ التي أشاروا إليها في كتب الأدب — هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيء من أسرار النبوغ ولا تجد ما يسدُّ في ذلك مسدّها أو يحيط إحاطتها ، ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل أسرار المعنى ؛ إذ هي بلفظها نصٌّ على حياة الكون في الذهن الإنساني ، وأنه يتخذ وسيلة لإبداع معانيه ، كما يتخذ سرُّ الحياة بطن الأم وسيلة لإبداع موجوداته ؛ وأن المعاني تتلاقح فيلِدُ بعضها بعضاً في أسلوب من الحياة ، وأن هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر وإخراج سُلالات من المعاني بعضها أجمل من بعض ، كما يكون مثل ذلك في النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وأن النبوغ ليس شيئاً إلا التركيب العصبي الخاص في الذهن ، ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقة سواء هي وطريقة الولادة المُنحِيبة التي مرجعها كذلك إلى تركيب خاص في أحشاء الأنثى ؛ ينمو ، ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز ؛ وإذا كان من كل شيء في الطبيعة

* على هذا المعنى وكشف أسرارهِ في آيات القرآن سببى كتابنا الجديد « أسرار الإعجاز »
قلت وانظر ص ٢٨٩ « حياة الرافي » .

زوجان ، فالكلمة نصٌ على أن أذهان النوايغ أذهان مؤنثة في طباعها التي بنيت عليها ؛ وهذا صحيح ، إذ هي أقوى الأذهان على الأرض في الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعاني الدموع والابتسام أسرع إليها من غيرها ، بل هي طبيعة فيها ؛ وهي وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق ، وعملها في ذلك هو قانون وجودها ؛ ثم هي قائمة على الاحتمال والإعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وإدمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ؛ وكل ذلك من طباع الأثني وهي النابغة فيه ، بل هي النابغة به .

فسر النبوغ في الأدب وفي غيره هو التوليد ، وسر التوليد في نضج الدهن المهيأ بأدواته العصبية ، المتجه إلى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي إلى السماء وأجرامها ؛ وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره ، كما يزيد الماس على الزجاج ، والجوهر على الحجر ، والفولاذ على الحديد ، والذهب على النحاس ؛ فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها ؛ ويتفاوت النوايغ أنفسهم في قوة هذه الملكة ، فبعضهم فيها أكمل من بعض ، وتمدُّ لهم في الخلاف أحوالُ أزمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ؛ وبهذه المباشرة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة ؛ وبذلك تتنوع الأساليب ، ويعاد الكلام غير ما كان في نفسه ، وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل أديب يفهم الدنيا وتتخذ الأشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقي أكثر من حقيقته .

وقد سئل مصوّر مبدع بماذا يمزج ألوانه فتأني ولها إشراقها وجمالها ونبوغ مبانيها وزهو الحياة بها في الصورة ، فقال : إنما أمرجها بمخى . وهذا هذا ، فإن الألوان عنده الناس جميعاً ، ولكن نخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده وسر الصناعة في توليد هذا الدماغ فكأن ألوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولُه العبقري فإنك لتجد الشعر في وزن خاص به يدل عليه ويتم الغرض منه ويضيف إلى معانيه أنقا من الجمال وحسنه وإلى صوته نغمًا من الموسيقى وطربها . فما أشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة أن يكون وزناً شعرياً لهذا النابغة بخاصته . ألا ترى أنك لا تقرأ الأديب الحق إلا وجدت كل

ما يكتبه يجيء في وزن خاص به حتى لا يخرج عنه مرة ، أو تزيد أنت فيه وتنقص إلا ظهر لك أنه مكسور . . . ؟

والذهن العبقري لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقب يستخرج منها أو يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا ويأخذ من ثم ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها إلا أشياءه هو وأمثاله . أما الذهن العبقري فليس له من المعاني إلا مادة عمل فلا تكاد تلبسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتوسع وتتساقط له أشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق ، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالات عدة لأولئك الأذكىاء فنسخها نسخاً وجعلها منه كالشموع الموقدة بلزاء الشمس . فإذا ذهبتَ توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربة المقالة وغرورها لم تستطع إلا أن تقول لها : يا حصاة الميزان في إحدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الأخرى . . . ؟

وقد عرف الأدباء جميعاً أن كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة ، ثم ينقحها ، ثم يهذبها ، ثم يعيدها ، ثم يرجع فيها ، وهكذا خمس مرات إلى ثمان ويقدم ويؤخر من موضع إلى موضع ويحتسبون هذا تحكيكا وتهذيباً ، وما هو منها في شيء ولا أحسب الأوروبيين أنفسهم تنبهوا إلى سر هذه الطريقة ، وإنما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فإذا قرأ كتابة حوّلها فكره وأبدع له منها من غير أن يعمل في ذلك أو يتكلف له إلا ما يتكلف من يهز إليه بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيئاً . فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صوره حتى يجيء المعنى في النهاية وإنه لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدى إلى طريقته وسياق الفكر فيه إذ كان لم يأت إلا محولاً عن وجهه مرات لا مرة واحدة .

فجهاز التوليد متى استمر واستحكم في إنسان أصبح له بمقام ملك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من أقوى الأدلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وإمكانه إذ لا تتصرف به إلا قوة غيبية لا عمل للإنسان فيها ، بل هي تبدع إبداعها وتلقى عليه إلقاءً . وليس كل من تعرض لها أدرك منها ، ولا كل من أدرك

منها بلغ بها ، بل لا بدّ لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكى الدقيق
المصنوع لتلقى أبعد الأمواج الكهربائية وأقواها . وهذه القوة إن أرادت معانى
الجمال أخرجت الشاعر وإن أرادت كشف السر عن الأشياء أخرجت الأديب
وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكيم . فإن كان الأمر أكبر من هذا كله
وكان أمر تغيير الحياة وصبّ أزمان جديدة للإنسانية والثوب بهذه الدنيا درجة
أو درجات فى الرقى - فهنا تكون الوسيلة أكبر من البصيرة ، فليس لها من قوة
الغيب إلا الوحي ، ويكون الغرض أكبر من الشاعر والأديب والحكيم ، فلا يختار
إلا النبى ، ثم لا يوحى إليه إلا وهو فى حسّ لساعة الوحي وحدها ، وهى ساعة
ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح
الخلد ؛ وقريب من ذلك خلوة النابغة بنفسه فى ساعة التوليد ؛ فسر النبوغ
من سرّ الوحي ، لا ريب فى ذلك ، وما أسهل سرّ الوحي وأيسر أمره ، ولكن
فى الأنبياء وحدهم ، وهنا كل الصعوبة . . . « أن نكون أو لا نكون ؛ هذه هى
المسألة » . .

نقد الشعر وفلسفته (١)

الشاعرُ في رأينا هو ذاك الذى يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشقٌ خاص وفيهما غَزَلٌ على حِدَةٍ ، وقد خُلِقَتَا مُهَيَّأَتَيْنِ بمجموعةٍ لنفسِ العصبية لرؤية السَّحَرِ الذى لا يَرَى إلا بهما ، بل الذى لا وجود له فى الطبيعة الحية لولا عينا الشاعر ، كما لا وجود له فى الجمال الحى لولا عينا العاشق .

فإذا كان الشاعر العظيم أعشى كهوميروس وملتون وبشار والمعرى وأضرابهم ، انبعثَ البصرُ الشعريُّ من وراء كل حاسة فيه ، وأبصر من خواطره المنبثة فى كل معنى ، فأدَّى بالنفس فى الوجود المظلم أكثر ما كان يؤدِّيه بهذه النفس فى الوجود المضيء ، وقصَّر عن المبصرين فى معانٍ وأربى عليهم فى معانٍ أخرى ، فيجتمع للشعر من هؤلاء وأولئك مدُّ النفس الملهمة مما بين أطراف النور إلى أغوار الظلمة .

والشعر فى أسرار الأشياء لا فى الأشياء ذاتها ، ولهذا تمتاز قريحةُ الشاعر بقدرتها على خلق الألوان النفسية التى تصبغُ كلَّ شىء وتلوِّنه لإظهار حقائقه ودقائقه حتى يجرى مجراه فى النفس ويجوزَ مسجَّارَه فيها ؛ فكلُّ شىء تعاوَرَه الناسُ من أشياء هذه الدنيا فهو إنما يُعطِيهم مادته فى هيئته الصامتة ، حتى إذا انتهى إلى الشاعر أعطاه هذه المادة فى صورتها المتكلمة ، فأبانت عن نفسها فى شعره الجميل بخصائص ودقائق لم يكن يراها الناسُ كأنها ليست فيها .

فبالشعر تتكلم الطبيعة فى النفس وتتكلم النفس للحقيقة وتأتى الحقيقة فى أطرف أشكالها وأجمل معارضها ، أى فى البيان الذى تصنعه هذه النفس الملهمة حين تتلقَّى النور من كل ما حولها وتعكسه فى صناعةٍ نورانية متموجةٍ بالألوان فى المعاني والكلمات والأنغام .

والإنسانُ من الناس يعيش فى عمر واحد ، ولكن الشاعر يبدو كأنه فى

أعمار كثيرة من عواطفه ، وكأنما ينطوى على نفوس مختلفة تجمع الإنسانية من أطرافها ، وبذلك خلُق ليُسْفِضَ من هذه الحياة على الدنيا ، كأنما هو نبعٌ إنسانىٌ للإحساس يغترفُ الناسُ منه ليزيد كلُّ إنسانٍ معانى وجوده المحدود ما دام هذا الوجود لا يزيد فى مدته ، ثم ليرهِفَ الإنسانُ بذلك أعصابه فتدرك شيئاً مما فوق المحسوس ، وتكننه طرفاً من أطراف الحقيقة الخالدة التى تتسع بالنفس وتخرُجها من حدود الضرورات الضيقة التى تعيشُ فيها لتصلها بلذات المعانى الحرة الجميلة الكاملة ؛ وكأن الشعر لم ينجى فى أوزان إلا ليحمل فيها نفس قارئه إلى تلك اللذات على اهتزازات النغم ؛ وما يُطرب الشعرُ إلا إذا أحسسته كأنما أخذ النفس لحظة وردّها .

والشاعرُ الحقيقُ بهذا الاسم — أى الذى يَغلبُ على الشعر ويفتح معانيه ويهتدى إلى أسرارهِ ويأخذ بغاية الصنعة فيه — تراه يضع نفسه فى مكان ما يعانيه من الأشياء وما يتعاطى وصفته منها ، ثم يفكر بعقله على أنه عقلُ هذا الشيء مضافاً إليه الإنسانيةُ العالية ، وبهذا تنطوى نفسه على الوجود فتخرج الأشياءُ فى خلقة جميلة من معانيها وتصبح هذه النفسُ خليقةً أخرى لكل معنى داخلها أو اتصل بها ؛ ومن ثم فلا ريب أن نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون .

ولو سئلتُ أزمانَ الدنيا كيف فهم أهلها معانى الحياة السامية وكيف وأوها فى آثار الألوهية عليها ، لقدّمَ كل جيل فى الجواب على ذلك معانى الدين ومعانى الشعر .

ولست الفكرةُ شعراً إذا جاءت كما هى فى العلم والمعرفة ، فهى فى ذلك علم وفلسفة ، وإنما الشعر فى تصوير خصائص الجمال الكامنة فى هذه الفكرة على دقة وإطافة كما تتحول فى ذهن الشاعر الذى يلونها بعمل نفسه فيها ويتناولها من ناحية أسرارها .

فالأفكار مما تُعانيه الأذهانُ كلها ويتواطأ فيه قلبُ كل إنسان ولسانه ، يَسِدَ أن فنَّ الشاعر هو فنُّ خصائصها الجميلة المؤثرة ، وكأن الخيال الشعرى نحلة من النحل تَلُمُ بالأشياء لتُبدعَ فيها المادة الحلوة للذوق والشعور ، والأشياء

باقية" بعد كما هي لم يغيرها الخيال ، وجاء منها بما لا تحسبه منها ؛ وهذه القوة وحدها هي الشاعرية .

فالشاعر العظيم لا يُرسل الفكرة لإيجاد العلم في نفس قارئها حَسْبُ ، وإنما هو يصنعها ويَحْدُو الكلام فيها بعضه على بعض ، ويتصرف بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معاً ؛ وعبقريّة الأدب لا تكون في تقرير الأفكار تقريراً علمياً بَحْتًا ، ولكن في إرسالها على وجه من التسديد لا يكون بينه وبين أن يُقَرَّرها في مكانها من النفس الإنسانية حائلٌ . وكثيراً ما تكون الأفكار الأدبية العالية التي يُلْهَمُهَا أَفْذاذ الشعراء والكتاب هي أفكار عقل التاريخ الإنساني ، فلا تَفْصِلُ عنهم الفكرة في أسلوبها البياني الجميل حتى تتخذ وضعها التاريخي في الدنيا ، وتقوم على أساسها في أعمال الناس ، فتحقق في الوجود ويُعمل بها ؛ وهذا طَرَفٌ مما بين الأدب العالي وبين الأديان من المشابهة .

ومتى نُزِلَتْ الحقائق في الشعر وجب أن تكون موزونة في شكلها كوزنه ، فلا تأتي على سَرْدِها ولا تُؤخذ هَوْنًا كالكلام بلا عمل ولا صناعة ، فإنها إن لم يجعل لها الشاعر جمالاً ونسباً من البيان يكون لها شبيهاً بالوزن ، ويضع فيها روحاً موسيقية بحيث يجيء الشعر بها وله وزن في شكله وروحه — فتلك حقائق مكسورة تلوح في الذوق كالنظم الذي دخلته العلل فجاء مختلفاً قد زاغ أو فسد .

والخيال هو الوزن الشعري للحقيقة المرسله ، وتخيّل الشاعر إنما هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليشِفَ به ، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ، ويرفع الإنسانية درجة سماوية ؛ وكل بدائع العلماء والمخترعين هي منه بهذا المعنى ، فهو في أصله ذكاء العلم ، ثم يسمو فيكون هو بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد سموه فيكون روح الشعر ؛ وإذا قلبت هذا النسق فأنحدرت به نازلاً كما صعدت به ، حصل معاك أن الخيال روح الشعر ، ثم ينحط شيئاً فيكون بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد انحطاطاً فيكون ذكاء العلم ؛ فالشاعر كما ترى هو الأول إن ارتقت الدنيا ، وهو الأول إن انحطت الدنيا ؛ وكأنما إنسانية الإنسان تبدأ منه .

إذا قررنا للشعر هذا المعنى وعرفنا أنه فنُّ النفس الكبيرة الحساسة المهمة حين تتناولُ الوجودَ من فوق وجوده في لطف روحانيٍّ ظاهرٍ في المعنى واللغة والأداء — وجب أن نعتبر نقد الشعر باعتبارٍ مما قررناه ، وأن نقيمه على هذه الأصول ؛ فإن النقد الأدبي في أيامنا هذه — وخاصةً نقد الشعر — أصبح أكثره ، مما لا قيمة له ، وساء التصرف به ، ووقع الخلطُ فيه ، وتناوله أكثرُ أهله بعلم ناقص ، وطبع ضعيف ، وذوق فاسد ، وطمع فيه من لا يحصلُ مذهباً صحيحاً ، ولا يتَّجهُ لرأى جيد ، حتى جاء كلامهم وإنَّ في اللغو والتخليط ما هو خير منه وأخفَّ حملاً ، فإنك من هذين في حقيقة مكشوفة تعرفها تخليطاً ولغواً ، ولكنك من نقد أولئك في أدب مزور ودعوى فارغة وزوائد من الفضول والتعسف تزيِّدون بها للنفخ والصَّولة وإيهام الناس أن الكاتب لا يرى أحداً إلا هوتحت قدرته . . . على أن جهد عمله إذا فتشته واعتبرت عليه ما يخلط فيه ، أنه يكتب حيث يريد النقد أن يحقق ، ويملاً فراغاً من الورق حيث يقتضيه البحث أن يملأ فراغاً من المعرفة .

وقد قلنا في كتابنا (تحت راية القرآن) : إن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخها وتقصى إمواها — ذوقاً فنياً مهذباً مصقولاً ، وليس يمكن أن يأتي له هذا الذوق إلا من إبداع في صناعتي الشعر والنثر ، ثم يجمع إلى هذين (أى الإحاطة والذوق) تلك الموهبة الغريبة التي تلف بين العلم والفكر والخيالة فتبدع من المؤرخ الفيلسوف الشاعر العالم شخصاً من هؤلاء جميعاً هو الذى نسميه الناقد الأدبي .

هذه هى صفات الناقد فى رأينا ؛ فانظر أين تجده بين هؤلاء الأساتذة المختصرين . . . فى أدبهم ، المطولين . . . فى ألقابهم ، ولانهم ليتعاطون النقد وليس لهم وسائله إلا ما كان ضعفةً وقلةً وإدباراً ، وقد فاتهم ما لا تحمله أقدارهم ولا تبلغه قواهم ، وجهلوا أن الناقد الأدبي إنما يلقي درساً عالياً لا يُدَلُّ فيه على العيوب الفنية إلا بإظهار المحاسن التي تقابلها فى أسمى ما انتهى إليه الفن من آثار تاريخه ، فيكون النقد تهذيباً وتخليصاً لفنون الأدب كلها ؛ وهو بهذه الطريقة يجلوها على الناس ويبدع فيها ويزيد فى مادتها ويسهلها على القراء

ويحصلها لهم تحصيلاً لا يبلغونه بأنفسهم ، ويعطيهم من كل ضعيف ما هو قوى ، ومن كل قوى ما هو أقوى .

ورأيانهم في نقد الشعر لا يزيدون على أن يعلقوا على كلام الشاعر ، فيجىء عملهم في الجملة كأنه تصنيف من هذا الشعر وشرح له وتصفُّح على بعض معانيه ، وبهذا يرجع الشاعر وإنه هو المتصرف في ناقدته يُدِيره كيف شاء ، ويجىء هذا الناقد زائداً متطفلاً ، فتأتى كتابته وإنها لَتَضْرِبُ من سخريه المنقود بناقده ، ويصبح وضعُ الكلام على العكس ، فالشاعر المنقود لم يتكلم ولكنه أبان قصور الناقد وجهله ، فهو الناقد وإن سكت ، وذاك هو المنقود وإن تكلم !

وهذا المتعلق على أخبار الشاعر وشعره كتعلق التلخيص على أصله المطول والشرح على متنه الموجز ، إنما هو كاتب يجد من ذلك مادة إنشائية فيتصرف بها ليكتب : ولا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء ، بل مادة حساب . مقدَّر بحقائق معينة لا بد منها ؛ فنقد الشعر هو في الحقيقة علم حساب الشعر ، وقواعده الأربع التي تقابل الجمع والطرح والضرب والقسمة : هي الاطلاع والذوق والخيال والفريضة الملهمة .

وثمَّ ضَرَبُ آخر من تعلق الضعفاء ، يتناول الشاعر باعتباره رجلاً له موضعه من الناس ومنزله من الحياة ، ثم لا يعدو ذلك * وهو تزوير للمؤرخ بجعله ناقدًا ، وتزوير للناقد برده مؤرخًا ؛ على أن هذا لا بد منه في النقد الصحيح ، ولكنه لا يقوم بنفسه ولا تنفذ به بصيرة النقد ، إذ الشاعر لم يكن شاعراً بأنه رجل من الناس وحى في الأحياء وعمر من الحوادث المؤرخة ، ولكن بموضوعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى حقائق الطبيعة في كائناتها عامة ، وفي إنسانها خاصة ، ثم بقدرة مثل هذه في النفاذ إلى أسرار اللغة الشعرية التي هي الوجود المعنوي لكل ذلك ، والتصرف بها على طبقات معانيه حتى لا تقصر عن الغاية ولا تقع دون القصد ، فإن الشعر إن هو

* لم نذكر في هذه المقالة أمثلة ولم نعين أسماء حتى لا يمتد الكلام فنخرج المقالة إلى أن تكون كتاباً ، ولكنك إذا قرأت الشعر وما يكتب في نقده ، والمحاضرات التي تلى عن الشعراء فقد وجدت الأمثلة والأسماء . . .

هو إلا ظهورُ عَظْمَةِ النفسِ الشاعرةِ بمظهرها اللغوى ، ولئن كان فى نقد الشعر تاريخ لا يتمُّ النقد إلا به ، فهو تاريخ الشعر فى نفس قائله ، ثم تاريخ هذه النفس فى معانى الشعر من عصرها ، ثم أدب هذا الشاعر من الوجود الأدبى للغة التى نظم بها ؛ وذلك لا بد أن يقع فيه تاريخ الشاعر نفسه محصلاً من نواحيه فى جهات الحياة . مُتَعَمِّتاً فيه بالا ستقصاء ، مُتَغَلِّلاً إليه بالنقد . . .

وإن لنا رأياً بسطناه مراراً ، وهو أنه لا ينبغى أن يعرض لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر كبيرٌ يكون ذا طبيعة فى النقد ، أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة فى الشعر ؛ أى لا بدمن الأدب والشعر معاً لنقد الشعر وحده فأتى الكلامُ فيه من العلم والذوق والإحساس والإلهام جميعاً ، فيتبين الناقدُ وجوهَ النقص الفنى ، ويعرف بمَن نقصتْ وما ذا كان ينبغى لها وما وجه تمامها ، ثم يعرف من الكمال الفنى مثل ذلك ، ويُحس على الحاليتين بالمعانى التى أحسها الشاعرُ حين انتزع شعره منها ، وما كان يَسْتَخَالِجُهُ وقتئذٍ من الفكر ويتمثلُ له من الصور المعنوية التى ألهمته إلهامها ؛ فإن المعانى المكتوبة هى شعر الشاعر ، ولكن تلك المعانى المحسوسة هى شعر الشعر ، وإنما يوقَفُ عليها بالتوهم والاسترسال إلى ما وراء الشعر من بواعثه ، وما تَمَوَّجَتْ به روحُ الشاعر عند عمله ، وما عَرَضَتْ لها به طبائعُ المعانى ؛ وهذا كله لا يحسه الناقدُ إن لم يكن شاعراً فى قوة من ينقده أو أقوى منه طبيعةً شعرياً .

والنقد إنما هو إعطاءُ الكلامِ لساناً يتكلم به عن نفسه كلامَ متهم فى محكمة ليقمَّ أو يُزَيِّحَ شبهة أو يقر حقيقةً أو يبسط معنى أو يوجهَ علةً أو يكشف خافياً أو يثبتَ نقيصةً أو يظهر إحساناً ؛ وبالجملة فهو نَقْضُ السيئة والحسنة ، ووقوع أدلة العلم والفن والذوق مواقعها ، وتكلمُ الكلامِ بذات نفسه ما تنكرُ منه وما تستجيد ؛ والشاعر والناقد يلتقيان جميعاً فى القارئ فوجب من ثمَّ أن يكون الناقدُ قوة تكشف قوة مثلاً أو دونها ليُصحَّحَ فنٌّ مثله أو يقرَّه أو يزيدَ عليه فضلَ بيان ومزيةً فكرياً ؛ وبهذا يصبح القارئُ كالسائح الذى معه الدليلُ وأمامه المنظر ، أى معه التاريخُ الناطقُ وبإزائه التاريخُ الصامت . وإذا كان الشاعر وشعره إنما

هما النفسُ الممتازةُ وحوادثُها وإلهامُها ومعاني الحياة فيها ، فليس يتَّجهُ أن يكون الناقدُ تاماً إلا بنفس من نوعها في دقة الحس ولطف النظر والاستشفاف وقوة التأثير بمعاني الحياة وسموِّ الإلهام والعبقريّة : وبذلك يجيء النقد الصحيح بياناً خالصاً منخولاً كأنه شرحُ نفس لنفس مثلها .

وليس الأنفُ هو الذى ينقد الوردة العطرة الفياحةَ ، وإنما تنقدها الحاسةُ التى فى الأنف ، وناقد الشعر إن لم يكن شاعراً فهو أنفٌ صحيح التركيب ، ولكن بالجلد والعظم دون تلك الحاسة التى هى روح العصب المنبث فى هذا التركيب والمتصل بما وراءه من أعصاب الدماغ ، فهذا الأنف . . . يستطيع أن يتناول الوردة ، ولكن بحسٍّ غليظٍ مسحّتُه الآفة كما يتناول حجراً أو حديدأً أو خشباً أيّها كان ، فالوردة عنده شىء من الأشياء يمتاز باللين ويختصُّ بالنعومة ويسطعُ بالرواق ويزهر باللون ، ويذهب يتكلم فى هذا كله ، وهذا كله فى الوردة ، ولكنه ليس الوردة .

ومنى كان البحثُ هو البحثُ فى السماء وأفلاكها وأجرامها فلا يستقلُّ به إلا الناظر المركَّبُ أى الذى معه عينه وتلسكوبه وعلمه جميعاً ، إن نقص من ذلك فبقدر نقصانه يكون ضعفه ، وإن تمَّ فبقدر تمامه يكون وفاؤه ؛ ولو أمكن أن ينفصل الشاعر من شعره فيقطع ما بينه وبين المعانى من نسب نفسه ، ويبتعد عن الشعر ليراه جديداً عليه ويميزه من كل جهاته — لكان هو الناقد ؛ فناقد الشعر هو الشاعر نفسه ، ولكن فى وضع أتم وأوفى ، وحالة أبين وأبصر ، أى كأنه الشاعر نفسه منقحاً تاماً بغير ضعف ولا نقص .

ومن أجل ذلك ترى من آية النقد البديع المحكَّم إذا قرأته ما يُخيِّلُ إليك أن الشعر يعرض نفسه عليك عرضاً ويُحصِّلُ لك أمره ويبين حالته فى ذهن شاعره . وكيف توافى واثتلف ، وكيف انتزع الشاعر من الحياة ، وما وقع فيه من قدر الإلهام ، وما أصابه من تأثير الإنسان وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء وبالجملة يُسود النقدُ عليك ما ترى معه كأن حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر .

ألا وإن شعرنا العربيّ الجميل قد أصبح اليوم في أشد الحاجة إلى من يعلم القارئ كيف يدوقه ويتبينه ويخلص إلى سر التأثير فيه ، ويخرجه مخرجاً سرياً في أنغامه وألحانه ويأتى به من نفس شاعره ومن نفسه جميعاً ؛ ففوة التمييز في هذا كله على تسديد وصواب هي التي يعطيها الناقد لقرائه ؛ والشعر فكر وقراءته فكر آخر ، فإن قصر هذا عن أن يبلغ ذاك ليتصل به ويتغلغل فيه فلا بد للفكرين من صلة فكرية هي كتابة الناقد الذي هو من ناحية كمال للطبيعة الناقصة ، ومن ناحية أخرى شرح للطبيعة الكاملة ، ومن ناحية ثالثة هو بدوقه وفنه قانون الانتظام الدقيق الذي يبين به ما استقام في الكلام وما اعوج .

وطريقتنا نحن في نقد الشعر تقوم على ركنين : البحث في موهبة الشاعر ، وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه ؛ والبحث في فنه البياني ، وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته ، وسنقول فيهما معاً :

فأما الكلام في فن الشعر ، فالمراد بالشعر — أى نظم الكلام — هو في رأينا التأثير في النفس لا غير ، والفن كله إنما هو هذا التأثير ، والاحتيال على رجّة النفس له واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس ، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفاً متلائماً مستوياً في نسجه لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال ، ولا يحمل عليه تعسف ولا استكراه ؛ فيأتى الشعر من دقته وتركيبه الحى ونسجه الطبيعي كأنما يُقَرَّعُ به على القلب الإنسانى ليفتح لمعانيه إلى الروح ؛ والشعر العربى إذا تمت له في صناعته وسائل التأثير وأحكم من كل جهاته ، كان أسمى شعر إنسانى فتراه يطرد بألفاظه الجميلة السائقة وكأنه لا يحمل فيها معانى بل يحمل حركات عصبية ليس بينها وبين أن تنساب في الدم حائل ، فما يكون إلا أن يغتمرك بالطرب ويهزك من أعماق النفس ويورد عليك من نفحة الروح ما إن تدبرته في نفسك وأفصحته عنه شعورك رأيته في حقيقته وجهاً من نسيان الحياة الأرضية والانتقال إلى حياة أخرى من السرور والاهتياج والألم والشجو يحياها الدم الثائر وحده غير مشارك فيها إلا من القلب .

والذين يجهلون ذلك من أمر الشعر العربى في مزاجه الخاص — فلا يعتبرونه حياً ذا طابع وخصائص لا بد من مراعاتها والنزول على حكمها وتلقّيها بما يوافقها كما لا بد من

أشبه ذلك لامرأة جميلة — تراهيم يُخِلِّدُون بقوانين صناعته البيانية وينزلون ألفاظه دون ملازمتها ويرسلون معانيه على غير طريقتها الشعرية ويبتلون به بفضول كثيرة هي كالأفات والأمراض ، فيأتون بنظم تقرأه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرعُ على قلبك بقبضة يد أويدق عليه بحجر . . . وقد فشا هذا النوع من الشعر في هذه الأيام وأصبح مظهراً لما فسد من ذوق الأدب وما التاث من أمر اللغة وما اعوجَّ من طرق الفلسفة وما عمت به البلوى من التقليد الأوربي ، وكثيراً ما رأيت القصيدة من هذا الشعر كامراً سلخ وجهها ووضعت لها جلدة وجه ميت . . . والناظم من هؤلاء لا يُصَرِّف الشعر على حدوده النفسية ولا يحكمه فيها ، بل تصرِّفه الألفاظ كيف اتفقت له على وجوهها الملتوية ، وتسوسه المعاني سياسة عمية فقدت باصريتها معاً ، ويحسبون كلامهم من النور العقلي ، ولكنه النور في قطعه ثمانين ألف ميل في الثانية ، فلا يكاد يقال في هذا العالم ، حتى يخرج منه وينسى ويلحق بالانهاية . . .

وهذا الضرب من الصناعة الفاسدة هو بعينه ذلك النوع الصناعي الذي أفسد الشعر منذ القرن الخامس ، غير أن القديم كان فساداً في الألفاظ يجعلها كلها أو أكثرها مُحالاً من الصنعة ، والحديث جاء فساداً في المعاني يجعلها كلها أو أكثرها مُحالاً من البيان .

ويزعم أصحاب هذا الشعر أنهم فلاسفة ، ولكنهم كذلك في سرقة الفلاسفة لا غير . . . ولو علموا لعلوا أن ألفاظ الشعر هي ألفاظ من الكلام يضع الشعر فيها الكلام والموسيقى معاً ، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرقى منها تؤدي المعنى بالدلالة والنغم والذوق ، فكل كلمة في الشعر تُجَسَّسُ لمعناها من تركيبه ، ثم لموضعها من نسقه ، ثم لَجَرَسِها في ألحانها ؛ وذلك كله هو الذي يجعل للكلمة لونها المعنوي في جملة التصوير بالشعر ؛ وما يمرُّ الشاعر العظيم بلفظة من اللغة إلا وهي كأنها تكلمه تقول : دعني أو خذني .

وكما أنه لا بد للأزهار من جو الأشعة ، كذلك لا بد للمعاني الشعرية من جو اللغة البيانية ، فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة ؛ وقد يحسبون أن الصناعة

البيانية صناعة متكلفة لا شأن لها في جمال الشعر ودقة التعبير ، وما ننكر أن من البيان الجميل أشياء متكلفة ، ولكنها تنزل من أساليب البلاغة العالية منزلة كمنزلة الظرف والدّل والخلاعة في الحبيبة الجديدة .

إن هذه الفنون ليست من جمال الحلقة والتركيب في المرأة ، ولكنها متى ظهرت في الجمال الفاتن أصبح بدونها - وهو جميل دائماً - كأنه غير جميل أحياناً .

هنا صناعة هي روح الحسن في الحياة ، وصناعة مثلها هي روح الحسن أحياناً في البلاغة* ، وما التراكيب البيانية في مواضعها من الشعر الحى إلا كالملاحم والتقسيم في مواضعها من الجمال الحى ؛ وكثيراً ما يخيل إلى حين أتأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل في شعر محكم السبك ، أن هذه الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأثق يتقرب من حب امرأة جميلة ، وعطف أمومة على طفولة ، وحنين عاطفة لعاطفة ، إلى أشباه ونظائر من هذا النسق الرقيق الحساس ؛ فإذا قرأت في شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ كالشرطى أخذ بتلايب لفظ كالحجر . . . إلى كلمتين هما معاً كالضارب والمضروب . . . إلى همج ورعاعٍ وهرج ومرج وهمج وفتنة ؛ أما القافية فكثيراً ما تكون في شعرهم لفظاً ملاكماً . . . ليس أمامه إلا رأس القارئ .

وكما يهتملون اختيار اللفظ والقافية يتسهلون في اختيار الوزن الملائم لموسيقى الموضوع فإن من الأوزان ما يستمر في غرض من المعاني ولا يستمر في غيره ؛ كما أن من القوافي ما يطرد في موضوع ولا يطرد في سواه ، وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت : يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر ، فالذين يهتملون كل ذلك لا يدركون شيئاً من فلسفة الشعر ولا يعلمون أنهم إنما يفسدون أقوى الطبعيتين في صناعته ؛ إذ المعنى قد يأتي ثراً فلا ينقصه ذلك عن الشعر من حيث هو معنى ، بل ربما زاده النثر لإحكاماً وتفصيلاً وقوة بما يتهيأ فيه

* لنا كلام طويل في فلسفة الأسلوب البياني سنذكره إن شاء الله في كتابنا الجديد (أسرار الإعجاز) .

[قلت : وقرأ حديثنا عن (أسرار الإعجاز) في كتاب (حياة الرافعي) ص ٢٨٩]

فيه من البسط والشرح والتسلسل ، ولكنه في الشعر يأبى غناء ، وهذا ما لا يستطيعه
النثر بحال من الأحوال .

فإذا لم يستطع الشاعر أن يأبى في نظمه بالروى الموثق والنسيج المتلائم والحبك
المستوى والمعاني الجيدة التي تخلص إلى النفس خلوص طبيعة إلى طبيعة تمازجها ،
ورأيته يأبى بالشعر الجافى الغليظ والألفاظ المستوخمة الرديئة والقافية القلقة النافرة
والجازات المتفاوتة المضطربة والاستعارات البعيدة المسوخة — فاعلم أنه رجل قد
باعده الله من الشعر وابتلاه مع ذلك بزيغ الطبيعة وسرف التقليد ، فما يجيء
الشعر على لسانه في بيت إلا بعد أن يجيء اللغو على لسانه في مائة بيت أو أكثر
أو أقل .

ذلك قولنا في فن الشاعر ، أما الكلام في موهبته التي بها صار شاعراً وعلى
مقدارها يكون مقداره واتصال أسبابه أو انقطاعها من الشعر ، فذلك باب
لا يمكن بسط المعنى فيه ولا تحصيل دقائقه إلا إذا صوّرت روح الشاعر في
تركيبها الدقيق المعجز ووزنت في ميزانها الإلهي وعُرف نقصها إن نقصت وتمازجها
إن تمت ، وأمكن تتبّع مواقعها من أسرار الأشياء ومساقطها من منازل الإلهام ،
وهذا ما لا سبيل إليه إلا بالتوهم النفسى ، فإن الأرواح القوية يلمح بعضها
بعضاً ، وقد تكون لمحّة الروح الشاعرة لروح مثلها هي تدبّرهما ووزنها وإدراك
ما تنطوى عليه كما ترى من وضع النور بإزاء النور ، فإن هذا الوضع هو نفسه وزن
لكليهما في ميزان البصر دون أن يكون ثمة موازنة إلا في التألق والشعاع ؛ فهما
في هذه الحالة نوران يضيئان ، ولكنهما أيضاً كلمتان يبينان عما فيهما من الأكثر
والأقل .

لهذا قلنا إن الشاعر لا يتسع لنفده ولا يحيط به إلا من كانت له روح
شعرية تكافئه في وزنها أو تربى على مقداره ؛ فإن هناك قوى روحية لإدراك
الجمال وخلاقه في الأشياء خلقاً هو روح الشعر وروح فنه ، وقوى أخرى
لصلة العواطف بالفكر صلة هي سر الشعر وسر فنه ، وقوى غير هذه وتلك
لتحويل ما يخالف النفس الشاعرة تحويل المبالغة التي هي قوة الشعر وقوة فنه ؛
وبمجموع هذه القوى كلّها تمتاز روح الشاعر من غير الشاعر : أما ما تمتاز به

هذه الروحُ من روح شاعرة مثلها فهو ما يكون من تَفَاوُت المقادير التي يهبها الله وحده ، فيخص شاعراً بالزيادة وآخر بالنقص ، ويهبُ أسبابها التي تكون عنها فيوسع لواحد ويضيق على الآخر ؛ وإذا تمت تلك القوى واستحكمت تهيأ منها للشاعر جهاز عصبي خالص هو جهاز التوليد لا يمرُّ به معنى إلا تجسَّدَ فيه بصورة غير صورته .

وقد استوفينا الكلام على ذلك في مقالنا « سر النبوغ في الأدب » . وهو لا غيره سر العبقرية .

فأمثلُ الطرق في نقد موهبة الشاعر إدراكها بالروح الشعرية القوية من ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها ، واكتناه مقادير الإلهام فيها ، وتأمل آثارها في الجمال ، وتدبُّر طبيعتها الموسيقية في الحس والفهم والتعبير ، وتبيِّن قدرتها على الفرح والحزن بأشجى وأرق ما تهتاج في النفس الحساسة ، ومعرفة قوة التحويل في عواطفها للمعاني الإنسانية والطبيعية تحويلاً يجعل القوة أقوى مما تبلغ ، والحقيقة أكبر مما تظهر ، وتأتى بكل شيء ومعه شيء ؛ وليس ينتهى الناقد إلى ذلك إلا بالبحث في الأغراض أى « المواضيع » التي نظم فيها الشاعر وما يصله بها من أمور عيشه وأحوال زمنه وكيف تناولها من ناحيته ومن ناحيتها وماذا أبدع ، ثم في أى المنازل يقع شعره من شعر غيره في تاريخ لغته وآدابها ، ثم نظرتة الفلسفية إلى الحياة ومسائلها واتساعه لأفراحها وآلامها وقوة أمواجه الروحية في هذا البحر الإنسانى الرجفان المتضرَّب الذى يبلغ في نفوس بعض الشعراء أن يكون كالأقيانوس وفي بعضها أن يكون كالمستنقع . . . ثم دقة فهمه عن وحي الطبيعة والإشراف على جليلة معناها بالهمسة واللمسة ، وتسقُط إلهام الغيب منها بالإيماء واللمحة ؛ وهذا كله لا يستوسق للناقد العظيم إلا إذا كان مع روحه الشعرية التي اختص بها محيطاً بآثار الشعراء في لغته ، بصيراً بما أخذها ، مُحْكِمًا لأسباب الموازنة بينها ، متصرفاً مع ذلك بأداة قوية من صناعة اللغة والبيان وفنون الأدب .

وإذا كان من نقد الشعر علمٌ فهو علم تشريح الأفكار ، وإذا كان منه فنٌ فهو فنُّ درس العاطفة ، وإذا كان منه صناعة فهي صناعة إظهار الجمال البيانى في اللغة . . .

فيلسوف وفلاسفة ... (١)

أتأمل الآن هذا القلم في يدي - وأنا أفكر فيما سأكتبه للزهراء - فأرى نِصاب القلم أضلاعاً حُمْراً في لون المرجان ، تنسرحُ قليلاً ، ثم تستديرُ ، ثم تستدقُ ، ثم تخرج منها قادمةٌ سوداء كأنها قصبةٌ ريشة من جناح ، وقد خُيِّلَ إليَّ أن هذا اللون الأحمر المزهُوُّ يقول للأسود : إنما أنت غلطةٌ الذي صنعتي ، فكيف ألهمَ فيَّ هذا الإلهام فوسَّمتني بهذا الميسم من حُسْنِ ولون وتركيب ، ثم اعترضته الغفلة فيك فأخطأ ، وأدركه العجز فلم يميز ، ودخل على رأيه الوهن فإذا هو يصلك بي كالسيئة بعد الحسنة ، وينزلك مني منزلة القبح من الجمال ! فأين كانت صحة رأيه التي بلغ بها في أحسن ما وفق إليه حين بلغ فيك أسوأ ما يمكن أن يصنع ؟ فيقول الأسود ؛ إنما فيك أنت غلطة الصانع وبك أخطأ جهة الفن ، فلم يزنْ منك ما كان وزن مني ، ولا قدَّر لك مثل ما قدَّر لي ، وجئت غليظاً غير مقدود ، وكنت إلى العرض ولم تكن إلى الطول ، وكنت أحمر ولم تكن أسود ؛ وما أراك إلا فاسد الحس ، متغير الذوق ، وما أراك صنعتك هذا الرجل إلا في ساعة همٍّ قاربت بين نفسه ورأيه ، فما زجت بين رأيه وعمله ، فجمعت بين عمله وغلطه .

ذلك منطق اللونين فيما أدركتُ منهما ، وكلاهما مخْطِئ في جهة ما هو مستدل به أو منتظرٌ فيه ؛ والحقيقة من ورائهما ، إذ الحكمة ليست في أحدهما لحمرة أو سواد ، بل هي في اثنيهما جميعاً لا تئلافهما جميعاً ، فلا تنقسم عليهما قسمة ما ؛ لأنها آتية بالمقابلة بين اثنيهما ، وما لا يخرج أبداً إلا من اثنين فهو أبداً واحد لا نصف له ؛ كالطفل من أبويه : لن تعرف شطره من أمه لأنك لن تعرف شطره من أبيه .

أفي الأرض كلها من يستطيع أن يقسم طفلاً واحداً فيجعلهُ طفلين تعادلُ بهما الحياة وتمدُّهما بروحين من روح واحدة ؟ إنك لن تجد هذا الخالق الأرضي

... إلا في طائفتين : الأولى قوم من ذاهبي العقول يخلقون كل شيء لأنهم لا يخلقون شيئاً ؛ والثانية قوم من جبابرة العقول . . . عندنا تعرف لهم من الخلط وسخف الرأي ما يريدون أن يعلوا به على الناس ، إذ كان الناس لا يجاوزون الحقائق ، فظن هؤلاء أنهم إن جاوزوها وعدّوا عليها خرجوا إلى طبقة فوق العقل الإنساني . وللعجب طرفان : أحدهما ألا يعقل المجنون عن الناس ، والآخر ألا يعقل الناس عن العاقل : فذلك ذلك وهذا هذا ؛ وكأن في رأس كل منهما مُضمّرة من قوة الخلق تنطوي على محجوبة إلهية ، فكل منهما يزيد في الخلق ما يشاء ، وكل منهما فوق الطبيعة لأنه من ذوى الأسرار المجهولة التي لا تستبين عندنا من خنائها ، ثم لا تخفى عندهم من استبانتها .

يضحكني من جبابرة العقول هؤلاء أنهم يرون الدين مرة عادة ، وتارة اختراعاً ، وحيناً خرافة ، وطوراً استبعاداً ؛ وكل ذلك لهم رأى ، وكل ذلك كانوا يعتمدونه بالحجة ويشدّونه بالدليل ؛ فلما جاء طاغور الشاعر الهندي المتصوف إلى مصر ، وجلسوا إليه وسمعوه ، خرجوا يتكلمون كأنما كانوا في معبد ، وكأنما تنزل عليهم حقيقته الإلهية ، وكأنما اتضعت هذه الدنيا عن المكان الذي جلس فيه الرجل ، فلا يعرفونه من الأرض ، ولا من هذا العالم ؛ بل كانوا في غشية قد فروا لها وسكنوا إليها ، وما أراهم صُرفوا عن عقولهم ولا صُرفت عقولهم عنهم ؛ ولكن طاغور شاعر فيلسوف . وهم يعرفون أنفسهم من لصوص كتبه وآرائه ، ويقعون منه موقع السفسطة الفارغة من البرهان القائم ، وإذا قيسوا إليه كانوا كالذباب تزعم أنفسهم نسور المزابيل ، ولكنها لا تكابر في أن من الهزؤ بها قياسها بنسور الجوّ .

لقد ضربهم طاغور ، لا بأنه لمسه ، بل بأنهم لمسوه . . . وفضحهم فضيحة اللؤلؤة للزجاج المدّعى أنه لؤلؤ ، وأظهر لنا تجسّسهم العقلي كهذه الأصباغ في وجه الشوّهاء : تذهب تتصنع ولا تدري أنه إن كان في أدّ هانها وأصباغها روح النقاش فني وجهها هي معنى الحائط !

لقد قرأتُ كل ما كتبوا عن طاغور ألتمس فيه هذه الحقيقة لأرى كيف يكون جبابرة العقول حين تنكشف عنهم المعاذير وتتراخ العلل وتنهتك الأستار ،

فإذا هم في كل ما كتبوه لا يحسون إلا هذه الحقيقة ، ولا يصفون إلا هذا الحس ، فلم يُخزهم عندنا إلا هذا الوصف ؛ لا جرم فكل ما أثنا به على الشاعر الفيلسوف قرأناه ذمًّا لهم ، وعرفناه قدحًا فيهم ، وأخذناه تهمة عليهم ، وكل ما أعظموه من أمره صغّر من أمرهم ، ولقد جعلوه إنسانًا كأنما تنتهي قمة هذه الدنيا عند قدمه ، وتبدأ قدمه من قمة الدنيا ، فما عرفنا من ذلك قياسًا لسمو طاغور وارتفاع نفسه ، بل قياسًا لانحطاط أنفسهم وهوان أمرهم وقلة خطرهم ؛ فإن الرجل المقلد المخدوع لا يزال يطول في تقليده ، ولا يزال يتوعّر في الرأي الذي يراه ويعتسف طرق العلم اعتسافًا ؛ حتى يرميه الله بأصل من هذه الأصول الإنسانية التي يقلدها ؛ فإذا هو مُفصحٌ يتقاصر من طول ، ويتسهّل من وعر ، ويتهدى من تسف ، وينحط إلى الوهدة بعد أن كان على الجبل ، ويسلّم في نفسه ، ويدّعن برأيه ، وينقاد من حيث يأبى ومن حيث لا يأبى ، ويصبح وقد غمرته تلك النفس أشبه بالظلمة مما يرميه وينبئ به ؛ فهو مسخ في تمثيلة الصورة ، وهو كذب عليها بما يطول ويقصر ، وهو على كل أحواله إيهام سخيف مظلم لحقيقة شريفة نيرة .

وأنت أفلا ترى هذا من جبايرة العقول كتلك الشيمة في أخلاق العامة ، إذ لا يصلحون أبدًا إلا أن يكونوا تبعًا ، ولا علم لهم إلا ما يربط في صدورهم من فلان وفلان ، ثم يعملون بلا تحقيق ، ويحملون بلا تمييز ، ثم لا تكون نهمة أنفسهم مع الرجل العالم — إذا اجتمعوا به — إلا في التسليم له ، واتقاء حقائقه ، والتزول عن آرائهم إلى رأيه ، والخروج من أنفسهم إلى نفسه !

لقد قلنا من قبل إن جبايرة العقول هؤلاء الذين يأبون إلا أن يكونوا علماءنا وسادتنا ليصرفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا في مسأخط الله ويهجموا بنا على محارمه ويركبونا معاصيه — إنهم في أنفسهم إلا عامة وجهلة وحمق إذا وزنوا بعلماء الأئمة وقيسوا إلى حكماء الدنيا ، وما يكتبون للأمة في نصيحتها وتعليمها إلا ما يتحوّل من كلمات وجمل في الصحف والكتب إلى أن يصيروا في الواقع فسادًا وفجرة وملحدّين وساخرين ومفسدين ؛ فالمصيبة فيهم من ناحية العلم الناقص في وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد ، وهاتان معًا في وزن المصيبة الكبرى التي يجنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون ، وتجديدها فيما يزعمون . . .

لم أنخدع قط في هؤلاء من فلاسفة أو ذكائرة أو جبابرة ، ولست أضع أمرهم إلا على حقه ، فإنى لأعرف أن الهر من قبيلة الأسد ، ولكن أسديته على الفأرية وحدها . . . ولعلما عاقبة الجهل خير للأمة من عواقب علمهم وتخبطهم وحمافاتهم فإنهم قوم مقلدون ، ولهم طباع معتلة زائغة ، وعقول لا مساك لها من دين أو ضمير ؛ فما يجنحون إلا إلى بدعة سيئة ، أو آفة محدورة ، أو فكرة متهمه ؛ ولا يعملون إلا ما يشبه الظن بهم ، والرأى فيهم ؛ من تمدين الأخلاق السافلة وإلحاقها بالعلم أو الفلسفة ، مع بقاء العقل ناضجاً صحيحاً يحكم على هذا الخبيث كما كان يحكم على ذلك الطيب ؛ وليس من سبيل إلى هذا إلا من جهة تحويل الأخلاق ، فإن هى استمسكت ولم تتحول فهنا موضع النزاع ومحل الخلاف ، ولا بد من حرب منا كحرب الاستقلال ، ثم حرب منهم كحرب الاستعمار . . .

فالذى بيننا وبينهم ليس القديم والحديد ، ولا التأخر والتقدم ، ولا الجمود والتحول ؛ ولكن أخلاقنا وتجردهم منها ، وديننا وإلحادهم فيه ، وكالنا ونقصهم ، وتوثقنا وانحلالهم ، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي الحبل لا يجد ما يشده .
والآن أنظر إلى قلبي فأرى شطره الأسود ما جعل كذلك إلا ليزيد في جمال حمرة وبريقها ، وبكسبها لمعة لاثباتها إلا من السواد خاصة ؛ والشر خير إلا إذا بقى محصوراً في موضعه ولم يتجاوزه ؛ فإذا تنبّهت الأمة لجبابرة العقول هؤلاء ، قلنا لا بأس بالسواد المظلم إذا كانت حكمته حمراء . . .

شيطاني وشيطان طاغور. . . (١)

طاغور هذا شاعر الهند ، مر بمصر مرور شمس الشتاء باليوم المطير : لا يقع نورها إلا في القلوب مما تستخف وتستهو ، وما تمتنع وتتأني ، وما ترق وتلطف ؛ وتنقدح بين السحب الهامية فإذا لها من الجمال والسحر والعجب ما يكون لجمرة تخرجها السماء معجزة للناس فيرونها ترسل الشعاع مرة وتمطر الماء مرة .

لم ألق طاغور ولكني أنفذت إليه شيطاني وقلت أوصيه قبل أن يخرج لوجهه : قد علمت أن هذا الرجل هندي ، ولكنه إنسان ، فما أرض أولى به من أرض ؛ وأنه شاعر ، ولكنه مخلوق ، فما طبيعة أغلب عليه من طبيعة ؛ وأنه حكيم ، ولكنه تركيب ما جبلت له طينة غير الطينة ؛ وأنه سماوي ، غير أنه سماوي كعلماء الفلك : سماؤه في منظار وكتاب وقلم وحبر . . . فاذهب إليه فداخل شيطانه ، فإنك واجد له من ذلك ما لكل الشعراء ، وربما عرفت شيطانه من ذوى قرابتك أو خالصة أهلك ، ثم اثني بكلامه على جهة ما هو مفكر فيه ، لا على جهة ما هو متكلم به ؛ وخذ ما يهجس على قلبه ، ودع ما يجري في لسانه ؛ فإن هذا سيأتي به إخوانك من « مندوبي الصحف » . . . واعلم أن كل حكيم مهيب لمسائل من حوله كلاماً ، غير أن معاني من حوله مهيبته له مسائل أخرى يفكر في كل جواب عليها ولا ينطق بجواب عليها .

* * *

فحدثني شيطاني بعد رجوعه قال : حدثني شيطان طاغور قال : لما هبط طاغور هذا الوادي نظر نظرة في الشمس ، ثم قال : أنت هنا وأنت هناك ، تقربين بأثر وتبعدين بأثر ، وتطلعين بجو وتغربين بجو ، فلا تختلفين وتختلف بك الأقاليم ، ثم تتغير بالأقاليم الأمم ، ثم تتغير بالأمم الأفكار والمنازع ، ثم تتغير بالأفكار

والمنازع أغراضها ومصالحها ، ثم تتغير بمصالحها وأغراضها الحقائق الإنسانية ؛ وإنما الباطل والحق فيما تستقبل هذه الحقائق أو تستدبر ، وقد غلبت السياسة على كل شيء حتى أصبحت هذه الحقائق الإنسانية جغرافية ، لها شعوب ولها مستعمرات ؛ فالإنهاء في الغرب سيادة في الشرق ، والمساواة هناك امتياز هنا ، والحرية في مملكة استعباد لمملكة ، والتحية في موضع صفة في موضع ، والضيافة في مكان استئصال في مكان ؛ « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ، فلن يتصل الناس بالروح الأعلى إلا من الجهة الواحدة التي لم تتغير ولن تتغير فيهم ، جهة الدموع التي لا تختلف في أسود ولا أحمر ، والتي لا تنبث إلا من الرقة والوجد والأحزان والآلام ، وهي بذلك نسب كل قلب إلى كل قلب ، فلو غمر العالم كله بلاء واحد لا تحرز منه أرض أهلها ولا تتحاجر الأمم فيه ، لاستلب مطامع الناس بعضهم في بعض ، وأرجع الإنسانية الزائفة إلى مستقرها ، فتجدوا من الدنيا وهم في الدنيا ، فاتصلوا باللانهاية وهم في النهاية ؛ فإن لم يكن بلاء عام ففكر عام في بلاء يمت الشهور المتطلعة ويكون كالداء تلبس بالجنس الإنساني كالذي تصفه الأديان من جهنم والمصير إليها والحساب عندها والجزاء على الشر بها ، حتى لا تبقى نفس إلا وهي في وثاق من حلالها وحرامها ، ولا يبقى شر ينخيل أو يشتهي إلا وهو كالمنازع النفيس بين أربعة جدران تتساقط وتحترق لا يجد في كل المصوص لصاً ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالحب العام حتى لا يبقى جيش ولا سلاح ولا سياسة ولا دول ، ولا تكون الممالك إلا بيوتاً إنسانية بين الواحدة والكل من الشابكة واللحمة ما بين الكل والواحدة ، وحتى تقول مصر لإنجلترا يا بنت عمي . . . فإن استحال كل هذا فالحرية العامة على أن تكون محدودة من كل جهاتها بالشعر ، وعلى أن يكون الشعر محدوداً بالطبيعة والطبيعة محدودة بالله ، فينتزع النوم من الأرض لتصل اليقظة بالحلم . . . من طريق غير النوم .

قال شيطان طاغور : ثم ابتأس طاغور وقال : كل ذلك مستحيل أو كالمستحيل ولكنه في الأمل ممكن أو كالممكن ؛ وللفظ معنيان : أحدهما ما يكون ، والثاني ما يحسن أن يكون ؛ ذلك لا بد له منا لأنه جانب النظام الإلهي ، وهذا لا بد لنا منه لأنه جانب الخيال الإنساني ؛ ذلك من الطبيعة التي تعمل ولا تتكلم ، وهذا

من الشعر الذى يتكلم ولا يعمل . آه آه ! إنما السلام العام أن يكون الوجود شركة إلهية إنسانية برضا واتفاق بين الطرفين . . . ولعمري إن كل المستحيلات ممكنة بالإضافة إلى هذا المستحيل . ثم تبسم طاغور إذ خطر له أنه شاعر عليه أن يصف الوردة ويقول فيها ما يجعلها بيت شعر في كتاب الطبيعة له وزن ونغم ، ولكن على الطبيعة قبل ذلك أن تنبتها ناضرة عطرة جميلة تتميز عن غيرها برائحة ولون وشكل .

قال شيطانه : ولما انتهى من تأمله إلى هذه الخاطرة قدّمت له سيدة هندية عقود الزهر ، وبينما هي تقلده إياها قال في نفسه : إن هذه الأزهار من معاني الماء العذب ؛ فإذا انطلقنا في أوهامنا وراء الحب العام والسلام العام فلمن تكون معاني الماء المالح ، وهو ثلاثة أرباع الأرض ، ومن أزهاره الأسطول الإنجليزي . . .

* * *

حدثني شيطاني قال : حدثني شيطان طاغور قال : ولما استقر طاغور في قصر شوقي بك ورآه في مثل حسن الدينار ونقشه ونفاسته ، قال : لا جرم هذه أمة أغنت شاعرها ، فما أخطئ التقدير ، وإن أخطأته فلا أبعد عن المقارنة إذا حسبت أن هذا الشاعر يطبع لهذه الأمة نصف مليون نسخة من كل ديوان شعر أو دفتر حكمة أو كتاب قصة ، ولينني أعرف العربية لأعرف كيف يبدع هذا الشعب فلسفته في أغانيه المتصلة بغيوم السماء المتكلم بأحسن وأطهر ما يمكن أن يكون ترجمة للحقيقة الخالدة التي يتوارثها شعب خالد .

الشعر فكرة الوجود في الإنسان ، وفكرة الإنسان في الوجود ، ولا يكفي أن يخلق هذا الإنسان مرة واحدة من لحم ودم ، بل لا بد أن يخلق مرة أخرى من معان وأفلاظ ، وإلا خرج حيوانا أعجم ؛ فالشاعر يبدع أمة كاملة ، إن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة وآدابها العالية وسياستها الموفقة وما أحسب النهضة المصرية إلا بالأغاني والأناشيد ، فتأتى من إنجلترا جنود وتخرج لها من دور الغناء والتمثيل جنود أخرى ؛ لقد كنت ملهماً حين قلت مرة : « إن الله يخاطب الناس عن طريق الموسيقى » * .

نعم عن طريق الموسيقى ، فكل شيء هو موسيقى في نفسه حتى حين يتطاحن

* هذه العبارة من كلام طاغور في محاضراته مما ترجمته جريدة السياسة .

الناس ويندبح بعضهم بعضاً ، فإن صلصلة الأسلحة ودوى القنابل وأزيز الرصاص وتصايح الجند - كل ذلك لحن أعده الله جلت قدرته « وموسيقاه » . . . لحنانات الأهم .

* * *

حدثني شيطاني قال : حدثني شيطان طاغور قال : ولما رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصرية - وهي التي دعتني إلى إلقاء محاضرتي - قال : نعم وجباً وكرامة ، إنه لا يستقيم في العقل أن تدعو هذه الجامعة شاعراً روحانياً مثلي إلا وهي فلك نيرٌ يعده الله من نجومه ، وما أحسب أستاذ آدابها العربية إلا تلك الذرة اللؤلؤية التي كانت تجاورني في طينة الخلق الأزلية ، فلو أن الذرات الثمان التي كانت حولنا خلقت في عصرنا هذا وتوزعت على الأمم الفلسفية لكننا وإياها كوصايا الله العشر في هذا العصر المادى . . . ولأننا طياتها إيماناً بالله ، ولصار لله تعالى في أرضه عشر آلات سماوية لاسلكية بينه وبين الخلق ، تباهى الجامعة المصرية بأن فيها إحداها . . . لقد نفص على هذه الشيخوخة أنى لم أتعلم العربية ، وكيف لي بأن أرتل أناشيد أستاذ الآداب في الجامعة المصرية وأستمع بألحانه السماوية في شعره وأغانيه ، وأسمع الملائكة من هذه المثلثة الإنسانية في الجامعة تهتف بكلمة الإسلام الرهيبة صارخة بحقيقة الوجود في الوجود : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله . . .

قال شيطاني : وكان شيطان الدكتور طه حسين أستاذ الجامعة حاضراً معنا ، فلما ألم بما في نفس طاغور قال لي : حقاً إن من الخير أن لا يعرف هذا الهندي اللغة العربية ، لأنه لو عرف اللغة العربية لما أرضته اللغة العربية ولا آداب اللغة العربية ولا أستاذ آداب اللغة العربية ! فقلت : اسكت ويحك ودع الرجل في أحلامه ، ولا تكن غيمة سمائه المشرقة ؛ أما تراه يحلم ، أما سمعته يقول : « والحقيقة من حيث هي جمال ليس يعدله جمال ؛ ألست ترى إلى صورة هذه المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر ، إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجماها ، ولكن المرأة العجوز التي فيها ليست على شيء من الجمال ؛ لكنما

جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة العجوز على حقيقتها * » فهذه كلمات فى سباحات النور ، وهى من لغة السماء ذات الكواكب لا من لغة النفس ذات العواطف ؛ وإلا فهل يصح فى العقل أن تصوير العجوز التى اضطرب ميزان الخلق فيها حتى لا يزن منها إلا بقايا الحلقة وأنقاض العمر وخرائب المرأة . . . يكون بما يظهر من شوحتها وتهدمها وتشن جلدتها وموت ظاهرها — جمالا فى الصورة لأنه قبيح فى الأصل ؟ أفليس لو كان ذلك صحيحاً ملكت المتاحف والقصور بالألواح العجائز ، ولما بقيت على الأرض عجوز إلا ذهب لأحد المصور تقول له اخلفنى ! . . .

* * *

حدثنى شيطانى قال : حدثنى شيطان طاغور قال : وكان طاغور رطب اللسان فى محاضراته كأن غابة من غابات الهند أمدته بكل ما اعتصرته الشمس فيها ماءً وحياة ونضرة ، فهو فى كلامه ومعانيه ورق وزهر ونسيم وظل وحفيف وتغريد ، يسحر الناظر إليه إذ لا يرى الناظر شكله الإنسانى فيه ، بل يراه شيئاً من خياله كأنما انفصل منه فتمثل بشراً سويّاً ، ولو أنك اطلعت يوماً فى المرأة فلماذا خيالك فيها يكلمك ويستأنسك ويلطف لك ، لما أدهشك من ذلك ولا أطربك ولا استخرج من أعجيبك وذهولك إلا كالذى يعترى نفسك حين يكلمك طاغور ؛ وتراه يستخلص آراءه المتصرفة بكلامه من روح النواميس الإلهية المدبرة للكون ، فتحسه يضيف إليك زيادة ليست فيك ؛ فما كبرت به تصغر نفسك عندك بين يديه ؛ ثم هو يتصل بروحك مرة فى جلال حب الأب لطفله ، ومرة فى رقة فرح الطفل بأبيه ؛ فإذا أنت منه بموقف عجيب من معجزة إنسانية تروعك بطفل شيخ قد اجتمع فيه طرفا العمر وجاء كأنه مظهر روحه التى لا عمر لها .

إنسان كهربائى يحاول أن يزيد فى تركيب الناس عظمته من حديد أو عصباً من سلك ، لتصل بهم جميعاً تلك الشعلة الطائفة ؛ فإذا هم خلق آخر كأهل

* هذه العبارة مما ترجمته السياسة من محاضرة طاغور ، وإذا قيل إن الصناعة فى نقل الصورة بحكمة فليس معنى ذلك أن الصورة جميلة ، والمعنى الذى يرى إليه الشاعر معروف وقد كتبناه فى (السحاب الأحمر) ولكنه أخطأ فى العبارة عنه أو أخطأت الترجمة .

الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ؛ ولكنه بصر وهو خارج من المسرح بإعلان السما التي تجاوزه وما عليه من التصاوير والتهاويل ، فقال في نفسه : بعد قليل تجيء إلى هنا لندن وباريس ونيويورك وغيرها من أرض الله بناسها وحيوانها ونباتها ، يراها الجالسون رأى العين ويتصلون بها اتصالا بعيداً لا يجعلهم فيها ولكنه لا يخليهم منها ؛ ويجب لعمران هذه الأرض أن يبقى أهل مصر في مصر فلا يدعوها جميعاً ليتصلوا جميعاً بما تشنقه أنفسهم من باريس أو غير باريس من حقائق العالم الكبرى ، ولا يحسن هذا الاتصال إلا إذا خص ولم يعم ، فيقوم به الواحد والاثنان والجماعة وتبقى الأمة بما هي وكما هي لأنها بذلك وحده أمة ، كما أن الناس بطبائعهم ناس ، والكون باختلافه كون ، فهيات هيات الحب العام والسلام العام والاتصال العام بالحقيقة الروحية العليا . ثم تبسم وقال : ما أشبهنى بهذه السما ، غير أن شريطي لا يرى فيه الناس رواية من لندن وباريس ، بل رواية وقعت حوادثها في جنة الخلد . . .

فلسفة القصة

ولماذا لا أكتب فيها . . ؟ *

لم أكتب في القصة إلا قليلا ، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكنى مع ذلك لا أراى وضعت كل كتي ومقالاى إلا فى قصة بعينها ، هى قصة هذا العقل الذى فى رأسى ، وهذا القلب الذى بين جنبي

أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التى أتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفنائها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وتنمو غايتها ، ويمكن لفنائها وخصائصها فى الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلىّ دائماً أنى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا أبدأ فى موقف الجيش (تحت السلاح) : له ما يعانى وما يكلفه وما يحاوله ويبنى به ، وما يتحماه ويتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها ؛ وكيف اعترضت الجيش رأيتة فنّ نفسه ، لا فنك أنت ولا فن سواك ؛ إذ هو لطريقته وغاياته وما يتأدى به للحياة والتاريخ .

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصاً ، ثم تقرأ فتبقى قصصاً ؟ وإن هى صنعت شيئاً فى قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات ؛ تكون مسكنات عصبية إلى حين ، ثم تنقلب هى بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية ؟

وأنا لا أنكر أن فى القصة أدباً عالياً ، ولكن هذا الأدب العالى فى رأى لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها فى الرواية كما يربى الأطفال على أسلوب سواء فى العلم والفضيلة ؛ فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون ، وطريقة

* وجه إلينا سؤال : لماذا لا تكتب فى القصة ؟ وكان هذا قبل أن نكتب مقالاتنا فى مجلة الرسالة ، فرددنا بهذا الرد .

[قلت : وانظر ص ١٨٩ من « حياة الرافعى »]

محصنة ، وغاية معينة ؛ ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة ؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة ، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء ، تنخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها ، وتتأمل فتخرج أسنى حكمتها ، وتشرع فتضع أصح قوانينها .

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص ، فهم في الأدب رعا عوام وهمج ، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز ، هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققها في النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها .

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل ، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو ؛ تنتهي الأولى فيك بأثرها السيئ ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب ؛ وهذا عندي هو فرق ما بين فن القصة ، وفن التلفيق القصصي !! .

شعر صبرى *

فى الحادى والعشرين من شهر مارس من سنتنا^(١) هذه نزع الشعر العربى عن رأسه عمامة المشيخة ونشرها للموت ، فكانت الكفن الذى طوى فيه بقية شيوخ الأدب : المرحوم إسماعيل باشا صبرى .

كان رحمه الله من الرجال الذين نشئوا فى تاريخ لا ينشئ رجلا ، وجاءوا فى غير زمنهم ليجىء بهم زمنهم بعد ؛ وهؤلاء إن لم يكن فيهم قوة أكبر من القوة ، فهم أقدار وأحداث تولد وتنشأ وتنمو فى أسلوب إنسانى ليم بها شىء كان نقصاً ، ويحسن شيئاً كان هجئاً ، ويوجد أمراً كان عدماً ؛ ثم ليكون للزمن منها حدود يبدأ عند الواحد منها فيتغير فيه ويتحول به ويخرج معه فى بعض معانيه زمنًا جديدًا فى رجل جديد .

كذلك كان صبرى فى منحنى من مناحى الشعر ، وكان البارودى — رحمهما الله — فى منحنى آخر ؛ فهما طرفا المحور الذى استدار عليه هذا الفلك لبدأ بعد تاريخه الميت تاريخًا حيًا ، وليخرج من الجو القائم فى أعراض الأرض إلى الفضاء المشرق بمعانى السماء ، ثم لينفض عنه فى مهب الرياح العلوية ما لصق به من طباع أهله وأخلاقهم ، ويعلق بها ما فتح الزمن عليهم من أبواب هذه الحرفة ، فكان الشعر فى حاجة إلى رجل كالمالك ، فأصاب رجلين ؛ وعلم الله ما رأيت فى كل من رأيتهم من الشعراء نفساً تعدُّ معهما ، ولا خلُقًا يجرى فى أخلاقهما ، ولا ظرفًا ولا رقة ولا أدبا ولا شيئًا يصلح أن يكون شرحًا منهما أو توكيداً لشيء فيهما أو تقوية لمعنى من معانيهما ، كأنا وجدنا ليكون أحدهما مبدأ والآخر نهاية ، ولينفردا انفراد الطرفين من المسافة بالغة ما بلغت .

كان الشعر لعهدهما بقية رثة فى معرض خلق مما كان يسميه أدباء الأندلس بالأغراض المشرقية وطريقة المشاركة ، وهم يعنون بذلك الصناعة والتكلف للبديع

* هو إسماعيل باشا صبرى ، توفى رحمه الله فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ م
(١) المقتطف : مايو سنة ١٩٢٣ .

والانصراف إلى اللفظ واستكراهه على الوجه الذى أرادوا ، إلى ما يتشعب من ذلك ويخرج أو يدخل فى بابه ؛ وقد كان هذا ومثله مما يُسأغ ويحتمل فى القرن الثامن وأكثر التاسع للهجرة ، ثم فى أيام بعد ذلك ؛ غير أنه بلى وتهتك فى مصر خاصة ولم يبق منه إلى منتصف القرن الثالث عشر إلا رقع وخيوط فى قصائد ومقاطيع .

ثم كان أكثر الشعراء يومئذ إنما يحترفون فن الأدب صناعة كسائر المهن والصناعات التى بها قوام العيش هؤلاء المستأكلين والمتكسبين من السوق والمرزقة .

* * *

ظهر البارودى ونبغ فى شعره قبل أن يقول صبرى الشعر بسنوات ، ولكن الأدب الفارسى والجزالة العربية هما اللذان تحولاً فيه ؛ ثم نبغ صبرى بعد ذلك بزمان ، فتحول فيه الأدب الأفرنجى والرقعة العربية ؛ وهذا موضع التفاوت فى شعر الرجلين اللذين اقتنصا الخيال الشعرى من طرفى الأرض ، وكلاهما يذهب مذهباً ويرجع إلى طبع ويروض شعره على وجه ؛ فالبارودى يستجزل ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة وشدة الجزالة ، ثم يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس فى ممر الوحي ؛ وصبرى يسترق ويضيف إلى صفاء لفظه جمال التخير وحلاوة الرقة ، ويعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب ؛ والبارودى لا يرى إلا ميزان اللسان يقيم عليه حروفه وكلماته ، وصبرى لا يرى إلا ميزان الذوق الذى هو من وراء اللسان ؛ وقد يسرت لكليهما أسباب ناحيته فى أحسن ما يتصرف فيه ؛ فجاء البارودى حافظاً كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين ، وجاء صبرى مفكراً كأنه مجموعة أذواق وأفكار ؛ وهما يشتركان معاً فى التلوُّم على صنعة الشعر والتأنى فى عمله وتقليبيه على وجوه من التصفح ، وتمحيصه بالنقد والابتلاء لفظاً لفظاً وجملة جملة ، ثم مطاولة معانيه ومصابرته كأنما يتترعان محاسنها من أيدي الملائكة ؛ وأنا أعرف ذلك فيهما ؛ وقال لى صبرى باشا مرة وقد جاريته فى بعض هذا المعنى : أنه يعلم هذا من البارودى ومن نفسه . قلت : أفيبلغ به ذلك أن يححو بياض اليوم فى سواد بيت واحد ؟ قال : فى سواد شطرة أحياًناً ! . وليس ينقصهما هذا الأمر شيئاً ، فإن خبر زهير فى حولياته معروف ، وقد عمل سبع قصائد فى سبع سنين :

يحولك القصيدة منها في سنة .

ونقلوا عن مروان بن أبي حفصة أنه قال : كنت أعمل القصيدة في أربعة أشهر ، وأحككها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر ، ثم أخرج بها إلى الناس ؛ فقليل هذا هو الحول المنقح .

كان مرجع البارودي إلى الحفظ ، فنبغ في وثبات قليلة ؛ أما صبرى فاحتاج إلى زمن حتى استحكمت ناحيته وآتته أسبابه على الإجادة ، لأن مرجعه إلى الذوق ، وهذا يكتسب بالمران وينضج عند نضوج الفكر ولا يأتي بالماء والرونق حتى تأتى له أسباب كثيرة ؛ وأنت تعرف ذلك في الرجلين من أوائل شعرهما ، فقد رثى البارودي أباه في سن العشرين بأبياته الدالية الشهيرة التى مطلعها :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحى والنادى
وهى ثمانية عشر بيتاً ، وجيدها جيد ، وكأنها خرجت من لسان أعرابى ؛ وإنما جاءته من صنعة الحفظ ، كالذى اتفق للشريف الرضى فى أبياته الخائية التى كتب بها إلى أبيه وعمره أربع عشرة سنة ، وكان أبوه معتقلاً بقلعة شيراز ومطلعها .

أبلغا عنى الحسين ألوكنا إن ذا الطود بعد بعدك ساخا
والشهاب الذى اصطليت لظاه عكست ضوءه الخطوب فباخا

هذا على أن البداية كما يقال مزله ؛ وقد وفقنا إلى الوقوف على أول ما نشر من شعر صبرى باشا ، وذلك قصيدتان نشرتا فى مجلة روضة المدارس فى مدح إسماعيل باشا ، فنشرت الأولى فى العدد الصادر فى غاية شوال سنة ١٢٨٧ للهجرة — ١٨٧٠ للميلاد ؛ ونشرت الثانية فى عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٧١ م ؛ وبينهما خمسة أشهر ، كانت وثبته فيها ضعيفة متقاصرة ، كما يدل على بطء نضجه بطبيعة الأسباب التى تسبب بها إلى الشعر ؛ وكانت الروضة يومئذ تنشر لطائفة من فحول دهرهم : كالسيد صالح مجدى ، ورفاعة بك رافع ، ومحمد أفندى قدرى « نابعة الزمان محمد أفندى رضوان » ، وغيرهم . وكانت تستقبل قصائدهم بسجعات داوية مفرقة ، هى لذلك العهد أشبه الأشياء بطلقات مدافع التحية للملوك والأمراء ؛ فلما نشرت لصبرى قالت فى القصيدة الأولى « تهتة بالعيد

الأكبر للخبديو الأعظم بقلم إسماعيل صبرى أفندى . وقالت فى الثانية « قصيدة رائية فى مدح الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب إسماعيل صبرى أفندى من تلامذة مدرسة الإدارة » . ومطلع القصيدة الأولى :

سفرت فلاح لنا هلالُ سعودٍ ونما الغرام بقلبي المعمود
ولا شئ فيها أكثر من حروف المطبعة . . . ومطلع الثانية :

أغرَّتكَ الغراء أم طلعة البدر وقامتلك الهيفاء أم عادل السمر

وفى هذه القصيدة بيت وقفت عنده أرى صبرى باشا فى صبرى أفندى كأنه خيال "مولود يستسهل" ، وذلك قوله :

فطولُ من الهجران علَّ وقوفنا يطول معاً - يا قاتلى - ساعة الحشر
ويكاد هذا البيت يكون أول انقلاب للفكرة فيه : وهو غريب ، والتأمل فيه أغرب ، ولكنه يدل على خيال سيثب يوماً على أقطار السموات .

وفى ذلك الزمن عينه كان البارودى شهاباً يتلهب ، وكان قد بلغ مبلغه واستجمع أسباب نهايته ، بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدته الشهيرة :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان

فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبرى ، ولم يكن ليغضى عن احتذاء هذه الصنعة البارعة ويأخذ فى غيرها لولا أن فيه طبعاً مستقلاً يذهب إلى كماله فى أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة فى غصنها ؛ وأخص أحوال صبرى أنه لم يرد أن يكون شاعراً فجاء أكبر من شاعر ، وكان السبب الذى صرفه من ناحية هو نفسه الذى جاء به من ناحية أخرى .

* * *

ينبغ الشاعر بأربعة أشياء لا بد منها : طريقة الدرس التى عالج بها الشعر ، وكتب هذه الطريقة ، والرجال الذين هم أمثلتها فى نفسه . ثم . . . ويا لله من ثم هذه ، فهى اللمعة السماوية التى تشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل ، والثلاث الأولى تنشئ نبوغاً معروفاً فى نوعه ومقداره ، ولكن الأخيرة هى طريق القدر التى لا يعرف آخرها ؛ وإذا تجددت فى حياة الشاعر أو اتصلت تجدد بها نبوغه أو اتصل ، فعلى قدر ما يحب تحبوه السوء من أسرار الجمال ،

وهي نفسها أجمل أسباب الشعر وأجمل معانيه وأجمل غاياته ، فهي هي المادة التي تُولف بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعري في هذا الكون كله ؛ وإذا أنت نزعت النظرة والابتسامة — وهما عنصرا تلك المادة — من حياة الشاعر ، نزعت الحياة نفسها من شعره فما يَبقى منه إلا أنه مقبرة للألفاظ والمعاني ، وتسمع شعره فلا تجزيه به أحسن من قولك : يرحمك الله . . . وصبرى لم يدرس الشعر في الكتب أكثر مما درسه في الوجوه والعيون ، وقد عالَج هذا الشعر في بدايته ليتأتى إليه من طريق البعيدة ؛ أما الرجال الذين كانوا أمثلته فكانوا رجال الظرف والرقّة والنكتة المصرية الشهيرة التي انفرد بها الطبع المصرى ونص عليها علماء البلاغة ، كالسكاكي وغيره ؛ بل كان عصره كله عصر هذه النكتة ، فتحولت في طبعه الرقيق المبتكر تحولاً رقيقاً مبتكراً أرجعها إلى الظرف المحض الذي اجتمعت فيه كل طباعه كما يجتمع السحاب من الماء .

ولقد كان في شعره أحق الناس بقول ابن سعيد المغربي :

أسكان مصر جاور النيل أرضكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشّعْر
وكان بتلك الأرض سحرٌ فما بقى سوى أثر يبدو على النظم والنثر

وإني أعلم أنه كان دائم الحب : يمزج ذكرى ماضيه بحاضره فيخرج منهما حباً جديداً ؛ وكان الرجل كأنه مجروح القلب ، فلا يزال يئن حتى في بعض أنفاسه ، إذ يرسل النفس الطويل بين هنيهة وأخرى كأنه يريد أن يطمئن أن نفسه فيه ، أو أن شيئاً باقياً في نفسه ؛ وتلك همهمة لا تكون في شاعر من الشعراء بغير معنى .

كانت النظرة والابتسامة تتمثل له حيث شاء وتعرضه حيث أراد أن يراها ، فيجد في كل شيء روحاً من الشعر ، ويقرأ لمحاتها متى التمت ، وكان يعيش في ذات نفسه كأنه معنى في قصيدة هو أمير أبياتنا .

فشاعرنا هذا أخرجهُ اثنان : الظرف والجمال ؛ وهذا سر إباطه أن يُعدّ من الشعراء لأنه أرفع من أن يدخل بينهم في هذه الحمة والبلوى التي ابتلوا بها . . .

ولقد همَّ صبرى في أواخر عمره بمحو شعره لو أنه كان في منال يده ، على أنه محامنه بإهماله أكثر مما أثبت ؛ وعلمت منه أنه لم يدوّن شيئاً ، وأنه ينسى

ما يقوله ، فكأنه يوجد بسبب واحد ويمحق بسببين ؛ وقد يمّا كان كبار العلماء متى انتهوا إلى التحقيق رأوا عمرهم كله بداية ورأوا ما فعلوا باطلا ففسلوا كتبهم أو أحرقوها ، ولكننا لم نعرف هذه الطبيعة في شاعر بعد عصر الكتابة والتدوين : وإن كان بعضهم يأنف لنفسه أن يعد من الشعراء وهو مع ذلك يجمع يدّه على شعره ، كالشريف الرضى الذى يقول :

مالك ترضى أن تعد شاعراً بعداً لها من عدد الفضائل
ويقول فى مدح أبيه :

إني لأرضى أن أراك ممدّحاً وعلاك لا ترضى بأنى شاعرٌ

ومثله أبو طالب المأمونى وآخرون يدعون ذلك دعوى وفى ألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

ولإفراط صبرى فى الظرف والجمال وقيام شعره على هذين الركنين ، جاء مقلّاً من أصحاب القصار ، وزاد إقلاله فى قيمة شعره ، فخرجت مقاطيعه تُخرج الشيء الطريف الذى يتعجب منه فى وجوده أكثر مما يتعجب منه لقلّة وجوده ؛ وبذلك ربح تعب المكثرين والمطيلين ، إذ كان لا يقول إلا فيما تؤاتيه السجية وينزع له الطبع ، فيدنو مأخذهُ ويكثر بقليله ويرى منه بمثل الحجة والبرهان ، فيطمس بهما على كلام طويل وجدل عريض .

ولا يعيب المقلّ أنه مقلّ إذا كثرت حسناته ، بل ذلك أعون له على القلوب والنفوس إذا أصابت فى شعره ما يغريها بطلب المزيد منه ؛ وقد عدّوا بين المقلّين فى الجاهلية : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعدينا ابن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصينا بن الحمام ، والمتلمس ، والحارث بن حلزة ، وابن كلثوم ، وغيرهم أتينا على أسمائهم فى الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) ؛ ومن أوائك من يعرف بالقصيدة الواحدة : كطرفة ، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد : كعلقمة ، أو بأربع : كعدى بن زيد ؛ ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ، ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير ؛ وقد يعرفون الشاعر بالبيت الفرد ، لأن العرب إنما يعتبرون الشعر بمقدار ما يحرك من ميزانه الطبيعى الذى هو القلب ، لا بالطول

ولا بالقصر ، وقد قالوا في بيت النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

إنه لا نظير له في كلام العرب ؛ وما ذلك إلا على الاعتبار الذى أشرنا إليه .
وكانوا يسمون البيت الواحد : بيتاً ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نثقة . وإلى العشرة تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيداً .

وكان من الشعراء من يعتمد أن لا يجيء في شعره الجيد بغير البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، كشاعرنا صبرى باشا ؛ ومنهم عقيل بن علفة : كان يقصر هجاءه ، ويقول : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومنهم أبو المهوس ، وكان يحتاج لذلك بأنه لم يجد المثل النادر إلا بيتاً واحداً ، ولم يجد الشعر الساء إلا بيتاً واحداً ؛ ومنهم الجهمي : قال له بعضهم وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مُدَارعة ؟ ؟ ؟ وابن لنكك المصرى ، وابن فارس ، ومنصور الفقيه الذى كان يقال فيه : إذا رمح بزوجه قتل . ولا نستقصي في هذا فلندعه فإن له موضعاً .

غير أن صبرى كان له مع جودة المقاطيع جودة القصيد إذا قصد ، كقوم عرفوا بذلك في التاريخ ، منهم العباس بن الأحنف وسواه ؛ وكان من أسباب إقلاله ما أعلمني به من أن طريقتة في أكثر ما ينظم معارضة معنى يقف عليه ، أو تضمين حكمة ، أو ضرب مثل على طريقة النظر والملاحظة ، أو تدوين خطرة عرضت له ، أو لحظة أوحيت إليه ؛ وهو ينزل في ذلك على النصفة والمعدلة فلا ينتحل شيئاً ليس له ، بل يدلّك بنفسه على الأصل الذى منه أخذ أو المثل الذى عليه احتذى .

قال لى مرة إن البستاني عقد حكمة فارسية في قوله :

قضيت إلهي بالعذاب فيا ترى بأى مكان بالعذاب تدين
وليس عذابٌ حيثما أنت كائن وأى مكان لست فيه تكون ؟

ثم قال : فأخذت من هذا المعنى وقلت :

يا ربّ أين ترى تمام جهنم للظالمين غداً وللأشهرار
لم يبق عفوك في السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار

يا ربِّ أهْلَنْتَنِي لِفَضْلِكَ وَكَفَيْتَنِي
وَمُرُّ الْوُجُودِ يَشْفِ عَنْكَ لَكُمِّي أَرَى
يا عَالِمِ الْأَسْرَارِ حَسْبِي مَحَنَةٌ
وَالْفَرْقُ بَيْنَ الشَّعْرَيْنِ أَنَّ الْبَسْتَانِي جَاءَ بِكَلَامِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا
طَرِيقَةَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، كَابِنِ الْعَرَبِيِّ وَالشُّشْتَرِيِّ ؛ وَأَمَّا صَبْرِي فَانْظُرْ كَيْفَ اسْتَوْفَى
وَكَيْفَ لَاعَمَ وَكَيْفَ امْتَلَأَتْ أَعْطَافُ شَعْرِهِ .
وَقَدْ يَأْخُذُ الْمَأْخُذَ الدَّقِيقَ الَّذِي لَا يَنْتَبِهُ لَهُ إِلَّا الْمُطْلِعُ الْحَاقِقُ بِصَنَاعَةِ الْكَلَامِ ،
كَقَوْلِهِ :

إِذَا مَا صَدِيقٌ عَقَّيْتُ بَعْدَاوَةَ وَفَوَّقْتُ يَوْمًا فِي مَقَاتِلِهِ سَهْمِي
تَعْرِضُ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَسَّرَ سَهْمِي فَانْتَشِيتُ وَلَمْ أَرَمِ
فَهَذَا يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ وَعْلَةَ :
قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمِّمِ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يَصِيْبُنِي سَهْمِي
وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ ؛ فَإِنَّ أَسَاسَ الْمَعْنَى قَوْلُهُ : « تَعْرِضُ طَيْفُ الْوُدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ »
وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ :

وَلِذَا مَا مَدَدْتُ طَرَفِي إِلَى غِيَرِكَ مُشَلَّتَ دُونَهُ فَأَرَاكَ
فَتَأْمَلُ كَيْفَ أَبْدَعَ فِي انْتِزَاعِ الْمَعْنَى وَكَيْفَ جَعَلَ لَهُ مَعْرَضًا جَدِيدًا وَكَيْفَ أَذَاهُ
أَحْسَنَ تَأْدِيَةً فِي الْلُطْفِ وَجِهَ كَأَنَّهُ شَيْءٌ مَخْتَرَعٌ .

وَمِنْ شَعْرِهِ السَّائِرِ قَوْلُهُ فِي الْعِنَاقِ وَتِلَازِمِ الْحَبِيبِينَ :
وَلَمَّا التَّقْيِينَا قَرَّبَ الشُّوقُ جَهْدَهُ شَجِيئِينَ فَاضًا لَوْعَةً وَعَتَابًا
كَأَنَّ صَدِيقًا فِي خِلَالِ صَدِيقِهِ تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ الْعِنَاقِ وَغَابَا
وَهَذَا الْمَعْنَى عَلَى إِبْدَاعِهِ فِيهِ مَتَدَاوِلٌ ، وَأَصْلُهُ لِبَشَارٍ - أَظُنْ - فِي قَوْلِهِ (١) :

(١) الْبَيْتُ لَعَلَى بْنِ الْجَهْمِ ، وَقِيلَ :

أَلَا رَبُّ لَيْلٍ ضَمْنَا بَعْدَ هَجْمَةٍ وَأَدْنَى فُؤَادًا مِنْ فُؤَادِ مَذْأَبٍ
أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ بَشَارٍ :

وَسُرَّتِجَةُ الْأَعْطَافِ مَهْضُومَةُ الْحَشَا تَمُورُ بِسَحَرِ عَيْنِهَا وَتَلْدُورُ
إِذَا نَظَرْتُ صَبْتٌ عَلَيْكَ صَبَابَةٌ وَكَادَتْ قُلُوبُ الْمَاشِقِينَ تَطِيرُ
خَلَّوَتْ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصَّبْحِ دُونَ حَاجِبٍ وَسُورُ

وبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تَسْرَبْ
فأبدع صبرى فى أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدة جوهرة تتألق ؛
على أنى لا أستحسن قوله : « كأن صديقاً . . . » فها هذا بعناق الأصدقاء ،
ولو كان الصديق راجعاً من سفر الآخرة ؛ وإذا غاب واحد فى الآخر ، فالآخر
حامل به . . . وقد أخذت أنا هذا المعنى منه ، ولولاه ما اهتديت إليه ، فقلت
فى ذلك :

ولمّا التقينا ضمنا الحب ضمةً بها كل ما فى مهجتينا من الحب
وشدّ الهوى صدرًا لصدْرِ كأنما يريدُ الهوى إنفاذ قلب إلى قلبِ

* * *

وأحسن ما تجد شعر صبرى فى الغزل والنسيب والوصف والحكمة ، فهى
عناصر قلبه وذوقه ، ولا يتصرف معه أقوى ما يتصرف إلا فى هذه الأغراض ،
ولعله إن جاوزها قصر معه شيئاً ما وضعفت أداتُه ضعفًا ما ، لأنه يكون شاعر
الصنعة وهو يأبأها ويكره أن يكون شاعرًا من أجلها ؛ وقلما يجاريه أحد فى
تلك الأغراض ، وهو الذى فتح أبوابها ؛ وحسبك أنه المثال الذى اختدى
عليه شوق بك ؛ وقد ينقسم المعنى الواحد فى رجلين حين يقدر ، فإذا لم يوجد
أحدهما لم يوجد الآخر ، وأنا أرى وأعلم أنه لولا صبرى لما نبغ شوقى ، وكان
هذا يختلف إليه يعرض عليه شعره ويرجع بآثار ذوقه فيه ، وكذلك كان يفعل
خليفة البارودى حافظ بك إبراهيم : واسترشد شوقى من صبرى باشا هذا البيت
السائر :

صوى جمالك عنا إننا بشرٌ من التراب وهذا الحسن روحانى
فهو لصبرى باشا ، والمرافدة سنّة معروفة من قديم ، وهى غير الانتحال وغير
السرقة وما يسمى إغارةً وغصبًا ؛ وقد استرشد النابغة زهيراً فأمر ابنه كعباً فرفده ،
والحكاية فى ذلك مشهورة عنه وعن سواه .

ولم يكن فى مصر ممن يحسن ذوق البيان وتمييز أقدار الألفاظ بعضها من بعض
والوان دلالتها كالبارودى وصبرى وإبراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده ، رحمهم الله
جميعاً ؛ والبارودى يذوق بالسليقة ، وصبرى بالعاطفة ، والمويلحى بالظرف ،

والشيخ بالبصيرة النفاذة ؛ وذلك شيء ركبته الله في طبيعة صبرى لم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ، ومن أجله كان يفضل البحرى على غيره ، وهو بلا نزاع بحرئى مصر ، كما لقبوا ابن زيدون بحرئى المغرب ؛ وإنك لتجد بعض الألفاظ في شعر الرجل كأنها شعر مع الشعر ، فتقف على العبارة منها وقلبك يتنفس عليها كأنها إنما وضعت لقلبك خاصة ، فهى تغمز عليه غمزاً وكأنها نفثة ملك من الملائكة جاءتك في نفَس من أنفاس الجنة .

ويمتاز نسيبه بأنه يكاد يكون في طهارته وعفته ضوءاً من جمال الشمس والقمر ، وهو عندى أنسب من العباس بن الأحنف الذى صرف كل شعره إلى هذا المعنى ؛ ولو أن عصره كان عصر أدب صحيح لأخمل كل شعراء هذا الباب ، من ابن أبى ربيعة إلى طبقة عشاق العرب إلى أئمة الطريقة الغرامية لآخر القرن السابع .

ومن غزله البديع قوله :

يا مَنْ أقامَ فؤادى إذ تملكه
تفديك أعين قوم حولك ازدحمت
جردت كل مליح من ملاحظته
وقوله :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً
ولا بشافعة فى رد ما كانا
خفق الصباة فاخفق وحدك الآن

ويا رحمة الله للقلب الذى يفهم هذا البيت ، فإنه ليجن به من يكون فيه استعداد لهذا النوع من الجنون .

ومن قلائده الغرامية قوله :

يا آسى الحى هل فشتت فى كبدى
أواه من حرق أودت بمعظمها
يا شوق رقياً بأضلاع عصفت بها
وله قصيدة (تمثال جمال) وقد نظمها لتتنقل إلى الفرنسية ، ومن عيونها

قوله :

وابسـمى ، مـن كان هـذا ثـغرُه
يملأُ الدنـيا ابتـساماً وازدهاءً
لا تخافـي شـططاً مـن أنـفـس
تـعـثر الصـبـوة فـيـها بالـحياء
راضـت النـخوة مـن أخـلاقـنا
وارتضى آدابـنا حـسن الـولاء
فلو امتدَّت أمانـينا إلـى
ملك ما كدـرت ذاك الصـفاء

والشعراء من أول تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون في معنى قوله « لا تخافي شططاً » الأبيات ، وما منهم من وفق إلى مثل هذا البيت الأخير ، وإن كان بعضهم بلغ الغاية ، كابن نباتة السعدي والسري الرفاء وغيرهما .

ومن أبدع ما اتفق له في الوصف أبيات في الدواة تخلص في آخرها إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو تخلص ليس في الشعر العربي كله مثله في الإبداع وحسن الاختراع ، يقول فيها :

أكرـم العلم وامنحـي خادميـه
ماءك الغالى النفيس الثمينـا
وابذلـى الصافى المطهـر منه
لهـداة السـرائر المـرشدينا
ولـذا الظلم والظلامُ اسـتـعانا
يـوم نحس بأجهـل الجاهـلينا
واسـتـمداً مـن الشرورِ مداداً
فاجعلـيه مـن قسـمة الظالمينا
واقـد في النقطة التى باتـ فيها
غـضبُ القاهر المذل كـينـا
ليراع امرئٌ إذا خطـ سـطرا
نـبـذ الحق وارـتضى المـمـسـين دينا
ولـذا كان فيك نقطة سوء
كـوتـ من خبـائة تـكوينا
فاجعلـيها قسـطَ الذين اسـتـباحوا
فـى السياسـات حـرمة الأضعفينا
ولـذا خفت أن يكون مـن الصـخـر
ر جـلاميد تـرجـم السامعينا
فابـخلـى بالمـداد بـخلا وإن أعـطيـه
ت فيه المـئين ثم المـئينا
فإذا أعوز المسـداد طـيـبـاً
يـصف الداء دائبـاً مستعينا
فامنحـيه المـراد مـنا وعـرفـاً
واسـتـطـبـى مـعـونة المحسنينا
ولـذا مـهـجة الحمايم أسـدت
نقطة سرّها الزكى المـصـونا
فاجعلـيها على المودات وقـفـاً
وهـبـيها رسـائل الشـيـتـقينا
فإذا لم يكن بـقلبـك إلـا
ما أعدّ الإخلاص للمخلصينا
فاجعلـيه حظى لأكتب منه
شرح حالى لسيد المرسلينا

هذا والله هو الشعر ، وما وفق إلى مثله أحد كائنًا من كان في هذا العصر .

* * *

ولا نطيل بالنقل من شعره وتتبع أغراضه ، فهو كالألماص في الشمس : يشع
من كل جهة ، ولا يختلف ضوءه إلا في بعض اللون مما يكون الأجمل فيما كله
جمال ، ويمجُّ من الشعاع ما لا تجد حسنة في الشعاع نفسه ، وأحيانًا يرق كبعض
البلور فيمتص حرارة الشمس ويستوقد بها في ذاته ليضرم ما وراء قلبه ، وما وراءه
إلا قلوبنا الحزينة عليه رحمه الله !

* * *

حافظ إبراهيم^(١)

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لم يَعُدْ حافظ بيننا إلا شعره ونثره ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديّ إلا وأحسست أن ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانه الرائع وصناعته البديعة : أنا هنا !

ولغةُ هذا الشعر المتدفّعة بالحياة كأن كلماتها القوية عروقٌ في جسمٍ حيّ متوثب - لم تخرج عن أن تكون هي العربية المبينة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كله من يكابر أو يمارى في أنها هي لغة حافظ وحده ، كأنه أرغم التاريخ أن يحتفظ به في أجمل آثاره .

وأنا أعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سائير إلى بعضها ، ولكني على ما أعرفه أجد هذا الشعر كالتيسار يعُيبُ عيباً لا يبالي ما تناثر منه وما ركذ وما وقع في غير موقعه ، إذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في أجزاء منها ، وفي السر الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون به في موضع دون موضع ؛ فهو أبداً يقول لمن يتصفح عليه أو ينتقده : انظر لما بقي .

* * *

ترجع صداقتي لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ ، أول عهدي بالأدب وطلبه ، وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الأدبي عالياً فعالياً إلى الذروة التي انتهى إليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته ، وكان هَمَّك من أخ كريم ، وله في نفسى مكان لم ينكره مذ عرفته ، ولم يضق بمحبته منذ اتسع لها . وكنت وإياه يرى أحدهما الآخر من هذه اللغة كالبانين لصورة واحدة : لا يتهماً في الطبيعة أن يختلفا والصورة بعدُ قائمة ، ولا أن يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير .

ولكن هذا لا يمنعني أن أقرر أنه كان عندي أكبر من شعره - ولعله كذلك عند كل من خلطوه بأنفسهم - فإنه يتعاضلك بنفسه القوية وبالمعنى الذي تحسه في العبرى ولا تدرى ما هو ؛ وذلك من سحر العبريين وأثرهم في نفس

من يتصل بهم . فيتسقُّ لهم أمران من أمر واحد ، وحظَّان يحظ ، ونصيبان بنصيب ؛ لأن مع الإعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوة التي أبدعت هذه الآثار ؛ ففي ذواتهم الخبوة يستمر الإعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليه ، وفي آثارهم يكون الإعجاب في موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حد إن بُعد وإن قرب .

لا جرم كان شاعرنا عبقريةً عجيب الصنعة قوى الإلهام بليغ الأثر في عصره ، يشبه تحولاً وقع في صورة من صور التاريخ ، ولكنه كذلك في مذاهب من الشعر دون غيرها ، فلم يكن معه من التمام في فنون الشعر ما يكون به الشاعر التام أو الأديب الكامل الأداة ؛ وكم من مرة كلمته في ذلك ونهته إلى أنه كالنمط الواحد ، وأنه يجب أن يترسَّل شعره بين النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة ، فإذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة ، ولا ينبغي أن يكون شعره كله كشمس الصيف ، فإن للربيع شمساً أجمل منها وأحسب كأنها مجمعة من أزهاره وعطره ونسيمه .

ولقد كان يفخر بأنه (الشاعر الاجتماعي) ، وهذا لقب ميزه به صديقنا الأستاذ محمد كرد علي أيام كان في مصر قديماً ، فتعلق به حافظ ورآه تعبيراً صحيحاً لما في نفسه وللملكة التي اختص بها ، قال لي يوماً في سنة ١٩٠٣ : أنا لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت له ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة : إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد . . .

ولا بد لي أن أبسط هذا المعنى في هذا الفصل ، فإنه كان يخيَّل إلى دائماً أن شاعرنا (حافظ) خلق للتاريخ في أصل طبيعته ، ثم زيدت فيه موهبة الشعر ليكون مؤرخاً حتى الوصف بليغ التأثير قوى التصرف ؛ ومن ثم جاء أكثر ما نظمته وأساسه التاريخ والسياسة ، وصحَّ له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان في المادة اجتماعي وسياسي فليس في الروح إلا الشاعر على إطلاقه ؛ والاجتماعيات ليست كل حقائق الحياة ، وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها ؛ على أن الحقائق ليست هي الشعر ، وإنما الشعر تصويرها والإحساس بها في شكل حتى تلبسه الحقيقة من النفس ،

فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيزٍ محدود من وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فناً ، إذ كان الفن إنسانياً وكان شاملاً عاماً ؛ والمقاييس التي يطَّرد عليها الفن الأدبي لا تكون في الزمن ولا في الموضوع ، بل في النفس الإنسانية التي لا تخص بوقت ولا مكان ، فإذا لم يكن الشعر إنسانياً عاماً يولد كل جيل من الناس فيجده كأما وضع له وارتهن بأغراضه وحقائقه ، فهو شعر (كالأخبار المحلية) ، وهذا وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد .

فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالأشياء التي نحن منها في الإنسانية والطبيعة والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . . . فإذا مات اليوم ماتت الجريدة ، ثم تولد ثم تموت ؛ وقد أدرك المتنبي سرَّ الشعر وأنه قائم على تحويل الشعور الإنساني إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحي من العربية ما بقيت . وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص ، وعلى أن المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ، ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والذائل في كمالها الفني مقام تماثيل بارعة من الجمال ، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق .

إن هذا الكون مبني في نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه إلا الله وحده ، ولكنه مبني في أنفسنا من عمل الحواس ، ثم من التعليل والتفسير ؛ أما الحواس ففي كل حيٍّ ، لا تُخلق بصناعة ولا عمل ؛ وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب ، فكلاهما يُخلق لإتمام الخلق في الحقيقة ، وهي منزلة لا أدرى كيف يمكن أن تمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعي أو السياسي ، فترجع به نمطاً واحداً ، مع أن الآثار الأدبية وفي جملتها الشعر — إن هي إلا قوى الفكر وإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلها في بواعثها وأسبابها من نفس عالية ممتازة ؛ وهذه القوى كثيرة التحول ، فيجب ضرورة أن تكون آثارها كثيرة التنوع ، وتنوع الصور الفكرية في آثار الشاعر أو الأديب ومجيئها متوافرة متتابعة

هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً أو نازلاً ، ومتبّعاً أو مبتكراً ، وفيما يضيء من نواحيه وما ينطوى .

على أن شاعرنا الاجتماعي (كما كان يجب أن يوصف رحمه الله) وإن كان قد نفخ في روح الشعب أنفاساً إلهية ، وأحسن في وصف حوادثه وآلامه وعبوبه ، وأبلغ البيان في كل ذلك — فإنه نزل في هذه المرتبة عن وضعه الصحيح ، فكان في منزلته بمكان الشرطي في الطريق : يقف للجرائم والحوادث ، على حين أن مقامه الاجتماعي من الشعب مقام المعلم في مدرسته : يجلس للطباع والأخلاق . ليس الشأن أن تجد في شعر الشاعر حوادث عصره أكثرها أو أقلها ، فإن فوق هذه منزلة أعلى منها ، وهي أن توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر ، وأن يكون في شعره العنصر الناري من اللغة الشعبية .

على أن (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا في آخر عهده ، فكان يريد أن يميت ديوانه ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيه ألف بيت ويسقط ما عداها وإن ... وإن كان فيه شعرا اجتماعي ومع هذا النقص الذي بعثت عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً ، فإن تمام حافظ في مذهبه الاجتماعي الذي نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة ، لا يجاريه فيه شاعر آخر ، بحيث دلّ على أن النابعة قدرٌ إلهي لا ينقص من عظمته أن يكون حادثة واحدة تدوى دويها في الدنيا ؛ فهو مُيسّرٌ منذ نشأته لما خلّق له من ذلك ، فأحكمته المدرسة الحربية ، ثم قيّدهُ الجيش ، ثم تقادفه السودان ، ثم قذف به الظلم ، ثم تولاه إمام عصره الشيخ محمد عبده ، وهو كذلك في غاياته الوعرة ومقاصده العمرانية ومعاناته للإصلاح — مدرسة حربية وجيش وفلاة ، فلم يكن حافظ إلا الصوت الإنساني الذي أُعيدَ بخصائصه للتعبير عن حوادث أمته وخصائصها ، وكأنه في نقلته من السودان إلى مصر قد انتقل من جيش يحارب الأقوام الأعداء لأمته ، إلى جيش آخر يحارب المعاني الأعداء لأمته .

* * *

ولد حافظ لإبراهيم سنة ١٨٧١ ، وكان الكتاب الأول الذي هداه إلى سر الأدب العربي وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته ، هو كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ

حسين المرصني ، المطبوع في مصر لخمس وخمسين سنة ؛ ففي هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربي في عصوره المختلفة ودرس ذوق البلاغة في أسمى ما يبلغ بها الذوق ، ووقف على أسرار تركيبها ، وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي ، وهي قراءته دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم ، وحفظه الكثير منها ؛ فبنى شاعرنا من يومئذ قريحته على الحفظ ، ولم يزل يحفظ إلى آخر عمره ؛ إذ كانت قريحته كآلة التصوير : لا تُنسبَ لشيء إلا علقتة وهذا سبب من أسباب ضعف خياله ، ولكنه ردَّ عليه من القوة في اللغة ما تنهى فيه إلى الغاية .

واتفق لذلك العهد أن طبعت لزوميات المعري في مصر ، فتناولها حافظ واستظهر أكثرها ، فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشعر الاجتماعي ؛ والفرق بين حافظ وبين المعري في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعري إلى أسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله ، يطير هناك ويقع .

وقد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية ، فاستصعبت عليه أسرار واستغلقت أخرى من أسرار الخير والشر في الحياة ، والجمال والحسن في الخليقة ، والجلال والإبداع في الكون ، والإقرار والشك في كل ذلك ؛ وقد بلغ المعري من هذا مبلغاً لا بأس به ، إلا أنه لم يُصَفَّ كما تصفَّى الأشياء في عين مبصرة ؛ فحبط وخلط ؛ ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً . وتابعه حافظ في طريقة أخرى سنشير إليها بعد .

وقتن شاعرنا بما قرأ في « الوسيلة » من شعر البارودي ، فأصبح من يومئذ تلميذه ، وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومثانة الصنعة وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجراس الحروف ، ولكنه لم يدرك شأو البارودي في ذلك ؛ لأن هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الأدب ما لم يتفق لغيره في عصره ، وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في ألف سنة من تاريخ البلاغة العربية ؛ ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع ولزمها إلى آخر مدته .

وابتداً يعالج الشعر في السودان وينظم في جنس ما هو بسيله من وصف

الهم المستولى عليه من جميع جهاته ؛ إذ كان يتيمًا فقيرًا مشردًا ، ويرى نفسه شاعرًا تصده الحياة عن منزلة الشاعر وعن أمكنة الشعر ، كالذى غُصِبَ ميراثه من عرش ومُلْك ، ونُتِى إلى غير أرضه ، ووضعت روحه بإزاء روح الفقر وقيل لها: عدو ما من صداقته بُدَّ .

ثم جاء إلى مصر واتصل بالإمام الشيخ محمد عبده ، واستقال من الجيش وفرغ للأدب ؛ فبدأ من ثم تكوينه الأدبي المندمج المحكم ، أما قبل ذلك إلى سنة ١٩٠١ التى طبع فيها الجزء الأول من ديوانه ، فكان شعره قليلًا ظاهر التكلف ، وأكثره يدل على طريقة مضطربة لم تستحكم ، وفكر لم ينضج ، وموهبة فى التوليد الشعرى بينها وبين الاستقلال أمد قريب .

ودرس فى مدرسة الشيخ محمد عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٥ ، وهذا الإمام رحمه الله كان من كل نواحيه رجالًا فذًا ، وكأنه نبى تأخر عن زمنه ؛ فأعطى الشريعة ، ولكن فى عزيمته ، ووهب الوحي ولكن فى عقله ، واتصل بالسر القدسى ولكن من قلبه ؛ ولولا هو ولولا أنه بهذه الخصائص ، لكان حافظ شاعرًا من الطبقة الثانية ، فإنه من الشيخ وحده كانت له هذه القوة التى جعلته يصيب الإلهام من كل عظيم يعرفه ، وكان له من أثرها هذا الشعر المتين فى وصف العظماء والعظائم وهو أحسن شعره .

ولم يجد حافظ من قومه ما يجعله لسانهم حتى تنطقه بالوحي نفسيتهم التاريخية الكبرى ، ولا تولاهُ ملك أو أمير يرغب فى أدبه رغبة أديب ملك ، أو أديب أمير ، ليظهر منه عبقرية جديدة فى التاريخ ؛ ولا عرف الحب الذى يجعل للشاعر من سحر الحبيب ما يجمع النفسية التاريخية والملكية معًا ويزيد عليهما ؛ وهذه الثلاثة التى لم تتفق لحافظ ، هى التى لا ينبغ الشاعر نبوغًا يفرد ويميزه إلا بواحد منها أو باثنين أو بها كلها ؛ غير أن (حافظ) وجد فى الإمام ما هو أسمى من كل هؤلاء فى النفس والحادبية ، وعرف فيه من ذوق الأدب والبلاغة ما لم يعرف شاعر فى ملك ولا أمير ؛ وقد حضر دروسه فى المنطق وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وخرج منها بذوقه الدقيق وأسلوبه المتمكن ، وحضر مجالسه وخرج منها بمواضيعه الاجتماعية وأغراضه الثابتة ، وحضر نظرات

عينيه وخرج منها بروحانية قوية هي التي تنضرم في شعره إلى الأبد ؛ فحافظ لإحدى حسنات الشيخ على العالم العربي ، وهو خطة من خطته في عمله للإصلاح الشرقي الإسلامي والنهضة المصرية الوطنية وإحياء العربية وآدابها ؛ وإذا ذكرت حسنات الشيخ أو عدت للتاريخ ، وجب أن يقال : أصلح وفعل وفعل وفسر القرآن وأنشأ حافظ إبراهيم . . .

ومضى شاعرنا موجَّهًا بفكرة الإمام وروحه ، واستمرَّ في ذلك بعد موت الشيخ كما يستمر النهر إذا احتفر مجراه : لا يستطيع أن يخرج عنه ما دام يجري إلى مَقَارِهِ .

* * *

وكان حافظ في بديعه وصناعته على مذهب مسلم بن الوليد كما قلنا ، وهو مثله إبطاءً في عمل الشعر ، وتلَوُّماً على حَوَكِهِ ، وانفراداً بكل لفظة منه ، وتقليباً للنظر فيما بين الكلمة والكلمة ، واعتبار كل بيت كالعروس : لها معروض وحلية وزينة ؛ فإذا عمل شعراً أنبت خواطره في كل وجه ، وذهب وراء الألفاظ والمعاني ، وترك هاجسه (العقل الباطن)^(١) يعمل عمله فيما التوى عليه أو استصعب ، وهو واثق أنه سينقاد ويتسهل بقوة إن لم تكن فيه الآن فستكون فيه ؛ ثم ينظم ما يتسمَّح إن جاء في موضعه من القصيدة أو في غير موضعه ، فلا يتبع فيها نسقاً بعينه ، وإنما القصيدة عنده كلُّ شيء مجتمع من بعد ، تنهياً أجزاءه متسقة ومبعثرة كما يجيء بها الإلهام وأسباب الاتفاق ؛ فالقصيدة أولاً في أبياتها ، ثم تكون أبياتها فيها ، أي ثم ترتب الأبيات وتترل في منازلها ، ولا ينظم إلا متغنياً ، يروض الشعر بذلك ، لأن النفس تتفتح للموسيقى فتسمح وتنقاد ، وهو يتبع في ذلك طريقة معروفة ذكرها ابن حجة الحموي في كتابه ~~خزانة~~ الأدب ، وهي من وصية أبي تمام البحتري ، وكان المتنبي يعمل عليها ؛ وبالجملية فإن (حافظ) يرتهن فكره بالقصيدة التي ينظمها ويتوفر عليها وعلى أسبابها ، لا كما يفرغ الشاعر للشعر ، ولكن كما يتوفر المؤلف العظيم على كتاب يؤلفه ؛ وهو كذلك يبطل في نثره أكثر مما يبطل في الشعر ، دلَّني بنفسه رحمه الله على صفحة في الجزء الثاني من ترجمة البؤساء ،

(١) كذا سماه المؤلف هنا ، وقد سماه في غير هذا الموضع « الواعية للباطنة » .

وقال إنه ترجمها خمسة عشر يوماً * .

وحضرته مرة يترجم أسطراً من الجزء الأول (في قهوة الشيثة) يخطها في دفتر صغير دون حجم الكف ، فاجتمعت له ثلاثة أسطر في ثلاث ساعات ، وهذا لا يعيبه ما دام يريد قسط الفن ، وما دام يحاول أن يخرج الكلمات من عالمها إلى عالمه هو المتموج من الألفاظ والعبارات بمثل الكواكب في الاستواء والجاذبية والشعاع والروثق والجمال .

ويرى مع الصناعة أن يكون سبك شعره سبك البدوي المطبوع : جزلاً سهلاً مشرقاً ممتلئاً متعادلاً الأجزاء والتقاسيم ، ينّ رنيناً كأنما قذفت به سليقة أعرابي فصيح ، تحت ضوء كواكب البادية ، على برّد الرمل ، في نسيمات الليل ، حين تمتلئ تلك النفس البدوية بجنين الحب ، أو شوق الجمال ، أو عظمة القوة ؛ وهذا هو الأصل الذي اتبعه ، وقفى عليه هو بنفسه في سنة ١٩٠٢ ، وقرظى به في الجزء الأول من ديوانى فقال :

أنت والله كاتبٌ حضريٌّ إن عددناك شاعراً بدوياً

ولو أنك أجريت شعر حافظ في أبلغ ما قاله المطبوعون من الأعراب وشعراء القرن الأول ، لالتأم به وزاد عليه في الصناعة وبعض المعنى ؛ وقلّ أن تجد في شعره كلمة ينسبها مكانها ، إلاّ ألفاظاً قليلة كان يستكرهها ، يحسب أنه يستطرد منها ويرى في غرابتها شيئاً جديداً ؛ وهذا من خطأ رأيه في الأسلوب لأنه مع بلاغته كان ينقصه أن يكون فيلسوفاً في البلاغة ؛ وأنا أرى أنه لو تمت له الموهبة الفلسفية لما جاره شاعر آخر ، ولكن الكمال عزيز في البشرية ؛ وقد عرفتُ رأيه في الأسلوب في سنة ١٩٠٦ ، إذ نشرت له مجلة الأفلام التي كان يصدرها صاحبنا الأديب جورج طنوس كلمات كان يريد أن يضمّنها كتابه (ليالى سطيح) ، أظهر فيها رأيه في الشعراء ، فقال في إسماعيل صبرى : يقول الشعر لنفسه لا للناس . وفي شوق : أرق الشعراء ، طبعاً وأسماءهم خيالاً . وفي مطران : أسرعهم بديهةً وأقدرهم ابتكاراً . وقال في — ولم يكن مضى على إلا ست سنين في طلب الأدب —

* لما أهدى إلى هذا الجزء كنا قبل الظهر ، فلم يدعى حتى قرأته كله معه إلى العصر وكتبته عنه في المقطع بعد ذلك .

مكتنار راقى الخيال بعيد الشوط فى ميادين الأدب ، غير ناضج الأسلوب . فلما اجتمعت به فاتحتهُ فى ذلك وسألته رأيه فى الأسلوب الناضج ، فلم أرَ عنده طائلا ، وكل ما قاله فى ذلك : أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني قرر أن البلاغة ليست فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها فى الأسلوب . وعبد القاهر لم يقل هذا ولا قاله غيره ، فإن الأسلوب عنده « طريقة مخصوصة فى نسق الألفاظ بعضها على بعض لترتيب المعانى فى النفس وتنزيلها » ، « وأن المتزلة من حيز المعانى دون الألفاظ ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك » .

وقد قررت له أن للألفاظ ما يشبه الألوان ، فليست كلها زرقاء ولا صفراء ولا حمراء ، ورب لفظة رقيقة تقع ضعيفة فى موضع فيكون ضعفها فى موضعها ذاك هو كل بلاغتها وقوتها ، كفترة السكوت بين أنغام الموسيقى : هى فى نفسها صمت لا قيمة له : ولكنها فى موضعها بين الأنغام نغم آخر ذو تأثير بسكونه لا برنينه ؛ وهذا من روح الفن فى الأسلوب .

وأدرك شاعرنا من يومئذ ما سميته « قوة الضعف » ، ولعلَّ هذا هو السبب فى أن طبعه رجع يعدل به إلى التسهيل ، حتى إنه لتقع فى شعره أبيات متهافئة فيأتى بها ولا ينكرها ؛ ولقيني مرة فأنشدنى قول الشاعر :

أنا لم أرزق محبتها إنما للبعد ما رُزقا

وجعل يُعَجِّبُنِي من بلاغة قوله (لم أرزق) وأنها مع ذلك ضعيفة مُبْتَدِلَةٌ تجرى فى منطق كل عاى ، قلت : ولكن (محبتها) جعلتها كمحبتها

* * *

وضعف الموهبة الفلسفية فى حافظ عوضه ناحيةً أخرى من أقوى القوة فى الشعر ، وهى اهتدأؤه إلى حقيقة الغرض الذى ينظم فيه ، وتركه الحواشى والزيادات ، وانصرافُ قواه إلى دقة الوصف حين يصف ، وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكره ؛ فزاد ذلك فى رونق شعره ومائه ، ونحا به منحى المطبوعين ، فخرج يتدفق سلاسةً وحلاوةً ، ممتلئاً من صواب المعنى وبلاغة الأداء وقوة التأثير ؛ وبهذا نبغ فى الرثاء ووصف الفجائع نبوغاً انفرد به ، حتى

لأحسب أن هناك رُوحاً يمدُّه في هذه المواقف ، وأن الحقيقة تتبرَّج له في هذه العظائم خاصة ليرى منها ما لا يراه غيره ؛ وهو يتحد بالعظيم الذى يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة منتطعة النظير ، تبين الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة ؛ وأحسبه يسأل روح العظيم الذى يصفه أو يرثيه : أين المعنى الذى فيه حقيقتك ؟ وأين الحقيقة التى فيها معناك ؟

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل في الشاعر الملهَم ذلك السرُّ الجميل الجاذبُ والمنجذب معاً ، المستقر والمتحول جميعاً ، الباطن والظاهر في وقت ؛ فيكتنه الشاعر ما لا يدركه غيره ، فيقف على الجمال والحسن والرقّة ، ويلهم الحكمة والبصيرة ، ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب ، ويؤتّى التعبير عن كل ذلك في طريقة خاصة به هي أسلوبه ، وهذا لم يتفق على أتمّه وأحسنه في حافظ ، فقصر به في توليد المعاني المبتكرة ، ونزل به في الغزل ووصف الجمال ؛ بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه في (الجانب المتألم من شعره) ، أى الرثاء والشكوى ووصف الفجعة ؛ ولو ذهبت تستعرض المراثى في الشعر العربى ، ومثّلت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم ، كالأستاذ الإمام ، والبارودى ، ومصطفى كامل ، وثروت ، لراعك أنك واجدٌ للشعراء ما هو أسمى من معانيه وأقوى من خياله ، ولكنك لا تجد ألبته ما هو أفخر وأدق مما جاء به في هذا الباب ، كأنه منفرد في العربية بهذه الخاصة .

وهذا المعرى يقول :

ولولا قولكُ الخلاق ربّي لكان لنا بطلعتك افتتان

ويقول في شعر آخر :

أسهب في وصفه علاك لنا حتى خشينا النفوس تبعدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قستهما بقول حافظ في رثاء الشيخ

محمد عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده) وإن كان ذكرى حكمة وثبات

فإني لأخشى أن يضلّوا فيؤمّشوا إلى نور هذا الوجه بالسجّجات

مع أن معنى حافظ مأخوذ منهما ، ولكن انظر كيف جاء به ؟ ويقول المعرى

في رثاء أبيه :

ولو حفرَوا في درّة ما رضىٰها . لجسّمك إبقاءً عليك من الدفنِ
ويقول في رثاء غيره :

واخبؤاَه الأكفان من ورق المص حَف كبراً عن أنفُس الأبرار
وهذان أيضاً كالصعاليك عند قول حافظ في البارودي :
أو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة من كثر حكمتِه لا جوف أخدودِ
وكفّنوه بدرَج من صحيفتِه أو واضح من قميص الصبح مقدودِ
مع أن (حافظ) ألمّ بقول المعري . ومن بديع ما اتفق له في قصيدة (الأمتان
تتصافحان) قوله يصف السوريين :

رادوا المناهلَ في الدنيا ولو وجدوا إلى الحجرِ ركبًا صاعداً ركبوا
أو قيل في الشمس للراجلين منتجعٌ مدّوا لها سبيّاً في الجوّ واتدبوا
فاقرأ هذين واقراً بعدهما قول المتنبي في سيف الدولة :

وصول إلى المُستَمِصَّعَات بخيله فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا
فإنك تجد بيت المتنبي صعلوكاً على بيتي حافظ ، مع أنه المبتدع السابق .
وأعجب ما عجبت له هذا البيت من شعر صاحبنا في مقطوعة يخاطب بها
الأمريكان ، نشرها في المقطم من ثلاث سنوات أو نحوها ، قال :

وتخذُتم موج الأثير بريدًا حين خِلتم أن البروق كُسالى

واتفق يومئذ أن كنت جالساً في زيارة الصديق الأستاذ فؤاد صروف محرر
المقتطف ، فجاء حافظ ، فلم يكذبافحنى حتى قال : كيف ترى هذا البيت :
وتخذتم موج الأثير بريداً ... إلخ ؟ فأثنت عليه الذي يهوى ، وهنأته بهذا المعنى ،
وأظهرت له ما شاء من الإعجاب ، ولكنى أضمرت عجبى من حسن ما اتفق له
فإن الجمال الشعري في البيت إنما هو في استعارة الكسل للبروق ، وهذا بعينه من
قول ابن نباتة السعدى في سيف الدولة :

وما تمهل يوماً في ندَى وردى إلا قضيتُ لِلمَصح البرق بالكسل

غير أن (حافظ) نقل المعنى إلى حقه ، ووَكَّن له أحسن تمكين في صدر كلامه ،
وأتمّ جماله في قوله (حين خلت) ، فاقتطع المعنى وانفرد به ، وعاد معنى السعدى

كالصعلوك على باب بيته ؛ وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدي بحافظ ، فلم أره من بعدها ؛ رحمه الله !

وما مرّ بك إنما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الأول من ديوانه بعد أن استفحل وتخرّج في مدرسة الإمام ، أما في الجزء الأول فله هو صعاليك . . . كقوله في الخمر :

خمرة قيل إنهم عَصروها من خدود الملاح في يوم عرسٍ

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم :

مُشْعَشَعَةٌ من كف ظبيٍّ كأنما تناوَلها من خده فأدارها

وقول حافظ (عَصروها من خدود الملاح) كلامٌ مَن لم ينضج في البيان ولا الذوق ، لا يكادُ يتوّهم معه إلا أن في خدود الملاح (خراجات) عَصُرَتْ . . . وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناوَلها من خده) ، فهي كلمة أكثر نعومة من ذلك الخد وأجمل نضرة :

وقول حافظ في مدح الخديو :

يا من تنافَسُ في أوصافه كلمى تنافَسَ العرب الأجداد في النسب

فهو صعلوك على بيت أبي تمام :

تَغَايَرَ الشعر فيه إذ سهرتُ له حتى ظننتُ قوافيه ستَقْتَلِيلُ

ولا نطيل الاستقصاء ، فإنما نريد التمثيل حسب .

وكان الشاعر أول نشأته يأخذ في طريقة المعرى الذى عمى عن الطبيعة فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها بحسب أنه بذلك يعظم الحقائق فتخرج له الأخيصة الكبيرة ، وما يدرى أنه بهذا الغلو لا يجيء إلا بالباطيل الكبيرة . . . ولكن حافظ في مزاجه وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنيّاً على الوضوح والقصد . فلم يفلح في طريقة المعرى ؛ ووضوحه كذلك باعدّه من الفلسفة وإيهامها ، ومن الطبيعة وألغازها ، ومن الغزل وسواسه ؛ وهو الذى أداه إلى الشغف بالحقيقة واستخلاصها في كل أغراضه التى أجاد فيها ؛ ومن ثم خلا شعره أو كأنه خلا من أوصاف الطبيعة في جمالها بلغة الفكر المتأمل ، ومن أوصاف الجمال في سحره بلغة القلب العاشق .

وأنت فلا تحسبنَّ الشاعرَ يجيدُ في الغزل والنسيب من أنه شاعرٌ يحسنُ الصنعةَ ويجيدُ الأسلوبَ ، فيكون غرض من الشعر سبيلاً إلى غرض ، وفن عوذاً على فن ، وتكون رقة الألفاظ وهكتهلّةُ النسيج ، وقلبي ، وكبدى ، ويا ليلةً ويا قمراً ، ويا غزالاً وأشبه ذلك - غزلاً ونسيباً ؛ كلاً ثم كلاً ، والثالثة كلاً أيضاً

إن الغزل وأوصاف الجمال موهبة في الشاعر أو الكاتب تُستخر لها قوى هي أشبه في معجزاتها بما سخر لسليمان من قوى الجن والريح ، غير أنها قوى آلام ولذات ووساوس ؛ تلك عظمة في بعض النفوس الشاعرة كعظمة الملوك والأبطال ، غير أنها لا تكمل إلا خائبة أو مغلوبة ، فإذا انتصرت سقطت فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبي يُهيئ لها بروحانية شديدة الحس شديدة الفورة نائرة أبداً لا تهدأ إلا على توليد معنى بديع في جمال من تحبه أو كجماله ؛ ثم إذا هدأت بذلك أثارها أنها هدأت ، فتعود إلى التوليد ، فلا تزال تبتدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب ؛ هناك قوتان : إحداهما تؤقّي الحب كما يصلح غراماً وعشقاً ، والأخرى فوق هذه تؤقّي الحب كما يصلح فكراً وتعبيراً ؛ والأولى تجعل صاحبها عاشقاً يحب ويدرك ليس غير ، والثانية تجعله محباً عمله أن ينقل من لغة ما في نفسه إلى ما حوله ، ومن لغة ما حوله إلى ما في نفسه ؛ فهو مترجم النفس إلى الطبيعة ، ومترجم الطبيعة إلى النفس ؛ والذي أعرفه أن (حافظ) لم يرزق لا هذه ولا تلك ، فلا طبيعة فيه للغزل وفلسفة الجمال ؛ ثم إن التاريخ حصره في (الشاعر الاجتماعي) الذي اختار أن يمتاز به ، فهو في أكثر شعره كان ليس فيه شخص ، بل فيه شعب مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ؛ إذ يعيش في معاناة الحرية لا في التأمل الجميل ، وفي أسباب القوة لا في أسباب الرقة ، ويريد أن يعمل ليوجد حقيقته قبل أن يعمل ليبدع خياله .

ومع ذلك فقد جاء في ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليداً في فن يحسن التقليد إلا فيه خاصة ؛ عمل صدرراً لقصيدة مدح بها الحديبو مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام مُتيمٌ دأى الفؤاد وليله لا يعلمُ . . .
وقد ابن أبى ربيعة فى حكاية حب لفَّقها تلفيقاً ظاهراً ، ثم زعم أن الحبيبة
قالت له فى آخرها :
فاذهب بسحرِكَ قد عرفتُك واقتصد . . . فيما تزيّن للحسان وتؤهمُ
وكلمة صاحبة ابن أبى ربيعة :

أهذا سحرك النسوان ؟ . . . هذه كلمة لا تخرج إلا من فم حبيبتة آية فى
الظرف ، وفيها تجاهلها وعرفانها وبتسامها وإشراق وجنتيها ، وأكاد والله أرى فيها
تلك الجميلة وهى تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة
ليستهد فيه الكلام والمتكلم معاً ، أما قول حبيبة حافظ الحشوية ، أو الحجرية . . .
اذهب . . . قد عرفتُك واقتصد . . . فهذا خليق أن يكون من فم قاض وهو
ينصح المتهم بعد الأمر بالإفراج عنه . . . أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة !
أكبر ظنى أن روح حافظ نفسه هى التى أوحى إلى الآن هذه (النكتة) ،
فإنه رحمه الله كان آية فى هذا الباب ، وله من النوادر محفوظة ومختصرة ما لا يلحق
فيه ؛ ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً ، وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه
بتلك الملكة المبدعة فى التندر والتهكم ، مع ما أوتى من القوة فى اللغة والبيان —
لكانت النعمة قد تمت به على الأدب العربى ، ولقلنا فى شعره وكتابته وأدبه ما قال
هو فى الأستاذ الإمام : فأطلعت نوراً من ثلاث جهات .

وما دمت قد ذكرنا النقد فن الوفاء للتاريخ الأدبى أن نذكر مذهب شاعرنا
فيه : فلم يكن عنده منه إلا ذوق الكلام وإدراك النَّفْرة والنَّبْوة فى الحرف ،
والغلظ والجساسة فى اللفظ ، والضعف والتهافت فى التركيب ، ثم ما يجيش فى
الخاطر أو يتلجلج فى الفكر من ذوق المعنى وإدراك كنهه والنفاذ إلى آثار
النفس الحية فيه ؛ فكان النقد هو الحس بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما
بينهما ؛ ووصف لى مرة إسماعيل صبرى باشا وأراد أن يبالغ فى دقة تمييزه
وحسن بصره بالشعر وإدراكه دقائق المعانى ، فقال : «ذواقى يا مصطفى» ولم يزد .
ومذهب الحسّ بالكلام هذا وإن صلح أن يكون من بعض معانى النقد ،

فلا يتهيأ أن يكون هو النقد بمعناه الفلسفى أو الأدبى ، وهو فى جملة أمره كقولك حسن حسن ؛ وردىء ردىء ، أما كيف كان حسناً أو رديئاً ، وبماذا ولماذا ، فذلك ما لا سبيل إليه من مذهب (ذواق) . . . ولا وسيلة له إلا العلم المستفيض ، والاطلاع الواسع ، والحسُّ المرهف ، والقدرة المتمكنة ، مضافة كلها إلى الأدب البارع وفلسفته الدقيقة ؛ ولا نعرف لحافظ كتابة فى النقد ألبتة ، وقد كان حاول شيئاً من هذا فى مقدمة كتابه (ليالى سطيح) ، فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو أن يمحوها بعد أن طبعت الكراسة الأولى ، فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية ، وكانت عندى النسخة التى محاها ، وهذا ما لا أظنّ أحداً يعرفه الآن ؛ رحم الله شاعراً كان أصفى من الغمام ، وكان شعره كأنه البرق والرعد . . .

* * *

كلمات * عن حافظ^(١)

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أُمَكِنَةَ الأشياءِ ولم أجد مكانَ قاي ؛
أيها القلبُ المسكينُ ، أينَ أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألتني مرةً : مالك لا ترضى ولا تهتدأ ولا تستقر ؟ وكان يُخَيِّلُ إلى أنه هو راضٍ مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَهُ ولم يبق في نفسه ما تقول نفسه ليت ذلك لي ! . وكنت أعجبُ لهذا الخلق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلِقَ مطبوعاً بطابعِ اليُتم فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابنُ القَدَرِ : تأتيه الأفراح والأحزانُ من يد واحدة مقبلة كما تنالُ الصبيُّ اللطافُ أبيه ولطَمَتُ أبيه

وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ! فضحك وقال : أو كأنني أحلم بغير نوم . . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لَحِقَ بربه في سنة ١٩٣٢ ، فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم : محكوماً بروح القبر ، وفي القبر أوله ؛ ولما أزمَعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً . . . فقال : أو تراني لم أمت بعد في مصر ؟ . . . إن الذي بقي هين !

* * *

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قويَّ المَلَكة في فن الضحك ، كأن القَدَرَ عَوَّضَهُ به لِيُوجِدَهُ في الناس عطف الآباء ومحبة الإخوة . ولم يَسْخُلْ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، وسيلة مؤكدة إلى ما هو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُهُ إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ في زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ

(١) كتبها في الذكرى الثالثة لوفاته

* لما توفي حافظ رحمه الله كتبنا فصلاً طويلاً عن أدبه للمقتطف ، فلم نعرض في كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل وإنما هي ذكرى وبقياء من الأيام .

فى نفس حافظ ؛ فالرجل كالسفينة المتكفّسة : تميلُ بها موجةٌ وتعدّ لها موجة ، وهى بهذه وبهذه تمرُّ وتسير .

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القَدَرُ نظاماً فى زمن حافظ ، كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة فى هذا الباب ، ووقع إصلاحاً فى عيشتهم وكانوا لإصلاحاً فى عيشه ؛ ولو أن الأقدارَ تُشَبَّه بالمدارس المختلفة ، لقلنا إن (حافظ) تخرّج منها فى مدرسة التجارة العليا . . . فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة .

* * *

وهذه النوادر كأنها هى أيضاً صنعت (حافظ) فى شكل نادرة ؛ فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده مُتَمَم ، هو إنفاقه وإخراجه من يده ؛ وكان يتما ، ولكنه دائماً متودّد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيسُ الطَّلعة ؛ وكان بائساً ، ولكنه سليمُ الصدر ، وكان فى ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلُق ؛ وتماُ النادرة فيه أنه كان طوالَ عمه مُتَبَسِّطاً مهتراً كأن له زمناً وحده غير زمن الناس ، فتراكم عليه الهموم وهو مُسْتَسِيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مكسلةِ الشَّبَعِ ويسْتَرْسلُ إلى البَطالة وكأنه مُشَمَّرٌ للجِد ، ويستمكنُ الحزنُ منه فى ساعة فيَتَهَدّدُ حزنه بالساعة التالية . . .

رأيتُه فى أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشه ، وكان يَعدُّ قروشاً فى يده ، فقلت : ما هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لى غير هذه القروش الملعونة ، فهلمّ نتعش . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية ، فزمت له أنى تعشيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش ؛ وكنت أطلعُ فى وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعته بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعانى (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة ، وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثانى من (البؤساء) ورأى فى القاهرة فأمسك بى حتى قرأتُ معه الكتابَ كلّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا فى الأصيل عربة وخرجنا ننتزه ، أى خرجنا نقرأ . . .

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغير فى بؤس ولا نعيم ، كيباض الأبيض وسواد الأسود ؛ وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فناً من الفوضى الإنسانية ، حتى لكأنه حلمٌ شعريٌّ ببدأ من أبويه ثم انقطع وترك لشمِّه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلاً جمالَ الأشياء الطبيعية لا جمالَ الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والبرق والرعد وأشباهها ؛ وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مُطهَّماً ، وأرى فى شكله هندسةٌ كهندسة الكون ؛ تتمم محاسنها بمقابحها وكَم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القفر

أما هو فكان يرى نفسه دميماً شنيعَ المرأةِ متفآت الخلق كأنه إنسان مغلوطٌ فى تركيبه . . .

وقد سألته مرة : هل أحسب ؟

فقال : النساءُ اثنتان : إما جميلةٌ تنفر من قبحتى ، وإما دميمةٌ أنفر من قبحها ! ولهذا لم يُفْلح فى الغزل والنسيب ، ولم يُحسَن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً ؛ وبقي شاعراً غير تام ، فإن المرأة للشاعر كحواء لآدم : هى وحدها التى تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً . . .

* * *

وتهدم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك ، فلم يرني حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخذتُسمُ مَوْجَ الأثيرِ بِرَيْدٍ حينَ خِلتُهمُ أن البروقَ كُسالى *
فنطرتُ إلى وجهه المعروق المتغضن وقلت له : لو كان فيك موضعُ

* هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكين ، وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق .

قُبلة لقبيلتك لهذا البيت ! . فضحك وأدار لى خدّه ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . . .

* * *

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ومحفوظاته من هذا الفن أمر مُجمع عليه ؛ وكان يتقصدّ النواذرَ والفكاهات ومُطارحاتِ السّمَر من مظانّها في الكتب ورجال الأدب وأهل المحجّون ، فإذا قصّها على من يجالسّه زاد في أسلوبها أسلوبه هو ، وجعل يقلّبها ويتصرف فيها ويبيّن عنها أحسن الإبانة بمنطقه ووجهه ونبراتٍ في لسانه ونبراتٍ في يده .

وهو أصمعىٌ هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فإذا استهلّ سحّ بالنواذر سحّاً كأنها قوافي قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التي بعدها .

وقد أذكرني (القوافي) مجلساً حضّرتُه قديماً في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ ، وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومي ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدي من بسطة ابن الرومي في قوافيه ، فقال له (حافظ) : هلمّ نساجلْ في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا ؛ وكانت القافية من وزن : قدَرها ، أحمرها ، أخضرها . . . إلخ ، وجعلتُ أنا أحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدي يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ، ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقي حافظ يسرُدُ له من حفظه الغريب .

أما في النواذر فالعجيبةُ التي اتفقت له في هذا الباب أنه جاء إلى طنطا في سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » ، وكان داهية ذكياً وظريفاً لبقاً ، وكنّتُ أخالطه وأتصلُ به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء في داره ؛ فلما مُدت الأيدي قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ . قال وما هو ؟ قال : كل لقمة بنادرة !

فتهلل حافظ وقال : نعم ، لك علىّ ذلك ، ثم أخذ يقصُّ ويأكل ، والعشاءُ حافلٌ ، وحافظ كان نهما ، فما انقطع ولا أخلّ حتى وقّى بالشرط ؛ وهذا لا يمنع وحى القلم - ثالث

أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك ، فيسرع حافظ ويغالب
بقمه

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به ؛
فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائماً — دعوه لإلقاء
(محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حميةً وعلمًا
وكان صاحب السرّ فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى ؛
فقام حافظ 'فأنشدهم بعض ما ترجمه نظمًا عن شكسبير ، ومثله تمثيلاً أفرغ
فيه جهده ، فأطرب وأعجب : ثم سأله (المحاضرة) فأخذ يلقي عليهم من نواتره ،
وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت
بكر أم ثيب ؟ فقالت : كثرت الفتوح على عهد المعتصم . . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها . . . وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة
كأنها تقول له : إنك لم تفلح !

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبّه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه
إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التى كسبهم بها من بعد ؛
ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة
البديعة الأخرى أم لا ؛ فقد عرضت جارية أدبية ظريفة على الرشيد فسألها :
أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين . . .

* * *

وفى (الشعر الاجتماعى) الذى عُرِف به حافظ ، لم يكن فنّه من قبل ،
ولا كان هو قد تنبّه له أو تحراه فى طريقته ؛ فلما جاءت إلى مصر الإمبراطورة
(أوجينى) نظم قصيدته النونية التى يقول فيها :

فاعذُرينا على القصور ، كلانا غيّرته طوارئ الحداث

ولقيته بعدها فسألنى رأيى فى هذه القصيدة ، وكان بها مدلاً مُعجباً ، شأنه
فى كل شعره ؛ فانتقدت منها أشياء فى ألفاظها ومعانيها ، وأشرت إلى الطريقة التى

كان يحسن أن تخاطب بها الإمبراطورة ؛ فكأننى أغضبته ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين — أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لى : إذا نظمت فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعى » ، ثم كأنه تنبّه إلى أنها طريقة يستطيع أن يفرد بها ، إن كل قصائد شوقى الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر .

وتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقينى بعدها مرة أخرى فقال لى : إن الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هى الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد ؟ . . .

فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذى ذهب إليه حافظ ، وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التى تعرض فى مجلس الشيخ محمد عبده ، من حديثه أو حديث غيره ، فيبنى عليها أو يَدْخلها فى شعره ، وهو أحياناً ردىء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً ؛ إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطلة ، وإنما هى فى الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بإيهامها وثرثرتها . . .

* * *

وكنّت أول عهدى بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الإمام وأنفذتها إليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لى إنه هو تلاها على الإمام ، وإنه استحسناها ؛ قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها . . .

فاضطرب شيطانى من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه فى الشعر كبير معنى ! . قال : ويحك ! . إن هذا مَبْلَغ الاستحسان عنده .

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلاً . . . فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ .

وأنا أرى أن « حافظ إبراهيم » إن هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » : لولا

أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك .

ومن أثر الشيخ في حافظ أنه كان دائماً في حاجة إلى مَنْ يَسْمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى إسما عيل باشا صبرى في القصر العيني ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة . . . إذ كانت أذن الإمام هي التي ربّت الملكة فيه ؛ وقد بينا هذا في مقالنا في (المقتطف) .

وكان تمام الشعر الحافظي أن يُنشده حافظ نفسه ؛ وما سمعت في الإنشاد أعربَ عربيةً من البارودي ، ولا أعذبَ عدوبةً من الكاظمي ، ولا أفخمَ فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً .

وكان أديبنا يُسجلُ البارودي إجلالاً عظيماً ، ولما قال في مدحه :
فمُرْ كُلَّ مَعْنَى فَارِسِيٍّ بِطَاعَتِي وَكُلَّ نَفْثٍ مِنْهُ أَنْ يَتَوَدَّ دَا
قلت له : ما معنى هذا ؟ وكيف يأمر البارودي كل معنى فارسيٍّ وما هو بفارسي ؟

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعاني الفارسية البديعة التي وقف عليها ؛ قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعِرنِي المجموعة التي عندك . . .

أما الكاظمي فكان حافظٌ يُجافيه ويُباعده ، حتى قال لي مرة وقد ذكّرته به :
« عَقَّقْنَاهُ يَا مُصْطَفَى ! » .

وما أنس لا أنس فرَحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمي يحفظ قصيدة من قصائده ، وذلك أنهم في سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد في مدح الخديو ، وجعلوا الحكم في ذلك إلى البارودي وصبرى والكاظمي ، ثم تخلى البارودي وصبرى ، وحكم الكاظمي وحده ، فنال حافظ المدايلة الذهبية ، ونال مثلها السيد توفيق البكري .

ولما زرتُ الكاظمي وكنت يومئذ مبتدئاً في الشعر ولا أزال في الغَرْزِمة* قال : لماذا لم تدخل في هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقي وحافظ وفلان وفلان فقال : « لَيْسَ تَخِلَّيْ هِمَّتَكَ ضَعِيفَةً ؟ » ثم أسمعني قصيدة حافظ وكان معجباً

* الغرزمة : أول قول الشعر ، حين يكثر الرديء فيه . يقال : فلان يغرزم .

بها ، فنقلتُ ذلك إلى حافظ ، فكاد يطير عن كرسيه في القهوة .

* * *

وكان تعنتُ حافظ على الكاظمي لأنه غير مصرى ، ففي سنة ١٩٠٣ كانت تصدر في القاهرة مجلة اسمها (الثريا) ، فظهر في أحد أعدادها^(١) مقال عن الشعراء بهذا التوقيع * ، وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له في الغارة عليهم كَرْفِيف الجيش وَقَعَقَعَة السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الحديو ؛ وتكلم عنه الأستاذ الإمام في مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين ، كالعلامة سليمان البستاني ، وأديب عصره الشيخ إبراهيم اليازجي ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان - إذ كان صاحب المجلة سورياً - وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً همد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال .

وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمي على رأس الشعراء فيه ؛ فغضب حافظ لذلك غضباً شديداً ، وما كاد يرانى في القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : وربّ الكعبة أنت كاتب المقال ، وذمة الإسلام أنت صاحبه !

ثمّ دخلنا إلى « قهوة الشيشة » ، فقال فى كلامه : إن الذى يغىظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رؤوسنا نحن المصريين ! . فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى . . . وغضب السيد توفيق البكرى غضباً من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية . . . وشمّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء . . . ومدحه مدحاً يَرِنُ رنيناً .

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الدم ، وجردنى من الألفاظ والمعانى جميعاً ، وعدتْنى فى الشعراء ليقول إني لست بشاعر . . . فكان هذا ردّ نفسه على نفسه * .

(١) عدد يناير سنة ١٩٠٥ ، وانظر ص ٣٨ - ٤٣ « حياة الرافعى »

* نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بند أن هذبه ؛ ثمّ حذفه من الطبعات الأخرى ، لأنه هو كان يعلم أن النائحة المستأجرة لايسمى بكأوهها بكاء . . .

وتعلّق مقالُ المنفلوطى على المقال الأول فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب حافظ مرة ثانية ، فكتب إلى كتاباً يذكر فيه تعسف هذا الكاتب وتحامله ، ويقول : قد وكّلتُ إليك أمرَ تأديبه (١) .

فكتب مقالاً فى جريدة (المنبر) ، وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها وقلت : إني كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى ملكه ، فأكبّ على قدم الملك حتى شفّعه ؛ فلما عابوه بأنه أزال حرمة الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ! . فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذنيه فى رجليه

* * *

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين حين ظهر مقال (الثريا) . ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأى فيه ؛ فمرت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما اطمأن بى المجلس قال حافظ : ما رأيك فى شعر اليازجى ؟ فأجبته ، قال : فالبستاني ؟ فنجيب الحداد ؟ ففلان ؟ ففلان ؟ فداود عمون ؟ قلت : هذا لم أقرأ له إلا قليلا لا يسوّغ معه الحكم على شعره . قال : فماذا قرأت له ؟ قلت : ردّه على قصيدتك إليه :
* شَجَّجْتُنَا مطالعُ أقمارِها *

قال : فما رأيك فى قصيدته هذه ؟ قلت : هى من الشعر الوسط الذى لا يعلو ولا ينزل .

فما راعنى إلا رجل فى المجلس يقول : أنصفتَ والله ! . فقال حافظ : أقدم لك داود بك عمون !
رحم الله تلك الأيام ! .

شوقى (١)

هذا هو الرجلُ الذى يُخَيَّلُ إلىَّ أن مصر اختارته دون أهلها جميعاً لتضع فيه رُوحها المتكلم ، فأوجبت له ما لم توجب لغيره ، وأعانتها بما لم يتفق لسواه ، ووهبت من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرةً ، لا على قدر رجل فى نفسه ؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعرى وأدبى !

شوقى : هذا هو الاسم الذى كان فى الأدب كالشمس من المشرق : متى طلعت فى موضع فقد طلعت فى كل موضع ، ومتى ذُكر فى بلد من بلاد العالم العربى اتسع معنى اسمه فدلَّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة ؛ مترادفات لا فى وضع اللغة ولكن فى جلال اللغة .

رجل عاش حتى تمَّ ، وذلك برهان التاريخ على اصطفائه لمصر ، ودليلُ العبقريَّة على أن فيه السرَّ المتحرك الذى لا يقف ولا يكل ولا يقطع نظام عمله ، كأن فيه حاسَّةَ نحلة فى حديقة ، ويكبر شعره كلما كبر الزمن ، فلم يتخلَّف عن دهره ، ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنه مع الدهر على سياقٍ واحد ، وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطور أطواره فى النمو فلم يجمد ولم يرتكس ، وبقي خيالٌ صاحبه إلى آخر عمره فى تدبير السماء كعمر أرض الغمامة ، سحابه كثير البرق ، ممثليٌّ ممطرٌ ينصبُّ من ناحية ويمثليٌّ من ناحية .

والناسُ يُكتبُ عليهم الشباب والكهولة والهرم ، ولكن الأديب الحقُّ يُكتبُ عليه شبابٌ وكهولةٌ وشباب ؛ إذ كانت فى قلبه الغاياتُ الحيةُ الشاعرة ، ما تنفكُ يلدُ بعضها بعضاً إلى ما لا انقطاع له ، فإنها ليست من حياة الشاعر التى خلقت فى قلبه ، ولكنها من حياة المعانى فى هذا القلب .

* * *

أقرر هذا فى شوقى رحمه الله ، وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأماكن الغميمة

فى أدبه وشعره ؛ ولكن هذا الرجل انفلت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كائفلات المطرة من سحابها المتساير فى الجو ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر ، وهى لم تذكر قديماً فى الأدب إلا بالنكتة والرقعة وصناعات بديعية ملفقة ، ولم يستفصّل لها ذكر بنايعة ولا عبقرى ، وكانت كالمستجديّة من تاريخ الحواضر فى العالم ، حتى إن أبا محمد الملقب بولى الدولة صاحب ديوان الإنشاء فى مصر للظاهر بن المستنصر (وقد توفى سنة ٣٤١ هـ) ، وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار فى السنة غير رسوم يستوفىها على كل ما يكتبه — سلّم لرسول التجار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها ، فيستشيرهم فى تخليد هذا الأدب المصرى بدار العلم إن استجادوه وارتضوه ، كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها فى مكتبة بغداد قديماً يشبه فى حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها فى عصبة الأمم ...

وهذا أحمد بن على الأسوانى إمام من أئمة الأدب فى مصر (توفى سنة ٥٦٢) ، وكان كاتباً شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدوّن شعر المصريين ، فجمع من شعرهم (وشعر من طرأ عليهم) أربع مجلدات. ، كأن الشعر المصرى وحده إلى آخر القرن السادس للهجرة ، فى العهد الذى لم يكن ضاع فيه شىء من الكتب والدواوين لا يملأ أربع مجلدات . . على اختلافهم فى مقدار المجلدة ، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم ؛ والأسوانى نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة .

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب (الأسوانى المتوفى سنة ٥٦١) قال العماد الكاتب إنه لم يكن بمصر فى زمنه أشعر منه ، وسارت له فى الناس قصيدة سموها النواحة ، وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته بها وخيف عليه ؛ فالرجل أشعر أهل مصر فى زمنه ، وحادثة النواحة تجعله فى هذا المعنى أشعر من نفسه ، على أنه مع هذا لم يقل إلا من هذا :

يا ربيعُ أين نرى الأحبة يَمَمُوا	هل أنجدوا من بعدنا أم أنهموا
رحاوا وفى القلب المعسى بعدهم	وجدٌ على مرّ الزمان مخيمٌ
وتعوّضتْ بالأنس نفسى وحشةً	لا أوحش الله المنازلَ منهم ...

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلافس الإسكندري وأمثالهم ، وكلهم أصحاب دواوين صغيرة ، وليس في شعرهم إلا طابع النيل ، أى الرقة والحلاوة - لولا هؤلاء في المتقدمين لأجذب تاريخ الشعر في مصر ؛ ولولا البارودى وصبرى وحافظ في المتأخرين ؛ وكلهم كذلك أصحاب دواوين صغيرة ، لما ذُكرت مصر بشعرها في العالم العربى ؛ على أن كل هؤلاء وكل أولئك لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ، ووضعوه شوقى وحده !

والعجب أن دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون إلا صغيرة ، كأن طبيعة النيل تأخذ في المعانى كأخذها في المادة ، فلا فيض ولا خصب إلا في وقت بعد أوقات ، وفي ثلاثة أشهر من كل اثني عشر شهراً ؛ ومن جمال الفراشة أن تكون صغيرة ، وحسبها عند نفسها أن أجنحتها منقطة بالذهب ، وأنها هى نكتة من بديع الطبيعة !

على أنك واجد في تاريخ الأدب المصرى عجيبة من عجائب الدنيا لا تذكر معها الإلياذة ولا الإنيادة ولا الشاهنامة ولا غيرها ، ولكنها عجيبة ملأتها روح الصحراء إن كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل ؛ وهى قصيدة نظمها أبو رجاء الأسوانى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ، وكان شاعراً فقيهاً أديباً عالماً كما قالوا ، وزعموا أنه اقتصر في نظمه أخبار العالم وقصص الأنبياء واحداً بعد واحد ، قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك ؟ فقال : ثلاثين ومائة ألف بيت . . . وما أشك أن هذا الرجل وقع له تاريخ الطبرى وكتب السير وقصص الإسرائيليات فنظمها متوناً متوناً . . . وأفى عمره في ١٣٠ ألف بيت حوّلها التاريخ إلى خبر مهمل في ثلاثة أسطر! (١) .

كل شاعر مصرى هو عندى جزء من جزء ، ولكن شوقى جزء من كل ؛ والفرق بين الجزئين أن الأخير في قوته وعظمته وتمكنه واتساع شِعْره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل ؛ ولم يترك شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقى ، وقد اجتمع له مالم يجتمع لسواه ؛ وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده ،

فساوى الممتازين من شعراء دهره وارفع عليهم بأمر كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبّرة التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطى ، أو يزيد ما تنقص ، أو ينقص ما تزيد ؛ وقد حاولوا إسقاط شوقى مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً ، ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه . . . ويرى بهما أن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر ، وما هو بمنزلة شاعر وشعره .

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ فى نعمة الخديو إسماعيل باشا ، ونثر له الخديو الذهب وهو رضيع فى قصة ذكرها شوقى فى مقدمة ديوانه القديم ، ثم كفّله الخديو توفيق باشا وعلمه وأنفق عليه من سعة ، وأنزل نفسه منه منزلة أب غنى كما يقول شوقى فى مقدمته ، ثم تولاه الخديو عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول :

شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

وإذا أنت فسرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمر نفسه فى ذلك العهد ، خرج لك من التفسير : شاعر مُرْهَفٌ مُعَانٌ بأسباب كثيرة ، ليكون أداة سياسية فى الشعب المصرى ، تعمل لإحياء التاريخ فى النفس المصرية ، وتبصيرها بعظمتها ، وإقحامها فى معارك زمنها ، وتهيتها للمدافعة ، وتصلُ الشعر بالسياسة الدينية التى توجهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة أوروبا فى تقسيم الدولة بفكرة الجامعة الإسلامية ؛ ولا يخرج لك شوقى من هذا التفسير على أنه رجل فى قدر نفسه ، بل فى قدر أميره ذلك ؛ وكان ممتلئاً شباباً يغلى غلياناً ، ومُعدّاً يومئذ لمطامح بعيدة ملفقة حشوها الديناميت السياسى . . .

كثت ذات مرة أكلم صديقى الكاتب العميق فرح أنطون صاحب (الجامعة) وكان معجباً بشوقى إعجاباً شديداً ، فقال لى : إن شوقى الآن فى أفق الملوك لا فى أفق الشعراء ! قلت : كأنك نفيسة من الملوك والشعراء معاً ؛ إذ لو خرج من هؤلاء لم يكن شيئاً ، ولو نفذ إلى أولئك لم يعد شيئاً ، إنما الرجل فى السياسة المتلوية التى تصله بالأمير ، هو مرة كوزير الحرية ، ومرة كوزير المعارف .

وهذه السياسة التى ارتاض بها شوقى ولابسها من أول عهده ، واتجه شعره فى مذهبها ، من الوطنية المصرية ، إلى النزعة الفرعونية ، إلى الجامعة الإسلامية .

فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعرى — هى بعينها مادة نقائصه ؛ فلقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها ، وتسخير الناس فى ذلك بما وسعته قوته ، إلى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعر كل شرة منها إذا جاءها الحسن بثانية ، وهى غيرة وإن كانت مذمومة فى صلتيه بالأدباء الذين لدّعوه بالجرم . . . ونحن منهم ، غير أنها ممدوحة فى موضعها من طبيعته هو ؛ إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقى أشعر من شوقى ؛ وعندى أن كل ما فى هذا الرجل من المتناقضات فمرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التى رُدّت بطبيعة القوة عن وجوها الصريحة ، فجعلت تضطرب فى وجوه من الحيل والأسباب مدبرة مقبلة ، مُتَهَدِّية فى كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها فى الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائماً إلى رائحة الدجاج

ومؤرخ الأدب الذى يريد أن يكتب عن شوقى لا يصنع شيئاً إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديو توفيق والخديو عباس لمصر ، كالدلتا بين فرعى النيل ؛ وما أصابه المتنبى من سيف الدولة مما ابتعث قريحته وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزى بها على الغايات البعيدة فى تاريخ الأدب — أصاب — شوقى من نمو الخديو عباس أكثر منه ، فكان حقيقاً أن يساوى المتنبى أو يتقدمه ، ولكنه لم يبلغ منزلته ، لأن الخديو لم يكن كسيف الدولة فى معرفته بالأدب العربى ورغبته فيه ؛ وسر المتنبى كان فى ثلاثة أشياء : فى جهازه العصبى العجيب الذى لا يقل فى رأى عما فى دماغ شكسبير ، وفى ممدوحه الأديب الملك الذى ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائى من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم فى أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التى لا يمكن أن يظهر بينها إلا ما هو فى قدرها ، ولا يتميز فيها إلا ما هو أكبر منها ، ولا يتركها كالمنطفئة إلا شمس كشمس المتنبى تنفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية .

ولقد والله كان هذا المتنبى كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء ؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصابى شيخ الكتاب فى عصره يرأسه أن يمدحه

بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم ، فيرسل إليه المتنبي : ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولكنى إن مدحتك تنكّر لك الوزير (يعنى المهلبى) لأننى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذا الحال فأنا أجيبك ولا أريد منك مالا ولا من شعري عوضاً ! فأين فى دهرنا من تُشعره عزّة الأدب مثل هذا الشعور ليأتى بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا فى انتظار كلمتها ؟

على أن شوق لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعري) ، وكل بلاء الشعر العربى أنه لا يجد هذا الجمهور ، فالشاعر بذلك منصرف إلى معانٍ فردية من ممدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم . . . حتى الطبيعة تظهر فى الشعر العربى كأنها قطع مبتورة من الكون داخله فى الحدود لا بسة الثياب ؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره ، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة ؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالجهول ، ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود ، فلا تجد فى طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق ، ولا تواتيه طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها ، فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عَنقَوهِ ولا يحسن أن يوغل فيه ، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره ، وإذا نفسه تمرّ على الكون مرّاً سريعاً ، وإذا شعره مقطع قطعاً ، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف لا شعور ، وكلمات لا حقائق ، وظلّ طامس ملق على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحى السائر على الأرض .

واجتمع لشوق فى ميراث دمه ومجارى أعراقه عنصر عربى ، وآخر تركى ، وثالث يونانى ، ورابع شركسى ؛ وهذه كثرة إنسانية لا يأتى منها شاعر إلا كان خليقاً أن يكون دولة من دول الشعر ، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله العصبى فى عينيه ، كأن هذا دليل طبيعى على أن وراءهما عينين للمعانى تراحمان عيني البصر ؛ وما لم يكن التركيب العصبى فى الشاعر مهيباً للنبوغ ، فاعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا فى غير الشعر ، وليس فى الطبيعة ولا فى الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل فى غير البلبل ؛ ومع كل ما تقدم فقد أعين شوق على الشعر بفراغه

له أربعاً وأربعين سنة ، غير مشترك العمل ، ولا متقسم الخاطر ، على سعة في الرزق وبسطة في الجاه وعلو في المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربي والأوربي والتركي والفارسي ؛ وإن تنس فلا تنس أن شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة ، وهو روح الشعر لا روح للشعر بدونه ، فسافر ورحل وتقلب في الأرض ، وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة ينخلها ببصره ما بين الأندلس والأستانة ، وظهيره على ذلك ماله وفراغه ؛ وإنما قوة الشعر في مساقط الجو ، ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة ؛ والطبيعة كالناس : هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء ، وهي في موضع نائمة تحلم وفي موضع قائمة تعمل ، وفي بلد هي كالأنثى الجميلة ، وفي بلد هي كالرجل المصارع ؛ ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشدّه إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ، ألوان الهواء اللذيذ المفيد .

وعندى أنه لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم في طبقة الفحول من شعراء العالم ، إلا إذا أعيد تاريخ شوقي مهذباً منقحاً في رجل وهبه الله مواهبه ، ثم تهبه الحكومة المصرية مواهبها .

والكتاب الأول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعه وصحح نشأته الأدبية ، هو بعينه الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكراؤه في مقالنا عنه ، أي كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي ؛ وليس السر في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان في مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي ، ولكن السر ما في الكتاب من شعر البارودي لأنه معاصر ، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب ، وعلى خطأ إن كان الخطأ ؛ وقد تصرّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره ، ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يُخلدُ الجليلُ منهم إلا لما رأى في عصره ، ولا يستفتح غير الباب الذي فُتح له ، إلى أن كان البارودي ، وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة ، لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذي حوّل الشعر من بعد ؛ فيالها عجيبة من الحكمة ! وهي دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعاً

لقوانين نافذة على الناس . وأكبَّ البارودى على ما أطاقه ، وهو الحفظ من شعر الفحول ؛ إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ، ثم المعاناة والمزاولة ؛ وكانت فيه سليقة ، فخرجت مخرج مثلها في شراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية ، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوق وغيرهما ، فكل ما في الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ ، فتبعته هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزة وبصيرة ، وإذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى ما في قوة نفسه ما دام فيه ذكاء وطبع ؛ وبهذا ابتداء شوق وحافظ من موضع واحد ، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معاً غير طريقة البارودى .

تحول شوق بهذا الشعر لا إلى طريقة البارودى ، فإنه لا يطبقها ولا تنتهياً في أسبابه ، وخاصة في أول عهده ، وكأن لغة البارودى فيها من لقيه ، أى فيها البارود . . . ولكن تحولنا نابتغنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال اللبثى وأبى النصر وغيرهما ، فترك الأحياء وانطلق وراء الموتى في دواوينهم التى كان من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد : كالمثنى وأبى تمام والبحترى والمعري : ثم أهل الرقة أصحاب الطريقة الغرامية : كابن الأحنف والبهاء زهير والشاب الظريف والتلعفري والحاجرى ، ثم مشاهير المتأخرين : كابن النحاس والأمير منجك والشرقاوى . وقد حاول شوق في أول أمره أن يجمع بين هذا كله ، فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد ، مع السهولة والركة وتكلف الغزل بالطبع المتدفق لا بالحلب الصحيح .

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون أكبر همى إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألم وكيف لاحظ ، وكيف كان المعنى منسبهاً له ، وهل أبدع أم قلّد ، وهل هو شعر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها ، أم نقله نقلاً فجاء من الكتب ؛ وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظرة في أسرار الأشياء ، ويحسن أن يستشفي هذه الغيوم التى يسبح فيها المجهول الشعرى ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ؛ أم فكره استرسال

وترجم في الخيال وأخذ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجملية هل هو ذاتية تمر فيها مخلوقات معانيه لتخلق فتكون لها مع الحياة في نفسها حياة من نفسه ، أم هو تبعية كالسمسارين طرفين : يكون بينهما ، وليس منهما ولا من أحدهما ؟ في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ، ولا يؤدبك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطقته ، أما تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله ؛ إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره ، وليس في تأريخ ما كان إلا نقله كما كان .

وإذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره ، ففيه تلك الموهبة التي أسمىها حاسة الجو ؛ إذ يتلمح بها النوابع معاني ما وراء المنظور ، ويستزلون بها من كل معنى معنى غيره .

انظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنه يومئذ ٢٣ سنة على ما أظن ، وهي من شعره السائر :

خَدَعُوها بقولهم حسناء	والغواني يغرهنّ الثناء
ما تراها تناست اسمي لَمَّا	كثرت في غرامها الأسماء
إن رأني تميلُ عني كأن لم	تكُ بيني وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام	فكلام فموعد فلقاء

دع غلطته في قوله (تميل عني)^(١) ، فإن صوابها : تميل ؛ إذ هي جواب إن الشرطية ؛ ولكن تأمل كيف استخرج معانيه ؛ وأنا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثاني والرابع ، لا إكباراً لِعَناهما ، فهما لا شيء عندي ، ولكن إعجاباً بموهبة شوقي في التوليد ، فإنه أخذ البيت الثاني من قول أبي تمام :

أُتيتُ فَوَادِها أَشْكو إِلَيْهِ فلم أخلص إليه من الزحام

فمرّ المعنى في ذهن شوقي كما يمرّ الهواء في روضه ، وجاء نسيماً يترقب بعدما كان كالريح السافية بترابها ؛ لأن الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء ، لا بقلب امرأة يحبها ، بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنه ليس

(١) انظر المساجلات بين الرافعي والمعادي في هذه القولة بالمقتطف

عضوًا في جسمها ، بل غرفة في بيتها . . . وقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل في إبداعه وذوقه ورقته .

والبيت الرابع من قول الشاعر الطريف :

قِفْ واستمع سيرة الصبِّ الذى قتلوا فمات في حبهم لم يبلغ الغرضاً
رأى فحبَّ فسامَ الوصلَ فامتنعوا فرامَ صبراً فأعيا نيله ففضى

وهذه « فاءآت » تجرّ إلى القبر ونعوذ بالله منها . . . ومما كنت أعيبه على شوقى ضعفه في فنون الأدب ، فإن المويلحى الكاتب الشهير انتقد في جريدته مصباح الشرق أبيات (خدعوها) عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ ، فارتاع شوقى وتحمّل عليه ليمسك عن النقد ، مع أن كلام المويلحى لا يسقط ذبابة من ارتفاع نصف متر . . . ومن مصيبة الأدب عندنا ، بل من أكبر أسرار ضعفه ، أن شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد ، وأنهم يفرون منه فراراً ويعملون على تفاديه وأنهم لا يحسنون غير الشعر ؛ فلا البارودى ولا صبرى ولا حافظ ولا شوقى كان يحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه أو يكتب فصلاً في النقد الأدبى ، أو يحقق مشكلة في تاريخ الأدب .

ومن معانى شوقى السائرة :

لكَ نصحى وما عليك جدالى آفة النصح أن يكون جدالا

وكرره في قصيدة أخرى فقال :

آفة النصح أن يكون جدالا وأذى النصح أن يكون جهاراً

والبيتان من شعر صباه أيضاً ، وهما من قول ابن الرومى :

وفى النصح خيرٌ من نصيح مُوَدَّعٍ ولا خير فيه من نصيح مَوَائِبِ

فصحح شوقى المعنى وأبدل الموائبة بالجدال ، وذلك هو الذى عجز عنه ابن

الرومى ؛ ومن إبداعه في قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان :

يكادون من ذُعْرِ تفرُّ ديسارُهم وتنجو الرواسى لروحاهن مَشْعَبُ

يكاد الثرى من تحتهم يلج الثرى ويقضم بعض الأرض بعضاً ويقضب

وهذا خيال بديع في الغاية ، جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك ، بل من هول القيامة ؛ وهو مع ذلك مولّد من قول أبي تمام في وصف كرم ممدوحه أبي دلف :

تكاد مغانيه تهش عيراصها فتركب من شوقٍ إلى كل راكب

فقد شاعرنا على ذلك ؛ وإذا كادت الدار تركب إلى الراكب إليها من فرحها ، فهي تكاد تفرّ مع المنهزم من ذعرها ؛ ولكن شوق بني فأحكم وسما على أبي تمام بالزيادة التي جاء بها في البيت الثاني :

ومن أحسن شعره في الغزل :

حسّت الجمال فلو ذهبت تزيدها في الوهم حسناً ما استطعت مزيدا

وهو من قول القائل :

ذاتُ حسن لو استزادت من الحسن ن إليها لما أصابت مزيدا

غير أن شوقي قال : لو ذهبت تزيدها في الوهم . . . والشاعر قال : لو استزادت هي ؛ فلو خلا بيت شوقي من كلمة (في الوهم) لما كان شيئاً ، ولكن هذه الكلمة حققت فيه المعنى الذي تقوم عليه كل فلسفة الجمال ؛ فإن جمال الحبيب ليس شيئاً إلا المعاني التي هي في وهم محبه ؛ فالزيادة تكون من الوهم ، وهو بطبيعته لا ينتهي ؛ فإذا لم تبق فيه زيادة في الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا هذا المعنى في صور كثيرة في كتبنا : رسائل الأحران ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ فانظر فيها .

ومما يتمم ذلك البيت قول شوقي في قصيدة النفس :

يا دمية لا يستزاد جمالها زيدته حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسى موقعاً وله من إعجابي محل ؛ فهذه الزيادة التي فيه كزيادة العمر لو أمكنت ، وهي في موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل ، وكما يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل ؛ وقد علمت مأخذ الشطر الأول ، أما الثاني فهو من قول ابن الرومي :

يا حسنَ الوجه لقد شئتَه فاضمم إلى حسنك إحسانا

وفى القصيدة التى رثى بها ثروت باشا وهى من أحسن شعره تجد من أبياتها هذا البيت النادر :

وقد يموت كثير لا تحسّهمو كأنهم من هوان الخطب ما وُجدوا
وشوق يعارض بهذه القصيدة أبا خالد ابن محمد المهلبى فى داليّته التى رثى بها
المتوكل، وكان المهلبى حاضراً قتله هو والبحرى، فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا إنها
من أجود ما قيل فى معناها ؛ وبيت شوق مأخوذ من قول المهلبى :
إنّا فقدناك حتى لا اصطبار لنا ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا
أى لم يحسّ موتهم أحد ؛ ولكن البيت غير مستقيم ، لأن الذى يموت فلا
يفقد هو الخالد الذى كأنه لم يمُتْ ؛ فاستخرج شوق المعنى الصحيح وجعل العدم
للذى هو آخر الوجود فى الناس ، أول الوجود وسطه وآخره فى هؤلاء الذين
هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وُجدوا .

* * *

وإلى ما علمت من قوة هذه الشاعرية ، ودقتها فيما تتأتى له ، ومجيئها بالمعانى
النادرة مستخرجةً استخراج الذهب ، مصقولة صقل الجوهر ، معدّلة بالفكر ،
موزونة بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء ، وغرّةً كغرة الأحداث ؛
حتى لتحسب أن طفولة شوق كثيراً ما تنبعث فى شعره لاعبةً هازلة ، أو كأن
للرجل شخصيتين كما يقول الأطباء ، فهما تتعاوران شعره كالألّ ونقصاً ، وعلوّاً
ونزولاً ، أو قل هى العربية واليونانية فى ناحية من نفسه ، والتركية والشركسية فى
ناحية أخرى : لتلك الابتكار والبلاغة والمنطق ، ولهذه التهويلُ والمبالغة والخلط ؛
وشوق هو بهما جميعاً ؛ تفتنه القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوة ، وتخدعه
للضعيفة فيعجب بها إعجاب الرقة ؛ كما أعجب ببيته الذى قاله فى الحنين إلى الوطن
من قصيدته الأندلسية الشهيرة :

وطّنى لو شُغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة ، ولم يفتن أحد إلى
فساده وسخافة معناه ؛ فإن الخلد لا يكون خُلداً إلا بعد فناء الفانى من الإنسان
وطبائعه الأرضية ، وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية ؛

فكأن شوقى يقول : لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا دول ولا أم ولا حنين إلى شيء من ذلك — فإني على ذلك أحنّ إلى الوطن الذى لا وجود له فى نفسى ولا فى نفسه . . . وهذا كله لغو . . . والمعنى بعدد من قول ابن الرومى :

وحبّبَ أوطانَ الرجال إليهمو مآربُ قضّاهُ الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمو عهودَ الصّبي فيها فحنّوا لذلّكا

ومنازعة النفس هى الحنين ، ومعنى ابن الرومى وإن كان صحيحاً غير أنه لا يصلح لفلسفة الوطنية فى زمننا .

وإن فى شوقى عيبين يذهبان بكثير من حسناته : أحدهما المبالغات التركية الفارسية مما تنزعه إليه تركيته ولا مبالغة فى الدنيا تقاربها ، كقول بعض شعرائهم إن النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة . . . وهو إغراق سخيف لا يأتى بخيال عجيب كما يتوهّمون ، بل يأتى بهذيان عجيب ؛ وإذا كان الصديق يأنف من الكذب ، فإن الكذب نفسه يأنف من هذا الإغراق ؛ ومن هذه التركية فى شوقى إضافات وهمية ، هى من تلك المبالغات كذليل الحمار من الحمار : قطعة فيه ودليل عليه وآخر لأوله ولا محل لها فى ذوق البلاغة العربية ، كقوله :

(عيسى الشعور) إذا مشى ردّ الشعوب إلى الحياة
وقوله فى سعد باشا فى حادثة الاعتداء عليه :

ولو زُلتَ غيِّبَ (عمرُ الأمور) وأحلى المنابرَ سحبانها

ويدخل فى جنائبات هذه التركية على شعره تكراره الأسماء المقدّسة والأعلام التاريخية : كيوشع وعيسى وموسى وخالد وبدر وسيناء وحاتم وكعب وغيرها مما هو شائع فى نظمه ولا تجده أكثر ما تجده إلا ثقيلًا مملولًا ؛ ولهذه الألفاظ عندنا فلسفة لا محل لها الآن ، فهى أحياناً تكون السحر كله والبلاغة كلها ، على شرط أن يكون القلب هو الذى وضعها فى موضعها ، وأن لا يضعها إلا على هيئة قلبية ، فيكون كأنه وضع نفسه فى الشعر ليخفق خفقانه الحىّ فى بضعة ألفاظ ، وهذا ما لم يحسنه شوقى — والعيب الثانى أن ألفاظ شاعرنا لا يثبت أكثرها على النقد ؛ لضعفه فى الصناعة البيانية ، ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه واعتباره التهويل

شعراً والمبالغة بلاغة وإن فسدت بهما البلاغة والشعر ؛ انظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير :

قالوا الحمايةُ زالتُ قلتُ لا عجبُ قد كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانةُ الله حزمًا يقطع الذنبا
قلنا : فإذا قطع (رأس الحماية) وبقيت منها بقيةٌ ما ذنب أو يد أو رجل ؛
فلان هذه البقية في لغة السياسة التي تنقد الألفاظ وحروفها ونقط حروفها . . . لن
تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً ، بل هي (رأس الحماية) بعينه . . . على أن شوقي
إنما عكس قول الشاعر :

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا
وهذا كلام على سياقه من العقل ، فما غناء قطع ذنب الأفعى إذا بقي رأسها ،
ولما الأفعى كلها هي هذا الرأس .

ولقد ظهر لى من درس شوقي في ديوانه أمر عجبت له ؛ فإني رأيته يأخذ
من أبى تمام والبحرئى والمعرى وابن الرومى وغيرهم ؛ فربما ساواهم وربما زاد عليهم ،
حتى إذا جاء إلى المتنبي وقع في البحر وأدركه الغرق ؛ لأنه نشأ على رهبة منه كما
تشير إليه عبارته في مقدمة ديوانه الأول ؛ وقد وصف خيل الترك في قصيدة أنقرة
بقوله :

والصبر فيها وفي فرسانها خلُقُ توارثوه أباً في الروع بعد أب
كما رُلدتم على أعرافها وُلدت في ساحة الحرب لا في باحة الرحبِ
وشعره هذا كأنه يرتعد أمام قول المتنبي :
أقبلتها غُررَ الجياد كأنما أيدى بنى عمرانَ في جبهاتها
الثابتين فروسةً كجلودها في ظهرها ، والطعنُ في لبّاتها
فكانها نُتجتُ قياماً تحتهم وكأنهم وُلدوا على صهواتها
فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر ؟ وقال في (صدى الحرب)

يصف مدافع الدردنيل :
قدائفُ تخشى مهجةَ الشمس كلما علّت مصعيداتُ أنها لا تصوبُ
إذا هبَّ حاميتها على السفن انثنت وغانمها الناجي فكيف الخيبُ

وهذا الاستفهام (فكيف الخيب) استفهام مضحك ؛ لأنه إذا كان الناجي غانماً ، فالخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة ؛ والكلمة الشعرية في هذا كله هي قوله (وغانمها الناجي) ، وهي كالماربة تتوارى خوفاً من بيت أبي الطيب :

أغرُّ أعداؤه إذا سلموا بالهرب استكبروا الذي فعلوا

فهذا هو الشعر لا ذاك ؛ على أني أشهد أن في قصيدة (صدى الحرب) أبياتاً هي من أسمى الشعر ، وكأن شوق رحمه الله كان ينظم هذه القصيدة من إيمانه ومن دمه ومن كل مطامع دنياه وآخرته ، يبتغي بها الشهرة الخالدة في الناس ، والمترلة السامية عند الخديو ، ونباهة الشأن عند الخليفة ، والثواب عند الله تعالى ؛ ولو هو في أثناء عملها أسقط نصفها أو أكثر لجاءت فريدة في الشعر العربي ، غير أن الحرص كان يغتره ، وكان طول عمره مفتوناً بشعره ؛ فجاء في هذا الشعر بالطَّم والرَّم كما يقولون ؛ وله كثير من الكلام الرذل الساقط بضعفه وتهافته ؛ ولولا تلك التركيبة الفارسية وضعفه البياني ، لما رضى أن يكون ذلك في شعره ؛ وليت شعري كيف غاب عن مثله أن التهويل والإغراق والإحالة مما يهجن الشعر ويذهب بأثره في النفس ويحيله إلى صناعة هي شرٌّ من الصناعة البديعية ؛ لأن هذه تكون في الألفاظ ؛ والألفاظ تحتل العبث البديعي ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضرباً من الرياضة كعمادة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركيباً وحلاً ؛ ولكن المعاني لا تحتل ذلك ؛ إذ هي تفكير لا يلتوى إلا فسد ، والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب أن تكون فيها مزية بخاصتها من الجمال والبيان ، وأن تكون أخیلتها هي الحقائق التي أول مواضعها فوق حقائق البشر .

وهناك ضربٌ آخر من المبالغة ينجيء من سقوط الخيال ؛ لأن في الأسفل مبالغة كما في الأعلى ، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادة في السخرية منه والهزء به ؛ وهذه المبالغة تأتي من جمع أشتات مختلفة وإدماجها كلها في معنى واحد ، كهذا الذي حاول أن يدمج الطبيعة كلها في حبيته فزعم أن فيها من كل شيء ، ونسى أن كل قبيح وكل بغض هو من كل شيء (١) . . .

(١) يعنى قول المقاد في وحى الأربعين :

فبك منى ومن الناس ومن كل موجود وموجود توأم

إن الخيال الشعري يزيج بالحقيقة في منطق الشاعر لا ليقبلها عن وضعها ويحيى بها ممسوخة مشوهة ، ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها ؛ وتلك من معجزاته ؛ إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجود وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى .

ولعلماء الأدب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها ؛ قالوا : أعذب الشعر أكذبهُ ! يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال : ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك ، وما وراءه إلا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها ؛ وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الإنسانية ، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعريٌّ في الحقيقة ؛ إذ تنقل الشيء على غير ما هو في نفسه ليكون شيئاً في نفوسنا ، فيؤثر فيها أثره جمالاً وقبحاً وما بينهما ؛ وما هي خمرة الشعر مثلاً ؟ هي رضاب الحبيبة ؛ ولكن العاشق لو رأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى . . . لرأى مستنقعاً صغيراً . . . ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يحجر به لرأيت ذلك الرضاب يعجُّ عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الإلهي بأن جعل رتبته في الوجود وراء النظر الإنساني ، رحمةً من الله بالناس ؛ فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسر الحياة ؛ ولهذا المعنى كان الشعراء النواغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع .

ومن سخييف الإغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفي باشا كامل ، وهي أبيات يظن هو أنه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الإغراب :

فلو انَّ أوطانا تُصوَّر هيكلًا دفنوك بين جوانح الأوطسان
أو كان يُحمل في الجوارح ميت حملوك في الأسماع والأجفان
أو كان للذكر الحكيم بقيةٌ لم تأت بعدُ - رُئيت في القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات . . . وتصور أنت ميتاً يحمل في الجوارح فيترم فيها وببلى . . . وما زال الشاعر في أبياته يخرج من طامة إلى طامة ، حتى قال : رُئيت في القرآن ، ولو سئلتُ أنا إعراب (لو) في هذه

الآبيات لقلت إنها حرف نقص وتلفيق وعجز . . . وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل ، والله تعالى يقول فيه : « اليوم أكملت لكم دينكم » ، والأمر أمر دين قد تم ، وكتاب مقدس ختم ، ونبوة انقضت ؛ والشاعر ماض في غفلته لم يتنبه لشيء ولم يدر أنه يفرض فرضاً يهدم الإسلام كله ، بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية ؛ وشوق في الحقيقة كامل كناقص ، وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصاً هذا النقص كله ويكمل .

وفي الشوقيات صفحات تكاد تغرد تغريداً ، وفيها صفحات أخرى تنق نقيق الضفادع ؛ وفي هذا الديوان عيوب لا نريد أن نقتصها ؛ فإن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه إذا ذهبنا نأتى بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها ، ولكن من عيوبه في التكرار أن له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية ، وهو هذا البيت :

ولأنما الأهم الأخلاق ما بقيت فإن همودهبّت أخلاقهم ذهبوا

بل هذا البيت :

ولأنما الأهم الأخلاق ما بقيت فإن تواتّ مضوا على آثارها قدّما

بل هو هذا :

كذا الناس بالأخلاق يبق صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب

بل هو هذا البيت :

ولا المصائب إذ يرى الرجال بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب

وقد تكرر (فيما قرأته من ديوانه) ثلاث عشرة مرة ، فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جعل الشاعر يرقعه ثم يرقعه حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرقعة . . . والبيت الأول من العيّن النادر ، ولكن أفسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوق ، أو ضعف الحس البياي ، أو ابتذاله الشعر في غير موضعه ، أو ومن فكرته الفلسفية من جوانب كثيرة ؛ وهذه الأربعة هي الأبواب التي يفتح منها النقد على شعر صاحبنا ، ولو هو كان قد حصنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية إلى اليوم ، ولكان عسى أن ينقل الشعر إلى طور

جديد في التاريخ ؛ ولكن الفوضى وقعت في شوق من أول أمره ؛ فأرسل إلى أوروبا لدرس الحقوق وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب والفلسفة ، وغامر في سياسة الأرض، وكان الحق أن يشتغل بسياسة السماء، وتهالك في مادة الدنيا، وكان الصواب أن يتهالك في معانيها .

إن الفوضى ذاهبة بنا مذاهبها في الأدب والشعر ، فكل شاعر عندنا كمؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه أن يمثلها وحده ، فهو يخرج على النظارة في ثياب الملك فيلقى كلاماً ملكياً ، ثم يفتل فيجىء في ثوب القائد فيلقى كلاماً حربيّاً ، ثم ينقلب فيعود في هيئة التاجر فيلقى كلاماً سوقيّاً ، ثم يروغ فيرجع في مبادل الخادم ، ثم . . . ثم . . . ثم يتوارى في جلدة بربرى . . . وهذه الفوضى التي أهملت الحكومة وأهملها الأمراء والكبراء هي حقيقة مؤلة ، ولكن هي الحقيقة !

* * *

وشوق على كل هذا هو شوق : أول من احتنى بتاريخ مصر من الشعراء ، وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات ، وهو صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه ، ولقد أهتمنى قراءة البارع من شعره في أغراضه وفنونه المختلفة أن الله تعالى ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال أرواحهم وقوتها ، تجد الآداب لذتها فيهم وشموها بهم ، كأن الأمر قياس على ما يقع من عشق الناس لبعض المعاني ، فيكون في المعاني ما يعشق بعض الناس ، ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان مبلغ الاختصاص والوجد ظهر الفن أبدع ما يرى ، كأن المعنى الأدبي يتجمل ويتجسب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكم الحب .

فيا مصر ، لقد مات شاعرك الذي كان يحاول أن يخرج بالجيل الحاضر إلى الزمن الذي لم يأت بعد ، فإذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه العالية ، وذكريت مجد شعرك الماضي ، فليقل أساتذتك يومئذ : كان هذا الماضي شاعراً اسمه شوق ! .

بعد شوق *

كان يتوجّه الظن على شوق رحمه الله ، فيزعمُ الزاعمُ أن شوق هو يُعحي شعره ، وهو يرفع منه ، وهو يُشيعُ حوله قوةَ الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة ، وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم ، بل لأنه أغناهم ؛ ولا من أنه أقواهم قوةً ، بل لأنه أقواهم حيلة ؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحرُ والساحر ، فترجع العصا وهى عصاً بعد أن انقلبت حية ، ويثول هذا الشعرُ إلى حقيقته ، وتنسم الحقيقة بسمتها ؛ كأن شوق كان يعملُ لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس .

فقد ذهب الرجلُ إلى ربه ، وخلا مكانه ، وبطلت كلُّ وسائله ، ونام عن شعره نومةَ الأبدية ، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل ، وأصبح الشاعرُ هو وماله وجاهه وشعره في حكم الكلمة التى يقولها الزمن ، ولم تعد هذه الكلمةُ فى حكمه ؛ فهل أثبتته الزمن أو نفاه ، وهل سلّم له أو كابره ، وهل ردّه فى أعمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته ؟

* * *

أول ما ظهر لى أن الزمن بعد شوق أصبح أقوى فى الدلالة عليه وأصدق فى الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها الكواكبُ وتوقّد منها شىء وتلاّأ شىء ؛ فقد دلّ الزمنُ على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعر كالشعراء يقال فى وصفه إنه مفقّدٌ مجيدٌ مبدعٌ ؛ ولكنه للذى يقال فيه إنه صوتٌ بلاده وصيحةُ قومه .

كانت تحدثُ الحادثةُ ، أو يتخالجُ الناسَ معنى من الهمّ الذى يعمُّهم ، أو يستطيرهم فرحٌ من أفراح الوطن ، أو يزولُ عظيم من العظماء فيزيد صفحةً

* لما توفى شوق كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلاً طويلاً عنه وعن شعره ومنزلة شعره ؛ فلم نعرض لشيء من ذلك هنا .

[قلت : وقد نشرناه قبل هذا الفصل]

فى التاريخ ، أو ينشأ كونٌ صغير من أكوان الحضارة فى الشرق كبنك مصر ، أو ترتج زلزلة فى الحياة العربية أينما ارتجّت ، فإذا كلٌ ذلك قد وقع فى الدنيا بهيئتين لإحداهما فى ذهن شوق ، فيرسل قصيدته الشroud السائرة داويةً مجلجلة ، فلا تكاد تظهر فى مصر حتى تلتقى حولها الأفكار فى العالم العربى كله ، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسنه ، ثم تجاوزه فإذا هى صلةٌ من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها ، ثم تجاوزها فإذا هى عاطفةٌ تجمع القلوب على معناها ، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هى من هذا كله زعامة مصر على الشعر العربى .

واليوم يقع مثل ذلك فتطاير بعض الفقايع الشعرية من هنا وثم ملونة منتفخة ماضية على قانون الفقايع فى الطبيعة : من أن لحظة وجودها هى لحظة فنائها ، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتتفع .

ولست أمارى فى أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر ، ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة : ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تعثره كما اختارت شوق ، وأنه فى الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يعهد إليه ، وأن يخرج له التقليد ؛ فهو ينتظر وسيستظر .

وهذا عجيبٌ حتى كأنه سحرٌ من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبرى القدّ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفية من الصرفة والعوائق ، لا هى كلّها من قوة العبرى ، ولا هى كلها من عجز الآخرين .

وأعجبٌ من ذا أن (شوق) كان فى العالم العربى كأنه عملٌ تاريخى متميز من أعمال مصر ، غير أنه مسمى باسم رجل ؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز — كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التى تسخّل بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة فى الوجودين : من محلها ومن نفس الإنسان .

وأعجبٌ من هذا وذلك أنى لم أر شعراً عربياً يحسنُ فى وصف الآثار المصرية ما يحسنُ فى وصفها شعر شوق ، حتى لأسأل نفسى : هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها ، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها ومُسْتَجلى حسناتها ؟

* * *

وما بان شوقى على غيره إلا بأنه رجل أُفْرِغَ في رأسه الذهنُ الشعريُّ الكبير ، فكان في رأسه مَصْنُوعٌ عَمَّالُهُ الأعصاب ، ومادته المعانى ، ومهندسُهُ الإلهام ؛ والدنيا تُرسل إليه وتأخذ منه ؛ وعلامةُ ذلك من كل شاعر عظيم أن تَضَعْ دنياه على اسمه شهادتها له ؛ ولهذا ما يكون بعضُ الشعراء كأن اسمه في وزن اسم مملكة ، فإذا قلتَ شكسبير وإنجلترا ، فهما في العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبي والعالم العربي ، وكذلك شوقى ومصر .

قالوا : كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يَخَشِبُ (أى يُرسل شعره كما يجيء فلا يتنوّق فيه ولا ينقحه) ؛ وكان خَشِبُ جرير خيراً من تنقيح الفرزدق ولم ينتبه أحد إلى السر في ذلك ؛ وما هو إلا السر الذى كان في شوقى بعينه ، سرُّ الامتلاء الروحى قد أمدَّ بالطبع ، وأعين بالذوق ، وأوقى القوة أن يتحول بآثاره في الكلام ؛ فكل ما كان منه فهو منه : يجيء دائماً قريباً بعضه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به .

وقد كان عمرو بن ذرّ الواعظُ البليغ * إذا تكلم في مجلسه نشر حوله جواً من روحه ، فيجعل كلَّ ما حوله يتموّج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفَ الهواء بالبحر يقومُ به ويقعد ، وكان من الرعاظ من يقلده ويحاكيه ولا يدرى أنه بذلك يعرض الغلطة على ردّها وصوابها ، فقال بعض من جالسه وجالسههم : ما سمعتُ عمرو بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخ في الصُّور ، وما سمعتُ أحداً يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين . . .

فالفرق روحانى طبيعى كما ترى ، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه ، وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين في البحر ؛ ففي ناحية يلتجئ الماء ويثب ويتضرّب ويقصف . قصف الرعد ، وفي الأخرى يترجرج ويتزحف ويقشعر ويهمس كوسواس الحلى .

والشأن كل الشأن للكمية الوجدانية في النفس الشاعرة أو الممتازة ؛ فهى التى تعين لهذه النفس عملها على وجهٍ ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدرٍ ما ، وتقيمها

على دأبها إلى زمن ما ، وتخصّتها بخصائصها لغرض ما ؛ وإذا أنت حققت
لم تجد الفروق بين التواضع بعضهم من بعض إلا فروقاً في هذه الكمية ذاتها
مقداراً من مقدار ؛ ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظم من أكبر الشعراء ؛
فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ في العلم ، ثم يكون العلم كأنه تلميذ لقلب
هذا الشاعر وعواطفه ؛ ولئن عجز النقدُ العاميُّ أن ينال من الشاعر العبقريِّ ،
لقديماً عجز في كل أمة .

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقي من هو أوسع منه اطلاعاً على آداب
الأمم ، وأبصرُ بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسداً شائناً قد ثَقَبَ
في قلبه الحقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو في اتساع الكلام وطُغْيَان العبارة أخو المحب
العاشق ؛ فكلاهما يدور الدم في كبده معاني وسواس ، وكلاهما يجري كلامه على
أصلٍ مما في سريره ، فلا تجد أحدهما إلا عالياً عالياً بمن يحب ، ولا تجد
الآخر إلا نازلاً نازلاً بمن يبغض ؛ وكان هذا الناقد شاعراً ، فانضاف شعره إلى
حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت
وتراخي الزمن ؛ وهذه كلها مفرّعات نفسية . . . بعضها أشدُّ من بعض
كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى المليونيت ؛ ولكن شوقي كان في مرتقى لم يبلغه
الناقد ، فانقلب جهدهُ هذا عجزاً ، وأصبح البارود والتراب في يده بمعنى واحد^(١) . . .

* * *

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد ، أني رأيته يقرر للناس صوابَ
الحقيقة بزعمه ، فإذا هو يقرر غلطه وجهله وتعسفه ؛ وهو في كل ما يكتب
عن شوقي يكون كالذي يرى الماء العذب وعملته في إنبات الروض وتوشيته
وتلوينه ، فيذهب يعيبه للناس بأنه ليس هو البنزين . . . الذي يحرك السيارات
والطيارات !

تناول شوقي بعد موته فجرده من الشخصية ، أي من حاسة الشعر ، ومن
إدراك السر الذي لا يُخلَقُ الشاعرُ الحقُّ إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه ؛

(١) أحسبه يعني المقاد .

وكان فيما استدل به على ذلك أن شوقي لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومي في قوله :

تجددُ الوحوشُ به كفايتها والطيرُ فيه عتيدةُ الطعْمِ
فظباؤُهُ تُضحى بمُنْتَطَحِ وحمامه يضحى بمختَصِمِ

وزعم أن ابن الرومي قد وُلد بحاسة لم يولد بها شوقي ، وهذه الحاسة اندمج في الطبيعة فأدرك سر الربيع ، وأنه غلَيَانُ الحياة في الأحياء ، فالظباءُ تتطوح من الأشر إلخ إلخ وبني على ذلك ناطحة سحب لا ناطحة ظباء * .

أما شوقي الشاعر الضعيف العاجز الذي لم يولد بمثل تلك الحاسة ، فلو أنه شهد ألفَ ربيعٍ لما أحسَّ هذا الإحساس ، ولا استطاع أن يجيء هذا القول المعجز ؛ وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ في جهل في جهل ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ؛ فابنُ الرومي في هذا المعنى لصٌّ لا أكثر ولا أقل ، فلم يحس شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع .

قال الجاحظ : يقال في الحصب (أى الربيع) : نفَشَتِ العز لأختها ؛ وخَلَفَتْ أرضاً تَظَالِمُ مِعْزَاهَا (أى تنظالم) ؛ قال : لأنها تنفث شعرها وتنصب رؤوسها في أحد شقيها فتتطوح أختها ، وإنما ذاك من الأشر ، (أى حين شمنت وأخصبت وأعجبتها نفسها) .

فأنت ترى أن ابن الرومي لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التي قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى ... فاستكره الحمام على أن يختصم في زمن بعينه وهو يختصم في كل يوم ؛ وإنما شرط الزيادة في السركة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترع .

ولعمري لو كان للطبيعة مائة صورة في الخيال الشعري ، ثم قدّم شوقي للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا ، إلا الصورة التي لم يقدّمها . . .

* * *

* لا يحضرن كلام الكاتب بنصه ، ولكن هذا بعض مناه ، وكله تهويل .

وكان شعر شوقي في جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء يردُّهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب في اللفظ والتركيب ؛ فكثُر الاختلالُ في الناشئين من بعده ، وجاءوا بالكلام المخلَّط الذي تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفًا سهلاً ولكن سهولته أقبحُ في الذوق من جفوة الإعراب على كلامهم الوحشيِّ المتروك .

والآفة أن أصحاب هذا المذهب يفرضون مذهبهم فرضاً على الشعر العربي ، كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن ! وليس في أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربي ، فكل منهم عابد الحياة ، مندمج في وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ويمجى اللانهاية ، ويتقنَّى في اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنَّى على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار : فكل منهم مجنون لُغَوِيٌّ . . .

وأنا فليست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجيف ، غير أنهم يقولون إن الخيفة لا تعدُّ كذلك في الوجود الأعظم ، بل هي فيه عمل تحليلي علمي دقيق ؛ لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الخيفة هي فسادٌ وثَنٌ وقَدَرٌ في اعتبار وجودنا الشخصي ، وجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !

وكان حاسدو شوقي يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدمهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله !
وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةً ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب في خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك
وهيهات !

الشعر العربي

في خمسين سنة^(١)

إذا اعتبرت الشعر العربي قبل خمسين سنة خَلَّتْ (أى قبل إنشاء المقتطف) وتأمَلتَ حليته ومعرضه ، ونظرت في منهاجه وطريقته ، وتصفحت معانيه وأغراضه — لم تر منه إلا شبيهًا بما تراه من بقايا الورق الأخضر في شجرة ثقل عليها الظل فهو جامد مُسْتَوْحَشم ، وحُم في ظلها شعاع الشمس فهو بارد يرتعد ، فالحياة فيها ضعيفة متهالكة ، لا هى تموت كالموت ولا هى تحيا كالحياة ، وما أتمَّ إلا ماءً ناشف ورونق عليل ومنظر عن الشجرة الواهنة كأنه جسم الربيع / المعتل بدت عروقه وعظامه .

كان ذلك الشعر فاسد السبك ، متخلف المنزلة ، قليل الطلاوة ، بين مديح قد أعيد كل معنى من معانيه في تاريخ هذه اللغة بما لا يحصى إلا الملائكة الموكلون بإحصاء الكذب ، وبين هجاء ساقط هو بعض المواد التى تشتعل بها نار الله يوم تطلّع على الأفئدة ، وبين غزل مسروق من القلوب التى كانت تحب وتعشق ، وبين وصف لا عيب لموصوفه سواه ، وشكوى من الدهر يشكو الدهر منها ، وتحزُّن ويأس وندب تجعل ديوان الشاعر كما سَمَّى أحد ظرفاء القرن الثانى عشر للهجرة ديوان أحد أصحابه « بالملسطة . . . » ، ورثاء كقراءة القراء في جنازات الموتى ، لا فيها عظة السكوت ولا فائدة النطق ، وتغمر كل ذلك أنواع من الصناعة بيّنة التعسف ، ضعيفة التقليد ، لا ترى المتأخراً فيها مع المتقدم إلا قريباً مما يكون عملُ اللص في أخذ المال ، من عمل صاحب المال في جمعه ؛ والعجيب أنك إذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة إلى القرن الثالث عشر (السادس عشر للميلاد إلى التاسع عشر) رأيته نازلاً من عصر إلى عصر بتدرج من الضعيف إلى الأضعف ، حتى كأنما ينحط بقوة طبيعية كقوة الجذب ، كلما

هبطت شيئاً أسرع شيئاً إلى أن تلتصق بالأرض ، وبعضهم يسمى هذه العصور
 بالعصور المظلمة ، ولم يتنبه أحد إلى أن في الأدب ناموساً كناموس رد الفعل ،
 يُخرج أضعف الأضعف من أقوى القوة ، وأن انحطاط الشعر في تلك العصور -
 على أنه لم يكن إلا صناعة بديعية - إنما سببه القوة الصناعية العجيبة التي كانت
 للشعر منذ القرن السادس إلى العاشر ، بعد أن نشأ القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦هـ
 (١١٩٩ م) ؛ وكان رجلاً من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها
 أزمنة وتنتهي عندها أزمنة ؛ ففتن الناس بأدبه وصناعته ، وصرف الشعر والكتابة
 إلى أساليب النكتة البديعية ؛ وظهرت من بعده عصابته التي يسمونها العصابة
 الفاضلية ، وما منهم إلا إمام في الأدب وعلومه ، فكان في مصر القاضي ابن
 سناء الملك ، وسراج الدين الوراق ، وأبو الحسين الجزار ، وأضرابهم ؛ وكان في
 الشام عبد العزيز الأنصاري ، والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف
 ابن لؤلؤ الذهبي ، وأمثالهم ؛ فهذه العصابة هي التي تقابل في تاريخ الأدب
 العربي عصابة البديع الأولى : كسليم ، وأبي تمام ، وابن المعتز ، وغيرهم ؛ وكلتا
 للفتتين استبدت بالشعر وصرفته زمناً ، وأحدثت فيه انقلاباً تاريخياً متميزاً ؛
 بيد أن العصابة الفاضلية بلغت من الصنعة مبلغاً لا مطمع في مثله لأحد من
 بعدها ، حتى كأنهم لم يدعوا كلمة في اللغة يجري فيها نوع من أنواع البديع إلا
 جاءوا بها وصنعوا فيها صنعة ؛ وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليه ، إلى
 آخر المائة الثامنة ، فلم يتركوا باباً لمن يأتي بعدهم إلا باب السرقة بأساليبها المعروفة
 عند علماء الأدب .

ولهذا لا تكاد تجد شعراً عربياً بعد القرن التاسع إلا أول النهضة الحديثة ،
 إلا رأيت صوراً ممسوخة مما قبله ؛ وكل شعراء هذه القرون ليسوا ممن وراءهم إلا
 كالظل من الإنسان : لا وجود له من نفسه ، وهو ممسوخ أبداً إلا في الندرة حين
 يسطع في مرآة صافية ؛ ومتى كان الشعراء لا ينشئون إلا على فنون البلاغة وصناعاتها ،
 وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون ؛ فما ثمَّ جديد في الأدب والفن إلا
 ولادة الشعراء وموتهم ، وإلا تغير تواريخ السنين . . . وهذا إذا لم نعد من الأدب
 تلك الصناعات المستحدثة التي ابتدعها المتأخرون مما سنشير إلى بعضه : كالتاريخ
 الشعري وغيره .

إن الفكر الإنسانى لا يسير التاريخ ، ولا يقدر قدراً فيه ، ولا ينقله من رسم إلى رسم ؛ لأنه هو نفسه كما خلق مصاححاً خلق مفسداً وكما يستطيع أن يوجد يستطيع أن يفنى ، وكما تطرد به سبيل تلتوى به سبيل أخرى ؛ وما أشبه هذا الفكر فى روعته بقطار الحديد : يطير كالعاصفة ويحمل كالجبل ويدهش كالمعجزة ، وهو مع كل ذلك لا شيء لولا القضيبان الممتدان فى سبيله ، يحرفانه كيف انحرفا ، ويسيران به أين ارتميا ، ويقفان به حيث انتهيا ؛ ثم هو بحملته ينقلب لأوى اختلال يقع فيهما .

لا جرم كانت العصور مرسومة معينة النمط ذاهبة إلى الكمال أو منحدره إلى النقص ، حسب الغايات المحتومة التى يسير بها الفكر فى طريق القدر الذى يقوده .

فهذه علوم البلاغة التى أحدثت فناً طريفاً فى الأدب العربى ، وأنشأت الذوق الأدبى نشأته الرابعة فى تاريخ هذه اللغة ، بعد الذوق الجاهلى ، والحديث ، والمولّد — هى بعينها التى أضعفت الأدب وأفسدت الذوق وأصارتُهُ إلى رأينا فى شعر المتأخرين ، كأما انقلبت عليهم علوماً من الجهل ، حتى صار النمط العالى من الشعر كأنه لا قيمة له ؛ إذ لا رغبة فيه ، ولا حَقْلُ به ؛ لمباينته لما ألفوا وخلوه من النكتة والصناعة ؛ وحتى كان فى أهل الأدب ومدرّسيه من لا يعرف ديوان المتنبى !

ولا يصف لك معنى الشعر فى رأى أدباء ذلك العهد كقول الشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٨٧١ :

مللتُ من القريض وقلت يكفى لأمرٍ شابَ قوّتهُ بضِعْفٍ
أحاولُ نكتةً فى كل بيت وذلك قد تقصّر عنه كفى
أجلُ الشعر ما فى البيت منه غرابةُ نكتةٍ أو نوعٍ لطفٍ

يريد النكتة البلاغية وأنواع البديع ، وذلك ما قصّرت عنه كفته وكف غيره ، لأنه شيءٌ مفروغ منه ، حتى لا يأتى المتأخر بمثال فيه إلا وجدته بعينه لمن تقدّمه على صور مختلفة ينظر بعضها إلى بعض وما يأتى اختلافها إلا من ناحية وحى القلم — ثالث

الحديد في إخفاء السرقة بالزيادة والنقص ، والإلام والملاحظة والتعريض والتصريح وغيرها مما يعرفه أئمة الصناعة ، ولا يتسبب إليه بأقوى أسبابه إلا من رزق القوة على التوليد والاختراع .

إذا عرفت ذلك السر في سقوط الشعر واضطرابه وسفوفته ، لم تر غريباً ما هو غريب في نفسه ، من أن بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلم الذي يصحح الرأي ، ولا الاطلاع الذي يؤتي الفكر ، ولا الحضارة التي تهذب الشعور ، ولا نظام الحكم الذي يحدث الأخلاق ؛ وإنما كان ضرباً من الجهل وقف حداً منيعاً بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا ؛ وكان كالساحل لذلك الموج المتدفق الذي يتضرب على مدّ ثمانمائة سنة من القرن السادس إلى الرابع عشر للهجرة ؛ والله أسرار عجيبة في تقليب الأمور وخلق الأحداث ودفع الحياة الفكرية من نط إلى نط . وإخراج العقل المبتدع من هيئة إلى هيئة ، وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الإنساني في عصر واحد أو عصور متعاقبة ، وإقامة بعض الأشخاص حدوداً على الأزمنة والتواريخ ؛ فكان الذي أحدث الانقلاب الرابع في تاريخ الشعر العربي ، وأنشأ الذوق نشأته الخامسة ، هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودي ، الذي لم يكن يعرف شيئاً ألبتة من علوم العربية أو فنون البلاغة ؛ وإنما سمى به المهمة لأنه حادثة مرسلّة للقلب والتغيير . فأبعده الله من تلك العلوم ، وأخرجه لنا من دواوين العرب ، كما نشأ مثل ابن المقفع والجاحظ من فصحاء الأعراب ، ويسر له من أسباب ذلك ما لم يتفق لأحد غيره مما لا محل لبسطه هنا ، ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يذكر في شعر كل عصر من لدن زمننا إلى صدر الإسلام ثم لا تنحط مرتبته - غير كلام البارودي هذا ؛ وهو وحده الذي يقابل القاضي الفاضل في أدوار التاريخ الأدبي ، على بعد ما بينهما ؛ لأن شعره هو الذي نسخ آية الصناعة ، ودار في ألسنة الرواة ، وكان المثل المحتذى في القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة ؛ ولم يشأ الله أن يسبقه إلى ذلك أحد ؛ لأن النهضة الاجتماعية في هذا الشرق العربي كانت في علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها ؛ ولولا ذلك لسبقه شاعر القرن الحادي عشر الأمير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ (١٦٦٩ م) ؛ فقد اتفقت لهذا الأمير نشأة كنشأة البارودي ، فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الأولى ،

وكان يقلد أبا فراس الحمداني ويحتذى على مثاليه ؛ ولكن عصره كان في العصور الهالكة ، فخرج الشاعر ضعيفاً كما يخرج كل شيء في غير وقته ولغير تمامه وبغير وسائله الطبيعية .

ونشأت العصابة البارودية وفيها إسماعيل صبرى وشوقي وحافظ ومطران وغيرهم ، وأدركوا ما لم يدركه البارودي وجاءوا بما لم يحجى به ، واتصل الشعر بعضه ببعض ، وسارت به الصحف ، وتناقلته الأفواه ، وأنسى ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة المدرسية الحديثة التي جعلت من ترك البلاغة بلاغة ؛ لأنها صادفت أوائل الانقلاب ليس غير ؛ وبذلك بطل في مصر عصر أبي النصر والليثي والساعاتي والنديم وطبقتهم ، وفي الشام عصر اليازجي والكسبي والأنسي والأحذب وأضرابهم ، وفي العراق عهد الفاروق والموصلي والبرزازي والتميمي وسواهم ؛ واستقل الشعر عربياً عصرياً وخرج كما يخرج الفكر المخترع ماضياً في سبيل غير محدودة .

* * *

لا ريب في أن الطرق التي تتبع في تربية الأمة وتكوين روحها العالمية لا بد أن يكون لها أثر بيّن في شعر شعرائها ؛ فإنما انشعر فكر ينبض وعاطفة تختلج ، وما أرى الشاعر الحق من أمته إلا كالزهرة الصغيرة من شجرتها ؛ إن لم تكن خلاصة ما فيها من القوة ، فهي خلاصة ما في الشجر من معنى الجمال ولونه وملامحه ، ولا تعدم مع هذه الصفة أن تكون وحدها الكوكب الساطع في هذا الأفق الأخضر كله . ولقد اطّردت النهضة منذ خمسين سنة أو حولها ، في الأدب والعلم ؛ وفي الفكر والفن والصناعة ؛ واستوى لنا من ذلك ما لم يتفق لهذه الأمة في عصر من عصورها ، حتى بلغنا من ذلك أن صرنا كأنما فتحنا أرضاً من أوروبا وتغلبنّا عليها ، أو أنشأنا أوروبا عربية وما نزال نعصرها وننقل إليها العلوم والفنون والآداب ، ونستخرج لها الأمثلة والأساليب ؛ غير أن الشعر العربي مع هذا كله لم يوفّ قسطه ولم يبلغ مبلغه في مجارة هذه النهضة قوة ابتكار وسلامة اختراع وحسن تنوع ؛ لسببين : الأول أنه لا يزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية : شعر فته لا شعر أمة ، فهو يوضع للخاصة لا للشعب ،

ويدور مع الأغراض والحاجات لا مع الطباع والأذواق ؛ وذلك لو تأملتَ هو من بعض الأسرار في سمو هذا الشعر وقوة إحكامه وإبداع تنسيقهِ وجمال توشيحهِ منذ الدولة العباسية إلى القرن الخامس ؛ ثم انحطاطهِ بعد ذلك وتدلّهِ شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الأسفل في العصور المتأخرة ؛ إذ كانت الفئة التي يوضع لها ويصف أهواءها وأغراضها وتتقبله وتثيب عليه وتحسن وزنه ونقده ، هي في الناحيتين كما ترى من طرفي المنظار الذي يقرب البعيد ، فهي بالنظر في أولهِ واضحة جليلة مترامية إلى الجهات ، وبالنظر في آخرهِ ضئيلة ممسوخة لا تكادُ تُعرف . وما أقضى العجب من غفلة بعض الكتاب في هذا الزمن إذ يناهضون العربية . ويزرون على الفصاحة ويعملون على انكماش سوادها وتقليل أهلها . وما يدرون أنهم بذلك يسقطون الشعر قبل الكتابة على خطأ أو عمد وقلما تجد واحداً من هؤلاء يحسن معالجة الشعر ، فإن أصبت له شبراً وجدته لاغناء فيه أو في أكثره ، وأين وضعت يدك منه لم تخطئ أن تقع على مثل مما يمثّل به لعب من عيوب البلاغة .

وهذه النهضة التي نحن في صدد الكلام عنها أوسع مدى وأوفر أسباباً من تلك التي كانت في الدولة العباسية ، بما دخلها من أدب كل أمة ، وما اتصل بها من أساليب الفكر : ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها ، المتعصبون لها العاملون على بثها في الألسنة ، مع أن عصرهم أوسع من عصر الرواة ، بكثرة ما أخرجت المطابع من أمهات الكتب والدواوين ، حتى أغنت كل مطبعة أدبية عن راوية من أئمة الرواة .

والسبب الثاني الذي من أجلهِ لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلته الواجبة له — سقوط فن النقد الأدبي في هذه النهضة ؛ فإن من أقوى الأسباب التي سمت بالشعر فيما بعد القرن الثاني وجعلت أهله يبالغون في تجويده وتهذيبه ، كثرة النقد والحفاظ . وتتبعهم على الشعراء ، واعتبار أقوالهم ، وتدوين الكتب في نقدهم ، كالذي كان في دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب ، وكالذي صنفه مهلهل بن يموت في نقد أبي نواس وأحمد بن طاهر ، وابن عمار في أبي تمام ، وبشر بن تميم في البحتري ، والآمدي في الموازنة ، والحاتمي في رسالته ،

والجرجاني في الوساطة ، وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل ، وأنت من النقد في هذه النهضة بين اثنين : صديق هو الصديق أو عدو هو العدو . . . فإن ابتغيتَ لهما ثالثاً فكاتبٌ لا تتعادل وسائل النقد فيه فلا خير في كلامه ؛ أما الناقد الذي استعرض علم العربية وآدابها ، وكان شاعراً كاتباً قوى العارضة دقيق الحسّ ثاقب الذهن مستوى الرأى بصيراً بمذاهب الأدب متمكناً من فلسفة النقد مبرزاً في ذلك كائنه — فهذا الخيال يذكرني كلمةً قلتها يوماً للبارودي إذا قلت له : إن الشاعر لا يكون لسان زمينه حتى يوجده معه الناقد الذي هو عقل زمينه ؛ فقال : ومن ناقد الشعر في رأيك ؟ قلت : الكاتب وهو شاعر ، والأديب وهو فيلسوف ، والمصلح وهو موفق ؛ فكأنما هوّلت عليه حتى قال رحمه الله : « فين دا كلّه ؟ » قلت : فلعله لا ينشئ لنا هذا العقل الملتهب إلا العصر الذي يوجب لنا أسطولا كأسطول إنجلترا .

* * *

وعلى ما نزل بالشعر العصري من هذين السببين فقد استملت طريقتيه وظهر فيه أثر التحول العلمي والانقلاب الفكري ، وعدل به أهله إلى صور الحياة بعد أن كان في أكثره صوراً من اللغة ، وأضافوا به مادة حسنة إلى مجموعة الأفكار العربية ، ونوعوا منه أنواعاً بعد أن كان كالشيء الواحد ، واتسعت فيه دائرة الخيال بما نقلوا إليه من المعاني المترجمة من لغات مختلفة ، وهو من هذه الناحية أوسع من شعر كل عصر في تاريخ هذه اللغة : إذ كان الأولون إنما يأخذون من اليونانية والفارسية ، ثم أخذ المتأخرون قليلاً من التركية ؛ أما في العهد الأخير فيكاد العقل الإنساني كله يكون مادة الشاعر العربي ، لولا ضعف أكثر المُحدّثين من النشء الجديد في البيان وأساليبه وبعدهم من ذوق اللغة واعتياص مرامها عليهم ، حتى حسبوا أن الشعر معنى وفكر ، وأن كل كلام أدنى المعنى فهو كلام ، ولا عليهم من اللغة وصناعتها ، والبيان وحقيقته ؛ وحتى صرنا والله من بعض الغثاء والزكاكة والاختلال في شرّ من توَعّر نظم الجاهلية وجفاء ألفاظه وكرارة معانيه ؛ وهل ثمّ فرق بين أن تنفر النفس من الشعر لأنه وعر الألفاظ عسير الاستخراج شديد التعسف ، وبين أن تمجه لأنه ساقط اللفظ متسوّل المعنى مضطرب السياق ؟ ثم تراهم يُسجرون الشعر كله على اختلاف أغراضه

نمطاً واحداً من تسهيل اللفظ ونزوله ، حتى كأن هذه اللغة لا تنوع في ألفاظها وأجراس ألفاظها ، مع أن هذا التنوع من أحسن محاسنها وأخص خصائصها دون غيرها من اللغات ، كما أن كل تنوع هو من أبدع أسباب الجمال والقوة في كل فن ؛ ولا يدرى أصحابنا أن كل ذلك من عملهم عبث في عبث إذا هم لم يعطوا الشعر حقّه من صناعة اللغة ؛ وهذا شاعر الفرس الشهير مصلح الدين السعدى الشيرازى إمام من أئمة البلاغة في قومه لا يدفع مكانه وشعره مثلك من أسمى الأمثلة في جمال المنطق الروحى ، وليس في الناس إلا من يسلم له هذا الحل من النبوغ ، وهو مع ذلك حين نظم الشعر لم تنفعه نافعة من حكمة أو خيال أو فكر ، وذهب في التعسف كل مذهب ، وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه إلا صحة الوزن ، كقوله في وصف نكبة بغداد وتخريبها :

فقد ثكلت أم القدرى ولكعبة	مدامع في الميزاب تسكب في الحجر
على جذر المستنصرية ندبة	على العلماء الراسخين ذوى الحجر
نواب دهر ليقبى مت قبلها	ولم أر عدوان السفية على الحجر
محابر تبكى بعدهم بسوادها	وبعض قلوب الناس تألف بالغدر
لحى الله من تسدى إليه بنعمة	وعنده هجوم اليأس أحلك من حبر

فانظر أى شعر هذا في الركابة والهذيان والسخف ، وفي خمود الفكر وضعف الروح وذهاب الرونق ، وتأمل كيف هوى به السعدى من مكانته التي يوّاه إياها أدبها العالى ، وكيف سقط إلى حيث ترى ، مع أنه في محراب الفكر إمام وراءه صفوف من عصور البلاغة .

ومن ههنا نشأ في أيامنا ما يسمونه « الشعر المنشور » ، وهى تسمية تدل على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه ؛ فليس يضيق النثر بالمعاني الشعرية ، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب ؛ ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربى صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علة ولأيسر سبب ، ولا يوفق إلى سبك المعانى فيها إلا من أمده الله بأصح طبع وأسلم ذوق وأفصح بيان ؛ فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ أو فساد العبارة أو ضعف التأليف ، ولا تستوى فيه أسمى المعانى مع شئ من هذه العلل وأشباهها ، وتراه يلقي بمثل

(السعدى) من الفلك الأعلى إلى الحضيض ، لا يقيم له وزناً ولا يرمى له محلاً ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة ؛ غير أن النثر يحتمل كل أسلوب ، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهى إلى انعامى الساقط والسوق البارد ؛ ومن شأنه أن ينسبط وينقبض على ما شئت منه ، وما يتفق فيه من الحسن الشعرى فإنما هو كالذى يتفق فى صوت المطرب حين يتكلم لا حين يغنى : فمن قال : « الشعر المنشور » فاعلم أن معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية وادّعاؤه من ناحية أخرى .

* * *

والذى أراه جديداً فى الشعر العربى مما أبدعته هذه النهضة أشياء :

أولاً : هذا النوع القصصى الذى توضع فيه القصائد الطوال ، فإن الآداب العربية خالية منه ؛ وكان العرب ومن بعدهم إذا ذكروا القصة أَلَمُّوا بها اقتضاباً وجاعوا بها فى جملة السياق على أنها مثل مضروب أو حكمة مرسلّة أو برهان قائم أو احتجاج أو تعليل وما جرى هذا المحرى مما لا تَرَدُّ فيه القصة لذاتها ولا لتفصيل حوادثها ، وهو كثير فى شعر الجاهليين والإسلاميين ، والجيد منه قليل حتى فى شعر الفحول ؛ فإن طبيعة الشعر العربى تأباه ؛ والذين جاعوا به من العصرين لا يجدون منه إلا قطعاً تعرض فى القصيدة وأبياتاً تتفق فى بعض معانيها وأغراضها مما يجرى على أصله فى سائر الشعر طال أو قصر ؛ والسبب فى ذلك أن القصة إنما يتم تمامها بالتبسط فى سردها وسياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر أوصافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به ، وإنما بُنى الشعر العربى فى أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد ، وعلى الشعور لا على الحكاية ؛ ولا يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس ؛ فهو فى الحقيقة عندهم صناعة روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية والفخر والاستطالة ونحوها من المعانى التى هى بسبب من أسباب الانفعال والنزعة ؛ فلا جرم كان سبيلهم إلى ذلك هو التحديد لا الإطلاق ، وضبط المقادير لا الإسراف ؛ إذ كان من شأن هذه الأمور فى طبيعة النفس أن ما زاد منها عن مقداره تحوّل وانقلب فى تأثيره ، وذلك هو السبب أيضاً فى أن هذا الشعر ما لم

يكن قائماً على اختيار اللفظ وصناعة العبارة وتصنيفتها وتهذيبها واختيار الوزن للمعنى وإدارة الفكر على ما يلفت من ضروب الخجاز والاستعارة ونحوها - سقط وركّ بمقدار ما ينقصه من ذلك ؛ وليس الشأن في إطالة القصيد ؛ فمن الشعراء من نظم رويّاً واحداً في أربعة آلاف بيت ، ومنهم من نظم تفسير القرآن كله ؛ ولكن عيب مثل هذا الشعر في العربية أنه شعر . . . وما أحمل ابن الرومي على جلالة محله إلا طول قصائده وسياقه الكلام فيها مع ذلك على ما يشبه أسلوب الحكاية وخرجها مخرج المقالة يتحدث بها ، فلم تحي له إلا مقطعات وأبيات ومات سائر شعره وهو حي وميت على السواء ، حتى قال فيه صاحب الواسطة : « ونحن نستقري القصيدة من شعره وهي تناهز المائة أو تربي أو تضعف ، فلا نعر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائد منه وهي واقفة تحت ظلها جارية تحت رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي . . . » .

والعجيب أن بعض الكتاب في عصرنا ممن لا تحقيق لهم في مثل هذه المسائل ، بعد أن أحسن محاسن ابن الرومي ما هو أقيح عيوبه ، وقاتل الله صناعة الكتابة ، فكما أنها ملء الفراغ هي كذلك لإفراغ الملائن^(١) . . .

ثانياً : صياغة بعض الشعر على أصل التفكير في الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما من لغات الأمم ، فيخرج الشعر عربياً وأسلوبه في تأدية المعنى أجنبي ؛ وأكثر ما يأتي هذا النوع من أمريكا ، وأنا أعجب بكثير منه لما فيه من الغرابة والحسن .

وما زالت أجناس الأمم يضيق بعضها بأشياء ويتسع بعضها بأشياء فلسنا مقيدين بالفكر العربي ولا بطريقته ، وعلينا أن نضيف إلى محاسن لغتنا محاسن اللغات الأخرى ؛ ولكن من غير أن نفسدها أو نحيف عليها أو نبيعها ببيع الوكس ؛ وبقي كان هذا النوع من الشعر رصيناً محكماً جيد السبك رشيق المعروض ، كان في النهاية من الرقة والإبداع ؛ ولم يأت التجديد في هذه اللغة إلا من هذه الناحية ، كالذي تراه فيما أخذ عبد الحميد وابن المقفع من نمط الأداء في اللغة الفارسية .

ثالثاً : الانصراف عن إفساد الشعر بصناعة المديح والثناء ، وذلك بتأثير

الحرية الشخصية في هذا العصر ؛ والمدح إذالم يكن باباً من التاريخ الصحيح ؛ يدل على سمو نفس المدوح ، بل على سقوط نفس المادح ؛ وتراه مدحاً حين يتلى على سامعه ، ولكنه ذم حين يُعزَى إلى قائله ! . وما ابتليت لغة من لغات الدنيا بالمديح والثناء والهجاء ما ابتليت هذه العربية ؛ ولذلك أسباب لا محل لتفصيلها .

رابعاً : الإكثار من الوصف والإبداع في بعض مناحيه والتفنن في بعض أغراضه الحديثة : وذلك من أسمى ضروب الشعر ، لا تتفق الإجادة فيه والإكثار منه إلا إذا كان الشعر حياً ، وكانت نزعة العصر إليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحاً ؛ ولما وصف الشيخ أحمد الكردي (من شعراء القرن الثاني عشر) السفينة واستهل بهذا الوصف مدح الوزير راغب باشا ، عدواً ذلك حادثة من حوادث الأدب في عصره ، فتأمل !

خامساً : إهمال الصناعات البديعة التي كان يُبنى عليها الشعر ، فيُنظم البيت ليكون جناساً أو طباقاً أو استخداماً أو تورية إلخ ، أو ضرباً آخر من صناعة العدد والحساب ، كالتاريخ الشعري بأنواعه ؛ أو صناعة الحرف ، كالمقلوب والمهمل وغيرهما : أو صناعة الفكر ، كاللغز والمعمى ؛ أو صناعة الوضع كالتشجير والتطريز ، إلى ما يلتحق بهذا الباب الذي ذهب أهله فلا يتيسر لأحد من بعدهم أن يجاريهم فيه ، وكانت لهم في كل ذلك عجائب استقصيناها بالتدوين في موضعها من (تاريخ آداب العرب)^(١) ؛ بيد أن إهمال صناعة البديع شيء وإهمال فن البديع نفسه شيء آخر ؛ ومن هنا جاء ما نراه في بعض الشعر الحديث « والشعر المنشور » من الإغراق السخيف الذي لا يقوم على أصل ، من التعدي في ضروب الاستعارة ، والبعد في المجاز ، والإحالة في الوضع ، محوونها مما يرجع إلى الجهل بطبيعة البلاغة ، وما لا نعدّه إلا ضرباً من الفساد يلتحق بما كان في العصور الماضية وإن كان على الضد منه .

سادساً : النظم في الشؤون الوطنية والحوادث الاجتماعية ، مما يجعل الشعر محيطاً بروح العصر وفكره وخياله ، وهو باب لا ينهض به إلا أفراد قلائل ،

(١) انظر الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) للرافعي .

ولا يزال ضعيفاً لم يستحكم ؛ وقد قالوا إن للفاضل اثني عشر ألف بيت في مدح الوطن والحنين إليه . ولكن لا أحسب أن فيها مائة من نحو ما يُنظم في هذا العصر مما أدى بالشعر إلى أن يدخل في باب السياسة ويعدّ من وسائلها ، وفي طرق التربية ويعد من أسبابها .

سابعاً : استخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية ، وهو قليل . جاء به شوقي في قصيدتين ولم يتابعه أحد ، لإفراط ذلك الوزن في الخفة حتى رجع إلى الثقل ؛ . . . ثم نظم بعض الشعر من أوزان مختلفة قريبة انتاسق على قاعدة الموشح ، ولكنه شعر لا توشيح ، كما ينظم بعض شعراء أمريكا وسوريا ؛ ولم يحدث مثل ذلك في العربية ، فإن القصيدة كانت تنظم من بحر واحد ، وقد يخرج منه وزن آخر ؛ ولا نعرف في تاريخ الأدب قصيدة تتألف من وزنين إلا الذي ، قالوا إن حسين بن عبد الصمد المتوفى سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) قد اخترعه ونظم فيه أبياته التي مطلعها :

فاح عرف الصبا وصاح الديكُ وانثى البان يشتكى التحريكُ
قم بنا نجتلى مشعشة تاه من وصفه بها النسبيكُ

وعارضها ولده الإمام الشهير بهاء الدين العاملی صاحب الكشكول بأبيات قالوا إنها سارت في عصره مسير المثل . ونسج عليها شعراء ذلك العصر ، كالنابلسي وغيره ، ومطلعها :

يا ندیمی بمهجتي أفديكُ قم وهات الكنوس من هاتيكُ
خمرة إن ضللت ساحتها فمنا نور كأسها يهديكُ

على أن هذا الوزن بشطويه مستخرج من الخفيف ، فليس باختراع كما زعموا ، وإنما هو ابتداء في التأليف الشعري ؛ وقد اجتزأنا بما مرت الإشارة إليه ، فإنه كلُّ ما تغير به الرسم في هذه الصناعة ؛ وتركنا الأمثلة تفادياً من الإطالة .

* * *

وبعد فلا ريب أن النفس البشرية في حاجة أبداً مع دينها الروحي إلى دين

إنساني يقوم فيها على الشعور والرغبة والتأثير ، فيفسر لها حقائق الحياة ، ويكون وسيلة من وسائل تغييرها ؛ ليعجلها ألطف مما هي في اللطف ، وأرق مما تكون في الرقة ، وأبدع مما تنفق في الإبداع ؛ ذلك الذي يصل بظهوره وإبهامه بين الواضح والغامض ، والخالد والفاني ؛ ذلك الذي لا يجمُل الجمال إلا به ، ولا تسكن النفس إلا إليه ؛ ذلك هو الشعر !

صروف اللغوى*

كان شيخنا هذا رجلاً حصيفاً جيد المترعة حسن الرأي ، ممكناً له فيما كان يعترضه من مسائل اللغة ، قوياً على الأحوال التى تجرى له من أوضاعها فيما يُعانيه من النقل ويزاوله من الترجمة على اختلاف مناحيها وكثرة فنونها ، وعلى أنها لا تزال كل يوم نبعث من علم وتحتفل من رأيٍ وعمدٍ مدَّ السيل كأنها دنيا عقلية لا يبرح عقلُ الإنسان دائماً يخلق فيها وبينها من معانى الكون وأسراره ، فلا الكون ينفد لثم ، ولا هى تتم قبل أن ينفد الكون .

وثبت شيخنا على ذلك عمرَ دولة من الدول فى خمسين سنة ونيف ، يضرب قلمه فى السهل والصعب ، وفى الممكن والممتنع ؛ وإنه ليمرُّ فى كل ذلك مرّاً لا ينشئ ، ويحذو حذواً لا يختلف ، كأن الصعب عنده نسقُ السهل ، والممتنع صوغُ الممكن ؛ فلو قلتُ إنه بُنى فى أصل خلاقه وتركيبه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدتُ ، ولو زعمتُ أن ذلك القلم الحى لم يكن إلا عِرقاً فى جسم الإنسانية لكان عسى ...

وانتهى شيخنا فى العهد الأخير إلى أن صار يُعدّ وحده حجة اللغة العربية فى دهر من دهورها العاتية ، لا فى الأصول والأفيسة والشواذ وما يكون من جهة الحفظ والضبط والإتقان ، بل فيما هو أبعد من ذلك وأردُّ بالمنفعة على اللغة وتاريخها وقومها ، بل فيما لا تنتهى إليه مَطْعمَة أحد من علمائها وكتابها وأدبائها ؛ إذ وقع الإجماع على أنه انفرد فى إقامة الدليل العملى على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها ، وأنها تؤاخذ كل ذى فن على فنّه ، وتمادُّ كلِّ عصر بمادته ؛ وأنها من دقة التركيب ومطاوعته مع تمام الآلات والأدوات بحيث يتزل منها رجل واحد بجهده وعمله منزلة الجماعات الكثيرة فى اللغات الأخرى ، كأنها آخر ما انتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة .

* هو العلامة الدكتور يعقوب صروف صاحب « المقتطف » ، وقد نشر هذا المقال فى مقتطف

ولا يذهبن عنك الفرق بين رجل حافظ والكتابُ أحفظ منه ، وهو من الكتاب
خارج وإلى الكتاب يرجع ؛ وبين رجل يكون ترجماناً من تراجمة العقل
الإنسانى المعنى بتأويل الكون وتفسيره ، والطائر بالألفاظ الإنسانية على أجنحة
العلوم والفنون والمخترعات والمعاني ؛ فإن ذلك ينقل عن الواقع ثم لا يتعدى هذه
المنزلة ولا يتجاوز متون الألفاظ ، وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الألفاظ
ومعانيها يجاذبها ويدافعها ، ثم لا يزال يضع يده فى النسيج اللغوى يسدى ويلحم ،
فهو مدفوع إلى المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقه ، وأساليب الأخذ
والانتزاع ؛ وهو مقيّد أبداً بخاص المعنى وخاص اللفظ على التعيين والتحديد ،
لا يجد فسحة من ضيقين ؛ فلن لم يكن مثل هذا فى منزلة الواضع فهو فى المنزلة
بعده ولا ريب .

إنما اللغوى الأكبر عندى هو هذا الكون ، وما العالم باللغة وفنونها إلا وسيلة
لتهذيب الطريقة تهذيباً عقلياً ، فيجب من ثم أن يكون للغوى رأى وعلم وذكاء
وبصر ، ويجب أن يطابق النواميس ، فلا يتعاضد ما بينه وبينها ، لأنه وسيلة
إنطاقها ليس غير ؛ ومن ذلك أرى الدكتور صرّوف فى الغاية ، فقد كان ينزع
فى مذهبه اللغوى منازع علمية دقيقة تُوزَن وتُقاس وتختبر ، فى حين لا ترفع
ولا تهن ولا تختل ، وتراها تنطلق وهى مقيدة ، وتثبّد وهى مطلقة ؛ إذ كان
لا يعتدّ اللغة عربية للعرب ، بل عربية للحياة ؛ وما تهدّمه وتبنيه وما تحدّثه
وتنسّخه فهى على أصولها فيمن قبلنا ، ولكن فروعها فينا نحن وفيمن يلينا وفيمن
بعد هؤلاء ، فلنا أن نتولاها على تلك الأصول وعلى ما يشبهها فى الطريقة حين
تنتقل الحال ويتغير الرسم ، ولعلّ إن وجبت ، ولقياس إن جاز . والدكتور
بهذا الاعتبار يشتد فى التمسك بالقواعد والضوابط ولا يترخص فى شىء منها غير
أنه لا يكون كأقوام يرون الفروع من الجذوع قد خرجت ، فيحسبون الثمرات
سبيلها من الجذوع أيضاً . . . وإن لم تجئ منها فستجىء منها .

عرض لى يوماً أحد هؤلاء اللغويين فانتقد فى المقطع قصيدة من القصائد
التي رفعتها إلى الملك فؤاد ، وتمحّل فى نقده ودلّل ببعض ما نقله من كتب اللغة ،
فكان فيما تكلم فيه لفظاً (الأزاهر والورود) ، فقال إنهما ليسا من اللغة ولم يجريا

في كتبها ؛ وكان من ردّي عليه أن قلت له إن العرب جمّعوا الحمل ستة جموع ، وجمّعوا الناقة سبعة لأنها أكرم عليهم منه ، وإن لكل حياة صورها الدائرة في ألفاظها ، فالزهر والورد عند المولدين والمحدثين أكرم من الحمل والناقة عند العرب ، أو هذان كهذين ؛ ثم هما من خاص الألفاظ المولدة ، فلنا أن نجمعهما على كل صور الجمع التي يسوّغها القياس ، لأن ههنا العلة الموجبة التي لم تكن مع العرب فيهما ؛ فمن الصحيح أن تقول : زهور ، وأزهار ، وأزاهر ، وأزاهير إلخ ؛ فلما لقيت الدكتور بعد نشر هذا الرد هأنى به . ثم قال فيما قال : يحسبون أن العرب هم الحمل والناقة وليس غير ما استجمل وما استنوق ... أما هذا الدهر الطويل العريض فليس عندهم شيئاً ، وهم يستطيعون أن ينكروا على المولدين ألف كلمة ، ولكن هل في استطاعتهم أن ينكروا على التاريخ ألف سنة ؟ فذكرت له الأصل الذي قرره أبو علي الفارسي في العربي الصحيح نفسه : من أنه ليس كل ما يجوز في القياس يجب أن يخرج به سماع . فإذا أخذ إنسان على طريقة العرب وأتم مذهبه فلا يسأل ما دليله وما سماعه وما روايته ، ولا يجب عليه من ذلك شيء ، حتى قال أبو علي : لو شاء شاعر أو متسع أن يبنى بلحاق اللام * اسماً وفعلًا وصفة بلحاز له ، ولكان ذلك من كلام العرب ؛ وذلك نحو قولك : خَرَجَجْ أكثر من دخلَل ، وضربَ زَيْد عمرًا ، ومررت برجل ضربٍ وكُرم ، ونحو ذلك . قال تلميذه ابن جني : فقلت له : أترجل اللغة ارتجالاً ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيسٌ على كلامهم فهو إذاً من كلامهم .

وسألني مرة عن وجه الخلاف بين ما يسمونه القاسم والحديد ، فقلت له : إن الخلاف ليس على جديد ولا قديم ، ولكن على ضعف وقوة ؛ فإن قومًا يكتبون وينظمون ولكن لم تُقسَم الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطبقونه من ذلك ، ولا يتسع الصحيح لآرائهم في اللغة والأدب ، وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضاقوا ، ويطاولوه من حيث تقاصروا ، وينالوه من حيث عجزوا ؛ فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور ، فيؤول ذلك بأنه هو يدير الأرض على محورها بحركة قدميه . . . نحن نقول : أسلوب ركيك ، فيقولون :

لا بل جديد ، ونقول : لغة سقيمة ، فيقولون : بل عصرية ، ونقول : وجه من الخطأ ، فيقولون : بل نوع من الصواب . وهلمّ جراً أو سحباً ... ثم قلت له : أفتجد أنت الركاقة واللحن والخطأ والغثاء وإنّ وأخواتها باباً جديداً أو أمراً مبتدعاً أو شيئاً يحتاج إلى اسم جديد غير اسمه العربي ؟ قال : لا ، وأنا معك في هذا ، وطريقتي في المقتطف أن اللغة في قواعدها عربية ، ولكن من قواعدنا أن لكل مقام مقالا ، فنحن نكتب كتابة صحيحة ونريد بها أن ترفع العامة ولا تنزل بالخاصة ، فنخدم العربية من الجهتين .

ثم نشر بعد ذلك في عدد شهر مايو سنة ١٩٢٧ مقالا جعل عنوانه (أسلوبينا في الترجمة والتعريب) وابتدأه بهذه العبارة : « اللغة جسم حي نام ، وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصينيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكي لا تنمو وتبلغ حدها الطبيعي ، ولكن إذا كان النمو مشوّهاً فلا بد من تقييده وتهذيبه » ؛ وكل ما نقوله نحن هو التقييد والتهذيب واتقاء الشّوهة أن تُلمّ باللغة وأساليبها فتترادف على محاسنها بمعاييرها ، وتطمس مفاتها بمقاييسها ؛ فإن هذه المعايير والمقاييس إذا هي استجمعت وانساعت في لغة من اللغات لبستها بأشكالها فلا تزال تنكر منها حتى لا تبقى لها وصفاً يعرف ، والحسن وحده هو الذي يُحدّد بالأوصاف والتعاريف ، وهو الذي يدقّق فيه ويبالغ في قياسه وتقديره ، فإن وقع فيه الفضول واختلطت الحدود وضعفت الملاءمة وجرى الوصف ناقصاً وزائداً فقد خرج إلى القبح ، وإن خرج إلى القبح لم يعد الناس يحدّون له حدّاً أو يعبّأون له بقاعدة ، وجدوا فيه كل الأوصاف الجميلة مقلوبة منكّرة ، لأنه هو جمال مقلوب ؛ (فتقييد التشويه وتهذيبه) كلمتان فيهما الكلام كله ، أو هما المصراعان لهذا الباب ؛ ومن أجل ذلك كنا نعد الدكتور من حجتنا على أصحاب الجليد ، لأنه أوسعهم إحاطة وأكثرهم علماً وأمدّهم عملاً ، ثم لن يدانيه أحد منهم إلا إذا جمع لنفسه عميرين ، وهل في الجليد رجل دو عميرين ؟ ...

قلنا إن الشيخ كان في المنزلة التي تلي منزلة الواضع ، وقد دفعته العلوم إلى ذلك دفعاً ، لأنه مقيد بخاص المعنى في كل ما يترجم أو يعرّب ، ثم بالخصائص العلمية الدقيقة التي لا تحتمل في أدائها ما تحتمل المعاني الأدبية ؛ وقد تصدر

للكتابة والترجمة منذ شباب هذا العصر ، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة في الشرق ؛ فلا جرم لم يكن لغويًّا كأبي عمرو وأبي زيد والخليل والأصمعي وأبي حاتم وأبي عبيدة وأضرابهم ممن يحملون عن العرب ويؤدون ما حملوه ، ولا كان لغويًّا في طريقة سيبويه والكسائي والزجاج والأخفش واليزيدي وأشباههم ممن ينظرون في اللغة وعملها وأقيستها وشواذها ؛ ولكنه لغوى فيما يعمر بين الشرق والغرب ، يحمل بلسان ويؤدى بلسانٍ غيره ، ويوافق بين المعاني الجديدة والألفاظ القديمة ، ويشابك بين خيوط التاريخ في هذه وهذه ، ويأخذ اللغة للاستعمال لا للحفظ والتعليم لا للتدوين وللمنفعة لا للمباهاة وللفائدة لا للتنبُّل ؛ ويترجم وإن في خياله العالم الواسع الذى ينقل عنه بعلمائه وأدبائه وكتبه ومجلاته ومصطلحاته ، ويكتب وإن له تلك الملكة الدقيقة التى كونتها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وغيرها ؛ فلم يكن بدًّا من أن يبتدع ، وأن تكون له طريقة يوافق فيها ويخالف ، وقد بسط هو القواعد التى أخذ بها وجرى عليها ، فكتب فيها مقالاً في مقتطف شهر يوليو لسنة ١٩٠٦ ، وأعاد نشره في عدد شهر مايو لسنة ١٩٢٧ ، وهو يوافق فيه أكثر العلماء ، وخاصة الإمام الجاحظ ؛ مع أن قاعدة الجاحظ لم تكن يومئذٍ معروفة ، ولكن كلا الشيخين حصيف الرأى تامُّ الإدارة في عمله ، قوى الحسبة والتدبير فيما يأخذ وما يدع ؛ وخلاصة رأى الدكتور أنه ينظر في الكلمة الأعجمية ، فإن أصاب لها مرادفًا في العربية يحددها وينبئ بها فذاك ، وإلا أمرها في كتابته وهو مقيد بقاعدة القارئ وما هو أخف على قارئه في المثونة وأبين له في الدلالة ؛ فإن كانت اللفظة الأعجمية أوفى وأشبع في الاستعمال عدل إليها ، قال : وغنى عن البيان أننا التزمنا أن نجارى العلماء في المصطلحات العلمية التى تفقد دلالتها بتعريبها : كالحامض الكبريتوس والكبريتيك إلخ ، فإن لكل من هذه الملحقات والزوائد التى فيها ، معنىً خاصاً يدل على تركيب الحامض المراد كما يعلم دارسو الكيمياء ؛ قال : فمن يسمى الحامض الكبريتيك بالحامضى الكبريتى كمن يسمى الفرس حماراً لأن لكل منهما رأساً وذنباً . . .

والجاحظ يقول في مثل ذلك : إن رأى في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون ما دمت في المعانى التى هى عبارتها والمادة فيها على أن ألفظ بالشئ العتيد

الموجود (يعنى اللفظ العلمى الاصطلاحى) وادع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة . . . ولكل صناعة ألفاظٌ قد جعلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تزل بصناعتهم إلا بعد أن كانت بينها وبين معانى تلك الصناعة مشاكلا .

فأنت ترى الجاحظ لا يمتنع من الألفاظ الأعجمية والعامية كما هى ما دامت المعانى قائمة ، وقاعدته هى الأخف والأدل والأفهم والأشيع ، وهذا بعينه يقول الدكتور فيه : « يشترط فى حسن التعبير أن يؤدى المعنى المراد إلى ذهن السامع بأقل ما يكون من الوقت والكلفة والإسراف فى القوة العصبية » .

وقد كلمنى بعضهم فى خطأ الدكتور من ناحية الألفاظ الأعجمية وإقحامها فى كتابته ، وأنه يحنج إلى ذلك بأوهى سبب ؛ ولا أراه خطأ ، بل أنا أرد ذلك إلى ما بيته آنفاً من أمر الناقل والواضع ولا يعجزنا أن نجد لصنيع الدكتور نصاً يقوم به وينهض بحجته ؛ فقد قال أبو على الفارسى : إن العرب إذا اشتقت من الأعجمى خلطت فيه ، فإذا كان هذا فى الاشتقاق وهو لا يكون إلا من أصل ، فكيف بالتعريب ؟ على أنه لا خلط ولا اضطراب ، إنما هو سبيل الوضع وحكمة الدلالة وأن اللغة هكذا تجيء ، ثم يأتى بعد ذلك النحوى يقول لماذا ولأن . . .

وقد أعجبني حسن تقسيم الدكتور لقواعده التى بسطها فى مقاله المستفيض ، حتى إنى لأراه باباً جديداً فى التقسيم المعروف عند علماء البلاغة واللغة لا يتدال الألفاظ وغرابتها ، إذ لم يبق عندنا غريب ومبتدل ولا بيننا عرب ومحدثون .

بيد أن من تلك القواعد أن الأستاذ يترخص فى الألفاظ العامية وهو يجد فصيحها ، ويقول فى ذلك : « إذا أسمعته الفلاح المصرى كلمة بذار مرة فى الأسبوع أو فى الشهر ، سمع كلمة (تقاوى) مائة مرة وألف مرة ، فرأينا أن محاولة تغيير لغة العامة فى هذه الكلمات وأمثالها ضرب من العبث وإضاعة الوقت وتضييع للفائدة ، فجاريناهم فيما نكتبه لهم » . وهذا ما كنت أجادله فيه ولا أسلم له بشيء منه ، لأنه أغفل أصلاً اجتماعياً عظيماً ، فإن عامتنا غير منقطعة

من العربية الفصحى ، ولا يزال فيهم ميراثها من القرآن والحديث وكلام العلماء في أمور دينهم ، وهذه هي وسائل مزجهم بالفصحى وردّهم إليه . ولا تزال هذه الوسائل تفعل ما تفعله النواميس المختومة ولولاها لما بقي للفصحى بنية بعد .

وقد كان جاء إلى مصر من بضع سنين رجلٌ من أمريكا هو من تلاميذ الدكتور القدماء ، فنزح إلى ذلك البر فاتجر فأثرى وفشت له نعمة عظيمة ؛ ولما لقيته لقيت في يده صحيفة وضع فيها مسائل في اللغة والنحو ، وكان أعدها ليسأل عنها ؛ وفي أولها هذا السؤال : لماذا يقال فَصَح الرجل فصاحة فهو فصيح ، ثم يقول : شعّر شعراً فهو شاعر ؟ ألم يكن القياس أن يقال شعّر شعراً فهو شعير . والفصاحة والشعر من باب واحد ؟

وهذا السؤال وإن كان في ظاهر الرأى لغواً وعبثاً ولكنه دقيق في تاريخ اللغة وأقيستها ، ولا محل لبسط الكلام عليه في هذا الموضع ، غير أني أنهيت الخبر للدكتور صرّوف وقلت له : إن صاحبك هذا يضع قواعد اللغة في الميزان الذي في حانوته . . . وأنت كذلك تعالج بعض الألفاظ أحياناً ببعض الغازات والحوامض .

قلت هذا لأنني لم أسلم له قط فيما كان يراه في مثل البذار والتماوى ، على أنه قيّد الكلام بقوله (فيما نكتبه لهم) . وهذا احتراس يدافع عنه بقوة كما ترى .

ولا يمتري أحد في أن هذه النهضة اللغوية التي أدركناها وعملنا فيها لم تكن سوى نموّ طبيعي لعمل رجال أفذاذ نظن الدكتور صرّوف في طليعتهم ، لأنه كان أطولهم جهاداً وأكثرهم عملاً وأظهرهم أثراً ؛ وكان المقتطف يجيء لها كل شهر كأنه قطعة زمنية مسلّطة بناموس كنابموس النشوء ، حتى لألّم هذا المقتطف أن يكون عصراً من العصور قد خرج في شكل الكتابة ؛ ولقد كاشفني الدكتور في آخر أيامه أنه كان يود أن يختّم عمله بوضع معجم في اللغة يصلح أن يقال فيه إنه معجم الشعب ، وفصل لي طريقته ، إذ كنت أكلمه في كتاب لغوي افتتحت العمل فيه من زمن ولا يعرف أحد من أمره خيراً^(١) فقال لي : خذ بين طريقي وطريقتك ،

(١) أحسبه يعنى المعجم الذي كان يعاون فيه صديقه المرحوم أحمد زكي باشا ، وانظر ص ٢٦٢

وامض أنت في هذا العمل ؛ فإنى ولو وجدت فراغاً لما عدلت بهذا الأثر شيئاً ،
وما كل سهل هو سهل . .

على أن شيخنا هذا لو قد كان تفرغ للغة وتوفر عليها واجتمع لها بذلك
العمر وتلك العلوم والأدوات ، لكان فيها بأمة من الأشياخ الماضين من
لدُنْ أبى عمرو بن العلاء إلى الدكتور يعقوب صروف ، ولكن لعلّ الدهر
أضيق من أن يتسع أو هو أوسع من أن يضيق . . . لإمام آخر كأبى على
الفارسى ، يفرغ سبعين سنة لفرع واحد من علوم اللغة هو علم القياس والاشتقاق
والعلل الصرفية ويجعله همه وسدّمه على ما قال تلميذه ابن جنى : « لا يعتاقه
عنه ولد ، ولا يعارضه فيه متجر ، ولا يسوم به مطلباً ، ولا يخدم به رئيساً ؛ فكأنه
إنما كان مخلوقاً له » .

وكانت للدكتور طريقة جريئة في رد الألفاظ العربية إلى أصولها والرجوع
بها إلى أسباب أخذها واشتقاقها وتصاريقها من لغة إلى لغة ، وأعان على ذلك
ثقوب فكره وسعة علمه ودقة تمييزه وميله الغالب عليه في تحقيق ناموس النشوء
وتبيين آثاره في هذه المخلوقات المعنوية المسماة بالألفاظ ؛ وكان معجباً بكل ما جاءه
من هذا الباب ولو كان من خطيئ ؛ لأنه إلى الرأى يقصد وللطريقة يمكن ومع
الخطاير يجري .

وهذا باب يحتاج إلى التسمّح والتساهل ؛ إذ لا يمكن تحقيقه ، ولا تتفق الحيلة
فيه ، وليس إلا أن يتلوّح شيء منه ويسنح شيء وتتلامح علة ويعرض سبب ؛ ثم
هو في الدكتور من بعض الدلالة على استحكام ملكة الوضع فيه ، ونزوعه إلى أن
يقتاس بقياسه ويستخرج من علة ؛ وقد تراه يبعد في ذلك فينصب لك الدليل
من وراء بضعة آلاف سنة ، وأنا الساعة أعانُ ذاكرتى وأديرها من ههنا وههنا لأجد
كلمة قال لى مرة في تاريخها إن العرب أخذوها عن اليونان حين كانت مكة
نفسها جارية في حكمهم ، ولكن أنسيت هذه الكلمة ، إذ لم أرتبطها ، وإذ كنت
لا أرى هذا المذهب ولا أحسن أن أقول فيه قولاً ، وأعدُّ كل ما يقال فيه من باب
تلفيق الأدلة ، كأنه ذئبُ ذلك الأعراى الذى يريد أن يجعل في الناس منه مثل
غرائز الغم . . . فيقول : « إلّا تره تظنّه » .

والدكتور صروف رجل مالى فى المال وفى اللغة جميعاً ، فمذهبه القصد فى الدلالة والقصد فى الوقت والقصد فى القوة : وقد صرفته ثلاثتها عن الشعر وعما كان فى حكمه من تعجير النثر وتوشيته ، على أنه يحسنهما لو أراد ولو سخّنت نفسه بالوقت ينفقه ولا يتعرّف قدر ما مضى منه فى هذه الساعات ، بل فى ساعة الكون الكبرى التى يتعاقب فيها عقربا النهار والليل ، كما كان ينفق البارودى يوماً فى بيت أو بيتين . .

وكان شيخنا فى آخر مجالسى معه قبل وفاته بشهر أو نحوه ، أطلعنى على كل ما نشره فى مجلدات المقتطف من شعره ، فأعجبت بأشياء منه ، وأشرت على صديقنا الأستاذ فؤاد صروف أن يعيد نشر قصيدة الرقّاش التى ترجمها الدكتور عن الإنجليزية فى نسق سلس موشح القوافى ، والتى يقول فيها صاحبها يصف مخازى المدنية :

مخازٍ توالّت فصالت وصارت على اللحم دوداً وفى العظم سوساً
وسألنى الدكتور بعد أن فرغت من شعره : فى أى طبقة تعدّنى من شعرائهم ؟
ففكرت قليلاً ثم قلت له : فى طبقة الدكتور صروف ! . فضحك لما كثيراً .

وكانت له آراء فى الشعر العربى غيّر بعضها فى آخر عهده ، وما قاله لى مرة :
إن الذى يريد أن يخلد ذكره فى هذا الشرق فلا يُنسئ ، لا ينبغي له أن يطمع فى هذا إلا إذا بنى هرمًا كهرم الجيزة ! . وهى كلمة فلسفية كبيرة تنطوى على شرح طويل يعرفه من يعرفه .

وقد كادت قاعدة القصد التى أوّمت إليها تنتهى به فى آخر مدته إلى القول بإسقاط الإعراب بته ، وأظن ذلك خاطراً سنح له فأخذ بأوله وترك أن ينظر فى أعقابه ، فزرت مرة فى شهر يناير لسنة ١٩٢٧ ، وكان يصحح تسويدة جواب كتبه عن سؤال ورد عليه فى هل يمكن الرجوع إلى اللغة الفصحى فى القراءة والتكلم وما الفائدة من ذلك ؟ فلما أمرّ الجواب على نظره دفعه إلى فقراته ، فإذا هو يرى أن كل حركة من حركات الإعراب والبناء يتهوّر فيها وقت ما ؛ قال : فإذا قضينا على أبناء العربية ألا يتكلموا إلا كلاماً معرباً

نكون قد أضعنا عليهم ثلث الوقت الذى يقضونه فى التكلم من غير فائدة تجنّى .

ولقد جادلته فى ذلك ولججت فى الخلاف معه ، وقلت له إن هذه قاعدة مالية ، ثم إنك أغفلت أمر العادة وما تيسّر ، وفى الكلام إيجاز يقوم مع الإعراب هذا المقام حين لا يكون من الإيجاز بدء ، وفى اللهجات العامية من الحشو ووطّ الصوت وفساد التركيب ما يذهب بأكثر من ثلث الوقت ؛ فأحسبه اقتنع وإن كنت رأيته لم يقتنع .

ولأنه ليحضرنى بعد هذا كلام كثير فى فضائل الدكتور وآدابه وشمائل نفسه الزكية ومنزعه فى الأخلاق الطيبة الكريمة ، ولو ذهبت أفصّل لخرجت إلى الإفاضة فى فنون مختلفة ، ولكنى أجترئ من كل ذلك بأنه كان يظهر لى دائماً كأنه فى ظل من محبة الله .

* * *

الشيخ الحضري^(١)

تحول الكاتب إلى كتاب ، ورجع المفكر إلى فكرة ، وأصبح من كان يُدّرسُ الناسُ فإذا هو درسٌ يُذكر أو يُنسى ، وتناول التاريخ عالماً من علمائه فجعله نبأ من أنبائه ، وكان يبينه فوضعه في بنائه ، وقيل مات الشيخ الحضري !

آه لو يرجع إنسان واحد من طريق الموت التي أوطأ هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية ، وآخرها حيث تجد كلمة : « الآخرة » بلا معنى لا محدود ولا مطلق ! وآه لو استطعنا أن نتكلم عن الميت كأنه حيّ بيننا ، ونحن كثيراً ما نتكلم عن الحيّ كأنه مات من زمن ! إني لأكتب هذه الكلمات وكأنني أنظر إلى وجه أبي رحمه الله ، وأشهد ذلك السمّ العجيب ، وذلك الوقار الذي يغمر النفس هيبَةً وجلالاً ، وأستروح ذلك الحب الذي هو أحد الطرق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء ، ومن المخلوق إلى الخالق ، والمبتدئة من السماء إلى الأرض ، ومن الخالق إلى المخلوق : طريق الأمّ ، وطريق الأب ، وطريق الإنسانية ؛ أكتب وكأن يدأ من وراء المادة تسمح على قلبي فأجد ثقلاً وفرةً ، وأستشعر حيناً وشوقاً ، وأحسُّ هذا القلب ينازعني إلى قوم ذهبوا بلا رجعة ، وفارقوا بلا وداع ، وغابوا عنا بلا خبر ؛ دخلوا إلى أنفسنا ولا تحويهم ، وخرجوا منها ولا تخلو منهم ؛ فما دخلوا ولا خرجوا ، وهذه هي الحيرة التي يتركها الميت العزيز للحي المتفجع كما يعرف بأمواته ما هو الموت !

* * *

كنا منذ بضع وثلاثين سنة في مدينة المنصورة ، وكان أبي يومئذ كبير قضاة الشرع في ذلك الإقليم ، فإني لألعب ذات يوم في بهو دارنا إذ طرق الباب ، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخ لم يبلغ سنّ العمامة * ولم أُميّز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم ، فكان حدثاً لكنه يتّسم بسمّة الجد ؛ ورأيتُهُ

(١) المقتطف : مايو سنة ١٩٢٧

* كناية عن الحداثة وأنه شيخ بالنظر لا بالسن .

لا تموج به الحبّة كالعلماء ، غير أنها لا تمجّه كالطلبة ؛ وكان في يده مجلد ضخم لو نطق لقال له : دعني لمن هو أسنُّ منك ! فما قدرته يزنُ عشرين مجلداً من مثله ، ونظر إلى نظرة كأني لا أزال أزاها في عينه إلى الساعة ، فسلمت عليه فقال : أين الشيخ ؟ يعنى الوالد - قلت : خرج آنفاً ؛ قال : فادفع إليه هذا الكتاب ، وقل له جاء به الخضرى .

ثم أغلقت الباب وانتحيت جانباً وفتحت المجلد : فإذا هو جزءٌ من التفسير الكبير للفخر الرازى ، كان قد استعاره من مكتبتنا ؛ وعرفت الشيخ من يومئذ ، وكان أستاذاً للعربية في مدرسة الصنائع ، يضع كتاب النحو والصرف مع المطرقة والمنشار والقشود ، فيذهب شىء في شىء ، وكأنه لا يعلم شيئاً ؛ وقلمنا نذكره في مدرستا ، إذ كان لنا شيخ فحل ثقة من رجال الأهر ، غير أن الخضرى كان له موضع في كل مجلس ، وكان يداخل قومًا من الخاصة يعنون بالمسائل الإسلامية وفلسفتها وتقريبها من العامة والدهماء ، وبإشارة من بعض هؤلاء وضع أول كتبه : « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » ، ويكاد هذا الاسم يدل على وزن الأستاذ في أول عهده ، وأنه لا يزال وراء السجعة الآتية من القرون الأخيرة لم يمض على وجه ولم يعرف بمذهب .

* * *

إن الذى يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالم المؤرخ الأديب المربى ، يجب أن يرجع بتياره إلى منبعه ليعرف مبلغ انبعاثه وقوة جريته ومدّ عبابه ؛ فما كان الخضرى شيئاً قبل أن يتعلق بمدار ذلك النجم الإنسانى العظيم الذى أهدته السماء إلى الأرض وسُمى في أسمائها « محمد عبده » ، لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين ، ولكن دار علومه الكبرى كانت أخلاق الأستاذ الإمام وشأنه وآراءه وبلاغته وهمة نفسه . ألا إنه لا بد من رجل واحد يكون هو الواحد الذى يبدأ منه العدد في كل عصر ، وأنت فكيف تأملت الخضرى فاعلم أنك بإزاء معنى من معانى الشيخ محمد عبده ، على فرق ما بين النفسين ، بل أنت من الخضرى كأنك لترى الشيخ سارياً في مظهر من مظاهر الزمن .

كان يحضر دروس الشيخ ، ويختلف إلى ناديه ، ويناقله بعض الرأى ، ويعارض معه بعض الكتب التى كان يُرجع إلى الشيخ فى تصحيحها أو الإشراف على طبعها ؛ فنفذ الشيخ إلى نفسه ووجد السبيل إلى الاستقرار فيها ، فهو من بعدُ حريصٌ على وقته ، مجد فى عمله ، دائبٌ على طريقه ، آخذ بالأخلاق الفاضلة ، مصلحٌ مُربٍّ غيور ؛ وكل ذلك فى سمت وهيبة ، وجزالة رأى ، وشرف هيمّة ، وإخلاصٍ حقّ الإخلاص ؛ وما أرى فوضى عصرنا هذا وانحطاطه وإسفافه وسخافة قوْلم جديداً وقديماً ، وجرىء ورجعى ، وحر وجامد — إلا من خلاء العصر وفراغه من النفس الكبيرة ، وحاجته إلى إمام عظيم ؛ ومتى أصبحنا نضرب فى دائرة لا مركز لها ، فهى المربع وهى المستطيل وهى كل شكل إلا أن تكون الدائرة ؛ والذين رأوا طاغور الشاعر الهندى المتصوف حين نزل بمصر ، ورأوا سحره وتحويله كل جديد مدة أيام إلى قديم ، وإخراسه هذه الألسنة عن نقده ومعارضته ، وعن معاندة الحق طيشاً ونزقاً وضلالاً وتجديداً . . . يستطيعون أن يدركوا ما أومأنا إليه ، ويتبينوا السرفيا نحن فيه ، ويتمثلوا ما كان للشيخ محمد عبده فى عصره ، بل فى خلق عصره .

* * *

وانتهى الخضرى إلى مدرسة القضاء الشرعى ، فألف كتابه فى الأصول ، اختصر فيه وهذب وقارب ، فهو كتاب فى هذا العلم لا كتاب هذا العلم ، وأساتذة الأصول قوم آخرون لو أنت منهم مثل الشيخ الرافعى الكبير ، لرأيت البحر الذى يذهب فى ساحله نصف طول الأرض ، وقد بعث الخضرى على ذلك أن جماعة يومئذٍ كان منها صديقنا المرحوم حفى ناصف ، والشيخ المهدي ، وغيرهما ، اجتمعوا على إبداع نهضة فى التأليف ، فذهب ثلاثة منهم بحصة الأدب ، وفرغ الخضرى للأصول ؛ أخبرنى بذلك حفى بك رحمه الله ؛ ثم لما اختار القائمون على الجامعة المصرية القديمة صديقنا العلامة المؤرخ جورجى زيدان لدرس التاريخ الإسلامى فيها ، طار الخبر فى الأمة بأنهم اختاروا القنبلة . . . وشعر الناس بمعنى الهدم قبل أن يتهدم شيء ، فاضطرت الجامعة إلى أن تنحيه ، وعهدت فى الدرس إلى الأستاذ الخضرى ، فألقى دروسه التى جمعها فى كتابه (تاريخ الأمم الإسلامية) ، وقال فى مقدمة هذا

الكتاب : « أرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى . وهي صعوبة الاستفادة التاريخ^١ العربي من كتبه » ؛ نقول : وعلى أن الشيخ أحسن في كتابه ، وجاء بمادة غزيرة من فكره ورأيه ، وبسط واختصر ، وباعد وقرب ، فإن كلمته هذه إما أن تكون أكبر من التاريخ أو أكبر من كتابه .

وردَّ في السنة الماضية على كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين ، وكان ردُّه خطاباً أراد أن يحاضر به طلبة الجامعة ، لأنه أستاذ أستاذهم ؛ فكأنه أراد جعل أستاذهم هذا تلميذاً معهم ، وأبت عليه الجامعة ما أراد ، ولعلها فطنت إلى هذا الغرض ؛ ولما علم أنى شرعت في طبع ردِّي على الدكتور طه ^(١) ، كلمني في استلحاق مقالته وجعله ذيلًا في الكتاب ، وقد رنَّاهُ يومئذ في نحو خمسين صفحة أو دونها ، وقد سألتُه أن ينفي منه ما كان في مقادير الرصاص ويقتصر على ما هو في وزن القنابل ، فقال : « كاه قنابل » ! . ثم اتسع كتابي وجاوز مقداره إلى الضعف ، فوسَّع هو ردَّه وزاد فيه وطبعه في قريب من ضعفه على حدة .

دع كتابه المشهور (مذهب الأغاني) ، فهذا لا يقال إن الشيخ ألفه ، بل ألفته خمس عشرة سنة ؛ وأظن كل ذلك لا يُذكر في جنب الكتاب الذي كان يعمل فيه أخيراً ، وهو كتاب « الأدب المصري » ، أخبرني أنه في جزئين ودعاني إلى داره لأرى (المكتبة الخضرية) ؛ ولأطلع على هذا الكتاب ، فوعدهُ ولم يُقدر لي ؛ وقد حدثني أنه معنى أشد العناية باستجماع الفروق التي يمتاز بها الأدب المصري عن الأدب الحجازي والشامي والعراقي والأندلسي ، وأنه أصاب من ذلك أشياء متميزة منذ الدولة الطولونية ، يحق لمصر أن تقول فيها هذا أدبي ؛ وكان يكمّ خبر هذا الكتاب ، حتى إن صديقنا الأستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق ، اقترح عليه أن يكتب فصلاً في الشعراء المصريين وأدبهم يعقده لكتاب حفلة تكريم شوقي بك ؛ ثم لقيه بعد ذلك فقال له الشيخ : إن البحث سائر على أحسن وجهه !

* * *

كان الحضري يفرح للقائى ويهش لى : وكنت أتبين فى وجهه أشعة روحه الصافية ، ولعله كان يرى بى فى نفسه ذلك الشيخ الذى أعطانى المجلد ، كما كنت أرى به فى نفسى ذلك التلميذ الذى أخذ المجلد منه ! على أن مرجع ذلك فى الحق إلى سعة صدره ، وفسحة رأيه ، وبسطة ذرعه ، وسمو أدبه وإنصافه ؛ فلا يحقد ولا يحسد ، ولا يتجاوز قدره ، ولا ينزل بأحد عن قدره ، ولا يدعى مالا يحسن ؛ وقد عرف قراء المقتطف مثلاً من أخلاقه هذه أو أكثرها حتى انتقدته صديقنا الأستاذ عبد الرحيم بن محمود . وتناول الجزء الأول من كتابه (مذهب الأغاى) وراح يتقلقل له كجلمود صخر . . . فوسعه الشيخ وعنى به ورد عليه فى المقتطف ، ونعته بالأستاذ الجهد وانتصف منه ، وأنصفه معاً . ولقد اقترحت عليه مرة أن يضع كتاباً فى حكمة التشريع الإسلامى وفلسفته ، فقال لى : « مُشْ قَدَّة » يعنى أن العمل أكبر منه . ولكن هذا نبهه إلى وضع كتابه فى تاريخ التشريع الإسلامى .

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) فى سنة ١٩١١ ، لم أهده إلى الشيخ ، فاشتراه وقرأه ، ثم لقيته وسألته رأيه فيه ، فقال : (جداً كويس) فكان تقديم (جداً) تقريظاً ، و (كويس) تقريظاً آخر ؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشيوخ يكاد يموت غماً بهذا الكتاب وما كتب عنه ، وعلى حين كلمنى بعضهم مرتين فى ترك هذا العمل ونفض يدى منه ، لأنه — زعم — عمل شاق بلا فائدة . . .

وقد زرت الأستاذ الحضري فى وزارة المعارف فى السنة الماضية . فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يشتنى بقوة فى الكرسي ، كأنه لم يطمئن بعد إلى أنى جلست ، ثم فاض بكلام كثير ، فكان فيما قاله : « أنا الآن أعيش فى غير زمنى ! » . وكأنما كان يعنى إلى نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدري ولا أدري ؛ وقال لى إنه يجلس إلى مكتبه فى كل يوم ست ساعات ، يقرأ أو يؤلف أو ينسخ ؛ لأن كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها ، وأنه يتلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم . قال : ولا يعتريه البرد ولا مرض من

أمراضه ، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة ، وقال : إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن .

* * *

ولنمسك عند هذا الحد ؛ فإن للذكرى غمراً على القلب ؛ وبالجمله فقد كان رحمه الله عالمًا كالكتّاب ، وكاتبًا كالعلماء ؛ فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين ، وهو وحده منزلة بين المنزلتين ؛ وبذلك تميّز وظهر ، فإنه في إحدى الجهتين عقل جرىء تمدّه رواية واسعة في علوم مختلفة ، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضي حتى كأنه لم يمض ، وهو في الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حد الصحيفة أو الكتاب ، بل لا يزال يلمس له عقلا يخرجهم ويتصرف به ، حتى يكبر عن أن يكون قديمًا بحتًا فينتظم الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقًا واحدًا . لم يكن الشيخ جديدًا إلا بالقديم ، ولا قديمًا إلا بالجديد ؛ فإننا لا نعرف قديمًا محضًا ولا جديدًا صرّفًا ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنّة الحياة ؛ وأنت لن تجد حيًّا منقطعًا مما وراءه ، بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حيّ جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحد هما أبواه فمنهما يأتي ومنهما يستمد وهما أبدًا فيه وإن كان على حدة ؛ وبعد فلو جاريت السخافة العصرية المشهورة لقلت إن المذهب القديم . . . قد انهقد ركن من أركانه ، ونقص قطار كتب من ميزانه ؛ ولكن هذه السخافة في رأيي كما ترى من جماعة اتسكّوا أن يطفئوا نجمًا في السماء لأنه قديم ، فانفقوا على ذلك وأجمعوه بينهم وفرغوا من أمره ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف يهيئون العربات والمضخات التي تحمل إلى السماء بضعة أبجر ليصبوها على النجم . . .

رأى جديد ^(١) في كتب الأدب القديمة

أدبُ الكاتب لابن قتيبة من الدواوين الأربعة التي قال ابن خلدون فيها من كلامه على حدّ علم الأدب : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصولَ هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : وهى أدبُ الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والنبين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى ؛ وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

وقد يظن أدباءُ عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمانه وقومه ، وأنها تتوجه على طريقة من قبلهم في طبقة بعد طبقة إلى أصول هذه السلسلة التي يقولون فيها حدثنا فلان عن فلان إلى الأصمعى أو أبى عبيدة أو أبى عمرو بن العلاء وغيرهم من شيوخ الرواية ونقلّة اللغة . ولكنها لا تستقيم في آدابنا ولا تُعد من آلاتنا ولا تقع من معارفنا ؛ بل يكاد يذهب من يتغرّر منهم بالآراء الأوروبية التي يسميها علمه . . . ومن يسترسِل إلى التقليد الذي يسميه مذهبه . . . إلى أن تلك الكتب وما جرى في طريقتها هى أموات من الكتب ، وهى قبور من الأوراق ، وأنه يجب أن يكون بيننا وبينها من الإهمال أكثر مما بينها وبيننا من الزمن ، وأن بعث الكتاب منها وإحياءه بوشك أن يكون كبعث الموتى : علامة على خراب الدنيا . . .

فأما أن يكون ذلك علامة على خراب الدنيا ، فهو صحيح إذا كانت الدنيا هى محرر جريدة . . . من أمثال أصحابنا هؤلاء ، وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضع إلا لزمّنا هذا ولأدبائه وكتّابه خاصة ، وكأن القدر هو أثبت ذلك القول في مقدمة ابن خلدون لينتهى بنصّه إلينا فنستخرج منه ما يُقيمنا على الطريقة في هذا العصر الذي وقع أدباؤه في متسع طويل من فنون الأدب ومضطرب عريض من مذاهب الكتابة وأفنى لا تستقر حدوده من العلوم

(١) كتبت مقدمة لشرح الجوالقي على أدب الكاتب لابن قتيبة .

والفلسفة . . . فإن هذه المادة الحافلة من المعاني تحيي آداب الأمم في أوربا وأمريكا ، ولكنها تكاد تظمس آدابنا وتمحقنا محققاً تذهب فيه خصائصنا ومقوماتنا ، وتحيلنا عن أوضاعنا التاريخية ، وتفسد عقولنا ونزعاتنا ، وترى بنا مراميهها بين كل أمة وأمة ، حتى كأن ليست منّا أمة في حيزها الإنساني المحدود من ناحية بالتاريخ ومن ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحية بالآداب ، ومن ذلك ابتلى أكثر كتابنا بالانحراف عن الأدب العربي أو العصبية عليه أو الزرابة له ، ومنهم من تحسبه قد رمى في عقله لتهوسه وحماقته ، ومنهم من كأنه في حقيقته سلخ قلبه ، ومنهم المقلد لا يدرى أعلى قصده هو أم جور ، ومنهم الحائر يذهب في مذهب ويجيء من مذهب ولا يتجه لقصده ، ومنهم من هو منهم وكفى . . .

وقلما تشبه أحد إلى السبب في هذا ؛ والسبب في حقارته وضعفه « كالمكروب » : بذرة طامسة لا شأن لها ، ولكن متى تنبت تُنبِت أوجاعاً وآلاماً وموتاً وأحزاناً ومصائب شتى .

السبب أن أولئك الأدباء كلهم ثم من يتشيع لهم أو يأخذ برأيهم ، ليس منهم واحد تروى في أساسه الأدبي تلك الأصول العربية المحضة القائمة على دراسة اللغة وجميعها وتصنيفها وبيان عاقلها وتصاريفها ومطارح اللسان فيها ، والمتأدية بذلك إلى تمكين الأديب الناشئ من أسرار هذه اللغة وتطويعها له ، فيكون قسيماً بها وتكون هي مستنجية لقلمه جارية في طبيعته مسددة في تصرفه ، حتى إذا نشأ بها واستحكم فيها أحسن العمل لها وزاد في مادتها وأخذ لها من غيرها وكان خليقاً أن يمد فيها ويحسن الملاءمة بينها وبين الآداب الأخرى ويجعل ذلك نسجاً واحداً وبياناً بعضه من بعضه ، فيتمو الأدب العربي في صنيعه كما تنمو الشجرة الحية : تأخذ من كل ما حولها لعنصرها وطبيعتها وليس إلا عنصرها وطبيعتها حسب .

إن أدب الكاتب وشرحه هذا للإمام الجواليقي * وما صنف من بابهما على

* الجواليقي : جمع شاذ لجوالق ، وقد نسب هذا الإمام إلى عمل الجوالق ويعمها ؛ وهذا الجمع ليس بينه وبين واحد إلا الحركة ، فالمفرد جوالق (بضم الجيم) والجمع بالفتح ؛ ومثله ألفاظ أحصوها : كحلا حل ، وعدامل ، ونخارم ، وغيرها .

طريقة الجمع من اللغة والخبر وشعر الشواهد والاستقصاء في ذلك والتبسُّط في الوجوه والعلاسل النحوية والصرفية والإمعان في التحقيق ، كلُّ ذلك عمل ينبغي أن يعرف على حقه في زَمَننا هذا ؛ فهو ليس أدبياً كما يُفهم من المعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، بل هو أبعد الأشياء عن هذا المعنى ؛ فإنك لا تجد في كتاب من هذه الكتب إلا التأليف الذي بين يديك ، أما المؤلف فلا تجده ولا تعرفه منها إلا كالكلمة المحبوسة في قاعدة . . . وكأنه لم يكن فيه روح لإنسان بل روحُ مادَّة مُصنَّعة ، وكأنه لم ينشأ ليعمل في عصره بل ليعملَ عصره فيه ، وكأنَّ ليس في الكتاب جهة إنسانية متعَيِّنة ، فتمَّ تأليف ولكن أين المؤلف ؟ وهذا كتابُ ابن قتيبة ، ولكن أين ابن قتيبة فيه ؟

وما أخطأ المتقدمون في تسميتهم هذه الكتب أدبياً ؛ فذلك هو رسم الأدب في عصرهم ، غير أن هذا الرسم قد انتقل في عصرنا نحن ، فإذا نحن المخطئون اليوم في هذه التسمية ، كما لو ذهبنا نسمي الحمل في البادية الاكسبريس ، والهودج عربية بولان .

ومن هذا الخطأ في التسمية ظهر الأدب العربي لقصار النظر كأنه تكرر عصر واحد على امتداد الزمن ، فإن زاد المتأخر لم يأخذ إلا من المتقدم ؛ وصارت هذه الكتب كأنها في جملتها قانون من قوانين الجنسية نافذٌ على الدهر ، لا ينبغي لعصر يأتي إلا أن يكون من جنس القرن الأول .

هذه الكتب من هذه الناحية كالخلل : يسمى لك عسلاً ثم تذوقه فلا يجنى عليه عندك إلا الاسم الذي زورَّ له ؛ أما هو فكما هو في نفسه وفي فائدته وفي طبيعته وفي الحاجة إليه ، لا ينقص من ذلك ولا يتغير .

الحقيقة التي يعيِّنها الوضع الصحيح أن تلك المؤلفات إنما وُضعت لتكون أدباً ، لا من معنى أدب الفكر وفنه وجماله وفلسفته ، بل من معنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها ، فهي كتب تربية لغوية قائمةٌ على أصول محكمة في هذا الباب ، حتى ما يقرأها أعجمي إلا خَرَجَ منها عربياً أو في هوَى العربية والميل إليها ؛ ومن أجل ذلك بُنيت على أوضاع تجعل القارئ المتبصر كأنما يصاحب من الكتاب أعرباً فصيحاً يسأله ، فيجيبه ويستهديه فيرشده ؛ ويخرِّجه

الكتاب تصفحاً وقراءة كما تخرّجه البادية سماعاً وتلقيناً ؛ والقارىء فى كل ذلك مُسْتَدْرَجٌ إلى التعريب فى مَدْرَجَةٍ مدرّجة من هوى النفس ومحبتها ، فتصنع به تلك الفصول فيما دُبِّرَتْ له مثلما تصنع كتب التربية فى تكوين الخلق بالأساليب التى أدبرت عليها والشواهد التى وضعت لها والمعالم النفسية التى فصلت فيها .

ومن ثَمَّ جاءت هذه الكتب العربية كلها على نَسَقٍ واحد لا يختلف فى الجملة ، فهى أخبار وأشعار ولغةٌ وعربيةٌ وجمع وتحقيق وتمحيص ، وإنما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصار والتبسُّط والتخفيف والتثقیل ونحو ذلك مما هو فى الموضوع لا فى الوضع ، حتى ليخيل إليك أن هذه كتب جغرافية للغة وألفاظها وأخبارها ؛ إذ كانت مثل كتب الجغرافية : متطابقة كلها على وصف طبيعة ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخلق غيرها إلا الخالق سبحانه وتعالى .

وإذا تدبرتَ هذا الذى بيّناه لم تعجب كما يعجب المتفعلون على الأدب العربى والمتخبطون فيه من أن يروا إيمان المؤلفين متصلاً بكتبهم ظاهر الأثر فيها ، وأنهم جميعاً يقررون أنما يريدون بها المنزلة عند الله فى العمل لحياطة هذا اللسان الذى نزل به القرآن الكريم وتأديته فى هذه الكتب إلى قومهم كما تُؤدَّى الأمانة إلى أهلها ، حتى لولا القرآن لما وُضع من ذلك شيء أبته .

وأنا أتلمّح دائماً العاملَ الإلهى فى كل أطوار هذه اللغة ، وأراه يُديرها على حفظ القرآن الذى هو معجزتها الكبرى ، وأرى من أثره مجىء تلك الكتب على ذلك الوضع ، وتسخير تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماء والحفاظ جيلاً بعد جيل فى الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولا وضع ولا فلسفة ولا زينغ عن تلك الحدود المرسومة التى أومأنا إلى حكمتها ؛ فلو أنه كان فيهم مجددون من طراز أصحابنا من أهل التخليط ، ثم ترك لهم هذا الشأن يتولونه كما نرى بالنظر القصير والرأى المعاند والهوى المنحرف والكبرياء المصممة والقول على الهاجس والعلم على التوهم ومجادلة الأستاذ حيص للأستاذ بيص . . . إذن لضرب بعضهم وجه بعض وجاءت كتبهم متدابرة ، ومُسيخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشأن كله ، فلم يتسق منه شيء .

وما تردُّه على قارئها تلك الكتب فى تربيته للعربية ، أنها تُمكن فيه

للسبر والمعاناة والتحقيق والتورُّك في البحث والتدقيق في التصفُّح ، وهي الصفات التي فقدتها أدبَاءُ هذا الزمن ، فأصبحوا لا يَتَبَسَّتون ولا يُحَقِّقون ، وطال عليهم أن ينظروا في العربية ، وثقل عليهم أن يستبطنوا كتبها ؛ ولو قد تربَّوا في تلك الأسفار ، وبذلك الأسلوب العربي لَتَمَّتْ الملازمة بين اللغة في قوتها وجزالتها وبين ما عسى أن ينكره منها ذوقهم في ضعفه وعاميته وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السر في أن من لا يقرءون تلك الكتب أول نشأتهم ، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوب منحط ، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غث ، ولا يرون في الأدب العربي إلا آراء مُلْتَوِيَّة ؛ ثم هم لا يستطيعون أن يُقِيمُوا على درس كتاب عربي . فيسَاهِلُونَ أنفسهم ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك ، ويتورَّطون في أقوال مضحكة ، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور ما دام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه ، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها ؛ وهم أبداً في إحدى الناحيتين أو في كليتهما .

* * *

وهذا شرح الجواليقي من أمتع الكتب التي أشرنا إليها ، وصاحبه هو الإمام أبو منصور موهوب الجواليقي المولود في سنة ٤٦٥ للهجرة ، والمتوفى سنة ٥٤٠ ، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي ؛ أول من درس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد * وقرأ الجواليقي على شيخه هذا سبع عشرة سنة ، استوفى فيها علوم الأدب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها ، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب في النظامية بعد علي بن أبي زيد المعروف بالفصيحى * .

وما نشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه في تلك المدرسة ، فأنت من هذا الكتاب كأنك بإزاء كرسى التدريس في ذلك العهد ، تسمع من رجل انتهت إليه إمامة اللغة في عصره ، فهو مدقق محيط مبالغ في الاستقصاء ، لا يَتَدُّ عنه شيء مما هو بسبيله من الشرح ، معنىً بالتصريف ووجهه لما انتهى إليه من أثر الإمام ابن جني فيلسوف هذا العلم في تاريخ الأدب العربي ، فإن بين الجواليقي وبينه شيخين

* أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .

** لقب بذلك لكثرة إعادته كتاب الفصيح في اللغة .

كما تعرف من إسناده في هذا الشرح .

وقد قالوا إن أبا منصور في اللغة أمثلُ منه في النحو ، على إمامته فيهما معاً ؛ إذ كان يذهب في بعض علل النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها ، وقد ساق منها عبد الرحمن الأنباري مثلين في كتابه نزهة الألباء ، ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون في الطبقة العليا من أئمة العربية * وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب في التحرى والتدقيق ؛ حتى كان من أثر ذلك في طباعه أن اعتاد التفكير وطول الصمت فلا يقول قولاً إلا بعد تدبر وفكر طويل ، فإن لم يهتد إلى شيء قال لا أدري ، وكثيراً ما كان يُسأل في المسألة فلا يجيب إلا بعد أيام .

وكان ورعاً قوياً الإيمان ، انتهى به إيمانه وعلمه وتقواه إلى أن صار أستاذ الخليفة المقتنى لأمر الله ، فاختص بإمامته في الصلوات ، وقرأ عليه المقتنى شيئاً من الكتب ، وانتفع بذلك وبأن أثره في توقيعاته كما قالوا .

والذي يتأمل هذا الشرح فضل تأمل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجل إحصاء في اللغة ، لا يفوته شيء مما هرف إلى زمنه ، وهو ولا ريب يجرى في الطريقة الفكرية التي نهجها ابن جنى وشيخه أبو على الفارسي ؛ ومن أثر هذه الطريقة فيه أنه لا يتحجر ولا يمنع القياس في اللغة ، ويلحق ما وضعه المتأخرون بما سُمع من العرب ، ويروي ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته ؛ ومن أمتع ما جاء من ذلك في شرحه قوله في صفحة ٢٣٥ ، وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده إلا في كتابه ، وهذه عبارته :

قولهم : يدى من ذلك فَعَلَة : المسموع منهم في ذلك ألفاظ قليلة ، وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا : يدى من الإهالة سَنَخَة ، ومن البيض زهيمَة ، ومن التراب تَرَبَة ، ومن التين والعنب والفواكه كَسَنَة وكدة ولَرَجَة ،

* قال ياقوت في ترجمة أبي على الفارسي من معجم الأدباء : قرأت بخط الشيخ أبي محمد الخشاب : كان شيخنا (يعني الجواليقي) قلما يتنبل عنده ممارس للصناعة النحوية ولو طال فيها باعه ، ما لم يتمكن من علم الرواية وما تشتمل عليه من ضرورها ، ولا سيما رواية الأشعار العربية وما يتعلق بعرفتها من لغة وقصة ؛ ولهذا كان مقدماً لأبي سعيد السيرافي على أبي على الفارسي رحمهما الله ، ويقول : أبو سعيد أروى من أبي على ، وأكثر تحقّقاً منه بالرواية وأثرى منه فيها .

وحى القلم - ثالث

ومن العشب كَتَنَة أيضاً ، ومن الجبن نَسِمَة ، ومن الحصّ شَهيرة ، ومن الحديد والشبه والصففر والرصاص سَهِيكة وصدّئة أيضاً ، ومن الحمأة رَدِغَة ورَزِغَة ، ومن الخضاب رَدِغَة ، ومن الحنطة والعجين والخبز نَسِغَة ، ومن الخل والنبيذ خَسِمِطَة ، ومن الدبس والعسل دَبِقة ولَزَقَة أيضاً ، ومن الدم شَحِطَة وشَرِفة ومن الدهن زَنِخَة ، ومن الرياحين ذَكِيَة ، ومن الزهر زَهيرة ، ومن الزيت قَنِمَة ، ومن السمك سَهِيكة وصَمِرة ، ومن السمن دَسِمَة ونَسِمَة ونَمِسة ، ومن الشهد والطين لثِيقَة ، ومن العطر عَطِرة ، ومن الغالية عَبِقة ، ومن الغسلة غوالِدر وحرّة ، ومن الفرصاد قَنِشَة ، ومن اللبن وَصِرة ، ومن اللحم والموق سَمِرة ، ومن الماء بَلَلَة وسَبِرة ، ومن المسك ذَفِرة وعَبِقة ، ومن الثنّ قَنِمَة ، ومن النفط جَعِدَة . انتهى .

فالمسموع من هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعة فيما نرى ، والباقي كله أجراه علماء اللغة وأهل الأدب على القياس ، فأبدع القياس منها أربعاً وثلاثين كلمة : ولو تدبرت كيفية استخراجها ورجعت إلى الأصول التي أخذت منها لأيقنت أن هذه العربية هي أوسع اللغات كافة ، وأنها من أهلها كالنبوة الخالدة في دينها القوى : تَسْتَظَر كلَّ جيل يأتي كما ودَّعَتْ كل جيل غَيبَر لأنها الإنسانية ، لهؤلاء وهؤلاء .

إن ظهور مثل هذا الشرح كالتبويخ لأكثر كتاب هذا الزمن أن اقرءوا وادرسوا وخصوا لغتكم بشطر من عنايتكم ، وتربّوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكم ، واصبروا على معاناتها صبر المحب على حبيبته ، فإن ضعفتم فصبر البار على من يلزمه حقّه ؛ فإن ضعفتم عن هذا فصبر المتكلف المتجمل على الأقل ! .

أمير الشعر في العصر القديم^(١)

الوجه في أفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف ، أن تصنع كأنك تُعيدُه إلى الدنيا في كتاب وكان إنساناً ، وترجعُه درساً وكان عمرًا ، وتردُّه حكاية وكان عملاً ، وتنقله بزمناه إلى زمنك ، وتعرضه بقومه على قومك ، حتى كأنه بعد أن خلقه الله خِلقة إبداعٍ يخلقه العقل خِلقة تفكير .

من أجل ذلك لا بد أن يتقصى المؤلف في الجمع من آثار المترجم وأخباره ، وأن يحمل في ذلك من العنت ما يحمله لو هو كان يجري وراء مسككى من يترجمه لقراءة كتاب أعماله كتاب في يديهما . . . ولا بد أن يبالغ في التمهيص والمقابلة ، ويدقق في الاستنباط والاستخراج ، ويضيف إلى عامة ما وجد من العلم والخبر خاصة ما عنده من الرأى والفكر ، ويعمل على أن ينقح ما انتهى إليه الماضى في أدبه وعلمه بما بلغ إليه الحاضر في فنّه وفلسفته ؛ وذلك من عمل العقل المتجدد أبدأً والمترادف على هذه الحياة بمذاهبه المختلفة ، يشبه عمل الدهر المتجدد أبدأً والمترادف بالليل والنهار على هذه الأرض ، كل نهار أو ليل هو آخر وهو أول ، وكذلك العقول كلها آخر من ناحية وأول من ناحية .

والتجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين : فأما واحدة فإبداع الأديب الحى في آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان ، وأما الأخرى فإبداع الحى في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديدة وفى الإبداع الأول إبداع ما لم يوجد ، وفى الثانى إتمام ما لم يتم ؛ فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمة ، فلا جديد ؛ إلا مع القديم .

وإذا تبينت هذا وحقيقته أدركت لماذا يتخبط متحلو الجديد بيننا وأكثرهم

(١) [المقتطف] : وضع الأديب محمد صالح سمك رسالة قيمة في امرئ القيس « أمير الشعر في العصر القديم » تقع في نحو مائتين وخمسين صفحة ، سلك فيها مسلكاً طريفاً ، وحلاها بمقدمة بليغة للأستاذ الجليل مصطفى صادق الرافى ، فخص المؤلف المقتطف بنشر المقدمة وبعض أبحاث الرسالة فيها طبقاً لرغبتنا .

يدّعيه سفاهاً ويتقلده زوراً ، وجملة عملهم كوضع الزنجى الذّرور الأبيض (البودرة) على وجهه ثم يذهب يدعى أنه خرج أبيض من أمه لا من العلبة فإن منهم من يصنع رسالة في شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا يحسن تفسيره ولا يجده في طبعه ، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها ، ومنهم من يجدد في تاريخ الأدب ، ولكن بالتكذب عليه والتقمّح فيه والذهاب في مذهب المخالفة ، يضرب وجه المقبل حتى ينجىء مدبراً ، ووجه المدبر حتى يعود مقبلاً ، فإذا لكل طيق جديد ، وينسى أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق .

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض ، لا يكلفه ذلك إلا قولاً بقوله وتلفيقاً بدبره ، ولكن أكتذك كل من وصف دواء استطاع أن يشفى به ؟

وبعد ؛ فقد قرأت رسالة امرئ القيس التي وضعها الأديب السيد محمد صالح سملك ، فرأيت كاتبها — مع أنه ناشئ بعد — قد أدرك حقيقة الفن في هذا الوضع من تجديد الأدب ، فاستقام على طريقة غير ملتوية ، ومضى في المنهج السديد ولم يدع الثبوت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصين الرأى ، ولا قصر في التحصيل والاطلاع والاستقصاء ، ولا أراه قد فاته إلا ما لا بد أن يفوت غيره مما ذهب في إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجماً بالغيب وحكماً بالظن .

فإن امرأ القيس في رأى إنما هو عقل بياني كبير من العقول المفردة التي خلقت خلقها في هذه اللغة ، فوضع في بيانها أوضاعاً كان هو مبتدعها والسابق إليها ، ونهج لمن بعده طريقها في الاحتذاء عليها والزيادة فيها والتوليد منها ؛ وتلك هي منقبتة التي انفرد بها والتي هي سر خلوده في كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى ما بقيت اللغة ؛ فهو أصل من الأصول ، في أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، حتى لكأنه مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها ؛ وكما يقال في منّا في أم الصناعة : سيارة فورد وسيارة فيات ، يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربية : استعارة امرئ القيس ، وتشبيه امرئ القيس .

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ما جاء به النص .

ولقد نهينا في (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا ؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديداً في اللغة ، لم يوضع من قبله ذلك الوضع ولم يجر في استعمال العرب كما أجراه ، فهو يصب اللغة صباً في أوضاعه لأهلها لا في أوضاع أهلها ؛ وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمائة سنة ما لا نظن فلسفة الفن قد بلغت إليه في هذا العصر ؛ إذ حقيقة الفن على ما نرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة في ذات أنفسها ليس في تركيبها إلا القوة التي بنيت عليها ، فإذا تناوها الصنَّعُ الحاذق الملمه أضاف إليها من تعبيره ما يشعر أنه خلق فيها الجمال العقلي ، فكأنها كانت في الحلقة ناقصة حتى أتمها .

وهذا المعنى الذي بَيَّنَّاه هو الذي كان يحوم عليه الرواة والعلماء بالشعر قديماً ، يُحِسُّونَه ولا يجدون بيانه وتأويله ، فترى الأصمعي مثلاً يقول في شعر لبيد ؛ إنه طيلسان طَبَّـرَى . أى محكم متين ، ولكن لا رونق له ؛ أى فيه القوة وليس فيه الجمال ؛ أى فيه التركيب وليس فيه الفن .

والعقل البياني كما قلنا في غير هذه الكلمة ، هو ثروة اللغة ، وبه وبأمثاله تعامل التاريخ ، وهو الذي يحقق فيها فنَّ ألفاظها وصورها ؛ فهو بذلك امتدادها الزمني وانتقالها التاريخي وتخلُّقها مع أهلها إنسانيةً بعد إنسانية في زمن بعد زمن ، ولا تجديد ولا تطور إلا في هذا التخلق متى جاء من أهله والحديدتين به ؛ وهو العقل المخلوق للتفسير والتوليد وتلقى الوحي وأدائه واعتصار المعنى من كل مادة وإدارة الأسلوب على كل ما يتصل به من المعاني والآراء ، فينقلها من خلقتها وصيغها العالمية إلى خلق إنسان بعينه ، هو هذا العبقرى الذى رُزِقَ البيان .

وللسبب الذى أومأنا إليه بقي امرؤ القيس كالميزان المنصوب في الشعر العربى يبين به الناقص والوافى ؛ قال الباقلاني في كتابه (الإعجاز) : وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره (يريد امرؤ القيس) فلاناً وفلاناً ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه (توفى الباقلاني سنة ٤٠٣ للهجرة) وبين شعره في

أشياء لطيفة وأمور بدیعة ، وربما فضلوهم عليه أو سوّوا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمه عليهم وبروزه بين أيديهم . ٥١ .

ومعنى كلامه أن امرأ القيس أصل في البلاغة ، قد مات ولا يزال يخلق ، وتطوّرت الدنيا ولا يزال يحيى معها ، وبلغ الشعر العربى غايته ولا تزال عربية عند الغاية .

وعرض الباقلانى فى كتابه طويلة امرئ القيس * فانتقد منها أبياتاً كثيرة ، ليدل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه فى الصناعة والبيان ، هو قبيل آخر غير نظم القرآن لا يمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها ؛ فركب فى ذلك رأسه ورجليه معاً . . . فأصاب وأخطأ ، وتعسّف وتهدّأ ، وأنصف وتحامل ؛ وكل ذلك لمكانة امرئ القيس فى ابتكاره البياى الذى لا يمكن أن يدفع عنه ؛ ولما انتقد قوله :

وببيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهُي بها غير معجّل

قال : « فقد قالوا عَنّى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق إليها بل هى دائرة فى أفواه العرب » . ألا ليت شعرى هل كان الباقلانى يسمع من أفواه العرب فى عصر امرئ القيس قبل أن يقول (وببيضة خدر) ؟

على أن الكناية عن الحبيبة (بببيضة الخدر) من أبدع الكلام وأحسن ما يؤتى العقلُ الشعرى ، ولو قالها اليوم شاعر فى لندن أو باريس بالمعنى الذى أرادَه امرؤ القيس — لا بما فسرَها به الباقلانى — لا سُبِدعت من قائلها ولأصبحت مع القُسْبلة على كل فم جميل ؛ بل هم يمرون فى بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة ، فيكونون عن البيت الذى يتلاقى فيه الحبيبان (بالعُشّ) ، وما يُستخذ العش إلا للبيضة . إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته فى نعومتها وترفها ولين ما حولها ، ثم فى مسّها وحرارة الشباب فيها ، ثم فى رقتها وصفاء لونها وبريقها ، ثم فى قيام

* أى مملّته ، وهذه القصائد التى تسمى المعلقات لم تكتب ولم تعلق كما سنبينه فى تاريخ آداب العرب .

(قلت : انظر الجزء الثالث)

أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها ، ثم في حذرهم وسهرهم ، ثم في انصرافهم
 بجملته الحياة إلى شأنها وبجملته القوة إلى حياطتها والحاماة عنها — هي في كل ذلك
 منهم ، ومن نفسها كبيضة الجراح في عشه ، إلا أنها بيضة خدر ، ولذلك قال
 بعد هذا البيت :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً على حراساً لو يسرون مقتل

فتلك بعض معاني الكلمة وهي كما ترى ، وكذلك ينبغي أن يفسر البيان

البؤساء (١)

ترجم حافظ هذا الجزء الثانى من البؤساء فطوى به الأول ، وكانوا يحسبون الأول قد عقت بمثله البلاغة فلا ثانى له . وبين الجزعين زمن لو اتسع به أديب فى قراءة كتب الأدب لاستوعبها كلها ، فكأن ارتفاع السن بحافظ فى هذه المدة جعل منه فى قوة الأدب حافظين يترجمان معاً .

وما البؤساء فى ترجمته إلا فكر فيلسوف تعلق فى قلم شاعر فانعطفت عليه حواشى البيان من كل نواحيه ، وجاء ما تدرى أشعراً من النثر أم نثراً من الشعر ، وخرجت به الكتابة فى لون من الصفاء والإشراق كأنما تنحل عليه أشعة الضحى ، ترجم حافظ فوضع اللغة بين فكره ولسانه ، ووقف تحت سحابة من السحب التى خفق عليها جناح جبريل ، فما تخلو كتابته من ظل يتنفس عليك برائحة الإعجاز ؛ وتراه يتحدر مع الكلام ويتناول منه ويدع ، فما نزع به الكلام منزعاً إلا وجده متمكناً منه وأصابه حيث أصابه كالتيار جملة واحدة تلف أول النهر وآخره على مد ما يجرى ؛ فهو حيث كان فى السهل وفى الصعب ، غير أنه يستسر فى موضع ويستعلن فى موضع ، ويحيش ويهدر ويتراعى فى العمق فيدوى دويماً .

ومن هنا يحسبه بعضهم ينجح إلى ما يستجنى من الكلام ، وإلى استكراه بعض الألفاظ والتكلف لبعضها ؛ وإنما ذاك وضع من أوضاع اللغة ومذهب من مذاهب البلاغة ، ولا بد أن يشتد القول ويلين ، وأن يكون فى أجراس الحروف ما فى نغم الإيقاع ؛ وما أشبه هندسة البيان بهندسة الطبيعة التى تغمر النهر وترى بالبحر وتقذف بالجبل الأشم ؛ وما الجبل لو حققت فى وجوه التناسب الطبيعى إلا بحر قد تحجر فانتشرت أمواجه من صخوره ، وكلا اثنيهما على ما بين الصلابة واللين تعبير فى أساليب القوة عن القوة ، وتوضيح لأقوى ما لا يمكن أن يظهر ، بأقوى ما لا يمكن أن يخفى .

(١) كتبها عن الجزء الثانى من البؤساء ؛ وانظر مقال المؤلف عن حافظ فى هذا الجزء .

يخطئ الضعاف من الكتاب وبخاصة في أيامنا هذه . . . إذا حسبوا الفصاحة العربية قبلاً واحداً من اللفظ الرقيق المأنوس ؛ ولقد تجد بعض هؤلاء الضعفاء وإنه ليرى في الكلام الجزل المنفصح ما يرى في جمجمة الأعاجم إذا نطقوا فلم يبينوا ؛ وإنما هي العربية ، وإنما فصاحتها في مجموع ما يطرد به القول ؛ والنصاحة في جملتها وتفصيلها إحكام التناسب بين الألفاظ والمعاني ، والغرض الذى يتجه إليه كلاهما ؛ فمتى فصل الكلام على هذا الوجه وأحكم على هذه الطريقة ، رأيت جماله واضحاً بيناً في كل لفظ تقوم به العبارة ، من النسيج المهلهل الرقيق ، إلى الحبك المحكم الدقيق ، إلى الأسلوب المندمج الموثق الذى يسرد في قوة الحديد ؛ إذ يكون كل حرف لموضعه ، ويكون كل موضع لحرفته ، ويكون كل ذلك بمقدار لا يسرف ، وقياس لا يخطئ ، ووزن لا يختلف ؛ وهذه هى طبيعة الفصاحة العربية دون سائر اللغات ، وبها أمكن الإعجاز في هذه اللغة ولم يمكن في سواها .

ومترجم البؤساء أحد الأفراد المعدودين الذين أحكموا هذه الطريقة ونفذوا إلى أسرارها ، ففي كل موضع من كتابته موضع روعة ، حتى ما تدرى أيا كتب أم يصوغ أم يصور ، وكأنه لا ينقل من لسان إلى لسان ، بل من فكر إلى فكر ، فترى أكثر جملة كأنها تضىء فيها المصابيح .

ومن الخواص التى انفرد بها حافظ أنه ظاهر في صناعة ألفاظه ظهور هيجو في صناعة معانيه ؛ إذ لا تجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب أو يطيقه ؛ وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلف ، فلا يحيا الميت إلا بموت الحي ؛ وهم في أكثر ما يصنعون لا يعدون أن يصححوا العامية أو يفصحوا بها قليلاً ، فيستوى في صناعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا أو ذاك أو ذاك ، لأنهم سواسية ، ولا تؤتيك كتبهم أكثر مما تؤتيك الاسم المعلق على مسماه .

غير أنك في البؤساء ترى مع الترجمة صناعة غير الترجمة ، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة وألفه حافظ مرتين ، إذ ينقل عن الفرنسية ؛ ثم يفتن في التعبير عما ينقل ، ثم يحكم الصناعة فيما يفتن ، ثم يبالي فيما يحكم ؛ فأنت من كتابه في لغة الترجمة ، ثم في بيان اللغة ، ثم في قوة البيان ؛ وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه

لأحق به فى العربية من مؤلفه ، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون
سواه .

وتلك طريقة فى الكتابة لا يستعان عليها إلا بالأدب العزيز ، والدوق
الناضج ، والبيان المطبوع ؛ ثم بالصبر على مطاولة التعب ومعاناة الكد فى تخير
اللفظ وتجويد الأسلوب وتصفية العبارة ؛ فلقد ينفق الكاتب وقتاً فى عمر
الليل ليخرج من آخره سطرأ فى نور الفجر ، وبهذا الصنيع جاءت صفحات
البؤساء على قلتها كشباب الهوى ؛ لكل يوم منه فجره وشمسه ، ولكل ليلة قمرها
ونجومها .

* * *

والذى نغتمزه فى هذه الترجمة أن الضمير يستبد أحياناً بصاحبنا فيستكرهه
على غير طبعه ، ويرده إلى غير مألوفه ؛ ومن ثم يضطرب ذوقه وسليقته أو يذهب
به عنهما ، فيعدل بالمعنى عن لفظه المعروف الذى استعمله الأدباء فيه ،
كاستعماله قارن بين كذا وكذا ، وإنما يستعملون مثلاً بينهما ، أو يخل بوزن الكلمة
فى ميزان الدوق ، فترى العبارة اليابسة فى الجملة الخضراء التى ترف ؛ وذلك
ما لا مطعم لأحد أن يسلم منه ؛ لأنه أثر الضعف الإنسانى فىمن ارتهنوا أنفسهم
بملاسة القوة العليا فى هذه الإنسانية .

ولم يتنزه عنه كتاب إلا ذلك الكتاب العزيز الذى اهتزت له السموات السبع
والأرض ومن فيهن .

* * *

الملاح النائه (١)

إذا أردت أن أكتب عن شعر فقرأته ، كان من دأبى أن أقرأه متبثاً أتصفح عليه في الحرف والكلمة ، إلى البيت والقصيدة ، إلى الطريقة والنهج ، إلى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها ، وعن أى أحوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر ، وبأيها يتسبب إلى الإلهام ، وفي أيها يتصل الإلهام به ، وكيف يتصرف بمعانيه ، وكيف يسترسل إلى طبعه ، ومن أين المأتى في رديته وسقطه ، وبماذا يسلك إلى تجويده وإبداعه .

ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسية البيانية فيه ، وهل هي جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة في اللفظ إلى حدود الإلهام في المعنى ، ملكة استقلال تنفذ بالأمر والنهى جميعاً ، أو هي ضعيفة رخوة ليس معها إلا الاختلال والاضطراب ، وليس لها إلا ما يحمل الضعيف على طبعه المكثود كلما عنف به سقط به ؟

أتبين كل هذا فيما أقرأ من الشعر ، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه أنا لو أنى عاجلت هذا الغرض أو تناولت هذا المعنى ، ثم أضيف إلى ذلك كله ما أثبتته من أنواع الاهتزاز التى يحدثها الشعر في نفسى ؛ فلانى لأطرب للشعر الجيد الوثيق أنواعاً من الطرب لا نوعاً واحداً ، وهى تشبه في التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية في ورق الزنبقة وقطرة الشعاعة المتألقة في جوهر الماسة وموجة النور المتألهة في كوكب الزهرة .

وأكثر الشعر الذى ينظم في أيامنا هذه لا يتصل بنفسى ولا يخف على طبعى ، ولا أراه يقع من الشعر الصحيح إلا من بعد ، وهو منى أنا كالرجل يمر بي في الطريق لا أعرفه : فلا ينظر إلى ولا أنظر إليه ، فما أبصر منه رجلاً وإنسانية وحياة أكثر مما أراه ثوباً وحذاء وطربوشاً ! والنعجب أنه كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوى على مقدار ذلك في الاحتجاج لضعفه ، وألهم من الشواهد والحجج ما لو ألهم

بعدده من المعاني والخواطر لكان عسى . . .

فإذا نافَرت المعاني ألفاظها واختلفت الألفاظ على معانيها قال : إن هذا في الفن . . . هو الاستواء والاطراد والملاءمة وقوة الحبك ؛ وإذا عوض وخانه اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلف وتساقط ليتحدلق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لفهم شعره قال : إنه أعلى من إدراك معاصريه ، وإن عجرفة معانيه هذه آتية من أن شعره من وراء اللغة ، من وراء الحالة النفسية ، من وراء العصر ، من وراء الغيب : كأن الموجود في الدنيا بين الناس هو ظل شخصه لا شخصه ، والظل بطبيعته مطموس مبهم لا يبين إبانة الشخص . وإذا أهلك الشاعر الاستعارة وأمراض التشبيه وخنق المجاز بجبل — قال لك : إنه على الطريقة العصرية وإنما سدد وقارب وأصاب وأحكم . وإذا سمى المقالة قصيدة . . . وخلط فيها خلطه وجاء في أسوأ معرض وأقبحه وخرج إلى ما لا يطاق من الركاكة والغثاثة — قال لك : هذه هي وحدة القصيدة ، فهي كل واحد أفرغ إفراغ الجسم الحى : رأسه لا يكون إلا في موضع رأسه ورجلاه لا تكون إلا في موضع رجله . . .

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحجاج من أصحابها على أنها طبقات من القوة : غير أن مصداق الشهادة للأقوياء عظامهم المشبوحة ، وعضلاتهم المفتولة ، وقلوبهم الجريئة ، أما الألسنة فهي شهود الزور في هذه القضية خاصة .

* * *

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر : فالأول تأخذ من طريقته ومجموع شعره أنه ما نظم إلا ليثبت أنه قد وضع شعراً ، والثاني تأخذ من شعره وطريقته أنه إنما نظم ليثبت أنه قرأ شعراً . . . وهذا الثاني يشعرك بضعفه وتلفيقه أنه يخدم الشعر ليكون شاعراً ، ولكن الأول يريك بقوته وعبقريته إلى الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعره .

أما فريق المتشاعرين فليمثل له القارئ بمن شاء وهو في سعة . . . وأما فريق الشعراء ففي أوائل أمثاله عندى الشاعر المهندس على محمود طه . أشهد : أنى أكتب عنه الآن بنوع من الإعجاب الذى كتبت به في المقتطف عن

أصدقائي القدماء : محمود باشا البارودي ، وإسماعيل باشا صبرى ، وحافظ ، وشوقى ، رحمهم الله وأطال بقاء صاحبنا ؛ فهذا الشاب المهندس أرقى من هندسة البناء قوة التمييز ودقة المحاسبة ، ووهب ملكة الفصل بين الحسن والقبح فى الأشكال مما علته من العلم وما علته من الذوق وهذا إلى جلاء الفطنة وصقال الطبع وتموج الخيال وانفساح الذاكرة وانتظام الأشياء فيها ؛ وبهذا كله استعان فى شعره وقد خلق مهندساً شاعراً ، ومعنى هذا أنه خلق شاعراً مهندساً ؛ وكأن الله تعالى لم يقدر لهذا الشاعر الكريم تعلم الهندسة ومزاوتها والمهارة فيها إلاّ لما سبق فى علمه أنه سينبغ نبوغه للعربية فى زمن الفوضى وعهد التقلل ، وحين فساد الطريقة وتخلّف الأذواق وتراجع الطبع ووقوع الغلط فى هذا المنطق لانعكاس القضية ، فيكون البرهان على أن هذا شاعر وذاك نابغة وذلك عبقرى — هو عينه البرهان على أن لا شعر ولا نبوغ ولا عبقرية ؛ وهذه فوضى تحتاج فى تنظيمها إلى (مصلحة تنظيم) بالهندسة وآلاتها والرياضة وأصولها والأشكال والرسوم وفنونها ، فجاء شاعرنا هذا وفيه الطب لما وصفنا ؛ فهو ينظم شعره بقريحة بيانية هندسية ، أساسها الاتزان والضبط ، وصواب الحسبة فيما يقدر للمعنى ، وإبداع الشكل فيما ينشئ من اللفظ ، وألاً يترك البناء الشعري قائماً ليقع إذ يكون وهناً فى أساسه من الصناعة ، بل ليسبب إذ يكون أساسه من الصناعة فى رسوخ وعلى قدر .

وديوان « الملاح التائه » الذى أخرجه هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذى أومأنا إليه ؛ فما هو إلاّ أن تقرأه وتعتبر ما فيه بشعر الآخرين حتى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محملاً بذهنه وعواطفه وآلاته ومقاييسه ليصلح ما فسد ، ويقيم ما تداعى ، ويرمم ما تخرّب ، ويهدم ويبنى .

* * *

ديوان الشاعر الحق هو إثبات شخصيته ببراهين من روحه ، وههنا فى « الملاح التائه » روح قوية فلسفية بيانية ، تؤتيك الشعر الجيد الذى تقرأه بالقلب والعقل والذوق ، وتراه كفاء أغراضه التى ينظم فيها ؛ فهو مكثّر حين

يكون الإكثار شعراً ، مقل حين يكون الشعر هو الإقلال ؛ ثم هو على ذلك متين رصين ، بارع الخيال ، واسع الإحاطة ، تراه كالدائرة : يصعد بك محيطها ويهبط لا من أنه نازل أو عال ، ولكن من أنه ملتف مندمج ، موزون مقدر ، وضع وضعه ذلك ليطوح بك .

وهو شعر تعرف فيه فنية الحياة ، وليس بشاعر من لا ينقل لك عن الحياة نقلاً فنياً شعرياً ؛ فترى الشيء في الطبيعة كأنه موجود بظاهره فقط ، وتراه في الشعر بظاهره وباطنه معاً ؛ وليس بشعر ما إذا قرأته ، واسترسلت إليه لم يكن عندك وجهاً من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة في نفسٍ ممتازة مدركة مصورة .

ولهذا فليس من الشرط عندى أن يكون عصر الشاعر وبيئته في شعره ، وإنما الشرط أن تكون هناك نفسه الشاعرة على طريقتها في الفهم والتصوير ، وأنت تثبت هذه النفس بهذه الطريقة أن لها أن تقول كلمتها الجديدة ، وأنها محولة له الحق في أن تقولها ، إذ هي للعقول والأرواح أخت الكلمة القديمة : كلمة الشريعة التي جاءت بها النبوة من قبل .

وليس في شعر على طه من عصرياتنا غير القليل ، ولكن العجيب أنه لا ينظم في هذا القليل إلا حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ ، كثرء شوقي ، وحافظ ، وعدلى باشا ، وفوزى المعلوف ، والطيارين دوس وحجاج ، والملك العظيم فيصل ؛ فإن يكن هذا التدبير عن قصد وإرادة فهو عجيب ، وإن كان اتفاقاً ومصادفة فهو أعجب ؛ على أنه في كل ذلك إنما يرى إلى تمجيد الفن والبطولة في مظاهرها ، متكلمة ، وسياسية ، ومغامرة ، ومالكة .

أما سائر أغراضه الإنسانية عامة ، تغنى النفس في بعضها ، وتمرح في بعضها ، وتصلى في بعضها ؛ وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلا . . . ظللاً من الحيرة أو الشك ، كذلك التي في قصيدة « الله والشاعر » ، وأظنه يتابع فيها المعري ؛ ولست أدري كم ينخدع الناس بالمعري هذا ، وهو في رأيي شاعر عظيم ، غير أن له بضاعة من التلفيق تعدل ما تخرجه « لا نكشير » من بضائعها إلى أسواق الدنيا .

ومما يعجبني في شعر علي طه أنه في مناحي فلسفته وجهات تفكيره يوافق رأيي الذي أراه دائماً ، وهو أن ثورة الروح الإنسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود — ليستا في ظاهر الثورة ولا في العراك مع الله كما صنع المعري وأضرابه في طيشهم وحماسهم ، ولكنهما في الهدوء الشعري للروح المتأمل ، ذلك الهدوء الذي يجعل الطبيعة نفسها تبسم بكلام الشاعر كما تبسم بأزهارها ونجومها ، ويجعل الشاعر أداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً ؛ فإن العجيب الذي ليس أعجب منه في التدبير الإلهي للنفوس الحساسة — أن زخرفة الشعر وما يجري مجراه في الفن إنما هي ضرب من زخرف الطبيعة حين تبتدع الشكل الجميل لتتم أغراضها من ورائه ؛ ولو ثارت الأزهار — مثلاً — على الوجود وخالفه ثورة أولئك الشعراء لما صنعت شيئاً غير إفساد حكمتها هي وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع ، ولن تنتصر إلا ببقائها أزهاراً ، فذلك حربها وسلمها معا .

* * *

وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل ، أو إلى الجزالة ، تبدو اللغة فيه وعليها لون خاص من ألوان النفس الجميلة يزوه زهوه فيكثر منه في النفس تأثيرها وجمالها ، وهذه هي لغة الشعر بخاصته ؛ ولا بد أن ننبه هنا إلى معنى غريب ، وذلك أنك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الأدب ، فإذا نظموا وخلوا نظمهم من روح الشعر — ظهرت الألفاظ في أوانهم وكأنها فقدت شيئاً من قيمتها ، كأن موضعها في هذا النظم غير موضعها في اللغة ، وما اختلف اللفظ ولا تغير ، ولكن موضعه ثم هو الذي أعلن إفلاسه ، إذ أقامه مقام الذي يريد أن يعطى ثم هو إذا وقف لا يصنع شيئاً إلا أن يعتذر بأنه لم يجد ما يعطيه . . . فهذا كان رجلاً من الناس ، وكان في ستر وعافية ، فلما وقف موقفه انقلب مدلساً كاذباً مدّعياً فاختلفت به الحال وهو لم يتغير .

وما الأسلوب البياني إلا وسيلة فنية لمضاعفة التعبير ؛ فإن لم يكن هذا ما يعطيه كان وسيلة فنية أخرى لمضاعفة الخيبة ؛ وهذا ما تحسه في كثير من شعر النظامين أو البديعيين في العصور الميتة ، وتحسه في الشعر الميت الذي لا يزال ينشر بيننا .

وعلى طه إذا حرص على أسلوبه وبالع في إتقانه واستمرَّ بجريه على طريقته
الجيدة متقدماً فيها ، متعمقاً في أسرار الألفاظ وما وراء الألفاظ ، وهى تلك
الروعة البيانية التى تكون وراء التعبير وليس لها اسم فى التعبير ، معتبراً اللغة الشعرية -
كما هى فى الحقيقة - تأليفاً موسيقياً لا تأليفاً لغوياً . . . فإنه ولا ريب سيجد
من إسعاف طبعه القوى ، وعون فكره المشبوب ، وإلهام قريحته المولدة - ما يجمع
له النبوغ من أطرافه ، بحيث يعده الوجود من كبار مصوريه ، وتتخذ الحياة
من بلغاء المعبرين عنها فى العربية ؛ ومن ثم تنظمه العربية فى سمط جواهرها
التاريخية الثمينة ، ويصله السلك بشوق وحافظ والبارودى وصبرى ، إلى المتنبى
والبحتري وابن الرومى وأبى تمام ، إلى ما وراء ذلك ، إلى الجوهرة الكبرى المسماة
جبل النور البيانى ، إلى امرئ القيس .

وليس هذا ببعيد على من يقول فى صفة القلب :

يا قلب عندك أى أسرار	ما زلن فى نشر وفى طي
يا ثورة مشوبة النار	أقلقت جسم الكائن الحى
حملته العبء الذى فرقت	منه الجبال وأشفقت رهبا
وأثرت منه الروح فانطلقت	تحسو الحميم وتأكل اللهبا
وعجبت منك ومن إياك فى	أسر الجمال وربقة الحب
وتلفئت المتكبر الصلف	عن ذلة المقهور فى الحرب
ووهمت ناراً ذات إيماض	فبسطت كفك نحوها فزعا
مرت بعينك لحظة الماضى	فوثبت تمسك بارقاً لمعا
والأرض ضاق قضاؤها الرحب	وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب	وبقيت وحدك أنت والزمن

ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لاخترنا أكثره ، فقصائده ومقاطيعه تتعاقب ،
ولكن تعاقب الشمس على أيامها : تظهر جديدة الجمال فى كل صباح ، لأن وراء
الصباح أداة الفجر ، وكذلك تأتى القصائد من نفس شاعرها .

المقتطف والمتنبى^(١)

المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كلهن أولاده وأحفاده ؛ وهو كالجدة الأكبر : زمن^٢ مجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفراد لا يُلحق ، وعلم يزيد على العلم بأنه فى الذات التى تفرض إجلالها فرضاً وتجب لها الحرمة وجوباً ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق .

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى . وهل هو إلا عرش حتى درجاته الجليل تحت الجليل ، وهل هو إلا امتداد مسافاته العصف فوق العصف ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم فى الزمن تقدم المخترعات ماضيةً بالنواميس إلى النواميس ، مقيدةً بالمبدأ إلى الغاية ؛ وهو كالعقل المنفرد بعقبريته : واجبه الأول أن يكون دائماً الأول ؛ فلقد أنشئ هذا المقتطف وما فى المجلات العربية ما يغنى عنه ، ثم طوى فى الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغنى عنه ؛ ثم أسفّت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات . . . وبقي هو على وفائه لمبدئه العلمى والسمو فيه والسمو به ، كأنما أخذ عليه فى العلم والأدب ميثاق^٣ كميثاق النبیین فى الدين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجب لا الغرض ، وهمم الإبداع بقوى العقل لا الاحتمال بها ، وسدّيه الحقيقة الثابتة فى الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه فى كل ذلك طريق الفيلسوف ، من هدوء نفسه لامن أحوال الدهر ، فهو ماض على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل فى منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه .

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفردده للمتنبى^(٢) . ولئن كانت الأندنية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف . ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبريائها مرة أخرى ،

(١) كتاب « المتنبى » للصدیق محمود محمد شاكر .

(٢) يناير سنة ١٩٣٦ .

فاعترلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذى أخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومائة صفحة ، تدلُّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه ، وتنبهه فى شعوره ، وتبصره أشياء كانت خافية ، وكان الصدق فيها ، ليردَّ بها على أشياء كانت معروفة ، وكان فيها الكذب ؛ ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحياة التى جاءت من نفوس أعدائها وحسادها .

ولقد كان أول ما خطر لى بعد أن مضيت فى قراءة هذا العدد — أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كتَّب تاريخ المتنبي ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أُمعن فى القراءة حتى خيل إلى أنه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة فى تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التى نشرها المقتطف اليوم .

إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهى ؛ فإن الإعجاب بشعره لا ينتهى ولا يفرغ وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد فى الزمن .

وكان الرجل مطويّاً على سرِّ لى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سر نفسه ، وسر شعره ، وسر قوته ؛ وبهذا السر كان المتنبي كالملك المغصوب الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتق السيف بالحذر والتلف والغموض ، ويطلب التاج بالكمئ والحيلة والأمل .

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدّر فى نسق عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب ؛ وعرض بين ذلك شعر أبى الطيب عرضاً خيلاً إلى أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها ؛ وبذلك انكشف السر الذى كان مادة التهويل فى ذلك الشعر الفخم ، إذ كانت فى واعية الرجل دولة أضخم دولة ، عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعراً أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة فى صورة من صور الإمكان اللغوى .

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سرُّ حبه ، فقال : إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة ، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم تُرَضَّه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهًا من المقتطف ؛ وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس من أحد في الدنيا المكتوبة (أى التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه ، والأدلة التى جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ؛ ومتى لم يستطع المرء نفيًا ولا إثباتًا في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجابًا يُذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعدّ .

ولعمري لو كنت أنا فى مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق . . . فهناك موضع لا بد أن يبحث فى القلب الشاعر الذى وضعت فيه الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجمال وحيته ؛ وأصغر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها . . .

* * *

محمد *

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شيء بعمل « كريستوف كولب » في الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا : لم يخلق وجودها ، ولكنه أوجدها في التاريخ البشري ، وذهب إليها فقبل جاء بها إلى العالم . وكانت معجزته أنه رآها بالعين التي في عقله ، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمعاناةَ والحدق والعلم حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة .

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناوفا من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدث ، ونحوال غير خيال القاص ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأي ، وقصد غير قصد الجدال ؛ فخلص له الفن الجميل الذي فيها ، إذ قرأها بقريحته الفنية المشوبة ، وأمرها على إحساسه الشاعر المتوثب ، واستلها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الإلهي محتمقةً عجائبها الروحية المعجزة .

وقد أمدته السيرة بكل ما أراد ، وتطاوعت له على ما انتهى ، ولانت في يده كما يلين الذهب في يد صائغه ؛ فجاء بها من جوهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبداع الخيال ، وأسمى الرؤى ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة ، فنظمها على قانونها في الحياة ، وجمع حوادثها المدونة فصورها في هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص المرسلة فأدارها حواراً كما جاءت في السنة أهلها ؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حياً يتكلم وفيه الفكرة وملائكتها وشياطينها ، وكشف ذلك الجمال الروحاني فكان هو الفن ، وجلا تلك النفوس العالية فكانت هي الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هي البيان . كانت السيرة كاللؤلؤة في الصدفة ، فاستخرجها فجعلها اللؤلؤة وحدها .

* * *

إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفنية البديعة ، فليس يمكن أن يقال إنه لا ضرورة لوجوده ؛ إذ هو الضروري من السيرة في زمننا هذا ، ولا يُغْتَمَرُ فيه أنه تخريف وتزوير وتلفيق ؛ إذ ليس فيه حرف من ذلك ، ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئ منها ويصيب المصيب ؛ إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد ، ولا يُرمى بالغلثاة والركاكة وضعف النسق ؛ إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُلص كما رُويت بألفاظها ؛ فقد حصنه المؤلف تحصيناً لا يُقتحم ، وكان في عمله مخلصاً أتم الإخلاص ، أميناً بأوفى الأمانة ، دقيقاً كل الدقة ، حذراً بغاية الحذر .

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى في شكل من أحسن أشكالها يرغم هذا الزمن على أن يقرأ بالإعجاب تلك الحكاية المنفردة في التاريخ الإنساني ؛ كما أنها قربت وسهلت فجعلت السيرة ، في نصها العربي كتاباً مدرسياً بليغاً بلاغة القلب واللسان ، مريباً للروح ، مرهفاً للذوق ، مصححاً للملكة البليانية .

وحسب المؤلف أن يقال بعد اليوم في تاريخ الأدب العربي : إن ابن هشام كان أول من هذب السيرة تهذيباً تاريخياً على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هذبها تهذيباً فنياً على نسق الفن .

* * *

ديوان الأعشاب *

أبو الوفا شاعر ملء نفسه ، ما فى ذلك شك ، مذهبه الجمال فى المعنى يبدعه كأنما يزهر به ، والجمال فى الصورة يخرجها من بيانه كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها ، وله طبع وفيه رقة ، وهو يجرى من البيان على عرق ، وسليقته تجعله ألزم لعمود الشعر وأقرب إلى حقيقته ، حتى إنه ليعد أحد الذين يعتصم الشعر العربى بهم ، وهم قليل فى زمننا ، فإن الشعر منحدر فى هذا العصر إلى العامة فى نسقه ومعانيه ، كما انحدر التمثيل ، وكما انحدرت أساليب الكتابة فى بعض الصحف والمجلات .

وللعامة وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة ، ومرجعها إلى روح الإباحة الذى فشا بيننا ونشأ عليه النشر فى هذه المدنية التى تعمل فى الشرق غير عملها فى الغرب ، فهى هناك رخص وعزائم ، وهى هنا تسميح وترخص ، فى ظل ضعيف من العزيمة ؛ وإهمالُ البلاغة العربية الجميلة كما هى فى قوانينها ليس إلا مظهراً لتلك الروح تقابله المظاهر الأخرى ، من إهمال الخلق ، وسقوط الفضيلة ، وتخنت الرجولة ، وزيف الأنوثة ، وفساد العقيدة ، واضطراب السياسة ، إلى ما يجرى هذا المجرى مما هو فى بلاغة الحياة المبينة كالمرذول والمطروح والفسفاس فى بلاغة الكلام الفصيح ؛ كل ذلك فى مواضعه تحلل من القيود وإباحة وتسمح وترخص ، وكل ذلك عامة بعضها من بعض ، وكل ذلك لحن فى البلاغة والخلق والفضيلة والرجولة والأنوثة والعقيدة والسياسة .

والشعر اليوم أكثره (شعر النشر) فى الجرائد ، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة الشعر ؛ وهذه إباحة صحافية غمرت الصحف ، وأخضعت أذواق كتابها لقوانين التجارة ، فإنهم لينشرون بعض القصائد كما تنشر (الإعلانات) : لا يكون الحكم فى هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة ، بل على قدر الثمن أو ما فيه معنى الثمن !

« الشاعر المجيد محمود أبو الوفا ، وهذا المقال كان حديثاً مع بعض الأصدقاء عن الديوان ونشر فى الرسالة الغراء (قلت : وانظر « حياة الرافعى » ص ١٨٩ - ١٩١) .

ومن مادية هذا العصر وطغيان العامية عليه ، أننا نرى في صدر بعض الجرائد أحياناً شعراً لا يكون في صناعة الشعر ولا في طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه ، ولا أدل على فساد الذوق الشعري ، ولكنه على ذلك الأصل الذى أومأنا إليه يعد كلاماً صالحاً للنشر ، وإن لم يكن صالحاً للشعر .

وهكذا أصبحت العامية في تمكنها تجعل من الغفلة حدقاً تجارياً ، ومن السقوط علواً فلسفياً ، ومن الركاكة بلاغة صحفية ، ومتى تغير معنى الحدق ، وداخلته الإباحة ، ووقع فيه التأويل ، وأحيط بالتمويه والشبه — فالريبة حينئذ أخت الثقة ، والعجز باب من الاستطاعة ، والضعف معنى من التمكين ، وكل ما لا يقوم فيه عذر صحيح كان هو بطبيعة التلفيق عذر نفسه .

وأكثر ما تنشره الصحف من الشعر هو في رأى صناعة احتطاب من الكلام . . . وقد بطل التعب إلا تعب التقشش والحمل ، فلم تعد هناك صناعة نفسية في وشى الكلام ، ولا طبع موسيقى في نظم اللغة ، ولا طريقة فكرية في سبك المعاني ، وبهذه العامية الثميلة أخذ الشعر يزول عن نهجه ، ويضل عن سبيله ، ووقع فيه التوعر السهل . . . والاستكراه المحبوب . . . وصرنا إلى ضرب حديث من الوحشية ، هو الطرف المقابل للشعر الوحشى في أيام الجاهلية ؛ فما دام الكلام غريباً ، والنظم قلقاً ، والمأتى بعيداً ، والمعنى مستهلكاً ، والنسج لا يستوى ، والطريقة لا تتشابه — فذلك كله مسخ وتشويه في الحملة وإن اختلفت الأسباب في التفصيل ، وإذا كان المسخ جاهلياً بالغريب من الألفاظ ، والنافر من اللغات ، والوحشى من المعاني ؛ وكان عصرياً بالركيك من الألفاظ ، والنازل من التعبير ، والهجين من الأساليب ، والسخيف من المعاني ؛ ثم بالسقط والخلط والاضطراب والتعقيد — فهل بعض ذلك إلا من بعضه ؟ وهل هو في الشعر الجميل إلا كسلخ الإنسان الذى مسخه الله فسلخه من معان كان بها إنساناً ، ليضعه في معان يصير بها قرداً أو خنزيراً ليس عليه إلا ظاهر الشبه ، وليس معه إلا بقية الأصل ؟

فالقردية الشعرية ، والخنزيرية الشعرية ، متحققان في كثير من الشعر الذى ينشر بيننا ؛ ولكن أصحاب هذا الشعر لا يرونهما إلا كمالاً في تطور الفن والعلم والفلسفة ؛ وأنت متى ذهبت تحتج لزيف الشعر من قبل الفلاسفة ، وتدفع

عن ضعفه بحجة العلم ، وتعتل لتصحيح فساد به بالفن — فذلك عينه هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر قردى خنزيرى ، لم يستو فى تركيبه ، ولم يأت على طبعه ، ولم يخرج فى صورته ؛ وما يكون الدليل على الشعر من رأى ناظمه وافتتانه به ودفاعه عنه ، ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به .

* * *

والشاعر أبو الوفا جيد الطريقة ، حسن السبك ، يقول على فكر وقريحة ، ويرجع إلى طبع وسليقة ، ولكن نفسه قلقة فى وضعه الشعرى من الحياة ؛ وفى رأى أن الشاعر لا يتم بأدبه ومواهبه حتى يكون تمامه بموضع نفسه الشعرى الذى تضعه الحياة فيه ؛ والكلام يطول فى صفة هذا الموضع ، ولكنه فى الجملة كمنبت الزهرة : لا تزكو زكاءها ولا تبلغ مبلغها إلا فى المكان الذى يصل عناصرها بعناصر الحياة وافية تامة ، فلا يقطعها عن شىء ولا يرد شيئاً عنها ؛ إذ هى بما فى تركيبها وتهيتها إنما تم بموضعها ذلك لتهيئته وتركيبه ، فإن كانت الزهرة على ما وصفنا ، وإلا فما بد من مرض اللون ، وهرم العطر ، وهزال النضرة ، وسقم الجمال .

ولولا أن الحكمة وفى الأستاذ أبا الوفا قسطه من الألم . وهبته نفساً متألة حصرتها فى أسباب ألمها حصراً لا مفر منه — لفقدت زهرته عنصر تلوينها ، ولخرج شعره نظماً حائلاً مضطرباً منقطع الأسباب من الوحي ؛ غير أن جهة الألم فيه هى جهة السماء إليه ؛ ولو هو تكافأت جهاته المعنوية الأخرى ، وأعطيت كل جهة حقها ، وتخلصت مما يلابسها — لارتفع من مرتبة الألم إلى مرتبة الشعور بالغامض والمبهم ، ولكان عقلاً من العقول الكبيرة المولدة التى يحيا فيها كل شىء حياة شعرية ذات حس .

ولكن ما دامت الحياة قد وزنت له بمقدار ، وطففت مع ذلك وبخست ، فقد كان يحسن به أن يقصر شعره على أبواب الزفرة والدمعة واللهفة ، لا يعدوها ، ولا يزاو من المعانى الأخرى ما ضعفت أداته معه أن تنصرف ، أو انقطعت وسيلته إليه أن تبلغ ؛ ويظهر لى أن أبا الوفا يحذو على حذو إسماعيل باشا صبرى ، وهو شبيه به فى أنه لم تفتح له على الكون إلا نافذة واحدة ؛ غير أن صبرى أقبل على

نافذته ونظر ما وسعه النظر ، أما أبو الوفا فيحاول أن ينتقب في الحائط ليجعلهما نافذتين . . .

أما أنه ليس من الشعر أن تنزل الحيرة الفلسفية عن منزلتها بين اليقين والعقل ، أو المشهود والمحجب ، أو الواقع والسبب ، أو الرسم والمعنى — فتقلب حيرة معاشية تسم الأشكال والمعاني بسمتها المادية الترابية ، وتقع في الشعر فتقحم بين شعر القلب العاشق ، وشعر الفكر المتأمل — شعر المعدة الجائعة ، وتضع بين أشواق الكون شوقها هي إلى الطعام والثياب والمال . . .

على أنه كان الأمثل في التدبير ، والأقرب إلى طريقة النفس الشاعرة أن يصرف أبو الوفا هذا الشعور المادى الذى يتلذع به ، فيحوّله فيجعله باباً من حكمة السخر الشعري بالدنيا وأهلها وحوادثها ، كما صرفه ابن الرومى من قبل فأخطأ في تحويله ، فجعله مرة باباً من المدح والنفاق ، ومرة باباً من الهجاء والإقذاع .

ولو بذل الشاعر أبو الوفا مجهوده في ذلك ، واتهم الدنيا ثم حاكمها ، ونص لها القانون ، وأجلس القاضى ، وافتتح المجلس ، ورفعها قضية قضية ، ثم أخذها حكماً حكماً ، تارة في نادرة بعد نادرة ، ومرة في حكمة إلى حكمة ، وآونة في سخرية مع سخرية — إذن لا هتدى هذا المتألم الرقيق إلى الجانب الآخر من سر الموهبة التى في نفسه ، فأخرج مكنون هذه الناحية القوية منها ، فكان ولا ريب شاعر وقته في هذا الباب ، وإمام عصره في هذه الطريقة .

على أن في صفحات ديوانه أشياء قليلة توئى إلى هذه الملكة ، ولكنها مبثوثة في تضاعيف شعره ، والوجه أن يكون وجهه في تضاعيفها ؛ وإنه ليأتى بأسمى الكلام وأبدعه ، حين يعتمد إلى ذلك الأصل الذى نبهنا إليه ، فيصرف لطفه نفسه إلى بعض وجوهها الشعرية ، كقوله في « حلم العذارى » ، وهى من بدائعه ومحاسن شعره :

ها هما عيناك تغري	نى على شتى الظنون
فيهما بحر وموج	وسهول وحزون
ووضوح وغموض	واضطراب وسكون
ومعان بينات	ومعان لا تبين

وتهاويل فنون من رشاد وجنون
 وأشعات حيارى من منى أو من حنين
 ليت شعري أى سر خلف هاتيك الجفون
 آه إن السر أنبا عنه ذان الطائران
 حينما ما لا على غصه نيهما يعتنقان . . .

فهذه أبيات فى شعر الجمال كالمحراب ملؤه عابده . . .

النجاح وكتاب سر النجاح^(١)

ما خلق الله ذا عقل من بنى آدم إلا أودع في تركيبه شيئين كالمقدمة والنتيجة ، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية ، ليحيا من حيٍّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، ففي تركيب الإنسان قوة الرغبة في النجاح وأن يتأقن إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه ، وفي هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويفضي منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه ، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار ، ولكنه قدر ذو رائحة قوية خاصة به يستروحها من تحت السماء وهو لا يزال في السماء وبينه وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة ؛ ولولا أن هذه الخاصية فيه وفي الإنسان منه لما توفرت رغبة في عمل ولاصح نشاط في الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت عقدة على العزم .

غير أن في الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلًا ، فإذا هي تضل ولا تهدي وكانت تهدي ولا تضل ، وإذا هي زائغة عن الحق ملتوية عن المقصد وكانت هي السبيل إلى الحق وهي الدليل على القصد ؛ وما ينال منها شيء إلا واحد من ثلاث : العجز ، وضعف المهمة ، واضطراب الرأي .

فأما العجز فنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بعوده ولكنه غائر فيها بأصول حياته ، وأما ضعف المهمة فنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود ، إذ هو يولد ويكده ويكد ليكون لحمًا وعظمًا وصوفًا وبرًّا وشعرًا أثاثًا ومتاعًا ، وكأنه ضرب آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة .

وأما اضطراب الرأي فنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كليتهما موقعها ، والعجز وضعف المهمة واضطراب الرأي في لغة العقل معان ثلاثة لكلمة واحدة هي الخيبة ، وما أسرار النجاح إلا الثلاثة التي تقابلها وهي القوة والعزيمة والثبات .

ولكنَّ في هذا الإنسان طفولةً وشباباً ، وهما حالتان لا بد منهما ، وهما من الضعف والنزق بطبيعتهما ، وفيهما يشاقل الإنسان إلى أغراضه ، ويرتد عن صعباتها ، وينخذل دون غاياتها ؛ وليس يأتي للطفل أن يدرك الرجلَ في معانيه ، ولا للشباب أن يبلغ الحكيم في كماله ؛ فكأن هذين ليس لهما أمل في أسباب النجاح ، وكأن كايهما لا يحسن أن يطوى فؤاده على شيء ولا أن يجمع رأيه على أمر ، غير أن من حكمة الله ورحمته أنه أرصد من نواميسه القوية لضعف الطفولة ونزق الشباب ما هو سناد يمنع ، وموئل يعصم ، وقوة تصلح ؛ وهو ناموس القدوة الذي يتمثل في الأب والأم والصاحب والعشير والمعلم والكتاب ؛ لأن الله جعل قدرته يَبْسُتُ في الخلق ما يوجههم دائماً إلى الاعتقاد ويحملهم عليه ويبصرهم به ، حتى كأن الحياة كلها إنما هي ممارسة لفضيلة الإيمان به من حيث يدرى الإنسان أو لا يدرى .

وكتاب سر النجاح الذي ترجمه أستاذنا العلامة الدكتور يعقوب صروف في سنة ١٨٨٠ ، وظهرت طبعته الرابعة في هذه الأيام ، هو والله في باب القدوة ناموس على حدة ، وما رأيت كتاباً تلائم نسجه واستوت أجزاؤه ووضع آخره على أوله وانصبَّ كله إلى الغرض الذي كتب فيه وجاء مقطوعاً واحداً في معناه وفائدته — كهذا الكتاب الذي يعلم الضعيف كيف يقوى ، والعاجز كيف يعتمد ، والمضطرب كيف يثبت ، والحزون كيف يأمل ، واليائس كيف يثق ، والمنهزم في الحياة كيف يقبل ، والساقط كيف ينتهض ؛ ويعلمك مع ذلك كيف تريح الكد بالكد ، وكيف تسقط التعب بالتعب ، وكيف تمضي عزيمتك وتعتقد بها وتضرب كرة الأرض بقدميك وإن لم تكن ملكاً ولا قائداً ولا فاتحاً ، وإن كنت من صميم السوق ، وإن كنت من فورك وراء عتبة واحدة ؛ لا أقول إن هذا الكتاب علم ، فإن هذا القول يستلزم به دون منزلته ولا يعدو في وصفه أن يجعله مجموعاً من الورق الصقيل على طبع جيد ، مع أنه مجموع من الأرواح والعزائم وأعصاب القلوب ؛ ولكني أقول في وصفه العلمي إن المدارس تخرج من الكتب تلاميذ . . . وهذا الكتاب يخرج من التلاميذ رجالاً أقوياء أشداء معصومين عصيب جذوع الشجر العاني ، من قوة النفس وصلابتها وصحة العزيمة ومضائتها ، وتصميم الرأي

ونفاذه ؛ وما يعطى من قوة الصبر والثبات ومطاوله التعب إلى أبعد حدود الطاقة الإنسانية .

وما تقرأه حق قراءته وتستوفيه على وجهه من التدبير والإمعان إلا خرجت منه وقد وضع في نفسك شيئاً أعظم من نفسك كائناتاً من كنت وكيف كنت ، فإن تكن طفلاً خرجت رجلاً ، وإن كنت رجلاً خرجت حكيماً ، وإن كنت حكيماً استحدثت في نفسك ما يجعلك بالحكمة فوق الدنيا وكنت بها في الدنيا .

قال الأستاذ المترجم في مقدمته : « أشهد لأبناء وطني أنني لم أنتفع بكتاب قدر ما انتفعت بهذا الكتاب » . وهذه هي الكلمة التي لا يقول غيرها من يقرأ « سر النجاح » ، ولا يمكن أن يقول غيرها ؛ إذ هو مبني في وضع من فائدة النفس وما يرهف حدها ويتبعث ملكاتها ويستنهض قواها ويستنفذ وسائلها على ما يشبه القواعد التي لا تؤدي إلا إلى نتيجة واحدة من أين اعتبرتها ، كاثان وأثنان أربعة ، وثلاثة وواحد أربعة ، وأربعة وحدات أربعة ، وهلمّ جرّاً . . .

تلك شهادة المترجم ، أما أنا فأشهد لقد عرفت منذ زمن طالباً في الأزهر ، فلما تعرّف إلىّ جعل يشكو ويتبرم وينفض لى نفسه ويقول : الأزهر وعلومه وفنونه ومسائله ومشاكله ، والمتون وما فيها ، والشروح وما إليها ، والخواشي وما يرد ويعترض ويحاج به ويقال فيه ، وكل كلمة بساعة من العمر . وكل سطر بيوم ، وكل جزء بسنة ، وتركت ورأى كذا وكذا فداناً وأقبلت على كذا وكذا علماً ، فلا حصدت من هذه ولا من تلك ! قلت : وما يمسكك والباب مفتوح ولا يسألك الأزهر إلى أين ولا تسألك الدنيا إذا خرجت إليها من أين ؟ قال : والله ما ربطني إلى هذه الأعمدة خمس عشرة سنة كاملة على يأس ومضض إلا كتاب سر النجاح ، وما أمضيت نبتي مرة على وجه من وجوه العيش إلا رأيت هذا الكتاب قد ضرب وجه هذه النية فردها إلى هذا المكان وألقاها في هذا المستقر . وما هممت بترك الأزهر إلا انتصب في وجهي كل الأبطال الذين قرأت أخبارهم فيه وأمسكوني ، لا من يدي ولا من رجلي ، ولكن من اعتقادي وإيماني وأملّي !

قلت : فوالله لا يدعك حتى تنجح ، وما ربط الله على قلبك بهذا الكتاب وثبت فؤادك باليقين الذي فيه إلا وقد كتب لك الخير كله .

أبو تمام الشاعر

تحقيق مدّة إقامته بمصر^(١)

لم يبق بُدٌّ من أن نباغ بالكلام في هذا المعنى إلى مقطع الحق فيه ، وأن ننفذ بتحقيقه إلى خاصته ، وننتهي من خاصته إلى برهانه ؛ فإن علماء الأدب قديماً وحديثاً ألقوا خبر أبي تمام كلاماً مرسلاً بجري في الرواية على طرقها المختلفة ، لا على التاريخ في وجهه المتعين ، ويؤخذ على أنه خبر كالأخبار إن صدق فقد صدق وإن كذب فهو على ما يجيء ، إذ لم يكن يعنيه من الشاعر إلا شعره ، يحملونه عنه أو يأخذونه من رواته أو يحدونه في ديوانه ؛ أما أخبار الشاعر فهي لا تتصل بالكتاب ولا بالسنة . فتجتمع لهم كما تجتمع ويتناولونها كما اتفقت بما دخلها من الكذب والتزويد والتلفيق ، وما يكون فيها مما يظهر بعضه بعضاً أو يتقصّ بعضه على بعض ؛ والمحقق منهم من يروى الصدق والكذب معاً ليخرج من التبعة ، فلا بد من تبعة في أحد التقيضين ؛ وليبرأ بصدق أحدهما من كذب أحدهما كما صنع ابن خلكان في سياقه خبر أبي تمام وهذا نص عبارته :

كانت ولادة أبي تمام . . . بجاسم وهي قرية بين دمشق وطبرية ، ونشأ بمصر ، قيل إنه كان يسقى الماء بالحجرة في جامع مصر ، وقيل كان يخدم حائكاً يعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها .

والذين يعرفون طرق الرواية ومصطلحاتها يدركون من هذه العبارة أن ابن خلكان ينتهي من أن تكون عليه تبعة أحد الخبرين أو كليهما ؛ فإن الرواية متى افتتح الخبر (بقيل أو يقال) فقد دل على أن هذا الخبر غير مقطوع به ؛ إذ تسمى هذه الصيغة عندهم صيغة التمريض ، فهي لا تفيد الصحة ولا الجزم بها ؛ وظاهر أن أبا تمام لا يمكن أن يكون قد نشأ بمصر وبدمشق في وقت معاً .

(١) لما أنشأ المؤلف مقاله عن شوقي (رحمه الله) غضب من غضب من أدباء مصر ، وزعموا أنه يقصد الغضب من مكانة (مصر الشاعرة) ، ورماء من رماء في وطنيته ، وحاول بعضهم أن يرد عليه رأيه في الشعر المصري بتعداد شعراء مصر العربية ، واستتبع شيء شيئاً فجاء ذكر أبي تمام وما قالوا عن إقامته في مصر ؛ فأنشأ المؤلف هذا المقال ، وانظر ص ١٤٦ - ١٤٧ « حياة الرافعي » .

وابن خلكان قد وقف على الكتاب الذى عمله الصولى فى أخبار أبى تمام ونقل عنه ، وهو المرجع فى هذا الباب ؛ فلا بد أن يكون هذا الكتاب قد خلا من تحقيق هذه الرواية ، بل نحن نرجح أنه قد خلا منها بته ، فلم يذكر أن نشأة أبى تمام كانت بمصر ؛ لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يشر إليها بحرف ، مع أنه ينقل عن الصولى نفسه ويقول فى كتابه (أخبرنى الصولى) ، وكذلك أهملها صاحب مروج الذهب ، وهو ينقل أيضاً عن الصولى ؛ وهذا يثبت لنا أن الخبر لم يكن معروفاً يومئذ ، وإلا فما هو التاريخ عند أبى الفرج والمسعودى إن لم يكن هو هذا ؟

ولكن ذُكرت الرواية فى كتاب الأنبارى (طبقات الأدباء) ، واقتصر ناقلها على أن أبا تمام نشأ بمصر ، وأنه كان يسقى الماء بها ، ولم يذكر رواية عمله بدمشق ؛ والأنبارى متأخر توفى سنة ٥٧٧ ، فهو بعد موت أبى تمام بثلاثة قرون ونصف ، فلا قيمة لروايته ، وشأنه شأن غيره من الناقلين ؛ ونحن نرى أن هذه الرواية قد صنعت فى مصر نفسها للغرض من أبى تمام والزراية عليه ، وبقيت مروية فيها ثم حملت كما تحمل كل رواية لذاتها لا لتحقيقها ، سواء أكانت موجّهة على الحق أم معدولا بها عنه ؛ ولا أوضع فى المهنة من سقاية الماء فى الجامع بالجرة ، ولعمري ما ذكرت (الجرة) هنا عبثاً ؛ والغلو فى التحقير هو بعينه الدليل على الكذب ، فهذه الكلمة كأثر المحرم فى جريمته . . .

وبعد فلما نقرر أن هذا الشاعر العظيم لم ينشأ بمصر ، وأنه ولد وتأدب فى الشام ثم قدم إلى مصر شاعراً ناشئاً يتكسب بأدبه كما قدم عليها غيره من الأندلس والمغرب والشام والعراق ، وأنه لم يأت إلى مصر إلا فى ولاية عبد الله بن طاهر الأديب الشاعر القائد العظيم ، وقد جعلت له ولاية مصر والشام والجزيرة فى سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خلاف بين المؤرخين ، وكانت سن أبى تمام يومئذ بين ٢١ و ٢٣ سنة ؛ وقد كان ابن طاهر مغناطيساً للشعراء فى كل مكان ينزله ، حتى قال فيه بعضهم وعزم على الهجرة إلى مصر :

يقول رجال إن مصر بعيدة	وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر
وأبعد من مصر رجال نراهم	بخضرتنا معروفهم غير ظاهر
عن الخير موتى ما تبلى أزرتهم	على طمع أم زرت أهل المقابر

وقد قصده أبو تمام إلى مصر ، كما قصده بعد ذلك إلى خراسان في سنة ٢٢٠ ، وهي السنة التي وضع فيها أبو تمام أو في التي تليها كتاب الحماسة كما حققناه ولا محل لذكره هنا .

ونحن نسوق أدلتنا على صحة ما ذهبنا إليه في نفي أن يكون أبو تمام قد نشأ بمصر أو جاءها طفلاً . أو تكون منها طبيعته في الشعر ، أو يكون لها أثر في عبقريته :

١ - المجمع عليه بلا خلاف أن الشاعر ولد في الشام ، وما دام كذا لقد قالت الطبيعة كلمتها في أصل نبوغه وعبقريته ، فإن الأديب يولد ولا يُصنع كما يقول الإنجليز ؛ وكل العلماء يعرفونه بالطائي ! ولا يطعن في نسبه إلا من لا يحقق ، وهو نفسه يباهى بطائيته ، وذلك كالشرح على كلفة الطبيعة في أسباب نبوغه الوراثية ؛ وقد تنقل الرجل بين مصر والشام والعراق وخراسان وأرمينيا وغيرها ، فما بلد أولى من بلد بأن يكون مثار عبقريته .

٢ - إن الشاعر إنما يتكسب من شعره يمدح من يهتز له أو يعطى عليه ، ولم يمدح أبو تمام أحداً من أهل مصر ؛ فإن كان مدح فيها عبد الله بن طاهر فإِنما إليه قصد وله جاء ؛ وابن طاهر ليس مصرياً ، وقد جاء إلى مصر ورجع منها قبل أن يحول عليه الخول ، فلو أن نشأة هذا الشاعر كانت بمصر وتأديبه كان فيها لأصبنا له مدحاً كثيراً في أعيانها وعلمائها ؛ إذ هو متى قال الشعر لا يتكسب إلا منه ؛ وفي ديوان الشاعر هجاء لابن الجلودى نظمه في مصر ، ولكن ابن الجلودى ليس مصرياً ، بل هو قائد من قواد المأمون ، ولاه محاربة الزط سنة ٢٠٥ ، ثم أقدم بعد ذلك مصر ، ثم ولى عليها في سنة ٢١٤ ؛ فكل المصرية في شعر أبي تمام هي في هجائه للشاعر المصري يوسف السراج ، ولعلها في بعض مقاطع أخرى من الغزل أو الوصف .

٣ - ولد أبو تمام في سنة ١٨٨ أو ١٩٠ ، ومن الثابت أنه كان بمصر في سنة ٢١٤ ، حين نظم قصيدته الدالية والنونية في رثاء عمير بن الوليد - وعمير هذا ليس مصرياً ، بل هو من خراسان ، وكان بمصر عاملاً لأبي إسحق المعتصم ابن الرشيد - فلو كان أبو تمام قد جاء إلى مصر طفلاً كما يتمال لكانت مدة

قوله الشعر فيها لا تقل عن عشر سنوات ، مع أن كل ما نظمته وهو فيها لا يبلغ عشر قصائد ؛ وهذا ديوانه بين أيدينا وإليه وحده المرجع في الدلالة على صاحبه .

٤ - روى المرزبانى فى الموشح عن العباس بن خالد البرمكى قال : أول ما نبغ (أى قال الشعر) أبو تمام الطائى أثنى بدمشق يمدح محمد بن الجهم فكلمته فيه فأذن له ؛ فدخل عليه وأنشده ، ثم خرج فأمر له بدراهم يسيرة ، ثم قال : إن عاش هذا ليخرجن شاعراً .

فهذا نصٌ على أن الشاعر لم يكن يومئذ إلا فى ابتداء الشعر ، ولم يكن قد خرج شاعراً بعد وكان شعره من الطبقة التى يثاب عليها (بدراهم يسيرة) . وأبو تمام بعد ذلك هو نفسه الذى نثر عليه عبد الله بن طاهر ألف دينار فترفع أن يمسه وترك الخدم ينتهبونها ، وكان ذلك سبباً فى تغير ابن طاهر عليه .

٥ - نقل ابن خلكان فى ترجمة ديك الجن الشاعر الحمصى المشهور ، عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدى قال : كنت جالساً عند ديك الجن ، « يعنى بمحمد » ، فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره ، فسلمه إليه وقال : يا فتى تكسب بهذا واستغن به على قولك . فلما خرج سألته عنه فقال : هذا فتى من أهل جاسم ، يذكر أنه من طيىء ، يكنى أبا تمام ، واسمه حبيب بن أوس ، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع . فهذا نص آخر على أن أبا تمام كان يومئذ حدثاً - أى غلاماً - وكان لا يزال يطلب الأدب ، وقد أعانه أستاذه بنسخ من قصائده يتخرج بها ويحذو عليها ؛ فهو قد نشأ فى الشام وتأدب فيها .

٦ - نظم أبو تمام قصيدته اللامية « أصب بحميا كأسها مقتل العذل » يصف تقتير الرزق عليه بمصر وخيبة أمله الذى أمله من المال ، وفى هذه القصيدة يحن إلى الشام ويستسنى لها ويذكر أرض البقاعين وقرى الجولان التى نشأ فيها ؛ ولا يحن الشاعر لأرض إلا إذا كان فيها حبه أو شبابه وأدبه ، أما الطفولة فمنسية بآثارها ، إذ لا آثار لها فى النفس متى شب المرء إلا بعيداً بعيداً ، وإنما الحنين لما تتعلق به الغريزة المميزة .

٧ - في هذه القصيدة يقول أبو تمام يخاطب أحبابه :

عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى لها وطر في أن تمرّ ولا تحلى

والنوى في لغة الشاعر هي رحيله للتكسب بشعره ؛ ولما رجع عوف بن محلم الشيباني إلى وطنه بعد وفادته على عبد الله بن طاهر في خراسان ؛ سئل عن حاله فقال : رجعت من عند عبد الله بالغنى (والراحة من النوى) ؛ ويؤيده قول أبي تمام في قصيدته تلك :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم فأمتع ، إذ فجعت بالمال والأهل

يعنى أنه اغترب مكرهاً يطلب الكسب لا غير ، ولا كسب للشاعر إلا من شعره ، فهو بنص كلامه عن نفسه قدم إلى مصر شاعراً يتكسب ويتعرض للغنى كما يصنع غيره .

٨ - في هذه القصيدة اللامية يقدم لنا أبو تمام رحمه الله دليلاً يأكل الأدلة ، كأنما ألهم من وحى الغيب أننا سنحتاج إلى هذا الدليل يوماً لنُدفع به عنه ؛ فهو يحن إلى حبيب له في الشام ، ويقول إن غربة النوى التي وصفها :

أتت بد هجر بن حبيب فحركت صباة ما أبقي الصدود من الوصل
أخمسة أحوال مضت لمغيبه ؟ وشهران بل يومان ثكل من الثكل !

يعنى أنه قال هذا الشعر وقد مضى على إقامته في مصر خمس سنوات ، وكان قد جاء من الشام عاشقاً ذلك العشق الذي فيه (الصدود والوصل) ، والطفل لا يحب مثل هذا الحب ولا يحن ذلك الحنين ؛ فإذا كان الشاعر قدم إلى مصر في سنة ٢١٠ ، كما رجحناه ، وسنه بين ٢١ و ٢٣ سنة ، فيكون قد نظم هذه القصيدة في سنة ٢١٥ ، وعمره يومئذ بين ٢٦ و ٢٨ سنة ؛ فلو أن أبا تمام جاء من الشام طفلاً صغيراً فكيف للطفل أن يقول مثل هذا الشعر بعد خمس سنوات ؟ وما هجر الحبيب « وصباة ما أبقي الصدود من الوصل » ؟

٩ - مدح شاعرنا محمد بن حسان الضبي بقصيدة نونية يذكر فيها تنقله في

البلاد فقال منها :

بالشام أهلى ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقمتين ، وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بى أقصى خراسان !

فأنت ترى أنه جعل أهله بالشام ، وجعل أصدقاءه بمصر ؛ فلو أنه كان قد نشأ
بها لجعل بها أهله ؛ إذ لا ينشأ إلا مع أبيه وأمه ؛ والبيت الثانى دليل منه هو على
أنه لم ينزل بمصر مقيماً ولا متوطناً ، بل متنقلاً كما نزل بغيرها .

١٠ - تقول كتب الأدب فى مدارس الحكومة : إن أبا تمام نقل إلى مصر صغيراً
فنشأ بها (وقد بينّا فساد ذلك) ، ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح المعتصم ؛ وهذا
غير صحيح ؛ فإن أبا تمام خرج من مصر قبل أن يدخلها المأمون فى سنة ٢١٦ ،
حين جاءها وقتل بها عبدوس الفهرى ؛ فلو كان الشاعر يومئذ لمدح المأمون وذكر
هذه الواقعة ؛ والمعتصم ولى الخلافة سنة ٢١٨ ، وديوان أبى تمام يثبت أنه فى
سنة ٢١٧ ، كان بالعراق ، وقد مدح المأمون بقصيدته الميمية ، وذكر فى مدحه
وقعة الروم ، وهذه كانت فى تلك السنة .

يخلص من كل ما تقدم أن أبا تمام ولد فى الشام وتأدب فيها ، وقدم إلى
مصر كبيراً يتكسب بالشعر ، فأقام بها بين خمس سنين وست ، ولم يجد له
عيشاً بها بعد قتل عمير بن الوليد الذى قتل فى سنة ٢١٤ ؛ فإنه كان يعيش
فى كنفه ، وقد صرح فى قصيدته النونية التى رثاه بها أنه يأمل من بعده فى
ابنه محمد .

فقدوم الشاعر إلى مصر كان فى سنة ٢١٠ أو حواليتها ، وخروجه منها كان فى
سنة ٢١٥ أو حواليتها ، والله أعلم .

القديم والجديد^(١)

أقول للأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين « في رفق ولين » وفي عجلة أيضاً :
إني في هذه الأيام ضنين بما أملك من وقى أشد الضن ، أحسب السماء تتفجر من
يومى في ساعة كالفجر ، فلا يصرفنى عن تلك الساعة شىء ولا يصرفها عنى شىء ؛
إذ بين يدى كتاب في الرسائل أعمل فيه واستعين الله على الفراغ منه في وقت معين ،
وقد أطلّ أو كاد ؛ فلا يرين الأستاذ أنى أستطير هذه المرة كالطيرة الأولى ، فإن
جناحى في فضاء آخر ، وإن هذا الكتاب الذى أعالجه لا يحشمى عرقاً من
القربة كما قالوا قديماً ، بل لعله في ألمه أشبه « بعملية » تشريح في القلب ، وستذهب
الدقائق التى أكتب فيها هذه الكلمة مأسوفاً عليها ، لأنها ذاهبة بصفحتين
من كتابى .

وأما بعد فلا أرى من الإنصاف أن يعمد الدكتور إلى جمل يقتضيهن من
مقالى في مجلة الهلال ثم يهدفها للرد ، وكان عسى أن يدفع عنها شىء مما
قبلها أو ما بعدها أو يشد منها بعض جهاتها أو يأتى بها في سياق يبين عن
معناها .

وزعم الأستاذ أنه لا يفهم من كلامى هذه الجملة « وأنت تعلم أن الذوق
الأدبى فى شىء إنما هو فهمه ، وأن الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه ، وأن
النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً . . . » ، ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة
وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة ، بل جعلها من قبيل « قصة وقضية »
. . . فتراه يقول : ذوق هو الفهم ، وفهم هو الذوق ، وفهم ليس بالذوق ، وذوق
ليس بالفهم ، وهلم صاعداً ونازلاً ؛ وضرب لنا مثلاً بالموسيقى فقال : « ما نظن أن
الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً » . وأنا أفسر كلامى بهذا المثل
نفسه ، أقصر عليه ولا أعدوه .

(١) نشرها حين المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين حول كتابيه : « رسائل الأحران » ،
و « السحاب الأحمر » ؛ وللدكتور طه فيها وفى أسلوبهما رأى .
وانظر كتابى : « المعركة تحت راية القرآن » ، و « حياة الرافعى »

نأتى الآن بأستاذ قد برع فى الموسيقى وخالطت أعصابه ولحمه ودمه ، وندفع إليه قطعة ملحنة ونقول له : اسمع وافهم واحكم وانتقد ؛ يسمعه مرة بعقله أو لعقله يتبين ما يكون فيها صواباً وما يكون خطأ ، ثم ما يعلو عن الصواب من الإجادة والإتقان ، وما ينحط عن الخطأ من الإساءة والتخليط ؛ فهذا هو الفهم .

ويسمعه مرة ثانية بحسه أو لحسه ، فيرى أثر ما فهم ، ويديرها فى ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذى وضعت له ، فإنها لم توضع لتكون أصواتاً ، بل لتخلق من الأصوات شيئاً ؛ فهذا هو الذوق ، وهو كما تراه بعد الفهم ونأشئ عنه . ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول : إن الذوق فى شئ إنما هو فهمه ، أو إنما هو عن فهمه ، أو إنما ينشأ عن فهمه ، فالبعبارة فى باب المجاز واحدة لا تختلف .

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين ، أو مرة كمرتين إن بلغ أن يكون له فى كل أذن واحدة أذنان ، يستفتى ذوقه الفنى ويحكم للقطعة أم عليها ؛ فهذا هو أثر الذوق .

الآن قد حكم الأستاذ وانتقد وجزم برأيه ، فندب له فلان يقول : أخطأت وأسأت وجهلت وغفلت ، أو تعصبت وحططت فى هوى صاحب اللحن ؛ فن أين جاء هذا الخلاف وكيف وقع هذا القول ؟ بل كيف ساغ للثانى أن يجهل الأول ويرى غير رأيه ويحكم غير حكمه ، إلا إذا كان قد فهم غير فهمه فأنشأ له الفهم ذوقاً وأحدث له الذوق حكماً . وجاءت من هذه المقدمات تلك النتيجة التى نسميها النقد ، وما هى فى الحقيقة إلا الذوق والفهم جميعاً . فالذين يذوقون الموسيقى ويظربون لها ولا يفهمونها فقد فهموها على مقدار ما استقر فى نفوسهم من أساليب التطريب وما فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة ؛ أو لا تراهم يقولون فى أمثال هؤلاء إن لهم آذاناً موسيقية ؟ فهذه الأذن هى الفهم بعينه ، لأنها حاسة اجتمعت من مران طويل ، وقد تقوم فى بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام عليم برأسه .

ويقول الأستاذ طه إنه قد يقرأ كلامى ويفهمه ولا يذوقه ، ولكن عدم الذوق هنا هو الذوق ؛ وليت شعرى ما معنى قول المتنبي : « ومن يك ذا فم مر » .

ولو كان الأستاذ وأمثاله هم في هذا القياس المتر والكيلومتر ، لوجب ألا أجد من يذوق كلامي ويعجب به ويغالى فيه ويكون ذنباً من ذنوبي عند الله بإسرافه في المغالاة ، وأنا واجد بكل واحد مثل الأستاذ طه عشرة ومائة من غيره ، ولو خرج هو إلى العالم لرأى وسمع ، وفيهم من هم أعلى منه كعباً وأمدّ عنقاً وأضحى هامة وأبدع بديعاً وأبلغ وأزكى وأعلم إلى عدد من هذه الواوات .

وعجبت للدكتور يريد أن لا يفهم من عبارتي كما يقول إلا أن « الذوق هو نفس الفهم ، فاللفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن وإذن وإذن . . . »

فهل يرى إذا قلت له : رأيت القمر وفلانة ليلة كذا فكانت إنما هي القمر — أنى أقصد بهما معنى واحداً فيقول لها : « وإذن » فليسا شيئين مختلفين وإنما هو شيء واحد ، وإذن فكيف صار لها وجه في السماء ووجه في الأرض وبقيت مع ذلك امرأة من الإنس ؛ وإذن فهذا كلام لا يفهم . . .

قال بعضهم إن « لو » تفتح عمل الشيطان ، يريد أنها أداة التمني ، والمذهب الجديد سيضم « إذن » إلى « لو » ، ثم ما هي الكلمة الثالثة يا ترى ؟

أنا مع إعجابي بالدكتور الفاضل أرى أنه مستهتر بأشياء ، وأن من خلقه أن ما لا يرضى عنه وما لا يفهمه « ليسا شيئين مختلفين » . فإذا لم يكن من الفهم بد قال إنه لا يقتنع ، فإذا ضايقته وضيق عليه لم يبق إلا ما يقول النحاة في « أى » التي حيرهم إعرابها وبنائها : أى كذا خلقت . . .

وأنا وأمثالي إنما نحرص أشد الحرص على هذه اللغة لأنها أساس الأمة الإسلامية فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتاً متيناً لا يزعه شيء ولا يثلمه شيء ولا يضعفه شيء ؛ والدكتور وأمثاله لا يبالون أن تكون هذه الأمة كبيوت أمريكا المتحركة . . .

لست أنكر التجديد ، بل لعل الدكتور يذكر مناقشتي إياه في (الجريدة) وإصراره يومئذ أن ليس لأحد أن يدخل في اللغة كلمة ، وأن قول الناس تنزه ومتنزه ونزهة إلخ كلها من الكلام العامي ، وتعلقه بنص ابن سيده في ذلك ، واستخراجه له نص ابن قتيبة وكلاماً كثيراً من استعمال العلماء ، ثم قوله

أحسنست ، ولكن لو جئتني باللفظة في كلام المبرد والجاحظ وفلان وفلان ما اقتنعت .

إنما أنكر شيئاً واحداً ، وهو أن يقال مذهب قديم ومذهب جديد ؛ فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا ، ولكن أصحابنا يريدون ألا نكتب إلا نمطاً بعينه ، ولا نذهب إلا مذهباً بعينه ؛ لأن كل ذلك هو الجديد ؛ فأيهما خير لنا ولهم وللذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : أن نعتد اللغة والأدب كل ما اجتمع من قديم وجديد ونُحكم هذه اللغة ونحفظها وندفع عنها ونجعل تجديدها كتجدد الحسنة في أثوابها وفي ألوانها دون تشويه ولا مسخ ولا مس الجسم الجميل ، أم نقول : هذه الشفة وهذا الأنف وهذا الموضع الممتلئ الخلد وهذا الموضع المضمم الناحل وتعال يا دكتور هات الموضع والمشرط والمقص والمشار والإبرة والحيط وإذن ؟

لقد أذكر أنني رأيت في بعض مقالات الأستاذ طه حسين أو في بعض ما يقرظ به الكتب أنه قال إن القديم قد أثبت دائماً أنه أقوى وأمتن وأصح ؛ فهل رجل عن هذا الرأي أم ظهر له في الجديد ما هو أقوى وأمتن وأصح ؟ ثم يا أيها الملاً أفتؤنى ما هو هذا الجديد ؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون ، أم تلك الشهوات المتوَّبة المتلهفة ، أم ذلك الأسلوب الفج المستوخم ، أم العامية السقيمة الملحونة ؛ أم هو في الحقيقة بين رغبة في النبوغ قبل أن تتم الأداة وتستحكم الطريقة ، كما هو شأن فريق من الكتاب ، فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هي المذهب الجديد — وبين رغبة في التعصب للأدب الأجنبية كما هو شأن فريق آخر — وبين رغبة في الخط من قيدة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وأنه لا قيمة لما يجيئون به ، كل ذلك في تعبير علمي يصح أن يكون نظرية علمية . . . وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ! فقد شاءوا فلم يقولوا ؛ ولو أن المذهب الجديد فسر القرآن يوماً . . . لقال في معنى أساطير الأولين إنهم أرادوا بها المذهب القديم . . .

ويقول الدكتور طه إن هناك قومًا ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ؛ ثم

طلب رأيي في هؤلاء وما أصل مذهبهم الجديد ؛ فأقول : إني أعرف بعضهم ، وأعرف أن أدمغتهم لا يشبهها شيء إلا جلود بعض الكتب التي ليس فيها إلا متن وشرح وحاشية : جلد ملفوف على ورق ، وورق ينطوى على قواعد محفوظة ، وهم أفقر الناس إلى الرأي ؛ وهذه علة جبههم للأساليب الجديدة القائمة على الترجمة ونقل الآراء من الغرب إلى الشرق ، وبالمعنى الصريح المكشوف : من الأدمغة المملوءة إلى الأدمغة الفارغة ، وفيهم بعض أذكىاء ، ولكن ذكاءهم في حواسهم ، فإن لم يكن هذا فليقولوا لهم لماذا ؟

ولو أنك سألت العنكبوت : ما هي الطيبة الحوراء العيناء التي تطمعين فيها وتنصبين لها كل هذه الأشرار والحبائل ؟ ل قالت لك : مهلا حتى تقع فتراها ! فإذا وقعت رأيته تسمّة ورأيته ذبابة . . .

ولكن ماذا يقول الدكتور في الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده ؟ أكان يدعو إلى مذهب جديد في اللغة والأدب ويفتن بالروايات الغرامية وبأسلوب « إميل زولا » في روايته المعروفة وبمثل رواية (الأجرسون) .

إن كان الناس عند الدكتور من بعض الحجج فإن الشيخ وحده بأمة كاملة ممن يعينهم .

وأختتم هذه الكلمة بالشكر للأستاذ طه حسين والثناء عليه ، ثم إني مسترسل في عملي ، وهذا عذري إليه .

المرأة والميراث

قرأت في المقطم كلمة الكاتب المعروف سلامة موسى فيما يزعمه إجابات مختصرة عن اعتراضات تهافت بها رأيه في الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وهو ينصح لمن يريد أن يناقشه أن يقرأ نص محاضراته في السياسة الأسبوعية .

وقد رجعت إلى نص المحاضرة فإذا الكاتب هو هو في ضعف تفكيره وسوء تقليده ، يكاد لا يميز بين الرأي الصحيح الثابت في نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه ، وبين الرأي المتغير في كل نفس بحسبها لأنه قائم على منزع أو غفلة أو مرض في النفس .

ترى الكاتب لا يدعو إلا إلى تقليد أوروبا ، وتكاد عباراته في ذلك لا تحصى ويقول إن « المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوروبا لا غش في تقليده » ، فليس إلا أوروبا وتقليدها وإذا لم يكن في أوروبا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شيء . . .

« مقلد أوروبا لا غش في تقليده » ، وما هو الغش في التقليد ؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بينة في الحالين ، وأن تأتي أن تحمل على طبيعتك الشرقية ما لا تصلح عليه ولا تقوم به ؛ وإذا انقلبت أوروبا شيوعية أو إباحية وجب ألا نغش في التقليد . . . وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوروبا وتطلع في مصر كل يوم وجب أن يكون المصري أعمى ستة أشهر . . . والظاهر أن الكاتب يقول بالتقليد لأنه طبيعي فيه . . . ورأيه في الميراث إنما هو ترجمة . . . لعمل مصطفى كمال ؛ وإن كان مصطفى كمال قد أصلح الترك في سنوات كما يقولون ؛ فبرهان التاريخ لا يخضع للمشقة ولا لمحاكم الاستقلال ولا يأتي إلا في وقته الذي سيأتي فيه ، وسيرى الناس يومئذ ما يكون وهماً مما يكون حقيقة .

ويرد الكاتب على رأى الأستاذ الأخلاقى رئيس تحرير المقطم في خشيته أن يقتصر الإصلاح على القشور دون اللباب ، فيقول إنه « معتقد أن الأمة التى تشرع في اتخاذ المدنية الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور . . . لأنها أسهل عليها من اللباب

بل هي لا تستطيع غير ذلك» . أكذلك بدأت اليابان ؟ . وهل كل الطبائع كطبيعة بعض الناس ، تستطيع أن تعتلف قشور المدنية . . . وتنصرف إلى مذاقها وسفاسفها ؟

ولا ريب أن حضرته لا يفهم الدين الإسلامى لأنه ليس من أهله ، فهو يقرُّنا على ذلك ، وهو بذلك يقرُّنا على أنه متطفل في اقتراحه ؛ وإن الذى يقرأ في محاضراته قوله : « إن الطبقة الغنية في الأمة هي التي تقرر ديانة الأمة . . . » يستيقن أنه لا يفهم ديناً من الأديان ، وأنه قصير النظر في أمور الاجتماع وأبواب السياسة ؛ وأن يمينه وشماله وأمامه ووراءه إن هي إلا جهات الزمام الذى ينقاد فيه ؛ فلا شخصية له ، وإنما يتابع وينقاد للآراء التي يترجم منها بلا نقد ولا تمييز .

إن ميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته ، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها ، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العاملين معاً ، فإذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها ؛ وهذا الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية ينشئ بها طباعاً ويعدل بها طباعاً أخرى ، كما بيناه في مقالنا المنشور في مقتطف هذا الشهر^(١) فهو يربأ بالرجل أن يطمع في مال المرأة أو يكون عالة عليها ؛ فمن ثم أوجب عليه أن يجهزها وأن ينفق عليها وعلى أولادها ، وأن يدع لها رأبها وعملها في أموالها ، لا لتحذ إيرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه ؛ وكل ذلك لا يقصد منه إلا أن ينشأ الرجل عاملاً كاسباً معتمداً على نفسه مشاركاً في محيطه الذى يعيش فيه ، قوياً في أمانته ، منزهاً في مطامعه ، متهيئاً لمعالى الأمور ، فإن الأخلاق ، كما هو مقرر يدعو بعضها إلى بعض ، ويعين شئ منها على شئ يماثله ، ويدفع قواها ضعيفها ، ويأنف عاليها من سافلها ؛ وقد قلنا مراراً إنه لا يجوز لتكلم أن يتكلم في حكمة الدين الإسلامى إلا إذا كان قوى الخلق ، فإن من لا يكون الشئ في طبعه لا يفهمه إلا فهم جدل لا فهم اقتناع .

للمرأة حق واجب في مال زوجها ، وليس للرجل مثل هذا الحق في مال زوجته ؛ والإسلام يحث على الزواج ، بل يفرضه ؛ فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلاً ويعطيها

به حقاً جديداً ، فإن هي ساوت أخاها في الميراث مع هذه الميزة التي انفردت بها انعدمت المساواة في الحقيقة ، فتزيد وينقص ؛ إذ لها حق الميراث وحق النفقة وليس له إلا مثل حقها في الميراث إذا تساويا .

فإن قلت كما يقول سلامة موسى إن في الحق أن تنفق المرأة على الرجل وأن تدفع له المهر ثم تساويه في الميراث ، قلنا : إذا تقرر هذا وأصبح أصلاً يعمل عليه بطل زواج كل الفقيرات وهن سواد النسوة ، إذ لا يملكن ما يمهرن به ولا ما ينفقن منه ؛ وهذا ما يتحاماها الإسلام لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجنسين جميعاً ؛ وهو مفض بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة ولليوم وللوقت المحدود . . . ولايجاد لقطاع الشوارع ، بدلا من أن يكون الزواج للعمر وللواجب ولتربية الرجل على احتمال المسؤولية الاجتماعية بإيجاد الأسرة وإنشائها والقيام عليها والسعى في مصالحها .

من هنا وجب أن ينعكس القياس إذا أريد أن تستقيم النتيجة الاجتماعية التي هي في الغاية لا من حق الرجل ولا من حق المرأة بل من حق الأمة ؛ وما نساء الشوارع ونساء المعامل في أوروبا إلا من نتائج ذلك النظام الذي جاء مقلوباً ، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسئولية المتهدمة ، وهن الواجبات التي ألقاها الرجال عن أنفسهم فوقعت حيث وقعت !

وإذا انزاحت مسئولية المرأة عن الرجل انزاحت عنه مسئولية النسل ، فأصبح لنفسه لا لأمته ؛ ولو عم هذا المسخ الاجتماع وأسرع فيه الهرم وأتى عليه الضعف ، وأصبحت الحكومات هي التي تستولد الناس على الطريقة التي تستنتج بها البهايم ، وقد بدأ بعض كتاب أوروبا يدعون حكوماتهم إلى هذا الذي ابتلوا به ولا يدرون سببه وما سببه إلا ما بيننا آنفاً .

ثم إن هناك حكمة سامية ، وهي أن المرأة لا تدع نصف حقها في الميراث لأخيها يفضلها به — بعد الأصل الذي نبهنا إليه — إلا لتعين بهذا العمل في البناء الاجتماعي ؛ إذ ترك ما تركه على أنه لامرأة أخرى ، هي زوج أخيها ؛ فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة ، وأسدت للأمة عملاً آخر أسى منه بتيسير زواج امرأة من النساء .

فأنت ترى أن مسألة الميراث هذه متغلغلة في مسائل كثيرة لا منفردة بنفسها ،
وأنها أحكم الحكمة إذا أريدَ بالرجل رجلَ أمته وبالمراة امرأة أمتها ، فأما إذا
أريدَ رجلُ نفسه وامرأة نفسها ، وتقرر أن الاجتماع في نفسه حماقة ، وأن الحكومة
خرافة ، وأن الأمة ضلالة ، فحينئذ لا تنقلب آية الميراث وحدها بل تنقلب
الحقيقة .

ومما تعجب له أن سلامة موسى يتكلم في محاضراته كأن كل الوالدين ذوو مال
وعقار ، فنصف الأمة على هذا محروم نصف حقه وكأنه لا يعرف أن السواد
الأعظم من الناس لا يترك ما يورث ، لا على الربع ولا على النصف ؛ وأن كثيراً
من يموتون عن ميراث لا يحيا ميراثهم إلا أياماً من بعدهم ، ثم يذهب في الديون ،
إذ لا تركة مع دين ، وكثيرون لا يسمن ميراثهم ولا يغنى ، فلم تبق إلا فئات معينة
من كل أمة لا يجوز أن تنقلب من أجلها تلك الحكمة الاجتماعية التي هي من حظ
الأمة كلها لقيام بعض الأخلاق عليها كما بسطناه .

ومما تشمئز له النفوس الكريمة قول المترجم في محاضراته : فلو كانت الفتيات
يرثن مثل إخوتهن الذكور ، لكان (في ثروتهم) إغراء للشبان على الزواج . . .

إن الدين الإسلامي لا يعرف مثل هذا الإسفاف في الخلق ولا يقره ، بل هو
يهدمه هدماً ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسؤولية ما دام مطيقاً
إن كره أو رضى ، ولعمري إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لى أدل من اسم المحل
على بضاعة المحل . . .

كلمة مؤمنة في ردّ كلمة كافرة^(١)

تلقيت كتاباً هذه نسخته :

أكتب إليك متعجلاً بعد أن قرأت « كلمة كافرة » في كوكب الشرق الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر ؛ كتبها متصدر من نوع قوهم : حبذا الإمارة ولو على الحجارة . . . وسمى نفسه « السيد » ، فإن صدق فيما كتب صدق في هذه التسمية .

طعن القرآن وكفر بفصاحته ، وفضل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب ، فعقد فصله بعنوان « العثرات » على ذلك التفصيل ، كأن الآية عثرة من عثرات الكتاب يصححها ويقول فيها قوله في غلط الجرائد والناشئين في الكتابة ؛ وبرقع وجهه وجبن أن يستعلن ، فأعلن بزندقته أنه حديث في الضلالة .

غلى الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفصيل قول العرب : « القتل أنفى للقتل » على قول الله تعالى في كتابه الحكيم : « ولكم في القصاص حياة » ، فذكرت هذه الآية القائلة : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وهذه الآية : « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض » ؛ ثم هممت بالكتابة فاعترضني ذكرك ، فألقيت القلم لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك .

ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة ، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها ؛ فإن هذه زندقة إن تُركت تأخذ مأخذها في الناس ؛ جعلت البر فاجراً ، وزادت الفاجر فجوراً : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

واعلم أنه لا عذر لك . أقولها مخلصاً ، يملئها على الحق الذي أعلم إيمانك به ، وتغانيك في إقراره والمدافعة عنه والدود عن آياته ؛ ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به

(١) البلاغ - نوفمبر سنة ١٩٢٣ ، وانظر ص ١٧٢ - ١٧٤ « حياة الرافعي » .

المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني .

ولست أزيدك ، فإن موقف هذا المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين وأذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سئل علمًا علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار ! » أو كما قال . . .
والسلام عليكم ورحمة الله .

م . م . ش

* * *

قرأت هذا الكتاب فاقشعر جسمي لوعيد النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعلت أردد الحديث الشريف أستكثر منه وأملأ نفسي بمعانيه ، وإنه ليكثر في كل مرة ، فإذا هو أبلغ تهكم بالعلماء المتجاهلين ، والجهلاء المتعلمين ؛ وإذا هو يؤخذ من ظاهره أن العالم الذي يكتم علمه النافع عن الناس يجيء يوم القيامة ملجمًا ، ويؤخذ من باطنه أن الجاهل الذي يبث جهله الضار في الناس يجيء يوم القيامة ملجمًا مبرذعًا . . . أى : فهذا وهذا كلاهما من حمير جهنم !

والتمست عدد الكوكب الذي فيه المقال وقرأته ، ولم أكن أصدق أن في العالم أديبًا مميزاً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله وأساء الأدب في وضع آية منه بين عثرات الكتاب ، فضلاً عن أن يسمو لتفضيل كلمة من كلام العرب على الآية ، فضلاً عن أن يلج في هذا التفضيل ، فضلاً عن أن يتهوس في هذه اللجاجة ؛ ولكن هذا قد كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولعمري وعمر أبيك أيها القارئ ، لو أن كاتباً ذهب فأكل فخلط فتضلع فنام فاستثقل فحللم . . . أنه يتكلم في تفضيل كلمة العرب على تلك الآية ، واجتهد جهده وهو نائم ذاهب الوعي فلم يأل تخريفًا واستطالة ، وأخذ عقله الباطن يكنس دماغه ويخرج منه (الزبالة العقلية) ليلقيها في طريق النسيان أو في طريق الشيطان — لما جاء في شأوه بأسخف ولا أبرد من مقالة « السيد » فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم ، أم وقع من جهة الخلط والحبط كما فعل كاتب الكوكب — فهذا من هذا ، طباق سخافة بسخافة . . .

نعم إن مقالة الكوكب أفضل من مقالة الكاتب الحالم . . . ولكن قليل الزيت

فى الرجاجة التى أهديت لجحا لا يعد زيتاً ما دام هذا القليل يطفو على ملء الرجاجة من . . . من البول !

ولقد تنبأ القاضى الباقلانى قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذه فأسفلهما الرد بقوله :

« فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله » ما علينا . . . يقول كاتب الكوكب بالنص :

قالت العرب قديماً فى معنى القصاص : (القتل أننى للقتل) ، ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب (هكذا) ، فقال : « ولكم فى القصاص حياة » يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، وقد مضت سنة العلماء من أساطين البيان أن يعقدوا الموازنة بين مقالة العرب هذه وبين الآية الحكيمة أيتسهما أشبه بالفصاحة (هكذا) ، ثم يخلصون منها إلى تقديم الآية والبيان القرآنى . . . ثم قال : من رأى كاتب هذه الكلمة تقديم الكلمة العربية على الآية الغراء ، (اللهم غفراً) على ثلج الصدر بإعجاز القرآن (كلمة للوقاية من النياية . . . وإلا فماذا بقى من الإعجاز وقد عجزت الآية ؟ زه زه يا رجل . . .) .

ثم قال : إن فيما تقدم به الكلمة العربية على الآية الحكيمة (اللهم غفراً) مزايا ثلاثاً : أولى هذه المزايا الثلاث ، هذا الإيجاز الساحر فيها ؛ ذلك أن : « القتل أننى للقتل » ثلاث كلمات لا أكثر ، أما الآية فإنها سبع كلمات (كذا) وعلى تلك فهى أقدم عهداً وأسبق ميلاداً من آية التنزيل (تأمل) حاشا كلام الله القديم ، والإيجاز ميزة أبة ميزة ؛ الميزة الثانية للكلمة الاستقلال الكتابى وفقد التعاقد بينها وبين شىء آخر سابق عليها ، حتى إن المتمثل بها المستشهد يبتدى بها حديثاً مستمماً ويختمه فى غير مزيد ولا فضل ، فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها ، أما الآية فإنها منسوقة مع ما قبلها بالواو ، فهى متعاقدة مترابطة معه ، لا يتمثل بها المتمثل حتى يستعين بشىء سواها ، وليس الذى يعتمد على غيره فلا يستقل كالذى يعتمد على نفسه فيستقل ؛ الميزة الثالثة أن الكلمة ليست متصلة فى آخرتها بفضل

من القول تغنى عنه ، على حين تتصل الآية بما تغنى عنه من القول . ويعتد كالفصل وهو كلمتنا « يا أولى الأبواب » و « لعلكم تتقون » ، وإن كان لا زيادة في القرآن ولا فضول .

ثم قال : إن مدرسًا جاءه بالفصل الذى عقده الإمام السيوطى فى كتابه الإتيان لتفضيل الآية على الكلمة وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة ؛ قال إنها انحطت بعد أن رماها بنظره العالى إلى أربع : « أما الباقيات فمن نسج الانتحال والتزيد » ، قال : وأولها أن الآية أوجز لفظًا ، والكاتب يرى الآية : « سبع كلمات فى تحديد ودقة » ، قال : إذًا لقد بطلت حجة الإيجاز فى الآية « (اللهم غفرًا) ، قال : والثانية : « أن فى الكلمة العربية تكرارًا لكلمة القتل سلمت الآية منه » ، ورد الكاتب أن هذا التكرار : « يتحلل طلاوة ويقطر رقة ، (قال) : وهذا فمى فيه طعم العسل » ، (قلنا : وعليه الذباب يا سيدنا . . .) ، والثالثة أن فى الآية ذكرًا للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده ، وليس كل قتل قصاصًا ؛ ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينبنى صاحبه ، فذاك هو القصاص ؛ قال : « إذن فالكلمة والآية فى قصد القصاص يلتقيان فرسى رهان » ؛ والرابعة أن القصاص فى الآية أعم يشمل القتل وغيره ، وأقر الكاتب أن للآية فضلًا على الكلمة من هذه الناحية ، ولكن الكلمة حكمة لا شريعة ، وهى من قضاء الجاهلية ، فليس عليها أن تبيّن ما لم يعرفه العرب ولم يخلق بعد ، قال : « إذن فليست الكلمة مقصورة عن بيان ، متبلدة عن إحسان » .

* * *

هذا كل مقاله بحروفه بعد تخليصه من الركافة والحشو وما لا طائل تحته ، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا ، ولكننا نقدم بين يدى ذلك مسألة ، فمن أين للكاتب أن كلمة : « القتل أنفى للقتل » مما صحت نسبته إلى عرب الجاهلية ، وكيف له أن يثبت إسنادها إليهم وأن يؤثّقَ هذا الإسناد حتى يستقيم قوله : إن القرآن أقبل على آثار العرب ؟ . . .

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت من

الآية ، والتوليد بيّن فيها ، وأثر الصنعة ظاهر عليها ؛ فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية ؛ ولتد جاء أبو تمام بأبداع وأبلغ من هذه الكلمة في قوله :

وأخافكم كي تُغمدوا أسيافكم إن الدمَ المغْبِرَ يحرسُه الدَّمُ

(الدم يحرسه الدم) ، هذه هي الصناعة وهذه هي البلاغة لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشاعر مولدة من الآية ، يدل عليها البيت كله ؛ وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم : « القتل أنى للقتل » ، وأنا مستيقن أن الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذ * .

ولو أن متمثلاً أراد أن يتمثل بقول أبى تمام فانتزع منه هذا المثل « الدم يحرسه الدم » ، أ يكون حتمًا من الحتم أن يقال له : كلا يا هذا فإن البيت سبع كلمات فلا يصح انتزاع المثل منه ولا بد من قراءة البيت بمصراعيه كما يقول كاتب الكوكب في الآية الكريمة ليزعم أنها لا تقابل الكلمة العربية في الإيجاز ؟

إن الذى فى معانى الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم القتل أنى للقتل كلمتان ليس غير ، وهما « القصاص ، حياة » ؛ والمقابلة فى المعانى المماثلة إنما تكون بالألفاظ التى تؤدى هذه المعانى دون ما تعلقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ؛ إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا فى صناعة تركيبهما ، ويخيل إلى أن الكاتب يريد أن يقول إن باقى الآية الكريمة لغوٌ وحشو ، فهو حميلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد أن يقولها ، ولكنه غص بها ، وإلا فلماذا يلج فى أنه لا بد فى التمثيل ، أى لا بد فى المقابلة ، من رد الآية بألفاظها جميعاً ؟

فإذا قيل إنه لا يجوز أن يتغير الإعراب فى الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعا منها على التلاوة ، قلنا : فإن ما يقابل الكلمة منها حيثئذ هو هذا . « فى القصاص حياة » ، وجملتها اثنا عشر حرفاً ، مع أن الكلمة العربية أربعة عشر ؛ فالإيجاز عند المقابلة هو فى الآية دون الكلمة .

وأما قوله تعالى : « يا أولى الأبواب لعلمكم تنقون » ، فلو كان الكاتب من أولى الأبواب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها وأن إعجاز الآية لا يتم إلا بها ، إذ أريد أن تكون معجزة زمنية كما سنشير إليه ، ولكن أننى له وهو من الفن البياني على هذا البعد السحيق ، لا يعلم أن آيات القرآن الكريم كالزمن فى نسقها : ما فيه من شىء يظهره إلا ومن ورائه سر يحققه .

ثم إن الإيجاز فى الكلمة العربية ليس من « الإيجاز الساحر » كما يصفه الكاتب ، بل هو عندنا من الإيجاز الساقط ؛ وليس من قبيل إيجاز الآية الكريمة ولا يتعلق به فضلاً عن أن يشبهه ، إذ لا بد فى فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه ، فيكون المعنى « القتل أكثر نفيًا للقتل من كذا » ، فما هو هذا « الكذا » أيها الكاتب المتعثر ؟

أليس تصور معنى العبارة وإحضاره فى الذهن قد أسقطها ونزل بها إلى الكلام السوقى المبتذل وأوقع فيها الاختلال ؟ وهل كانت إلا صناعة شعرية خيالية ملفقة كما أومأنا إلى ذلك آنفًا ، حتى إذا أجريتها على منهجها من العربية رأيتها فى طريقة هذا الكلام العربى الأمريكانى كقول القائل : « الفرح أعظم من الترح » ، « الحياة هى التى تعطى للحياة » . . . ؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التى زعمها الكاتب لتلك الكلمة ، وإن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة فضلاً عن ثلاث .

ولنفرض « فرضاً » أن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم ، فما الذى فيها ؟

١ — إنها تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك لم يقتلك . وهل هذا إلا هذا ؟

وهل هو إلا بلاغة من الهذيان ؟

٢ — إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام ، لا يخرج لشأنه إلا مفرراً فى نفسه أنه إما قاتل أو مقتول ، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها ، فهو من أشنع التكرار وأفظعه .

٣ - إن فيها الجهل والظلم والهمجية ، إذ كان من شأن العرب ألا تُسلم القبيلة العزيزة قاتلاً منها ، بل تحميه وتمنعه ، فتقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية ؛ فمن ثم لا يسنّى عارَ القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلاً قتلاً وأكل الحياة للحياة ، فهذا من معاني الكلمة : أى القتل أننى لعار القتل ، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب .

٤ - إن القتل فى هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجىء مقترناً بها ، فهو مفتقر إليها فى هذا المعنى ، وهى تُلبسه الإنسانية كما ترى ، ولن يدخله العقل إلا من معانيها ؛ وهذا وحده إعجاز فى الآية وعجز من الكلمة .

* * *

وقبل أن نبين وجوه الإعجاز فى الآية الكريمة ونستخرج أسرارها ، نقول لهذا الطفيلى : إنه ليس كل من استطاع أن يُطير فى الجو ورقة فى قصبة فى خيط - جاز له أن يقول فى تفضيل ورقته على منطاد زبلين ، وأن فيما تتقدم به على المنطاد الكريم ميزات ثلاثاً : الذيل ، والورق الملون ، والخيط . . .

يقول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » .

١ - بدأ الآية بقوله (ولكم) ، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التى تطلب كمالها فى الإيمان ، وتلتبس فى كمالها بنظام النفس ، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة ؛ فإذا لم يكن هذا متحققاً فى الناس فلا حياة فى القصاص ، بل تصلح حينئذ كلمة الهمجية : القتل أننى للقتل ، أى اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً ، فهذا هو الذى يبقىكم أحياء وينى عنكم القتل ؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية ، لتوجه هذه الإنسانية فى بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة .

٢ - قال : « فى القصاص » ولم يقل فى القتل ، فقيده بهذه الصيغة التى تدل على أنه جزاء ومؤاخذه ، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان ، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قلّ أو كثر .

٣ - نفيد هذه الكلمة « القصاص » بصيغتها (صيغة المفاعلة) ما يشعر بوجوب

التحقيق وتمكين القتاتل من المنازعة والدفاع ، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ؛ ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع أنها أكثر استعمالاً ، لأن الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع .

٤ - من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله تعالى سمي بها قَتْلُ القتاتل ، فلم يسمه قَتِلاً كما فعلت الكلمة العربية ، لأن أحد القتاتلين هو جريمة واعتداء ، فنزه سبحانه العدل الشرعى حتى عن شبهة بلفظ الجريمة ؛ وهذا منتهى السمو الأدبى فى التعبير .

٥ - ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتى فى عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القتاتل بجنائته إلا شراً من قتل المقتول ؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة ، على حين أن أخذ القتاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله ؛ فعبرت الآية باللغة التى تلائم هذا العصر القانونى الفاسق ، وجاءت بالكلمة التى لن تجد فى هذه اللغة ما يجزئ عنها فى الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة .

٦ - ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه ، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التى مرت بك ؛ فهى بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة ، فى حين أن كلمة القتل فى المثل العربى تنطق فى صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأفصح معانيها ؛ ولذلك كان تكرارها فى المثل كتكرار الغلطة ؛ فالآية بلفظة (القصاص) تضعك أمام الألوهية بعدها وكذا ، والمثل بلفظة (القتل) يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ - ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هى تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة ، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرها ؛ أما المثل فايس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس .

٨ - جاءت لفظة القصاص معرّفة بأداة التعريف ، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة ؛ إذ هو فى الحقيقة قوة من قوى التدمير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها

٩ - جاءت كلمة (حياة) منوثة ، لتدل على أن ههنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معين ؛ فقد يكون فى القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة سياسية ، وقد تكون الحياة أدبية ، وقد تعظم فى بعض الأحوال عن أن تكون حياة .

١٠ - إن لفظ (حياة) هو فى حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنى القتل) ، لأن نفى القتل إنما هو حياة واحدة ، أى ترك الروح فى الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعانى السامية ، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعى الساذج ؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنى القتل) تعبير غليظ عامى يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير ، كالذى يقول لك : إن الحرارة هى نفى البرودة .

١١ - جعلُ نتيجة القتل حياةً تعبيرٌ من أعجب ما فى الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالاً ، بل يتحول إلى تعبير علمى يسمو إلى الغاية من الدقة ، كأنه يقول بلسان العلم : فى نوعٍ من سلب الحياة نوعٌ من إيجاب الحياة .

١٢ - فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله : « يا أولى الألباب » ، فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه ، إذ هو موجّه للعرب فى ظاهره على قدر ما بلغوا من معانى اللب ، ولكنه فى حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع ، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً فى التركيب العصبى ، أو وراثه محتومة ، أو حالة نفسية قاهرة ، إلى ما يجرى هذا المجرى ؛ فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة ، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى ؛ وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب ، وهى تحول القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقوبتهم ، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأى ، بل هى قبل ذلك باللب والبصيرة ، وفلسفة اللب هذه هى آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا .

١٣ - وانتهت الآية بقوله تعالى : « لعلكم تتقون » ، وهى كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها فى زمننا نحن : يا أولى الألباب ، إنه برهان الحياة فى حكمة

القصاص تسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد .

* * *

وبعد فإذا كان في الآية الكريمة — على ما رأيت — ثلاثة عشر وجهًا من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة .

* * *

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعد أن نشرت مقالة (الكلمة المؤمنة) في (البلاغ)، كتب الأديب الفلسطيني الأستاذ إسعاف النشاشيبي: إن هذه الكلمة مترجمة عن الفارسية، وقد نقلها الثعالبي في كتابه (الإيجاز والإعجاز)، فنشرنا في البلاغ هذا التعليق:

* * *

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي في كلمته للبلاغ إن عبارة «القتل أنفى للقتل»، ليست بعربية ولا مولدة، بل هي مترجمة؛ أى فهي مطموسة الوجه من كونها أعجمية وقع الخطأ في نقلها إلى العربية، فكانت غلطة من جهتين.

ولأنه ليسرنى أن تكون فوق ذلك زنجية نقلت إلى المالطية، ثم ترجمت إلى العربية، فتكون غلطة من أربع جهات، لا من جهتين فقط... ولكن هذه الكلمة لم يشر إلى أصلها غير (الثعالبي)، وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأى، بل أشار إلى ترجمتها في صيغة من صيغ التمريض المعروفة عند الرواة فقال: «يحكى أن فيما ترجم عن أزدشير...» و (يحكى) هذه ليست نصاً في باب الرواية، وقد يكون هذا الإمام اتقى الله فابتعد بالكلمة وطوح بها إلى ما وراء بلاد العرب، أو تكون الكلمة أُلقيت إليه على أنها مشتبه في نسبتها؛ ولو كانت العبارة مترجمة لتناقلها الأئمة معزوة إلى قائلها أو لغتها التي قيات فيها.

ولقد ذكرها العسكري في كتابه (الصناعتين) على أنها (من قولهم)، أى العرب أو المولدين؛ ونقلها الرازى في تفسيره، فقال: إن للعرب في هذا المعنى كلمات منها «قتل البعض لإحياء للجميع»، وأحسنها «القتل أنفى للقتل»؛ وكذلك جاء بها ابن الأثير في كتاب «المثل السائر» ولم يعزها؛ وقال مفسر الأندلس أبو حيان في تفسيره: إنها تروى برواية أخرى وهي: «القتل أوقى للقتل»، وكل ذلك صريح في أن خبر الترجمة قد انفرد به الثعالبي.

ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسي ، فإن كان علم ذلك عند أحد فليتفضل به مشكوراً مأجوراً .

(تنبيه) : نشرنا هذه الكلمة ومضت بعدها سنوات ولم يقف أحد على أن للعبارة أصلاً فارسياً ، فلم يبق عندنا ريب أنها من صنيع بعض الزناذقة وقد ولّدها من الآية الكريمة ليُسْجَرِيَهَا في مجرى المعارضة ؛ وقد كتب الأستاذ الكبير عبد القادر حمزة صاحب جريدة (البلاغ) أن تلك العبارة حكمة مصرية قدمة ؛ ولا نمنع أن يكون هذا ، فإن بعض الحكّام مما تَتَوَارَدُ عليه العقول الإنسانية النابغة ؛ إذ كانت الطبيعة البشرية كأنها تُمَلِّيه ؛ غير أن العبارة ليست في كلام الجاهلية القديمة ولا الحديثة ، وألفاظ المصرية غير ألفاظ العربية ، فلم يبق إلا توارد الخواطر ، والله أعلم .

القتل أننى للقتل

ليست جاهلية

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديب فى البلاغ أن الكلمة جاهلية ،
فتعقبناه بهذا التعليق :

* * *

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهري فيما نشره فى البلاغ أن هذه الكلمة
عربية فى دعواه ، واحتج لذلك بحجج ، أقواها زعمه : « أنها وردت بين ثنايا
عهد القضاء الذى بعث به سيدنا عمر إلى أبى موسى الأشعرى ؛ ولا ندرى أين
وجد الكاتب كلمة : « القتل » ، فضلاً عن : « القتل أننى للقتل » - فى ذلك
العهد المشهور المحفوظ ، وقد رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ، وجاء به المبرد فى
الكامل ؛ ونقله ابن قتيبة فى عيون الأخبار . وأورده ابن عبد ربه فى العقد
الفريد ، وساقه القاضى الباقلانى فى الإعجاز ؛ وفى كل هذه الروايات الموثقة
لم تأت الكلمة فى قول عمر ، بل لا محل لها فى سياقه ، وإنما جاء قوله :
« فإن أحضر بينة أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أننى
للك » .

أما سائر حجج الكاتب فلا وزن لها فى باب الرواية التاريخية وقد أصبح
عاليها سافلها كما رأيت .

والذى أنا واثق منه أن الكلمة لم تعرف فى العربية إلى أواخر القرن الثالث من
الهجرة ، وهذا الإمام الجاحظ يقول فى موضع من كتابه (البيان والتبيين) ، فى شرح
قول على كرم الله وجهه : « بقية السيف أنمى عدداً وأكثر ولداً » ، ما نصه :
« ووجد الناس ذلك بالعيان للذى صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرء وكرم
النجل ؛ قال الله تبارك وتعالى : " ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب " وقال بعض
الحكماء : « قتل البعض لإحياء للجميع » .

ولم يزد الجاحظ على هذا ، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاتته كما هو

صنيعه في كتبه* ، خصوصاً وهي أوجز وأعذب مما نسب له بعض الحكماء ؛ وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض . . .) هي التي زعم الرازي في تفسيره أنها للعرب . . . فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء البلاغة ، وإنما الشأن للتحقيق التاريخي .

ونص الجاحظ في كتاب « حجج النبوة » على أن قومًا منهم ابن أبي العوجاء ، وإسحاق بن الوت ، والنعمان بن المنذر : « وأشباههم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلاً ، وبالإيمان كفرًا ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويبثونها في الأمصار ، ويطعنون بها على القرآن » ؛ فهذا عندنا من ذلك .

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن الكلمة مترجمة عن الفاسية بظهور أصلها في تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الإسلام ، فهي ولا ريب مما وضع على طريقة ابن الراوندي الزنديق الملحد الذي كان في منتصف القرن الثالث وألف في الطعن على القرآن وقال في كتابه : « الزمردة » : « إنا نجد في كلام أئمتكم ابن صيني شيئاً أحسن من — إنا أعطيناك الكوثر — » ، فكان واضح الكلمة يقول على هذه الطريقة : « إنا نجد في كلام العرب شيئاً أبلغ من — ولكم في القصاص حياة — » .

وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم إنما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل الزيغ والضعفاء في العلم — سبيلاً إلى القول في نقض الإعجاز ، ومساغماً إلى التهمة ، في أن القرآن تنزيل ؛ والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان إلى معنى الكفر في الدين ،

* أورد الجاحظ الآية الكريمة في الجزء الثاني من كتابه (الحيوان) صفحة ٣١ ثم قال : إلى هذا المعنى يرجع قول الحكم الأول : بمض القتل إحياء للجميع . وهذا إلى ما تقدم هو نص على أن الجاحظ لم يسمع هذه الكلمة ولم يعرفها ، وقد توفي الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ، وألف كتابه (الحيوان) في آخر عمره وهو مفلوج ، فلم تكن الكلمة معروفة إلى ذلك العهد ، لاقى الرواية ولا في الترجمة ، مع انتهاء زمن الرواية واستحجار الترجمة عن الفارسية .

وذلك ما يرمون إليه ؛ وهذه بعينها هى طريقة المبشرين اليوم ، فكأن إبليس من عهد أولئك الزنادقة إلى عهد المبشرين لم يستطع أن يتغير ، ولا أن يكون . . . أن يكون مجدداً . . .

* * *

تم الجزء الثالث من وحى القلم
وبه تم الكتاب

فهرس الجزء الثالث من وحى القلم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٦٣	شيطان وشيطانة	٥	السمو الروحي الأعظم
١٧٠	نهضة الأقطار العربية	٢٨	قرآن الفجر
١٧٦	لا تجنى الصحافة على الأدب	٣٢	اللغة والدين والعادات
١٨٤	صعاليك الصحافة	٤٥	الأسد
١٨٩ (٢)	» »	٥٢	أمراء للبيع
١٩٤ (٣)	» »	٥٩	العجوزان
٢٠٠ (تتمة)	» »	٦٥ (٢)	»
٢٠٦	أبوحنيفة ولكن بغير فقه	٧١ (٣)	»
٢١١	الأدب والأديب	٧٧ (تتمة)	»
٢٢١	سر النبوغ في الأدب	٨٥	السطر الأخير من القصة
٢٣٥	نقد الشعر وفلسفته	٩٣	عاصفة القدر
٢٤٧	فيلسوف وفلاسفة	١٠٤	القلب المسكين
٢٥١	شيطاني وشيطان طاغور	١٠٩ (٢)	» »
٢٥٧	فلسفة القصة	١١٤ (٣)	» »
٢٧١	حافظ إبراهيم	١١٩ (٤)	» »
٢٨٦	كلمات عن حافظ	١٢٤ (٥)	» »
٢٩٥	شوقي	١٢٩ (٦)	» »
٣١٣	بعد شوقي	١٣٥ (٧)	» »
٣٣٢	صروف اللغوى	١٤٠ (٨)	» »
٣٤٢	الشيخ الخضرى	١٤٨ (تتمة)	» »
	رأى جديده فى كتب الأدب	١٥٤	انتصار الحب
٣٤٨	القديمه	١٥٨	قنبلة البارود لا بالماء المقطر

الصفحة	الموضوع
٣٨٢	أبو تمام الشاعر
٣٨٨	القديم والحديد
٣٩٣	المرأة والميراث
٣٩٧	كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة
٤٠٧	القتل أنفى للقتل ليست مترجمة
٤٠٩	القتل أنفى للقتل ليست جاهلية

الصفحة	الموضوع
٣٥٥	أمير الشعر في العصر القديم
٣٦٠	البؤساء
٣٦٣	الملاح التائه
٣٦٩	المقتطف والمتنبى
٣٧٢	محمد : لتوفيق الحكيم
٣٧٤	ديوان الأعشاب
٣٧٩	النجاح وكتاب سر النجاح

هَذَا الْكِتَابُ

آخِرُ كِتَابٍ أَنْشَأَهُ الرَّافِعِيُّ،
لَكِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْرَأَ لَهُ .. كِتَابٌ
بِجَمِّعِ كُلِّ خَصَائِصِ الرَّافِعِيِّ الْأَدَبِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ
وَالنَّفْسِيَّةِ مُمَيَّزَةً بِوُضُوحٍ فِي أَسْلُوبِهِ وَمَوَاضِعِهِ
فَفِيهِ خُلُقُهُ، وَفِيهِ شَبَابُهُ وَعَاطِفَتُهُ، وَفِيهِ تَرْمِثُهُ
وَوَقَارُهُ، وَفِيهِ غَضَبُهُ وَسَخَطُهُ. وَفِيهِ فَكَاهَتُهُ
وَمَرَحُهُ .. فِي مَجْمُوعَةِ فُصُولٍ وَمَقَالَاتٍ وَقِصَصٍ
مِنْ وَحْيِ قَلَمِهِ وَفَيْضِ خَاطِرِهِ، فِيهَا رَوْعَةُ الْفَنِّ،
وَسَمُو الْفِكْرِ، وَاعْجَازُ الْبَيَانِ.
وَالرَّافِعِيُّ غَنِيٌّ عَنِ التَّعْرِيفِ .. إِنَّهُ الْأَدِيبُ الْحَقُّ،
أَدِيبُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُسَامَةِ الْمَعْتَبَرِ بِلِسَانِهَا
وَالنَّاطِقِ عَنْ ذَاتِ نَفْسِهَا .. وَمَنْ شَاءَ
أَنْ يَزِدَّادَ بِالرَّافِعِيِّ مَعْرِفَةً حَقَّقَةً ..
فَلْيُقْرَأْ هَذَا الْكِتَابُ.

النَّاسِ

